ترجمان

إ. م. سميليانسكايا - م. ب. فيليجيف - ي. ب. سميليانسكايا

# روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط

## حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل

ترجمة: محمد موسى دياب - جمال كمال القرى



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

روسيا
في البحر الأبيض المتوسِّط

# روسيا
# في البحر الأبيض المتوسِّط
## حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل

## هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

# روسيا
# في البحر الأبيض المتوسِّط
## حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل

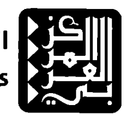

إ. م. سميليانسكايا
م. ب. فيليجيف
ي. ب. سميليانسكايا

بإشراف
إ. م. سميليانسكايا

ترجمة
محمد موسى دياب
جمال كمال القرى

مراجعة
بسام مقداد






المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

**الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات**

سميليانسكايا، إ. م.

روسيا في البحر الأبيض المتوسط: حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل/ إ. م. سميليانسكايا، م. ب. فيليجيف، ي. ب. سميليانسكايا؛ بإشراف إ. م. سميليانسكايا؛ ترجمة محمد موسى دياب، جمال كمال القرى؛ مراجعة بسام مقداد.

1024 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على بيليوغرافية (ص. 929-1002) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-403-9

1. روسيا - العلاقات الخارجية - دول حوض البحر الأبيض المتوسط. 2. دول حوض البحر الأبيض المتوسط - العلاقات الخارجية - روسيا. أ.فيليجيف، م. ب. ب. سميليانسكايا، ي. ب. ج. دياب، محمد موسى. د. القرى، جمال كمال. هـ. مقداد، بسام. و. العنوان. ز. السلسلة.

327.4701822

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من المؤلف لكتاب

**Россия в Средиземноморье**
**Архипелагская экспедиция Екатерины Великой**

*by Смилянская И.М., Велижев М.Б., Смилянская Е.Б.*

عن دار النشر

МОСКВА «ИНДРИК» 2011



الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org



الطبعة الأولى

بيروت، أيلول/ سبتمبر 2021

# المحتويات

## القسم الثاني
## الروس في حوض البحر المتوسط

## القسم الثالث
## الحرب الكلامية



## موضوعات ذات صلة

## مقدِّمة الطبعة العربيَّة
## روسيا في حوض البحر المتوسِّط إبَّان القرن الثَّامن عشر: عمليَّة عسكريَّة ذاتُ تداعياتٍ بَعِيدةِ المَدَى

أصبحت الحرب في سورية والقاعدة الروسيَّة على شاطئ البحر المتوسِّط السوري في القرن الحادي والعشرين، مادة ساخنة في السياسة المعاصرة، ما جعل مسألة تقويم الأعمال الروسيَّة التاريخي في هذه المنطقة أكثر إلحاحًا. لكنْ، إذا كان الوضع العسكريُّ الراهن في شرق البحر المتوسِّط لا يزال موضع نقاش بين علماء السياسة والخبراء العسكريِّين بالدرجة الأولى، فإنَّ تحليل جذور الوجود الروسي في هذه المنطقة يسمح بإدراك الأسباب التي جعلت التوجُّه نحو البحر المتوسِّط يحتلُّ موقعًا مركزيًّا في السياسة الخارجيَّة الروسيَّة منذ 250 عامًا.

من المعروف أنَّ السفن الحربيَّة الروسيَّة أخذت تجوب مياه شرق حوض البحر المتوسِّط منذ عام 1770، ولقي خروجها من البلطيق وعبورها نحو أوروبا صدى دوليًّا واسعًا آنذاك. وبعد انتصار شيسما في عام 1770، أقسمت نحو ثلاثين جزيرة في بحر إيجة يمين الولاء للإمبراطورة طالبةً الجنسيَّة الروسيَّة، وعُرض على اليونانيِّين حينذاك إنشاء كونفدراليَّة لجزرهم، تتمتَّع بالاستقلال عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، أول مرة في العصر الحديث، وتكون تحت رعاية الإمبراطوريَّة الروسيَّة. وقد بنت روسيا قاعدتها البحريَّة في جزيرة باروس، واستطاع الأسطول الروسي فرض رقابته على تجارة أوروبا المشرقيَّة. أمَّا قيادة

الحملة (وبالدرجة الأولى الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف والأميرال غريغوري أندريفيتش سبيريدوف) فلم تدخل في مفاوضات وعلاقات تحالفيَّة مع إخوة الدين اليونانيِّين والسلافيِّين وحسب، بل كذلك مع حاكمَين عربيَّين في الشرق الأوسط هما: علي بِكْ والشَّيخ ظاهر العُمَر. واستولت السُّفن الروسيَّة وعمارة القباطنة اليونانيِّين العاملين تحت القيادة الروسيَّة على بيروت مرَّتين. بيد أنَّ تدخُّل الدول الأوروبيَّة والمشكلات الداخليَّة، لم تسمح للإمبراطوريَّة الروسيَّة بترسيخ نجاحاتها فترةً طويلة. وبعد إبرام معاهدة كوتشوك - كاينارجي مع الأتراك في عام 1774، تخلَّى الأسطول الروسي عن رعايا الإمبراطورة في بحر إيجة، وعن الحليفين العربيَّين في الشرق الأوسط[1].

في غضون ذلك، ظلَّت عمائر أسطول الإمبراطوريَّة الحربي تجوب البحر المتوسِّط، وأتاحت شبكة القنصليَّات الروسيَّة الواسعة في منطقة المتوسِّط تمثيل مصالح روسيا وتقديم الحماية لرعاياها ولإخوة الدين الأرثوذكس. وقد تركت تجربة حملة الأرخبيل الأولى أثرها على مضمون ما يُسمَّى «مشروع» كاترينا الثانية «اليوناني» (1782)، وعلى نشاط فيودور ف. أوشاكوف في منطقة البحر الأدرياتيكي وشرق البحر المتوسِّط إبَّان فترة 1798-1800، وعلى مهمَّات حملة الأرخبيل الثانية بقيادة ديمتري ن. سينيافين خلال فترة 1805-1807. وهذا ما أقنع نيقولاي الأوَّل، حفيد الإمبراطورة كاترينا الثانية، بأنَّ روسيا «القويَّة... ينبغي أن يكون لها نفوذها في الشرق كلِّه»، وأن يكون لها الحقُّ في التدخُّل في نزاعات المسيحيِّين الدينيَّة في الشرق الأوسط، والتأثير في الوضع السياسي في منطقة شرق البحر المتوسِّط برُمَّته[2].

---

(1) لمزيد من التفصيل، يُنظر: И. М. Смилянская, М. Б. Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье. Архипелагская экспедиция Екатерины Великой* (М.: Индрик, 2011) (далее: Россия в Средиземноморье).

**[إ. م. سميليانسكايا، م. ب. فيليجيف وي. ب. سميليانسكايا، روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط، حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل** (موسكو: إندريك، 2011) (**روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط، لاحقًا**)].

(2) لمزيد من التفصيل، يُنظر: И. М. Смилянская, Н. М. Горбунова & М. М. Якушев, *Сирия накануне и в период Младотурецкой революции. По материалам консульских донесений* (М., 2015), с. 66-68 и др.

ما الذي يجعلنا نتحدَّث عن الاهتمام الخاص بحوض المتوسِّط في التاريخ الروسي، ولماذا من المفيد دراسة مشروعٍ عسكريٍّ يعود إلى القرن الثامن عشر؟

نستخدم في الكتاب الذي نقدِّمه إلى القارئ العربي موادَّ حملة روسيا الأولى في شرق البحر المتوسِّط، من أجل الإجابة عن الأسئلة الآتية: 1) ما هي أسباب اهتمام روسيا بتأكيد حضورها في هذه المنطقة؟ 2) من هم الذين وجدت فيهم روسيا سندًا وحليفًا؟ 3) كيف شُرحت أسباب التدخُّل الروسي في شؤون منطقةٍ بعيدةٍ إلى هذا الحدِّ من حدود الإمبراطوريَّة، أمام الرأي العامِّ الروسي والأوروبي؟ كما كان من المهمِّ بالنسبة إلينا أيضًا الإشارة إلى إمكانات الدراسات المقارنة لأعمال روسيا العسكريَّة في حوض المتوسِّط، التي لم تلقَ الاهتمام الكافي في الدراسات التاريخيَّة حتَّى الآن.

لم تكن الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية (امتدت فترة حكمها من عام 1762 حتَّى عام 1796) أوَّل حاكمٍ روسيٍّ يعمل على إقامة منطقة نفوذ، عندما خطَّطت لدخول أسطولها البحرَ المتوسِّط. ففي مطلع القرن الثامن عشر، خطَّط بطرس الأول لدخول البلقان بدعم من سكَّانه الأرثوذكس من اليونانيِّين والسلافيِّين، بيد أنَّ حملته باءت بالفشل في عام 1711؛ وبذا، تكون كاترينا قد عملت على إحياء فكرة سلفها العظيم على العرش الروسي. ولم يكن النجاح التكتيكيُّ الذي حقَّقته في حرب عام 1768 مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وحده المهمَّ بالنسبة إليها؛ بل إنَّها كانت تنظر إلى الحضور العسكريِّ في حوض البحر المتوسِّط، بوصفه جزءًا لا يتجزَّأ من **السياسة الكبرى التي يمكن أن تنهجها دولةٌ عظمى** كالإمبراطوريَّة الروسيَّة. فقد كانت تلك المنطقة عصرَذاك «مركزًا للعالم»، تتقاطع فيه أهمُّ المصالح التجاريَّة والسياسيَّة. ولذا، فإنَّ غياب روسيا عن هذا المركز كان سيحكم عليها بالبقاء مجرَّد إمبراطوريَّة طرفيَّة.

تمكَّنت روسيا من الإخلال بموازين القوى القائمة في منطقة البحر المتوسِّط

---

= [إ. م. سميليانسكايا، ن. م. غوربونوفا وم. إ. ياكوشيف، **سورية عشيَّة ثورة تركيا الفتاة وأثناءها** (موسكو، 2015)، ص 66–68 وغيرها].

بفضل النجاحات التي حقَّقتها ضد الأسطول التركي في عام 1770، والإعلان عن تطلُّعها إلى الحصول على حصَّتها من «الكعكة المتوسطيّة»، وترسيخ أقدامها فترةٍ طويلةٍ هناك، وإشهار وضعها الجديد بوصفها قوّةً عظمى بحريَّة.

لكنْ، ما هي **الدعامة** التي عوَّلت كاترينا عليها في تلك المنطقة؟ لقد وُجِدَ حلٌّ هذه المسألة قبل الحرب بفترة طويلة؛ ذلك أنّ بطرسبورغ راهنت على سكَّان البلقان الأرثوذكس، ولا سيَّما اليونانيِّين الذين أكَّد ممثِّلوهم لإخوة الدين الرُّوس مرارًا استعدادهم الانتفاض على الحكم التركي، بدعمٍ من السِّلاح الروسي. بيد أنَّ التعاون العسكري الفعلي لم يتحقَّق مع فصائل اليونانيِّين في بيلوبونيز، التي وصلت إليها أول عمارتين بحريَّتين روسيَّتين. فقد لام اليونانيون الرُّوسَ لأنَّهم لم يقدِّموا لهم الدعم الكافي بالسلاح والرجال، فيما اعتبر الرُّوس أنَّ اليونانيِّين خيَّبوا الآمال المعلَّقة عليهم.

في غضون ذلك، باشر الرُّوس العمل على إقامة كيانٍ دولتيٍّ جديدٍ في ما سُمِّيَ «إمارة الأرخبيل» (تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الخامس من هذا الكتاب)، بعد أن سيطروا على جزر الأرخبيل، إثر هزيمة الأسطول التركي في شيسما، وأصبحوا واثقين من قواهم الذاتيَّة بمعزلٍ عن دعمٍ ينالونه من اليونانيِّين.

لا يمكن تقويم أهميَّة تجربة إقامة كيانٍ دولتيٍّ يونانيٍّ في العصر الحديث إلا في سياق المشروعات المماثلة لبناء الدولة في عصر التنوير، وانطلاقًا من فهم ثقافة العصر السياسيَّة. فقد كانت الأنظمة الروسيَّة المُعتمَدة في بناء الدولة هي النموذج الأفضل بالنسبة إلى اليونانيِّين في نظر الرُّوس، بينما اعتبرها الأوروبيُّون الغربيُّون أنظمةً مستبدَّةً **ومتخلِّفةً** جدًّا؛ فضلًا عن أنَّ اليونانيِّين أنفسهم لم يكونوا مستعدِّين لكسر أُسُس الإدارة الذاتيَّة البطريركيَّة المتشكِّلة في ظلِّ العثمانيِّين، واعتقدوا فحسب بضرورة استبدال «السيِّد» المختلفُ دينُهُ بسيِّد آخر، أرثوذكسيٍّ «أخٍ في الدين». وفي المحصِّلة، باءت تجربة التعاون الأولى في هذا المجال بالفَشل.

بدا التَّبايُن في الثقافات السياسيَّة والتوقُّعات من العلاقات التحالفيَّة، أكثر وضوحًا في علاقات الرُّوس مع الحكَّام العرب **المختلفين في الدين**،

خلال سبعينيَّات القرن الثامن عشر. فقد ظهر الاهتمام بمصر وسوريا، أو بالأحرى باستخدام الأمزجة المُعادِيَة للعثمانيِّين لدى حاكمي هذين البلدين، عندما صار الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط (سيتعرَّف القارئ إلى هذه العلاقات في الفصل الثامن من الكتاب). فقد برز في بطرسبورغ الاهتمام بإمكان التحالف مع الحاكمَيْن العربيَّين المتمرِّدَيْن، حينما وصلت الأنباء الأولى عن نجاحات حاكم مصر علي بك بإعلانه استقلال مصر عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وفي عام 1770، كانت مسألة التعاون مع علي بك موضعَ نقاشٍ حيويّ في المراسلات بين كاترينا وفولتير، وابتداءً من خريف عام 1771 بدأ قائد حملة الأرخبيل الروسيَّة ألكسي أورلوف إقامة اتِّصالات حذرة مع علي بك. وفي ربيع عام 1772، وصل أوَّل المفاوضين الروس إلى الشواطئ المصريَّة، وهو الكونت إيفان فوينوفيتش المقرَّب من أورلوف، برفقة «عمارة بحريَّة يونانيَّة» غير كبيرة، تمكَّنت من طرد القوات التركيَّة والاستيلاء على بيروت من دون عناء، بدعمٍ من علي بك وحليفه الشيخ ظاهر العمر. وفي أيلول/ سبتمبر 1772 أُوفِدَ مستشارون عسكريُّون روس لمساعدة علي بك وظاهر العمر، اللذين كانا يحاصران يافا. على أنَّ الدعم العسكري الذي انتظره الحاكمان العربيَّان حينذاك لم يصل. ففي عام 1773 فقط، بعد هزيمة علي بك ومقتله، وصلت عمارتان بحريَّتان روسيَّتان صغيرتان، واستولتا على بيروت مرَّةً أخرى، بل تلقَّتا رسالتين من زعيم الدروز الأمير يوسف الشهابيِّ والشيخ ظاهر العمر يطلبان فيها الانضواء تحت كنف «تابعيَّة» كاترينا الثانية.

كما كان الأمر مع يونانيِّي الأرخبيل، كانت **رعاية** إمبراطورة روسيا و**قسم الولاء** لها في هذه الحال، بل حتَّى الانضواء في **التابعيَّة** الروسيَّة، مجرَّد شكلٍ من أشكال التعبير عن التعاون مع القيادة الروسيَّة؛ إذ سادت العلاقات الشخصيَّة - التبعيَّة أو الزبائنيَّة - في المنظومة السياسيَّة بالمنطقة، أما مفاهيم «قسم الولاء» و«الرعاية» و«التابعيَّة» التي أكَّدت هذا التعاون، فلم تكن - بالنسبة إلى المشرقيِّين - تنطوي على مغزى سياسيّ - قانونيٍّ، على النحو الذي يحدِّده القانون الدولي المعاصر، بقدر ما كانت ذاتَ معنى تمثيليٍّ - حمائيٍّ، على غرار اختيار التابع لسيِّده.

على هذه الشَّاكلة، دلَّ تعاون العسكريِّين الرُّوس مع العرب خلال فترة 1772-1774 بصورة جليَّة على **الفوارق في الثقافات السياسيَّة والاستراتيجيَّات العسكريَّة**، وكذلك **على المبالغة في توقُّعات الشركاء**، على غرار ما كان الأمر عليه مع اليونانيِّين. فخيبة الأمل باليونانيِّين - الذين بَدَوْا بالنسبة إلى الإمبراطورة والدائرة المتنوِّرة المحيطة بها، لا يشبهون الإسبارطيِّين القدامى بشيءٍ - جعلتها تناقش خطط تحرير البلقان والأرخبيل من الأتراك مع الملوك الأوروبيِّين، أكثر ممَّا ناقشتها مع اليونانيِّين. ونعتقد أنَّ تجربة العلاقات مع الحاكمين العربيَّين المتمرِّديْن استُخدِمت على نطاقٍ ضيقٍ جدًّا أيضًا، وقد أدَّى إهمال هذه التجربة إلى دفع كلفة باهظة في ما بعد، عند التخطيط للقيام بعمليَّات جديدة تهدف إلى ترسيخ النُّفوذ الروسي في المنطقة.

إنَّ المسافة الطويلة التي تفصل شرق البحر المتوسِّط عن الحدود الروسيَّة، وعدم وضوح أسباب الدخول الروسي إلى هذه المنطقة وأهدافها بالنسبة إلى المواطن العادي، استوجبت دائمًا الشروع بالحرب الكلاميَّة والقيام بأنشطة دعائيَّة، مع الاستعراض الرمزيِّ «لرسالة روسيا التحريريَّة» ضد «البرابرة»، بالتزامن مع اندلاع الأعمال القتاليَّة. ويتناول الفصلان التاسع والعاشر كيفيَّة خوض هذه الحرب الكلاميَّة في القرن الثامن عشر.

بالفعل، استخدمت الإمبراطوريَّة الروسيَّة كلَّ وسائل الإعلام المتاحة في عصرها، من أجل الإبلاغ عن رسالتها العادلة. من بين هذه الوسائل: الصحافة الروسيَّة والأجنبيَّة، العظات الكنسيَّة، احتفالات النصر والهدايا الثمينة. وكان سلاح الاحتفالات الدعائيُّ موجَّهًا إبَّان الحرب إلى جمهور واسعٍ جدًّا، ليس في روسيا فحسب، بل في الخارج أيضًا. وكانت مهمَّةً بصورة خاصَّة تلك الاحتفالات التي نظَّمها ألكسي أورلوف في بيزا (حيث كان حاضرًا مع هيئة أركانه فترةً طويلة) وفي ليفورنو (حيث كانت ترسو السُّفن العسكريَّة الروسيَّة)، وفي بورت ماغون في جزيرة مينوركا في الأرخبيل نفسه[3] (حيث كانت ترسو

---

(3) Е. Б. Смилянская, «Символическое значение «русских праздников» в Средиземноморье в 1770-е годы,» in: *Е. Р. Дашкова и XVIII век: Традиции и новые подходы* (М., 2012), с. 164-172.

سفن الأسطول الروسي أيضًا). وحتَّى في بيروت، ظلَّت الحامية الصغيرة تُظهر ولاءها للإمبراطوريَّة الروسيَّة، فكانت ترفع العلم الروسي في أيام الآحاد والأعياد على أبراج القلعة طوال سنة ونصف السنة ابتداءً من عام 1774.

واصلت روسيا تقديم الهدايا السخيَّة إلى رجال الدين الأرثوذكس في البلقان والأرخبيل والأراضي المقدَّسة، ثم دعَّمت هذه الهدايا في ما بعد بإنشاء بعثاتها الدبلوماسيَّة والكنسيَّة هناك[4].

باختصار، نقترح على القارئ عند قراءة هذا الكتاب - الذي يتناول أحداث مئتين وخمسين عامًا مضت - أن يقوم بنفسه بعقد المقارنة بين تلك الأحداث وأعمال روسيا الأخرى في شرق البحر المتوسِّط إبَّان القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، حتَّى إبَّان القرن الحادي والعشرين. وبالفعل، ليس من الصعب تلمُّس التشابه، ليس في خطط السياسيِّين والعسكريِّين خلال عصور مختلفة، بل رؤية التذمُّر بشأن الآمال المتبدِّدة والاتهامات بحقِّ الحلفاء الدينيِّين والفكريِّين المتقلِّبين. وعلى الرغم من أنَّ المؤلِّفين بعيدون عن عقد مقارنة مباشرة، لا تراعي السِّياق التاريخي بين العمليَّات الروسيَّة في عصور مختلفة، فإنَّ تحليل جذور سياسة روسيا المتوسطيَّة يُتيح الكشف عن عدد من الجوانب المُهمَلة في دراسة النزاعات اللاحقة بالمشرق. ومن المهمِّ إيلاء الأمور الآتية الاهتمام في المقارنة الاستعاديَّة:

---

= [ي. ب. سميليانسكايا، «الأهميَّة الرمزيَّة لـ «الأعياد الروسيَّة» في منطقة البحر المتوسِّط في سبعينيات القرن الثامن عشر»، في: ي. ر. داشكوفا والقرن الثامن عشر: **التقاليد والمقاربات الجديدة** (موسكو، 2012)، ص 164-172].

(4) Н. Н. Лисовой, *Русское духовное и политическое присутствие в Святой Земле и на Ближнем Востоке в XIX - начале XX в* (М.: Индрик, 2006); М. И. Якушев, *Антиохийский и Иерусалимский патриархаты в политике Российской империи, 1830-е - начало XX века* (М.: Индрик, 2013); Смилянская, Горбунова & Якушев, *Сирия накануне и в период Младотурецкой революции*.

[ن. ن. ليسوفوي، **الحضور الروحي والسياسي الروسي في الأراضي المقدسة والشرق الأوسط في القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو: إندريك، 2006)؛ م. إ. ياكوشيف، **بطريركيتا إنطاكية والقدس في سياسة الإمبراطوريَّة الروسيَّة، ثلاثينيات القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو: إندريك، 2013)؛ سميليانسكايا، غوربونوفا وياكوشيف، **سورية عشيَّة ثورة تركيا الفتاة وأثنائها**].

- تحديد تأثير الصُّوَر النمطيَّة، الثقافيَّة والدينيَّة، في فهم الواقع، وفي سلوك المشاركين في الحملات العسكريَّة في حضارة «غريبة»، خلال حقبات تاريخيَّة مختلفة؛

- عند تحليل ثقافة أطراف النزاع السياسيَّة، لا بدَّ من تقويم مدى تناسب أشكال عمل القيادة الروسيَّة في الأراضي المحتلَّة وأساليبها، مع وقائع المؤسَّسات السياسيَّة القائمة في الشرق والغرب، وغيرها؛

- أخيرًا، تقويم نجاح عمل السلطات مع الرأي العام في بلادها وفي الخارج، وكذلك صدى كلِّ عمليَّة عسكريَّة لدى الرأي العامِّ الأوروبيِّ والروسيِّ، وتكوين ذاكرة المعاصرين والأجيال المقبلة التاريخيَّة.

يتطلَّب طرح هذه المهمَّات من دون شكٍّ التوجُّه إلى المنهجيَّة التاريخيَّة والسياسيَّة، وإلى الدراسات الثقافيَّة المقارنة (التفاعل الثقافي)، وإلى علم اللغات والأنثروبولوجيا الثقافيَّة. فلا بدَّ لهذه المقاربة من أن تُتيح العثور على سمات الاستمراريَّة التاريخيَّة الخفيَّة، ولتقويم «معيار الحروب الإنساني» على نحو أدقَّ، واكتناه أهميَّة النجاحات المحقَّقة والأخطاء المرتكبة.

لا بدَّ من القول إنَّه عند إعداد هذا الكتاب، داخَلَ مؤلِّفيه الرُّوس وفريق العمل الممتاز الذي عمل على نقله إلى العربيَّة الأملُ في أن يكون حافزًا على الحوار العلميِّ المثمر.

يرى المؤلِّفون أنَّ من واجبهم الإعراب عن امتنانهم العميق لرياض نجم الذي بادر إلى اقتراح ترجمة هذا الكتاب؛ كما يعربون عن شكرهم الخاص والعميق للمُترجمَيْن محمد دياب وجمال القرى، اللذين بذلا جهدًا كبيرًا لإنجاز ترجمة هذا النصِّ الروسيِّ البالغ التعقيد، المشبع بموادَّ أرشيفيَّة باللغة الروسيَّة القديمة، لغة القرن الثامن عشر. فبفضل جهدهما ومهنيَّتهما العالية وحماستهما، وجد هذا الكتاب طريقه إلى القارئ العربي.

كما يرون من واجبهم أيضًا الإعراب عن شكرهم الصَّادق لناتاليا فالنتينوفنا دياب على المساعدة التي قدَّمتها للمترجمَيْن في تفكيك بعض الجمل والتعابير

المعقَّدة، التي تُميِّز تلك الحقبة التاريخيَّة المُتَناوَلة في الكتاب وفهمها، وهي مساعدة جُلَّى ولا تُقدَّر بثمن.

# مقدِّمة الترجمة العربيَّة

شكَّل الحضور الروسي الفاعل في سورية منذ عام 2015 حافزًا لتقصِّي دوافعه وأهدافه والسعي إلى فهم خلفيَّاته. ولن يكون بوسعنا، نحن المشرقيِّين العرب، أبناء هذه المنطقة، المعنيين مباشرة بهذا الواقع المستجد، التوصُّل إلى إجابات واقعيَّة عن التساؤلات بشأن هذا الحضور من دون محاولة فهم العقل السياسي والاستراتيجي الحاكم في الدولة الروسيَّة الحديثة، من خلال إلقاء نظرة استعاديَّة على دور روسيا التاريخي في شرق البحر المتوسِّط. ومن الطبيعيِّ أنَّ روسيا الراهنة تختلف عن روسيا الإمبراطوريَّة أو السوفياتيَّة من حيث إنَّها خلعت عنها الرداء الديني أو الأيديولوجي، لترتدي سياستها اليوم عباءة البراغماتيَّة التي تحكمها المصالح بالدرجة الأولى، هذا أمر معتاد في سياسات الدول الخارجيَّة. وعلى هذا الأساس، تبني روسيا علاقاتها مع الدول الأخرى في العالم، ومن بينها الدول العربيَّة.

يفترض فهم هذه السياسة الواقعي والموضوعي، **أوَّلًا** الابتعاد من تأثير الأدبيَّات والدراسات التاريخيَّة الغربيَّة التي تناولت روسيا وسياستها إزاء منطقة البحر المتوسط في مختلف الحقبات التاريخيَّة، وهي دراسات منحازة بطبيعة الحال بسبب الصراع التاريخي بين الدولة الروسيَّة والدول الغربيَّة على النفوذ في المناطق التي كانت جزءًا من السلطنة العثمانيَّة ماضيًا، فغدت ساحاتٍ لصراعٍ متجدِّد في حقبة ما بعد الحربين العالميَّتين في القرن المنصرم وحتَّى وقتنا الراهن. كما يتطلَّب فهمنا الدور الروسي الراهن، **ثانيًا** العودة إلى تاريخ السياسة الروسيَّة التي كان توجُّهها نحو الجنوب بغية الوصول إلى المياه الدافئة،

هاجسًا أبديًّا، لتُقيم خطوط دفاعها الأمامية ذودًا عن مصالح روسيا القوميَّة عند التخوم الجنوبيَّة الأبعد؛ الأمر الذي حرَّك صنَّاع القرار في الإمبراطوريَّة، منذ عهد بطرس الأكبر، مرورًا بكاترينا الثانية وورثتها، وخلال الحقبة السوفياتيَّة، وصولًا إلى القيادة الحاليَّة. من هنا، كان لا بدَّ من البحث عن بدايات حملات روسيا العسكريَّة وعلاقاتها السياسيَّة مع المشرق العربي، فوجدنا ضالتنا في العمل الأكاديمي المهم، الذي وُضِع بإشراف المؤرِّخة والمستشرقة الروسيَّة الكبيرة إيرينا ميخايلوفنا سميليانسكايا **روسيا في البحر الأبيض المتوسط، حملة كاترينا العظمى في الأرخبيل**، الصادر في عام 2011 عن دار «إندريك» في موسكو. فهذا الكتاب، إذًا، يؤرِّخ للحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)، التي كانت سورية ولبنان وفلسطين ومصر من مسارحها العسكريَّة والسياسيَّة، ويكشف عن صفحات يجهلها القارئ العربي في الأغلب، فعَمِلنا على نقله إلى العربيَّة.

على الرغم من أنَّ الأحداث التي يتناولها الكتاب تعود إلى 250 عامًا مضت، فإنَّها تتَّسم بأهميَّة كبيرة، حيث تكشف عن جوانب جديدة في تاريخ المنطقة وظروف حياتها ونُظُم الحكم فيها وتحالفاتها وصراعاتها ونمط العلاقات السياسيَّة القائمة فيها بين القوى ومراكز النفوذ والكيانات التي لم تكن قد تبلورت بصيغٍ دولتيَّة. كما يُلقي الضوء على العلاقات والصراعات بين الدول الكبرى من أجل الاستحواذ على مناطق نفوذ في مناطق السلطنة العثمانيَّة ووراثة «الرجل المريض». ويكشف الكتاب عن جوانب ظلَّت غائبة ردحًا طويلًا من الزمن في ما يعني الوجود الروسي السياسي والعسكري في المنطقة، وعن علاقات أُقيمت مع قوى فاعلة في سوريا وفلسطين ومصر، وفي شمال أفريقيا إلى حدٍّ ما أو علاقات حاول الروس إقامتها معها، حيث اضطلع العسكريُّون الروس بدورٍ فاعل فيها، إلى جانب دورهم الدبلوماسي الذي ربَّما كان متقدمًا في بعض الأحيان.

جدير بالذكر أنَّ للمؤرِّخة التي شارفت على الثالثة والتسعين من العمر - التي زارت لبنان مرات عديدة كان آخرها خلال الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة (1975-1990) - باعًا طويلًا في دراسة مجتمعاتنا المشرقيَّة اقتصاديًّا

واجتماعيًّا وسياسيًّا، فوضعت إصداراتٍ عديدةً في هذا الشأن تُرجم بعضها إلى اللغة العربيَّة في القرن المنصرم. وفي هذا المؤلَّف قدَّمت إ. م. سميليانسكايا مع شريكيها عرضًا للحملة العسكريَّة الروسيَّة الأولى في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية، إبَّان الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)، تضمَّن تحليلًا موضوعيًّا لأهدافها المعلنة وغير المعلنة ولخلفيَّات اتِّخاذ القرار بشأنها وظروف حدوثها والأنشطة التي رافقتها. فالحملة التي جُرِّدت جاءت في سياق صراع الإمبراطوريَّة الروسيَّة مع السلطنة العثمانيَّة على مناطق النفوذ في البلقان حيث إخوة الدين، وفي شرق البحر المتوسط حيث الغرباء دينًا وثقافة. وقد استند المؤلِّفون إلى موادَّ أرشيفيَّة غنيَّة تعود إلى زمن الحِدثان، محفوظة في أرشيفات وزارة الخارجيَّة والأرشيف العسكري وأرشيف الأسطول الحربي والجمعيَّة الروسيَّة التاريخيَّة وغيرها، وفي المكتبات الوطنيَّة المتخصِّصة، فضلًا عن الأرشيفات الأوروبيَّة المختلفة، وإلى الرسائل المتبادلة بين السياسيِّين والدبلوماسيِّين والعسكريِّين، ومذكِّرات بعض المشاركين في الحملة. ومن المؤكَّد أنَّ تلك المواد الأرشيفيَّة ما هي إلا جزءٌ من المحفوظات التي لم يزل قسم كبير منها حبيسًا حتَّى الآن. ولم توفِّر المؤرِّخة نقدها القاسي في بعض الأحيان للسياسات والأساليب التي نهجتها الإمبراطوريتان الروسيَّة والعثمانيَّة إزاء شعوب دول البلقان ومنطقة البحر الأبيض المتوسط من أجل بلوغ أهدافها.

بعد إبرام معاهدة كوتشوك - كاينارجي التي وضعت حدًّا للحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى، دُشِّنت روسيا مرحلةً جديدةً من العلاقات الدبلوماسيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة مع المشرق إثر نجاحها في ولوج فضاءٍ ثقافيٍّ جديد وغريب من حيث إيمانه وعاداته ولغته وتقاليده؛ فكان أن تضاعف خلال هذه المرحلة اهتمام الإمبراطوريَّة الروسيَّة بالمنطقة وتفاعلها الثقافي معها. فإلى جانب الحجَّاج الرُّوس الذين ظلُّوا يتدفَّقون إلى الأراضي المقدَّسة منذ القرن الحادي عشر، أخذ المستشرقون الرحَّالة في هذه المرحلة يجولون في مصر وسورية وفلسطين ولبنان، ويجمعون كلَّ التفاصيل عن حياتها السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، وكذلك عن أوضاعها الطوبوغرافيَّة، ليقدِّموها على شكل تقارير إلى وزارة الخارجيَّة، لتستقرَّ حفظًا في أرشيفاتها.

تعود علاقات روسيا بأرض المشرق العربي - الذي شكَّلت الأراضي المقدَّسة فيه موقع الجذب الأهمّ بالنسبة إلى المؤمنين الروس ونشاطهم الثقافي والديني - إلى بدايات القرن الحادي عشر، عندما اعتنقت روسيا المسيحيَّة على المذهب الأرثوذكسي، فباتت فلسطين - الأرض المقدسة - حاضرة دائمًا في الوعي الروسي. ومع بداية انتشار المسيحيَّة في روسيا، تعرَّف المؤمنون إلى أسماء الأماكن المقدَّسة ذات الصلة بتاريخ العهد القديم وحياة المخلِّص على الأرض ومواعظ الرسل ومآثر النُسَّاك في كلٍّ من فلسطين ومصر وسيناء ...إلخ، إلا أنَّ هذه التسميات الجغرافية كانت بالنسبة إلى الأغلبية المطلقة من الأرثوذكس في روسيا القديمة وإمارة موسكو - بل حتَّى في الإمبراطوريَّة الروسيَّة في ما بعد - ذات مغزى ومعنى رمزيَّين بالدرجة الأولى. فقد حفرت الأراضي المقدَّسة عميقًا في وجدان الشعب الروسي، فكانت هي الضوء المنبعث من الشرق، المنعكس في الفكر والأدب والفنِّ في روسيا. وعلى الرغم من الحروب والقلاقل، حافظت روسيا على هذا التقليد؛ إذ اعتبرت نفسها حاملة راية الأرثوذكسيَّة والمدافعة عنها بعد سقوط بيزنطة. وقد عُمِّدت روسيا القديمة مع الأمير فلاديمير الأول، الملقَّب بـ «الشمس الحمراء» (كراسنوي سولنيتشكو)، على يد القدِّيس ميخائيل السوري (نحو عام 989). وفي القرن الثاني عشر، حجَّت الأميرة غيتا غارالدوفنا، زوج الأمير فلاديمير مونوماخ، إلى القدس بعد تحريرها من الصليبيِّين، وماتت ودُفِنت فيها. أما القديس دانيال فقد اكتسب حجُّهُ إلى القدس (1106-1108) بعدًا دينيًّا وديبلوماسيًّا أيضًا، واستقبله الملك الصليبي بالدوين بوصفه موفدَ الأمراء الروس، حيث أضاء المصباح على قبر المسيح باسمهم جميعًا.

أمَّا الحجاج الروس المفتونون بالأراضي المقدَّسة، فكانوا يُمضون بقيَّة حياتهم، بعد عودتهم من الحج، يجولون في أنحاء روسيا القديمة، يردِّدون القصص والملاحم عن مدن الحكايا وعظمة مقدَّسات الشرق. ولم يقطع الغزو المغولي روسيا القديمة (1237)، ولا سقوط القسطنطينيَّة بيد الصليبيِّين (1204)، ولا استيلاء الأتراك عليها في ما بعد (1453)، علاقات روسيا مع الشرق الأرثوذكسي؛ بل أصبحت الغزوات سببًا لتوجُّه البطاركة الشرقيِّين الدائم إلى القيصر الروسي طالبين دعمه وعطفه.

كان البطريرك المقدسي دوسيفي (1669-1707) المؤيِّد لتداخل المصالح الكنسيَّة والسياسيَّة، أول من عمل على إناطة مهمَّة تحرير الشعوب الأرثوذكسيَّة من النِّير الإسلامي بروسيا، على عكس البطاركة اليونانيِّين. في ما بعد، لمَّا طوَّع بطرس الأكبر الكنيسة لمصلحة الدولة ووضعها في خدمة الدبلوماسيَّة الروسيَّة وأهداف الإمبراطوريَّة السياسيَّة، باتت القدس والأراضي المقدسة موضوعًا حتميًّا في اتفاقات السلام مع تركيا. ومُذّاك، أصبحت مهمَّة حماية الحجاج الروس ومصالح الأرثوذكسيَّة الروسيَّة جزءًا لا يتجزَّأ من سياسة الدولة.

كان وصول العمائر البحريَّة الروسيَّة إلى قبالة الشواطئ السوريَّة والفلسطينيَّة - وحصار عكّا وصيدا ثم احتلال بيروت في عام 1772 - بداية التحوُّل الأوَّل في العلاقات الروسيَّة - المشرقيَّة، الذي شهد تغيُّرها من علاقات إيمانيَّة كنسيَّة بالدرجة الأولى إلى علاقات ثقافيَّة وسياسيَّة ودبلوماسيَّة، وذلك من أجل ترسيخ الحضور الروسي في المشرق. وقد انتهت الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) بمعاهدة كوتشوك - كاينارجي التي أفضت إلى منح روسيا حُريَّة الملاحة والتجارة في حوض البحر المتوسط، وإرساء علاقات دبلوماسيَّة مع منطقة كانت خارج دائرة النفوذ الروسي.

شكَّلت فكرة توسُّع الإمبراطوريَّة الروسيَّة الحديثة، التي أسَّسها بطرس الأكبر، ضرورةً قصوى للانفتاح على أوروبا وفتح خطوط التجارة أمام التجَّار الرّوس، وضمان أمن روسيا الخارجي الذي كانت تنتهكه السويد شمالًا، والأتراك والتتار جنوبًا. لذا، كان لا بدَّ من الحرب من أجل تحقيق هذه الأهداف. فسيطر بطرس على مدن خليج السويد وريغا والجزر الفنلندية، وشيَّد مدينة سان بطرسبورغ على نهر النيفا، واستحوذ على شاطئ بحر آزوف الغربي في عام 1723 بعد أن أصبحت روسيا قوةً بحريَّة وسياسيَّة يُحسَبُ لها حسابٌ في الحلبة الدوليَّة، بيد أنَّ الطريق نحو البحر المتوسط ظلَّت مغلقة.

أكملت كاترينا الثانية ما بدأه سَلَفُها، وما كان يشكِّل أرقًا مشتركًا دائمًا لجميع قياصرة روسيا، فخطَّطت لتوسيع رقعة ضمان أمن روسيا الخارجي، بالوصول إلى المياه الدافئة جنوبًا عبر البحر الأسود، والاستحواذ على

فضاء البحر الأبيض المتوسط والبلقان. لذا، كان لا بدَّ من خوض حربٍ مع السلطنة العثمانيَّة تحت ذريعة تحرير إخوة الدين البلقانيِّين من النِّير الإسلامي. ومنذ ذلك الحين، بدأ شرق البحر المتوسط يشغل حيِّزًا مهمًّا في مشروعات الإمبراطورة الخارجيَّة، وبرز نهج السياسة الخارجيَّة الروسيَّة الجديد في الشرق الأرثوذكسي، ليتبنَّى مفهوم رعاية إخوة الدين وحمايتهم.

شكَّل طلب بطريرك القدس بوليكارب المساعدة من الإمبراطور ألكسندر الأول - الذي أكمل سياسة جدَّته الإمبراطورة كاترينا - في ترميم كنيسة القبر المقدَّس في عام 1808، التحوُّل المهمَّ الثاني في إرساء العلاقات الروسيَّة - المشرقيَّة الجديدة، من حيث انتظامُ الاتصال بين روسيا، دولةً وكنيسةً، والأراضي المقدَّسة. وتَبِعَ ذلك افتتاحُ القنصليَّة الروسيَّة بـ «يافا» في عام 1820.

ثم كان التحوُّل الثالث في العلاقات الروسيَّة - المشرقيَّة في عام 1840، عندما اتَّخذت المسألة الشرقيَّة طابعًا حادًّا مع تغلغل الدول الغربيَّة الكبرى الاستعماري في القدس والمشرق، الذي غطى أهدافه السياسيَّة بالمصالح الدينيَّة وبذرائع تقديم الحماية للأقليَّات المسيحيَّة في المنطقة. فعُيِّن على القدس أسقفٌ من لندن في عام 1841، وبطريركٌ لاتينيٌّ من روما في عام 1846. وأُغرقت سوريا - حيث الكنيسة الأنطاكيَّة الأرثوذكسيَّة - بالمبشِّرين الكاثوليك والبروتستانت، الأمر الذي جعل البطريركيَّة الشرقيَّة تطلب المساعدة من روسيا الأرثوذكسيَّة، فترتَّب عليها الدخول في علاقات جديدة مع الدول الأوروبيَّة على المستويات السياسيَّة والدبلوماسيَّة والثقافيَّة.

لا بدَّ من التوقُّف هنا عند حدثٍ بالغ الأهميَّة بالنسبة إلى الحضور الروسي في المنطقة، تمثَّل بإنشاء الجمعيَّة الفلسطينيَّة الأرثوذكسيَّة الإمبراطوريَّة في نهاية القرن التاسع عشر (أيار/ مايو 1882)، بهدف تعزيز تأثير روسيا الروحي والثقافي في المشرق. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكون القيصر ألكسندر الثالث صاحب فكرة إنشاء هذه الجمعيَّة، وهو القائل إنَّ لروسيا حليفين فقط هما: الجيش والأسطول، وهو أحد أكثر القياصرة الروس حصافةً وبُعد نظر. فقد كانت روسيا ترى في انقطاعها عن المياه الدافئة عائقًا أمام تطوُّرها

الاقتصادي، وحاجزًا أمام امتداد نفوذها وترسيخ مكانتها بوصفها قوَّةً عظمى؛ فسعت إلى تعزيز مواقعها عند التخوم البحريَّة على المحيط الهادئ، وإلى ضمان حرية وصول أساطيلها إلى البحر المتوسِّط. وقد واجهت خصمين رئيسين في سعيها هذا، هما بريطانيا والولايات المتحدة؛ وكانت الأخيرة آنذاك القوة الصاعدة، أو بتعبير أدق: رأس المال المالي والرِّبَوِي الإنكليزي والأميركي، المهيمنين في هذين البلدين. وواجهت روسيا خصومًا آخرين أيضًا في سعيها للوصول إلى المياه الدافئة، كألمانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا، وهي بلدان تمكَّنت من ترسيخ مواقعها دولًا استعماريَّةً في المناطق الاستراتيجيَّة الأهم في العالم.

كان إنشاء الجمعيَّة مثمرًا جدًّا، فانتشرت المدارس الأرثوذكسيَّة الروسيَّة على نطاق واسع في لبنان وسورية وفلسطين خلال تلك الحقبة (أكثر من مئة مدرسة)، التي لم يقتصر فتح أبوابها أمام أبناء الأُسَر المسيحيَّة فحسب، بل شمل أيضًا أبناء الأسر المسلمة، فأتاحت لهم الدخول إلى رحاب اللغة والثقافة الروسيَّتين. كان إنشاء الجمعيَّة، بأهدافها المعلنة وغير المعلنة، بمثابة ردَّة فعل بعيدة الأثر على الهزيمة التي تعرَّضت لها روسيا في حرب القرم، حيث شكَّلت هذه مجرَّد محطَّةٍ في الصراع الدائر على التركة العثمانية، ومن أجل بسط السيطرة على المضائق (الدردنيل والبوسفور) وعلى الأراضي المقدَّسة.

في العصر السوفياتي، تجدَّدت العلاقات الروسيَّة - العربية وتوطَّدت، واتَّخذت منحى تحالفيًّا مع بعض الدول العربيَّة المحوريَّة، وفي مقدِّمها مصر وسورية والعراق؛ إذ حظيت هذه الدول بدعمٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ كبيرٍ من الاتحاد السوفياتي. كما تجدَّدت أيضًا العلاقات الثقافيَّة والعلميَّة بين البلدان العربيَّة وروسيا، التي استقبلت الآلاف من أبناء تلك البلدان لتلقِّي العلم في معاهدها العليا وجامعاتها؛ ولعلَّ ذلك امتداد للنشاط الذي كانت بدأته الجمعيَّة الفلسطينيَّة الأرثوذكسيَّة الإمبراطوريَّة، لكن بأشكال أخرى وتحت عناوين أيديولوجيَّة مختلفة وعلى نطاقٍ أوسع بما لا يقاس.

ما يجدر ذكره أنَّ روسيا لم تكن تنظر يومًا إلى دول المشرق - ولا سيَّما فلسطين وسورية - بوصفها هدفًا جغرافيًّا تبغي استعماره ونهب شعوبه

واستغلالها، أو تحويلها إلى أسواقٍ لبضائعها على غرار الدول الاستعماريَّة الغربيَّة. وها هي روسيا، اليوم، تسعى إلى توسيع رقعتها الأمنيَّة الجغرافيَّة، وإلى نقل المواجهة مع الغرب إلى خطوط مجابهة جديدة بعيدة من حدودها، وذلك من خلال تعزيز حضورها وعناصر قوَّتها في شرق البحر المتوسط. هذا الغرب الذي لم يتوقَّف عن محاولاته الدائمة لمحاربتها سواءٌ أَفي شكلها الإمبراطوري أم السوفياتي أم الحالي، من أجل محاصرتها وإضعافها. إنَّ سياسة روسيا في المنطقة اليوم هي امتداد لسياساتها السابقة، وإنْ تغيَّرت الشعارات والأساليب، وهي سياسة تهدف إلى تحقيق عظمتها وترسيخ نفسها قوَّةً عظمى على الساحة الدوليَّة، وترى أنَّ ذلك لا يمكن أن يتحقَّق إلا من خلال نظامٍ عالميٍّ جديد يزيل الأحاديَّة القطبيَّة، ويفرض التعدديَّة القطبيَّة بديلًا منها. وما يميِّز سياسة روسيا الخارجيَّة اليوم، خلافًا للحقبتين الإمبراطوريَّة والسوفياتيَّة، هو، كما ذكرنا، خلع الرداء الديني والأيديولوجي. فسياستها الراهنة براغماتيَّة واقعيَّة تستند إلى مصالح الدولة بالدرجة الأولى، وعلى هذا الأساس تبني علاقاتها مع مختلف الدول، بما فيها الدول العربيَّة. ولعلَّ مصلحتنا، دولًا وشعوبًا تقطن هذه المنطقة، هي في السعي إلى إقامة علاقات متوازنة مع هذه القوة العظمى المتجدِّد صعودُها بعد انهيار الدولة السوفياتيَّة، على أساس تقاطع المصالح.

***

أخيرًا، نرى من واجبنا أن نجزل الشكر العميق إلى السيدة الجليلة إيرينا ميخايلوفنا سميليانسكايا، التي منحتنا ثقتها الكبيرة لنقل هذا العمل إلى اللغة العربيَّة، ووضعه في متناول القارئ العربي. لقد سعينا إلى إنجاز عملية الترجمة بدقَّةٍ وأمانة، بالرغم من الصعوبات الجمَّة التي اعترت هذه العمليَّة، وفي مقدِّمتها لغة الكتاب الأكاديميَّة وأسلوب المؤلِّفين (وتحديدًا السيدة إيرينا ميخايلوفنا) الذي يعتمد الجمل الطويلة والمعقَّدة، فضلًا عن تعقيدات اللغة الروسيَّة القديمة، المعتمَدة في الوثائق الرسميَّة والمراسلات والمراسيم والأوامر الملكيَّة والبيانات العسكريَّة وغيرها، فضلًا عن تدوينات شهود أحداث تلك الحقبة والمذكرات التي تركوها. فعَمِلْنا على تفكيك العبارات الطويلة، مع حرص شديد للحفاظ على روحيَّة النصِّ قدر الإمكان، وعمدنا

إلى وضع هوامش عديدة لتفسير بعض المصطلحات وتقديم شروحات لبعض الأحداث التاريخيَّة الوارد ذكرها في النص، أو لتعريف القارئ إلى بعض الشخصيات والأعلام. وارتأينا، بالاتفاق مع المؤلفين، ضرورة حذف بعض الملاحق التي قد لا تهم القارئ العربي. ولا يسعنا في هذا السياق إلا توجيه الشكر العميق إلى الصديق الدكتور محمد أحمد شومان الذي أولى عملية تحرير الكتاب عنايةً كبيرةً، وبذل جهدًا لا يقدر بثمن من أجل إيصال النصِّ العربي إلى المستوى المطلوب. ونتوجَّه بالشكر الجزيل أيضًا إلى السيدة ناتاليا فالنتينوفنا دياب، التي قدمت لنا مساعدة قيِّمة في فهم بعض ألغاز اللغة الروسيَّة القديمة وتعابيرها وتفكيكها، وكذلك إلى السيِّدتين إيا بوريسوفنا قسطنطينوفا وغالينا ماركوفنا كورتشاك، وإلى الدكتور وليد دكروب، على الدعم الذي قدَّموه في إنجاز هذا العمل، آملين أن يُشكِّل هذا الكتاب مرجعًا مفيدًا لجميع المهتمِّين بتاريخ المنطقة وبالعلاقات الروسيَّة - العربيَّة.

محمد دياب

جمال القرى

# مقدّمة

تعاظم منذ القرن الثامن عشر على نحوٍ لافتٍ اهتمام السياسة الخارجيَّة الروسيَّة بمنطقة البحر الأبيض المتوسِّط. فمنذ عهد بطرس الأكبر اكتسب توجُّه السياسة الخارجيَّة نحو البلقان أهمِّيةً كبيرة. وكان هذا التوجُّه يتطلَّع إلى التعاون مع إخوة الدين البلقانيين - السلافيين واليونانيين - في العمليَّات العسكريَّة ضد الأتراك، بما يؤدِّي إلى تحريرهم من النِّير التركي، ومساعدتهم على إقامة كيانٍ دولتيٍّ مُوَالٍ لروسيا[1]. وإذ عملت كاترينا الثانية على تطوير أفكار بطرس الأول، سعت إلى ربط سياستها البلقانيَّة بأنشطة في القارَّة وفي البحر المتوسِّط، باحثةً عن الدعم لدى إخوة الدين في مورية (بيلوبونيز) والأرخبيل اليوناني وسواحل الأدرياتيكي، أكثر ممَّا لدى سكَّان منطقة البلقان القاريَّة. ولتحقيق هذا الهدف، نظَّمت الإمبراطورة الحملة الروسيَّة الأولى في منطقة البحر المتوسِّط. وفي

(1) مع بروز الإمبراطوريَّة الأرثوذكسيَّة الروسيَّة القادرة على مواجهة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة على المسرح الدولي، صارت آمال الشعوب البلقانيَّة في الحصول على المساعدة لتحرُّر من النِّير الإسلامي ترتبط بروسيا الشقيقة في الدين (كانت هذه الشعوب حتَّى ذاك الحين تبحث عن الدعم لدى النَّمسا والبندقيَّة الكاثوليكيَّتين). وفي معرض تحضيره لحملة بروت، توجَّه بطرس ببيان إلى إخوة الدين البلقانيِّين تضمَّن الدعوة إلى شنٍّ عمليَّات حربيَّة مشتركة ضد الأتراك. لمزيد من التفصيل عن سياسة بطرس الأول البلقانيَّة، يُنظر الفصول الملائمة من: B. H. Виноградов, *История Балкан. Век восемнадцатый* (M., 2004).

[ف. ن. فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر** (موسكو، 2004)].

ومونوغرافيا إ. إ. ليشيلوفسكايا: *Сербский народ и Россияв XVIII веке* (СПб., 2006).

[**الشعب الصربي وروسيا في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ، 2006)].

الثامن عشر من تموز/ يوليو 1769[2]، وصلت بنفسها إلى كرونشتاد لمباركة انطلاق الأسطول في حملته. وفي اليوم نفسه، أبحرت عمارة الأميرال غريغوري أ. سبيريدوف، وكانت الأولى من أصل خمس عمارات بحريَّة تابعة للأسطول الحربي الروسي، شاركت في الحملة بين عامي 1769 و1774.

تَشَكَّل نهج روسيا السياسيُّ الخارجيُّ في العصر الكاتريني آخذًا في الاعتبار المهمّات الواسعة الهادفة إلى الاستيلاء على القرم ودرء غارات تتار القرم على تخوم روسيا الجنوبيَّة، وإلى فتح «نافذة على أوروبا» عبر البحر الأسود، وتأمين حرِّية الملاحة في بحر آزوف والبحر الأسود. بيد أنَّ الملاحة في البحر الأسود طرحت على الحكام الرُّوس أيضًا، على نحوٍ حتميٍّ، مسألة الوصول إلى البحر المتوسِّط واستكشاف الفضاء المتوسِّطي سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا.

في الوقت نفسه، كان نهج السياسة الخارجيَّة الجنوبيُّ جزءًا من إصلاحات كاترينا الثانية ومشروعاتها واسعة النطاق، الهادفة إلى بناء دولة مركزيَّة عصريَّة، على غرار الدول الأوروبيَّة ذات الحكم المطلق. وكانت نظرية «مصالح الدولة» هي المسوِّغ الأيديولوجي لهذه السياسة.

لعلَّ ما أملى هذا المسار كان طموح الوصول الى حدود الدولة «الطبيعية»، وخلق الظروف لتنمية جنوب روسيا اقتصاديًّا، واستصلاح الأراضي الخصبة وتلك البور حول البحر الأسود، الفاصلة بين الدولة الروسيَّة وخَانِية القرم التابعة للسلطنة العثمانيَّة. وقد طُبِّق هذا النهج السياسيُّ في ظروفٍ بعيدةٍ كليًّا من التعايش السلمي بين كلٍّ من روسيا ومجتمع القرم الأبوي (البطريركي)

---

(2) التواريخ هنا وفي كلِّ الأحداث التي حصلت في روسيا، أو على سفن الأسطول الروسي في ما بعد، مدوَّنة بحسب التقويم اليولياني (وفقًا لتوثيق المؤسَّسات المدنيَّة والحربيَّة وسجلَّات السُّفن وغيرها). وتُدوَّن وفق التقويم اليولياني أيضًا تواريخُ الأحداث الوارد ذكرها في الصحافة الروسيَّة. أما التاريخ المزدوج - بحسب التقويمين اليولياني والغريغوري - فيرد عندما يتحدَّد زمن الحدث، استنادًا إلى الوثائق ذات المصدر الأوروبي الغربي، عندما يكون الحديث عن احتفالات بمناسبات مشهودة روسيَّة في أوروبا الغربيَّة، وأيضًا في بعض الحالات، عندما تكون هناك ضرورة لربط تسلسل تاريخ الأحداث الأوروبيَّة والروسيَّة الزمني. وأخيرًا، ترد التواريخ بحسب التقويم الغريغوري في تلك الحالات التي يُقتبَسُ فيها من الوثائق الدبلوماسيَّة والسياسيَّة الأوروبيَّة الغربيَّة، ومن المطبوعات الدوريَّة الغربيَّة، وكذلك من المراسلات الخاصَّة العائدة لشخصيات تستخدم، بالتأكيد، «التقويم الجديد»، أي التقويم الغريغوري.

المجاور، الذي كان نمط حياته يقوم على غزوات نهبٍ ضد جيرانه المزارعين، يرافقها اختطاف الآلاف منهم وبيعهم في الأسواق الشرقية.

غدا التوجُّه جنوبًا أولويَّة في سياسة روسيا المتعدِّدة الاتجاهات في عهد كاترينا الثانية[3]. بيد أنَّه كان يرتبط مع ذلك بالاتجاهات الأخرى، وبالدرجة الأولى الاتجاه البلطيقي الشمالي الغربي والاتجاه البولندي الغربي. فقد كانت السويد وبولندا حينذاك، كما الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، حلقات في «الحاجز الشرقي» الذي كانت قد أقامته فرنسا المهيمنة على القارة الأوروبيَّة إبَّان القرن الثامن عشر، بهدف عزل روسيا عن أوروبا على مستوى السياسة الخارجيَّة. ويُفسَّر نهج فرنسا المعادي لروسيا، إلى حدٍّ معيَّن، بمخاوفها من القدرة العسكريَّة الروسيَّة، التي تجلت إبَّان حرب السنوات السبع، وكذلك من عدم قدرتها على التنبُّؤ بسياسة بطرس الثالث الخارجيَّة. كما كانت هناك أسبابٌ أخرى أيضًا، من بينها تورُّط روسيا في التناقضات السياسيَّة والتجاريَّة بين فرنسا وإنكلترا، وفي اللعبة السياسيَّة بين النَّمسا وبروسيا.

---

(3) من الباحثين في سياسة روسيا الخارجيَّة، يلتزم المؤرِّخ والدبلوماسيُّ المحترف ب. ف. ستيغني - إلى حدٍ ما حاليًّا - وجهة النظر هذه، حيث يقول: «... انطلقت كاترينا الثانية في وضعها أولويَّات سياستها الخارجيَّة الجيوسياسيَّة من تجربتها الشخصيَّة، وكذلك من فهمها العميق لآليَّات السياسة الأوروبيَّة المعقَّدة. وإذ كانت تتمتَّع بقدرٍ كبيرٍ من الفطنة والواقعيَّة، فهي سعت إلى بناء خطِّها السياسيِّ الخارجيِّ تبعًا لميزان القوى القائم في أوروبا. فكان اهتمامها ينصبُّ في فترات مختلفة من حكمها على الشؤون البولنديَّة تارةً، وعلى الألمانيَّة تارةً أخرى، وعلى السويديَّة طورًا. غير أنَّها اعتبرت الاتجاه الجنوبي عبر البحر الأسود - وهذا جدير بالذكر - أولويَّةً في «الثلاثيَّة» الدبلوماسيَّة التقليديَّة: السويد، بولندا، الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وظلَّت «مهمَّة» دبلوماسيَّتها «الكبرى» وتوجُّهها الأساسي شاخصين نحو الاتجاه الجنوبي الغربي؛ إذ تمثَّلت أهداف سياستها الخارجيَّة الرئيسة في تأمين حريَّة الملاحة التجاريَّة الروسيَّة في البحر الأسود، مع إمكان الوصول إلى البحر المتوسِّط في ما بعد، ومساعدة إخوة الدين من شعوب البلقان واليونان»: П. В Стегний, *Разделы Польши и дипломатия Екатерины II, 1772 1793, 1795* (М., 2002), с. 87.

[ب. ف. ستيغني، **تقسيم بولندا ودبلوماسية كاترينا الثانية**، 1772، 1793، 1795 (موسكو، 2002)، ص 87].

(تحتاج الأطروحة عن «مساعدة» إخوة الدين - بوصفها هدفًا رئيسًا - إلى التدقيق). وفي أيِّ حالٍ، فقد توصَّلت كاترينا الثانية الى إحداث خرقٍ حقيقيٍّ على الاتجاه الجنوبي، حدَّد تطوُّر روسيا لعدَّة عقودٍ من الزمن.

كان التوجُّه الشمالي الغربي في سياسة روسيا الخارجيَّة، الذي مارسه نيكيتا إيفانوفيتش بانين بنجاحٍ مُعيَّن، يرمي إلى تحييد النُّفوذ الفرنسي في السويد، وإلى حَمْلِ كلٍّ من بروسيا والدانمارك وإنكلترا على التوافق مع روسيا في بعض القضايا الأوروبيَّة. وإذ ركَّزت هذه السياسة على مواجهة السويد في البداية، إلا أنَّها أسهمت إلى حدٍّ كبيرٍ في نجاح روسيا بتحقيق النَّهج الجنوبي المناهض للعثمانيين. فمن المعروف أن الحلف الدفاعي مع بروسيا المعقود في عام 1764، والمعاهدة المعقودة مع الدانمارك في عام 1765، تضمَّنا بنودًا سريَّة نصَّت على مساعدة روسيا إذا ما نشبت الحرب مع تركيا. وأسهمت المعاهدة التجاريَّة مع إنكلترا في عام 1766 في تعزيز موقف هذه الدولة المؤيد لروسيا في علاقاتها مع السويد والإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

كانت بولندا - الحلقة الثانية في «الحاجز الشرقي» - لا تزال تحت الصدمة بعد وفاة الملك أوغست الثالث؛ فشجَّع ذلك روسيا على التدخُّل في شؤونها الداخليَّة والخارجيَّة. وهي لم تكن تهدف من ذلك إلى تعزيز مواقعها فيها فحسب، بل كذلك إلى تحييد النُّفوذ الفرنسي والمشاركة العثمانيَّة المحتملة في الشؤون البولنديَّة. فارتباط المسألة البولنديَّة بالمسألة التركيَّة(4) كان مبعث قلقٍ روسيٍّ على مدى عقود: أدَّت المعاهدة بين بولندا والإمبراطوريَّة العثمانيَّة وتدخُّل هذه الأخيرة في سياسة روسيا البولنديَّة - بتحريضٍ فرنسيٍّ - إلى استخدام الأتراك «المسألة البولنديَّة» تحديدًا ذريعةً لإعلان الحرب على روسيا في عام 1768. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يشارك المتطوِّعون البولنديون، إلى جانب زملائهم الفرنسيين، في بناء التحصينات التركيَّة والأسطول التركي إبَّان هذه الحرب. وتجلَّت عواقب هذا الترابط بين المسألتين «البولنديَّة» و«التركيَّة» المأساويتين في تقسيم بولندا الأول في نهاية هذه الحرب في عام 1772.

---

(4) ظهر ذلك في القرن السابع عشر بوضوح. يُنظر: С. Ф. Орешкова, Вступительная статья, in: П. А. Толстой, *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота*, Сост. И. В. Зайцев & С. Ф. Орешкова (М., 2006), с. 11-12.

[س. ف. أوريشكوفا، المقالة الافتتاحية، في: ب. أ. تولستوي، **وصف البحر الأسود، أرخبيل إيجة والأسطول العثماني**، مراجعة إ. ف. زايتسيف وس. ف. أوريشكوفا (موسكو، 2006)، ص 11-12].

لا يمكن الاتفاق مع الكتّاب الذين اعتبروا سياسة كاترينا الثانية المتوسطيّة وسيلةً لحلِّ «المسألة الشرقيّة» حصرًا[5]. فسياسة روسيا المتوسطيّة كانت متعدِّدة الأوجه، وقد أسهمت إلى حدٍّ كبيرٍ في تطوير صلات الإمبراطوريّة الروسيّة المتشعِّبة مع دول المنطقة[6]، وعلاقاتها مع الدول

---

(5) يُنظر: В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883); Н. Д. Чечулин, ***Внешняя политика России в начале царствования Екатерины II, 1762 — 1774 гг*** (СПб., 1896); ***Восточный вопрос во внешней политике России. Конец XVIII — начало XX века*** (М., 1978).

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)؛ ن. د. تشيتشولين، **سياسة روسيا الخارجيّة في بداية عهد كاترينا الثانية، 1762-1774** (سان بطرسبورغ، 1896)؛ **المسألة الشرقيّة في سياسة روسيا الخارجيّة. نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو، 1978)].

(6) يُنظر، على سبيل المثال: Дж Берти, *Россия и итальянские государства в период Рисорджименто* (М., 1959); В. И. Рутенбург, «Культурные и общественные связи России и Италии (XVIII и XIX века),» in: *Россия и Италия* (М., 1996), Вып.2; Ф. Вентури, «Итало-русские отношения с 1750 до 1825,» in: *Россия и Италия. Из истории русско-итальянских культурных и общественных отношений* (М., 1968), с. 25-50;

[ج. بيرتي، **روسيا والدول الإيطالية في حقبة توحيد إيطاليا** (موسكو، 1959)؛ ف. إ. روتنبورغ، «علاقات روسيا وإيطاليا الإجتماعيّة والثقافيّة (القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر)»، في: **روسيا وإيطاليا** (موسكو، 1996)، الإصدار الثاني؛ ف. فينتوري، «العلاقات الإيطاليّة - الروسيّة من العام 1750 وحتّى العام 1825»، في: **روسيا وإيطاليا: من تاريخ العلاقات الثقافيّة والاجتماعيّة الروسيّة - الإيطاليّة** (موسكو، 1968)، ص 25-50]؛

F. Venturi, *Il Settecento riformatore. Vol. 3: La Prima crisi dell'Antico Regime (1768-1776)* (Torino, 1979); Б. М. Данциг, В. И. Жиленко, «Забытые страницы из истории русско-марокканских отношений в последней четверти XVIII века,» *Проблемы востоковедения*, no. 1 (1959); Т. Л. Мусатова, *Россия-Марокко: далекое и близкое прошлое, Очерки истории русско-марокканских связей в XVIII - нач. XX в.* (М., 1990); П. Перминов, «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII веке,» *Азия и Африка сегодня*, nos. 7-9 (1987); П. Перминов, *Под сенью восьмиконечного креста (Мальтийский орден и его связи с Россией)* (М., 1991); А. Л. Шапиро, «Средиземноморские проблемы внешней политики России в начале XIX в.,» *Исторические записки*, t. 55 (1956).

[ب. م. دانتسيغ وف. إ. جيلينكو، «صفحات منسيّة من تاريخ العلاقات الروسيّة - المغربيّة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر»، **قضايا الاستشراق**، العدد 1 (1959)؛ ت. ل. موساتوفا، **روسيا - المغرب: الماضي البعيد والقريب. دراسات في تاريخ العلاقات الروسيّة - المغربيّة في القرن الثامن عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو، 1990)؛ ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسيّة - العربيّة في القرن الثامن عشر»، آسيا وأفريقيا اليوم، الأعداد 7-9 (1987)؛ ب. بيريتوف، **في ظل الصليب ذي الثمانية أضلاع (محفل فرسان مالطا وعلاقاته مع روسيا)** (موسكو، 1991)؛ أ. ل. شابيرو، «القضايا المتوسطيّة في السياسة الخارجيّة الروسيّة في بداية القرن التاسع عشر»، **مدونات تاريخية**، مج 55 (1956)]. =

الأوروبيَّة الكبرى[7]، وكذلك في استكشاف رعايا الإمبراطورة الروسيَّة الفضاء المتوسِّطي اجتماعيًّا وثقافيًّا، وليس سياسيًّا وحسب. وهذا الجانب الأخير، الذي كان حظُّه من اهتمام الباحثين ضعيفًا جدًّا مقارنةً بالجوانب الأخرى، سيكون محور عملنا هذا.

من المعروف أنَّ البحر المتوسِّط كان في الحقبة موضوع الدراسة قد فقد منذ زمنٍ بعيدٍ أهمِّيته بوصفه مركز المسكونة الحضاري، الذي كانه في العصر القديم وفي العصور الوسيطة جزئيًّا. والآن، بعدما انتقلت حدَّة الصراعات إلى خلف المحيطات نتيجة الاحتلالات الاستعماريَّة، وتركَّزَ الصراع السياسيُّ الأوروبيُّ في أوروبا الوسطى، بدا حوض البحر المتوسِّط على الهامش السياسي في الأغلب.

كما ضَعُفَ دور منطقة البحر المتوسِّط أيضًا، بوصفها ساحة مواجهة بين

---

= نظر أ. ل. شاپيرو الى تطوُّر سياسة روسيا المتوسِّطيَّة بوصفه تغيُّرًا في العلاقات المتبادلة مع مختلف البلدان: «تتلخَّص إحدى سمات السياسة الخارجيَّة الروسيَّة خلال نهاية القرن الثامن عشر – بداية القرن العشرين في توسُّع القضايا المتوسطيَّة الكبير، هذه القضايا التي دخلت في دائرة اهتمام الحكومة القيصرية. فإذا كان اهتمام الحكم القيصري يقتصر بشكلٍ أساسيٍّ على «المسألة الشرقيَّة» سابقًا، فإنه في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، وفي سياق تغلغل فرنسا، وجزئيًّا إنكلترا، في هذا الإقليم، تشابكت هذه المسألة مع مجموعة أخرى من المسائل: المالطيَّة، الجزر الأيونية، النابوليتانيَّة، السردينيَّة وغيرها» (ص 253). ووفقًا لتقليد خمسينيَّات القرن العشرين، المتشكِّل تحت ضغط الأيديولوجية الرسميَّة، نظر أ. ل. شاپيرو إلى السياسة الروسيَّة في المنطقة بوصفها سياسة دفاعيَّة، بينما كانت كاترينا الثانية تسعى لتصبح شريكًا مُكافئًا للقوى الأوروبيَّة في منطقة البحر المتوسِّط.

(7) А. М. Станиславская, *Русско-английские отношения и проблемы Средиземноморья, 1798-1807* (М., 1962); И. Ю. Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х годов XVIII в.: 1762-1775,» Дисс…. канд. ист. Наук, М., 1967; И. Ю. Родзинская, «Англия и русско-турецкая война: 1768-1774,» in: *Труды Моск. гос. историко-архивного ин-та*, t. 23 (М., 1967); П. П. Черкасов, «Франция и русско-турецкая война, 1768-1774 гг.,» *Новая и новейшая история*, no. 1 (1996).

[أ. م. ستانيسلافسكايا، **العلاقات الروسيَّة – الإنكليزيَّة ومعضلات البحر المتوسِّط، 1798-1807** (موسكو، 1962)؛ إ. ي. رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة – الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، أطروحة دكتوراه في علوم التاريخ، موسكو، 1967؛ إ. ي. رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة – التركيَّة، 1768-1774»، في: **أعمال معهد موسكو الحكومي للتاريخ الأرشيفي**، مج 23 (موسكو، 1967)؛ ب. ب. تشيركاسوف، «فرنسا والحرب الروسيَّة – التركيَّة، 1768-1774»، **التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 1 (1996)].

المسيحيَّة والإسلام. فقد اكتسبت الشعوب الأوروبيَّة حينذاك تجربةً كبيرةً في العلاقات التجاريَّة مع العالم الشرقي، وأقام حكّامها علاقاتٍ دبلوماسيَّة وعسكريَّة مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، التي اندمجت تدريجًا في الحياة السياسيَّة الأوروبيَّة العامَّة؛ إضافةً إلى أنَّ بعض الحكام العرب (تحديدًا سلطان المغرب) ابتعد من سياسة الانعزال بالتدريج.

احتفظ حوض البحر المتوسِّط في القرن الثامن عشر بأهمِّية دينيَّة وثقافيَّة بالنسبَّة إلى العالم المسيحي[8]، تعزَّزت خلال عصر التنوير، مع تنامي الاهتمام بالتقاليد الإغريقيَّة والرومانيَّة القديمة.

على امتداد القرن الثامن عشر، لم يفقد حوض البحر المتوسِّط دوره، بوصفه مركز تقاطع خطوط المواصلات بين كلٍّ من أوروبا وآسيا وأفريقيا[9]، تمثَّلت فيه مصالح جميع الدول الأوروبيَّة التجاريَّة تقريبًا[10]. فكان للاتجاه المشرقي في حوض البحر المتوسِّط وزنٌ كبيرٌ في تجارة فرنسا، وبدرجة أقلَّ في تجارة إنكلترا[11]، التي كان تؤمِّن وصول البضائع الشرقية إلى أوروبا.

---

(8) حدَّد ف. أ. جوكوفسكي هذا التصوُّر بدقة في منتصف أربعينيَّات القرن التاسع عشر، في رسالةٍ إلى ن. ف. غوغول، مساويًا بين أهمِّية وجود الأخير في القدس، «أرض الوحي المقدَّسة»، وإمكان زيارة طروادة، «أرض الأساطير البطوليَّة الكلاسيكيَّة»: В. А. Жуковский — Н. В. Гоголю. 7 апреля 1848 г., in: *Переписка Н. В. Гоголя в двух томах*, Сост. А. А. Карпова и М. Н. Виролайнен (М., 1988), tome, I, с. 218.

[ف. أ. جوكوفسكي إلى ن. ف. غوغول، 7 نيسان/ أبريل 1848، في: **مراسلات ن. ف. غوغول في جزئين**، جمعها أ. أ. كاربوفا وم. ن. فيرولاينين (موسكو، 1988)، مج 1، ص 218].

(9) ما كان بإمكان كاترينا الثانية إلا أن تأخذ هذا الأمر في حسبانها، فكتبت مستاءة من عدم رغبة إنكلترا في إدراج البحر المتوسِّط في عداد البحار الأوروبيَّة، التي كان ملك إنكلترا جاهزًا لتوسيع نطاق التعاون العسكري فيها مع روسيا: «هل البحر الأبيض المتوسِّط أوروبيٌّ أم لا؟ والأرخبيل أيضًا؟ الأول يقع بين أفريقيا وأوروبا، والآخر بين آسيا وأوروبا». اقتباس من: С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, с. 512.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14، ص 512].

(10) حتَّى مصالح التجار الرُّوس التي دافع عنها القنصل السويدي في المغرب مثلًا(!). يُنظر: Мусатова, *Россия - Марокко: далекое и близкое прошлое.*

[موساتوفا، **روسيا - المغرب: الماضي البعيد والقريب**].

(11) بلغت حصة فرنسا 60 مليون ليرة - بحسب المعطيات التي أوردها م. س. أندرسون - من =

تميَّزت هذه المنطقة بخصوصيَّة البيئة الإثنية الثقافيَّة والوضع السياسي - الاقتصادي. فكان المشرقي - الذي يقطن شمال شرق البحر الأبيض المتوسِّط - يمثِّل نموذجًا للإنسان الكوسموبوليتي، المنخرط في علاقات سياسيَّة واقتصاديَّة بالغة التعقيد، قائمة بين العالمين المسيحي والإسلامي. ولمَّا كان ممثِّلو العائلات اليونانيَّة والسلافيَّة ملّاكين كبارًا للأراضي وأصحاب سفن وقراصنة مفوَّضين[12] وتجارًا مسالمين في آن، بل مصرفيين في بعض الأحيان، فقد عملوا على تقديم الخدمات واضطلعوا بدور الوساطة التجاريَّة في منطقة البحر المتوسِّط. ولقد جسَّد هذا النموذج (الشخصيَّة) الاجتماعي - الثقافي وحدة المنطقة. لكنَّ ذلك لم يمنع سكَّان هذه المنطقة من أن يكونوا حاملين وعيًا وطنيًّا ناشئًا خاصًّا، يحفِّزهم على المخاطرة بحياتهم وحياة أقربائهم وبممتلكاتهم، وذلك باسم المصالح الوطنيَّة والدينيَّة.

على أرضية الافتتان بالثقافة اليونانيَّة - الرومانيَّة الكلاسيكيَّة، الذي ميَّز عصر التنوير، نشأت هنا علاقات ثقافيَّة راسخة بين المثقَّفين الفرنسيين والإنكليز والإيطاليين واليونانيين والألبان والسلافيين. وكان الأيبيري[13] أنطونيو جيكا، والهيلينيَّان الإيطاليان فرانتشيسكو ماريو باغانو ودومينيكو ديوداتي، هم من وضع صيغة «نداء اليونانيين الى أوروبا المسيحيَّة» وغيره

---

= مجموع تجارة الدولة العثمانيَّة الخارجيَّة التي بلغت 110 ملايين ليرة في عام 1783. وكانت لتجارة بريطانيا مع روسيا الأهمِّية نفسها التي مثَّلتها تجارة فرنسا مع المشرق. يُنظر: M. S. Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» *Slavonic and East European Review*, no. 31 (1952-1953), p. 149.

(12) **القراصنة المفوَّضون** (Corsaire بالفرنسية، Privateer بالإنكليزية، Kaper بالألمانية، والمؤلِّفة تعتمد المصطلح الألماني): هم القراصنة الذين يمارسون ما يُسمَّى «القرصنة التفويضيَّة»، وهي القرصنة البحريَّة المستندة إلى وثائق تفويض (letter of marquee)، كانت تمنحها الدول لسفن مدنيَّة مسلَّحة لمهاجمة السُّفن المنتمية إلى دول معادية للدولة صاحبة التفويض، ولا سيَّما التجاريَّة منها. والفرق بين القرصنة التفويضيَّة واللصوصيَّة البحريَّة (القرصنة المنفردة) يتمثَّل في حصرها خلال فترات الحروب وبناءً على وثائق تفويض رسميَّة، ناهيك بإلزامية تفريغ غنائمها في موانئ الدولة المفوِّضة واقتطاع نسبةٍ منها لصالحها. وكان القراصنة المفوَّضون يُعامَلون باعتبارهم أسرى حرب عند القبض عليهم، ولم تكن تسري عليهم عقوبات اللصوصيَّة البحريَّة. وقد نصَّت معاهدة باريس لعام 1856، التي أعقبت حرب القرم (1853-1856)، على إلغاء القرصنة التفويضيَّة، وصادقت كلُّ الدول على هذه المعاهدة، باستثناء الولايات المتحدة الأميركية. (المترجم)

(13) نسبةً إلى آبيروس، إقليم في شمال غرب اليونان. (المترجم)

من النتاجات الأدبيَّة التي عكست وجهات النظر الوطنيَّة اليونانيَّة[14]. وفي فرنسا، انعكست الاتصالات ما بين القوميَّات المتوسطيَّة في وصف أسفار ج. ليروا (1754-1755)، وب. أ. غي (1771)، وشوازول غوفيه (1783) إلى اليونان، ورحلات كلٍّ من ر. تشاندلر (1774-1776)، ور. فود (1753-1769) إلى بريطانيا وغيرهم[15]. وسيتناول الكتاب دور الرُّوس في هذه العمليَّة.

جرت في منطقة البحر الأبيض المتوسِّط خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر أحداثٌ، ونضجت نزاعاتٌ وَجَدَت حلولًا جزئيَّة لها في القرن التاسع عشر. إنَّها أزمة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة السياسيَّة الداخليَّة، التي تجلَّت بظهور الحركات القوميَّة في اليونان والبلقان، وبروز الحركات الإثنية - الإقليميَّة الانفصاليَّة في العالم العربي (العثماني) التي مهَّدت لانهيارها. وفي الوقت نفسه، كانت الدول الأوروبيَّة تعيش فترة ما قبل الاحتلالات الاستعماريَّة في المنطقة، وكانت على أُهبَة الدخول في صدامات في ما بينها على خلفيَّة تلك الاحتلالات.

أوحى حدس كاترينا الثانية السياسيُّ لها أنَّه فضلًا عن ضرورة خلق مقوِّمات تطوير التجارة الروسيَّة في حوض البحر المتوسِّط، فمن المهمِّ في الظروف الناشئة ترسيخُ حضور روسيا السياسي في هذه المنطقة.

كانت لسياسة كاترينا الثانية المتوسطيَّة جذورٌ تمتدُّ إلى الماضي البعيد. وقد اكتست فكرتها معنى رمزيًا، يعود إلى مفهوم روما الثالثة[16] الديني، الذي مارس منذ بداية القرن السادس عشر تأثيره في «طموحات القياصرة الرُّوس

---

(14) Ф. Вентури, «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» in: *XVIII век*, Сб. 10 (Л.: Наука, 1975), с. 119-126.

[ف. فينتوري، «الأصداء الأدبيَّة النابوليتانيَّة للحرب الروسية - التركية (1768-1774)»، في: **القرن الثامن عشر**، مج 10 (لينينغراد، 1975)، ص 119-126].

(15) لمزيد من التفصيل، يُنظر: D. Constantine, *Early Greek Travelers and the Hellenic Ideal* (Cambridge, 1984); O. Augustinos, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era* (Baltimore; London, 1994); J. M. Osborn, «Travel Literature and the Rise of Neo-Hellenism in England,» *Bulletin of the New York Public Library*, no. 67 (1963), pp. 279-300.

(16) أي إنَّ موسكو هي روما الثالثة. (المترجم)

السياسيَّة»[17]. ويعود كذلك إلى الاعتقاد المنتشر في البلقان عن رسالة مبهمة لـ «شعبٍ روسيٍّ» سيحرِّر روما الثانية (القسطنطينيَّة) من الكفار.

من المعروف جيدًا أنَّ مفهوم روما الثالثة تَشَكَّل تحت تأثير التحوُّلات والصَّدمات في حياة دولة موسكو السياسيَّة والدينيَّة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر: الوحدة الكنسيَّة في مجمع فلورنسا وإعلان بطريركيَّة موسكو مستقلَّة، سقوط القسطنطينيَّة (1453)، الانعتاق من النِّير المغولي - التتري (1480)، ثمَّ أخيرًا توقُّعات نهاية العالم في عام 7000 (1492). وفي عام 1492، أصدر المتروبوليت زوسيما «بيان حساب عيد الفصح» الذي دحض فيه الشائعات عن نهاية العالم، وأكَّد بداية الألفية الجديدة، وأعلن موسكو قسطنطينيَّة جديدة تحلُّ محلَّ تساريغراد المتهاوية، وتتويج حاكمها الجديد إيفان الثالث تحت اسم **عاهل عموم الروسيا وحاكمها المطلق، القيصر الجديد صاحب مدينة القسطنطينيَّة الجديدة (موسكو) وعموم الروسيا وسائر الأراضي الأخرى**[18]. ولا بدَّ من أن نأخذ في الاعتبار أنَّ فكرة موسكو «روما الثالثة» حملت منذ بداية نشأتها، وقبل كلِّ شيء، معنى داخليًّا سياسيًّا وروحيًّا، تَمثَّل في تسويغ توطيد سلطة أمير موسكو العظيم، وإعادة ملء موقع العالم الأرثوذكسي الضائع، بسبب اختفاء شخصيَّتها المحورية: بازيليوس[19]، قيصر العالم الأرثوذكسي الأوحد[20].

---

(17) Б. А. Успенский, «Восприятие истории в Древней Руси и доктрина «Москва - Третий Рим»,» in: Б. А. Успенский, *Этюды о русской истории* (СПб., 2002), с. 89-148.

[ب. أ. أوسبينسكي، «فهمُ التاريخ في روس القديمة وعقيدة «موسكو - روما الثالثة»»، في: ب. أ. أوسبينسكي، **مطالعات في التاريخ الروسي** (سان بطرسبورغ، 2002)، ص 89-148].

(18) المرجع نفسه.

(19) لقب الأباطرة البيزنطيين. (المترجم)

(20) في «رسالة بطريرك القسطنطينيَّة أنطونيوس الرابع إلى أمير موسكو العظيم فاسيلي الأول ديميتريفيتش» (1393) حُظِّر على متروبوليت موسكو «ذكر اسم القيصر الإلهي في الدبتيك» (عُنِيَ بذلك، أمير موسكو فاسيلي الأول)، بما أنَّه **يوجد قيصر واحد في الكون هو الإمبراطور البيزنطي بازيليوس الروم**، إمبراطور بيزنطة». يُنظر: Н. В. Синицина, *Третий Рим, Истоки и эволюция средневековой концепции, XV-XVI вв.* (М., 1998), с. 61.

[ن. ف. سينيتسينا، **روما الثالثة، نشوء نظرية القرون الوسطى وتطوُّرها، القرنان الخامس عشر والسادس عشر** (موسكو، 1998)، ص 61].

=

في بداية القرن السادس عشر، استُخدِمت أساطير تعود بنسب أمراء موسكو إلى أغسطس قيصر، وأخرى تتحدَّث عن هديَّة مونوماخ[21]، تطويرًا لهذه الفكرة. ولم تستعمل هذه الأساطير في المناظرات الكنسيَّة فحسب، بل الدبلوماسيَّة أيضًا[22]. وأخيرًا، ماثل النَّاسك فيلوفي - استنادًا إلى النُّبوءات التوراتيَّة - قرابة عام 1523 دولة موسكو بـ «مملكة الروم» (إمبراطوريَّة المسيحيين «الرَّاسخة»)، «الوطيدة»، التي ظهرت مع المسيحيَّة («كما الرب بارك السلطة الرومانيَّة»)، المقدَّر لها البقاء حتَّى يوم القيامة. وبحسب فيلوفي، فإنَّ التاريخ تحقَّق عبر translatio imperii، أي من خلال تَجَسُّد إمبراطوريَّة الروم الأرثوذكسيَّة الحقيقيَّة ثلاث مرَّات: في الإمبراطوريَّتين الرومانيَّة والبيزنطيَّة، ثم في مملكة موسكو. وأمَّا رسالة القيصر الأرثوذكسي الأوحد، الموروثة من

---

= [الدبتيك (diptych بالإنكليزية): تعني اللوح المزدوج. وهما لوحان من خشب أو معدن أو عاج، كان الإغريق والرومان يَصِلون ما بينهما بنوع من المفصلات، ويكسون باطنهما بالشمع، ثم يكتبون عليهما بقلم خاص. وفي ما بعد، صار الدبتيك يُطلق على قائمة الأسماء التي يجري ذكرها في أثناء القداس في الكنيسة]. (المترجم)

(21) يُنظر: المرجع نفسه، ص 126.

[مونوماخ فلاديمير (1053-1125): ابن الأمير فيسيفولود ياروسلافوفيتش وماريا مونوماخ ابنة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع مونوماخ. تقول الأسطورة إنَّ الأمير فلاديمير استدعى في عام 1114 الأعيان وأعلن أمامهم قائلًا: «لقد ذهب الأمير العظيم أوليغ إلى تساريغراد وعاد سالمًا معافى محمَّلًا بالهدايا، ثم حذا الأمير العظيم سفياتيسلاف حذوه وعاد من مدينة القيصر بجزية عظيمة. ونحن بحمد الله جديرون بشرفٍ مماثل؛ ثم حشد جيشًا جرَّارًا وأرسله إلى تراقيا، وعاد بغنائم عظيمة وبآلاف الأسرى. وكان الفرس واللاتين يهدِّدون بيزنطة حينذاك، وكان الإمبراطور قسطنطين التاسع، جد فلاديمير، على عرشه. وتجنُّبًا للحرب، أرسل الإمبراطور إلى حفيده هدايا ثمينة على شرف اعتلائه العرش، من بينها وعاء من الذهب وعليه صليب مذهَّب وإكليل قيصري وأوشحة مقدَّسة وسلسلة من الذهب العربي. بهذه الهدايا بارك الإمبراطور البيزنطي الأمير فلاديمير حاكمًا مطلقًا على عموم الروسيا ومنحه لقب مونوماخ».. هذا ما تقوله الأسطورة. أمَّا في الواقع فإنَّ قسطنطين التاسع توفي حين كان فلاديمير لا يزال في الثانية من العمر. ويؤكِّد المؤرِّخون أنَّ فلاديمير لم يحمل لقب مونوماخ في حياته، بل أضيف هذا اللقب إلى اسمه بعد وفاته]. (المترجم)

(22) يُنظر: К. Ю. Ерусалимский, «История на посольской службе: дипломатия и память в России XVI в.,» in: *История и память: Историческая культура Европы до начала нового времени* Под ред. Л. П. Репиной (М., 2006), с. 664-731.

[ك. ي. يروساليمسكي، «تاريخ الخدمة في السفارة: الدبلوماسيَّة والذاكرة في روسيا في القرن السادس عشر»، في: **التاريخ والذاكرة: ثقافة أوروبا التاريخيَّة حتَّى بداية العصر الحديث**، بإشراف ل. ب. ريبينا (موسكو، 2006)، ص 664-731].

الأمير العظيم، فتلخَّصت في صيانة التقوى بوصفها ثروة العالم الأرثوذكسي الأساسيَّة.

لم تكن مؤلَّفات فيلوفي متمحورة حول فكرة استحواذ القياصرة على الحكم[23] - كما هو «بيان حساب عيد الفصح لزوسيما» - بل كانت مهمَّة في حينه فحسب، من أجل تأكيد وضع حاكم موسكو الخاص وتتويجه على المملكة[24]. وكان اعتراف البطاركة الشرقيين بالحاكم الروسي قيصرًا أوحد على العالم الأرثوذكسي قد ورد في ميثاق عام 1562، وثُبِّت في ميثاق عام 1588 الذي تبنَّاه البطاركة الموسكوبيُّون واليونانيُّون لمناسبة تأسيس بطريركيَّة موسكو. في غضون ذلك، شهدت فكرة «روما الثالثة» تغييرًا في ميثاق عام

---

(23) لم يظهر التصوُّر عن الحقِّ في «الإرث البيزنطي» بفضل زواج إيفان الثالث بصوفيا باليولوغ في الدوائر السياسيَّة والكنسيَّة الروسيَّة، بل في الدوائر الإيطاليَّة، وذلك بهدف جرِّ مملكة موسكو إلى المشاركة في العمل ضد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. يُنظر: Синицина, с. 216-219; Макарий (Булгаков), *митрополит московский и коломенский: История русской церкви* (М., 1996), Кн. IV, Ч. 2, с. 191.

[سينيتسينا، ص 216-219؛ ماكاري (بولغاكوف)، **متروبوليت موسكو وكولومنسك: تاريخ الكنيسة الروسيَّة** (موسكو، 1996)، الكتاب الرابع، القسم الثاني، ص 191].

(24) هكذا، يبدو أنَّ إيفان الرابع الذي استشعر الخلل في شرعيَّة تتويجه متروبوليت على موسكو، وليس بطريركًا مسكونيًّا، توجَّه في عام 1557 إلى بطريرك القسطنطينيَّة بطلب منحه وثيقة مباركة بالحكم، مرفقًا طلبه هذا بالهدايا الكثيرة. وجاء الجواب في عام 1562 مع ميثاقٍ موقَّع من البطريرك ومن مطارنة بطريركيَّة القسطنطينيَّة يبارك تسمية إيفان الرابع قيصرًا متوَّجًا بالحق والقانون. ويبدو أنَّ هذا الاعتراف هو ما دفع المطارنة الشرقيِّين إلى التقرُّب من موسكو. وفي كل الأحوال، طلب بطريرك إنطاكيا يواكيم (ليس من دون مباركة البطريرك المسكوني الذي زاره في أسقفيته من دون شك) الإذن من القيصر بعد زيارة غاليتسيا في عام 1586 بزيارة موسكو. وكانت تلك الزيارة الأولى لبطريركٍ شرقيٍّ إلى دولة موسكو، وقد استقبله القيصر فيودور بكلِّ مظاهر الاحترام، وطلب منه المساعدة في تأسيس بطريركيَّةٍ في موسكو. فأبدى يواكيم شكره للمساعدة الماليَّة التي قدَّمها القيصر إلى الكنائس الشرقيَّة، ووافق على أنَّه من «المستحسن» أن تكون في موسكو بطريركيَّة، لكنَّه اشترط أن يكون القرار صادرًا عن مجمع البطاركة الشرقيِّين ومطارنة جبل آثوس وسيناء كافَّة. وبعد مرور عامين، أي في عام 1588، شارك البطريرك المسكوني إرميا - الذي جاء طالبًا المساعدة الماليَّة - في تأسيس الكرسي البطريركي بكاتدرائية رقاد السيدة العذراء في الكرملين، وفي انتخاب المتروبوليت أيوب بطريركًا. وفي عام 1590، أكَّد مجمع البطاركة الشرقيِّين انتخاب أيوب وعلى حقِّ مجمع موسكو في تنصيب بطاركته في المستقبل. يُنظر: Макарий (Булгаков), Кн. IV, Ч. 2, с. 45-46, 175.

[ماكاري (بولغاكوف)، الكتاب الرابع، القسم الثاني، ص 45-46، 175].

1588: فتحت تأثير رجال الدين اليونانيين، خلت هذه الفكرة من النزعة المعادية لليونانيين، ولم يعد يجري الحديث فيها عن سقوط روما الجديدة - القسطنطينيَّة - بسبب الارتداد عن الإيمان، بل عن استيلاء أحفاد الهاجَرِيين الأتراك الكفار عليها. وبدلًا من مملكة الروم، التي اجتمعت فيها كلُّ الممالك، صار الحديث يدور عن مجمع «المملكة الروسيَّة واليونانيَّة العظمى»[25]. وبكلام آخر، باتت مملكة اليونان - التي قال فيلوفي إنَّها «دُمِّرت ولن تقوم لها قائمة» - تُعتَبرُ كيانًا قائمًا وفاعلًا على نحوٍ غيبي. وترافق اعتراف رجال الدين اليونانيين بحاكم موسكو قيصرًا أوحد على العالم الأرثوذكسي مع توافد البطاركة الشرقيين المتكرِّر إلى موسكو، طلبًا للدعم المادي والمساعدة؛ بل إنَّه اقترن بشكلٍ أساسيٍّ بآمالهم في التحرُّر من السيطرة العثمانيَّة على يد القوات الروسيَّة. وشهدت فكرة المملكة اليونانيَّة تحوُّلًا في ما بعد، فبرزت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بوصفها مشروعًا لإحياء الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تحت الحماية الروسيَّة.

منذ نهاية القرن السادس عشر، توسَّل بطريرك القسطنطينيَّة إرميا إلى حاكم موسكو تخليص المسيحيين من «البرابرة الفظيعين» و«الهاجَرِيين الوثنيين المخيفين»[26]. وجدير بالذكر أنَّ إيفان الرابع نفسه طلب من الأساقفة الشرقيين الصَّلاة من أجل إنقاذ «جماعتنا» وتخليصهم من الأعداء، المرئيين وغير المرئيين، وحماية «مملكتنا» من كلِّ أنواع الشرور. وهو صلَّى أيضًا من أجل تخليص «الجنس المسيحي» في كلِّ مكان من «ظلم الهاجَرِيين الغرباء»، **لكن من دون أن يأخذ على عاتقه عبء تحقيق التحرير.** وينقل التاجر فاسيلي

---

(25) Синицина, с. 302.

[سينيتسينا، ص 302].

تقدم سينيتسينا ن. ف. عرضًا تحليليًّا مفصَّلًا عن التغيير الذي طرأ على عقيدة فيلوفي في ميثاق عام 1588 وفي أقوال إرميا (ص 29-302).

(26) Н. Ф. Каптерев, *Характер отношений России к православному Востоку в XVI и XVII столетиях*, Изд. 2 (Сергиев Посад, 1914), с. 350.

[ن. ف. كابتيريف، طابع علاقات روسيا بالشرق الأرثوذكسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ط 2 (سيرغييف بوساد، 1914)، ص 350].

بوزنياكوف - الذي أوفده إيفان الرابع مع الهدايا إلى الأساقفة الشرقيين - في كتابه رحلة الحج عن بطريرك الإسكندريَّة يواكيم قوله: «كما ورد في كتبنا اليونانيَّة، سيظهر قيصرٌ من بلاد أرثوذكسيَّة شرقيَّة، وسيُخضِع الربُّ له ممالك عدَّة، وسيُمجَّد اسمه من الشرق إلى الغرب، كما في زمن الإسكندر الغابر، قيصر مقدونيا، وسيتربَّع قيصرًا على عرش المدينة، ولسوف نتخلَّص على يده من الأتراك الكفار»(27) (بحسب رأي نيقولاي فيدوروفيتش كابتيريف، علَّق يواكيم الإسكندراني على إيفان الرابع الآمال، مُعتِقدًا أنَّ الرب «سوف يجعل كلَّ الممالك تجثو صاغرةً عند قدميه»)(28).

بدا أن اللازمة المعروفة عن حماية إخوة الدين تتكرَّر في هذه النصوص؛ ولكن ما إنْ مرَّ وقتٌ قصيرٌ حتَّى اكتسبت آمال المُضطهَدين معنى جديدًا، فبات يُنظَر إلى فعلِ التخلُّص من «الكفار» باعتباره تحقيقًا لهدفٍ قديمٍ، وصار يُقرأ في نهاية المطاف على نحوٍ صحيح، ليُلقي مهمَّة تحرير القسطنطينيَّة على عاتق الشعب الروسي.

تعود التكهُّنات والتنبُّؤات المنتشرة في عالم شرق البحر المتوسِّط المتَّصلة بسقوط الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة إلى نصوص النبي التوراتي دانيال عن موت ممالك أربع؛ وهي كانت، إلى حدٍّ ما، تأويلات لها(29). وقبل

(27) «Хождение купца Василия Познякова по Святым местам Востока,» in: *ППС* 18-й вып (СПб., 1887), t. 6, Вып. 3 (18), c. 6.

[«رحلة التاجر فاسيلي بوزدنيكوف إلى الأماكن المقدسة في الشرق»، في: **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسيَّة**، الإصدار الثامن عشر (سان بطرسبورغ، 1887)، مج 6، الإصدار 3 (18)، ص 6].

(28) Каптерев, c. 350.

[كابتيريف، ص 350].

(29) تحتوي التعليقات على كتاب رحلة حج فاسيلي بوزنياكوف (خ. لوباريف، على ما يبدو) على التنبُّؤات والتأويلات الأشهر، بدءًا من ميثوديوس الباتاري (القرن الرابع)؛ خسرو أنوشروان (531-579)؛ مكسيموس المعترِف (توفي قرابة عام 662)؛ الإمبراطور ليو الفيلسوف (886-912) ...إلخ، انتهاءً بالنقش على ضريح الإمبراطور قسطنطين.

[ميثوديوس: لاهوتيٌّ مسيحيٌّ من القرن الرابع صاحب مؤلَّفات ضد عقيدة أوريغانوس في التعاليم الأخلاقيَّة وفي تفسيرات الكتاب المقدَّس، وقد قطع الوثنيُّون رأسه بالسيف. وهناك خلاف حول الكرسي الذي شغله، ويعتقد اليونانيُّون أنه كان أسقف مدينة أولمبوس في ليكيا، وهي مقاطعة في جنوب اليونان كان =

استيلاء الأتراك على القسطنطينيَّة، أكَّدت تأويلات هذه التنبُّؤات على سقوط الإمبراطوريَّة المرتَقَب. وبعد أن جاءت الأحداث لتؤكِّد تلك التنبُّؤات، انتقل الاهتمام إلى ذاك الجزء منها الذي يتحدَّث عن المحرِّرين، «عن شعب الرُّوس»[30]. فبعدما كان يجري الحديث قبل القرن الخامس عشر عن تخمين من سيستولي على المدينة، انحصر الأمر الآن في التفتيش عمَّن سينقذها.

---

= سكَّانها يتحدَّثون اللغة الحِثيَّة، وقد احتلها الإسكندر المقدوني، وكانت تابعةً لبلاد فارس وللإمبراطوريات الرومانيَّة والبيزنطيَّة والعثمانيَّة في حقبات مختلفة قبل أن تعود إلى اليونان. ومن مدنها أولومبوس وبترا وتيلمس وغيرها. ووفقًا للأسطورة المسيحيَّة، فإنَّ الرسول بولس عرَّج عليها قبل رحلته إلى روما، حيث وصل من ثَمَّ إلى صور. وتُخلِّد الكنيسة الأرثوذكسيَّة ذكرى استشهاده في العشرين من حزيران/ يونيو.

**خسرو أنوشروان**: شاهنشاه من سلالة الساسانيِّين، قام بالإصلاحات وعزَّز السلطة المركزيَّة، وأنشأ المباني وطوَّر الفنون والعلوم. اشتبك مع البيزنطيِّين واحتلَّ اليمن ومناطق في الشرق، وتُعتبر مرحلة حكمه هي الأقوى في تاريخ إيران.

**مكسيموس المُعترِف**: راهب ولاهوتي وفيلسوف مدافعٌ عن العقيدة الديوثيليَّة التي تعترف بطبيعة المسيح الثنائيَّة، وأحد مُعارِضي سياسة الأباطرة البيزنطيِّين بدمج الكنيسة مع أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة. وهو يُعتبر قدِّيسًا في الكنيستين الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة. وتخلِّد الكنيسة الروسيَّة ذكراه في الخامس عشر من آب/ أغسطس.

**الإمبراطور ليو السادس الحكيم (الفيلسوف)**: إمبراطورٌ بيزنطيٌّ من سلالة المقدونيِّين، اكتسب لقب «الحكيم» لإعادته تنظيم شؤون الحكم الوضعي والكنسي وصياغة القوانين البيزنطيَّة. أكمل ما بدأه أبوه باسيليوس الأول من وضعٍ للقواعد الكنسيَّة باللغة اليونانيَّة مع تعليقات عليها وإضافات إليها]. (المترجم)

(30) «Хождение купца Василия Познякова,» c. 80-81.

[«رحلة حج التاجر فاسيلي بوزنياكوف»، ص 80-81].

[تنقل رواية «حكاية سقوط القسطنطينيَّة»، للكاتب نسطور إسكندر هذه النبوءات على النحو الآتي: «إذا كانت نبوءات ميثوديوس من باتارا وليو الحكيم عن هذه المدينة ستتحقَّق، فإنَّ شعب الرُّوس سينتصر على الإسماعيليين، بالتعاون مع مؤسِّسي المدينة، وسيسترجع المدينة ذات التلال السبع مع أصحابها الأصليِّين» (عُرِف المسلمون باسم الإسماعيليين - بحسب التقاليد الروسية القديمة - أي نسل إسماعيل ابن هاجَر، وفقًا لما جاء في الكتاب المقدَّس). وأمَّا نسطور إسكندر فهو كاتب روسي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، جاء إلى تركيا واعتنق الإسلام، وشارك مع الأتراك في فتح القسطنطينيَّة في عام 1453، لكنَّه بقي مسيحيًّا في السرِّ وتعاطف مع اليونانيِّين. تتضمَّن روايته فكرة عن أن بيزنطة أكملت تطورَّها، وثمَّة أسطورة تقول بسقوطها خلال معركة تندلع بين الثعبان والنسر (الإسلام والمسيحيَّة). واستنادًا إلى تلك الأسطورة، قال إنَّه سيظهر في المستقبل «شعب الرُّوس» الذي سيخلِّص القسطنطينيَّة من الغزاة بالقوة. ونسطور هذا هو أيضًا مؤلِّف كتاب **حوليَّات السنين الغابرة**]. (المترجم)

كانت التنبُّؤات بسقوط الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة معروفةً في روسيا منذ زمن كتابة **حوليَّات السنين الغابرة**، التي استند إليها الناسك فيلوفي. وفي بعض إصدارات المؤرِّخ الروسي، تحول «جنس الرُّوس» القديم إلى «شعبٍ روسيٍّ»، على غرار تحوُّل دولة «الرُّوم» إلى دولة روسيَّة (نعتقد أنَّ ثمَّة شطحة قلمٍ أو خطأ وقع فيه الناسخ في هذا الطرح، أكثر ممَّا هو «فكرة سياسيَّة وإرهاصاتُ تأمُّلاتٍ مستقبليَّة - وليس تأمُّلات فحسب - في ما يتعلَّق بدور روسيا في تحرير الشعوب السلافيَّة من السيطرة التركيَّة»، كما تفترض نينا فيسيليفنا سينيتسينا مع كل التحفُّظات)[31].

لم تكتسب التمنِّيات الطيبة بتحرير إخوة الدين من النِّير الإسلامي على يد القيصر الروسي مغزى واقعيًّا في البيئة اليونانيَّة، إلا في منتصف القرن السابع عشر، وذلك في خطط بطريرك القدس باسيوس[32]. ولم تلقَ الآمال بالتحرُّر بمساعدة الرُّوس انتشارًا واسعًا في أوساط اليونانيين وسلافيي البلقان والمولدافيين والرومان، إلا في نهاية القرن السابع عشر، عندما بدأت روسيا، الشقيقة في الإيمان، تستعرض نجاحاتها العسكريَّة، في حين عملت النَّمسا والبندقيَّة الكاثوليكيَّتان، حيث أرغمتا السكَّان الأرثوذكس على قبول الوحدة المسيحيَّة بعد تحريرهم من الأتراك[33].

استجابت القيصرة صوفيا إلى نداءات طلب المساعدة في التحرير، واعدةً

---

(31) Синицина, с. 268.

[سينيتسينا، ص 268].

(32) يُنظر: К. А. Панченко, *Османская империя и судьбы православия на Арабском Востоке (XVI - начало XIX века)* (М., 1998), с. 84-85.

[ك. أ. بانتشينكو، **الإمبراطورية العثمانية ومصائر الأرثوذكسية في الشرق العربي (القرن السادس عشر - بداية القرن التاسع عشر)** (موسكو، 1998)، ص 84-85].

(33) يُنظر: Каптерев, с. 373-375.

[كابتيريف، ص 373-375].

كتب فيلوفي أيضًا لائمًا اللاتين: «إذا كان الهاجَريُّون يفرضون سلطتهم على اليونانيِّين، فهم لا يُسيئون إلى إيمانهم ولا يُكرِهونهم على الارتداد عن دينهم»، وربطًا بذلك، انتشر بين أرثوذكس الإمبراطوريَّة العثمانيَّة اعتقاد مفاده أنَّ حكم السلطان أفضل من حكم الكاثوليك.

بالانضمام الى قوَّات إخوة الدين الثائرين ضد الأتراك، بعد نجاح الحملة في القرم، ليقطع من بعدها بطرس الأول الوعود نفسها. ولكن، انتهت كما هو معروف حملات غوليتسين[34] على القرم بالفشل، وأمَّا حملة بطرس على بروت[35] فكادت تتحوَّل إلى كارثة[36].

في غضون ذلك، مع نجاحات كاترينا الثانية الأولى في الحرب الروسيَّة - التركيَّة، اكتسبت الأساطير القائلة بتحرير اليونانيين مباشرةً على يد «أصحاب الشعر الأشقر»، أو الشعب «الروسي» مجدَّدًا - كما سنبين في ما بعد - حيويَّةً وانتشارًا واسعًا في أرجاء الإمبراطوريَّة العثمانيَّة كافَّة.

في نهاية القرن السابع عشر، عندما بدت آمال الأرثوذكس بتحرير تساريغراد أقرب الى التحقُّق، برزت في البيئة اليونانيَّة خلافاتٌ في صدد كيفيَّة تَعَامُل الحاكم الروسي مع الأراضي البيزنطيَّة المُستعادة. وفكَّرت القيصرة صوفيا بمنح الثوار التابعيَّة الروسيَّة، الأمر الذي جعل حاكم فالاشيا[37]، مثلًا، يسأل عن ماهيَّة شروط هذه التابعيَّة[38]. ويمكن الحكم على وجود اختلافات في وجهات نظر النُّخب الأرثوذكسية اليونانية في ما يتعلَّق بمستقبل بيزنطة المحرَّرة، من رسائل كبار الكهنة الأرثوذكس الشرقيين، التي دعا فيها بعضهم القيصر إلى اعتلاء العرش البيزنطي، فيما دعا بعضهم الآخر إلى تسليم العرش إلى الوَرَثة (اليونانيين، على ما

(34) الأمير غوليتسين: قائد الجيش الروسي في الحملات على القرم. (المترجم)

(35) حملة عسكرية ضد الإمبراطورية العثمانيَّة بقيادة بطرس الأول على ضفاف نهر بروت في مولدافيا في عام 1710، خلال الحرب الروسية - التركية (1710-1713) (المترجم).

(36) عن محاولات تعاون روسيا مع سكَّان البلقان السلافيِّين. يُنظر: Ibid., pp. 375-379; В. Н. Виноградов, «Трагедия на реке Прут,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан,* с. 55-63; И. И. Лещиловская, «Петр I и Балканы,» *Вопросы истории*, no. 2 (2001).

[ف. ن. فينوغرادوف، «مأساة على نهر بروت»، في: فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 55-63؛ إ. إ. ليشيلوفسكايا، «بطرس الأول والبلقان»، **مسائل التاريخ**، العدد 2 (2001)].

(37) منطقة تاريخيَّة تقع جنوب رومانيا، كانت خاضعةً للسلطنة العثمانيَّة. (المترجم)

(38) Каптерев, с. 377-378.

[كابتيريف، ص 377-378].

يبدو)[39]. وإذا كان بطرس الأول قد صرَّح بخصوص هذه الخلافات أنْ ليست لديه مطامع في أراضي إخوة الدين، لم تكن كاترينا الثانية - التي أكملت أعمال بطرس، بعد ستين عامًا - جازمةً إلى هذا الحدّ. (كتب بطرس رسالة إلى سكّان إمارتي الدانوب[40] والبلقانيين بتاريخ 8-19 أيار/مايو 1711، يدعوهم فيها إلى توحيد الجهود المشتركة في الصراع مع الأتراك: «ليست لدينا في هذه الحرب أيُّ أطماع بالسلطة أو بتوسيع مناطقنا أو بأي إثراء؛ **إذ لدينا بنعمة الربِّ الكثيرُ من الأراضي والمدن والكنوز القديمة وتلك التي استولينا عليها من الأعداء**»[41].

فإذ أقرَّت كاترينا بواجبها بحماية الكنيسة الأرثوذكسيَّة وإخوة الدين الأرثوذكس، فقد كانت، كما سنرى، مستعدَّةً منذ عام 1771 لإدراج إمارات مولدافيا وفالاشيا والأرخبيل اليوناني في لقبها (الإمبراطوري)، ومن ثمَّ لمناقشة إمكانيَّة تربُّع ذريَّتها على «العرش اليوناني» في وقتٍ لاحق، في عام 1782.

بكلام آخر، حاولت كاترينا الثانية حلَّ المسائل التي كانت على ما يبدو موروثةً من القرنين السادس عشر والسابع عشر، بما يتلاءم ومصالح روسيا (كما تراها هي).

كان إرسال حملة الأرخبيل المؤلَّفة من خمس عمائر بحريَّة إلى حوض

---

(39) تردَّد صدى هذه الاختلافات في رواية ليونتي زيلينسكي عن لقائه في فلسطين في عام 1765 رئيس أساقفة عكا فيلوفي، أي قبل ثلاثة أعوام من بدء الحرب الروسيَّة - التركيَّة، وكانت معرفته به تعود إلى عام 1751، حين التقيا في قلعة زابوروجي. فقد طرح رئيس أساقفة عكًّا على ليونتي السؤال التالي: «لماذا لا ننتزع اليونان من الأتراك؟ وهل سنعطيها حينها إلى اليونانيِّين ليحكموها كما في السابق، بعد أن ننصب إمبراطورًا منهم؟». لاحقًا، تابعت الاستيضاحات عن أوضاع الخزينة الروسيَّة والقضاء، وعن دور الجدارة والصفات الشخصيَّة في تعيين المسؤولين في روسيا، وكأنَّ رئيس الأساقفة كان يحسب كيف ستكون الحياة في كنف قيصر روسيا. Леонтий Зеленский, Письма монаха Полтавского монастыря о. Мартиниану, in: *АВПРИ*, ф. Библиотека Азиатского департамента, Оп. 506, Д. 7, t. 2, Л. 55.

[ليونتي زيلينسكي، رسائل راهب دير بولتافا الأب مارتينيانو، في: **أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، مجموعة مكتبة القسم الآسيوي، القائمة 506، الملف السابع، مج 2، الورقة 55].

(40) مولدافيا وفالاشيا. (المترجم)

(41) مقتبس من: Виноградов, «Трагедия на реке Прут,» c. 57.

[فينوغرادوف، «مأساة على نهر بروت»، ص 57].

البحر المتوسِّط، إبَّان الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)، خطوة كاترينا الثانية الحقيقيَّة الأولى لتحقيق أهدافها في تلك المنطقة. لقد اقتصر بحث مؤلِّفي هذا العمل على هذه المرحلة الأولى بالتحديد، وعلى التدابير التحضيريَّة لها ضمن سياسة كاترينا المتوسِّطيَّة، التي حصلت خلال ستينيَّات القرن الثامن عشر والنصف الأول من سبعينيَّاته.

كان تاريخ حملة الأرخبيل والأعمال الحربيَّة البحريَّة الروسيَّة في البحر المتوسِّط، وكذلك التعاون مع إخوة الدين اليونانيين والسلافيين، ومع حاكِمَيْ مصر وسوريا العربيَّين، موضوع دراسةٍ جيدة. فضلًا عن ذلك، تحقَّق عملٌ هائلٌ لنشر معظم المصادر الأهمّ، في القرن التاسع عشر[42]. بيد أنَّ الاهتمام بحملة الأرخبيل لم يخفت مع الوقت، بل سُجِّل اهتمامٌ خاصٌّ بها في أثناء العقدين الأخيرين[43]. وبات مفهومًا أنَّ معضلاتٍ جديدةً ظهرت، وصار لا بدَّ من إعادة النظر في بعض الاستنتاجات اليقينيَّة في الأدبيَّات الوطنيَّة والأجنبيَّة. وهكذا، على الرغم من أنَّ المؤرِّخين الرُّوس أشاروا منذ القرن التاسع عشر إلى الخطوات السياسيَّة الداخليَّة والخارجيَّة التي أقدمت عليها كاترينا الثانية ودائرتها الأقرب - ما يمكن أن يُعتبَر جزءًا من التحضير لحملة الأرخبيل - فقد ترسَّخ في الدراسات التاريخيَّة تصوُّر تمسَّك به كلُّ المؤرِّخين المعاصرين - مع استثناءاتٍ قليلة - في صدد عدم ظهور فكرة إرسال الأسطول الى البحر الأبيض المتوسِّط إلا عند بداية الحرب. وفي غضون ذلك، تطلَّبت هذه العمليَّة الضخمة تحضيرًا تمهيديًّا طويلًا في مجال البناء الحربي البحري وفي إعداد الكوادر اللازمة لإنجازها، وكذلك القيام بخطواتٍ سياسيَّة واستخباراتيَّة سريَّة وأعمال دعائيَّة. وتجلَّت الحاجة إلى تحليلٍ عميقٍ للتفاعلات والتأثيرات المتبادلة بين أوروبا وروسيا التي ظهرت

(42) قبل كلِّ شيء، في المجموعات المتعدِّدة الصادرة عن الجمعيَّة الإمبراطوريَّة التاريخيَّة الروسيَّة، وفي إصدارات المجموعة البحريَّة، وفي المواد المتعدِّدة الأجزاء لتاريخ الأسطول الروسي وفي الدوريَّات التاريخيَّة والاجتماعيَّة - الأدبيَّة.

(43) نذكر بالدرجة الأولى مونوغرافيا غ. أ. غريبينشيكوفا وأعمال كلٍّ من ب. ف ستيغني وت. ي. كوبيشانوف وأ. ب. شيروكوراد وغيرهم.

خلال سنوات الحملة، التي حدَّدت مسار العمليَّة التاريخيَّة إلى حدٍّ كبيرٍ في ما بعد.

آن الأوان، على ما يبدو، لفهم الحدود التي أصبحت معها تصوُّرات العصر الثقافيَّة والدينيَّة - التي تقاسمتها كاترينا الثانية مع أناسٍ من دائرتها اللصيقة بها - دافعًا لتزايد اهتمام روسيا بحوض البحر المتوسِّط، وكيف ارتبطت هذه التصوُّرات بالحسابات السياسيَّة الواقعيَّة، وكيف انعكست على أشكال الأفعال السياسيَّة الخارجيَّة وأساليبها. وفي رأينا، فقد أُهمِلت المسائل التاريخيَّة - الأنثروبولوجيَّة عند دراسة تجربة المشاركين الفرديَّة في الحملات الحربيَّة، ومدى تقبُّلهم تلك البيئة السوسيوثقافيَّة التي وجدوا أنفسهم فيها في ظروف الحرب (ترد هذه المسائل في النقاش الراهن والحيوي في الأدبيَّات في ما يتعلَّق بموضوع «استكشاف الفضاء الثقافي الآخر»). وغالبًا ما تبقى خارج اهتمامات المؤرِّخين الحربيين ومؤرِّخي الدبلوماسيَّة تلك القضايا المرتبطة بدراسة استراتيجية السلطات الدعائية، التي عملت على إعداد الرأي العام لتقبُّل أعمال السياسة الخارجيَّة، وبكيفيَّة تفاعل المجتمع مع «الدعم الدعائي» للأفعال الحربيَّة، وماهيَّة قنوات المعلومات التي استخدمها المعاصرون، وكيف صُنِعت الذاكرة التاريخيَّة في صدد الأحداث.

النظر في هذه القضايا هو ما حدَّد هيكليَّة هذه الدراسة، حيث تعمَّدنا تخصيص الفترة التي سبقت حملة الأرخبيل و«تاريخ تحضيراتها السرِّي» (الفصلان الأول والثاني) بحيزٍ أكبر كثيرًا ممَّا خصَّصناه للعمليَّات الحربيَّة في الأرخبيل (الفصل الرابع). كما خصَّصنا حيزًا مُماثِلًا أيضًا لقضايا استكشاف الفضاء «الغريب» ثقافيًا في أثناء تحرُّك الأسطول حول أوروبا (الفصل الثالث)، والحضور في اليونان (الفصل الخامس)، وفي إيطاليا (الفصلان السادس والسابع)، والشرق الأوسط (الفصل الثامن)، مع إيلاء اهتمامٍ مُماثِلٍ لمسألة بناء العلاقات السياسيَّة في هذه «الأراضي الغريبة»، وقضايا استراتيجيَّة السلطات الدعائيَّة (الفصل التاسع) وردَّة فعل الرأي العام حيالها (الفصل العاشر).

ثمَّة في الدراسة ملحقٌ ذو أهمِّية جوهريَّة، ألا وهو رسالة الأمير يوسف الشهابي إلى ألكسي غريغوريفيتش أورلوف؛ وكذلك بحثان خاصَّان متعلِّقان بالموضوع (دراستا إ. م. سميليانسكايا عن مكانة شرق البحر الأبيض المتوسِّط في الوعي الثقافي الروسي، امتدادًا من القرن الحادي عشر حتَّى القرن الثامن عشر؛ وعن مهمَّة كونراد طونوس في مصر الدالَّة على استمرار تلك السياسة الروسيَّة في الشرق العربي، التي وُلدت في مسار الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)).

تطلَّب إنجاز هذا العمل التوجُّه إلى قاعدة مصادر واسعة، تضمُّ مصادر أرشيفيَّة المنشأ (من رسائل كاترينا الثانية وقرارات مجلس البلاط السامي، إلى وثائق التحقيق القضائي الروسي والإيطالي) ورسائل دبلوماسيَّة وخاصَّة ومذكِّرات وعظات كنسيَّة ودوريَّات روسيَّة وإيطاليَّة وفرنسيَّة وهولنديَّة وبريطانيَّة. والجدير ذكره أنَّ الكثير من هذه الوثائق المستخدمة لم يُنشر من قبل.

بُحِثَ أيضًا عن موادٍّ هذه الدراسة في أرشيف الدولة الروسيَّة الخاصِّ بالوثائق القديمة - المتميز على وجه الخصوص بحفظ وثائق مكتب كاترينا الثانية - وفي أرشيف الدولة الروسيَّة الخاصِّ بالأسطول الحربي، وفي أرشيف سياسة الإمبراطوريَّة الروسيَّة الخارجيَّة، وفي أرشيف الدولة الروسيَّة الخاصِّ بالتاريخ العسكري، وفي المتحف البحري العسكري في سان بطرسبورغ، وفي أرشيف معهد التاريخ فيها، وفي أرشيفات البندقيَّة وتورينو وبيزا وليفورنو وفلورنسا، وفي أرشيف فرنسا الوطني والمكتبة الوطنيَّة الفرنسيَّة، وفي المتحف البريطاني، وفي المتحف - المحميَّة في كلٍّ من مدينتي فلاديمير وسوزدال. وقد قدَّم إلينا قسمُ المخطوطات في مكتبة جامعة برينستون نسخةً عن أرشيف جون ألفينستون.

في البحث عن ردٍّ على السؤال في صدد ماهيَّة الصدى العام الذي كان يمكن أن يثيره مشروعٌ بعيدٌ إلى هذا الحدِّ عن الحدود الروسيَّة، توجَّهنا إلى

تحليل مذكِّرات[44] كاتبي الأسفار[45]، معاصري الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى ورواياتهم عن «الأراضي الغريبة».

---

(44) تعود المذكِّرات واليوميَّات الأكثر احتواءً لمعلومات كانت معروفة قديمًا إلى المشاركين في حملة الأرخبيل (س. ك. غريغ، ي. ب. دولغاروكوف، س. ب. خميتيفسكي، س. بليشييف، ف. فيسلي أو ت. نيوبري). وقديمًا، ثمَّن الباحثون أيضًا مذكِّرات كلود ريولير، القائم بالأعمال الفرنسي في سان بطرسبورغ في عام 1762، لاحتوائها معلوماتٍ تاريخيَّةً واسعة. وقد شكَّلت هذه المذكِّرات الأساس لعمله المعروف تاريخ الفوضى في بولندا الذي احتوى موادَّ مهمَّة، ليس عن تقسيم بولندا وحسب، بل أيضًا عن صفحات مشروع كاترينا السياسيّ السرِّية في البحر الأبيض المتوسِّط. غير أنَّ دراسة أدبيَّات المذكِّرات التي تناولت مرحلة الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) بيَّنت عمومًا محدوديَّة محتوى مذكِّرات الشهود من حيث المعلومات. فمن بين أربعين تدوينة مذكِّرات منشورة عن ستينيَّات القرن الثامن عشر وسبعينيَّاته، لم تذكر تسع عشرة منها شيئًا عن حملة الأرخبيل، بينما تطرَّقت إليها تسع عشرة على نحوٍ عابر في معرض تناولها الاحتفال بإبرام معاهدة الصلح في عام 1775. وتضمَّنت تسع مذكِّرات لمشاركين في المعارك سردًا تفصيليًّا عن الحملة البحريَّة وعن الأراضي التي رأوها (من أجل المقارنة نلاحظ أنَّ تمرُّد بوغاتشوف واضطرابات الطاعون، حيث كُرِّس لها ما لا يقلُّ عن ثماني مذكِّرات، ناهيك بالتطرُّق إليها في أماكن أخرى).

[إيميليانو بوغاتشوف: قائد تمرُّد الفلَّاحين في القوقاز بين عامي 1773 و1775 ضد حكم كاترينا الثانية.

تعرَّضت أوروبا بين عامي 1770 و1772 لوباء الطاعون، فكان الأقوى في تاريخها. وإبَّان الحرب الروسيَّة - التركيَّة وصل المرض الى مناطق الدولة العثمانيَّة وإلى كلِّ روسيا، فكانت الجموع في موسكو تتحلَّق حول أيقونة مريم العذراء للتبرُّك، فأصدر المطران أمفروسي في 15 أيلول/ سبتمبر أمرًا بمنع الناس من التجمهر، وبإغلاق الصندوق وسحب الأيقونة منه، ومنع إقامة الصلوات كي لا يتفشَّى الوباء أكثر. وفي اليوم التالي هجمت الجموع على الكاتدرائيَّة العجائبيَّة في الكرملين، ثمَّ أتبعت ذلك بمهاجمتها كاتدرائيَّة دونسكوي حيث اختبأ المطران وقتلته. حينذاك استخدم الجنرال يروبكين القوَّة ضد المنتفضين بعد ثلاثة أيَّام وقمع التمرُّد الذي عُرف بـ «تمرد الطاعون». وحُكم على 300 من المنتفضين بالسجن، وسيق أربعة منهم الى الإعدام شنقًا]. (المترجم)

(45) M. Г. Коковцев, *Описание Архипелага и варварийскаго берега, изъявляющее положение островов, городов, крепостей, пристаней, подводных камней и мелей; число жителей, веру, обряды и нравы их с присовокуплением древней истории, и с тремя чертежами* (СПб., 1786).

[م. غ. كوكوفتسيف، **يوضِّح وصف الأرخبيل والساحل البربري موقع الجزر والمدن والقلاع والموانئ والصخور التي تحت الماء والأماكن الضحلة؛ وعدد السكان وديانتهم وطقوسهم وعاداتهم، إضافة إلى التاريخ القديم وثلاثة رسوم** (سان بطرسبورغ، 1786)]؛ وصف الأرخبيل، الذي وضعه غ. ل. باش كرينين، ورحلة المبعوثين من أسطول سبيريدوف في عام 1772 من ليفورنو إلى روما الملازم سوخوفاتوف، المعاون رجيفسكي، ضابط الصف البحري الأمير غوليتسين والضابط جوكوف (يُنظر الملحقان السادس والسابع [الطبعة الروسية]). يُنظر أيضًا: J. Bruce of Kinnaird, *Travels to Discover the Source of the* =

احتوت سجلّات السُّفن[46] والصحائف التي دوَّنها المهندسون القباطنة والمهندسون الضبَّاط (كارل ريان، غيورغ كيلخين، ياكوف باتالزين، مكسيميليان فون بالين، ميخائيل موجاروف، وميخائيل توزوف وغيرهم)[47] مِمَّن كانوا على مُتُون السُّفن، وصفًا للتفاصيل اليوميَّة عن تقدُّم العمائر البحريَّة الروسيَّة في البحر الأبيض المتوسِّط، وعن وجودها في الأرخبيل، حتَّى عودتها إلى كرونشتاد. وشارك هؤلاء المهندسون الضبَّاط في عمليَّات الإنزال، وبنوا التحصينات على الشواطئ، ونظَّموا تصليحات السُّفن، ورسموا مخطَّطات الموانئ البحريَّة وتخطيطات بناء الأسطول، ووصفوا المعارك الكبرى وانشغالات طواقم السُّفن اليوميَّة. وتُصوِّر السجلَّات المحفوظة أعمال المشاركين اليوميَّة في الإبحار. وتسمح هذه كلُّها بالتأكُّد من تسلسل الأحداث الحربيَّة والاتِّصالات في حوض البحر المتوسِّط مع سلطات مالطا وبورت ماغون وصقلية وسردينيا وجنوى وجزر البندقيَّة في البحر الأدرياتيكي؛ كما تتضمَّن وصف العمليَّات التي قامت بها قوّات روسيا البحريَّة وحلفاؤها العرب[48].

---

*Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773* (Edinburgh; London, 1790), vols. 1-5; Marie = Gabriel Florent Auguste de Choiseul-Gouffier, *Voyage pittoresque de la Grèce* (Paris, 1782), vol. 1; C. E. Volney, *Voyage en Syrie et en Egypt, pendant les années 1783, 1784 & 1785* (Paris, 1787), vols. 1-2.

(46) محفوظة في **أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**. وأُدخلت جزئيًّا في دائرة «ي. ف. تارلي» العلميَّة: E. B. Тарле, «Чесменский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг, (1769-1774),» in: E. B. Тарле, *Сочинения*, t. 10 (M., 1959), c. 11-91.

[ي. ف. تارلي، «معركة شيسما والحملة الروسيَّة الأولى في الأرخبيل (1769-1774)»، في: ي. ف. تارلي، **المؤلفات**، مج 10 (موسكو، 1959)، ص 11-91]؛ ويُنظر أيضًا: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, фа ты, исследования* (СПб., 2007).

[غ. أ. غريبيشنيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)].

استخدمت في الطبعة الحالية مواد منشورة من سجلِّ السَّفينة «يونان» الثلاثيَّة الصواري خلال إبحارها نحو سواحل فلسطين: *РГА ВМФ*, Ф. 870, Оп. 1, Д. 1149.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 870، القائمة 1، الملف 1149].

(47) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860; 1948.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860؛ 1948].

(48) استُخدمت صحائف الضبَّاط المهندسين في الأسطول أول مرة على نطاق واسع =

فضلًا عن المراسيم الملكيَّة وبيانات كاترينا الثانية والخطب الرسميَّة والقصائد وعظات كبار رجال الكنيسة في عهدها، غدت الموادُّ والنصوص الأدبيَّة المكرَّسة للاحتفال بالانتصارات (انتصار شيسما في عام 1770 في المقام الأول) واحتفالات عام 1775 لمناسبة إبرام اتفاق السلام مع الأتراك، مصادرَ اعتمدناها في دراسة استراتيجيَّات الدولة الدعائيَّة.

احتلَّ تحليل الصحافة المحليَّة والأوروبيَّة إبَّان الحرب الروسيَّة – التركيَّة حيزًا كبيرًا في الدراسة؛ فسمحت دراستها المُقارِنة بتقويم درجة اطِّلاع القرَّاء على المعلومات وتوضيح طبيعة عرض الأخبار. وقد ظهرت الصحافة بوصفها مقياسًا حسَّاسًا يرصد تغيُّرات الرأي العامِّ في ما خصَّ سياسة الإمبراطوريَّة الروسيَّة المتوسطيَّة.

في العقود الأخيرة، انخرط العلماء بحيويَّة في مناقشة مسائل تفاعل السياسة والدين والثقافة، وطرائق تحليل التفاعلات بين الأديان والطوائف، ودور الفرد في التاريخ (ولا سيَّما، دور الفرد في الدبلوماسيَّة). وعلى الرغم من أنَّ سياسة كاترينا الثانية المتوسطيَّة تقدِّم مادةً كبيرةً لمثل هذه الدراسات، فهي لم تكن في جانبها هذا موضوعًا لدراسة مستقلَّة حتَّى الآن. وقد أُثيرت مسائل دخول روسيا إلى البحر الأبيض المتوسِّط في المقام الأول، في ضوء دراسة نجاح حملة الأرخبيل عسكريًّا وسياسيًّا، كما في سياق بحث «المسألة الشرقيَّة». لكنَّ جوانب المسائل الدينيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة لم تحظ بتطويرٍ كبيرٍ، على الرغم من تطرُّق أ. ل. زورين وف. ي. بروسكورينا إليها جزئيًّا.

مع ذلك، أُنجِز الكثير في دراسة حملة الأرخبيل بين عامي 1769 و1774؛ إذ حظِيَت مسائل سياسة روسيا الخارجيَّة خلال مرحلة التحضيرات للحرب الروسيَّة – التركيَّة (بين عامي 1768 و1774) بالدراسة أكثر من غيرها [من المؤرِّخين المحليين: س. م. سولوفيوف، ن. د. تشيتشولين، ي. ف. تارلي،

---

= عند: A. Петров, *Война России с Турцией и польскими конфедератами с 1769 по 1774 год* (СПб., 1866-1874), t. 1-5.

[أ. بيتروف، حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية في الأعوام 1769–1774 (سان بطرسبورغ، 1866–1874)، مج 1–5].

وغيرهم. ومن المؤرِّخين الغربيين م. س. أندرسون، إ. دي ماداriاغا، ي. كارِّير دانكوس]. وحظيت باهتمامٍ مُماثِلٍ قضايا تاريخ حملة الأرخبيل الحربي والسياسي [ي. ف. تارلي، إ. بتروف، ف. س. كرينيتسن، غ. أ. غريبينشيكوفا، وغيرهم]، وقضايا الخدمة القنصليَّة الروسيَّة [ف. أ. أوليانيتسكي]، وقضايا «المشروع اليوناني» [ي. إ. دروجينينا، أُ. ب. ماركوفا، ف. ن. فينوغرادوف، غ. ل. آلاش، إ. س. دوستيان، ي. تيكتوبولو، وغيرهم]، وقضايا الاتصالات الروسيَّة – الإيطاليَّة [ج. بيرتي، ف. فينتوري]، وقضايا العلاقات الروسيَّة – العربيَّة [ب. ف. ستيغني، ت. ي. كوبيشانوف، م. غ. ماتشارادزه]. وقد احتوت سيرة أ. غ. أورلوف [ف. أ. بلوغين وأُ. أ. إيفانوف[49]] – التي أبصرت النور في العقد الأخير – نتائج مقنعة في ما يتعلَّق بأهمِّية نشاط أ. غ. أورلوف في تاريخ الأرخبيل.

ما سهَّل بحثنا إلى حدٍّ كبير، ظهور كتب مرجعيَّة رائعة في العقد الأخير عن تاريخ الأسطول الشراعي الروسي[50] وعن شخصيَّاته الأساسيَّة[51]، وكذلك الدراسة الأساسيَّة الجديدة «تاريخ الأسطول الروسي في ضوء السياسة والاقتصاد العالميين» للمؤرِّخَيْن الحربيَّين م. س. موناكوف وب. إ. روديونوف (موسكو؛ كرونشتاد، 2006).

في غضون ذلك، غاب عن اهتمام المؤرِّخين تشعبُ الأهداف التي اضطلعت بها الحملة، فتناولوا هدف حملة الأرخبيل ونتائجها بصورة

---

(49) В. А. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского* (М., 1996); О. А. Иванов, *Граф Алексей Григорьевич Орлов-Чесменский в Москве* (М., 2002).

[ف. أ. بلوغين، **أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف – تشيسمينسكي** (موسكو، 1996)؛ أُ. أ. إيفانوف، **الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف – تشيسمينسكي في موسكو** (موسكو، 2002)].

(50) А. А. Чернышев, *Российский парусный флот: Справочник в 2-х томах* (М., 2002).

[أ. أ. تشيرنيشوف، **الأسطول الشراعي الروسي: دليل في مجلدين** (موسكو، 2002)].

(51) В. М. Лурье, *Морской биографический словарь. Деятели Российского флота XVIII века* (СПб.: Информационный центр «Выбор», 2005).

[ف. م. لوريه، **القاموس البيوغرافي البحري. شخصيات الأسطول البحري في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ: المركز الإعلامي «الخيار»، 2005)].

أُحادِيَّة، ولا سيَّما ن. د. تشيتشولين المعجب بنشاط ن. إ. بانين الدبلوماسي وبجهوده في إنشاء «التفاهم الشمالي»؛ إذ تحدَّث عن حملة الأرخبيل باستخفافٍ، ونظر إلى أعمال الأسطول من خلال موقعها في لوحة الأعمال الحربيَّة العامَّة فحسب، مُعتبِرًا إيَّاها مجرَّد غزوةٍ بسيطة (الأمر الذي يتوافق مع وجهات نظر العديد من المؤرِّخين الغربيين في صدد الحملة، الذين اعتبروا عمليَّات الأسطول مجرَّد أعمال قرصنة تفويضيَّة). أمَّا ف. أ. كليوتشيفسكي الذي افترض أنَّ «السياسة الخارجية هي الجانب المضيء في نشاط كاترينا الدولتي، فقد ترك الانطباع الأقوى على المعاصرين وعلى الأجيال الجديدة الأقرب»[52]؛ إذ قوَّم أهمِّية حملة الأرخبيل من المنظور العسكري - الاستراتيجي بالدرجة الأولى، ورأى فيها ما يشبه المغامرة. كتب يقول: «كان يجب امتلاك الكثير من الإيمان بالعناية الإلهيَّة، حتَّى يُرسَل أسطول في هذه المهمَّة، بالالتفاف حول أوروبا كلِّها تقريبًا... أسطول اعترفت كاترينا نفسها قبل أربع سنوات أنَّه لا يصلح لشيء». وفسَّر سبب انتصار شيسما، مُستنتِجًا على نحوٍ حاسمٍ أنَّه «وُجِد في الأرخبيل - بكلِّ بساطة - أسطولٌ أسوأ من الأسطول الروسي»[53].

منذ القرن التاسع عشر، استرعى انتباه الباحثين ما بدا أنه **عدم اتِّساق في مواقف الإمبراطورة** لدى تحديد مهمَّات الحملة وأهدافها، وفسَّروا قصور استراتيجيَّة الحملة العامَّة بغياب التقدير الرشيد («كانت الحملة كلُّها، من حيث الجوهر، نتيجة نزوة»، بحسب رأي ف. أ. أوليانيتسكي)[54]، أو التسرُّع في تحضيراتها (وبعد كثيرٍ من التفكير، «كانت كاترينا تصطدم عند كلِّ خطوةٍ بعدم الجهوزيَّة، وبعدما قرَّرت إرسال حملةٍ بحريَّةٍ إلى شواطئ مورية، طلبت من سفيرها في لندن تزويدها بخريطة للبحر الأبيض المتوسِّط وللأرخبيل،

---

(52) В. О. Ключевский, *Курс русской истории*, Часть V, Сочинения в девяти томах (М., 1989), t. v, c. 36.

[ف. أ. كليوتشيفسكي، **كتاب التاريخ الروسي**، ج 5، 9 مج (موسكو، 1989)، مج 5، ص 36].

(53) المرجع نفسه، ص 43-44.

(54) Уляницкий, c. 122.

[أوليانيتسكي، ص 122].

وكذلك إيجاد سُبَّاك مَدافع يكونون أكثر إتقانًا ممَّن هم لدينا»، بحسب رأي ف. أ. كليوتشيفسكي)[55].

إنَّ النظرة التقليديَّة التي عدَّت أنَّ هدف الحملة اقتصر على القيام بعملية تخريبيَّة ضد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في «الموقع الأكثر حساسيَّة» (كاترينا الثانية)، ظلَّت مترسِّخة في الأدبيَّات التاريخيَّة المحليَّة زمنًا طويلًا. وبالفعل، كتبت كاترينا عند إرسالها البعثة عن المهمَّات العسكريَّة الاستراتيجيَّة بالدرجة الأولى: أنَّها أشعلت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة من أربع زوايا (وذلك بشن عمليَّات حربيَّة في جنوب روسيا والقوقاز ومولدافيا وفالاشيا، وكذلك في حوض البحر المتوسِّط)[56]. ولقد ثمَّن معظم المؤرِّخين الحربيين الرُّوس عاليًا هدف الحملة الاستراتيجي ونتائجها، واكتفوا بانتقاد بعض الأخطاء التكتيكيَّة التي ارتكبتها قيادتها. وبفضل عمل ي. ف. تارلي، الذي أبصر النور في نهاية الحرب الوطنيَّة العظمى، انتقلت حملة الأرخبيل إلى مصافٍّ موضوعات التربية التاريخيَّة - الوطنيَّة، ولا زال يُنظَرُ إليها في إطارها هذا حتَّى الآن. أمَّا أعمال أ. ب. شيروكوراد الشعبيَّة التي ظهرت في الأعوام الأخيرة، فلا تتميَّز بتقويماتٍ صحيحةٍ ومتوازنة دائمًا، بل إنَّها تبالغ، في رأينا، باستغلال هذا المزاج الوطني.

من بين البحوث الأكثر حداثةً، المكرَّسة لحملة الأرخبيل، تحتلُّ مونوغرافيا غ. أ. غريبينشيكوفا الأساسيَّة مكانةً خاصةً[57]. فقد كرَّست المؤلِّفة سنواتٍ طويلةً لدراسة بناء الأسطول الروسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتوصَّلت إلى جمع مادَّةٍ أرشيفيةٍ مهمَّة، وأدخلت مصادر جديدة[58] في التداول العلمي،

---

(55) Ключевский, с. 43.
[كليوتشيفسكي، ص 43].

(56) مقتبس من: Соловьев, «История России с древнейших времен,» с. 287-288.
[سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، ص 287-288].

(57) Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II.*
[غريبيشنيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية**].

(58) للأسف، أغفلت المؤلِّفة، في غمرة حماستها للاكتشافات الأرشيفيَّة الرائعة، حقيقة أنَّ كثيرًا من اقتباساتها من الملفَّات الأرشيفيَّة نُشِرَ منذ القرن التاسع عشر (**أرشيف مجلس الدولة**، مراسلات بانين وأورلوف وغيرها)، فضلًا عن مذكِّرات س. ب. خميتيفسكي و«ي. ف. دولغوروكوف» المعروفة =

وأوضحت جوانب مهمَّة في العلاقات الدوليَّة، المرتبطة بالمواجهة الروسيَّة - التركيَّة، فضلًا عن إيرادها تفاصيل أعمال أسطول البلطيق الحربيَّة في الأرخبيل بين عامي 1774 و1779 والإضاءة على حياة البحَّارة الرُّوس اليوميَّة.

في الوقت نفسه، تُثير بعض استنتاجات المؤلِّفة النظريَّة الاعتراض. فهي تقلِّل بالدرجة الأولى - في رأينا - بإلحاحٍ ظالمٍ من دور الثورة اليونانيَّة في تاريخ حملة الأرخبيل، وتُنكِر في الجوهر مشاركة اليونانيين في الحملة[59]. ونعتقد أنَّ استنتاجات المؤلِّفة ترتكز على معرفةٍ ضئيلةٍ بالكتب المكرَّسة لتاريخ شعوب البلقان، التي ترد فيها حججٌ قويةٌ تؤكِّد أنَّ «الألبان» - الذين تضعهم غ. أ. غريبينشيكوفا بعنادٍ في تعارضٍ مع «اليونانيين» - لم يكونوا في زمن حملة الأرخبيل فحسب سكَّان ألبانيا المنقسمة إثنيًّا وطائفيًّا؛ بل إنَّ «مصطلح ألباني أو أرناؤوطي بات مألوفًا للدلالة على الجندي المرتزق في قوَّات المشاة العسكريَّة غير النظاميَّة»[60]. ويمكن العثور في الوثائق الروسيَّة الخاصَّة بحملة الأرخبيل على ما يشير إلى تعارض «**اليونانيين مع الألبان**»[61]، وكذلك على الصيغة الآتية: «عسكريُّون في قوَّاتٍ غير نظامية - أرناؤوط، ألبان، موريُّون،

---

= جيِّدًا في الأدبيَّات، وهو ما «اكتشفته» المؤلِّفة في قسم المخطوطات في المكتبة الوطنية الروسية. كما تثير خصائص كتابة اللغة القديمة التي استخدمتها غريبينشيكوفا في المخطوطات الاستغراب أحيانًا.

(59) تفترض المؤلِّفة خطأً أنَّ مشاركة اليونانيِّين كانت في حدِّها الأدنى، وأنَّ تعدادهم بالكاد وصل إلى بضع عشرات. يُنظر مثلًا: غريبيشنيكوفا، ص 276.

(60) Г. Л. Арш, «Албания: Рост сепаратизма местных властителей,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан,* c. 486.

[غ. ل. آرش، «ألبانيا: نمو النزعة الانفصالية لدى الحكَّام المحليِّين»، في: فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 486].

(61) يُنظر على سبيل المثال تقرير القبطان بيتر بيشينتسوف عن أنه كان قد أُرسِل إليه البحَّار اليوناني فانغيلي ألامان، حاملًا القَسَم، وقد تعرَّف إليه قبطان الألبان الذي أبلغ بأنَّ ألامان «ليس يونانيًّا، بل ألبانيًّا التحق بخدمة القبطان الألباني لديه، وغادرها من دون إذن» (شباط/ فبراير 1771):
*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 5, Л. 331.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 5، الورقة 331].

يقدم ن. باباس براهين تؤكِّد أنَّ سكَّان الجبل الأسود والصرب والماينيِّين من سكَّان بيلوبونيز والألبان والمتحدِّرين من زاكينتوس وكيفاللوني قد دخلوا في عداد القوات المسلَّحة الألبانيَّة. يُنظر:
N. C. Pappas, *Greeks in Russian Military Service in the Late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries* (Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1991), p. 73.

صفاقسة، وغيرهم من اليونانيين»[62]. وبالمناسبة، أُطلِقَ على الفيلق اليوناني في البداية اسم «الفيلق الألباني»، وقد أُنشئ بعد وصول اليونانيين مِمَّن حاربوا إلى جانب الرُّوس بين عامي 1769 و1774 إلى روسيا. أضف إلى ذلك أنَّ غ. أ. غريبينشيكوفا تُدخِلُ أيضًا بعض الالتباس إلى مفهوم «المشروع اليوناني»، الذي ترى فيه كلَّ محاولات تحديد التعاون مع اليونانيين ابتداءً من عام 1770، بينما ترسَّخ في الكتب تصورٌ يقول بوجود «مشروع يوناني»، وبالكاد يكون استخدام المحدَّدات الكلاسيكيَّة بهذه الدرجة من الحرية مشروعًا ومن دون شروط[63].

في الدراسات التاريخيَّة اليونانيَّة، تحظى دراسة حملة الأرخبيل ودورها في حركة التحرُّر الوطني اليونانيَّة بمكانةٍ مميَّزة تعود إلى أكثر من قرنٍ من الزمن[64]. وحتَّى الوقت الراهن، لم يفقد الأهميَّة عملا ك. ستيفانوس وب. كونتوغيانّس[65] القائمان على حجج جدِّية، المستندان إلى مصادر أرشيفيَّة، المكرَّسان للحرب الروسيَّة - التركية (1768-1774) ودور اليونانيين فيها. ويعتمد المؤلِّفون المعاصرون عادةً على مادّة تُجمَع من هذين العملين، على الرغم من أنَّهم يجيزون في تقويماتهم أحيانًا أحكامًا واستنتاجاتٍ أكثر حسمًا بما لا يقاس[66]. إنَّ تأويل أحداث حملة الأرخبيل السائد في الأدبيَّات اليونانية يختلف عنه في تلك المعتمدة في الدراسات الروسيَّة إلى حدٍّ كبير؛ إذ تُصِرُّ غالبيَّة المؤلّفين اليونانيين على أن الإمبراطورة الروسيَّة كانت قد وعدت قبل

---

(62) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 211 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، Оп. 1، القائمة 93، ظهر الورقة 211].

(63) يثير الاستغراب على وجه التحديد الاستنتاج أنَّ «الإمبراطورة وضعت في آذار/ مارس من عام 1771 النقطة النهائيَّة في المشروع اليوناني» (ص 356)، في حين لم تطرح كاترينا، كما هو معروف، «المشروع اليونانيَّ» الحقيقيَّ إلا في عام 1782، وذلك في رسالتها إلى جوزف الثاني.

(64) يقدِّم المؤلِّفون الشكر إلى ي. أ. ليتفين الذي ساعد في العمل على الدراسات التاريخيَّة اليونانيَّة، وقدَّم ترجمات من اليونانية من أجل الطبعة الحالية.

(65) Κ. Στέφανος, *Ανέκδοτα έγγραφα αποσταλέντα προς τους κατοίκους των Κυκλάδων κατα την υπο των Ρώσων κατοχήν* (Αθήνησιν, 1878); Π. Ν. Κοντογιάννης, *Οι Έλληνες κατά τον πρώτον επί Αικατερίνης Β' Ρωσσοτουρκικόν πόλεμον 1768-1774* (Αθήνα, 1903).

(66) العمل المكرَّس خصِّيصًا للتاريخ اليوناني: N. B. Ροτζώκος, *Εθναφύπνιση και εθνογένεση: Ορλωφικά και ελληνική ιστοριογραφία* (Αθήνα, 2007).

الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) من خلال مبعوثيها بمساعدةٍ أكبر كثيرًا من تلك التي قدَّمتها في الواقع. وهكذا، فهي شجَّعت اليونانيين والبلقانيين الأرثوذكس عبثًا، وحرَّضتهم على الانتفاضة التي انتهت بالهزيمة، وأدَّت إلى تنكيل الأتراك القاسي بحقّ المتمردّين في بيلوبونيز في عام 1770[67]. وفي تقديرنا، لايبدو هذا التفسير مُسوَّغًا تمامًا: فقد أشارت كاترينا الثانية، منذ البداية إلى أنَّ على اليونانيين الاستفادة من الواقع المؤاتي نتيجة الحرب الروسيَّة - التركيَّة والوجود الروسي لانتزاع حريتهم. وعلاوة على ذلك، يؤكِّد المؤلّفون الرُّوس أنَّ فشل العمليَّة في مورية كان بسبب فرار اليونانيين والمايْنيّين[68] من أرض المعركة وعدم قدرتهم على خوض معارك نظاميَّة[69]. وكما هو شائع في الدراسات التاريخيَّة اليونانيَّة، انتزع الرُّوس يمين الولاء من سكان بعض جزر الكيكلاد[70]، وحملوا لهم في ما بعد الضرائب الجديدة، والقلق من غارات القراصنة، بدلًا من الحُرِّية؛ بل عمدوا إلى إخراج جزءٍ من الآثار القديمة إلى روسيا[71]. ونحن نعتقد أنَّ هذه التقويمات بحاجة إلى تدقيق. فالمصادر، في رأينا، لا تقدم مُسوِّغًا لاعتبار الفرائض والرسوم المفروضة على إمارة جزر الأرخبيل قد فاقت تلك التي كانت في زمن الحكومة العثمانيَّة، كما أنَّ المعلومات عن إخراج كميَّة كبيرة من الآثار القديمة تبدو مضخَّمة للغاية (لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع يُنظر الفصل الخامس).

---

(67) غالبًا ما يطلقون اسم «الأورولوفية» على هذه الثورة نسبة إلى الأخوين أورلوف. يُنظر على سبيل المثال: K. Σάθας, *Τουρκοκρατούμενη Ελλάς, 1453-1821* (Αθήναι, 1869); M. B. Σακελλαρίου, *H Πελοπόννησος κατά την δευ- τέραν Τουρκοκρατίαν, 1715-1821* (Αθήνα, 1939); T. A. Γριτσόπουλος, *Τα Ορλωφικά. H εν Πελοποννήσω επανάστασις του 1770 και τα επακόλουθα αυτής* (Αθήναι, 1967); Σ. Κουγέας, «Συμβολαί εις την ιστορίαν της υπό τους Ορλώφ Πελλοποννησιακής Επαναστάσεως (1770),» *Πελοποννησιακα*, no. 1 (1956), Σελ. 50-107.

(68) المايْنيُّون: جماعة قبليَّة عاشت في جنوب اليونان في جزيرة مايني. (المترجم)

(69) يُنظر التقويمات المختلفة: Г. Л. Арш, «Греция: Торговля, Просвещение, Война 1768-1774 гг. Восстание в Морее,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан,* c. 439; Гребенщикова, c. 246-257.

[غ. ل. آرش، «اليونان: التجارة، التعليم، حرب الأعوام 1768-1774، الثورة في مورية»، في: فينوغرادوف (تحرير)؛ **تاريخ البلقان**، ص 439؛ غريبيشنيكوفا، ص 246-257].

(70) جزر في أرخبيل جنوب بحر إيجة. (المترجم)

(71) Δ. Πασχάλη, «Αι Κυκλάδες υπό τους Ρώσους (1770-1774). Μετ`ανέκδοτων έγγραφων,» *Επετηρίς Εταιρείας Κυκλαδικών Μελετών*, no. 1 (1961), Σελ. 234-292.

صدرت أيضًا استنتاجاتٌ مُتعارِضةٌ مع هذه المواقف اليونانيَّة عن ن. باباس، الباحث في مشاركة اليونانيين بأعمال روسيا الحربيَّة (وبحسب رأي باباس، هيَّأت هذه المشاركة اليونانيين للتحرُّر الوطني). وقد اعتبر باباس أنَّه على الرغم من أنَّ روسيا قد تكون عملت على حلّ مهمَّات صراعها مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، فإنَّ أهدافها تطابقت مع أهداف اليونانيين(72)، ولذا فهي مارست تأثيرًا حاسمًا في النضال الوطني التحرُّري. كما انعكست الهجرة إلى روسيا على نحوٍ مفيد على تراكم رؤوس الأموال اليونانيَّة. وعمومًا، فقد تكلَّل التعاون القائم على المصلحة المتبادلة بالنجاح في نهاية المطاف.

هذا، وتسود في الدراسات التاريخيَّة الغربيَّة التي تتناول حملة الأرخبيل تقويمات مماثلة لتلك السائدة في أغلبية الدراسات اليونانيَّة(73)؛ وبالتحديد ما قامت به الباحثة الرومانيَّة أ. كاماريانو سيوران من استقصاءاتٍ جدِّية، بُغية إثبات اعتبار كاترينا الثانية المُضطهَدين اليونانيين مجرَّد أداة لتحقيق مشاريعها الرَّامية إلى تقسيم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. أمَّا الشعارات الدينيَّة والنُّبوءات المتعلِّقة بـ«المحرِّرين أصحاب الشعر الأشقر»، فقد منحتها إمكانات إضافيَّة لتحقيق هذه المشروعات. ودرست كاماريانو سيوران بدقَّة الأدلَّة عن نشاط العملاء الرُّوس في البلقان، وتاريخ العمليَّات الروسيَّة - اليونانيَّة المشتركة في مورية في أثناء ربيع عام 1770 وأخطاء الجانبين، وتوصلَّت إلى استنتاج مفاده أنَّ اللوم في هزيمة مورية يقع بالدرجة الأولى على الرُّوس، الذين جاؤوا مع قواتٍ وتسليحٍ غير كافِيَيْن، واستعجلوا بترك بيلوبونيز عند الإخفاقات الأولى، تاركين الثوار اليونانيين يواجهون الموت(74).

بيد أنَّه باستثناء أ. كاماريانو سيوران وفرانكو فينتوري وتشيزاري تشيانو ور. س. أندرسون(75) وم. س. أندرسون(76)، لم يكتب الباحثون الغربيُّون عن

---

(72) Pappas, pp. 334-335.

(73) يُنظر على سبيل المثال: Ibid., pp. 67-70; Constantine, pp. 168-187.

(74) A. Camariano-Cioran, «La Guerre Russo-Turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965), pp. 513-547.

(75) R. C. Anderson, *Naval Wars in the Levant, 1559-1853* (Liverpool, 1952).

(76) تناول المؤرِّخ البريطانيُّ م. س. أندرسون في بداية خمسينيَّات القرن العشرين تاريخ حملة =

أعمال الأسطول الروسي في شرق البحر الأبيض المتوسِّط إلا القليل. فتجربة إنشاء دولةٍ في جزر إمارة الأرخبيل، لم تُدرَس في الكتابات التاريخيَّة الغربيَّة عمومًا؛ أمّا الحملة الروسيَّة فيأتي ذكرها في الأغلب في سياق اكتشاف الرحَّالة الأوروبيين الغربيين اليونان، وتَشَكُّل أفكار الفيلهيلينيَّة(77)، أو مع بداية النضال الوطني التحرُّري وتأثير المهاجرين اليونانيين في روسيا عليها(78).

يتحدَّد الإطار المفهومي لوجود الأسطول الروسي في إيطاليا إبَّان الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى في الدراسات التاريخيَّة الإيطاليَّة(79)، من خلال بحثين

---

= كاترينا الثانية في الأرخبيل، في معرض تحليل العلاقات الروسيَّة - البريطانيَّة. وأظهرت نتائجه المستندة إلى المصادر الأرشيفيَّة وإلى منشورات الصحافة البريطانيَّة، أنَّ المساعدة البريطانية الكبيرة - التي كلّفت بريطانيا غاليًا - في تحقيق مشروعات كاترينا، لم تعط المملكة المتحدة في المقابل شيئًا يُذكر؛ إذ عزَّزت بريطانيا وزن روسيا السياسيَّ والحربيَّ، لكنَّها لم تجد فيها حليفًا مخلصًا، وفي المقابل، توتَّرت كثيرًا علاقاتها مع الباب العالي. يُنظر: Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet,» pp. 148-163; M. S. Anderson, «Great Britain and the Russo-Turkish War of 1768-74,» *English Historical Review*, vol. 69, no. 270 (1954), pp. 39-58; M. S. Anderson, *Britain's Discovery of Russia, 1553-1815* (New York, 1958).

(77) يُنظر على سبيل المثال: Constantine, *Early Greek Travelers*; O. Augustinos, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era* (Baltimore; London, 1994); L. Navari & S. Konstantinos, *Greek Civilization through the Eyes of Travellers and Scholars* (New Castle, DE: Oak Knoll Press; Goy-Houten, Netherlands: Hes & De Graaf Pub., 2004); E. Rawson, *The Spartan Tradition in European Thought* (Oxford: Clarendon Press, 1969); D. Roessel, *In Byron's Shadow: Modern Greece in the English and American Imagination* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002).

[الفيلهيلينيَّة (بالإنكليزيَّة Phihellenism «محبَّة الإغريق»: حركة ظهرت في بعض المدن الأوروبيَّة في القرن التاسع عشر بين مثقَّفين وأدباء وشعراء آمنوا بحقِّ الشعب اليوناني بالحُرية والتحرُّر من ربقة الاحتلال العثماني. وكان من أبرز رواد هذه الحركة الشاعر البريطاني بايرون. وقد قام هؤلاء بتقديم كفاح اليوناني ضد العثمانيِّين باعتباره حربًا بين المثل العليا اليونانيَّة العريقة وقسوة الأتراك، الذين غزوا أحفاد بيركلس وسقراط وأفلاطون وقمعوهم. انضمَّ العديد من الفيلهيلينيين إلى الثورة اليونانيَّة، فكان من بينهم بايرون، حيث حاربوا بحماسة في سبيل النهوض بيونان حديثة، في حين أصيب آخرون بالخيبة عندما اكتشفوا الجانب المظلم من بعض قادة الثورة، الذين كان همُّهم الأوَّل مجدهم الشخصي وجمع الأموال، فكانوا في الواقع مجموعة من القراصنة وقطَّاع الطرق، إلا أنَّهم صُوِّرُوا في الأساطير الشعبية أبطالًا غيورين على القضية الوطنيَّة]. (المترجم)

(78) من الأعمال الأخيرة التي تحتوي على فهرس واسع في هذه المسألة: Pappas, *Greeks in Russian*.

(79) تعمَّدنا في هذه الحالة إهمال الأعمال المكرَّسة للعلاقات الروسيَّة - الإيطاليَّة عمومًا، مركِّزين اهتمامنا على البحوث التي تهمُّنا من الفترة القصيرة الممتدة بين عامي 1768 و1774 فحسب. عن الأعمال الفهرسيَّة العامَّة عن الرُّوس في إيطاليا، يُنظر على سبيل المثال: M. P. Todeschini, *Russi in* =

ظهرا في مطلع سبعينيَّات القرن العشرين وثمانينيَّاته: الجزء الثالث من البحث الأساسي يعود إلى فرانكو فينتوري [*Il Settecento Riformatore*] (القرن الثامن عشر، قرن الإصلاحات، 1979]، وإلى تشيزاري تشيانو [*Russiae Toscana nei secoli XVII e XVIII. Pagine di storia del commercio e della navigazione*] (روسيا وتوسكانة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، صفحات من التاريخ التجاري والبحري، 1980)]. وسنتناولهما بالتفصيل في الفصل السابع من هذا الكتاب. ومن الأعمال الأخرى، ينبغي التنويه بمؤلَّفات ومقالات ج. بيرتي[80] وس. فيلّاني[81] ول. دونولو[82]، وم. ل. كفلكانتي[83]، وأيضًا بمجموعة المواد عن العلاقات الروسيَّة - البندقيَّة المنشورة في النصف الأول من القرن العشرين (في أعمال كلٍّ من: أ. م. ألبيرتي[84]، ك. مانفروني[85]، ف. سينيكي[86]، ب. تشيسّي)[87] الغنيَّة بالمواد الأرشيفيَّة.

---

*Italia dal Quattrocento al Novecento. Bio- bibliografia descrittiva* (Moncalieri, 1997); Справка о документах по истории отношений между Италией и Россией, хранящихся в некоторых государственных архивах Италии, in: *Россия и Италия. Из истории русско-итальянских культурных и общественных отношений*, c. 407-452.

[شهادة عن وثائق تاريخ العلاقة بين إيطاليا وروسيا، المحفوظة في بعض أرشيفات إيطاليا الحكوميَّة، في: **روسيا وإيطاليا: من تاريخ العلاقات الثقافيَّة والاجتماعيَّة الروسيَّة - الإيطاليَّة**، ص 407-452].

(80) G. Berti, *Russia et stati italiana nel Risorgimento* (Torino, 1957).
(صدرت الترجمة الروسية في عام 1959).

(81) S. Villani, «Ambasciatori russi a Livorno e rapporti tra Moscovia e Toscana nel XVII secolo,» *Nuovi Studi Livornesi*, vol. 15 (2008), pp. 37-96.

(82) L. Donolo, «II conte Aleksej Orlov e il pittore Jacob Philipp Hackert a Livorno, teatro virtuale della battaglia di Cesme,» *Nuovi Studi Livornesi*, tome 9 (2001), pp. 107-143.

(83) M. L. Cavalcanti, *Le Relazioni commerciali tra il regno di Napoli e la Russia, 1777-1815 Fatti e teoria* (Geneve, 1979).

(84) A. M. Alberti, «Venezia e la Russia alla fine del secolo XVIII (1770-1785),» *Archivio Veneto*, vol. 10 (1931).

(85) C. Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» in: *Atti del Reale Istituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti*, t. LXXII, p. II (1912-1913); C. Manfroni, «La Campagna navale russo- turka (1770-1771),» *Rivista Marittima*, Quatro Trimestre, vol. 4 (Dicembre 1913).

(86) F. Seneca, «Francesco Lorenzo Morosini e un fallito progetto di accordo Veneto- russo,» *Archivio Veneto*, no. 106 (1963).

(87) R. Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» *Atti del Reale Instituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti*, t. LXXIV, p. II (1914-1915).

في أثناء العمل على إنجاز هذا الكتاب، حصلنا على دعم مؤسسة العلوم الإنسانيَّة الروسيَّة (المشروعان: 05-01-01262a, 09-04-18003e). وفي عام 2009، وبدعم من المؤسسة نفسها، أُرسِلت بعثة إلى اليونان، إلى جنوب بيلوبونيز وإلى الجزر التي شكَّلت خلال الفترة الواقعة بين عامي 1770 و1774 إمارة الأرخبيل. وبعض المواد التي جمعتها البعثة، وكذلك الصور الفوتوغرافية التي التقطها أعضاء البعثة (ي. ي. يارين، ي. أ. ليتفين، ي. ب. سميليانسكايا) معروضة في هذا الكتاب.

يعتبر المؤلِّفون أن من واجبهم تقديم الشكر الجزيل إلى الزملاء والأصدقاء، الذين قدَّموا مساعدةً لا تُقدر بثمنٍ في العمل على إنجاز الكتاب، وهم: ي. ف. أكيليفا، غ. ي. بابكوفا، ي. ف. برودسكوم، م. إ. فاسيلينكو، ف. أ. وي. أ. غورديف، أ. ب. كامينسكي، ي. أ. ليتفين، ي. ب. كوسمولينسكي، غ. ب. إيبنيفا، م. ب. لافرينوفيتش، أ. س. لافروفا، ي. أ. ليتفين، ي. ف. نيكاندروفا (أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي)، ن. ف. نازاروفا، أ. ف. سترويف، س. ل. توريلوفا (أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة)، حنًّا فاينشتين، إ. ل. فومينا، ك. أ. خوميكوفا، ن. إ. شلينسكايا وي. ي. يارين. ونتوجَّه بشكرٍ خاصٍّ إلى الزملاء الأجانب والأصدقاء ماريا دي سالفو، إنغريد شيرلي، روي روبسون، أورشيلا تسيرنياك، غويدو كاربي وستيفانو فيللاني، وإلى ألكسندرا أندولفو التي وضعت في تصرُّفنا المواد التي جمعتها من أرشيف حكومة تورينو، وللمؤرِّخَيْن اليونانيَّين إيوانِّس فاسيليوبولو وأولمبيوس أليفيريس اللذين رافقانا إلى أنقاض المباني الروسيَّة على جزيرة باروس، وقاسَمانا موادَّهما الخاصَّة بكلِّ كرمٍ وأريحيَّة.

كما يُعبِّر المؤلِّفون عن شكرهم الخالص للعاملين في أرشيف الدولة الروسيَّة للمراسيم القديمة، أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة، قسم مصادر الرسائل وقسم علم الخرائط في المتحف التاريخي الحكومي، قسم المخطوطات في المكتبة الوطنيَّة الروسيَّة، متحف الكتاب في مكتبة الدولة الروسيَّة والمكتبة التاريخيَّة الروسيَّة العامَّة، والمتحف الحربي-البحري في سان بطرسبورغ على تعاونهم غير المحدود خلال سنوات البحث الطويلة.

القسم الأول

# مشروع الإمبراطورة كاترينا الثانية في الأرخبيل

إ. م. سميليانسكايا
ي. ب. سميليانسكايا

# الفصل الأول

## التحضيرات للحرب في البحر الأبيض المتوسِّط: السيناريو واختيار الشخصيّات الفاعلة

### إ. م. سميليانسكايا

... أدين للكونت أورلوف بجزء من بريق حُكمي، فهو من نصحني بإرسال الأسطول إلى الأرخبيل.

**كاترينا الثانية**

يمكنكم مقارنة مشروع حملة البحر المتوسِّط، المنسوب إلي بغير حقٍّ (سأتحفظ عن تسمية صاحبه، إلى أن ينجح)، بحملة هنيبعل...

**من رسالة كاترينا الثانية إلى فولتير**

لم تكن سياسة كاترينا الثانية ومستشاريها في البحر المتوسِّط، بكمال تفاصيلها، وليدة ساعتها، كما لم تكن ناتجة أيضًا من عوامل منفصلة أو خطوات عشوائية، بل كانت خاضعة لمنطق محدد، وجاءت مؤشِّرًا إلى سلسلة متتابعة من الأحداث. ومن المعروف أن حجر الأساس لهذه السياسة كان قد وضعه بطرس الأكبر، فما كان من الإمبراطورة - تلميذته المثالية - إلا أن عملت على تطويرها بنجاح.

كان بطرس الأكبر نفسه مؤيِّدًا لاتحاد روسيا السياسي العسكري مع كلٍّ من النمسا وجمهورية البندقية والكومنولث البولندي الليتواني وفرسان

مالطا، بمواجهة الإمبراطورية العثمانية. فأصبحت روسيا في عهده عضوًا في الحلف المقدس. ولم يكن القيصر ليتوجه إلى سلطات جمهورية البندقية بطلب إرسال بعثة خبراء في الترسانة العسكرية إلى روسيا، لو لم يكن واثقًا من تلبية طلبه. فقد أرسل الكونت بوريس شيريميتييف للتفاوض مع فرسان القديس يوحنا، وفي آذار/ مارس ونيسان/ أبريل 1711 أرسل إلى البندقية مبعوثيه القنصل التجاري ديمتري بوتسيس والوكيل التجاري ماتيو كاريتّا؛ فأقام الأخير في البندقية حتى شهر تموز/ يوليو 1715، ليُستَبدَلَ من ثَم ببيكليميشيف[1]. فقد كانت لبطرس أهداف سياسية عسكرية بالدرجة الأولى، فضلًا عن أهدافه بترسيخ العلاقات مع سكان الجبل الأسود. وكانت سياسته في البلقان تتفق مع الأفكار السياسية الدينية التي صاغها هنري الرابع (ملك فرنسا 1589-1610) ووزيره سيوللي، الهادفة إلى طرد المسلمين إلى ما وراء حدود أوروبا[2].

---

(1) *Письма и бумаги императора Петра Великого* (М.; Л, 1887-1977), tome XI (1964), Вып. I, с. 110-111, 169, tome XII (1977), Вып. 2, с. 561, 568.

[**رسائل وأوراق الإمبراطور بطرس الأكبر** (موسكو؛ لينينغراد، 1887-1977)، ج 11 (1964)، العدد 1، ص 110-111، 169، ج 12 (1977)، العدد 2، ص 561، 568]. أوكل إلى ديمتري بوتسيس (اليوناني الأصل من دلماسيا)، إضافة إلى الشؤون التجارية، دعم التواصل مع سكان الجبل الأسود والهرسك وألبانيا، يُنظر: С. Ф. Орешкова, *Русско-турецкие отношения в начале XVIII в.* (М., 1971), с. 105.

[س. ف. أوريشكوفا، **العلاقات الروسية - التركية في مطلع القرن الثامن عشر** (موسكو، 1971)، ص 105].

(2) بالحديث عن هذه السياسة القيصرية كتب أ. غ. أورلوف من إيطاليا إلى شقيقه غريغوري رسالة لا تخلو من الجرأة يقول فيها: «... فإذا أردنا الذهاب، فلنذهب إلى القسطنطينية لنحرر كل الأرثوذكس والأتقياء من النيرِ العظيم الذي يرزحون تحته. وأقول، كما قال سيدنا بطرس الأول في رسالته: أمّا المحمّديون الكفار، فلنطردهم إلى الأراضي والسهوب الرملية الخالية، إلى موطنهم الأول. فتعود التقوى إلى هنا...». يُنظر: [Л. Н. Майков], Первая мысль о Морейской экспедиции гр. А. Г. Орлова с предисловием Л. Н. Майкова, in: *Сборник исторических материалов и документов, относящихся к новой русской истории XVIII и XIX века*, Изд. М. Михайловым (СПб., 1873), с. 142.

[[ل. ن. مايكوف]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية مع مقدّمة لمايكوف ل. ن.، في: **مجموعة المواد والوثائق التاريخية المتعلّقة بتاريخ روسيا الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، نشره م. ميخايلوف (سان بطرسبورغ، 1873)، ص 142].

إضافة إلى ما سبق، يظهر أنه كان لدى بطرس الأول اهتمام بحوض البحر المتوسِّط، أعمق من كونه مجرد طموح بخلق ائتلاف مناهض لتركيا. فتبعًا للممارسة المنتشرة لدى الدول في تجنيد أجانب لخدمتها، كان بطرس يعطي الأفضلية للدانماركيين والهولنديين والسويديين. ومع ذلك، صدر منه أمر بتجنيد أشخاص من «الصقالبة[3]، واليونانيين، والطليان» في الخدمة الروسية، لأنهم، بحسب تعبيره، الأكثر خبرة بقيادة السُّفن[4]. وتشهد جهود القيصر الحثيثة في إقامة علاقات مع جنوى وبييمونتي أيضًا على اهتمامه السياسي بحوض البحر المتوسِّط. فإذا كان اهتمامه بالأولى بسبب موانئها، فإن اهتمامه بمملكة سردينيا كان ناجمًا عن دورها البارز في السياسة الأوروبية، بفضل لعب أسرة سافوي الدائم على وتر التناقضات بين فرنسا والنمسا[5]. وقد أرسل بطرس المركب الروسي «آرمونت» إلى حوض المتوسط للاستطلاع[6]. وخلال عامي 1697 و1698، قام الخادم القيصري الخاص ذو الاثنين والخمسين عامًا ب. أ. تولستوي برحلات في أراضي السلافيين في حوض الأدرياتيكي، وكان واحدًا من بين 37 آخرين من

---

(3) تسمية السلافيين القروسطية. (المترجم)

(4) من أصل 520 أجنبيًا كانوا موجودين في أرخانغيلسك، كان هناك 160 دانماركيًا و164 سويديًا و108 هولنديين و86 ألمانيًا، إضافة إلى 36 من حوض المتوسِّط أتراكًا وإيطاليين وبنادقة. يُنظر:
Л. Дулич, «На службе России,» *Морской сборник*, no. 1 (2006).

[ل. دوليتش، «في خدمة روسيا»، **المجموعة البحرية**، العدد 1 (2006)].

(5) يُنظر: Дж Берти, *Россия и итальянские государства в период Рисорджименто* (M.: 1959).

[ج. بيرتي، **روسيا والدول الإيطالية في حقبة توحيد إيطاليا** (موسكو، 1959)].

(6) Н. Д. Каллистов, «Архипелажская экспедиция,» in: *История русской армии и флота* (M., 1912), t. 8, c. 53.

[ن. د. كاليستوف، «حملة الأرخبيل»، في: **تاريخ الجيش والأسطول الرُّوسي** (موسكو، 1912)، ج 8، ص 53].

ثمة احتمال أن إشارةً إلى إبحار آرمونت في البحر المتوسِّط قد وردت في «حكاية البحار الرُّوسي فاسيلي كوريوتسكي والأميرة الجميلة هيراكليا الفلورنسية»: «ومن عامين، وصل إلى بلادنا من أوروبا تجّار روس على متن المراكب، وكنت أتنزه مع الفتيات على القوارب، ورأينا بضائع روسية وغرائب شتّى» مقتبس من: *Русская литература XVIII века, 1700-1775* (M., 1979), c. 17.

[**الأدب الرُّوسي في القرن الثامن عشر**، 1700–1775 (موسكو، 1979)، ص 17].

أبناء النبلاء، الذين أرسِلوا إلى البندقية لتلقّي دورات في العلوم البحرية[7].
ولم يكتب تولستوي هذا مذكرات في أثناء رحلته إلى إيطاليا وجزيرة مالطا فحسب، بل خلال ترؤسه البعثة الروسية في القسطنطينية أيضًا، حيث قدم للإمبراطور ما كتبه في عام 1706 واصفًا بالتفصيل النقاط المأهولة والقلاع والموانئ كافةً، إضافة إلى ظروف الملاحة وشروطها في أحواض البحر الأسود وبحري مرمرة وإيجة (الأبيض) ومضيقي البوسفور والدردنيل[8].

وتعود لبطرس الأول أيضًا فكرة التعاون مع شعوب البلقان في النضال ضد تركيا. كما كان هو أيضًا المبادر إلى استخدام تعبير «إخوة الدين» في التعاطي مع البلقانيِّين. ففي بيانه الصادر في 8 (بحسب التقويم الجديد 19) أيار/ مايو 1711، الموجه إلى اليونانيِّين والصرب و«السلافيين» والألبان، دعا بطرس إلى توحيد الجهود مع القوات الروسية في سبيل «دحر عدو الصليب» ذودًا عن الوطن الشرف، وتحقيقًا للحرية والاستقلال، وفي سبيل تحرير

---

(7) С. Ф. Орешкова, Вступительная статья, in: П. А. Толстой, *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота*, Сост. И. В. Зайцев & С. Ф. Орешкова (М., 2006), с. 44.

[س. ف. أوريشكوفا، المقالة الافتتاحية، في: ب. أ. تولستوي، **وصف البحر الأسود، أرخبيل إيجة والأسطول العثماني**، مراجعة إ. ف. زايتسيف وس. ف. أوريشكوفا (موسكو، 2006)، ص 44].

عن ب. أ. تولستوي، يُنظر: С. Ф. Орешкова, «Османская империя глазами русских дипломатов (к вопросу о посольских отношениях между Россией и Турцией и посольской документации),» in: *Османская империя: События и люди* (М., 2000), с. 15-19.

[س. ف. أوريشكوفا، «الإمبراطورية العثمانية بعيون الدبلوماسيين الرُّوس (حول مسألة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وتركيا في وثائق السفارات)»، في: **الإمبراطورية العثمانية: أحداث وأعلام** (موسكو، 2000)، ص 15-19].

(8) П. А. Толстой, «Дневник, писанный им во время путешествия в Италию и на остров Мальту в 1697-1698 гг,» in: *Русский архив*, 1888, Кн. 1, Вып. 2; Толстой, *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота*.

[ب. أ. تولستوي، «المذكرات المكتوبة خلال رحلة إيطاليا وجزيرة مالطا في عامي 1697 و1698»، في: **الأرشيف الروسي**، 1888، الكتاب 1، الإصدار 2؛ تولستوي، **وصف البحر الأسود، أرخبيل إيجة والأسطول العثماني**]. يُنظر أيضًا: *Русский посол в Стамбуле. Петр Андреевич Толстой и его описание Османской империи начала XVIII в.*, Сост., вступ. ст., коммент. М. Р. Аруновой & С. Ф. Орешковой (М., 1985).

[**السفير الروسي في اسطنبول، بيوتر أندرييفيتش تولستوي ووصفه للإمبراطورية العثمانية في بدايات القرن الثامن عشر**، مراجعة وتقديم وتعليق م. ر. آرونوفا وس. ف. أوريشكوفا (موسكو، 1985)].

الكنيسة والدين الحق (الأرثوذكسي) المقدس من نير «البوسورمان»[9]. ويعزو المؤرخون انكسارات بطرس الأول في حملته على نهر بروت إلى قناعته - التي لا أساس لها - بالدعم الفوري المسلح الذي سيحصل عليه من إخوة الدين من شعوب البلقان. فالواضح أنه لم يُحضر لهذا التعاون بشكل كافٍ، لا من الناحية السياسية ولا من الناحية التنظيمية[10].

لم يحرز خلفاء بطرس الأول نجاحًا كبيرًا في التفاوض مع جمهورية البندقية بهدف عقد معاهدة تجارية معها، إلا أنهم تمكنوا من توطيد العلاقات مع سكان البلقان من السلافيين واليونانيين؛ فلم ينخرط هؤلاء في خدمة الدولة الروسية فحسب، بل صاروا ينتقلون إلى الإقامة في روسيا. بيد أنهم - أي خلفاء بطرس - لم يُبدوا اهتمامًا عميقًا بالشؤون المتوسِّطية قبل عهد كاترينا الثانية.

تزامن جلوس كاترينا الثانية على العرش مع تردِّي العلاقات الروسية - التركية. فقد تزايَدَ قلق العثمانيين من تنامي القدرات العسكرية الروسية؛ وأعرب الباب العالي عن احتجاجه على بناء قلعة القديس ديمتري الروستوفي (في ما بعد مدينة روستوف الواقعة على الدون) واستيائه من سياسة الرُّوس في بولندا، وشرع بتقديم الدعم إلى الكونفدراليين البولنديين[11]. في غضون

(9) اقتباس من: В. Н. Виноградов, «Трагедия на реке Прут,» in: В. Н. Виноградов (редактор), *История Балкан. Век восемнадцатый* (М., 2004), с. 57.

[ف. ن. فينوغرادوف، «مأساة على نهر بروت»، في: ف. ن. فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر** (موسكو، 2004)، ص 57].

[**البوسورمان**: تحريف لكلمة «مسلم»، استخدمت في روسيا قديمًا للدلالة على الأجنبي «الكافر»، غير المسيحي، غير الأرثوذكسي]. (المترجم)

(10) المرجع نفسه، ص 55-57.

(11) **الكونفدراليون البولنديون**: مجموعات أو اتحادات من النبلاء البولنديين الذين حملوا السلاح ضد الملك أو السيم (المجلس السياسي، مجلس النواب حاليًا) في القرنين السادس عشر والثامن عشر، كان أبرزها كونفدرالية تارغوفيتسا التي انتفضت ضد إصلاحات كان أقرها السيم في عام 1792، وكونفدرالية بارسكا في عام 1768 (نسبة إلى قلعة بار التي انطلقت منها صيحة الانتفاضة). هذه الانتفاضة كانت تعبيرًا عن بَرَم النبلاء بالملك بونتياكوفسكي الذي أراد تقليص سلطة النبلاء، وكذلك ضد النفوذ الروسي في بولندا. (المترجم)

ذلك، كان البلاط الروسي يعلم أن الفرنسيين - الذين حملوا مشروع «الحاجز الشرقي»، الرامي إلى عزل روسيا عن أوروبا، ودفعها إلى الحرب مع تركيا - هم من يقف وراء التيارات المناهضة لروسيا في المملكة البولندية[12]. وبعد انسحاب روسيا من حرب السنوات السبع، انضمت النمسا إلى فرنسا في عملية بثِّ الدسائس ضد روسيا في القسطنطينية. وكان ذلك سببًا إضافيًا وواضحًا في تردِّي العلاقات الروسية - التركية.

غير أن ثمة أسسًا خفيةً، أعمق أدت إلى تدهور تلك العلاقات. فقد سلكت كاترينا نهج الإصلاح، الذي كان من شأنه تحويل روسيا إلى دولة أكثر عصرية، بحسب معايير ذلك الزمان. وتطلب ذلك استحداث نظام مركزي للحكم والإدارة، ما حتم وضع تقسيمات إدارية إقليمية جديدة لمساحة البلاد بأكملها، وترسيم حدود الدولة «الطبيعية».

لا يقل أهمية عن ذلك تأمين شروط تنمية الدولة البلاد اقتصاديًّا. في غضون ذلك، كانت تمتدُّ على السواحل الروسية بكاملها على البحر الأسود أراضٍ حدودية شاسعة غير قابلة للاستصلاح، بسبب تحويلها إلى نقاط انطلاق لهجمات تتار القرم على مناطق روسية مأهولة، بدعم من الباب العالي. وكان الأتراك يسيطرون على كامل سواحل البحر الأسود، حيث تصبُّ أهم الأنهر الروسية الصالحة للملاحة، مع العلم أن هذا البحر كان خلال قرون من أهم شرايين المواصلات الروسية (الطريق الشهير المسمى «من الفارياغ[13] إلى

---

(12) كتب وزير الخارجية الفرنسي الدوق شوازول (Duc de Choiseul) في عام 1768: «تأكدتُ، بكل أسف، أن الشمال الأوروبي يصبح أكثر ولاءً للإمبراطورة الروسية...، إلى حدٍّ بداية تكوُّن حلف يُشكّل خطرًا مرعبًا على فرنسا (الحديث هنا عن «حلف الشمال» (المؤلفة)). إن الوسيلة الأنجع لتدمير هذا المخطط، بل إمكانية إطاحة كاترينا عن العرش الذي استولت عليه، هي إشعال حرب ضدّها. وحدهم الأتراك يستطيعون تقديم هذه الخدمة لنا». اقتباس من: П. П. Черкасов, «Франция и русско-турецкая война, 1768-1774 гг.,» *Новая и новейшая история*, no. 1 (1996), c. 53-54.

[ب. ب. تشيركاسوف، «فرنسا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، **التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 1 (1996)، ص 53-54].

(13) **الفارياغ**: جماعات من أصول اسكندنافية، توحدت في فصائل مسلحة ومارست التجارة وأعمال النهب. استقر بعضها في روسيا القديمة، وخدم في فصائل حرس الإمارات الروسية. (المترجم)

اليونان»)؛ أما الآن، وبسبب منعهم من الأتراك، أصبحت هذه الطريق مغلقة تمامًا أمام الملاحة الروسية. ونتيجةً لذلك، وجدت المناطق الجنوبية النامية نفسها محرومة من الاتصال الطبيعي مع الأسواق الخارجية. وبتعبير أوضح، وجدت كاترينا الثانية نفسها أمام المسألة التي لم يستطع بطرس الأول حلها: فتح «النافذة الجنوبية» على أوروبا.


بطرس الأكبر وكاترينا الثانية

لم يكن في مقدور روسيا، تاليًا، تجنُّب الحرب مع تركيا. ومع الأخذ بعين الاعتبار السياسة الحيوية التي اضطلعت بها الإمبراطورة، وكذلك مشروعيتها وطموحاتها الخارجية، يُستنتج أن الحرب المنتظرة مع تركيا ستكون هجومية، ومن شأنها أن تحل القضايا الأساسية في العلاقات الروسية - التركية.

لم يكن من طبع الإمبراطورة التقليل من شأن خطر العدو تجاه روسيا؛ هذا العدو الذي كانت تعتبره «الدولة الوحيدة القادرة على تشكيل خطرٍ جديٍّ لنا»(14)، فالإمبراطورية العثمانية كانت قادرة، في حال الحرب، على حشد الجيش الأكثر عديدًا في أوروبا، فضلًا عن امتلاكها سلاح مدفعية مع عديدٍ مدرب على أيدي مستشارين عسكريين فرنسيين، إضافة إلى أسطول بحري كبير، كانت تعتبره روسيا أقوى من أسطولها، على الأقل من حيث سرعة حركته(15). لذا، ولضمان

---

(14) С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, с. 513.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14، ص 513].

(15) كان الأتراك المعتادون على السيطرة على شرق المتوسِّط، في سياق التعظيم من قدرات أسطولهم، يكوّنون انطباعًا خاطئًا عن الأسطول الروسي. فقد كتب الوزير العثماني رسمي أفندي [سفير الباب العالي في روسيا خلال فترة 1768-1774 (المترجم)] أن هذا الأسطول يتألّف من قطع بالية، حتى إن أول عاصفة قادرة على تحويله إلى أنقاض. على أيّ حال، هذا ما كان المراقبون الأوروبيون يتوقعونه. يُنظر: Ресми-Ахмет-Эфенди, *Сок достопримечательного в сущности, о начале и важнейших событиях войны, происходивших между Высокою Портою и Россией*, Предисл. О. И. =

نجاح خطة الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية (وضمن ظروف علاقات العداء مع الفرنسيين، والبرود الظاهر في العلاقات مع النمسا)، كان على روسيا أن تعتمد على علاقات الصداقة مع دول أوروبا الشمالية، وإبطال مفعول الأعمال العدائية المحتملة من السويد وبولندا. وإضافة إلى بعض المسائل الخاصة، فقد أسهم في ضمان نجاح الحرب «نظام حلف الشمال» الذي رسمه رئيس هيئة الشؤون الخارجية نيكيتا إيفانوفيتش بانين بعناية ودراية. وكان المقصود منه تحقيق التوازن بين القوى السياسية و«الحفاظ على الأمن والسلام في شمال أوروبا». فكانت معاهدات التحالف المعقودة مع بروسيا (1764) والدانمارك (1765) تحقيقًا لنظام الشمال، تحتوي على بنود سرية تلحظ مساعدة هاتين الدولتين لروسيا إذا ما اعتدت عليها تركيا. أما معاهدة التحالف مع إنكلترا، من جانبٍ آخر، فلم تُوقع، إذ استمرت المفاوضات من أجل إقرارها عدة أعوام، بحيث لامست بداية الحرب نفسها، وذلك بسبب عدم رغبة إنكلترا في التزام بنودٍ مماثلة[16].

أسهمت وفاة ملك بولندا أغسطس الثالث (1763)، وكذلك الأزمة الدولية الحادة حول بولندا، في دفع كاترينا الثانية إلى تركيز اهتمامها على الشؤون البولندية. بيد أن اهتمامها بإقامة حلف الشمال والأزمة البولندية لم يُثنِياها عن إبقاء المسألة التركية ومخطط البحر المتوسِّط في مجال رؤيتها الرئيس؛ هذا المخطط الذي بدأ ينضج في ذهنها سرًّا منذ تولِّيها الحكم.

نحاول في هذا الفصل الخوض في مشهد الأحداث السياسية التي شهدتها السنوات الثماني الأولى من حكم كاترينا الثانية، لاستخلاص المغزى من التدابير والترتيبات المتصلة في ما بينها، التي اتخذتها مع معاونيها المقربين، والتي تظهِّر عملية نضوج مخطط اقتحام روسيا حوض البحر المتوسِّط والتحضير لحملة الأرخبيل.

---

= Сенковскго ([М.]: Библиотека для чтения, 1854), t. 124, Отд. I.

[رسمي أحمد أفندي، خلاصة الاعتبار في أهم أحداث الحرب بين الباب العالي وروسيا، تقديم أ. إ. سينكوفسكي ([موسكو]: مكتبة المطالعة، 1854)، ج 124، القسم الأول].

(16) لمزيد من التفصيل عن الوضع السياسي الخارجي، يُنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

استلزمت تقوية الأسطول البحري الروسي تأمين الأمن في الشمال، وتعزيز الوزن السياسي، والتغلغل مستقبلًا في حوض البحر المتوسِّط. فاتخذت كاترينا، خلال أول سنة من حكمها، قرارًا بتوسيع القوات البحرية وبدعوة ضباط بحريين وبناة سفن من الخارج، وكذلك بإرسال متدربين للتدرب في الأساطيل الأجنبية. وأدت جهود الإمبراطورة إلى ارتفاع عدد قطع الأسطول وإلى اكتساب ضباط بحريين ممتازين، كان من بينهم الاسكتلندي س. ك. غريغ (1735–1788)، الذي انضم إلى الخدمة الروسية في عام 1764، وذاع صيته لاحقًا بوصفه بطل شيسما[17] وقائدًا فذًّا في الأسطول الرُّوسي[18].

كان اختيار الضباط الرُّوس للتدرُّب في الخارج صارمًا جدًّا[19]، وكانت النتيجة أن أدت أغلبية الضباط الموفدين للتدرُّب (في العامين 1762 و1763) الخدمة بنجاح في حملة الأرخبيل، وكان من بينهم النقيب ي. م. لوباندين (المتوفى في عام 1812، الذي خدم أثناء الحرب الروسية – التركية الأولى، ليُصبح في ما بعد أميرالًا)؛ ونائب الأميرال النقيب إ. أ. كوجوخوف

---

(17) المقصود انتصار الأسطول الروسي على الأسطول العثماني في معركة شيسما، وهي المعركة التي جرت بين 24 و26 حزيران/ يونيو 1770 في خليج شيسما، الواقع بين طرف الأناضول الغربي وجزيرة خيوس، وهو المكان الذي شهد معارك بحرية عديدة في الماضي بين الإمبراطورية العثمانية وجمهورية البندقية، وكذلك بين الأسطولين الروسي والتركي. وقد انتهت المعركة بعقد معاهدة كوتشوك – كاينارجي. (المترجم)

(18) قدم أ. غ. أورلوف في عام 1772 غريغ إلى ن. إ. بانين بالكلمات الآتية: «أجد في نفسي الجرأة لأوصي بغريغ، الكفوء والشجاع، كي يحظى بعطفكم ومحبتكم. أرجو أن ينال الحظوة لديكم». ووصف بانين في جوابه غريغ بأنه «قائد سفينة يتمتع بالجدارة»، وشكر أورلوف على التوصية به.
**Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, in:** ***Русский архив*****, 1880, III (2), c. 244-245.**

[مراسلات الكونت ن. إ. بانين مع الكونت أورلوف – تشيسمينسكي، 1770–1773، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، III (2)، ص 244–245].

(19) من بين البحارة الاثني عشر الذين أرسلوا إلى إنكلترا في عام 1762، كان ضابط الصف البحري كوجوخوف، الذي شارك في حرب السبع سنوات، وتميز بشجاعة لا مثيل لها، حيث أقدم – حين كان ضابطًا مناوبًا – على منع بطرس الثالث المخلوع عن العرش، من النزول في ميناء كرونشتاد. يُنظر:
**В. Шигин, «Всеми забытый капитан Кожухов,»** ***Век XVIII,*** **Под андреев ским флагом (М., 1994).**

[ف. شيغين، «القبطان كوجوخوف المنسي من الجميع»، **القرن الثامن عشر**، تحت راية أندرييف (موسكو، 1994)].

(1719-1786) القبطان برتبة جنرال ميجر لاحقًا، الذي تمكنت قواته بعد حصار بيروت في عام 1773 - بالتعاون مع الحكام العرب المتمردين على الباب العالي - من إرغام والي بيروت العثماني أحمد باشا الجزار على الاستسلام. توجه المتدرِّبون في السنوات الأولى إلى إنكلترا، التي استجابت لطلب هيئة الأدميرالية الروسية المساعدة في إعادة بناء الأسطول؛ إذ لم تكن إنكلترا ترى في روسيا منافسًا بحريًّا، بل راهنت على استخدام الحلفاء الرُّوس لاحقًا في حربها مع فرنسا مصدرًا للمرتزقة[20]. على أن كاترينا الثانية لم تُصْغِ لمطالب الإنكليز المُلِحة بإدخال بند في معاهدة التحالف يتعلق بالتزام الرُّوس إرسال قوات إلى أميركا الشمالية لدعمهم، في حين رفضت إنكلترا نفسها تقديم الدعم لروسيا في البحر المتوسِّط. وما له دلالته أن ملك إنكلترا - على غرار غيره من ممثِّلي عائلات أوروبا المالكة المتوجين - ظل طويلًا غير قادرٍ على «تقبُّل» اتِّخاذ الإمبراطورة الروسية قرارًا باتِّباع سياسة خارجية مستقلة، لا تسمح باستخدام روسيا في مصالح الآخرين (وفق ما كتبت هي نفسها).

جدير بالذكر أن روسيا لم تكتفِ بدعوتها معلمي سفنٍ وضباطًا بحريين من بريطانيا للخدمة في أسطولها، بل سعت إلى استقدامهم من البندقية وفرسان مالطا أيضًا. وعلى الرغم من أن هذه المحاولة لم تتكلل بالنجاح، فإن ستةً من الضباط الرُّوس تلقوا التدريب في الأسطول المالطي خلال الفترة الواقعة بين عامي 1765 و1768[21]. فوفقًا للقائم بالأعمال الفرنسي في بطرسبورغ الأديب كلود ريولير،

---

(20) حاولت إنكلترا عقد اتفاقية مع روسيا في ما يتعلق بهذا الأمر في عام 1755. يُنظر على سبيل المثال:
*История дипломатии* (M., 1959), t. I, c. 332.

[**تاريخ الدبلوماسية** (موسكو، 1959)، مج 1، ص 332].

(21) هم نائبا الأميرال اللاحقان ت. غ. كوزليانينوف (1739-1798) ون. س. سكوراتوف (1741-1812)، والنقيب البحري الأول لاحقًا م. غ. كوكوفتسيف (1745-1793) والذين لا يقلون عنهم شهرة نيقولاي راغوزين وفيودور ماتالوف وإيفان سيلفونتوف. لمزيد من التفصيل عن هذا الأمر، يُنظر: И. А. Настенко & В. Яшнев, *История Мальтийского ордена, Кн. 2: Мальтийский орден и Россия. Иоанниты в новое и новейшее время. XVIII-XX вв* (M., 2005), c. 29.

[إ. أ. ناستينكو وف. ياشنيف، **تاريخ محفل فرسان مالطا، الكتاب الثاني: محفل فرسان مالطا وروسيا. جماعة يوحنا في العصرين الجديد والحديث. القرن الثامن عشر - القرن العشرين** (موسكو، 2005)، ص 29]. (كان ت. غ. كوزليانينوف (كوزلينوف) من بين الذين أرسلوا من كرونشتاد إلى =

فُسِّر وجود هؤلاء الضباط في مالطا رسميًا بضرورة تطوير مهاراتهم في مجال بناء السُّفن والملاحة البحرية، لاستخدامها في البلطيق لاحقًا. والواقع أن الغرض من وجودهم كان التعرُّف إلى ظروف الملاحة في البحر المتوسِّط، كما افترض ريولير (ويبدو أنه لم يكن مخطئًا)[22]. وتمكن عدد من هؤلاء الضباط من تلقِّي التدريب في إنكلترا أيضًا، إلا أنهم سرعان ما استُدعوا في صيف عام 1768، حين بدأ التحضير سرًا لإرسال العمائر البحرية[23].

كان على الضباط البحريين الموفدين إلى أسطول أجنبي العمل على جمع المعلومات عن الطرق البحرية وأوضاع المرافئ والمدن التي يزورونها وعن سكانها[24]، وكما جاء في **حكاية البحار الروسي** اكتساب المعارف «عن البحار والجزر واللُّجَج البحرية والمياه الضحلة والتيارات السريعة والرياح والكواكب السماوية والهواء»[25]. أسهمت المعلومات التي جمعها ماتفي

---

= إنكلترا في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1762). يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 7.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 7].

(22) *АВПРИ*, Ф. 6/6: Сношения России с Мальтой, 1746-1801, Д. 5, Л. 1-3; П. Перминов, *Под сенью восьмиконечного креста (Мальтийский орден и его связи с Россией)* (М., 1991), с. 76; Cl.-C. Rulhière, «Histoire de l'anarchie de Pologne et du démembrement de cette République: Suivie des Anecdotes sur la révolution de Russie en 1762,» dans: *Oeuvres* (Paris, 1819), t. 3, p. 292.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 6/ 6: علاقات روسيا مع مالطا، 1746-1801، الملف 5، الورقة 1-3؛ ب. بيرينوف، **في ظل الصليب ذي الثمانية أضلاع (محفل فرسان مالطا وعلاقاته مع روسيا)** (موسكو، 1991)، ص 76].

(23) *АВПРИ*, Ф. Внутренние коллежские дела, Оп. 2/6, Д. 7177, Л. 64-66. См. Также: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007), с. 83-87.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، مجموعة هيئة الشؤون الداخلية، القائمة 2/ 6، الملف 7177، الورقة 64-66. يُنظر أيضًا: غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)، ص 83-87].

(24) فُرض على الموفدين إلى إنكلترا تعلُّم اللغة الإنكليزية وجمع المعلومات المشار إليها. يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 49.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 49].

(25) Гистория о российском матросе Василии Кориотском и прекрасной королевне = Ираклии Фло-ренской земли, in: *Русская литература XVIII века*, с. 12.

كوكوفتسيف[26]، في أثناء خدمته في الأسطول المالطي ثم في حملة الأرخبيل، في وضع كتاب يتضمن وصفًا للأرخبيل و«الجزر البربرية» (سواحل تونس والجزائر)[27]. واستخدم البحارة الرُّوس التجربة المالطية وخبرة المشاركة في حملة الأرخبيل، عند تأديتهم الخدمة في البحر الأبيض المتوسِّط بعد انتهاء الحرب أيضًا. في ما بعد، تولى ت. غ. كوزليانينوف، الذي لفت انتباه الأسرة الحاكمة، قيادة عمارة بحرية غير كبيرة عملت في مياه البحر المتوسِّط خلال الفترة بين عامي 1776 و1779، وأجرى مفاوضات ناجحة مع سلطان المغرب. بكلام آخر، كانت هيئة الأدميرالية تتطلع إلى البعيد في مخططاتها عندما قررت إيفاد ضباطها لتلقِّي التدريب في الأسطول المالطي.

سبقت إرسالَ الضباط الرُّوس إلى الأسطول المالطي عملية استطلاع للوضع في البحر المتوسِّط، بمبادرة من كاترينا الثانية. وفي أحواض بناء السُّفن الروسية بدأ في عام 1763 بناء فرقاطة أُطلِقَ عليها اسمٌ رمزيٌّ هو «ناديجدا بلاغوبولوتشيا»[28]، ولِتُخَصص للإبحار في البحر المتوسِّط[29]. وعُرفت هذه

---

= [حكاية البحار الروسي فاسيلي كوريوتسكي والأميرة الجميلة هيراكليا الفلورنسية، في: **الأدب الروسي في القرن الثامن عشر**، ص 12].

(26) عُين ماتفي كوكوفتسيف في عام 1775 في إسبانيا، وأرسل من هناك إلى الجزائر وتونس في مهمة استخباراتية سرية.

(27) М. Г. Коковцев, *Описание Архипелага и варварийскаго берега, изъявляющее положение островов, городов, крепостей, пристаней, подводных камней и мелей; число жителей, веру, обряды и нравы их с присовокуплением древней истории, и с тремя чертежами* (СПб., 1786); М. Г. Коковцев, *Достоверные известия об Альжире, о нравах и обычаях тамошнего народа, о состоянии правительства и областных доходов, о положении Варварийских берегов, о произрастаниях и прочем, с верным чертежом* (СПб., 1787).

[م. غ. كوكوفتسيف، **يوضِّح وصف الأرخبيل والساحل البربري موقع الجزر والمدن والقلاع والموانئ والصخور التي تحت الماء والأماكن الضحلة؛ وعدد السكان وديانتهم وطقوسهم وعاداتهم، إضافة إلى التاريخ القديم، وثلاثة رسوم** (سان بطرسبورغ، 1786)؛ م. غ. كوكوفتسيف، **أخبار موثوقة عن الجزائر وعن طبائع شعبها وعاداته، وعن حال الحكومة ومداخيل الأقاليم، وعن أوضاع الجزر البربرية، والنباتات وغيرها، مع رسم صحيح** (سان بطرسبورغ، 1787).].

(28) الأمل بالتوفيق. (المترجم)

(29) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 117.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 117].

الفرقاطة في وثائق تلك الحقبة، وكذلك في الكتابات الأدبية آنذاك، باسم «فرقاطة فلاديميروف»، لأن شركةَ تجار تولانيين[30] يرأسها إيفان فلاديميروف استأجرتها للملاحة في إيطاليا[31]. قاد الفرقاطة الضابط البحري المجرِّب ف. س. بليشييف، الذي مارس الملاحة ابتداءً من عام 1743، الذي رُقِّيَ إلى رتبة نقيب أول بحري في عام 1764 (وقُتل في يفستافيا في عام 1770، في أثناء معركة شيسما)[32]. وشارك في إبحار السفينة ضباط بحريون آخرون تميزوا في الحرب الروسية - التركية ضمن حملة الأرخبيل، منهم فيليم فونديزين الذي أصبح في ما بعد أميرالًا (1740-1826) وب. أنيتشكوف وإ. أرتسيباشيف وغيرهم[33].

## الفرقاطة التجارية

لم تكن الخطوات التي اتخذتها كاترينا الثانية ترمي إلى التعرُّف إلى الوضع في منطقة البحر المتوسِّط فحسب، بل إلى تطوير التجارة الروسية هناك أيضًا (وإلى القيام بأعمال استخباراتية في الوقت نفسه). وكانت لهذه السياسة قصتها. فمنذ نهاية القرن السابع عشر كان المعنيون الرُّوس يعرفون - على نحوٍ جيِّد - تجارة

---

(30) نسبة إلى مدينة تولا. (المترجم)

(31) Соловьев, Кн. XIII, с. 316; Е. И. Дружинина, *Кючук-Кайнарджийский мир 1774 г. (его подготовка и заключение)* (М., 1955), с. 63.

[سولوفيوف، الكتاب 13، ص 316؛ ي. إ. دروجينينا، **معاهدة كوتشوك - كاينارجي 1774 (إعداداها وإبرامها)** (موسكو، 1955)، ص 63]. نعتقد بأن ريولير ومن بعده كتبوا مخطئين عن سفينتين، وأكدوا أن أورلوف والإمبراطورة أعدا لعملية تجارية.

В. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (М., 1996), с. 189.

[ف. بلوغين، **أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال** (موسكو، 1996)، ص 189]. الوثيقة التي نستند إليها تتحدث عن مشاركة تيبلوف، وليس أورلوف.

(32) يرد ذكره في عدد من الوثائق والدراسات تحت اسم فاسيلي. ونلتزم هنا المعلومات الواردة في **القاموس البيوغرافي البحري** لـ ف. م. لوريه (سان بطرسبورغ، 2005).

(33) В. Образцов, ««Надежда Благополучия», Первый екатерининский фрегат в Средиземном море,» *Родина*, no. 2 (2010), с. 78-79.

[ف. أوبراتسوف، «'ناديجدا بلاغوبوليتشيا'، فرقاطة كاترينا الأولى في البحر المتوسِّط»، **رودينا**، العدد 2 (2010)، ص 78-79].

فرنسا وإنكلترا وهولندا المربحة جدًا في الإمبراطورية العثمانية[34]. فبطرس الأول لم ينجح في مهمة الحصول على حرية الملاحة التجارية في البحر الأسود، أملًا بالخروج إلى البحر المتوسِّط، خلال مفاوضاته مع الباب العالي (بعثة ي. إ. أوكراينتسيف في عامي 1699 و1700). غير أن التجارة الروسية مع الإمبراطورية العثمانية - وفق معاهدة بروت للعام 1711 - لم تكن متاحة إلا عبر الطرق البرية. وهكذا، لم تتمكن روسيا من الحصول على الامتيازات ذاتها التي كانت متاحةً لإنكلترا وهولندا في التجارة البحرية مع الإمبراطورية العثمانية إلا بعد عقد اتفاقية بلغراد في عام 1743، بحيث سُمِحَ لها بالإتجار فقط على السُّفن التركية. وفي نهاية أربعينيات القرن الثامن عشر سأل رئيس هيئة التجارة ب. غ. يوسوبوف ممثِّلَ روسيا في القسطنطينية عن شروط التجارة في البحر الأسود وفي شرق حوض البحر المتوسِّط[35].

ظهرت منذ نهاية أربعينيات القرن الثامن عشر خطط إنشاء شركات تجارية روسية في القسطنطينية، وأخذ تجارٌ روس يمارسون التجارة في الأرخبيل أيضًا[36]. ففي النصف الثاني من القرن، صار رجال الأعمال الرُّوس يسعون بنشاط أكبر إلى تنظيم التجارة في حوض البحر المتوسِّط. وهكذا، ففي عام

(34) من المعروف أن العلاقات مع جمهورية البندقية ظلت هي السائدة في التجارة الخارجية العثمانية، حتى أواسط القرن السادس عشر؛ وبحلول عام 1535 عقدت معاهدة الاستسلام الفرنسية - التركية، فبدأ التجار الفرنسيون يرسخون أقدامهم في الحوض الشرقي للبحر المتوسِّط. ولم تعقد معاهدة مماثلة مع بريطانيا إلا في عام 1579، وفي عام 1581 أنشأت الأخيرة الشركة المشرقية. وفي القرن السابع عشر هيمنت بريطانيا على التجارة المشرقية، وحصل التجار الإنكليز والهولنديون في القرن السابع عشر على الإذن بالتجارة في البحر الأسود، ولكن على السُّفن التركية فحسب. وابتداء من ثلاثينيات القرن الثامن عشر نجحت فرنسا في إزاحة التجارة البريطانية من شرق البحر المتوسِّط.

(35) يُنظر: В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883), Приложения 13 & 14, с. XXI-XXVIII.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، الملحقان 13 و14، ص XXI-XXVIII].

(36) يُنظر: М. Чулков, *Историческое описание российской коммерции при всех портах и границах от древних времен до ныне настоящего* (СПб., 1786), t. II, Кн. 1.

[م. تشولكوف، **وصف تاريخي للتجارة الروسية في كل المرافئ والحدود من الأزمنة الغابرة حتى الوقت الراهن** (سان بطرسبورغ، 1786)، مج 2، الكتاب الأول].

1756، اقترح «رجل الأعمال الموسكوبي عضو جمعية الحرفيين الأولى صاحب مصنع الحرير فاسيلي ماكاروف ابن خاستاتوف إنشاء شركة تجارية «من مرفأ تيميرنيك عبر البحر الأسود وحتى القسطنطينية وإيطاليا والبندقية وغيرها من الأماكن هناك». شاركه الاقتراح كلٌّ من التاجر الممتاز من كالوغا نيكيتا تيموفييف ابن شيمياكين والتاجر الممتاز من ياروسلاف ألكسي إيفانوف ابن ياروسلافتسيف»[37]. صادقت هيئة التجارة على الشركة، التي حصلت على حقوق الإتجار الاحتكارية في البحر الأسود، التي لم تلغ إلا في عام 1762. وأعرب «صاحبا مصانع الحديد والنحاس الأخوان تفيرديشيف ومعهما مياسنيكوف» عن نيتهم إرسال نحو 20 رطلًا من الحديد من المرفأ نفسه إلى البحر المتوسِّط عبر القسطنطينية، وفي غضون ذلك كتب عضو الهيئة المستشار تفيرديشيف في خلاصة موجزة: «إن التجارة الروسية من مرفأ تيميرنيك عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية، التي بدأت ضعيفة منذ فترة وجيزة، وإنْ على سفن تركية، تعطي مع ذلك الأمل في التوسُّع من هناك، عبر البحر المتوسِّط، وصولًا إلى إيطاليا ومختلف الدول الأخرى»[38].

غاب عن إصدارات القرن الماضي (1763) التِماسُ تجار تولا (إيفان فلاديميروف ولاريون لوغينين وميخائيل باستوخوف وميخائيل غريبانوف) المؤرخ في 23 أيلول/سبتمبر، مع ملاحظات الإمبراطورة بخط يدها[39]. ويظهر من الوثائق أن المبادرة إلى إنشاء الشركة تعود إلى كاترينا، حيث كتب التجار ما يأتي: «أُبلغنا من مستشار الدولة السيد تيبلوف أن جلالة الإمبراطورة ترغب، تعبيرًا منها عن رعايتها الأمومية لرخاء رعاياها، في أن تتاح أمام التجار الرُّوس إمكانية التجارة في البحر المتوسِّط، انطلاقًا من سان بطرسبورغ». فاستحوذت كاترينا وسكرتيرها (غ. ن. تيبلوف) على «القوة المحركة» للكثير من إصلاحات تلك الحقبة، وبحسب رأي إيزابيل دي مادرياتا فقد بلغت قيمة

(37) المرجع نفسه، ص 21.

(38) Уляницкий, Приложение 18, с. LXVIII-LXIX.

[أوليانيتسكي، الملحق 18، ص LXIX - LXVIII].

(39) منذ فترة غير بعيدة عادت غ. أ. غريبينشيكوفا إلى تناول هذا الموضوع (غريبينشيكوفا، ص 52-54).

مساهمتها في الشركة عشرة آلاف روبل، ووافقت على طلب التجار منحهم رعايتها: «فلتكن الشركة تحت إدارتنا حصرًا».

كانت تحدو الإمبراطورة رغبة شديدة لإرسال فرقاطة من بطرسبورغ إلى البحر المتوسِّط في عام 1764 - تحت غطاء العمل التجاري - ما جعل التجار التولانيين يتجرأون على ما شابَهَ إملاء الشروط عليها. فطلبوا منها منحهم «كمرةٍ أولى» فرقاطة مزودة بمدافع (يجدر بالذكر هنا أن الإمبراطورة كانت مستعدة عند الضرورة منحهم أيضًا سفينتين مع طاقميهما العسكريين). وقد رفض التجار دفع تكاليف السفينة، إلا أنهم تعهدوا دفع كلفة استئجارها فقط. فما كان من كاترينا إلا أن أمرت بأن تكون «نفقة الفرقاطة بكامل طاقمها وفريقها على حسابنا» في السنة الأولى. وتمنى التجار ألا يستعجل ف. س. بيليشيف وكيل الشركة، «لأن كل هذا المشروع سيكون بمثابة تجربة لتجارة الدولة في المستقبل». ووافقت الإمبراطورة على هذا أيضًا، على الرغم من عدم تكرُّر التجربة في السنة التالية. كما ألح التجار على أن يرافق الوكيلَ الذي سيسافر من طريق البر مترجمان، فدونت كاترينا الملاحظة الآتية: «على تيبلوف إيجاد أشخاص أكفاء وأمناء»[40].

كان ثمة مسوِّغات أيضًا للحرص على وكيل الشركة، التاجر المتعلِّم من قازان بونوماريوف، الذي كان موضع اهتمام البلاط الروسي (سأل عنه ولي العهد الشاب بالتحديد)[41]. ويبدو أنه كُلِّف، هو والقبطان ف. بليشييف، بمهمات من نوع خاص؛ إذ كان عليهما إرسال تقارير إلى بطرسبورغ بشأن تنفيذها. وكان التقرير الأول الذي أرسله بونوماريوف يتحدث عن وصول

---

(40) Прошение тульских купцов о торговле в Средиземном море с заметками Екатерины II, in: *Русский архив*, 1870 (Год 8-й) nos. 4-5, Стлб. 541-545.

[التِماس تجار تولا المتعلق بالتجارة في البحر المتوسِّط مع ملاحظات كاترينا الثانية، في: **الأرشيف الروسي**، 1870 (السنة الثامنة)، العددان 4-5، العمود 541-545].

يُنظر أيضًا: И. де. Мадариага, *Россия в эпоху Екатерины Великой* (М., 2002), с. 193.

[إ. دي. مادارياغا، **روسيا في عصر كاترينا الكبرى** (موسكو، 2002)، ص 193].

(41) Соловьев, Кн. XIII, с. 476.

[سولوفيوف، الكتاب 13، ص 476].

السفينة بسلام إلى ليفورنو، وكيف «أقام كاهن الفرقاطة في كنيسة ليفورنو اليونانية قداسًا احتفاليًّا باللغة الروسية لمناسبة عيد شفيعة كاترينا في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، وهو يرتدي الرداء الثمين الذي أرسلته الإمبراطورة كاترينا إلى الكنيسة اليونانية»[42]. وبكلام آخر، شقت العلاقات الكنسية الطريق أمام العلاقات السياسية (وسوف تنقل سفن حملة الأرخبيل لاحقًا الألبسة والأدوات الكنسية إلى الكنائس الأرثوذكسية في منطقة البحر المتوسِّط).

يجدر بالذكر أن التحضيرات الدبلوماسية لرحلة الفرقاطة التجارية آتت أُكُلَها وأسهمت في نجاحها. فقد تواصلت هيئة الشؤون الخارجية - عبر الممثل الروسي في فيينا الأمير د. م. غوليتسين - مع حكومات **الدول الإيطاليَة**، طالبة منها تقديم المساعدة لتجار تولا وفرقاطتهم. فأجاب ممثل نابولي في فيينا أن ملكه على استعداد لعقد اتفاقية تجارية مع روسيا؛ أما حكومة توسكانة فقد أعربت عن رغبتها بوجود قنصل روسي في ليفورنو[43]. بيد أن هيئة الشؤون الخارجية لم تكن مستعدة للاستفادة من هذه الاقتراحات، وكذلك الاستجابة لإعراب حكومة البندقية مجددًا عن استعدادها للعودة إلى مسألة عقد الاتفاقية التجارية. ويبدو أن كاترينا الثانية قررت الاكتفاء، بدايةً، بعملية الاستطلاع الناجحة، المقترنة بالأهداف التجارية والمتستِّرة بها. ولم تعد الفرقاطة من ليفورنو إلا في أيلول/سبتمبر 1765، محملة بالبضائع الأجنبية[44]. وقد أقامت قيادتها على الأرجح بعض العلاقات التي استفاد منها أورلوف خلال عامي 1768 و1769. أكثر من ذلك، استُخدِمَ قسمٌ من الأموال التي جنتها «فرقاطة فلاديميروف» في إيطاليا، في ما بعد، على أقل تقدير، في تمويل نفقات مهمة بابازولي (سيأتي الحديث عنها لاحقًا). ويبدو أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن لقاءً جرى في ليفورنو في خريف عام 1768، بين أ. غ. أورلوف

---

(42) المرجع نفسه، ص 316.

(43) Уляницкий, с. 97.
[أوليانيتسكي، ص 97].

(44) Гребенщикова, с. 54.
[غريبينشيكوفا، ص 54].

وقبطان «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» ف. بليشييف، الذي توجه إلى بطرسبورغ على الفور، ليعود لاحقًا إلى حوض البحر المتوسِّط في عداد العمارة البحرية الأولى بقيادة سبيريدوف، على متن سفينة القيادة «يفستافي». ويبقى أن نضيف أن ب. بارتينيوف، الذي نشر التِماس تجار تولا، كان مجافيًا للحقيقة عندما افترض أن قصة «فرقاطة فلاديميروف» تدلُّ على أنه «حُضِّر مسبقًا للنجاحات السياسية الروسية المتمثِّلة بانتصار شيسما»[45].

## المبعوثون الرُّوس في اليونان والبلقان

كانت مهمة غيورغي بابازولي السرِّية في اليونان والبلقان في أساس سياسة كاترينا الثانية المتوسِّطية.

حتى الآونة الأخيرة، كانت الكتابة عن هذه المهمة تستند إلى معلومات كلود ريولير، الكاتب المعاصر لتلك الأحداث، الذي أتيح له الوصول إلى مواد أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية و«مذكرة» مانويل سارو. على أن الكاتب المذكور كان ميالًا إلى استخدام النمائم والشائعات غير الموثوقة[46]. كان سارو أحد المشاركين في مهمة غ. بابازولي، وأدت «مذكرته» التي أرسلت إلى البلاط في عام 1765، دورًا محددًا في تنظيم حملة الأرخبيل[47]. هذا، وقد اكتُشفت في العقد الأخير وثيقتان مهمتان ينبغي تناولهما بالتفصيل. فهما تسمحان بالتدقيق في تفاصيل تلك العملية والمناخ الذي جرت فيه، وتقويم نتائجها

---

(45) Прошение тульских купцов о торговле в Средиземном море с отметками Екатерины II, c. 541; Плугин, c. 188-190.

[التِماس تجار تولا المتعلق بالتجارة في البحر المتوسِّط مع ملاحظات كاترينا الثانية، ص 541؛ بلوغين، ص 188-190].

(46) Rulhière, «Histoire de l'anarchie de Pologne».

عن ريولير وكتابه، يُنظر: П. В. Стегний, *Разделы Польши и дипломатия Екатерины II, 1772, 1793, 1795* (M., 2002), c. 39-40.

[ب. ف. ستيغني، **تقسيم بولندا ودبلوماسية كاترينا الثانية، 1772، 1793، 1795** (موسكو، 2002)، ص 39-40].

(47) عن المذكرة يُنظر: Соловьев, Кн. IV, c. 272.

[سولوفيوف، الكتاب 4، ص 272]. [ثمة كما يبدو خطأ مطبعي في النص الروسي في رقم الكتاب، الذي هو على الأرجح 14 وليس 4. (المترجم)]

وإظهار طابعها، وتبيان البواعث الداخلية التي حركت منفِّذيها. ويجري الحديث هنا عن «التِماس» إيفان بالاتينو (المشارك الثالث في مهمة بابازولي)[48] الذي سُلِّم إلى ن. إ. بانين في عام 1768؛ وكذلك «التِماس» م. سارو، المرفوع إلى الإمبراطورة في عام 1785، بعد انقضاء عشرين سنة على وضعه «مذكرته»[49]. ويُعدُّ «التِماس» إيفان بالاتينو، في رأينا، الأصدق بين هذه الوثائق، بالنظر إلى مضمونه الغني، المدعم بالوثائق الملحقة به، المستند إلى مصادر وازنة يمكنها أن تثبت صحة المعطيات التي يوردها بالاتينو، بما يؤكِّد سمعته الجيدة[50].

إذا كانت العملية المرتبطة برحلة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» تركت كاترينا أسيرة «رؤيتها الخاصة»، فقد كانت مهمة غ. غ. أورلوف، خلال تلك السنوات، جس الأمزجة السياسية لدى سكان مورية وساحل البلقان الأدرياتيكي.

من البدهي أن الكونت غريغوري غريغوريفيتش أورلوف - بحسب رأي س. م. سولوفيوف - لم يكن ليُقدم على أيِّ عمل من دون التشاور مع الإمبراطورة. ومع ذلك، فإن خطط توحيد جهود كلٍّ من روسيا وسكان جنوب غرب البلقان ومورية الأرثوذكس في النضال ضد الأتراك، وضعها الإخوة أورلوف، في ستينيات القرن الثامن عشر، وفق تأويلهم لها. وإذا صدقنا ريولير، فقد أثارت مآرب أورلوف معارضة حازمة لدى ن. إ. بانين حال ظهورها.

---

(48) أدخل غ. ل. آرش الوثيقة في التداول العلمي؛ يُنظر المرجعان التاليان: Виноградов (редактор), *История Балкан*, с. 434-438; *Новая и новейшая история*, no. 6 (2010), с. 60-72.

[فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 434-438؛ **التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 6 (2010)، ص 60-72].

(49) *РГАДА*, Ф. 10, Оп. 1, Д. 645, Л. 94-95.

[**أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**، المجموعة 10، القائمة 1، الملف 645، الورقة 94-95].

(50) يُنظر نصوص الوثائق لدى: И. М. Смилянская, М. Б. Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Архипелагская экспедиция Екатерины Великой, Под общей редакцией Е. Б. Смилянской (М.: Индрик, 2011).

[إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط: حملة كاترينا الثانية في البحر الأبيض المتوسِّط**، الملحقان الأول والثاني (الطبعة الروسية)].



الكونت غريغوري أورلوف

يبدو أن الإخوة أورلوف المولودين في موسكو، المتشبِّعين بروحيتها الأكثر تقليديةً، كانوا متعاطفين مع الفكرة الدينية - السياسية لتحرير اليونانيِّين بمساعدة السلاح الروسي. غير أن كاترينا لم تكن تضع هذه المهمة مطلقًا في مقدِّمة أولوياتها بالنظر إلى سياستها الواقعية؛ فكيف يمكن أفكار الاستيلاء على القسطنطينية أن تصدر عنها؟[51]. ولعل كاترينا الثانية أخذت في حسبانها حماسة الإخوة أورلوف الدينية - السياسية، فسمحت لأحدهم (غريغوري) بالعمل على تحضير التعاون المقبل مع اليونانيِّين والسلافيين. فضلًا عن ذلك، كان غريغوري أورلوف على رأس لجنة الوصاية على الأجانب، وكانت لديه علاقاته في أوساط اليونانيِّين الذين يقطنون العاصمة.

ومع ذلك، فإن الدافع إلى القيام بهذا العمل صدر عن الإمبراطورة نفسها. فبعد أربعة أشهر فقط من جلوسها على العرش - في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1762 - توجهت كاترينا إلى مجلس الشيوخ بمرسوم يقضي بـ «العثور على رجل من قواتنا جدير بذلك الموقع، يحسن الكلام والعمل، ويمكن إرساله لكي يُبلغ كل الأرثوذكس الذين يعيشون هناك غيرتنا وعطفنا، اللذين نكنُّهما لهم بصدق، وسعينا لتقديم المساعدة إليهم في سبيل

(51) ثمة رأي في الأدبيات التاريخية يقول إن الإخوة أورلوف ربطوا، في الحرب الروسية - التركية الأولى، طموحاتهم الخاصة حتى بالاستيلاء على القسطنطينية، لكن موضوع الاستيلاء على تساريغراد لم يكن يتردد على لسان الإمبراطورة الأكثر واقعية في حرب الأعوام 1768-1774 إلا على سبيل المداعبة: فقد أشارت على نحوٍ مرحٍ، على وجه التحديد، في رسالة إلى السيدة بيولكا، بتاريخ الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، إلى أن الاستيلاء على القسطنطينية «أسهل بعض الشيء من القبض على القمر بالأسنان» [رسالة بخط يد الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى السيدة بيولكا، بتاريخ الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية، المحفوظة في أرشيف الدولة لوزارة الشؤون الخارجية، **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية** (سان بطرسبورغ، 1872)، مج 10، ص 388].

نيلهم حريتهم»[52]. وهكذا، جرى الحديث عن ترشيح رجل في الخدمة العسكرية الروسية، يُفضل أن يكون يونانيًا، لأن الوثيقة المخصصة له ستكون باللغة اليونانية.

أخيرًا، عُثِرَ على الرجل «الجدير» بين مرؤوسي الكونت غريغوري أورلوف، ألا وهو غيورغي بن ميخائيل بابازولي، ملازم خدم في قوات المدفعية تحت إمرة غ. أورلوف[53]. وبحسب ريولير، فإن بابازولي يتحدر من فيساليا بمقدونيا - بحسب معطيات أ. كاماريانو سيوران - وقد تعرض للاضطهاد في وطنه فاضطر إلى مغادرته. وهو نفسه أوحى إلى غريغوري غريغوريفيتش بفكرة توحيد جهود القوات المسلحة الروسية في الحرب المقبلة مع جهود اليونانيِّين الذين ينتظرون هذه اللحظة للتخلُّص من النير التركي[54]. غير أن هذه الفكرة كانت سائدة في الأوساط الحكومية الروسية منذ أيام بطرس الأكبر، بفضل نداءات ممثِّلي مختلف الشعوب البلقانية إلى العرش، وكذلك بفضل تقارير العملاء الرُّوس في القسطنطينية الذين كانوا يؤكدون لبطرسبورغ استعداد رعايا الباب العالي من الأرثوذكس دعم روسيا في الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية[55]. ويمكن أن تكون فكرة التعاون مع اليونانيِّين بالدرجة

---

(52) سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط**، الملحق الأول، ص 493-494 (الطبعة الروسية).

(53) يُكتب اسمه بأشكال مختلفة. وقد حذت إ. إ. ليشيلوفسكايا حذو كلود ريولير مفضلة استخدام اسم بابا أوغلي. يُنظر: И. И. Лещиловская, *Сербский народ и Россия в XVIII в.* (СПб., 2006), с. 76.

[إ. إ. ليشيلوفسكايا، **الشعب الصربي وروسيا في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ، 2006)، ص 76].

(54) Rulhière, pp. 290-293; A. Camariano-Cioran, «La Guerre russo-turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965).

وقد سماه ريولير باباز أوغلي (Papaz-Ogli) مقترحًا اشتقاقًا مشكوكًا فيه لهذه التسمية هو ابن الكاهن. إذ إن صفة «أوغلي» كانت في الإمبراطورية العثمانية تضاف إلى أسماء العائلات التركية الرفيعة المقام، وتعني «الابن».

(55) يُنظر: Виноградов, «Трагедия на реке Прут,» с. 55-63; Лещиловская, с. 25-72.

[فينوغرادوف، «مأساة على نهر بروت»، ص 55-63؛ ليشيلوفسكايا، ص 25-72]. في عام 1745 أبلغ العميل الروسي في القسطنطينية أ. أ. فيشنياكوف إليزابيت بيتروفنا أن «اليونان كلها والجزر =

الأولى قد نشأت لدى غ. غ. أورلوف وكاترينا الثانية كليهما، بفضل علاقات الأول بيونانيي بطرسبورغ؛ الأمر الذي كان يتلاءم أكثر مع سياسة كاترينا الثانية المتوسِّطية. ولا يبقى سوى التخمين: إلى أي حدٍّ أثر ولع الإمبراطورة بالحضارة الإغريقية القديمة، وبصورة اليونانيِّين الإسبارطيين الشجعان، على اختيارها الورقة اليونانية من بين ما حازته من أوراق سياسية؟ (كان مانويل سارو يحلم بأن يرسله غ. غ. أورلوف إلى «الشعب الإسبارطي»). ومن المعروف، أيضًا، أن ميول فولتير الهيلينية جعلت منه نصيرًا وداعيةً لسياسات كاترينا الثانية في المتوسِّط.

يصعب القول إلى أيِّ حدٍّ كانت مزايا غيورغي بابازولي المهنية تتلاءم مع المهمة الصعبة الملقاة على عاتقه، على أنه كان موضع تقدير لدى الإخوة أورلوف، وقد استخدموه في ما بعد كعميلٍ سريٍّ لهم في منطقة الأدرياتيكي[56]، حتى إنه قُلِّد أوسمة ملكية في عام 1771. لكنْ، من البدهي تمامًا أن غيورغي بابازولي لم يكن بعيدًا عن روح المغامرة، بل كان لديه ميل فجٌّ نحو الغش، كما يتبين من إخبار أدلى به إ. بالاتينو.

اختار غريغوري غريغوريفيتش «رفيقًا» لبابازولي، هو مانويل سارو، العضو الآخر في الجالية اليونانية في بطرسبورغ، وهو رجل شجاع جال طويلًا في أنحاء العالم (وكما كتب هو: «استُخدِمتُ لنقل الوحوش من أفريقيا إلى هنا»)، لكنه كان، كما اتضح لاحقًا، ميالًا إلى الإسراف في معاقرة الكحول («سكير»، على حدِّ قول غ. بابازولي) ومتبجِّحًا بلا حياء. وتمكن من جمع رأسمال قدره خمسة آلاف روبل، نتيجة «رحلات صعبة للغاية» و«مكافآت

---

= والقسطنطينية نفسها ستحمل الصليب في آن واحد وتهب لمساعدة جلالتكم الإمبراطورية» (اقتباس من:
С. Жигарев, *Русская политика в восточном вопросе (Ее история в XVI-XIX веках, критическая оценка и будущие задачи): Историко-юридические очерки* (М.: Унив. тип., 1896), t. 1, c. 136-137).

[س. جيغاريف، السياسة الروسية في المسألة الشرقية (تاريخها خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، مقاربة نقدية ومهام مستقبلية): دراسات تاريخية - قانونية (موسكو: المطبعة الجامعية، 1896)، مج 1 ص 136-137].

(56) يُنظر في هذا الصدد، على سبيل المثال: N. C. Pappas, *Greeks in Russian Military Service in the Late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries* (Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1991), pp. 67, 69.

البلاط السامي»، ليستقر في ما بعد في بطرسبورغ، حيث عاش «حياة رغيدة ملؤها الرفاه»، بفضل فائدة سنوية بلغت 300 روبل كان يتلقاها من رأسماله المودع لدى «التاجر المعروف بابانيلوب»؛ ما يعني أنه كانت لدى الجالية اليونانية في بطرسبورغ علاقاتها الاقتصادية الخاصة. كتب سارو يقول: «وهكذا، فيما كنت أنعم بالصحة وبالطمأنينة التامة، استدعيت في عام 1763 إلى سمو الأمير غريغوري غريغوريفيتش أورلوف[57]، الذي اقترح علي السفر سرًّا إلى مورية وغيرها من الأماكن اليونانية، لمعرفة موقف السكان هناك من البلاط هنا، ولتحضيرهم مسبقًا للحرب التركية القادمة»[58]. بدا تكليف غ. غ. أورلوف وكأنه مبادرة ذاتية منه، لأنه اقترح على سارو القيام «بهذه المهمة البالغة الخطورة» على حسابه الشخصي، واعدًا إياه بمكافأة عظيمة. (أمضى سارو وقتًا طويلًا في ما بعد على أعتاب مكتب استقبال ن. إ. بانين، منتظرًا لا المكافآت فحسب، بل استعادة رأسماله المهدور). لم تكن «الوعود بالمكافأة هي التي دفعت سارو إلى قبوله المهمة» - على حدِّ قوله - «بل التعلق بدين مواطنيه الرازحين تحت نير العبودية الشنيع»، و«الغيرة على مصالح جلالتكم الإمبراطورية ومصالح الإمبراطورية الروسية». تجدر الإشارة إلى أن فكرة تطابق «مصالح اليونانيِّين ومصالح التاج الإمبراطوري والإمبراطورية الروسية» لم تكن لدى سارو وحده، بل إنها استقرت في الوعي اليوناني عمومًا)[59]. أخذ سارو رأسماله من مُوَاطِنه وغادر برفقة الملازم بابازولي، الذي اختُص بالدور الرئيس في كل هذه العملية.

من المعروف أن بابازولي لم يغادر من العاصمة الشمالية، بل من موسكو

---

(57) كتب م. سارو الالتماس في فترة لاحقة، بعد أن منحت الإمبراطورة الكونت غريغوري أورلوف لقب الأمير، الذي حُرم من الحظوة لديها (المؤلفة).

(58) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 2, с. 496.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط، الملحق الثاني، ص 496 (الطبعة الروسية)].

(59) كتب إيفان بلاتينو في «التماسه» عن نفسه بوصفه إنسانًا «قام بهذه المأثرة، وضحى بحياته في سبيل عزتها ومحبتها» (أي الإمبراطورة (المؤلفة)).

(توخِّياً للسرِّية، ربما) في السادس والعشرين من أيار/ مايو (أي في السنة التي بدأ فيها إعداد الفرقاطة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» للإبحار في البحر المتوسِّط، وعندما أمرت كاترينا الثانية بوضعها بتصرف تجار تولا). وكما أشرنا، كان من المفترض أن يجري في إيطاليا تسليم بابازولي جزءًا من أموال تجار تولا، فزُوِّد برسالة ملكية باللغة اليونانية وقعتها الإمبراطورة وسكرتير الدولة السيناتور آدم فاسيليفيتش أولسوفييف. ويعتبر غ. ل. آرش الرسالة بمثابة بيان رفيع موجه إلى سكان مناطق البلقان الجبلية: ماينى، هيمارا، الجبل الأسود[60]. إلا أن هذه الوثيقة كانت من حيث الشكل أشبه بشهادة تؤكِّد مهمة بابازولي، علمًا أن اليونانيِّين اعتبروها إعلانًا عن نوايا الإمبراطورة تجاههم، فانتشرت في أوساطهم نسخٌ من الرسالة بخط اليد، حيث اكتشفت إحدى هذه النسخ في الوسط اليوناني بأوديسا في نهاية القرن التاسع عشر، ونُشرت ترجمةٌ لها باللغة الروسية في «مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة»[61].

تتضمن مقدِّمة رسالة كاترينا الثانية التأكيد على واجب العرش الروسي الديني والسياسي حيال الكنيسة الأرثوذكسية؛ إذ أكدت كاترينا أنها تنهج سياسة أسلافها بثبات في ما يتعلق بقضية حفظ أرثوذكسية «الكنيسة

---

(60) Г. Л. Арш, «Греция: Торговля. Просвещение, Война 1768-1774 гг. Восстание в Морее,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан,* с. 435.

[غ. ل. آرش، «اليونان: التجارة، التعليم»، في: فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 435].

تجدر الإشارة إلى أن الوثيقة التي ترجمها بالاتينو عبارة عن نسخة من الرسالة التي أعطيت لبابازولي عند سفره من روسيا، فكان أنْ رماها مع كل الوثائق الأخرى من متن السفينة بعد أن استولى عليها قراصنة طرابلس؛ ولو حدث ووقعت في أيدي الطرابلسيين لافتُضِح سرُّ رحلته. وتتضمن الوثيقة المؤرخة في 12 آب/ أغسطس 1764 معلومات عن وقوع البعثة في أسر القراصنة، وعن عملها لاحقًا في هيمارا، وكذلك عن طلب التوجه إلى مورية [ترجمها بالاتينو ونشرها أ. إ. ماركيفيتش في «مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة»].

(61) [А. И. Маркевич], «Доклад действительного члена А. И. Маркевича о посылке грека Георгия ПапаЗогли на Балканский полуостров в 1763-1764 г.,» in: *Записки Одесского общества истории и древностей,* t. 19 (Одесса, 1896), с. 42-46.

[[أ. إ. ماركيفيتش]، «تقرير العضو الفاعل أ. إ. ماركيفيتش عن إيفاد اليوناني غيورغي بابازولي إلى شبه الجزيرة البلقانية في عامي 1763 و1764»، في: **مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة**، مج 19 (أوديسا، 1896)، ص 42-46].

اليونانية المسيحية الشرقية المقدسة» وحمايتها والدفاع عنها، بما يتوافق مع القسم الذي أدته عند جلوسها على «العرش المقدس». ولهذا الغرض فهي ترى أن من واجبها إبقاء «سلاح جيشنا جاهزًا دائمًا لمواجهة كل من تسوِّل له نفسه رفع السلاح ضد الأرثوذكسية» (بكلام آخر، ينبغي أن يُكَرس الجيش الروسي في أعين المعاصرين من خلال مهمته الدينية). ويلي ذلك كلامٌ مشبَعٌ بروحية نظرية الناسك فيلوفي: «لذا، ومنذ جلوسنا على عرش الدولة الروسية المقدس وتسلمنا صولجان هذا الوطن الأرثوذكسي، بات من واجبنا الحتميِّ الدفاع عن وطننا هذا، بل الدفاع أيضًا عن كل الشعوب الأخرى التي تدين بالأرثوذكسية». (وكدليل على التمسك بهذا الدين، قدمت كاترينا حجةً تنبع من لغة يوم الانقلاب الذي وقع في عام 1762[62]. فهي رأت أن في إمكانها، حرمان زوجها من العرش، «بموافقة الجيش الروسي»، لمجرد أنه رغب في «تغيير مجمل نظام الأجداد»). أما هي، فليست تنتظر سوى «الفرصة كي تهب ضد عدو الأرثوذكسية، ولتحرير الشعب اليوناني الأرثوذكسي، الرازح تحت النير العثماني»، مدفوعة «بغيرتها هذه على الدين». ومجددًا، تكرِّر كاترينا موضوعتها القائلة بعزمها على تحرير اليونانيِّين، عارضة أهداف مهمة بابازولي: «ليذهبْ ولينفِّذْ إرادتنا، رغبتنا في تحرير الجنس المسيحي، وليرسلْ لنا من تلك البلدان كل المعلومات بناء لإرادتنا، وليبلغْنا بالرغبات والنوايا وبكل الأمور التي تحصل بين تلك الشعوب، وما يمكن أن تُقدم عليه». (وكما نرى، لم تتضمن رسالة الإمبراطورة الحديث عن الهدف الذي وضعه غ. غ. أورلوف، المتمثل في «إعداد إخوة الدين» [مسبقًا لخوض الحرب ضد الأتراك]، بحسب قول سارو). وهكذا، تمثلت أهداف المهمة بتلمُّس أمزجة شعوب اليونان والبلقان والدعاية في أوساطها، أي إطلاعها على عزم الإمبراطورة تحريرها. بكلام آخر، صيغت هذه الأهداف بروحية بطرس الأكبر؛ ومع بداية الحرب ستُبدي كاترينا دقةً وحذرًا أكبر في تحديد سياستها المتوسِّطية حيال إخوة الدين.

---

(62) Манифест Екатерины II от 6 июля 1762 г., in: *Осмнадцатый век* (М., 1869), Кн. 4, с. 217-223.

[بيان كاترينا الثانية بتاريخ السادس من تموز/ يوليو 1762، في: **القرن الثامن عشر** (موسكو، 1869)، الكتاب الرابع، ص 217-223].

حددت الرسالة الأماكن التي يجب على المبعوثين الذهاب إليها، ولمن ينبغي الإعلان عن «غيرتنا وعطفنا، الذي نكنُّه لهم بصدق»؛ فضلًا عن إعرابها عن نوايا الإمبراطورة. كانت منطقة مايني في مورية هي النقطة الأولى: «إلى الشعب الإسبارطي واللاكديموني[63] أولًا، وبعد ذلك إلى الجبل الأسود وهيمارا وغيرها من الأماكن المؤهلة للاستعداد للحرب». يجدر بالذكر أن إعطاء مورية الأولوية يؤكِّد رهان كاترينا السياسي على اليونانيِّين. أما المبدأ الذي استُنِدَ إليه في اختيار المناطق التي ينبغي توجيه المبعوثين الرُّوس إليها فقد كان مستوى روح سكانها القتالية. (كانت أهلية «الاستعداد للحرب»، في هذه الحال، تعني «الروح القتالية»: وكما كتب بالاتينو، الأهلية هي «لاستخدام السيف والسلاح»). لكن، هنا بالذات كان يكمن خطأ الإخوة أورلوف وكاترينا.

جرى الحديث من حيث الجوهر عن التعاون مع سكان جيوب إثنية اجتماعية خاصة، كانت تنتشر إبان القرن الثامن عشر في مختلف أنحاء العالم، وتقع في مناطق جبلية وشبه صحراوية ذات موارد زراعية شحيحة. وقد حافظ سكان هذه الجيوب على تصنيفهم بوصفهم إحدى التنظيمات الاجتماعية الأكثر تخلُّفًا، عنينا البنية القبلية العشائرية عادة (ويمكن أن تتشكل القبائل على أساس نظريات علم أصول الشعوب الخرافية). فما يسود في هذه المجتمعات تفاوتها الاجتماعي، بحيث تتميز بتنظيمها السياسي القائم على الولاء للزعيم[64]. إضافة إلى ذلك، اتسمت تلك المجتمعات بعدم الاستقرار السياسي، والبحث عن مصادر المعيشة عبر الانخراط في الخدمة العسكرية أو شنِّ الغزوات ونهب الشعوب المجاورة.

---

(63) وفقًا للأسطورة اليونانية، فإن مؤسس إسبارطة هو لاكديمون، ابن الإله زوس والإلهة تاجيت، وقد سماها على اسم زوجته ابنة يوروتاس. وبالتالي، فإن مصطلح «الشعب اللاكديموني» هنا مرادف لمصطلح «الشعب الإسبارطي». (المترجم)

(64) عن مثل هذه الجيوب، يُنظر: *История Востока, Т. IV: Восток в новое время (конец XVIII — начало XX в.)*, Книга 1 (М., 2004), с. 30-38.

**[تاريخ الشرق، مج 4: الشرق في العصر الحديث (نهاية القرن الثامن عشر - مطلع القرن العشرين)**، الكتاب الأول (موسكو، 2004)، ص 30-38].

يؤكِّد هذا التوصيف رأي مبعوث فلورنسا إلى البندقية دومينيكو كوتيني بتاريخ 21 تشرين الثاني/نوفمبر، حيث يتناول به أهل الجبل الأسود، فيقول: «هم، إذ حافظوا منذ القدم بثبات على طابعهم الوحشي والضاري، فلم يكلُّوا غزوًا. لقد صقلهم الحرمان، فهم مستعدون دائمًا للاحتماء في جبالهم بعد خطف الطريدة من الأتراك أو من أراضي البندقية، لكي يعودوا مجددًا إلى شنِّ غزواتهم وهجماتهم. إلا أنهم تمسكوا مع ذلك بالديمقراطية تحت قيادة الزعماء أو سلطة أبيهم الأول، أو أسقفهم الذي يباركهم كل مرة عند انطلاقهم للنهب. وقد ظلت السمة المميِّزة لهذة الأمة، حتى الآن، العداوة المتأصِّلة، المتوارَثة جيلًا بعد جيل بين العشائر المختلفة، ولا سيما انقسامهم العام بين حزبيهم الرئيسين...»[65].

توافرت لدى روسيا خبرة التعامل مع أهل الجبل الأسود، وكذلك المعلومات عن هذه المنطقة، حيث عملت «عيون»[66] روسيا على جمعها منذ أيام بطرس الأكبر. فإذا كان كبار رجال الدين، الذين اعتلوا عرش الجبل الأسود، يجنحون إلى المبالغة في قدرة شعبهم العسكرية، ساعين إلى خلق صورة عن وطنهم بوصفه بلدًا مستقلًّا يقاتل الأتراك بنجاح، فإن المبعوثين الرُّوس رسموا صورة أقرب إلى السلبية[67]؛ مع الإشارة إلى أن هيئة الشؤون الخارجية كانت «على خلاف مع أهل الجبل الأسود»[68]، على حدِّ قول كاترينا. فقد كوّن مستشار الهيئة س. ي. بوتشكوف، الذي أَم الجبل الأسود في نهاية خمسينيات القرن الثامن عشر، رأيًا عن أهله لا يختلف عن رأي مبعوث فلورنسا الآنف الذكر في تقريره خلال فترة لاحقة. فهو أيضًا وصفهم بأنهم شعب «متوحش»،

---

(65) Archivio di Stato di Firenze, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.
النص الأصلي بالإيطالية.

(66) هذا الاسم أطلقه على نفسه فرفوريس أوسبينسكي، مؤسس البعثة الروحية الأولى في القدس في عام 1847.

(67) يُنظر: Лещиловская, Гл. 2.
[ليشيلوفسكايا، الفصل الثاني].

(68) يُنظر: Соловьев, Кн. XIV, c. 295.
[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 295].

مشاطرًا الرأي الذي ساد في عصر التنوير عن الشعوب البربرية والمتوحِّشة، والشعوب المتحضِّرة والمتعلِّمة. ولعل كاترينا أخذت في حسبانها تجربة التعامل مع مجتمع الجبل الأسود والتوصيف السائد عنه، فوضعت في وثيقتها هذه المنطقة في المقام الثاني، ولم تخصِّصها بدور رئيس في أعمال الأسطول الروسي العسكرية.

أما سكان هيمارا (ألبانيا الجنوبية)، وهم مِمن كان على المشاركين في بعثة بابازولي التعرف إلى أمزجتهم، فقد قال عنهم هؤلاء إنهم خدموا في الفوج المقدوني الخاص التابع لمملكة نابولي جيلًا بعد جيل[69]. وفي سنوات الحرب الروسية - التركية كان للضباط الرُّوس علاقات مع ضباط الفوج المقدوني في نابولي[70].

اعتُبر المانيون، سكان ماني في جنوب مورية الجبلي، «بقايا الشعب اللاكديموني المجيد في العصر القديم»؛ ويرى بالاتينو أن الأتراك عجزوا عن كسر شوكتهم، «نظرًا إلى تمسكهم بالحرية وتمردهم على أيِّ حاكم، فهم يسمحون بدخول القراصنة المالطيين وقطاع الطرق وكل أنواع اللصوص، بل يخرجون أحيانًا في البحر للنهب، ويَأسرون الأتراك بعد سلبهم، ويقتلون بعضهم، ويفعلون الشيء نفسه بالمسيحيين من مختلف الأمم أحيانًا»[71]. إذًا، أُخِذَ المانيون في الحسبان لأنهم «مؤهلون» للحرب.

لاحظ الأميرال س. ك. غريغ، الرفيق الأمين للكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، في مذكراته بشيء من اللوم: «لقد بدا هذا الشعب للكونت أورلوف

---

(69) كتب إيفان بالاتينو: «يعيش الهيماريون في إيبروس، في القسم الجنوبي من ألبانيا. وهم شعب شجاع وقوي جدًا، يستخدمه البنادقة في الخدمة العسكرية، ولدى ملك نابولي فوج حرس يحمل اسم المقدوني، والعقيد [قائد الفوج (المترجم)] هو الكونت كارافا من كيفالونيا. بعد ثلاث سنوات من الخدمة يعودون إلى موطنهم، ولا يدخل الخدمة مكانهم إلا من كان من أبناء جلدتهم. وفضلًا عن شجاعتهم الفائقة غير الطبيعية، فهم يكتسبون معرفةً وأهليةً لا يستهان بهما في الميدان العسكري».

(70) يُنظر الفصل السادس.

(71) Арш, «Греция: Торговля. Просвещение,» с. 434-435.

[آرش، «اليونان: التجارة، التعليم»، ص 434-435].

أداة جيدة لتحقيق خطته»[72]. وكما كتب بالاتينو: «إن الشعوب الآنفة الذكر (شعوب ماينى وألبانيا الجنوبية والمنطقة الجبلية الواقعة بين فاساليا وبين إيبروس - المؤلِّفة)، التي تعيش على استخدام السيف والسلاح، وهي لا تحمي نفسها فحسب، بل تحمي كذلك المسيحيين المجاورين»، علمًا أنها تُغير عليهم وتقتلهم وتنهبهم أيضًا. وعلى الرغم من أن بالاتينو افترض أن بإمكان روسيا توحيد هذه الشعوب وإخضاعها لسلطتها (انطلاقًا من أفكار التنوير عن تقدم الشعوب المتحضِّرة ورسالتها الحضارية)، فإنَّ الأحداث أظهرت أن هذه الجماعات لا يمكن أن تصبح نواة حركة تحرُّرية كبرى. أما ممثلو أوساط رجال الأعمال الناشئة وقسم من ملاكي الأرض، المشبعين بأفكار التنوير، الذين بدأت تبزغ لديهم الأفكار القومية اليونانية للتو، فقد دعموا روسيا في حربها مع الأتراك من أجل تحرُّرهم عن وعي وبشجاعة؛ وإن لم يكونوا يشكلون جزءًا كبيرًا وموحدًا من المجتمع اليوناني. وهكذا، لم يكن أمام أورلوف خيار آخر، فالانتفاضة القومية لم يكن وقتها قد حان.

يبقى أن نضيف أنه كان لـ «الغيرة والعطف» اللذين كنتهما الإمبراطورة لإخوة الدين - ووقع على بابازولي إبلاغهما إليهم - مغزى ديني أكثر مما هو سياسي. ففي وثائق تلك الحقبة كان مفهوم «العطف» يقترن غالبًا بكلمة «الرعاية». والرعاية في ممارسات ذاك الزمن لم تكن مساوية لمفهوم «الحماية» العصري. لقد كانت أقرب إلى تفسير معنى أيقونة «شفاعة السيدة العذراء»، المبني على التصور الغيبي عن الحماية الإلهية. وطقوس المسح على العرش القيصري كان لها معنى منح مالك العرش المقدس والصولجان، الوظيفة الإلهية نفسها في الدفاع عن إخوة الدين (ورعايتهم) وحمايتهم من الأعداء ومن الكوارث الطبيعية والفجائية. ولاحقًا، في أثناء حملة الأرخبيل، سيكتب أ. غ. أورلوف وغ. أ. سبيريدوف في بياناتهما إلى إخوة الدين عن عطف الإمبراطورة، مفترضين أنه يعني لهم شيئًا ما أكبر من الدعم المادي.

---

(72) [С. К. Грейг], «Собственноручный журнал капитана-командора (впоследствии адмирала) С. К. Грейга,» *Морской сборник*, t. II, no. 10 (октябрь 1849), c. 653.

[[س. ك. غريغ]، «صحيفة القائد-القبطان (الأميرال في ما بعد) س. ك. غريغ بخط يده»، **المجموعة البحرية**، مج 2، العدد 10 (تشرين الأول/ أكتوبر 1849)، ص 653].

هكذا، غادر غيورغي بابازولي موسكو في نهاية أيار/ مايو من عام 1763، وظهر في البندقية برفقة مانويل سارو. وتبعًا لتوجيهات بطرسبورغ، على الأرجح، توجه إلى شخصية روحية رفيعة المقام («شخصية بارزة بين رجال الدين»، بقي اسمه سرًّا، وقد عُرِفَ عنه «تأييده» للإمبراطورية الروسية)، لكي «يقدِّم إلينا شخصًا موثوقًا، قادرًا على إنجاح المهمة الموكلة إليه»[73]. فاقترح رجل الدين (الأرثوذكسي رفيع المقام) هذا إيفان بالاتينو، نصير الأفكار الوطنية المتحمِّس، الذي ينتمي إلى أوساط التجار ورجال الأعمال اليونانيِّين (وثمة أسس للافتراض أن رجل الدين المذكور كان الأرشمندريت داماسكين، إكساركوس، رئيس أساقفة بطريركية القسطنطينية في اليونان)[74].

فإيفان بالاتينو، ينتمي، على حدِّ قوله، إلى إحدى «الأسر اليونانية النبيلة»، حيث عاش أسلافه في جزيرة كريت، التي كانت تتبع جمهورية البندقية. وعند استيلاء الأتراك على الجزيرة، انتقلت الأسرة إلى مورية، تاركة كل «أملاكها غير المنقولة»، لتستقر في نابولي اليونانية (نابولي دي رومانيا، نافبوليون المعاصرة). وحينما استولى الأتراك على مورية، فر والده إلى جزيرة كيفالونيا، التي بقيت تحت حكم البندقية، حيث ولد إيفان. فكان أنْ خسر أملاكه مجددًا. فقد إيفان والديه في سنٍّ مبكِّرة، وأورثاه «تركةً صغيرة، فعمل في مهنة التجارة تحصيلًا لرزقه». جال في إيطاليا والأرض الألمانية والدولة العثمانية، وكان «معروفًا جدًّا» في أوساط فيينا والبندقية ونابولي.

بعد أداء بالاتينو القسم أمام الشخصية الدينية المذكورة، كُشِفَ له جوهر المسألة. أما بابازولي فقد عرض رسالة الإمبراطورة، وعليها ختم الدولة، وهو «مثل تلك الأختام التي تطبع على جوازات سفر المسافرين من الدولة الروسية». ومن دون طمع بالمكافأة، كتب بالاتينو في الالتماس في ما بعد:

---

(73) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье,* См. Приложение 1, с. 485.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط**، الملحق الأول، ص 485 (الطبعة الروسية)].

(74) يُنظر الفصل الرابع.

«من يتعاملْ مع اليونانيِّين، ولو قليلًا، يَرَ بأيِّ قَدْرٍ من الغيرة والحماسة والمحبة يتوق هذا الشعب إلى إمبراطورية عموم روسيا. وبالتالي، لم يبقَ أمام بالاتينو، بعد سماعه كل هذا الكلام الطيب، إلا أن يستخف بكل ما يمكن أن تتصوره المخيلة من مخاطر، فيُقبل على هذا بكلِّ أريحية»[75]. غير أن المخاطر كانت في الواقع تتربص به.

تباهى م. سارو بنيله شرف اجتذاب بالاتينو للقبول بالمهمة، وقد كتب بعد أن تعرف إليه في تريستي يقول: «إن رفيقي إيفان بالاتينو، لم يُرسَل إلي من البلاط السامي، بل جندته أنا بنفسي في الطريق، وهو لا يعلم شيئًا عن السر الذي ائتُمنت عليه (...)، حيث علمت أنه على معرفة وثيقة بمختلف الوجهاء المايْنيين، وكان أن أقنعتُهُ بمرافقتي إلى الشرق»[76](؟!). (أما بالاتينو نفسه فلا يذكر شيئًا عن ذلك، ربما لاعتبارات السرية - المؤلفة). والواقع أن الثلاثة انتقلوا من البندقية إلى تريستي النائية عن العاصمة النمساوية، بعيدًا عن أعين أجهزة المراقبة البندقية التي لا يَخفى عليها شيء. ويبدو أنهم أبحروا، بداية، في نهاية شباط/ فبراير - آذار/ مارس 1764، باتِّجاه مورية بمحاذاة شواطئ دلماسيا. في غضون ذلك، ذاع نبأ ظهور مركبين لقراصنة طرابلس في البحر الأدرياتيكي، فاقترح بالاتينو، العارف بالشؤون المحلية، الرسُو في كوتور التابعة للبندقية، ومواصلة الرحلة من هناك على متن فرقاطة تحمل علم البندقية؛ إلا أنه لم يتمكن من إقناع رفيقيه بالقرار الحكيم، ربما لتخوُّفهما من الالتقاء مجددًا بالموظفين البنادقة.

قبل بلوغهم المكان المحدد بيوم، استولى القراصنة على سفينتهم، فنصح بالاتينو بابازولي أن يرمي كل الوثائق التي بحوزته من دون إبطاء، فلا يُفتضَحُ هدف مهمتهما. توسل بابازولي، الذي فقد جواز سفره، إلى بالاتينو حتى يعطيه الأخير جواز سفره النمساوي، واعدًا إيفان بافتدائه من الأسر على الفور. أعطاه بالاتينو جواز سفره، مُقدِمًا على هذه التضحية «شفقة» به وهو المحكوم عليه

---

(75) [سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط**، ص 486 (الطبعة الروسية)].

(76) المرجع نفسه، الملحق 2، ص 496.

بالهلاك. وفي الوقت نفسه، أدرك بالاتينو أنه «لو علم البرابرة بكونه ضابطًا روسيًّا، واكتشفوا الهدف من الرحلة، لأدى ذلك إلى هيجان عظيم، فضلًا عن إمكان هلاك الكثيرين من أبناء بلده»[77] (هذه التعليلات تجعلنا نفترض أنه كانت لدى بالاتينو علاقات خطيرة، من وجهة نظر الأتراك، مع أبناء بلده؛ إذ استعمل تعبير «أبناء البلد»[78]، ذلك أن مفهومي «المواطن» و«الأمة» بالمعنى الوحدوي القومي، لم يكونا قد ظهرا بعد، لا في اللغة الروسية ولا في الوعي اليوناني). وفي المحصلة، «نال» كلٌّ من بابازولي (المنتحل اسم بالاتينو) وسارو (خادمه المزعوم)، «حريتهما». أما إيفان بالاتينو فقد نُقِلَ إلى طرابلس الليبية ونُهِبَ وتحمل عذابات الأسر، إلى أن تمكن أبناء بلده من افتدائه بوساطة القنصل النمساوي.

ينقل م. سارو هذه الأحداث في «التماسه» على نحو مغاير: «في الطريق، ولسوء حظي، أَسَرَني قراصنة طرابلس مع رفيقي، واستولوا على النقود وعلى كل ما أملكه، وضربوني بلا رحمة، وآذَوْا رجلي، فبِتُّ لا أحسن استخدامها منذ ذلك الحين، ثم نقلونا إلى دوراسيا، حيث تمكن صديقي اليوناني بيوتر ستافروبولو، لحسن الحظ، من افتدائنا مقابل ثلاثمئة تشيرفونيتس». وبعد ذلك انتقل سارو، على حدِّ زعمه، وهو ورفيقاه إلى البندقية، حيث أقرضه صديق يوناني آخر، هو ستافرو ستافروبولو، المال لشراء الملابس وغيرها من اللوازم الضرورية «لمتابعة الرحلة»[79]. ويتبين مجددًا من رسالة الإمبراطورة التي أعطيت لبابازولي (في 12 آب/أغسطس 1764) أن بابازولي حرر طلبًا - في تاريخ لا يتجاوز مطلع حزيران/يونيو من العام نفسه - وأرسله إلى الإمبراطورة - وهو لم يكن الطلب الوحيد («من الطلبات المحررة التي أرسلها إلينا») - وفيه يبرِّر عدم وصوله إلى «تلك الأماكن بسبب المصاعب التي تعرض لها من القراصنة»[80].

(77) المرجع نفسه، الملحق 1، ص 486.
(78) أو بتعبير أدق: أبناء الأرض الواحدة. (المترجم)
(79) المرجع نفسه، الملحق 2، ص 496.
(80) المرجع نفسه، الملحق 1، ص 494.

هذا، وتجعلنا المقارنة بين هذه النصوص نشكِّك بصحة ما يرويه سارو وبابازولي عن فترة وجودهما في الأسر. فقد تعرضا على الأرجح للنهب على أيدي قراصنة طرابلس بالفعل، ليُرسَلا إلى دوراسيا، حيث حُرِّرا (كما افترض إيفان بالاتينو)، أو افتُدِيا بوصفهما نمساويين، بحسب جواز السفر، ثم ليرجعا خلال ثلاثة أشهر إلى البندقية ليباشرا نشاطهما الدعائي في كلٍّ من كيسروميرو وهيمارا. كل ذلك حدث حين كان بالاتينو في الأسر. وأقام بابازولي في هيمارا علاقات مع شخصين من إحدى الأسر الأكثر نفوذًا، وهما ج. وب. بيتسيللي (بيتشيللي). في ما بعد، قال ج. بيتسيللي إن بابازولي عمل على إقناعه في عام 1764 بالمساعدة في تنفيذ خطة الإعداد للانتفاضة في البلقان إذا نشبت الحرب الروسية - التركية. وعلى حدِّ قول غ. ل. آرش، فقد تخلى ج. بيتسيللي «عن رتبة نقيب في جيش البندقية... وكرس نفسه للتحضير للتحرُّكات المعادية للأتراك، التي كان ينبغي ألا تشارك فيها هيمارا وحدها، بل المناطق اليونانية المجاورة لها أيضًا»[81]. وعمل بيتسيللي في أثناء الحرب بنشاط على تجنيد الفصائل التي خدمت في حملة الأرخبيل.

حين عاد بالاتينو إلى البندقية - ومن المحتمل أن يكون ذلك حصل بين نهاية أيار/ مايو ونهاية حزيران/ يونيو 1764 - كان بابازولي قد أرسل سارو إلى مورية، وانتشرت في المناطق اليونانية والسلافية شائعات خطيرة في أوساط شعوب تلك المناطق عن نشاطهما (بسبب عدم حيطة بابازولي ورفيقه). أما بابازولي فظلَّ في البندقية على ما يبدو، منتظرًا رسالة الإمبراطورة واستعادة

---

(81) Г. Л. Арш, «Албания: Рост сепаратизма местных властителей,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан*, с. 485.

[غ. ل. آرش، «ألبانيا: نمو النزعة الانفصالية لدى الحكام المحليين»، في: فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 485].

على حدِّ قول بيتسيللي، «لقد جال في مختلف أنحاء اليونان لحثِّ العمد والسكان المسيحيِّين الأكثر موثوقية على تشكيل مجموعات دعمًا للانتفاضة المسلحة. ونجح في ذلك بواسطة هذه الخطوات السرية بين عامي 1764 و1768، بعد كمٍّ لا يُحصى من المحاولات والمخاطر والمصاعب والتكاليف والضمانات» (المرجع نفسه).

وثائقه. وأبلغ إيفان بالاتينو العائد أنه «أرسل مانويل إلى مايني، لكنِّي أشكُّ في قدرة هذا السكير على فعل أيِّ شيء؛ لذا، فأنا أطلب منك أن تأخذ هذا الأمر على عاتقك». كان ذلك في أواسط عام 1764.

بسبب تلك «الشائعات الخطيرة» المنتشرة، اضطر إيفان بالاتينو إلى اتِّخاذ شتى تدابير الحيطة. فانتحل صفة تاجر، واشترى بضاعة، وتوجه إلى باتراس أولًا، ثم إلى تريبوليتسا، مقرِّ باشا مورية. وبعدما باع بضاعته، اعتزم شراء منتجات زراعية ونقلها إلى إيطاليا. وكان أن أقام علاقاتٍ ودِّيةً مع وجهاء أتراك؛ وبدهاءٍ ومن دون إثارة الشكوك لدى السلطات التركية، تمكن من الوصول إلى مايني، حاملًا رسالة توصية من القائد التركي كالامات إلى رئيس «نقباء مايني» (كبار ملاكي الأرض اليونانيِّين) غ. مافروميخالي.

أخذ إيفان بالاتينو - «صديق» القائد التركي هذا و«نديمه» - إلى الكنيسة، و«بعدما ألزمه تأدية القسم، كشف له عن نيته وأسباب مجيئه إلى هنا» (وجدير بالذكر أن إيفان بالاتينو لم يكشف قطُّ عن جوهر المهمة الروسية في أيِّ مكانٍ، تمسُّكًا منه بمقتضيات السِّرية الصارمة)[82]. استصوب غ. مافروميخالي سلوك بالاتينو الحَذِر، إلا أنه أعرب على الفور عن شكواه بحق سارو قائلًا: «إنه يستغرب شديد الاستغراب، بل يبدو له أن الأمر لا يصدق، أن ترغب دولة بهذه العظمة هي الأكثر جبروتًا في العالم، في تكليف شخص مثل سارو بعملٍ مهمٍّ كهذا (...)؛ وبناء عليه، تجنُّبًا لحدوث إشكالات ومصاعب في ما بعد، أرسل بالاتينو مانويل سارو على سفينة

---

(82) ظل بالاتينو أثناء وجوده في بطرسبورغ حافظًا للسر، بوصفه مشاركًا في المهمة السرية: «لم يكشف لأحد شيئًا، وكان يقول للمعارف والأصدقاء (الذين سعوا إلى معرفة الهدف من وجوده في عاصمة روسيا (المؤلفة))، إن طلبه يتلخص في تحصيل مبلغ صغير من المال أقرضه في إيطاليا لأحد الضباط الرُّوس الذي أُرسِلَ إلى هناك لـ [مرافقة] المستوطنين». والكلام في الواقع يتناول استرجاع التسعمئة تشيرفونيتس التي أنفقت على بابازولي وسارو. وقد أرفق بالتماسه «دين مانويل سارو المقدر بتسعمئة تشيرفونيتس (9 آلاف روبل ذهبي (المؤلفة))، الذي أنفقه بالاتينو على بابازولي ورفيقه». يُنظر:
Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье,* См. Приложение 1, с. 490.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط**، الملحق الأول، ص 490 (الطبعة الروسية)]. ولم يُعثَرْ على هذه الوثيقة.

تحمل جوز البلوط، وبقي هو في مايني بحجة شراء زيت الزيتون، ووقع عقدًا بهذا الخصوص مع القبطان كوموندوراكي»[83].

مرةً أخرى، يعرض مانويل سارو هذه الأحداث على نحو مغاير. بعد التوجُّه إلى المناطق المحددة «بقيت فيها ما يزيد على السنتين (بضعة أشهر لا أكثر في الواقع، من منتصف خريف عام 1764 حتى أواخره، لأن بالاتينو كان في مايني من آب/أغسطس 1764 حتى كانون الثاني/يناير 1765! - المؤلفة)، وزرت مختلف الجزر والمدن اليونانية، لإبلاغ سكانها بكل ما كلفني به الأمير غريغوري غريغوريفيتش، وحثِّهم على التمرُّد على الباب العالي العثماني، ودعوتهم للجوء إلى كاترينا العظمى القادرة، الحاميةِ لهم والمُدافِعة عن دينهم. وبتأثير هذه المحفزات المشجِّعة، دفعتُ شيوخ العائلات الكبرى هناك إلى أداء قَسَم الولاء لجلالتكم الإمبراطورية، الأمر الذي أكدوا عليه في رسائلهم الكثيرة التي بعثوا بها إلى الأمير غريغوري غريغوريفيتش»[84]. لم يحرِّف مانويل سارو تواريخ وجوده في مورية فحسب، بل إنه بالغَ على ما يبدو بتقدير حجم نشاطه أيضًا: «زرت مختلف الجزر والمدن اليونانية» و«دفعت شيوخ العائلات الكبرى هناك إلى أداء قَسَم الولاء...»، الأمر الذي تؤكِّده الرسائل الكثيرة (الحديث عن الرسائل سيأتي في ما بعد). فقد كان إيفان بالاتينو هو من دفع النقباء المايينيين إلى تأدية قسم الولاء، وذلك بعد سفر سارو إلى البندقية. وبالمناسبة، من الممكن أن يكون سارو قد نسب لنفسه فضل الدعوة لاجتماع الشيوخ المايينيين، في تقريره الذي قدمه بعد عودته إلى بطرسبورغ[85]. تجرأ سارو على الحديث في «التماسه» عن «تكليف» غريغوري غريغوريفيتش أورلوف له، الذي كان فَقَدَ منذ زمن حظوته[86] قبل أن توافيه المنية!

(83) المرجع نفسه، الملحق 1، ص 488.

(84) المرجع نفسه، الملحق 2، ص 496-497.

(85) Соловьев, Кн. XIV, с. 272.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 272].

(86) لدى كاترينا. (المترجم)

وفقًا لرواية بالاتينو، عجز مافروميخالي عن تحديد موقف باقي النقباء («لم يتمكن من الإجابة بدقة عن هذا الأمر»)، بسبب عداوتهم التي سادت علاقاتهم بعضهم ببعض. عندها اضطر بالاتينو إلى استخدام «كل الوسائل المتاحة لإصلاح ذات البين، واستعادة الوفاق والصداقة اللذين كانا قائمين سابقًا في ما بينهم». في هذا الصدد، كتب بالاتينو يقول: «بعد تحقيق ذلك بصعوبة بالغة، كشفت في اجتماع الزعماء أو النقباء هناك، عن الهدف الذي جئت من أجله، فَسُرُّوا عند سماعهم له، وأعلنوا بالإجماع: أنهم مستعدُّون، بحكم أُخُوة الدين والغيرة الكبيرة على صاحبة الجلالة، للتضحية بدمائهم وحياتهم في سبيل عزة إمبراطوريتها وإنقاذ الشعب المؤمن من نير البرابرة، واعدين بإرسال مفوضين عنهم إلى البلاط الإمبراطوري لعموم روسيا لتقديم آيات الولاء والوفاء»[87]. بعد ذلك، نصح النقباء إيفان بالاتينو بمغادرة ماينى وانتظار «مفوضيهم» في كلارينس.

تسمح رَدةُ فعل نقباء مورية - حيال إعلان بالاتينو هدف زيارته - بفهم الكيفية التي كان أعضاء البعثة يشرحون وفقها فحوى رسالة الإمبراطورة شفاهة. نعيد إلى الأذهان أن الرسالة أشارت فحسب إلى أنه على بابازولي إبلاغ المانيين بعطف كاترينا الثانية تجاههم وعن عزمها على تحريرهم. وعلى حدِّ قول م. سارو، فقد كلف غ. غ. أورلوف عملاءه بـ «تشجيع» اليونانيِّين على التمرُّد على الباب العالي، ونصحهم باللجوء إلى حماية الإمبراطورة. وكانت رَدةُ فعل النقباء، بحسب ما يقول بالاتينو، تتفق بالتحديد مع التوجيه الصادر عن أورلوف. في هذا التأويل يكتسب مفهوم «الحماية» مغزى سياسيًّا، لأنه يُربط بـ «تقديم آيات الولاء والوفاء». وهذا ما يشكِّل الأساس للتمييز - في مرحلة مبكرة - بين موقفي كاترينا الثانية والإخوة أورلوف بخصوص «الخطط اليونانية».

---

(87) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье,* См. Приложение 1, с. 488.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط، الملحق الأول، ص 488 (الطبعة الروسية)].

لأن بالاتينو اعتاد على توثيق خطواته بأدلة موثقة، فقد استحصل من النقباء، كما يقول، على «وثيقة مكتوبة بخط اليد، يمدحون فيها أفعاله، ويشكرونه على إحلال الصداقة العامة والوفاق في ما بينهم». وكأن بالاتينو جاء إلى مايني فقط كي يشتري «جوز البلوط» و«زيت الزيتون» وتحقيق الصلح بين الشيوخ! وحمل مافروميخالي، بدوره، بالاتينو رسالة إلى المتروبوليت أنثيموس، متروبوليت كالماتا ومونيمفاسيا، يطلب فيها تحضير «وثيقة ملائمة لأقاربه المتوجهين، كما زعم، إلى الدول الأوروبية طلبًا للعلم»، علمًا أن الحديث تناول، من دون شك، وثائق «ملائمة» لـ «المفوضين» المايني‍ين. والواقع أنه التُزِمَ جانب السرية التامة بشأن ما يجري.

فرح المتروبوليت أنثيموس «فرحًا عظيمًا بتلقِّيه الرسالة، وبمعرفته حقيقة ما يُعتَزَمُ القيام به، وأكد أنه لن يتردد في بذله المساعدة، بكل القوى والوسائل، في هذه الحال التي تتشوق إليها المسيحية جمعاء، نظرًا إلى ما يتمتع به من ثقةٍ كبيرةٍ لدى الشعب هنا»[88]. وزود بالاتينو بإفادة (بتاريخ «الثامن من كانون الثاني/ يناير 1765») تؤكِّد أن بالاتينو وصل إلى مايني في آب/ أغسطس 1764، وأقام هناك «فترةً من الزمن»، فعقد اتفاقية تجارية، وحمل سفينة بالبضائع، وبقي ينتظر انتهاء العاصفة، متحمِّلًا «الصراعات المعتادة بين المايني‍ين»، فتشاور في أمورهم مع المتروبوليت، حيث ينتمي قسم كبير منهم إلى أسقفيته[89]. ومن جديد، وُضِعَ النصُّ على نحوٍ يستبعد أي شكوك بشأن واضعه ومتلقِّيه، إذا ما وقعت الوثيقة في أيدي الأتراك.

على هذا النحو، تعرف بالاتينو على أمزجة النخبة الزمنية والروحية في مايني، وتأكد من أن هذه النخبة تجمع بين النضال في سبيل التحرر من النير العثماني وبين مصالح التاج الروسي والدولة الروسية، وأنها مستعدة لأن تبذل الدماء والتضحية بالحياة في سبيل تلك المصالح، انسجامًا مع خطاب تلك الحقبة. ولم يبق سوى الحصول على إفادات شفهية وكتابية تؤكِّد مشاعر المايني‍ين وعواطفهم. لكن، برزت هنا مصاعب: أجل المايني‍ون سفر ممثِّليهم،

---

(88) المرجع نفسه، ص 489.

(89) المرجع نفسه.

واقترحوا على بالاتينو مغادرة مورية مؤقتًا، إلى موعد أكثر ملاءمةً.. وقد يكون سبب ذلك: أوحال الشتاء، أو الخوف على الحياة نتيجة الشائعات المنتشرة، أو عدم وجود إثبات رسمي على موقف روسيا، أو الشكوك والخلافات الداخلية. بهذه المحصِّلة عاد بالاتينو إلى البندقية.

في غضون ذلك، تلقى بابازولي من موسكو نسخًا من وثائقه المتلفة «عبر المندوب الإنكليزي» (وسيستفيد ألكسي أورلوف خلال سنوات الحرب من خدمات القنصل الإنكليزي في ليفورنو جون ديك على نطاق واسع)؛ وأرسل مانويل سارو إلى بطرسبورغ مع تقرير وخبر يفيدان أن «بعض شيوخ مايني مستعدون بالفعل للتوجُّه إلى روسيا، للمطالبة بالأموال لتغطية نفقات السفر»[90]. وهكذا، بات السيناريو جاهزًا، وطُلبت الأموال الضرورية لتنفيذه.

بعد الاستماع إلى تقرير بالاتينو عن واقع الأمور وعن الجهود التي بذلها، أكد له بابازولي أنه «يتفهم جيدًا» الجهود والأعمال التي قام بها، بيد أنه يأسف لانعدام الحاجة إلى خدماته في ما بعد، نظرًا إلى تغيُّر الأوضاع، أي كان عليه أن يوقف المفاوضات مع المايني ين وألا ينتظر ممثِّليهم. في المقابل، اقترح بابازولي «أن يسافر بالاتينو برفقته إلى روسيا باسم الشيوخ المايني ين، وأن يواصل العمل بهذا الصفة»[91] (إذ يبدو أنه لم يُعثَر على راغبين في السفر إلى روسيا باسم المايني ين). كان سخط بالاتينو عارمًا، ودار نقاش عاصف بين هذين الشخصين، النقيضين من الناحية الأخلاقية: «ردًّا على هذا الاقتراح القاتل قال له بالاتينو، يبدو أن بابازولي لم يكتفِ بالمآسي الجمة التي سببها له، عندما ضحى بنفسه من أجل إنقاذه بتسليمه نفسَهُ إلى البرابرة، فها هو يرغب الآن في تعريضه للشنق في روسيا. فأجابه بالقول: لا تقلق، ففي روسيا لا يعدمون ولا يشنقون».

استمر بابازولي يُلحُّ على بالاتينو كي يشاركه لعبته، وبغية إقناعه نصحه بالتوجُّه إلى الشخصية الروحية الآنفة الذكر، مفترضًا أن رجل الدين سيوافق

(90) المرجع نفسه.

(91) المرجع نفسه.

على أسلوب عمله، بل إنه سلمه مجموعة رسائل لعرضها عليه. عرض بابازولي في إحدى هذه الرسائل فكرته بصراحة فظة، أما الرسائل الثلاث الأخرى فقد كانت موجهة إلى كلٍّ من الإمبراطورة وولي العهد وغ. غ. أورلوف، وكُتِبَت باسم «مشايخ مايني وعموم أهلها»، وزعم فيها أن المايئيين يسلِّمون أنفسهم «لعطف صاحبة الجلالة الإمبراطورية ورحمتها، عبيدًا ورعايا، وأنهم يرسلون عربونًا على ذلك عددًا من شيوخهم ورفاقهم، بعد منحهم كامل الصلاحية ليقرِّروا كل ما يتعلق برخائهم وبمصلحتهم العامة». ولعل الحديث يجري، على ما يبدو، عن عملية غشٍّ سياسي لصالح القضية، تهدف إلى التغطية على سوء تنفيذ المهمة. على أي حال، لربما كان هذا كله ملائمًا لأورلوف، وبدا أن بابازولي توقع ذلك (نشير هنا إلى أن بابازولي ضمّن النص كلماتٍ تفيد بأن «المايئيين يضعون أنفسهم في عداد رعايا روسيا»).

اعتبر رجل الدين تصرف بابازولي عملًا «طائشًا»، واصفًا إياه بـ «الإنسان الخطير والمخادع»، ونصح بالاتينو بالسفر إلى روسيا بمفرده للقيام بواجبه لنقل الصورة الحقيقية عما يجري، معوِّلًا على «عطف الإمبراطورة وعنايتها الأمومية». وكان هذا ما فعله بالاتينو، فوصل إلى بطرسبورغ حاملًا رسالة من رجل الدين ووثائق قدمها إلى غ. غ. أورلوف، وسلمها بأمر منه إلى آ. ف. أولسوفييف[92].

بيد أن مانويل سارو سبق بالاتينو بوصوله إلى العاصمة في أيار/ مايو 1765 (قبل عودة الفرقاطة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» بوقت قصير)، وقدم إلى أورلوف تقريرًا مفصلًا جدًّا، قال فيه إنه من المستحسن إرسال عمارة بحرية إلى البحر المتوسِّط لدعم الانتفاضة اليونانية. وكتب أنه عند وصوله إلى مورية دعا شيوخها - الذين كان بانيوتي بيناكي أنشطهم - إلى اجتماع كبير، أعلنوا فيه عن استعدادهم للقتال ضد الأتراك. وعلى العموم، تولد لدى سارو انطباع أن سكان مورية اليونانيِّين لا يخضعون للأتراك ولا يخشونهم، وأن اليونانيين الذين يعيشون بين الشعوب البلقانية - التي زارها سارو برفقة بابازولي - يشاركون أهل مورية عزمهم على الانتفاضة.

---

(92) المرجع نفسه، ص 468.

زار سارو وبابازولي على الأرجح كل المناطق التي ذكرها سارو، إلا أن التقرير لم يكن موضوعًا في الأساس استنادًا إلى الانطباعات الشخصية، بل إلى «وصف مايني» للقبطان مونغاكي (مونغاكسي). وبهذا الشكل أو ذاك، رُسمت بالجهود المشتركة لوحة وردية عن الوضع، واختُتم التقرير بالكلمات التي اقتبسها المؤرخون غالبًا: «بناءً على تجربتي، أجد في نفسي الجرأة لأقترح إرسال عشر سفن حربية روسية إلى البحر المتوسِّط (وإلى الأرخبيل أيضًا)، مزودة بعدد كبير من المدافع، لمواجهة الأتراك. فما إنْ يَرَى اليونانيون هذا الكم الكبير حتى تنضم سفن يونانية كثيرة إلى السُّفن الروسية. وسيفرحون بالمدافع النادرة هنا. ويمكن القول إنهم شعب جريء وشجاع»[93].

يبدو أن هذا التقرير ترك انطباعًا كبيرًا لدى كاترينا الثانية. على أن «كاترينا ووزراءها رأوا أن المشروع (إرسال الأسطول إلى حوض البحر المتوسِّط – المؤلفة) ينطوي على مصاعب كبيرة، إلا أنهم أقبلوا عليه لاحقًا بحماسة كبيرة»[94]، وذلك بناءً على خبر كان المبعوث الإنكليزي كيتكارت قد أورده في بداية الحرب، نقلًا عن أحد المشاركين في البعثة. وعلى الأرجح، فقد ترسخت لدى كاترينا نواياها التي كانت في طور النضوج، بناءً على الفكرة الواردة في تقرير سارو (عن إرسال السُّفن وتزويدها بمدافع إضافية وأسلحة لليونانيِّين)، وكذلك بناءً على الموضوعة القائلة إنَّ «اليونانيِّين شعب جريء وشجاع»، بما أسهم في استكمال خطط التعاون مع اليونانيِّين، التي راودتها منذ عام 1762 (ليس عبثًا أنها كتبت إلى تشيرنيشوف في بداية الحرب، تقول: «سيدي، سيدي! أنا بحاجة إلى الكثير من المدافع...» – المؤلفة).

على الرغم من تقويم الكونت غ. غ. أورلوف مهمة سارو الإيجابي: «لقد أدى المهمة الموكلة إليه هناك بكفاءة»، إلا أن ن. إ. بانين رفض مكافأة

---

(93) *РГАДА*, Ф. 15, Д. 146, Л. 95-95об.
[أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة، المجموعة 15، الملف 146، الورقة 95 – ظهر الورقة 95].

(94) اقتباس من: Соловьев, Кн. XIV, c. 273.
[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 273].

المبعوث، على الرغم من تردُّده عليه «من دون توقُّف» فترة طويلة (لم يكن بالإمكان دفع تكاليف سارو وصرف المكافآت إلا عبر هيئة الشؤون الخارجية. وإليها وجه غ. غ. أورلوف المبعوث م. سارو)[95]. لم يكن رفض نيكيتا إيفانوفيتش وليد نزوةٍ أو هَوَسٍ ما، بل كان ناجمًا عن تباين في الآراء مع الإخوة أورلوف، وربما نتيجة لكشف إيفان بالاتينو الحقيقة حين نقل إلى روسيا الوثائق المذكورة في مطلع عام 1766.

في اعتقادنا أنه كان لدى ن. إ. بانين تقويم أكثر تبصُّرًا لواقع الشعب اليوناني، أو لعله استند في موقفه إلى التجربة غير الناجحة في تعاون الهيئة مع إخوة الدين البلقانيِّين. وتدلُّ أقوال بانين في رسالته إلى أ. غ. أورلوف في أثناء حملة مورية في ربيع عام 1770 على وجود تباين في الرأي بينهما، حيث ذكر فيها أورلوف بالجدل الذي دار بينهما في بيتيرغوف في صيف عام 1768. وإذ اعترض بانين على أيِّ شكوك أبداها أ. غ. أورلوف، فهو لاحظ بشيء من السخرية اللاذعة أن على من أيقظ اليونانيِّين من سباتهم أن يقودهم، وتابع قائلًا: «... إنني على يقين حقًّا من أنكم ستكونون غالبًا بحاجة إلى أدلتكم البيتيرغوفية[96] التي ذكرتموني بها على نحو ساخر في كتابكم الموجه إلي، من أجل تحريض أولئك الذين عاشوا في الخنوع وتنظيمهم، فدفَعَتهم معتقدات دينهم وأملهم غير المحدود إلى الهيجان»[97]. بكلام آخر، لم يكن لدى بانين وهمٌ في صدد إمكان استخدام اليونانيِّين، غير المنظمين بالمعنى المدني، ليكونوا قوةً عسكريةً، وهم الذين أيقظتهم آمالٌ غير واقعية ألهبتها المشاعر الدينية.

هكذا، ظل ن. إ. بانين في عام 1765 معارضًا لمخططات الإخوة أورلوف،

---

(95) بعد سنوات طويلة من استجداء سارو المرير، وهو الذي ضحى «بصحته واسمه» في سبيل تحقيق نزوة غ. غ أورلوف، أُنعِمَ عليه بـ 300 روبل.

(96) نسبة إلى مدينة بيتيرغوف، حيث جرى بينهما الحوار. (المترجم)

(97) **Письма графа Н. И. Панина к графу А. Г. Орлову во время Морейской экспедиции,** in: *Русский архив*, 1878, no. 12, c. 433.

[رسائل الكونت ن. إ. بانين إلى الكونت أ. غ. أورلوف أثناء حملة مورية، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، العدد 12، ص 433].

أما الأوراق التي جلبها إ. بالاتينو في بداية عام 1766، فلم تؤدِّ إلا إلى مضاعفة عدم ثقته باليونانيين. في غضون ذلك، اعتبرت كاترينا بالاتينو، على ما يبدو، واحدًا من «إخوة الدين المغامرين» الذين كتب عنهم أ. غ. أورلوف في بداية الحرب، معترفةً بأنه ليس لديها أفضل منهم[98]. كانت نتائج البعثة العامة هي الأمر المهمّ بالنسبة إليها، أي تأكيد استعداد سكان المناطق التي حددتها لدعم روسيا في أثناء الحرب، وإقامة علاقات شخصية مع زعمائهم؛ لذا، فقد عمدت مجددًا إلى إرسال مبعوثين إلى هؤلاء الزعماء في مورية. وبحسب المصادر اليونانية، قام بالاتينو قبيل الحرب برحلة إلى ماينيٰ، وأقام علاقات مع ب. بيناكي (بيناكيس)[99]. وفي عام 1766، توجه بابازولي إلى مورية، لكنْ هذه المرة ليس لسبر أمزجة اليونانيِّين ودعوتهم للانتفاضة ضد الباب العالي فحسب، بل لإبلاغهم كذلك بموعد (؟!) وصول السُّفن الروسية بجنودها إلى الشواطئ اليونانية، وبقرار كاترينا الثانية تعيين ب. بيناكي حاكمًا لمورية[100]. فجمع بيناكي في منزله الزعماء الزمنيين والروحيين اليونانيِّين، بل زُعم أنه وُقِّع في هذا الاجتماع على اتفاق ينصُّ على تقديم اليونانيين قوة متطوعين من مئة

---

(98) Соловьев, Кн. XIV, с. 298.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 298].

(99) Арш, «Греция: Торговля. Просвещение,» с. 438.

[آرش، «اليونان: التجارة، التعليم»، ص 438].

يُشكُّ بصحة المعلومات اليونانية عن بالاتينو بأنه «حرض في بيلوبونيز لمصلحة روسيا حتى بداية الحرب الروسية – التركية»، لأنه كتب في «التماسه» عن أنه «أمضى سنتين في روسيا (1766 و1768)»، على الرغم من احتمال سفره من حينٍ لآخر أمر غير مستبعد.

(100) Y. Nagata, «Greek Rebellion of 1770 in the Morea Peninsula. Some Remarks through the Turkish Historical Sources,» *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* (Japan), no. 46 (1988), p. 90.

أعرب المؤرِّخ الياباني ناغاتا عن رأي مفاده أن كاترينا الثانية منحت بيناكي رتبة جنرال. وليس من المستبعد أن يكون النقباء الموريُّون تقاسموا السلطة في ما بينهم عشية تحرير اليونان. وهذا ما يفسر وعود كاترينا، إذا كانت قد أعطت مثل هذه الوعود. وفي كل الأحوال، فإن ستيفان مافروميخالي، الذي ظلت تراوده الآمال بتحرير مورية، أبلغ قيادة الأسطول الروسي في عام 1771 بأنه جمع فصيلًا من 300 رجل من المايننيِّين للخدمة لدى روسيا و«طالب بتعيينه رئيسًا على بلدة ماينيٰ». *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 87.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 87].

ألف رجل، إذا ما أرسلت روسيا الأسطول والأسلحة إلى المقاتلين اليونانيِّين. وللأسف، لم نتمكن من التأكُّد من صحة هذه المعلومات[101].

كانت العلاقات بين البلاط الروسي ومافروميخالي أعقد؛ إذ كان هذا الأخير أكثر حذرًا، ولم تكن لديه ثقة بالعملاء الرُّوس، فكان يرغب في سماع شروط الاتفاقية ممن لديهم سلطة، مع الوعود بإرسال قوات عسكرية كبيرة إلى مورية[102].

زار ممثلون آخرون لروسيا مورية أيضًا، هم اليوناني البندقي إيفان بيتوشين (علمًا أن آرش يقول إنه هو بالاتينو نفسه)، ناقلًا الرسائل من النقباء الموريين حيث أعربوا فيها عن استعدادهم لخدمة روسيا؛ كما زارها ف. س. تامارا، مبعوث روسيا في القسطنطينية، بين عامي 1798 و1802. كان هذا منقِّبًا عن الآثار فالتقى في طريقه بكلٍّ من غيورغي بابازولي والمدعو حاجي مراد، وهو مولدافي يتقن اللغة التركية. استقر بابازولي في ترييستي،

---

(101) معظم هذه المعلومات ترد في الدراسة القيمة جدًا للباحثة الرومانية أريادنا كاماريانو سيوران: Camariano-Cioran, «La Guerre russo-turque de 1768-1774».

ويعود بعض منها إلى ك. ريولير، ولكنها تحتاج إلى تدقيق. تجدر الإشارة هنا إلى أن عمل كاماريانو سيوران يحتوي على عدد من الأمور غير الدقيقة، فضلًا عن جانب من الموضوعات الجديرة بالاهتمام، وكذلك الفرضيات المنطقية إلى هذا الحد أو ذاك التي تضمنتها، (على الرغم من أن بعضها طُرِحَ بصورة قاطعة على نحو مبالغ فيه). من ذلك على وجه التحديد تأكيد كاماريانو سيوران أن الرسائل التي كتبها ن. إ. بانين إلى مافروميخالي كانت بمثابة تنازل لخصمه السياسي أ. غ. أورلوف، وأنه قام به لاعتبارات القرابة العائلية، زاعمة أن ألكسي أورلوف كان متزوجًا من ابنة بانين (ص 520). ولكن بانين لم يكن متزوجًا، ولم يكن لديه أولاد، وقد وزع أملاكه على سكرتيريه. وبعد سنوات طويلة من الحرب الروسية – التركية بارك ألكسي أورلوف، بالفعل، زواج ابنة ف. غ. أورلوف وابن ب. إ. بانين (ترد معلومات عن ذلك في: أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة، مجموعة الإخوة أورلوف).

(102) Г. Л. Арш, *Этеристское движение в России, Освободительная борьба греческого народа в начале XIX в. и русско-греческие связи* (M., 1970), с. 78; Camariano-Cioran, pp. 518-519.

[غ. ل. آرش، **الحركة التحررية اليونانيَّة في روسيا: نضال الشعب اليوناني التحرُّري في بداية القرن التاسع عشر والاتصالات الروسية – اليونانية** (موسكو، 1970)، ص 78].

افترضت أريادنا كاماريانو سيوران أن بابازولي غادر اليونان في عام 1763 أو 1766. غير أن التماس إيفان بالاتينو لا يترك مكانًا للشكِّ بأن بابازولي لم يكن في اليونان خلال عام 1763، بل زار البلقان في عام 1766 وكان موجودًا آنذاك في اليونان، وبعد ذلك التجأ إلى ترييستي.

حيث تراسل مع غ. أورلوف ونظم مركزًا سريًّا لتجنيد المشاركين في الانتفاضة العتيدة. إلا أن الرواية القائلة إنَّ بابازولي هو بالتحديد صاحب فكرة البدء بالعملية العسكرية بالتعاون مع المانيين[103] قليلة الاحتمال، لأن الإمبراطورة أعطت الأولوية لمورية في مرسوم صدر في عام 1762 وفي رسالة حُرِّرت في عام 1763.

في صيف عام 1766 نفسه، أرسل الملازم في فوج سيفسكي م. تاراسوف إلى الجبل الأسود، الذي لم يصله بابازولي وسارو، وكُلِّف من بين أمور أخرى، بالاستفسار عن «مدى ميل أهل الجبل الأسود نحو الإمبراطورية الروسية وغيرتهم عليها». فأكد تاراسوف في تقريره المتضمِّن توصيفًا مفصلًا لحالة البلاد، أنه «يمكن العثور على عدد كبير وسط سكان الجبل الأسود من المحبين لروسيا والغيورين عليها، علمًا أن هذه المحبة وهذه الغيرة لا تظهران إلا عندما يتلقون الهدايا والأعطيات، ولا سيَّما النقود»[104]. ومع ظهور منتحل صفة القيصر ستيبان مالي في الجبل الأسود في عام 1767 - الذي ادعى أنه بطرس الثالث - صار هذا البلد موضع اهتمام زائد من كاترينا الثانية لسبب آخر، ووقعت على عاتق العميل الروسي مهمة فضح المدعي وتصفيته.

لفت نشاط روسيا وعدم حذر مبعوثيها في اليونان انتباه السلطات التركية، التي نفذت في عام 1767، سلسلة أعمال تنكيلية استباقية، فأعدمت متروبوليت لاكديمون واضطهدت الشخصيات البارزة. وعند اندلاع الحرب، حاول الأتراك انتزاع السلاح من اليونانيِّين، الأمر الذي كتب عنه إيفان بالاتينو في أثناء وجوده

---

(103) Camariano-Cioran, pp. 519-520; [Л. Н. Майков], Первая мысль о Морейской экспедиции гр. А. Г. Орлова; Г. Л. Арш, «Российские эмиссары в Пелопоннесе и Архипелагская экспедиция 1770-1774,» *Новая и новейшая история*, no. 6 (2010), c. 65.

[[ل. ن. مايكوف]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية؛ غ. ل. آرش، «المبعوثون الروس في بيلوبونيز وبعثة الأرخبيل خلال فترة 1770-1774»، **التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 6 (2010)، ص 65].

(104) Ю. П. Аншаков, «Черногория - славянская твердыня. Жизнь общества, становление государства,» in: Виноградов (редактор), *История Балкан* c. 362-363.

[ي. ب. أنشاكوف، «الجبل الأسود - الحصن السلافي. حياة المجتمع، قيام الدولة»، في: فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان**، ص 362-363].

في روسيا: عند أول انتصار تحقِّقه روسيا في حربها مع الأتراك، «سيمتشق كل [يوناني] السلاح في سبيل دينه وخلاصه. فالسلاح الموجود بكثرة لدى كلِّ السكان المحليين هو للأحوال الطارئة وللدفاع عن النفس، على الرغم من كل تهديدات الأتراك ووعيدهم، ومن عددهم الذي يفوق عددنا بعشرات المرات»[105].

هذا، وتتيح المعلومات المتوفِّرة عن نشاط المبعوثين الرُّوس إلى اليونان باستخلاص بعض الاستنتاجات.

نفذت بعثة بابازولي المهمة التي وضعتها كاترينا، إذ قام أعضاؤها بِجَسِّ أمزجة إخوة الدين اليونانيِّين والبلقانيين، وأكدوا لكاترينا وغ. غ. أورلوف صحة الأنباء الواردة عبر الأقنية الأخرى: فاليونانيون مستعدون لدعم روسيا في حربها ضد الأتراك، وهم ينتظرون المساعدة على تحريرهم من النير التركي؛ ... ولذا، فإنهم يرون تطابقًا بين مصالحهم ومصالح الإمبراطورية العسكرية. وقد سمح ذلك للإمبراطورة بصوغ مسألة مشاركة إخوة الدين في بداية الحرب في الحرب الروسية - التركية، على نحو أفضل مما فعل بطرس الأكبر. فقد اقترحت على اليونانيِّين استغلال الحرب الناشبة للنضال في سبيل حريتهم، واعدةً بتقديم المساعدة إليهم قدر استطاعتها.

بيد أن الصورة التي نقلها المبعوثون الرُّوس انبنت على حماستهم وعلى حماسة أولئك الذين بحثوا لديهم عن الدعم، فقدمت تصوُّرًا عن ردة الفعل العاطفية لدى إخوة الدين («إن مجرد التعامل ولو قليلًا مع اليونانيِّين يكشف

---

(105) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье,* См. Приложение 1, с. 493.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسِّط**، الملحق الأول، ص 493 (الطبعة الروسية)].

انتُزِعَ السلاح بصعوبة نظرًا إلى المقاومة التي أبداها السكان: «وصل من تركيا نبأ يفيد أن سكان مورية - الذين صدرت الأوامر بانتزاع السلاح منهم - لا يزالون يقاومون حتى الآن هذا الأمر بكل قواهم، ولا أحد منهم يريد تسليم سلاحه؛ أما في باتراس ومقاطعة مايني وأركاديا القديمة فقد سُفكت الدماء للسبب نفسه، لأن اليونانيِّين المحليين اختاروا زعيمًا لهم واتخذوا قرارًا حاسمًا بعدم تسليم سلاحهم بأيِّ شكل من الأشكال»: *Санктпетербургские ведомости*, 1769, no. 17, 27. II.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1769، العدد 17، 27. 2].

مقدار الغيرة والحماسة والمحبة التي يُكِنُّها هذا الشعب لإمبراطورية عموم روسيا»). وليس من قبيل المصادفة أن خطط الإخوة أورلوف - المستندة إلى ردة الفعل العاطفية هذه - أثارت معارضة ن. إ. بانين، الخبير المجرب في العلاقات السياسية مع البلقانيِّين.

لا ريب في أن إقامة علاقات سياسية سرِّية مع رعايا الباب العالي، الذين كانت تفرِّقهم الخلافات الداخلية، واجهت الصعوبات (ليس من قبيل المصادفة أن كاترينا الثانية نبهت ألكسي أورلوف مرارًا إلى ضرورة توحيد إخوة الدين). وفي الوقت نفسه، كان من شأن انكشاف هذه العلاقات أن يزيد من تعقيد العلاقات الروسية - التركية المعقدة أصلًا.

دلت المعلومات التي جمعتها البعثة على أن شروط توحيد المجتمع اليوناني نضجت. فعلى الرغم من أن اليونانيِّين تعايشوا بوئامٍ نسبيٍّ مع الباب العالي في إطار المِلة الأرثوذكسية، حيث أقامت نُخَبُهم ما يشبه العلاقات الودية مع السلطات التركية (وهذا ينطبق على الزعماء المحليِّين، كمافروميخالي وبيناكي)، فقد اعتملت كراهيةٌ متزايدةٌ وغليانٌ شديدٌ داخل المجتمع اليوناني حيال الحكم التركي. وكان ثمة أقنية داخلية في المجتمع لنقل المعلومات ونظام فاعل للعمل السرِّي، فضلًا عن اضطلاع الكنيسة بدورٍ كبيرٍ في كل ذلك، بِحُكْمِ نظام الملل الناظم لوظيفتي السلطتين الروحية والزمنية في الطائفة. لكنْ، لم تكن قد ظهرت في المنطقة بعد القوة المؤهلة لتنظيم التحرُّر الوطني وقيادته. وهكذا، غدت مأساة الشعب اليوناني، الناجمة عن الأعمال العسكرية المشتركة، دافعًا قويًّا لتطور حركة التحرُّر الوطني اللاحق في الأفق التاريخي.

اقترنت لدى إخوة الدين مشاعر العداء نحو الأتراك بمكانة روسيا العالية في نظرهم والتعلق الشامل بها، المستند إلى الإيمان بالدين الواحد والآمال في التحرر من النير العثماني بمساعدة القوات الروسية. وعندما توجهت كاترينا الثانية إلى اليونانيِّين، واعدة إياهم بـ «العطف والحماية»، كانت تُعوِّلُ على القيم الغيبية في النظام الأعلى. وهذه المشاعر هي ما قصده الباحث في التنوير اليوناني باسخاليس كيتروميليديس، على نحوٍ جزئي، حين افترض عن حق أن

«الإيمان بالألفية النبوية[106] ينبع من أعماق التقاليد والأماني الثقافية الشعبية اليونانية»[107]، مع التركيز أساسًا على مشاعر تحرُّر الشعب التي كانت سائدة في أوساط الشعب اليوناني خلال القرن الثامن عشر؛ وإنْ لم تكن هذه الفكرة تمتُّ إلى التنوير بصلة.

## التحضير للحرب

ترافق إرسال المبعوثين الرُّوس إلى اليونان والأراضي البلقانية، المحاذية لحوض البحر المتوسِّط، مع تفقُّد الإمبراطورة الأسطول البحري (1765)، إلا أن نتائج الزيارة لم تكن مُرْضِيَة بالنسبة إليها قطّ[108]. ومع ذلك، كان لا يزال ثمة متسع من الوقت، إذا ما عُمِلَ على مضاعفة الاهتمام بوضع الأسطول وتحضيره للقيام بالعمليات الحربية البحرية. وبالفعل، خرجت من قواعد بناء السُّفن في ريفيل، كرونشتاد وأرخانغيلسك خلال فترة 1766–1768 نحو

---

(106) **الألفية** (أو الحكم الألفي): هي في المسيحية معتقد إيماني ظهر بداية في أوساط المسيحيِّين الأوائل، مستندًا إلى التأويل الحرفي لنصوص الكتاب المقدس، ولا سيَّما ما ورد في سفر رؤيا يوحنا. وهم يعتقدون أن المسيح سيعود مع الملائكة والقديسين إلى عالمنا لكي يحكم فيكون ملكًا على مدى ألف عام. (المترجم)

(107) П. Китромилидис, *Эпоха Просвещения в Греции*, Пер. с новогреческого М. Грацианского (СПб., 2007), с. 130-131.

[ب. كيتروميليديس، **عصر التنوير في اليونان**، ترجمه عن اليونانية الحديثة م. غراتسيانسكي (سان بطرسبورغ، 2007)، ص 130–131].

أشار العالم إلى أن «الأمل التقليدي اليوناني بخلاص الشعب تشكل في تصور آخر أخذ يهيمن على الفكر السياسي لدى الأجيال المتعاقبة من العلماء اليونانيِّين والزعماء الشعبيين أو الكنسيين. فكان يُنتظر أن يتحرر الشعب بفضل تدخل «روما الثالثة» التي انتقلت إليها قوة الإمبراطورية الأرثوذكسية (وليس النمسا والبندقية، كما حصل في الماضي (المؤلفة)). اكتسب هذا الرهان السياسي دينامية صدى شعبي واسع عائد إلى ارتباط الاستيعاب الجديد لإمكانات الحياة الدولية بقوة التقاليد السيكولوجية. وقد غدت الآمال الروسية – المتولِّدة بفضل التوجُّهات الجديدة هذه – القوة السياسية المحركة في الحياة اليونانية على امتداد القرن الثامن عشر» (ص 132).

(108) كتبت كاترينا إلى بانين: «ينبغي الإقرار أن السُّفن كانت أشبه بالأسطول الذي يخرج كل سنة من هولندا لصيد سمك الرنكة، لا بأسطول حربي». اقتباس من: Соловьев, Кн. XIII, с. 392.

[سولوفيوف، الكتاب 13، ص 392].

ثلث السُّفن التي شاركت في حملة الأرخبيل[109]، أما معركة شيسما فأظهرت أن البحارة تعلموا فن الملاحة البحرية وإطلاق النار بدقة. ومع ذلك، لم تكن الأعمال التي قامت بها روسيا في حوض البحر المتوسِّط (بين عامي 1763 و1766)، سوى عملية جس نبض في الأساس.

في غضون ذلك، اتخذت الأحداث السياسية الخارجية منحى خطرًا، فاقتدى ممثل روسيا في القسطنطينية ألكسي ميخايلوفيتش أوبريسكوف بتوجيهات ن. إ. بانين الذي اعتبر أنه «لم يحن الوقت بعد للقطيعة مع الباب العالي»[110]؛ فعمل بصعوبة بالغة على كبح تهجُّمات الحكومة العثمانية على البلاط الروسي، التي اتهمت روسيا بعدم تقيدها بمواد الاتفاق الروسي - التركي، القاضية بعدم تدخُّل الطرفين في الشؤون البولندية. وبإنفاقٍ ماليٍّ محدود، تمكن أوبريسكوف من تحييد دسائس السفير الفرنسي الذي سعى إلى قطع العلاقات الروسية - التركية، وإعلان تركيا الحرب على روسيا. غير أن البلاط شعر بالخطر الحربي الداهم، وتطلب ذلك من كاترينا القيام بأعمال هادفة في سياستها المتوسِّطية، وقد شرعت بتنفيذها ابتداء من عام 1767.

يجري الحديث تحديدًا هنا عن اجتذاب المركيزين بانو ماروتسي وجورج أندريه دي كافالكابو[111]، من ضمن خطوات أقدمت عليها كاترينا الثانية، وبدا أنها غير مترابطة في ما بينها، على الرغم من تأديتها دورًا مهمًّا في تنظيم حملة الأرخبيل فيما بعد. فقد دُعِيَا إلى الخدمة لدى روسيا، وعُيِّن الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف سفيرًا مفوضًا فوق العادة في لندن، وأُرسِل الكونتان ألكسي غريغوريفيتش وفيودور غريغوريفيتش أورلوف إلى إيطاليا للعلاج

---

(109) **مواد لتاريخ الأسطول الروسي** (سان بطرسبورغ، 1888)، مج 12، ص 305-308.

(110) Соловьев, Кн. XIV, с. 217.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 217]. عن أ. م. أوبريسكوف، يُنظر: П. Перминов, *Посол III класса. Повествование о российском дипломате Алексее Михайловиче Обрескове* (M., 1992).

[ب. بيرينوف، **سفير من الدرجة الثالثة. قصة الدبلوماسي الروسي ألكسي ميخايلوفيتش أوبريسكوف** (موسكو، 1992)].

(111) A. Blondy, «L'Ordre de Malte et Malte dans les affaires polonaises et russes au XVIIIe siècle,» *Revue des études slaves*, no. 66/4 (1994), p. 740.

ليتسقطا في الحقيقة أخبار استعداد اليونانيِّين للانتفاضة والتحضير للتعاون معهم في الحرب المقبلة.

في عام 1767، كان البلاط الروسي في موسكو. وهناك كانت الإمبراطورة محاطة بالإخوة أورلوف على الدوام: فقد استقبل ألكسي أورلوف كاترينا الثانية لدى دخولها الاحتفالي إلى العاصمة الأولى، ودعاها مرتين لقضاء وقت ممتع في عزبته الموسكوبية التي أعجبتها، حتى إنها شعرت في إحدى المرتين بالمرح فبقيت فيها حتى الثانية صباحًا. وشرفت الإمبراطورة الكونت ألكسي بزيارة عزبته الثانية التي وهبته إياها في أوستروف بضواحي موسكو. وكان غريغوري أورلوف يرافق الإمبراطورة دائمًا؛ كان معها في رحلتها عبر نهر الفولغا التي توقفت خلالها في قازان لتقيم علاقات طيبة مع سكان منطقة الفولغا (بوفولجي) من المسلمين، ما أسهم في تحييد تتار الفولغا في أثناء الحرب الروسية - التركية[112]. وفي طريق عودتها من رحلة الفولغا إلى موسكو، زارت كاترينا إيفان أورلوف في ممتلكاته الواقعة على الأراضي التي وهبتها قبل فترة وجيزة لآل أورلوف بمنطقة الفولغا. وغالبًا ما شارك فيودور وفلاديمير أورلوف في مآدب الغداء في البلاط. ونادرًا ما غاب ذكر حضور واحد من الإخوة أورلوف في مجتمع الإمبراطورة عن أنباء صحيفة **مراسم البلاط** في عام 1767[113]. بكلام آخر، كان لدى كاترينا الوقت الكافي، في غمرة الأنشطة الترفيهية، خلال لقاءاتها بالإخوة أورلوف لتناقش معهم سبل تحقيق مخططاتها المتوسِّطية التي يشاطرونها بالكامل.

كان في موسكو أيضًا اثنان مِمن سيشاركون لاحقًا في تحضير حملة الأرخبيل على الصعيد الدبلوماسي، هما: الكونت إ. غ. تشيرنيشوف مساعد

---

(112) ذكرت كاترينا بشيءٍ من الخفة أنها تعلمت قبيل زيارتها لقازان بضع كلمات بالتركية والعربية، استخدمتها في أثناء التحدُّث إلى ممثلي التتار. وقد ترك ذلك انطباعًا جيدًا لدى السكان. فضلًا عن ذلك، زارت الإمبراطورة بولغار وسمحت للتتار هناك بممارسة شعائرهم الدينية بحرية.

(113) أخطأ ج. بيرتي عندما أكد أن ألكسي وفيودور أورلوف زارا إيطاليا سرًّا في عام 1767 (بيرتي ج. روسيا والدول الإيطالية في حقبة توحيد إيطاليا). الواقع أن ذلك حصل في نهاية عام 1768. كما أن تعارف الأخوين أورلوف مع ماروتسي حدث في روسيا وليس في إيطاليا، وذلك خلال فترة لا تتعدى نهاية عام 1767.

كاترينا الدائم لشؤون الأسطول، والمركيز بانو ماروتسي الأرستقراطي والمصرفي البندقي، المتحدر من أسرة يونانية - إيبيرية، المعروف لدى البلاط الروسي بفضل وساطته في اقتناء الإمبراطورة نتاجات الفن الأوروبي[114]. وقد شارك إيفان تشيرنيشوف كاترينا مرارًا رحلاتها لصيد الصقور في ضواحي موسكو.

كان غريغوري أورلوف، على الأرجح، هو من لفت انتباه الإمبراطورة إلى المركيز ماروتسي، في ما يتعلق بالشؤون المتوسِّطية، وقد أجرت معه حديثًا - أو عدة أحاديث سرِّية إلى حدّ ما - وتمكنت من تقويم مهارته السياسية وعلاقاته المتوسِّطية، فتكون لديها انطباع جديد عنه، الأمر الذي يتبين من خلال بعض المهمات الحساسة التي أوكلتها إليه، ومنحه حق التوجُّه كتابيًّا إلى الإمبراطورة مباشرة[115]. وجدير بالذكر أن الكونت ن. إ. بانين، رئيس هيئة الشؤون الخارجية، كان ميالًا إلى المركيز، وعزا إليه في البداية دورًا في إيطاليا، يماثل دور البارون السويدي شيميلمان، «الإنسان المخلص لروسيا»، الذي أدى لها خدماتٍ جُلى في الدانمارك[116].

لم تكن أسرة ماروتسي الثرية، ذات الأصل اليوناني، تملك ثروات مالية ضخمة فحسب، بل وعقارات أيضًا (ومن المعروف مساعي المركيز ماروتسي الآيلة إلى استعادة ممتلكاته التي صادرها الأتراك في يانين). ولم تكن الأسرة بعيدة عن النشاط في مجال تنوير الشعب اليوناني. ففي عام 1742، أسس أحد أفرادها مدرسة «ماروتسيوفو» العليا في يانين[117]. وأدى انتقال ماروتسي إلى

(114) يُنظر الفصل السادس.

(115) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 13, 14, 35 и др.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 41/3، علاقة روسيا بالبندقية، الملفات 13، 14، 35 وغيرها].

(116) المرجع نفسه، الملف 13، ظهر الورقة 1، و Соловьев, Кн. XIV, с. 246.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 246].

(117) عن المدرسة يُنظر: Арш, «Греция: Торговля. Просвещение,» с. 430-432.

[آرش، «اليونان: التجارة، التعليم»، ص 430-432].

وأيضًا: Китромилидис, с. 35.

[كيتروميليديس، ص 35].

الخدمة لدى روسيا إلى أنه تمتع بحماية روسية رفيعة مغرية، حتى إنه وافق على تنفيذ المهمات التي كلفه بها البلاط الروسي من دون مقابل. على أن المركيز أخذ على عاتقه - كما اتضح - القيام بدور الوسيط المالي في تأمين التسليفات لتمويل النفقات الإيطالية لحملة الأرخبيل، ولذا فهو لم يبقَ من دون عائد مالي. من حيث الجوهر، كانت المصلحة متبادلة. وعلل ن. إ. بانين التوسُّط لمنح المركيز وسام القديسة حنة، قبل شروعه بتنفيذ مهماته في إيطاليا، بأهمية «جذب مثل هذا البيت الثري، الذي يمثله ماروتسي، لخدمة مصالح بلاطنا، وذلك في بلاد سيكون فيها مع الوقت مفيدًا بالنسبة إلينا، فضلًا عن عدم طلبه أي مقابل لقاء القيام بمهمته، ولكن بشرط أن يُرسل (الوسام) [المؤلِّفة] إلى السيد ماروتسي وهو في الطريق، بحيث لا يضعه قبل سفره من روسيا تجنُّبًا لظهور الشكاوى هنا»[118]. ظل الأمر سريًا لبعض الوقت. لم ينقضِ نصف عام حتى شاع خبر تقليد المركيز وسام القديسة حنة وتعيينه قائمًا بالأعمال في البندقية والدول الإيطالية في الصحف الأوروبية[119].

هكذا، وافق ماروتسي على القيام ببعض المهمات ومُنح وسام القديسة حنة سلفًا، أو لقاء نصائح معينة في مجال السياسة المتوسِّطية؛ وكلف بمهمة في «بلاد سيكون فيها مع الوقت مفيدًا بالنسبة لنا». ولكي لا يرتاب أحدٌ أو يخمِّن فحوى مهمته في البلاط أو في السلك الدبلوماسي، تعهد المركيز بعدم الإعلان عن منحه الوسام إلا خارج حدود روسيا. وكما نرى، كانت سياسة كاترينا المتوسِّطية منذ البداية محاطة بالسرِّية، «لأنها جوهر كل الأمور»، كما كانت كاترينا توصي الكونت ألكسي أورلوف.

توسط ن. إ. بانين لمنح المركيز ماروتسي الوسام في 27 كانون الثاني/ يناير 1768، أما تعيينه رسميًّا قائمًا بالأعمال الروسي في جمهورية البندقية و«المدن

---

(118) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношение России с Венецией, Ед. хр. 13, Л. 1.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 41/ 3، علاقة روسيا بالبندقية، وحدة الحفظ 13، الورقة 1].

(119) *G. d'A.*, 1768, no. 82, 89.
بناءً على الأنباء الواردة من بطرسبورغ في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر.

التجارية الأخرى في إيطاليا»، فكان في 28 شباط/ فبراير - 10 آذار/ مارس، أي بعد مضيٍّ شهر. ويبدو أن كاترينا قررت الإخلال بالبروتوكول الدبلوماسي في سبيل مخططاتها المتوسِّطية السرِّية.

وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1766، أبلغ د. م. غوليتسين أن سفير البندقية في فيينا أخبره أن حكومته لا ترفض الآن إرسال ممثل لها إلى سان بطرسبورغ برتبة وزير، وتقترح «بنودًا تمهيدية» يمكن على أساسها عقد اتفاقية تجارية مع الإمبراطورية الروسية. وأعربت حكومة البندقية عن رغبتها في ألا تكون التجارة مع روسيا عبر البلطيق وحده، بل عبر البحر الأسود أيضًا. واشترطت عقد الاتفاقية بالبنود المقترحة الآتية: «**أولًا**، ألا تتضمن الاتفاقية أي التزامات أخرى؛ **ثانيًا**، أن تتخذ روسيا التدابير الضرورية المتعلِّقة بمرور السِّلع من المرافئ من كِلَا الجانبين عبر البحر الأسود وبالرسوم المجباة عنها؛ **ثالثًا**، أن يُسمح بتصدير المنتجات الروسية من تلك المناطق حيث تُنتج فيها، وأن تُنقل إليها المصنوعات المنتجة في البندقية المخصصة لروسيا عبر البحر الأسود لا عبر مرافئ البلطيق، وبأن تكون لديها حرية اجتياز الحدود كلها»[120]. أثار هذا الأمر استياء الإمبراطورة؛ إذ لا يزال أمامها انتزاع حق استخدام البحر الأسود...

في آب/ أغسطس 1767، أشارت الإمبراطورة بارتياح إلى أن البندقية قامت بخطوة في اتجاه تبادل الممثِّلين الدبلوماسيِّين، في نهاية المطاف. وفجأة، في العاشر من آذار/ مارس 1768، ومن دون انتظار التوافق على بنود الاتفاقية وعلى شروط مجيء الوزير البندقي، أمرت الإمبراطورة غوليتسين بإبلاغ سفير البندقية في فيينا موافقتها على قرارات حكومته، ورغبتها في استقبال الوزير في بلاطها، وموافقتها أيضًا على إقرار البند الأول من الاتفاقية، ومناقشة مسألة

---

(120) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношение России с Венецией, Ед. хр. 14, Л. 14-14 об.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 41/ 3، علاقة روسيا بالبندقية، الملف 14، الورقة 14- ظهر الورقة 14].

[**ديمتري ميخايلوفيتش غوليتسين** (1721-1793): أمير، سكرتير بلاط إليزابيت بيتروفنا، دبلوماسي؛ خلال فترة 1759-1761، سفير في باريس، وخلال فترة 1761-1792 سفير في فيينا لدى البلاط النمساوي]. (المترجم)

الجهود المشتركة والتكاليف الضرورية لتنفيذ البندين الثاني والثالث. وتأكيدًا على صدق نيتها (خطوة من جانب واحد بعدم انتظار تعيين الوزير البندقي وهو ما كانت تلحُّ عليه سابقًا) عينت كاترينا الثانية قائمًا بالأعمال في جمهورية البندقية هو المركيز ماروتسي[121]. ويبدو أن الأمر، لم يعد يحتمل التأجيل، وفقًا لمخططاتها؛ إذ جرت خلال هذه الفترة بالتحديد مسرحية استقالة الشخص الثاني في فوج بري أوبريجينسكي العقيد ألكسي أورلوف من الخدمة، وسفره إلى إيطاليا «للعلاج» (سنتحدث عن هذا الأمر لاحقًا). وكان من الضروري تنظيم الدعم الدبلوماسي والمالي لمهمته السرِّية في إيطاليا.

بيد أن الواجب الوظيفي بتقديم الخدمات لألكسي أورلوف[122]، لم يفرض قيودًا على دائرة واجبات ماروتسي السرِّية، غير المحددة رسميًا. فاستنادًا إلى محتوى تقاريره، كان عليه إطْلاع البلاط الروسي على الوضع في الجبل الأسود، حيث ظهر منتحلُ صفةٍ باسم بطرس الثالث، وعن سير الانتفاضة ضد فرنسا في جزيرة كورسيكا. وكُلِّف المركيز ماروتسي بإقامة علاقات سرِّية مع زعيم الثوار الكورسيكانيين باسكوال (باسكال) باولي وإطلاعه على رسالة الإمبراطورة إلى المقاتلين من أجل حرية الشعب في كورسيكا. وكان من المفترض أن تشكِّل هذه الرسالة ذريعة للمفاوضات السرِّية بشأن استخدام السُّفن الروسية مرافئ كورسيكا.

أما التوجيهات الرسمية التي بلغتها هيئة الشؤون الخارجية للقائم بالأعمال في جمهورية البندقية، فقد كانت تُلزِم المركيز ماروتسي السعي إلى إرسال وزير بندقي إلى سان بطرسبورغ لمناقشة الاتفاقية التجارية وتوقيعها، الأمر الذي يتطلب «استمالة أعضاء مجلس الشيوخ» وغيرهم من الأشخاص الممسكين بمقاليد السلطة. وكان عليه الاهتمام بمسألة اعتماده في المدن التجارية الأخرى في إيطاليا، لأن جمهورية البندقية سعت حتى لا تعطي ذريعة للباب العالي للشكِّ «بشأن المراسلات والمفاوضات التي تجريها معنا»[123].

(121) المرجع نفسه، الملف 34، الورقة 32، 33.

(122) المرجع نفسه، الملف 35، ظهر الورقة 12.

(123) المرجع نفسه، الملف 14، الورقة 18.

وفي البند ما قبل الأخير من التعليمات، كُلِّف ماروتسي بصورة غير مباشرة باكتشاف الأشخاص الذين يدينون بالأرثوذكسية المستعدين للتعاون مع روسيا، بذريعة تسجيل اللاجئين. وجاء فيه أنه إذا توجه أشخاص من الديانة اليونانية إلى المركيز ماروتسي، وأبدوا رغبتهم في اللجوء إلى روسيا، «فما عليكم والحال هذه إلا أن يعطيهم المركيز الأمل بعطف غوليتسين السامي وحمايته، والسؤال عن أوضاعهم المعيشية والمهنية، وإرسال تقرير مفصل إلينا، من دون بذل الوعود لهم بأكثر من ذلك، وانتظار قرارنا»[124].

خلافًا لقلق البلاط الروسي، لقي المركيز ماروتسي استقبالًا جيدًا في البندقية. على أن الحرب الروسية - التركية، التي اندلعت عقب وصوله إلى إيطاليا بفترة وجيزة، «أعاقت» أن يكون «أكثر فائدة في خدمة صاحبة الجلالة الإمبراطورية، لأن حكومة البندقية تحاشت الإقدام على أيِّ خطوة يمكن أن تجعلها موضع شبهة لدى الباب العالي العثماني»[125]؛ فأوقَفَت كل المفاوضات لإرسال الوزير البندقي إلى بطرسبورغ. وعلى الرغم من ذلك، بقي القائم بالأعمال في البندقية، وبقي على خدمته البلاط الروسي في تنفيذ سياسته المتوسِّطية بنجاح[126].

كان الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، الذي أدى قسطه في سياسة كاترينا الثانية المتوسِّطية، شخصًا مقربًا من الإمبراطورة أيضًا. وتدل مذكرات س. ب. بوروشين، مربي بافل بيتروفيتش، على أن إيفان تشيرنيشوف كان يجول باستمرار ما بين البلاطين «الكبير» و«الصغير»[127]. وكان ولي العهد الشاب متعلقًا به؛ إذ كان يعلِّمه شؤون الأسطول، حيث كان تشيرنيشوف عضوًا في هيئة الأدميرالية ورئيسًا لمرفأ ولعمارة من السُّفن، ويحظى بثقة كبيرة لدى

---

(124) المرجع نفسه، الملف 20.

(125) المرجع نفسه، الملف 34، الورقة 54.

(126) في صدد نشاطه، يُنظر الفصل السادس.

(127) *Семена Порошина Записки, служащие к истории Его Императорского Высочества... Павла Петровича наследника престола Российского* (СПб., 1844).

**[مذكرات سيميون بوروشين، الذي خدم في عهد صاحبة الجلالة الإمبراطورية... بافل بيتروفيتش وريث العرش الروسي (سان بطرسبورغ، 1844)].**

كاترينا الثانية[128]. فقد عينته، هو بالذات، وزيرًا فوق العادة ومفوضًا في لندن إبان المرحلة الحرجة من العلاقات الروسية - التركية، بعدما نقلت الوزير الروسي المفوض الكونت أ. س. موسين بوشكين من إنكلترا إلى الأراضي المنخفضة.

لم تتعرض وجهة نظر س. م. سولوفيوف للتشكيك في الأدبيات، ومفادها أن بطرسبورغ أجرت التبديلات الدبلوماسية الملائمة، ردًّا على قرار إنكلترا تعيين سفير في روسيا، بدل الوزير من الدرجة الثانية، كما كان عليه الأمر حتى ذاك الحين، وذلك من أجل تسريع المفاوضات الإنكليزية - الروسية المتعلِّقة بمعاهدة التحالف. كما حاز نقل موسين بوشكين إلى لاهاي أيضًا ترحيب ن. إ. بانين، ذلك أنّه لم يكن يُعتَبَر في بطرسبورغ دبلوماسيًّا كفوءًا[129]. وبالفعل، بعد استدعاء الملك الإنكليزي مبعوثه اللورد ماكارتني في نيسان/ أبريل 1768، انتظرت بطرسبورغ في تموز/ يوليو السفير اللورد كيتكارت، الذي ما لبث أن وصل بعد مضي شهر من ذلك. وقد أُرِّخت «شهادة اعتماد السفير الكونت تشيرنيشوف» في 24 تموز/ يوليو، حيث تقرر إرساله إلى لندن «لتحقيق المزيد من الوفاق الطيب والصداقة الوثيقة»[130].

بيد أنه غابت عن س. م. سولوفيوف وثيقة أخرى صادرة من داخل هيئة الشؤون الخارجية قبل نصف عام من ذلك، عنينا المرسوم السامي المتعلِّق

---

(128) إلى إ. غ. تشيرنيشوف بالذات كتبت الإمبراطورة فيما بعد عن حبها «القلاع الإسبانية» وطلبت منه، بثقة، ألا يعتبر اعترافها «هذيانًا» بأنه «لا أحد بعد إيفان تشيرنيشوف يحب الصخب الضجيج والعظمة أكثر من كاترينا». ونذكر بالمناسبة أن القلاع الإسبانية والصخب مع العظمة، اقترنت في وعي الإمبراطورة بحملة الأرخبيل: Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, in: *Русский архив*, 1871, no. 9, Стлб. 1324-1326.

[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، في: **الأرشيف الروسي**، 1871، العدد 9، العمود 1324-1326].

(129) Соловьев, Кн. XIV, с. 247.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 247].

(130) *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Д. 7232, no. 36, 58, 66.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 2/ 6، شؤون الهيئات الداخلية، الملف 7232، العدد 36، 58، 66].

بتحديد راتب الكونت الجنرال إيفان تشيرنيشوف ونفقات سفره وما شابهها، بوصفه سفيرًا فوق العادة كامل الصلاحية مبعوثًا إلى البلاط البريطاني، نظرًا «لقضايانا المهمة بصورة خاصة اليوم مع البلاط اللندني»[131]. وقد صدر المرسوم مؤرخًا في العاشر من كانون الثاني/يناير 1768، أي قبل أسبوعين من طلب ن. إ. بانين منح المركيز ماروتسي الوسام؛ إذ تعجل السفر إلى البندقية لقضاء شؤونه الخاصة كما زعم. كل ذلك يدل على أن الوضع السياسي الناشئ نتيجة الخطر التركي في مطلع عام 1768، دفع كاترينا إلى التعجيل بالتحضير لعمليتها في البحر المتوسِّط. وفي ظروف كهذه، غدا اكتساب موقف إنكلترا الودِّي من هذه العملية أمرًا «مهمًّا على نحو خاص»، وهذا، في رأينا، ما خلق الاستعداد لإرسال تشيرنيشوف إلى إنكلترا (علمًا أنه كان يُفتَرَضُ أن يحدث التعيين قبل ذلك).

في غضون ذلك، حصل انفراج مؤقت في الوضع السياسي، وتأجل سفر المركيز ماروتسي إلى إيطاليا حتى الصيف، وظهر إمكان ربط تعيين تشيرنيشوف بالتغييرات في الممثِّلية الدبلوماسية ببطرسبورغ، وبالتالي إزالة الفضول والقلق الزائدين اللذين عَما البلاطات الأوروبية والسلك الدبلوماسي الموجود في العاصمة الروسية.

وصل إ. غ. تشيرنيشوف إلى لندن قبيل اندلاع الحرب، وكان إلى جانب مهمته السرِّية مكلفًا بمجموعة من المهامِّ الأخرى. فقد نقل بالتحديد موافقة كاترينا الثانية على استبعاد البند المتعلِّق بمساعدة إنكلترا روسيا في حربها مع تركيا من النقاش، وذلك ربما مقابل دعمها حملة الأرخبيل. كما عُلِّق البند الخاص بمعاهدة الإعانات بين كلٍّ من إنكلترا والسويد، الرامية إلى إضعاف النفوذ الفرنسي في هذا البلد وإلغاء إمكانية هجومها على روسيا. غير أن الحكومة الإنكليزية ردت بالرفض، معلِّلةً ذلك بأنَّ «من الصعب جدًا على إنكلترا تغيير القاعدة التي تقول بعدم دفع الإعانات في زمن السلم»[132]. وفي

(131) المرجع نفسه، الملف 7175، الورقة 228.

(132) Соловьев, Кн. XIV, с. 250.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 250].

المحصِّلة، توقفت المفاوضات في صدد عقد معاهدة التحالف، على الرغم من أن ذلك لم يعكر العلاقات مع البلاط اللندني. ولم تُستأنف المفاوضات إلا في خريف عام 1770، وكان من واصلها في لندن الدبلوماسي «غير الكفوء» أ. س. موسين بوشكين(133).



الكونت إيفان تشيرنيشوف

بعد عام من تعيينه رُفِّعَ الكونت إ. غ. تشيرنيشوف، المفوض والسفير فوق العادة إلى لندن، ليُعين نائبًا لرئيس هيئة الأدميرالية. وفي التاسع عشر من آب/أغسطس، وصل إلى لندن أمر الإمبراطورة باستدعاء إيفان تشيرنيشوف من إنكلترا بناءً على طلبه، «بسبب سوء صحته نتيجة المناخ غير الملائم هناك»، ولضرورة وجوده في روسيا «في ظلِّ أوضاعنا الراهنة بصورة خاصة»(134). ولكن، على الرغم من «المناخ غير الملائم» و«الأوضاع الخاصة»، وبكلام آخر الأوضاع المعقدة، بقي الكونت إيفان غريغوريفيتش في لندن سنة أخرى في أقلِّ تقدير، إلى حين وصول العمارة البحرية الثالثة إلى البحر المتوسِّط في حملة الأرخبيل، بقيادة الكونتر-أميرال آرف. في غضون ذلك، كان الكونت موسين بوشكين يقوم بالمهمات الدبلوماسية بعد عودته من لاهاي (التي قد لا يكون ذهب إليها أساسًا). ويتضح

(133) И. Ю. Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774,» in: *Труды Моск. гос. историко-архивного ин-та*, t. 23 (M., 1967), c. 159-160.

[إ. ي. رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، في: **أعمال معهد موسكو الحكومي للتاريخ والأرشيف**، مج 23 (موسكو، 1967)، ص 159-160].

(134) *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Ед. хр. 7233, no. 58, Л.14.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 2/ 6، شؤون الهيئات الداخلية، الملف 7233، العدد 58، الورقة 14.

من رسائل كاترينا أن وجود تشيرنيشوف على سواحل الألبيون كان ضروريًا لتسريع عبور عمارة آرف. كتبت الإمبراطورة إليه في لندن بتاريخ 18 أيار/ مايو 1770: «إنني أعجب لبطء حركة السيد آرف؛ علينا، نحن وأنت، جعله رشيقًا، لقد اعتدنا على التعامل مع الفتيان النِّعَاس وإيقاظهم»[135]. كانت كاترينا تقصد بـ «الفتيان النِّعَاس»، على الأرجح، قائدي العمارتين البحريتين الأوليين غ. أ. سبيريدوف وج. ألفينستون.

كان لدى ي. ف. تارلي كلُّ المسوِّغات ليكتب: «إن موقف إنكلترا هذا هو نجاحٌ للدبلوماسية الروسية، حققته من دون أدنى تضحيات أو تنازلات أو وعود لصالحها إنكلترا. تمكنت كاترينا من احتساب ميزان القوى على رقعة الشطرنج الدبلوماسية بصورة صحيحة، واتخذت الخطوات الضرورية. فالإنكليز ما كانوا ليسمحوا بانتصار البلاطين البوربونييْن في البحر المتوسِّط، وبسيطرة فرنسا الراسخة على التجارة المشرقية الهائلة، ومعها حليفتاها إسبانيا وتركيا»[136]. إلا أن تارلي نسي الإشارة إلى أن تشيرنيشوف هو من قام بالتحرُّكات على رقعة الشطرنج الدبلوماسية، وفق توجيهات الإمبراطورة، ولهذا الغرض أُرسِلَ إلى لندن عشية الحرب. كان المؤرِّخ على يقين من أن فكرة إرسال الأسطول إلى البحر المتوسِّط لم تخطرْ في بال أحد من الإخوة أورلوف إلا في لحظة اندلاع الحرب؛ وبالتالي، فلا مجال للحديث عن أن مهمة تشيرنيشوف قُرِّرت قبل ذلك بمدة طويلة.

بيد أن كاترينا كانت قد كتبت في كانون الثاني/ يناير 1769 ما يأتي: «عندما بدأنا حملتنا في البحر المتوسِّط شرحنا الأمر لملك بريطانيا بصراحة، وحصلنا على التأكيد بأنه سيُسمَحُ لسفننا الحربية بالرسو في مرافئ مملكته بوصفها سفنًا صديقة،

(135) Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, Стлб. 1337.

[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، العمود 1337].

(136) Е. В. Тарле, *Чесменский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг [1769-1774]* (М.; Л., 1945), с. 103.

[ي. ف. تارلي، **معركة شيسما والحملة الروسية الأولى في الأرخبيل** [1769-1774] (موسكو؛ لينينغراد، 1945)، ص 103].

وستُقدم لها كل المساعدة المطلوبة تبعًا للظروف»[137]. وإذا أخذنا في الحسبان أن الاتصالات عبر السعاة مع إنكلترا كانت تستغرق شهرًا تقريبًا، لوجب الإقرار بأنه كان في حوزة تشيرنيشوف، عند توجُّهه إلى لندن، تعليمات تقضي بـ«التحدُّث» بصراحة مع ملك بريطانيا عن الموضوع المطروح، إذا ما نشبت الحرب.

يبقى فقط التنويه بموهبة الإمبراطورة في مراعاة السرِّية؛ إذ لم تتلفظ بكلمة واحدة في رسائلها إلى تشيرنيشوف، عن المهمة الموكلة إليه. أما التلميحات إلى أنها شرعت بتنفيذ بعض خططها السرِّية، فكان هدفها، على الأرجح، إبقاء إيفان غريغوريفيتش أمام صورة الأحداث المتسارعة. وثمة أساس للافتراض أن هذه التلميحات انطوَت على نوع من الشيفرة السرِّية التي تربطهما بعضهما ببعض[138]. ولا ريب في أن كاترينا كانت تعلم بتخمين تشيرنيشوف سببَ حاجتها إلى خرائط البحر المتوسِّط وجزيرة كورسيكا، والمعنى الذي ينطوي عليه اعترافها المفاجئ: «أصلِّي كل صباح الآن: خلِّصْ يا رب الكورسيكاني من أيدي الفرنسيين الكفار»[139]. كانت كاترينا تراهن عبر المركيز ماروتسي للحصول على موافقة الجنرال باولي لاستخدام السُّفن الروسية المرافئَ الكورسيكانية، مقابل خدمات معينة! وبالمناسبة نشير إلى أنه كانت ثمة شيفرة سرِّية في الرسائل، في أثناء الحرب، تربط كلًّا من إ. غ. تشيرنيشوف وأ. غ. أورلوف والأميرال غ. أ. سبيريدوف والمركيز ماروتسي، بوصفهم مسؤولين عن مصير حملة الأرخبيل[140].

---

(137) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Ед. хр. 1878, Л. 29.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا مع تركيا، وحدة الحفظ 1878، الورقة 29].

(138) عن انتشار هذا النوع من الشيفرة في البلاط الروسي والبلاطات الأوروبية، يُنظر:
П. В. Стегний, *Хроники времен Екатерины II* (М., 2001), с. 422-436.

[ب. ف. ستيغني، حوليات أزمنة كاترينا الثانية (موسكو، 2001)، ص 422-436].

(139) Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, Стлб. 1318.

[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، العمود 1318].

(140) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 375.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 375].

في بداية عام 1768 وضعت كاترينا الثانية مع الكونت ألكسي أورلوف - المنظِّم الرئيس بعد الإمبراطورة لحملة الأرخبيل - أيضًا سيناريو سفر ألكسي غريغوريفيتش إلى إيطاليا، بُغية التمويه على الهدف الحقيقي من سفره. وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ ما. فلا يزال المؤرخون بأغلبيتهم - سيرًا على خطى س. م. سولوفيوف - يؤكِّدون أن سبب وجود ألكسي أورلوف في إيطاليا هو النقاهة بعد مرضٍ عضالٍ ألمَّ به، وأن شقيقه فيودور كان برفقته لحظة إعلان تركيا الحرب على روسيا. كان هذا التأكيد ملائمًا جدًّا. وثمة وثائق تؤكِّد هذا الاستنتاج: ففي المجموعة الخامسة من أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة، هناك التماسٌ صاعقٌ من ألكسي أورلوف، مؤرخ في آذار/ مارس 1768، يبدو ما ورد فيه صادقًا وغير قابلٍ للتشكيك فيه: «سيدتي الرحوم، بحسرةٍ بالغةٍ وألمٍ ماحقٍ في القلب، أجد نفسي مرغمًا على الطلب من جلالتكم الإمبراطورية تسريحي من الخدمتين العسكرية والمدنية، نظرًا إلى معاناتي الدائمة، كما تعرفون جلالتكم الإمبراطورية، من مرضٍ مزمنٍ قاسٍ، جعلني غير قادر على الاستمرار في خدمتي المتفانية لجلالتكم الإمبراطورية». ومع استمرار ألكسي أورلوف في التحسُّر، فقد توسل إلى جلالتها الإمبراطورية ألا تحرمه، حتى بعد تسريحه، من مكارمها «الأمومية»، التي هي أساس رخائه[141].



الكونت ألكسي أورلوف

لعل ألكسي أورلوف كان مريضًا بالفعل (أجرى حماماتٍ علاجيةً في طريقه إلى إيطاليا، وفي إيطاليا نفسها)، لكنْ يمكن التشكيك في طول مدة مرضه. فقد أقام في الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1767 حفلًا راقصًا

(141) *РГАДА*, Ф. 5, Оп. 1, Д. 84, Л. 17.
[أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة، المجموعة 5، القائمة 1، الملف 84، الورقة 17].

في موسكو على شرف الإمبراطورة، ظلت تمرح فيه حتى الثانية ليلًا. أما في الثالث والعشرين من شباط/ فبراير، فقد أمرت الإمبراطورة أورلوف - وكانت «تعلم» أمر مرضه جيِّدًا - من دون رحمة بتسديد المبالغ المستَحَقة «من التسعة آلاف روبل التي كان أخذها من صندوق فوج بري أوبريجينسكي للأشخاص الذين عددتهم»[142]. بدا الأمر كأن هذا لا يدلُّ على المرض المزمن الذي يدمِّر جسد أورلوف القوي. لكن، كان لا بدَّ للسيناريو من أن يُلعَب حتى النهاية، فاستجابت الإمبراطورة لطلب أورلوف بالكلمات الآتية: «الكونت ألكسي غريغوريفيتش. استجابة لطلبكم المُلِحِّ أعفيكم من كلِّ خدمة إلى حين شفائكم من مرضكم، مع السماح لكم بالعيش داخل الدولة وخارجها، حيثما ترونه ملائمًا، فلا يُشَكِّلن لكم أحدٌ عائقًا دون ذلك. أما بخصوص خدمتكم لنا، فالدولة كلها تعلم مدى الغيرة والإخلاص والمحبة التي تكنونها لنا وللوطن. هذا، ونمنحكم جوازًا للسفر من روسيا، كي لا تضطروا لإبراز هذه الرسالة في كل مكان». بُلِّغ الفوج بأمر تسريح أورلوف «مع راتب لمدة نعرفها»[143].

هكذا، سارعت كاترينا في ربيع عام 1768 إلى إرسال المشاركين الأساسيين في عملية البحر المتوسِّط إلى الأماكن المحددة. فتسلم ألكسي أورلوف جواز سفره مع التأكيد أن الإمبراطورة لم تنسَ الخدمات التي أداها لها وللوطن، لكنه بقي في بطرسبورغ حتى الصيف، على غرار إ. غ. تشيرنيشوف والمركيز ماروتسي. وفي الصيف دار نقاش بينه وبين ن. إ. بانين حول جدوى استخدام انتفاضة اليونانيِّين في العملية



الكونت نيكيتا بانين

(142) المرجع نفسه، المجموعة 1384، القائمة 1، الملف 1485، الورقة 1.

[فوج بري أوبريجينسكي: فوج الحرس الإمبراطوري الروسي، وهو واحد من أقدم أفواج الحرس النخبوية التي أنشأها بطرس الأكبر وأشهرها. وسمي بري أوبريجينسكي نسبة إلى الكاتدرائية التي كانت تحمل الاسم نفسه، وكان رجال الفوج يتلون الصلوات في باحتها قبل خروجهم إلى الحرب بقيادة القيصر]. (المترجم)

(143) المرجع نفسه، المجموعة 5، القائمة 1، الملف 84، الورقة 8.

المرتقبة في البحر المتوسِّط. وبالمناسبة، كان من المفترض آنذاك، بناء لأمر الإمبراطورة، أن تغادر السُّفن الحربية الروسية (سفينتان خطِّيتان[144] وفرقاطة وسفينتان شراعيتان صغيرتان)[145] أرخانغيلسك نحو المرافئ البلطيقية، وبكلام آخر، تشكيل عمارة بحرية صغيرة؛ إذ يبدو أنه جرت عملية تحشيد الأسطول في نقاط إبحار العمائر. وفي الصيف نفسه، استُدعي الضباط الرُّوس الذي كانوا في دورة تدريبية بمالطا.

في صيف عام 1768 نفسه، غادر مُنفِّذو مهمة كاترينا السرِّيَّة الثلاثة روسيا. وفي الحادي والعشرين من حزيران/يونيو أصدر نائب المستشار أ. م. غوليتسين بيانًا جوالًا وُزِّع على الممثلين الرُّوس في البلاطات الأجنبية، بحيث لم يترك، على ما نعتقد، أي شكوك في أن الرواية حول مرض ألكسي أورلوف حيكت للتستُّر على طابع مهمته الحقيقية السرِّي. فقد جاء في البيان أن الكونت أ. غ. أورلوف «يتوجّه إلى بلاد أجنبية ليُعالج صحته بمياهها المعدنية، بناءً لنصيحة الأطباء»، ويرافقه في سفره شقيقه فيودور غريغوريفيتش، ثم يلي ذلك تفسير في غاية الغرابة بأنهما «يسافران تحت اسمي السيدين أوستروفوف، لعدم إعطاء أيِّ حجة لملاحظات باطلة حول رحلتهما. ويرافقهما المقدم غيرسدورف والفارس السيد بوخغولد». وقد طُلب إلى البعثات الدبلوماسية الروسية الإعلام عن طرق سير الأشخاص المعنيين «لكي نعرف وجهتهم دائمًا، فنبعث إليهم بالرسائل»[146]. توافر،

---

(144) **السفينة الخطية** (Ship of the line): نوع من السُّفن الحربية الشراعية ثلاثية الصواري، التي بنيت في القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر. وهي سفينة كبيرة ضاربة، يتراوح وزنها بين 500 و5500 طن، تحمل ما بين 30 و135 مدفعًا، ويراوح عدد أفراد طاقمها بين 300 و800 رجل. وهي مصممة بحيث تضطلع بدورٍ قتاليٍّ في التكتيك البحري المعروف باسم **خط المعركة**، حين تكون السُّفن الحربية مصطفة على شكل خطٍّ لمواجهة السُّفن المعادية. (المترجم)

(145) *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Д. 7232, Л. 71.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 2/ 6، شؤون الهيئات الداخلية، الملف 7232، الورقة 71].

(146) К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского (Из бумаг вице-канцлера кн. А. М. Голицына), in: *Русский архив*, 1876, no. 7, c. 270 (Циркуляр вице-канцлера кн. Голицына к нашим представителям при иностранных дворах. Петергоф, 21 июня 1768 г.).

إذًا، قناع من السرية وحاشية عسكرية (سيحضر غيرسدورف إلى الجبل الأسود بعد بضعة أشهر مكلفًا بمهمات خاصة) وتواصل بريدي دائم مع بطرسبورغ، وإضافة إلى ذلك شراء كمية من الأسلحة النارية، على ما يفيد ف. أ. بلوغين استنادًا إلى معرفته بـ «تقويم مجتمع الرُّماة (الزمني) المتميِّز في كارلسباد»[147]. كلُّ ذلك يثبت بصورة دامغة أن ألكسي أورلوف، المُعفى من كلِّ خدمة، كان ينفِّذ مهمة حكومية سرِّية.


الأمير ديمتري غوليتسين

توجه ألكسي أورلوف إلى إيطاليا من سان بطرسبورغ، بعد نقاشات حادة مع ن. إ. بالين في صدد خطة استخدام اليونانيِّين والسلافيين كحلفاء في الحرب المرتقبة مع الأتراك. فقد أعرب نيكيتا إيفانوفيتش عن شكوكه في أن يكون من الممكن تحويل الثوار اليونانيِّين إلى قوة قابلة للتوجيه، وقد يكون رأى أنه من غير الإنساني استخدام معتقدات إخوة الدين الدينية أداةً في خطط روسيا العسكرية – السياسية. على أن الإخوة أورلوف – الذين سيطرت عليهم الأوهام بشأن حجم الحركة الثورية المتوقعة في البلقان ودرجة موالاة الأرثوذكس لروسيا – لم يعوِّلوا على نجاحات عسكرية – سياسية قد تنجم عن تعاون روسيا مع شعوب «الدين اليوناني» فحسب، بل وضعوا الخطط لتحريرها من النير العثماني أيضًا. ويمكن سماع أصداء هذه النقاشات في رسالة ن. إ. بانين الآنفة الذكر إلى أ. غ. أورلوف (ربيع عام 1770)، وكذلك في رسالة ألكسي

= [سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي (من أوراق نائب المستشار الأمير أ. م. غوليتسين)، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، العدد 7، ص 270 (بيان نائب المستشار الأمير أ. م. غوليتسين إلى ممثلينا لدى البلاطات الأجنبية. بيتيرغوف، 21 حزيران/ يونيو 1768)].

(147) Плугин, с. 175.

[بلوغين، ص 175]. بلوغين واحد من المؤرخين الذين افترضوا أن مرض أ. غ. أورلوف كان «بدرجة معينة سمة سياسية».

الأولى إلى شقيقه غيورغي والإمبراطورة التي أرسلها من إيطاليا ووصلت إلينا على لسان ي. ف. دولغاروكوف جزئيًّا.

في الطريق إلى إيطاليا، زار الشقيقان أورلوف ومرافقاهما (ربما مراعاة لضرورات السرِّية) دانتسيغ[148] ودرسدن[149] وكارلسباد، حيث أمضوا بضعة أسابيع في نهاية آب/ أغسطس - بداية أيلول/ سبتمبر، ثم وصلوا إلى فيينا حيث استقبلهم الوزير المفوض لدى البلاط النمساوي د. م. غوليتسين بناءً لتوجيه نائب المستشار أ. م. غوليتسين؛ فقُدِّمت إليهم كلُّ الخدمات الضرورية بوصفهم أشخاصًا في الخدمة الرسمية.

أرسل د. م. غوليتسين تقريرًا إلى بطرسبورغ قال فيه إنه «مفتون بالتعرُّف» إلى الشقيقين، وإنه قدمهما إلى المجتمع الراقي في فيينا (ينبغي الافتراض أن اسميهما الحقيقيين وموقعيهما في البلاط الروسي قد كشفت آنئذٍ) وزودهما بالرسائل إلى «الأصدقاء» في إيطاليا، التي «سارعا»، بحسب تقرير د. م. غوليتسين، بالتوجُّه إليها، نظرًا إلى وصول نبأ قطع العلاقات مع الباب العالي. وعلى الرغم من كل هذه السرعة، أقام الشقيقان أورلوف في فيينا ما لا يقلُّ عن أسبوعين، في نهاية أيلول/ سبتمبر - بداية تشرين الأول/ أكتوبر 1768. ويبدو أنه كان عليهما الاطِّلاع جيدًا على المعلومات التي كانت في حوزة السفارة في

---

(148) كتبت ي. ر. داشكوفا أنها عاشت في دانتسيغ في «الفندق الأفضل» حيث عاش فيه الكونت ألكسي أورلوف، «الذي غضب غضبًا شديدًا» بسبب لوحات عُلِّقت على جدرانه «تصور المعارك التي خسرتها القوات الروسية»: Е. Р. Дашкова, «Записки,» in: *Письма сестер М. и К. Вильмот из России* (М., 1987), с. 94.

[ي. ر. داشكوفا، «مذكرات»، في: **رسائل الشقيقتين م. وك. فيلموت من روسيا** (موسكو، 1987)، ص 94].

(149) كتب إ. ف. بوغدانوفيتش عن زيارة الأخوين أورلوف إلى درسدن يقول: «وصل الكونت ألكسي غريغوريفيتش والكونت فيودور غريغوريفيتش أورلوف في نهاية عام 1768، وقررا الذهاب إلى المياه (المعدنية). وسنحت له [لبوغدانوفيتش] هنا فرصة التعرف جيدًا إلى الكونت فيودور غريغوريفيتش»: И. Ф. Богданович, «Автобиография,» in: *Отечественные записки*, 1853, t. 87, Кн. 4, Отд. VII, с. 185.

[إ. ف. بوغدانوفيتش، «سيرة ذاتية»، في: **مدونات وطنية** (1853)، مج 87، الكتاب الرابع، القسم السابع، ص 185]. وصل أورلوف إلى درسدن في نهاية العام 1768.

فيينا عن الإمبراطورية العثمانية والبلقان وإيطاليا، لأنه كان لدى د. م. غوليتسين علاقات واسعة وشبكة عملاء في المنطقة التي توجه إليها ألكسي وفيودور أورلوف، بحكم خدمته الطويلة هناك. فمنذ بداية الحرب أقام عضو البعثة الروسية في القسطنطينية س. ل. لاشكاريف علاقاتٍ سرِّية مع د. م. غوليتسين، ومع ألكسي أورلوف لاحقًا. وجدير بالذكر أن لاشكاريف كان الوحيد الذي بقي حرًّا بعد احتجاز كل البعثة الروسية في قصر أوبريسكوف ذي الأبراج السبعة[150]. وكانت العلاقات مع الدول الإيطالية والجبل الأسود أيضًا تمرُّ عبر وزير روسيا المفوض لدى البلاط النمساوي، قبل مجيء المركيز ماروتسي إلى إيطاليا.

في الاستشارات مع الأطباء النمساويين وُصِفت مدينة بيزا - الواقعة على مقربة من مرفأ ليفورنو التوسكاني المفتوح، الذي اعتادت السُّفن الروسية الرّسو فيه - مكانًا لـ «معالجة صحة» ألكسي غريغوريفيتش[151]. ويكاد يكون من المصادفات وجود ف. س. بليشييف - قبطان فرقاطة ناديجدا بلاغوبولوتشيا السابق، التي انضمت إلى عمارة غ. أ. سبيريدوف في ما بعد - في ليفورنو حينذاك، أي في نهاية عام 1768. وربما يكون بليشييف عمل على إحياء العلاقات التي أقامها في عام 1765، لكن من أجل ألكسي أورلوف هذه المرة. وبعد تنفيذ بعض المهمات، توجه بليشييف إلى ليفورنو برفقة بحار يوناني جُنِّد للخدمة لدى روسيا[152].

كانت طريق ألكسي أورلوف إلى بيزا تمر عبر البندقية، التي استغرق وصول الأخوين أورلوف إليها مع رفيقيهما قرابة الشهر، حيث وصلوها في

---

(150) [Б. авт.], Лашкарев С. Л. Дипломат Екатерининского времени (Из современных подлинных бумаг), in: *Русский архив*, 1884, Кн. 2, с. 5-32.

[[من دون مؤلف]، لاشكاريف س. ل. دبلوماسي من عصر كاترينا (من الأوراق الأصلية المعاصرة)، في: **الأرشيف الروسي**، 1884، الكتاب الثاني، ص 5-32].

(151) К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, с. 271.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 271].

(152) Материалы для истории русского флота. Ч. XI, с. 359.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 359].

الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر[153]. غير أن البندقية لم تصبح مركزًا لنشاط ألكسي أورلوف، لأن حكومتها تعاملت بحساسية بالغة مع النشاط الروسي في المنطقة[154]. على أن الشهر الذي استغرقته الطريق إلى البندقية لم يذهب هباء؛ إذ تمكن ألكسي أورلوف من تكوين انطباعه الأول عن أمزجة سكان البلقان الأرثوذكس وموقفهم من الحرب الناشبة. فاجتذب المناصرين من إخوة الدين؛ وتمكن على ما يبدو من توطيد العلاقات مع شبكة عملاء روسيا المحليين.

ثمة أسس للافتراض أن ألكسي أورلوف أقام في طريقه إلى إيطاليا علاقاتٍ مع الجاليات اليونانية في أوروبا. ونحن نعرف من مدونات راديشيف في لايبزيغ أن الطلاب الرُّوس الذين كانوا يتلقون علومهم في ألمانيا، التقوا الأخوين أورلوف بلايبزيغ في عام 1768 (ولم يكن لهذا اللقاء أن يحصل إلا في أثناء سفر الأخوين أورلوف إلى إيطاليا). في غضون ذلك، كانت توجد في لايبزيغ جالية يونانية، ومن خلالها وصلت شائعات إلى الصحافة الأوروبية في أثناء الانتفاضة اليونانية، تضخِّم انتصارات أعمال الأسطول الروسي والثوار اليونانيِّين المشتركة ونجاحاتهم. فكما هو معروف، تحولت حملة الأرخبيل وأعمال روسيا القتالية في البحر المتوسِّط إلى مادةٍ لما يشبه الحرب الصحافية، كان يمكن من خلالها الحصول من الصُّحف على أنباء خرافية عن الانتصارات الروسية، وعلى معلومات عن الهزائم لا تقلُّ عنها غرابة. وإذ توقع ألكسي أورلوف أمرًا من هذا النوع، فلعله أعد على نحوٍ مسبق صلاتٍ إعلاميةً ملائمةً لروسيا. وليس من المستبعد أن يكون الأخوان أورلوف قد أيقظا لدى الطلاب الرُّوس الاهتمام بالمسألة اليونانية، فقام راديشيف في عام 1771، تحت تأثير التعاطف مع معاناة إخوة الدين، الرازحين تحت النير العثماني، بترجمة «نداء

---

(153) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 35, Л. 12 об.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقية، الملف 35، ظهر الورقة 12].

(154) لمزيد من التفصيل عن هذا الأمر، يُنظر الفصل السادس. يعرب ف. أ. بلوغين عن رأي مغاير، مع العلم أنه يُماثل رأي ريولير: Плугин, с. 181.
[بلوغين، ص 181].

الشعب اليوناني إلى المسيحيِّين الأوروبيِّين» إلى اللغة الروسية (سيأتي الحديث عن هذا الأمر فيما بعد).

من قبيل الحيطة، لم يزُر ألكسي غريغوريفيتش مبعوث شقيقه غريغوري في تريستي، أي غريغوري بابازولي، فكتب ملاحظًا: «ستكون زيارتي إلى هناك مبعثَ ارتياب... وأما مجيئُه إلى هنا فينطوي على خطر، بسبب بعض الشكوك التي تحوم حوله...»[155]. وبالتالي، لم تكن شبكة العملاء الروسية موجودة فحسب، بل صارت تجذب انتباه السلطات أيضًا. وبعد بضعة أشهر، سيشكو ألكسي أورلوف نفسه لشقيقه غريغوري أنه سئم من الجواسيس؛ إذ كان مضطرًّا إلى تغيير مكان إقامته، بحيث لم يكن يدري أحيانًا إلى أين يلجأ[156].

استقى ألكسي أورلوف المعلومات عن وضع الأرثوذكس في البلقان من مصادر مختلفة، وجذب إليه الأنصار بطرائق شتى. وصور ريولير أسلوب تعامل ألكسي أورلوف مع السكان الأرثوذكس في جمهورية البندقية، بصورة أحادية جدًا، إذا اعتاد الأخوان - على حدِّ قوله - بعد زيارة الكنيسة الأرثوذكسية على الخروج إلى فنائها وتوزيع حفنات من النقود على المؤمنين والتحدُّث معهم. أما السكان المحليون، المندهشون من ثراء المبعوثيْن الروسيَّيْن وسخائهما، فكانوا يعربون في المقابل عن رغبتهم في تقديم الخدمات إليهما. وبالطبع، عمل الأخوان أورلوف ورفيقاهما على جمع المعلومات التي تهمُّهم من مُخبِري المصادفة، ولا سيما في أثناء زيارات الأماكن الحاشدة. ومن البدهيِّ أنهما كانا يتحدثان بثقة إلى رجال الدين الأرثوذكس. كانا يكوِّنان التصوُّرات الأساسية، استنادًا إلى المعلومات التي يتلقيانها من العملاء الرُّوس، وبفضل المعلومات التي كانا يحصلان عليها من المركيز ماروتسي ورجاله الموثوقين[157].

---

(155) **[Л. Н. Майков] Первая мысль о Морейской экспедиции гр. А. Г. Орлова, с. 143.**
[[ل. ن. مايكوف]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية، ص 143].

(156) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 364.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 364].

(157) في السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1768، أخبر المركيز ماروتسي ن. إ. بانين أنه نفذ واجباته الوظيفية أمام أ. غ. أورلوف: *АВПРИ*, **Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 35, Л. 12об.**

كان سهلًا على الأخوين أورلوف، بوصفهما من عِلْيَة القوم، إقامة العلاقات مع أشخاص على شاكلتهما والتعامل معهم. فهنا، كما في كل أوروبا، كانت توجد أقنية اتصال خاصة وأعراف وقواعد سلوك. وسرعان ما وجد ألكسي أورلوف نفسه وسط الأرستقراطية السلافية واليونانية شريكة الدين الواحد، كالكونت فوينيفيتشي والكونت ج. موتشينيغو (موتسينيغو) والكونت أ. جيكا (غيكا، بحسب التقليد الرُّوسي) وغيرهم. كان بعضهم من رعايا جمهورية البندقية، وبقي العديد منهم في الخدمة الروسية بصورة دائمة. هذا، وقد جرت عملية تجنيد المشاركين في الأعمال القتالية والانتفاضة، في ما بعد، عبر البيوتات الثرية المحلية ذات النفوذ في أوساط سكان الأرياف، وكذلك عبر رجال الأعمال في المدن، أصحاب السُّفن التجار والقباطنة (عائلات ألكسيانو، وبوليكوتي، وبسارو، وريزو، وغيرها).

بعد السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، وقبل سفره إلى بيزا، أرسل ألكسي غريغوريفيتش إلى سان بطرسبورغ الرسالة الآنفة الذكر، التي وصلنا منها بعض الأجزاء فقط؛ وقد عرض فيها معلومات عن أمزجة السكان الأرثوذكس في ما يتعلق بالحرب الناشبة، واقترح خطط الأعمال في المدى القريب. ولا تترك هذه الرسالة مجالًا للشكِّ في شأن أهداف رحلة الأخوين أورلوف إلى إيطاليا.

قبل كل شيء، «يُخبر» أورلوف كاترينا وشقيقه غريغوري أنه «وجد هنا إخوة دين، يرغبون في أن يكونوا تحت قيادتنا، وأن يخدموا في الحالة الراهنة ضد الأتراك»، وأن الجبل الأسود «بحسب ما تفيد الإشاعات» يمتشق السلاح، فيما تَرِدُ أنباءٌ عن استعداد الكثيرين من المسيحيين للقتال ضد الأتراك، مع الإشارة إلى أنه لا يوجد بينهم توافق؛ إذ تسودهم الفرقة والتشرذم ضمن أحزاب مختلفة. انطلاقًا من هذه المعلومات، استنتج ألكسي أورلوف أن الظروف الملائمة تكونت لإشعال نارٍ قويةٍ داخل الإمبراطورية العثمانية، من

---

= [أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 41/ 3، علاقة روسيا بالبندقية، الملف 35، ظهر الورقة 12].

شأنها منع الأتراك من نقل المواد الغذائية إلى العاصمة وتشتيت جهود الجيش على جبهتين(158).

يتبين من نبرة رسالة ألكسي غريغوريفيتش أنه وجد نفسه في بيئة تتعطش إلى الاستفادة من الحرب ومن الدعم الروسي، لتحرير الأرثوذكس الرازحين تحت النير التركي. ففي هذه البيئة، لا يزال الجميع يتذكرون النضال المشترك ضد الأتراك في سنوات حكم بطرس الأكبر، ويحتفظون بالشهادات التي تتضمن رسائل القيصر إلى أهل الجبل الأسود. وغدت حماسة محيط ألكسي غريغوريفيتش بالنسبة إليه مصدرًا للنشوة: بدا له أن ليس من الصعب استنهاض الشعب للنضال، وصدق أن الجميع يحبُّونه ويحبُّون المحيطين به لأنهم إخوةٌ في الدين، ومستعدُّون للخضوع له؛ «الكل يرغب في أن أكون آمرًا لهم» (إنه «لحجر في حديقة» ن. إ. بانين، الذي شكك في قابلية اليونانيِّين للتوجيه). وعززت حماسة المحيطين بألكسي أورلوف عزيمته على النضال من أجل تحرير الأرثوذكس(159).

غير أن أ. غ. أورلوف لم يكتفِ بعد وصوله إلى إيطاليا باستيضاح أمزجة سكان البلقان الأرثوذكس، حيث كتب ف. أ. بلوغين، عن حق، أن المقدم أوستروفوف سافر «بغرض العلاج» «خلف البحار» أي بهدف ما، «... بغية

---

(158) [Л. Н. Майков] Первая мысль о Морейской экспедиции гр. А. Г. Орлова, с. 143.
[[ل. ن. مايكوف]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية، ص 143].

(159) لنتذكر كلماته في رسالته إلى شقيقه: «... إذا أردنا الذهاب، فلنذهب إلى القسطنطينية لنحرر كل الأرثوذكس والأتقياء من هذا النير...». وكما ذكرنا آنفًا، كانت هذه الفكرة قريبة من آل أورلوف. وليس من قبيل المصادفة أن يكون شقيقه غريغوري قد تقدم في الوقت نفسه تقريبًا (في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر) أمام المجلس لدى البلاط السامي باقتراح إنشاء صندوق لتحرير الأرثوذكس؛ «عن مؤسسة لتحرير شعوب الدين اليوناني، واستخدام رأس المال المرصود لتحقيق ذلك». كان غ. غ. أورلوف يقصد إرسال رأس المال هذا مع أشخاص موثوقين إلى البلقان، للتحضير، كما يبدو، للانتفاضة ضد الأتراك. واعتقد أنه إذا نجحت الانتفاضة سيكون بالإمكان وضع الشعوب الأرثوذكسية «تحت حماية روسيا»، مع إبقائها تحت سلطة حكامها المحليين المنتخبين بإرادة السكان («تنصيب حكام مختلفين، مع ترك حرية الخيار لهم»): *Архив Государственного Совета (АГС), t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II (1768-1796)* (СПб., 1869), c. 357.
[**أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية** (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 357].

تدقيق هذه الخطة الجريئة، المُغرِية وغير المعتادة على الأرض، والعمل على تحقيقها»، خطة القيام بعمل تخريبي[160]. لذا، ورد في رسالة ألكسي غريغوريفيتش خبرٌ عن أن إخوة الدين مستعدون لتنفيذ كل «ما يأمر به» (بمعنى آخر، تناول الحديث مسألة الخضوع).

لا يرد أيُّ ذكر لضرورة إرسال الأسطول إلى البحر المتوسِّط في المقطع الواسع نسبيًّا الذي وصلنا من رسالة ألكسي أورلوف، لكن ي. ف. دولغوروكوف تحدث عن طلب ألكسي غريغوريفيتش إرسال عمارة بحرية إلى حوض المتوسِّط، في معرض نقله محتوى الرسالة كاملًا.

مع ذلك، لم يكن ألكسي أورلوف قد تلقى أي تكليف، لكأنه كان يعمل على مسؤوليته الشخصية. فقد سافر من بطرسبورغ حين لم يكن الوضع بلغ نقطته الحرجة، كما لم تكن لديه أوامر من الإمبراطورة إذا ما وقعت الحرب. وهو لم يكتف بترشيح نفسه قائدًا لمجمل مشروع البحر المتوسِّط («سأكون في قمة السعادة لو صدرت إلي الأوامر للقيام بهذا العمل»)، بل وعرض برنامجًا للتدابير العاجلة: إرسال مدفعيِّين ومهندسين (تحسُّبًا لحالات حصار القلاع) و«مدافع» ميدانية مع قذائف؛ وفي الوقت نفسه القيام بالتحضير السياسيِّ للانتفاضة بإرسال رسائل «لطيفة»، على غرار ما فعل بطرس الأكبر (أرسل نسخة عن رسالة بطرس إلى بطرسبورغ). وأشار أورلوف إلى أن الرسائل ينبغي أن تتضمن الوعد بعدم ترك إخوة الدين لمصيرهم بعد إبرام الصلح، لأنه لا تزال الذكريات بأننا «عقدنا الصلح فيما كانوا هم لا يزالون يقاتلون» حية في أذهانهم.

في هذا الصدد، يُبدي ألكسي غريغوريفيتش ملاحظةً عميقةً عن دور الذاكرة التاريخية في مجتمع الثقافة التقليدية: «وبما أن كل الأمور تدخل في ذاكرة هؤلاء الناس من خلال التقاليد، فهي في بعض الحالات تتضخم وتتعاظم، ما يبعث فيهم الحماسة أكثر»[161].

---

(160) Плугин, с. 178.

[بلوغين، ص 178].

[المقصود توجيه ضربة غير متوقعة للعدو في المكان الأكثر حساسية، بحسب تعبير كاترينا نفسها]. (المترجم)

(161) [Л. Н. Майков] Первая мысль о Морейской экспедиции гр. А. Г. Орлова, с. 143-144. =

لا شكَّ في أن كاترينا كانت تسعى بدورها لعدم إهمال الوضع في البلقان، في موازاة الأعمال التي كان يقوم بها الإخوة أورلوف. فمن دون انتظار «إعلام» من ألكسي أورلوف عن الوضع في المنطقة، أرسلت مبعوثيها إلى هناك في كانون الأول/ ديسمبر 1768 للتحريض على انتفاضة الشعوب الخاضعة للأتراك. فسافر اثنان من أبناء الجبل الأسود يخدمان في الجيش الروسي، هما العقيد في قوات الخيالة ي. م. إيزديميروفيتش والملازم يفيم بيليتش، إلى الجبل الأسود. اختارت الإمبراطورة الأول «لرتبته وعمره، ولأنه أظهر جدارته من قبل، حين أسهم في نقل عدة مئات من أبناء الشعوب المختلفة للعيش في نوفوروسيا»[162]. أما يفيم بيليتش فقد جاء إلى بطرسبورغ مبعوثًا من ستيبان مالي «لطلب المساعدة، نظرًا لحملة الأتراك المدمِّرة ضد الجبل الأسود»[163]. وكُلِّف (الآن) بلقاء منتحل الصفة ستيبان مالي، لأنه تقرر استخدام نفوذه في أوساط أبناء الجبل الأسود «سلاحًا في خدمة قضيتنا»، خلافًا للأوامر الأولى القاضية بفضحه وتصفيته، شرط تخلِّيه عن انتحال اسم بطرس الثالث. وتوجه العملاء أيضًا إلى ألبانيا وإمارات الدانوب. بيد أن الحرب التي نشبت بصورة مفاجئة شوّشت الخطط وأوجبت الجمع بين عملية جسِّ الأمزجة والتحقُّق على الأرض من إمكانية تنفيذ الخطط الموكلة إلى ألكسي أورلوف، وتحضير الانتفاضة النشيط الذي كلِّف به مبعوثو كاترينا، وهو ما لم يكن بالطبع منسقًا مع ألكسي غريغوريفيتش قبل سفره. فشلت مهمة إيزديميروفيتش وبيليتش، ولم يعرف أ. غ. أورلوف بِمَا يكلِّف إيزديميروفيتش الذي وصل إلى البندقية في شباط/ فبراير 1769.

استمرت الإمبراطورة في اختيار الناس من داخل روسيا أيضًا لتنفيذ العملية في البحر المتوسِّط في داخل روسيا. ففي شباط/ فبراير 1769، نُقل إلى سلاح المدفعية البحرية إيفان غانيبال (شقيق أوسيب أبراموفيتش غانيبال، جد

= [[ل. ن. مايكوف]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية، ص 143-144].

(162) Соловьев, Кн. XIV, с. 298.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 298].

(163) Лещиловская, с. 82.

[ليشيلوفسكايا، ص 82].

ألكسندر بوشكين)، وفي 20 آذار/ مارس عُيِّن غ. أ. سبيريدوف رسميًا قائدًا للعمارة البحرية.

احتاجت الحملة إلى رجال دين أيضًا، فضلًا عن العسكريين. فكاد الانعطاف الذي حصل في قضية الأسقف أناطولي ميليس، أن يكون من قبيل المصادفة. وتبينت في عام 1767 صلاحية رجل الدين المغضوب عليه هذا لخدمة الإمبراطورة، وهو الذي نزع منه السينودوس أسقفيته ورتبته الكهنوتية، وحكم عليه بالمنفى في توبولسك، ثم في نيجني نوفغورود، معتبرًا «كل أفعاله ماكرة ومتخاذلة»[164]. فكان أنْ أُرسِلَ مع حملة الأرخبيل («ليؤدِّي الطقوس الدينية على متن السُّفن في الحرب ضد الأتراك»)[165]، كما أُلحِقَ بالأسطول في معركة شيسما «لما فيه المصلحة العامة»، فأُعيدت إليه أسقفيته في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1770 لقاء ذلك[166].

عندما عاد الأسقف أناطولي ميليس إلى روسيا، ذاع صيته بسبب الخطاب الذي ألقاه أمام كاترينا الثانية، حيث جاء: «كنت قابعًا في الظلمة، وفجأة غمرني نور عظيم. وصار السجين شاهدًا على عجائبك في مياه كثيرة. رأيت

(164) أناطولي (ميليس) (توفي في عام 1775)، يعود أصله إلى فولوشيا، لكنه ولد في زولوتونوشيا بروسيا. درس في أكاديمية كييفو - موغوليان، وعاش في آثوس ورُسم أسقفًا على يدي بطريرك القسطنطينية. كانت لديه في روسيا نزاعات دائمة مع السينودوس نشأت في أثناء زياراته من أجل جمع التبرعات لدير بافلو - غيورغييف في آثوس، وبنتيجتها نُفِيَ إلى توبولسك في عام 1759 بصفة راهب عادي. ونقل في عام 1762 إلى دير ماكاريف في نيجني نوفغورود بأمر من كاترينا. يُنظر:
Н. И. Григорович, Анатолий Мелес, епископ. Исторический очерк по новооткрытым бумагам, in: *Русский архив*, 1870, nos. 4-5 (8), Стлб. 689-743.

[ن. إ. غريغوريفيتش، أناطولي ميليس، الأسقف. عرض تاريخي في أوراق مكتشفة حديثًا، في: **الأرشيف الروسي**، 1870، العددان 4-5 (8)، العمود 689-743].

(165) Г. И. Добрынин, *Истинное повествование, или Жизнь Гавриилы Добрынина (прожившего 72 года 2 месяца и 20 дней), им самим писанная в Могилеве и в Витебске. В 3-х ч.*, изд. 2 и предисл. М. И. Семевского (СПб., 1872), с. 114.

[غ. إ. دوبرينين، **القصة الحقيقية، أو حياة غافريل دوبرينين (الذي عاش 72 عامًا وشهرين و20 يومًا)، كتبها بنفسه في موغيليف وفيتيبسك في ثلاثة أجزاء**، ط 2 مع مقدمة بقلم م. إ. سيميفسكي (سان بطرسبورغ، 1872)، ص 114.

(166) يُنظر ما جاء عنه أيضًا في الفصل الخامس.

سُفُنَكِ منتشرة بين جزر الأرخبيل، وهي أشبه بجزرٍ متأرجحة، وآلاف الحناجر النحاسية تصدح معلنة جبروتك للبحر وللأتراك. وقفت على متنها كاهنًا بين الأبطال، وباسم جلالتك باركت بحارتك ليخوضوا الانتصارات. صغير أنا بين إخواني في الكنيسة، غنيت لك عند الشواطئ البعيدة، حيث تردد اسمك كرعدٍ، وفي معبد قلبي لن أكف عن الغناء ما دمت حيًّا»[167].

بيد أن الإمبراطورة لن تسمع كلمات الأسقف الشكور هذه إلا في خريف عام 1772. أما في الأشهر الأولى من عام 1769، فقد كانت تجري التحضيرات لإبحار الأسطول - الذي قُرِّر على ما يبدو في شهر نيسان/ أبريل - على قدم وساق، فلم تُصَفح السُّفن بصفائح إضافية مع الصوف - منعًا لتسرُّب الماء - وتزود بالمؤن لأشهر عديدة فحسب، بل أُعِدت وثائقها الإدارية أيضًا[168]، علمًا أن خط سيرها كان محاطًا بسرِّية تامة.

عند بداية الحرب الروسية - التركية خلال الفترة الواقعة بين عامي 1768 و1774، كانت الأدوار قد وُزِّعت، وانخرط الممثِّلون السياسيون في اللعبة: لقد نجحت الإمبراطورة كاترينا في توزيع اللاعبين على المسرح السياسي ليؤدُّوا المسرحية العسكرية - السياسية التي دبرتها.

هكذا، تسمح المادة التي تناولناها في هذا الفصل باستنتاج ما يأتي: باشرت كاترينا الثانية عند جلوسها على العرش بتنفيذ خطة فتح «النافذة الجنوبية» على أوروبا، الأمر الذي عجز بطرس الأكبر عن تحقيقه. لكنها خلافًا لسلفها العظيم قررت تحقيق هذا المشروع من خلال العمليات الحربية، التي لم تجرِ انطلاقًا من الأراضي الروسية فحسب، واعتمادًا على التعاون مع السكان الأرثوذكس ولا سيَّما في البلقان، بل و«من الخارج» أيضًا، من حوض البحر المتوسِّط، بمساعدة إخوة الدين من اليونانيِّين والألبان وسلافيي شواطئ

(167) بعد هذا الخطاب، سُمح للمَنفي السابق أناطولي ميليس بتولِّي رئاسة دير غلوخوفسكو بتروبافلوفسكي (المرجع نفسه، ص 115).

(168) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 360-361.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 360-361].

البحر الأدرياتيكي. إلا أن هذه العمليات ما كان يمكن أن تحصل إلا باستخدام الأسطول. وبدأت الإمبراطورة ومساعدوها الأقربون العمل، على نحوٍ متدرِّج وسرِّي، على إعداد المخططات وتحقيق المشروعات المؤدِّية إلى تنفيذها؛ فلم تَصُغْ أهداف هذه العمليات الاستراتيجية والتكتيكية وتعلنها على الملأ إلا مع بداية الحرب.

## الفصل الثاني

# استراتيجية الحرب: ترسيخ الحضور الروسي في حوض المتوسط «ضربة التفافية في المكان الأكثر حساسية»، أو تحرير المضطهدين

**إ. م. سميليانسكايا**

اعتزم الروس (...) عبور المحيط واجتياز مضيق جبل طارق والاستيلاء على مورية وجزر الأرخبيل أو اجتياحها. لقد ظنُّوا أن التشابه في الدين سيجذب إليهم حلفاء كثرًا من اليونانيين، وأنهم سيتمكنون من توجيه ضربات قاتلة للدولة العثمانية، بمساعدة هؤلاء الرعايا المتمردين (رعايا الإمبراطورية العثمانية من المسيحيين [المؤلفة]).

**حرب الأتراك مع الروس خلال فترة 1769-1774.**
**يوسف أفندي (مؤرخ تركي)**

### تحديد أهداف الحرب واتخاذ القرار بخصوص حملة الأرخبيل

على الرغم من أن سيناريو التغلغل الروسي في حوض البحر الأبيض المتوسط كان مُعَدًّا سلفًا، كما زُعم، وأن الأدوار الرئيسة كانت موزعة، فإن انطلاق الأعمال الحربية المفاجئ جعل كاترينا الثانية تحثُّ الخُطى في تجسيد مخططاتها. (تحدث ن. إ. بانين في مطلع عام 1768 عن أنه من المبكر

بالنسبة إلى روسيا الشروع في الحرب؛ أما كاترينا الثانية فقد كتبت في 6-17 تشرين الأول/أكتوبر إلى إ. غ. تشيرنيشوف في لندن، بشيء من الارتياح، قبل وصول نبأ إعلان الحرب ضد روسيا إلى بطرسبورغ: «يبدو أن الأتراك لا يعتزمون إقلاق راحتنا هذه السنة، وربما لن يفعلوا في المستقبل أيضًا»[1].

مع اندلاع الحرب، تحدد أيضًا هدف حملة الأرخبيل العسكري، المتمثل في توجيه «ضربة التفافية» إلى الإمبراطورية العثمانية «في المكان الأكثر حساسية»؛ وهو قرار اتخذته الإمبراطورة بدعمٍ من مجلس البلاط السامي.

من المعروف أن مجلس البلاط السامي أُنشِئَ إنفاذًا لأمر كاترينا الصادر بعد الانقلاب في 3-14 تشرين الثاني/نوفمبر 1768، وتشكل من دائرة ضيقة جدًّا من كبار الوجهاء المحيطين بها، أي إثْرَ تلقيها نبأ احتجاز البعثة الدبلوماسية الروسية برئاسة أ. م. أوبريسكوف في قصر الأبراج السبعة بالعاصمة التركية، وقطع العلاقات مع الباب العالي. ذلك أن هذا الحادث المؤسف وقع في الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر - السادس من تشرين الأول/أكتوبر 1768، وكان بمثابة إعلان حرب. وصل الخبر إلى بطرسبورغ في الأيام الأخيرة من شهر تشرين الأول/أكتوبر، فاطلعت كاترينا عليه في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، عند عودتها من تسارسكوي سيلو، بعد شفائها من مرض الجدري. وفي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، عُقدت جلسة المجلس الأولى، واتُّخذت خلالها قراراتٌ تمحورت حول المسائل العسكرية - السياسية الجذرية الآتية: ما هو الطابع الذي يجب أن تكتسبه الحرب (أهي دفاعية أم هجومية)، كيف تُوزع القوات المسلحة وأين تحشد، ما هي إجراءات الحيطة الرامية إلى إبعاد الحرب عن حدود الإمبراطورية، من أين تؤمن الموارد لتمويل الحرب؟

أجمع المجلس على قرار يقضي بأن تكون الحرب هجومية. وسأل غ. غ. أورلوف في هذا الصدد عن الهدف من خوض الحرب، الذي إذا

---

(1) Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, in: *Русский архив*, 1871, no. 9, Стлб. 1318.

[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، في: **الأرشيف الروسي**، 1871، العدد 9، العمود 1318].

غاب فمن الأفضل ألا تُخاض أساسًا («ما هي غاية الحرب النهائية، وإلا فمن الأفضل البحث عن وسيلة لتجنُّبها»). رد ن. إ. بانين متحدثًا عن الرغبة في أن تكون الحرب قصيرة الأمد، فاعترض غريغوري أورلوف قائلًا إنه من المستحيل تحقيق النجاح الحاسم بسرعة. وتابع نيكيتا بانين عرض فكرته في البحث عن سبل تحقيق السلام: «ينبغي العمل على استنزاف قوات العدو، ومن ثَم إرغامها على الجنوح إلى السلام والعمل من أجله في 'العاصمة' [اسطنبول]، تمامًا كما سعت إلى الحرب من قبل». وباختصار، لم يكن بانين ميالًا إلى حل مسائل الحرب الواسعة النطاق، وهو الدبلوماسي نصير «النظام الشمالي». واقترح غ. غ. أورلوف في نهاية الجلسة إرسال حملة إلى الأرخبيل، بوصفها واحدة من المهمات المُلِحة. بيد أن المسألة أُجِّلَت، لأن بانين عارض اقتراح أورلوف الذي صاغ فكرته على نحو متواضع جدًّا: «إرسال بضع سفن إلى البحر الأبيض المتوسط تجول فيه ظاهرًا، ثم توجه ضربة التفافية إلى العدو هناك، على أن يجري ذلك بموافقة البلاط الإنكليزي»[2].

في الجلسة الثانية (6 تشرين الثاني/ نوفمبر) اقترحت الإمبراطورة نفسها إبداء الرأي في ما يأتي: «إلى أي نهاية نصلُ بالحرب، وإذا تفوقنا فما هي المغانم التي يمكن اعتبارها مفيدة بالنسبة إلينا؟». هنا بالتحديد تبلور هدف الحرب الرئيس، المتمثل في انتزاع حق الملاحة في البحر الأسود، حيث ينبغي إقامة ميناء وقلعة على شواطئه، وفي ضوئه اكتسب إرسال الحملة إلى

---

(2) *Архив Государственного Совета (АГС), t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II* (1768-1796) (СПб., 1869), Стб. 5.

**[أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، العمود الخامس].**

تعتبر غ. أ. غريبينشيكوفا اقتراح غ. غ. أورلوف، بشيء من السذاجة، دليلًا وثائقيًّا على أن «غريغوري أورلوف كان أول من طرح فكرة إرسال العمائر البحرية على الإمبراطورة وأعضاء المجلس، وأنه كان على شقيقه ألكسي القيام بدور مجسد هذه الأفكار ومنسق الأعمال بين بطرسبورغ والثوار».

يُنظر: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007), с. 179.

[غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)، ص 179].

البحر المتوسط لدى أعضاء المجلس حجةً وازنة. وفي المحصلة، طرحت الإمبراطورة في الجلسة الثالثة (12 تشرين الثاني/نوفمبر) المسألة الآتية للنقاش، من ضمن المسائل المطروحة على المجلس: «إذا نشأت لدى أحدكم أفكار يمكن أن تكون في صالح الأمور الراهنة، فبوسعه عرضها» (كانت كاترينا، على الأرجح، تتيح الفرصة أمام أورلوف ليطرح مجددًا مسألة إرسال الحملة إلى البحر المتوسط)؛ عندئذٍ، عرض غ. غ. أورلوف رأيه في صدد «الحملة إلى البحر الأبيض المتوسط»، فوافق المجلس على اقتراح رجل الإمبراطورة المقرب[3]، وإنْ لم يخلُ الأمر من اعتراضات على ما يبدو.


كاترينا الثانية في العام 1763

هكذا، اتخذ أعضاء مجلس البلاط السامي القرار بإرسال حملة الأرخبيل، نتيجةً لإقرار مهمات الحرب المرتقبة الواسعة النطاق. وقد فرضت الإمبراطورة مع مستشارها المقرب نبرة نقاش المسألة، وهما اللذان تعود إليهما فكرة القيام بالأعمال العسكرية في حوض البحر المتوسط بمجملها.

في رأينا، يمكن التأكيد أن قضية إرسال الأسطول إلى البحر المتوسط، وكذلك المسألة العامة المتعلقة بأهداف الحرب، كانتا بالنسبة إلى كاترينا محلولتين لحظةَ إعلانهما. ولم تجانب الإمبراطورة الصراحة في قولها حين كتبت إلى إ. غ. تشيرنيشوف في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر: «أعتبر أننا تحررنا من عبءٍ كبيرٍ حينما تخلصنا من معاهدة الصلح، فقد كنا بحاجة إلى الكثير من المداهنة والصفقات والتفاهات الفارغة كي لا ندفع الأتراك إلى الصراخ. أما الآن فأنا طليقة اليدين، وبإمكاني فعل كل ما تتيحه لي الوسائل، وأنتم تعلمون أن هذه الوسائل لدى روسيا ليست بالقليلة». وفي العشرين من كانون الأول/ ديسمبر، بعثت الإمبراطورة إلى تشيرنيشوف ذاته رسالتها الشهيرة عن أحلامها، بلهجة تحفل بالدعابة، حيث تقول فيها إن كاترينا الثانية أيضًا «تبني أحيانًا شتى أنواع القصور الإسبانية، وإنه

---

(3) *АГС*, Стб, 10.
[أرشيف مجلس الدولة، العمود 10].

ما من شيء يُعيقها، وإنهم أيقظوا القط النائم، فها هو يقفز خلف الفئران. لسوف يرون شيئًا ما، ولسوف يتحدثون عنا، ولسوف نطلق صليلًا لم يسمعوه من قبل، ولسوف يُهزم الأتراك»[4]. ولعل خطة حملة الأرخبيل وتلك الأفكار التي أثمرت «المشروع اليوناني» العتيد، انتهت في نهاية المطاف إلى تلك «القصور الإسبانية».

نعتقد أن حزم كاترينا الثانية ومثابرتها في تنظيم الحملة يعودان إلى إدراكها الخصائص السياسية **للكثير** من جوانب المشروع الذي اعتزمت تحقيقه، لِمَا كانت تتسم به من فطنة وبُعْدِ نظر. فقد كانت فكرة **ترسيخ الحضور الروسي في حوض البحر المتوسط**[5]، من حيث الجوهر، تشكل الأساس الذي قامت عليه خطتها، وفضلت إبقاءها سرًّا إلى حين (فلم تفصح عنها في اللحظة الحرجة إلا لـ أ. غ. أورلوف، ليتسنى له الاسترشاد بها في تحديد استراتيجية الأعمال العسكَرية). أما الجزء المعلن من مشروع كاترينا العسكري - السياسي، الذي فهمه المحيطون بها ولم يثر مخاوف جدية في أوروبا، فقد تمثل في **توجيه ضربة عسكرية إلى تركيا مع اجتذاب رعاياها السلافيين إلى جانبها**[6]. وهذا

---

(4) Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, с. 1323-1324; с. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, Стлб. 268.

[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، ص 1323-1324؛ س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14 العمود 268].

(5) أشارت كاترينا في كتابها الموجه إلى أ. غ. أورلوف في التاسع من كانون الثاني/ يناير 1770 إلى ضرورة الاستحواذ على مرفأ في حوض البحر المتوسط «على جزيرة أو على الأرض الصلبة»... على الرغم من أن ما حققتموه ليس كبيرًا حتى الآن، فقد تكونون، مع ذلك، قد فعلتم الكثير للمستقبل، لو قدمتم إلى روسيا مرفأ في هذا البحر، وسنسعى إلى الاحتفاظ به حتى في زمن السلام. فهو سيؤمن، من طريق التجارة، التواصل الدائم مع شعوب نحن بحاجة إليها في زمن السلام، وبذلك لن تضعف، بالطبع، قوتنا في تلك الأنحاء». يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 529.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 529].

(6) كتبت كاترينا في الأمر السامي الموجه إلى الأميرال غ. أ. سبيريدوف في الخامس من تموز/ يوليو 1769: «بالنظر إلى الحرب التي نخوضها اليوم ضد الباب العالي العثماني، والتي بدأها ضدنا بهذه الصورة الغادرة، رأينا أنه علينا أن نوجه إليه ضربة التفافية في المكان الأكثر حساسية، مستخدمين ما عرفناه من ولاء الشعوب اليونانية والسلافية، التي يخضع بعضها للعدو، في حين لا يزال بعضها الآخر يقاومه حتى الآن بشجاعة، والعمل على تشكيل فيلق كامل منهم بدعم منا وتحت قيادتنا، ليس بقصد =

ما ينبغي أن يؤخذ في الحسبان عند تقويم خطة كاترينا ونتائجها، وكذلك كلفة المخاطر التي اكتنفت العملية بمجملها. كما اقترنت العملية، بالفعل، بمخاطر كبيرة ومصاعب، أُمكِنَ التغلُّب عليها، إلى حدٍّ كبير، بفضل حيوية الإمبراطورة نفسها ومهارتها في اختيار منفذي خططها، وتعزيز روح الشجاعة والحمية العسكرية لديهم. وتمكنت الإمبراطورة من إيجاد وسائل هائلة لمشروعها المتوسطي، وكذلك الحصول أيضًا على مساندة الكثيرين من إخوة الدين من أبناء حوض المتوسط، وهو أمر لا يقلُّ أهمية.

عُلقت الآمال في نجاح العملية بمجملها بدايةً على كفاح إخوة الدين المسلح، فكتبت الإمبراطورة إلى الأميرال ألفينستون في الخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1769 تقول: «إن الهدف الرئيس من خطتنا كلها يتمثل في استنهاض الشعوب اليونانية والسلافية الخاضعة للأتراك وتأليبها ضدهم، وينبغي بالتالي أن تتراجع كل الأمور الأخرى الجانبية إلى المقام الثاني، وبما أن مهمتكم هي من بين هذه الأمور الجانبية» (المقصود تكليف ألفينستون تنظيم حصار الدردنيل)، فالأولوية ينبغي أن تُعطى للعمليات البرية بقيادة أ. غ. أورلوف الذي يسانده غ. أ. سبيريدوف[7].

## التحريض على انتفاضة اليونانيين والسلافيين

ردَّت كاترينا في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1769، على الرسالة التي بعثها أ. غ. أورلوف في شهر كانون الأول/ ديسمبر (أي على الفور تقريبًا، إذا ما أخذنا في الحسبان الوقت الذي يحتاج إليه الرسول ليجتاز المسافة ما بين إيطاليا وبطرسبورغ). وإنَّ ما يسترعي الانتباه في مطلع الرسالة الشهيرة - التي يستشهد بها الباحثون في معرض سعيهم إلى معرفة من هو صاحب المشروع

= إشغال القوات التركية على أراضيها فحسب، بل بعون العلي القدير، من أجل هزّ أوروبا نفسها أيضًا من الأساس، ومعها عاصمة الشر المحمدية» (المرجع نفسه، ص 366). كما نرى، لقد شيدت الإمبراطورة «قصورها الإسبانية» بجرأة!

[المقصود إلى جانب روسيا]. (المترجم)

(7) المرجع نفسه، ص 405.

المتوسطي - إنما هو ذاك التعليل السياسي - الحقوقي لأنشطة الإمبراطورة العسكرية، على نحوٍ لا تشوبُه شائبة. كتبت كاترينا تقول: «فكرنا، بناءً على اقتراح شقيقكم الجنرال فيلدمايستر، بتوجيه ضربة التفافية إلى العدو من جهة اليونان، أكان على اليابسة أم في جزر الأرخبيل؛ أما الآن، وبعد تلقينا الأنباء منكم عن توق شعوب تلك الأنحاء الفعلي إلى الانتفاضة على الباب العالي، فقد بتنا أكثر اقتناعًا برأينا هذا...»(8). ومن الواضح هنا أن تقرير ألكسي أورلوف رسخ لدى الإمبراطورة القناعة بضرورة تنفيذ خطة الحملة. غير أن فكرة الحملة كانت قد ولدت ونوقشت بصورة سرية قبل كلمة غريغوري أورلوف في مجلس البلاط السامي بفترة طويلة. وتتاح لنا هنا الفرصة مجددًا للتأكُّد من موهبة الإمبراطورة في قيامها بخطوات سرية بمهارة في موازاة الخط السياسي الرسمي، الأمر الذي يجعل المؤرخ حذرًا جدًّا في استخدام مصادر تلك الحقبة الرسمية.

في التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير 1769، صدر الأمر الإمبراطوري السامي الذي عُين بموجبه أ. غ. أورلوف قائدًا عامًّا للعملية برُمتها: «تفضلنا عن طيب خاطر وقررنا بملء إرادتنا أن نعهد إليكم قيادة هذه المأثرة ونكلفكم التحضير لها والإشراف عليها بالكامل»(9). وهكذا، تضع كاترينا في أيدي ألكسي أورلوف، ثاني مرة في غضون ستة أعوام، ما يكاد يكون مصير العرش(10). وبالفعل، من الصعب القول كيف كان يمكن أن ينعكس على وضع

---

(8) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» Сообщ. кн. Н. А. Орловым, in: *СбРИО*, t. 1 (СПб., 1867), c. 2.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، نقلًا عن الأمير ن. أ. أورلوف، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 2]. نلاحظ أن كاترينا الثانية فرقت بدقة بين أراضي مورية (بيلوبونيز، «الأرض الصلبة») والأرخبيل. وثمة ميل لدى المؤرخين إلى الجمع بين هذين المفهومين، واعتبار الأرخبيل هدف الحملة الأول.

(9) المرجع نفسه.

(10) راهن رئيس دائرة السياسة الخارجية الفرنسية الدوق شوازول على أنه يمكن «خلع الإمبراطورة عن العرش الذي اغتصبته» من خلال إشعال الحرب ضد روسيا. يُنظر: П. П. Черкасов, «Франция и русско-турецкая война, 1768-1774 гг.,» *Новая и новейшая история*, no. 1 (1996), c. 53.

[ب. ب. تشيركاسوف، «فرنسا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، **التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 1 (1996)، ص 53].

كاترينا الثانية فشلُ عملية البحر المتوسط الباهظة الكلفة، التي لا تحظى بتأييد الكثيرين[11].

وإذ عهدت كاترينا الثانية إلى أ. غ. أورلوف قيادة الحملة، فقد كانت تفترض، على الأرجح، أن تنفيذ هذه الخطة الجريئة يحتاج إلى سياسيٍّ مقدام لا يهاب المخاطر، مخلصٍ لمصالح العرش، على صلة وثيقة بصاحبة المشروع، يتمتع بمواهب تنظيمية فائقة وبخصال المقاتل، أكثر من حاجتها إلى قائد عسكري مجرب. وهي لم تخطئ في خيارها[12]. فقد فرض أ. غ. أورلوف نمط العمليات البحرية اللاحقة كلها، من خلال معركة شيسما وحدها.

اعتمدت كاترينا الثانية على فطنة ألكسي أورلوف [«ليس لدينا أدنى شك، استنادًا إلى فطنتكم التي اختبرناها جيدًا، في أنكم تعون تمامًا كُنْهَ هذه القواعد الجوهرية في سياساتنا الرسمية»]، الذي سيفهم خطتها ويسترشد بها في «إنجاز أمورنا بشجاعة لامبالية، غير آبهين بأنكم ستواجهون المستحيل في أعمالكم»[13]. بكلام آخر، على غرار ما حصل سابقًا في روبشيه، أَسَرّت كاترينا

---

(11) تلفت الانتباه في هذا السياق وجهة نظر الباحث الأميركي هيو ريكسديل المتعلقة بموقف نخبة النبلاء الروس من خطط الإمبراطورة في البحر المتوسط، على الرغم من أنه لا يمكننا الموافقة على الكثير مما قاله. فهو يشير إلى أن طبقة النبلاء الروس لم تكن في أغلبيتها معنية بالتجارة في البحر المتوسط ولا بتوسيع الأراضي. ففي ثمانينيات القرن الثامن عشر، لم يحظ «المشروع اليوناني» بدعم أيٍّ من الأسر الروسية النبيلة المعروفة، باستثناء الأسرة الأوكرانية بيزرودكو وأسرة بوتيومكين (ذات الأصل الروسي - البولندي) والأميرة الألمانية السابقة كاترينا الثانية. ويختم الباحث قائلًا: «حتى إنه من المدهش كم كانت ضيقة قاعدة السياسة الخارجية الروسية الاجتماعية». يُنظر: H. Ragsdale, «Russian Projects of Conquest in the Eighteenth Century,» in: *Imperial Russian Foreign Policy*, ed. and trans. Hugh Ragsdale & V. N. Ponomarev (Cambridge, 1993), p. 102.

(12) لا يمكن في هذا السياق إلا أن يُذكر وصف ألكسي أورلوف الرائع الذي ساقه ي. ف. تارلي: «ذكي، مقدام، شجاع، محب للمخاطرة وباحث عنها، ولكنه في الوقت نفسه حذر، لا يخشى الرصاص ولا المسؤولية. لقد كان ألكسي أورلوف بالذات... هو الرجل الملائم لمثل هذه المهمة البالغة التعقيد». يُنظر: Е. В. Тарле, «Чесменский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг (1769-1774),» in: Е. В. Тарле, *Сочинения*, t. 10 (М., 1959), с. 25.

[ي. ف. تارلي، «معركة شيسما والحملة الروسية الأولى في الأرخبيل (1769-1774)»، في: ي. ف. تارلي، **المؤلفات**، مج 10 (موسكو، 1959)، ص 25].

(13) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 6.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 6].

إلى ألكسي غريغوريفيتش بخططها الدفينة، معولةً على فهمه لها، ومانحةً له الحق في العمل وفق هذه الخطط بـ «شجاعة لامبالية»، تبعًا لما تمليه الظروف، من دون استبعاد احتمال إسقاط عاصمة إمبراطورية «الهاجَريين»[14].

تسلم أ. غ. أورلوف عند تعيينه قائدًا للحملة وثيقتي التفويض: **الأولى** لعرضها أمام من يرغب في المشاركة في العمل الذي اعتزمت روسيا القيام به، و**الثانية** لإبرازها للسلطات الإيطالية إذا ما حدثت إشكالاتٌ ما. وتحسُّبًا لاحتمال ظهور منتحلي صفة، عمد أورلوف مسبقًا إلى إعداد رسم له، ليُبرزه أمام إخوة الدين عند الضرورة[15].

مع ذلك، لم تتلفظ كاترينا بكلمة واحدة، في أمرها السامي الصادر في التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير بشأن فكرة تحرير إخوة الدين المضطهَدين، بل أكدت أن «هدفنا المباشر ينبغي أن يتمثل في الضربة الالتفافية». وعمل عقل الإمبراطورة بدقة محسوبة، فأعلنت باختصار أن المتطوعين الروس - وهم في غالبيتهم من رجال فوج بري أوبريجينسكي - الذين طلب ألكسي أورلوف إرسالهم، سيصلون تباعًا، بمعدل اثنين أو ثلاثة، «تحت ذريعة مقبولة»، لأنه يجب أن تُغلف كل التحضيرات بالسرية التامة. ويجب أن تتألف القوة الأساسية في الوحدات البرية من **إخوة الدين أنفسهم**، الذين يجب حثُّهم بالضرورة على الوحدة بواسطة «أفضل الناس من بين الشعوب المختلفة»، كما ينبغي العمل على استمالة «أفضل الناس» هؤلاء. وأما أجورهم فسيدفعها المركيز ماروتسي. وعلى ألكسي أورلوف التخفيف

---

(14) **الهاجَرِيُّون**: نسبة إلى هاجر، جارية سارة وزوج النبي إبراهيم عند المسلمين، التي أُبعِدَت مع وليدها إسماعيل إلى الصحراء، بحسب الأسطورة التوراتية. أطلقت هذه التسمية، في اللغة الروسية القديمة، على العرب «أبناء» إسماعيل، ثم صارت تشمل في حقبة تاريخية لاحقة المسلمين عمومًا (يُنظر الفصل الثامن بهذا الخصوص). (المترجم)

(15) [Л. Н. Майков] Первая мысль о Морейской экспедиции графа А. Г. Орлова с предисловием Л. Н. Майкова, in: *Сборник исторических материалов и документов, относящихся к новой Русской истории XVIII и XIX веков*, Изд. М. Михайловым (СПб., 1873), с. 143.

[[ل. ن. مايكوف] الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية، مع مقدمة بقلم ل. ن. مايكوف، في: **مجموعة المواد والوثائق التاريخية، المتعلقة بالتاريخ الروسي الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، نشره م. ميخايلوف (سان بطرسبورغ، 1873)، ص 143].

من حماسته القتالية وعدم تعريض نفسه للخطر قبل الأوان. كما ينبغي أن يصل الأسطول على دفعات صغيرة. وطلبت كاترينا منه الإعراب عن «أفكاره في ما يتعلق بملاءمة عمائرنا البحرية المرسلة من هنا إلى البحر الأبيض المتوسط وفائدتها ومواعيدها وعددها»[16].

فيما كان أمر كاترينا الثانية السامي الآنف الذكر في طريقه إلى ألكسي أورلوف، كانت تُتلى «الرسالة المُعَدة والموجهة إلى الشعوب اليونانية والسلافية» وتُناقَش في مجلس البلاط السامي (أُقِرت في السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير بعد القراءة الثانية)، وكذلك وثيقتا تفويض الكونت أ. غ. أورلوف الآنفتا الذكر[17]. ويتوافق نص الرسالة الموجهة إلى الشعوب اليونانية والسلافية عمومًا، مع محتوى أمر كاترينا السامي المؤرخ في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير. وهذا أمر بدهي، حيث إنها شاركت بنشاط في إعداد هذه الرسالة (وتدلُّ على ذلك الملاحظات التي دونتها في النص المحفوظ في أرشيف وزارة الخارجية)[18]. وبناءً على رغبة ألكسي أورلوف، أضيف إلى الرسالة الموجهة إلى إخوة الدين بندٌ ينصُّ على أن مصالح الأرثوذكس ستؤخذ في الحسبان عند عقد معاهدة الصلح.

تتلخص الرسالة بفحواها السياسي على النحو الآتي: لقد ولدت الحرب الروسية - التركية الظروف الملائمة لنضال إخوة الدين من أجل تحررهم من النير التركي. «لم يبق إلا أن يهبُّوا بأنفسهم للعمل، في موازاة أعمال قواتنا القتالية ... وأن يتكاتفوا ضد عدو المسيحية المشترك بأسره، وأن يسعوا إلى إلحاق أقصى الضرر به، فيُسهِموا بذلك في تقرير مصيرهم، لما فيه خير القضية المُحِقة المشتركة». وكما ورد في الوثيقة، تشعر روسيا بارتياح عظيم لرؤية

---

(16) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя гр. А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 11.
[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 11].

(17) *АГС*, Стб. 10, 357.
[أرشيف مجلس الدولة، العمود 10، 357].

(18) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Д. 1867, Л. 1-10.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا مع تركيا، الملف 1867، الورقة 1-10].

المناطق المسيحية وقد تخلصت من الاستعباد البغيض، والشعوب وقد «سارت بقيادتنا على خُطى أسلافها، وهو ما لن نبخل من أجل تحقيقه في تقديم كل الوسائل، ولها منا الحماية والعطف كَيْما تتمكن من صيانة كل المكاسب التي تحققها بفضل مأثرتها الباسلة في حربنا هذه مع العدو الغاشم»[19]. وباختصار، تضمنت الرسالة موضوعة مهمة مفادها أنه على الرغم من كون الحرب مشتركةً، إلا أن المكاسب والمنافع التي سينالها منها كل طرف عند إبرام الصلح، ستكون تلك التي يتمكن من انتزاعها وتحقيقها بنفسه.

ينبغي إعطاء كاترينا الثانية حقها من التقدير، وكذلك ن. إ. بانين مُعِد الوثيقة في الدائرة التي يشرف عليها. فقد خلت الرسالة من الوعود التي كان من شأنها أن تخلق الأوهام لدى إخوة الدين بأن روسيا تهدف إلى تحريرهم من خلال الحرب. وكما لاحظ ف. أ. أوليانيتسكي، فقد عدل ن. إ. بانين نص الوثيقة الأصلي الذي ورد فيه «قررنا انتهاز الفرصة **لتحرير اليونانيين**»، ليصبح **لتهوين مصير**[20] اليونانيين. كما وعد ن. إ. بانين بمساعدة اليونانيين، وإنْ بصورة غير محددة تمامًا، وذلك في رسالته الموجهة في مطلع عام 1769 إلى زعيم المانيين غ. مافروميخالي، الذي أعرب مرة لغيورغي بابازولي[21] عن رغبته في الحصول على شهادة من «شخصية ذات سلطة» تؤكد نوايا روسيا: «لقد أمرتني صاحبة الجلالة أن أؤكد لكم بصورة سرية أنها لن تترككم بعون الله ما دامت الحرب دائرة، بل إنها ستشملكم برعايتها، وستقدم إليكم كل مساعدة ممكنة...»[22]. وهكذا، أُعطِيَ الوعد بالمساعدة، لكن خلال فترة الحرب مع الأتراك فحسب.

(19) اقتباس من: Соловьев, с. 293.
[سولوفيوف، ص 293].

(20) В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883), с. 113.
[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، ص 113].

(21) بانين. (المترجم)

(22) A. Camariano-Cioran, «La Guerre russo-turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965), p. 524.

بيد أن كاترينا سعت بعد انتهاء الحرب إلى ترسيخ الأسطورة في الوعي الاجتماعي بأن الأسطول الروسي توجه إلى حوض البحر المتوسط لأهدافٍ تحريريةٍ صِرْف. فهذا، على الأقل، ما كتبته بخط يدها في مشروع النص الذي كان يُفترَضُ تدوينه على النصب التذكاري المُخلد لانتصارات الكونت ألكسي أورلوف وغريغوري سبيريدوف البحرية[23]، وعلى هذا النحو فسَّر وُعاظ البلاط عظمة الانتصارات الروسية[24]. فخلال الحرب، لم تسمح الإمبراطورة لنفسها بهذا القدر من التوسُّع في تحديد أهداف العملية؛ إذ إنها أكدت بدقة في معرض ردها على شكاوى ألكسي أورلوف من النقص في القوات البرية الروسية: «مهما كان عددها قليلًا، فهي ستكون على الدوام سندًا للشعوب التي تتطلع إلى التحرُّر من نير الكافر، بل نموذجًا للطاعة والانضباط»[25]. وجدير بالذكر أن الموضوعة القائلة بإفادة الشعوب المضطهدة من حربنا مع الأتراك لنيلها استقلالها، وبأنها ستحظى بدعم روسيا في مسعاها هذا، عادت لتُطرح مجددًا في الرسالة السرية التي وجهتها الإمبراطورة إلى حاكم مصر أثناء الحرب الروسية - التركية الثانية، لكن من دون الشعار المسيحي هذه المرة[26].

---

(23) «تخليدًا لحملة الأسطول الحربي الروسي الأولى في البحر الأبيض المتوسط في عام 1769 بغية مساعدة اليونانيين المؤمنين وتحريرهم من نير التركي الكافر...». يُنظر: *РГАДА*, Ф. 10. Кабинет Екатерины II, Оп. 1, Д. 444, Л. 5.

[**أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**، المجموعة 10، ديوان كاترينا الثانية، القائمة 1، الملف 444، الورقة 5].

(24) Платон (Левшин), «Слово на торжество славного мира, празднованнаго 1775 года иулия 10 дня (Успенский собор в Кремле),» in: *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном* (М., 1780), t. 3, c. 73-88.

[بلاتون (ليفشين)، «كلمة عن حلول السلام المجيد الذي جرى الاحتفال به في العاشر من تموز/ يوليو 1775 (كاتدرائية أوسبينسكي في الكرملين)»، في: **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسيفنا من العام 1763 وحتى عام 1780** (موسكو، 1780)، مج 3، ص 73-88].

لمزيد من التفصيل عن هذا الأمر، يُنظر الفصل التاسع.

(25) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя гр. А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 31.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 31].

(26) И. М. Смилянская, «О политике Екатерины II в Средиземноморье и первых российско-арабских политических контактах,» *Анналы* (Институт востоковедения РАН), Вып. V-VI (1997).

[إ. م. سميليانسكايا، «عن سياسة كاترينا الثانية في حوض البحر المتوسط والعلاقات السياسية =

انتشرت رسالة كاترينا الثانية الموجهة إلى إخوة الدين البلقانيين على نطاق واسع بين السكان في عام 1770، فتدفق سيل جديد من اليونانيين والسلافيين إلى أورلوف. وخلال عام 1769، وفيما كانت العمارتان البحريتان بقيادة سبيريدوف وألفينستون تستعدان للإبحار للقيام برحلتهما الصعبة الأولى، تواصل الحوار بين أ. أورلوف وكاترينا، الأمر الذي يمكن الحكم عليه من خلال رسائل الإمبراطورة المحفوظة. فالنشوة التي غمرت ألكسي غريغوريفيتش عند وصوله إلى إيطاليا لم تفتُر. وعلى حد قول الإمبراطورة في رسالتها إلى ب. أ. رومیانتسيف: «يؤكد لي الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف أنه يأمل في استنهاض 40000 رجل، وأنه يتعمد الكتابة عن عدد أقل مما هو قادر عليه»[27]. وظل أ. غ. أورلوف مفتونًا أكثر بفكرة تحرير إخوة الدين، وبدا كأنه بدأ يلقى تجاوبًا من كاترينا؛ إذ أثنت - في رسالة مكتوبة بخط يدها بتاريخ السادس من أيار/مايو 1769 - على خطة ألكسي غريغوريفيتش بخصوص إخوة الدين لإنسانيتها («إنها تسطع، بكل ما فيها، بالإنسانية»)، وكتبت: «... كل شيء يحصل بناء على رغبتنا، وسنُمَجَّد في هذا العصر لإنقاذنا الآلاف المؤلفة من إخواننا في الدين الذين يرزحون تحت النير البربري»، غير أنها استدركت مع ذلك قائلة: «وإذا لم يتحقق كل ذلك بالسرعة التي نرغب فيها أنت وأنا، فذلك ليس بالأمر المستغرب، لكنها فكرة عظيمة من حيث الجوهر، وأنا أثني كثيرًا على كونكم بدأتم العمل على نحو ما تكتبون إلي»[28].

بيد أن ما كان يشغل بال الإمبراطورة في الواقع ليس مدّ يد العون إلى الحلفاء الطبيعيين، بقدر اهتمامها بمسألة تأمين المرافئ للأسطول. فقد سارعت في الرسالة ذاتها (عبثًا، كما تبين في ما بعد) إلى طمأنة أ. أورلوف بأن المركيز ماروتسي حصل على موافقة الجنرال باولي، بفتح موانئ كورسيكا

---

= الروسية - العربية الأولى»، آنالي (معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الروسية) الإصداران 5-6 (1997)].

(27) اقتباس من: Соловьев, t. XIX, c. 280.

[سولوفيوف، مج 19، ص 280]. [ثمة كما يبدو خطأ مطبعي في النص الروسي في رقم المجلد، الذي هو على الأرجح 14 وليس 19].

(28) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя гр. А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 15.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 15].

أمام السفن الروسية إذا وصلت إلى البحر المتوسط، مقابل المساعدة الروسية. وكتبت تقول: «وهكذا، إذا لم يكن لدينا مَرسَى، فعلى الأقل مفترق طرق»[29]. وبالفعل، نجح ماروتسي في الوصول إلى مبتغاه، بعد عدة أشهر من البحث عن وسيلة للتواصل مع زعيم الثوار الكورسيكانيين؛ إذ وصل مبعوثه في الخامس عشر من آذار/ مارس 1769 إلى الجزيرة، على متن سفينة كانت تنقل الذخائر إلى فصائل باولي (علمًا أنه كان على متن السفينة أيضًا عميلان إنكليزيان في طريقهما إلى مقر قيادة الجنرال). سلم مبعوث ماروتسي باولي رسالة القائم بالأعمال، التي أثارت شيئًا من الارتباك لدى الجنرال. فقد صيغت كأنها رسالة موجهة من كاترينا، واقتصرت على المجاملات والإطراء، بحسب تعريف باولي، بينما كان الجنرال يحتاج إلى المساعدة. فأوضح مبعوث ماروتسي لأنه مكلف بتقديم بعض الاقتراحات شفاهة. عندئذ، حُدد له لقاءان على انفراد مع الجنرال باسكوال باولي، حيث نوقشت مسائل التعاون[30]. بحسب ما يؤكد ج. بيرتي، حصل باولي على دعم مالي من روسيا[31]. بيد أن فرنسا القلقة من زيارات الإنكليز والروس إلى الجنرال باولي، ما لبثت أن شنت بعد بضعة أشهر هجومًا على الثوار وطردتهم من الجزيرة. وعندما توجه القائم بالأعمال الروسي لدى البلاط الفرنسي خوتينسكي إلى الحكومة الفرنسية بطلب السماح للعمارة البحرية الروسية باستخدام الموانئ الفرنسية، أُفهِمَ على نحو مباشر أن موانئ كورسيكا مقفلة في وجه الأسطول الروسي[32].

في صيف عام 1669، بانتظار وصول الأسطول، عمل أ. غ. أورلوف على إنشاء مستودعات المؤن الغذائية والذخيرة في ليفورنو وسردينيا وبورت

---

(29) المرجع نفسه، ص 20.

(30) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 40, Л. 21-32.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقية، الملف 40، الورقة 21-32].

(31) Дж Берти, *Россия и итальянские государства в период Рисорджименто* (М., 1959), с. 65.

[ج. بيرتي، روسيا والدول الإيطالية في حقبة توحيد إيطاليا (موسكو، 1959)، ص 65].

(32) Черкасов, с. 62.

[تشيركاسوف، ص 62].

ماغون، واقتناء سفينة خاصة وتجهيزها، وتجنيد الأنصار من بين اليونانيين والسلافيين (فكما كتب إلى كاترينا، كان يعتزم «إنشاء المخازن وإرسال الناس إلى مختلف الأماكن لحثهم على امتشاق السلاح» وحشد القوات، «وفرض النظام بالقدر الممكن وإتاحة الوقت»)[33]. وكان أ. أورلوف مهتمًّا بإنشاء الهيئة القنصلية الروسية في إيطاليا وبالمفاوضات مع القراصنة اليونانيين، المستعدين للقتال تحت العلم الروسي[34]. وقد اعتمد على دعم قنصُلَي إنكلترا جون ديك في ليفورنو، الذي كان يعيش في منزله عادة[35]، واليوناني تيودور ألكسيانو في بورت ماغون (يُنظر الفصل الثالث).

## العملية الحربية الأولى في البلقان: عملية الإنزال في الجبل الأسود

في صيف عام 1769، اتخذ ألكسي أورلوف قرارًا ببدء العملية الحربية الأولى في البلقان، فعهد إلى صديقه وزميله في الخدمة الرائد الأول[36] في فوج بري أوبريجينسكي الجنرال ميجر الأمير ي. ف. دولغوروكوف، الذي طلب أورلوف

---

(33) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 387-388.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 387-388].

(34) عن نشاط أ. غ. أورلوف في إيطاليا، يُنظر أيضًا الفصلان السادس والسابع.

(35) جدير بالذكر أن القنصل الإنكليزي السير جون ديك كان يقوم بمهمات القنصل في جنوى أيضًا. وفي أي حال، عندما وصلت السفينة «روستيسلاف» إلى جنوى في آذار/مارس 1770، بعد تعرُّضها لأضرار كبيرة في أثناء عاصفة هبت عليها، قام «قنصل البلاطين الروسي والإنكليزي الموجود في هذه المدينة»، بحكم «وظيفته» بتأمين «كل ما يلزم لإصلاح السفينة»، الذي استمر 59 يومًا.
*РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 17.
[أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 17].

من المعروف أن ديك لم يُعتمد قنصلًا روسيًا من قبل السلطات الإنكليزية، لكن روسيا منحته في نهاية الحرب وسام القديسة حنة لقاء خدماته. M. S. Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» *Slavonic and East European Review*, no. 31 (1952-1953), pp. 158-159.

(36) رائد أول (بريمير ميجر): رتبة عسكرية كانت معتمدة في الجيش الإمبراطوري الروسي خلال القرن الثامن عشر. كان الرائد أول مساعدًا للعقيد قائد الفوج، وكان يُعتبر الضابط الثالث في هرمية الفوج، بعد العقيد ونائبه المقدم، ويتولى قيادة الكتيبة الأولى في الفوج، ويمكن أن يتولى قيادة الفوج في غياب القائد ونائبه. في عام 1797 ألغيت رتبتا الرائد أول والرائد ثانٍ في الجيش الروسي، لتُعتمد رتبة رائد. (المترجم)

من الإمبراطورة إيفاده إليه، في رسالة بعثها إليها في كانون الأول/ ديسمبر 1768. وقد عهد إليه بالدور الذي كان يُفترض أن يؤديه إيزديميروفيتش[37]، إلا أنه (أي أورلوف) لم يستطع التعامل معه. وصل دولغوروكوف إلى إيطاليا تحت اسم مستعار هو التاجر باريشنيكوف (وهي «الذريعة الملائمة» التي كان يتعين على الضباط الروس الآتين إلى إيطاليا استخدامها لمساعدة أورلوف). وقد نال يوري فلاديميروفيتش دولغوروكوف - الذي ترك مذكرات في أواخر حياته - شهادةً غير لائقة البتة في أعمال كلٍّ من ي. ف. تاليري وف. أ. بلوغين، وذلك بسبب طابعه المتبجح. لكن، يبدو أن أورلوف كان يقدر رفيق السلاح الشاب في فوج بري أوبريجينسكي، لما كان يتميز به من حيوية وشجاعة وروح مغامرة إلى حدٍّ ما، فافترض أن هذه الخصال ملائمة تمامًا لقائد عملية الهجوم على الجبل الأسود.

بما أن جمهورية البندقية أغلقت في تلك الفترة أبواب الجبل الأسود في وجه المبعوثين الروس، فقد اضطر دولغوروكوف، مع فصيلٍ صغيرٍ لا يزيد على أربعين رجلًا، إلى عبور البحر والنزول خلسة على الشاطئ، ومن ثَم صعود الجبال سيرًا على الأقدام[38]. كان الكونت إ. ف. فوينوفيتش في وداع هذه البعثة الصغيرة.

كان إيفان فاسيليفيتش فوينوفيتش المنتمي إلى أرستقراطيي البندقية ذا شخصية مميزة، فضلًا عن كونه من مواطني الجبل الأسود من أصول صربية («سلوفيني»)، وكان من أوائل الذين انضمُّوا إلى ألكسي أورلوف. ولم يلبث أفراد أسرته أن تبعوه، فكان من بينهم أميرال الأسطول الروسي في ما بعد مارك إيفانوفيتش فوينوفيتش (المولود في عام 1750 بالجبل الأسود، والمتوفى في عام 1807 بفيتيبسك). هذا، ومُنح كلٌّ من إيفان ومارك فوينوفيتش وسام القديس جاورجيوس لقاء أعمالهما البطولية في حملة الأرخبيل.

---

(37) إيزديميروفيتش: ضابط صربي من البوسنة، توجه هو ورفاق له إلى الجبل الأسود، بإيحاء من الروس، لتحريض مسيحيي البلقان على الانتفاض على الأتراك. (المترجم)

(38) В. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (М., 1996), с. 199-200.

[ف. بلوغين، **أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال** (موسكو، 1996)، ص 199-200].

يبدو أن إيفان فوينوفيتش عمل بنشاط مفرط على تجنيد مواطنيه للخدمة لدى الروس، ما دفع سلطات الجمهورية إلى اتهامه بارتكاب «الجريمة العظمى»، ثم الحكم عليه بالإعدام ومصادرة ممتلكاته، بحيث أُقفِلَت بعدئذٍ ممتلكات البندقية في وجهه ابتداءً من عام 1770[39].

قدم إ. ف. فوينوفيتش خدماتٍ جُلى إلى روسيا، ليس بوصفه مشاركًا في المعارك المهمة (كمعارك شيسما وليمنوس وباتراس وبيروت) فحسب، بل لقيامه باتصالات سرية مع علي بك والشيخ ظاهر العمر أيضًا، بتكليف من ألكسي أورلوف، وكذلك لدوره في تنظيم إدارة إمارة الأرخبيل الكبرى. وقد عُين فوينوفيتش بعد الحرب قنصلًا روسيًّا عامًّا في الأرخبيل.

كان لحملة ي. ف. دولغوروكوف في الجبل الأسود عدة أهداف: فهي كانت، بالدرجة الأولى، بمثابة عملية استطلاع لمنطقة يتمتع سكانها بعلاقات قديمة مع روسيا، ولا يخضعون لا للأتراك ولا للبنادقة. وقد تناهت إلى مسمع أ. غ. أورلوف شائعات في صدد استعداد أهالي الجبل الأسود للقتال ضد الأتراك. وفي صيف عام 1769، بناءً على تقاريره، أخبرت كاترينا الثانية روميانتسيف بأن «الأمير دولغوروكوف قد وصل إلى الجبل الأسود» (وهو حدث مشهود بالنسبة إلى الإمبراطورة والقيادة العسكرية)، وقالت إنه «تجري استعدادات عظيمة في تلك الأنحاء لمهاجمة الأتراك»[40]؛ إذ يمكن أن تصبح أراضي الجبل الأسود رأس جسر لتشكيل فصائل المتطوعين وإنشاء جيش نظامي نسبيًّا من إخوة الدين البلقانيين، الأمر الذي علقت عليه الإمبراطورة أهمية كبيرة. فكتبت، في سياق تعليماتها إلى غ. أ. سبيريدوف، ولا سيَّما في هذا الصدد: «ينبغي السعي إلى تشكيل فيلق كامل منهم بدعمٍ منا وتحت قيادتنا»[41] (المقصود فيلق من الشعوب

---

(39) *РГАДА*, Ф. 15, Оп. Госархив, Д. 181; Ф. 10/1, Оп. 1 Кабинет Екатерины II, Д. 645, Л. 197-199.

[أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة، المجموعة 15، قائمة أرشيف الدولة، الملف 181؛ المجموعة 10/ 1، القائمة 1 ديوان كاترينا الثانية، الملف 645، الورقة 197-199].

(40) Соловьев, t. XIV, c. 280.

[سولوفيوف، مج 14، ص 280].

(41) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 366. =

اليونانية والصربية الخاضعة للأتراك، التي «لا تزال، حتى الآن، تناضل ببسالة في سبيل حريتها»، بحسب قول كاترينا [المؤلفة]).

لكن، كان من الضروري التأكُّد على الأرض من استعدادات أهالي الجبل الأسود، ووضعهم تحت القيادة العسكرية والسياسية الروسية في الوقت الملائم، لمنعهم من التحرُّك قبل الأوان. فقد طالبت الإمبراطورة بأن يوجه جميع المشاركين في العملية الضربة إلى الأتراك في آن واحد... كان أ. غ. أورلوف مُدركًا ذلك. ولتحقيق هذه الأهداف، وصل مع الجنرال ميجر ي. ف. دولغوروكوف إلى الجبل الأسود ضباطٌ آخرون، كالعقيد غيرفسدورف الذي رافق ألكسي أورلوف من بطرسبورغ، والرائد أ. غ. روزنبرغ رسولُ ألكسي غريغوريفيتش إلى الإمبراطورة مراتٍ عديدة، والنقيب روديون بلامينيتس من الجبل الأسود. وجلب الفصيل معه إلى الجبال الرصاص والبارود. وفي الوقت نفسه، صار رجال أورلوف يرسلون إلى الجبال الفارين من الخدمة في جيش البندقية، الذين أغرتهم رواتب الروس المرتفعة، أو ربما مِمن حركتهم عواطفهم السياسية. ومع ذلك، وكما خلُص ف. أ. بلوغين، عن حقٍّ، ذهبت جهود فصيل دولغوروكوف لإنشاء جيش في الجبل الأسود «عبثًا»، لأن «جماعتنا في الجبل الأسود (أي الأرثوذكس - المؤلفة) لم ينضمُّوا إلى الجيش، حتى إن البوسنيين أحجموا عن ذلك متذرعين بأن العدو على حدودهم»[42]، على حد قول الأمير يوري فلاديميروفيتش.

جدير بالذكر أن آمالًا مبهمة ما تتعلق بأهالي الجبل الأسود ظلت قائمة في روسيا بعض الوقت، ووفقًا لأخبار **أنباء سان بطرسبورغ**، غير الموثوقة تمامًا، فإن ي. ف. دولغوروكوف أرسل السلاح إلى الجبل الأسود مع وصول أسطول سبيريدوف إلى بورت ماغون[43].

---

= [**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 366].

(42) Плугин, с. 201.
[بلوغين، ص 201].

(43) *Санктпетербургские ведомости*, no. 10 (2 февраля 1770).
[**أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 10 (2 شباط/ فبراير 1770)].



الأمير يوري دولغوروكوف
بعد 35 سنة على عملية الجبل الأسود

كان لحملة ي. ف. دولغوروكوف هدفٌ آخر، أيضًا، ذو طابعٍ سياسي دعائي. وبتوجيه من الأمير، عُقد في سيتينيي عاصمة الجبل الأسود اجتماع للأهالي بالدير الذي تمركز فيه فصيله، تلا خلاله دولغوروكوف رسالة كاترينا الثانية المعروفة إلى إخوة الدين السلافيين واليونانيين، وجعل الحاضرين يؤدُّون قسم الولاء للإمبراطورة.

كان أداء قسم الولاء لإمبراطورة روسيا والإقرار برعايتها أو حمايتها، بل الانضواء تحت كنف التابعية الروسية، من أشكال تعاون القيادة الروسية مع سكان حوض البحر المتوسط التي شاعت آنذاك (على أن التعاون لم يقتصر على الأرثوذكس وحدهم فحسب؛ إذ توجه الأمير يوسف الشهابي، حاكم جبل لبنان التابع للسلطان، إلى كاترينا الثانية بطلب منح سكان الجبل الجنسية الروسية). كان لهذه الأعمال، كما ذُكر، مغزى تمثيلي حمائي، ولم يكن سياسيًّا - قانونيًّا.

في غضون ذلك، لم يُفضِ أداءُ أهالي الجبل الأسود قسمَ الولاء للإمبراطورة إلى تلك النتائج السياسية - القانونية التي كان يُعَوِلُ عليها ي. ف. دولغوروكوف على ما يبدو، على الرغم من الإجلال العميق الذي كان يُكنُّه أبناء الجبل الأسود لروسيا ولسلطتها العليا[44].

---

(44) И. И. Лещиловская, *Сербский народ и Россия в XVIII в.* (СПб., 2006); В. Н. Виноградов (редактор), *История Балкан. Век восемнадцатый* (М., 2004).

[إ. إ. ليشيلوفسكايا، الشعب الصربي وروسيا في القرن الثامن عشر (سان بطرسبورغ، 2006)؛ ف. ن. فينوغرادوف (تحرير)، تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر (موسكو، 2004)].

عندما ظهر في سيتينيي زعيم سكان الجبل الأسود ستيبان مالي، منتحل اسم زوج كاترينا الثانية الإمبراطور بيوتر (بطرس) فيودوروفيتش، برز أمام دولغوروكوف ميدان للنشاط، كاد أن يكون الهدف الرئيس الذي شُنت الحملة على الجبل الأسود بسببه. أما ظهور مالي، على ما تبين، فلم يكن للنيل من إخلاص أهالي الجبل الأسود للإمبراطورة، بل على العكس كان تعزيزًا لسمعة دولغوروكوف فيهم. فقد تعين على هذا الأخير فضح منتحل الصفة، وإبعاده عن البلاد إنْ أمكن. وينبغي الافتراض أن العمل في هذه الحال جرى وفقًا للمبدأ الذي لجأت إليه الإمبراطورة مرارًا!: «عليكم إنجاز أمورنا بشجاعة لامبالية، غير آبهين بأنكم ستواجهون المستحيل في أعمالكم». فقام يوري فلاديميروفيتش بفضح ستيبان مالي علانية، مُحدِثًا قدرًا من الإرباك في أذهان سكان الجبل الأسود، وأمر بإلقاء القبض عليه. وأجاب ستيبان في أثناء التحقيق بأنه لم ينتحل اسم بطرس الثالث قط، على الرغم من عدم نفيه هذه الأسطورة، كما هو معروف.



الطريق من كوتور إلى الجبل الأسود

يبدو أن دولغوروكوف كان يستعد لإخراج الدعِي من الجبل الأسود (وفي كل حال، أعطى مجلس الشيوخ في البندقية الإذن بنقله عبر أراضي الجمهورية عن طيب خاطر)[45]، لكنه اصطدم فجأة بمشاعر الإخلاص الطاغية لدى سكان

(45) Соловьев, t. XIV, c. 299.

[سولوفيوف، مج 14، ص 299].

الجبل كافة حيال الرجل. فليس من قبيل المصادفة أن يكتب مستشار السفارة الروسية في فيينا ميرك - الذي أُوفِد قبل عام إلى الجبل للاطلاع على الوضع وفضح الدعِي - إلى هيئة الشؤون الخارجية قائلًا إنه لا يمكنه الذهاب إلى الجبل الأسود من دون تعريض نفسه لخطر الموت، لأن أهالي الجبل الأسود «متعلقون بمالي إلى حدٍّ لا يوصف» (كان جواب ميرك هذا سببًا لغضب الإمبراطورة عليه واستدعائه إلى روسيا)[46].

لم يعد الخطر، الآن، على حياة المبعوثين الروس نابعًا فحسب من الحكومتين البندقية والعثمانية، القلقتين من نشاط ي. ف. دولغوروكوف في الجبل الأسود، بل كذلك من أنصار ستيبان مالي. لذا، اضطر فصيل دولغوروكوف إلى اتباع نمطٍ مختلفٍ في العمل، يتلاءم مع النسخة الأخرى من توجيهات الإمبراطورة: استخدام نفوذ ستيبان مالي بين أبناء الجبل الأسود أداةً للسياسة الروسية. فأقنع ستيبان بالتخلي عن انتحال اسم بيوتر فيودوروفيتش، والعمل بصفة ممثلٍ للسلطة الروسية. وكما كتب أ. غ. أورلوف، فقد أمر دولغوروكوف أن يتولى «ستيوبكا مالي» قيادة السكان في غيابه، وسمح له بارتداء الزي الروسي، مع منعه من انتحال اسم كاذب، الأمر الذي أقسم الأخير على الالتزام به[47]. أما دولغوروكوف، فما لبث أن غادر الجبال في الليل سرًّا هو ورجاله، وهبط إلى الساحل برفقة ستيبان مالي، وأبحر إلى إيطاليا[48].

أثارت حملة دولغوروكوف صخبًا عاليًا في الصحافة الأوروبية، بوصفها عمل أورلوف العسكري الأول في حوض البحر المتوسط. تباينت تقويمات

---

(46) المرجع نفسه، ص 298.

(47) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 422.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 422].

(48) غادر العقيد غيرفسدورف الجبل الأسود بمفرده، على ما يبدو من رسالة ف. س. تامار إلى أ. غ. أورلوف في الرابع عشر من آب/ أغسطس 1769، عبر كوتور. وقد اختلف مع محافظ كوتور الذي امتنع عن منحه الإذن بالذهاب إلى البندقية أو تريستي أو أنكون: К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, in: *Русский архив*, 1876, Кн. 2, с. 294.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، الكتاب الثاني، ص 294].

هذا العمل، ولا تزال كذلك حتى الآن. فقد أشارت الإمبراطورة في كانون الثاني/ يناير 1770 إلى أن «ما حصل في الجبل الأسود... لا يستحقُّ احترامًا كبيرًا»، لأن «الأعمال الرئيسة ينبغي أن يقوم بها المسيحيون من رعايا عدونا الغادر»[49]. أما الأكاديمي ي. ف. تارلي فقد أكد أن «عمل أورلوف في الجبل الأسود باء بالفشل»[50] (المقصود الأعمال الواسعة النطاق - المؤلفة). وافترض ريولير أن العملية كانت مجرد غطاء، بحيث طور ف. أ. بلوغين هذه الفكرة معتبرًا أن الحملة في الجبل الأسود «اندرجت في سياق خطة الانتفاضة العامة، وأما أليخان فقد قرر إنكارها لكي يحرف انتباه الأتراك عن قواعد الأسطول الروسي مستقبلًا»[51].

يجري الحديث عن أن المعلومات عن حملة دولغوروكوف تسربت إلى الصحافة الأوروبية على الفور، الأمر الذي قد يكون نتيجة عملية تضليل صغيرة قام بها ألكسي أورلوف في الساحة الإعلامية الأوروبية، بحسب رأي بلوغين. وربما يكون أورلوف أيضًا هو مصدر التضخيم المتعمد لعديد فصيل دولغوروكوف، ولأهمية هذه العملية برُمتها. وما يدعم وجهة نظر ريولير، التي أدخل ف. أ. بلوغين تعديلًا عليها، الانتشار المفتعل لتضليل إعلامي مشابه صيف عام 1769 في سان بطرسبورغ. ولذا، طُرِحَت في أوروبا على نحوٍ جدي مسألة انتظار سكان الجبل الأسود الواثق مساعدة روسية تُجزى إليهم في نضالهم ضد الباب العالي[52]، وأن السلاح الروسي بدأ يصل بكميات كبيرة إلى الجبل الأسود[53]، وأن «ستيفانو عاكفٌ، بعد عمليته الأولى، على تحصين القلعة وتعزيز القوات، في انتظار وصول عدة سفن روسية إلى آفالون، وأنه أقام مستوصفًا

---

(49) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя гр. А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 35.
[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 35].

(50) Тарле, с. 34.
[تارلي، ص 34].

(51) Плугин, с. 199.
[بلوغين، ص 199].

(52) *G. d'A.*, 1769, no. 101.

(53) *G. d'A.*, 1770, no. 13, 36.

عسكريًّا وعدة مخازن في مايني، وأنه يعمل في ألبانيا على بناء ثلاث سفن يونانية، تحمل إحداها 24 مدفعًا، فيما تحمل اثنتان أخريان 12 مدفعًا... وأن هذه السفن ستكون جاهزة في القريب العاجل»[54]. كان قلق أوروبا الغربية من تحالف الروس مع سكان الجبل الأسود، على الأرجح، سببًا لظهور الشائعة التي نشرتها صحيفة *Gazette de France* (**الجريدة الفرنسية**) الرسمية، بأن الأسطول الروسي يتجه إلى الأرخبيل **لتقديم العون** (porter secours) لسكان الجبل الأسود بالتحديد[55]. ولعل هذه المعلومة وصلت إلى الصحافة إثر إرسال المبعوث الفرنسي لدى البلاط الروسي روسينيول إخبارًا إلى حكومته في 27 حزيران/ يونيو 1769 يقول فيه إنه من المتوقع أن تُبحر بين يوم وآخر «عمارة بحرية روسية تكمن مهمتها في تقديم المساعدة إلى سكان الجبل الأسود»[56]؛ على أن هذه العمارة البحرية كانت تتوجه في الواقع إلى سواحل مورية، وليس إلى الجبل الأسود.

نعتقد أن عملية دولغوروكوف كانت تندرج في سياق خطة أورلوف العامة لتنظيم الانتفاضة في البلقان والأرخبيل، إلا أنها شكلت في الوقت نفسه غطاء لخطط القيادة العسكرية الحقيقية. لقد كانت أشبه بعملية استطلاع، مع الأهداف المذكورة أعلاه. ولم تكن نتائجها جديرة بتقدير خاص، لأنها كشفت عن عدم وجود أي تحضيرات للانتفاضة. غير أن الحملة تمكنت - بين أمور أخرى - من تحييد منتحل الصفة ستيبان مالي، صاحب النفوذ القوي في الجبل الأسود. فقد كان نشاطه يتعارض مع أهداف البلاط الروسي، كونه يقع على مقربة من البؤرة الرئيسة حيث يُحضر للانتفاضة.

مع ذلك، حققت حملة ي. ف. دولغوروكوف أهدافها في جانبين مهمين، وفي الوقت نفسه خففت نتائجها اندفاعة أورلوف بعض الشيء. فمع اقتراب العمارة البحرية من الشواطئ اليونانية، بدأت تظهر في رسائله نبرة الشك في نجاح الانتفاضة أكثر فأكثر، أما كاترينا الثانية فلم تستبعد عمومًا فشل العملية

(54) *G. d'A.*, 1770, no. 36.

(55) *G. F.*, 1769, no. 76, 22/IX.

(56) Черкасов, с. 60.

[تشيركاسوف، ص 60].

المرتقبة لعدم استعداد اليونانيين لها. أَوَلَمْ تستندْ الإمبراطورة إلى كلمات ألكسي غريغوريفيتش حين كتبت تقول قبل شهر من بداية الأحداث: «... حتى ولو أن اليونانيين، الذين أفسدتهم قرون الاستعباد والغدر، خانوا سعادتهم...»؟[57].

تجدر الإشارة في الختام إلى أنه في سياق الهدف الرئيس من سياسة كاترينا (ومن أحاط بها)، الرامي إلى فتح «النافذة الجنوبية» على أوروبا، اكتسب ترسيخ وجودها في حوض البحر الأبيض المتوسط أهمية استراتيجية بالغة. وبصرف النظر عن النجاحات وبعض الإخفاقات التي انتهت إليها العمليات في البحر المتوسط، فقد أضفت هذه المهمة مغزى خاصًّا على مجمل أعمال حملة الأرخبيل، الأمر الذي يتلخص في استكشاف المدى المتوسطي بشتى السبل الدبلوماسية والسياسية والثقافية. فقد شكل عبور الأسطول نحو أوروبا، في حد ذاته، فرصةً لاستكشاف الطرق البحرية ولإنشاء طرق مواصلات جديدة لروسيا.

(57) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя гр. А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 35.
[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي»، ص 35].

# الفصل الثالث

# حملة العمائر البحريَّة الروسيَّة: استكشاف البحار الأوروبيَّة

**إ. م. سميليانسكايا**
**ي. ب. سميليانسكايا**

نمضي، نطلق الرعد ونهزُّ البحار،
نحيِّي مجد الروس وننقذ اليونانيِّين كافَّةً
نخوض عباب البحار والأعماق الرهيبة
ونمْثُل أمام كاترينا باعتزاز...

**ب. بوتيومكين. «روس في الأرخبيل»**

## الأسطول: العمائر البحرية التي أرسلتها كاترينا الثانية إلى البحر الأبيض المتوسط

قبل اندلاع الحرب الروسيَّة - التركيَّة، أوْلَتْ كاترينا الأسطول جُلَّ اهتمامها - قبل الحرب الروسيَّة - التركيَّة - في ما يتعلَّق بأهليته وقواعده وتجهيزه وتزويده بالضباط البحريين الكفوئين؛ وكان لديها كلُّ المُسَوِّغات، عند نشوب هذه الحرب، لتكتب إلى إ. غ. تشيرنيشوف في لندن قائلةً: «لديَّ الآن أسطول في حالٍ ممتازة، وسأستخدمه، إن شاء الله، على نحو لم يسبق له مثيل»[1].

(1) C. M. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (M., 1994), Кн. XIV, c. 273.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14، ص 273].

في أواسط كانون الأول/ ديسمبر 1768، وصل إلى هيئة الأدميراليَّة الأمر السامي الآتي: ينبغي أن يُرفَع على الفور تقريرٌ عن عدد السفن التي تستطيع الهيئة تجهيزها بحلول الربيع القادم، كيما تكون مستعدة «للإبحار في أيِّ اتجاهٍ يمكن أن يُرسَم لها»، وما إذا كانت تلك السفن - الراسية هنا وفي أرخانغيلسك - جاهزةً للحملة المرتقبة (هل كانت مُعدَّة خصِّيصًا للحملة في البحر المتوسط؟)، وأعقبت ذلك بنبرة صارمة: «إن لم تكن جاهزة، فما الغاية منها إذًا»[2] (؟!). لقد كانت كاترينا قادرة على الغوص في كلِّ تفاصيل تنظيم الحملة في البحر المتوسط، بحيث كانت - كما يتبيَّن من رسائلها - تُعنى بتأمين الخرائط ومرشدي العمائر البحريِّين، وبأحوال الضباط والبحَّارة المعنوية، وباختيار نقاط تلاقي العمائر؛ ناهيك بتحديد المهام التكتيكيَّة الموضوعة لكلِّ عمارة، ومدِّها بالدعم الدبلوماسي للإبحار في المياه الأجنبيَّة ...إلخ. أضف إلى ذلك عنايتها باختيار طاقم القيادة وتجهيز السفن تقنيًّا وتسليحها وتهيئتها للإبحار. وكتبت كاترينا في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769 إلى الأميرال سبيريدوف تؤنِّبه على التأخُّر في الطريق: «... لم أبخل بالرعاية ولا بالجهد ولا بكلِّ ما يمكن أن يخطر في بال، لتزويدكم بكل ما يلزم، كي تتمكَّنوا من تحقيق النجاح المنشود»[3].. كان لديها كل المُسَوِّغات لتوجيه ذاك التأنيب.

حُضِّر لإرسال العمائر البحريَّة إلى البحر الأبيض المتوسط تحت ستار من السرِّية التامَّة؛ بل إنَّ ي. ف. تارلي افترض أنَّ التحضيرات أُجرِيَت بتكتُّمٍ حتَّى عن ن. إ. بانين. إلا أن ثمَّة شكًّا في ما يتعلَّق بالأمر الأخير؛ إذ كان يُفترَض أن تترافق التحضيرات برُمَّتها مع خطوات دبلوماسية حيال إنكلترا في أقلِّ تقدير. وهذا ما أخذه غ. غ. أورلوف في حسبانه عندما أشار - في المرة الأولى حين اقترح «رحلة» الأسطول إلى البحر المتوسط - إلى ضرورة الحصول على

---

(2) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 331.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 331].

(3) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, in: *СбРИО*, t. X (СПб., 1872), с. 390-391.

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في أرشيف وزارة الخارجية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 10 (سان بطرسبورغ، 1872)، ص 390-391].

موافقة البلاط الإنكليزي المسبَقة على هذه العملية، وهو أمر لا يمكن أن يتمّ من دون رئيس هيئة الشؤون الخارجيَّة ن. إ. بانين. كما كانت كاترينا تُطلِعُ مجلس البلاط السامي على كلّ ما يتعلّق بتنظيم الحملة (ناقش المجلس في 16 شباط/فبراير 1769 «مشروع رحلة الأسطول إلى البحر الأبيض المتوسط»). أمَّا بخصوص الحفاظ على السرِّية، فتجدر الإشارة إلى أنَّ تسرُّب المعلومات قد يكون حصل على نحوٍ متعمَّد. فقد أفاد المبعوثان الإنكليزي والفرنسي في تقاريرهما بوجود خطط روسيَّة لإرسال الأسطول إلى البحر المتوسط. إلا أنَّه يمكن الجزم أنَّ نبأ استعداد العمائر البحريَّة في كرونشتاد، واحتمال توجُّهها إلى حوض البحر المتوسط، لم يظهر في الرسائل الدبلوماسيَّة البريطانيَّة من سان بطرسبورغ، إلا في الرابع والعشرين من أيار/ مايو 1769[4].

تقرَّر في بطرسبورغ إرسال الأسطول على دفعات، بالدرجة الأولى خشية تعريض قدرة أسطول بحر البلطيق الدفاعية للخلل، في ضوء العلاقات الروسيَّة - السويديَّة. فضلًا عن ذلك، أُخِذَت في الحسبان قدرة العمائر البحرية غير الكبيرة على المناورة بشكل أفضل (فكما جاء في الأمر السامي الموجَّه إلى أ. غ. أورلوف في 29 كانون الثاني/ يناير 1769، أنَّ السفن «بأعداد صغيرة أسرع في الإبحار من العمارة البحريَّة الكبيرة»)، وأنَّ هذه الفصائل البحريَّة لن تثير قلقًا زائدًا لدى الدول الأوروبيَّة («إذ يمكنها التخفِّي عن عيون البلاطات المعادية لنا على نحوٍ أفضل»).

تقرَّر استغلال الوقت المتبقِّي قبل انطلاق السفن بُغية الحصول على معلومات عن «أحوال الطقس في سواحل البحر المتوسط»، من أجل اختيار المرافئ ونقل «الربابنة المهرة الذين يعرفون الشواطئ والمياه والخلجان الإيطاليَّة واليونانيَّة حقَّ المعرفة»[5] إلى بطرسبورغ. ولهذا الغرض، قرَّرت

---

(4) M. S. Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» *Slavonic and East European Review*, no. 31 (1952-1953), pp. 152-153.

(5) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» Сообщ. кн. Н. А. Орловым, in: *СбРИО*, t. I (СПб., 1867), с. 11.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، نقلًا عن الأمير ن. أ. أورلوف، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 11].

كاترينا إيفاد المركيز دي كافالكابو إلى إيطاليا وكلَّفته بمهامِّ القائم بالأعمال لدى محفل فرسان مالطا. غير أنَّ سفر كافالكابو تأجَّل إلى حين وصوله إلى حوض البحر المتوسط مع عمارة سبيريدوف. أمَّا دور المرشد البحري فقد اضطلع به، في البداية، اليوناني أنطون بسارو (بساروس) من جزيرة ميكونوس وأفراد طاقم سفينته، الذين عَرَضُوا خدماتهم على الإمبراطورة الروسية، ووصلوا إلى بحر آزوف قبيل اندلاع الحرب.

اضطلع أنطون قسطنطينوفيتش بسارو (1753-1811)، على غرار إيفان فوينيفيتش، بدور بارز في حملة الأرخبيل؛ إذ بدأ التواصل مع الأخوين أورلوف منذ عام 1764، فقُبِل في الخدمة الروسيَّة في الأول من أيار/ مايو 1769، وأظهر مواهبه في ما بعد في العمليات البريَّة في مورية وفي حصار ليمنوس، وشارك في إقامة إمارة الأرخبيل التي صار واحدًا من «مندوبيها»، وكذلك في حصار بيروت البحري. ومُنح بسارو وسام القديس جاورجيوس من الدرجة الرابعة وعُيِّن بعد الحرب قائمًا بالأعمال في مالطا (1783-1784/ 1796). وبعدما خدم في العديد من الوظائف بروسيا أحيل على التقاعد، وسافر إلى تاغانروغ ومُنِحَ فيها إقطاعةٌ، حيث كانت وفاته في عام 1811[6].

اعتبر ف. أ. بلوغين عزم كاترينا الثانية على توجيه «عددٍ غير كبير نسبيًّا من السفن، ولكن المجهَّزة أفضل تجهيز»، أي عمارة بحرية صغيرة، في البداية، بمثابة تعبير عن شكوك الإمبراطورة في جدوى إرسال الأسطول إلى البحر المتوسط[7]، (وهي التي علَّقت كلَّ الآمال في تلك اللحظة على الانتفاضتين اليونانيَّة والسلافيَّة، على حدِّ زعمه).

---

(6) يُنظر على سبيل المثال: A. Blondy, *L'Ordre de Malte au XVIII^e siècle. Des dernières splendeurs à la ruine* (Paris, 2002), pp. 256-257.

(7) В. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (М., 1996), с. 183.

**[ف. بلوغين، أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال (موسكو، 1996)، ص 183].**

غير أنَّ الأمر لم يكن كذلك. ففي الأمر السامي الصادر بتاريخ التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير، تناول الكلام ضرورة إيجاد موانئ وخلجان لسفن العمارة. وكان كلُّ شيء يدلُّ على أنَّ كاترينا كانت تستعد لتحقيق خطَّتها الكبرى على نحوٍ منهجي ومن دون تردُّد:

- في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر 1768، أخبرت إ. غ. تشيرنيشوف بأنها تصلِّي «من أجل الكورسيكاني»؛

- في السابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، شكرته على إرسال خريطة كورسيكا، بينما كان المركيز ماروتسي يعمل على تأمين التواصل مع الجنرال باولي؛

- في التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير 1769، صدر مشروع التعليمات إلى قائد العمارة البحريَّة؛

- في السادس من آذار/ مارس، صدر المرسوم القاضي بتحضير الأسطول للإبحار قبل الأول من نيسان/ أبريل، وتزويده بالمؤن لمدة خمسة أشهر من وجوده في البحر ...إلخ.

- كانت لكل عمارة بحرية في حملة الأرخبيل (وكان عددها خمس عمائر) مهمَّتها الخاصة[8].

كان على العمارة الأولى أن تبدأ التعاون مع اليونانيين والسلافيين المنتفضين[9]. وما إن بدأت الحرب الروسيَّة - التركيَّة حتى أخذت أعداد من

---

(8) ثمَّة كتابات واسعة عن أوضاع العمائر البحريَّة وتكوينها ومصير بعض سفنها. يُنظر المؤلف التأريخي: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007), с. 10.

[غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)، ص 10].

ويتضمن الكتاب الآتي العرض الأكثر تفصيلًا باللغة الإنكليزية للتاريخ البحري لحملة الأرخبيل:
R. C. Anderson, *Naval Wars in the Levant, 1559-1853* (Liverpool, 1952), pp. 277-307.

(9) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 366.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 366].

المقاتلين تلتفُّ حول أ. غ. أورلوف بحماسة كبيرة، ولم يكن هؤلاء من أبناء المناطق الخاضعة للإمبراطوريَّة العثمانيَّة فحسب، بل من جمهورية البندقيَّة والنمسا والدول الإيطاليَّة أيضًا. وكان من شأن ذلك كلِّه أن يثير قلق الأوساط الحاكمة في تلك الدول.

على الرغم من النشوة العارمة التي اعترت أ. أورلوف بخصوص أبعاد الانتفاضة اليونانيَّة، فإنَّ اهتمامه ظلَّ منصبًّا على مسألة إمداده بالقوات البرية المزوَّدة بالمدفعيَّة؛ بل إنه طلب من شقيقه غريغوري إرسال فلاحيه ليكونوا جنودًا مقاتلين، فبقي أمينًا لطبعه بوصفه نبيلًا روسيًّا («... إذا ما رأيتَ أنَّ ثمة صعوبات في تجنيد الرجال، فلربَّما يتعيَّن عليك أن توضِّح لهم أنَّ في إمكانهم تجنيد الرجال الملائمين في ضياعي، بالقدر الذي يحتاجون إليه»). بيد أنَّ الأمر انقضى من دون تجنيد فلاحي أورلوف؛ إذ انضمَّت قوةُ إنزالٍ مؤلفةٌ من سبع سرايا من فوج كيكسغولمسكي، مع سريَّتَي مدفعية، إلى العمارة البحريَّة الأولى. وما يجدر ذكره أنَّ غريغوري غريغوريفيتش سلَّم بنفسه المدفعيَّة التي في حوزته إلى العمارة البحريَّة[10].

اختارت كاترينا غ. أ. سبيريدوف (1713–1790)، المتقدِّم في السنِّ – الذي بدأ خدمته في البحريَّة في عهد بطرس الأول – بعد ترقيته إلى رتبة أميرال، فعيَّنته وهو في سنِّ الثالثة والستين قائدًا للعمارة البحريَّة الأولى، مُعوِّلةً على خبرته بوصفه قائدَ أسطولٍ وقائدًا لقواعد بحرية كبرى، مثل ريفيل وكرونشتاد (كتب سبيريدوف نفسه في عام 1773 يقول: «لقد خدمت في بحار قزوين وآزوف والشمالي والأطلسي والمتوسط... وكنت ضابط سفينة... وقائدًا لعمائر بحريَّة وقائد أسطول... في أيام السلم والحرب»)[11]. وقد اقترنت خبرة سبيريدوف وبُعْدُ نظره بشجاعة الأخوين أورلوف وحماستهما (كان فيودور في التاسعة والعشرين، وألكسي في الثانية والثلاثين). بدا اختيار الضباط موفقًا؛ إذ تألَّف من قباطنة شباب أنهَوْا للتوِّ فترة تدريبهم في الأسطول الإنكليزي. أمَّا البحَّارة النظاميون الروس فكانوا على قدر من التوافق مع مشاة البحريَّة

(10) المرجع نفسه، ص 364.

(11) المرجع نفسه، ص 133–134.

الإنكليز الذين انضمُّوا إلى الخدمة الروسيَّة. على أنَّ هذه المزايا لم تظهر إلا بعد حين[12].

كانت العمارة البحريَّة الأولى هي الأكبر من حيث عددُ سفنِها؛ إذ كانت تضمُّ سبع سفنٍ من مجموع السفن الخطِّية التي كانت في عداد العمائر البحريَّة الخمس البالغ عددها 20 سفينة. كما كانت تضمُّ أيضًا ثلاث فرقاطات وأربع سفن شراعية صغيرة من ذوات الصاريتين وسفنَ نقلٍ وما شابه. وقد بُنِيَت هذه السفن كلُّها، باستثناء السفينة الضاربة «غروم»، في ستينيَّات القرن الثامن عشر، فكانت جديدة نسبيًّا. ويبدو أنَّ إبحار العمارة كان مقرَّرًا مع بدء موسم الملاحة، بحيث تتمكَّن من إتمام مسيرتها خلال أشهر الصيف. بيد أنَّ العمارة لم تقلع من كراسنايا غوركا إلا في السابع والعشرين من تموز/ يوليو 1769.

اجتازت السفينة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» في حينها، المسافة من بطرسبورغ إلى ليفورنو في غضون شهرين. وبدا أنَّ تجربة إبحار السفن الروسيَّة من أرخانغيلسك إلى البلطيق دلَّت على أنَّه يمكن اجتياز المسافة إلى البحر الأبيض المتوسط خلال ستة أسابيع، لكنَّ وصول العمارة الأولى إلى موانئ إنكلترا استغرق قرابة الثلاثة أشهر. أمَّا إلى بورت ماغون، فلم تصل سفنها الأولى إلا في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، أي بعد أربعة أشهر ونصف من إبحارها، الأمر الذي جعل كاترينا تحثُّ سبيريدوف مندِّدةً بأنَّ الحملة كلها يمكن أن تنقلب «عليك وعليَّ عارًا وخزيًا، بدلًا من أن تكون انتصارًا»[13].

---

(12) لا شك في أنَّ مشكلة اللغة جعلت الأمر أكثر صعوبة. وليس عبثًا أنَّ الضباط الإنكليز الذين انضموا في الخدمة الروسيَّة، تلقوا أوامر تقضي بتعلُّم اللغة الروسيَّة على وجه السرعة، لأنَّهم كانوا يجهلون، على سبيل المثال، «أسماء الحبال وما شابه»، كما وردت تعليمات بضرورة إخضاعهم للامتحان «للتأكُّد من كفاءتهم وخبرتهم». يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 741.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 741].

(13) **Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, с. 391.**

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الرسمي لوزارة الخارجيَّة، ص 391].

شهدت رحلة العمارة البحريَّة الأولى إلى البحر المتوسط مصاعب وخسائر جدِّية، وأصابت أفرادَ الطاقمِ الأمراضُ، فارتاع أ. أورلوف جرَّاء هذه الحال، عند وصولها إلى المنطقة (في شتاء 1769-1770). وحين عاين تلك السفن (شباط/ فبراير 1770) التي أرسلت إليه في إيطاليا في ليفورنو، «وقف شعر رأسه، وملأت الشفقة قلبه. راعَهُ أنْ لا مؤنَ فيها ولا نقودَ ولا أطباء ولا ضبَّاطَ يتولَّون القيادة»[14]. لكنَّ الإمبراطورة لم يتملَّكها الذعر، بل ردَّت على تقريره برباطة جأش: «لا شيء في الدنيا يمكن أن يفعل لأسطولنا الخير، كما ستفعل هذه الحملة. فكلُّ ما هو جامد وعفن سيظهر إلى العلن، ولسوف تصقله الأيام على أحسن وجه»[15].



عمارة غريغوري سبيريدوف البحرية قبيل إبحارها في حملة البحر الأبيض المتوسط في 6 تموز/ يوليو 1769

يجدر الذكر هنا، أنَّ فولتير نفسه ناقش كاترينا في مسألة وصول العمارة البحريَّة الأولى إلى بورت ماغون، في مراسلاته معها، مهنِّئًا إياها بهذا الحدث؛

(14) В. О. Ключевский, «Курс русской истории,» in: *Сочинения* (М., 1989), t. 5, c. 44.
[ف. أ. كليوتشيفسكي، «مقرر التاريخ الروسي»، في: **المؤلفات** (موسكو، 1989)، مج 5، ص 44].

(15) Соловьев, Кн. XIV, c. 358.
[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 358].

فآجابته الإمبراطورة في مطلع شباط/ فبراير 1770 من دون أن يساورها أيُّ قلق: «إنَّني شديدة الامتنان لكم يا سيدي، لأنَّكم تشاطرونني ارتياحي لوصول سفننا إلى بورت ماغون. إنها الآن أقرب إلى العدو ممَّا هي إلى الوطن. وتجعلنا الأغاني التي لحَّنها البحَّارة نفترض أنَّهم عبروا هذه المسافة بانشراح، على الرغم من العواصف والخريف البارد»[16].

مع العمارة البحرية الأولى، بدأ تشكيل العمارة الثانية التي غادرت كرونشتاد في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1769. وبرزت هنا مصاعب في تعيين قائدٍ لها؛ إذ عُيِّن القائد البحري الإنكليزي جون ألفينستون[17]، الذي وُجِّهت إليه الدعوة قبل فترة وجيزة، في أيار/ مايو 1769، بواسطة إ. غ. تشيرنيشوف. ويبدو أنَّ كاترينا كانت لا تزال تفضِّل البحَّارة الأوروبيين الغربيين على البحَّارة الروس. وتبيَّن في آخر المطاف أنَّ الخيار لم يكن موفَّقًا، ليس بسبب عدم استواء العلاقات بين ألفينستون وضباط العمارة فحسب[18]،

---

(16) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Перевел с французского Иван Фабиян (М., 1805), Ч, 1. с. 66.

[مراسلات الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778، ترجمها عن الفرنسية إيفان فابيان (موسكو، 1805)، ج 1، ص 66].

(17) ثمَّة كتابات كثيرة عن جون ألفينستون. وقد قدم إ. كروس توصيفًا رائعًا له:
Э. Кросс, *Британцы в Петербурге: XVIII век* (СПб., 2005), с. 208-210.

[إ. كروس، بريطانيون في بطرسبورغ: القرن الثامن عشر (سان بطرسبورغ، 2005)، ص 208-210].

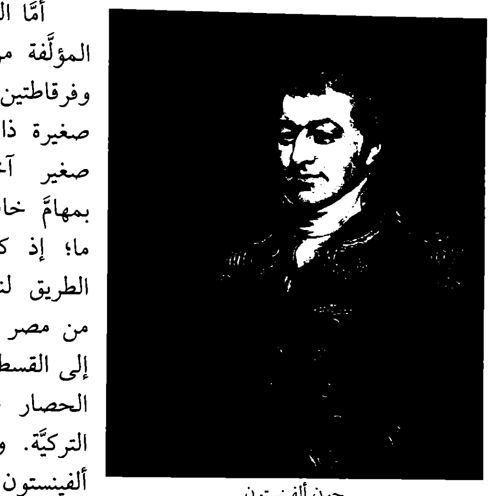
أرشيف ألفينستون، بما في ذلك المذكرات غير المنشورة عن الحرب الروسيَّة - التركيَّة، موجود في الولايات المتحدة الأميركيَّة: Princeton University Library, Dep. of Rare Books and Special Collections, Manuscript Division, CO951.

(18) تناول س. ب. خميتيفسكي أحد هذه النزاعات في صحيفته. أما الإنكليزي فيسلي فيدافع في مذكراته عن ألفينستون: B. Весли, «Воспоминания участника Архипелагской экспедиции,» *Морской сборник*, t. 382, no. 5 (1914), c. 1-53.

[ف. فيسلي، «مذكرات أحد المشاركين في حملة الأرخبيل»، المجموعة البحرية، المجلد 382، العدد 5 (1914)، ص 1-53]. علمًا أن رأي كاتب المذكرات (يفترض إ. كروس بأن اسمه ت. نيوبيري، وليس فيسلي) لا يزال حتى الآن هو الأغلب في الأدبيات التاريخية الغربية حين يفسِّر دور ألفينستون في الحرب الروسيَّة - التركيَّة. يُنظر في هذا الصدد، على سبيل المثال: Кросс, c. 207, at: https://bit.ly/2XxND2j

[كروس، ص 207].

بل لأنَّ كاترينا تخوَّفت في تشرين الثاني/ نوفمبر من نشوب «تنافر» مع القيادة، يمكن أن يكون كارثيًّا على الحملة.


جون ألفينستون

أمَّا العمارة البحريَّة الثانية، المؤلَّفة من ثلاث سفن خطِّية وفرقاطتين وسفينة شراعيَّة صغيرة ذات صاريتين ومركب صغير آخر، فقد خُصِّصت بمهامَّ خاصَّة مستقلَّة إلى حدٍّ ما؛ إذ كان عليها أن تجتاز الطريق لنقل «المؤن الغذائية» من مصر والمقاطعات الأخرى إلى القسطنطينيَّة، وكذلك فرض الحصار على التجارة البحريَّة التركيَّة. وبعدما أمضت عمارة ألفينستون الشتاء في إنكلترا، أبحرت بسرعة لا تفوق سرعة عمارة سبيريدوف الأولى، ولم تصل إلى البحر المتوسط إلا في ربيع عام 1770.

على الرغم من أنَّ الأمر السامي - الموجَّه إلى الكونتر-أميرال ألفينستون في الخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1769 - كان يفرض «إقامة علاقات شخصية ودقيقة مع الكونت أورلوف»، فإنَّ القائد البحري الإنكليزي أظهر استقلاليَّة مُفرِطة[19] (نعيد إلى الأذهان هنا أنَّ عمليات أورلوف البرية كانت هي المهمَّة الرئيسة بين كل الأعمال الأخرى، فيما كان على العمارة البحريَّة الثانية

(19) هذه الاستقلالية دفعت أ. غ. أورلوف إلى رفع العلم الإمبراطوري على سفينته، ما يعني أنَّ على كلِّ السفن الرضوخ لأوامره، كأنها صادرة عن الإمبراطورة نفسها.

[**العلم الإمبراطوري** (بالألمانية: Kaiser-flagge)، وهو علم كان يرفع على السفن الروسيَّة، للدلالة على وجود القيصر أو أحد الأمراء من أفراد العائلة المالكة على متن السفينة]. (المترجم)

نقل وحدات المشاة والمدفعية). وافترضت كاترينا أنَّ قرارها بإعطاء أوامر مختلفة للعمائر البحريَّة، ستكون له «محاسن» يستفيد منها أ. غ. أورلوف «فجأة أو من حين إلى آخر»؛ بيد أنَّ الظروف المتبدِّلة أظهرت خطأ هذا القرار[20]. فقد فرضت إخفاقات العمليات البريَّة في مورية على أورلوف توحيد العمارتين تحت إمرته، وإدخال تعديلات على أهداف الحملة الاستراتيجيَّة برُمَّتها.

بدأت كاترينا التخطيط لإرسال العمارة البحريَّة الثالثة قبل العمليات في مورية (كتبت لألكسي أورلوف في الثامن من كانون الثاني/ يناير 1770 عن التحضير لها)[21]. كانت مهمَّة هذه العمارة البحرية - المؤلّفة من ثلاث سفن خطِّيَّة وسفن نقل - إيصال القوات البريَّة إلى أ. أورلوف. وزُجَّت في العمل هذه المرة سريتان كاملتان من فوجي بري أوبريجينسكي وشليسيلبورغ. وجاء في الأمر السامي الموجَّه إلى قائد العمارة البحريَّة في الخامس من حزيران/ يونيو أنَّ مهمته الرئيسة تقوم في «استغلال الولاء المعروف لدى الشعوب اليونانيَّة والسلافيَّة، التي يخضع بعضها لها [أي للإمبراطوريَّة العثمانيَّة]، في حين لا يزال البعض الآخر يقاوم حتى الآن بشجاعة... من أجل توجيه ضربة التفافية إليها في المكان الأكثر حساسية»[22].

أبحرت العمارة البحريَّة من ريفيل في الثلاثين من حزيران/ يونيو 1770، أي بعد الانسحاب من مورية وعقب انتصار شيسما، لكن قبل أن يصل الخبر إلى بطرسبورغ. وأشار الأمر السامي الموجَّه إلى قائدها مرارًا بأنَّه على العمارة أن تسرع قدر الإمكان، وأنَّ كل شيء بات جاهزًا لاستقبالها، أكان في كوبنهاغن أم في لندن على حدٍّ سواء.

عُيِّن الكونتر-أميرال آرف الذي استُدعِيَ من الخارج أيضًا - من

(20) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 28.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 28].

(21) المرجع نفسه، ص 31.

(22) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 759.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 759].

الدانمارك هذه المرة - قائدًا للعمارة البحريَّة الثالثة في نيسان/ أبريل 1770. واستُكمل عديد العمارة ببحارة من الدانمارك[23]. وقد أعرب إ. غ. تشيرنيشوف عن إعجابه بحال طاقمها المعنوية، فردَّت كاترينا بمرح وخفَّة، متعمِّدة إظهار معرفتها بالأمثال الروسيَّة: «أن يذهب الطاقم كله إلى البحر راضيًا، فذلك يبعث السرور في نفسي، ولا يساورني فيه شك. ويكفي أن تولد الأغنية الأولى، لكي تصدح لاحقًا من تلقاء ذاتها»[24].

عند إرسال العمارة البحريَّة بقيادة آرف، جرى تلافي الأخطاء التي ارتكبت في أثناء إرسال عمارة ألفينستون؛ إذ فُرِضَ على آرف الخضوع لكلِّ توجيهات أ. غ. أورلوف وغ. أ. سبيريدوف بصورة صارمة وواضحة، ووُضِعَ على كلِّ سفينة من سفنه ضابط بحري لتكون مهمَّته «الرقابة على قبطان السفينة»[25]. ومع ذلك، لم يخلُ الأمر من نزاعات بين آرف والبحارة الروس في ما بعد. فقد كتب آرف إلى بطرسبورغ يقول إنَّ البحَّارة الروس «جهلة لديهم معرفة سطحية من الناحية النظرية، ولا يفقهون شيئًا في الممارسة. فلدينا أشخاص من المفترض أن يكونوا نجارين، لكنَّهم لا يُحسِنون فعل أيِّ شيء... والأمر نفسه في ما يتعلَّق بمعلِّمي الأشرعة؛ إذ إنَّ الموجودين منهم على متن السفن لا يُحسِنون تفصيل الشراع ولا خياطته، لأنهم لم يتعلَّموا سوى مهنة الخياطة»[26]. وفي المحصِّلة، لم يشارك آرف طويلًا في حملة

---

(23) لاحظت كاترينا في أمرها السامي إلى آرف أنَّ لدى الملك الدانماركي «400 بحار جاهزين للخدمة لدينا»، ولكنَّها حظرت «استبدال البحَّارة الدانماركيين بالروس، إلا في حال المرض» (المرجع نفسه). وتشير غريبينشيكوفا إلى أنَّ آرف لجأ، مع ذلك، في أثناء التوقُّف في كوبنهاغن، إلى تجنيد 99 بحارًا دانماركيًا للخدمة في الأسطول الروسي: Гребенщикова, с. 301.
[غريبينشيكوفا، ص 301].

(24) Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, in: *Русский архив*, 1871, no. 9, Стлб. 1337-1338.
[رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، في: **الأرشيف الروسي**، 1871، العدد 9، العمود 1337-1338].

(25) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 760.
[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 760].

(26) المرجع نفسه، ص 765.

الأرخبيل، على غرار ألفينستون، وقد سُرِّح مع مَن رغب مِن الضباط والبحارة الدانماركيين تركَ الخدمة في الأسطول، وذلك في تموز/ يوليو 1771، ثُمَّ من الخدمة الروسيَّة عمومًا في آذار/ مارس 1772.

انضمَّت العمارة البحريَّة الثالثة عند وصولها إلى البحر المتوسط إلى أسطول الأرخبيل الذي بات آنذاك خاضعًا لقيادة موحَّدة، ومع ذلك كانت القوى لا تزال غير كافية. فتوجَّه أ. أورلوف إلى الإمبراطورة بطلب إرسال سفن إضافية إلى الأرخبيل، ذلك أنَّ السفن الخطِّية العاملة ضمن العمارة البحرية الموحدة كانت قد انتهت إلى وضع متهالك للغاية، لأنَّها كانت مضطرَّة إلى تأدية الخدمة القتالية في أشهر الشتاء العاصفة (التي كان سكان حوض البحر المتوسط، بالمناسبة، يعتبرونها غير ملائمة للملاحة). وطلب أورلوف في هذا السياق أن تتألَّف العمارة البحريَّة الجديدة، إذا ما أُرسلت، من بحارة وضباط روس، وأن يتولَّى قيادتها قادة روس، وليس أجانب، «فنحن نلاحظ أنَّ ثمَّة اختلافًا كبيرًا بين الروس والأجانب، إذ لا يمكن والحال هذه إلا أن نتوقَّع من أبناء بلدنا الغيرة في تأدية الواجب ومحبة الوطن، فضلًا عن تحمُّل أعباء العمل والمشاقِّ والمصاعب في الحرب، إضافةً إلى عدم فهم اللغة الأجنبية، بما يجعل الرفض والعرقلة أمرًا غير مقصود»[27].

أخذت الإمبراطورة هذا الطلب في الحسبان، فأوكلت قيادة العمارة البحريَّة الرابعة، المؤلفة من ثلاث سفن خطِّية خرجت قبل عامين من قاعدة بناء السفن، إلى الكونتر-أميرال ف. ي. تشيتشاغوف (1726-1809)، القائد البحري المجرَّب المتخرِّج في المدرسة الإنكليزيَّة في منتصف القرن، الذي قادها إلى ليفورنو. بيد أنَّ تشيتشاغوف لم يشارك في الأعمال القتالية في حوض البحر المتوسط، حيث استُدعِيَ إلى أسطول البلطيق على الفور[28].

كان مطلوبًا من تشيتشاغوف، على غرار آرف، السرعة في التحرُّك. ونظرًا إلى الفترة الطويلة التي استغرقتها مسيرة العمائر البحرية الثلاث الأولى، وربما

(27) المرجع نفسه، ص 671.

(28) المرجع نفسه، ج 12، ص 8.

بسبب الفتور الذي شاب العلاقات مع إنكلترا، أوصت كاترينا تشيتشاغوف بعدم التوقُّف في بريطانيا، فكتبت في الأمر السامي الذي وجهته إليه: «لا، لا أعتقد أنَّ ثمة حاجة إلى دخول مرفأ ما قبل جبل طارق أو التوقُّف فيه، أو حتى قبل ماغون، بينما يمكنكم التزوُّد بكل ما تحتاجون إليه، ولا سيَّما الماء، في كوبنهاغن أو هيلسينور، وبِذا لن تكون رحلتكم أنجح فحسب، بل أقلَّ تكلفة أيضًا»[29].

غادرت العمارة البحريَّة ريفيل في الثامن من أيار/ مايو 1772، ووصلت إلى ليفورنو في الخامس والعشرين من آب/ أغسطس، حيث أوكلت قيادتها إلى القبطان م. ت. كونابيف (1727-1789)، الذي وصل إلى البحر المتوسط على متن السفينة الخطِّية «الكونت أورلوف» التابعة للعمارة ذاتها. ودخلت سفينتان خطِّيتان من سفن العمارة الرابعة، ضمن فصيل غير كبير في 27-29 تشرين الأول/ أكتوبر 1772، في معارك كبيرة في باتراس (عند مدخل خليج ليبانتو) وحقَّقتا انتصارًا باهرًا على أسطول «دولتسينوت» (من مرفأ أولتشي) التابع للأتراك. وقد اعتبرت هيئة الأدميرالية مأثرة القبطان كونابيف الذي قاد العملية عند باتراس، «مماثلة لانتصار شيسما» الشهير[30].

في تموز/ يوليو 1773، وردًّا على سؤال الإمبراطورة، طلب أورلوف إرسال الإمدادات مجدَّدًا، لأنَّ السفن واصلت تداعيها بصورة ملحوظة، وبما أنَّ الأمور تسير في اتجاه عقد الصلح، ينبغي إرسال سفن نقل لإعادة الرجال إلى الوطن[31].

أعرب ألكسي غريغوريفيتش عن رغبته في أن يكون س. ك. غريغ على رأس العمارة البحريَّة الجديدة، فقد خاض معه الحملة كلها بنجاح، ونشأت بينهما علاقات حميمة[32].

---

(29) المرجع نفسه، كرَّرت الإمبراطورة التعليمات نفسها لسبيريدوف بشأن العلاقات مع الدول الأجنبية.

(30) المرجع نفسه، ص 168.

(31) المرجع نفسه، ص 141-145.

(32) المرجع نفسه، ص 144.

غادرت العمارة البحريَّة الخامسة، المؤلَّفة من أربع سفن خطِّيَّة حديثة البناء، كرونشتاد في الحادي والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1773، ثم ريفيل في الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، تحت قيادة الكونتر-أميرال غريغ. فوصلت إلى ليفورنو في الحادي عشر من شباط/ فبراير 1774، على الرغم من التوقُّف في بورتسموت في الشتاء. بيد أنَّ الأعمال القتالية كانت قد توقَّفت عمليًّا آنذاك. لكنَّ السفن التي أتى بها غريغ كانت على جانب بالغ من الأهمية بالنسبة إلى عودة الأسطول وإنجاز أعمال أخرى في حوض البحر المتوسط (منها على وجه التحديد أنَّ غريغ هو الذي نقل الأميرة تاراكانوفا من إيطاليا).



الأميرال صامويل غريغ

كانت كاترينا تُجري الاتصال مع أسطولها في البحر المتوسط بواسطة الرسل عبر إيطاليا. وكان هؤلاء الرسل الذين يجولون بين ليفورنو وسان بطرسبورغ من علية القوم عادة. ففي تقرير المركيز ماروتسي عن المدفوعات إلى الرسل، وردت أسماء من أمثال مدير أكاديمية العلوم في ما بعد س. غ. دوماشنيف، وإيفان (يان) خريستنيك[33]،

(33) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 45, Л. 93-94.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا والبندقية، الملف 45، الورقة 93-94].

على سبيل المثال، ورد في صحيفة الضباط المهندسين في الأسطول، بتاريخ الثالث عشر من شباط/ فبراير 1770، تعليق حول وصول الرسول خريستنيك (كريستينين، بحسب ما ورد في النص)، الذي اجتاز بعد خروجه من سان بطرسبورغ «الطريق البرية حتى ليفورنو في غضون 25 يومًا»، وبعد بضع ساعات =

وف. س. تامارا[34]، وغيرهم. وكان الاتصال يجري بحرًا، وتحديدًا بواسطة «صاحب السفينة الإنكليزي براون»[35].

كان لعبور العمائر البحريَّة الروسيَّة المتكرِّر حول أوروبا تأثير نفسي فريد في نوعه. وبالتدريج، أدركت البلاطات الحاكمة أنَّ روسيا أخلَّت بالنظام العالمي السابق وبـ «ميزان القوى» المزعوم في أوروبا الجنوبية، وأنَّها ستظلُّ – على ما يبدو – حاضرة في البحر المتوسط في المستقبل. لكن، لم يكن للإبحار في حوض البحر المتوسط معنى عسكريٌّ – سياسيٌّ فقط بالنسبة إلى الروس، بل قدَّم إلى المشاركين في الحملة فرصة فريدة في نوعها للتعرُّف إلى الجزءين الغربي والجنوبي الغربي من أوروبا، والاطِّلاع على حضارتها، وهم الذين لم يتسنَّ لأغلبيتهم الساحقة في الماضي الابتعاد من سواحل الإمبراطوريَّة الروسيَّة على البلطيق.

= أمضاها عند أ. غ. أورلوف، توجَّه على الفور نحو جنوب إيطاليا، حيث تمكَّن بعد تسعة أيام من إبلاغ البحارة المحتجزين في الحجر الصحي بصقلية عن المكافآت الممنوحة لقاء انتصار شيسما (صحف الرائد المهندس كيلخين: **أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 45). ولاحقًا شارك خريستنيك، برتبة رائد ومساعد للجنرال أ. غ. أورلوف، في احتجاز الأميرة تاراكانوفا. ولعل كارل ليودفيك خريستنيك (1732 أو 1733–1792 أو 1794)، الفنان والرسام الشهير – رسم صور قادة حملة الأرخبيل الشخصية وصور المشاركين – كان واحدًا من أقربائه.

(34) بدأ فاسيلي ستيبانيفيتش تامارا (1740–1813/1819) ترقيه اللاحق الباهر بوصفه دبلوماسيًّا، في حملة الأرخبيل بالذات، فكان من عام 1799 وحتى عام 1809 رسولًا لروسيا في القسطنطينيَّة. يُنظر عنه أيضًا الفصل الأول.

(35) ورد ذكره مرارًا في صحف الرائد المهندس كيلخين: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 22, 39 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 22، ظهر الورقة 39].

وقد أرسل أورلوف مع روبرت براون على متن السفينة «تارتار» في العام 1772، سيرغي بليشييف مبعوثًا إلى علي بك: С. Плещеев, *Дневные записки путешествия из Архипелагского России принадлежащего острова Пароса в Сирию и к достопамятным местам в пределах Иерусалима находящимся с краткою историею Алибеевых завоеваний, российского флота лейтенанта Сергея Плещеева в исходе 1772 лета* (СПб., 1773).

[**س. بليشييف، يوميات الرحلة التي قام بها الملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في نهاية صيف عام 1772، من جزيرة باروس الأرخبيلية التي تعود لروسيا، إلى سوريا والأماكن المشهودة الواقعة في حدود القدس، مع عرض سريع لفتوحات علي بك** (سان بطرسبورغ، 1773)].

في مطلع القرن الثامن عشر، ورد ذكر تلك الأماكن التي أمَّتها سفن العمائر البحريَّة الروسيَّة بين عامي 1769 و1775 في «القصة من عصر بطرس الأكبر»، «حكاية البحار الروسي فاسيلي كوريوتسكي والأميرة هيراكليا الجميلة، أميرة الأراضي الفلورنسيَّة» (القصَّة مؤرَّخة ما بين عامي 1703 و1726). تروي «الحكاية» كيف عاش البحار فاسيلي في هولندا وكيف كان يأتي «إلى إنكلترا مع السفن»، وكيف «عاش في فرنسا سنتين»، حيث كان يروي القصص لقطاع الطرق «عن السفن السبع التي تأتي من البرتغال»، وكيف «سافر مع الأميرة هيراكليا إلى تسيساريا بحرًا»، وكيف وصل إلى الدولة الفلورنسيَّة، وكيف أقام فاسيلي على جزر مزعومة في بحر غير معروف. في غضون ذلك، ظلَّت جغرافية ترحاله المغامر، أكان بالنسبة إلى مؤلِّف القصة أم بالنسبة إلى القرَّاء، تتلاءم تمامًا مع روح القصص النثريَّة التي اتَّسم بها القرن الثامن عشر، أي تلك التي لا تدَّعي الواقعية، بل تكتفي بإلهاب مخيِّلة القارئ بالحديث عن الأراضي الوهمية التي «استكشفها» البحار الروسي.

بعد نصف قرن من الزمن، تجسَّدت هذه الأراضي ذاتها أمام أعين البحَّارة والضباط الروس المشاركين في حملة الأرخبيل بصورة ملموسة تمامًا؛ فحظوا خلال طريقهم الطويل إلى الأرخبيل بمراسٍ آمنة في الدانمارك وعند سواحل بريطانيا والبرتغال وفي بورت ماغون في مينوركا، وكذلك في مالطا وصقلية وجنوى وليفورنو، وإنْ مع قيود معينة؛ كما تسنَّى لبعضهم الانتقال من هناك إلى بيزا وفلورنسا والوصول إلى روما.

كانت العمائر البحريَّة تغادر بحر البلطيق، فتتوقَّف حتمًا في سواحل كوبنهاغن عاصمة مملكة الدانمارك الحليفة. فقد ظلت هذه الحاضرة تستقبل ضباط الأسطول بودٍّ وترحابٍ طيلة فترة الحرب. وليس من قبيل المصادفة أن تكتب كاترينا في تعليماتها إلى سبيريدوف في حزيران/ يونيو 1769: «بإمكانكم الاعتماد على الدانمارك كليًّا، والدخول إلى موانئها بلا تردُّد عند الضرورة، فلدينا علاقات صداقة وطيدة معها، وهي ستقدِّم لعمائرنا كلَّ مساعدة ممكنة عن طيب خاطر. كما أنَّ موانئ هولندا ستكون مفتوحة أمامها، فلدينا

أيضًا علاقات توافق وصداقة طيبة معها»[36]. وكرَّرت الإمبراطورة الكلام نفسه في أمرها السامي الموجَّه إلى آرف في الأرخبيل[37]. ولم يتوانَ الضباط المهندسون العاملون على السفينة «روستيسلاف»، التابعة للعمارة الأولى، عن الإشارة إلى أنَّ هذه العمارة وصلت إلى كوبنهاغن في الرابع من أيلول/ سبتمبر، فدعاهم السفير م. م. فيلوسوفوف، إلى القصر الملكي في فريديريخبيرغ، حيث استقبلهم الملك الشاب كريستيان السابع، و«أقيمت مأدبة»[38] على شرفهم. وتضمَّنت صحف الرائد المهندس غ. كيلخين رسمًا لكوبنهاغن، يظهر فيه الأسطول الروسي راسيًا في مرفأ العاصمة الدانماركيَّة.

في غضون ذلك، خلال اثني عشر يومًا من توقُّف العمارة البحريَّة الأولى في كوبنهاغن، «تُوفِّي عددٌ من العاملين» فيها، وفرَّ بعضهم الآخر إلى المدينة ولم يعد. وأثار وضع العمارة قلقًا جديًا لدى السفير الروسي فيلوسوفوف، فكتب إلى بطرسبورغ عن إدمان مرؤوسي غ. أ. سبيريدوف الخمر، وعن تباطؤ قائد العمارة، ولم يُكِلِ المديح إلا لغريغ وإ. أ. غانيبال والمركيز دي كافالكابو الذي رافق العمارة إلى مالطا[39]. وعند وصول عمارة آرف إلى كوبنهاغن في تموز/ يوليو 1771، سُمِحَ للبحارة أيضًا بالنزول إلى الشاطئ، وأعرب سكَّان العاصمة الدانماركيَّة عن «إعجابهم» عمومًا بـ «سلوك» البحَّارة الروس و«مظهرهم الرائع» بحسب رسالة آرف[40].

---

(36) B. A. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (M., 1883), Приложение 27, c. XCII.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، الملحق 27، ص XCII].

(37) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 760.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 760].

(38) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 5-5об.

[**أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 5 - ظهر الورقة 5].

(39) Гребенщикова, c. 218-219.

[غريبينشيكوفا، ص 218-219].

(40) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 764.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 764].


السفير ميخائيل فيلوسوفوف

كلَّفت علاقة الدانمارك الودِّية روسيا أموالًا طائلة، والفضل في بقاء العلاقات ودِّية معها تمامًا في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة يعود إلى السفير م. م. فيلوسوفوف والمستشار ك. سالدين، الهولشتايني الأصل إلى حدٍّ بعيد، وهما اللذان عملا بنجاح على تحييد جهود فرنسا وإسبانيا والسويد الموجَّهة ضد التحالف بين كلٍّ من الدانمارك وروسيا[41]. ومن المعروف أنَّ كاترينا أقدمت في نيسان/ أبريل من عام 1767، باسم ابنها بافل، على التنازل للملك الدانماركي عن جزء من أرشيدوقية هولشتاين التي امتلكها بافل، وكان الردُّ أن مُنحت السفن الروسيَّة امتيازات خاصة في الموانئ الدانماركيَّة.

على غرار إنكلترا، سمحت الدانمارك لضبَّاطها البحريين بالخدمة لدى الروس. وفيما كان الدانماركي آرف يقود سفنه في حوض البحر المتوسط، كان البحَّارة الروس على جزيرة مينوركا البعيدة يعربون عن تضامنهم مع الدانمارك، بالانضمام إلى البحَّارة الدانماركيين في إعلان الحداد في الرابع عشر من تموز/ يوليو 1771 لمناسبة وفاة ملكهم[42].

لم تؤدِّ استقالة آرف - ولا مغادرة عدد كبير من البحَّارة الدانماركيين الأرخبيل - إلى تكدير هذه العلاقات، بل على العكس؛ إذ ساد أوروبا في آب/ أغسطس 1773 اعتقادٌ بأنَّ ثمَّة احتمالًا كبيرًا لوصول «عمارة بحرية

(41) تذكر غ. أ. غريبينشيكوفا بعض المعلومات في هذا الخصوص: Гребенщикова, с. 196-200, 204-205.

[غريبينشيكوفا، ص 196-200، 204-205].

(42) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 118-199.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 118-199].

قوية، تضمُّ سفنًا عسكريَّة روسيَّة ودانماركيَّة»، وذلك استنادًا إلى «المعاهدة التي وقَّعها بلاطا سان بطرسبورغ وكوبنهاغن مؤخرًا [في عام 1767]، بحيث انتقلت بموجبها أرشيدوقيَّة هولشتاين بالكامل إلى الدانمارك» (التشديد من المؤلفة)(43). وعلى الرغم من عدم حصول هذه الحملة، ظلَّت سفن حملة الأرخبيل تتلقَّى المساعدة في كوبنهاغن، وظلَّت روسيا تعتبر الدانماركيين حلفاءها الأقربين حتى بعد إبرام صلح كوتشوك - كاينارجي.

كانت العمائر البحريَّة بعد خروجها من بحر البلطيق تتوقَّف في موانئ بريطانيا. وكما سبق أن ذكرنا(44)، أتاح العمل المتقن الذي قامت به كاترينا مسبقًا على المحور الروسي - الإنكليزي لها التأكيد في تعليماتها إلى غ. أ. سبيريدوف على «الصداقة الوطيدة» و«المصالح المتَّسقة» مع إنكلترا، التي عكَّرت صفوها بعض الشيء «السواترُ» المحتملة و«العوائقُ» غير الواضحة «تحت ذرائع واهية»(45). أمَّا الأوامر التي أعطيت إلى كلٍّ من ألفينستون وآرف، فقد خلت من الشكوك بخصوص «الساتر» الإنكليزي، وبقي فيها التأكيد أنَّ إنكلترا «حسنة النية حيالنا، وأنَّها واحدة من أكثر الدول صداقة معنا، لأنَّ آفاقنا ومصالحنا مترابطة على نحو وثيق وتسير يدًا بيد نحو الهدف ذاته»(46).

---

(43) *G. d'A.*, 1773, no. 71.
نبأ من لندن بتاريخ السابع والعشرين من آب/ أغسطس.

(44) يُنظر الفصل الأول.

(45) Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке*, с. XCII.
[أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر**، ص XCII]. بناءً على الوثيقة المحفوظة في أرشيف هيئة الشؤون الخارجية ضمن المجموعة «علاقات روسيا وتركيا»، بُلِغَ الاتفاق على الدعم الإنكليزي في نهاية عام 1768- مطلع عام 1769، وهذا أمر بدهي. فمن المستبعد أن تقرِّر كاترينا الثانية الإقدام على عملية خطيرة وطويلة الأمد إلى هذا الحد، من دون أن تتحقَّق مسبقًا من موقف إنكلترا منها. إذ إن «نسخة الأمر السامي المتضمّن التعليمات المعطاة إلى الأميرال سبيريدوف عند إبحاره»، والذي يجري الحديث فيه عن الاتفاق القائم، وضعت في «19 كانون الثاني/ يناير 1769»:
*АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношени России с Турцией, Ед. хр. 1878, Л. 29.
[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا وتركيا، وحدة الحفظ 1878، الورقة 29]. يُنظر أيضًا الفصل الأول. وتشكل هذه النسخة صيغة أولية للتعليمات التي أعطيت للأميرال في تموز/ يوليو 1769.

(46) Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке*, с. XCIII.
[أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر**، ص XCIII].



ساحل كوبنهاغن ومواقع سفن العمارة البحرية الأولى فيه. أيلول/ سبتمبر 1769

على الرغم من أنَّ المفاوضات بشأن معاهدة التحالف الروسي - الإنكليزي لم تنجز بحلول عام 1768، واستمرار إنكلترا إعلانها الوقوف على الحياد طيلة الحرب، إلا أن مساعداتها العسكرية والسياسية، التي قدَّمتها خلال الحرب الروسيَّة - التركيَّة بين عامي 1768 و1774، اتَّسمت بـ «أهمية حيوية»[47]، ولم يكن لها مثيل في تاريخ العلاقات بين البلدين[48]. فقد غضَّت

(47) Кросс, с. 204.

[كروس، ص 204].

وبحسب رأي م. أندرسون، فإن «النجاح المبين» في شيسما «ما كان ممكنًا لولا مساعدة الضباط البريطانيين والحكومة البريطانيَّة»: M. S. Anderson, *Britain's Discovery of Russia, 1553-1815* (New York, 1958), p. 129.

(48) И. Ю. Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774,» in: *Труды Моск. гос. историко-архивного ин-та*, t. 23 (M., 1967), с. 159-190, Е. В. Тарле, «Чесменский бой и

الحكومة الإنكليزيَّة الطرف عن تجنيد ضباطها الذين تطوَّعوا للخدمة في الأسطول الروسي(49). وكانت ترد على الاحتجاجات التركيَّة بالقول إنَّ الشبيبة تميل دائمًا نحو العراك، وإنَّه ما من قوة تستطيع ردعهم عن ذلك(50). وبوصفها دولةً حياديةً، امتنعت إنكلترا عن تزويد الأسطول الروسي بالسلاح من ترساناتها، لكنها لم تفرض الحظر على شراء الأسلحة بواسطة التجار الإنكليز، كما أنها لم تحظر على روسيا اقتناء سفن الشحن البريطانيَّة(51).

تركَّزت جهود سفير روسيا في إنكلترا إ. غ. تشيرنيشوف على تأمين

---

первая русская экспедиция в Архипелаг (1769-1774),» in: Е. В. Тарле, *Сочинения*, t. 10 (M., 1959), с. 9-94; Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 155; M. S. Anderson, «Great Britain and the Russo-Turkish War of 1768-74,» *English Historical Review*, vol. 69, no. 270 (1954), pp. 39-58.

[إ. ي. رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، في: **أعمال معهد موسكو الحكومي للتاريخ الأرشيفي**، مج 23 (موسكو، 1967)، ص 159-190؛ ي. ف. تارلي، «معركة شيسما والحملة الروسيَّة الأولى في الأرخبيل (1769-1774)»، في: ي. ف. تارلي، **المؤلفات**، مج 10 (موسكو، 1959)، ص 9-94].

(49) تذكر إ. ي. رودزينسكايا أنَّ 35 ضابطًا إنكليزيًا كانوا يخدمون في الأسطول الروسي في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة: Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774,» с. 180.

[رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، ص 180]. ويورد أنطوني كروس رقمًا أكبر، فيقول إنَّ 65 بريطانيًا خدموا في صفوف الروس في الفترة بين عامي 1764 و1772، فضلًا عن عدد كبير من المتطوعين: Кросс, с. 200-203.

[كروس، ص 200-203].

(50) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношение России с Турцией, Ед. хр. 1893.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا وتركيا، وحدة الحفظ 1893].

(51) يُنظر على سبيل المثال: *РГА ВМФ*, Ф. 172, Оп. 1, Д. 157. (Документы и переписка между А. С. Мусиным-Пушкиным и графом И. Г. Чернышевым о покупке за границей судов для русского флота, изготовлении в Англии картин для Екатерины II, доставке в Россию медикаментов и о новых изобретениях заграницей, о приглашении в русскую службу иноземцев и о выдаче пособий по частным делам графа И. Г. Чернышева. 1770-1772 гг.).

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 172، القائمة 1، الملف 157]. (الوثائق والمراسلات بين أ. س. موسين بوشكين والكونت إ. غ. تشيرنيشوف عن شراء السفن للأسطول الروسي في الخارج، وإعداد اللوحات لكاترينا الثانية في إنكلترا، وإيصال المواد الطبية إلى روسيا، وعن الابتكارات الجديدة في الخارج، ودعوة الأجانب للخدمة لدى روسيا وصرف التعويضات المالية لشؤون الكونت إ. غ. تشيرنيشوف الخاصة. 1770-1772).

الدعم الدبلوماسي والمادي لحملة الأرخبيل، فأسهم في أن يكون موقف البلاط الإنكليزي وحكومته متعاطفًا مع مشروع كاترينا المتوسِّطي. ولمَّا توجَّه إ. غ. تشيرنيشوف إلى سكرتير الدولة البريطاني اللورد روشفور بطلب رسمي في 31 آب/أغسطس 1769 (عندما اقتربت السفن من كوبنهاغن) بتقديم المساعدة للأسطول الروسي، جاء الجواب إيجابيًا على الفور، ما يؤكِّد التفاهم المسبق بشأنه. أكثر من ذلك، يشير الضليع في الدبلوماسيَّة البريطانيَّة م. س. أندرسون إلى أنَّ لوردات الأدميراليَّة وافقوا بسرعة في اليوم التالي على إعداد «أفضل استقبال ودِّي» للسفن الروسيَّة، و«على أيِّ شكل من أشكال العون والمساعدة التي يمكن أن تحتاج إليها، كيما تتمكَّن من مواصلة مسيرتها»[52]؛ وأرسلت التعليمات إلى جبل طارق وبورت ماغون لتقديم ما يحتاجه الأسطول من مساعدة مادية[53]. ولا يمكن تفسير مثل هذه السرعة الإنكليزيَّة إلا بوجود اتفاق عميق مسبق. ففي الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1769، كتب الأميرال الإنكليزي غاك إلى موسين بوشكين: «تلقَّى السيد مور، قائد بورتسموت، أمرًا من الهيئة عندنا هنا يقضي بتقديم كلِّ مساعدة ممكنة... لكلِّ سفينة من سفنكم تدخل المرفأ... وإذا ما ظهرت صعوبات غير متوقَّعة يمكن سعادتكم الاعتماد على عدم تأخُّرنا في إعطاء الأوامر لتذليلها من دون إضاعة للوقت»[54].

كانت العمائر البحريَّة الروسيَّة في بريطانيا تحت رعاية البعثة الروسيَّة الدائمة. فعند وصول العمارة الأولى، جاء فورًا الكونت إ. غ. تشيرنيشوف من لندن لـ «زيارة الأسطول وسفنه الراسية عند مصب نهر هال، ليعود إلى

(52) Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 152.

(53) Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774».
[رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»].

(54) И. Ю. Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775,» Дисс.... канд. ист. Наук, М., 1967, с. 256 (со ссылкой на: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 2, Л. 18).
[إ. ي. رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، أطروحة دكتوراه في علوم التاريخ، موسكو، 1967، ص 256 (نقلًا عن: **أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 2، الورقة 18)].

لندن في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر»[55]، وفي السابع من الشهر نفسه، زار تشيرنيشوف السفن مجدَّدًا عند وصولها إلى بورتسموت[56]. وقد أظهر ذلك، مرَّةً أخرى، مدى جدِّية إ. غ. تشيرنيشوف في تأدية مهمَّته المتمثِّلة في تأمين مرور الأسطول الروسي بمحاذاة الشواطئ الأوروبيَّة. أما البحَّارة الروس فلعلَّ ذلك جعلهم يتذكَّرون مجدَّدًا أنَّ الرعاية الملكية تظلِّلهم وهم بعيدون من ديارهم. وبحكم واجبه الوظيفي كان أ. س. موسين بوشكين - الذي عاد إلى منصبه سفيرًا لروسيا في لندن ابتداء من تشرين الثاني/نوفمبر 1769 - يصعد مرارًا إلى متن السفن الروسيَّة، إمَّا بمهمَّة تفتيشيَّة، وإمَّا لتعجيل إبحارها نحو الأرخبيل[57]. ولم يبخل كبار ممثِّلي السلطات البريطانيَّة على الأسطول بالاهتمام. فما إن وصلت سفن العمارة الأولى في التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر 1769 (بحسب التقويم القديم)، حتى قام «الأمير الإنكليزي مع الضباط» بزيارة السفينة «روستيسلاف» في بورتسموت، وأمضوا على متنها ساعتين، غادروا بعدها ترافقهم أنغام الموسيقى وهتافات البحَّارة الوداعيَّة[58].

بحسب ما يذكره أحد المشاركين في عمارة ألفينستون، «أعطيت التعليمات لسلطات المرفأ [في بورتسموت في كانون الثاني/يناير 1770] أن «تتعامل بأقصى درجات الود مع البحَّارة الروس، وأن تقدِّم لهم كلَّ مساعدة وعون»، بناء على طلب السفير الروسي السيد موسين بوشكين[59].

---

(55) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 7 об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 7].

(56) لمزيد من التفصيل، يُنظر: Гребенщикова, с. 220-224.
[غريبينشيكوفا، ص 220-224].

(57) يُنظر على سبيل المثال: *G. d'A.*, 1769, no. 99; 1770, no. 29.

(58) *РГВИА*, Ф. 846, Оп.16, Д. 1860, Л. 7об.-10.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 7 - الورقة 10].

(59) Весли, с. 5.
[فيسلي، ص 5].

بلغت سفن العمائر البحريَّة كلها المرافئ البريطانيَّة بعد عناء. فقد كتب س. ب. خميتيفسكي: «لقد واجهت في طريقها متاعب ومشقات هائلة، بسبب العواصف الهوجاء والزمهرير والصقيع والثلوج والأمطار والرطوبة». وراقب الأوروبيون بقدر كبير من الشك سفنًا متهالكة، فكتب المبعوث التوسكاني إلى باريس نيقوللي في تقريره على سبيل المثال: «... توجَّه بعض الإنكليز العارفين بالأمور البحرية لمشاهدة السفن [الروسيَّة] المتوقِّفة في هامبر (هنا، في شمال شرق بريطانيا، يقع مرفأ هال - المؤلفة)، ولم يتسنَّ لهم معرفة الهدف الحقيقي من وراء هذه الحملة، التي يعتبرونها مخاطرة، أكثر ممَّا هي حملة محكومة بنجاح سهل، ليس بسبب **بنية السفن الضعيفة والسيئة** فحسب، بل نتيجة **لتجهيزها الرديء** بالدرجة الأولى أيضًا» (التشديد من المؤلفة)[60].

ابتداء من خريف عام 1769 وحتى نهاية الحرب، بالكاد كان يمرُّ وقت لا ترسو فيه السفن الروسية في مرافئ المدن الساحلية سبيتهيد وبورتسموت وهال. وكانت تبقى في أحواض تصليح السفن البريطانيَّة بضعة أشهر أحيانًا، (الأمر الذي كان يتسبَّب بتأجيل تصليح السفن البريطانيَّة)[61]. وبناءً على معطيات غ. أ. غريبينشيكوفا، أنفقت العمارة البحرية الأولى 1788 جنيهًا على تصليح السفن وتجهيزها في بريطانيا[62]. أمَّا في أثناء توقُّف عمارة ألفينستون في بورتسموت في خريف عام 1769 - شتاء عام 1770، فقد نفَّذت قاعدة تصليح السفن البريطانية، بناءً على حسابات س. ب. خميتيفسكي، أعمالًا بقيمة 15821 جنيهًا استرلينيًا، أي «ما يوازي 79,107 روبلات و70 كوبيكًا بالعملة الروسيَّة»[63]. ومع تزايد حركة العمائر البحريَّة في حوض المتوسط، لم

---

(60) تقرير المبعوث التوسكاني في باريس نيقوللي بتاريخ السابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر 1769: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2334.

(61) Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 156.

(62) Гребенщикова, с. 222.
[غريبينشيكوفا، ص 222].

(63) И. М. Смилянская, М. Б Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, = См. Приложение 8, с. 580.

تسقط أبدًا الحاجة إلى أعمال التصليح في بورتسموت. فحينما وصلت العمارة البحريَّة الخامسة بقيادة س. ك. غريغ إلى الشواطئ البريطانيَّة في كانون الأول/ ديسمبر 1773، استؤجر مجدَّدًا أكثر من 20 عاملًا لتصليح سفنها في أحواض مرفأ المدينة[64].

احتاج إلى المساعدة أيضًا عدد كبير من المرضى من بين المشاركين في الحملات كافَّة. فخلال الشهرين الأولين من الإبحار، وافت المنيَّة 100 رجل من رجال عمارة سبيريدوف فيما أُصيب نحو 500 آخرين بأمراض مستعصية. وإبَّان التوقُّف في مرفأ هال توفي 83 آخرون، أي خلال ثلاثة أسابيع ونيف فقط[65]. وأشار خميتيفسكي إلى المبلغ الباهظ البالغ 8 آلاف جنيه استرليني، الذي أُنفق على علاج المرضى من رجال العمارة الثانية في مستشفى بورتسموت[66]. وأعربت *Gentleman's Magazine* (**مجلة جنتلمان**) البريطانيَّة عن دهشتها في هذا الصدد إذ كتبت تقول: «وصلت إلى بورتسموت تعليمات تقضي باستقبال المرضى الروس من رجال العمائر البحرية. فعلى الرغم من أنَّ مناخ بلادهم أقسى بكثير من مناخ بلادنا، إلا أنَّهم أكثر عرضة للمرض، وهم يموتون بأعداد كبيرة»[67].

أثنى القبطان خميتيفسكي بوجهٍ خاصٍّ على مستشفى جون ليندر في بورتسموت: «يقال إنَّ مستشفى بورتسموت لا مثيل له في إنكلترا كلها، وهو مؤهَّل لاستيعاب ما يناهز الثلاثة آلاف شخص، وهو عبارة عن مبنى حجريٍّ من ثلاث طبقات، في داخله فناء حسن الترتيب، طرقاته مغطاة بالرمل. ما

---

= [إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 580 (الطبعة الروسيَّة)]. يُنظر أيضًا: Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 156.

(64) *G. M.*, 1774, vol. 44, p. 39.

(65) Тарле, c. 27.

[تارلي، ص 27].

(66) يُنظر أيضًا في هذا الصدد: Гребенщикова, c. 229.

[غريبينشيكوفا، ص 229].

(67) *G. M.*, 1774, vol. 44.

كانون الثاني/ يناير. نبأ صادر بتاريخ السابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر.

من أحد يسير على الأعشاب، وقد خُصِّص لهذا الغرض خفر. وجدير بالذكر أنَّ ثمة برجًا على مقربة من المستشفى، ترفع الماء إليه بواسطة الأحصنة، وتنقل إلى كل طبقة من طبقات المستشفى <...>، تعمُّ النظافة كلَّ أنحاء المستشفى وكل ما فيه يشعُّ بالبياض، ولا أثر لأيٍّ من الروائح...»[68]. وقد كانت المستشفيات الروسيَّة التي بنيت بعد ذلك بفترة وجيزة، أكثر تواضعًا بما لا يقاس[69].

تعيَّن على الأسطول في ما بعد اللجوء أكثر من مرَّة إلى دعم الإنكليز الودِّي. فقد اضطرَّت السفينة «روستيسلاف»، بعد إبحارها من بورتسموت بوقت قصير، على سبيل المثال، إلى التوقُّف في لشبونة لنقل المرضى، فأُنزِلوا في المستشفى **الإنكليزي**[70]، على الرغم من أنَّ السلطات البرتغاليَّة عاملت السفينة الروسيَّة معاملة جيدة[71].

على الرغم من أن إخضاع السفن الروسيَّة للتصليح أعاق حركة العمائر البحريَّة، فإنَّ ذلك أتاح للروس فرصة جيدة للتعرُّف إلى التكنولوجيا المتقدِّمة في بناء السفن من كثب (وقد مكن ذلك س. ب. خميتيفسكي

---

(68) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8, c. 579.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، يُنظر الملحق الثامن، ص 579 (الطبعة الروسيَّة)].

(69) يُنظر الفصل الخامس.

(70) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 10а.

[**أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 10أ].

(71) كتبت كاترينا في تعليماتها إلى سبيريدوف في حزيران/ يونيو 1769 أنه «ليست لدينا أيُّ علاقات مع البرتغال، ولكن بسبب العداء مع إسبانيا فهي قد تستقبل سفننا». اقتباس من: Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке*, c. XCIV.

[أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر**، ص XCIV]. في حلول نهاية العام 1769 كان في البرتغال قنصل روسي هو إ. أ. بورخيس، الذي عين في العام نفسه: В. А. Уляницкий, *Русские консульства за границею в XVIII веке* (М., 1899), c. 645; Гребенщикова, c. 231.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **القنصليات الروسيَّة في الخارج في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1899)، ص 645؛ غريبينشيكوفا، ص 231].

من تخصيص قسم واسع من صحيفته للحديث عن الفوارق ما بين السفن الإنكليزيّة والروسيّة)[72]، والنزول إلى الشاطئ وتقدير مستوى «التحضُّر» الإنكليزي حقّ التقدير: «تتألّف مدينة بورتسموت عمومًا من ثلاث مدن، تفصل بينها خلجان بحريّة <...> محصنة تحصينًا لا يستهان به بقلاع تحيط بها، ذات جدران مكوّنة من صفائح حجرية، وهي أفضل من قلاعنا إلى حدٍّ كبير <...>. شوارع المدينة مرصوفة بحجارة عرضها ساجين[73] ونصف، وفي جنباتها جسور للمشاة مرصوفة أيضًا بالصفائح الحجريّة، وهي نظيفة دائمًا، لأنَّ سكان المنازل يقومون بشطفها <...>. أمّا لحوم البقر والغنم والطيور فدسمة عمومًا، والخبز شهي جدًا، والمحار متوافر بكميات كبيرة في الشتاء، أمّا الأسماك فلا، وإذا وجدت فبكميات قليلة»[74].

لكن، لم يكن الروس وحدهم من أدهشتهم العجائب الإنكليزيّة، بل إنهم هم أيضًا أثاروا اهتمام المجتمع الإنكليزي الراقي، والسكان المحليين على حدٍّ سواء. وفسّر القبطان خميتيفسكي هذا الاهتمام على النحو الآتي: «بما أنَّ إنكلترا لم تصادف الروس من قبل، إلا نادرًا جدًا، ولم تشاهد سفنهم من قبل قطّ، فقد كان اللوردات وكذلك نبلاء البلاط من كلا الجنسين يأتون لزيارتي كل يوم تقريبًا، على السفينة «ني ترون منيا»، أولًا، ثم على سفينتي «روستيسلاف» بعد انتقالي إليها، ولا يكفّون عن الإعراب عن دهشتهم العظيمة لما يتمتّع به رجالنا من قوة بنياتهم وقاماتهم الطويلة وانضباطهم، وعن إعجابهم بصورة خاصة بالفرسان السابقين الذين كانوا يصطفون بأسلحتهم على سطح السفينة عادة[75]. في المقابل، كان من

---

(72) ) «كم من المزايا لدى السفينة الإنكليزيّة مقابل سفينتنا». يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8. с 577.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**. يُنظر الملحق الثامن، ص 577 (الطبعة الروسيّة)].

(73) الساجين (القامة): وحدة قياس طولية روسية قديمة تساوي سبعة أقدام إنكليزية، أي نحو 2,1336 م. (المترجم)

(74) المرجع نفسه، ص 579.

(75) أكد س. ب. خميتيفسكي في صحيفته مرارًا «قوة البنية» والصبر لدى الروس، وكذلك الانضباط المثالي والنظافة على سفينته. ولعله ما جعله يقدم على إدراج مثل هذه الأمور في مذكراته، =

المستحيل أن يُقدِمَ أحدٌ منهم على تناول خبزنا الأسود المجفَّف من طحين الجودار»[76]. وعلى أيِّ حال، فإن السفينة الروسيَّة كانت في عام 1770 «أمرًا جديدًا» و«موضع دهشة» أيضًا في الدولة البحريَّة الأخرى كالبرتغال، وحظيت باهتمام سكان لشبونة، على غرار اهتمام سكَّان بورتسموت[77].

بحلول عام 1773، لم تعد العلاقات الوثيقة بين رعايا التاج البريطاني ورعايا الإمبراطورة الروسيَّة، بالأمر المستغرب[78]. ومع وصول العمارة البحريَّة الخامسة في نهاية عام 1773، كان مجتمع بورتسموت قد صار يتقبل الضباط البحريين الروس في صفوفه عن طيب خاطر، «فكانت القيادة البحرية والسادة الجيران يتبارون في ما بينهم بالترفيه عن القائد الروسي» الأميرال س. ك. غريغ[79]. وبدا ردُّ السفير البريطاني في القسطنطينيَّة - الذي نشرته الصحافة البريطانيَّة على احتجاجات الباب العالي - على هذه الحفاوة في استقبال الروس في بورتسموت أشبه بالدعابة (بوصفه إخلالًا واضحًا بشروط

---

= إنما هو الرأي النقيض الذي أعرب عنه أحد الضباط الإنكليز المنشور في: *General Evening Post* (18-21 August 1770):

«أراهن بعشرة مقابل واحد أنهم (أي الروس - المؤلفة) سوف يُطردون من هذه البحار. فالعالم لم ير مثل هؤلاء البحَّارة البائسين من قبل. إنهم قذرون.. قذرون جدًّا، ويفتقرون إلى المهارة إلى حدٍّ لا يوصف...». اقتباس من: Anderson, *Britain's Discovery of Russia*, p. 131.

(76) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8, с. 581.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، يُنظر الملحق الثامن، ص 581 (الطبعة الروسيَّة)].

(77) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 10 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 10].

(78) على سبيل المثال، أصبح منزل القنصل البريطاني ديك خلال الفترة 1769-1774، من حيث الجوهر، مقرًّا ومركز قيادة لألكسي أورلوف في ليفورنو. أما ديك نفسه فشارك مشاركة نشيطة تقريبًا في كل الأعمال التي رافقت الوجود الروسي في توسكانة (يُنظر الفصلان السادس والسابع). وليس من قبيل المصادفة أن تطلق السفن الروسيَّة أيضًا، وليس السفن الإنكليزية وحدها، إحدى وعشرين طلقة مدفعية، في الاحتفال الذي أقامه القنصل ديك في قصره في ليفورنو، في الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير 1773، على شرف ملكة إنكلترا في عيد ميلادها: *Notizie del Mondo*, 1773, 7. 55.

(79) *G. M.*, 1774, vol. 44, p. 39.

الحياد البريطاني): «حالما تطلب السفن التابعة للباب العالي المساعدة في الخليج البريطاني ستلقى حفاوة مماثلة»[80].

من المعروف أنَّ إنكلترا لم تكتف طيلة الحرب باستقبال السفن الروسيَّة وبالسماح لضباطها بالانضواء في الخدمة لدى الروس، بل إنَّها أبدت الاستعداد الدائم لإرسال قواتها العسكريَّة إلى البحر الأبيض المتوسط، إذا ما أقدمت فرنسا على إخراج أسطولها من طولون[81]، ولم تسمح بإرسال السفن الفرنسيَّة إلى بحر البلطيق، مانعةً بذلك السويد من الانخراط في الحرب ضد روسيا[82]. والحقيقة أنه كانت لدى ن. إ. بانين كلُّ المسوغات ليطلب من السفير موسين بوشكين «السعي إلى مراعاة لباقة الإدارة الإنكليزيَّة، والحرص على صون صداقتها وأريحيتها، لأنَّها كانت مفيدة جدًا لعماراتنا حتى الآن»[83]. وكان يشعر بالارتياح في عام 1771 أيضًا، لأنَّ البلاط البريطاني «كان في كل الأحوال حسن النية، وقدَّم في الظروف المحيطة بالأسطول هنا كل مساعدة ممكنة ومطلوبة وكل خدمة ومؤازرة وهو لا يفتأ يفعل ذلك»[84].

---

(80) المرجع نفسه، علمًا أن القنصل البريطاني في القسطنطينيَّة جون موراي (Murray) استعمل إجابات غاية في الظرف ردًا على شكاوى الأتراك. يُنظر: Anderson, «Great Britain and the Russo-Turkish War of 1768-74».

(81) لمزيد من التفصيل عن ذلك، يُنظر: Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775,» с. 250, 236, 240.

[رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، ص 250، 236، 240].

(82) لمزيد من التفصيل عن ذلك، يُنظر مؤلفات إ. ي. رودزينسكايا وب. ب. تشيركاسوف: Родзинская, *Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.*; П. П. Черкасов, *Двуглавый орел и королевские лилии: Становление русско- французских отношений в XVIII веке, 1700-1775* (М., 1995); П. П. Черкасов, *Екатерина II и Людовик XVI* (М., 2001), и др.

[رودزينسكايا، **العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر**؛ ب. ب. تشيركاسوف، **النسر ذو الرأسين والزنابق الملكية: تكون العلاقات الروسيَّة - الفرنسيَّة في القرن الثامن عشر، 1700-1775** (موسكو، 1995)؛ ب. ب. تشيركاسوف، **كاترينا الثانية ولويس السادس عشر** (موسكو، 2001)، وغيرها].

(83) اقتباس من: Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775,» с. 261.

[رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، ص 261].

(84) *СбРИО*, t. 97 (СПб., 1896), c. 319. =

كانت بريطانيا بالذات هي التي أمَّنت حرية عبور كل العمائر البحريَّة الروسيَّة مضيق جبل طارق، الذي «بدا لرجالنا وكأنَّه نهاية العالم» بحسب تعبير كاترينا. تلك حقيقة اتَّسمت بمغزى خاص، على الرغم من أنَّ «جبل طارق أقرب بمئتي فرست(85) لكرونشتاد بحرًا من مدينة أرخانغيلسك»(86). وأشار ي. ف. تارلي إلى أنَّ «الحكومة الإنكليزيَّة لم تُقدِم على تحريك أسطولها بصورة استعراضية على خطوط سير الأسطول الروسي فحسب»، بل أعلنت لكل من باريس ومدريد أنَّ «منع الروس من دخول البحر الأبيض المتوسط سيكون في نظرها بمثابة عمل عدائي موجَّه ضد إنكلترا»(87). وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، قبل شهر من وصول سفن العمارة الأولى إلى جبل طارق، أوفد أ. غ. أورلوف المستشار (الجنرال؟) فاسيلي يفيموفيتش داراغان إلى هناك، حاملًا رسائل توصية من القنصلين البريطانيَّين ديك وجونسون، ويبدو أنَّ مهمته تكلَّلت بالنجاح. فعندما دخل القسم الأول من العمارة البحرية بقيادة غريغ جبل طارق بعد شهر (في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1769)، تلقَّى على الفور مؤنًا من الجنرال ميجر بويد (Boyd) قائد العمارة البحريَّة الإنكليزيَّة في البحر المتوسط، وكذلك من قبطان مرفأ جبل طارق ليدز - بوت (Leeds-Booth)(88)، الذي قدَّم لروسيا إلى ذلك معلومات قيِّمة عن الأوضاع في البحر المتوسِّط طيلة الحرب، فكوفئ في ما بعد بمنحه ميدالية ذهبيَّة(89). وفي ربيع عام 1770، ظهرت السفينة «روستيسلاف» في

---

= [مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة، مج 97 (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 319].

(85) فرست: وحدة قياس روسيَّة قديمة تساوي 1060 مترًا. (المترجم)

(86) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 527.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 527].

(87) Тарле, с. 19.

[تارلي، ص 19].

(88) Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 158.

(89) Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775,» с. 259-260; Гребенщикова, с. 232, 236, 240, 244, 247, 307, 373-374.

[رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، ص 259-260؛ غريبينشيكوفا، ص 232، 236، 240، 244، 247، 307، 373-374].

مضيق جبل طارق، ورأى قبطانها خميتيفسكي في قلعة مغربية على الشاطئ الأفريقي شيئًا من الشبه بكرملين موسكو: «دخلنا مضيق جبل طارق في الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل. وها نحنُ أولاء نرى كلا الشاطئين على الجانبين، الإسباني والمغربي، وهما غير بعيدين بعضهما من بعض. الجبال على الجانبين عالية وصخرية، والسهول رملية وغير خصبة. على الجانب المغربي تقع مدينة طنجة، وفيها عدد كبير من المنازل، المسورة بجدران حجرية مسنَّنة، وأبراج ذات نوافذ، كما في موسكو. وثمَّة في المدينة الكثير من الحدائق ومنارة حجرية على الشاطئ، على الجهة المقابلة للمدينة من الخليج...»[90].

كان مرفأ بورت ماغون، على جزيرة مينوركا (جزر البليار)، المرفأ الأول في البحر المتوسط الذي استقبل بعثة الأرخبيل. والجدير ذكره أنَّ التاج الإسباني فَقَدَ مينوركا في عام 1708، ولم يسترجعها إلا في عام 1802؛ إذ انتقل هذا المرفأ الاستراتيجي المهم في القسم الغربي من حوض المتوسط من يد إلى أخرى أكثر من مرَّة خلال القرن الثامن عشر: إلى بريطانيا (في الأعوام 1708، 1763، 1798)، ومن بريطانيا إلى فرنسا (في عامي 1765 و1782)، أما إبَّان الفترة 1769-1775 فقد كانت الجزيرة تقع تحت سيطرة بريطانيا، عندما استخدم الأسطول الروسي مرفأ بورت ماغون العميق والملائم. وبحسب رأي ي. ف. تارلي، كان التاج البريطاني مستعدًّا للتخلِّي عن مينوركا، لتكون قاعدة للأسطول الروسي، بهدف تعزيز التحالف مع روسيا ضد فرنسا[91]. وحظَّرت بريطانيا على حاكم بورت ماغون جونستون (Johnston) في ما بعد

---

(90) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье.* См. Приложение 8, с. 582.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط. يُنظر الملحق الثامن، ص 582 (الطبعة الروسيَّة)].

(91) Тарле, с. 13.

[تارلي، ص 13].

غير أنَّ م. س. أندرسون يعود بخطة تسليم مينوركا إلى روسيا إلى عام 1781 بالذات، حين سعت إنكلترا إلى الفوز بدعم كاترينا الثانية في صراعها مع مستعمرتها الأميركية. يُنظر: Anderson, *Britain's Discovery of Russia,* p. 137.

تزويد الأسطول الروسي بالذخائر[92]، خشية توتير العلاقات مع تركيا وفرنسا، ولم يُكتب لجزيرة مينوركا أن تصبح روسيَّة، ومع ذلك يصعب التقليل من أهمِّيتها في تاريخ حملة البحر المتوسط. ففيها كانت تتجمَّع السفن الحربيَّة وسفن النقل بعد عبورها شواطئ إنكلترا، وفيها كانت السفن تُصَلَّح، وفيها كان المرضى يتلقَّون العلاج، وفيها كانت الطواقم ترتاح، وإذ أولى جونستون الروس «عناية ودِّية»، فقد ساعد أيضًا على إيصال المراسلات إلى أ. غ. أورلوف، حيث كان يضع الرسائل الواردة من أرخانغيلسك في بريده الدبلوماسي حتى لا تتعرَّض للفتح في فرنسا[93].

كان اليوناني تيودور ألكسيانو هو الذي يقوم بمهمات القنصل الروسي في مينوركا آنذاك[94]، فعمل على تجهيز المستودعات والمستشفى للأسطول الروسي بتكليف من أورلوف[95].

كان تيودور (فيودور) ألكسيانو شخصيَّة مميَّزة. فقد كان في حينه مفوَّضًا من قِبل باي تونس ببيع غنائم القراصنة، ثم خدم البريطانيين، وأخيرًا أخذ على

---

(92) Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 155.

(93) Ibid.

(94) يُنظر تعليمات أ. غ. أورلوف إلى تيودور ألكسيانو: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 58-60об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 58 - ظهر الورقة 60].

وكان لدى ألكسيانو شيفرة دبلوماسية عامة مع أ. س. موسين بوشكين أيضًا (يُنظر نموذج مثل هذه الرسالة المشفرة، على سبيل المثال، في: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 184-184об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 184 - ظهر الورقة 184].

(95) Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774».

[رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»].

تفيد رودزينسكايا بأن ما يقارب عشر سفن حربية روسيَّة كانت توجد في بورت ماغون في آن واحد. وقد بنيت هنا - على أرض تملكها أسرة ألكسيانو - مستودعات لتخزين الأسلحة وعنابر للمرضى: Родзинская, «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775,» с. 261.

[رودزينسكايا، «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775»، ص 261].

عاتقه - بحسب ما يفيد «مكتب الشؤون الخارجية» (Foreign Office) - القيام بمهمَّات القنصل الروسي في مينوركا[96]. وانضم شقيقاه بانايوتي وأليساندرو



خليج بورت ماغونسكي. جزء من خريطة تعود إلى سبعينيات القرن الثامن عشر

(حلَّ أليساندرو في عام 1775 مكان شقيقه في منصب القنصل) في شباط/ فبراير 1770 إلى عمارة سبيريدونوف مع سفنهما. وعمل بانايوتي ألكسيانو على تأمين المرشدين البحريين ليخدموا لدى أورلوف، وشراء البارود والرصاص وغيرهما للأسطول ونقلها بالسفن اليونانيَّة. كما شارك ابتداء من نيسان/ أبريل 1770 في أعمال الأسطول القتالية وتولَّى قيادة مئتي رجل من اليونانيين في عملية ليمونس، ليُعيَّن بعد ذلك قائدًا لفرقاطة «القديس بولس»، وليبرز في ما بعد في عدد من المعارك، ولا سيَّما في قيادته المعركة البحريَّة عند دمياط. وانضم الشقيق الرابع الأصغر، أنطون، إلى الخدمة في الأسطول بعد عام[97]. بقي الإخوة الثلاثة في الخدمة الروسيَّة، فوصل بانايوتي إلى رتبة

---

(96) Родзинская, «Англия и русско-турецкая война, 1768-1774».

[رودزينسكايا، «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»].

Anderson, «Great Britain and the Russian Fleet, 1769-1770,» p. 158; В. Н. Александренко, *Русские дипломатические агенты в Лондоне в XVIII в* (Варшава, 1897), t. 2, с. 129-130.

[ف. ن. ألكساندرينكو، **العملاء الدبلوماسيون الروس في لندن في القرن الثامن عشر** (وارسو، 1897)، مج 2، ص 129-130].

(97) أرسلت والدة الإخوة ألكسيانو عدة رسائل إلى الأميرال سبيريدوف، طالبة منه ألاَّ يترك أبناءها الأصغر سنًا من دون رعاية. يُنظر على سبيل المثال: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 90., Ф. 188, Оп. 1, Д. 66, Л. 91-92об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 90؛ المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 91 - ظهر الورقة 92].

كونتر-أميرال (توفي في أوتشاكوف في عام 1788)، وأنطون إلى رتبة نائب أميرال (توفي في سيفاستوبول، في عام 1810)[98].

كانت سفينة القيادة «إيستافي» بقيادة الأميرال غ. أ. سبيريدوف السفينة الأولى، التابعة للبعثة، التي تدخل بورت ماغون في الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769. غير أنَّ سبيريدوف اضطر إلى الانتظار بضعة أشهر في مينوركا قبل أن يتسنَّى له جمع كل سفن عمارته الأولى (وإن مع خسائر). فعلى سبيل المثال، لم تكد السفينة «روستيسلاف» تحت قيادة القبطان لوباندين تصل إلى مينوركا، حتى قذفتها العاصفة بعيدًا في البحر قبل أن تتمكَّن من دخول ميناء ماغون، ثم تمكَّنت من الوصول بصعوبة إلى سردينيا أولًا، ومن ثَمَّ إلى جنوى وليفورنو[99]. وعندما وصل فيودور أورلوف إلى بورت ماغون في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر بأمر من شقيقه، لم يجد هناك سوى عددٍ قليلٍ من السفن التي أرسلت من كرونشتاد (تسع سفن فقط من العمارة الأولى لم تبحر من هناك باتجاه مورية إلا في نهاية كانون الثاني/ يناير - بداية شباط/ فبراير 1770)، وكانت تحمل عددًا كبيرًا من المرضى[100]. أما سبيريدوف نفسه فقد أصيب بالخسارة في بورت

---

(98) *Общий морской список царствования Екатерины II* (СПб., 1890), t. I, c. 28-33; В. М. Лурье, *Морской биографический словарь. Деятели Российского флота XVIII века* (СПб.: Информационный центр «Выбор», 2005) [Граф Алексей Орлов-Чесменский]. Контр-адмирал Алексиано. Аттестат, in: *Русский архив*, 1886, Кн. 3, Вып. 12, с. 497-499.

[**القائمة البحريَّة العامة في عهد كاترينا الثانية** (سان بطرسبورغ، 1890)، مج 1، ص 28-33؛ ف. م. لوريه، **القاموس البيوغرافي البحري. شخصيات الأسطول البحري في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ: المركز الإعلامي «الخيار»، 2005) [الكونت أورلوف - تشيسمينسكي]. الكونتر-أميرال ألكسيانو. شهادة، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، الكتاب الثالث، الإصدار 12، ص 497-499].

(99) يُنظر الوصف في: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 11 об. -7 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 864، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 11 - ظهر الورقة 7].

يُنظر أيضًا الفصلان السادس والسابع.

(100) «ثمَّة عدد كبير من المرضى بين أفراد الطاقم، أُرسِلوا إلى المستشفى»، كتب ليدز بوت إلى بانين عن سفينة سبيريدوف التي وصلت إلى بورت ماغون. في ما بعد، كتب بوت في تقريره عن «وفاة عدد كبير» من 300 مريض في مستشفى بورت ماغون. اقتباس من: Гребенщикова, с. 232.

[غريبينشيكوفا، ص 232].

وكتب تيودور ألكسيانو، على سبيل المثال، في رسالة إلى سبيريدوف بتاريخ 10-21 =

ماغون، إذ توفي ابنه «مساعد الجنرال أندريه غريغوريفيتش» إثر مرضه؛ ووصل ف. غ. أورلوف على متن سفينة بريطانيَّة إلى ليفورنو في يوم وفاته في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1769 ليزور توًّا «الأميرال الغارق في حزنه»[101].

في اليوم التالي، أُقيم الاحتفال الأوَّل من سلسلة الاحتفالات الرائعة، التي رافقت وجود الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسط، في كنيسة الرقاد اليونانيَّة بِـ «بورت ماغون». كان الاحتفال على نيَّة شفيعة كاترينا الثانية في عيدها (24 تشرين الثاني/ نوفمبر)، وهو احتفال: «لم تشهد له بورت ماغون مثيلًا، لا بل لم تسمع بمثله من قبل، حيث حضره حشد غفير من الناس»[102].

بحسب ما أفادت الصحافة الإيطاليَّة، كان يتوافد إلى هذا المرفأ أعدادٌ من البحَّارة والمرشدين البحريين المجربين من منطقة حوض المتوسط (في الأغلب مِمَّن هم في الخدمة الروسيَّة)، للقتال إلى جانب الأسطول الروسي في الحرب ضد الأتراك، فيما كان الفيلق البحري الروسي يستعد لدخول بورت ماغون[103]. وهذا ما تؤكِّده أيضًا مصادر أرشيف الدولة في البندقيَّة[104]. وعلى هذا النحو، بدأت تتحقَّق في بورت ماغون مخطَّطات أ. أورلوف بخصوص أعمال الروس المشتركة مع اليونانيين والسلافيين في الأرخبيل.

---

= آب/ أغسطس 1773، عن المرضى الذين يخضعون للعلاج في بورت ماغون، طالبًا أيضًا زيادة راتب الطبيب راتس: *РГА ВМФ*, Оп. 1, Д. 66, Л. 93-97.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، القائمة 1، الملف 66، الورقة 93-97].

(101) Старина и новизна, СПб., 1772, Ч. 1-2, с. 20.

[القديم والحداثة (سان بطرسبورغ، 1772)، ج 1 و2، ص 20].

(102) اقتباس من: Гребенщикова, с. 234.

[غريبينشيكوفا، ص 234].

(103) *NM*, 1770, 8. 63; *NM*, 1770, 13. 103; *NM*, 1770, 19. 151.

(104) كان طاقم السفينة «Snow, nominato Enrico e Carolina» بقيادة القبطان أليساندرو ألكسيانو، المتَّجهة من ليفورنو إلى بورت ماغون، يتألف من الأشخاص الآتية أسماؤهم: النقيب فاسيلي بالانتشين وخادمه نيقولاي ليبيديف، والصربي جورجو ماتشيدونيو، وكريستوفانو من يانين، وكوستانتينو سابا من كانيف، وجورجو كازيتشي من بوكا، وجوفاني بيترولو من جزيرة زانت، ونيقولا فاندورو من جزيرة كيفالونيا: ASV, Inquisitori di Stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

أخذت السفن تصل إلى بورت ماغون، بعد المعارك الأولى في مورية، حاملةً المرضى والجرحى. وفي نهاية أيار/ مايو 1770، نُقل إليها الجرحى والمرضى من نافارين، على متن السفينة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» بقيادة أ. ف. يلمانوف[105]. فوصل إلى مينوركا في 29 حزيران/ يونيو - 10 تموز/ يوليو 1770، حيث كان القنصل تيودور ألكسيانو في استقبال من تحمل[106]، قبل أن تصلهم أنباء الانتصار في شيسما. ولم يُحتَفَل بانتصار شيسما في بورت ماغون إلا في 29 آب/ أغسطس - 9 أيلول/ سبتمبر 1770، حيث «أقيم القداس والصلوات في كنيسة السيدة العذراء اليونانيَّة، على شرف معركة شيسما»، «وأطلقت 31 طلقة مدفعية من ناديجدا بلاغوبولوتشيا». حضر الاحتفال، إضافةً إلى الضباط الروس ورجال الدين، «السيد محافظ ماغون وعدد كبير من ضباطه»[107]؛ علمًا أنَّ الاحتفالات لم تقتصر على ذلك. ففي 20 أيلول/ سبتمبر - 1 تشرين الأول/ أكتوبر احتُفِل بعيد ميلاد ولي العهد،

---

(105) وصل أ. ف. يلمانوف إلى بورت ماغون في نهاية خريف عام 1770. وكانت تصل الإمدادات إلى أفراد الحملة المرافقين له من ليفورنو بواسطة القنصل د. ديك والعميل المقيم ر. راذيرفورد (Rutherford). ويدل على أحجام هذه الإمدادات، على سبيل المثال، ما ورد في الرسالة المؤرَّخة في 24 آب/ أغسطس 1770، التي يطلب فيها يلمانوف من ديك إعداد المؤن للأسطول في ليفورنو لمدة نصف عام: 42963 رطلًا من الخبز المجفف، 1036 رطلًا من اللحوم، 8592 دلوًا من الزيت النباتي، 14321 رطلًا من الأرز («قمح سوروتشينسك»)، 9547 رطلًا من الحمص، 6078 دلوًا من الخل، 2222 دلوًا من الروم أو النبيذ، و32079 دلوًا من النبيذ الأحمر: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 39.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 39].

جدير بالذكر أنَّ قيادة الحملة كانت مستعدة لمخالفة الأنظمة بخصوص البزة العسكرية وفي اختيار لونها على نحو مغاير للقوانين، لكنها كانت متشدِّدة في خياطة بزات جديدة لكل الذين يتماثلون إلى الشفاء في مستشفى بورت ماغون، وتسليمهم إياها عند مغادرة المستشفى: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 4-4об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 4 - ظهر الورقة 4].

(106) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 115-121об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 115 - ظهر الورقة 121].

وتشير المجلة إلى أنه أُنزل إلى الشاطئ في بورت ماغون أكثر من 300 رجل بين مريض وجريح.

(107) المرجع نفسه، الورقة 120-121.

وفي 22 أيلول/ سبتمبر - 3 تشرين الأول/ أكتوبر بعيد تتويج كاترينا، لتتوالى في مينوركا الاحتفالات على نطاق أوسع. وقد التقت في الجزيرة إبّان تلك الفترة عمارة آرف - وهي في طريقها إلى الأرخبيل - وبضع سفن أخرى (من بينها «ناديجدا بلاغوبولوتشيا»). وبحسب ما تفيد الصحف، أهدت كاترينا الثانية الكنيسة اليونانيَّة إنجيلًا مزخرفًا بالذهب، طوله قدمان وعرضه خمس عشرة بوصة، وكأسًا يبلغ طولها قدمًا ونصفًا، وطبقين صغيرين وصليبًا ذهبيًّا كبيرًا. تميَّزت الهدايا ببراعة الصنع، وكذلك بالنقش على الطبقين المصنوعين من معدن ثمين. وأضافت كاترينا إلى كل ما تقدَّم قطعة من الديباج الفضي المطرز بالذهب عرضها أربع بوصات للمذبح. وفي الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر[108]، استعملت هذه الهدايا الثمينة أول مرة، على ما يبدو، في أثناء القداس الذي أُقيمَ في كنيسة بورت ماغون الأرثوذكسيَّة. فأنشد الأرثوذكس المحليُّون **لك يارب** (*Te Deum*) مع الضباط البحريين الروس، بمن فيهم الكونتر-أميرال يلمانوف والكونت ب. أ. بوتورين الذي كان قد وصل في اليوم السابق. وأقام بوتورين والقنصل ألكسيانو في مساء اليوم نفسه حفلًا كبيرًا للضباط. ولعل الزينة بالأنوار كانت أكثر ما ميَّز هذا الحفل، حيث ظهرت على واجهة الكنيسة «مشاهد للجيش واسم الإمبراطورة الروسيَّة»، وثُبِّتت على مبنى القنصليَّة شعلة اصطناعية رائعة، كانت تلتهم في أحد جانبيها مسجدًا تركيًّا (كانت النيران المشتعلة تمثل صليبًا ينتصر على المساجد التركيَّة)، وتتراءى في وسطها الكلمات الآتية:

«Caterina Alexiovvona II. Imperatrice di tutte le Russie. Vivat. Vivat»

بعد الألعاب النارية في ماغون، أقيم في منزل القنصل حفل راقص، استمر حتى صباح اليوم التالي، وقُدِّم للجمهور في أثنائه برميلان من النبيذ.

ظلَّت بورت ماغون، في ما بعد، مركزًا لتحرُّكات المشاركين في حملة

(108) يرد تاريخ الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر (بحسب التقويم الجديد) في الصحافة الغربية بوصفه يوم تتويج الإمبراطورة الروسيَّة، وهذا أمر خطأ؛ إذ إنَّ الحديث يتناول على الأرجح الاحتفالات المتواصلة بعيد ميلاد ولي العهد بافل بيتروفيتش.

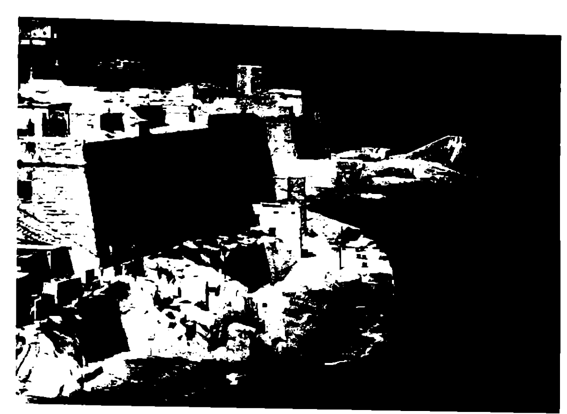
الأرخبيل، في حوض البحر المتوسط الغربي[109]، على قدم المساواة مع ليفورنو، حتى خروج الأسطول الروسي في عام 1775.

خصَّصت كاترينا قبيل بدء حملة الأرخبيل جزيرة أخرى هي مالطا، ذات الخليج العميق الممتاز، المؤهَّل لأَن يُشكِّل ملجأً للأسطول الروسي بأكمله، فكان أنْ أدَّت دورًا مهمًّا لرُبَّما فاق دور جزيرة مينوركا من حيث أهمِّيتُه.

كما سبق أن أشرنا، كانت قد نشأت علاقات طيبة كليًّا بين روسيا ومحفل فرسان مالطا، بحلول نهايات ستينيَّات القرن الثامن عشر؛ الأمر الذي ولَّد شيئًا من الأمل في نجاح القائم بأعمال روسيا في مالطا المركيز كافالكابو بالحصول على إذن من محفل يوحنا المقدسي باستخدام الأسطول الروسي الموانئ المالطيَّة. وقد جاء في التعليمات التي وجَّهتها كاترينا الثانية للمركيز، ما يأتي: 1) مرافقة عمارة سبيريدوف حتى جبل طارق، ثم التوجُّه إلى مالطا، 2) السعي إلى لقاء رئيس المحفل وتسليمه رسالة الإمبراطورة الروسيَّة وتوجيه الشكر إليه والإعراب عن ارتياح الإمبراطورة لاستقبال الضباط الروس، 3) الحديث عن آمال الإمبراطورة في أن يبقى المحفل على موقفه المتعاطف، إذا ما أُرسلت العمارة البحريَّة الروسيَّة أيضًا، 4) إطلاعه على الأحداث البولندية ودعوته للنضال

---

(109) يُنظر، على سبيل المثال: (NM, 1770, 72. 591)؛ تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة دي زاموني بتاريخ الثالث من أيلول/ سبتمبر 1770 (AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2)، حيث يقول إنه كان على الجنرال ليفيتانت بوتورين التوجُّه في الأسبوع الأول من أيلول/ سبتمبر 1770، مع ضابطين روسيَّين، من توسكانة إلى بورت ماغون على متن السفينة «كورابيلشيك بروون»؛ أنباء نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1770 - كانون الثاني/ يناير 1771 عن تحركات السفينة «الكونت تشيرنيشوف» (GT, 1771, 2. 8)؛ وعن أنَّ كلَّ السفن الروسيَّة تستعد للتوجُّه إلى بورت ماغون في الأرخبيل (NM, 1771, 4. 30)؛ وعن الفرقاطة الروسيَّة «فينيرا»، التي وصلت من بورت ماغون وجنحت إلى الشاطئ بالقرب من ليفورنو في السابع من آذار/ مارس 1771: NM, 1771, 21. 165; GT, 1771, 28. 112; NM, 1771, 54. 429; 56. 445; NM, 1772, 53. 442; GT, 1772, 35. 140; 36. 144; 37. 148; NM, 1772, 71. 588.



قلعة القديسة ألما في مالطا

سوية ضد الكفار، 5) الحصول على مواقف للقوات البحريَّة الروسيَّة والمساعدة في تموينها، 6) وأخيرًا، وجوب قيام كافالكابو بدور الوسيط في العلاقات بين رئيس المحفل والعمارة البحريَّة الروسيَّة(110).

نفَّذ كافالكابو كل البنود الواردة في التعليمات، فوصل إلى مالطا في كانون الثاني/يناير 1770 برفقة ابن شقيقه، وكذلك الملازم في فوج بري أوبريجينسكي باومغارتين (كان على ماكسيميليان باومغارتين في ما بعد إيصال رسائل كافالكابو عبر نابولي، ولكن يمكن الافتراض أنَّ صلاحياته كانت أوسع من ذلك بكثير)(111) والمترجم ستوكس(112) (Stoks). وبعد سبعة أيام من الحجر

(110) *АВПРИ*, Ф. 66/6, Сношения России с Мальтой, Д. 72.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 66/ 6، العلاقات بين روسيا ومالطا، الملف 72].

(111) عن دور باومغارتين في إقامة العلاقات مع علي بك والشيخ ظاهر العمر، يُنظر الفصل الثامن.

(112) في الحالات التي كان كافالكابو يبقى من دون مترجم فيها، كانت تبرز مصاعب جدية لديه في التواصل مع القادة الروس في الأرخبيل. وهذا ما حصل، مثلًا، في العام 1773، عندما اعتذر كافالكابو من سبيريدوف لأنه لم يتمكّن من قراءة رسالته، لأنّه أوفد المترجم إلى سان بطرسبورغ:
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 66, Л. 60, 105.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 60، 105].

الصحي، استقبل رئيس المحفل ونائبُ المستشار السيِّدَ كافالكابو في 17-28 كانون الثاني/ يناير، وأقيمت على شرفه مأدبة غداء بعد أربعة أيام، حيث تلقّى ردَّ المحفل المتضمِّن رفضًا مغلّفًا برداء من اللطف لطلب روسيا، أكان لجهة تزويد الأسطول بالمؤن، أم لجهة منح الحقّ في الدخول إلى موانئ مالطا لأكثر من أربع سفن روسية في آن واحد. ويتّفق الباحثون على أنَّ ردَّ المحفل تأثّر بضغط



رواق في قصر محفل فرسان مالطا في فاليتا

الدبلوماسيَّة الفرنسيَّة وبيوت بوربون في أوروبا[113]. وعلى الفور، نشرت

(113) *АВПРИ*, Ф. 66/6, Сношения России с Мальтой, Д. 7, Л. 1; Д. 46, Л. 17-24 об; И. А. Настенко & В. Яшнев, *История Мальтийского ордена, Кн. 2: Мальтийский орден и Россия. Иоанниты в новое и новейшее время. XVIII-XX вв* (М., 2005), с. 28-39; Blondy, *L'Ordre de Malte au XVIII^e siècle*, pp. 159-162.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 66/6، العلاقات بين روسيا ومالطا، الملف 7، الورقة 1؛ الملف 46، الورقة 17 - ظهر الورقة 24؛ إ. أ. ناستينكو وف. ياشنيف، **تاريخ محفل فرسان مالطا، الكتاب الثاني: محفل فرسان مالطا وروسيا. جماعة يوحنا في العصرين الجديد والحديث القرن الثامن عشر - القرن العشرين** (موسكو، 2005)، ص 28-39].

الصحف الأوروبيَّة هذا الرد. وفي العشرين من آذار/ مارس 1770، نشرت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) النبأ الآتي:

«من مالطا في 5 شباط/ فبراير. نزل الثلاثاء المنصرم من فرقاطة للأسطول الروسي في حوض البحر المتوسط هنا المركيز كافالكابو، مع وفد خاص يمثِّل الإمبراطورة الروسيَّة إلى رئيس المحفل. وسلَّم الرئيس رسالة من الإمبراطورة تطلب فيها السماح لكلِّ السفن بالرسُو في المرافئ التابعة للمحفل، وانضمام العمارة البحريَّة المالطية إلى الأسطول الروسي. والمؤكَّد أنَّ المجلس قرَّر بالإجماع السماح بدخول ثلاث أو أربع سفن روسيَّة إلى المرافئ في آن واحد، على غرار ما هو معمول به إزاء إسبانيا أو صقلية، وبعدم التخلِّي عن الحياد الذي تنصُّ عليه قوانينه، ولا سيَّما في ما يتعلَّق بالخلافات بين الدول المسيحية»[114].

في حزيران/ يونيو 1770، توقَّفت السفينة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» في مالطا للتزوُّد بالمياه فحسب، في طريقها من نافارنين إلى بورت ماغون وعلى متنها الجرحى والمرضى، فاكتفى بحَّارتها بمراقبة الاحتفالات من بعيد الجزيرة الرئيس - عيد ميلاد يوحنا المعمداني - الذي صادف زيارتهم: «فبحسب التقليد المتَّبع، كان سكان الجزيرة يطلقون نيران البنادق والمدفعية في كل مكان، ويحرقون براميل القطران في بعض الأماكن». وظهرت في صحيفة الضباط المهندسين في الأسطول ملاحظة مقتضبة فحسب عن مالطا جاء فيها: «ثمة أراضٍ مزروعةٌ قمحًا في بعض الأماكن، وثمَّة الكثير من القرى والكنائس والأديرة، وكذلك عددٌ لا يُستهان به من البساتين والحواكير»[115].

---

(114) عادت **صحيفة أمستردام** (*G. d'A.*, 1770, no. 23) إلى هذه المعلومة في العدد 27، ونشرت في العدد 45 نص رسالة كاترينا المؤرخة في 18 تموز/ يوليو 1769، التي سلمت لرئيس المحفل، وكذلك ردود المحفل المؤرَّخة في 3 و31 كانون الثاني/ يناير 1770.

(115) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 116об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 116].

عن دخول ثلاث سفن إنكليزية «وضعت بتصرف أسطولنا»، يُنظر: *АВПРИ*, Ф. 66/6, Сношения = России с Мальтой, Д. 74, no. 12, Л. 41.

لكن، ما إنْ أُنجِزَ انتصار شيسما - الذي كانت مالطا من بين أول من عرف به في أوروبا[116] - ومع وصول سفينة تحمل على متنها المسيحيين المحرَّرين من الأسر التركي، تبدَّلت علاقة مالطا بالأسطول الروسي نحو الأفضل بالنسبة إلى روسيا. وترسَّخ هذا التحوُّل بوصول دفعاتٍ جديدةٍ من المسيحيين المحرَّرين من الأسر، أو الأسرى الذين تمكَّن المحفل من مبادلتهم بأسرى مسيحيين، مؤدِّيًا بذلك واجبه. وهكذا، ففي 5-16 تشرين الثاني/ نوفمبر، أمر أورلوف - في أثناء وجوده في جزيرة ناكسيا - بإرسال سفينة «غنيمة» إلى مالطا وعلى متنها 75 جزائريًا مع رسائل إلى المركيز كافالكابو ورئيس المحفل، لكي يقوم هذا الأخير بمبادلة الجزائريين بعددٍ مماثلٍ من المسيحيين[117]. وعلى الأرجح، أخبر كافالكابو ن. إ. بانين بهذا الأمر في كانون الثاني/ يناير 1771. وسرعان ما ظهر النبأ الآتي في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) أيضًا: «قدَّم الروس هدية لرئيس محفل فرسان مالطا العظيم، حيث سلَّموه 60 أسيرًا جزائريًّا، نُقِلوا إلى الجزائر على سفينة من الإسكندرية» (إما أن يكون قسم من الجزائريين لم يتحمَّل مصاعب الطريق، وإما أن تكون وصلت إلى مالطا دفعةٌ جديدةٌ من الأسرى الجزائريين)[118].

في ذاك الوقت، بذل القنصل الروسي المركيز كافالكابو جهدًا لا يُستهان به، فأقام قناة مهمَّة للمعلومات، حيث عمل على جمع المعطيات من قباطنة

---

= [**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 66/ 6، العلاقات بين روسيا ومالطا، الملف 74، العدد 12، الورقة 41].

(116) جرى ذلك في نهاية تموز/ يوليو 1770. ففي 29 تموز/ يوليو، أرسل القنصل البريطاني، على سبيل المثال، خبرًا من مالطا عن شيما: S. Bottari, «Geopolitical and Commercial Interests in the Mediterranean Sea: The Reports of Angelo Rutter, English vice-Consul in Malta (1769-1771),» *Journal of Mediterranean Studies*, vol. 12, no. 2 (2002), pp. 249-257.

(117) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 211об.
[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، ظهر الورقة 211].

(118) *АВПРИ*, Ф. 66/6, Сношения России с Мальтой, Д. 76, Л. 5; *G. d'A.*, 1774, no. 28.
[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 66/ 6، العلاقات بين روسيا ومالطا، الملف 76، الورقة 5].

سفن البلدان المختلفة الوافدة إلى مالطا، وإرسال المعلومات عن الأعمال القتالية في الأرخبيل ومصر وبالقرب من الجزر البربرية، على وجه السرعة عبر الرسل والسفير د. أ. غوليتسين[119]. كما أنَّ قسمًا من المعلومات - بحسب المؤرخ المعاصر ت. فريللير - وصل إلى روسيا بواسطة أحد كبار ضباط المحفل البارون فلاكسلاندن (Johan Baptist Anton Flachslanden)، الذي كان يملك معطيات عن التحصينات التركية، ولديه مخبروه السرِّيون في الحوض الشرقي للبحر المتوسط[120].



قصر محفل فرسان مالطا في فاليتا ردهة نبنون

ثمَّة رأي يفيد أنَّ كافالكابو بالذات هو من أقنع الكونت دي مازين بالانضواء في الخدمة الروسيَّة[121]. وفي الرابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1771، توجَّه الأخير على متن سفينة اشتراها، بذريعة أعمال تنتظره في إيطاليا، وانضمَّ إلى أسطول أورلوف. وبوصفه فارسًا في محفل فرسان مالطا، ترك رسالة لرئيس المحفل دي بينتو، لم يتسلَّمها إلا بعد أسبوع من سفره. وفسر دي مازين تصرُّفه بالرغبة

(119) أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 66/ 6، العلاقات بين روسيا ومالطا، الملف 74.

(120) T. Freller, «In Search of a Mediterranean Base: The Order of St. John and Russia's Great Power Plans during the Rule of Tsar Peter the Great and Tsarina Catherine II,» *Journal of Early Modern History*, vol. 8, nos. 1-2 (2004), pp. 15-17.

(121) Настенко & Яшнев, с. 36.

[ناستينكو وياشنيف، ص 36].

في «الاستفادة من الفرصة الرائعة ليكون الشاهد العيان على الحرب التي يخوضها الروس بمثل هذا النجاح ضد أعداء المحفل، والأمل في اكتساب معارف مفيدة لمالطا في الشأن العسكري من هذه الأمة الشجاعة والمحاربة»[122]. ولتصرُّف دي مازين هذا دلالتان: **أولاهما**، استجابة الفارس المالطي في نهاية الأمر لنداء كاترينا بالقتال إلى جانب روسيا ضد العدو المشترك، أي الأتراك. **وثانيتهما**، أنه لم يعد الروس بعد معركة شيسما هم من يتعلَّم من المالطيين، أساتذة الشأن البحري، إذ صار المالطيون أيضًا يسعون إلى اكتساب «المعارف المفيدة في الشأن العسكري» من الروس. وليس من قبيل المصادفة أن تقول كاترينا عن دي مازين: «يا له من فارس جموح»[123]. وفي 16-27 تشرين الأول/أكتوبر 1770، وصلت سفينة دي مازين إلى الأرخبيل، ولم يلبث الرائد المهندس كيلخين أن كتب في صحيفته: «وصلت إلى مرفأ باروس ورست بالقرب من السفينة «الأساقفة الثلاثة» سفينةٌ صغيرةٌ ترفع العلم المالطي، وعلى متنها فارس مالطي يطلب التطوُّع في أسطولنا، إنه الفارس والكوماندور دي مالطا غيورغي، كونت مازين»[124]. لقد كان الكونت دي مازين[125] (Giorgio Giusppe Maria Valperga, Count Masino) (جورجيو جوزف ماريا فالبيرغا، الكونت دي مازين)، من دون شك أحد مغامري عصر التنوير اللامعين.

كان عليه بعد بضعة أشهر، في نهاية عام 1770 وبداية عام 1771، التوجُّه من الأرخبيل إلى إيطاليا برفقة أ. غ. أورلوف، بعدما صار مقربًا منه، لإجراء

---

(122) В. А. Захаров, *История Мальтийского ордена в России* (М., 2006), с. 93.
[ف. أ. زاخاروف، **تاريخ محفل فرسان مالطا في روسيا** (موسكو، 2006)، ص 93].

(123) المرجع نفسه.

(124) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 39об.
[**أرشيف الدولة الروسيّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 39]. كان عضو محفل فرسان مالطا الكونت دي مازين قد دعي لاحقًا إلى الخدمة في الأسطول الروسي، إلا أنّه رفض متذرِّعًا بعدم ملاءمة المناخ، يُنظر: Настенко & Яшнев, Кн. 2.
[ناستينكو وياشنيف، الكتاب الثاني].

(125) هكذا يرد اسمه الكامل في الأدبيات الغربية، يُنظر: Freller, p. 16.

مفاوضات مع أرشيدوق توسكانة تتعلّق بالأسطول الروسي من وراء ظهره(126)، وإعطاء الوعود بتقديم معلومات «استخبارية» من هذا النوع لبلاط فيينا، ولاحقًا إثارة اهتمام السفير الفرنسي في سان بطرسبورغ بهذا النوع من المعلومات السريّة(127).

اكتسب المركيز دي كافالكابو حظوةً لدى رئيس المحفل المُسنّ، عندما أقدم في 18 كانون الثاني/يناير 1771، في أثناء الاحتفال بالذكرى السنوية الثلاثين لتولّي دي بينتو رئاسة محفل فرسان مالطا، على وضع لوحة كبيرة على شرفة منزله، تصور دي بينتو وفوق رأسه رسم مجازي يمثل المجد، وفي أسفل اللوحة يبدو مرفأ فاليتا، تدخله سفينة ترفع العلم الروسي. وكتب كافالكابو في رسالة عاجلة: «على هذه الشرفة كانت الأوركسترا تضفي الحياة على هذا التعبير العارم عن تمنياتي بطول البقاء لصاحب الفخامة، الذي أعرب لي عن امتنانه العميق، لأنه شديد التأثّر بكل ما هو متألق»(128).

---

(126) لمزيد من التفصيل، يُنظر الفصل السابع.

(127) وفق الوثائق التي يقدمها زاخاروف، فإن دي مازين هو من رعايا ملك سردينيا، كوماندور، الكونت دي مازين فالبيرغا. وهو الشقيق الأصغر لوزير محفل فرسان مالطا لدى بلاط فيينا، وكان مشرفًا على المتدربين الروس في مالطا إبّان الفترة 1764-1768. ويكتب ف. أ. زاخاروف أنّ دي مازين ظل في الخدمة الروسية حتى عام 1775 عاد بعدها إلى مالطا: Захаров, c. 93.

[زاخاروف، ص 93].

ولا تزال رسالة السفير الفرنسي في سان بطرسبورغ ديوران إلى رئيسه الأرشيدوق ديغيليون المؤرَّخة في السابع من أيار/مايو 1773 محفوظة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، وفيها يخبره أنّ الكونت دي مازين «ممثل أحد أوائل بيوتات بييمونت»، «خدم 22 عامًا في البحر، كان خلالها قائدًا لسفينة المحفل»، وهو في الخدمة الروسيَّة برتبة «كونتر-أميرال»، أعرب أمامه عن رغبته في ترك الخدمة الروسيَّة، إذا ما طُلِبَ منه مهاجمة السويد. ووصف ديوران دي مازين بأفضل العبارات، وقال إنه حصل منه بالذات على معلومات عن الأسطول الروسي: Archive Nationale de France, B 3 800, Dossier 10.

ظلّ دي مازين في الخدمة الروسيَّة برتبة كونتر-أميرال حتى بداية عام 1774، وفي الثلاثين من كانون الثاني/يناير 1774، قدم استقالته متذرِّعًا بأنَّه «لم يعد قادرًا على تحمُّل المناخ البارد»، فقبلت الإمبراطورة استقالته. عن بناء كونت مازين للسفينة في روسيا استنادًا إلى الرسومات الأصلية، يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, c. 136-137, 228-229, 231, 270, 278.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 136-137، 228-229، 231، 270، 278].

(128) Настенко & Яшнев, c. 35.

[ناستينكو وياشنيف، ص 35].


رئيس محفل فرسان مالطا ف. بينتو (1681-1773)

تجلَّى نجاح الاستقبال الودِّي الاستعراضي الساطع الذي قام به المبعوث الروسي في مالطا للسفن الروسية، بعد بضعة أيام، في 23 كانون الثاني/ يناير 1771، حين دخلت السفينة «روستيسلاف» وعلى متنها الجرحى والمرضى. كانت تحتاج إلى تصليحات عاجلة في مرفأ مالطا الكبير. ولقيت السفينة الروسيَّة هذه المرة استقبالًا فيه الكثير من الحفاوة والتقدير (لم يكن قد انقضى عام بعد على الاستقبال البارد الذي قوبلت به سفينة «ناديجدا بلاغوبولوتشيا» في المرفأ ذاته). فقد استقبل رئيس المحفل ف. إ. بينتو القبطان لوباندين مع «كل الأركان وضباط الصف» برفقة المركيز كافالكابو: «كان جميع الفرسان المالطيين مجتمعين لديه لحظتذاك... وما إن دخل الوزير وقائدنا القبطان... قاعة الاجتماع، حتَّى وقف رئيس المحفل على الفور ولاقاهم كعادته بحفاوة بالغة... حاسر الرأس، ثم اعتمر القبعة وسمح للوزير والقبطان بالاعتمار أيضًا، وقال إنه سيُلبِّي كلَّ ما تحتاج إليه السفينة»[129]. وبالفعل، قام المالطيون، من الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير وحتى الرابع من نيسان/ أبريل، بإصلاح «روستيسلاف» التي «نخرها السوس بالكامل»، ثم توجَّهت السفينة بعد ذلك من فاليتا إلى ليفورنو[130].

---

(129) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 48об.-49.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 48 - الورقة 49].

(130) المرجع نفسه، الورقة 49-51. =

وبعد نحو عامٍ على ذلك، في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1771، وصلت إلى مالطا السفينة «ساراتوف»، فكان المركيز كافالكابو أيضًا في استقبالها. وبعد لقاء رئيس المحفل، أُخضِعَت السفينة ذات الوضع الرثّ لأعمال التصليح التي استمرَّت حتى خريف عام 1772[131].

تبدَّلت علاقة المحفل بالأسطول الروسي مجدَّدًا بعد وفاة رئيسه ف. إ. بينتو في مطلع عام 1772، فخلفه الرئيس فرنسيسكو هيمينيس دي تيهادا ذو الهوى الفرنسي أكثر من بينتو[132]، وأخذ بالشائعات التي زعمت أنَّ المركيز كافالكابو حرَّض المالطيين على التمرُّد، وبات الأخير عرضة للعزلة، بل للاعتقال أيضًا[133].

اقترنت المصاعب التي واجهها كافالكابو بانتظاره القلق لكيفية تصرُّف روسيا بعد عقد الصلح مع الأتراك. ففي عام 1774، ناقشت الصحافة الأوروبية مسألة عدم طلب روسيا هذه المرة من مالطا وضع مرفئها بتصرف الأسطول الروسي، بل إنها سترغمها على ذلك. كتبت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) أنه على أثر رفض مالطا استقبال أكثر من ثلاث سفن حربية وسفينتي نقل في آن واحد، «قال الوزير كافالكابو إنَّ المالطيين سيُعتَبَرون بمثابة أعداء في هذه الحال»، وزعمت أنَّ السفير تلقَّى بعدئذٍ أمرًا بالمغادرة (لم يغادر كافالكابو مالطا إلا في عام

---

= جدير بالذكر أنَّ «روستيسلاف» كان يُفترض أن تتوقف في صقلية، قبل مجيئها إلى مالطا، بحكم الرياح، لكنَّ سلطات صقلية لم تكتف بالامتناع عن تأدية التحية لها بطلقات المدفعية، متذرِّعة بـ «عدم وجود معاهدة بين البلاطين الروسي والصقلّي بخصوص تأدية التحية» (ظهر الورقة 42)، بل إنها أطالت أمد حجرها الصحي إلى 56 يومًا (بدلًا من أربعين)، ورفضت أيضًا توفير المواد اللازمة لأعمال التصليح.

(131) المرجع نفسه، الورقة 58-65.

كان أ. غ. أورلوف وس. ك. غريغ، اللذان زارا مالطا في 25 آب/ أغسطس - 5 أيلول/ سبتمبر 1772، راضيين عن تصليح السفينة، إلى حدٍّ أنَّ أورلوف منح كل عامل مالطي نصف قرش. وتحدثت الصحف أيضًا عن وصول السفينة «ساراتوف» إلى مالطا (*G. d'A.*, 1772, no. 21).

(132) يُنظر رسالة السفير الفرنسي في روسيا ديوران (Archive Nationale de France, B 3 800, Dossier 10).

(133) لمزيد من التفصيل، يُنظر: Blondy, *L'Ordre de Malte au XVIII^e siècle*, pp. 201-202.

1775[134])، وأنَّ مالطا أخذت تستعد لصدِّ الهجوم الروسي. وفي تموز/ يوليو 1774، وردت أنباء من نابولي وفلورنسا عن شائعات تقول إنَّ إحدى السفن المالطيَّة تلقَّت أمرًا بالعودة الفورية إلى مالطا، «لأنَّ تسع سفن حربية روسيَّة، بل ثلاثين، تعتزم دخول المرفأ على الرغم من الحظر. وعمومًا، سيدخل المرفأ عدد من السفن، بقدر ما ترغب الإمبراطورة الروسيَّة»[135]. وتبعت هذا الخبر من نابولي أنباء «عن الخلافات بين رئيس محفل فرسان مالطا والروس في الأرخبيل، بعد إعلانهم أنهم سيعتبرون المالطيين بمثابة أعداء، من دون تقديم أيِّ مُسوِّغات لذلك. وكانت لدى الروس، الآن، كامل الحرية بتحديد عدد السفن التي تدخل الموانئ المالطيَّة. فمنذ بداية عهد رئيس المحفل الحالي، كانت مسائل إمدادات المؤن الغذائية وارتفاع سعر الخبز موضع قلقهم الدائم... وتفيد المعلومات الواردة من مالطا، الآن، أنَّ المالطيين يجهِّزون تحصيناتهم للدفاع»[136].

على الرغم من عدم تأكُّد الشائعات، لم تكن روسيا تنوي شنَّ الحرب على مالطا، فإنّ الأحاديث عن «الخطر الروسي» بدت ذات دلالة بالغة. ففي نهاية عام 1774 توقَّفت السفن الروسيَّة في مالطا مجدَّدًا في أثناء عودتها إلى روسيا من الأرخبيل؛ لكنَّ ضباطها لم يتمكَّنوا من النزول إلى الشاطئ بسبب الحجر الصحي. وفي 27 كانون الأول/ ديسمبر 1774 ترك الكونت غ. غ. كوشيليف - كان برتبة ملازم حينذاك - الوصف الوداعي الآتي لفاليتا، بما يدلُّ على استمرار اهتمام الروس بتحصينات المحفل المالطي: «على الرغم من تعذُّر النزول إلى الشاطئ بسبب الحجر الصحي، فإنَّه كان من الممكن رؤية

---

(134) استنادًا إلى وثائق الأرشيف الفرنسي، كتب أ. بلوندي أنَّه قُدم كافالكابو إلى لويس السادس عشر في عام 1780، بعد إقامته في مالطا، وحصل على إذن بالإقامة في فرنسا. وظلَّ حتى وفاته يتقاضى معاشًا تقاعديًّا من سان بطرسبورغ. وتوفي في باريس، بشارع مالطا (!) وأوصى بأن يُدفَع معاشه البالغ 1200 ليرة للمالطية تيريزا بواغيار (Buhagiar) وابنتيها اللتين كانتا في سنَّي الثلاث والخمس سنوات: A. Blondy, «L'Ordre de Malte et Malte dans les affaires polonaises et russes au XVIIIe siècle,» *Revue des études slaves*, no. 66/4 (1994), p. 740.

(135) *G. d'A.*, 1774, no. 57.

(136) معلومات الخامس من آب/ أغسطس 1774 (*G. d'A.*, 1774, no. 62).

مبانيها (لا فاليتا – المؤلفة) من السفينة. اتَّحدت الطبيعة بالفن، ويبدو أنَّهم أرادوا جعلها لا تُهزم؛ إذ كانت قلاعها متَّصلًا بعضها ببعض بانتظام، وفق أفضل قواعد الفن المعماري، ومحصَّنة في كلِّ مكان بأبنية مميَّزة، بحيث تثير الرهبة في نفوس المهاجمين وتقضي على كلِّ رغبةٍ لديهم في مهاجمتها، وهي لن تفتقر إلى المؤن إذا ما حوصرت من البحر. وعلى الرغم من إيصال المياه إلى القلعة، فثمَّة الكثير من الخزانات التي إذا مُلئت كَفَتْها لأمدٍ طويل، فضلًا عن وجود ينابيع صغيرة تسدُّ الحاجة عند الضرورة، إذا ما تعذَّر جلب المياه من الخارج»[137].

كان النجاح الأكبر في إقامة قاعدة قارِّيَّة حصينة لحملة حوض البحر المتوسط، يؤمَّن عبرها التواصل بين حملة الأرخبيل وروسيا خلال العملية كلِّها، بحيث يلجأ إليها القادة في الشتاء، بانتظار المشاركين في الحملة في أرشيدوقيَّة توسكانة ومدنها ليفورنو وبيزا وفلورنسا. وسيكون وجود الروس في إيطاليا موضوعَ فصولٍ مستقلَّة[138].

هكذا، لم ينطوِ عبور خمس عمائر بحريَّة من الأسطول الروسي في شرق البحر الأبيض المتوسط بين عامي 1769 و1774 على أهمية ما يتعلّق بتحقيق التفوُّق في الحرب مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة فحسب، بل إنَّ إرسال الأسطول أسهم في تفعيل نشاط روسيا السياسي الخارجي، حتَّى في تلك الأجزاء من أوروبا التي كانت سابقًا خارج دائرة اهتماماتها؛ نظرًا إلى ما تطلَّبه ذلك من حساباتٍ سياسيةً بالغةَ التعقيد حيال ردَّات الفعل المحتملة لدى دول كبيرة وصغيرة، وتجهيز القواعد لتوقُّف الأسطول وتأمين مؤنه وعلاج جرحاه ومرضاه وتصليح سفنه وما شابه من أمور. وأسهمت في نجاح روسيا بالدرجة الأولى الاتفاقاتُ مع إنكلترا والدانمارك، والاستقبال الودِّي في أرشيدوقيَّة

---

(137) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 2, Д. 43 (Журнал, веденный на корабле «Граф Орлов» флота лейтенантом Григорием Кушелевым), Л. 8 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 2، الملف 43 (صحيفة الملازم غريغوري كوشيليف على السفينة «الكونت أورلوف»)، ظهر الورقة 8.

(138) يُنظر الفصلان السادس والسابع.

توسكانة، وكذلك عدم تدخُّل فرنسا وإسبانيا ومملكة نابولي في العملية الروسيَّة، والدعم الذي تلقَّته روسيا من البرتغال ومن محفل فرسان مالطا، وإن كان أكثر تواضعًا مما كانت ترغبه.

ولا يقل أهمية عن ذلك، أيضًا، أنَّ التحرُّك من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط حوَّل «الجغرافيا الأدبية» لرحلات البحَّار فاسيلي كوريوتسكي، إلى اسكتشاف مدى حقيقيٍّ بالكامل، فلم يكن مدعاةً لاندهاش الروس فيه بما رأوه فحسب، بل استعدادهم للإدهاش بسفنهم التي لم تكن جاهزة لمثل هذه الرحلات بدايةً، ومن ثَمَّ بانتصاراتهم المجيدة غير المتوقَّعة.

# الفصل الرابع

## تاريخ مشروع البحر المتوسط العسكري: أسئلة مختلف عليها

إ. م. سميليانسكايا
ي. ب. سميليانسكايا

سرعان ما ارتعد حراس برابونت ومرمرة والدردنيل من الصواعق الروسيَّة المتطايرة على الأرخبيل، ناشرة الرعب واليأس في البوسفور.

**من خطاب المدَّعي العام في الاحتفال بإبرام معاهدة الصلح (1775).**

... لدى رجالنا على الأسطول القدرة التي تمكِّنهم من نشر الخوف في البحر وإلحاق الخراب بالمساكن والمتاجر التركية، بعملية إنزالٍ قصيرة الأمد على الشواطئ، وليس الاستيلاء على المدن بعد حصارٍ طويل الأمد[1].

**تقرير غ. أ. سبيريدوف إلى أ. غ. أورلوف في عام 1773.**

درس عسكريُّون ومؤرِّخون تاريخ العمليات الحربيَّة ومشروعات الأسطول الروسي بين عامي 1770 و1774، خلال حملة الأرخبيل في شرق البحر المتوسط، على

(1) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. I, Д. 609, Л. 9.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 609، الورقة 9].

نحوٍ مفصَّل ودقيق[2]، إلى حدّ أنَّه لا حاجة معه إلى العودة مجدَّدًا إلى أيٍّ تحليل مفصَّل آخر. على الرغم من ذلك، لا يزال التاريخ يشهد خلافات وتقويمات متعارضة في صدد أسباب الانتصارات والهزائم وأهميتها. ففي علم التاريخ، ليس ثمَّة إجابات حاسمة عن الأسئلة المطروحة: كيف تُقَوَّم عملية عام 1770 في مورية؟ أهيَ صفحةٌ بطوليةٌ في العلاقات الروسيَّة - اليونانيَّة العسكريَّة، أم هي مغامرةٌ أدَّت إلى مجازر دموية؟ ما هي أهمية الدعم العسكري الذي بذله سكَّان البلقان والأرخبيل بالنسبة إلى الحملة الروسيَّة؟ هل استطاع الروس الاستفادة من كل نجاحات «النصر المُبين» في معركة شيسما، أم أضاعوا النصر الذي هبط عليهم فجأة، في غمرة الاحتفالات والتكريمات؟ بِمَ تجلَّت هيمنة الأسطول الروسي العسكرية في شرق البحر المتوسط؟ هل تجلَّت في حصار الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، أو في «القرصنة» وتهديد كل التجارة المشرقيَّة؟ وهل كانت هذه هيمنة أو غلبة؟ في هذا الفصل محاولة لتقديم حججنا لمصلحة هذا الموقف أو ذاك.

## تجربة التعاون الروسي - اليوناني الأولى في «مورية»: آمال وخيبات

> أصبحت بيلوبونيز ولاكديمون العريقة، المغرقة في قدمها تحت الصولجان الروسي، لتتآلف مع الشمال في منتصف النهار بفعل عجائبية العناية الإلهية... هناك يدخل الروسي في مأثرةٍ رسولية: هناك يقضي على الكفر المتعاظم ويمنح الحرية للدين المُضطهَد.
>
> **بلاتون (ليفشين): عظة في يوم بطرس وبولس (1770).**

(2) А. Н. Петров, *Война России с Турцией и польскими конфедератами в 1769-1774 гг* (СПб., 1866); С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994); Е. В. Тарле, *Чесме ский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг [1769-1774]* (М.; Л., 1945); Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007), и др.

[أ. ن. بيتروف، **حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية في الأعوام 1769-1774** (سان بطرسبورغ، 1866)؛ س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)؛ ي. ف. تارلي، **معركة شيسما والحملة الروسية الأولى في الأرخبيل [1769-1774]** (موسكو؛ لينينغراد، 1945)؛ غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)، وغيرها].

خلافًا لـ «حادثة» الجبل الأسود في عام 1769[3]، افتُتحت العمليات الحربيَّة في مورية مع وصول أول عمارتين بحريتين، وتوسَّعت بناءً على خطَّة مُعدَّة سلفًا. فقد كان التعاون بين الأسطول الروسي والمتمردين **اليونانيين**، هو سمة هذه الخطَّة الرئيسة. وكان يُفتَرَض بدء العمليات المشتركة في جنوب غرب بيلوبونيز (مورية) مباشرة مع اقتراب الأسطول الروسي من شواطئ اليونان. وهكذا، وقع الخيار على بيلوبونيز؛ وبالتالي، على التحالف مع **اليونانيين** (فاستُثنِيَ الجبل الأسود)[4].

أرسل مبعوث إنكلترا كيتكارت إلى لندن، خلال أشهر الحرب الأولى، خبرًا عن أحاديثه مع أحد مبعوثي أ. غ. أورلوف اليونانيين (مع بالاتينو على الأرجح). وتحدَّث هذا الأخير بثقة عن أنَّ «اليونانيين متعطِّشون للحرية، وأنَّ القليل من المساعدة يمنحهم إمكان نيلها (كان اليونانيون، كما اتَّضح، يتوقَّعون مساعدةً أكبر – المؤلفة)، فيما كان يمكِّنهم تحصين برزخ كورينث[5] من صونها. وسيحذو حذو مورية كلٌّ من: ألبانيا وإيبروس وزانت وكيفالونيا[6] والجزر المجاورة. إنَّ الانتفاضة في كانديا صعبة، ففيها الكثير من القلاع التركية، ولكن يمكن تحصين جزيرة واحدة أو اثنتين في الأرخبيل، فتُقطَع بذلك طرقُ إمداد القسطنطينيَّة بالمؤن الغذائية عبر الدردنيل»[7].

---

(3) يُنظر الفصل الثاني.

(4) وفقًا لشهادة أريادنا كاماريانو سيوران، اقترح غ. بابازولي على أ. غ. أورلوف التركيز على المانيين [يعود سكان شبه جزيرة مايني؛ المانيون في العصور السابقة إلى زمن حرب طروادة، ثم حلت محلهم قبائل دوريان. ويعتبر المانيون أنفسهم أحفاد الإسبارطيين الحاليين، وهم أعضاء في عشيرة ذات نظام اجتماعي معيَّن كان سائدًا في جنوب اليونان خلال العصور الوسطى. (المترجم)] وسكان جبال جنوب مورية الذين طارت سمعتهم بوصفهم محاربين شجعان: A. Camariano-Cioran, «La Guerre Russo-Turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965), pp. 518-519.

(5) ممر ضيق يربط شبه جزيرة بيلوبونيز مع الجزء القاري من اليونان، وهو يقع بالقرب من مدينة كورينث التي أعطته اسمها، ويبلغ طوله نحو 42 كلم، وعرضه في أضيق نقطة نحو 6 كلم. (المترجم)

(6) تشكل إيبروس وزانت وكيفالونيا سلسلة جزرٍ يونانية تقع في البحر الأيوني، وتسمى إقليم الجزر الأيونية، وهي واحدة من المناطق الثلاث عشرة اليونانية. (المترجم)

(7) اقتباس من: Соловьев, Кн. XIV, c. 273.
[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 273].

تحدَّثت كاترينا الثانية بصراحة في مرسومها الصادر بتاريخ 29 كانون الثاني/ يناير 1769 عن الأعمال التخريبيَّة المرتقبة من جانب مورية وجزر الأرخبيل. وحين وجَّهت أمرًا إلى أ. غ. أورلوف بالعثور على ربابنة جيدين للأسطول، فهي إنَّما قصدت مرشدين بحريين يعرفون السواحل الإيطاليَّة (إذ كانت إيطاليا تُعتبر محطةً انتقالية للسفن) واليونانيَّة حقَّ المعرفة، ولم تعنِ سواحل الجبل الأسود.

الجدير ذكره أنَّ غ. أ. سبيريدوف وضع، أيضًا، في مستهلِّ عام 1769، رسالةً تفصيليَّة ضمَّنها وصفًا للظروف المناخيَّة والهيدروغرافيَّة لمنطقة مورية[8]؛ وألحَّ فيها على ضرورة أن يكون للأسطول ملجأٌ عند وصوله إلى البحر المتوسط، فاعتقد أنَّه يمكن أن تكونه جزيرتا كوروني ومودون (ميتوني) بمورية، وبالطبع من دون استبعاد مرفأ فالون (آفالون) بألبانيا. وأصر أنَّه ما إنْ يؤمَّن المرفأ، حتى يصبح بالإمكان الذهاب إلى برزخ كورينث وإلى الأرخبيل[9]. وإذا ما أضيف اهتمام روسيا الخاص بمعارك الثوار اليونانيين في منطقة كورينث إلى كل ما قيل، يمكن الاستنتاج أنه كانت أمام الحملة الأولى مهمة استراتيجيَّة للاستيلاء على المرفأ في غرب مورية، والتوجُّه إلى برزخ كورينث لاحتلاله، بُغيةَ فصل مورية عن بقية اليونان، وإلحاق ضررٍ جسيمٍ بالعدو تاليًا. وبالمناسبة، كتبت كاترينا في نهاية تموز/ يوليو من عام 1770 في رسالةٍ إلى فولتير: «...يعود لليونانيين استدعاء اليونان إلى الحياة، لقد بذلت كلَّ ما في وسعي لتحسين الخريطة الجغرافية من خلال ربط كورينث بموسكو. ولا أدري ما سينجم عن ذلك»[10].

---

(8) عبثًا تحدث ف. أ. كليوتشفسكي باستهزاء عن طلب الإمبراطورة بأن تُرسَلَ إليها من لندن خريطة للبحر المتوسط؛ إذ كان لدى إدارة الأسطول البحري معلومات محدَّدة عن البحر المتوسط.

(9) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Д. 1883, Л. 3-9.

**[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا مع تركيا، الملف 1883، ص 3-9].

(10) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Перевел с французского Иван Фабиян (М., 1805), Ч. I, с. 97.

**[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778**، نقلها من الفرنسية إيفان فابيان (موسكو، 1805)، ج 1، ص 97].

كانت هذه الخطَّة تعاني خللًا كبيرًا من وجهة النظر الاستراتيجيَّة العسكريَّة البحريَّة في بداية القرن العشرين. وقد وجَّه مؤرِّخ الأسطول الحربي الملازم ن. د. كاليستوف اللوم إلى أ. غ. أورلوف الذي يُعزى إليه إعداد الخطَّة المذكورة، متَّهمًا إيَّاه بـ «تجاوز متطلَّبات الاستراتيجيَّة البحريَّة البدهيَّة ... بمباشرته العمليات من البحر، في الوقت الذي كان فيه الأسطول التركي لا يزال مسيطرًا في كل بحاره». واستنتج كاليستوف أنَّ نهاية العمليَّة البريَّة في مورية المؤسفة كانت إحدى عواقب هذا التخطِّي[11]. وإذا كان المؤرِّخون الحربيون على حق، فلا يبقى إلا الاعتراف بأن خطط كاترينا الاستراتيجيَّة انطوت منذ البداية على حسابات خاطئة كبيرة. ولم يكن تحقيقها يتعلَّق بمحدودية قوى العمارتين البحريتين الأوليين العسكرية، بل بأعمال **الثوار اليونانيين** المشتركة بالدرجة الأولى، حيث تعذَّر احتساب عددهم. هذا الأمر كانت بطرسبورغ تدركه تمامًا.

خلت التعليمات التي تلقَّاها الأميرال سبيريدوف - قبيل إبحار عمارته البحريَّة - من الإرشادات التفصيليَّة المتعلِّقة بنمط نشاطاته في البحر المتوسط، «نظرًا إلى بُعد المكان، وإلى عدم معرفة الناس وطبائعهم»، فيما كانت كاترينا تعتبر أنَّه لم يكن ممكنًا التنبُّؤ مسبقًا بقدرٍ كافٍ بكل «الأحداث» التي كانت تنتظر الأسطول الروسي[12]. وبالفعل، بدا أنَّ أمورًا كثيرة في العمليات المقبلة مبهمة، وكان على القيادة اتِّخاذ قراراتٍ مستقلَّة تبعًا للظروف المتبدِّلة، أو بما يوافق المعلومات المنقوصة التي كانت في حوزتها.

---

(11) Н. Д. Каллистов, «Архипелажская экспедиция,» in: *История русской армии и флота* (М., 1912), t. 8, c. 56.

[ن. د. كاليستوف «حملة الأرخبيل»، في: **تاريخ الجيش والأسطول الروسي** (موسكو، 1912)، ج 8، ص 56]. وتكتب الباحثة المعاصرة غ. أ. غريبينشيكوفا أيضًا عن «تهافت» استراتيجيَّة أورلوف وكاترينا البحريَّة: Гребенщикова, c. 190.

[غريبينشيكوفا، ص 190].

(12) اقتباس من: В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883), c. XCV.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، ص XCV].

بمقتضى ذلك، وقعت مسؤولية خاصّة على أ. غ. أورلوف المكلّف بتحضير انتفاضة اليونانيين، الذي كان مستقرًّا في مكان قريب من مكان العمليات المقبلة، وقد ركّز جُلّ انتباهه على منطقة ماينى. وفي السادس من كانون الثاني/يناير 1769، تقدّم نقباء ماينى بالتماسٍ إلى كاترينا الثانية يرجون فيه مدّ «يد العون» إلى اليونانيين، ويؤكّدون أنّهم بنضالهم ضد الأتراك إنّما يصونون حريتهم. كانت أسماء هؤلاء النقباء الذين يتقاسمون السلطة في ماينى معروفة، حيث ورد ذكرها في تقارير بعثة غ. بابازولي[13] (ومن هنا، يبرز تصنيف الإمبراطورة اليونانيين بين رازحين تحت النير التركي، وأحرار «محاربين»، وهو ما ورد في أوامرها إلى ألفينستون وآرف). كتب النقباء: «أي معنى لحريّتنا الشخصيّة إذا ما هلك مجتمعنا الأرثوذكسي؟». إنّ «انجذابنا الفطري نحو عرشكم، مع طاعتنا وتبجيلنا لكم، لن يسمح لنا بالبقاء مكتوفي الأيدي» في حرب الأتراك ضد روسيا؛ ومن ثَمّ تلت التأكيدات المعروفة عن الأربعين ألف مقاتل من ماينى، والمئة ألف الآخرين من بيلوبونيز («ثمّة في بيلوبونيز كلّها، إضافةً إلينا، أكثر من مئة ألف شخص مؤهّل للقتال»)، من دون احتساب باقي سكان هيلاس وفيساليا ومقدونيا وهيمارا، و«جميع هؤلاء متّفقون معنا في الرأي، وكلّنا عازمون ومستعدّون لبذل آخر نقطة من دمائنا في خدمة إمبراطوريتكم المقدّسة، ومن أجل تحرير إخواننا الأرثوذكس»، «فقط لو أنّنا حظينا بدعم يدكم القوية»[14]. (وكيف كان للآمال بنجاح الأعمال القتاليّة البريّة - بدعم من الأسطول الروسي - ألّا تظهر لدى منظّمي حملة الأرخبيل في ظلّ مثل هذه التأكيدات!).

---

(13) من هؤلاء: غ. مافروميخالي، م. تروباك، غ. غليغوراكي [غريغوراكي]، أ. كومونوراكي، م. كافاليراكي، ب. خريستاكي (حُرِّفت أسماء العائلات الثلاث الأخيرة في النص الروسي). وإضافةً إليهم وقّع الالتماس ثلاثة من أعضاء عائلة باليولوغ وغيرها.

Из бумаг графа Григория Григорьевича Орлова. Копия с прошения Греческаго народа к Императрице Екатерине II, от 6 января 1769 года, in: *СбРИО*, t. 2 (СПб., 1868), c. 284-286.

[من أوراق الكونت غريغوري غريغوريفيتش أورلوف. نسخة عن التماس الشعب اليوناني إلى الإمبراطورة كاترينا الثانية، مؤرَّخة في 6 كانون الثاني/يناير 1769، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيّة**، مج 2 (سان بطرسبورغ، 1868)، ص 284-286].

(14) نسخة التماس الشعب اليوناني: المرجع نفسه، ص 285.

نشأت لدى أورلوف علاقات مع الزعماء المانيين في ربيع العام نفسه، حيث كانت الاتصالات تجري عبر تريستي، من لَدُنْ «عملائه» الخاصين[15]. وفي الخريف، وبالتحديد في تشرين الأول/ أكتوبر 1769، بعث أورلوف برسالة إلى زعيم المانيين غيورغي مافروميخالي يشرح فيها بالتفصيل الإجراءات الضروريَّة الآيلة إلى تنظيم الأعمال المشتركة[16].



الكونت فيودور أورلوف

وكان على أ. غ. أورلوف أن يأخذ

---

(15) يخبر أ. م. غوليتسين عن هذا، ف. س. تامارا الذي عُيّن مترجمًا لدى المركيز بانو ماروتسي، وكان ضالعًا في تحضير انتفاضة اليونانيين، وعلى الأرجح بسبب «مذكّرته عن اليونانيين» التي أُعطيت إلى ن. إ. بانين والمؤرّخة في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1768. يُنظر:
Г. Л. Арш, «Российские эмисса ры в Пелопоннесе,» с. 65-66.

[غ. ل. آرش، «المبعوثون الروس في بيلوبونيز»، ص 65-66].

وهو نفسه يكتب عن عزمه على إقامة علاقات خاصة عبر رجله مع عملاء أ. غ. أورلوف (وكما يكتب، مع «عملاء سريين تابعين للأخوين أوستروفوف»). وبالتالي، كانت لدى نائب المستشار ألكسندر ميخايلوفيتش غوليتسين «عينه الخاصَّة» في البندقية: К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, in: *Русский Архив*, 1876, Кн. 2, с. 282-284.

[سيرة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، الكتاب 2، ص 282-284].

وكانت لدى ف. س. تامارا شيفرته الخاصة لمراسلة سان بطرسبورغ، وقد اختلسها المركيز ماروتسي من بين أوراقه، حينما كان ينقّب فيها خلال غيابه. وهكذا، كانت ثمَّة عدم ثقة متبادلة ومراقبة رسائل، بل وتجسُّس.

(16) اقترح أورلوف تحضير ثكناتٍ للوحدات الروسيَّة، وتخزين المؤن الغذائية لأجلها، وتقديم برادع من الماشية التي يحتاج إليها الجيش، وإرسال أناسٍ إلى القلاع التركيَّة قادرين على تحييد المدفعية التركية. وكان يُفترَضُ أن تكون إشارة اندلاع الانتفاضة ظهور الأسطول الروسي في مياه مورية، فتُطلق حينئذٍ دعوة الشعب إلى الانتفاضة المسلحة: Camariano-Cioran, p. 523.

وعن دور مافروميخالي في أحداث عام 1770، وأيضًا، عن رسائل أ. غ. أورلوف، ن. إ. بانين والإمبراطورة كاترينا إلى ممثلي عائلة مافروميخالي، يُنظر: Σ. Κουγέας, «Συμβολαί εις την ιστορίαν της υπό τους Ορλώφ Πελοπον-νησιακής Επαναστάσεως (1770),» *Πελοποννησιακα*, no. 1 (1956), Σελ. 50-107.

في الحسبان في نشاطه أيضًا المضاعفات المحتملة التي قد تنجم في أثناء تقدُّم الأسطول نحو سواحل اليونان، وتسهيل وجود العمائر البحريَّة بعيدًا من القواعد الروسيَّة، ليس من خلال تنظيم مخازن الذخيرة والمؤن وبناء المستشفيات وتزويد الأسطول بأصحاب الخبرة من المرشدين البحريِّين وإرسال شقيقه فيودور إلى بورت ماغون لاستقبال الأسطول فحسب، بل عبر تأمين دعم واسع للحملة من جانب الزعماء اليونانيين والسلافيين أيضًا[17]. وأفلح ألكسي غريغوريفيتش في ذلك. وبين عامي 1769 و1770، كانت تُنشر في الصحافة الروسيَّة والأوروبيَّة بشكلٍ دائمٍ معلوماتٌ عن بناء اليونانيين والسلافيين – خلال انتظارهم وصول الأسطول الروسي – سفنًا صغيرة للقيام بأعمالٍ حربيَّة، وعن توجُّه معلِّمين حرفيِّين من الأرخبيل إلى بورت ماغون لمرافقة الأسطول الروسي إلى الشرق، وعن أنَّ «اليونانيين يجوبون في كل الأراضي البابوية الساحلية تقريبًا، بجوازات سفرٍ روسيَّةٍ لاستكشاف الملاحة في البحر اليوناني»، وعن احتشاد عددٍ كبيرٍ من السفن الشراعيَّة الحربيَّة عند جزر البليار، التي ستنضمُّ في ما بعد إلى عمارة سبيريدوف البحريَّة[18]، وأنَّ يونانيي جزر هيدرا وبسارا وسبيتسيا وغيرها، المشهورين بمهاراتهم البحريَّة، كانوا يستعدون للانتفاضة[19]. على هذا النحو، رافقت اندلاع العمليات الحربيَّة في مورية توقُّعات أجَّجتها صحف أوروبا كلِّها، بأن اليونانيين سيُطيحون النير العثماني المستمر منذ قرونٍ طويلةٍ في القريب العاجل، وذلك بدعم من الروس.

انتظر يونانيو بيلوبونيز وجنوب البلقان وصول الروس، وما لا شك فيه أنَّ

---

(17) في المصادر الروسية خلال تلك الفترة سُمِّيَ الصرب سكان الجبل الأسود ودلماسيا: «السلافيين»، «السلافون»، «السلافونيين».

(18) على سبيل المثال: *Санктпетербургские ведомости*, nos. 10, 16, 23 (1770), и др.
[أنباء سان بطرسبورغ، الأعداد 10، 16، 23 (1770)، وغيرها].
*G. d'A.*, 1769, nos. 48, 69, 95, 99, 101; 1770, nos. 13, 19, 21, 27, 33.

(19) О. Б. Шпаро, *Освобождение Греции и Россия (1821-1829)* (М., 1965), с. 29.
[أ. ب. شبارو، تحرير اليونان وروسيا (1821–1829) (موسكو، 1965)، ص 29].

العمل التحضيري[20] الذي أعدَّه المبعوثون الروس لم يمر من دون إثارة انتباه سكان البلقان. في هذا الإطار، تشكِّل رسائل ف. س. تامارا إلى أ. م. غوليتسين في سان بطرسبورغ، المؤرَّخة في 1-12 أيار/ مايو 1769، أهميةً كبرى. فقد أفاد تامارا بأنه استأنف (ربَّما منذ زمن زيارته اليونان في عام 1766) علاقته بالأرشمندريت داماسكين، رأس البطريركيَّة القسطنطينيَّة في اليونان، «مناصر روسيا الغيور»، الذي يقيم علاقات مع كلِّ اليونان (أوَليس هو «الشخصية البارزة بين رجال الدين»، الذي تعامل معه بابازولي وبالاتينو بين عامي 1764 و1765 وأبقيا اسمه سرًّا؟). هذا، وأطلع الأرشمندريت تامارا على الرسائل الواردة من اليونان، حيث يُبدي في واحدةٍ منها القبطان بيناكي استغرابه من عدم توفُّر أخبار من الروس، على الرغم من انقضاء ثلاثة أشهر من دون أن يتسلَّم أيَّ رسائل من بابازولي (ما يعني أنَّه كانت بينهما مراسلة). وأمَّا هذا القبطان فقد انتقل من مقرِّه في كالاماتا مع حمايةٍ من 1400 شخص ليكون قريبًا من المانيين وبعيدًا من الباشا التركي. وذكر بوكوفال المعروف من خلال وثائق بعثة غ. بابازولي أنَّ لديه ولدى «زعماء» آخرين نحو 15 ألف شخص تحت السلاح؛ وأنه ثمَّة ما يتراوح بين «10 و12 ألف شخص امتشقوا السلاح من المناطق الجبلية ينتظرون الروس»، كما كتب سكان كسيرومير[21]، «إلا أنَّهم لم يروا أحدًا منهم. لقد كانوا بانتظار ورود معلومات عن انتصارات الروس على الأتراك، ليبدأوا العمل بما يتناسب مع درجة الانتصار». وأخيرًا، كان هناك 360 شخصًا من سكَّان اليونان المنتشرين في الجبال حول يانين، مِمَّن رفضوا تسليم سلاحهم للأتراك، وكانوا مستعدين للانتفاضة[22].

كما تحرَّك متحمِّسون يونانيون آخرون راهنوا على الدعم الروسي[23]. فقد كتب ستيفان مافروميخالي في عام 1771 عن أحد هؤلاء إلى القيادة في

(20) يُنظر الفصل الأول.

(21) كسيرومير: منطقة تقع في الوسط الغربي من اليونان على طول البحر الأيوني. (المترجم)

(22) К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, с. 283.

[سيرة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 283].

(23) يُنظر على سبيل المثال: N. C. Pappas, *Greeks in Russian Military Service in the Late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries* (Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1991), pp. 67-70.

الأرخبيل موصيًا به، وهو باندازي باليولوغ، الذي سافر منذ عام 1760 مع أخيه ياناك باليولوغ إلى القسطنطينيَّة لمقابلة «الوزير» الروسي، طالبًا المساعدة في «محاربة القوة الهاجريَّة»، وفقًا لشهادة مافروميخالي. وفي عام 1769، تمكَّن باندازي باليولوغ من تسليم طلب إلى القنصل أوبريسكوف - المقيم في القصر ذي الأبراج السبعة - للكتابة «إلى بطرسبورغ، حول ما إذا كان ممكنًا إرسال الأسطول الروسي وإقفال الدردنيل، بغية منع إدخال المؤن الغذائيَّة وجعل الأتراك يموتون من الجوع... وأنه ينبغي تسليح كل اليونانيين والماينيين ضد الأتراك، حالما يصل الأسطول»[24]. ولأنَّ باندازي باليولوغ وآخرين من مواطنيه استمرُّوا - بعد الانكسار في مورية في عام 1771 - يعرضون مشروعات جريئة للعمليات المشتركة، يمكن القول إنَّ يونانيِّي بيلوبونيز لم يتخلَّوا بسهولةٍ عن الآمال بنيل الدعم الروسي.

بدوره، اعتمد الباب العالي في اليونان سياسة أكثر مرونةً منذ بداية الحرب، إذ «أصدر السلطان أوامر مشدَّدة إلى جميع الباشاوات ورؤساء المناطق بضرورة التعامل مع اليونانيين بكلِّ إنسانية ومرونة ممكنتين، وبإعادة الأسلحة إليهم»، كما كتب ف. س. تامارا، بناءً على الرسائل الواردة من اليونان[25].

من الواضح جدًّا أنَّ ممثِّلي مختلف الطبقات الاجتماعيَّة في مورية - من الإقطاعيين ورجال الدين إلى سكان المدن والماينيين الجبليين - انتظروا وصول الأسطول الروسي واستعدُّوا له[26]. بيد أنَّه لم يكن من الممكن ألاَّ

(24) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 118.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 118]. استولى الأتراك على رسالة أوبريسكوف، بحسب مافروميخالي، وخسر باليولوغ أفرادًا كثيرين من عائلته الذين أعدمهم الأتراك، وكل ممتلكاته.

(25) К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, с. 283.

[سيرة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 283].

(26) Τ. Α. Γριτσόπουλος, *Τα Ορλωφικά. Η εν Πελοποννήσω επανάστασις του 1770 και τα επακόλουθα αυτής* (Αθήναι 1967); Μ. Β. Σακελλαρίου, *Η Πελοπόννησος κατά την δευτέραν Τουρκοκρατίαν, 1715-1821* (Αθήνα, 1939); Y. Nagata, «Greek Rebellion of 1770 in the Morea Peninsula. Some Remarks through the Turkish Historical Sources,» *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* [Japan], no. 46 (1988), pp. 85-99; Гребенщикова, с. 243-257.

ينعكس استقبالهم الروس على سلوكهم السياسي[27]، وهم الذين تسيِّرهم دوافعهم الخاصة في ظلِّ تخلُّف وعيهم الوطني وغلبة أولويَّاتهم الدينيَّة والقبليَّة – العشائريَّة. في هذا الصدد، كتب الكاهن اليوناني أدامانتيوس كورايتس (1748–1833): «لم يفكر البعض إلا بالانتقام من مضطهديهم، فتعاملوا مع الأتراك بوحشية فظيعة خلال المواجهات الحربيَّة، فيما اعتبر آخرون أنَّ من واجبهم الانتقال إلى جانب الروس بحكم الأخوَّة في الدين، آملين أن يعيد هؤلاء بناء بيوت الله التي نهبها الأتراك وحوَّلوها إلى مساجد». يجدر بالذكر أنَّ الأسطول الروسي حمل أواني كنسيَّة، وأنَّ أ. غ. أورلوف أصدر أمرًا في 21 نيسان/ أبريل 1770 بتكريس المعبد القديم في نافارين[28]، الذي حوله الأتراك إلى مسجد[29]. لذا، نظر كثُرٌ من أصحاب الأفكار الطيِّبة إلى الروس بوصفهم شعبًا مرسلًا من العناية الإلهية من أجل قيامة حرية اليونان (تضمَّنت التوجُّهات الروسيَّة نداءاتٍ تحرُّريَّة – المؤلفة)[30].

بدأ الشعب يتحدَّث عن نبوءات قديمة بتحريرٍ قريب للبلاد من قِبَل شعب الشمال. وبذل الإكليروس اليوناني كلَّ ما في وسعه لترسيخ هذه الأسطورة. وكما كتب س. ك. غريغ، «فقد ذكَّر[31] بالنبوءات القديمة بهدف التأكيد على أنَّ سقوط الحكم التركي بات وشيكًا، وأنَّ لحظة حريتهم قد أزفت أخيرًا. لقد

= [غريبينشيكوفا، ص 243–257].

ونحن نعتبر أنَّ ملاحظات غ. أ. غريبينشيكوفا، التي تخفِّف من دور الانتفاضة اليونانيَّة الأولى في مورية، لا أساس لها إطلاقًا.

(27) N. Ροτζώκος, *Εθναφύπνιση και εθνογένεση: Ορλωφικά και ελληνική ιστοριογραφία* (Αθήνα, 2007).

(28) منطقة تقع في جنوب غرب مورية، وفيها مرفأ كبير ارتبط اسمه في عام 1827 بالمعركة التي جرت بين السلطنة العثمانيَّة وقوات إبراهيم باشا من جهة، وبين فرنسا وروسيا واليونانيين من جهةٍ أخرى، وفيها سَحَقَت أساطيل هذه الأخيرة الأسطولين العثماني والمصري، وباتت تُعرف بمعركة نافارين. (المترجم)

(29) عن هذا الاحتفال، يُنظر: غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية**، ص 251.

(30) اقتباس من: Шпаро, с. 26.

[شْبارو، ص 26].

(31) الإكليروس اليوناني. (المترجم)

جاء الآن إخوتهم في الدين، الأقوياء القادرون، من البلاد البعيدة، تقودهم العناية الإلهية، لأجل استعادة استقلالهم»[32]. وتأجّجت هذه المشاعر بفضل منشورات أورلوف، التي أبدى فيها ثقة بأنَّ جميع اليونانيين سيرفعون الصليب وسيقاتلون من أجل الدين المشترك، من أجل وطنهم وحريتهم، «إذ يرون أنَّ الروس، إخوة الدين، يأتون من هذه البلاد البعيدة، ليُريقوا دماءهم في سبيل الدين المسيحي، وفي سبيل كلٍّ من يعتنق هذا الدين، مدركين كم هي عزيزة هذه اللحظة التي يتوقّف عليها ترسيخ الدين وحرية الشعب بأسره...». ووعد ألكسي أورلوف كلَّ من ينهض الآن باسم الدين والوطن، بأنّهم «فضلًا عن مباركة الرب، سينالون من الإمبراطورة التقديس والتمجيد أيضًا مكافأة لهم على جهودهم. أمّا أولئك، الذين لا يقدِّمون المساعدة لهذه القضية المقدسة...، فسيخسرون رخاءهم ومكافأة الإمبراطورة...»[33]. بيد أنَّ أورلوف لم يفسِّر على أيِّ مكافأة دار الكلام، ولرُبَّما قصد الإشارة إلى حماية الإمبراطورة الروسيَّة وعطفها فقط. لكن، وكما يشير غ. ل. آرش بحقٍّ، فإن هذه الوعود اكتسبت في الدعاية الشفهية يقينيَّة أكثر[34]. ومن المعروف أنَّ أنطونيو جيكا الذي جنَّد فيلقًا عسكريًّا من الألبان بتكليف من أورلوف، «[كان] مجبرًا على الوعد لا بما يرغبون فيه فحسب، بل بأكثر ممَّا يمكن أن يرغبوا فيه»[35]. ولقد

---

(32) «Собственноручный журнал капитана-командора (впоследствии адмирала) С. К. Грейга,» *Морской сборник*, t. II, no. 10 (октябрь1849), c. 653.

[«صحيفة القائد-القبطان (الأميرال في ما بعد) س. ك. غريغ بخط يده»، **المجموعة البحرية**، المجلد 2، العدد 10 (تشرين الأول/ أكتوبر 1849)، ص 653].

(33) اقتباس من: Camariano- Cioran, pp. 523-524.

(34) Г. Л. Арш, *Этеристское движение в России: Освободительная борьба греческого народа в начале XIX в. и русско-греческие связи* (М., 1970), c. 79.

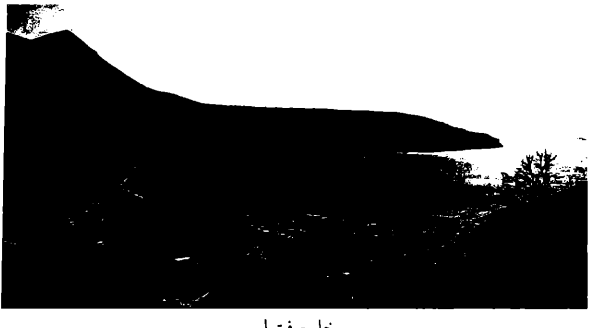
[غ. ل. آرش، **الحركة التحررية اليونانيَّة في روسيا: نضال الشعب اليوناني التحرُّري في بداية القرن التاسع عشر والاتصالات الروسية - اليونانية** (موسكو، 1970)، ص 79].

(35) غير أن نتائج هذه السياسة كانت محزنة بالنسبة إلى جيكا («هؤلاء الناس المتوحشون، غير المدركين لاستحالة إغناء الأمة كلها، أظهروا حقدًا شديدًا حيال الكونت جيكا، وتقاسموا أراضيه في ما بينهم، وانتزعوا منه كل ممتلكاته»: *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Д. 7177, no. 90, Л. 475-476.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 2/ 6، شؤون الهيئة الداخلية، الملف 7177، العدد 90، الورقة 475-476].

اعتُبِرت كل هذه الوعود، بادئ ذي بدء، على أنَّها حقيقة صافية، فولَّدت آمالًا لا حدود لها.

في نهاية الأمر، ظهر في وعي اليونانيين الجمعي اعتقادٌ بأنَّ الحملة الروسيَّة إنَّما توجهت إلى سواحل مورية تحقيقًا لإرادة إلهيَّة من أجل **تحريرهم فقط**، لا من أجل إنزال ضربة بالأتراك «في المكان الأكثر حساسية»، ولا من أجل ترسيخ الحضور الروسي في البحر المتوسط. وجدير بالذكر أنَّ تقبُّل السكَّان الأرثوذكس الأسطوري لأهداف الحملة ترك بصمته على الكتابات التاريخيَّة اليونانيَّة، وكذلك على وجهات نظر المؤرِّخين الجدد المستندين إليها[36].



خليج فيتولو

هكذا، انتظر اليونانيون وصول الروس، ولا سيَّما في جنوب بيلوبونيز. ويبقى السؤال: على أيِّ نوعٍ من الدعم الحربي راهن اليونانيون والروس، وعلى أيِّ دعم استطاعوا الحصول؟ كان الارتباك غير المفهوم والآمال غير المحدودة ونشوة الشعور الجماهيري والإيمان بالنبوءة والنهوض الديني العام أمورًا محفوفةً بتغيُّر المزاج الحاد، الأمر الذي أوجد الأرضيَّة لمدٍّ وجزرٍ

(36) Γριτσόπουλος, Σελ. 176; Camariano-Cioran, «La Guerre Russo-Turque de 1768-1774 et les Grecs»; Я. Ф. Тиктопуло, «Русско-турецкие войны 1768-1774, 1787-1791 гг. и судьбы греков. Греческий проект Екатерины II,» Дисс. ... канд. ист. Наук, М., 1991.

[ي. ف. تيكتوبولو، «الحرب الروسيَّة - التركيَّة 1768-1774، 1787-1791 ومصائر اليونانيين، مشروع كاترينا الثانية اليوناني»، أطروحة دراسات عليا في علوم التاريخ، موسكو، 1991].

داهما التحرُّكات الجماهيريَّة وفقًا لتبدُّل الوضع؛ وهو ما حصل خلال العمليَّات الحربيَّة بين كانون الثاني/ يناير وأيار/ مايو من عام 1770.

بشَّرت بداية العمل بنجاحٍ كبير: «حدث إنزالنا الأول في البحر من دون أيِّ طلقة»[37]. فاستقبال اليونانيين العمارة البحريَّة في بلدة بيتيلو (فيتولو) غير المحصَّنة - حيث كان يقع أحد منازل عائلة مافروميخالي - فاق كل التوقّعات. وسيكتب خميتيفسكي في مذكراته ذلك: «جاءت إلينا أعدادٌ غفيرةٌ من اليونانيين، رجال طوال القامة، أصحاء الأجسام ونظيفون، يحمل كل واحدٍ منهم بندقية أو مسدسًا أو سيفًا»[38]؛ ثم تلى ذلك إطلاق ألعاب نارية وقداس احتفالي في دير أوسبينسكي، وبعد القداس أدَّى «قبطان يوناني ويونانيون آخرون نالوا الجنسية الروسيَّة» اليمين[39]. وفي 20 شباط/ فبراير، بدأ تشكيل فيلقين يونانيين، شرقي وغربي، واصطفّا «عند الدير على طول الساحل، حيث بارَكَ الأرشمندريت رايَتَيْ هذين الفيلقين»[40].

في 22 شباط/ فبراير، دخل «الفيلق الشرقي» تحت قيادة النقيب باركوف إلى عمق بيلوبونيز، متوجِّهًا إلى ميسيستريا[41] (ميسترا) وتريبوليتسا. تألف هذا

---

(37) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, in: *Русский архив*, 1880, Кн. III (2), c. 254.

[مراسلات الكونت ن. إ. بانين مع الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، 1770-1773، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، الكتاب الثالث (2)، ص 254].

(38) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: И. М. Смилянская, М. Б Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8, c. 588.

[إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 588 (الطبعة الروسيَّة)]. في الحقيقة، يكتب خميتيفسكي عن أحداث أيار/ مايو 1770.

(39) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 103.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 103].

(40) المرجع نفسه، ظهر الورقة 103.

(41) **ميسيستريا**، أو **ميستراس**: مدينة تعود إلى القرون الوسطى، تشبه القلعة، في إقليم بيلوبونيز اليوناني، قطنتها قبائل سلافية محاربة شديدة البأس، قاومت محاولات البيزنطيين إخضاعها باستمرار، إلى أن تمكَّنوا منها أخيرًا، لتتحوَل في ما بعد إلى واحدٍ من أهم مراكز بيزنطة الثقافيَّة والسياسيَّة في أواخر عهدها... وفي عام 1249، أمر غليوم الثاني، أمير بيلوبونيز، ببناء قلعةٍ على تلةٍ تبعد 6 كلم عن إسبارطة، من أجل درء هجمات الجبليين، بهدف السيطرة على المنطقة المحيطة. (المترجم)

الفيلق بأكثريته من اليونانيين المحليين ومن الجبليين - المايننيين (نحو 6-8 آلاف عنصر)، كان قد أُضِيفَ إليهم نحو 20 [كذا!] بداية، ثم 30 عنصرًا بعد وقتٍ قصيرٍ من الجنود الروس وطواقم سفينة أنطون بسارو (وهو ليس رقمًا كبيرًا حتى يُطلَقَ على العمليات صفة **المشتركة!**)؛ وقاد الفيلق عضو عشيرة غريغوراكي من يونانيِّي مايني. غير أنَّ عمليَّات الفيلق الناجحة عكَّرتها، في الواقع، القسوة التي تعامل بها اليونانيون والمايننيون مع سكان ميسترا العُزَّل الذين سلموا المدينة، على الرغم من محاولات القيادة والجنود الروس منع إراقة الدماء. وكتب المؤرِّخ التركي واصف أفندي: «من أصل 700 مسلم كانوا موجودين في المدينة، وقع تقريبًا 300 منهم في الأسر، فيما قُتل 400 في عملية الدفاع ونالوا إكليل الشهادة. وكان من شأن السرد المفصل لكل الفظائع، التي ارتكبها المايننيون والروس في ميزيسترا، أن يثير الرعب في القلوب. كان الأطفال الحديثو الولادة يُرمَوْن من المآذن. لقد قدَّم ألفُ هائج من هذا النوع صورة وحشية عن الشعوب المتوحشة»[42].

استولى الفيلق الغربي بقيادة المتطوِّع الأمير بيوتر دولغوروكوف (غالبًا ما يخلطون بينه وبين ي. ف. دولغوروكوف) وعضو عائلة مافروميخالي من دون مواجهة مقاومةٍ كبيرةٍ في مدن كالاماتا وليونتاري وأركاديا. وفي عداد الفيلق الغربي كان هناك أيضًا اثنا عشر (!) جنديًا روسيًا فقط؛ إذ كانت قوات الإنزال الرئيسة الروسيَّة قليلة العدد منشغلة بمحاصرة القلاع الساحليَّة المنيعة: كوروني (Koroni)، نافارين (Pilos) ومودون (Methoni)، وكانت في ما مضى تابعة للبندقية؛ إذ اعتبرها أ. أورلوف وغ. سبيريدوف بمثابة قواعد ارتكاز محتملة للأسطول الروسي في البحر المتوسط. وهكذا، كان من الصعب على الجنود الروس أن يكونوا نموذجًا «للانتظام والطاعة» (كاترينا الثانية) بسبب قلَّة عددهم في كلا الفيلقين المتنقِّلين في مورية، وربما كان هدفهما النهائي الوصول إلى مضيق كورينث. كانت الغلبة العدديَّة لليونانيين، في تلك الفترة

---

(42) ОР РНБ, F. IV. 618, *Война турков с россиянами с 1769 по 1774 год*, Сочинение Васифа-Ефенди, турецкого историографа, Л. 62 об.

[المكتبة الوطنية الروسيَّة قسم المخطوطات، F. IV. 618، **حرب الأتراك مع الروس بين عامي** 1769 و1774، تأليف واصف أفندي، مؤرِّخ تركي، ظهر الورقة 62].



حصار الأسطول الروسي لقلعة كوروني عام 1770



ميتوني/ مودون

من الأعمال الحربية؛ إذ انضمَّ يونانيو مقدونيا إلى يونانيي مورية، شاقّين طريقهم عبر مضيق كورينث في بيلوبونيز، ووصل متطوعون يونانيون من الجزر التي كانت تابعة لجمهورية البندقية.

في التاسع والعشرين من آذار/ مارس 1770، أرسل فيودور غريغوريفيتش أورلوف من كوروني بيان النصر إلى سان بطرسبورغ، مُخبِرًا فيه أنَّ اليونان بأكملها تشتعل بالنيران(43). ونشرت صحيفة أنباء سان بطرسبورغ أخبارًا عن محاولة السفن الروسيَّة الدخول إلى خليج ليبانت، «بحيث تُنزَلُ القوات الحربيَّة بالقرب من كورينث على الشاطئ، وتحتلُّ المضيق الذي يربط مورية بالقارة، فيُقطعُ بذلك على الأتراك كلُّ أملٍ بمساعدة شبه الجزيرة

(43) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Д. 1907, Л. 1.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسيَّة، المجموعة 89/ 8، علاقة روسيا مع تركيا، الملف 1907، الورقة 1].

تلك»[44] (لكن لم يُعثَر على تأكيدٍ لذلك في الوثائق). وكالعادة، وصلت الأخبار إلى بطرسبورغ متأخِّرةً جدًّا. فمنذ حزيران/ يونيو، نشرت **أنباء سان بطرسبورغ** أخبارًا عن الانتصارات الأسطورية في مورية: «احتُلت نافارين وميزيسترا وكوروني ومودون وقلعة باتراسو»[45]، علمًا أنَّ الثلاث الأخيرة لم تكن أصلًا في أيدي الروس. وفي أواسط تموز/ يوليو، أُعلن أيضًا في **أنباء سان بطرسبورغ** أن أورلوف كان سعيدًا جدًّا بشجاعة اليونانيين، ليس بعد ترك مورية فحسب، بل بعد معركة شيسما أيضًا. «كلمةٌ تُقال: سيُرفع قريبًا الصليب المقدَّس والنسر الروسي في كلِّ الأماكن على شبه جزيرة مورية»[46]؛ وفي بيترغوف، في يوم بطرس وبولس، تلا بلاتون (ليفشين)[47] موعظته التي قال فيها: «قبل أن يحلَّ الربيع، أسعدَ الجمالُ المقدَّسُ عيونَنا، وأزهر غار الانتصارات من دول الشرق لأجلنا، وتكلَّلت رؤوس المنتصرين بتاج المجد مرارًا. لقد أصبحت بيلوبونيز ولاكديمون المقدسة منذ القدم تحت الصولجان الروسي»[48].

احتفلت كاترينا بالنصر. ولم يكن من قبيل المصادفة أنَّها كتبت في «سجلِّها الخاص تسلسلًا زمنيًّا لأحداث الحملة ضد الأتراك من 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1768 إلى آب/ أغسطس 1771» بأسلوبٍ لا يخلو من البلاغة: «استولت القوات الحربيَّة الروسيَّة (؟!) التي اتَّحدت مع

---

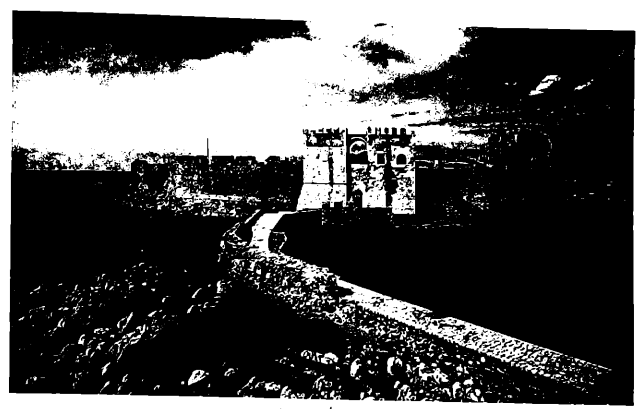
(44) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 41 от 21 апреля.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 41، مؤرخة في 21 نيسان/ أبريل].

(45) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 46، بتاريخ في 8 حزيران/ يونيو.

(46) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 57، بتاريخ 16 تموز/ يوليو.

(47) **ليفشين بيوتر غيورغيفيتش** (1737–1812): متروبوليت موسكو. كان واعظ البلاط، ومعلم وريث العرش وعضو المجمع المقدَّس. عمل على التوفيق بين الكنيسة المهيمنة وبين طائفة المؤمنين القدامى الذين يعترفون برجال الدين الأرثوذكس، مع الإبقاء على الرموز من كتب الليتورجيا القديمة، وألَّف كتاب موجز **تاريخ الكنيسة الروسيَّة**، الذي يُعتبر أول عمل منهجي عن هذه الكنيسة، إضافةً إلى كونه أول مقاربةٍ نقدية للمصادر والتقاليد التاريخية. (المترجم)

(48) Платон (Левшин), *Слово в день первоверховных Апостолов Петра и Павла и тезоименитства Его императорского Высочества* (СПб., 1770).
[بلاتون (ليفشين)، **كلمة في يوم الرسولين بطرس وبولس وشفيع صاحب السمو الإمبراطوري** (سان بطرسبورغ، 1770)].
يشكر المؤلفون آنا زيرنوفا على إشارتها إلى هذا النص.



ميتوني/ مودون

اليونانيين في مورية، على ست مدن، وبالتحديد: احتلَّ القائد باركوف مع فيلق الساحل الشرقي الإسبارطي: باسافا وبيردوني ولاكديمون. واحتلَّ القائد الأمير بيوتر دولغوروكوف مع الفيلق الإسبارطي الغربي كالاماتا وليونتاري وأركاديا»[49]. وبالنسبة إلى كاترينا، شكَّلت الانتصارات في مورية مسوِّغًا لكلفة الحملة الباهظة وإثباتًا لمجد السلاح الروسي الذي حارب جنبًا إلى جنب مع **الفيلق الإسبارطي**[50]. وفي عام 1771، بعد شيسما، خفَّت بعض الشيء حدَّة خيبة الأمل **بهؤلاء الإسبارطيين**[51].

---

(49) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, in: *СбРИО*, t. 13 (СПб, 1874), c. 153.

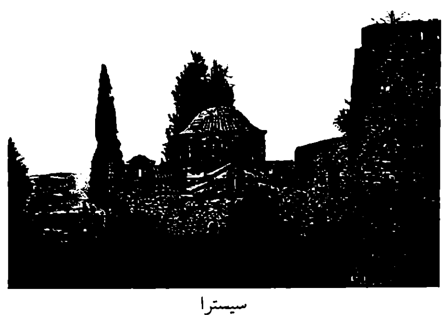
[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية، المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الخارجيَّة، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 13 (سان بطرسبورغ، 1874)، ص 153].

(50) سألت الإمبراطورة أ. غ. أورلوف على وجه التحديد ما إذا كانت القرى المذكورة محصنة، ومَن مِن الضباط كان أول من نزل في بورتو فيتيللو، ومن ينبغي عدم نسيانه عند توزيع المكافآت:
*РГАДА*, Ф. 10/3, Кабинет Екатерины II, Д. 493, no. 3.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 10/ 3، ديوان كاترينا الثانية، الملف 493، العدد 3].

(51) لم تكن كاترينا فقط من اعتبرت سكان بيلوبونيز، وقبل ذلك المانيين، «إسبارطيين»، فقد كان هذا الرأي منتشرًا على نطاق واسع. يُنظر: E. Rawson, *The Spartan Tradition in European Thought* (Oxford: Clarendon Press, 1969), p. 292.

في تموز/ يوليو 1770 فقط ظهرت في أنباء سان بطرسبورغ أخبار غامضة عن جبن اليونانيين، غير أنَّها سرعان ما دُحضت. في غضون ذلك، كان الوضع في مورية قد تعقَّد منذ نيسان/ أبريل 1770: فالأتراك جلبوا قوات إضافية، والأسطول



سيسترا

غادر كوروني، وفي ضواحي تريبوليتسا أُصيب «فيلق» باركوف بالهزيمة بعدما تخلَّى عنه المانيون في أثناء المعركة، وأفلت باركوف نفسه وأنطون بسارو مع مفرزة صغيرة من الطوق بأعجوبة[52]. جاء تقرير ألكسي أورلوف في شهر نيسان/ أبريل متناقضًا بصورة حادَّة مع بيان النصر الذي أعلنه شقيقه فيودور: «الإمبراطورة المعظمة! على الرغم من تنظيف كل مورية من الأتراك، باستثناء القلاع والمدن البعيدة كتريبوليتسا وكورينث وباتراس، إلا أنَّ قوتي ضعيفة جدًا (أين أولئك الأربعين ألفًا بل أكثر، الذين عوَّل عليهم، وأين المئة ألف الذين وعد بهم ب. بيناكي؟ - المؤلفة)، بحيث لا آمل بالاستيلاء عليها كلها، بل لا أستطيع الحفاظ على الأماكن التي حزتها سابقًا. إنَّ جبن اليونانيين والمانيين[53] يُفقدني كل الأمل، وأما الفوضى المتأتِّية من جهل اللغة، فهي تجعلني متأكِّدًا من أنَّ أفضل ما يمكنني القيام به هو التحصُّن في البرِّ والبحر وإشعال النيران في كل الأماكن، كما في مورية، وقطع الطريق كليًّا أمام نقل المؤن الغذائيَّة إلى تسارغراد، والقيام

---

(52) إنجازات القبطان باركوف (1770) في مورية والاستيلاء على لاكديمون القديمة، أو إسبارطة، التي هي اليوم ميزيسترا. يُنظر: *Северный Архив*, 1823, no. 22, c. 247-257.

[أرشيف الشمال، 1823، العدد 22، ص 247-257].

(53) وهذا خلافًا لمزاعم الزعماء المانيين عن أنهم «عرفوا بخبراتهم الكثيرة، بأن نوبة الجرأة التي تنتابه [التركي] ضد الهاربين، يفوقها بمرتين فزعه من المهاجمين بشجاعة»: Копия грамоты Греческаго народа, c. 285.

[نسخة ميثاق الشعب اليوناني، ص 285].

بهجومٍ تشنُّه القوة البحرية»[54]. وهكذا، عندما تبدَّدت أوهام تحرير اليونان، بدأ يظهر أورلوف السياسي الرصين، البارع في التكتيك الحربي.

لم يُخفِ أورلوف، على الأرجح، استياءه المتزايد، مُلقيًا اللوم على المتطوعين اليونانيين. وفي كل الأحوال، في شهر نيسان/ أبريل نفسه من عام 1770، أبدى المشارك في الأعمال الحربية اليوناني آفاناسي من نافارين تذمُّره من أنَّ «سيدنا (أ. غ. أورلوف - المؤلفة) اعتبر اليونانيين متقلِّبين وعُصاة»[55].

انهارت الآمال الأخيرة بتحقيق النصر في مورية، عندما هَزَمَت القواتُ التركية قوات الإنزال الروسيَّة التي كانت تحاصر مودون[56]؛ بل إنَّ عمارة ألفينستون البحرية - التي وصلت في هذا الوقت - لم تستطع أن تغيِّر الوضع العام السائد[57]، إذ كانت لدى القيادة الروسيَّة حسابات تكتيكيَّة خاطئة. ولكن، من المستبعد أن يكون المؤرِّخون الذين اعتبروا أنَّ أورلوف كان قادرًا على قلب مسار الأحداث عبر الدفاع عن نافارين، أو القدوم لمساعدة المتمرِّدين اليونانيين في جزر هيدرا وكريت وغيرها، على حق[58]. على الرغم من تسجيل فصائل المتمرِّدين اليونانيِّين نجاحات في شمال مورية، وشقِّها الطريق إلى نافارين، فقد اتَّخذ أ. غ. أورلوف القرار بترك بيلوبونيز، خلافًا لرجاء ب. بيناكي وغ. بابازولي الحار. ففصيل الإنزال البحري الصغير الذي كان في حوزته لم

---

(54) *Материалы для истории русского флота,* Ч. XI (СПб., 1886), с. 548.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 548].

(55) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 3.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 3].

(56) عند ظهور الأتراك، تفرقت فصائل المانيين وغادرت إلى قراها الجبلية، من دون أن تحذر الروس الذين كانوا يحاصرون مودون. فبدأ فصيل الإنزال الروسي الانسحاب بصورة فوضوية نحو الشاطئ، حيث لقي ثلثه تقريبًا مصرعه 150 شخصًا، بمن فيهم الأمير ب. دولغوروكوف، وجُرح 250 جنديًا.

(57) معروف أن ألفينستون توجه إلى نابولي دي رومانيا (Nafplio) لمواجهة الأسطول التركي من دون التنسيق مع أورلوف، وقد قوم المؤرخون الحربيون هذا الفعل كمخاطرةٍ كبيرةٍ جدًا.

(58) Camariano-Cioran, p. 527; Тиктопуло, с. 73.

[تيكتوبولو، ص 73]. تضمَّن عمل ن. باباس بيبليوغرافيا حركة التمرد في اليونان في عام 1770، التي كانت إشارتها أحداث مايني: Pappas, pp. 71-72.

يكن قادرًا على مواجهة القوات البرِّية التركيَّة المتنامية، إضافةً إلى بروز حلِّ المسائل الحربيَّة - البحريَّة بوصفه ضرورةً أوليَّة: توحيد العمارتين البحريتين، والمواجهة الحربية مع الأسطول التركي. لقد تكشَّف مصير العملية بمجملها.


قلعة نافارين

كتب أ. غ. أورلوف الذي بدا شاهدًا عاجزًا على الهزيمة بالقرب من مودون: «هذا اليوم المشؤوم حوَّل (قَلَبَ - المؤلفة) كلَّ الأوضاع، **وقضى على الأمل بتحقيق الانتصارات على الأرض** (التشديد من المؤلفة)[59]، وبدا تقويمه تنبُّؤيًّا: **لن تحقِّق الحملة بعد الآن أيَّ انتصاراتٍ جدية في العمليَّات البريَّة**» (إذا لم يُؤخذ حِصار بيروت مرتين واستسلامها في الحسبان). كانت أراضي الإمبراطورية العثمانيَّة محميَّةً من البحر بالقلاع، التي كان يتطلَّب الاستيلاء عليها في الظروف الحربيَّة - التقنية في ذلك الوقت حصارًا طويلًا واقتحامات بوحدات إنزال كبيرة، الأمر الذي استوجب حيازة الحملة البحرية قوات كبيرة حتى نهاية الحرب.

لم تكن الإخفاقات الحربيَّة خلال شهري نيسان/ أبريل وأيار/ مايو 1770 انهيارًا لـ «الآمال بتحقيق انتصاراتٍ على الأرض» فحسب، بل قضت عمليًّا على كلِّ الأوهام في صدد إمكان توافق أعمال إخوة الدين، يونانيين وروسًا، ضد «الهاجريِّين»، وفي ما يتعلَّق بآفاق نشاط اليونانيين الحربي المتكامل. وبعد مرور أكثر من عامين، في آب/ أغسطس 1772، في معرض تقويمه لحملة مورية، عبَّر أ. غ. أورلوف في رسالةٍ إلى ن. إ. بانين مُجدَّدًا عن

---

(59) Соловьев, Кн. XIV, с. 362.

[سولوفيوف، الكتاب 14، ص 362].

الفكرة نفسها: «من بداية هذه الحملة، **قطع علينا** جبنُ اليونانيِّين وخيانتُهم **كلَّ السبُل أمام القيام بعمليات برية**، وأجبرونا على توجيه كل قواتنا نحو العمليات البحريَّة» (التشديد من المؤلفة)[60].

لم تكن رسائل أورلوف تتضمَّن توصيفات قاسية لرفاق السلاح اليونانيين فحسب، منذ ربيع وصيف عام 1770، بل حذت كاترينا حذوه في رسائلها أيضًا: «حين تمثَّل يونانيو مورية قيم الشجاعة على نحوٍ سيِّئ إلى هذا الحدّ... فهم لم يرغبوا في انتشال أنفسهم من تحت نير الاستعباد، نظرًا إلى روح الجُبن والخيانة والخداع التي تتملَّكهم»[61]، «لقد فَسُدَ اليونانيون والإسبارطيون كليًّا. فهم يلهثون وراء النهب أكثر ممَّا يسعون إلى الحرية»[62]. وفي آذار/ مارس 1771 ستكتب كاترينا إلى أورلوف: «في حربنا العادلة، لم يعد يجوز الرهان على العمل التخريبي، ولا على مساعدة الشعوب اليونانيَّة الخاضعة لحكم الأتراك، نظرًا إلى رعونتها ولنزوعها إلى العبوديَّة»[63].

بعد الإخفاقات في مورية بالتحديد، يكتسب موضوع «خيانة» اليونانيين و«جبنهم» قبولًا واستحسانًا على أعلى مستوى، حيث وصل إلى شعر البلاط وإلى دراما بافل بوتيومكين «الروس في الأرخبيل»، فلقّن ب. بوتيومكين أ. غ. أورلوف الكلمات الآتية:

---

(60) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, с. 254.

[مراسلة ن. إ. بانين مع أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، 1770-1773، ص 254].

(61) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 548, 568.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 548، 568].

(62) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, с. 123.

[**مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778**، ص 123].

(63) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 658.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 658].

«ظهر كلُّ شيءٍ الآن بعد وقتٍ طويل،
الشعب اليوناني مجرَّدٌ من المشاعر البطولية؛
ألم تُقسِموا منذ زمن بعيد بقانون السماء،
على أنكم معنا، أردتم إراقة كلِّ الدماء من أجل الحرية؟
ولكنَّكم خُنتُم القسم:
رضيتم بالخيانة،
غادرتُم ساحة الوغى، خائفين من الكفار،
وهل لا يزال يغريكم مثالُ أعمال مورية؟
ليس عبثًا أنَّ خطر الفقر يرعبُكم
ونفوسكم الضعيفة تعذِّبكم وتقلقكم»[64].

واصل المشاركون في عمليّات مورية المشتركة تحليل التجربة حتى ما بعد الحرب، ولا سيَّما س. ك. غريغ الذي كتب في مذكراته عن الكثير من أعمال «النهب» التي ارتكبها المايِنيُّون في معرض تحليله للإخفاقات في مورية. فبحسب رأيه، كان المايِنيُّون حلفاء لا يُعوَّل عليهم كليًّا («عاد المايِنيُّون بالغنائم إلى جبالهم المنيعة، بعد نهبهم كلَّ ضواحي ميزيسترا بالكامل، فكانوا بذلك الوحيدين الذين حقَّقوا كسبًا كبيرًا من الحملة». وكتب فيما بعد يقول: «إنَّ اليونانين، وعلى وجه الخصوص المايِنيين، انضمُّوا إلى الروس بحماسة حين رأوا نجاحاتهم التي حقَّقوها في مورية في أول ظهور لهم، وما إن أحسُّوا بتبدُّل الأحوال على نحوٍ لم يعد يلبِّي آمالهم، عمدوا إلى النجاة بأنفسهم مؤثرين سلامتهم الشخصية، فاستسلموا للأتراك أو ابتعدوا إلى الجبال...»)[65]. أمَّا جهود «قياداتهم» لمنعهم عن ذلك فكانت من دون جدوى.

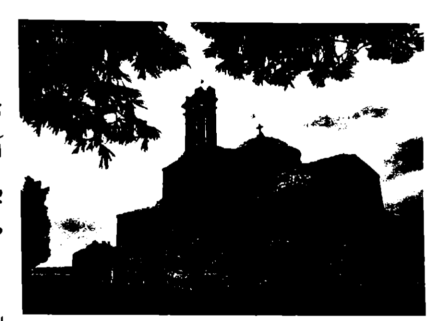
---

(64) П. Потемкин, *Россы в Архипелаге, Драмма* (СПб., 1772), с. 27.

[ب. بوتيومكين، الروس في الأرخبيل: دراما (سان بطرسبورغ، 1772)، ص 27].

(65) Собственноручный журнал капитана-командора (впоследствии адмирала) С. К. Грейга, с. 785-786.

[صحيفة القائد-القبطان (الأميرال في ما بعد) س. ك. غريغ بخط يده، ص 785-786].



كاتدرائية في قلعة نافارين حوَّلها الأتراك إلى مسجد

كانت خيبة الأمل في قدرات الانتفاضة اليونانية تظهر أكثر مرارة، كلما اشتدَّت آمال منظِّمي حملة الأرخبيل بالأعمال المشتركة في الحرب ضد العثمانيين.

غير أنَّ منظِّمي حملة الأرخبيل كانوا، على ما يبدو، مجحفين برميهم كلَّ مسؤولية الفشل في مورية على اليونانيين[66]؛ إذ لا ينبغي البحث عن أسباب الإخفاقات في ضعف الحركة الوطنيَّة اليونانيَّة وتنظيمها، بل في عدم تناسب عديد القوات




معركة نابولي دي رومانيا. صحيفة س. ب. خميتيفسكي

(66) إن استنتاجات غ. أ. غريبينشيكوفا على وجه الخصوص باطلة ومتحيزة في ما يتعلَّق بمشاركة اليونانيين أو بصورة أدق «عدمها»، في العمليات الحربية في مورية والأرخبيل. وهي في أحيانٍ كثيرة ترتبط بتفسيرٍ خاطئ أو بعدم رغبة المؤلفة في استخدام المصادر «التي لا تلائمها». أما التقويم الأكثر موضوعية فيقدمه غ. ل. آرش. B. H. Виноградов (редактор), *История Балкан. Век восемнадцатый* (M., 2004), c. 422-444.

[ف. ن. فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر** (موسكو، 2004)، ص 422-444].

المسلحة الروسيَّة مع مهمَّات خوض الحرب في مورية. وكان لدى اليونانيين أساسٌ يُسوِّغ لعنهم ذاك اليوم الذي استجابوا فيه لنداءات الإمبراطورة الروسيَّة: فقد كانت نتيجة «الأعمال التخريبيَّة» التي خطَّطها كلٌّ من كاترينا الثانية وأورلوف في «أكثر أماكن ضعف» الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، هلاك سُبْعِ سكان مورية جرَّاء التنكيل القاسي الذي ارتكبته الفِرق التأديبية العثمانيَّة.

على الرغم ذلك، ومع مغادرة الأسطول الروسي سواحل مورية، لم يفقد سكان شبه الجزيرة جزيرة كريت المجاورة فورًا أملهم بالحصول على المساعدة الروسيَّة، حتى بعد إخماد الثورة في غرب كريت تحت قيادة داسكالويانيس الذي راهن على مساعدة الأسطول الروسي في عام 1770[67]. ففي عام 1771، حينما سيطر الأسطول الروسي على كل الأرخبيل تقريبًا، استمرَّ سكَّان مورية بإرسال متطوِّعيهم إلى قيادته[68]، بل إنَّهم استمرُّوا كذلك في وضع الخطط الرومانسيَّة لعملياتٍ عسكريَّةٍ مشتركةٍ جديدة. ويبدو أنهم راهنوا على القوات الروسيَّة، مع ما رافق ذلك من تضخيمٍ كبيرٍ لقدراتها.

كان من بين «أصحاب الخطط الخياليَّة»، باندازي باليولوغ، الآنف الذكر، الذي كانت القيادة الروسية قد تلقَّت منه رسالةً في 7 تموز/يوليو 1771، شرح فيها لماذا أفشل المانيُّون قبل عام واحد خطط العمليَّات الهجوميَّة («لا توجد قرية واحدة، وصولًا إلى كالاماتا نفسها، يعيشون فيها في وفاق، بل إنَّهم هم دومًا يعيشون جنبًا إلى جنب كالأعداء»)؛ ومع ذلك فقد أكَّد أنَّه: «ثمَّة في مورية 20 ألف مايني يخضعون لسلطة سعادتكم (سلطة أ. غ. أورلوف – المؤلفة)، وسأخرج بهم للقتال في كل مورية لقاء مرتَّبات». في المقابل، يطلب باندازي باليولوغ القليل جدًّا: مرتبات لعشرين ألف مايني، وأكثر من مليون رصاصة، إضافةً إلى 5–6 سفن

---

(67) Camariano-Cioran, p. 527; Pappas, p. 72.

(68) في 25 شباط/فبراير من عام 1771، حثَّ ستيفان مافروميخالي 300 مايني على الخدمة، وطلب من السفن جلبهم (*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 87) [**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 87]؛ ووقَّع كلٌّ من: مطران نافبلي، رئيس أساقفة ريتو، أسقف داماليت، الكاهن باناتو، الكاهن الراهب الطرابلسي وغيرهم، رسالةً مع طلبٍ بالمساعدة، لأنَّ الأتراك علموا أنهم يريدون خدمة الروس مع سكان مورية (**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، الورقة 92).

ترسو عند الشاطئ[69]. وجاء مشروعُ مشابه من حيث مداه وطابعه الخيالي، لا يتناسب مع الإمكانات الروسيَّة إطلاقًا، وبالتحديد من جزيرة كانديا (كريت) من الكاندي إيفان سيديراتش. فقد فكَّر هذا الماكر، أوديسيوس[70] القرن الثامن عشر، مع أربعةٍ من أصدقائه في إدخال القوات المسلَّحة الروسيَّة تحت جنح الظلام إلى قلعة كانيا التركيَّة القوية على جزيرة كريت؛ وطلب من أورلوف[71] مساعدةً «صغيرة» جدًّا: «ألف شخص من القوات النظاميَّة الروسيَّة، وعددًا كافيًا من رماة القنابل اليدوية مع ذخيرتهم، وأشخاصًا يحملون البارود لذخائر المدفعية». وطلب فضلًا عن ذلك أن «يقف الأسطول قريبًا من الشاطئ، كي يتمكَّن من الظهور مقابل القلعة عند انبلاج الفجر، فيبثُّ الرعب في قلوب الكفَّار»[72].

غنيٌّ عن البيان أنَّه لم يكن لهذا النوع من الخطط أيُّ حظٍّ من النجاح.

بمرور الوقت، أصبح اليونانيون والروس والمراقبون الأوروبيون يقوِّمون بشكلٍ نقديٍّ إمكانيات التعاون الروسي - اليوناني ونتائجه. وبعد وقت قصير من انتهاء الحرب، حين أصبح واضحًا أنَّ الإمبراطورة الروسيَّة لم تستخدم انتفاضة اليونانيين من أجل تعزيز صورتها باعتبارها محررةَ المضطهدين فحسب، بل من أجل توجيه ضربةٍ للعدو في الحرب أيضًا، عادت الصحافة الأوروبيَّة من جديد لتكتب عن المانيين بوصفهم محاربين شجعانًا، و«ورثة الإسبارطيين».

---

(69) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 114-117.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الأوراق 114-117].

(70) **أوديسيوس**: في الأساطير اليونانية القديمة، كان ملك إيثاكا، ابن لايرت وأنتيكلي، وزوج بينيلوبي، حفيد أفتوليك ووالد تيليماخ، اشتُهِر بوصفه مشاركًا في حرب طروادة. كان ذكيًا وخطيبًا بارعًا وأحد شخصيات الإلياذة الرئيسة، فهو صاحب فكرة حصان طروادة، وقد تميَّز بالشجاعة والمكر، ومن هنا أصل لقبه «الماكر». (المترجم)

(71) سمَّى أورلوف «حامي كل الأرثوذكس، وأمل ثورة الشعب اليوناني المغلوب على أمره، ومؤاسي كل الفقراء والحزانى المسيحيين».

(72) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 3, с. 501.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثالث، ص 501 (الطبعة الروسيَّة)].

واعتبر الهيليني الفرنسي ماري غابرييل أوغست فلوران الكونت شوازول غوفيه (1752-1817) الذي زار مورية في عام 1776، بشكلٍ خاص، أنَّه **كان في وسع الروس الاعتماد على المانيين بشكلٍ كاملٍ**، لكن الروس «الذين زُوِّدوا بمعلومات خاطئة من عملائهم»، أبحروا مع عدد من القوات والذخيرة أقل بكثير ممَّا وَعَدوا به، و«أرغموا اليونانيين على الثورة»، فحكموا بذلك على سكَّان مورية بالهزيمة وبعددٍ لا يُحصى من الضحايا[73]. وفي ما بعد، أصبحت مقاربة الأحداث في مورية هذه بالتحديد - كما سبقت الإشارة - هي السائدة في الدراسات التاريخيَّة الغربيَّة.

أظهرت حملة مورية، من دون شك، أنَّ حملة كاترينا الثانية في البحر المتوسط لم تكن تهدف إلى تحقيق أفكار النضال الرومانسيَّة من أجل استقلال اليونان. فقد فكَّرت كاترينا على نحوٍ براغماتي: يستطيع اليونانيون الاستفادة من الوضع من أجل النضال في سبيل تحريرهم، أمَّا روسيا المتَّكئة على انتفاضتهم فتُلْحِق بالإمبراطوريَّة العثمانيَّة ضربة غير متوقَّعة. ومهما كان الإخوة أورلوف مولعين بالفكرة اليونانية، فقد كان على أ. غ. أورلوف، بصفته قائدًا لحملة الأرخبيل، اتِّخاذ القرار انطلاقًا من مهمَّات الحفاظ على قدرة الأسطول القتالية، وتحقيق الأهداف العسكرية الملقاة على عاتقه. وفي النتيجة، تركت روسيا وراءها بعد مغادرتها بيلوبونيز عداواتٍ متبادَلةً أفسدت التواصل بين الثقافات على امتداد قرون من الزمن[74].

## انتصار شيسما وتداعياته

سرَّع ظهور العمارة البحرية التركية في المياه اليونانية مغادرة الأسطول الروسي سواحل مورية. وكاد التقاؤها بعمارة ألفينستون بالقرب من نابولي دي رومانيا[75] أن يتحوَّل إلى كارثة.

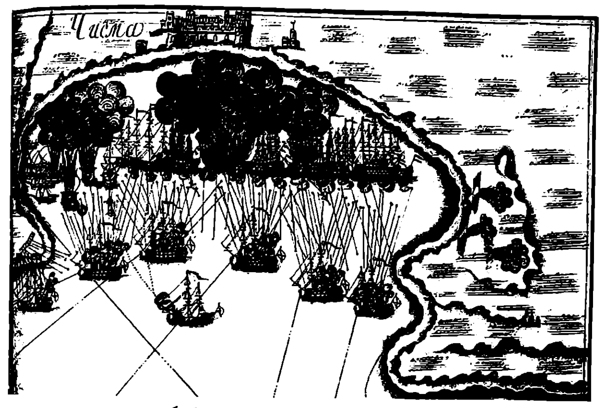
---

(73) M. Choiseul-Gouffier, *Voyage pittoresque de la Grèce* (Paris, 1782), part. 1, pp. IX, 4, 6.

(74) Γριτσόπουλος, *Τα Ορλωφικά. Η εν Πελοποννήσω επανάστασις του 1770 και τα επακόλουθα αυτής*; Camariano-Cioran; Ροτζώκος, *Εθναφύπνιση και εθνογένεση: Ορλωφικά και ελληνική ιστοριογραφία.*

(75) نابولي دي رومانيا: هي مدينة نافبليو اليونانية (Nafplio)، تقع في منطقة بيلوبونيز في جنوب =

بحلول نهاية الثلث الأول من حزيران/يونيو 1770، توحَّدت سفن عمارتي سبيريدوف وألفينستون البحريتين الروسيتين(76). ونظرًا إلى الخلافات التي نشبت بين قيادتي العمارتين بشأن الأعمال الضرورية، رفع أ. غ. أورلوف




معركة شيسما. صحيفة س. ب. خميتيفسكي

العلم القيصري على سفينة «الأساقفة الثلاثة» الخطِّية، ما عنى أنَّ قيادة الأسطول الموحَّد انتقلت إليه باسم الإمبراطورة. وفي مطاردة للأسطول

---

= البلاد، على رأس خليج أرغولي، وهو أحد تفرُّعات بحر إيجة. يعود اسم المدينة، بحسب الأسطورة اليونانية، إلى نافبليوس، ابن بوسايدون، إله البحر في الميثولوجيا الإغريقية (نبتون في الميثولوجيا الرومانية). أطلق عليها البنادقة اسم نابولي دي رومانيا (Napoli-di-Romani)، للتمييز بينها وبين مدينة نابولي في إيطاليا. استولى عليها العثمانيون في عام 1540 وجعلوها عاصمة مورية. ثم استولى عليها البنادقة خلال الفترة الواقعة بين عامي 1685 و1715 وجعلوها عاصمة لكورينث، واستعادها العثمانيون في عام 1715. احتلَّها الروس فترة قصيرة في عام 1770. أُعلِنَت عاصمةً لليونان بعد الاستقلال 1829، نظرًا إلى موقعها الحصين، وبقيت كذلك حتى العام 1834، حين انتقلت العاصمة إلى أثينا. (المترجم)

(76) في السابع والعشرين من أيار/مايو، اليوم الذي تركت فيه السفن الباقية تحت إمرة أ. أورلوف ميناء نافارين، كانت عمارة ألفينستون البحرية تخوض معركةً في شمال بيلوبونيز بالقرب من نابولي دي رومانيا وجزيرة سبيتسيا. وبما أنَّ الأتراك صاروا يتمتَّعون بتفوُّق عدديٍّ كبير، بات وضع العمارة البحرية خطيرًا. وبحسب كلمات أ. أورلوف: «لو أنَّ ألفينستون خسر قليلًا بسبب سعاره، لحوصر الجميع في الميناء ولهلكوا حتمًا»؛ إلا أنَّ ألفينستون كان حكيمًا، فترك ساحة المعركة. يُنظر:
*Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 550.
[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 550].

العثماني، توجَّهت العمارة البحريَّة الموحدة إلى جزيرة باروس (ربما، منذ ذلك الحين اعتُبِرت هذه الجزيرة ملجأً ملائمًا، وأصبحت في ما بعد عاصمةً لإمارة الأرخبيل)، وتقدمت من هناك نحو جزيرة خيوس، وعند شيسما أحرزت النصر خلال المعركة التي جرت نهار يوم 24 وليل 25 حزيران/يونيو، حيث أبادت الأسطول التركي بالكامل.

كانت معركة شيسما غير متوقَّعة، لكنها تعتبر، في الوقت نفسه، نصر الأسطول الروسي الأكثر تألُّقًا. فهي الأكثر شهرة، وقد وُصِفَت مرارًا في المذكِّرات وفي الكتابات التاريخيَّة عن حملة الأرخبيل[77].

غيَّر النصر في شيسما بصورةٍ جدِّية رأي كلِّ أوروبا بخصوص إمكانات حملة الأرخبيل، وباتت تتوقَّع بتوتُّر عمليَّات جريئة أخرى، وصولًا إلى الاستيلاء على القسطنطينيَّة. وردَّ شاعر البلاط الروسي بافل بوتيومكين على هذه التوقُّعات بقصيدة أنهاها بالأبيات الآتية:

أورلوف! الذي أبصر النور من أجل الأمور العظيمة،
تخطَّى قدرات البشر بأشواط.
روسيا، ترنو إليك بعظيم الامتنان،
وأوروبا تمجد أعمالك وانتصارك،
وهي ليست خاتمة أمجادك!
أورلوف! لك إكليل المجد يُشكَّل،
وبخوفٍ ورهبةٍ ينتظرك السلطان،

---

(77) وُصفت معركة شيسما في الأدب بشكلٍ جيد. يُنظر: М. С. Монаков & Б. И. Родионов, *История российского флота* (М.; Кронштадт, 2006), с. 243-248; Гребенщикова, с. 263-282.

[م. س. موناكوف وب. إ. روديونوف، **تاريخ الأسطول الروسي** (موسكو؛ كرونشتاد، 2006)، ص 243-248؛ غريبينشيكوفا، ص 263-282].

ويرد وصف المعركة الأكثر تفصيلًا في صحيفة س. ب. خميتفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8, с. 587-590.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 587-590 (الطبعة الروسيَّة)].

«الدويُّ الروسي يصوِّب السهام من كل مكان»:

«... مصيري يقلقني، وإني أرى أورلوف،

يُحقِّق الانتصار، مطوِّقًا حدودي،

لن تكون له، ولكن يصعب عليَّ الدردنيل»!

أيها البطل، حقِّق القدر، أعط أوامرك للأسطول،

لم يبق أمام الروس في الأرض صعوبات،

كاترينا هي إلهة الأرض،

وسيطيعها مَنْ في الكون من أحياء،

اسطنبول ستسقط على يديك، امضِ واقضِ على الأعداء،

وبمجد الانتصارات ستكون خالدًا، أورلوف![78]

بيد أن الأمور لم تؤدِّ إلى الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيما كانت بطرسبورغ تنتظر انتصارات حربيَّة جديدة غير مسبوقة في الأرخبيل، ولكنها لم تحصل إلا على أخبار عن إنزالات قصيرة الأمد على السواحل التركيَّة بحيث لم تكن دومًا موفقة[79]. وفي أوروبا، استدعت تدابير دوريات البحريَّة الروسيَّة «الروتينيَّة» –

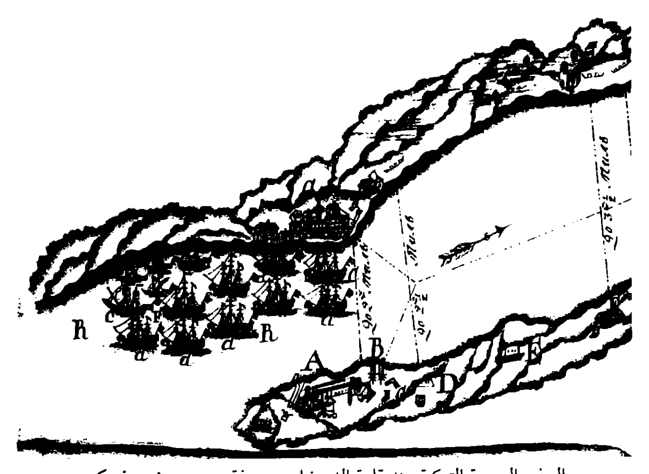
---

(78) П. Потемкин, *Стихи Его Сиятельству графу Алексею Григорьевичу Орлову на преславную победу флота, бывшую сего 1770 году июля 5 дня по новому штилю* (СПб., 1770), с. 1-2.

[ب. بوتيومكين، **أشعار إلى سعادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف لمناسبة انتصار الأسطول المجيد، الذي حصل في 5 حزيران/يونيو من عام 1770 بحسب التقويم الجديد** (سان بطرسبورغ، 1770)، ص 1-2].

(79) على سبيل المثال، طلبت الإمبراطورة من أ. غ. أورلوف، الذي وصل إلى بطرسبورغ في تشرين الأول/أكتوبر 1770، تقريرًا عن سبب عدم وجود نتائج ملموسة لنشاط الأسطول الحربي في الأرخبيل، وعن التدابير التي يجب اتخاذها للبدء بالعمليات على القارة لدعم جيش روميانتسيف. وعن السؤال عمَّا إذا كان كافيًا إرسال 20 ألف أيضًا من القوات العسكرية إلى الأرخبيل (!)، أجاب أورلوف، أنه «مع عدد كهذا، سيستطيع الذهاب مباشرة إلى القسطنطينيَّة». غير أنه لم تُرسل أيُّ قوات عسكرية: *Архив Государственного Совета (АГС), t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II* (1768-1796) (СПб., 1869), с. 385-386.

[**أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية** (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 385-386].



السفن الحربية التركية عند قلعة الدردنيل. صحيفة س. ب. خميتيفسكي

وهي التي حاصرت الدردنيل - المزيد من القلق، فضلًا عن قيامها بتفتيش السفن وانتهاك إيقاع التجارة المشرقيَّة. وبشكلٍ تدريجي، بدأت تظهر في أوروبا تعليقات ساخرة: «لم تكن هناك حملة أكثر نجاحًا وأكثر بُعدًا بدا فيها الضباط أقلّ توجيهًا من حكومتهم، وأكثر جهلًا حيال البلدان، وأشد تعلُّقًا باستعراضات عديمة الجدوى، وأكثر ثملًا بالملذَّات، ممَّا كانت عليه حملة الروس في البحر المتوسط»(80).

على الرغم من ذلك، ماذا أمكن المشاركين تحقيقه في حملة البحر المتوسط تحت قيادة أ. غ. أورلوف للاستفادة من نصر شيسما؟

تمكَّن هؤلاء من الحصول على موطئ قدمٍ على بضع عشرات من جزر الأرخبيل (تلك التي لم تكن توجد فيها قلاعٌ تركيَّة قوية)، وإنشاء قاعدة للأسطول على باروس(81). كما استطاعوا الفوز بسلسلةٍ من الانتصارات في

(80) J. Bruce of Kinnaird, *Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773* (Edinburgh; London, 1790), vol. 1, pp. 28-29.

(81) يُنظر الفصل الخامس بهذا الشأن.

البحر، كان من أهمها الانتصار في بحر إيجة بالقرب من باتراس في عام 1772 (م. ت. كونيايف)؛ ثم في خليج شيسما (س. ك. غريغ)، وبالقرب من دمياط عند سواحل مصر (بانايوتي ألكسيانو). وفي عام 1774، قبل إبرام معاهدة السلام بوقتٍ قصير، استولت عمارة أ. ف. يلمانوف مجدَّدًا على 25 سفينة تركية وأبادتها في خليج خيوس، بالقرب من شيسما، بين 21 و30 أيار/ مايو (بين 1 و10 حزيران/ يونيو).

حقَّقت العمليات التي كانت تتطلَّب إنزال جنود «على البر»، كما أشرنا، نجاحاتٍ أقل. ففي عام 1770، حُوصرت جزيرة ليمنوس، إلا أنه لم يُستوْلَ عليها على الرغم من طول الحصار[82].

في عام 1771، في محصلةٍ لإغارات قوات الإنزال: أُحرقت في آب/ أغسطس مخازن التموين التركيَّة في خليج ماكرا عند ليفيسا، وعلى جزيرة

---

(82) شرح الرائد المهندس غ. كيلخين - شارك في نصب البطارية وفي إنزال القوات على جزيرة ليمنوس - أسباب فشل الهجمات على القلعة على النحو الآتي: «كان لدى العدو ما يقارب ألف مسلَّح يحوزون البنادق على الأسوار، فيما كانت النساء ومعهنَّ الأولاد الصغار يرمون الحجارة». وفقط في 25 أيلول/ سبتمبر (5 تشرين الأول/ أكتوبر) بدأت جزيرة ليمنوس التفاوض بشأن الاستسلام: «عند الظهيرة، ألقى العدو من حصن قلعة ليمنوس، رايةً بيضاء عليها صليب أسود. وقد عنى ذلك استسلام القلعة، بحسب العادة المتبعة لدى القوات التركيَّة المدافعة». ولكن، حصل في تلك اللحظة أمر غير متوقَّع: عند بدء المفاوضات في 5 تشرين الأول/ أكتوبر بالتحديد، وصلت تعزيزات تركية من خمسة آلاف رجل لمساعدة المدافعين عن ليمنوس (ألقي اللوم على ألفينستون، الذي فكَّ الحصار قبل ذلك عن الدردنيل). وأصبحت القوى غير متكافئة، فبدا استمرار الصراع على الجزيرة مستحيلًا. وعندما أصبحت التعزيزات التركية «قريبة جدًّا»، قام محاصرو القلعة بتدمير البطارية ومدفعين ومخزن للبارود، وحملوا الرجال والمدفعية وقسمًا من المعدات على العبَّارات. وفي 27 أيلول/ سبتمبر (6 تشرين الأول/ أكتوبر)، صعد فصيل الإنزال كلُّه إلى السفن، التي نُقل إليها أيضًا جميع مرضى الحمى المئة وثلاثة مقاتلين، الذين كانوا في قرية بلاتا. أما الأتراك الذين خرجوا من القلعة، فنُقلوا كأسرى (كان من بينهم ستة أشخاص مرموقين) إلى سفينة «الآمر السلافوني، والقبطان الروسي الكونت فوينوفيتش»، وغادرت السفن ليمنوس في حالة تأهب: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, л. 30 об.-37 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 30 - ظهر الورقة 37].

[السلافونيون: اتحاد اجتماعي - سياسي للقبائل السلافية، وفقًا للمعلومات من المصادر البيزنطيَّة من القرن السابع وحتى القرن العاشر. انتقل المصطلح إلى المصادر الأوروبية الغربية بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر]. (المترجم)

نيغروبونتي (إيفبيا) استُولي على مخازن القمح وإرسال الغنائم إلى قاعدتهم في آوزا. وفي أيلول/ سبتمبر استولت قوات الإنزال بقيادة س. ك. غريغ على عدّة مخازن من الطحين والقمح عند ميناء كافالا، وتمكّنت فصيلة إنزال بقيادة ب. ألكسيانو من احتلال قلعة كيفالوس على جزيرة ستانتشيو (كوس). وفي تشرين الثاني/ نوفمبر توسّعت عمليات الإنزال على جزيرة ميتيلينا (لسبوس)، التي انتهت بتدمير الفرقاطة «سانتورين» وبأسر 28 رجلًا مع القبطان إ. ت. أوفتسن.

لم تجرِ في صيف عام 1772 عملياتٌ عسكريَّة بسبب الهدنة، وفي الخريف، قام س. ك. غريغ بمحاولة للاستيلاء على قلعة في جزيرة خيوس من دون جدوى. وفي عام 1773، تمثّلت الأحداث الأهم في احتلال بيروت مرةً ثانية في 29 أيلول/ سبتمبر (10 تشرين الأول/ أكتوبر) من عام 1773 من قِبل كوجوخوف وإ. فوينوفيتش[83]، وكذلك فشل عمليات إنزال عمارة أ. ف. يلمانوف البحريَّة، عنينا الهجوم على قلعة بودروم (30-31 تموز/ يوليو)، إضافةً إلى الإنزال الدامي على جزيرة ستانتشيو في 6-7 آب/ أغسطس[84].

يبدو أنَّ انتصار شيسما الذي وفَّر سيطرة غير مشروطة للأسطول الروسي في شرق البحر المتوسط من الدردنيل إلى مصر، لم يؤدِّ إلى قلب الوضع في ما يتعلَّق بعمليات الإنزال البرية، التي بقيت محفوفة بالمخاطر ومن دون تحقيق نجاحات تُذكَر في الأغلب. غير أنَّه ينبغي الأخذ في الحسبان أنَّ التعزيزات المُرسَلة من روسيا إلى الأرخبيل كانت دائمًا غير كافية، وكانت العمليات البريَّة تُجرى بقوات متواضعة جدًّا. وبحسب إحصاء غ. أ. غريبينشيكوفا، أُنزِلَ نحو 432 جنديًّا روسيًّا على الساحل عند بودروم، و550 عند ستانتشيو!

تألَّفت كتلة قوات الإنزال البريَّة الأساسيَّة لحملة الأرخبيل من الفرق غير النظاميَّة، المسمَّاة **فِرَق الألبان**. ومنذ خريف عام 1770، أصبح واضحًا أنَّ فكرة التعاون مع سكان البلقان والأرخبيل في نضالهم ضد الأتراك لم تمُتْ

(83) يُنظر التفاصيل في الفصل الثامن.

(84) لمزيد من التفصيل، يُنظر: Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II.*

[غريبينشيكوفا، أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية].

مع الخروج من مورية. ففي حصار قلعة بيلاري المستمر على جزيرة ليمنوس، شارك «سلافونيون وألبان» بعددٍ يفوقُ عدد الروس بمرتين تقريبًا، وأظهرت هذه الفرق غير النظامية هذه المرَّة بطولةً وتنظيمًا. وتتضمَّن صحيفة المهندس الرائد غ. كيلخين أحد المشاركين في الحصار - وصفًا لما حصل في أثناء أحد الاقتحامات عندما «ضغط الألبان والرومان واليونانيون كثيرًا محاولين الدخول عبر الثغرة (المفتوحة في السور - المؤلفة)، فما إنْ بدأوا بذلك حتى شاهدوا كيف ظلَّ جنودنا من دون حراك، فسُقِطَ في أيديهم وتقهقروا، باستثناء النقيب بسارو الذي كان مع سبعين يونانيًا بالقرب من الثغرة فعجز عن التراجع، وبقي عند السور حتى ليل الخامس من الشهر (الخامس من آب/ أغسطس بحسب التقويم القديم - المؤلفة). وقد خسر الألبان والسلافونيون والرومان واليونانيون في هذا الهجوم ثلاثين شخصًا بين قتيلٍ وجريحٍ»[85]. ويشير س. ب. خميتيفسكي بالقول إلى أنَّ: «السلافونيين أرادوا في الوقت نفسه النَّفاذ من الثغرة، لكن قُتل ستة منهم لسوء الحظ، وأرادوا أيضًا اقتحام القلعة عبر سلالم بنيت خصِّيصًا، لكنها كانت قصيرة، ولم تنفع شجاعتنا وحذرنا في كل هذه العملية، فأجبرنا هذا الإخفاق على مغادرة القلعة وعدم القيام بهجوماتٍ مماثلة في المستقبل، ولجأنا إلى العمل على إقناعهم[86] في كل ليلة على تسليم القلعة من دون إراقة الدماء»[87].

بعد مغادرته ليمنوس، اتَّخذ الأميرال سبيريدوف - الذي كُلف في تشرين الثاني/ نوفمبر 1770 بقيادة كلِّ حملة الأرخبيل في أثناء غياب أ. غ. أورلوف - إجراءات لتنظيم «القوَّات الألبانية»، آخذًا في الحسبان، على الأرجح، الحسابات الخاطئة التي سادت مرحلة الرومانسيَّة منذ بداية العمليَّات

---

(85) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 30 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 30].

(86) المدافعين. (المترجم)

(87) صحيفة س. ب. خميتيفسكي، يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, См. Приложение 8, с. 600.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، الملحق الثامن، ص 600 (الطبعة الروسية)].

الحربيَّة في مورية. وبُغية رفد قوات حملة الأرخبيل البريَّة بأعدادٍ جديدة من المقاتلين، أصدر سبيريدوف في آذار/مارس 1771 نداءً إلى **الشجعان دومًا في أعمال الدين المسيحي الحربية**، السلافيين واليونانيين والمقدونيين والألبان والروملييين[88]، «الذين يتركون الفضة والذهب ويفضِّلون مجدهم العسكري وحرِّيتهم على أيِّ شيءٍ آخر»، للانضمام إلى الخدمة العسكريَّة الروسيَّة. وإضافةً إلى «الحرية في المستقبل»، فقد وعدهم بالغنائم وبدفع الأموال «ليس من أجل السُّكْرِ ولعبِ الميسر والنَّرد والعربدة والتبذير»، بل من أجل الأحذية والملبس والغذاء[89].

كتب سبيريدوف في 18 كانون الثاني/يناير 1771 إلى قائد فيلق شليسيلبورغ العقيد ي. ف. توليي، عمَّا يودُّ أن يرى عليه المتطوِّعين: «أن يكون المقاتلون طوال القامة، ممتلئين، نظفاء، أصحاء، غير متقدِّمين في السنِّ؛ وأن يكونوا أيضًا عزَّابًا أو أرامل من دون أولاد، لأنَّ مثل هؤلاء يمكنهم الذهاب معنا بكل طيبة خاطر إلى بطرسبورغ، بحيث يبقون عندنا هناك إلى الأبد...». ثم أفصح سبيريدوف عن موقفه تجاه المتطوِّعين من المجموعات الإثنيَّة البلقانيَّة: «السلافونيون، هم الأكثر قابليةً للجنديَّة [لأنَّهم] ينتمون إلينا، ونحن نفهم لغتهم على نحوٍ أفضل، وهم شعبٌ شجاعٌ معتادٌ على حمل السلاح. واليونانيون على الرغم من تميُّزهم فهم غير معتادين كثيرًا على حمل السلاح لكنهم لا يخافون العدو. أما الرومانيون والمقدونيون والألبان فهم ليسوا أقلَّ اعتيادًا على حمل السلاح والتحلِّي بالشجاعة كالسلافونيين، بل لربَّما كانوا أكثر جرأة، إلا أنَّهم لن يعتادوا على الانتظام سريعًا نظرًا إلى نزواتهم وعاداتهم العبثيَّة وجهلهم بلغتنا. على أنَّني أعتقد أنَّهم سيصبحون جميعهم قناصة، وهم سيطلبون قبولهم في الخدمة، بناءً على وضعهم الراهن»[90].

---

(88) الروملیون: سكان منطقة اليونان الوسطى. (المترجم)

(89) *Политические и культурные отношения России с югославянскими землями в XVIII в.: Документы* (М., 1984), с. 300.

**[علاقات روسيا السياسية والثقافية مع الأراضي اليوغوسلافيَّة في القرن الثامن عشر: وثائق** (موسكو، 1984)، ص 300].

(90) = *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 138-138 об.

كانت قاعدة الأسطول الروسي في آوزا هي المكان الذي تجمَّع فيه المتطوِّعون الألبان واليونانيُّون المتوافدون يوميًّا على متن سفنٍ صغيرةٍ ومتوسطةٍ إلى باروس. وفي أيار/ مايو 1770 فقط «وصل من ألبانيا للالتحاق في الخدمة 825 ألبانيًا، ومن مورية 974 ألبانيًّا و261 يونانيًّا، ومن رومانيا 106 رومانيين، ومن كانديا 262 يونانيًّا، ومن جزر يونانيَّة مختلفة 231 يونانيًا، فبلغ مجموع من بقي على الأسطول من الألبان واليونانيين الآن نحو 2659 مقاتلًا»[91]، ليستمرَّ بعدئذٍ توافد المتطوِّعين. وفي 29 أيار/ مايو 1771، بوركت لأجلهم أربع رايات جديدة في مورية، كما حصل منذ عامٍ خلا لأجل «فيلقين»، وفي 8 تموز/ يوليو نظَّم أورلوف الواصل إلى آوزا استعراضًا للمتطوِّعين الألبان واليونانيين[92].

هكذا، أخذت القيادة الروسيَّة بعين الاعتبار تجربة مورية، فلم تراهن منذ عام 1771 على «جميع اليونانيين»، بل على أولئك المتطوِّعين من سكَّان البلقان والأرخبيل، الذين أصبحت الخدمة الحربيَّة بالنسبة إليهم مهنةً ووسيلةً لكسب العيش وتمضية الوقت. وقد أسهمت شجاعة «الألبان» وقدرة تحمُّلهم خلال هذه الفترة من الحرب في استعادة الروس احترامهم شجاعة المتطوعين اليونانيين والسلافيين، وتعاطفهم مع وضع الاضطهاد الذي يعيشونه. فقد كتب م. كوكوفتسيف المشارك في الحملة، على سبيل المثال، موبِّخًا سكَّان الأرخبيل «غير المتنوِّرين»: «في أثناء وجود الأسطول الروسي في الأرخبيل، أظهر المستقوون بالسلاح الروسي (اليونانيون - المؤلفة) علامات شجاعةٍ ممتازة؛ وفضَّلوا إحراق مراكبهم الصغيرة عند هجوم السفن التركيَّة على الوقوع أسرى في يد العدو. وأبدت القوات غير النظاميَّة المُختارة من الألبان (أحفاد

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للأسول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 138 - ظهر الورقة 138].

(91) *РГВИА*, Ф. 846. Оп. 16, Д. 1860, Л. 142 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 142].

(92) المرجع نفسه.

المقدونيين القدماء)، والسفَاك (سكان جبال كانديا [سفاكيا][93]) وآخرين شجاعة مميَّزة عند نزولها إلى الشاطئ فبعثت فيهم الحميَّة. وجهَّز سكَّان إيبساريا وميكونوس وغيرهم من سكان الجزر الأخرى سفنًا ومراكب صغيرة تمكَّنوا بواسطتها من أسر سفنٍ تجاريةٍ تركيةٍ بمساندة من الأسطول الروسي، لا بل تمكَّنوا من اجتياح القرى بنزولهم المتكرِّر إلى الشاطئ»[94]. وكتب أيضًا عن شجاعة المتطوعين كلٌّ من س. ك. غريغ وس. ب. خميتيفسكي في مذكِّراتهما.

في الوقت نفسه، كانت فصائل الألبان العاملة تحت قيادة ضباطها، تضمر عصيانًا خطيرًا، وقد أثار «عبثها» الخوف لدى السكَّان المحليين وشكاواهم العديدة، الأمر الذي كان على القيادة الروسية أن تتصدَّى له بالعلاج[95]. وفي فترات الهدنة، كان يمكن أيّ «نزوة» من الألبان أن تتسبَّب بعواقب جدِّية تؤثِّر في مسار مفاوضات السلام. ولذا، فقد حذَّر أ. غ. أورلوف في تموز/يوليو 1772 أ. ف. يلمانوف، على سبيل المثال، قائلًا: «ارتكب الألبان المعتادون على العبث والنهب ببعض التجاوزات، خلافًا لرغبة القيادة الروسيَّة وإرادتها، ولقد جرى التَّغاضي بهذا الشكل أو ذاك عن هذا الأمر في ظروف الحرب؛ أمَّا الآن، في ظل الهدنة، فلا يمكن السكوت عن عواقب غير مرغوب فيها»[96].

---

(93) منطقة جبلية تقع غرب جزيرة كريت. (المترجم)

(94) М. Г. Коковцев, *Описание Архипелага и варварийскаго берега, изъявляющее положение островов, городов, крепостей, пристаней, подводных камней и мелей; число жителей, веру, обряды и нравы их с присовокуплением древней истории, и с тремя чертежами* (СПб., 1786), с. 71-72.

**[م. غ. كوكوفتسيف، يوضِّح وصف الأرخبيل والساحل البربري موقع الجزر والمدن والقلاع والموانئ والصخور التي تحت الماء والأماكن الضحلة؛ وعدد السكان وديانتهم وطقوسهم وعاداتهم، إضافة إلى التاريخ القديم، وثلاثة رسوم** (سان بطرسبورغ، 1786)، ص 71-72].

(95) يُنظر على سبيل المثال: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 211об., 235об., 237-237об., 299-300 и др.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 211، ظهر الورقة 235 - ظهر الورقة 237، 299-300 وغيرها].

(96) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 46, Л. 74.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 46، الورقة 74].



محاربون ألبان كما رآهم الكونت شوازول غوفيه في عام 1776

وجدير بالذكر أنه حُلَّ الكثير من الوحدات الألبانية، وليس كلها في عام 1772 خلال فترة الهدنة. ومع ذلك، لم تُجْرَ خلال عامي 1773 و1774 أيٌّ عملية عسكرية مع إنزال على الشاطئ دون مشاركة وحداتٍ ألبانية. وتلى توقيع معاهدة السلام مع الأتراك تقديم التماسات للانتقال إلى روسيا مع العائلات، وكان أولها وأكثرها عددًا من «القوات الألبانية» تحديدًا.

مع ذلك، لم تضطلع عمليات حملة الأرخبيل البرِّية الناجحة دائمًا بدور جدِّي. فالضربات المتواصلة التي كانت فصائل الإنزال توجِّهها إلى نقاط مختلفة من مناطق الإمبراطوريَّة العثمانية الساحلية الشاسعة، بغية الاستيلاء على مخازن الذخيرة والأعتدة والمؤن التركية أو إتلافها، وتدمير الترسانات وأحواض السفن، ألحقت ضررًا بقدرات الباب العالي الدفاعية، وأرغمت الحكومة التركية على الحفاظ على حامياتها وتعزيزها، مع ما ترتَّب عن ذلك من تحويل قوات مسلَّحة عن المشاركة في الحرب ضد جيش روميانتسيف، ودفعها إلى عقد اتفاق سلام وفق شروط ملائمة لروسيا. أمَّا مشاركة المتطوعين (الألبان، والمقدونيين، واليونانيين، والسلافيين والرومانيين وغيرهم) - الذين كانوا غالبًا ما يُسمَّون «ألبانًا» من دون تمييز في العمليات البرية - فلم تؤمِّن إمكان القيام بأغلبية هذه العمليات فحسب، بل أسَّست تقليدًا للتعاون الحقيقي الذي حلَّ محلَّ «الوحدة» الرومانسية.

بيد أنه من أجل «التخطيط وأكثر» - كما كتبت كاترينا الثانية - بدت القوات البرِّية غير كافية. وأُخذت هذه التجربة أيضًا في الحسبان في ما بعد. ففي عام 1787، في أثناء تحضير حملة جديدة للأرخبيل (لم تُرسل في الواقع)، عبَّر المستشار أ. أ. بيزبورودكو بشكلٍ واضحٍ تمامًا: إن انتصار شيسما «مجَّد العلم الروسي»، و«شعوب إخوة الدين، ستقف معنا الآن، كما في السابق، ضد الأتراك»، «**ولكن انضمامها للمساعدة لن يشكل القوة اللازمة، إذا ما اعتزمنا زعزعة المملكة التركيَّة، ومهاجمة الدردنيل والقسطنطينيَّة وأماكن مهمَّة أخرى.** لذلك، ينبغي حتمًا إرسال عددٍ كافٍ من القوات البرِّية مع الأسطول من أجل إعطاء الهدف المهم والمفيد كل النشاط الضروري. والاتفاق مع الإمبراطور (النمساوي - المؤلفة) على شروط إمداداتها المنتظمة... إذ إنَّه من دون ذلك، بناءً على التجربة السابقة، لن يكون أسطولنا قادرًا على تثبيت مكتسباته أو توسيعها، ناهيك بإلحاقه الأذى بالعاصمة التركيَّة وبالأماكن الأخرى الواقعة تحت حمايتها» (التشديد من المؤلفة)[97].

## دوريَّات بحريَّة أم قرصَنَة تفويضيَّة؟

بعد انتصار شيسما، أصبحت الدوريَّات في الفضاء البحري - من مصر إلى الدردنيل، ومن البلقان إلى آسيا الصغرى والشواطئ السوريَّة - هي النشاط الرئيس لحملة الأرخبيل. وعمَّا إذا كانت **الدوريات البحريَّة** بالتحديد، وليس الإنزالات العسكريَّة، هي اتجاه النشاط الرئيس، كتب أ. غ. أورلوف إلى ن. إ. بانين: «لقد بارك الله جهودنا، ونحن رأينا في أنفسنا، منذ بداية الحملة الأولى تقريبًا، مالكي كل مياه البحر المتوسط من دون منازع، حيث كانت تقع القرى التركيَّة. إلا أنَّنا في وضعنا المناسب هذا **لم نتمكَّن إلا من قطع طرق إمداد المواد الغذائية إلى مناطق العدو الأكثر اكتظاظًا بالسكَّان، ولم نعد نفكر بالهجوم البري**»[98] (التشديد من المؤلفة). وبطبيعة الحال، قُطِعَ إمداد الأسلحة.

---

(97) *АГС*, c. 502-503.
[أرشيف مجلس الدولة، ص 502-503].

(98) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, = c. 254.

كان على **الدوريات البحرية**، مع حصار الدردنيل، قطع الإمدادات عن عاصمة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة و«تجويع» القسطنطينيَّة؛ إضافة إلى أنَّها ترافقت غالبًا مع الاستيلاء على «الغنائم» (الحمولات العائدة للأتراك، أو ربما المخصَّصة للمحاربين). فعملت السفن المشاركة في الدوريات على إيقاف سفن كلِّ الدول وتفتيشها، أكانت سفنًا عدوة أم محايدة أم حليفة. وهذا ما أعطى بعض الباحثين الأساس لإطلاق صفة «القرصنة التفويضيَّة»، وحتَّى «اللصوصيَّة البحريَّة»، على «الدوريَّات البحريَّة» العسكريَّة الروسيَّة[99]. وبحسب رأي أ. ب. شيروكوراد الذي يميل إلى إطلاق تسمية «اللصوصيَّة البحريَّة» على كلِّ ما ذُكر عن «الدوريَّات البحريَّة» في البحر المتوسط، كانت القرصنة تمثِّل المكوِّن الأهم للوجود الروسي في الأرخبيل[100]. وعلى العكس من ذلك، تؤكِّد غ. أ. غريبينشيكوفا بشكلٍ حاسمٍ أنَّ «اللصوصيَّة والقرصنة البحريتين توقَّفتا في البحر المتوسط خلال مرحلة وجود العمائر البحريَّة الروسيَّة فيه بشكلٍ كامل عمليًا، مرافقة السفن التجارية وتأمين حماية حمولاتها، جنبًا إلى جنب مع السفن الدانماركيَّة والإنكليزيَّة»[101]. لكنَّ تقويم أعمال فصائل الدوريَّات البحريَّة لا يمكن أن يكون بهذه البساطة على ما يبدو.

عند التوغُّل في منطقة البحر المتوسط خلال عامي 1769 و1770، نبَّهت الإمبراطورة قادة العمائر البحريَّة بشكلٍ صارمٍ إلى ضرورة توخِّي الحذر الشديد في ما يتعلَّق بسفن فرنسا والدول المحايدة، والتزام كل عادات «التحايا» عند

= [مراسلة ن. إ. بانين مع أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، 1770-1773، ص 254].

(99) **القرصنة التفويضية**: نشاطات حربية ضد السفن الحربية والتجارية للدولة العدوة، تقوم بها سفن قرصنة خاصة (Kaper بالألمانية، corsair بالفرنسية، privateer بالإنكليزية)، حاصلة على إذن خاص للقيام بهذا العمل.

(100) А. Б. Широкорад, *Адмиралы и корсары Екатерины Великой: Звездный час русского флота* (М., 2006), с. 88-96.

[أ. ب. شيروكوراد، **أميرالات كاترينا العظمى وقراصنتها: لحظة صعود الأسطول الروسي** (موسكو، 2006)، ص 88-96]. تتضمن المعلومات التي يوردها المؤلف، الكثير من الأخطاء الفعلية والتفسيرات المتحاملة.

(101) Гребенщикова, с. 443.

[غريبينشيكوفا، ص 443].

مقابلة السفن الغربيَّة، وكذلك عند دخول المرافئ، حتى لا تتسبَّب عمليَّات الأسطول الروسي بأيِّ احتكاكاتٍ إضافيَّة مع الدول الأوروبيَّة[102]. وقد اتُّبِعت هذه التعليمات بدقَّة في البداية[103]، وحين أصبح الأسطول الروسي سيِّد الحوض الشرقي من المتوسط، بعد انتصار شيسما، تضاءل بشكلٍ ملحوظٍ الحذر المتعلّق بالسفن الأجنبية المُبحِرَة في مياه الأرخبيل.

منذ خريف 1770 وشتاء عامي 1770 و1771 وبهدف ضمان المراقبة على كلِّ التحرُّكات، قسَّمت قيادة الحملة المنطقة إلى مناطق عملٍ لفصائل الدوريَّات البحريَّة المؤلَّفة (بالمناسبة، على غرار القوات البريَّة) من سفن الأسطول الروسي النظاميَّة ومن السفن الملحقة بالفصائل مع قباطنة يونانيين وسلافيين من أصحاب السفن المسلَّحة الخاصَّة، الحاصلين على ترخيص روسي. وكان نشاط الدوريَّات البحريَّة يُنفَّذ على مدار السنة، وكانت تفرض عليه القيود في أوقات الهدنة فحسب، حيث كانت تُمنع السفن المشاركة فيه من الاقتراب من الشواطئ التركيَّة (وكان التجار اليونانيون يُرشَوْنَ بنشاط لقاء قيامهم بعمليات استطلاع للوضع)[104].

---

(102) نصَّت الرسالة الموجَّهة إلى غ. أ. سبيريدوف في حزيران/ يونيو من عام 1769 بوجه خاصٍّ على ما يأتي: «قبل كل شيء، أن تكون لديكم في الخدمة قاعدة أساسية إلزامية، ألا وهي عدم توقيف أو تفتيش أيِّ سفنٍ تجارية تعود إلى الدول المسيحية في أي حالٍ من الأحوال في أثناء ملاحتكم، لأنَّ نيتنا بعيدة كل البعد عن فرض أدنى تضييق على تجارة أيٍّ كان»، «بل على العكس من ذلك، يجب أن تكون سفن المحمديين دائمًا غنائم جيدة، وأن يجري استخدامها لما فيه المصلحة». اقتباس من:
**Уляницкий**, с. XCII, XCV.

[أوليانيتسكي، ص XCII، XCV].

وقد أُكِّد ذلك أيضًا في الرسالة الموجَّهة إلى سبيريدوف المؤرَّخة في 13 كانون الثاني/ يناير من عام 1770 (ص XC-XCI)].

(103) يكتب الضباط المهندسون في الأسطول دومًا عن عدد طلقات التحية التي كانت تتبادلها السفن: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860].

(104) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 46, Л. 69, 141об.; Ф. 315, Оп. 1, Д. 609, Л. 9-13.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 46، الورقة 69، ظهر الورقة 141؛ المجموعة 315، القائمة 1، الملف 609، الورقة 9-13].

أُعطيت تعليماتٌ تلحظ استقلاليةً واسعةً[105] لكلِّ فصيل من فصائل «الدوريات البحريَّة»، التي كان يمكن أن يكون على رأسها قباطنة أو بحارة عسكريون من رتبٍ عالية. وكانت عمارة جون ألفينستون البحريَّة أولى العمائر التي بدأت على الفور حصار الدردنيل وتفتيش السفن العابرة في اتجاه المضائق خلال صيف - خريف عام 1770. وبوصول العمارة البحرية بقيادة الكونتر-أميرال آرف في عام 1771، خُصِّصت له المنطقة الممتدَّة من ميكونوس إلى الساحل الآسيوي (إلى جزيرتي خيوس وميتيلينا/لسبوس) للقيام بالدوريات البحريَّة، «بُغية مراقبة سفن العدو واستقصائها وضربها... وأخذ غنائمها...»، وإرسال إشارة تفيد عن خروج الأسطول التركي من الدردنيل[106]. وفي عام 1772، قامت العمارة البحرية بقيادة الكونتر-أميرال يلمانوف من 27 شباط/فبراير - 9 آذار/مارس - حتى تموز/يوليو بعمليات الدورية عند الدردنيل، مانعةً العبور إلى عاصمة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة كليًّا.

وفي 5 كانون الثاني/يناير من عام 1771، عيَّن أ. غ. أورلوف الضابط إيفان فوينوفيتش قائدًا أعلى على السفن المسلَّحة الخاصَّة («السفن المرخَّصة»)، التي بقيت مهمَّاتها هي نفسها على غرار سفن الدورية «النظامية»، أيْ مراقبة كل السفن واستطلاع تحرُّكات العدو[107]. وكانت العلاقة حيال أصحاب السفن الخاصَّة هذه تذكِّر بالعلاقة حيال «الألبان»، إذ كان هؤلاء يثيرون /

---

(105) لم يستبعد ذلك تنسيق العمليات مع «الجيران». يُنظر، على سبيل المثال، الرسائل المتبادلة بين القبطانين سكوراتوف وميلنيكوف، اللذين كانا يقومان بدوريات بين جزر زيا وآندروس وسبيتسيا في ما يتعلق بالإشارات التي سيتبادلانها حال ظهور العدو، وعن وجوب أن «يكون أحدهما في مجال نظر الآخر»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 172-173.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 172-173].

(106) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 44, Л. 79.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، الورقة 79].

(107) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 210-211 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 210 - ظهر الورقة 211].

الإعجاب[108] والخوف في آن واحد: فقد كانوا يثيرون الشُّبهات بإساءاتهم ونهبهم العلني للسفن التجاريَّة الأوروبيَّة، ووضع اليد على «الغنائم» المُستولى عليها. وفي عامي 1769 و1770، أشار مجلس البلاط السامي، ون. إ. بانين شخصيًّا، في رسالة إلى أ. غ. أورلوف إلى أنَّ استخدام أصحاب السفن الخاصَّة اليونانيين ذات التراخيص الروسية، هو وسيلة رخيصة جدًّا (...) «لإزعاج عدوِّنا واستنزاف قوَّاته»؛ لكنَّ «الأمر الوحيد غير المريح هو أنَّ أصحاب سفن القرصنة المستقلة عنَّا يبحثون عن مصلحتهم وأرباحهم فقط»، وهم لن يكتفوا بنهب السفن التركيَّة فحسب، بل سيتجاوزونها إلى السفن المسيحيَّة أيضًا[109]. والواقع أنَّه حدثت حالات شارك خلالها «أصحاب السفن المسلَّحة الخاصة»، السفنَ الحربيَّة الروسيَّة، في أثناء دوريَّاتها البحريَّة، في هجماتٍ لم تقتصر فقط على «إقلاق راحة العدو في أماكن مختلفة»[110]. غير أنَّ قيادة الحملة بذلت جهودًا لوقف أعمال النهب ولإضفاء صفة شرعية على التفتيش وأخذ الغنائم، بل حتى الاستيلاء على بعض السفن[111].

لم تكن توجد أحكام دقيقة في القانون البحري الدولي وقتذاك في ما يتعلَّق بدائرة السلع التي تشكِّل مادةً للتهريب العسكري، وكانت كل دولة تعرفها بطريقتها الخاصة. ووفقًا لـ «Consolato del mare» (اللجنة البحرية)، اتَّبعت روسيا قاعدة اعتُبِرَت بموجبها حمولات العدو المنقولة على متن سفنٍ محايدة غنائم للأسطول الروسي، فضلًا عن السفن نفسها (مع حمولاتها) التي كانت تُبحر

---

(108) يُنظر على سبيل المثال: تاريخ استيلاء كوجيفيتش على قلعة كاسترو – روسو نيقوليتو في كتاب: Коковцев, с. 67-68.

[كوكوفتسيف، ص 67-68].

(109) Уляницкий, с. CXX.

[أوليانيتسكي، ص CXX].

(110) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 681.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 681].

(111) تعرض غ. أ. غريبينشيكوفا عددًا مهمًّا من المواد الأرشيفية حول هذه المسألة: Гребенщикова, с. 347-351 и др.

[غريبينشيكوفا، ص 347-351 وغيرها].

تحت الأعلام[112] التركيَّة والجزائريَّة والتونسيَّة والطرابلسيَّة والراغوزيَّة[113]. إضافةً إلى ذلك، كان يمكن ألَّا تكون تلك المساحة من المياه البحريَّة المملوكة من العدو محدَّدة للغاية، تلك التي يمكن في زمن الحرب فرض الرقابة عليها أو محاصرتها أساسًا.

أقلقت دعاوى الدول الأوروبيَّة العديدة ن. إ. بانين والإمبراطورة، ولا سيَّما فرنسا التي كانت تجارتها المشرقيَّة الأكثر تضررًا من هذا الحصار[114]. وازدادت هذه المخاوف نتيجة تعقيدات الوضع الدولي، بعد تقسيم بولندا الأول، والانقلاب الملكي في السويد، وتفاقم خطر اندلاع حرب روسيَّة - سويديَّة[115]. فضلًا عن ذلك، أدخلت عدَّة دول أوروبيَّة عمائرها البحريَّة الحربيَّة إلى مياه البحر المتوسط بعد معركة شيسما، وأمَّا السفن التجاريَّة الفرنسيَّة التي تنقل المواد الحربيَّة المهرَّبة فقد رافقتها فرقاطات فرنسيَّة من الأسطول الحربي[116]، وفقًا لشكاوى أ. غ. أورلوف الغاضبة. كلُّ هذا هدَّد

---

(112) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII (СПб., 1888), с. 42.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12 (سان بطرسبورغ، 1888)، ص 42].

(113) برزت جمهورية دوبروفنيك في أوروبا بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر مركزًا للتجارة البرية والبحرية مع البلقان، وبوصفها أحد الوسطاء الرئيسين في علاقات الإمبراطورية العثمانيَّة والدول الأوروبيَّة الاقتصاديَّة. وعلى الرغم من أنَّ أغلبية السكان العظمى تشكَّلت من السلافيين، فإنَّ نظامي الجمهورية الاجتماعي والسياسي وكذلك نخبتها الحاكمة كانت تحت تأثير إيطالي قوي، ولذا كان اسم الدولة الرسمي هو جمهورية راغوزيا. وفي فترات مختلفة من تاريخها، كانت هذه الجمهورية تحت السيادة الاسمية لكلٍّ من المجر والإمبراطوريَّة العثمانيَّة والنمسا، لكنها ظلت مستقلة في الواقع. وفي عام 1806 احتلت قوات نابليون أراضي دوبروفنيك، وأُلغيت في عام 1808 وضُمَّت إلى فرنسا. وتشكل هذه الأراضي حاليًّا الجزء الجنوبي من كرواتيا. (المترجم)

(114) M. S. Anderson, «Great Britain and the Russo-Turkish War of 1768-74,» *English Historical Review*, vol. 69, no. 270 (1954), pp. 39-58.

(115) Соловьев, Кн. XIV, t. 28, Гл. IV; Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, с. 256.

[سولوفيوف، الكتاب 14، مج 28، الفصل 4؛ مراسلة ن. إ. بانين مع أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، 1770-1773، ص 256].

(116) ظلَّ التهديد بخروج الأسطول الحربي الفرنسي من طولون في اتجاه الشرق قائمًا في ما بعد، علمًا أنَّ حجج مؤيدي الفعل العسكري في فرنسا الرئيسة كانت حماية التجارة ووقف القرصنة. يُنظر على سبيل المثال:

Уляницкий, с. CXXII.

[أوليانيتسكي، ص CXXII].

باندلاع مواجهاتٍ عسكرية أخافت نارُها كاترينا ون. إ. بانين. على الرغم من أنَّ أ. غ. أورلوف اعترض على تحذيراتهما (إذا كانت الفرقاطات ستعرقل تفتيش الحمولات لن يمرَّ الأمر «من دون برهانٍ مدفعيٍّ، وحينئذٍ سنرى من كان محقًّا أكثر»)[117]، إلا أنَّه اضطر لإظهار ضبط النفس.

لم تكن أولى الضمانات التي أعطاها أورلوف - ردًّا على تجّار الصموغ[118] الأوروبيين منذ منتصف آب/ أغسطس 1770 - «عدم تعرُّض» السفن التجاريَّة الأوروبيَّة لأيِّ نوعٍ من الأذى فحسب، بل أن تقدِّم لها الحماية سفنٌ تحمل علم الإمبراطورة الروسيَّة، شريطة ألَّا تخرق قوانين الحرب. وسرعان ما كتبت الصحف الأوروبيَّة عن هذا بارتياح[119]. وفي أيلول/ سبتمبر، وصلت إلى الأوروبيين تقارير عن توقيع أ. غ. أورلوف في الأرخبيل نداء «إلى كل الأمم»، وأنَّ هناك سفنًا غريبة كثيرة تطوف بحار الأرخبيل واليونان تحت علم روسيا، وتمارس أنواعًا من قرصنة السفن، بما فيها السفن المسيحية؛ وأنَّ الكونت أورلوف يناشد الدول **عدم اعتبار هذه السفن روسيَّة إذا لم تكن لديها** وثيقة موقَّعة ومختومة بختم جيشه[120]، لا بل «اعتبارها زبدًا بحريًّا» ومعاقبة

---

(117) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, c. 243.

[مراسلة ن. إ. بانين مع أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، 1770-1773، ص 243].

(118) كانت الصموغ التي تفرزها أغصان عدة أنواعٍ من الشجر كالمومول والمير وكاميفور التي تنبت في اليمن وعمان والصومال وشمال أفريقيا وجنوب غرب الجزيرة العربية، عبارة عن خليط متجانس مع مواد راتنجية وزيت طيار، تُستخدم للبخور في الكنائس. (المترجم)

(119) *G. d'A.*, 1770, no. 83.

(120) هذا «القانون»، أو «ترخيص أصحاب السفن المسلحة الخاصة»، كان قد وضعه، بحسب ما تقول غ. أ. غريبينشيكوفا، إ. غ. تشيرنيشوف في لندن على أساس القانون البحري البريطاني، وأُرسل من لندن إلى بطرسبورغ، وبعد بعض التصحيحات، تُرجم إلى اللغة الإيطالية، وفي بداية الحرب أُرسلت 50 نسخة من «قواعد للقراصنة الخصوصيين» إلى ليفورنو. غير أنَّ أ. غ. أورلوف «لم يستفد من هذه التراخيص»، بحسب معطيات غ. أ. غريبينشيكوفا، على الرغم من أنه منح «القباطنة اليونانيين المقبولين في الخدمة الروسيَّة، باسم الضباط الروس على السفن الرسمية» ثمانية تراخيص فقط بين أيار/ مايو وكانون الأول/ ديسمبر 1770 وفقًا لتأكيدها: Гребенщикова, c. 196-197, 297.

[غريبينشيكوفا، ص 196-197، 297].

كما نُشرت بعض الوثائق: *The Movement for Greek Independence 1770-1821: A Collection of Documents*, ed. and trans. by Richard Clogg (London, 1976), pp. 70-76; *АГС*, t. 1, c. 388.

قباطنتها[121]. وكتبت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** الفرنكوفونيَّة في كانون الأول/ ديسمبر 1770 مرحِّبةً باستيلاء سفينة روسيَّة في الأرخبيل على **سفينة قرصنة تحمل على متنها 60 لفة من الأقمشة، كانت قد غُنمت من سفينة فرنسيَّة، ونقل القبطان الروسي البضاعة إلى نائب القنصل الفرنسي على جزيرة تينو**[122].

في بداية عام 1771، وضع الروس في الأرخبيل المعايير المنظَّمة لأعمال السفن المُناوِبة في وضعيَّة التأهّب، وقد فَرَضت هذه المعايير - التي كان على السفن المشاركة في «الدوريَّات البحريَّة» اتِّباعها - «عدم إزعاج» الملاحة التجاريَّة وإنقاذ المسيحين من «الأسر البربري»، إلا أنَّها ألزمتها مع ذلك بتفتيش السفن التجاريَّة التي تظهر بالقرب من منطقة العمليَّات القتاليَّة. وفي هذه الحال، تُعتبر كل الأسلحة التي يُعثر عليها في السفينة مهرَّبةً وتخضع للمصادرة[123] (باستثناء تلك التي تحتاج إليها السفينة التجاريَّة).

بعد مرور سنة، أنبأت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)**، في بداية عام 1772، أنَّه عندما استولى المتمرِّدون «الألبان» على سفينتين من العمارة البحريَّة الروسيَّة، وبدأوا ممارسة القرصنة عليها، دعا الكونت أورلوف سكان الأرخبيل، بل حتَّى الأتراك (!) إلى العمل معًا للتخلُّص من المتمرِّدين[124]. وفي عام 1774 اتفق سبيريدوف مع قائد السفينة الحربيَّة الفرنسيَّة لوكلير مارتولي دي شوتارد على إنشاء «لجنة الغنائم»، فتكون مهمَّتها النظر في شكاوى التجَّار وتعويضهم جزءًا ممَّا فقدوه من ممتلكات[125].

---

(121) *G. d'A.*, 1770, no. 78.
يُنظر نص هذا النداء في: Петров, t. 2, c. 388-389.
[بيتروف، مج 2، ص 388-389].

(122) *G. d'A.*, 1770, no. 15.

(123) Гребенщикова, c. 347.
[غريبينشيكوفا، ص 347].

(124) *G. d'A.*, 1770, no. 7.

(125) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 8, 13-15.
[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 8، 13-15].

في المحصلة، وبغض النظر عن كلِّ الاحتجاجات الرسميَّة، كانت الدول الأوروبيَّة مرغمةً على احترام معايير التجارة والملاحة في زمن الحرب، التي وُضِعَت في المنطقة الواقعة تحت الحصار، وفقًا لتصريح أ. غ. أورلوف، وقد احترمتها فعلًا. وكانت التجربة الإيجابيَّة والسلبيَّة التي اكتسبتها روسيا في تحقيق هذا الحصار الاقتصادي مفيدة من دون شك؛ وقد استخدمتها في ما بعد عند صوغ مبادئ البيان المتعلِّق بالحياد العسكري في عام 1780 (حيث أُكِّد فيه بوجه خاص على مفهوم التهريب الحربي، وعلى الفضاء الذي ينبغي أن يشمله الحصار). لقد أسهم بيان عام 1780، كما هو معروف، إسهامًا مهمًّا في سنِّ قانون الملاحة البحريَّة الدوليَّة للزمن الجديد. وفي الحرب التالية مع الأتراك، لم يعد من الضروري الاعتماد على جمع رصيدٍ وافرٍ من «الغنائم». وكما أشار المستشار بيزبورودكو في مجلس عام 1787 إليه «فإن الحلف المشترك الذي جمع الدول البحريَّة، التي أمَّنت الغطاء للتجارة البحريَّة، لا يسمح الآن بكسب الغنائم غير ذات الفائدة»[126] (أي في سبعينيَّات القرن الثامن عشر - المؤلفة).

على العموم، تجدر الإشارة إلى أنَّه عند تقويم نتائج عمليات الأسطول الحربيَّة ووحداته البريَّة - التي وُضِعَت في تصرُّفه بين عامي 1770 و1774 - كان ثمَّة الكثير من المواقف الصعبة التي انطوت على تهديد لصورة البلاد على الصعيد الدولي، وكذلك لهيبة السلطة القيصريَّة الروسيَّة الأرثوذكسيَّة بين السكَّان المسيحيِّين في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، ولوجود العمائر البحريَّة التابعة لأسطول البلطيق في البحر المتوسط. بدا الأمر وكأنَّ النهاية «المخزية» أكثر من مرجَّحة، ولكنْ انتهت حملة الأرخبيل الأولى بجدارة. فقد تحوَّل وصول الأسطول الروسي الأول إلى البحر المتوسط إلى وجودٍ طويل الأمد على الجزر، والى تحركٍ حرٍّ في كلِّ أنحاء البحر المتوسط. أمَّا ما يتعلَّق بِمَا بات عليه حضور البحارة الروس في الأرخبيل وفي البندقية وعلى شبه جزيرة أبينين وفي الشرق الأوسط، وكيفية استقبالهم هناك وما علق بذاكرتهم هم أنفسهم، فهذا ما سنفصِّله في الأقسام التالية. بكلماتٍ أخرى، سنتصدى لِمَا استكشفه الروس من فضاء المتوسط على الصعيدين السياسي والثقافي.

---

(126) *АГС*, c. 503.

[أرشيف مجلس الدولة، ص 503].

القسم الثاني

# الروس
# في حوض البحر المتوسِّط

ي. ب. سميليانسكايا
م. ب. فيليجيف
إ. م. سميليانسكايا

# الفصل الخامس

## «الرُّوس في الأرخبيل»
## أو إمارة كاترينا العظمى اليونانيَّة

ي. ب. سميليانسكايا

قبضات القوَّات الروسيَّة المظفرة
أسرت الجميع في الأرخبيل
بإجلال يتطلَّعون إلى العلم الروسي
بافل بوتيومكين. «الروس في الأرخبيل»

### هل كان هدف روسيا احتلال أقاليم في حوض البحر المتوسِّط؟

لم تكفَّ كاترينا الثانية عمليًّا عن الاهتمام بمسألة الاستيلاء على الأراضي، طيلة فترة الحرب ووجود الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط.

فقد حملت آفاق الفتوحات المتبدِّلة في الأقاليم - أكانت الآفاق الوهميَّة أم الواقعيَّة - كاترينا والمحيطين بها على التفكير باستمرار في تحديد دور الممتلكات الجديدة ومستقبلها، بوصفها نقاط ارتكاز للأسطول أو محطات «تجاريَّة» أو دلائل على حضور روسيا في المنطقة.

كانت كاترينا حذرة في مراسلاتها مع فولتير الذي كان يعود باستمرار إلى فكرة استيلاء روسيا على كلٍّ من القسطنطينيَّة وأثينا، إنْ بصورة جديَّة أو في ما يشبه الدعابة، فكتبت في بداية الحرب، في كانون الأول/ ديسمبر 1768 بشيءٍ

من الحيرة: «إذا كانت الحرب مع الأتراك بالنسبة إليَّ ستكون بسهولة استخدام اللقاح ضد الجدري، فربَّما سيتعيَّن عليكم قريبًا الوفاء بوعدكم الالتقاء بي، في المكان الذي يقولون إنَّ **جميع الغزاة هلكوا فيه** (أي القسطنطينيَّة - المؤلفة). ويبدو لي أنَّ هذه الشائعة في حدِّ ذاتها من شأنها أن **تردع** أيًّا كان عن مثل هذا الإغراء»[1]. وفي أيلول/ سبتمبر 1770، كانت الإمبراطورة واقعيَّة تمامًا بتقويمها الأمور في معرض حديثها عن النجاح في شيسما[2]: «في ما يخصُّ القسطنطينيَّة، لا أعتقد أنَّ الأمر سيتحقَّق قريبًا. ولكنْ، أرى مع ذلك أنَّه ينبغي ألَّا يكون هناك مكان لليأس»[3]. على أنَّ كاترينا الثانية عادت في أثناء مفاوضات فوكشاني في أيار/ مايو 1771 لتتناول موضوع احتلال الأقاليم بقدرٍ كبيرٍ من الانفعال: «إذا لم يُعقد الصلح في هذا العام، سيتعيَّن عليكم إعطاء الأمر بتجهيز حمَّالاتكم[4] (للتوجُّه إلى لقاء كاترينا في القسطنطينيَّة - المؤلفة). ولا تنسَ، يا سيدي، وضع ساعات حائط من صنع معاملكم فيها، كيما تُعلَّق على جدران كنيسة القدِّيسة صوفيا، وستُتاح لمحبِّي الحضارة القديمة في المستقبل فرصة تأليف مجموعة من الأطروحات العلميَّة»[5].

إذا كانت كاترينا الثانية تكتب إلى فولتير معوِّلةً على ترك تأثير دعائي، فهي تقاسمت أفكارها الدفينة بشأن أهداف الحملة في حوض البحر المتوسِّط مع أ. غ. أورلوف («أكتب إليكم هذا كلَّه، للبوح بما يجول في خاطري فقط»)،

---

(1) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Пер. с франц. Иван Фабиян (М., 1805), Ч. 1, с. 34.

**[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778**، نقلها من الفرنسيَّة إيفان فابيان (موسكو، 1805)، ج 1، ص 34].

(2) المقصود انتصار الأسطول الروسي على الأسطول العثماني في معركة شيسما، التي اندلعت بين 24 و26 حزيران/ يونيو 1770 في خليج شيسما، الواقع بين طرف الأناضول الغربي وبين جزيرة خيوس. وهو المكان الذي شهد معارك بحريَّة عديدة في الماضي بين الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وبين جمهوريَّة البندقيَّة، وكذلك بين الأسطولين الروسي والتركي. وقد انتهت المعركة بعقد معاهدة كوتشوك - كاينارجي. (المترجم)

(3) المرجع نفسه، ص 118.

(4) المقصود أنَّ عدد القتلى سيكون كبيرًا. (المترجم)

(5) المرجع نفسه، ج 2، ص 4.

وذلك حين وصل الجزء الأساسي من الأسطول الأول - العمارة البحريَّة بقيادة سبيريدوف - للتوِّ إلى بورت ماغون، مذلِّلًا مشقَّات الطريق الطويل. فاقترحت الإمبراطورة على أورلوف، في رسالتها المؤرَّخة في الثامن من شباط/ فبراير 1770، عدم القيام «بأيِّ هجمات جريئة»، وفكَّرت بالاستيلاء - كلّا، ليس على القسطنطينيَّة! - **فحسب إمَّا على جزيرة، أو ربَّما على ميناء قارِّي** (إذ لم تكن قرَّرت حينذاك أيّ الأمرين أفضل). ثم تابعت النقاش على النحو التالي: «فكرتي هي أن تسعوا إلى **الحصول على مرفأ على جزيرة أو على القارَّة، والاحتفاظ به أطول مدة ممكنة** (التشديد من المؤلفة). وإذ أقول لكم ذلك، فأنا أعترف بأنني أعني أمرين: **الأول** هو أنه ما لم يتضاعف عددكم بصورة معتبرة، فإنَّ الخطر الذي سيتهدَّدكم لن يكون ضئيلًا (كانت كاترينا تعمل على إعداد العمارة البحريَّة الثالثة، في حين كانت العمارة الثانية في الطريق، وتقترح إضافةً إلى ذلك استئجار بحَّارة مسيحيِّين من منطقة البحر المتوسِّط - المؤلفة)؛ **والثاني**، أنَّه على الرغم من أنَّ ما حقَّقتموه ليس كبيرًا حتَّى الآن، فإنَّكم مع ذلك تكونون قد فعلتم الكثير للمستقبل، لو قدَّمتم لروسيا مرفأ في هذا البحر، سنسعى إلى الاحتفاظ به في ظلِّ السلام. فهو سيؤمِّن عن طريق التجارة التواصل الدائم مع شعوب نحن بحاجة إليها في زمن السلم؛ وبذلك، لن تضعف بالطبع قوَّتنا في تلك الأنحاء. أمَّا إذا تبدَّلت أموركم، بحيث تتمكَّنون من تحقيق ما هو أكبر من ذلك، فسيكون هذا المرفأ مفيدًا دائمًا، وهو لن يكون مؤذيًّا في أيِّ حال من الأحوال. أمَّا إذا كانت الجزيرة التي عليها المرفأ أسوأ من القارَّة، أو إذا كانت هذه الجزيرة غير كبيرة، فستكون للمرفأ على القارَّة فوائده الخاصة»[6].

هكذا، كانت خطَّة كاترينا تنطوي قبل كلِّ شيء على الاستحواذ على مرفأ ضروري للأسطول في **اللحظة الراهنة**، للقيام بالأعمال العسكريَّة بعيدًا من الوطن، مع كونه أهمَّ في **المستقبل** من أجل ترسيخ حضور روسيا في حوض البحر

---

(6) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 529.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 529].

من المعروف أنَّ أورلوف كان يفضِّل في البداية الاستحواذ على مرفأ على القارَّة، وحدَّد في مطلع عام 1770 نافارين في مورية للقيام بهذا الدور، حيث كان يراهن على انتفاضة اليونانيين وعلى التعاون المثمر مع الثوار.

المتوسِّط. وفي غضون ذلك، افترضت كاترينا تطوُّرين محتملين في الأحداث: الحصول على مرفأ كحدٍّ أدنى، لكنْ «إذا أمكن التفكير أبعد من ذلك ...، فثمَّة أملٌ في الاستحواذ على **عاصمة إمبراطوريَّة الهاجريِّين**».

بعد خمسة أيام، في الثالث عشر من شباط/ فبراير 1770، وفي رسالة جديدة إلى أ. غ. أورلوف، طوَّرت الإمبراطورة فكرتها بحيث تناولت أيضًا الجانب السياسي من وجود روسيا في المتوسِّط، وليس الاستراتيجي فحسب. فقد وصلت إلى مسامعها الأنباء عن إخفاقات الأمير ي. ف. دولغوروكوف في الجبل الأسود. أكثر من ذلك، لقد توقَّعت أيضًا من حيث الأساس فشل الأعمال الرئيسة التي قام بها رعايا الإمبراطوريَّة العثمانيَّة الأرثوذكس في تحالفهم مع الأسطول الروسي («حتَّى ولو خان اليونانيون سعادتهم، هم الذين أفسدتهم قرون الاستعباد والغدر»). إضافةً إلى ذلك، افترضت كاترينا أنه حتَّى في هذا الظرف غير الملائم، فإنَّ «من شأن عمليَّة هجوميَّة بحريَّة واحدة من جانبنا بدعم من **موانئ ماينى** (مرافئ بيلوبونيز - المؤلفة)، أو احتلالنا مكانًا آخر يشكِّل **ملاذًا** بحريًّا ملائمًا، أن يسبِّب الصَّدمة ويثير الهلع في كلِّ المناطق التركيَّة في أوروبا، ممَّا قد يؤدِّي إلى لجم أعدائنا، ومن ثَمَّ إلى رفع راية إمبراطوريتنا عاليًا، ومضاعفة الاحترام لقوَّتها وجبروتها...»[7] (التشديد من المؤلفة).

بالتالي، كانت الإمبراطورة الروسيَّة ترى أنَّ نجاحًا سياسيًّا وعسكريًّا ينتظر روسيا، أيًّا يكن مسار الأحداث، باستثناء هزيمة القوَّات البحريَّة الروسيَّة

---

(7) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» Сообщ. кн. Н. А. Орловым, in: *СбРИО*, t. 1 (СПб., 1867), c. 35.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، نقلًا عن الأمير ن. أ. أورلوف، في: **مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 35].

علمًا أن الإمبراطورة عمدت، في معرض تعليلها لرأيها، إلى إعادة صوغ كلمات ألكسي غريغوريفيتش جزئيًّا. فقبل عام من ذلك، أكَّد أورلوف للإمبراطورة، استنادًا إلى معلومات تلقَّاها من إيطاليا، جدوى إرسال الأسطول، الذي لا يلحق خسارة عسكريَّة بالأتراك فحسب، بحسب رأيه، بل «يثير الهلع لدى جميع المحمَّديِّين، والحماسة والحيويَّة لدى الأرثوذكس أيضًا، فضلًا عن أنه قد يسبِّب الرعب لديهم أكثر من كل القوَّات البريَّة»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 365.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 365].

بالطبع (وهو ما اتَّخذت كاترينا كلَّ التدابير الممكنة لتفاديه)، لأنَّ الشعوب التي تقطن تركيا الأوروبيَّة «ستنتفض»، الأمر الذي سيؤدِّي إلى نموِّ نفوذ روسيا بين المسيحيين، وإلى تضعضع المسلمين (وهو أمر ينطوي على خطر حصول تحرُّكات معادية للحكومة في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، بما يعجِّل في وضع نهاية للحرب)، فضلًا عن تعزيز هيبة روسيا في العالم. وفي المحصِّلة، ستترسَّخ مواقع روسيا في حوض البحر المتوسِّط، بإزاحة الدول الأوروبيَّة الأساسيَّة، إن لم يكن من طريق التغلغل الاقتصادي (وهو بالكاد متاح للتجارة الروسيَّة) فبوسائل عسكريَّة.

لم يكن من قبيل العبث أن توضح الإمبراطورة كلَّ ذلك لألكسي أورلوف. فكما أشرنا سابقًا، كانت تطلُّعات أخرى تُحرِّكه قبل نهاية الأحداث المحزنة في مورية. فهو كان يحلم بتحرير إخوة الدين اليونانيِّين، ويُمنِّي النفس ببهجة الانتصارات المشتركة. فضلًا عن ذلك، كانت كلُّ الوثائق الرسميَّة، المرتبطة بإرسال الأساطيل إلى حوض البحر المتوسِّط، تؤكِّد أنَّ حملة روسيا العسكريَّة البحريَّة لم تكن تهدف إلى احتلال الأراضي، بل إلى توجيه ضربة إلى القوات المسلحة التركيَّة، بالاشتراك مع السكَّان اليونانيين والسلافيين. فقد أكَّد الأمر السَّامي الموجَّه إلى الأميرال سبيريدوف في الخامس عشر من تموز/يوليو 1769، على ضرورة: «العمل على تشكيل» فيلق كامل من اليونانيِّين والسلافيِّين «بدعم منَّا وتحت قيادتنا»، بُغية «إشغال القوَّات التركيَّة على أراضيها»، وبعون «العليِّ القدير» من أجل هزِّ أوروبا «من الأساس، هي وعاصمة الشرِّ المحمَّديَّة»[8]. لقد صاغت كاترينا هنا، كما نرى، برنامج الحد الأدنى بروحيَّة اندفاع أورلوف: «وإذا ما قرَّرنا الذهاب، فلنذهب إذًا إلى القسطنطينيَّة...». ونراها كذلك، في الأمر السامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال ألفينستون، في 25 أيلول/سبتمبر 1769، تُحدِّد هدف البعثة الرئيس بصورة رسميَّة على النحو التالي: «يتمثَّل هدف كلِّ خطَّتنا الرئيس في تحريض الشعوب اليونانيَّة والسلافيَّة الخاضعة للأتراك ضدهم؛ أي أن نضع، بالتالي، هذا الهدف

(8) المرجع نفسه، ص 366 وغيرها.

في المقام الأول»[9] (التشديد من المؤلفة). وحتَّى في «النقاط» المتعلِّقة بقبول تعيين الدانماركي آرف قائدًا للأسطول التالي، أُشيرَ بوجهٍ خاصٍّ إلى أنَّه لا يجوز إطلاع آرف على خطَّة العمل في البحر المتوسِّط، لأنَّ «عملياتنا هناك لا يمكن أن تجري وفق أيِّ خطَّة عملانيَّة، **فهذه الخطَّة ينبغي أن تتوقَّف بالدرجة الأولى على تلك الأعمال التي يمكن أن تجري بين مسيحيِّي تلك المنطقة من الرعايا الأتراك**»[10]. ومجدَّدًا، لا يرِدُ أيُّ ذكرٍ للجزر **والموانئ الملائمة**، كما في الأمر الموجَّه إلى سبيريدوف، لأنَّ «السريَّة هي جوهر السياسة».

بيد أنَّه لم يكن في وسع كاترينا في عام 1771 عدم التفكير في تنظيم الأراضي اليونانيَّة المستقبلي، على الرغم من عدم إفصاحها عن خططها التوسعيَّة. ففي رسالتها المؤرَّخة في 27 أيار/ مايو – 7 حزيران/ يونيو 1770 إلى فولتير، كانت لا تزال ترى اليونان «حرَّة»[11]. وفي آب/ أغسطس من السنة نفسها كتبت عن إشراك «الفيالق الإسبارطيَّة» في توقيع الصلح المحتمل مع الباب العالي[12].

ما له دلالته أنَّ الإمبراطورة وجَّهت في التاسع عشر من تموز/ يوليو 1770 أمرًا ساميًا جديدًا إلى أورلوف، حتَّى قبل أن تعرف بانتصار شيسما وبسط سيطرة الأسطول الروسي على الأرخبيل. وهي لم تكن قد تلقَّت أنباء موثوقة عن المأساة في مورية، وأمَّا المعلومات المنشورة في الصحف الأوروبيَّة فلم تكن موضع ثقة لديها. فهي كانت، على ما يبدو، لا تزال تحت تأثير الأنباء عن النجاحات في مورية، على الرغم من أنَّه كان ينبغي لتقرير أورلوف المرسل من هناك أن يثير ريبتها؛ إذ لم يكن يُنبِئ بالانتصارات في البر. ومع ذلك، فقد كانت

---

(9) المرجع نفسه، ص 405.

(10) المرجع نفسه، ص 663.

(11) «يبدو أنَّ اليونان يمكن أن تعود حرَّة من جديد، لكنها لا تزال بعيدة جدًّا من ذاك الوضع الذي كانت عليه في ما مضى؛ ولكن من المشوِّق أن نسمع عن تلك الأماكن التي شنَّفوا آذاننا بالحديث عنها في صغرنا»: *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, c. 87.

[مراسلات الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 87].

(12) المرجع نفسه، ص 102.

كاترينا تدرك أنه ستكون هناك علاقات مع يونانيي الأرخبيل، وينبغي بالتالي أن تتَّسم بالوضوح. ويدلُّ الأمر السَّامي بوضوح على أنَّ ملامح «خطط» كاترينا الثانية «الإسبانيَّة» أخذت ترتسم بصورة ملموسة؛ كما أنه يتيح استجلاء منشأ «المشروع اليوناني» السياسي. وإذ تجنَّبت كاترينا في أمرها السَّامي تحديد طبيعة النظام السياسي الذي سيحكم اليونانيين المحررين، فهي اكتفت بكتابة ضبابيَّة عن **كيان سياسي معين لاتحاد جديد**، يملك «هيكلًا جديدًا وكاملًا»[13].

بعد ورود الأنباء عن هزائم الوحدات الروسيَّة المتحالفة مع اليونانيِّين في مورية، وعن انتصار الروس في شيسما، بدا أن كاترينا «نسيت» فكرة الاستقلال اليوناني. فكتبت إلى فولتير تقول: «لقد فَسُدَ اليونانيون والإسبارطيون كليًّا. فهم يلهثون وراء النَّهب أكثر ممَّا يسعون إلى الحريَّة. وهم يهلكون نهائيًّا عندما لا يتَّبعون أوامر البطل الذي أوفدته إليهم وتوصياته»[14]. ولم يعد يجري الحديث عن استقلال اليونانيِّين في هذا السياق. ففي أيلول/سبتمبر 1770 نفسه، افترض مجلس الدولة إمكانيَّة الاستحصال على عفو عام عنهم فحسب[15]، علمًا أنَّ كاترينا فوَّضت أورلوف «لأنَّه موجود هناك على الأرض» بالتفاوض عند عقد الصلح على ما يمكن الحصول عليه (؟) ليونانيِّي الأرخبيل، بعد تحديدها شروط هذا العفو العام، قاصدةً بذلك ما سمَّته «بعض الامتيازات»، بمعنى «ألَّا يُولَّى عليهم مسؤول تركي، بل أن يتولَّوا هم جباية الإتاوات، وما شابه»[16].

---

(13) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 566-567.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 566-567].

(14) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 123.

[مراسلات الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 123].

(15) *Архив Государственного Совета (АГС), т. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II (1768-1796)* (СПб., 1869), с. 60.

[أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 60].

(16) Письма и записки императрицы Екатерины Второй к графу Никите Ивановичу Панину, in: *ЧОИДР*, 1863, Кн. 2, с. 113.

[رسائل ومذكرات الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى الكونت نيكيتا إيفانوفيتش بانين، في: قراءات الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والآثار الروسية في جامعة موسكو، 1863، الكتاب الثاني، ص 113].

لم تكن كاترينا ولا أورلوف وحدهما من أبدى الاهتمام بمصير الأراضي التي يمكن أن تستولي عليها روسيا في الأرخبيل. فرئيس دائرة الشؤون الخارجيَّة ن. إ. بانين، كان أيضًا يُنعِم التفكير في «الهيكل الجديد والكامل». ففي تموز/يوليو 1770، نضجت لديه خطَّته الخاصة بإقامة الدولة اليونانيَّة، وفقًا لنموذج الأراضي المنخفضة: «فشكل الحكم عندهم تحت اسم الولايات الهولنديَّة العامَّة للأراضي المنخفضة المتَّحدة يتلاءم تمامًا، على ما نعتقد، مع وضع اليونان الراهن. فهم أنشأوا، بعد انفصالهم عن إسبانيا، كونفدراليَّة من سبع مقاطعات، ورفعوا السلاح بوجه الطغيان، وانتزعوا لأنفسهم منطقةً مستقلَّة عن كلِّ الدول، وشكَّلوا في غضون ذلك حكومة موحَّدة مكوَّنة من نوَّاب منتَخبين عن كلِّ مقاطعة»[17].

كان من المقدَّر أن تبقى كلُّ هذه الخطط والأفكار حبرًا على ورق، لولا انتصار شيسما الذي جعل من روسيا سيِّدة الأرخبيل في تموز/يوليو 1770. وعلى الرغم من أنَّ فشل اقتحام الدردنيل والاستيلاء على قلعة جزيرة ليمنوس أظهرا أنَّه من الصعوبة بمكان الاستيلاء على أراضٍ قاريَّة بالقوَّة المتاحة، فقد كان من الممكن – مع ذلك – إقامة قواعد وإجراء الاختبارات في صدد بناء الدولة على **العديد** من جزر الأرخبيل، وليس على **جزيرة واحدة في ذاك البحر** فحسب.

لم تتلقَّ قيادة الحملة الروسيَّة، على ما يبدو، أيَّ تعليمات واضحة من بطرسبورغ، توضِّح كيف ينبغي أن يكون «الاتحاد» الدولتي متمتِّعًا بـ «هيكل كامل». ولذا، كان لا بدَّ من المغامرة بإنشاء كيان على الأراضي المحرَّرة من الأتراك، من طريق التجربة والخطأ ومن دون خطَّة مُعَدَّة مسبقًا.

يمكن اعتبار بناء الدولة في الأرخبيل بمثابة تجربة فريدة من نوعها[18]،

---

(17) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г.Орловым-Чесменским, 1770-1773, in: *Русский архив*, 1880, III (2), с. 230.

[مراسلات الكونت ن. إ. بانين والكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، 1770–1773، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، III (2)، ص 230].

(18) جدير بالذكر أنه ظهر حينذاك مشروع بيليشتاين لإقامة جمهوريَّة على الأراضي المنتزَعة من الأتراك، في أراضي مولدافيا وفالاشيا على الدانوب، شبيه بمشروع سبيريدوف. فقد استند بيليشتاين =

تُمكِّن قادة الحملة من الظهور خلالها بمظهر الرعايا المخلصين، الذين يضحون من أجل دولة كاترينا العظمى، ويسعون إلى تجسيد مثال تنويري مزعوم، على النحو الذي كانوا يفهمونه. أمَّا برنامج الأعمال فقد كان جديًّا وكبيرًا، إذ تعيَّن في ظروف الحرب:

- تحديدُ نمط نظام الدولة للكيان الجديد، وصوغ نظام المعايير التشريعيَّة؛

- إنشاءُ إدارة مركزيَّة ومحليَّة فاعلة؛

- تنظيمُ قوَّات الدفاع الذاتي المسلَّحة؛

- استكشاف موارد دولة «الجزر» الاقتصاديَّة، ووضع نظام ضريبيٍّ معتدل؛

- أخذ دور الكنيسة ورجال الدين بعين الاعتبار، وكذلك تعايش الطائفتين (الأرثوذكسيَّة والكاثوليكيَّة) على الجزر، ووضع شكل مقبول للتعاون بين السلطتين الزمنيَّة والروحيَّة؛

- البدءُ بتطبيق سياسة ثقافيَّة تنويريَّة ترمي إلى تنشئة جيل جديد متنوِّر من يونانيِّي الأرخبيل؛

- وأخيرًا، بناءُ عاصمة للدولة الجديدة على جزيرة باروس، مكان قرية الصيادين الصغيرة في آوزا، بحيث ينبغي أن تكون حاليًّا ومستقبلًا قاعدةً للأسطول الروسي في الأرخبيل.

أقامت روسيا في حوض البحر المتوسِّط، خلال الفترة الواقعة بين عامي 1770 و1774، دولة خلف البحار أول مرة في تاريخها، وأمَّنت لها الحماية والرعاية ودرَّبت سكَّانها على الإدارة الذاتيَّة. وعلى الرغم من أنَّ هذه الدولة لم تعش إلا أربعة أعوام، فقد جمعت هذه التجربة بين المقاربة الطوباويَّة

= أيضًا إلى تجربتي جمهوريَّة البندقيَّة والأراضي المنخفضة، لكنَّ مشروعه ظلَّ حبرًا على ورق أيضًا، في حين بُذلت جهود جديَّة في الأرخبيل لتحقيق المشروع على الأرض. ونحن نعرب عن شكرنا لسترويف أ. ف. الذي لفت نظرنا إلى هذا التشابه. يُنظر بخصوص مشروع بيليشتاين: A. Stroev & I. Mihaila, *Ériger une république souveraine, libre et indépendante: Mémoires de Charles-Léopold Andreu de Bilistein sur la Moldavie et la Valachie au XVIIIe siècle* (Bucarest: Editure Roza Vânturilor, 2001).

والحساب الدقيق، وبين الفعل العسكري والعمل الإنساني في آنٍ واحد. وقد شهد التاريخ الروسي تجربةً مماثلةً في حوض البحر المتوسِّط بعد ثلاثة عقود، حين شارك ف. ف. أوشاكوف في إنشاء الجمهوريَّة الأيونيَّة (1800-1807)[19]. غير أنَّ الفترة التي فصلت بين إمارة الأرخبيل ذات الأربعة أعوام، وجمهوريَّة الجزر السبع ذات الأعوام السبعة، شهدت هبوب رياح الثورة الفرنسيَّة التي جعلت الجزر الأيونيَّة أكثر استعدادًا لتقبُّل مشروع كهذا.

خلافًا للجمهوريَّة الأيونيَّة، لم تحظَ تجارب بناء الدولة في الأرخبيل بما تستحقُّه من اهتمام المؤرِّخين[20]. وبغية سدِّ هذه الثغرة، سنحاول إلقاء نظرة استعاديَّة على المراحل الأساسيَّة في تحقيق هذا المشروع غير المسبوق.

## جمهوريَّة، أرشيدوقيَّة،
## أم «مدينة الشمس»، مدينة أورلوف وسبيريدوف

امتدَّت المرحلة التحضيريَّة لإنشاء إمارة الأرخبيل طوال خريف وشتاء عامي 1770 و1771.

كان سكَّان جزيرتي سكوبيل (سكوبيلوس، على مقربة من الطرف الشمالي الشرقي لإيفبا) وإيستراتا (أيوس إيستراتيوس التي تبعد 30 كلم إلى الجنوب من ليمنوس)، أول من توجَّه إلى أ. غ. أورلوف في الخريف، مُعربين عن استعدادهم لتنفيذ أوامره. ففي الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر 1770، كتب أعيان جزيرة سكوبيل: «صاحب السعادة، فليحفظكم نور الرب، ولينصركم على العدو سنين

(19) А. М. Станиславская, *Политическая деятельность Ф. Ф. Ушакова в Греции* (М., 1983), с. 127-179.

[أ. م. ستانيسلافسكايا، نشاط ف. ف. أوشاكوف السياسي في اليونان (موسكو، 1983)، ص 127-179].

(20) يشكل كتاب غ. أ. غريبينشيكوفا (أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث)، استثناء من ذلك. ولكنه تضمَّن عدم دقَّة وهفواتٍ كبيرة.: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007).

[غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)].

طويلة. ما إن سمعنا باسم سعادتكم وبمجيئكم لنصرتنا، وأننا في حمى صاحبة الجلالة، شكرنا الربَّ لأنه جعلنا شهودًا على ذلك، ونودُّ نحن، جميع الشيوخ، المجيء والانحناء أمام سعادتكم، غير أنَّ الرياح غير مؤاتية، ولذا ها نحن ذا نرسل واحدًا منَّا موفدًا من الجميع، لينحني أمام سعادتكم، ونرسل لكم أيضًا كعكًا وفاكهة، ومستعدون لإرسال كلِّ ما ترغبون به. إنَّنا ننحني أمام سعادتكم. جميع الشيوخ والآخرون ينحنون أمام سعادتكم»[21]. أمَّا سكَّان إيستراتا، فقد كانوا أوضح بطلبهم الرعاية في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1770، حين علموا بانسحاب الروس من ليمنوس: «نناشدكم شمول جميع سكَّان جزيرة إيستراتا الفقراء، رجالًا ونساءً وأطفالًا من دون استثناء، برعايتكم، وتخليصهم من الأتراك»[22].

من المرجح أنَّ أ. غ. أورلوف وقَّع قبيل مغادرته الأرخبيل في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1770 نداءه «إلى جميع جزر الأرخبيل» استجابةً لهذه الرسائل. وقد افتتحه بوصفه بيانًا ساميًا، متوَّجًا بالصيغة الآتية: «نحن ألكسي أورلوف، الجنرال المفوَّض من حضرة صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة كاترينا الثانية، إمبراطورة عموم الروسيا، سيِّدة الأرخبيل وغيرها وغيرها وغيرها...». وتكرَّرت هذه الصيغة مرارًا في ما بعد، في كل مرَّة توجَّه فيها أورلوف إلى سكَّان هذه المنطقة. «أمر» أ. غ. أورلوف سكَّان كلِّ الجزر قائلًا: «يجب أن تكونوا مستعدين كامل الاستعداد للامتثال لتوجيهات صاحب السعادة غريغوري سبيريدوف، أميرال الأسطول الروسي الموجود في الأرخبيل، وهو سيصدر الأوامر إليكم، وعليكم تنفيذها دون تلكُّؤ، وإذا تمنَّعتم عن تقديم الطاعة، فستتعرَّضون للعقاب من دون رحمة». إضافةً إلى ذلك، أصدر أورلوف أيضًا أمرًا يقضي بطاعة «الكونت جوان فوينوفيتش»، الذي عُين حاكمًا إداريًّا روسيًّا على الجزر[23].

---

(21) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 4.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 4].

(22) المرجع نفسه، الورقة 5.

(23) المرجع نفسه، الورقة 7–8.

كان تأمين جباية الإتاوة من الجزر، والاستعلام عمّا يُنتجه سكّانها لأنفسهم وللبيع، وبناء الأفران فيها لتحضير الخبز والخبز المجفف، والتزوُّد بالخشب لأعمال صيانة السُّفن، هو على الأرجح، أول ما كان على غ. أ. سبيريدوف وإ. فوينوفيتش القيام به، وفقًا للخطَّة المتَّفق عليها مع أورلوف. ولم يكن الحديث قد بدأ، على ما يبدو، عن نيَّة منح سكّان الجزر الجنسيَّة وتغيير نظام



الأميرال غريغوري سبيريدوف

الإدارة فيها. فوُزِّعت استمارةٌ احتوَت عشرة أسئلة في الأرخبيل، كان من شأن الإجابة عنها توضيح حقيقة الوضع في الجزر. وعند وصول الأسطول إلى موانئ جزيرة باروس، تلقَّت القيادة إبَّان الفترة ما بين كانون الأول/ ديسمبر وآذار/ مارس معلوماتٍ مفصَّلةً عن عدد السكّان والتَّحصينات والإتاوات والسِّلع والمواد الغذائيَّة التي تُنتج فيها[24] من أعيان الجزر (أندروس، تينوس، ميكونو، زيا، تيرميا، سيفانو، نيا، سيتشينو، بوليكاندرو، سيرفوس، باروس، أنتيباروس، ناكسيا، سانتورين، سيرا، تشيميلو، كيمولوس، أنانفي، أمورتو، ميلوس).

(24) المرجع نفسه، الورقة 37-50، 98. فعلى سبيل المثال، أفاد الكاهن الأول والأعيان في باروس أنه يوجد على الجزيرة: «مدينتان وخمس قرى، فيها أربعون مطحنة هوائيَّة وأربع مطاحن مائيَّة، من بينها ثلاث غير صالحة للعمل، وسبعمئة وعشر أسر». يحصل السكّان على دخلهم من القمح ونبيذ العنب وبيع الحمص والورق (القطن) وثمار النبيذ (التين). وهم كانوا يدفعون الجزية للقوبدان باشا. وأمّا الخشب المتوفِّر لديهم «فمخصص للاستعمال المنزلي حطبًا، وأمّا خشب البناء فيجلبونه من أماكن أخرى. وهم يدفعون جزية مقدارها 8250 قرشًا في السنة، ترسل في كانون الثاني/ يناير إلى القسطنطينيَّة ونصفها الثاني إلى بورتو تريو»، عندما يصل إليها أسطول القوبدان باشا؛ «ويدفعون، إضافة إلى ذلك، 1350 قرشًا لمائدة الباشا وحاشيته» (الورقة 47).

يمكن الافتراض أنَّ غ. أ. سبيريدوف بدأ يفكِّر في هذه المرحلة بالذات، بتنظيم الأمور في الأرخبيل على المدى البعيد. وقد كوَّنت لديه الإجابات التي حصل عليها من أعيان الجزر الذريعة الشكليَّة للطلب من أربعة عشر منهم الاعتراف العلني بالتبعيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة، وذلك في الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير 1771. وبدأت رسالة الأميرال الموقَّعة على السفينة «أوروبا» على جزيرة باروس بالتطرُّق إلى الموضوع المحبَّب المتعلِّق بصلة قربى اليونانيين الأبطال القدامى بأحفادهم المعاصرين: «إذا كانت لديكم روح أسلافكم اليونانيين القدماء ونبلهم، فقد حانت لحظة التحرُّر من نير الهاجريِّين الذين استعبدوكم طويلًا... وإذا ما أردتم الاعتماد حقًّا على حماية سلاحنا والانعتاق من العبوديَّة والتبعيَّة لهم واستعادة حريتكم اليونانيَّة العريقة المجيدة، فعليكم التخلُّص الآن، علنًا ومن دون خوفٍ أو تردُّد، من التبعيَّة التركيَّة والعبوديَّة للأتراك... ومنعهم من دخول جزركم». وما لبث أن سمح سبيريدوف لسكَّان الجزر بتشكيل فصائل للدفاع الذاتي في وجه الأتراك، وأخذ على عاتقه مهمَّة الدفاع عن الجزر، واعدًا بعدم فرض إتاوات مفرطة (وأكَّد خصوصًا: «لا أنا، سبيريدوف، ولا أورلوف، ولا أحد من الضباط، نرغب في شيءٍ لأنفسنا.. نحن لن نأخذ شيئًا». كما طلب من أهالي الجزر مرارًا في ما بعد عدم تكبيد أنفسهم عناء تقديم الهدايا). وأكَّد الأميرال لأعيان الجزر الأربع عشرة في نهاية الرسالة أنَّ مرحلة الخضوع للقيادة الروسيَّة ستليها حقبة نيل الحريَّة، وربَّما الاستقلال، إذا ما توسَّم العسكريون الروس في السكَّان «الغيرة الواضحة والرغبة في نيل الحريَّة؛ وهي ستتحقَّق بنعمة الله في القريب العاجل. إرادة... صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة الأموميَّة السَّامية الرحيمة... (تجاهم - المؤلفة)»[25]. وجدير بالذكر، أنَّ «**إرادة الإمبراطورة الروسيَّة ... الأموميَّة السامية**» تجلَّت بالنسبة إلى سبيريدوف، في هذه المرحلة بالتحديد، في منح جزر الأرخبيل «الحريَّة»، وليس في ضمِّها إلى إمبراطوريَّة كاترينا.

من المهمِّ الإشارة أيضًا إلى أنَّ جزر هيدرا وسكوبيلوس وأيوس إيستراتيوس التي أعربت عن رغبتها في خدمة روسيا، لم تَرِدْ في قائمة الجزر

(25) المرجع نفسه، الورقة 76 - ظهر الورقة 76. إصدار جزئي: Гребенщикова, с. 339-340. [غريبينشيكوفا، ص 339-340].

التي اقترح سبيريدوف توحيدها في إمارة الأرخبيل. فمن المحتمل جدًّا أنَّ غ. أ. سبيريدوف قرَّر في شتاء عام 1771 الاكتفاء بالجزر الصغيرة من بين «كل جزر» الأرخبيل، أي تلك التي لم يكن فيها تقريبًا سكَّان أتراك ولا قلاع تركيَّة. كما «طلب الرئيس الآمر على الجزر» إيفان فوينوفيتش بدوره من الأميرال عدم تسريع إشهار عددٍ كبيرٍ من الجزر ولاءها للإمبراطورة الروسيَّة، فكتب في السادس عشر من كانون الثاني/ يناير 1771 إلى سبيريدوف يقول: «إنَّ أهالي جزر الأرخبيل الخاضعين لسلاح صاحبة الجلالة <...> يطالبون بالخبز يوميًّا، وهم يمكنهم أن يرتكبوا المجازر إذا لم يصل إليهم الخبز من مورية عبر جزيرة هيدرا التي تقوم بدور الوسيط بين مورية وبقيَّة الجزر. هذا ما سيحدث حتمًا حالَ إعلان هيدرا ولاءها لروسيا». وطلب فوينوفيتش تأجيل منح الجنسيَّة لسكَّان الجزر «كي لا يُمنعوا من قِبلنا من التعامل مع العدو وخداعه، وهو ما يحسنون فعله لحماية أنفسهم، <...>، ويكفي أن يبقوا في سريرة أنفسهم موالين مخلصين لنا، وهذا ما آمله منهم»[26]. ولم يستعجل سبيريدوف لاحقًا توسيع حدود إمارة الأرخبيل، بالرغم من استمرار وُرود طلبات إلى ديوانه أحيانًا تتوسَّل «الانضواء تحت كنف الدولة» و«الحماية من النهب»[27].

بعد مضي شهر على الرسالة الموجَّهة إلى أعيان الجزر الأربع عشرة، أخذت تصل إلى غ. أ. سبيريدوف، ابتداء من 13 شباط/ فبراير 1771، إجابات من كبار رجال الدين والأعيان في صدد «منح جزيرتنا ومنحنا الجنسيَّة»[28]. وعندما وجَّهت ثماني عشرة جزيرة في الأرخبيل، في نهاية شهر شباط/ فبراير 1771، رسالة إلى إمبراطورة عموم روسيا «تتوسَّل» فيها «وضع الأرخبيل التعيس تحت

---

(26) المرجع نفسه، الملف 2، الورقة 10أ، وأيضًا: Тарле, Е. В. «Чесменский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг (1769-1774),» in: Е. В. Тарле, *Сочинения*, t. 10 (М., 1959), с. 71.

[ي. ف. تارلي «معركة شيسما والحملة الروسيَّة الأولى في الأرخبيل (1769–1774)»، في: ي. ف. تارلي، **المؤلفات**، مج 10 (موسكو، 1959)، ص 71].

(27) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 207об., 211-212.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، ظهر الورقة 207، 211–212].

(28) Гребенщикова, с. 341.

[غريبينشيكوفا، ص 341].

الحماية والرعاية الأبديَّة»[29]، أعلن سبيريدوف «إمارة الأرخبيل الكبرى» من مجموعة الجزر هذه، المؤلَّفة من ثماني عشرة إلى عشرين جزيرة صغيرة.

في شباط/ فبراير 1771، أرسل سبيريدوف تقريرًا مسهبًا إلى بطرسبورغ، عرض فيه أفكاره حول فائدة جزر «ذاك البحر»: «في ما يتعلَّق بضمِّ اليونانيين القاطنين في الجزر العشرين إلى التابعيَّة الروسيَّة **بسلام**، أرى أنَّ هذا ينطوي على أهميَّة كبرى: **أولًا**، لأنَّ بسط ملكتنا المعظَّمة سلطتها على إمارة الأرخبيل الكبرى في الأرخبيل اليوناني، من نيغروبونتي إلى الأناضول، من شأنه أن يرفع راية ملكتنا المعظَّمة عاليًا؛ **ثانيًا**، سيتضاعف أيضًا مجد صاحبة الجلالة إذا ما بقيت هذه الجزر في **ظلِّ السلم** أو مُنِحَت حريَّتها في حوزة ملكتنا المعظَّمة؛ **ثالثًا**، إذا ما **'بقيت هذا الجزر في ظروف السلم** تحت سلطتنا، فستقفل سفننا مداخل البحر المتوسِّط ومخارجه أمام السُّفن العسكريَّة والتجاريَّة التركيَّة المعادية، امتدادًا من نيغروبونتي ومورية وصولًا إلى آسيا الصغرى، ومن كانديا[30] ومصر إلى سيرنا وسالونيكي والقسطنطينيَّة؛ **رابعًا**، لدينا الآن مكان احتشاد عسكريٍّ حصين في جزيرة باروس وميناء آوزا... وأقول هنا إنَّنا لو بعنا هذه الجزيرة مع ميناء آوزا وأنتيباروس للإنكليز أو الفرنسيين، فسيدفعون أكثر من مليون تشيرفونيتس[31] ثمنًا لها، على الرغم من حيازتهم موانئهم في

---

(29) И. М. Смилянская, М. Б Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, c. 605.

[إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 605 (الطبعة الروسيَّة)].

(30) **كانديا**: مملكة كانديا (Regino di Candia)، أو دوقية كانديا (Ducato di Candia)، وهو اسم جزيرة كريت الرسمي خلال حقبة سيطرة البندقية عليها (1205-1212)؛ حيث انتقلت بعدها إلى السيطرة العثمانيَّة. وكانت مدينة كانديا (إيراكليون المعاصرة) عاصمة للمملكة. (المترجم)

(31) **تشيرفونيتس**: عملة ذهبيَّة روسيَّة من فئة العشرة روبلات. في عهد بطرس الأول سُكَّت القطع النقديَّة الذهبيَّة الأولى وسُمِّيَت تشيرفونيتس، وتعني باللغة الروسيَّة القديمة الذهب الخالص. كانت تزن في حينها 3.47 غرامات من الذهب من عيار 986. توالى سكُّها بقيم مختلفة في عهود القياصرة اللاحقين. وفي عهد القيصر نيقولاي الثاني، آخر القياصرة الروس، سُكَّ تشيرفيونتس جديد بقيمة 5 و7 و10 روبلات ذهبيَّة من عيار 900. كان وزن القطعة من فئة العشرة روبلات 8.6 غرامات. أمَّا في العصر السوفياتي، وبالتحديد في عام 1922، صدرت أوراق نقديَّة من فئات مختلفة، وكانت تغطية وحدة التشيرفونيتس الذهبيَّة تعادل 7.74 غرامات من الذهب الخالص. (المترجم)

البحر المتوسِّط»[32] (التشديد من المؤلفة). وهكذا، نرى أنَّ إمارة الأرخبيل، المشمولة **بالجنسيَّة الروسيَّة**، لم تكن بالنسبة إلى سبيريدوف أكثر من رأس جسر عسكريٍّ **مؤقت** وورقة في مفاوضات السلام أو موضوعًا لصفقة رابحة، حتَّى في أكثر مراحل حملة الأرخبيل نجاحًا. أمَّا امتلاك إمارة الأرخبيل على المدى البعيد فقد كان يرى فيه احتمالًا ضبابيًّا للغاية.

جدير بالذكر أنَّ أ. غ. أورلوف الذي سارع إلى بطرسبورغ في آذار/ مارس 1771 لحضور اجتماع مجلس البلاط السَّامي، قبل أن يعلم بإنشاء سبيريدوف إمارة الأرخبيل، أعرب عن فكرة غريبة بالنسبة إلى قائد مشروع مظفَّر: «فهو يعتبر الجزر التي استُولِيَ عليها في الأرخبيل غير ذات فائدة ومُكلفة جدًّا: غير ذات فائدة لأنَّها لا تضع حدًّا للحرب مع الأتراك، لا بل تطيل أمدها وتزجُّنا في نزاعات مع المناطق المسيحيَّة أيضًا؛ ومُكلفة لأنَّه لا يوجد مرفأ واحد على أيٍّ من جزر الأرخبيل لا يحتاج إلى تحصينات وقوات كبيرة للذود عنه، ولأنَّ هذه التحصينات ستكبِّدنا تكاليف باهظة، وستؤول إلى الأتراك في نهاية المطاف»[33]. وصل نبأ من سبيريدوف، لكنَّ الإمبراطورة طاب لها الاستيلاء على مناطق في حوض البحر المتوسِّط. وبالفعل، صارت منذ الآن تطلق على نفسها لقب «أميرة الأرخبيل»، مثلما كانت سابقًا تسمِّي نفسها على سبيل المزاح «أميرة مولدافيا»، بعدما أقسم سكَّان ياس يمين الولاء لها في أيلول/ سبتمبر 1769. وأوضحت كاترينا لاحقًا، عند مناقشة المطالب الروسيَّة أثناء عقد الصلح في 17 آذار/ مارس 1771، أنَّها «تريد امتلاك الجزر هناك بالدرجة الأولى، كيما يرى الأتراك **علامات التفوُّق عليهم الذي حقَّقناه في هذه الحرب** أمام أعينهم دائمًا، وحتَّى يكونوا أكثر اعتدالًا في سلوكهم حيالنا، وكذلك لممارسة تجارتنا هناك وتحقيق المنافع لبحارتنا؛ لكنَّ جلالتها لا تريد أن تكون هذه الرغبة عائقًا أمام إحلال السلام»[34]. وكتبت الإمبراطورة إلى

---

(32) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 655-656.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 655-656].

(33) *АГС*, с. 370.
[أرشيف مجلس الدولة، ص 370].

(34) المرجع نفسه، ص 372.

ن. إ. بانين، في «رأيٍ موجزٍ وأوّلي عن بنود السلام»، عن رغبتها في «**احتفاظ** روسيا بمرفأ أو اثنين على الأقل في اليونان مع أقضية، أو جزيرة أو جزيرتين. أمّا بقيّة الأراضي المُستَولى عليها فتُمنح حريّة اختيار نوع الحكم الذي تريده مع تمتُّعها **بالحماية** الروسيّة. وأمّا الممتلكات الروسيّة في حوض البحر المتوسِّط فينبغي الإبقاء على حاميات فيها، وإرسال ثلاث أو أربع سفن حربيّة كل سنة إليها لتحلَّ مكان الثلاث الموجودة حاليًّا، على أن تنقل التجار معها ليتمكّنوا من بيع سلعنا مباشرة، سواء في المشرق أو في إيطاليا وغيرها»[35] (التشديد من المؤلفة).

فكما نرى، كانت الأهداف التجاريّة مجرَّد ملحق للأهداف العسكريّة. فقد كانت الإمبراطورة تعتزم إقامة قاعدة عسكريّة - بحريّة على البحر المتوسِّط، وتلبية لرغبتها لم تتوقَّف أعمال البناء في إمارة الأرخبيل ابتداء من عام 1771، وحتَّى عقد صلح كوتشوك - كاينارجي في عام 1774.

فيما كانت تجري في بطرسبورغ نقاشات في صدد كيفيّة الإنفاق على «الممتلكات الروسيّة»، واصل الأميرال سبيريدوف تسريع العمل الآيل إلى تأسيس هيكليَّة الإدارة في الأرخبيل، من دون أن يكون على بيِّنة من محتوى النقاشات وما خلصت إليه من نتائج. فطلب انتخاب ثلاثة نوَّاب عن كل جزيرة ليأتوا إلى باروس بغرض «التوقيع على التزامهم الخدمة». وممَّا شملته واجباتهم جبابة «عُشر المواد الغذائيّة» جزيةً، وتَسَلُّم مهمَّات الإدارة في الجزر، والحكم على المرتكبين «والاقتصاص منهم باستثناء الحكم بالإعدام» (كان ينبغي تقديم تقارير لسبيريدوف تتعلّق بأحكام الإعدام)[36]. وكان على الأهالي

(35) Письма и записки императрицы Екатерины Второй к графу Никите Ивановичу Панину, с. 116.

[رسائل ومذكرات الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى الكونت نيكيتا إيفانوفيتش بانين، ص 116].

(36) على سبيل المثال، اعتقل اليوناني نيقولاي تيرلييف (في كتابات أخرى، ديرير) في جزيرة ميلوس عام 1771، حينما «حاول اغتصاب امرأة» ليلًا. وبما أنها لم تستسلم له فقد «أخذها عنوة» وأوقعها أرضًا وقتلها. اقتيد المتَّهم من ميلوس إلى آوزا، حيث حاكمه النائب الأول أ. بسارو ومسؤولان في الديوان بآوزا والكاهن ماتفي، وحكموا عليه جميعًا بالإعدام. وفي الثامن من أيار/مايو 1771 تقرَّر الإعلان عن ذلك في كلِّ الجزر: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 109-110. =

«احترام نوابهم وطاعتهم» وعدم مغادرة الجزر من دون علمهم وإطلاعهم على كل مراسلاتهم[37].

على ما يظهر، جاء النوَّاب المُنتَخبون إلى الأميرال سبيريدوف في شباط/ فبراير - آذار/ مارس (الوثيقة غير مؤرَّخة) حاملين التماسًا يتضمَّن من حيث الجوهر شروط انضمام الجزر إلى إمارة كاترينا الثانية في الأرخبيل. وقد وافقوا على ما يأتي: 1) أن يكون «سكَّان جزرهم المذعنون» تحت **الرعاية** الروسيَّة، وأن يحظوا بالحماية من الأعداء؛ 2) أن يكونوا «**رعايا** لملكة روسيا العظمى»، يمتثلون لأوامرها ويتخلَّصون من نير... البرابرة إلى الأبد»؛ 3) أن يُطلب من الكونت أ. غ. أورلوف «أن يغفر لهم هفواتهم غير المقصودة»، و«يرعاهم بوصفهم رعايا مخلصين لسيِّدته كاترينا المجيدة العظيمة»؛ 4) أن يؤكَّد التمايز الاجتماعي في مجتمعهم: «فصل الفئات العليا عن الدنيا، لما فيه مصلحة عامة، أكان للأسطول أم لمجتمعنا»؛ 5) عدم طلب إتاوات أكبر ممَّا تستطيع الجزر تحمُّله، بل أكثر من ذلك، إذ أعرب النوَّاب عن استعدادهم لدفع الإتاوة، فقد رأوا من الضروريِّ تكرار التأكيد أنَّ «هذه المبالغ» تُدفع لقاء تأمين الحماية («للإنفاق على بعض القوَّات التي [يمكن] أن تؤمن لنا الحماية من غزوات الأعداء والمجرمين»)[38].

ليس من الواضح تمامًا كيف رأى النوَّاب اليونانيون ومترجمهم الفارق بين «الرعاية» الروسيَّة و«التابعيَّة» في عرف كاترينا. لكنْ، من البدهيِّ بما لا يدع مكانًا للشك في أنَّ سكَّان الجزر سعوا إلى الاستحصال لأنفسهم على حيِّزٍ أكبر

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 109-110]. يُنظر أيضًا: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 168об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 168]. (حيث ورد أيضًا أنه جرى نقل المتَّهم بالقتل إلى آوزا).

(37) يُنظر، على سبيل المثال، الإفادة التي وقعها ثلاثة نوَّاب عن جزيرة باروس في 25 كانون الثاني/ يناير 1771: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 53-53об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 53 - ظهر الورقة 53].

(38) المرجع نفسه، الورقة 52 - ظهر الورقة 52.

**من الحريات بالمقارنة مع ما كان يتمتَّع به المواطنون في الإمبراطوريَّة الروسيَّة.** وقد قبلت قيادة حملة الأرخبيل بهذه الشروط، إدراكًا منها للطابع المؤقَّت لوجودها، ولضرورة تقرير مصير الجزر لاحقًا على مستوى أعلى.

في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير 1771 عَيّن سبيريدوف ابن جزيرة ميكونوس الملازم في الأسطول الروسي أنطون بسارو «نائبًا عامًا» (حتَّى قبل أن يتلقَّى الإجابات من الجزر!)، وطلب إيفاد شخص واحد عن كل جزيرة ليكونوا جميعًا في عداد مساعدي بسارو[39]. وسرعان ما لقي تعيين بسارو، «ذي التربية النبيلة»، الموافقة من «جميع شيوخ» الجزر الأربع عشرة[40]. وفي آذار/مارس 1771، أُرسل بسارو «نائب جزر الأرخبيل التي صارت تحظى بالجنسيَّة» مزوَّدًا بحراسة شديدة على متن «سفينة حربيَّة صغيرة»، ليطوف على الجزر «وكي يتأكَّد يونانيُّو الجزر من أنَّنا ندافع عنهم ونحميهم من الأعداء باعتبارهم رعايا لملكتنا العظيمة»[41].

كانت الرسائل التي وزعها بسارو على الجزر تبدأ على النحو الذي استُهِلَّت به الرسالة الموجَّهة إلى جزيرة سيروس، على سبيل المثال: «تحيَّاتي لكم، سنادكة[42] سيرا الأجلاء! هل أنتم أحياء أم أموات؟ **لِمَ لَمْ تعلنوا عن**

---

(39) المرجع نفسه، الورقة 85.

يذكر الباحث الفرنسي المعاصر أ. بلوندي خبر قنصل فرنسا في تريستا عن بسارو، الذي يقول فيه أن «اليوناني من ميكونو» بسارو، كان شخصًا بسيط المظهر، قصير القامة، ولكنه حكيم وعاقل، صريح ونزيه: A. Blondy, *L'Ordre de Malte au XVIII^e siècle. Des dernières splendeurs à la ruine* (Paris, 2002), p. 257.

(40) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 188-188об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 188 - ظهر الورقة 188].

حملت الوثيقة تواقيع شيوخ (سنادكة) جزر ناكسيا، باروس، نيا، أندروس، تينوس، زيا، فيرميا، كيمولوس، سيفنوس، سيرفوس، بليكاندروس، سانتورين، ميكونو، أنتباروس.

(41) المرجع نفسه، المجموعة 44، ظهر الورقة 37. حول مسؤوليات أ. بسارو وعلاقاته مع سنادك الجزر. يُنظر: Π. Ν. Κοντογιάννης, *Οι Έλληνες κατά τον πρώτον επί Αικατερίνης Β' Ρωσσοτουρκικόν πόλεμον 1768-1774* (Αθήνα, 1903), Σελ. 235.

(42) جمع سندك (syndic): في اليونان قديمًا العمدة، أو عضو المجلس البلدي. (المترجم)

أنفسكم حتَّى الآن؟ أنا لم أتلقَّ أيَّ خبرٍ منكم إطلاقًا، ماذا أنتم فاعلون؟ وهل وصلتكم الرسائل التي وجَّهتها إليكم؟ في أيِّ حال، لا يعجبني هذا الأمر، وبما أنَّكم نائمون، فلا بدَّ أن تستيقظوا، وإلا نهضنا نحن لأمر إيقاظكم...»[43].

تبيِّن رسائل بسارو المحفوظة في أرشيف الجزر أنَّ دائرة مسؤولياته كانت واسعة جدًّا. فقد كان يهتمُّ بجباية ضريبة «العُشر»، وبتحضير الخبز المجفَّف للأسطول، وبإجراء انتخابات السنادكة في حينها، وبغير ذلك[44]. ووظَّف شقيقه بطرس مساعدًا له في المجلس[45].

في غمرة عمله المحموم لبناء إمارة الأرخبيل، لم يتوقَّف غ. أ. سبيريدوف أمام إقامة مشروع واسع لكيانٍ دولتيٍّ مثاليٍّ من وجهة نظره[46]. كان بوسعه، من دون شكٍّ، الاسترشاد بتوجيهات الإمبراطورة حول إقامة «هيكل يوناني كامل»، والأخذ بأفكار أورلوف المتعلِّقة بإنشاء دولة يونانيَّة تحت رعاية روسيَّة بالاعتبار[47]. لكنْ، تبدو جليَّةً أهميَّةُ مشروع سبيريدوف المستقلَّةُ، الذي أقيم على الأرجح بين شهري شباط/ فبراير وحزيران/ يونيو 1771، وحتَّى عودة أ. غ. أورلوف وبداية الحملة الصيفيَّة.

---

(43) K. Στέφανος, *Ανέκδοτα έγγραφα αποσταλέντα προς τους κατοίκους των Κυκλάδων κατα την υπο των Ρώσων κατοχήν* (Ἀθήνησιν, 1878), Σελ. 36.

(44) المرجع نفسه، ص 36-38.

(45) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 5, Л. 427.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 5، الورقة 427].

(46) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 171-184.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 171-184].

(47) في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1768 عرض أورلوف على مجلس البلاط السامي «فكرة معينة» بإنشاء «مؤسَّسة لتحرير الشعوب اليونانيَّة»، الأمر الذي تطلَّب جمع الأموال، بحيث (يُستخدم رأس المال المجمَّع لتجسيد هذه الفكرة، بعد تقسيمه إلى قسمين: **الأول** يُسمَّى يغورسكي، **والثاني** نيقولايفسكي»)، وإذا نجحت الخطَّة، توضع «هذه الشعوب تحت حماية روسيا، فتنشأ فيها طبقة من الملَّاكين تُترك لهم حريَّة الخيار»:

*АГС*, Стб. 357.

[**أرشيف مجلس الدولة**، العمود 357].

لا بدَّ من الاعتراف أنَّ هذه الخطَّة تبدو هلاميَّة جدًّا على النحو الذي طُرحت به.

إنَّ ما دفع الأميرال إلى وضع الوثيقة هو الأسئلة التي طرحها رجال الدين الأرثوذكس في الجزر في 14 شباط/ فبراير 1771، بشأن الفصل بين القانونين الكنسي والزمني ومستقبل النظام السياسي في أراضيهم. ولكنَّ غ. أ. سبيريدوف صاغ في المحصِّلة ما يشبه «مشروع تعليمات» للنواب ورجال الدين في جزر إمارة الأرخبيل[48].

لا بدَّ من الإقرار بأن «مشروع» سبيريدوف لا يتشابه مع «تعليمات لجنة كاترينا الثانية القانونيَّة»[49] التي عاصرها بطبيعة الحال، بل مع «الخطَّة المؤقتة» المعروفة التي وضعها ف. ف. أوشاكوف بعد 29 عامًا، أي في عام 1799[50]. وينطبق على مشروع سبيريدوف التوصيف نفسه الذي أعطته أ. م. ستانيسلافسكايا لرسائل أوشاكوف عن «خطَّته المؤقتة»، ليس من حيث الهدف المتمثِّل في إقامة دولة يونانيَّة على الجزر برعاية روسيا فحسب، بل من حيث الشَّكل أيضًا: «ثمَّة خلف رسائل الأميرال... فكرة طموح وحيويَّة، على الرغم من أنها غير ناضجة وغير متبلورة وثقيلة من حيث الشَّكل»[51]. يمكننا

---

(48) يُنظر النص الكامل للوثيقة لدى: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 511-516.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 511-516 (الطبعة الروسيَّة)].

(49) المقصود «تعليمات كاترينا الثانية»، وهو بيان من المبادئ القانونيَّة وضعته الإمبراطورة الروسيَّة، عكست فيه أفكار التنوير الفرنسيَّة. وقد جُمع ليكون دليلًا للجنة عموم روسيا التشريعيَّة التي انعقدت في عام 1767 بهدف وضع نظام حديث من القوانين، بديلٍ من نظام قوانين موسكو. اعتقدت كاترينا أنَّ تعزيز القوانين والمؤسسات هو قبل كلِّ شيء تعزيز للنظام الملي. أعلنت التعليمات المساواة بين جميع الرجال أمام القانون ورفض عقوبة الإعدام والتعذيب، وسبقت بذلك ما جاء في دستور الولايات المتحدة والدستور البولندي في ما بعد. ومع أنَّ التعليمات أكَّدت على الحكم المطلق، كان الموقف من القِنَانة أكثر ضبابيَّة، حيث أُعيد صوغ الفصل المخصَّص للفلاحين عدَّة مرات، تبعًا لتطوُّر رؤيَّة كاترينا إلى الموضوع. واللجنة القانونيَّة: هيئات مشتركة مؤقتة في روسيا في القرن الثامن عشر، كانت تجتمع لتنظيم القوانين التي بدأ سريان مفعولها بعد إقرار مجموعة قوانين العام 1649. (المترجم)

(50) *Адмирал Ушаков* (M., 1952), t. 2, c. 520-526.

[**الأميرال أوشاكوف** (موسكو، 1952)، مج 2، ص 520-526].

(51) Станиславская, c. 152.

[ستانيسلافسكايا، ص 152].

فقط محاججة الاستنتاج المترسِّخ في العلم القائل بأنَّ وثيقة قائد الأسطول ف. ف. أوشاكوف الدستوريَّة كانت الوثيقة الأولى التي أتاحت لـ «شعوب الجزر...»، «بعد قرونٍ عديدةٍ»، قول كلمتها حتَّى ولو بشكلٍ ما، عند تقرير الأمور السياسيَّة[52]. ففي رأينا أنَّ **الأسبقيَّة** هي لمشروع قائد الأسطول غ. أ. سبيريدوف وللنشاط الذي عزَّز هذا المشروع.

تتلخَّص المبادئ الأساسيَّة التي عرضها سبيريدوف في ما يأتي:

لا يمكن الجزر الحفاظ على حرِّيتها المُكتَسبة إلا مجتمعةً، لذا ينبغي أن يكون كيان الدولة الناشئ بمثابة **اتّحاد** للجزر، تشكِّل فيه كلُّ جزيرة وحدة إقليميَّة إداريَّة، تتمتَّع بإدارة ذاتيَّة موسَّعة («إنَّ اتِّحاد جزر الأرخبيل العديدة لا يتحقَّق في ظلِّ وجود الأسطول والسلاح الروسيَّين فحسب، بل كذلك بتصدِّي جزره مجتمعةً لكلِّ الأخطار عندما تدعو الحاجة الحربيَّة وعندما ينادي الوطن، الأمر الذي لا تطيقه كلُّ جزيرة أو جزيرتين، ولا يتحقَّق باتِّحاد الجزر وصون حريتها»)[53].

خلافًا لروسيا، التي كان شكل حكمها المطلق بالنسبة إلى كاترينا هو الصيغة الوحيدة الممكنة لحكمها[54]، اقترح سبيريدوف لاتِّحاد جزر الأرخبيل اعتماد نموذج **الجمهوريَّة**، أو **الأرشيدوقيَّة**، وفقًا للنمط المعمول به في البندقيَّة («هل ستكون هذه الجزر أرشيدوقيَّة مثلما كانت قبل فترة طويلة، كما يقال، أو جمهوريَّة مستقلَّة»؟)، ولكنَّه ترك القرار في هذه المسألة الحسَّاسة للملوك الأوروبيين («لعطوف إمبراطوريتنا المعظَّمة السَّامية وللملوك المسيحيِّين الآخرين»)[55]، بما يشي بحصافته.

---

(52) المرجع نفسه، ص 147.

(53) عند المقارنة مع مشروع ف. ف. أوشاكوف، نجد أن ثمَّة تقاربًا كبيرًا بينهما. غير أنَّ أوشاكوف أخذ بعين الاعتبار التناقضات الاجتماعيَّة الجديَّة في المجتمع الأيوني (وربما الأكثر عمقًا ممَّا في المجتمع الأرخبيلي)، فعمد إلى تعزيز دور الأجهزة المركزيَّة في مشروعه، مع الحفاظ على أسس الإدارة الذاتيَّة.

(54) يُنظر: **تعليمات كاترينا**، ص 10–11، 14–16.

(55) أقام أوشاكوف أيضًا «جمهوريَّة» في الجزر الأيونيَّة، لكن تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الجزر =

اقترح سبيريدوف البدء بإنشاء نظام الإدارة باختيار الممثِّلين «المدني الحر»، ليشكِّل «السادة الأجلَّاء شيوخ الجزر أو قضاتها»، «مجلسًا مدنيًّا» في كلِّ جزيرة («كما سبق لهم أن فعلوا في ناكسيا وباروس»)[56].

يشكِّل رجال الدين في الجزيرة من جهتهم أنظمتهم الخاصة بالإدارة الأسقفيَّة، التي أطلق عليها سبيريدوف اسم «مجمع كنسي»، على غرار ما هو معمول به في روسيا (و«سواءٌ أفي الأرشيدوقيَّة أم في الجمهوريَّة، ينبغي أن يكون حتمًا للأساقفة المتنورين عادةً مجالس أو مجمَّعات كنسيَّة مؤلَّفة من قضاة يختارونهم من بينهم، من أصحاب الرتب الدينيَّة، كما هو الأمر في روسيا العظمى تمامًا»).

وإذ أخذ في الحسبان، على ما يبدو، فضل المؤسَّسات الكنسيَّة ودورها في نيل الاستقلال، فقد اقترح سبيريدوف مراعاة **المساواة بين السلطتين الزمنيَّة والروحيَّة**، وعدم تدخُّل إحداهما في شؤون الأخرى («لا يجوز تدخُّل المجلس الروحي في شؤون المجلس المدني، والمجلس المدني في شؤون المجلس الروحي، لأنَّ كلا المجلسين ... متساوٍ، ولا يخضع أحدهما للآخر». لقد وردت هذه المقاربة المثاليَّة من حيث الجوهر في قانون بطرس الأول - فيوفان بروكوبوفيتش[57] الروحي، لكن غالبًا ما أُخِلَّ بها في روسيا (ولم تتمكَّن القيادة الروسيَّة، كما سنرى لاحقًا، من الالتزام بهذه المقاربة المثاليَّة في الأرخبيل).

---

= كانت على امتداد قرون طويلة تابعة لـ «جمهوريَّة» البندقيَّة، وليس للإمبراطوريَّة العثمانيَّة، وأي شكل آخر للحكم لم يكن ممكنًا هناك خلال تلك الفترة.

(56) لم يكتب غ. أ. سبيريدوف رأيه بخصوص الحقوق الانتخابيَّة وقواعد التمثيل لمختلف الفئات الاجتماعيَّة (ربَّما معوِّلًا على العادات السائدة في الجزر، وملتزمًا مبدأ «تقسيمها إلى فئات عليا وفئات دنيا»). وتَعَيَّن على ف. ف. أوشاكوف بذل جهود مضنية لتسوية التناقضات بين النبلاء و«الفئات من الدرجة الثانية» و«الشعب الأدنى»، معارضًا خطط إقامة جمهوريَّة «أرستقراطيَّة» للنبلاء.

(57) **القانون الروحي**: مرسوم أصدره بطرس الأول في عام 1721 لإصلاح الإدارة الكنسيَّة وتنظيم علاقتها بالدولة. أخضع بطرس، بموجب هذا القانون، الكنيسة للدولة، وأنهى دور البطريركيَّة الفرديَّة، فأنشأ مكانها السينودس (المجمع) هيئةً جماعيَّةً لإدارة الكنيسة. وضع مسوَّدة القانون شريكُ بطرس في أفكاره المطران فيوفان بروبوكوفيتش، ثم أدخل القيصر بنفسه تعديلات عليه. وقد حسم بطرس بهذه الوثيقة نهائيًّا مسألة العلاقة بين الكنيسة والسلطة الملكيَّة في روسيا. (المترجم)

أوكلت مهمَّة الدفاع عن دولة الأرخبيل، وفق خطَّة سبيريدوف، إلى فصائل من «الرجال المسلَّحين»، يتوقَّف عددها على «وضع سكَّان كلِّ جزيرة وقوَّتهم». وكان على هولاء «المسلَّحين»، ليس حماية جزيرتهم وتقديم المساعدة لـ«الجزر الحليفة عندما تقتضي الحاجة» فحسب، بل القيام بالوظائف البوليسيَّة أيضًا، أي وظائف «القضاء وتنفيذ الأحكام» و«الحفاظ على النظام السليم... وفقًا للقوانين». لم يدخل الأميرال في جوهر «نظام القوانين السليم»، ولربَّما افترض الإبقاء في تلك المرحلة على الأعراف والعادات السائدة. ويبدو أنَّ سبيريدوف نسخ كليًّا في تلك النقطة الأعراف السائدة في تقاليد الجماعة المحليَّة، ولم يضع تنظيمًا للجيش والشرطة كالذي كانت إمبراطورة روسيا تريد إقراره[58].

كان على جميع العاملين في المجالس والقضاة والعسكريين العيش وفقًا لمراتبهم (ومع أنَّ سبيريدوف لم يحدِّد ماهيتها، إلا أنه لم يكن يتصوَّر «جمهوريته»، على ما يبدو، من دون هرميَّة تراتبيَّة)، والحصول على راتب يتناسب والمرتبة (علمًا بأنه «ينبغي للراتب أن يؤمِّن كلَّ حاجاتهم، كي يكونوا مُكتفين من دون رشى، وكي لا يرتكبوا أيَّ موبقاتٍ يُعاقَب عليها سعيًا وراء مصالحهم الذاتيَّة، وكي يهتمُّوا فقط بإنجاز المهمَّات الموكلة إليهم والقيام بالأعمال المناطة بهم، في أوقاتها من دون تلكُّؤ»). وأكَّد سبيريدوف بإصرار على الفكرة القائلة إنّ الراتب الجيِّد ما هو إلا أداةٌ لمكافحة الفساد[59].

تعمَّد سبيريدوف إدخال بندٍ على مشروعه يتعلَّق بخضوع العسكريين

---

(58) O. A. Омельченко, *«Законная монархия»: Екатерины II* (M., 1993), c. 303-311.
[أ. أ. أوميلتشينكو، «ملكيَّة كاترينا الثانية الشرعيَّة» (موسكو، 1993)، ص 303-311]. يتبدَّى في هذه النقطة فارق جوهري مع «الخطَّة المؤقَّتة» التي وضعها أوشاكوف. فبحسب خطَّته لا يخضع الجيش والشرطة للإدارة المحليَّة في الجزر، كما هو الأمر عند سبيريدوف، بل لمجلس الشيوخ المركزي، الأمر الذي ينسجم كليًّا مع نيَّة أوشاكوف إقامة «دولة موحدة مركزيَّة»: Станиславская, c. 141.
[ستانيسلافسكايا، ص 141].

(59) في مشروع أوشاكوف، على العكس، يؤكِّد أنَّ كل المنتخبين من الإدارات وحتَّى مجلس الشيوخ، يقومون بأعمالهم بلا رجاء.

لـ «القضاة» المنتخبين، خشيةَ تحكُّمهم، فأصدر إليهم تعليمات بضرورة احترام السلطة المدنيَّة والتعامل معها بـ «احترام ولياقة»[60].

اقترح سبيريدوف حصر السلطة العليا في دولة الأرخبيل بمجلس الشيوخ، الذي يُنتدب إليه ممثِّلٌ واحدٌ عن كلِّ جزيرة. وبغية تقليص تكاليف أجهزة السلطة المركزيَّة، يُوفَد مندوب واحد من الجزر الكبرى فقط، وأمَّا الجزر الصغيرة «فيوفد مندوب واحد من كل جزيرتين أو ثلاث أو أربع، من بين الأشخاص المؤهَّلين والقديرين بموافقة الأهالي». وعلى المندوبين العشرة أو الخمسة عشر[61] المنتدبين عن الجزر «أن يناقشوا ويقرِّروا ما تعجز عن معالجته هذه المجالس، خدمةً لمصالح شعبهم ولشؤون مجالس الجزر؛ وأن ينظروا في الشَّكاوى بحقِّ مجالس الجزر أو قضاتها، وأن يعالجوها ويتَّخذوا القرارات بشأنها وفقًا للقوانين ولمبادئ العدالة». وينبغي أن يترأَّس جلسات مجلس الشيوخ إمَّا «أرشيدوق»، وإما «وجيه منتخب من المواطنين» ليكون رئيسًا لعموم الجزر. وقد بدا الأميرال سبيريدوف شخصًا ليبراليًّا في أفكاره بشأن مجلس الشيوخ المنتخب. ففي روسيا الكاترينيَّة كانت الإمبراطورة وحدها هي من يختار أعضاء مجلس الشيوخ.

فضلًا عن ذلك، اقترح الأميرال ضمَّ ممثِّلين عن الطائفتين المسيحيَّتين الأرثوذكس والكاثوليك في الجزر إلى مجلس الشيوخ («إنَّ هذا المجلس ينبغي أن يضمَّ مندوبًا أو وصيًّا واحدًا، أو اثنين، عن رجال الدين») لمعالجة المسائل المُتنازَع بشأنها، المتعلقة بكنائسهم ورعيتهم. وإذ أكَّد سبيريدوف بوجهٍ خاصٍّ على ضرورة ضمِّ رجال الدين الكاثوليك أيضًا، وليس الأرثوذكس فحسب، إلى أجهزة السلطة، فإنه أظهر مرَّة أخرى، تسامحًا تنويريًّا، الأمر الذي

---

(60) اشترط أوشاكوف خصِّيصًا أن يتناسب حجم الجيش والشرطة مع مقدار الإتاوة المجباة، التي ينبغي أن تُحصَّل من دون «إفراط».

(61) على الرغم من أنَّ أوشاكوف اقترح اختيار مندوبين أو ثلاثة عن كل جزيرة لتمثيلها في مجلس الشيوخ، إلا أنَّ المجلس المنتَخَب في جمهوريته عام 1799، والمنعقدة جلساته في جزيرة كورفا، كان مؤلفًا على وجه التحديد من خمسة عشر مندوبًا مثَّلوا جزر الجمهوريَّة الأيونيَّة:

Станиславская, с. 139.

[ستانيسلافسكايا، ص 139].

أثبته بالممارسة العمليَّة (يُنظر لاحقًا). وفي أيِّ حال، فهو لم يقصر استرشاده في هذا السياق على التجربة الأرخبيليَّة، بل بمطلب التسامح الذي تضمَّنته «تعليمات» كاترينا أيضًا[62].

لم يُغفِل سبيريدوف في المشروع «الدستوري» مسألة السياسة الماليَّة أيضًا، محذِّرًا السكَّان الذين يعيشون في ظلِّ العبوديَّة منذ زمن طويل خصوصًا من أنَّ إدارة الكيان المستقلِّ والإنفاق عليه يتطلَّبان موارد كثيرة؛ لذا، فإنَّ تغطية تكاليف الكيان الجديد تقتضي دفع إتاواتٍ كبيرة (للإنفاق «على مجلس الشيوخ والعاملين في المجلس <...> وكذلك على المندوبين أو الأوصياء الحاضرين... وعلى الأمور الأخرى، وكذلك على الأرشيدوق، لتأمين نفقات سكنه وعائلته كي يتسنَّى له العيش بشرفٍ مستحقٍّ من دون عَوَز»).

حدَّد سبيريدوف المرحلة الانتقاليَّة لقيام دولة الأرخبيل الجديدة حتَّى موعد انسحاب الأسطول الروسي. وحتى حلول هذه اللحظة المنتظرة، سيضطلع أ. غ. أورلوف بمهمَّات مجلس شيوخ الجزر و«سيقود كلَّ الأعمال العظيمة الأخرى»، ويحلُّ صاحب المشروع مكانه في أثناء غيابه («يقوم بمهمَّات مجلس الشيوخ السيِّد الرفيع المقام الجنرال الكونت ألكسي أورلوف، وأنوب، أنا الأميرال سبيريدوف، عنه في غيابه حتَّى عودة سعادته»). وطالما بقي الأسطول يجوب بحر إيجة، فقد كان يُقتصَرُ المطلوب من الجزر على إنشاء مجالس محليَّة وتحديد مسألة جباية الإتاوات («في الوقت الراهن، وطالما أنَّ أسطول صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة - إمبراطورة عموم روسيا - وجيوشها موجودة هنا، في هذه الأماكن، فلا حاجة إلى جيش للجزر ولا لمجلس شيوخ أو لرئيسه أو أعضائه»). واستعجل الأميرال سكَّان الجزر قائلًا: («إنَّ عام 1771 حاسم لتأسيس كل ما ورد أعلاه!»: «ينبغي الاستعداد مسبقًا، في الجزر والأسقفيات، لتنفيذ كلِّ التعليمات بالشكل المناسب برعاية سلاح ملكتنا المعظَّمة، كيما يتمكَّن الأرخبيل من الإمساك بزمام أموره بكلِّ قوَّة، وامتلاك سلطته وحرِّيته المنشودة من دون وَجَل، عند مغادرة الأسطول والقوات، بناءً على هذه التعليمات».

(62) تعليمات كاترينا، ص 494-496.

هكذا، ظهرت في شرق حوض البحر المتوسِّط، خلال عام 1771 «الحاسم»، دولة جديدة، حملت آنئذٍ اسم إمارة الأرخبيل. وعلى الرغم من أنَّ هذه الدولة لم تنل الاعتراف الدولي في حينه، ولم تكن تملك تشريعاتها الخاصة بها، فقد بدا مع ذلك أنَّ زمنًا جديدًا هلَّ على سكانها، الذين كانوا لا يزالون بحاجة إلى الوقت والأوصياء ليتكيَّفوا مع الحياة الجديدة خلوًا من «البرابرة الأشرار». فليس عبثًا أن يطلب سكَّان جزيرة سكيرو من سبيريدوف إرسال «مندوب عموم الجزر ليرشدنا إلى الطريق الصحيح، فنحن الآن كالخراف من دون رعاة»[63].

حلَّت حقبة جديدة في عمليَّة بناء الدولة في إمارة الأرخبيل، ابتداءً من نيسان/ أبريل 1772، وارتبطت باسم معاون الجنرال بافل نيستيروف، الذي كلَّفه الأميرال سبيريدوف قيادة شؤون الإمارة كافَّةً أثناء غياب أ. بسارو، الذي توجَّه إلى سوريا على رأس «أسطول يوناني صغير»[64]. وفي الربيع والصيف من عام 1772 بالتحديد، طوَّر نيستيروف أفكار سبيريدوف، فصاغ «أحكامًا» لتنظيم نشاط مجالس الجزر والمجلس المركزي، وصلاحيات نوابها، ونظام الضرائب والجباية، وآليَّة عمل القضاء في الشؤون المدنيَّة، وغير ذلك[65]. وفي الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 1772، شرع نيستيروف بإجراء إحصاءٍ لسكان الجزر. فطلب من جزيرة سيروس، مثلًا، «معرفة جميع المتزوجين والعازبين، ومن جاء من الجزر الأخرى، وأنا أكتب إليكم لتكلِّفوا أنفسكم عناء الكتابة إليَّ عن عدد النساء والرجال في أراضيكم، فاكتبوا الحقيقة»[66].

---

(63) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 126.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 126].

جدير بالذكر، أنه كان في الجمهوريَّة الأيونيَّة أيضًا من رفض العيش بحريَّة وطالب بضمِّ سكَّان الجزر، كجزيرة زاكينف مثلًا، إلى تابعيَّة الإمبراطوريَّة الروسيَّة.

(64) شارك بسارو في عام 1772 مع ريزو في الحملة على شواطئ سوريا (يُنظر في هذا الصدد الفصل الثامن).

(65) يبدو التشابه مع الجمهوريَّة الأيونيَّة في الحالة الآتية: فقد أوكل أوشاكوف المهمَّات ذاتها تقريبًا إلى الملازم القبطان ن. أ. تيزينغاوزن. يُنظر: Станиславская, с. 163.

[ستانيسلافسكايا، ص 163].

(66) Στέφανος, Σελ. 33.

أخذ نيستيروف زمام الحكم بيديه، فأرسل أوامره من متن السفينة الحربيَّة الروسيَّة «أوروبا»، ولم يناقش أمر «الجمهوريَّة» أو «الأرشيدوقيَّة»، كما لم يدخل في اقتراحات تتعلَّق بما سيحلُّ بالجزر بعد مغادرة الأسطول الروسي الأرخبيل؛ ولكنَّه أوضح بما لا يدع مجالًا للشكِّ أنَّ «كلَّ رخاء الأرخبيل يتوقَّف على عطف سيِّدَيْنا الرفيعَيِ المقام، الكونت ألكسي غريغوريفيتش والكونت فيودور غريغوريفيتش، وبُعد نظرهما الثاقب، وعلى عزمهما على تحقيق الخير والرخاء للجميع، بفضل أفكارهما الحكيمة»[67]. وتؤكِّد الوثائق[68]، بالطبع، على أنَّ كِلَا الكونتين عُيِّن من قِبل «الإمبراطورة المعظَّمة»، لكنَّ هذه الوثائق لا تتضمَّن إشارة مباشرة إلى **ملكيَّة** كاترينا الثانية لجزر إمارة الأرخبيل. فهل كان ذلك يعني أنَّ كاترينا أمرت بتمويه ممتلكاتها في حوض البحر المتوسِّط بعض الشيء، مع بدء المفاوضات؟ بقي هذا السؤال غير واضح تمامًا.

يتبيَّن من الوثائق التي وزَّعها بافل نيستيروف[69] أنَّ **الجزيرة** ظلَّت تُعتبر الوحدة الإقليميَّة الإداريَّة في «دولة الأرخبيل» (فلم يستخدم نيستيروف كلمة «إمارة»). وكان ينبغي أن تجري **سنويًّا** انتخابات لاختيار «المسؤولين» و«الأعضاء الأساسيِّين» في كلِّ جزيرة أو «نوَّاب الجزر» (بما أنَّه لم ترد في الوثائق أيُّ إشارة إلى قواعد التمثيل ولا إلى الحقوق الانتخابيَّة، بحيث يمكن الافتراض أنَّها كانت تتناسب مع أعراف الجماعات في الجزر، التي كانت تنتخب عمدتها). وقد جمع النوَّاب بين وظائف **الإدارة والقضاء**، الأمر الذي كان يتوافق مع التقاليد المتَّبعة. وكان «المجلس» هو المكان الذي يجتمع فيه «النوَّاب» لمعالجة **شؤون الدولة والمجتمع**[70].

---

(67) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 94об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، ظهر الورقة 94].

(68) يُنظر الترجمة اليونانيَّة: Στέφανος, Σελ. 21.

(69) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 99-100об.; Л. 67-68, 94-97.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 99 - ظهر الورقة 100؛ الورقة 67-68، 94-97].

(70) من غير الواضح تمامًا كيف يرى بافل نيستيروف إلى الفارق بين شؤون «الدولة» وشؤون =

كانت صلاحيات «نوَّاب الجزر» تشمل **المحاكمات** في القضايا المدنيَّة والجزائيَّة وإنزال **القصاص** «بكل من يُخِلُّ بالنظام...، ولا سيَّما من يثير الفتن أو يتفوَّه بكلام مُسيء بحق الدولة والمجتمع»، وكذلك من «ينتقم بنفسه لإساءة ما» من دون محاكمة؛ علمًا أنه أشير على نحوٍ خاصٍّ - كما في وثائق سبيريدوف - إلى أنَّ الأحكام المتعلِّقة بجرائم «القتل» تُسحَب من صلاحيات الجزيرة، وتُحال إلى «محكمة القائد العام». ووجبَ على النوَّاب الاستناد إلى قوانين «الجزر نفسها» وأعرافها عند اتِّخاذ القرارات بالدرجة الأولى. أمَّا إذا «ساورهم شكٌّ» فعليهم إرسالها إلى المجلس المركزي في آوزا للاستفسار بصددها. من الواضح أنَّه لم تكن لدى العسكريين الروس نيَّة تحطيم التقاليد السائدة في مجال التشريع، بيد أنَّ نيستيروف كان مضطرًّا إلى تسجيل الدعاوى، في ما يتعلَّق بالنزاعات المدنيَّة خصوصًا، وذلك رغبة من القيادة في تقليص عدد أصحاب الالتماسات الذين يأتون إلى آوزا، وسعيها إلى دفع سكَّان الجزر لحلِّ النزاعات في أماكنها[71].

في المجال **المالي**، أوكلت إلى النوَّاب مهمَّة «تعيين» جباة الإتاوات و«مراقبتهم»، وتعيين أمين الصندوق، الذي يمسك الحسابات، على أن يكون أمناء الصندوق من الأشخاص الموسورين، بحيث يستطيعون سداد «أموال الخزينة والعامَّة» حال فقدانها.

كان بوسع النوَّاب أيضًا جمع متطوِّعين عند الضرورة («للمساعدة من جانب الشعب في وضع أحدٍ ما تحت الحراسة أو لحاجات أخرى»)، واتِّخاذ تدابير صارمة ضد السَّلب والقرصنة، وأخيرًا إنشاء مؤسَّسات للحجر الصحِّي على كل جزيرة.

بقيت كل المسائل المتعلِّقة برجال الدين خارج صلاحيات النوَّاب الزمنيِّين.

---

=«المجتمع». من الأسهل الافتراض أنَّ الشؤون «الاجتماعيَّة» تخصُّ الجماعة («المجتمع») في الجزيرة المعنيَّة فحسب، أمَّا شؤون الدولة فتخصُّ عموم إمارة الأرخبيل.

(71) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 94-97.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 94-97].

فُرضت قيود على سكّان الجزر بذريعة الظروف الحربيَّة، كمراقبة المراسلات والتنقُّل فحسب بجوازات سفر تصدرها مجالس الجزر.

اختتم بافل نيستيروف «قانونه التأسيسي» على نحوٍ عسكريٍّ: «آمر، وأطلب من الجميع ومن كل فرد على حِدَة: أحبوا بعضكم بعضًا، اطردوا البغْضاء من نفوسكم واعملوا كمسيحيين بهدي ديانتنا الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة، كونوا موالين في كلِّ شيء، لتحظوا بعطف رؤسائنا العظام ومحبَّتي الخالصة لكم، واهتمامي الدائم بقضاياكم».

لم تعد إمارة الأرخبيل في عام 1772 على الورق مجرَّد اتِّحاد جزرٍ عرَضيٍّ هلاميٍّ، كما كانت في السابق، بل باتت دولة ذات **نظام إداريٍّ** واضح المعالم إلى حدٍّ ما في المركز والمناطق(72). وبقيت الإدارة في المركز، بحسب ما فكَّر به سبيريدوف في عام 1771، في يد العسكريِّين من مكتب قائد الأسطول، وليس بيد «مجلس الشيوخ» بنوابه المنتَخَبين عن الجزر، ما بَقِيَ الأسطول في بحر إيجة. في غضون ذلك، كان المعاون نيستيروف يشبه أكثر فأكثر حاكمًا لشبه مستعمرة، مع إصداره الأوامر والتعليمات؛ إذ كانت النظم على المستوى المحلي تُفرَض بصورة حازمة وصارمة على الطريقة العسكريَّة، ولكن لم يكن لدى العسكريين القوَّة ولا الإمكانات للتدخُّل في الإدارة المحليَّة. فكانت الأنظمة المعتمدة أنظمة الإدارة **الذاتيَّة**، التي تتوافق تمامًا مع التقاليد المحليَّة، وتستند إلى القانون التقليدي السائد، وما كان لها أن تمسَّ الميدان الكنسي.

في أيِّ حال، لم تدم سلطة نيستيروف على الجزر طويلًا. ففي آب/ أغسطس 1772، رجع أ. بسارو من الحملة، وعاد مجدَّدًا ليشغل منصب «النائب الأول»، وظلَّ محتفظًا بهذا المنصب حتَّى انسحاب الأسطول الروسي. وفي عام 1773، واصل بسارو سعيه لإنشاء مجلس للشيوخ، معتبرًا إياه جهازًا للإدارة يتألَّف من ممثِّلي كلِّ الجزر؛ ولكنه لم يتمكَّن من إنجاز هذا العمل قبل عقد الصلح(73).

---

(72) Δ. Πασχάλη, *Αι Κυκλάδες υπό τους Ρώσους (1770-1774)*, Μετ`ανέκδοτων έγγραφων, Σελ. 234-292.

(73) Στέφανος, Σελ. 38; Κοντογιάννης Σελ. 242.

يبدو أنَّ سبيريدوف ظلَّ أيضًا يشعر بالمسؤوليَّة حيال سكَّان إمارة الأرخبيل التي أنشأها، حتَّى مغادرة الأرخبيل في ربيع عام 1774. ففي رسالته الوداعيَّة التي وجَّهها، عند رحيله «إلى ليفورنو بسبب المرض»، ثمَّ إلى روسيا، توجَّه إلى «نائب الأسطول العامِّ النقيب والفارس بسارو» و«إلى كلِّ رعايا صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة الرؤوف، في أرخبيل الجزر اليونانيَّة، وإلى الأهالي من رجال دين ومواطنين»، معلنًا ارتياحه لجهودهم «الخيِّرة والدؤوب تجاهنا»[74].

لكن، حتَّى نهاية وجود الأسطول في بحر إيجة، لم تُحسم المسألة الأهمُّ، ألَّا وهي علاقة الجزر بالإمبراطوريَّة الروسيَّة. فكيف نظر سكَّان «دولة» الأرخبيل إلى أنفسهم خلال الفترة 1772-1774:

- هل هم «رعايا» الإمبراطورة (كما كانوا يُسمُّون أنفسهم بحسب الوثائق)؟

- هل هم سكَّان «مُمتلكات» استولِيَ عليها (كتب أورلوف إلى الإمبراطورة في عام 1773 عن «سكَّان جزر الأرخبيل، التي هي بمثابة مُلكيَّة تابعة لصاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة»)؟

- أم هم «أحرار»، قُدِّمت إليهم المساعدة أو «الحماية»؟

ماذا كان أ. غ. أورلوف يمثِّل، وهو الذي اختار لنفسه في عام 1770 لقب «الجنرال المفوَّض من صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة كاترينا الثانية، إمبراطورة عموم الروسيا، قائد الأرخبيل العام»؟ وما تجدر الإشارة إليه أنَّ اسمه ورد في «القانون التأسيسي» (الذي وضعه بافل نيستيروف في عام 1772)، بوصفه شريكًا في حكم الأرخبيل وليس لكاترينا.

يُظهر استخدام مفاهيم كـ «الجنسيَّة» و«الرعاية»/ «الحماية» و«المُمتلكات» و«الخضوع لسلطة...» وغيرها من المفاهيم، استخدامًا عشوائيًّا ومتغيِّرًا نسبيًّا،

---

(74) Центральный военно-морской музей, Санкт-Петербург, Рукописно-документальный фонд, no. B-38369/3.

[المتحف البحري العسكري المركزي (سان بطرسبورغ)، مجموعة الوثائق والمخطوطات، العدد ب- 38369/ 3].

أنَّه لم يتكوَّن لدى الحكّام والمنفِّذين لأوامرهم تصوُّرٌ نهائيٌّ عن طبيعة العلاقة بين كل من الإمبراطوريَّة الروسيَّة وإمارة الأرخبيل.

يبدو أنَّ آفاق بناء «الجمهوريَّة»، «الأرشيدوقيَّة»، «الدولة»، ظلَّت غامضةً جدًّا بالنسبة إلى سكَّان جزر الأرخبيل. وليس من قبيل المصادفة أن يطلب سكَّان ساموس - الذين لم يستوعبوا «نظام بافل نيستيروف الإداري الذاتي» - إرسال «شخصٍ روسيٍّ يعرف القوانين **الروسيَّة**» لإدارة الجزيرة (نُعيد إلى الأذهان أنَّ نظام نيستيروف نصَّ على وجوب معالجتهم كلَّ المسائل، استنادًا إلى تقاليدهم الجزيريَّة!)[75]، وأعربوا عن امتنانهم العميق لإيفاد الملازم في الأسطول الروسي نيقولاي كوماني: «لقد كنَّا قبل ذلك كالخراف من دون راعٍ، وعندما سمعنا بمجيء كوماني إلينا، اجتمعنا من كلِّ القرى بفرحٍ واندفاع، ... إنَّنا نعترف به... قائدًا نزيهًا لنا»[76].

## استكشاف جزر إمارة الأرخبيل

قامت القيادة الروسيَّة بنشاطٍ ملحوظٍ لتوصيف حوض البحر المتوسِّط الشرقي ورسم خرائطه، في سياق إنشائها دولة في جزر الأرخبيل. فقد ساعدت الإنزالات الاستكشافيَّة على الجزر و«الدوريات البحريَّة»

---

(75) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 78-78об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 78 - ظهر الورقة 78].

(76) المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 2، الورقة 82.

**نيقولاي بتروفيتش كوماني** (1730-1809): من مواليد جزيرة كريت. بدأ تلميذَ بحارٍ على سفينة إنكليزيَّة، على الأرجح، ثم ضابطَ صفٍّ بحريًّا في الأسطول الروسي ابتداء من عام 1769، وشارك في معركة شيسما. كان كوماني مفيدًا لسكَّان ساموس لأنَّه كان يتكلم اليونانيَّة والروسيَّة، على الرغم من أنه ظل أميًّا حتَّى مماته. تولَّى قيادة فرقاطة في الحرب الروسيَّة - التركيَّة الثانية، وكذلك في حملة الأرخبيل تحت قيادة ف. ف. أوشاكوف. وصل إلى رتبة كونتر-أميرال (في عام 1797)، لكنَّه لم يتعلَّم القراءة على الرغم من ذاكرته الرائعة، ولم يُحسن سوى توقيع اسمه.

*В. М. Лурье, Морской биографический словарь. Деятели Российского флота XVIII века* (СПб.: Информационный центр «Выбор», 2005), с. 133.

[ف. م. لوريه، **القاموس البيوغرافي البحري. شخصيات الأسطول البحري في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ: المركز الإعلامي «الخيار»، 2005)، ص 133].

والاتِّصالات مع السكَّان المحليِّين (بشأن جباية ضريبة العُشر وأعمال تجهيز الأخشاب والمواد الغذائيَّة)، خلال الفترة الواقعة بين عامي 1770 و1775، على تصحيح الخرائط الأوروبيَّة الموجودة ورسم «مواقع الأماكن غير المعروفة»[77]، وكذلك قياس الأعماق، ومن ثَمَّ وضع أطلسٍ مسهَب للأرخبيل في الهيئة الأدميراليَّة مع نهاية الحرب، استنادًا «إلى الصَّحائف والسجلَّات». وجاء في الإهداء المقدَّم إلى الإمبراطورة الذي افتُتح به الأطلس[78] أنَّ «الانتصارات على الأسطول العثماني <...> ومن ثَمَّ إخضاع الأرخبيل <...> حقَّقت أمجادًا وأبرزت عظمة الملاحة البحريَّة الروسيَّة، فتردَّد صداها في كلِّ أنحاء المعمورة. وأتاحت الفرصة لدراسة أجزاء واسعة من هذا البحر [بحر إيجة] وجزره وخلجانه ومداخل موانئه، ولتقديم توصيف دقيق لها، وقياس أعماقها». وبما أنَّه «ما من دولة أوروبيَّة ... أقدمت على القيام بالأعمال الهيدروغرافيَّة في هذا البحر من غير قيود... فقد بات الطريق مكشوفًا ومفتوحًا أمام كاترينا للوصول إلى أبواب اسطنبول المتعجرفة بلمح البصر»[79]. وتوجَّه المهندسون الضبَّاط ياكوف باتالزين وميخائيل توزوف وميخائيل موجاروف وكارل يارين، والمتطوع الكونت باش فان كرينين[80]، إلى الجزر في مهمَّات لم

---

(77) من التعليمات إلى النقيب المهندس ماتفييف، الذي توجَّه إلى الدردنيل في أثناء الهدنة (**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، الملف 46، ظهر الورقة 133).

(78) معروفة لدينا ثلاث من مخطوطاته، على الأقل [المتحف الحكومي للتاريخ (مواد تحضيريَّة)]، صدرت جزئيًّا في عام 1997: *Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг* (М.: Индрик, 1997); *РГВИА*, Ф. 434, Д. 58; *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 2, Д. 134.

[**أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769-1774** (موسكو: إندريك، 1997)؛ **أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 434، الملف 58؛ **أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 2، الملف 134].

(79) *РГВИА*, Ф. 434, Д. 58, Л. 3.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 434، الملف 58، الورقة 3].

(80) عن باش فان كرينين. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 516-546.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 516-546 (الطبعة الروسيَّة)].

تكن عسكريَّة فحسب، بل لتحديد أماكن الثروات الطبيعيَّة والآثار القديمة والأديرة والكنائس، ولتوصيف البلدات الكبيرة والصغيرة. وتضمَّنت صحيفة **ستيبان خميتيفسكي** مقاطع طويلة تصف الجزر. أمَّا وصف الأرخبيل الذي وضعه المشارك في الحملة ماتفي كوكوفتسيف، فصدرت نسخة مطبوعة منه في سان بطرسبورغ[81]. ولا شكَّ في أنَّ الإمبراطورة نفسها كانت ترغب أيضًا في معرفة أكثر ما يمكن عن الأراضي الجديدة المكتسبة[82].

من البدهي أن تحظى جزيرة باروس - التي تحوي ميناءين ملائمين في كلٍّ من بلدتي باروس (باريكيا) وآوزا - باهتمام أكبر من قِبَل مركز «إمارة الأرخبيل الكبرى». وتعكس التوصيفات التي وضعها المركز الاهتمامات المتنوِّعة التي أبداها المشاركون في الحملة على نحوٍ كامل، أثناء استكشاف الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسِّط.

---

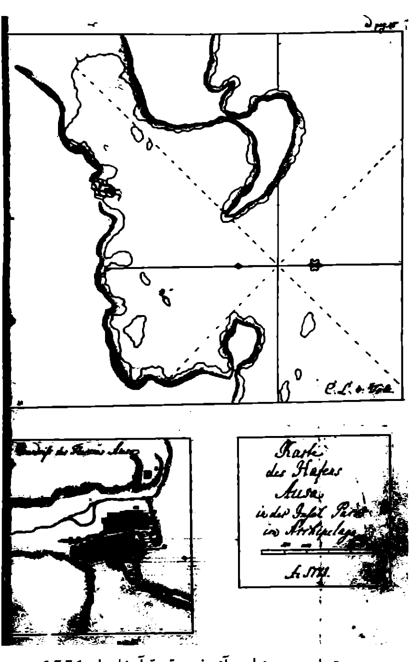
(81) М. Г. Коковцев, *Описание Архипелага и варварийскаго берега, изъявляющее положение островов, городов, крепостей, пристаней, подводных камней и мелей; число жителей, веру, обряды и нравы их с присовокуплением древней истории, и с тремя чертежами* (СПб., 1786), с. 37-38.

[م. غ. كوكوفتسيف، **يوضِّح وصف الأرخبيل والساحل البربري موقع الجزر والمدن والقلاع والموانئ والصخور التي تحت الماء والأماكن الضحلة؛ وعدد السكَّان وديانتهم وطقوسهم وعاداتهم، إضافة إلى التاريخ القديم، وثلاثة رسوم** (سان بطرسبورغ، 1786)، ص 37-38]. أعيد نشر مؤلف كوكوفتسيف مع تعليقات في: Е. Б. Смилянская, *Греческиеострова Екатерины II, Опыты имперской политики России в Средиземноморье* (М., 2015), с. 327-368.

[ي. ب. سميليانسكايا، **جزر كاترينا الثانية اليونانيَّة، تجارب سياسة روسيا الإمبراطوريَّة في حوض المتوسِّط** (موسكو، 2015)، ص 327-368].

(82) جدير بالذكر أنَّ كاترينا طلبت عبر ن. إ. بانين من سكَّان مولدافيا وفالاشيا، اللتين كانتا خاضعتين لها آنذاك: «أيها الكونت نيكيتا إيفانوفيتش! استدعوا نوَّاب كلٍّ من مولدافيا وفالاشيا وقولوا لهم، بما أنَّني منحتهم حمايتي وحتَّى أتمكَّن من رعايتهم على النحو المطلوب، فإنني أرغب في أن يرسلوا إلي عبركم: 1) وصفًا لوضعهم الراهن ولكلِّ أراضيهم، والدُّخول التي يجنونها من هذه الأراضي؛ 2) ما هي حاجاتهم ومتطلباتهم ورغباتهم. وما إن يسلِّموكم إجاباتهم، أرسلوها إلي من فضلكم على الفور. كاترينا»: Письма и записки императрицы Екатерины Второй к графу Никите Ивановичу Панину, с. 113.

[رسائل ومذكرات الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى الكونت نيكيتا إيفانوفيتش بانين، ص 113].




جزيرة باروس. خليج آزوف وقرية آوزا عام 1771

لفتت جزيرة باروس، وهي واحدة من مجموعة جزر كيكلادس في الجزء الجنوبي من بحر إيجة، انتباه قادة الأسطول الروسي منذ أن كانت السُّفن تتزوَّد بالمياه في خلجانها، في أثناء ملاحقتها الأسطول التركي قبيل معركة شيسما. وتقع باروس في منتصف الطريق بين بيلوبونيز والشاطئ الآسيوي. فمن هذه الجزيرة، كان يسهل على الأسطول الروسي أكثر إقامة التواصل الدائم مع ليفورنو طيلة فترة وجوده في الأرخبيل، مقارنة بالجزء الشمالي من بحر إيجة، وكان من الأسهل عليه أيضًا مغادرة الأرخبيل عند الضرورة. وعلى الرغم من أنَّ موقع باروس لم يكن يسمح بفرض حصارٍ مباشرٍ على الدردنيل من هذه الجزيرة، فدائمًا ما كانت تُرسَلُ مجموعات صغيرة من السُّفن من باروس، لمنع نقل المواد الغذائيَّة إلى القسطنطينيَّة، ولاحتجاز كل السُّفن التي تحمل بضائع تركيَّة. وإذ ثمَّنَ سبيريدوف هذه المزايا التي تتمتَّع بها باروس، فهو كتب إلى الإمبراطورة يقول: «إنَّ مرفأ آوزا هذا، على جزيرة باروس مهمٌّ وضروريٌّ. حتى إنَّني أعتبره الأفضل من بين كل المرافئ والأفضل من بين الخلجان الموجودة على جزر الأرخبيل. فمرفأ آوزا هو أفضل مكان ملائم للتحصُّن والدفاع، حيث تكفي قوة صغيرة لذلك»(83).

(83) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 655.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 655].

ترك المشاركون في الحملة مجموعةً من توصيفات باروس المُسهَبة إلى حدٍّ ما. وأول هذه التوصيفات وضعه ضابطا الصف في فريق الهندسة باتالزين وتوزوف، خلال الفترة بين الثالث والحادي عشر من حزيران/ يونيو 1771[84]. في ما بعد، لم يُهمل ستيبان خميتيفسكي وماتفي كوكوفتسيف وسيرغي بليشييف جزيرتي آوزا وباروس في مذكِّراتهما. وبعد عامين من انتهاء الحرب، زار الفرنسي المتخصِّص بالحضارة الهيلينيَّة شوازول غوفيه[85] باروس، وترك بدوره ملاحظاتٍ عن الجزيرة وعن الوجود الروسي فيها. وإليكم كيف رأى باتالزين وتوزوف إلى جزيرة باروس:


جزيرتا باروس وأنتيباروس

«يبلغ طول هذه الجزيرة تسعة عشر فرستًا، وعرضها أحد عشر فرستًا ونصفًا. وهي جرداء تتكوَّن كلُّها تقريبًا من جبال صخريَّة عالية، ذات طبيعة كبريتيَّة في الأغلب، فيما بعضها رخامي وطرقاتها ضيقة جدًّا ومليئة بالحجارة. ثمَّة مساحات مزروعة قمحًا في الأماكن المنخفضة، حيث التربة تغطِّي الصخور بسماكة قدم وأكثر، ...كان المسؤولون في أثناء الحكم التركي، سواءٌ أَفِي البلدات أم في القرى، عُمَدًا منتخبين من أفراد الجماعة المحليَّة، وكانوا يعملون على حلِّ النزاعات والخلافات بين الأهالي. وكانت السلطة العليا، أكان

(84) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 143-144об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 143 - ظهر الورقة 144].

(85) M. Choiseul-Gouffier, *Voyage pittoresque de la Grèce* (Paris, 1782), vol. 1.
عن رحلته إلى اليونان، يُنظر: O. Augustinos, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era* (Baltimore; London, 1994), pp. 157-173.

في هذه الجزيرة أم في الجزر الأخرى، بيد قائد الأسطول التركي العام قبطان باشا، الذي كان يعتقهم أو يبيعهم وفقًا لرغبته. في البداية، كان على كل شخص، حتَّى ولو كان عازبًا، دفع ثلاثة قروش ونصف في السنة، وخُمس ما ينتجه من القمح. فكان مجموع ما يُجبى من هذه الجزيرة لمصلحة الخزينة 5920 قرشًا. وفي الوقت الراهن، صار من بين اليونانيين متعهِّدو جباية، مكلَّفون جباية الضرائب من الآخرين، فرفعوا قيمتها بحيث صار يتراوح مجموع ما يُجبى من كل جزيرة ما بين 8500 و9000 قرش. وقد عمد هؤلاء إلى طلب مبلغ مساوٍ لِمَا يجب على كل فرد دفعه لأنفسهم، فتضاعفت الضرائب على المكلَّفين»[86].

كان يعيش على الجزيرة خمسة آلاف شخص (م. كوكوفتسيف). وفضلًا عن بلدتي باروس وآوزا، فقد كانت هناك «خمس قرى وبضعة منازل متواضعة متناثرة في أماكن مختلفة في الحقول، وعدد لا بأس به من بساتين العنب والبرتقال والليمون والنارنج والتين والتفاح والمشمش وأنواع أخرى من أشجار الفاكهة. ويزرع سكَّان البلدتين والقرى القمح والشعير والقطن، فيبيعون



باروس

(86) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 143.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 143].

ما يفيض عن حاجتهم من القمح في الجزر الأخرى، ويصنعون من القطن الخام[87] الجوارب وسلعًا قطنيَّة أخرى. ولدى السكَّان عدد لا بأس به من رؤوس الماشية، أكانت بقرًا أم غنمًا، فضلًا عن البغال. أمَّا الأحصنة فموجودة لكنْ بأعداد قليلة. تبقى الماشية عندهم في الحقول طيلة السنة، لأنَّ الثلج قليلًا ما يتساقط والصقيع نادرًا ما يحلُّ شتاءً، وإذا ما تساقط الثلج في سنوات نادرة فإنه لا يصمد أكثر من نصف نهار حتَّى الساعة العاشرة، وسرعان ما يذوب مع طلوع الشمس. وغالبًا ما يكون تأمين العلف للماشية صعبًا في أوقات الصيف الحارة، عندما يصيب اليباسُ العشبَ، فلا تجد الماشية ما تعتلفه إلا بصعوبة بالغة، وذلك فقط في الأماكن المنخفضة جدًّا وبالقرب من مصادر المياه.

يستخدم السكَّان الثيران والبغال في الأعمال الحقليَّة، كما يستخدمونها للنقل من مكان إلى آخر. ففي ظروف الجبال العالية والأماكن الصخريَّة لا تتوفَّر وسائل أخرى صالحة للنقل[88].

يرى كوكوفتسيف أنَّ أرض جزيرة باروس الخصبة من شأنها أن تحقِّق ثروة أكبر لسكَّانها، ولكنهم «فقراء بسبب جهلهم».

كانت نوعيَّة المياه تُعتبر شأنًا ذا أهميَّة من الدرجة الأولى بالنسبة إلى الأسطول في الأرخبيل. وهي كانت كافية في باروس: «المياه في الجزيرة كثيرة، في الينابيع ومجاري المياه الصغيرة. أمَّا في الجبال وفي الأماكن السكنيَّة، حيث لا توجد ينابيع، فيبني السكَّان خزَّانات يجمعون فيها مياه الشتاء، ليستخدموها طوال السنة، لأنَّ الأمطار في الصيف قليلة جدًّا أو هي تنعدم تمامًا»[89].

لم ينسَ واصفو باروس الروس التذكير أنَّ الجزيرة تُشتَهَر بتاريخها القديم، وكذلك بـ «العمود» الأثري، الذي «نُقشت عليه كتابات هيلينيَّة»:

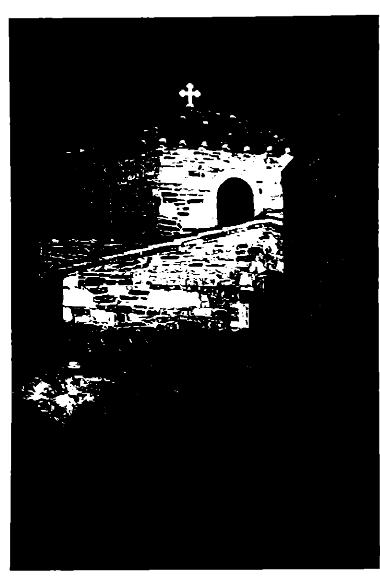
---

(87) **الخام**: نوع من النسيج من بقايا القطن والكتان يُستخدم عادة في حياكة سلعٍ متينة كالخيام والأشرعة والحقائب ولوحات الرسم وأكياس الحبوب لتخزينها. (المترجم)

(88) المرجع نفسه، الورقة 144 – ظهر الورقة 144.

(89) المرجع نفسه، ظهر الورقة 144.

«في حقبة عبادة الأصنام، كان يوجد معبد على مقربة من مدينة إيمفولس، مزين بنقوش جميلة، ولا تزال آثاره بادية للعيان»[90]. وذكَّر مشارك إنكليزي في الحملة أنَّ باروس هي موطن فيدياس وبراكسيتيليز[91]. لكنَّ ضابطَي الصفِّ باتالزين وتوزوف كانا أكثر اهتمامًا بالمعلومات التي رواها أهالي الجزيرة عن انتقال باروس إلى السيطرة العثمانيَّة: «كانت هذه الجزيرة تحت سلطة جنوى سابقًا، وبعد انتصار أسطول البندقيَّة في المعركة قبالة جزيرة كانديا، بسط البنادقة سيطرتهم على هذه الجزيرة وعلى جزر أخرى، فانتقلت الجزيرة، أخيرًا، إلى يد الأتراك في عام 1686»[92].



كنيسة السيدة العذراء في باروس
القبة فوق بيت المعمودية (القرن السادس)

مدينة باروس (باريكيا) هي كبرى بلدات الجزيرة، «وفيها خليج محميٌّ

(90) Коковцев, с. 37.

[كوكوفتسيف، ص 37].

(91) В. Весли, «Воспоминания участника Архипелагской экспедиции,» in: *Морской сборник*, 1914, t. 382, no. 5, c. 18.

[ف. فيسلي، «مذكرات أحد المشاركين في حملة الأرخبيل»، في: **المجموعة البحريَّة**، 1914، مج 382، العدد 5، ص 18].

[فيدياس وبراكسيتيليز: نحاتان ومهندسان معماريان يونانيان عظيمان، عاشا في أثينا إبَّان القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. وبراكسيتيليز هو صاحب تمثال أفروديت الشهير]. (المترجم)

(92) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 143.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 143].

إلى حدٍّ ما من الرياح يحمل اسمها. ومع أنه ليس عميقًا جدًّا، إلا أنه صالح لرسو السُّفن الصغيرة»[93].

أمَّا المشاركون في الحملة، المُقِلُّون عادةً في وصف الكنائس والأديرة اليونانيَّة القديمة، فقد استثنوا المعبد الرئيس في الجزيرة، أي كنيسة باناغي يكاتنودابيليان، من تجاهلهم: «ثمَّة في هذا المكان (باريكيا - المؤلفة)، من بين الكنائس القائمة هنا، كنيسة تحمل اسم السيدة العذراء تسترعي الانتباه، وهي بناء قديم، كبير الحجم، مطليٌّ كلُّه بالجير، لا تزال حاله جيدة، شُيِّد بحجارة من الرخام وتزيِّنه زخارف جميلة في الداخل، كما يتميَّز بأعمدة رخاميَّة من الطراز الكورينثي[94] ... وقد شيَّدت الملكة اليونانيَّة هيلينا، والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير، هذه الكنيسة بعد عودتها من أورشليم إلى القسطنطينيَّة، وأطلقت عليها اسم يكاتابولياني. حدث ذلك كلُّه في القرن

كنيسة السيدة العذراء. صحن الكنيسة الرئيسي

(93) المرجع نفسه، ظهر الورقة 143.

(94) **العمود الكورينثي** (Corinthian order): واحد من ثلاثة نماذج للأعمدة الإغريقيَّة هي: العمود الدوركي، العمود الأيوني، العمود الكورينثي. ويتميَّز طراز العمود الكورينثي بتاجه المزخرف الذي يمتاز بطابع خاص. وهو مزيَّن بأرواق نباتيَّة، وفي كلِّ صفٍّ ثماني أوراق، وتعلو التاج لفافات صغيرة منحرفة على زاوية 45 درجة على أوجه التاج. ويُرجَّح أنه مشتقٌّ من الأعمدة المصريَّة القديمة الناقوسيَّة الشَّكل. واستعاض الإغريق عن ورقة اللوتس بورقة نبات «شوك الجمل» اليونانيَّة. (المترجم)

الرابع بعد الميلاد. وقد بُنِيَت الكنيسة على أنقاض معبد هيليني قديم»[95]. وذكَّر ستيبان خميتيفسكي بدوره هذه الكنيسة، واصفًا إياها بـ «المرموقة»[96]. ولم ينسَ م. كوكوفتسيف لوم سكَّان باروس على إهمالهم: «كنيسة غنيَّة من الرخام ... عمد اليونانيون الجهلة إلى طليها بالجير، رغبة منهم بتزيينها»[97]. ولم تُحفظ سوى معلوماتٍ قليلةٍ عن باقي الكنائس في باروس: «ثمَّة في مختلف أنحاء الجزيرة 25 ديرًا يونانيًّا، وديران كاثوليكيان [جزء من النص مفقود هنا]، وأمَّا الكنائس فكثيرة لا تُحصى»[98]. تغطِّي الجبال القسم الداخلي من الجزيرة. وأينما اتَّجه المرء هناك يصادف إمَّا ديرًا وإما كنيسة وإما حتَّى مصلًّى على الأقل. وقد أفرغ الكسل والخرافات هذه الأرض من سكَّانها، وسرعان ما ستفرغ الأديرة نفسها»[99]. كانت الجزيرة تابعة لأسقفيَّة بارو ناكسيا، وكان فيها أيضًا مركز للأسقفيَّة الأرثوذكسيَّة.

شاركت جزيرة ناكسيا (ناكسوس) القريبة من باروس هذه الأخيرة شهرتها بوصفها مركزًا لإمارة الأرخبيل. وتتوسَّط جزيرتي باروس وناكسيا ثلاث جزر صغيرة غير مأهولة (بورتو تريو)، كانت السُّفن تتزوَّد منها عادة بالمياه العذبة (وإليها بالتحديد كان يأتي أسطول القوبدان باشا سنويًّا لجباية الجزية من الأرخبيل). وكما كتب كوكوفتسيف، كان الأسطول يُلقي مراسيه على امتداد أربعة أميال بين خليج آوزا وجزيرة ناكسيا. ويصف كوكوفتسيف ناكسيا بأنها جزيرة يبلغ عدد سكانها ستة آلاف من الطائفة الأرثوذكسيَّة وطائفة الروم الكاثوليك، وهي غنيَّة بالقمح والكرمة والأخشاب والقطن. واعتُبِرت

---

(95) Коковцев, с. 37.

[كوكوفتسيف، ص 37].

(96) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 616.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 616 (الطبعة الروسيَّة)].

(97) Коковцев, с. 37-38.

[كوكوفتسيف، ص 37-38].

(98) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 144об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 144].

(99) Choiseul-Gouffier, p. 66.

ناكسيا أكثر مُلاءَمةً من حيث الظروف المناخيَّة لإقامة المشاركين في الحملة وضيوفها[100].

في ناكسوس بالذات، أجرى أ. غ. أورلوف تجربة إنشاء مركزه التنويري في إمارة الأرخبيل، مسترشدًا، على ما يبدو، بالمشروعات التي نفذتها الإمبراطورة وإ. إ. بيتسكين في روسيا حينذاك. فجُمع في ناكسوس أطفال من فئات اجتماعيَّة مختلفة، عاشوا على نفقة كاملة من أموال خصَّصها أورلوف لهذا الغرض وعزلهم عن عائلاتهم (تقريبًا على غرار دار الرعاية[101] الذي كان قائمًا في موسكو، على ما يبدو)، وكان يُفترَضُ أن يشكِّل هؤلاء، على الأرجح، «صنفًا جديدًا من النَّاس» في الدولة اليونانيَّة الجديدة. «وقد زُوِّد الفتيان اليونانيون، سواء أكانوا من أبناء الأعيان أم أبناء فقراء الجزيرة وأيتامها... بالألبسة والغذاء والتعليم، بكرم وسخاء من صاحبة العطوفة... الملكة»[102]، ووُضِع الأطفال تحت إشراف «المدبر جوفاني آتسالي»[103]. واصل غ. أ. سبيريدوف الاهتمام بالمدرسة بعد رحيل أ. غ. أورلوف، موجِّهًا نشاطها، تبعًا لأولويَّاته، نحو تعليم

---

(100) خصص أ. غ. أورلوف مكانًا لإقامة ذي الفقار بك، مبعوث علي بك، على جزيرة ناكسوس بالتحديد. يُنظر: С. Плещеев, *Дневные записки путешествия из Архипелагского России принадлежащего острова Пароса в Сирию и к достопамятным местам в пределах Иерусалима находящимся с краткою историею Али-беевых завоеваний, российского флота лейтенанта Сергея Плещеева в исходе 1772 лета* (СПб., 1773), с. 2.

[س. بليشييف، **يوميات الرحلة التي قام بها الملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في نهاية صيف عام 1772، من جزيرة باروس الأرخبيليَّة التي تعود لروسيا، إلى سوريا والأماكن المشهودة الواقعة في حدود القدس، مع عرض موجز سريع لفتوحات علي بك** (سان بطرسبورغ، 1773)، ص 2].

(101) دار الرعاية: مؤسسة حكومية تُعنى بتربية الأطفال وتنشئتهم، على غرار المدارس الداخلية، تحت رعاية الإمبراطورة وتمويلها. (المترجم)

(102) من رسالة أ. غ. أورلوف إلى أ. ف. يلمانوف بتاريخ 28 تموز/ يوليو 1774. *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 158-159.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 158-159].

(103) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 119.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 119].

بعدما أصبح آتسالي برتبة نقيب، عُيِّن بعد نهاية الحرب في عام 1784، على ما يبدو، قنصلًا لروسيا في قبرص. يُنظر: В. А. Уляницкий, *Русские консульства за границей в XVIII веке* (М., 1899).

[ف. أ. أوليانيتسكي، **القنصليات الروسيَّة في الخارج في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1899)].

الشأن البحري. فوُزِّع لهذا الغرض «ستَّة وأربعون فتى يونانيًّا من جزيرة ناكسيا على مختلف السُّفن واعتُبِروا تلاميذ بحارة»: «ارتأى غيورغي أندرييفيتش أنَّ من الأفضل توزيع هؤلاء الفتيان على السُّفن والفرقاطات، وتأمين الغذاء لهم والسعي لتعليمهم اللغة الروسيَّة، كي يحسنوا القراءة والكتابة، مع تعليمهم أصول الملاحة»[104]. لكنَّ التجارب التنويريَّة لم تقتصر على ذلك، فابتداء من تموز/يوليو 1773 رغب أورلوف بمنح تجربته المدرسيَّة صدى أوسع[105]، وبنقل «اليونانيين الصغار» إلى بيزا، حيث ابتاع منزلًا خصِّيصًا لمدرسته. ولقد كتب إلى غ. أ. سبيريدوف حينذاك يقول: «أرجو عدم التخلِّي عن الفتيان اليونانيِّين الذين اختيروا، وكذلك الذين سيُختارون في ما بعد، وإرسالهم عند توافر الظروف بالسفن مجموعاتٍ مجموعاتٍ من خمسة عشر فتى، وأنا هنا أعمل على تأسيس مدرسة لهم، وسأشتري منزلًا كبيرًا في بيزا لهذا الغرض، وأنا لا أعلم حتَّى الآن ماذا سيأمر به القصر بشأنهم، لكن أعتقد أنه يُعَدُّ لهم منزل هناك أيضًا، حيث سيتلقَّون شتَّى أنواع العلوم»[106]. في ما بعد، في عامي 1774 و1775، واصل أورلوف الاهتمام بالمدرسة بصورة مؤثِّرة. فكلف أ. ف. يلمانوف إرسال «جميع الفتيان إلى إيطاليا للدراسة والتربية في المدرسة التي أنشئت خصِّيصًا لهم في بيزا على متن سفينة حربيَّة» «مع الغذاء» (شرط موافقة أهلهم على ذلك، «من دون أيِّ إكراه»)[107]. وعندما غادر الأسطول البحر المتوسِّط، نُقل

(104) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 158-159, См. также: Гребенщикова, с. 411-413.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 158-159. يُنظر أيضًا: غريبينشيكوفا، ص 411-413].

(105) بالفعل تردَّد الصدى في أوروبا، فكتبت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) على سبيل المثال ما يأتي: «كان على متن الفرقاطة غريغوريوس أيضًا ستة وعشرون فتى يونانيًّا واثنتا عشرة فتاة يونانيَّة جاؤوا من مورية، وسيُنقلون بعد فترة حجر صحي إلى بيزا، لكي يتلقَّوا التعليم في المدرسة التي أنشأها الجنرال القائد العام أ. غ. أورلوف هنا بأمر من الإمبراطورة الروسيَّة» (*G. d'A.*, 1773, no. 93).

(106) *РГА ВМФ*, Ф. 190. Оп. 1, Д. 119, Л. 29об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 119، ظهر الورقة 29]؛ (رسالة أورلوف إلى سبيريدوف في عام 1773).

(107) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 158-159, 167-173об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 158-159، 167 - ظهر الورقة 173].

التلامذة اليونانيُّون من بيزا إلى روسيا[108]، حيث واصلت المدرسة عملها في سان بطرسبورغ[109]. أوجز ماتفي كوكوفتسيف في كتابه، تاريخ مدرسة ناكسيا



جزيرة ناكسوس

بأسلوب بالغ التنميق: «شعرت الجزر كلها بفيض السَّخاء الجزيل الذي بذلته كاترينا العظيمة الحكيمة التي أمرت ببناء مدرسة في جزيرة ناكسيا، رغبةً منها في إنهاض العلوم المتقهقرة. لكن، عندما أعيدت هذه الجزر إلى الباب العالي، نُقل الطلاب بواسطة الأسطول الروسي إلى سان بطرسبورغ، حيث ينعمون برعاية فينوس الأموميَّة»[110].

---

(108) *РГА ВМФ*, Ф. 172, Оп. 1, Д. 135, Л. 148.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 172، القائمة 1، الملف 135، الورقة 148].

(109) أنشئت في كانون الثاني/يناير 1775 بسان بطرسبورغ مدرسة للفتيان اليونانيين من الأرخبيل، وفي عام 1792 حُوِّلت إلى «فيلق إخوة الدين الأجانب». غير أنَّ هذه المدرسة أُقفلت بأمرٍ من بافل الأول في عام 1796. يُنظر: Г Л. Арш, *Этеристское движение в России: Освободительная борьба греческого народа в начале XIX в. и русско-греческие связи* (М., 1970), с. 134.

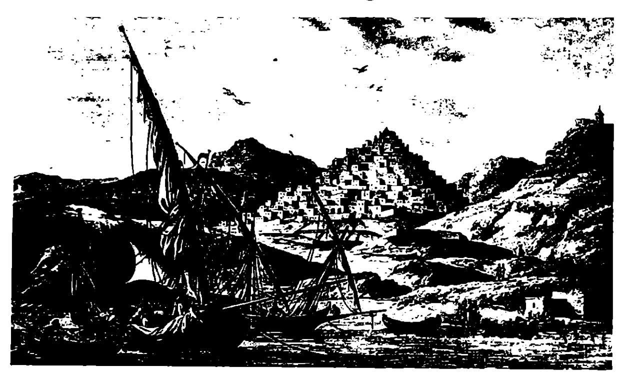
[غ. ل. آرش، **الحركة التحررية اليونانيَّة في روسيا: نضال الشعب اليوناني التحرُّري في بداية القرن التاسع عشر والاتصالات الروسية - اليونانية** (موسكو، 1970)، ص 134].

(110) Коковцев, с. 68-72.

[كوكوفتسيف، ص 68-72].

أنشأ الأسطول الروسي قاعدةً محصَّنةً على جزيرة ميكونو (ميكونوس)[111] أيضًا، التي شكَّلت جزء إمارة الأرخبيل الشمالي مع جزر: شكياتو (سكياتوس) وشاهيرو (سكيروس) وأندرو (أندروس) وتينو (تينوس) وسيرو (سيروس). وفي جزء الإمارة الشمالي الشرقي تقع جزيرة باتموس التي تحوي دير يوحنا الإنجيلي القديم[112].

كانت جزيرة ساموس، القريبة من شاطئ الأناضول في الشرق، كبرى جزر إمارة الأرخبيل، التي ظلَّت «تنعم برعاية الدولة الروسيَّة» بين عامي 1771 و1775، على حدِّ قول م. كوكوفتسيف. فقد كانت ساموس ذات أهميَّة، بالدرجة الأولى لحصار الدردنيل؛ ولذا، غدت قاعدة لعمارة إ. أ. بوريسوف،



جزيرة سيروس

(111) غالبًا ما كانت تتمركز في خليج ميكونوس واحدة من العمائر البحريَّة الروسيَّة (عمارة آرف، مثلًا)، فكانت تعطي الإشارة من ميكونوس إلى آوزا في باروس، عند ظهور سفن العدو بالقرب من قاعدة الأرخبيل. يُنظر، على سبيل المثال، أمر الأميرال سبيريدوف القاضي ببناء منارة في ميكونوس من الحطب، وإشعال النار فيها وإطلاق نيران المدفعيَّة عند اقتراب الأسطول التركي: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 44, Л. 15.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، الورقة 15].

(112) جاء نوَّاب باتموس إلى سبيريدوف في نهايَة نيسان/ أبريل 1771 «يلتمسون قبولهم رعايا لملكتنا الرؤوم»: *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 142.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 142].

وثائق الإدارة الروسيَّة في باتموس، يُنظر: M. Μαλανδράκης, «Νησιωτικά χρόνικα,» *Ελληνικά*, no. 9 (1936), Σελ. 69-116.

«ما من سفينة تركيَّة كانت قادرة على العبور» بالقرب منها: «وقد احتُجِزَ خلال تلك الفترة نحو مئتي سفينة مع حمولة أو من غير حمولة، أمَّا سفن الدول الأوروبيَّة الأخرى فكانت تُفتَّش ثمَّ تُترك بعد إنزال البضائع التركيَّة منها»[113].

إلى الجنوب من باروس تقع جزر كيكلادس المؤلَّفة من: ميلوس، سيكينوس، غيوس، تيرا (سانتورين) أموغروس، وهي كبرى الجزر التي رضخت للسيطرة الروسيَّة. ويبدو أنَّه لم تحصل أيُّ أعمال بناء جديَّة هناك، باستثناء التصريحات العامَّة عن أنَّ هذه الجزر صارت تعيش في «النعيم» بعد انتصارات «النسور الروس». وفي كلمته أمام المجلس في بطرسبورغ في 14 آذار/ مارس 1771، أشار أ. غ. أورلوف بصورة خاصة إلى جزيرة ميلوس بوصفها المكان الأفضل لتوقف الأسطول[114]، إلا أنَّ مناخ الجزيرة «لم يكن صحِّيًّا»، كما أنه كانت قد بدأت حينذاك أعمال بناء القاعدة في باروس.

كانت القلعة التركيَّة الصغيرة على جزيرة كاستيلوريزو بالقرب من ساحل الأناضول، التي استُولِيَ عليها بالحيلة، هي أقصى الممتلكات الروسيَّة الجنوبيَّة في حوض البحر المتوسِّط. فباتت تشكِّل «مرسى للطرَّادات الروسيَّة المُبحِرة في مياه سيروس كارامانوس»[115].

لم تعد أعمال الروس النشيطة لاستكشاف الأرخبيل - ولا سيَّما أعمال البناء في باروس - خفيَّة عن أعين المراسلين الأوروبيين. وعكست استنتاجاتهم منذ عام 1771 القلق من مخطَّطات روسيا ذات الأهداف بعيدة المدى.

---

(113) Коковцев, с. 60.
[كوكوفتسيف، ص 60].

(114) *АГС*, с. 370-371.
[أرشيف مجلس الدولة، ص 370-371].

(115) Коковцев, с. 68.
[كوكوفتسيف، ص 68].



خليج جزيرة ميلوس

وقد عرضت *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) الخبر الآتي من البندقيَّة في شهر تموز/يوليو على النحو الآتي: «يعمل الروس على بناء قلعة كبيرة في كلٍّ من باروس وميكون. وقد أصبحت هاتان القلعتان الآن مجهَّزتين بالمدفعيَّة وبالقوات. فالروس يعملون، على ما يبدو، على تنفيذ خطَّة بطرس الأول الذي أراد تأمين ملاحةٍ حرَّة، سواء أَفِي البحر الأسود أم في البحر الأبيض (المقصود بحر إيجة - المؤلفة)»[116].

لعلَّ الغيرة من نجاحات روسيا وحدها يمكن أن تفسر، في رأينا، ظهور مقالة تهكُّميَّة عن مركز إمارة الأرخبيل، في نشرة بريطانيَّة سنويَّة في عام 1773: «إن جزيرة باروس، التي اشتُهرت في الماضي بنبيذها ورخامها، وخُلِّد اسمها بفضل تماثيلها ومنحوتاتها، تشكِّل منذ فترة طويلة محطَّة رئيسة للروس. وعلى الرغم من أنَّ موقع هذه الجزيرة يتوسَّط الطريق بين مورية وبين آسيا الصغرى، يمكن أن يبدو ملائمًا للتوقُّف، فإنَّ هذا الأمر خطأ من نواحٍ كثيرة. فأوَّلًا، يتمثَّل العيب الرئيس في البعد عن اليابسة... عن آسيا الصغرى على وجه خاصٍّ. ومن العيوب الأخرى الأقل أهميَّة أنَّ صغر مساحتها وعدم خصوبتها يجعلانها غير ملائمة للراحة ولاستعادة هذا العدد الكبير من النَّاس قواهم.

(116) *G. d'A.*, 1771, no. 65.

وبالفعل، من المستغرب أنَّ الروس لم يتمكَّنوا خلال هذه السنوات من السيطرة على جزيرة واحدة كبيرة، من شأنها إمدادهم بالمواد الغذائيَّة لدعم عمليَّاتهم وضمان أمنهم عندما تحين ساعة الحقيقة»[117]، بعد النجاح الخارق الذي أسهم في سحق الأسطول التركي وجعل منهم الأسياد المطلقين على هذه البحار.

هكذا، قام الروس بعد احتلالهم جزر الأرخبيل بخطوات لا مثيل لها لبناء قاعدتهم في باروس وتجهيزها، من دون إهمال الجزر الأخرى، ومن دون أن يمتلكوا القوى الكافية لاستكشافها كلها دفعة واحدة ابتداء من عامي 1771-1772؛ إذ بدا كأن إمارة الأرخبيل بُنيَت لتبقى إلى الأبد، وأنه لم تكن هناك نيَّة بمغادرتها خلال العامين الأولين لأنه «لا يجوز التنازل عنها للإنكليز أو للفرنسيين»، كما كتب سبيريدوف إلى كاترينا. وليس عبثًا أنَّ المغامر الهولندي ومُحبَّ الحضارة الإغريقيَّة القديمة الكونت باش فان كرينين، الذي كان قد توجَّه إلى الجزر المكتسبة حديثًا، عمل على جمع معلومات عن كيفيَّة زيادة عدد السكَّان في الجزر، وإعادة تنظيم الحياة فيها نحو الأفضل. فعندما تبين له أنَّ سبب الأمراض التي أصابت السكَّان في جزيرة ميلوس كان انعدام النظافة، اقترح ما يأتي على سبيل المثال: «أعتقد أنه ينبغي بناء مدينة جديدة على رابية صغيرة تزيِّنها الحقول، تبعد ثلاثة أميال من المرفأ، وإجبار السكَّان مسبقًا على إحراق البلدة التي يعيشون فيها الآن، لأنهم جشعون متمسِّكون بأماكن معيشتهم، ولن يتخلَّوا عنها طوعًا»[118]. لا ريب في أنَّ روح التطرُّف - سواءٌ ألدى قادة حملة الأرخبيل، أم لدى مرؤوسيهم - كانت عصيَّة على الاستئصال! وإلا فكيف يمكن أن تسمَّى خطط نقل المدن؟!

---

(117) *A. R.*, 1773, p. 20.

(118) «وصف موجز لجزر الأرخبيل»، يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, c. 654.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 654 (الطبعة الروسيَّة)].

غادر سكَّان زيفير - عاصمة ميلوس القديمة - بلدتهم بالفعل، وانتقلوا إلى المكان الذي أشار إليه باش فان كرينين. لكن، لم يكن له فضل في ذلك. فعند وصول العسكريين الروس إلى ميلوس، كانت عمليَّة نقل العاصمة إلى بلاكا المعاصرة قد بدأت. يُنظر على سبيل المثال: Гр. Μπελιβανάκης, *Ιστορία της Μήλου. Συγκροτημένη από τις ιστορικές επιφυλλίδες της εφημερίδας «Μήλος» μιας 25ετίας 1976-2001* (Αθήνα, 2001); E. Gerousi, *Melos: The Christian Monuments of the Island* (Athens, 1999), p. 13.

## يونانيون، «روس»[119]، «ألبان»:
## التزاماتٌ وآمالٌ متبادلة

ظهرت في عام 1772 مسرحيَّة بافل بوتيومكين «الروس في الأرخبيل»، التي قدَّم فيها الشاعر حوارًا مفترضًا بين أ. غ. أورلوف والمدعو سوفرونيم شيخ الشعب اليوناني في جزيرة هيدرا:

**سوفرونيم لأورلوف:**
«أيها الزعيم، قائد الجيوش المظفرة!
حامي المسيحيِّين، حامل الاسم البطولي،
مثال العظمة، منقذ بلداننا:
مُرسَلٌ أنا من هيدرا باسم جميع المواطنين،
**لأطرح عند قدميك بيعة الشعب،**
**أنت الذي خلَّصتنا من البلوى والأنين،**
من بربريَّة الأعداء، من العبوديَّة خلصتنا..
عونك لنا منحنا الحياة،
هلاكنا كان قريبًا ومحتَّمًا
ولكنَّ يدك السخيَّة أنقذتنا..
أنقذت مدينة كاملة من الموت،
لَكُنَّا من دون مساعدتك فريسة الموت جوعًا.

**غ. أورلوف:**
حماية البؤساء في الزمن العصيب
واجب عام ومسؤوليَّة الجميع،
**من الشمال أتينا لندافع عنكم**
**بعدما تناهى إلى مسامعنا صوت قلقكم الحزين**[120]،

(119) كما سيتبين لاحقًا، أطلق اسم «الروس» على كل المشاركين في حملة الأرخبيل، بصرف النظر عن انتمائهم القومي.
(120) تلميح إلى التنبؤات التي تقول إن «شعبًا من الشمال» سوف يحرر اليونانيين.

لمولاتي الملكة خصلة إلهيَّة:
ما كانت لتغضَّ النظر عن آلام اليونانيين،
أولئك الذين جمعنا معهم القانون الواحد...
ما كانت لتصبر على أنينهم المرير.
أنا هنا لأنفِّذ إرادتها السَّامية،
أسعى لأن أُبدِّل مصير اليونانيين التعساء،
فضعوا أيديكم في يدي!
إلى متى ستصبرون على عسف الشرِّ
إلى متى ستبقى قيود العبوديَّة تعذِّبكم؟
انهضوا، ها نحن جئنا لإنقاذكم.

**سوفرونيم:**
... حياة اليونانيين صارت مُلك أيديكم...»[121].

بيد أنَّ النموذج المثالي الذي قُدِّم في بطرسبورغ كان بعيدًا من المصاعب الفعليَّة في إدارة شؤون الأرخبيل، التي يقطنها أبناء الدين الواحد «الأوفياء». فبناء التحصينات والمستشفيات والمدارس وقواعد الصِّيانة في الجزر، كان ينبغي أن تُسند باتِّفاقات مع «سكَّان الجزر»، بشأن إمدادات المؤن والأخشاب والمدفوعات الماليَّة لاحتياجات الأسطول الروسي. فقد أمر أ. غ. أورلوف، عند مغادرته الأرخبيل في تشرين الثاني/نوفمبر 1770، إيفان فوينوفيتش بجباية الإتاوات من جميع سكَّان الأرخبيل، التي كان يدفعها هؤلاء للقوبدان باشا سنويًّا، وتوزيع الطحين على الجزر لكي يحضِّر سكانها منه الخبز المجفف للأسطول[122]. ثم صدر في كانون الأول/ديسمبر 1770 أمر يقضي بجباية الإتاوة على شكل ماشية[123].

---

(121) П. Потемкин, *Россы в Архипелаге, Драмма* (СПб., 1772), с. 17-18.
[ب. بوتيومكين، **الروس في الأرخبيل: دراما** (سان بطرسبورغ، 1772)، ص 17-18].

(122) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 210-211об.
[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 210 - ظهر الورقة 211].

(123) أبلغ الكونت إيفان فوينوفيتش غ. أ. سبيريدوف عن حجم الإتاوات العينيَّة التي=

في تشرين الثاني/ نوفمبر - كانون الأول/ ديسمبر 1770 طلبت القيادة - كما أسلفنا - معلومات عن كيفيَّة إدارة الأراضي «الروسيَّة» الجديدة في العهد العثماني، وماهيَّة الجزيات التي كانت تدفعها[124]. وكان من الممكن عند تنظيم إمارة الأرخبيل الاستناد إلى المبدأ الذي صاغه ب. أ. رومیانتسیف بشأن مولدافيا وفالاشيا، ومفاده: «... إنَّ كلَّ شيءٍ جديدٍ يفرضه المنتصر من أجل هدم النظام القديم، يبدو أصعب»[125]. لذا، فقد حوفظ في الجزر على

---

= فرضت على الجزر: فقد كان على تينوس تقديم 300 رأس من الثيران، وأندروس 250 رأسًا من الثيران و1000 رأس من الخراف، وبوليكاندرو 15 رأسًا من الثيران و100 رأس من الخراف، وميلوس 30 رأسًا من الثيران و150 رأسًا من الخراف، وأرجانتيرو رأسين من الثيران و100 رأس من الخراف، وسيرفو 30 رأسًا من الثيران و200 رأس من الخراف، وسيفنو 20 رأسًا من الثيران و100 رأس من الخراف، وتيرميا 80 رأسًا من الثيران و400 رأس من الخراف، وسيرا 40 رأسًا من الثيران و400 رأس من الخراف، ونيوس 50 رأسًا من الثيران و300 رأس من الخراف، وناكسيا 50 رأسًا من الثيران 100 رأس من الخراف، وميكونوس 1000 رأس من الخراف فقط. وجُلب من نيوس وقتذاك 242 قنطارًا من الخبز المجفف، حيث كان القنطار العثماني يعادل 56,4 كلغ: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 2, Л. 11-14.

[أرشيف **الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 2، الورقة 11-14].

(124) كانت الجزر قبل الحرب تدخل في إيالة البحر، التي كانت تعتبر ملكًا للقوبدان باشا. وكان السكَّان اليونانيون يشكلون ملَّة أرثوذكسيَّة تتمتَّع بإدارة ذاتيَّة محليَّة وتدفع الضرائب المفروضة في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. للاطلاع على بعض المعلومات عن الوضع الاجتماعي الاقتصادي في اليونان في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر، يُنظر: О. Е. Петрунина, *«Восстань, о Греция, восстань!»: рождение греческой независимости глазами современников* (Симферополь, 1998).

[أ. ي. بيترونينا، **«انهضي أيتها اليونان، انهضي!»: ولادة الاستقلال اليوناني في عيون المعاصرين** (سيمفيروبل، 1998)]. ويُنظر أيضًا: K. Σάθας, *Τουρκοκρατούμενη Ελλάς, 1453-1821* (Αθήναι, 1869), t. 4.

ومن بين الدراسات اليونانيَّة الأساسيَّة الأخيرة بشأن وضع الجزر على تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يُنظر: Δ. Δη- μητρόπουλος, *Μαρτυρίες για τον πληθυσμό των νησιών του Αιγαίου, 15ος — αρχές 19ου αιώνα* (Αθήνα, 2004).

[**إيالة البحر**: أو إيالة جزر البحر المتوسط، أو إيالة الأرخبيل (إيالة جزاير بحر سفيد، بالعثمانيَّة) - ولاية عثمانيَّة شملت الأراضي اليونانيَّة الخاضعة للسلطنة العثمانيَّة. أنشئت في عام 1533 خصيصًا لخير الدين باشا، الذي كان أول من حصل على لقب القوبدان باشا، أو قبطان الأسطول (أي قائد الأسطول العثماني). كانت منذ إنشائها وحتى إقرار التنظيمات (الإصلاحات) في أواسط القرن التاسع عشر، خاضعة للقوبدان باشا مباشرة]. (المترجم)

(125) Н. Д. Чечулин, *Внешняя политика России в начале царствования Екатерины II, 1762-1774* (СПб., 1896), с. 331. =

مؤسَّسة «السنادكة»، وهم الشيوخ الذين كانوا ينتخبون لمدة سنة واحدة، وكانت مجالس الجزر تُبلغ المجلس المركزي في آوزا بعمليَّة الانتخاب. إلى جانب ذلك، كان يُعيِّن قومندانات في الجزر يخضعون للقيادة الروسيَّة[126].



ألكسي أورلوف بعد معركة شيسما محاطاً باليونانيين الشاكرين

اقترح غ. أ. سبيريدوف بعد تبلُّغه رغبة الإمبراطورة كاترينا في تقديم تنازلات للسكَّان غير الأتراك في المناطق المُستَولى عليها (أوصى المرسوم الملكي بتاريخ 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1769، ب. أ. روميانتسيف بـ «مداراة» «الفالاشيين واليونانيين والبلغار والأرمن والمنشقِّين واليهود، من سكَّان أراضي الإمبراطوريَّة العثمانيَّة التي احتلها الجيش»)[127] تخفيض الضرائب، وجباية عُشر المواد الغذائيَّة عينًا أو نقدًا: «وعلى هذا النحو، لن ينعتوا هذه الجباية بالنَّهب البربري، كما كانوا يفعلون في عهد الأتراك»[128]. وأمرت القيادة باتباع القاعدة الآتية إزاء جزر الأرخبيل كله: يُجبى من «جزرنا» عُشر المواد الغذائيَّة، أمَّا ما يحتاج إليه الأسطول زيادة عن ذلك فليُشْرَ من لدُنِ الجزر «لكن دونما إكراه»، وإذا احتجنا إلى شيءٍ «عاندوا

---

= [ن. د. تشيتشولين، سياسة روسيا الخارجيَّة في عهد كاترينا الثانية، 1762-1774 (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 331].

(126) لمزيد من التفصيل، يُنظر: Κοντογιάννης, Σελ. 235-240; Πασχάλη, Σελ. 234-292; Π. Κώνστα, *Η Ρωσία ως Ναυτική Δύναμις (860-1960 μ. Χ.)* (Αθήνα, 1964), Σελ. 117-126.

(127) *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Д. 7233, Л. 154-156.

[أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 2/ 6، شؤون حكوميَّة داخليَّة، الملف 7233، الورقة 154-156].

(128) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 655.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 655].

كان سكَّان جزيرة باروس أول من علم بفرض «العُشر»، وذلك في الثامن والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1771. يُنظر: Гребенщикова, с. 340-341.

[غريبينشيكوفا، ص 340-341].

في بيعه لنا، ففي هذه الحال فحسب يمكن مصادرته بالقوَّة والإبلاغ عن ذلك»؛ أمَّا بالنسبة إلى الجزر التي لم تكن مشمولة بالجنسيَّة الروسيَّة، ولم تكن تدخل ضمن إمارة الأرخبيل، فقد طُبِّقت عليها قوانين الزمن الحربي («أمَّا الجزر التي لا تحمل جنسيتنا، فيمكن مطالبتها بذلك تهديدًا ووعيدًا، ومصادرة ما لديها حتَّى ولو لم يكن فائضًا، ودفع الثمن الذي نراه مناسبًا. وإذا ما تمنَّعوا، أمكن مصادرته من دون مقابل، وإعطاؤهم إيصالًا بالكميَّة المصادرة، على أن يُدفع ثمنها لاحقًا عندما يصبحون مواطنين لنا (هكذا!)، أمَّا الأتراك فيُصَادَرُ منهم كلُّ شيء من دون مقابل»)[129].

في المحصلة، يمكن على أساس الوثائق المحفوظة استخلاص استنتاج مفاده أنَّ مقدار ما عمل العسكريون الروس على جبايته من سكَّان جزر إمارة الأرخبيل عادل ثلث أو حتَّى ربع ما كانوا يدفعونه للأتراك[130]:

- على سبيل المثال، كانت جزيرة أندروس الكبيرة كثيرة السكَّان (1,700 أسرة، أو 11 ألف نسمة، (بحسب إحصاءات أخرى) تدفع 23,500 قرش

---

(129) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 44, Л. 79об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، ظهر الورقة 79].

فُرضت قبل عقد صلح كوتشوك - كاينارجي، مثلًا، غرامات حربيَّة على جزيرة إيمبرا الصغيرة الواقعة على مقربة من الدردنيل، وكانت قد أدَّت خدمة كبيرة للروس؛ حيث جُمع عُمَد القرى كافَّةً على سفينة القيادة «المظفَّرة»، وطُلب إليهم «جباية غرامة حربيَّة لأسطولنا من هذه القرى قدرها 100 رأس من الثيران و400 رأس من الخراف، و2000 كيلة من القمح». كانت كيلة القمح العثمانيَّة تعادل 25,7 كيلوغرامًا. لكنهم لم يجمعوا من الجزيرة سوى 215 كيلة من القمح، ودفعوا 3570 قرشًا مقابل الباقي: РГВИА, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 69-70.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 69-70].

(130) خلافًا لهذه المعلومات، كتبت أ. كاماريانو سيوران تقول إنَّ النظام الضريبي كان مرهقًا جدًّا، مستندةً بذلك إلى مثال جزيرة ميتيلينا، التي كان يجب عليها دفع 150 ألف قرش، في حين كان يستحيل بيع الجزيرة كلها لقاء مبلغ كهذا. ونحن نعتقد أنَّ المثال الذي تذكره الباحثة الرومانيَّة غير موفَّق. فجزيرة ميليتينا (لسبوس) لم تدخل قط في إمارة الأرخبيل، بل كانت هدفًا للهجوم بوصفها جزيرة «معادية». ولذا، فإن ما فرض عليها لم يكن ضريبة، بل «غرامة حرب»: A. Camariano-Cioran, «La Guerre Russo-Turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965), p. 541.

لـ «شخص عالي المقام في القسطنطينيَّة»، بينما لم تدفع إلا ما يزيد على 8 آلاف قرش بقليل للروس في عام 1773، وفق ما ورد في الوثائق الروسيَّة؛

- أمَّا جزيرة نيا (إيوس) (300 أسرة، بمن فيها الأرامل واليتامى، و14 مطحنة، تبيع الجبنة والعسل والبصل والنسيج القطني)، فقد كانت تدفع 3,800 قرش للقوبدان باشا، إضافة إلى 300 قرش لحاشيته، بينما دفعت للروس في عام 1773، بحسب الوثائق الروسيَّة، 1,151 قرشًا، كان قسم منها عينيًّا؛

- بعدما كانت جزيرة ناكسيا (ناكسوس) (1600 أسرة) تدفع 15,000 قرش للقوبدان باشا، و1,100 قرش لمائدته ولحاشيته، فقد دفعت للروس في عام 1773 إتاوة عينيَّة ونقديَّة (شعير، فول، عرق، بصل، ثوم، خراف، شمام، ليمون، «برتقال»، ضريبة على الخنازير والنحل وكروم التين)، ما مجموعه 3,426 قرشًا؛

كانت جزيرة ميلوس ملزمة بدفع 6,700 قرش للقوبدان باشا (أمّا حينما كانت هذه الجزيرة خاضعة لمتعهِّدي جبابة الضرائب، وكانت مرغمة على دفع 829 قرشًا لمتعهِّد الضريبة، وخراج على الأنفس قدره 2,200 قرش، ونفقات شتَّى قدرها 152 قرشًا، وكذلك 500 قرش للقوبدان باشا، و450 قرشًا للمترجم، و250 قرشًا للسكرتير. «يصل مجموع ما ندفعه زيادة على الضريبة المجباة إلى 4,381 قرشًا»)، أي إنَّ مجمل ما كانت تدفعه الجزيرة في عهد الأتراك بلغ 11,081 قرشًا. أمَّا في عام 1773، فقد دفعت الجزيرة ضريبة العُشر بشكل عينيٍّ (شعير، قمح، عرق، حمص، شعير مخلوط بالقمح، فول، قطن، حجار رحى للمطاحن، ملح، ورخام شفاف)، إضافةً إلى 2,765 قرشًا نقدًا[131].

بدأ المشاركون في الحملة، ابتداءً من عام 1771، يكتبون عن خفض العبء الضريبي عن كاهل السكَّان في عهد الروس. فالمتطوِّع الأجنبي باش فان كرينين

(131) للاطِّلاع على المعطيات عن هذه الجزر والجزر الأخرى في إمارة الأرخبيل، يُنظر:
*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 38-59об., 98, 205; Ф. 190, Оп. 1, Д. 2, Л. 27-60.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 38 - ظهر الورقة 59، 98، 205؛ المجموعة 190، القائمة 1، الملف 2، الورقة 27-60].

بدأ وصفه للجزر بكلمات المديح الآتية: «لكن، منذ أن بسط نسور الشمال أشعة انتصاراتهم على هذه الجزر، صارت تعيش في حال ازدهار؛ إذ بات الأتراك لا يجرؤون على المساس بها... وعلى الرغم من أنَّ الخوَّات التي كانت تُفرض على هذه الجزر لم تكن باهظة في الماضي، فإنَّ العُمَد السفلة الذين كانوا يُسيِّرون أمورها، عملوا على إفقار أبناء جلدتهم من دون رحمة، وسهَّلوا للأتراك سبل نهبهم. أمَّا الآن، في ظل حكم الإمبراطورة الروسيَّة، فقد صارت الجبابة من هؤلاء النَّاس متهاودة جدًّا، غير أنَّ العُمَد لم يكفُّوا نهائيًّا عن تعسُّفهم»[132].

تتيح المعطيات الواردة أعلاه، في رأينا، التشكيك بمزاعم بعض المؤرِّخين اليونانيين التي تؤكِّد أنَّه مع مجيء الأسطول الروسي تضاعف العسف الضريبي والخوَّات[133]، بحيث صار سكَّان الجزر يترحَّمون على أيام العثمانيين[134].


يونانيون في جزيرة ناكسوس

لم يكن في ذهن غ. أ. سبيريدوف - حين أعلن إقامة إمارة الأرخبيل - أنَّ الإمبراطوريَّة قد تحصل على منفعة اقتصاديَّة ما من هذه الجزر الصغيرة القليلة السكَّان في بحر إيجة؛ فكتب إلى أورلوف في الثاني من شباط/ فبراير 1771 شاكيًا: «يبدو لي أنَّه لا فائدة لنا تُرجى من تبعيَّة اليونانيين الراهنة، بل على العكس، فنحن سنتكبد الخسائر لإطعام الفقراء بانتظار [المحصول] الجديد من قمحنا»[135]. وكانت المواد الغذائيَّة التي تُنتج

---

(132) وصف موجز لجزر الأرخبيل. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 522.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 522 (الطبعة الروسيَّة)].

(133) Κοντογιάννης, Σελ. 243-248; Πασχάλη, Σελ. 263-274.

(134) Κώνστα, Σελ. 121-126.

(135) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 654.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 654].

في الجزر وتوضع عليها اليد، غير كافية بصورة كارثيَّة. لذا، ظلَّ الأسطول الروسي يعتمد أيضًا على سفن النقل، التي كانت تنقل المواد الغذائيَّة والذخائر والبريد عبر ليفورنو ومينوركا.

مع ذلك، ظلَّت بعض الآمال تراود قائد الأسطول الروسي بشأن الدُّخول المستقبليَّة: «سنحصل منهم طوعًا خلال هذه السنة على عُشر ما سينتجونه من مواد غذائيَّة، عينًا أو نقدًا، وربما ستكون الحصيلة قليلة، بل أقل ممَّا كان يأخذه الأتراك...؛ أمَّا القمح الذي وُزِّع وسيُوزَّع على الفقراء، فسيعيده العُمَد ما إن ينضج المحصول؛ وسيبدأون بإظهار الطاعة والإذعان والثقة الأفضل تجاهنا»[136].

في تموز/يوليو 1772، أعدَّ بافل نيستيروف - الذي كان يتابع جباية ضريبة العُشر من دون كلل - وثيقةً بعنوان «أنظمة لصالحكم»، وُزِّعت على الجزر، وتضمَّنت تنظيمًا أشدَّ صرامةً للإتاوات والغرامات، وكذلك لإعداد التوثيق المالي في مجالس الجزر. وقد حُفظ النصُّ الكامل، الموجَّه إلى جزيرة شكياتو (سكياتوس، سبورادي الشماليَّة)، باللغتين:

يُجبى عُشر ما تنتجه الأرض. يدفع سكَّان الجزر ثلاثة في المئة من كل شيء، والأجانب أربعة في المئة، باستثناء ما يؤكل.

يُعيَّن جباة للضرائب، بناءً على أمر صادر عني، ويتعيَّن عليهم رفع كشفٍ شهريٍّ بالمبالغ التي يجبونها، وعلى أعضاء المجلس الاطِّلاع عليه. وتقتضي العدالة أن يدفع الشعب للجابي ما يوازي عُشر ما يُجبى لصالح الخزينة، وذلك لقاء أتعابه في الجباية وفي حفظ أموال الخزينة. وإذا ما تمنَّع أحد عن الدفع، تُجبى منه - إذا كان من السكَّان - ضريبةٌ مضاعفةٌ عقابًا له على تمنُّعه، ومن الأجانب ثلاثة أضعاف، لكن على المجلس أن يُنعم النظر في الأمر كي لا يحصل تحامل غير مبرَّر. أمَّا إذا اكتُشِفَت عمليَّة تهريب، فيرغم المذنب على دفع ضريبة مضاعفة أربع مرات، ويُعاقب علاوة على ذلك.

(136) المرجع نفسه، ص 645-655.

إذا ما سبَّبت بهيمةٌ ضررًا في أملاك أحدٍ ما، يُلزَم صاحبها بتعويض الخسائر بسبب الإهمال، على أن يُقدَّر حجم الضرر وسنوات التعويض. ويُلزَم أيضًا بدفع ما يعادل عُشر التعويض للدولة، ويُحكَم عليه بجرمه. كما ينبغي أن يُعاقب اللصوص بدفع غرامات ماليَّة، على أن تكون غرامة السرقة أكبر.



نساء في جزيرة تينوس

تستعمل أموال الغرامات المُحصَّلة لدفع رواتب الموظفين في المجتمع. أمَّا من يُحتجزون لتورُّطهم في عراكٍ فيُعاقبون بموجب القانون، ويُلزمون بدفع غرامات ماليَّة، تضاف إلى الأموال العامَّة، وفقًا لما ورد أعلاه.

على أمين الصندوق المنتخب أن يمسك دفترًا لتدوين كلِّ ذلك.

«ابذلوا جهدكم للقيام بكلِّ ما هو في صالح الدولة، بحرصٍ وصلاحٍ، ولتنفيذ كل ما يأمركم به قادتنا والسيد أميرال الأسطول، بإيمان وإخلاص ... تموز/ يوليو 1772»[137].

غير أنَّ آمال سبيريدوف بالحصول على دخل في العام الخصيب لم تتحقَّق، كما لم تُثمر جهود نيستيروف على ما يبدو. ففي نهاية آب/ أغسطس من عام 1772 نفسه، كتب أ. غ. أورلوف إلى ن. إ. بانين من متن السفينة «روستيسلاف» الراسيَّة قبالة جزيرة ناكسوس: «يتواصل استنزاف قوانا هنا، لأنَّ الخزينة لا تزال تتكبَّد نفقاتٍ مفرطة في هذه المناطق، وسفننا يصيبها الهريان،

(137) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 67-68.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 67-68]. استمارات «أنظمة لصالحكم» المُعدَّة للإرسال إلى الجزر الأخرى محفوظة في الملف نفسه (الورقة 58-66).

وأعداد النَّاس تتناقص بصورة طبيعيَّة، ولا نجد سبيلًا إلى التعويض عن الخسائر»[138]. في غضون ذلك، ظلَّت ترد إلى المجلس «الشكاوى المتوسلة» من سكَّان الجزر المطالب بتأجيل الدفع[139] من جهة، وكذلك الأوامر الصادرة عن أ. غ. أورلوف التي تحثُّ على «العمل على ألَّا يكون في جزر الأرخبيل الخاضعة لروسيا أيُّ متأخِّرات في جباية المدفوعات الواجبة عليها»[140] من جهة أخرى. وفي المحصِّلة، لم يتمكَّن نائب أميرال الأسطول أ. ف. يلمانوف من استيفاء ضريبة العُشر البالغة خمسة آلاف قرش إلا بصعوبة، قبيل مغادرة الأسطول في عام 1775[141].

يبدو أنَّ «الثقة والطاعة» من جانب السكَّان المحليين لم تكونا كافيتين. ولم يتجلَّ ذلك في عدم دفع الإتاوة بالكامل فحسب[142]. فصورة الدولة اليونانيَّة «الحرة» المثاليَّة، المزدهرة بحماية الأسطول الروسي، لم تصمد أمام التجربة

---

(138) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, с. 255.
[مراسلات الكونت ن. إ. بانين والكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، ص 255].

(139) يُنظر على سبيل المثال: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 2, Л. 61, 67.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 2، الورقة 61، 67].

قُدِّمت ليونانيَّة من السكَّان المحليِّين تدعى ميتاكسا مساعدة من الإتاوة التي جُبِيَت من جزيرة شاهيرو (قدرها 1,012 قرشًا)، «لإعالة فتاتين مسيحيَّتين صغيرتين في السن أُعتِقتا من الأسر، 7 قروش و20 بارة و170 إقَّة من الخبز المجفَّف (المرجع نفسه، ظهر الورقة 45)، وكذلك دفع مبلغ 501 قرش من أموال الخزينة مستحقَّة للموظف في المجلس المتوفَّى حاجي، بناءً على طلب أرملته (المرجع نفسه، الورقة 61). البارة: قطعة نقديَّة فضيَّة تعادل 1/ 40 من القرش، أو 2,5 كوبيك روسي (في نهاية القرن الثامن عشر). الإقَّة: وحدة وزن عثمانيَّة تعادل 1,28 كلغ.

(140) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 171об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، ظهر الورقة 171].

(141) Гребенщикова, с. 436.
[غريبينشيكوفا، ص 436].

(142) اتضح في عام 1773 أنَّ يونانيي إمارة الأرخبيل عقدوا اتفاقًا سريًّا مع الإنكليز لبيعهم القمح من وراء ظهر الروس، الذين كانوا بأمس الحاجة إلى إمدادات الخبز. واضطر غ. أ. سبيريدوف إلى إصدار أمر خاص يحظِّر على اليونانيين – رعايا روسيا – بيع القمح. يُنظر: Гребенщикова, с. 416.
[غريبينشيكوفا، ص 416].

في أثناء الاتِّصالات المباشرة بين أهل الجزر وبين العسكريين، حيث تولَّد شعور بعدم الارتياح متزايد لدى الطرفين.

كان لدى كلٍّ من الطرفين ما يكفي من الأسباب لعدم الارتياح. فسكَّان الجزر اليونانيون الذين سعوا إلى جني أقصى ما يمكن من المنافع من وجود الأجانب على أرضهم، أثاروا الشكوك لدى المشاركين في الحملة أكثر ممَّا أثاروه من التعاطف. فعلى سبيل المثال، كان من المفترض أن يؤدِّي وجود الأسطول الروسي إلى إثراء سكَّان باروس والجزر المجاورة، الذين رفعوا الأسعار بصورة حادة. ويتذكَّر القبطان خميتيفسكي أنَّ المأكولات والأحذية والثياب الباهظة الثمن في آوزا، ... فرطل لحم الدجاج يساوي ستين كوبيكًا، ورطل لحم البقر ستة، والخروف أغلى ثمنًا. وهي، حتى مع هذه الأسعار، غير متوفِّرة للشراء دائمًا. والبيضة في السوق بثلاثة كوبيكات، ورطل الخبز بعشرة كوبيكات. وإذا أخذنا في الحسبان أنَّنا نحصل على راتب قدره تشيرفونتس واحد، أي روبلين وستِّين كوبيكًا، وندفع روبلين وأربعين كوبيكًا، وهكذا يبدو السعر أعلى»[143]. فضلًا عن ذلك، استغلَّ التجَّار اليونانيون، على الأرجح، عدم معرفة البحارة الروس الكافية بالفاكهة الاستوائيَّة «الغريبة»، فحاولوا بيعهم بضاعة غير ناضجة، وهو ما يدلُّ عليه، مثلًا، الأمر التالي الذي أصدره يلمانوف: ينبغي «تفتيش كل المراكب والزوارق التي تدخل مرفأ آوزا <...>، وإذا ما عُثر في واحد منها على أيِّ ثمار أرضيَّة أو فاكهة شجريَّة غير ناضجة، فلا يُسمَح لها بالدخول إلى الميناء، ويُمنع من نقل البضاعة مستقبلًا»[144].

لكن، لم يصب الإثراء الجزر. وتزايدت شكاوى السكَّان أكثر فأكثر من

---

(143) صحيفة س. ب. خميتيفسكي، يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 628.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 628 (الطبعة الروسيَّة)].

(144) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 111об.-112 (от 22 июня 71 г.).

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 111 - الورقة 112 (بتاريخ 22 حزيران/ يونيو1771)].

يُنظر أيضًا: Гребенщикова, с. 335.

[غريبينشيكوفا، ص 335].

أعمال السَّلب واللصوصيَّة والنَّهب، التي كان يمارسها عسكريُّو الوحدات النظاميَّة، وكذلك **الألبان** من التشكيلات العسكريَّة غير النظاميَّة[145].

في ما يأتي بعض القضايا التي اضطرَّ المجلس اليوناني في آوزا إلى التحقيق فيها:

في شهر شباط/ فبراير 1771، أتى الراهب إيسايا، رئيس دير القديس مينا القائم في القسم الجبلي من باروس، إلى آوزا، جريحًا، وقد بدت عليه آثار الضرب، وروى أنَّ ضابطًا روسيًّا جاء إلى الدير ومعه عريف وبضعة جنود لحضور القداس، حيث قدَّم الضابط صدقة. وبعد ذلك، اقتحم هؤلاء الجنود الدير بفصيل من ثلاثة عشر جنديًّا، مطالبين بالعرق، فحطموا الباب وجرحوا رئيس الدير ووالده وشقيقته، ثم أخذوا النقود وحملوا كلَّ ذي قيمة[146].

---

(145) تقدَّم سكَّان جزيرة ميكونوس المجاورة لباروس في آب/ أغسطس 1772 بالشكوى الآتية إلى ديوان سبيريدوف: «قام عدد كبير من رجال الأسطول في جزيرتنا بأكل الفواكه التي تخصُّنا، أي الحمص والتين والعنب وغير ذلك... لقد تكبَّدنا خسائر كبيرة»؛ حتَّى إنَّ مجموعات الحراسة التي وضعها يلمانوف لحراسة بساتين الميكونسيين عجزت عن حمايتها من النهب في ذاك العام:
*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 121, Л. 70.

[أرشيف **الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 121، الورقة 70].

(146) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 12-13об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 12 – ظهر الورقة 13].

تحفل رواية رئيس الدير بتفاصيل جديرة بالاهتمام: ففي الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير من 1771، جاء إليه في الدير «ضابط روسي قصير القامة يرتدي سترة خضراء اللون وقميصًا طويلًا أحمر... لديه شاربان صغيران مصبوغان، ويحمل شيشًا بشريط مذهب، يشبه السيف. جاء إلى الدير، وأصغى إلى الصلاة ثم منحني هذا الضابط نصف قرش، وكان معه ثلاثة أشخاص...»؛ وتابع رئيس الدير إفادته: «دعوتهم بعد الصلاة إلى صومعتي، واستبقيتهم على الغداء، وراحوا يشربون بصحة إمبراطورتنا الرحوم (كذا!) أثناء تناولهم الطعام، ثم بصحة سمو الأمير المعظم ولي عهد العرش الإمبراطوري الروسي، وحينما بدأوا يشربون بصحة ولي العهد، قلت باللغة الروسيَّة إنني أشرب بصحة وليِّ العهد بافل بتروفيتش، فأجابني الضابط المذكور أنه هو أيضًا يُدعى بافل بتروفيتش. ثم أشار إلى الآخرين الذين كانوا يرتدون قمصانًا طويلة حمرًا، قائلًا: هؤلاء جنود الحرس. وبعد ذلك نهضنا عن المائدة، وغادر الضابط والجنود الدير، بعدما أبدوا لي كل مودَّة.

وفي الثاني من شباط/ فبراير، جاء بعض الأشخاص إلى منزلي وصاروا يقرعون الباب، فنهضت =

في عام 1773، شكا سكّان جزيرة ساموس من بحارة الفرقاطة «غيورغي بوبيدونوسيتس»، الذين جاؤوا إلى الجزيرة لتسلُّم الحطب وشراء البصل. فقد طالب هؤلاء البحارة، على حدِّ قولهم، بالعرق والنبيذ، وحطَّموا الأبواب ونهبوا السكّان المحليّين[147].

من جهتهم، فَقَدَ الروس الذين جاؤوا لتحرير إخوة في الدين، أيضًا، الثقة باليونانيّين، وتعاملوا معهم بتأفُّف وتهكُّم. وكتب سبيريدوف الذي استحوذت عليه فكرة إقامة دولة يونانيَّة جديدة في الأرخبيل، في كانون الثاني/ يناير من عام 1771 يقول: «إنَّ اليونانيِّين بأغلبيتهم يستحقُّون الشَّفقة، أكثر من الصرامة

---

= وسألت من الطارق، فكان الجواب: «أيها المسيحي، افتح الباب! وعرفت من جوابهم أنَّهم روس. فأجبتهم أنَّ الوقت ليل، ولا عرق لدي. لكنَّهم لم يصغوا إلى كلامي وحطَّموا الباب، ودخل بدايةً شخصان عرفت فيهما اثنين من الجنود الذين تناولوا الغداء مع الضابط عندي. <...> دخلا عليَّ باحترام كي أباركهما، فباركتهما، ثم غادرا. وفجأة، اقتحم ثلاثة عشر رجلًا المكان، كان أحدهم بسترة خضراء اللون، واثنا عشر آخرون بقمصان طويلة حمر. أمر ذاك الذي كان يرتدي السترة بالإمساك بي، ووضع اثنين من الرجال شاهرين السيف عند الباب في الداخل، واثنين آخرين في الخارج شاهرين السيف أيضًا. أمسك الآخرون بي وبوالدي وشقيقتي وأخذوا يضربوننا، فكسروا رجلي والدي وجرحوا يدي شقيقتي بالسيف. أمَّا أنا فقد أصابوني بجروح في رأسي بالسيف أيضًا. ثم أخذوا يطالبوننا بالنقود، فدللتهم على مكانها. أخذوا 443 قرشًا، وكذلك زوجين من الأساور الذهبيَّة النسائيَّة، وزوجي أقراطٍ ذهبيَّين وخاتمًا ذهبيًّا. أخذوا أيضًا أشياء كثيرة غيرها، لا أستطيع تذكُّرها كلِّها الآن. وبعدئذٍ، قيدوا رجليَّ وفعلوا الشيء نفسه بوالدي وشقيقتي، وخرجوا وأقفلوا الباب من الخارج. ففككنا قيودنا بعد مغادرتهم، وتسلَّقت السياج بصعوبة ثمَّ فتحت الباب. في الصباح، أتيت إلى آوزا، وأبلغت المجلس اليوناني بكلِّ ما حدث، فقادني سكرتير المجلس إلى المنزل، وذهب هو برفقة شقيقي [هكذا وردت في الأصل الروسي، والأرجح «شقيقتي» بحسب السياق. (المحرر)] إلى المعسكر الأول، لأنني كنت عاجزًا عن الذهاب بسبب الجراح. وعند عودته قال لي إنهم قالوا له في المعسكر إنَّ ما ذكرت غير ممكن الحصول، لأنَّ الجنود لا يمكنهم مغادرة المعسكر ليلًا، <...> ثم رجعت وذهبت مع السكرتير إلى معسكر آخر. وهناك، عندما رآني السيد العقيد تول، أمر على الفور بتضميد جراحي، ووُضعت في غرفة العلاج، حيث عادني السيد تول نفسه مرتين. بقيت عندهم في المعسكر، وعندما قلت للعقيد إنَّني أستطيع التعرُّف إلى الشخصين اللذين كانا بين اللصوص في الدير، وكانا قبل ذلك في الدير أثناء الصلاة، وأحدهما يُدعى نيقولاي والآخر إيفان، استعرض جنوده في كل سريَّة أمامي، ولكنَّني لم أتعرَّف إلى الشخصين المذكورين بينهم؛ ثمَّ وُضعت بعد ذلك في غرفة العلاج مجدَّدًا. وفي ذلك اليوم، جاء سكرتير المجلس ومعه السيد العقيد تول الذي أمرني بالذهاب إلى الأمير. ولذا، جئت حاملًا إفادتي هذه».

(147) *РГА ВМФ*, Ф. 188, оп. 1, Д. 66, Л. 83-84об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 83 - ظهر الورقة 84].



دير مار مينا في باروس

من جانبنا، لأنَّهم لم يساعدوا الأتراك طوعًا ضدنا قطّ حين كانوا مسلَّحين... إنَّهم يخافون الأتراك...»[148]. إلا أنَّه سرعان ما بدأت تطغى في أحاديثه عن السكَّان المحليِّين المواعظ حول كسل رعايا كاترينا الجزيريين ومكرهم[149]، وعن عدم رغبتهم في العمل وإنْ لقاء أجرٍ كبير. وتذمَّر أ. ف. يمليانوف في عام 1774 من عدم تمكُّنه من تأمين نجارين ونشارين لترميم السُّفن («للعمل إلى جانب أولئك العاملين في الأدميراليَّة[150]، القليلي العدد المنهكين من الأعمال المرهقة، الذين لا يمكن اعتبارهم في عداد العاملين»)، إذ تعذَّر استئجار «يونانيين، لا إكراهًا ولا لقاء مال، ولو لقاء قرش في اليوم»، «فهم لا يبقون في العمل أكثر من ثلاثة أيام، ثم يفرُّون بعدها»[151]. أمَّا س. ب خميتيفسكي فكان أقسى في الكتابة عن استئجار الألبان للعمل: «إنهم

(148) المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، الورقة 19.

(149) نذكر، على سبيل المثال، التقرير بشأن تحضير الخبز المجفَّف للأسطول: «كُلِّفت جزيرة تينوس بتحضير الخبز المجفَّف، وهي جزيرة كان في إمكانها تأمين الخبز المجفَّف للأسطول كلِّه من قمحنا وبأموالنا» لكثرة عدد سكانها وقراها وبلداتها، وطواحين الماء والهواء الموجودة فيها، لو بذلت جهدها، ولو تخلَّت عن الكسل وعن مختلف الذرائع المختلقة. ولو حدث ذلك لما تكبَّدنا الخسائر، بل لحصلنا على أرباح، ولكن «**لا يمكن الركون إلى وعودهم**» (التشديد من المؤلفة). لذا، فقد أمر القائد بجمع «الألبان» والجنود وتكليفهم بتحضير الخبز المجفَّف (المرجع نفسه، الورقة 72 – ظهر الورقة 73).

(150) مركز صون السُّفن. (المترجم)

(151) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII (СПб., 1888), с. 242.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12 (سان بطرسبورغ، 1888)، ص 242].

عراة وجوعى. يقتاتون بالعشب وحده. ويبدون أشبه بأشباحٍ بشريَّة. ولأنَّهم كسالى ولا يرغبون في القيام بأيِّ عمل، تراهم يفضِّلون على العمل الاكتفاء بأكل العشب وحده والسير عراة. لقد أخذت مثل هؤلاء الجياع المترنِّحين إلى سفينتي للعمل بأجر قدره أربعة قروش في الشهر، لكنهم عجزوا عن التكيُّف وانغمسوا في الكسل. ويمكن القول إنَّ اليونان كلَّها غارقة في الكسل»[152].

لعلَّ كبير العمال م. كوكوفتسيف عبّر، في معرض توصيفه طبائع سكَّان الأرخبيل، عن الرأي السائد بين المشاركين في الحملة، حين قال إن يونانيِّي الأرخبيل «الذين تنعَّموا في دولة كاترينا العظمى بين عامي 1771 و1775... يعيشون في الجهل والفقر ويقتاتون من ثمار الأرض. والسبب في ذلك كلِّه الكسل والجهل والحكم التركي الفوضوي...؛ يستخدمون ذكاءهم... في الخداع والتكلُّف والنفاق... عشقهم للفضَّة يستحوذ على قلوبهم...، مستعدُّون للتضحيَّة بأفضل الأصدقاء والأقارب في سبيل بريق المعدن، إذا ما سنحت الفرصة لهم بالحصول على كسبٍ ما. وعملهم الرئيس رواية القصص والإصغاء إليها، وهم يتطيَّرون من القانون، ويغارون على النساء إذ يحبسونهنَّ في الخباء على غرار الأتراك»[153].

بحسب رأي كوكوفتسيف، يمكن اعتبار سكَّان جزر «تينوس وسيرو وميكونوس وناكسيا وباتموس» فحسب متنوِّرين، لأنَّهم يعملون في التجارة البحريَّة. فسكان تينوس وأندروس، بحسب اعتقاده، كانوا «متنوِّرين إلى حدٍّ ما، وهم **يمارسون الملاحة البحريَّة باستمرار**، ويبيعون منتجات الجزر الأخرى»، بينما يتَّسم يونانيُّو جزيرة شاهيرو المغطاة بغابات كثيفة «بضعف التنوُّر «لأنَّهم «يعملون في الزراعة بصورة أساسيَّة»[154]. وربط باش فان كرينينٍ هذين «التوحُّش والبربريَّة» بالسيطرة العثمانيَّة والنزاعات الداخليَّة التي حلَّت بعد

---

(152) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 627.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 627 (الطبعة الروسيَّة)].

(153) Коковцев, с. 68-71.

[كوكوفتسيف، ص 68-71].

(154) المرجع نفسه، ص 23-24، 36، 12.

سقوط بيزنطة: «ظلَّت هذه الجزر، بعد سقوط المَملكة اليونانيَّة، تنتقل من نيرٍ إلى آخر. وسقطت، على غرار اليونان نفسها، في لجَّة الفقر المدقع، وفقدت تحت نير البرابرة أخلاقها وكلَّ خصالها الحميدة، وانحدرت إلى أسوأ حال، وحُرمت دومًا من ممتلكاتها وأبنائها، وافتقرت إلى القوة في مقاومة هذا الانهيار الفظيع، الذي كان أهلها مسبِّبيه إلى حدٍّ كبير، نتيجة الصراعات الداخليَّة المتواصلة في ما بينهم وتحاسدهم بعضهم لبعض»[155].

يبدو أنَّ الروايات عن حالات الخداع الكبيرة والصغيرة التي تعرَّض لها الروس على يد اليونانيِّين، كانت موضوع أحاديث شبه دائم. وثمَّة روايتان من هذا النوع جديرتان بالذكر: انتهت **أولاهما** بخسارة للروس، و**ثانيتهما** بالمكاسب.

عُيِّن الملازم في الأسطول أ. إ. بوليكوتي، «المخلص والمُجِدُّ في العمل»، على رأس الإدارة في جزيرة تاسوس (أو، كما كتب سبيريدوف، «وضعت الجزيرة تحت تصرُّفه»)، حيث كان الأسطول يتزوَّد بخشب السُّفن. وزع بوليكوتي الخبز على اليونانيِّين الجياع من العاملين المُعدَمين لدى «العُمَد» المحليِّين (مُلَّاك الأرض، أغلب الظن) بدافع الشفقة، وهم تعهدوا بسداد الدين شمعًا وزيت زيتون وقطرانًا ورؤوس ماشية، إلا أنَّه تعرَّض للخداع. فحين أرسل «فرقًا» إلى القرى للحصول على هذه المواد لم تعثر هناك على أحد؛ إذ فرَّ السكَّان بمواشيهم إلى الجبال. وأُلقِيَ القبض على سبعة من العُمَد، وحين أُرسِل اثنان منهم لجلب الماشية والنقود لم يعودا من المهمَّة. كانت سفينة بوليكوتي على أهبة مغادرة الجزيرة، وتعذَّر القيام بعمليات المصادرة لضيق الوقت، ولذا فقد اكتُفِيَ بتقييد العُمَد الخمسة بالسلاسل. طلب سبيريدوف من أورلوف بعد هذه الحادثة، السماح له بإعدام المعتقلين شنقًا عند عودة السفينة إلى تاسوس في الربيع. وأضاف الأميرال: «ولا بأس أيضًا من تدمير

---

(155) وصف موجز لجزر الأرخبيل. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 521.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 521 (الطبعة الروسيَّة)].

بعض القرى هناك لإرهاب الآخرين»[156]. وباختصار، لم يختلف أسلوب العمل الذي اقترحه سبيريدوف كثيرًا عن أعمال أعدائه الأتراك، كما أنَّ السكّان المحليِّين تصرَّفوا وفقًا للأسلوب الذي اعتادوا عليه. يبقى الافتراض أنَّ المسألة سُوِّيَت، لأنَّ المصادر لا تذكر أيَّ معلومات أخرى عن نزاعات من هذا النوع. ويبدو أنَّ القيادة ظلَّت تتَّبع تكتيك «المداراة» بثبات.

تروي الحكاية الثانية (رواها م. كوكوفتسيف) كيف «أنَّ أحد القباطنة الروس من أصلٍ سلوفيني، يقود السفينة الشراعيَّة الثلاثيَّة الصواري زابناكو («زابياكو»[157]– المؤلفة)، وصل إلى جزيرة كاسترو روسو بعدما عرف أنَّ موقع مينائها ملائم، واحتجز عدَّة يونانيِّين. وبعدما علم منهم أنَّ عدد الأتراك في القلعة يفوق عدد رجاله بعدة أضعاف، وأنَّه يستحيل الاستيلاء على القلعة الواقعة على جرفٍ صخريٍّ منيعٍ، حتَّى ولو كانت قوَّات كبيرة، قرَّر اللجوء إلى حيلة حربيَّة. وإذ كان يعرف طبيعة اليونانيين المتقلِّبة، قال لهم إنَّه مُرسَل من قِبَل الأسطول الروسي لمعاينة ميناء كاسترو روسو، وإنَّ الأسطول كلَّه سيصل إلى هنا بعد 24 ساعة، وطلب منهم عدم إخبار الأتراك بذلك تحت طائلة العقاب الشديد. ولكنْ، لم يكد اليونانيون يصلون إلى القلعة حتَّى أخبروا الأتراك بما سمعوه. فغادر هؤلاء المكان بقوارب صغيرة إلى كارامانيو (الأناضول – المؤلفة) تحت جنح الظلام، تاركين القلعة وما فيها من مدافع. ومنذئذٍ صارت هذه الجزيرة محطَّة للطرَّادات الروسيَّة التي كانت تبحر في مياه سيرا وكارامانيو»[158].

---

(156) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 652.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 652].

(157) كانت السفينة الشراعيَّة «زابياكو» بقيادة نيقوليتو كوجيفيتش (كثيرًا ما كان يُطلق على هذه السفينة اسم «نيقوليتوفا»، في وثائق ديوان كلٍّ من سبيريدوف ويلمانوف). وبعد عقد صلح كوتشوك – كاينارجي، أبدى نيقوليتو كوجيفيتش رغبة في الانتقال مع أسرته إلى القرم في روسيا. فزوَّده أورلوف شخصيًّا بجواز السفر. *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. I, Д. 85; А. Б. Широкорад, *Адмиралы и корсары Екатерины Великой: Звездный час русского флота* (М., 2006), с. 116.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 85؛ أ. ب. شيروكوراد، **أميرالات كاترينا العظمى وقراصنتها: لحظة صعود الأسطول الروسي** (موسكو، 2006)، ص 116].

(158) = Коковцев, с. 67-68.

ظهرت الاتِّهامات الجاهزة لليونانيِّين - بالنِّفاق والمكر والميل إلى الخداع والخيانة[159] - التي حفلت بها الكتابات المختلفة، كما أشرنا، عقب إخفاقات الأعمال المشتركة في مورية. إلا أنَّ تجربة إنشاء إمارة الأرخبيل عزَّزت خيبات الأمل المتبادلة أكثر (وفي أيِّ حال، يمكن مصادفة مثل كلِّ تلك الاتهامات في الكتابات عن الثقافات غير المعروفة إلا قليلًا. وكما لاحظ لاري فولف لم يتفادَ الرحَّالة الذين استكشفوا أوروبَّا الشرقيَّة مثل هذه الاتِّهامات المعلَّبة)[160].



قلعة كاسترو روسو. صفحة من صحيفة السفينة «اليونان»

فما الذي كان يمكن توقُّعه، إذًا، من المشاركين العاديِّين في الحملة، الذين أنهكتهم أثقال الحرب والمناخ الغريب والأمراض، والذين تفاعلوا بحدَّة مع تباين اليونانيِّين واختلافهم عن الصورة الأولى المفترضة لأبطال الإغريق والمسيحيِّين العظام، بينما أصابت حرقة الخيبة حتَّى أصحاب الفكرة المبادرين إلى هذا المشروع!

---

= [كوكوفتسيف، ص 67-68].

(159) عُرضت هذه الاتهامات بكل تفاصيلها في الطبعة الأحدث من كتاب: Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II.*

[غريبينشيكوفا، أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية].

(160) Л. Вульф, *Изобретая Восточную Европу: Карта цивилизации в сознании эпохи просвещения* (М., 2003).

[ل. فولف، ابتكار أوروبا الشرقيَّة: خريطة الحضارة في وعي عصر التنوير (موسكو، 2003)].

لم تسهم القوّة الثالثة، أي القوّات غير النظاميّة - المكوّنة من طيفٍ متنوّعٍ من حيث الانتماء القومي من سكّان البلقان والأرخبيل - في التخفيف من حِدّة عدم الارتياح المتبادل بين المشاركين في الحملة وبين سكان إمارة الجزر اليونانيِّين. فسكّان إمارة الأرخبيل «الحرة» المدنيُّون كانوا أكثر من يخشون هذه القوّات بالتحديد.

منذ صيف 1771، أخذت شكاوى سكّان الجزر من قرصنة «الألبان» و«إساءاتهم» تتدفّق على مركز القيادة في آوزا. ففي الحادي عشر من آب/ أغسطس 1771، شكا سكّان قرية باريكيا في باروس من أنَّ «العسكريِّين الأرناؤوط والألبان والموريين والسفاسيِّين وغيرهم من اليونانيين الذي يخدمون في القوّات غير النظاميَّة، يسبِّبون الإساءات والمضايقات للسكّان المحليين وزوجاتهم وأطفالهم، ويهدِّدونهم بأنَّهم سيُلحقون بهم ضيمًا وأذى أكبر بعد مغادرة القوّات النظاميَّة»[161]. وكتب سكّان ليفكا (ليفكوس) في باروس ويونانيُّو جزيرة ناكسوس وغيرها عن الأمر نفسه. فاضطرت القيادة إلى اتِّخاذ تدابير جديَّة سريعة لوضع حدٍّ لأعمال القرصنة[162]. وكتب شوازول غوفيه عن التداعيات السلبيَّة لوجود الأسطول الروسي وأعمال المتطوِّعين «الألبان»، على سكّان الجزر اليونانيين، مشيرًا إلى أنَّ سكّان جزيرتي سيكينوس وبوليكاندرو تضرَّروا كثيرًا «في أثناء الحرب الأخيرة»، من أعمال النهب و«المصائب» التي سبَّبها القراصنة **اليونانيُّون**، (على عكس جزيرة سيفنوس التي «جنَّبها عدمُ وجود «ميناء جيِّد» فيها ويلات الحرب السابقة»). أمّا جزيرة ناكسوس «فقد أُلحِقَت بها عواقب وخيمة في أثناء وجود الروس، نظرًا إلى مجاورتها جزيرة باروس...». وفي باروس قام «الألبان الذين كانوا في الخدمة لدى الروس» بنهب وتدمير دير الكبُّوشيِّين القديم[163]. غير أنَّ الرحالة الفرنسي الشاب المتخصّص في الحضارة الهيلينيَّة، لم يوجِّه اتهامات مباشرة إلى الروس

---

(161) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 211об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 211].

(162) المرجع نفسه، ظهر الورقة 235، الورقة 237 - ظهر الورقة 237، الورقة 299-300.

(163) Choiseul-Gouffier, pp. 16, 18, 42, 66.

(ربَّما كان لهذا الأمر دوره في مصير الرحالة، عندما اضطرَّ إلى البحث عن ملاذ في روسيا في أثناء الثورة الفرنسيَّة!)[164].

هكذا، رزحت إمارة الأرخبيل فور نشوئها، خلال الفترة 1771-1774، تحت عبءٍ ثقيل من المشكلات: فهي لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها من دون الأسطول الروسي، لكنها كانت في الوقت نفسه عاجزة عن تحمل تكاليف قوَّات عسكريَّة كبيرة (فضريبة «العُشر» المعتدلة لم تكن لتغطِّي حاجات الأسطول بأيِّ شكل من الأشكال!). واستشرى عدم الارتياح المتفاقم بين الروس واليونانيين، وكذلك بين اليونانيين وقوات المرتزقة «الألبان»، وتزايدت النزاعات في ما بينهم، وباتت تُنذر بخطر كبير أيضًا. وتبيَّن أنَّ تجربة إقامة إمارة الأرخبيل كانت صعبة بالنسبة إلى جميع المشاركين فيها، وهذا ما أثبتته الصفحة الختاميَّة من تاريخها (يُنظر لاحقًا).

## شؤون كنسيَّة

طرح وجود الأسطول الروسي في الأرخبيل وإقامة الإمارة أمام قيادة الحملة مسائل البناء العسكري والمدني، فضلًا عن البناء الكنسي أيضًا. فقد أسهم كلٌّ من أورلوف وسبيريدوف في انقطاع الصلات عمليًّا بين رجال الكهنوت في كلٍّ من جزر إمارة الأرخبيل وفي القسطنطينيَّة، من دون أن يدخلا في مواجهة مع بطريركيَّة العاصمة، التي وجدت نفسها في وضع صعب وخطر للغاية بعد اندلاع الحرب الروسيَّة - التركيَّة[165]. في غضون ذلك، منح نظام الملل الساري في الإمبراطوريَّة العثمانيَّة - الذي يجعل من البطريرك رأس

---

(164) Л. Б. Вольфцун, «Граф Шуазель-Гуффье, первый директор Императорской Публичной библиотеки,» in: *Век Просвещения*, Вып. 1 (М., 2006), с. 127-140.

[ل. ب. فولفيتسون، «الكونت شوازول غوفيه، المدير الأول للمكتبة الشعبيَّة الإمبراطوريَّة»، في: **عصر التنوير**، الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 127-140].

جدير بالذكر أنَّ شوازول لام الروس لأنَّهم لم يطوروا نجاح شيسما، ولم يقتحموا «الدردنيل الضعيف التحصين»، وأنَّهم عبثًا توقَّفوا في ليمنوس، وأنَّهم كان عليهم اقتحام الدردنيل، بل ربما حتَّى الاستيلاء على «القسطنطينيَّة المصدومة»! يُنظر: Choiseul-Gouffier, pp. 1, 81.

(165) يُنظر في هذا الخصوص: Camariano-Cioran, p. 540.

جميع المسيحيين الأرثوذكس، رعيَّةً ورجال دين على حدٍّ سواء - المؤسَّسات الكنسيَّة نفوذًا كبيرًا في ميادين الحياة الاجتماعيَّة والخاصة كافَّة. ومهما حاول الأميرال سبيريدوف إثبات أفضليَّات النموذج الروسي للعلاقة بين السلطتين الدنيويَّة والكنسيَّة بالنسبة إلى رجال الكهنوت في إمارة الأرخبيل، مستندًا إلى أمثلة روسيا العظمى، إلا أنَّ التنظيم السينودوسي لحقبة ما بعد بطرس الأكبر، لم يلقَ على ما يبدو قبولًا لدى رجال الكهنوت اليونانيِّين. ولذا، وتجنُّبًا لأيِّ صدام مع رجال الدين المحليِّين، التزم سبيريدوف ومعاونه ب. نيستيروف بثبات فكرة استقلاليَّة المحكمة الكنسيَّة وعدم خضوع رجال الدين للمحكمة الدنيويَّة، والحفاظ على جميع حقوق ملكيَّة الكنائس والأديرة المنقولة وغير المنقولة.

كان انتقال البطريرك المسكوني السابق سيرافيم الثاني (كان بطريركًا على القسطنطينيَّة خلال فترة 1757-1761) إلى آوزا في ظلِّ هذا الوضع هديَّةً حقيقيَّةً للقيادة الروسيَّة. فقد عاش سيرافيم بعد تقاعده في جبل آثوس، لكنَّه غادر اعتزاله في الجبل المقدس في نيسان/ أبريل من عام 1771، فاستُقبل «بإجلال» في قاعدة الأسطول الروسي. وسرعان ما تمكَّن، بدعم من قيادة الأسطول، من إسكات رجال الدين الذين أبدوا «شكوكهم» فيه، واعتبروه «بطريركًا ممنوعًا ولا يحقُّ له القيام بالخدمة الدينيَّة»، وأنه «يجمع رجال الدين من دون علم البطريرك الحالي». وكانت الحجَّة التي أقنع سبيريدوف بها، وكان من الصعب دحضها، قوله «بالرغم من أنَّنا لسنا على كرسيِّ البطريركيَّة الآن، إلا أنَّنا 'أُبعِدْنا' **عن غير وجه حقّ**، ولا يمكن حرماننا من حقِّ ممارسة التضحية». أراد سيرافيم الصلاة في عيد الفصح على نيَّة «صحة الإمبراطورة وولي العهد وعافيتهما»[166]. ولذا، فقد نال، على ما يبدو، «القرار» المرتجى من الأميرال الروسي (الذي يصعب تصوُّر أن تستند صلاحياته في الشؤون الدينيَّة على مسوِّغ قانوني!)، فدرجت الوثائق الروسيَّة على ذكره بوصفه **بطريركًا**[167].

---

(166) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 66, Л. 3.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 66، الورقة 3].

(167) توجَّه إليه رجال الدين المحليون، «بوصفه المرجعيَّة الدينيَّة العليا»، لحل النزاعات أيضًا:
= *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 212об.

يشير الخبير المعروف في العلاقات الكنسيَّة الروسيَّة - اليونانيَّة ل. أ. غيرد إلى المساعدة الخاصة التي قدَّمها سيرافيم الثاني، «الذي أبحر على سفينة الكونت أورلوف ناشرًا النداءات الوطنيَّة بين مواطنيه»(168). ولم يُعثر حتَّى الآن على تفاصيل عن رحلات البطريرك هذه، لكن يمكن الحكم على محتوى نداءاته من الرسالة التي أرسلت من جزيرة هيدرا (القريبة من مورية) في أيار/ مايو 1771. فقد قال المدعو كريفاتيس أنه تلا «البيان السامي» على «الرؤساء» و«المورِيِّين الموجودين في الجزيرة»، «بناء على أمر» سبيريدوف وسيرافيم الثاني، وآنئذٍ «هلَّل الجميع بفرح عظيم لمَّا سمعوه ورفعوا أيديهم إلى السماء متضرِّعين كي يرسِّخ العليُّ القدير دولة ملكتنا النيِّرة»، وتوجَّهوا على الفور إلى مورية لجمع الفصائل الجديدة، لأنَّ «السكَّان هناك ينتظرون تسليم مفاتيح البلدات حالما يصل الموسكوبيُّون إليهم»، وهم يطلبون من الأميرال سبيريدوف إرسال السُّفن «على وجه السرعة»(169).

عاش البطريرك الثاني سيرافيم في ظلِّ الأسطول الروسي في الأرخبيل ما يقارب السنة(170)، إذ غادر آوزا نهائيًّا إلى ليفورنو على متن السفينة

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 212].

(168) Л. А. Герд, *Константинополь и Петербург: Церковная политика России на Православном Востоке (1878-1898)* (М., 2006), с. 120-121.

[ل. أ. غيرد، **القسطنطينيَّة وبطرسبورغ: سياسة روسيا الكنسيَّة في الشرق الأرثوذكسي (1878-1898)** (موسكو، 2006)، ص 120-121].

(169) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 16, Л. 89-92.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 16، الورقة 89-92].

(170) على سبيل المثال، صدر في آوزا في الرابع من آب/ أغسطس القرار التالي: «تفضَّلوا بمنح صاحب الغبطة البطريرك سيرافيم ... من أموال القوميساريَّة بالسعر المناسب ما يعادل عشر كيلات من القمح، ومئتي إقَّة من البن، وثمانية قناطير من جريش الدُّخن، وتسليمها لمن يأتي من قبله حاملًا إيصالًا»:

*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 201об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، ظهر الورقة 201].

«القدّيس غيورغي»[171]، في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير 1772، على ما يبدو، كما كتب س. ب. خميتيفسكي، حيث مكث فيها برعاية أ. غ. أورلوف حتّى نهاية الحرب[172]. وبعدئذٍ، توجّه بإذن من أورلوف إلى روسيا مع الأسطول، ترافقه «حاشية» صغيرة، على متن السفينة «ساراتوف» في عداد عمارة الكونتر-أميرال بازابل، ووصل إلى ريفيل في الخامس والعشرين من تموز/يوليو 1775[173].

وصل سيرافيم الثاني إلى روسيا متأخّرًا قليلًا عن الاحتفالات الرئيسة في موسكو لمناسبة عقد معاهدة الصلح، ومع ذلك فقد أقبل على الإمبراطورة في موسكو في تشرين الأول/أكتوبر 1775، وأدّى صلاة الليتورجيا في كنيسة أوسبينسكايا بالكرملين، وقد ذكرته كاترينا في مراسلاتها مع البارون غريم[174]. ومُنح سيرافيم الثاني في ما بعد معاشًا تقاعديًّا كبيرًا في روسيا، وعاش بقيّة حياته في نوفوروسيا، وكان على صلة وثيقة بباسي

---

(171) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 630.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 630 (الطبعة الروسيّة)].

(172) على سبيل المثال، طلب أ. غ. أورلوف من أ. ف. يلمانوف في 30 تموز/يوليو 1774 أن يعمل على إعادة «مبلغ من المال» للبطريرك سيرافيم، كان قد أقرضه لرهبان دير القديس لافرا: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92.

[**أرشيف الدولة الروسيّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92].

(173) *РГА ВМФ*, Ф. 172, Оп. 1, Д. 135, Л. 63.

[**أرشيف الدولة الروسيّة للأسطول الحربي**، المجموعة 172، القائمة 1، الملف 135، الورقة 63].

ورد في التقرير الذي رفعه الكونتر-أميرال بازابل إلى إ. غ. تشيرنيشوف في التاسع والعشرين من تموز/يوليو 1775 أنه سُمح في ليفورنو «لبطريرك القسطنطينيّة السابق سيرافيم بالصعود إلى متن السفينة «ساراتوف» مع حاشيته المؤلّفة من أربعة أشخاص، لنقلهم إلى روسيا. وزُوِّد غبطة البطريرك وحاشيته خلال الرحلة من ليفورنو إلى مرفأ ريفيل بمؤونة على حساب الخزينة مع إيصال بالنفقات. ونصّ الأمر على السماح لقداسته بالنزول إلى اليابسة في أيّ مرفأ حيث يرغب، عند الوصول إلى المرافئ الروسيّة».

(174) С. Я. Карп, *Французские просветители и Россия. Исследования и новые материалы по истории русско-французских культурных связей второй половины XVIII в.* (М., 1998), с. 232.

[س. ي. كارب، **التنويريون الفرنسيون وروسيا: دراسات ومواد جديدة في تاريخ العلاقات الثقافيّة الروسيّة - الفرنسيّة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر** (موسكو، 1998)، ص 232].

إيليتشيكوفسكي ويفغيني فولغاريس[175]. وفي عام 1779، تُوُفِّي في دير ماغرو من ضواحي خيرسون.

حافظت القيادة الروسيَّة بعد مغادرة سيرافيم الثاني الأرخبيل على نفوذها في الشؤون الكنسيَّة، عبر رجال دين آخرين مخلصين ومطيعين. ولكنَّ العلاقات معهم صارت تُبنى أكثر فأكثر على أساس القواعد المعمول بها في الكنيسة السينودوسيَّة القائمة في الإمبراطورية الروسيَّة. وتعيَّنَ على كلٍّ من أورلوف وسبيريدوف ويلمانوف أكثر من مرَّة إظهار ما يمثِّله نموذج العلاقات الروسي في ما بين الدولة والكنيسة.

على أنَّ أورلوف دخل في تموز/يوليو 1773 في مجابهة مفتوحة مع بطريرك القسطنطينيَّة، فأبلغ بطرسبورغ أنَّ الباب العالي العثماني «فرض على السلطة الروحيَّة العليا، المتمثِّلة ببطريرك القسطنطينيَّة، رئيس رعاة الكنيسة، تكريس رهبان الجزر اليونانيِّين بالمراتب الكنسيَّة العليا، بما يتلاءم مع رغبة الأتراك وإرادتهم، وعمل على توجيه الأساقفة لحثِّ الشعب على الاحتجاج (ضد الروس - المؤلفة)، وإرسالهم الجزية، وإصدار صكوك الحُرْم الكنسي بمن رفض ذلك من الأساقفة»[176].

وإذ أدرك أورلوف «أهميَّة هذه المسألة»، التي من شأنها أن تُلحِق الضَّرر بـ «الهدوء والسكينة لدى سكَّان جزر الأرخبيل، رعايا جلالتكم الإمبراطوريَّة السَّامية»، وتُسبِّب الإهانة للمؤمنين من إخوة الدين («الالتزام الصارم بعدم بثِّ الأفكار الباطلة في أوساط إخوة الدين»)، فقد لجأ إلى الأسلوب المعهود

---

(175) C. Popoulidis, «Le Patriarche Oecumeniqie Serapheim II et les Russes,» *Balkan Studies*, vol. 17, no. 1 (1976), pp. 29-66; S. K. Batalden, «A Further Note on Patriarch Serapheim II's Sojourn to Russia,» *Balkan Studies*, vol. 18, no. 2 (1977), pp. 409-411; Б. К. Фонкич, «истории приобретения греческих рукописей Харьковским университетом,» in: *Записки історико-філологічного товариства Андрія Білецького* (Киев, 2003), Вип. IV, Кн. 1, с. 198-203.

[ب. ك. فونكيتش، «في تاريخ اقتناء جامعة خاركوف للمخطوطات اليونانيَّة»، في: **مدونات جمعيَّة أندريه بيليتسكي التاريخيَّة الأدبيَّة** (كييف، 2003)، الإصدار الرابع، الكتاب الأول، ص 198-203].

(176) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 140.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 140].

المجرَّب في روسيا منذ أيام بطرس الأكبر، لحلِّ المسألة، حيث عمد إلى قمع المقاومة بشدَّة، ووضع رجل الدين غير الملائم تحت الحراسة، وأنشأ «سينودوس» أرخبيليًّا خاصًّا، معلنًا أنَّه: «من أجل منع أسقف تينوس الجديد من إدارة الشؤون الأسقفيَّة <...>، أصدرتُ في الثاني من نيسان/ أبريل الماضي [1773] بيانًا بشأن **تأسيس مجمع روحي في جزيرة باروس** من إخوة الدين المؤمنين ومن كبار رجال الدين الموريِّين، للنَّظر في المسائل الروحيَّة - التي كانت تُحلُّ حتَّى الآن بقرار من بطريرك القسطنطينيَّة - ولحلِّها من الآن فصاعدًا، وكلَّفتُ المجمع المذكور بانتخاب بديلٍ جديدٍ من أسقف تينوس المُسِنِّ من بين أعضائه»[177]. ومن الواضح أنَّه باتَ في وسع أورلوف في عام 1773 الاعتماد تمامًا على «الأساقفة الموريِّين»[178]، وكذلك على أساقفة أثينا وباروناكسيا والجزر الأخرى[179].

نشأت علاقة جيِّدة بين القيادة الروسيَّة ومركز الأديرة في جزيرة باتموس.

---

(177) المرجع نفسه، ص 140-141.

(178) اعتمد أورلوف على دعم متروبوليت مونيمفاسيا وكالامات، وأساقفة كوروني ومودون وباتراس: Camariano-Cioran, p. 540.

بعدما أصدر أورلوف أمره بالتحضير لعودة الأسطول بعد عقد صلح كوتشوك - كاينارجي، طلب خصِّيصًا من يلمانوف «ألَّا يُنسى كبار رجال الدين في مورية، الذين أبدَوْا قبل الآخرين غيرة فائقة، إيمانًا وخدمةً، كأسقف مادونيا وأسقف مالفازيا وثالث آخر، وسؤالهم ما إذا كانوا يرغبون في الانتقال إلى روسيا، وفي هذه الحال أخذهم على متن السُّفن وتخصيصهم بنفقة محدَّدة»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 66, Л. 183-83об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 183 - ظهر الورقة 83 [الصحيح 183]].

(179) أرسل ميتروبوليت أثينا برثلماوس في عام 1771 ابن أخيه للخدمة لدى الروس، وذهب هو للقاء أورلوف بناء على «استدعاء» الأخير له: المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 66، الورقة 128 - ظهر الورقة 128، الورقة 152. وفي تموز/ يوليو 1771، استقبل أورلوف «بعطف» رهبان دير يوحنا الإنجيلي في باتموس (المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، ظهر الورقة 106)؛ وفي تموز/ يوليو، لم يجرؤ كبار رجال الدين في الجزر، بمن فيهم متروبوليت باروناكسيا، حتَّى على «الاجتماع» لحل مسائل كنسيَّة بحت، من دون إذن سبيريدوف (المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 119، الورقة 9 - ظهر الورقة 9). وبخصوص نداءات رجال الدين الأخرى إلى السلطة الزمنيَّة، يُنظر: المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 119، الورقة 97-80؛ الملف 66، وغيره.

فمن جهة، اعترفت باتموس بالسلطة الروسيَّة في الأرخبيل وصارت شكليًّا جزءًا من إمارة الأرخبيل، وصار سنادكتها يتلقَّون الأوامر الموقَّعة من أ. بسارو ومن القبطان موراتوف المُبحِر بالقرب من الجزيرة، ويؤدُّون الواجبات، بما في ذلك ما يتعلق بإقامة المستشفى[180]. ومن جهة أخرى، لم يكن في أيِّ جزيرة أخرى في الأرخبيل هذا القدر من المقدَّسات المبجَّلة كما كان الأمر في باتموس. فقد وهبت كاترينا الثانية دير يوحنا الإنجيلي، الموجود في الجزيرة، صليبًا مرصَّعًا بأحجار كريمة، وميداليَّات ثمينة تحمل صورة بطرس الأول وصورتها. كما قدَّم أ. غ. أورلوف أيضًا خنجرًا لا يزال يزيِّن معروضات دير باتموس الثمينة حتَّى الآن، ما يؤشِّر إلى زيارته الدير[181].

شكَّلت العلاقات بين القيادة الروسيَّة وأديرة آثوس نموذجًا آخر للتعاون بين السلطتين الزمنيَّة والروحيَّة. وجدير بالذكر أنَّ رؤساء حملة الأرخبيل أدَّوا فريضة الحج إلى جبل آثوس على متن السفينة «الأساقفة الثلاثة».



باتموس. دير يوحنا الإنجيلي

---

(180) Μαλανδράκης, Σελ. 69-116.

(181) Антипа (кафигумен Патмосский), *Путеводитель по Патмосскому монастырю Св. Иоанна Богослова* (Патмос, 2009), с. 76-77.

[أنتيبا (رئيس دير باتموس)، دليل دير يوحنا الإنجيلي في باتموس (باتموس، 2009)، ص 76-77].

وكتب الحاج الروسي الأب إيغناتي من كورسك، وكان في آثوس حينذاك: «حدث أن وصلت سفينة «الأساقفة الثلاثة» الروسيَّة، فجاء الآباء الرؤساء من جميع الأديرة ونزلوا إلى الميناء في مسيرة، حاملين الصلبان لاستقبال سفينة القادة: السادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف وسبيريدوف ويلمانوف، الذين دخلوا إلى الكنيسة وحضروا الصلاة ثم عادوا إلى السفينة. ودعاني السيد يلمانوف إلى سفينته، ولكنَّني رفضت وبقيت في صفوف الرهبان» (عاد الأب إيغناتي إلى روسيا في عام 1776)[182].

لم يقترح أحد على أفراد الحملة من الأرثوذكس العاديين الحج إلى آثوس، تمثُّلًا بالقيادة، بل على العكس، إذ لم تلقَ محاولةُ الفرار التي قام بها البحَّار الروسي بانتيلي يرمولايف - ابن الثلاثين ربيعًا - من الفرقاطة «النسر الشمالي» أيَّ تعاطفٍ، على ما يبدو، بهدف «الحج إلى جبل آثوس» على حدِّ زعمه[183].

لم تحمل زيارة القيادة القصيرة إلى آثوس، على ما يبدو، طابعًا دينيًّا فحسب؛ فالمراسلات مع أديرة آثوس واستقبال النسَّاك في آوزا والتبادل التجاري مع الأديرة أمورٌ لم تتوقَّف خلال فترة وجود الأسطول في الأرخبيل. فقد اشترى الروس كل الألواح الضروريَّة لإصلاح السُّفن من دير فاتوبيد، وأجروا المراسلات مع نساك دير هيلاندار بخصوص الأولاد الذين اختطفهم

---

(182) «Описание путешествия отца Игнатия в Царьград, Афонскую гору, Святую землю и Египет, 1766-1776 гг,» Под ред. В. Н. Хитрово, *ППС*, t. XII, Вып. 3 (36) (1891), с. 24.

[«وصف رحلة الأب إيغناتي إلى تساريغراد وجبل آثوس والأرض المقدسة ومصر، 1766-1776»، تحت إشراف ف. ن. خيتروفو، **المجموعة الفلسطينيَّة الأرثوذكسيَّة**، مج 12، الإصدار 3 (36) (1891)، ص 24].

(183) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, л. 173.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 173].

حدثت عمليَّة الفرار في الثالث والعشرين من حزيران/يونيو 1774، حينما توقَّفت الفرقاطة «النسر الشمالي» عند جزيرة إيمبروس للتزوُّد بالخشب. ولم يُعثر على الحكم الصادر المتعلِّق بهذه الحادثة.

«القراصنة» وحاولوا تحريرهم بواسطة الروس[184]، وسلَّموا مزار النبي إيليا مجموعة من الأواني الكنسيَّة تلبية لطلب كاهن الأسطول الروسي الراهب إيغناتي[185]. لكنْ، جلب وجود الأسطول الروسي في الأرخبيل لأديرة آثوس - كما تشير كل الدلائل - المتاعب أكثر ممَّا جلب من مزايا، مع تفاقم خطر الاضطهاد التركي وغزوات القراصنة. ولذا، فقد وُضِعت في آثوس خلال الفترة 1773-1774 رسالة جامعةً موجَّهة إلى الإمبراطورة الروسيَّة والسينودوس وقيادة الحملة، توسَّل فيها «كلُّ رؤساء الأديرة في جبل آثوس المقدَّس» اتِّخاذ كلِّ التدابير لمواجهة «قراصنة البحر»، الذين لم يسلم الرهبان والحجَّاج من شرِّهم على مدى سنتين (تلميح مكشوف إلى فترة سيطرة الأسطول الروسي على الأرخبيل!). أمَّا الأديرة فقد حُرِمَت من الصدقات، بل على العكس من ذلك، حيث اضطُرَّت إلى دفع فديات باهظة للمغتصبين:

«يأتي قراصنة يدَّعون أنَّهم مسيحيون... يدمِّرون جبل آثوس المقدَّس، ويأسرون الحجاج الذين اعتادوا المجيء إلى هنا منذ القدم للصلاة، ولتقديم الصدقات لنا، فيسلبونهم من ثلاثمئة إلى خمسمئة قرش. لذا كفَّ الحجَّاج عن المجيء وتقديم هذه المساعدة إلينا. وهم لا يفعلون ذلك فقط، بل يسلبون من الأديرة التي يقصدها الحجَّاج كلَّ ممتلكاتها، وكثيرًا ما يخطفون من أديرة أخرى الرهبان الذين اعتزلوا العالم من خلواتهم ومناسكهم، ويضعونهم في زوارقهم ويغرقون بعضهم في البحر ويسومون بعضهم الآخر ألوان العذاب، ويطلبون منهم آلاف القروش لإخلاء سبيلهم... أمَّا الذين لا مال لديهم لافتداء أنفسهم، فإنَّنا نشفق عليهم ونسعى إلى مساعدتهم، فنتحمَّل الفوائد الفاحشة من اليهود والأتراك، من أجل افتدائهم، لأنَّنا لا نقوى على تحمُّل بقائهم يتعذَّبون في أيدي القراصنة. إنَّ كلَّ هذه المآسي تتفاقم مع مرور الزمن، ويستشري هذا العمل

---

(184) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 56، الورقة 228، 259.

بخصوص طلب رئيس دير القديس آفاناسي المساعدة في مطالبة ابن جزيرة سكوبيل بالصدقة العائدة للدير، التي قدَّمتها القسطنطينيَّة، يُنظر: المرجع نفسه، المجموعة 188، الملف 65، الورقة 75 - ظهر الورقة 75.

(185) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 107 - ظهر الورقة 107 (22 تشرين الأول/ أكتوبر 1770).

الشيطاني، ويتألَّم جبل آثوس كلُّه من أجلهم، ويعمُّ الخراب الأديرة والخلوات والمناسك...»[186].

لم يكن الاختلاط بين اليونانيين الأرثوذكس والمشاركين الروس في الحملة سهلًا، على مستوى الرعيَّة الكنسيَّة أيضًا؛ إذ لم تتحقَّق وحدة الأرثوذكس في إمارة الأرخبيل إلا نادرًا، ولم يكن ذلك بسبب الحاجز اللغوي وحده، كما نعتقد، بل أيضًا نتيجة للفوارق الجوهريَّة في تصوُّرات كلٍّ من الروس واليونانيين في صدد الممارسات الدينيَّة «الصحيحة»، وفهم الطرفين للجمال الكنسي الجليل.

كان كهنة السُّفن هم من يؤدُّون القداديس في الأسطول عادة، على الرغم من وجود عددٍ كبيرٍ من الكنائس الأرثوذكسيَّة، ومن بينها كنائس شاغرة[187]. إضافة إلى ذلك، بُدِئَ في آوزا على جزيرة باروس في بداية عام 1774 ببناء كنيسة روسيَّة من الحجر (جُلب الرخام الشفاف إلى آوزا لهذه الكنيسة قبل عقد الصلح)[188]، ولكنَّها لم تُنجز[189].

---

(186) المرجع نفسه، الملف 66، الورقة 252 - ظهر الورقة 252.

(187) على سبيل المثال، طلب «الكاهن السلوفيني بيوتر»، عندما أرسل إلى السفينة «مولنيا» في تموز/ يوليو 1774، نقل مجموعة كاملة من الكتب ولوازم القداس: «كتاب المزامير، كتاب القبلوكاليا (سير القديسين)، أكتوخيوس (الألحان الثمانية)، كتاب التراتيل الكنسيَّة، العهد الجديد، كتاب الخدمة في الكنيسة، كتاب التريودي، ثوب الكاهن» (المرجع نفسه، الملف 56، الورقة 248؛ المجموعة 190، القائمة 1، الملف 116، الورقة 22 - ظهر الورقة 22). وكانت موجودات كنيسة السفينة «ني ترون منيا» تتألف ممَّا يلي: «أيقونتان («صورة نيقولا بإطار فضي، وصورة القديسين الأربعة بإطار فضي»)، حاوية القدسات، صليب، وعاء متواضع، كتب (كتاب القبلوكاليا العام والخاص بالأعياد، كتاب التريودي، سداسيَّة الأيام، كتاب الأفلخوجي، كتاب التراتيل الكنسيَّة، كتاب الخدمة في الكنيسة، العهد الجديد، كتاب المزامير/ «كتب صلوات وتراتيل»).

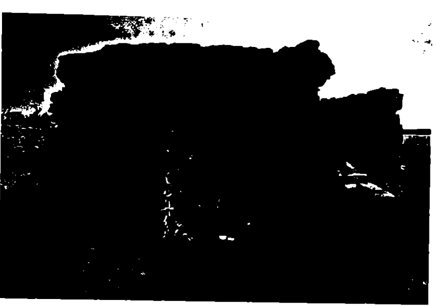
(188) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 56، ظهر الورقة 61.

(189) *Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг*, с. 25; Гребенщикова, с. 435.

**[أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769-1774، ص 25؛ غريبينشيكوفا، ص 435].**

اعتبر شوازول غوفيه أنَّ الروس لم يتمكَّنوا من إكمال بناء المستشفى والكنيسة الحجريَّة:
Choiseul-Gouffier, p. 71.

أمَّا حضور القداديس في الكنائس اليونانيَّة المحليَّة واللقاءات مع رجال الدين، فقد شهد، فضلًا عن الحاجز اللغوي، رفضًا ثقافيًّا مضحكًا. وترك س. خميتيفسكي في هذا الصدد التعليق الآتي: «يسير الكهنة بالصليب



أنقاض كنيسة روسية في مستشفى عسكري في آوزا

والبطرشيل، وما إن يصادف أحدهم واحدًا من جماعتنا الروس، أينما كان، يسارع إلى ارتداء البطرشيل ويبدأ على الفور **الصلاة.. من أجل المال** (التشديد من المؤلفة). وكان بعض رجالنا عند خروجهم من الكنيسة يرمون قطعًا نقديَّة صغيرة للفقراء والأطفال، الذين كانوا يتراكضون بجشع لجمعها، فيقفز الخوري من المذبح بثوبه الكهنوتي ويختطف النقود من الأطفال، فيسقطونه أرضًا. إنَّهم مضحكون أكثر ممَّا هم وقورون»[190].

هكذا، فإن تصريحات بُناة إمارة الأرخبيل حول استقلاليَّة الميدان الكنسي، ظلَّت مجرد تصريحات. وأورلوف لم يساير رجال الدين اليونانيين قط، وطبَّق في الممارسة السياسيَّة النموذج الروسي المتَّبع في إخضاع الكهنوت للقيصر. وتمكَّن العسكريُّون من الإشراف على البنية الكنسيَّة بتسلُّط وفاعليَّة، معتمدين على رجال الكهنوت التابعين لهم، الذين تمرَّدوا على بطريرك القسطنطينيَّة. وقد اضطلع هؤلاء بدورٍ ملحوظٍ في تأمين دعم رعيَّتهم للحملة الروسيَّة، لكنَّهم كانوا غير قادرين على توحيد إخوة الدين اليونانيِّين والروس، أو الإسهام في تذليل الغربة المتزايدة بينهم.. وربَّما لم تكن هذه مهمَّتهم أساسًا!

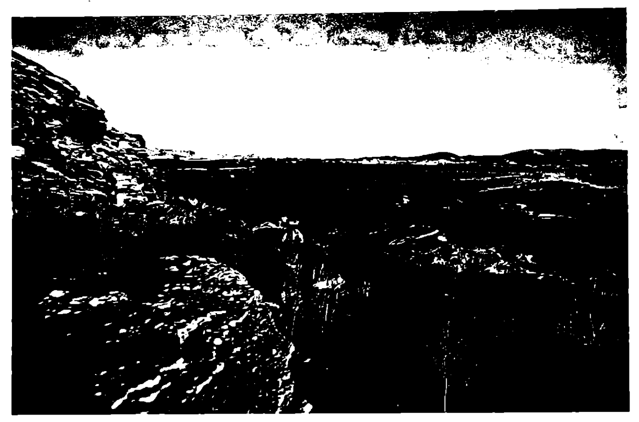
---

(190) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 616.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 616 (الطبعة الروسيَّة)].

## عاصمة إمارة الأرخبيل،
## أو كرونشتاد[191] المتوسطيّة

يمكن اعتبار إقامة قاعدة عسكريَّة للأسطول الروسي وعاصمة لدولة الأرخبيل في آوزا على جزيرة باروس، المشروع الأنجح بين مشروعات إمارة الأرخبيل.



خليج ناوسا

كانت قرية الصيَّادين آوزا (ناوسا) غير كبيرة، وهي أصغر من باريكيا، عاصمة باروس؛ لكنها كانت تتمتَّع بخليج عميقٍ محميٍّ، صالح لرسو السُّفن، وليس لـ «المراكب الصغيرة» فحسب، كما هو الأمر في باريكيا، بل للسفن

(191) كرونشتاد: مدينة ومرفأ في روسيا، تقع على جزيرة كوتلين في بحر البلطيق. وهي المكان الوحيد المأهول في هذه المنطقة. وضع بطرس الأول حجر الأساس لقلعتها الشهيرة في عام 1723. وفي عام 1746 أنجز بناء قلعتها المركزيَّة التي تحيط بكرونشتاد من البحر واليابسة. وقد صارت في عشرينيَّات القرن الثامن عشر قاعدة الأسطول الروسي البحريَّة الرئيسة. وفي عام 1783 نقلت كاترينا الثانية مركز الأدميراليَّة من سان بطرسبورغ إلى كرونشتاد. وخلال حرب روسيا الأهليَّة، وقع في عام 1921 ما سُمِّيَ «تمرُّد كرونشتاد» ضد البلاشفة، الذي قُمع على نحوٍ دموي. وتعرَّضت كرونشتاد لدمار كبير خلال الحرب العالميَّة الثانية بسبب غارات الطيران الألماني، ولكنَّها ظلَّت صامدة في يد الجيش السوفياتي ولم تسقط طيلة الحرب. وضعتها منظمة اليونسكو في عام 1990 على لائحة التراث العالمي، ومنحتها الحكومة الروسيَّة لقب «مدينة المجد العسكري» في عام 2009. (المترجم)

العسكريَّة أيضًا[192]. وجاء في الصحائف العسكريَّة: «يأخذ هذا الخليج شكل مستطيل، يبلغ طوله 5 فرستات وعرضه فرستًا واحدًا و400 ساجين، ويبلغ عرض مدخله فرستًا واحدًا و300 ساجين. قاعه مغطى قليلًا بالطمي، تتناثر في أنحاء منه جزر صغيرة، وترتفع فيه جبال صخريَّة عالية على مقربة من الشاطئ. ولذا، فإن حجمه الكبير نسبيًّا وحمايته الجيدة من الرياح يجعلانه صالحًا جدًّا لرسو السفن العسكريَّة، وليس المراكب الصغيرة فحسب».

ولاحظ شوازول غوفيه: «لقد تعمَّد الروس اختيار مرفأ ناوسا قاعدةً عسكريَّة لهم، فهو أوسع من ميناء جزيرة ميللو، ويحظى بكل مزايا التفوُّق بفضل موقعه في وسط كيكلاد، الذي يتيح الثَّبات فيه والذود عنه نظرًا إلى شكله الذي يسمح بذلك، وأخيرًا بفضل جزيرة باروس التي تمنح القوات المتمركزة فيه الحماية»[193].

ما إن نزل الروس إلى الشاطئ حتَّى قام الضابطان المهندسان موجاروف وتوزوف بعمليَّة استطلاع لآوزا:

«يبلغ عدد المنازل في هذه البلدة التي يقطنها اليونانيون مئتي منزل مبنيَّة بالصفائح الحجريَّة، بعضها مطليٌّ بالكلس وبعضها الآخر بالطين، بحيث تتشابه كلُّها وتخلو من أيِّ زخرفة. أمَّا شوارعها فضيقة جدًّا وبعض منها فقط مستقيم.

---

(192) هكذا، احتشدت في آوزا أول مرة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1770 سفن العمارة البحريَّة الروسيَّة، المؤلَّفة من الفرقاطتين «سلافا» و«القديس نيقولاي»، والسفينة الشراعيَّة «القديس ميخائيل»، والسفن اليونانيَّة بقيادة القباطنة غريغوري بانو وغيراسيم غاليغي وإيفان فلاديكو وجوفاني كوبا واليوناني جوفاني [الذين كانوا يخدمون في الأسطول الروسي ويتمتَّعون بـ «الامتيازات»]؛ ومن السفينتين الشراعيتين اليونانيتين جورغيسا غوناليسا وفيودورو موليسياناتشي اللتين كانتا تبحران تحت العلم اليوناني، وأربع سفن شحن «غنائم» بقيادة قباطنة يونانيين، وثلاث سفن لقراصنة يونانيين «شُنِقَ قباطنتها»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 209-209 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 209 – ظهر الورقة 209].

(193) Choiseul-Gouffier, p. 70.

كما أنَّ السكَّان، على عادتهم السيئة، يرمون النفايات من المنازل كيفما اتَّفق، الأمر الذي يجعل الهواء ثقيلًا.

يبلغ عدد الكنائس والأديرة خمسة وثلاثين، سواءٌ فِي البلدة نفسها [آوزا] أم في الأنحاء القريبة. وثمة خمسة وعشرون أخرى في الحقول الأبعد، إلا أنَّ أكثرها مهجور ومتهالك. وأمَّا في الصالح منها فيمارس اليونانيون شعائرهم الدينيَّة، وعددها تسعة، وهي أيضًا على غرار المنازل بسيطة، صغيرة الحجم، مبنيَّة بالصفائح الحجريَّة.

جدير بالذكر أنْ لا أحد من سكَّان البلدة يعلم على وجه التحديد من بناها ومتى، وجُلُّ ما هو معروف أنَّها قائمة منذ القدم. غير أنَّ الكتابات المحفورة على الحجارة في بعض الأماكن تؤكِّد أنَّ الجنويين هم من بنوها في عام 553[1] خلال فترة حكم الدوق يوحنا كيستا»[194].

بعد نزولهم في آوزا، وإقامة معسكرين على الشاطئ[195]، طغى المشاركون في البعثة بأعدادهم الغفيرة على البلدة الصغيرة. وقد تراوح عددهم في أوقات مختلفة على الشاطئ بين 2500 و5100 جندي وبحَّار، فضلًا عن «الفوج الألباني» المؤلَّف من 15 ألف رجل على وجه التقريب[196].

---

(194) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 143об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 143].

(195) ينسب السكَّان المحليُّون إلى الروس أيضًا بناء القناة، التي لا تزال تُجر عبرها مياه الشفة إلى آوزا/ ناوسا حتَّى يومنا هذا. غير أنَّ الوثائق الروسيَّة لم تؤكِّد ذلك حتَّى الآن على حدٍّ علمي.

(196) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 111.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 111].

تفيد المعطيات حتَّى السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1771، حتَّى قبيل انتهاء الحملة الصيفيَّة، حين كانت ترسو في آوزا ثلاث فرقاطات فقط، أنَّ العديد كان يتوزَّع على النحو الآتي: «على الفرقاطات: 99 رجلًا على الفرقاطة ديلوس، 78 رجلًا على الفرقاطة باروس، 38 رجلًا على الفرقاطة ميكون؛ 353 رجلًا في تصرُّف القبطان على المتن (بمن فيهم 65 من العاملين والأسرى الأتراك واليهود و15 رجلًا من اليونانيين يتولَّون مهمَّة الحراسة)؛ 129 رجلًا في المفوضيَّة، 37 رجلًا على بطاريات المدفعيَّة الرئيسة، 26 رجلًا في مخازن الأمتعة، 412 رجلًا في فوج شليسيلبورغ، و1139 رجلًا في القوَّات الألبانيَّة غير النظاميَّة. وكان ثمَّة كذلك 368 رجلًا وصلوا على مركب ضابط الصف البحري أوشاكوف، و115 رجلًا على ثلاثة زوارق من الفرقاطة الغارقة القديس فيودور. ومجموع كل ذلك: 2794 رجلًا، =

فُرضت في القرية تدابير جديدة شبه عسكريَّة، حيث عملت القيادة على تنظيف شوارع آوزا وعلى منع كل ما يُخِلُّ بـ «السكينة». وشُكِّل لهذا الغرض «فصيلٌ من ثلاثين جنديًّا يرأسهم ضابط»، لـ «السهر على منع حصول أعمال شغب وعراك وقتل إطلاقًا، والحفاظ على نظافة كاملة ودائمة، وتوقيف كل من تسوِّل له نفسه من السكَّان مخالفة التدابير أو... العصيان»[197]. ويبدو أنَّه كان لدى السكَّان والعسكريِّين تصوُّرات متباينة في ما يتعلق بـ «النظافة»، ولذا فإنَّه سرعان ما أُصدِر الأمر الآتي: «ينبغي إفهام السكَّان بحزم ألَّا تكون في الشوارع أيُّ شواذات إطلاقًا، وأن يحافظ كلُّ امرئٍ على النظافة أمام منزله، وألَّا تُغسل الثياب وتُذبح الماشية وتُنظَّف أحشاؤها في مجاري المياه، بل يجب غسل الثياب وكل ما شابهها في الأقنية القريبة من البحر، وإذا لوحظ وجود نفايات في الشوارع وفي المياه فلا بدَّ من فرض غرامة، الأمر الذي يتطلَّب تعيين مراقبين من السكَّان إلى جانب الحراس العسكريِّين، تقوم مهمتهم في حالٍ كهذه بإبلاغ الحراس أو الديوان عن ذلك لإرغام المذنبين على إزالتها فورًا، ووضعهم تحت الحراسة إذا امتنعوا عن ذلك. وإذا كان الألبان هم المذنبين فلتطبَّق عليهم أيضًا عقوبة الاحتجاز»[198].

غير أنَّ تحويل آوزا إلى **عاصمة**، وإقامة قاعدة عسكريَّة محميَّة فيها، كانا يحتاجان إلى أكثر من شوارع نظيفة، بل إلى مشروعات هندسيَّة وأيدٍ عاملة، وعمالٍ لبناء السُّفن وخشبٍ لبنائها وأدميراليَّة[199]. كانت تفتقر إلى كل ذلك بصورة كارثيَّة.

= من بينهم 148 نزيلَ المستشفى لأسباب صحيَّة، يضاف إليهم 83 رجلًا من مختلف السُّفن والفرقاطات في الأسطول. فيكون مجموع المرضى في المستشفى 231: (ظهر الورقة 1-1). أمَّا في آذار/ مارس 1773، عندما كانت ترسو في آوزا السُّفن «تيسما» و«القديس يانوراي» و«أوروبا» و«فسيفولود» و«القديسون الثلاثة» و«المظفرة» و«الأساقفة الثلاثة» و«ناديجدا بلاغوبولوتشيا» كان العدد يربو على الخمسة آلاف رجل (ظهر الورقة 24). يُنظر أيضًا: المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الأوراق 8-47؛ 110-156. «كُشوف» عن أعداد السُّفن والعاملين في المستشفى وعلى البطاريات، وعن العديد في مرفأ آوزا خلال شهري أيار/ مايو وكانون الأول/ ديسمبر 1773.

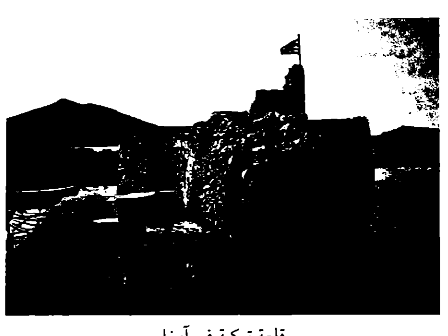
(197) المرجع نفسه، المجموعة 188، الملف 93، الورقة 234 (الأمر الصادر في 23 آب/ أغسطس 1771).

(198) المرجع نفسه، ظهر الورقة 236.

(199) يقصد بـ «الأدميراليَّة» في الأدبيات العسكريَّة الروسيَّة مركز بناء السُّفن الحربيَّة وصونها. وبهذا المعنى تَرِدُ في النص. (المترجم)

عندما وصل الأسطول إلى خليج آوزا، كانت التحصينات القديمة فيه في حالة يُرثى لها، وكانت الحامية التركيَّة قد غادرته. فقد «كانت التحصينات في آوزا قائمة من جهة البحر فقط، وكانت تتألَّف من برج مبنيٍّ من الصفائح الحجريَّة فحسب، يرتفع 6 ساجين فوق سطح الماء. ويبدو أنَّ الأتراك بَنَوا من بقايا الجدران المهدَّمة ممرًا مغطى بجدار حجري يصل البلدة بالبرج... وبما أن الأتراك لم يعملوا على صون البرج قطّ، فقد أمسى وضعه متهالكًا موشِكًا على الانهيار. أمَّا من جهة الشاطئ، فلم تُشيَّد أيُّ تحصيناتٍ فبقي مكشوفًا على نحوٍ كامل».

بدأ بناء التحصينات الروسيَّة على جزيرة باروس في خليج آوزا بأمر من غ. أ. سبيريدوف، فور وصول العمارة البحريَّة، ابتداءً من الثالث من كانون الثاني/ يناير 1771. وتتضمَّن صحائف الضباط المهندسين في الأسطول التقرير الأكثر تفصيلًا عن عمليات البناء،



قلعة تركية في آوزا

حيث كان يُسجَّل فيها يوميًّا عدد العاملين في البناء ومتى ولأيِّ سبب كان يحصل توقُّف الأعمال، وما هي المواد المستخدمة، وإلى أيِّ حدٍّ عُلِّلت خططُ البناء وسماكةُ الأسوار وعدد كُوَاها ...إلخ، وقد جاء في الشروحات التي وضعها النقيب المهندس كارل ريان والملازم المهندس ميخائيل موجاروف ما يأتي:

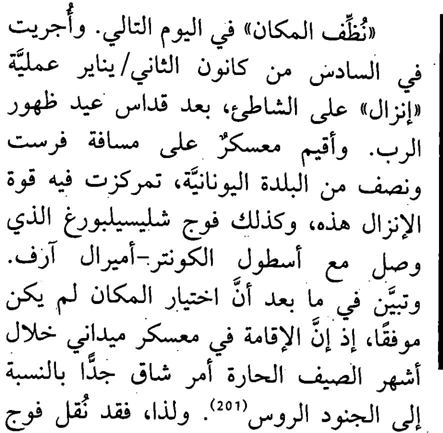
الثالث من كانون الثاني/ يناير: «... بدأ العمل في بناء التَّحصينات، سواءٌ أَمِن الجهة اليسرى المطلَّة على الخليج، أم من الجهة المقابلة المطلَّة على الجزيرة. وفُرز لهذا الغرض 110 أشخاص يوميًّا من بحارة السُّفن للعمل في كلِّ جهة»[200].

---

(200) = *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 129об.



إيفان غانيبال



«نُظِّف المكان» في اليوم التالي. وأُجريت في السادس من كانون الثاني/يناير عمليَّة «إنزال» على الشاطئ، بعد قداس عيد ظهور الرب. وأقيم معسكرٌ على مسافة فرست ونصف من البلدة اليونانيَّة، تمركزت فيه قوة الإنزال هذه، وكذلك فوج شليسيلبورغ الذي وصل مع أسطول الكونتر-أميرال آرف. وتبيَّن في ما بعد أنَّ اختيار المكان لم يكن موفقًا، إذ إنَّ الإقامة في معسكر ميداني خلال أشهر الصيف الحارة أمر شاق جدًّا بالنسبة إلى الجنود الروس[201]. ولذا، فقد نُقل فوج شليسيلبورغ للإقامة في بلدة في جزيرة ناكسوس المجاورة في تموز/يوليو 1771، ولم يبق في المعسكر سوى الجنود الألبان المعتادين على المناخ المحلِّي. ومع ذلك، بُنيت «منشآت فوج شليسيلبورغ» في آوزا في ما بعد[202].

في الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير 1771، وبعد اغتنام «السفينة التجاريَّة» الفرنسيَّة المُستَوْلى عليها وإحضارها إلى آوزا (وقد كانت تبحر من الإسكندريَّة إلى القسطنطينيَّة محمَّلة بـ «البُنِّ وجريش الدُّخن»)، تقرَّر إنشاء مخزن لجمع السلع المُستَولى عليها من «السُّفن الغنائم». وكان عدد كبير من هذه السُّفن «الغنائم» التي استولى على معظمها القبطان أنيتشكوف، قد وصل إلى آوزا خلال شتاء وربيع عام 1771؛ وهي سفن فرنسيَّة وجورجيَّة وتركيَّة

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 129].

(201) شكا قائد فوج شليسيلبورغ ي. ف. تول من النقص في الخيم ومن الملل وعدم توفُّر الحطب لتحضير الطعام والخبز المجفَّف، يُنظر: Гребенщикова, с. 365.
[غريبينشيكوفا، ص 365].

(202) *Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг*, с. 53; *РГВИА*, Ф. 434, Д. 58: Атлас Архипелага, Карта 22.
[أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769-1774، ص 53؛ أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 434، الملف 58: أطلس الأرخبيل، الخريطة 22].

ومن البندقيَّة، بل حتَّى سفينة إنكليزيَّة (متَّجهة إلى القسطنطينيَّة وعلى متنها سلع تونسيَّة). وإنَّ قسمًا من السلع المصادرة (كَفِراء الثعالب) عُرض للبيع على التجَّار اليونانيِّين المحليِّين[203].

في الرابع والعشرين من شباط/ فبراير، «بعد صدور الأمر العام المتعلِّق بأعمال صيانة مختلف سفن الأسطول»، «أُسِّست أدميراليَّة على الجزيرة عند خليج آوزا». فاستُدعِيَ معلِّمون حرفيُّون في بناء السُّفن، من بينهم المعلم الشهير أ. س. كاتاسانوف، من بطرسبورغ إلى آوزا[204]. وفي آب/ أغسطس 1772، عمل تحت إشراف كاتاسانوف 208 عمال، وبلغ عددهم في عام 1774، 338 عاملًا![205]. وفي ربيع عام 1771، عُيِّن القبطان الملازم أ. ف. بوبوفكين قائدًا لمرفأ آوزا، والعقيد إ. أ. غانيبال قائدًا للمدفعيَّة البحريَّة، وقد بنى لنفسه منزلًا حجريًّا[206] في «جزيرة الأدميراليَّة» بِآوزا.

بحلول السادس من آذار/ مارس، أي في غضون ثلاثة أشهر، كان قد أنجز بناء الحصنين الأوَّلين في آوزا، وهما عبارة عن بطاريتي مدفعيَّة عند مدخل الخليج وعلى الجزيرة. فقد «شُيِّد الحصن الأول على رأسٍ ذي أرضٍ صخريَّة... يرتفع 7 ساجين عن سطح الماء، ينحدر انحدارًا خفيفًا نحو البحر، وبحدَّة أكبر نحو الداخل. وشُيِّد حصنٌ ثانٍ على رأسٍ آخر، على الرغم من وجود مرتفعات صخريَّة حادة الانحدار أعلى منه تبعد منه أكثر من مئة وخمسة عشر

---

(203) Гребенщикова, с. 336.

[غريبينشيكوفا، ص 336].

(204) أصبح ألكسندر كاتاسانوف لاحقًا مديرًا لمدرسة بناء السُّفن، ومؤلفًا لكتاب **تصاميم بناء السُّفن** (سان بطرسبورغ، 1801)، يُنظر عنه: Гребенщикова, с. 364, 480, 510, 513, 557.

[غريبينشيكوفا، ص 364، 480، 510، 513، 557].

(205) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 114, Л. 14об., 26.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 114، ظهر الورقة 14، 26].

(206) أشير إليه في المخطط. يُنظر: *Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг*, с. 24 (карта 21).

[أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769-1774، ص 24 (الخريطة 21)].

ساجين، فلا يمكن مدفعيَّة العدو النيل منه بأيٍّ من الأشكال، فهو يؤمِّن أفضل دفاعٍ عن المدخل، بجدرانه الممتدَّة ذات الزوايا الحادَّة البارزة إلى الأمام[207]، حيث يؤمِّن كلُّ خطٍّ الدفاع عن الآخر على نحوٍ جيِّد. كما أنَّ الشواطئ تؤمِّن الحماية من الداخل والخارج، بحيث يمكن إلحاق الضرر بالعدو، سواءٌ أكان بعيدًا من الخليج أم قريبًا منه أم عند دخوله من أماكن مختلفة... وقد اقتُلعت الحجارة من أماكن قريبة. وتعذَّر حفر خنادق بسبب صخريَّة الأرض هنا، فجُلبت الأتربة من أماكن مختلفة، أينما وجدت بين الصخور والشِّعاب... وأقيم الحصن الثاني على الجزيرة، إلى اليمين من مدخل الخليج، حيث ينبسط المكان وينبسط ولا يرتفع عن سطح الماء إلا ستة أقدام... وقد جُهِّزت جدران الدعم الخشبيَّة أثناء وجود أسطولنا عند جزيرة تاسو، حيث جُلبت بالمراكب اليونانيَّة»[208].

بدأ في الحادي عشر من آذار/ مارس 1771 العمل على إنشاء مخزن مدفعيَّة حجري على الجزيرة المحصَّنة في خليج آوزا. واستُعين في أعمال البناء خلال الربيع بعمالٍ يونانيِّين «بأجرٍ قدره 200 يفيموك[209]. ويبدو أنَّ جنود الأسطول

(207) يستخدم المؤلِّف المصطلح الفرنسي Redan أو Redent، أي: الجدار البارز في سور حصن. (المترجم)

(208) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 136об.-137об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 136، ظهر الورقة 137].

(209) المرجع نفسه، الورقة 138.

استمرت عمليات البناء بجهود اليونانيين بإشراف المهندس الروسي باتالزين إلى عام 1772:
*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 29, Л. 13об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 29، ظهر الورقة 13]، (تشير الوثيقة إلى أنه استُخدِم 32 يونانيًّا للعمل في البناء).

[يفيموك: التسمية الروسيَّة لـ «التالير»، وهو قطعة نقديَّة فضيَّة من عيار يتراوح بين 28 و32 غرامًا، كانت متداولة في مختلف البلدان الأوروبيَّة منذ القرن السادس عشر، إذ كان يُقبل التجَّار على تداولها كما هي حال الدولار اليوم. وقد عُرف في روسيا باسم «يفيموك» نسبة إلى التالير الأول الذي سُكَّ في مدينة يخيموف من أعمال بوهيميا (تشيكيا). وقد عملت الحكومة الروسيَّة على تشجيع تدفُّق «التالير» إلى البلاد انسجامًا مع سياسة تعظيم الثروة الوطنيَّة من خلال تحفيز تدفُّق المعادن الثمينة، وكانت الرسوم الجمركيَّة لا تُجبى إلا بالتالير بسعر منخفض على نحوٍ مصطنَع في الأغلب. وفي عام 1654 =

وبحّارته كانوا يستعدّون لخوض حملة عسكريَّة جديدة حينذاك، فنقلوا المدفعيَّة إلى متن السُّفن وأجروا تدريباتهم العسكريَّة على شاطئ خليج آوزا.

في الثامن من آذار/مارس 1771، أُنشِئ في آوزا مستشفى عسكريٌّ «للمرضى من العاملين في الأسطول، بحرًا أو برًّا»[210]. وكان عدد العاملين في هذا المستشفى - الذي أطلق عليه اسم مهيب هو «المستشفى العسكري البحري العام» - يتراوح بين 54 وبين 69 من أطبَّاء[211] وممرِّضين ومساعدي ممرِّضين وغيرهم، يعالجون ما لا يقلُّ عن مئة مريض، مع أنَّ عدد المرضى كان يزيد على 230 أحيانًا[212]. وبعد العمليَّة الدمويَّة في ضواحي ستانتشيو (جزيرة كوس)، في آب/أغسطس 1773، وانتشار الأمراض المعدية («الحُمِّية»)، تطلَّب الأمر إنشاء مستشفى آخر على جزيرة باتموس[213]، ظلَّ يعمل حتَّى كانون الأول/

---

= سُكَّ التالير الروسي الفضيُّ الأول وأُطلق عليه اسم «روبل يفيموك»، حيث كان يعادل اسميًّا 100 كوبيك فضي، والواقع أنه لم يعادل سوى ثلث قيمته الفعلية تقريبًا. ثم سُكَّ يفيموك جديد في عام 1655 دُوِّنت عليه الأرقام العربيَّة أول مرة، وكانت قيمته 64 كوبيكًا، إلا أنَّه سُحب من التداول رسميًّا في عام 1659، ولكنه ظل متداوَلًا شعبيًّا لفترة طويلة بعد هذا التاريخ. وسُكَّ يفيموك ثالث في عام 1798 إبَّان عهد الإمبراطور بولس (بافل) الأول]. (المترجم)

(210) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 137об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، ظهر الورقة 137].

(211) عُرف من الأطباء الأجانب الدكتور جيرمان: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 44, Л. 93об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 44، ظهر الورقة 93].

«الدكتور الطبيب نيقولا كولليرغي» [المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 29، ظهر الورقة 234)، وطبيب فوج شليسيلبورغ يوغان فيلغيلمغوف (المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، ظهر الورقة 7 و17].

(212) المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 111، ظهر الورقة 7 و17].

(213) من سبيريدوف إلى أورلوف في الحادي والثلاثين من آب/أغسطس 1773: «الجرحى ... أصيب عدد من العاملين بالحُمَّى والبرد، ولذلك أقمت في جزيرة باتموس مستشفى مؤقتًا، حيث تماثل عدد منهم للشفاء بفضل الله»: [مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12، ص 161]. وأشار م. كوكوفتسيف إلى نقل البحارة الذين أصيبوا بالعدوى على جزيرة ساموس «إلى مستشفى باتموس الذي أنشئ خصِّيصًا وسرعان ما تماثلوا للشفاء، باستثناء عدد قليل وافته المنيَّة»: Коковцев, с. 73.

[كوكوفتسيف، ص 73].

ديسمبر 1773 نفسه. ويبدو أن المستشفيات التي أنشئت كانت جدَّ متواضعة من حيث تجهيزُها. فلدى إغلاق مستشفى باتموس، الذي عالج فيه الطبيب ومساعده والمتدرِّبون من السفينتين «فسيفولود» و«روستيسلاف» 143 مريضًا (إضافةً إلى 45 جنديًّا كُلِّفوا بحراستهم)، تضمَّنت جردة الموجودات ما يلي: «8 قدور نحاسيَّة، 11 سريرًا، 22 وسادة، 9 أكواب صغيرة وكبيرة، 35 ملعقة، 20 غطاء سرير ووسادة، 100 ملعقة خشبيَّة، 5 حرامات صوفيَّة رثَّة، وفأسين»[214]. ومع ذلك، لم يتوقَّف الاعتناء بالمرضى، بل كانوا لا يبخلون على المستشفى بالمال، حتَّى في أصعب الظروف[215].

أقيم جناحٌ للمرضى على إحدى السُّفن، كما وُزِّعوا أيضًا على أديرة باروس[216]، وفي الجزر[217]، ونقلوا للعلاج إلى ليفورنو وبورت ماغون. وبالفعل، تجاوزت خسائر الأرواح بسبب الأمراض الخسائر الناجمة عن الأعمال الحربيَّة إلى حدٍّ كبير.

تراءى في البداية كأنَّ جزيرة باروس تتميَّز من الكثير من جزر الأرخبيل بظروفها المناخيَّة الملائمة، وأنَّ الأمراض لن تصيب المشاركين في الحملة الروسيَّة. ففي الثاني من شباط/ فبراير 1771، كتب غ. أ. سبيريدوف إلى الإمبراطورة من آوزا: «جميع من في القوَّات التي تحت إمرتي، هنا في

---

(214) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 29, Л. 235, 238 об. -241, 277.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 29، الورقة 235، ظهر الورقة 238-241، 277].

(215) فعلى سبيل المثال، صدر في العشرين من آب/ أغسطس 1771 أمر يقضي ألَّا يكون في المستشفى أيُّ نقص في اللحوم الطازجة، وشراء الخراف في بارسوس «مهما كلَّف الأمر» (المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، عام 1771، ظهر الورقة 228). وعندما ظهرت بوادر انتشار الأوبئة خلال أيلول/ سبتمبر 1771، عاين الدكتور غيرمان مكانًا بالقرب من آوزا للمرضى والأديرة، فطلبت القيادة من الأهالي مجدَّدًا تنظيف آوزا (المرجع نفسه، الورقتان 228 و255). وفي تشرين الأول/ أكتوبر، تعيَّن التوجُّه إلى أعيان ميكونوس بطلب استقبال المرضى، مع الإشارة إلى أن ميكونوس «أيسر من باروس»، وأنَّ أهل باروس ساعدوا في بناء المستشفى هناك، ولذا لا يوزَّع المرضى عليهم في منازلهم الآن (المرجع نفسه، الورقة 334).

(216) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الأوراق 108-113.

(217) Κοντογιάννης, Σελ. 245-246.

الأرخبيل، أكان في مرفأ آوزا أم على السُّفن الحربيَّة التابعة لأسطول جلالتكم، على خير ما يرام، فكلهم بصحة جيدة، سعداء وشجعان... عدد المرضى بفضل الله قليل، والأمراض مجرَّد حُمَّى خفيفة في الأغلب، وستزول بحلول الربيع، كما يقول السكَّان اليونانيُّون المحليُّون»(218). بيد أنَّ هذه الآمال سرعان ما تبدَّدت في ما بعد. فقد كتب س. ب. خميتيفسكي الذي أصابته الأمراض كثيرًا إبَّان الحملة: «الجميع تقريبًا مرضى في فوج شليسيلبورغ المرابط في جزيرة بافوس بالأرخبيل، وخلال ثلاثة أشهر تُوفِّي ما يزيد على ستمئة جندي وضابط»؛ ثم يضيف في ما بعد أنَّه خلال ثلاثة أشهر من عام 1772 «تُوفِّي ابتداءً من تموز/يوليو أكثر من تسعمئة من جنود [فوج شليسيلبورغ]، وثلاثون من كبار الضباط وصغارهم، ولا يزال آخرون يموتون حتَّى الآن، بحيث فاق عدد الموتى 1200 شخص. وكان الخطر كبيرًا على الآخرين، ونادرًا ما خرج الأطباء وباقي العاملين من هنا أصحَّاء؛ إذ سرعان ما اعتلُّوا وماتوا. كانت الأمراض متنوعة: بقع متقيِّحة، حُمَّى، برد، زُحارٌ دموي»(219). ويكرِّر م. كوكوفتسيف في ملاحظاته عن «ظروف البحَّارة الطبيعيَّة الضروريَّة»، الرأي الذي كان سائدًا في زمانه عن أسباب الأمراض المعدية في الأرخبيل، فيقول: «ثمَّة خطورة في العيش على الجانب الجنوبي من كلِّ الجزر الجبليَّة، لأنَّ الجبال العالية لا تسمح للرياح

---

(218) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 650.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 650].

(219) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 645, 654.

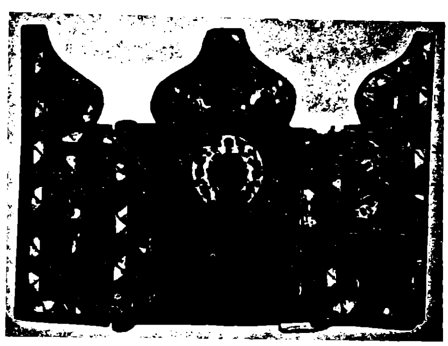
[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 645، 654 (الطبعة الروسيَّة)].

في تقرير الطبيب فرانتس كولب (؟) بتاريخ العاشر من آب/أغسطس 1772، مثلًا، ورد تعداد الأمراض التالية التي أصيب بها مرضى مستشفى آوزا: الحمَّى - 23 شخصًا؛ حمَّى تقيُّحِيَّة - خمسة؛ حُمَّى - 30؛ مرض مائي - 3؛ زُحار - 19؛ سوداويَّة - 3؛ سعال - 6؛ العيون - 2؛ ورم فتقي - 3؛ ورم على الرقبة - 1؛ رضوض على الظهر- 5؛ رجل مكسورة - 1؛ داء الحفر (الأسقربوط) - 8؛ جروح داء الحُفار- 7؛ جروح على الرقبة - 2»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 156.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 156].

يُنظر أيضًا تقاريره الأخرى: المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 115.

الشماليَّة بتنقية الهواء، وكذلك في الأماكن المنخفضة جدًّا، ولا سيَّما حيث المياه الراكدة. فالبركِ والمستنقعات غير صحيَّة البتَّة، لأنَّ الأبخرة المتصاعدة منها تلبِّد الجو، وتسخِّنها أشعة الشمس، فتسمِّم الهواء وتنقل العدوى إلى السكَّان. وقد شعرت القوَّات الروسيَّة في قريتي مراموري وتسيبيد على جزيرة باروس في عام 1772 بذلك، حين تسبَّبت الأمراض المتفشيَّة بخسارة فوج شليسيلبورغ على نحوٍ كامل تقريبًا»[220].



محراب معدني– «القديس نيقولا العجائبي مع عجائبه». تم العثور عليه في موقع المقبرة الروسية في آوزا

تواصلت أعمال البناء في آوزا خلال الفترة 1771-1774. فتظهر على خريطة آوزا (المُعدَّة على ما يبدو في عام 1774 - بداية عام 1775) - إلى جانب المباني المشار إليها سابقًا– مطاحن القمح ومشاغل الأشرعة والغزل، ومنزل الجنرال ميجر القائد غانيبال والقائد القبطان بوريسوف، والثُّكن الحجريَّة للعاملين على السفينة «القديس أنوراي»[221]، كما يظهر على الشاطئ الغربي مبنى حجري

(220) Коковцев, с. 73.

[كوكوفتسيف، ص 73].

(221) تعرَّضت السفينة «القديس أنوراي» - التي كانت بقيادة القبطان إ. أ. بوريسوف خلال الفترة 1769-1773 - لتسرُّب شديد في عام 1773، وبُدِئَ بعمليَّة سد الثغرات في آوزا، إلا أنَّ الأعمال لم تنجز بسبب نقص المواد واليد العاملة. وبيعت السفينة في عام 1775 حطبًا، بعد أن بُذلت لإصلاحها جهودٌ كبيرة وأموالٌ باهظة، حيث كان يُمكن «إصلاحها في غضون ثلاثة أشهر» لو توافرت الظروف الملائمة. يُنظر: A. A. Чернышев, *Российский парусный флот* (M., 1997), t. 1, c. 53; *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, c. 241.

[أ. أ. تشيرنيشوف، **الأسطول الشراعي الروسي** (موسكو، 1997)، مج 1، ص 53؛ **مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 241].

للإدارات المختلفة ولصغار الضباط العاملين في الأدميراليَّة وقوة الشاطئ، «وثمة صارية على تلة، تُبثُّ منها الإشارات»، إضافة إلى «مساكن حجريَّة لكبار الضباط ومهاجع لصغار الضباط وثُكن للجنود في فوج ليبسيلبورغ كانت قد بُنِيَت في عام 1773»[222]. ولجأت القيادة إلى استعارة المواد حتَّى من الكنيسة الكاثوليكيَّة التي كان يجري تشييدها في آوزا، بهدف إنجاز أعمال البناء. ولذا، أمر الأميرال أ. ف. يلمانوف قبيل مغادرة الأسطول في عام 1775 بترك جزء من المباني الروسيَّة للبعثة الكاثوليكيَّة، تعويضًا عن المواد المصادرة، غير أنَّ البعثة سرعان ما هدمتها[223].

لم تُتَحْ فرصة بناء «مساكن» لجميع المشاركين في بعثة الأرخبيل، وعلى الأرجح لم تُطرح هذه المسألة أساسًا. وظلَّ القسم الأكبر منهم (باستثناء القوى العاملة على البر) يعيش على متن السُّفن، حتَّى خلال رُسُوها في باروس.

يمكن الحكم على ترتيب جناح الضباط الداخلي وقمرات الضباط المنفصل بعضها عن بعضها بحواجز من الأشرعة، التي كان يتعيَّن عليهم تقاسمها مع سبطانات المدافع، مثلًا، بمُقتضى الأمر الصادر في 24 شباط/ فبراير 1769عن هيئة الأدميراليَّة، المتعلِّق ببناء السفينة ذات الثمانين مدفعًا: «ينبغي بناء القمرات على النحو الآتي: 1) يجب أن تُنجَّد قمرة ضابط القيادة بجلد الشاموا المذهَّب، وأن تؤطَّر ببراويز غير عريضة ومتداخلة، يمكن نزعها عند الضرورة؛ 2) تُنجَّد قمرة القبطان أيضًا بقماش الأشرعة، وليس بالجلد، فيُصبغ بشكلٍ لائق؛ 3) تقام في جناح الضباط وقمراتهم الحواجز بواسطة قماش الأشرعة أيضًا مع أطر مطليَّة، على أن يكون بالإمكان نزعها، أو أن تُرفع بين المدافع بمشابك، بحيث لا تُعيق عملها»[224].

(222) *Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг*, с. 25.

**[أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769-1774، ص 25].**

(223) E. I. Καρπάθιος, *Η λατινική προπαγάνδα και αι Κυκλάδες κατά τον ΙΗ΄ αιώνα: (εκθέσεις προς το Συνέδριον της Προπαγάνδας Πίστεως)* (Αθήνα, 1936).

(224) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 469. =

لم يبقَ بين حواجز الأشرعة على السُّفن أو في خيام فوج شليسيلبورغ سوى حيِّز ضيِّق للأمتعة الشخصيَّة، ومع ذلك أباح الضباط لأنفسهم الاحتفاظ ببعض الكماليات، بما في ذلك الأواني الفضيَّة. فعندما توفي الرائد نيقولاي نيجغورودوف في عام 1774، خلَّف من بعده، بحسب ما جاء في قائمة الموجودات، ما يأتي: «صورة السيدة العذراء في إطار نحاسي مذهب صغير؛ صورة البشارة بأكاليل فضيَّة؛ صورة القديس نيقولاي بسلسلة صغيرة؛ أوانٍ فضيَّة: إناءان للسكب، 14 ملعقة لتناول الطعام، ملعقة شاي



الجهة الجنوبية من خليج ناوسا مع إشارة إلى موقع فوج شليسيلبورغ. من صحيفة فون تول عام 1771

صغيرة، كوب صغير ذو قوائم، قدح جديد مذهَّب من الداخل ذو قوائم، صينيَّة من الفضة مربَّعة ذات قوائم، مَمْلَحتان جديدتان مستديرتان، بكلة بفتحات للأحذية، ختم فضي حُفِرَ عليه الحرف الأول من اسمه، طوق فضِّي للرقبة مكسو بالمخمل مع سلسلة، أربع سكاكين مع شوكة بمقابض فضيَّة، صليب ذهبي صغير، خاتم من سبيكة النحاس والزنك، خاتم ذو ثلاثة أحجار ثمينة،

= **[مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 469].

محبس فضي عليه كتابة مذهَّبة، زوجان من الأزرار الفضيَّة للأكمام مع حبة كريستال، سيف بنقوش مع صمولتين وغمد»[225].

ما إن استقرَّت الأمور في آوزا حتَّى أبرم صلح كوتشوك - كاينارجي، فتعيَّن تفكيك القاعدة في باروس والعودة إلى روسيا. وعندما تبلغ أ. ف. يلمانوف الذي كان يتولَّى القيادة في الأرخبيل آنذاك، في آب/ أغسطس 1774، من أ. غ. أورلوف النبأ بعقد الصلح، اعتقد أنه لن يتمكَّن من إخلاء آوزا قبل **ثلاثة إلى ستة أشهر** على الأقل، وعمومًا «لا يمكن مسبقًا تحديد موعد الخروج من الأرخبيل». وعدَّد يلمانوف المُعدَّات والتجهيزات التي تزايد عددها في آوزا: فقد كان يتعيَّن تحميل المدافع من آوزا، ومن ثَمَّ شحنها من المرابض وكذلك من ثلاث سفن «راسية عند الشاطئ»، والمدفعيَّة والذخائر من السُّفن الصغيرة، وتجهيزات قوَّة الحرس وفوج شليسيلبورغ وقوَّة الدروع والمدفعيَّة الثقيلة، فضلًا عن «الأسلحة والأعتدة والألبسة الصالحة للاستعمال، المتبقية بعد الموتى والمغادرين، الموجودة في الاحتياط، وحزم الأقمشة والخيام المكدَّسة كلُّها في المخازن، وكذلك كميَّة كبيرة من قطع الرخام المختلفة التي اشتراها الأميرال سبيريدوف وخزَّنها»[226]. بيد أنَّ البعثة لم تغادر آوزا، في الواقع، إلا في 23 أيار/ مايو 1775.

يبدو أنَّ عودة كلِّ جزر إمارة الأرخبيل إلى الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، بموجب صلح كوتشوك - كاينارجي، كان بالنسبة إلى قرية الصيَّادين في آوزا مفاجأة لا يقل وقعها عن مفاجأة ظهور الأسطول الروسي عند خليجها في عام 1770[227]. وإذ أدركت القيادة الروسيَّة أنَّ انسحاب الأسطول يمكن أن

---

(225) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 214.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 214].

(226) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 241-243.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12، ص 241-243]. يُنظر أيضًا: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 75-79.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملفات 75-79].

(227) لا يزال السكَّان المحليُّون يعتبرون أن فترة 1770-1775 كانت ذروة مجد هذه البلدة =

يخلق جوًّا من الذعر في آوزا والجزر الأخرى، فهي لم تستعجل إطلاع السكَّان على حقيقة الأمر. ففي 23 تموز/ يوليو 1774، كتب أ. غ. أورلوف من ليفورنو إلى أ. ف. يلمانوف في الأرخبيل يقول إنه ينبغي الاستعداد للرحيل من آوزا من دون إعلام اليونانيين بذلك، «ويمكن إرسال كلِّ الأغراض التي لا حاجة إليها الآن على المراكب الشراعيَّة الصغيرة وغيرها من السُّفن، إلى المخازن في ليفورنو، ولكن بحذر، بحيث **لا يلاحظ السكَّان اليونانيون ذلك**»(228). وبالكاد شعر سكَّان آوزا بالأسى، غير عارفين ما ينتظرهم مع عودة الحكم العثماني. وحينما أُخبِرَ سكَّان الجزر الذين تميزوا بخدمة الروس بشروط معاهدة الصلح، عُرض عليهم الانتقال إلى الإمبراطوريَّة الروسيَّة، ولعلَّه كانت لديهم كل المسوِّغات للارتياب بشأن ما ينتظرهم في المكان الجديد(229).

كانت القاعدة العسكريَّة في آوزا، التي أُنشئت خلال شتاء 1770-1771 واستمرَّ بناؤها حتَّى بداية عام 1774، منشأة معتبرة لا تزال آثارها ماثلة حتَّى اليوم. وليس عبثًا أن يكتب المراقبون المبهورون عن تحصينات آوزا، واصفين إياها بأنَّها «كرونشتاد الثانية»(230). وقد وضع الفرنسيون عقب خروج الأسطول الروسي من آوزا مخطَّطًا تفصيليًّا لهذه التَّحصينات، ضمَّنه الكونت شوازول غوفيه مؤلَّفه الشهير، حيث كتب عن آوزا في عام 1774 ما يأتي: «كلُّ ما بناه

---

= الصغيرة. وابتداءً من تسعينيَّات القرن العشرين فحسب، عادت آوزا/ ناوسا لتعيش مرحلة ازدهار جديدة، بعدما تحولت إلى منتجع عصري يضم مراكز ألعاب وعددًا كبيرًا من الفنادق.

(228) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 66, Л. 183.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 183].

(229) عن الملابسات التي نشأت حول نزوح اليونانيين و«الألبان» إلى روسيا، يُنظر:

Ю. Д. Пряхин, «Вознаградить службу тех греков, кои в Архипелаге сражались за Россию…: Переселение в Керчь и Еникале в 1775 году воинов Албанского (греческого) войска,» *Военно-исторический журнал*, no. 2 (2002), , c. 69-72.

[ي. د. برياخين، «مكافأة أولئك اليونانيين الذين قاتلوا إلى جانب روسيا في الأرخبيل...: انتقال رجال القوَّات الألبانيَّة (اليونانيَّة) إلى كيرتش وينيكال في عام 1775»، **المجلة العسكريَّة - التاريخيَّة**، العدد 2 (2002)، ص 69-72].

(230) *АВПРИ*, Ф. 89/8: Сношения России с Турцией, Д. 1914, Л. 1-2.

[**أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 89/ 8: العلاقات بين روسيا وتركيا، الملف 1914، الورقة 1-2].

الروس لا يزال قائمًا. فقد وضعوا عددًا كبيرًا من بطاريات المدفعيَّة لحماية مدخل الخليج على الجانب الأيمن من المرفأ وعلى الصخور البحريَّة، بحيث تغطِّي النيران المساحة بواسطة البطاريات الأولى. وكان يمكن هذه النيران أن تكون أكثر من كافية لدحر السُّفن التركيَّة، غير أنَّ المدفعيَّة الممتازة كانت عديمة الفائدة تقريبًا لبطء عملها. وكانت توجد صارية تُرسَلُ منها الإشارات للسفن المرئيَّة من بعيد على مرتفعٍ يغطِّي المرفأ من الشمال الغربي، بالقرب من بطاريَّة المدفعيَّة التي تحدثت عنها، وتنتشر مخازن وورش حدادة وورش لبناء السُّفن على الشاطئ. كانت أغلبية سفن الأسطول ترسو في هذا المكان بالتحديد. وهو يغصُّ اليوم بهياكل عددٍ من السُّفن لم تعد نافعة للروس، فتركوها أو أغرقوها عند انسحابهم... وتنتصب بين هذا المكان وبين ناوسا القديمة صخرتان. ويوجد مخزنان للبارود في حالة جيدة على إحداها، ويقوم منزل قائد الأسطول الأميرال سبيريدوف[231] على الثانية. أمَّا قرية ناوسا فصغيرة جدًّا، ومع ذلك بنوا فيها ثكنًا كبيرة، تتسع لـ 4000 جندي روسي نظامي، و1000 بحَّار، و12,000 ألباني، و3000 يوناني»[232].

## ظروف العمل والأعياد في إمارة الأرخبيل

ظلَّت إمارة الأرخبيل في حالة حرب طوال حياتها القصيرة، وبقي العسكريون الروس والقوات «الألبانيَّة» غير النظاميَّة في حركة دائمة، يشاركون في العمليات العسكريَّة (الصيفيَّة عادة)، أو يجوبون البحر على مدار السنة[233].

لم يُستَثنَ من ذلك سوى السُّفن المحتاجة إلى صيانة، فترميمها بعدما نخرها «السوس» كان يتطلَّب مهارة وكذلك كمًّا كبيرًا من الخشب الذي لم يكن متوافرًا في جزر إمارة الأرخبيل (كان خشب السُّفن متوفرًا في جزيرة تاسوس، التي بقيت خارج السيطرة الروسيَّة). وبالكاد تمكَّنت الأدميراليَّة

---

(231) يبدو أنَّ المقصود على الأرجح منزل إ. أ. غانيبال الآنف الذكر. أمَّا غ. أ. سبيريدوف فقد كان موجودًا دائمًا على متن سفينة حربيَّة، ولا يظهر منزله على أيٍّ من الخرائط الروسيَّة.

(232) Choiseul-Gouffier, pp. 70-71.

(233) عن الأعمال الحربيَّة والإبحار، يُنظر الفصل الرابع.

الروسيَّة في باروس من القيام بكلِّ أعمال الصيانة (نذكِّر بعدم إنجاز تصليح السفينة «القديس إيانواري» [يانواري] خلال عامي 1774-1775 في باروس). ولذا، أصبحت مالطا قاعدة أساسيَّة لتصليح السُّفن؛ إذ قام المالطيُّون بترميم السفينة «روستيسلاف» بقيادة القبطان لوباندين(234)، خلال الفترة الواقعة بين 25 كانون الثاني/ يناير و4 نيسان/ أبريل 1771، بمباركة من رئيس المحفل(235) ف. أ. بينتو. وفي الفترة الواقعة بين 31 كانون الثاني/ يناير وبين نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1772، أُنجِزَ تصليح السفينة «ساراتوف»، وحضر كلٌّ من أ. غ. أورلوف وس. ك. غريغ خصِّيصًا إلى مالطا لتسلُّمها(236). وتتضمَّن صحيفة الملازم المهندس غيورغ كيلخين وصفًا لأحد عشر شهرًا أمضاها رجال السفينة «ساراتوف» (بقيادة القبطان بولغاكوف) في مالطا(237).

من دون أدنى شك، لم يوقف المبعوثون الروس أيضًا نشاطهم الاستخباري طيلة فترة وجود القوَّات الروسيَّة في الأرخبيل. فاستمرَّ إنشاء شبكات التجسُّس على الشاطئ البلقاني، وتواصل كذلك إرسال المبعوثين إلى الحكَّام العثمانيين المتمرِّدين(238). ومكث عضو بعثة القسطنطينيَّة ب. أ. لاشكاريف، الذي نقل في عام 1772 تعليمات سريَّة من ب. أ. روميانتسيف إلى أ. غ. أورلوف، بعض الوقت سرًّا على جزيرة نيغروبونتي، التي كانت تخضع للحكم العثماني(239). وبدهي أنَّ سيرغي بليشييف زار الشرق الأوسط أيضًا، لا لمجرَّد الحجِّ إلى الأراضي المقدسة (إذ اقترنت زيارته للناصرة وقانا الجليل، على الأرجح، بتنفيذ مهمَّة استخباريَّة أساسيَّة). كما أنَّ الملازم في

---

(234) *РГВИА*, Ф. 846, Д. 1860, Л. 48об.-49.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، الملف 1860، ظهر الورقة 48-49].

(235) المقصود رئيس محفل فرسان مالطا. (المترجم)

(236) المرجع نفسه، الأوراق 48-49.

(237) المرجع نفسه، المجموعة 846، الملف 1860، الأوراق 58-65.

(238) يُنظر الفصل التاسع في هذا الخصوص.

(239) Г. Л. Кессельбреннер, *Хроника одной дипломатической карьеры* (М., 1988).
[غ. ل. كيسيلبيرنير، سيرة أحد أعلام الدبلوماسيَّة (موسكو، 1988)].

فوج بري أوبريجينسكي، ماكسيميليان (ماغنوس) باومغارتين، لم يدخل في مفاوضات مع الشيخ ظاهر العمر في عام 1773، فقط لأنَّ المرض أقعده على شواطئ فلسطين[240].

أسهمت ظروف العمل والأعياد في إمارة الأرخبيل بخلق مناخ كوسموبوليتي، ظلَّ طويلًا في ذاكرة المشاركين فيها. فقد تمثَّلت كل الأنحاء الأوروبيَّة تقريبًا في البعثة: كان القادة روسًا (أورلوف، سبيريدوف، يلمانوف)، وبريطانيين (غريغ، ألفينستون)، ودانماركيين (آرف). وكان في عداد الضباط إنكليز[241] ودانماركيون[242] و«ألمان» بلطيقيون[243] وبروسيون ويونانيون وإيطاليون وصرب ومالطيون[244] وغيرهم؛ بل إنَّ يهودًا من

(240) يُنظر الفصل الثامن أيضًا.

(241) صدرت مذكرات أ. فيسلي، الذي قاتل إلى جانب ألفينستون في عام 1772، ولكن، إذا كان ألفينستون وفيسلي غادرا الأرخبيل في عام 1771، فإنَّ عددًا كبيرًا من البريطانيين واصل الخدمة لصالح روسيا. يُنظر: *An Authentic Narrative of the Russian Expedition against the Turks by Sea and Land* (London, 1772).

(242) غادر القسم الأكبر من الدانماركيين بعثة الأرخبيل بعد رحيل الكونتر-أميرال آرف في عام 1771.

(243) وصل البارونان فون بالين وفون بوزين إلى آوزا من سميرنا. وقد أشار القبطان كوجوخوف في تقريره بعد العمليَّة عند السواحل السوريَّة إلى أنَّ ماكسيميليان فون بالين «كان متميزًا عند باروت [بيروت (المترجم)]، ما اقتضى السماح له بالالتحاق بفرقة الملازم ثانٍ باومغارتين، أمَّا البارون الآخر فقد عمل بغيرة واجتهاد وفتح ثغرة في باروت، وعند الدخول إلى المدينة تولَّى مهمَّة مساعد القومندان، وقد وضع خطَّة باروت بدقة»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 92-93об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 92 - ظهر الورقة 93].

قدم بالين تقريرًا عن اقتحام بيروت، وكان هو، على الأرجح، مؤلف مذكرات عامي 1774-1775 التي تضمَّنت وصفًا لإبحار الأسطول الروسي نحو القسطنطينيَّة لاستكشاف العبور في المضائق: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة التاريخي العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948]؛ Барона фон дер Палена журнал путешествия в Константинополь, in: *Отече ственные записки*, Ч. 14, no. 38 (1823), c. 372-384; Ч. 15, no. 40, c. 236-247.

[سجل البارون فون دي بالين بشأن الرحلة إلى القسطنطينيَّة، في: **مدونات وطنيَّة**، ج 14، العدد 38 (1823)، ص 372-384؛ ج 15، العدد 40، ص 236-247].

(244) منهم على سبيل المثال، الكونت دي مازين السابق ذكره. يُنظر التفصيل عنه في الفصلين الثالث والسابع.

سالونيكي أبدَوْا رغبة في الخدمة لمصلحة روسيا[245]. كما قاتل إلى جانب الروس في الجيش والأسطول الروسيين، من قبل أيضًا، مواطنون أجانب جاؤوا يبحثون عن سعدهم. لكن الجيش والأسطول لم يعملا قطُّ من قبل في مناطق بعيدة من حدود الإمبراطوريَّة، فكان الأجانب غالبًا أقرب بكثيرٍ إلى أوطانهم من الجنود الروس.

كثيرًا ما كان الجانب الروسي يقيم في فترات الهدنة علاقات وثيقة مع «الأعداء» الأتراك. ففي حزيران/ يونيو 1771، شكا سبيريدوف إلى يلمانوف أن التركي مصطفى بك، الذي جاء حاملًا أوراق الهدنة، بقي في الأسطول الروسي مدة طويلة أكثر من اللازم، بانتظار أ. غ. أورلوف: «إن السيد التركي مصطفى بك مع حاشيته التي يربو عددها على 170 شخصًا، مُكلِف جدًّا بالنسبة إلينا، فهو يعيش على حسابنا بالكامل. ولا نعلم متى يأتي الكونت. نسأل الله أن يكون مجيئه سريعًا...»[246]. وغالبًا ما يشير القبطان س. خميتيفسكي في صحيفته إلى الأحاديث الهادئة مع غسان آغا، الذي كان في السابق قائدًا للدفاع عن ليمنوس، ويذكر أنَّ القبطان باشا لم يكتف في كانون الأول/ ديسمبر 1773 بالسماح لغريغ بشراء المؤن للأسطول الروسي في تينيدوس، بل أرسل، أيضًا، هديَّة هي عبارة عن «عدد من الثيران والدجاج والخضار».

يصف خميتيفسكي حسن ضيافة «محافظ تينيدوس»، الذي أبدى الحرص على عدم إزعاج غريغ والضباط الروس الذين باتوا ليلتهم عنده، إلى حدِّ أنه «لم يغفُ طوال الليل، وعاين أكثر من مرَّة رجالنا وهم نيام، ليتأكَّد من أنَّ ما من شيء يقلق راحتهم». وأخيرًا، يذكر القبطان الروسي خميتيفسكي بفخر

(245) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 21-24об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 21 – ظهر الورقة 24].

في 31 شباط/ فبراير 1771، جُلب إلى آوزا أربعة يهود، هم أبرام (تاجر فار من الأتراك، في الرابعة والعشرين من عمره)، موشيكو (14 عامًا)، يودا ياكوفليف وحاييم (كلاهما من سالونيكي، «فرا من ظلم الأتراك إلى سميرنا»، ولكن قبضت عليهما سفينة يونانيَّة تحمل العلم الروسي، وجلبتهما أسيرين). وقد أبدى الأربعة جميعهم الرغبة في اعتناق المسيحيَّة «من دون إكراه» والخدمة «أينما أُرسِلوا».

(246) المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 46، ظهر الورقة 52.

أنه دعا قبطان السفينة الشراعيَّة الصغيرة التركيَّة(!) غسان ألجيرينو إلى سفينته، وأن القبطان التركي «أبدى تقديره الكبير... للنظام المعمول به على السُّفن الروسيَّة»[247]. ومن المعروف أنه كان ضمن حاشية أ. غ. أورلوف في إيطاليا ضابط تركي أسير. وقد أثارت ضجَّةً كبيرةً أيضًا قصَّةُ اختطاف سفن الأسطول أفراد أسرة وجيهٍ تركيٍّ غنيمةً. حينها أمر أورلوف، الذي بُهر بجمال ابنة الوجيه، بإرسال الأسرة التركيَّة إلى القسطنطينيَّة على متن سفينة محايدة[248].



أ. س. بليشيف

نقل ألكسي بليشييف، الذي أرسله أورلوف في نهاية آب/ أغسطس 1772 إلى علي بك، على نحوٍ رائع، الجو الذي كان سائدًا في ذاك الجمع

(247) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 598-599, 636, 659-660.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، الملحق 8، ص 598-599، 636، 659-660 (الطبعة الروسيَّة)].

(248) عربونًا للعرفان بالجميل، لم يكتف رب الأسرة الناجية غسان بك بنشر هذه القصة على نطاق واسع، مثنيًا على إنسانيَّة القائد العام، وبتقديم خدمات سياسيَّة لروسيا، بل قدم هديَّة لأورلوف هي عبارة عن أحصنة عربيَّة أصيلة.وكان أحد هذه الأحصنة حصان أبيض أطلق عليه اسم سميتانكا، أبًا للجياد من فصيلة أورلوف التي أُصِّلت في إسطبلات أورلوف للخيل: В. И. Коптев, *Столетний юбилей в честь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского в память основанной им породы лошадей верховых и рысистых в 1775 г., празднованный в Москве в 1875 г. по высочайшему ЕИВ соизволению* (М., 1875).

**[ف. إ. كوبتيف، الاحتفال باليوبيل المئوي على شرف الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي تخليدًا لذكرى فصيلة الجياد التي قام بتأصيلها عام 1775، والذي نظم في موسكو في عام 1875، بمباركة سامية من صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة** (موسكو، 1875)]. يُنظر أيضًا: В. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (М., 1996), с. 277.

**[ف. بلوغين، أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال** (موسكو، 1996)، ص 277].

المختلط من النَّاس مِمَّن جمعتهم الأقدار في إمارة الأرخبيل. فالجماعة التي كانت على متن سفينة القبطان الإنكليزي في الخدمة الروسيَّة روبرت بروون، التي أرسلت إلى شواطئ المشرق، كانت تتألف من «أناس من مختلف البلدان والمشارب». فمن بين مشرقيِّي علي بك على السفينة، كان هناك: رئيس الوفد ذو الفقار بك («الجورجي» الشديد المرَح و«الضعيف من حيث تمسُّكُهُ بالتعاليم المحمديَّة»)، وسكرتيره مصطفى المصري (وهو مسلم كبير في السن ومتجهِّم، «أسير خرافات أجداده»)، والأرمني الحاج يعقوب. وكان على متن السفينة أيضًا راهب يوناني من جزيرة قبرص هو الأب أبرام (الحاج إبراهيم، «وهو رحَّالة طاف العالم وجاب أوروبا كلها تقريبًا، واكتسب المعارف عبر اللغات الكثيرة التي كان يعرفها، هو ذو دهاء وخصال متكلِّفة»)، والفرنسي البارون دي فيغور[249] («الإنسان الجبان والخجول»، الذي كان يبعث الحرارة في الجو بأشعاره اليوميَّة اللامتناهية»)، والاسكتلندي ضابط الملاحة الأول ألكسندر بيفيريج، والفلورنسي الطبيب هنري فاني («الذي كان أمهر في الغناء ممَّا هو في العلوم الطبيَّة»)، و«التاجر الشاب والموسر» من ليفورنو، ريشارد بوتلير (المسافر «لترويج تجارته في سوريا») والقوزاقي من تيرا «المولود في أستراخان والنبيل الجورجي» أوسيب بارامونوف («ذو الشخصيَّة المضحكة، وغير الغبيِّ في مهنته»، قادته جسارته إلى القتال في صفوف قوَّات علي بك»)، والضابط في الجيش الروسي، البروسي كلينغيناو («الكفوء إلى حدٍّ ما في مهنته»)، وأخيرًا سيرغي بليشييف نفسه (الملازم في الأسطول الروسي). هؤلاء النَّاس الذين جمعتهم الأقدار إلى طاولة واحدة، لم يتناولوا معًا «صنفين» من الطعام – الأوروبي والآسيوي فحسب – بل كان المزاح والضحك أيضًا رفيقيهم على المائدة. فكان ذو الفقار يُرغم الطبيب

---

(249) عاش البارون دي فيغور (فيغيور) على جزيرة ناكسوس، ويبدو أنه كان من وجهاء هذه الجزيرة. تعاون بنشاط مع البعثة الروسيَّة، وساعد في نقل تماثيل أثريَّة من الرخام من سانتورين (سيؤتى على ذكرها لاحقًا)، وفي كانون الأول/ ديسمبر 1774 عين «مسؤولًا عن المواد الرسميَّة التي بقيت في الأرخبيل... مع معاش». كانت القيادة تنوي منح دي فيغور إفادة تؤكِّد أنه في الخدمة لدى روسيا، عند مغادرتها الأرخبيل، حتَّى لا ينكِّل به الأتراك: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 318.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 318].

الإيطالي على الغناء الأوبرالي، والقوزاقي بارامونوف على الغناء والرقص. وفي «كل مرَّة، بعد الانتهاء من تناول الطعام، كان ذو الفقار يملأ كأسًا كبيرة بالنبيذ القبرصي ويشربه على صحة قائد الأسطول الروسي، ويقف هاتفًا بصوت عالٍ: 'عاش أورلوف'. لقد تعلَّم ذلك في أثناء إقامته مع اليونانيين في جزيرة ناكسيا، الواقعة بالقرب من باروس، حيث كان يسكن في منزلٍ جيِّدٍ خُصِّص له على نفقة الدولة». وكانت تُرفع كؤوس جوابيَّة على صحة علي بك وظاهر العمر «وكان المتحلِّقون حول المائدة يفعلون الأمر نفسه، رافعين الكؤوس على صحَّة أرباب نعمتهم أو عشيقاتهم». و«بعد انتهاء مائدة البكوات كان النادل يجلب لكلِّ واحدٍ منَّا فنجانًا من القهوة الثقيلة من دون سكر، وبعد ذلك كان كلُّ واحد منَّا يذهب إلى شأنه: هذا يلجأ للنوم، وذاك يعزف على آلة موسيقيَّة ما، وثالث يغني، ورابع يقرأ أو يتبادل الحديث أو يكتب... وباختصار، كان كلُّ واحد يفعل ما يشاء، إلى أن يحلَّ موعد العشاء، فتبدأ من جديد أفعال وتصرفات طريفة تشكِّل موضوعًا جذابًا لريشة فضوليَّة لكاتب يدوِّن مذكِّراته»[250].

من المحتمل جدًّا أنَّ تمضية الوقت على النحو الذي وصفه (بل ربَّما اختلقه!) س. بليشييف[251]، لم يكن أمرًا استثنائيًّا. فليس من قبيل المصادفة أنَّه ردًا على سؤال قائد حملة الأرخبيل أ. غ. أورلوف على ما يذكره عن هذه الحملة، أجاب مازحًا: «الروس... لم يحاربوا، بل كانوا يقيمون الولائم في الأرخبيل»[252].

---

(250) Плещеев, с. 3-9.

[بليشييف، ص 3–9].

(251) لعل وصف س. بليشييف المأدبة على سفينة بروون كان الهدف منه إضفاء مسحة أدبيَّة على روايته. وفي أيِّ حال، فإن هذه اللوحة الوصفيَّة غير موجودة في مخطوطات قسم المصادر المكتوبة في متحف التاريخ الحكومي، حيث ترد قائمة القرن الثامن عشر، يوميات س. بليشييف: *ОПИ ГИМ*, Ф. 445, Д. 114, Л. 1-32.

[**قسم المصادر المكتوبة في متحف التاريخ الحكومي**، المجموعة 445، الملف 114، الأوراق 1–32].

(252) А. Н. Петров, *Война России с Турцией и польскими конфедератами в 1769-1774 гг* (СПб., 1866), t. 2, с. 391.

[أ. ن. بيتروف، **حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية في الأعوام 1769–1774** (سان بطرسبورغ، 1866)، مج 2، ص 391].

تعيَّن على الأميرال سبيريدوف، في تشرين الأول/أكتوبر 1771، إصدار أمر يقضي بمنع ألعاب القمار: «نُمِيَ إليَّ أنَّ السادة الضباط يمارسون لعب الورق لقاء المال على السُّفن، لذلك آمر بألَّا يُمارَس اللعب بالورق والنَّرد المحظور في أوقات الفراغ. وإذا ما خسر أحدٌ ما مالًا في لعبتي فارو وكفينتيتش[253] أو في لعبة النرد، فعليه أن يمتنع عن الدفع، أمَّا من يربح فيجب ألَّا يطالب بالمال... فنحن مقبلون على أعمال عسكريَّة»؛ علمًا أنَّ ألعابًا أخرى بالورق لم تُمنع (وهل كان ذلك ممكنًا؟): فقد كانت أوراق اللعب في قائمة أصناف «المساعدات» التي تُرسل إلى الأرخبيل، جنبًا إلى جنب مع المواد الغذائيَّة، وسبيريدوف نفسه سمح «للسَّادة القادة والضباط بالتسلية بورق اللعب تمضيةً للوقت»[254].

كثيرًا ما كانت الاحتفالات المقترنة بالألعاب الناريَّة وطلقات المدفعيَّة تقلق راحة جزر الأرخبيل؛ إذ كانت صاخبة إلى حدِّ أنَّ البريطاني جيس بريوس، الذي كان يُبحر حينذاك في منطقة شرق المتوسِّط، افترض أنَّ الروس يهدرون عبثًا في احتفالاتهم الباذخة، ممَّا حقَّقوه من مزايا نتيجة انتصار شيسما[255]. ربَّما كان من الصعب على البريطاني أن يدرك أنَّ تنظيم الاحتفالات في المناسبات الرسميَّة والأعياد المهيبة كان واجبًا إلزاميًّا لكلِّ من يعمل في خدمة العاهل الروسي! فضلًا عن ذلك، كانت الاحتفالات توحِّد المشاركين في الحملة وتؤكِّد انتماءهم **إلى الوطن الواحد**[256].

---

(253) فارو وكفينتيتش: من ألعاب الورق لقاء مال (الميسر)، وقد كانتا رائجتين في أوروبا وروسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. (المترجم)

(254) اقتباس من: Гребенщикова, с. 312, 384.
[غريبينشيكوفا، ص 312، 384].

(255) نعيد إلى الأذهان أنَّ النبيل الإنكليزي جيس بريوس الذي كان يقوم برحلة عبر جنوب البحر المتوسِّط والقاهرة إلى منابع النيل، لاحظ أنه «لم تكن هناك حملة أنجح وأبعد من هذه الحملة، التي تلقَّى فيها الضباط أقلَّ عددٍ من التوجيهات الحكومية، ولكن لعلَّها الحملة الأجهل في ما يتعلق بالبلدان، والأشد تعلُّقًا بالاستعراضات العديمة الجدوى والأكثر ثمالة بالملذات، من حملة الروس في البحر المتوسِّط»: J. Bruce of Kinnaird, *Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773* (Edinburgh; London, 1790), pp. 28-29.

(256) يُنظر في هذا الصدد على سبيل المثال: I. Schierle, «Patriotism and Emotions: Love of the Fatherland in Catherinian Russia,» *Ab Imperio*, no. 3 (2009).

كان الأسطول يُزيَّن بالأعلام، وتُطلق الأسهم الناريَّة من السُّفن في أيام النَّصر والمناسبات المهيبة وبعد القداس في رأس السنة[257]. كما كانت تُعدُّ مائدة وافرة في عيد الفصح، فيشترون من أجلها العجول والخراف من السكَّان (328 رأسًا في عام 1771!). وفي عام 1772، قبيل الفصح، أمر أ. ف. يلمانوف بنزول رجال الأسطول إلى الشاطئ في جزيرة باتموس الشهيرة بدير يوحنا المعمدان، «للاعتراف وتناول القربان بما تمليه الأسرار المسيحيَّة المقدَّسة»[258].

كانت دواعي الاحتفال تتوافر في الأيام الأخرى أيضًا. فقد احتُفل، على سبيل المثال، في أثناء غارة على جزيرة ميكونوس في 25 و26 كانون الثاني/ يناير 1773، بعيد شفيع غريغوري غريغوريفيتش أورلوف، بإطلاق الأسهم والألعاب الناريَّة. وجدير بالذكر أنَّ حظوة أورلوف[259] كانت قد انتهت في خريف 1772، لكن بعثة الأرخبيل أرادت بهذا الاحتفال «رفع معنويَّات» شقيق قائدها العام المحبط. وفي كلِّ الأحوال، كان الاحتفال واحدًا من أكثر الاحتفالات بريقًا: «استمرَّ الحفل الراقص في ميكون في الأماسي على مدى 25 يومًا، في قاعات جُهِّزت خصِّيصًا له. فأُعِدَّت منصة صغيرة للألعاب الناريَّة، ووُضع أمام الحضور عجل بقرنين ذهبيَّين والكثير من الخبز، وسُكب النبيذ الأحمر في قرون الوعول، وأُطلقت نيران المدفعيَّة في أثناء العشاء. وقد فعل ذلك كله الوصيف النبيل السيد دوماشنيف»[260].

---

(257) يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 694; Гребенщикова, с. 291-292, 310, 363, 372, 378, 385, 406-407, 409.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 694؛ غريبينشيكوفا، ص 291-292، 310، 363، 372، 378، 385، 406-407، 409].

(258) اقتباس من: Гребенщикова, с. 385.

[غريبينشيكوفا، ص 385].

جدير بالذكر أن يلمانوف أمر «بالنزول إلى الشاطئ مع مراقبة مشددة» خشية وقوع أعمال نهب، وحتَّى لا يتعرَّض السكَّان للإساءة بأيِّ شكل من الأشكال، «لأنَّ الهدف من نزولنا إلى هذه الجزيرة ينحصر في قيام رجالنا بالاعتراف وتناول القربان كمسيحيين».

(259) المقصود حظوته لدى الإمبراطورة. (المترجم)

(260) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 661.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 661 (الطبعة الروسيَّة)].

«منذ الساعة الحادية عشرة حتَّى منتصف الليل، أطلق العديد من الطلقات المدفعيَّة على الشاطئ نفسه، وانتهى الأمر بإطلاق الألعاب الناريَّة»؛ وفي ليل السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير، أطلقت المدفعيَّة ذخائرها مجدَّدًا. ومن الساعة العاشرة حتَّى الحادية عشرة أبحرت السفينتان «روستيسلاف» و«فسيفولود» من آوزا، وبدورها رفعت السفينة الإنكليزيَّة ذات الصواري الثلاث مرساتها واتجهت صوب «الإسكندريَّة»، «وكان على متنها الملازم في فوج بري أوبريجنسكي بومبغراد، مبعوث صاحب السعادة الكونت أ. غ. أورلوف إلى علي بك»[261].

يبدو أنَّ المشاركين في الحملة اعتادوا صخب الطلقات الاحتفاليَّة، بحيث استمرَّ بعضهم بإثارة استغراب المواطنين الروس بتصرفاته الغريبة، بعد عودته من الأرخبيل. فالأسقف أناطولي ميليس، العائد إلى روسيا من الأرخبيل - أصبح رئيسًا لدير غلوخوفسكي بتروبافلوفسك[262] - كان يجول في الدير «بقفطان صينيٍّ بلون جناح الغراب، حافيًا، حاسر الرأس»، ويطلق النار من مدفع مورتير صبَّه من أجراس نزعها من برج الدير، قائلًا: «مع أنني راهب، لكنَّني خضت في الماضي حربًا مقدَّسة ضد الأتراك على متن السُّفن، وألِفتُ البارود ودويَّ المدافع»[263].

لم يُحفظ سوى القليل عن حياة أعضاء الحملة الشخصيَّة، الذين انسلخوا فترةً طويلةً عن دفء البيت وحنوِّ النساء. ويتضمَّن مؤلَف س. إ. بليشييف بعض المشاهد عن إغراء الغواني الشرقيات للعسكريِّين،

---

(261) المقصود م. باومغارتين: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 52об-53.

**[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، ظهر الورقة 52 - الورقة 53].

(262) يُنظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(263) Г. Добрынин, *Истинное повествование, или Жизнь Гавриилы Добрынина (проживишего 72 года 2 месяца и 20 дней), им самим писанная в Могилеве и в Витебске* (СПб., 1872), с. 114.

[غ. دوبرينين، **القصة الحقيقيَّة، أو حياة غافريل دوبرينين (الذي عاش 72 عامًا وشهرين و20 يومًا)، كتبها بنفسه في موغيليف وفيتيبسك** (سان بطرسبورغ، 1872)، ص 114].

بالقرب من معسكر علي بك في ضواحي يافا أو عكَّا. ويروي بليشييف بلهجة المخاطب كيف التقى ثلاث نساء عند أحد الأكواخ، «كانت إحداهنَّ تعانق عبدًا أسود، والثانية راكعة بجانب أحد رجال علي بك، والثالثة جالسة بقرب النار ذات شعر أسود كحاجبيها وعينيها، وهي ترتدي قميصًا وفي أنفها حلقة معدنيَّة. كانت بيضاء البشرة، يحمل وجهها ملامح جذَّابة، دنت منِّي، طالبة مالًا، وبعد حصولها عليه صارت تتراقص أمامي، ثم ارتمت على الأرض وأخذت تقوم بحركاتٍ مشينة...»[264]. وتتضمَّن مغامرة عكَّا قدرًا أكبر من التفاصيل المعبِّرة، وقد نسب بليشييف الرواية عنها إلى الفرنسي البارون دي فيغور الآنف الذكر من جزيرة ناكسوس، الذي كان مبحرًا معه على السفينة. ولكنْ، من المحتمل جدًّا أن يكون المقطع المذكور مجرَّد نتاج مخيلته الأدبيَّة[265].

يبدو أنَّ مثل هذه «المغامرات» كانت نادرة في جزر الأرخبيل. فخلافًا للشكاوى من أعمال النهب والسلب، لم تكن الشكاوى من العنف والفسق تصدر عمليًّا عن السكَّان المحليين إلى القيادة في آوزا. وكانت حادثة الجارية لازينا والعبد بيليار من حوادث الإغواء النادرة التي استرعت اهتمام ديوان القائد في آوزا، وقد حُقِّق فيها بكلِّ جديَّة. فالعبد بيليار الذي أُسِر من إحدى السُّفن البربريَّة (من شمال أفريقيا) «الغنيمة»، كان «مُلكًا» للعقيد ف. كوتوزوف[266]، أمَّا الجارية لازينا فكانت تعمل غسَّالة في المستشفى. وفي الرابع من شباط/ فبراير 1774 تلقَّى أ. ف. يلمانوف بلاغًا يفيد بترك الجارية لازينا المستشفى وسرقتها «جواهر تبلغ قيمتها عشرة تشيرفونيتسات، وكذلك «كل ثياب الأسرة وبياضاتها». أمَّا هي فقد زعمت حين أُلقِيَ

---

(264) Плещеев, с. 54.
[بليشييف، ص 54].

(265) المرجع نفسه، ص 71-79.

(266) كان العبيد يؤسرون بوصفهم «غنائم». في عام 1771 عرض على الضباط أخذ ثمانية عبيد «ملكيَّةً دائمةً» بدلًا من العمال اليوميين. وكان العقيد ف. م. كوتوزوف أحد الذين وافقوا على هذا العرض: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 93, Л. 78.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، الورقة 78].

القبض عليها أنَّ العبد بيليار قال لها: «إنَّ السيد الأميرال منحه إياها زوجةً، واصطحبها معه بنيَّة الزواج منها». فأمر يلمانوف، وقد تملَّكه الغضب، باحتجاز العبد ومعاقبته. وهكذا، فمن الواضح أنَّ حياة بيليار ولازينا العائليَّة لم تأخذ مجراها الطبيعي[267].

لا يذكر أحدٌ من كتَّاب المذكرات أحداثًا من هذا النوع مع اليونانيَّات، بالرغم من أنَّ الكونت باش فان كرينين لاحظ حُسْنَ النساء في جزيرة ميللو: «هنَّ حسناوات إلى حدٍّ ما، ويرتدين عادة أثوابًا قصيرة جدًّا تكشف عن سيقانهن كليًّا، ما يضفي عليهنَّ نعومة وشكلًا مغريًا». وفي جزيرة بوليكاندرو (فوليغاندروس): «النساء رزينات، مليحات، رقيقات، عاقلات»، بعكس نساء جزيرة آمورغوس؛ إذ «لا يزيد عدد سكَّانها على أربعة آلاف، وهم لا يتمتَّعون بقدرٍ كافٍ من الكياسة وطيب الخلق. والأمر نفسه ينطبق على النساء»[268].

لم يتسنَّ حتَّى الآن احتساب عدد حالات زواج الروس في جزر الأخبيل وكم وُلِد لأفراد حملة الأرخبيل. لكن، لو لم تحصل حالات زواج من هذا النوع، فلِمَ أصدر أ. غ. أورلوف في عام 1774، أمرًا يفيد الآتي: «أمَّا بالنسبة إلى الضباط المتزوِّجين، فاسمحوا لهم بنقل عوائلهم»[269].

فضلًا عن ذلك، لا يزال بعض السكَّان المحليِّين في جزيرتي ناوسا وباروس حتَّى يومنا هذا يعتبرون أنفسهم «موسكوبيين» أحفادًا لبحَّارة القرن الثامن عشر من الروس.

---

(267) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 12-13.

(268) «وصف موجز لجزر الأرخبيل». يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 527-528, 539.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 527-528، 539 (الطبعة الروسيَّة)].

(269) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 66, Л. 184.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، الورقة 184].

عمومًا، تتيح دراسة حياة المشاركين في حملة الأرخبيل اليوميَّة الاستنتاج أنَّ الملاحة البحرية العسكرية والنشاط الاستخباري والحملات في سوريا ومصر ومالطا، أو في إيطاليا، والعمل على رسم الخرائط الجغرافيَّة، أتاحت كلُّها فرصًا كبيرة لاستيعاب المساحة الثقافيَّة والسياسيَّة المتوسطيَّة، وأنَّ هذه الفرص لم تُفوَّت. فالروس المشاركون في الحملة، الذين جاؤوا «غرباءَ» إلى منطقة حوض البحر المتوسِّط، انخرطوا كليًّا في جو هذا «المرجل الحضاري» الكوسموبوليتي، الذي امتزجت فيه ثقافات عديدة على مدى آلاف السنين. وفي سبعينيَّات القرن الثامن عشر، ظهر العنصر الروسي في «المرجل» المتوسطي.



امرأة يونانية من جزيرة باروس

## التَّماس مع الحضارة اليونانيَّة القديمة

عندما توجَّه المشاركون الروس في حملتهم إلى حوض البحر المتوسِّط، كانت لديهم تصوُّرات شبه خرافيَّة عن «صورة اليونان»، خلقها الحجَّاج والكتَّاب الكنسيُّون، وتكوَّنت من خلال الترجمات والكتابات عن التقاليد الأدبيَّة في اليونان القديمة[270]. لكنَّ الاصطدام بواقع المجتمع اليوناني في نهاية القرن الثامن عشر بدَّد الكثير من التصوُّرات والأوهام المسبقة. فقد تبيَّن، قبل كلِّ

---

(270) П. Черняев, «Следы знакомства русского общества с древнеклассической литературой в век Екатерины II. Материалы для истории классического образования в России в био-библиографических очерках его деятелей былого времени,» in: *Филологические записки* IV Вып. (Воронеж, 1904-1905).

[ب. تشيرنيايف، «آثار تعرُّف المجتمع الروسي إلى الأدب الكلاسيكي القديم في عصر كاترينا الثانية، مواد لتاريخ التعليم الكلاسيكي في الكتابات البيبلوغرافية لناشطيه في العصور القديمة»، في: **كتابات لغوية**، 4 إصدارات (فورونيج، 1904–1905)].

شيء، أنَّ اليونانيِّين المانيِّين لا يشبهون **الإسبارطيين** بشيء، وأنَّ اليونانيِّين الأرخبيليِّين لا يمتُّون بصلة إلى **المنتصرين في مارافون**. واتَّفق الروس، وكذلك الأوروبيُّون الغربيُّون، في الرأي على أنَّ اليونانيِّين المعاصرين غير جديرين بماضيهم العظيم. أمَّا الحالة المزرية لشواهد هذا الماضي، فليست سوى حجَّة إضافيَّة لدى أولئك الذين يأسفون لكون «السكَّان المحليِّين» نسوا جذورهم، التي تعود إلى أسلاف «الحضارة» الأوروبيَّة.

الإنكليزي المُبحر مع ألفينستون، مثلًا، أعرب في مذكِّراته الصادرة إثر عودته عن أسفه البالغ لأنَّه لم يعثر في اليونان على **أبناء الأبطال الإغريق القدامى** («يشكل السكَّان المحليون نقيضًا كليًّا لأجدادهم من كل النَّواحي، ربَّما باستثناء التشجيع على ممارسة اللصوصيَّة، على الرغم من أنَّها تُمارس لدوافع أخرى»)[271]. وفي موطن فيدياس وبراكسيتيليز «لا يمكن المرء إلا أن يشعر بالأسى والأسف، حين يرى كيف تُستخدم شواهد الماضي النَّفيسة والحجارة المغطَّاة بالنقوش وأنقاض الهياكل، أحيانًا، موادَّ لتصليح الأكواخ والأسيجة»[272].

كما لاحظ شوازول غوفيه الذي جاء خصِّيصًا إلى الأرخبيل لدراسة النفائس اليونانيَّة القديمة ورسمها، أيضًا الأسلوب «البربري» الذي تعامل به اليونانيُّون مع التماثيل القديمة في معابدهم أو «أكواخهم»: «لا شيء هنا يُذكِّر بالمسيحيَّة، ربَّما باستثناء تمثال صغير للسيدة العذراء، قام اليونانيُّون بتزيينه، بل بتشويهه بصورة بربريَّة، كي يَسهُل عليهم وضع الشمعدان الذي يشيع الدفء في هذا المكان المقدس. ودخلتُ أيضًا إلى حظيرة الغنم، حيث وجدتُ قطعًا من بلاطات الأضرحة الرخاميَّة». وفي باروس، «... تُستخدَم آثار الماضي العظيمة منذ زمن بعيد في بناء الأكواخ، علمًا أنَّ هذه الأكواخ شاغرة اليوم. لقد بُنيت باريكيا على أنقاض باروس القديمة، ومع ذلك تبقى المكان الأفضل

---

(271) Весли, с. 8.
[فيسلي، ص 8].

(272) المرجع نفسه، ص 18.

في الجزيرة. فمن الممكن هنا رؤية قصر قديم شُيِّد بالكامل من بقايا مبانٍ رائعة، كانت قائمة في ما مضى في اليونان القديمة، جدرانه مبنيَّة من الأعمدة وتيجانها. وغالبًا ما يرى المرء تمثالًا محشورًا بين الأفاريز المنقوشة. لا شك في أنَّ هذه ليست إلا بقايا معبد سيريريوس الذي كتب عنه القدماء»[273].


ناووس من الرخام في ميلوس

سوَّغ الإعجاب بالإغريق القدامى جهود دارسي الحضارة اليونانيَّة الأوروبيين، الذين قاموا برحلات خطيرة في شرق البحر المتوسِّط. غير أنَّ ما رأوه من أطلال، ومن استهتار من قبل اليونانيِّين المعاصرين بها، جعلهم يحوِّلون اهتمامهم بتاريخ الإغريق إلى ولع بجمع الآثار. وأسهمت الرغبة في «اقتناء الآثار اليونانيَّة القديمة» والتوق إلى الأثريات حينذاك، في تدمير آثار اليونان الوحشي أكثر من دراستها[274]. ولم يُستثن الروس في سبعينيَّات القرن الثامن عشر من التواقين **إلى حيازة آثار الحضارة اليونانيَّة القديمة**، وما كان بوسع أحد لومهم على ذلك آنذاك. ففضلًا عن مشتريات المجموعات من هولندا وفرنسا، ومقتنيات إ. إ. شوفالوف في إيطاليا، كان لا بدَّ، على ما يبدو، من أن يكتمل الإرميتاج الكاتريني بالآثار الإغريقيَّة القديمة من الأرخبيل»[275].

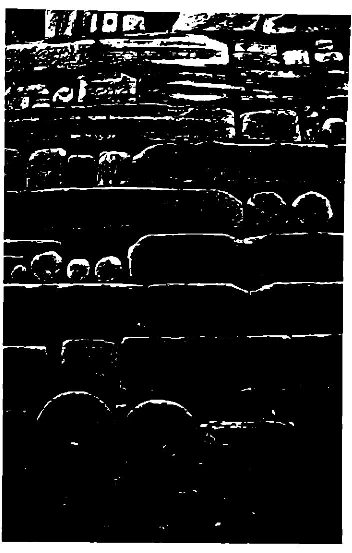
---

(273) Choiseul-Gouffier, pp. 37, 65-66.

(274) تعلَّم الروس، وكذلك الأوروبيون الغربيون، تقدير قيمة الآثار الرومانيَّة القديمة، إلا أنه لم يكن لديهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلا تصوُّر عامٌّ جدًّا عن «وطن هوميروس» ونفائسه الكامنة. يُنظر، على سبيل المثال: R. Eisner, *Travelers to an Antique Land: The History and Literature of Travel to Greece* (Ann Arbor, 1991); D. Roessel, *In Byron's Shadow: Modern Greece in the English and American Imagination* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002), pp. 13-41; Augustinos, *French Odysseys*.

(275) أتوجَّه بالشكر إلى إ. دي مادارياغا التي نصحتني بضرورة الاهتمام بهذه المسألة خصِّيصًا. (المؤلفة)

لقد أضفى حضور الأسطول الروسي في الأرخبيل شعورًا بالانتساب إلى ثقافة الإغريق وتاريخهم، حتَّى لدى أولئك الذين ما كانوا ليكترثوا للحضارة القديمة. أمَّا بالنسبة إلى محبِّي الحضارة الهيلينيَّة القديمة، فقد دفعهم الوجود على أرض هوميروس إلى القيام بالبحوث الأثريَّة وممارسة التنقيب عن الآثار.



جدار مبني من حجارة معبد يوناني قديم. باريكيا، جزيرة باروس

قام المتطوع هندريك (هنري) ليونارد باش فان كرينين[276] بدراسة دقيقة للمباني والبلدات والمعابد والمغاور القديمة، ربَّما لولعه الشديد بالحضارة الكلاسيكيَّة القديمة، فقدّم وصفًا لمواقع كل الآثار التي رآها في جزر سلسلة كيكلاد بأم العين وأحوالها مهما كانت أهمِّيتها. وتظهر تعابير الإعجاب دائمًا في كل أوصافه: «معبد الإلهة سيبيليا البهي»، «كانت هذه الجزيرة (فوليغاندروس) ذات أهميَّة بالغة، الأمر الذي يتبدَّى في آثارها الكثيرة البديعة»، و«معبد فينوس الرائع»[277]. والملاحظ أنَّ باش فان كرينين لم يأتِ على ذكر الكنائس والأديرة المسيحيَّة إلا لِمَامًا، بوصفها لا تستحقُّ اهتمامًا كبيرًا.

لكن باش فان كرينين حقَّق الاكتشافات الأكثر إبهارًا في جزيرة إيوس،

---

(276) عن ليونارد باش فان كرينين، يُنظر: B. J. Slot, «Un charlatan à Tinos et dans les Cyclades en 1771-1772,» in: *Ministerium Historiae* (Thinos, 2017), pp. 543-560.

(277) «وصف موجز لجزر الأرخبيل». يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, c. 526, 529, 538.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 526، 529، 538 (الطبعة الروسيَّة)].

التي توقَّف فيها أكثر من شهر، من أجل العثور على... قبر هوميروس ونبشه. وتستحقُّ روايته اهتمامًا خاصًا، بالطبع؛ إذ يروي الكونت أنَّه عثر بمساعدة عمدة إيوس على «قروي»، يعرف من «أبيه وجده» المكان الذي «يُحفظ فيه كنز هوميروس». ولم يخش فان كرينين - الإنسان المتنوِّر حقًا - الخرافات والأرواح الشريرة التي تسكن «القبر»، فاستأجر سبعة «قرويين». ويروي: «عثرنا، بعد جهود جبارة وخسائر كبيرة وأعمال حفر استمرَّت شهرًا كاملًا، على ثلاثة نواويس مختلفة من أيام الإغريق»، ومن بينها «كنز العلوم، الذي كنت أفتِّش عنه، أي جثة هوميروس، جالسًا على حجر بدلًا من كرسي. ولكن ما إن رفعنا الغطاء ولمسنا الجثة حتَّى تناثرت كليًّا. ووجدنا أيضًا محبرة واحدة من الحجر الأسود الأردوازي، التي لا تنفع إلا لطحن الحبر ومزجه»[278]. يكاد وجود المحبرة (!) يشكِّل، بالنسبة إلى فان كرينين، البرهان الدامغ على أنه عثر على قبر الشاعر.

عندما وصل باش فان كرينين إلى إيطاليا في ربيع 1772، حاملًا معه ما عثر عليه في «قبر هوميروس»، نشرت الصحف الأوروبيَّة على الفور نبأ يفيد أنَّ الضابط الهولندي الموظف لدى روسيا الكونت دو غريون (يبدو أنَّ *de Grunn* تحريف لـ *van Krienen*)، عثر على قبر هوميروس على جزيرة نيوس[279]. وزُعم أنَّ النبأ الذي نُشِرَ في الخامس من أيار/مايو 1772 في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**)، مصدره رسالة وصلت من جزيرة ناكسوس. يبدأ الخبر «العاجل جدًّا» على النحو التالي: «وأخيرًا، عثر الضابط الهولندي الموظف لدى روسيا الكونت دو غرون الذي زار مختلف جزر الأرخبيل... على القبر الذي بُحِثَ عنه طويلًا من دون طائل في جزيرة نيو (Nio). إنه عبارة عن ناووس ارتفاعه 14 قدمًا وطوله 7 أقدام، ويتكون من 6 أحجار في العرض، تزيِّنها نقوش باللغة اليونانيَّة. ومن المحتمل أن يكون هو ما قال عنه هيرودوت إنه قبر هوميروس. وقد عُثِر على سرِّ هذا الشاعر الذائع الصيت في الداخل... وعُثر في هذا القبر أيضًا على إناء

(278) المرجع نفسه، ص 532-533.

(279) بخصوص هذا الخبر المثير، يُنظر: D. Constantine, *Early Greek Travelers and the Hellenic Ideal* (Cambridge, 1984), pp. 215-218.

أسماه الكونت دو غرون Ecritoire («المحبرة» - المؤلفة)، وعلى حجر خفيف مثلث الشَّكل يُعتقد أنه ريشة للكتابة، وكذلك على خنجر دقيق من الحجر ذاته، كانوا يقطعون الرُّخام بواسطته... ووجدوا أيضًا عددًا من التماثيل الصغيرة من الرخام، عليها نقوش عجزوا عن قراءتها. وعثر الكونت دو غرون على قبور أخرى، وبحث عن كليمينا، أم هوميروس... فضلًا عن ذلك، عثر الكونت دو غرون على مناجم كانوا يستخرجون منها الذهب والفضة ...إلخ»[280].

في ما بعد، كتب م. كوكوفتسيف عن وجود «قبر هوميروس» في جزيرة إيوس (نيوس)، من دون أن يساوره أدنى شك في ذلك («تُشتَهَرُ جزيرة نيوس بوفاة هوميروس الجليل على أرضها، الذي لا يزال قبره موجودًا حتَّى الآن»)[281]. وعلى الرغم من أنَّ كتاب شوازول غوفيه الصادر في عام 1782، والذي يشير إلى لقية كرينين بوصفها «اكتشافًا مزعومًا لقبر هوميروس»[282]، بدَّد كليًّا على الأرجح خرافة العثور على قبر الشاعر، إلا أنَّ الاهتمام عاد ليظهر في أوقات لاحقة[283]. ففي عام 1807، نشرت **مجلة مينيرفا** رأيًا، للبروفيسور في جامعة غوتينغن كريستيان غينيه هذه المرة، ينزع فيه الهالة عن الاكتشاف في جزيرة إيوس[284]. على أنَّ اختصاصيًّا آخر في الحضارة الإغريقيَّة هو الألماني لويس روس، عثر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على نسخة من الطبعة الإيطاليَّة لكتاب باش فان كرينين، وطرح مجدَّدًا مسألة صدقيَّة اكتشاف الأخير «قبر هوميروس» في إيوس[285].

---

(280) *G. d'A.*, 1772, no. 36.
يُنظر أيضًا: **صحيفة فرنسا** (GF)، الأعداد من 3/2 وحتَّى 13/4؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 36، بتاريخ 4/2 (1772).

(281) Коковцев, с. 41.
[كوكوفتسيف، ص 41].

(282) Choiseul-Gouffier, p. 20.

(283) Constantine, pp. 215-218.

(284) А. Н. Егунов, *Гомер в русских переводах XVIII-XIX вв* (М., 2001), с. 47-48.
[أ. ن. يغونوف، **هوميروس في الترجمات الروسيَّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** (موسكو، 2001)، ص 47-48].

(285) L. Ross, «Graf Pasch van Krienen uber sich selbst und seine Reisen,» in: *Graf Pasch* =

وصل مع البعثة إلى سان بطرسبورغ ناووس زيَّن مجموعة ألكسندر ستروغانوف، جلبه من إحدى جزر الأرخبيل (على حدِّ قوله هو نفسه) المدعو س. غ. دومانشيف (وهو ذاك الذي خدم لدى أورلوف آنذاك، ونظم في حينه الاحتفالات الصاخبة في شهر كانون الثاني/ يناير 1773). وانتشرت شائعة تقول إنه إمَّا ناووس هوميروس وإما أخيل، وذلك نظرًا إلى المشاهد التي تصور مآثر أخيل على جدرانه. وظلَّ هذا الناووس (الذي ثَبَت الآن أنَّه من العصر الروماني، في القرن الثاني قبل الميلاد) يزيِّن حديقة منزل ستروغانوف الريفي عند نهر تشورنايا، ولم يُنقل إلى الإرميتاج إلا بعد الثورة[286].

«قبر هوميروس» في حديقة منزل آل ستروغانوف الريفي عند النهر الأسود في عام 1812

في غضون ذلك، أبدى المشاركون الآخرون في الحملة الاهتمام بهوميروس أيضًا، الأمر الذي لا يدلُّ على اطلاعهم على الأدب اليوناني القديم، بل على معرفتهم بأبطال العصر الإغريقي على الأقل. ربما لم يتوافر للبحَّارة الروس إمكان التعرُّف إلى ترجمتي **الإلياذة** أو **الأوديسة** الكاملتين (ظهرت الطبعات

*van Krienen H. L. Abdruck seiner italienischen Beschreibung des griechischen Archipelagus mit = Anmerkungen und einer Abhandlung uber den Verfasser und seine Auffi ndung des Grabes Homer's auf Ios aus dem Nachlasse von Ludwig Ross* (Halle, 1860), pp. 147-151.

جدير بالذكر أنه لم يُنصب تمثال لهوميروس في جزيرة إيوس حاليًّا فحسب، بل شُقَّت طريق حديثة تصل إلى «قبر هوميروس»، في المكان الذي اكتشفه فيه باش فان كرينين بالتحديد. كما أقيم مشروع سياحي حسن التجهيز في الموقع نفسه.

(286) يُنظر في هذا الصدد: Anna Trofimova, «Classical antiquities,» in: *Stroganoff: The Palace and Collection of a Russian Noble Family*, Penelope Hunter-Stiebel, general editor; introduction by John E. Buchanan (New York; London: Harry N. Abrams, 2000), pp. 90-99; В. Курбатов, «Саркофаг Строгановского сада,» in: *Старые годы* (СПб., 1912), с. 41-43.

[ف. قورباتوف، «ناووس حديقة ستروغانوف»، في: **سنوات غابرة** (سان بطرسبورغ، 1912)، ص 41-43].

الأولى في روسيا في عامي 1776 و1778)، لكن اهتمامهم بهوميروس وطروادة قد يكون مرتبطًا بالانتشار الواسع الذي حظيت به «قصة تدمير مدينة طروادة»، وقد تُرجمت عن رواية غويدو الإيطاليّة التي صدرت في روسيا بخمس طبعات في القرن الثامن عشر»[287]. هذا، وتَرِدُ حتّى في سجلّات ضبّاط الأسطول المهندسين الجافّة شروحاتٌ تعكس الاهتمام بآثار العصر اليوناني القديم، وكان ثمّة استعداد لربطها فورًا بأسماء الشخصيات التي سمعوا عنها، كالإسكندر المقدوني أو هوميروس. فقد جاء في كتاباتهم في عام 1771، في سياق وصفهم تحصينات جزيرة خيوس واقتصادها: «يقولون إنَّ الشاعر الشهير هوميروس عاش وكتب أشعاره هنا على الجبل، على مقربة من قلعة خيوس». وتردَّد ذكر «طروادة» في السجلات العسكريّة مرارًا أيضًا: «الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر [عام 1771]، الساعة الثالثة بعد الظهر. مررنا على الشاطئ الآسيوي ذاته أمام جدران حجريّة جدّ متهالكة، ويقال إنَّ مدينة طروادة كانت قائمة هنا في الزمن الغابر. أمّا الآن فثمّة بضعة منازل قرويّة على هذا الشاطئ»؛ «ومررنا بجزيرة ميتيلين وبشاطئ الأناضول، في موازاة قلعة طروادة الحجريّة المتهالكة البائدة»[288]. وبناءً على شهادة البارون بالين[289] فقد أرسله أحد «القادة الروس» «إلى طروادة لرسم مخطَّطها»[290]، بعد عقد الصلح، في الرابع عشر من شباط/ فبراير 1775.

---

(287) Егунов, с. 26-27.

[يغونوف، هوميروس في الترجمات الروسيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص 26-27].

(288) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 151, 170.

[أرشيف الدولة الروسيّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقتان 151، 170].

(289) لم يُتحقَّق حتّى الآن من اسم بالين. فقد شارك في حملة الأرخبيل كلٌّ من البارون ماكسيميليان بالين الآنف الذكر، وكذلك غيورغي ديبالين وكارل ديبالين: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. I, Д. 93, Л. 68.

[أرشيف الدولة الروسيّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 93، الورقة 68].

(290) Пален, *Барона фон дер Палена журнал путешествия в Константинополь*, no. 40, с. 24.

[بالين، سجل البارون فون دير بالين حول الرحلة إلى القسطنطينيّة، العدد 40، ص 24].

للمقارنة، نجد أنَّ وصف جبل آثوس يخلو كليًّا من أيِّ ذكرٍ للمقدَّسات المسيحيَّة: «رأينا جبل آثوس، أو مونتي سانتي، من مسافة 25 ميلًا، وهو الجبل الذي يقول اليونانيون عنه إنَّه تمكن رؤيته من مسافة خمسين ميلًا نظرًا إلى ارتفاعه إذا ما كان الجو صافيًا»؛ «عبرنا ليمنوس وكان جبل آثوس... إلى يميننا»[291].

كانت آثار جزيرة تاسو (تاسوس)، التي دائمًا ما تُربط بإصرار باسمي فيليب المقدوني وابنه الإسكندر (يؤرَّخان اليوم ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد)، من بين الآثار التي حظيت بأوسع اهتمام في الشروحات التي تناولت الآثار اليونانيَّة القديمة. وأتاحت البحوث التي أجراها الضابطان المهندسان ماجوروف وتوزوف، لهما كتابة الرواية الآتية عن آثار الجزيرة، نقلًا عن السكَّان: «لا يزالون يتناقلون حتَّى الآن الروايات شفاهة عن أنَّ الملك المقدوني فيليب بدأ بناء المدينة على الجهة الجنوبيَّة من الجزيرة، في المكان الذي توجد فيه قرية فيرغارا (غورغارا اليوم). وهو جلب لهذا الغرض كل المواد الضروريَّة، وخصوصًا الرخام، ومختلف المستلزمات من أماكن أخرى. ولكن المنيَّة وافته قبل أن ينهي العمل. فخلفه ابنه الإسكندر الكبير الذي اختار، هذا المكان لبناء السُّفن ولنقل جيوشه حينما قرَّر مهاجمة الفرس. ولذا، فهو أمر بنقل كل المواد الأخرى من القلعة، حيث تقع قرية غورغارا اليوم، إلى هذا المكان لبناء القلعة والمرفأ. وبعد زمن طويل، استولى الجنويون على هذه الجزيرة. ويمكن الاستنتاج ممَّا تقدم أنه لم يُبنَ في زمن الإسكندر الكبير سوى حصنٍ واحدٍ على الجبل، لأنَّ جدرانه شيدت على الطريقة القديمة، وهي الآن عبارة عن أطلال... [القلعة السفلى تحت سيطرة الجنويين، وعليها العلم الجنوي]. وثمَّة على مقربة من القلعة، من الجهة الخارجيَّة، عدد كبير من النواويس المصنوعة من صفائح حجريَّة مصقولة كبيرة جدًّا، والقسم الأكبر منها من الرخام وعليها نقوش يونانيَّة، الأمر الذي يدلُّ أيضًا على أنَّها صُنِعت

---

(291) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 39, 160.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقتان 39، 160].

في أزمنةٍ غابرة»[292]. وكان القبطان الروسي س. ب. خميتيفسكي معجبًا أيضًا بالآثار القديمة التي بدت له «جنَّة»، لثرائها وخصوبتها[293] (علمًا أنَّ ذلك لم يمنعه من استخدام «القبر» الرخامي فرنًا للحدادة).

وجدير بالذكر أنَّ خميتيفسكي كان شديد الاهتمام بـ «العجائب»، ومنها على سبيل المثال: كيفيَّة تمكُّن القدماء من سحب أحجار القلعة الضخمة الواقعة في جزيرة تاسو، أو المغارة الموجودة الشهيرة بهوابطها (تكلُّساتها) في جزيرة أنتيباروس، حيث ترك على جدرانها حينما زارها النقش الآتي: («كنت على جزيرة أنتيباروس، في ما يسمَّى المغارة الواقعة على قمَّة جبل، وهي عبارة عن هوة سحيقة من الرخام <...> [عن الهوابط والأشياء الجميلة الأخرى]. يأتي الكثيرون من دول مختلفة إلى هذا المكان بدافع الفضول، ويحفرون أسماءهم وتاريخ وصولهم إلى الصخور، ولقد حفرتُ اسمي بين الأسماء»)[294].

حظيت الآثار اليونانيَّة القديمة أيضًا باهتمام ماتفي كوكوفتسيف الذي شارك في التنقيب عنها، على غرار باش فان كرينين! فهو، لم يفوِّت على ما يبدو أيَّ أثرٍ من الآثار اليونانيَّة القديمة التي كانت معروفة في الجزر خلال نهاية القرن الثامن عشر، في كتابه **وصف الأرخبيل**، أيًّا كانت أهمِّيتها. وقد أرفق شروحاته بعرضٍ للأساطير «الخياليَّة» التي تعود إلى أماكن وصفها تحت تأثير انطباعاته الشخصيَّة[295]. وجدير بالذكر أنَّ كميَّة الشروحات المتعلِّقة بالآثار اليونانيَّة القديمة في كتاب كوكوفتسيف تفوق إلى حدٍّ كبير كلَّ ما ذُكر فيه عن المقدَّسات المسيحيَّة. فهو لم يأتِ على ذكر آثوس كليًّا، ولم يذكر من الكنائس

---

(292) المرجع نفسه، الورقة 161.

(293) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 601.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 601 (الطبعة الروسيَّة)].

(294) المرجع نفسه، ص 617.

(295) Коковцев, с. 62.

[كوكوفتسيف، ص 62].

جدير بالذكر أنه قال في معرض وصفه جزيرة ستانتسيو: «هنا عُثر على تمثال فينوس الموجود في متحف أرشيدوق توسكانة حاليًّا، الذي نحته براكسيتيليز».

والأديرة سوى كنيسة باناغي يكاتوندابيلياني في باروس ودير يوحنا الإنجيلي في جزيرة باتموس.


مغارة أنتيباروس

كان جمع الآثار اليونانيَّة القديمة من ضمن واجبات قيادة حملة الأرخبيل. وقد بذل غ. أ. سبيريدوف الذي لم يكلَّ جهودًا كبيرة لتنظيم التنقيب عن الرخام القديم ونقله على متن السُّفن الحربيَّة الروسيَّة، لتأمين حاجات البلاط واهتمامات بعض الأفراد (كانت بدايةً في أكاديميَّة الفنون وفي المجموعات الخاصة[296]، وما لبثت أن ضُمَّت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلى مجموعة الآثار اليونانيَّة القديمة في الإرميتاج)[297].

نشطت في عام 1772 بصورة خاصة، عمليات التنقيب عن الآثار القديمة من الرخام، واستخراج قطع الرخام المخصَّصة للبلاط في سان بطرسبورغ[298].

(296) من المعروف على سبيل المثال أنَّ ستروغانوف لم يكن الوحيد الذي حصل على ناووسٍ يونانيٍّ قديمٍ من دوماشينيف، بل إنَّ تشيرنيشوف طلب من غريغ وسبيريدوف أن يرسلا إليه الرخام والآثار، لتزيين منزله الذي كان قيد الإنشاء (يُنظر في هذا الصدد الملحق. مقالة ف. إ. بولغاكوف (الطبعة الروسية)).

(297) *Санкт-Петербург и античность -Sankt-Petersburg und die Antike= Sankt-Petersburg and Classical Antiquities*: *[Материалы выст./Авт]*, текстов Л. И. Давыдова и др.; науч. ред. Е. В. Мавлеев (СПб.: С.-Петерб. Фонд культуры, 1993), с. 62-64; Г. Трей, *Указатель скульптурного музея Императорской Академии художеств Вып. 1: Скульптура древних народов* (СПб., 1870), с. IV.

[**سان بطرسبورغ وآثار العصور القديمة**: *antiquites* (**مواد معروضة**)، مؤلِّفو النصوص دافيدوف [وآخرون]؛ المحرر العلمي ي. ف. مافلييف (سان بطرسبورغ: صندوق الثقافة في سان بطرسبورغ، 1993)، ص 62-64؛ غ. تري، **دليل متحف المنحوتات في أكاديميَّة الفنون الإمبراطوريَّة، الإصدار الأول: فن النحت لدى الشعوب القديمة** (سان بطرسبورغ، 1870)، ص IV].

(298) عمل فريق كامل من اليونانيين - بقيادة المعلم اليوناني غافريل بساي في جزيرة تينوس - =

في ذاك الوقت بالتحديد، أفاد القبطان إيفان بوريسوف المُبحر في منطقة جزيرة ساموس، في تقريره أنَّ هاوي الآثار اليونانيَّة القديمة الملازم ماتفي كوكوفتسيف، الموفد من قِبله إلى ساموس، عثر في قرية ميتيلي(؟) على «ثلاث قطع من الرخام»، نُقلت لاحقًا إلى الفرقاطة. واستُخرجت من أرض ساموس أيضًا أعمدة «معبد الإلهة يونونا». وقد نُقلَت قواعد الأعمدة وتيجانها فقط إلى الشاطئ، حيث حُمِّلت على السُّفن. أمَّا الأعمدة، فقد رفض القباطنة الروس نقلها إلى السُّفن (وعلى حدِّ قول القبطان بوريسوف «العمل كثير، أمَّا قطع الرخام فقد تلفت وتشقَّقت مع الزمن، وقد رأيت بأمِّ العين كم هي متشقِّقة ومتهشِّمة»)[299].

في التاسع عشر من آذار/مارس 1772، عثر السكَّان المحليُّون في جزيرة زيا (كيا)، «على تمثال إلهة ... تالف، في مكان يسمى بودليس»[300]، أرسله اليوناني بونغالو الذي كان يخدم لدى الروس. فقد صعد «إلى الجبل حيث عُثر على الرخام، مصطحبًا عشرين عاملًا، فأنزلوا القطع الستّ الكبرى إلى شاطئ البحر». ووعد بونغالو في تقريره ببذل كل الجهود، ليس «لإنزال هذه القطع الرخاميَّة إلى الشاطئ فحسب»، بل تحميلها أيضًا على السُّفن الروسيَّة[301].

---

= على استخراج الرخام النقي الأبيض والأخضر والتحضير «النقله إلى بلاط سان بطرسبورغ». ولهذا الغرض، دُفع خمسة آلاف و29 قرشًا من النفقات الطارئة للحملة: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 29, Л. 9

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 29، الورقة 9].

كان الرخام يُحمَّل (في أسطوانات ومكعبات و«أعمدة» «وقواعد للأعمدة») على الفرقاطات «سولومبال» و«غريغوري» و«أوروبا» و«ني ترون منيا». وكان يتعيَّن قبل ذلك بناء مراسٍ وأطواف ورمي الحبال. وقد بلغ وزن «قطع الرخام» 250 بودًا [البود: وحدة وزن تعادل 16,38 كيلوغرامًا (المترجم)]. يُنظر: المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الأوراق 272، 1773-1775.

(299) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 2, Л. 96об.

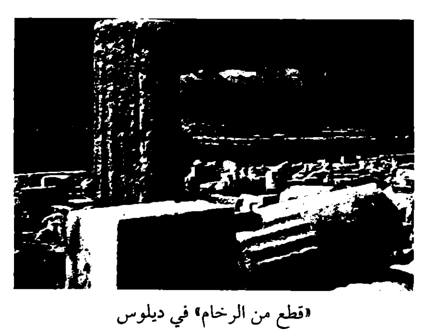
[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 2، ظهر الورقة 96].

(300) المرجع نفسه، الورقة 93.

(301) المرجع نفسه، الورقة 99 - ظهر الورقة 99.

في شباط/فبراير 1772، عمل الملازم فاسيلي باياركوف، بأمرٍ من سبيريدوف، على تحميل «قطع الرخام» في ديلوس الصغرى، علمًا أنّ نحو خمسين «قطعة» كانت قد نُقلت إلى الشاطئ[302]. وليس من الواضح تمامًا كم من نفائس ديلوس (وتسمَّى بومباي بحر إيجة!) العديدة نُقل إلى روسيا. وربَّما هي ما قصده أنطون بسارو حين وضع قائمة قطع الرخام «من معبد أبولون»:

«خمس قطع مربعة الشَّكل
ثلاث قواعد
قاعدة واحدة مشغولة بحرفيَّة عاليَّة
أربع قطع عليها كتابات يونانيَّة قديمة
قطعة واحدة عليها كتابات يونانيَّة قديمة
عشرة أعمدة
أربعون قطعة لنصب الأعمدة من الرخام الأبيض النقي
قاعدة واحدة على شكل قبعة و[غير واضح] حولها
قطعة واحدة عليها كتابات يونانيَّة، كلمات قديمة
المجموع 5658 بودًا»[303].


«قطع من الرخام» في ديلوس

بعدما وصل باش فان كرينين إلى جزيرة سانتورين (تيرا) في عام 1771، وكتب ما مفاده أنه يوجد على جبل القديس إسطفانوس «الكثير من التماثيل الرخاميَّة والكثير من شتَّى القطع الأخرى»[304]، نُقِّب في سانتورين، بأمرٍ من

(302) المرجع نفسه، الورقة 95.
(303) المرجع نفسه، الورقة 92.
(304) «وصف موجز لجزر الأرخبيل». يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, c. 536.
[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 536 (الطبعة الروسيَّة)].

سبيريدوف، «عن قطع من الرخام القديمة وقطع أخرى»، وذلك «من أجل بلاط ... صاحبة الجلالة». نظَّم هذه العمليَّة كلٌّ من «قائد» سانتورين سبيرو بيتشيليا و«البارون فيغر الناكسيني» (دي فيغور) الآنف الذكر، على حسابهما الخاص. وبحلول شباط/ فبراير 1774، كانت قائمة المُقتنيات - من تماثيل نصفيَّة وثلاثة «رؤوس» وعشرين نقشًا بارزًا المذكورة في مراسلات سبيريدوف ويلمانوف - وازنة جدًّا. وليس عبثًا أنَّ شوازول غوفيه، الذي زار هذه الجزيرة بعد فترة وجيزة، أشار إلى أنَّ «الروس استولوا على أعمدة وعدة تماثيل وقطع ثمينة» في سانتورين[305]. وبما أنَّه سيتعيَّن مقارنة توصيف قطع الرخام الموجودة في الإرميتاج من مجموعة سبيريدوف، مع «القائمة» التي سترد أدناه، فسنقتبس النص كاملًا:

«قائمة تتضمَّن كلَّ قطع الرخام التي حُصِلَ عليها في سانتورين، ونُقل بعضٌ منها إلى مرفأ آوزا، فيما بقيت القطع الأخرى في سانتورين:

أولًا؛ تمثال نصفي شبه كامل

ثانيًا؛ عشرون قطعة رخام صغيرة مربَّعة الأضلاع، تختلف من حيث الطول والعرض، عليها نقوش، وهي كالآتي:

1. **تمثال لشخصين متعانقين، الواحد فوق الآخر.**

2. **تمثال لامرأة عارية إلى جانبها أخرى صغيرة.**

3. **تمثال لشخص يقف على الطرف.**

4. **تمثال لشخصين متعانقين.**

5. **تمثال لشخص واقف في يده عصا.**

6. **ثلاثة تماثيل لأشخاص، اثنان منهما جالسان والثالث يقف على الطرف.**

7. **تمثالان لرجل وامرأة.**

---

(305) Choiseul-Gouffier, p. 37.

8. تمثال لامرأة في ثياب غريبة تمسك برأس طفل.

9. تمثالان - أحدهما لشخص يقف على الطرف، والآخر يجلس إلى جانبه.

10. تمثالان - أحدهما لشخص مستلقٍ والآخر يقف على الطرف.

11. تمثال لشخص يقف على الطرف.

12. تمثال كالسابق.

13. تمثالان أحدهما كبير لشخص يقف على الطرف، والآخر صغير لشخص مستلقٍ.

14. خمسة تماثيل، من بينها اثنان لشخصين نائمين، وثالث جالس، ورابع يقف على الطرف حاملًا طفلًا.

15. تمثالان لشخصين جالسين جنبًا إلى جنب.

16. تمثالان كالسابقين.

17. ثلاثة تماثيل، اثنان منهما لشخصين مستلقيين، والثالث يقف على الطرف.

18. تمثالان - أحدهما لشخص مستلق، والآخر يقف على الطرف.

19. تمثال لشخص يقف على الطرف.

20. تمثال لشخص مستلق مع طفلين على الطرف.

21. ثلاثة رؤوس مختلفة الحجم لتماثيل مفقودة[306].

---

(306) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 168.
[أرشيف الدولة الروسيّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 168].



آثار يونانية قديمة في سانتورين

تُظهر كيفيَّة توصيف مقتنيات حملة الأرخبيل الأثريَّة القديمة بوضوح تام أنَّ القيادة العسكريَّة لم تسعَ إلى إظهار درايتها بمنحوتات اليونانيين القدامى، ولم تأخذ على عاتقها في الأغلب مهمَّة تحديد قيمة الآثار المكتشفة. ومن المرجح جدًّا أن تكون رأت في الآثار القديمة شيئًا ما مماثلًا لـ «التحف» التي وضَّبتها بحرص وأرسلتها إلى البلاط. فقد أرسلت مع الجرحى والمرضى إلى سان بطرسبورغ في عام 1772 قطع الرخام، وكذلك «قطعًا من العاج ومحارات اللؤلؤ»[307]. وأرسلت في عام 1774 «مومياء» يبدو أنَّها «جدُّ مشكوكٍ في أمرها»[308]، إضافةً إلى «محارات لؤلؤ وأسنانٍ عاجيَّة ورؤوس أفاعي»[309]، و«قطعٍ من هوابط مغارة أنتيباروس»[310]. إلا أنَّ الجميع، من القائد العام حتَّى قباطنة السُّفن، كانوا ينظرون إلى الآثار القديمة بوصفها نفائس تعود للدولة، تستوجب حساب كميَّاتها وأوزانها وأحجامها على نحوٍ دقيق، إن لم يكن الإعجاب.

(307) المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 29، ظهر الورقة 15.

(308) المرجع نفسه، ظهر الورقة 11، الورقة 12.

(309) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 51.

(310) Πασχάλη, Σελ. 273.

تركت تجربة غزو المساحات المليئة بشواهد تاريخ العالم القديم وثقافته انعكاساتها على مصائر المشاركين في الحملة وإبداعاتهم على أنحاء مختلفة. بيد أنَّ مسألة التَّماس مع الحضارة اليونانيَّة القديمة بدت في ذاك الوقت مندمجة بصورة عجيبة في نسيج الثقافة الوطنيَّة.

## نهاية إمارة الأرخبيل

حلَّت نهاية إمارة الأرخبيل في أواخر عام 1774 ومطلع العام التالي، وذلك بعد إبرام صلح كوتشوك - كاينارجي وخروج الأسطول الروسي من حوض شرق البحر المتوسِّط. لم تكن هذه الخسارة أمرًا مفاجئًا، بالنسبة إلى قادة حملة الأرخبيل على الأقل، الذين خَفَتَت حماستهم إلى حدٍّ كبير، بعد أعمال البناء المحمومة في بداية عام 1771. فمنذ عام 1772، كانت تبرز باستمرار في المراسلات المتبادلة بين قادة حملة الأرخبيل مسألة «احتمال عقد الصلح، وضرورة التحضير شيئًا فشيئًا للعودة إلى الوطن» (رسائل سبيريدوف إلى يلمانوف، حزيران/ يونيو 1772)[311]، وكيفيَّة انسحاب الأسطول من الأرخبيل عبر ليفورنو وبورتو فيرايو وجنوى أو بورت ماغون[312].

كان الموقف من مسألة الحفاظ على المكتسبات في حوض شرق البحر المتوسِّط يتغيَّر بصورة تدريجيَّة في بطرسبورغ أيضًا. فصارت فكرة إنشاء كيانٍ على الجزر اليونانيَّة تشغل حيِّزًا متناقصًا أكثر فأكثر في اهتمامات الإمبراطورة، التي كانت مستعدة لتبادل الجزر **التي تملكها**[313] بشروط ملائمة. كما أنَّ أ. غ. أورلوف - «الجنرال المفوض من صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة كاترينا الثانية، إمبراطورة عموم الروسيا، وسيدة الأرخبيل ...إلخ» - لم يجامل كثيرًا في ما يتعلَّق بإمارة الأرخبيل، وكان مستعدًّا منذ صيف عام 1771 لبيع إحدى الجزر

---

(311) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 46, Л. 56.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للإسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 46، الورقة 56].

(312) المرجع نفسه، ظهر الورقة 74، 96-98.

(313) *АГС*, с. 250.

[أرشيف مجلس الدولة، ص 250].

لإنكلترا بُغية تسديد نفقات وجود الأسطول الروسي في حوض شرق البحر المتوسِّط[314]. غير أنَّ أورلوف أعلن في كانون الأول/ ديسمبر عن عدم إتمام هذه الصفقة[315].

تواصلت في مجلس البلاط السامي مناقشة مسألة صعوبة احتفاظ روسيا بجزر الأرخبيل، إن لم يكن استحالته، وتحضير الاقتراحات الروسيَّة لمؤتمر السلام. وكانت الإمبراطورة تنوي خلال المفاوضات نشر مبدأ *uti possidetis* (الاعتراف بحقِّ احتلال الأراضي) في الأرخبيل، وكذلك في إمارة الدانوب، على ما يبدو، لاعتبارات تكتيكيَّة فحسب (وذلك لخلق مساحة واسعة للتنازلات، مع إمكانيَّة التمسك بما هو أهمُّ). وقد كشفت عن نيَّتها بأنَّها لا يمكن أن تكتفي بـ «بريق الانتصارات الفارغ»، وبعودة قواتها «مكتفية بشرف كسر العدو وهزيمته، من دون أن تجرؤ على «المسِّ بممتلكاته»[316].

بالفعل، عندما وصل الأمر إلى المفاوضات السلميَّة - كما توقع أ. غ. أورلوف - واجه اقتراح روسيا بشأن الاتفاقات السلميَّة معارضةً شرسةً من كلٍّ من بروسيا والنمسا، اللتين أخذتا على عاتقهما دور الوسيط في إحلال السلام،

---

(314) المرجع نفسه، ص 90؛ П. Перминов, «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII в. Эпизод второй,» *Азия и Африка сегодня* no. 8 (1987), c. 57.

[ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول من تاريخ العلاقات الروسيَّة - العربيَّة في القرن الثامن عشر، المشهد الثاني»، **آسيا وأفريقيا اليوم**، العدد 8 (1987)، ص 57].

يعود س. م. سولوفيوف بالمفاوضات بين أ. غ. أورلوف والقنصل الإنكليزي في ليفورنو بشأن التنازل لإنكلترا عن أيِّ جزيرة في الأرخبيل إلى خريف عام 1771: С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, c. 513.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا، الكتابان 13-14** (موسكو، 1994)، الكتاب 14 ص 513].

علمًا أنَّ مجلس البلاط السامي ناقش هذا الأمر في 23 حزيران/ يونيو و12 كانون الأول/ ديسمبر 1771: *АГС*, c. 90, 131.

[**أرشيف مجلس الدولة**، ص 90، 131].

(315) *АГС*, c. 131.

[**أرشيف مجلس الدولة**، ص 131].

(316) اقتباس من: Соловьев, c. 460.

[سولوفيوف، ص 460].

ما جعل روسيا تقرِّر عدم الإصرار على مطالبتها بالأراضي المكتسبة في البحر المتوسِّط في مؤتمر فوكشاني (1772). لكنَّ جزر الأرخبيل لم تغب عن بال الطرفين المتفاوضين في أثناء المفاوضات في المؤتمر المذكور، فاقترح الجانب التركي ممثَّلًا بريِّس أفندي مبادلتها تارةً بقضاء آزوف، وتارةً أخرى بآزوف وكاباردا؛ ممَّا حدا بأوبريسكوف بتذكيرهم بارتياح: «خذوا بعين الاعتبار أنَّ القسطنطينيَّة مطوَّقة بالأساطيل الروسيَّة منذ بداية هذه الحرب وحتَّى اليوم، وأنَّنا استولينا على 44 جزيرة في الأرخبيل...»[317]. وسواءٌ أكان في مؤتمر فوشكاني أم في كوتشوك - كاينارجي، كان الجانبان يدركان أنَّه قُدِّر لإمارة الأرخبيل (أكانت 20 جزيرةً أم 44 جزيرة!) أن تكون مجرَّد فكِّ عملة، وأنَّ التنازل عنها كان محسومًا، وإنَّما كان الجدل يتمحور حول السعر فحسب.

بدا الأمر كأنَّه تعيَّن على كاترينا الثانية الاكتفاء بـ «بريق الانتصارات الفارغ» وبشرف انتصار شيسما.

بيد أنَّ الإمبراطورة ما كان لها إلا أن تعزِّي نفسها بذكريات هذا «البريق» العذبة. ففي عام 1775، بعد مغادرة السُّفن الروسيَّة الأرخبيل، قرَّرت كاترينا إقامة مجموعة من النُّصب التذكاريَّة تخليدًا لأربع سنوات من السيطرة الروسيَّة على جزر باروس وأندروس وتينوس وزيا/ كيا وتيرميا وغيرها. وتُبيِّن التعديلات الكثيرة التي أدخلتها الإمبراطورة بخطِّ يدها، في أثناء إعداد الكتابات على النُّصب، الأهميَّة التي كانت تنطوي عليها سيطرتها على إمارة الأرخبيل، بالنسبة إليها، وكيف تحوَّلت العمليَّة في حوض البحر المتوسِّط إلى رمزٍ وطنيٍّ مهمٍّ، أُضفِيَ عليه طابعٌ أسطوري[318].

---

(317) В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883), с. CCII-CCVII.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، ص CCII -CCVII].

(318) В. Проскурина, *Мифы и империи: Литература и власть в эпоху Екатерины II* (М., 2006), с. 147-194.

[ف. بروسكورينا، **الأساطير والإمبراطوريات: الأدب والسلطة في عصر كاترينا الثانية** (موسكو، 2006)، ص 147-194].

أصبح هدف الحملة مُذّاك مجرد مساعدة إخوة الدين، وهذا ما جاء في النقش الأول على النُّصب المكرَّس للانتصارات في مورية:

«بناءً على أمر الإمبراطورة كاترينا الثانية، أقيم هذا النُّصب تخليدًا لدخول الأسطول الروسي الأول إلى البحر الأبيض المتوسِّط في عام 1769، **لمساعدة اليونانيين المؤمنين وتحريرهم من نير التركي الكافر** (التشديد من المؤلفة)، بقيادة الأميرال غريغوري سبيريدوف؛ وقائد القوَّات البريَّة على هذه السُّفن الجنرال الكونت ألكسي أورلوف، ومعه نائبه شقيقه الكونت فيودور أورلوف، الذي قاد عمليَّة إنزال القوَّات الروسيَّة في بورتو فيتيللو وكوروني. ومن 17 شباط/ فبراير حتَّى 29 آذار/ مارس 1770، تمكَّن النقيب باركوف، قائد الفوج الإسبارطي الشرقي، من الاستيلاء على مدن باكافا (باسافا؟) وبيردونا وميزيسترا. أمَّا الأمير بيوتر دولغوروكوف، قائد الفوج الإسبارطي الشمالي، فقد استولى على مدن كالاماتا وليونتاري وأركاديا»[319].

كان لا بدَّ من أن يجري، وفقًا لأسطورة الانتصار، ربط عمليَّة الأرخبيل ببطرس الأكبر، رمز الإمبراطوريَّة الروسيَّة التاريخي الرئيس، وتأكيد استمراريَّة سلطة كاترينا. ولذا، كان النُّصب الثاني مكرَّسًا لبطرس الأكبر (نذكِّر هنا أنَّ فالكوني كان يعمل خلال الفترة 1766-1778 بالتحديد على تمثال الفارس النحاسي، على أنَّ تمثالًا جديدًا لبطرس لن يكون زائدًا!)[320]:

«على شرف مؤسِّس القوَّات البحريَّة الروسيَّة، التي أبادت الأسطول التركي بنيران ثلاث وثلاثين سفينة عند الشاطئ الآسيوي في ميناء قرية بورن، مقابل جزيرة سيو في البحر المتوسِّط، تحت قيادة الجنرال الكونت ألكسي أورلوف والأميرال غريغوري سبيريدوف العامَّة، وذلك في 24 حزيران/ يونيو 1770.

---

(319) РГАДА, Ф. 10/1, Кабинет Екатерины, no. 444, Л. 6.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 10/1، ديوان كاترينا، العدد 444، الورقة 6].

(320) حرصنا في أثناء ترجمة مسوَّدات النصوص، التي كان يُفتَرَض تدوينها على النُّصب، الإبقاء عليها كما وردت، من دون أيِّ تحرير لغوي أو أسلوبي. (المترجم)

(يلي بعد ذلك نص آخر معدَّل - المؤلفة)

«بـ [طرس] الأكبر».

«على شرف مؤسِّس القوّات البحريَّة الروسيَّة التي أبادت بنيرانها الأسطول التركي المؤلَّف من ثلاث وثلاثين سفينة في ميناء كالابورنو على الشاطئ الأسيزي، مقابل جزيرة خيوس تحت قيادة الجنرال الكونت ألكسي أورلوف والأميرال غريغوري سبيريدوف العامَّة، وذلك في عام 1770 في اليوم الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو في السنة التاسعة من عهد كاترينا الثانية»[321].

أخيرًا، لم تكلَّ الإمبراطورة من الاحتفال بالسيطرة، ولو فترة قصيرة الأمد، على الأراضي التي كانت يومًا ما مسرحًا لازدهار الثقافة اليونانيَّة القديمة. فتخلَّلت النصَّ تعبيراتٌ من نوع «خراب أمفيتروتا»[322]، وتطرق إلى قبر هوميروس على جزيرة إيوس، و«السينتورات» الخرافيَّة[323]، وفينوس، وميدوسا[324].

[بقلم الرصاص مع تعديلات كثيرة]

1. معبد مع صليب كُتِبَ عليه: بعد تحوُّلات كثيرة في الماضي البعيد دانت جزيرة باروس لسلطة السلاح الروسي المظفَّر، وشهدت في ميناء آوزا أدميراليَّة الأسطول الروسي في الأرخبيل، خلال الفترة الواقعة بين عامي 1771 و1775. وتخليدًا لذكرى هذا الحدث، أقيم هذا النُّصب على غرار معبد المشرِّعة تسيريسا[325] الباروسي، الذي نُسبت إليه هذه الجزيرة.

2. خضعت جزيرة ناكسوس الخصبة للعلم الروسي على مدى ثلاث سنوات.

---

(321) المرجع نفسه.

(322) أمفيتروتا: إلهة البحار في الأسطورة اليونانيَّة القديمة. (المترجم)

(323) السينتور (Cenature): في الأسطورة اليونانيَّة القديمة، كائن خرافي نصفه الأعلى إنسان، ونصفه الأسفل حصان. (المترجم)

(324) ميدوسا (Medusa): في الأسطورة اليونانيَّة القديمة هي بنت بورسيوس، إله البحر. كانت فتاة جميلة، شعرها عبارة عن أفاعٍ متدليَّة، وأمَّا نظرتها فتُحوِّل من ينظر إليها إلى حجر. (المترجم)

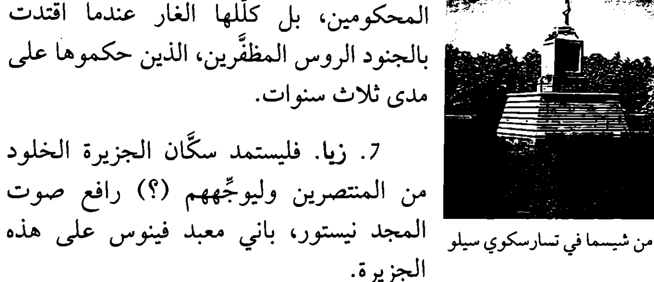
(325) يبدو أنَّ الحديث يتناول معبد ديميترا (تسيريرا الروماني)، الذي يُعتبر اليوم معبد أثينا.

**ملحوظة**: بناء مرسى، على غرار ذاك الذي على لوحة أغلينا مع العلم الروسي، ووضع ميداليَّة ناكسوس على المرسى، وتحتها النص الوارد أعلاه.

3. كان قبر هوميروس على جزيرة **نيو** محاطًا بالروس المظفرين.

4. ميداليَّة جزيرة **أندروس**: كانت جزيرة **أندروس في** الماضي البعيد خاضعة(؟) لفينوس الأثينيَّة وخضعت في هذا العصر للسلاح الروسي المظفَّر.

5. توضع ميداليَّة جزيرة **تينوس** على الجبل الصخري الصغير الذي تزحف عليه الأفاعي مع النص الآتي: القوة والصلابة تذلِّلان الحسد؛ ظلَّت جزيرة تينوس في الأرخبيل خاضعة لسلطة العلم الروسي طوال سنوات ثلاث.


عمود من شيسما في تسارسكوي سيلو

6. سينتور (كينتاوروس - المؤلفة) مع كتابة بخطٍّ منكسر، ورأس تمثال أصلع على قاعدة كتب عليها: جزيرة **ميكون** مقبرة السنتورات (؟) لم تظلِّل رؤوس سكَّانك غير المحكومين، بل كلَّلها الغار عندما اقتدت بالجنود الروس المظفَّرين، الذين حكموها على مدى ثلاث سنوات.

7. **زيا**. فليستمد سكَّان الجزيرة الخلود من المنتصرين وليوجِّههم (؟) رافع صوت المجد نيستور، باني معبد فينوس على هذه الجزيرة.

8. اشتُهرت جزيرة **تيرميا** بخراب أمفيتروتا في القديم، أمَّا في العصر الراهن فقد ظلَّت تابعة لروسيا طيلة أعوام ثلاثة.

9. جزيرة **سيرفو**. مكان لإقامة عدَّة تماثيل مع النص الآتي: «حوَّلت ميدوسا النَّاس هنا إلى تماثيل حجريَّة، أمَّا أولئك الذين أخضعوا جزيرة سيرفو هذه للدولة الروسيَّة فجديرون بتماثيل من الحجر»(326).

---

(326) = *РГАДА*, Ф. 10/1, Кабинет Екатерины, по. 444, Л. 7-8об.

إلا أنَّ كلَّ هذه النصوص ومشروعات النُّصب التذكاريَّة، ظلَّت حبرًا على ورق. فعلى النُّصب المشيَّد في عام 1777على جزيرة تسارسكوي برود، لم يُمجَّد سوى انتصار شيسما. وقد شُيِّدت كنيسة ميلاد يوحنَّا المعمدان تخليدًا لهذا الانتصار (أرشيف فيلتين؛ حصلت المعركة في اليوم الذي كانت الكنيسة الأرثوذكسيَّة تحتفل بهذا العيد، ورُفعت حينئذٍ رايات تحمل صورة يوحنا المعمدان فوق السُّفن الروسيَّة)، وبُني قصر تشيسمين الإمبراطوري وأطلق على المنطقة المحيطة بالقصر اسم «تشيسميا».

جدير بالذكر أنَّ كاترينا الثانية وَفَّت بوعدها عند مغاردة إمارة الأرخبيل، ولم تترك اليونانيين من دون حماية عند إبرام الصلح. ففي صيف عام 1770، اشترطت الإمبراطورة إلزاميًّا للبدء بمفاوضات السلام إطلاق سراح أوبريسكوف من السجن التركي، وأضافت «أنَّ شرفها وواجبها يدعوانها لحماية أولئك الذين آزروها في النضال، وهي لن تترك اليونانيين، خصوصًا ضحايا انتقام الأتراك: فأمنهم ينبغي أن يكون مصانًا»[327]. وفي المفاوضات التي خاضها أوبريسكوف، المُطلَق سراحه - وقد صار الآن ممثِّلًا للجانب الروسي - مع عبد الرزاق، اتَّفق الطرفان على الفقرة التي تنصُّ على «العفو العام من الجانبين عن كلِّ مَنْ شارَكَ في هذه الحرب من الشعوب المسيحيَّة والمحمديَّة»[328]. أُدرِجَت هذه الفقرة بصيغة مشابهة في معاهدة كوتشوك - كاينارجي.

وَرَدَ في المادة السابعة عشرة من المعاهدة ما يأتي: «تعيد الإمبراطوريَّة الروسيَّة إلى الباب العالي كلَّ جزر الأرخبيل التابعة لها. ويتعهَّد الباب العالي

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1/10، ديوان كاترينا، العدد 444، الورقة 7 - ظهر الورقة 8].

(327) Соловьев, с. 372.

[سولوفيوف، ص 372].

(328) Е. И. Дружинина, *Кючук-Кайнарджийский мир 1774 г. (его подготовка и заключение)* (М., 1955), с. 197.

[ي. إ. دروجينا، معاهدة كوتشوك - كاينارجي عام 1774 (إعدادها وإبرامها) (موسكو، 1955)، ص 197.

من جهته بما يأتي: 1) الحرص التام في ما يتعلّق بسكّان هذه الجزر، على التقيُّد بالشروط الواردة في المادة الأولى، بخصوص العفو العام والنسيان التام لكلِّ أنواع الجرائم التي ارتُكبت أو يُشتبه بأنَّها ارتُكبت بحقِّ مصالح الباب العالي. 2) ألَّا يتعرض القانون المسيحي لأيِّ اضطهاد، وألَّا تُمنَع الكنائس من تدبير أمورها وإصلاح شؤونها، وكذلك ألَّا يتعرَّض النَّاس الذين يمارسون فيها شعائرهم للإهانة أو المضايقات. 3) ألَّا يُطلَب منهم دفع أيِّ إتاوة كالَّتي كانوا يدفعونها أثناء وجودهم تحت سلطة الإمبراطوريَّة الروسيَّة، نظرًا إلى ما تعرَّضوا له من ظلم خلال الحرب الحاليَّة، وذلك لمدة عامين يبدآن مع عودة الجزر إلى الباب العالي. 4) السماح للأسر التي ترغب بمغادرة وطنها والنزوح إلى أماكن أخرى بِحُرِّية الانتقال مع كلِّ ممتلكاتها. وحتَّى تتمكَّن هذه الأسر من تدبير أمورها، فهي تُمنَح سنة كاملة للنزوح بحرِّية من وطنها، وذلك ابتداء من يوم بدء تنفيذ هذه المعاهدة...». بعد ذلك يتناول الكلام تعهُّد الباب العالي إمداد الأسطول الروسي بكلِّ ما يلزم للإبحار[329]. أخيرًا، تتناول المادة الرابعة والعشرون، على نحوٍ خاصٍّ، شرطَ منح جميع الرعايا العثمانيين الذين خدموا لدى الروس، إذا ما رغبوا، إمكان المغادرة مع القوَّات أو عقب انسحابها.

في نهاية الأمر، أعقبت عقدَ معاهدةِ الصُّلح موجةٌ من الهجرة إلى روسيا. ففي السادس من كانون الأول/ ديسمبر 1774، أفاد أ. غ. أورلوف من بيزا أنَّ الكثيرين من أبناء الشعوب الصربيَّة يرغبون بالانضواء تحت راية «الإمبراطورة الروسيَّة»، وأمر يلمانوف بالسَّماح لكلِّ الراغبين بالنزوح «بالصعود إلى السُّفن بقدر اتِّساعها، ونقلهم إلى المناطق الخاضعة لجلالتكم الإمبراطوريَّة، مع تزويدهم بما يكفي من المؤن والرسائل إلى حكَّام تلك المناطق كي يستقبلوهم بوصفهم رعايا روسًا، وآمل... أنَّ الكثيرين سينتقلون لاحقًا إلى هذا البلد، وسيتوقَّف الكثير في البداية على نجاح الأوائل»[330]. وفي أيار/ مايو 1775، جمع يلمانوف «اليونانيين والألبان»، الذين قرَّروا أخيرًا الرحيل، وأصعدهم إلى

(329) المرجع نفسه، ص 289.

(330) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 250-251.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12، ص 250-251].

إحدى عشرة سفينة ورحَّلهم عبر المضائق إلى القرم، تحت حراسة الفرقاطة العسكريَّة «أفريقيا»[331]. وكما هو معروف، اضطلع هؤلاء النازحون إلى روسيا، بعد عدة عقود، بدورهم، ليس في تطوير نوفوروسيا فحسب، بل كذلك في الحركة التحرُّريَّة اليونانيَّة في وطنهم الأم.

عوضًا عن القاعدة الحربيَّة في حوض البحر المتوسِّط، حصلت روسيا بموجب معاهدة الصلح في كوتشوك - كاينارجي على الحقِّ في أن يكون لديها «قناصل ونواب قناصل في كلِّ الأماكن التي ترى أنَّ وجودهم فيها ضروريٌّ ومفيد، حيث سيحظون بالاحترام والمساواة مع بقيَّة قناصل الدول الصديقة»[332]. راعى هذا البند في المعاهدة، من دون شكٍّ، مصالح تطوُّر التجارة الروسيَّة، وكان نتيجة لحريَّة الملاحة التجاريَّة الروسيَّة المعلنة في كل المياه العثمانيَّة[333].

فإذا كان لدى هيئة الشؤون الخارجيَّة قبل الحرب ما بين ثمانية وعشرة قناصل فقط في مختلف أنحاء العالم، فإنَّ عدد القناصل المعتمدين في حوض البحر المتوسِّط وحده تجاوز الثلاثين قنصلًا، وفقًا لكشف عام 1788، كان ثلثاهم في الدول البلقانيَّة التابعة للإمبراطوريَّة العثمانيَّة، وفي الإمبراطوريَّة نفسها[334].

---

(331) لمزيد من التفصيل عن ذلك، يُنظر: المرجع نفسه، ص 300-304؛ ويُنظر أيضًا:
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Д. 50, 76-79, 92 и др.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، الملفات 50، 76-79، 92 وغيرها].

(332) Дружинина, с. 289.

[دروجينينا، ص 289].

(333) سرعان ما بدأت تظهر شتى أنواع «المشروعات» حول استخدام المزايا التي توفَّرت بعد توقيع الصلح. يُنظر، على سبيل المثال، مذكرة ستيفان ساراف إلى الكونت أ. غ. أورلوف في صدد إجراءات تطوير التجارة البحريَّة في البحرين الأسود والمتوسط: *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 608.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 608].

(334) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 2060, Л. 118-121.

[أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 89/8، الملف 2060، الورقة 118-121].

=

عُيِّن قنصلٌ عامٌّ في المنطقة مقرُّه في تريستي. وأنشئت قنصليات في جزر كانديا/ كريت، قبرص، نيغروبونتي، رودوس، ساموس، سانتورين/ تيرا وخيو/ خيوس؛ وأنشئت في الوقت نفسه قنصليَّاتٌ عامَّةٌ في كلٍّ من مورية وسالونيكي وسميرنا والإسكندريَّة وصيدا، وكذلك في كلٍّ من الدردنيل وبيروت ودمشق. وعُيِّن قناصل عامِّين كلٌّ من: الكونت إيفان فوينوفيتش الذي وصل إلى رتبة عقيد في الأرخبيل اليوناني (بجزيرة ميكونوس)، والمقدَّم بانو بيتشيللي في ألبانيا وخيمارا، والرائد خريستوفور كومنين في مورية. كما عُيِّن كلٌّ من: النقيب إيفان آتسالي في قبرص، ونقيب المدفعيَّة البحريَّة أنطوني كورونيللي في خيو، والنقيب بانايوتي كريفيت في نيغروبونتي ...إلخ. وكان معظم مترجميهم يحملون رتبًا عسكريَّة أيضًا.

من البدهي أنَّ القناصل ونواب القناصل المعيَّنين في حوض البحر المتوسِّط، كانوا يخضعون لهيئة التجارة العامَّة، لكن في الشؤون التجاريَّة الصرف، وعلى نحوٍ جزئيٍّ فحسب. أمَّا في كل ما تبقَّى، وتحديدًا في الشؤون الدبلوماسيَّة والسياسيَّة، فقد كانوا يخضعون لإدارة هيئة الشؤون الخارجيَّة. وكما سبقت الإشارة، كانت كاترينا تعتزم منذ عام 1770 ممارسة الشؤون السياسيَّة، بل حتَّى العسكريَّة - السياسيَّة، في حوض البحر المتوسِّط، «تحت عنوان تجاري».

تتيح بنية الإدارة القنصليَّة التي أنشئت في حوض البحر المتوسِّط بعد الحرب، وتركيبة السلك القنصلي وطبيعة واجباته، التفكير بأنَّه أُريدَ للشبكة القنصليَّة في الحوض المذكور على الأقل، أن تكون عبارة عن بنية تحتيَّة لتحقيق تلك الخطط التي ستكتسب شكلها النهائيَّ في المشروع اليونانيِّ خلال ثمانينيَّات القرن الثامن عشر، لكنَّها سبق أن بلغت نضجها في سياق حملة الأرخبيل.

فضلًا عن أهمِّيتها السياسيَّة، لعبت الإدارة القنصليَّة الروسيَّة في الأرخبيل

---

= يُنظر أيضًا: Уляницкий, *Русские консульства за границей.*
[أوليانيتسكي القنصليات الروسيَّة في الخارج].

دورها في مستقبل اليونان أيضًا. فكما أظهر غ. ل. آرش، أسهمت رعاية روسيا اليونانيين الذين لم يغادروا الأرخبيل، ومنحهم إمكانيَّة ممارسة التجارة البحريَّة تحت العلم الروسي وبحماية القناصل الروس في الأرخبيل، في تعزيز رؤوس الأموال اليونانيَّة التي ساعدت في النهاية على تكوين أساس حركة التحرُّر الوطني المالي في ما بعد إلى حدٍّ كبير[335].

---

(335) Г. Л. Арш, «О русской системе «покровительства» и о некоторых ее социально-экономических и политических последствиях для населения Балкан (конец XVIII — начало XIX вв.),» *Etudes Belkaniques*, no. 2 (1975), c. 108-127; Г. Л. Арш, «Острова Архипелага, в частности Санторин, по донесениям российских консулов эпохи Екатерины II,» on the web: www.hecucenter.ru/word-fi les/KERIE...pdf

[غ. ل. آرش، «عن نظام 'الرعاية' الروسي وعن بعض نتائجه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالنسبة إلى سكان البلقان (نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر)»، **دراسات بلقانية**، العدد 2 (1975)، ص 108-127؛ غ. ل. آرش، «جزر الأرخبيل، وتحديدًا سانتورين، وفقًا لتقارير القناصل الروس في عهد كاترينا الثانية»].

## الفصل السادس

# الدول الإيطاليَّة وروسيا
# في سنوات الحرب الروسيَّة-التركيَّة (1768-1774): الدبلوماسيَّة والسياسة

**م. ب. فيليجيف**

أيقظ نشاط روسيا الصاخب في الوقت الراهن فضول الكثيرين من المتعطِّشين لمعرفة طبائع هذا البلد وقوته وديانته، وللتعرُّف إلى تاريخه.

**صحيفة** *Effemeridi letterarie* **الصادرة في روما بتاريخ العشرين من حزيران/ يونيو 1772**[1].

في أواخر كانون الأول/ ديسمبر 1766، كتب برناردو تانوتشي، رئيس حكومة نابولي، إلى الفيلسوف والفلكي الشهير فرناندو غالياتي، معلِّقًا على لقب كاترينا الثانية الإمبراطوري، ما يأتي: «إنَّ هذا اللقب لهو فجر القسطنطينيَّة الجديدة: حبَّذا لو تقف فرنسا ضد <روسيا> فتُلهم الباب العالي»[2].

---

(1) اقتباس من: Ф. Вентури, «Итало-русские отношения с 1750 до 1825,» in: *Россия и Италия. Из истории русско-итальянских культурных и общественных отношений* (M., 1968), c. 30.
[ف. فينتوري، «العلاقات الإيطاليّة - الروسيَّة من العام 1750 وحتَّى العام 1825»، في: روسيا وإيطاليا: من تاريخ العلاقات الثقافيَّة والاجتماعيَّة الروسيَّة- الإيطاليَّة (موسكو، 1968)، ص 30].

(2) «Quel titolo d'imperatrice é un'alba di un Costantinopol: converebbe che la Francia si opponesse e ne riscaldasse la Porta» (B. Tanucci, *Lettere a Ferdinando Galiani*, vol. 2 (Bari, 1914), p. 13.).

دخلت سياسة روسيا الخارجيَّة في تناقضٍ قاسٍ مع البنى الطائفيَّة - الأيديولوجيَّة القائمة في أوروبا، حيث اعتبرت كلٌّ من فرنسا والنَّمسا ومالطا المسيحيَّة أنَّ من الخير لكل أوروبا مواجهة مخطَّطات روسيا المسيحيَّة التوسعيَّة، وساندت تركيا المسلمة. فقد كانت المبادئ المثبتة في معاهدات الصلح مع تركيا (ولا سيَّما معاهدة بساروفيتش في عام 1718) - التي نظَّمت العلاقات المتبادلة في منطقة حوض البحر المتوسِّط - تتعارض مع فكرة تحرير اليونان والحملة الصليبيَّة ضد الأتراك.

بيد أنَّ الدول الإيطالية وجدت نفسها خلال فترة 1768-1774، أشاءت ذلك أم أبت، منخرطةً بصورة مباشرة في عمليَّة تغيير موازين القوى العسكريَّة والسياسيَّة في حوض البحر المتوسِّط، وذلك بحكم موقعها الجغرافي وضعفها السياسي.

من المعروف أنَّ السياسيِّين الإيطاليِّين ظلُّوا حتَّى عام 1770، بل بعده، لا يصدِّقون أنَّ الأسطول الروسي قادر على الوصول إلى البحر المتوسِّط، ومن ثَمَّ ترسيخ وجوده في هذه المنطقة فترة طويلة، من دون خسائر تُذكر. وكان الإيطاليون يرون أنَّ الطموح اللامحدود هو الصفة الرئيسة لمشروعات الإمبراطورة في حوض البحر المتوسِّط، ما حرمها من تعاطفهم معها. وقد وصل الأمر في إيطاليا في عام 1770 إلى حدِّ الحديث عن دخول أوروبا عصرًا جديدًا، سيبدأ بالقضاء على الباب العالي العثماني، وبتوسُّع الإمبراطورية الروسيَّة الجذريِّ، بحيث تبسط سلطتها من الشرق الأقصى حتَّى الشرق الأوسط.

لم تتَّضح المبادئ التي اقتدت بها الدول الإيطاليَّة بصورة نهائيَّة حتَّى الآن، وما هي الدوافع التي حرَّكتها في علاقاتها مع روسيا، خلال الحرب الروسيَّة - التركيَّة بين عامي 1768 و1774[3]. ولم تُدرس أيضًا كيفيَّة تبدُّل مواقف هذه الدول التي كانت تتابع الأحداث في حوض البحر المتوسِّط الشرقي بانتباه (علمًا أنَّ درجة اطِّلاعها عليها كانت، عادةً، أدنى كثيرًا ممَّا كان عليه الأمر في بطرسبورغ).

---

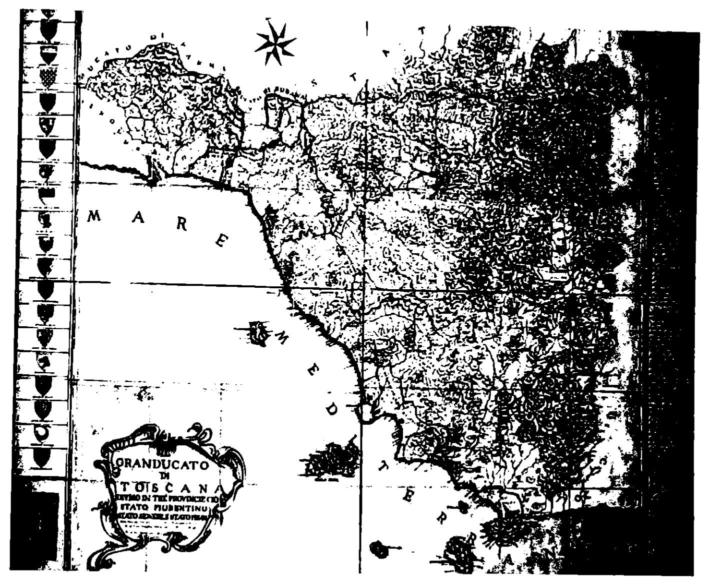
(3) G. Berti, *Russia e stati italiani nel Risorgimento* (Torino, 1957), pp. 54-55.

تعود العلاقات التجاريَّة بين روسيا وتوسكانة إلى القرن السادس عشر - بداية القرن السابع عشر. فقد بدأت العلاقات الرسميَّة بين الدولتين للمرَّة الأولى في عهد القيصر ألكسي ميخايلوفيتش: ففي عامي 1656 و1657، قام السفير الروسي إيفان تشيمودانوف والكاتب ألكسي بوستنيكوف برحلة إلى إيطاليا (إلى البندقيَّة، ومن ثَمَّ إلى ليفورنو). أمَّا البعثة الروسيَّة الثانية، التي كانت «توسكانيَّة» صرفًا، فكانت في عامي 1659 و1660، وضمَّت فاسيلي ليخاتشوف وإيفان فومين، وتألَّفت البعثة الثالثة (1663) من إيفان جليابوجوفسكي وإيفان دافيدوف. وقد هدفت البعثات الثلاث إلى إقامة علاقات اقتصاديَّة بين الدولتين بالدرجة الأولى، وأثارت فضولًا بالغًا لدى السكَّان المحليِّين، وذلك بصورة خاصة بسبب عادات الموسكوبيِّين «البربريَّة»، من وجهة نظر التوسكانيِّين.

كما يشير س. فيلياني، تكثَّفت العلاقات التجاريَّة الروسيَّة - التوسكانيَّة (المعتمدة على تصدير الكافيار الروسي عبر أرخانغيلسك، بوجهٍ خاص) على نحو ملحوظ بعد عام 1663 بالدرجة الأولى، بفضل دور الوساطة الذي قام به فرنشيسكو غواسكوني، ممثِّل إحدى أبرز العائلات التجاريَّة الفلورنسيَّة المقيم في موسكو. ويعود تاريخ استئناف العلاقات الدبلوماسيَّة بين روسيا وتوسكانة إلى عامي 1687 و1688، أي خلال الفترة التي أُوفد فيها فاسيلي بوستنيكوف إلى توسكانة، في عهد كلٍّ من الأرشيدوق كوزيمو الثالث ميديتشي والقيصرة صوفيا. بيد أنَّنا لا نعرف سوى القليل عن نتائج هذه البعثة، فنشاط بوستنيكوف لا يدلّ إلا على وجود العلاقات التجاريَّة التي أقيمت في الستينيَّات. ويُلاحَظ حصولُ تطور جديد في العلاقات الروسيَّة - الإيطاليَّة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، عندما توجَّه ممثِّلو أبرز أسر النبلاء الروس (وتحديدًا ب. أ. وف. أ. غوليتسين، وب. أ. تولستوي، وب. إ. كوراكين)، بأمر من بطرس الأول، إلى إيطاليا (إلى البندقيَّة[4] على نحوٍ خاصٍّ) لتلقِّي العلوم، وحين دُعِيَ الإيطاليُّون لزيارة

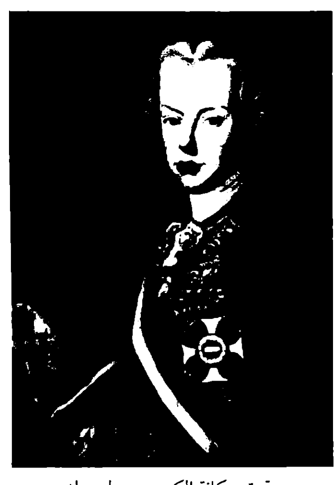
(4) يُنظر على وجه التحديد [«بطرس الكبير والبندقية»]: S. O. Androsov, «Петр Великий в Венеции,» in: *A Window on Russia: Papers from the V International Conference of the Study on Eighteenth-century Rissia, Gargnano, 1994* (Roma, 1966), pp. 19-27.

روسيا. وزار بعض الرحَّالة الروس، كبيوتر غوليتسين على سبيل المثال، بيزا وفلورنسا. وأرسلت بعثة روسية جديدة دبلوماسيَّة إلى إيطاليا (البندقيَّة وفلورنسا) بمبادرة من بطرس الأول أيضًا. وقد حصل ذلك في عامي 1697 و1698، وترأسها بوريس شيريميتوف.




أرشيدوقية توسكانة العظمى، مقسمة إلى ثلاثة أقاليم

كانت توسكانة في القرن الثامن عشر موضع اهتمام الرحَّالة الروس، بوصفها إحدى المحطات الأساسية في الجزء الإيطالي من الـ *Grand Tour* الأوروبي [الجولة الأوروبية الكبرى]. وواصلت العلاقات الدبلوماسيَّة تطورها أيضًا: ففي عام 1711، أقام الدبلوماسي الروسي سيميون ناريشكين بصورةٍ مؤقَّتة في فلورنسا. وفي القرن السابع عشر، اضطلع التجَّار الإنكليز والهولنديون، وتحديدًا البريطاني جون إيبدون (Hebdon)، بدورٍ خاصٍّ في تقارب روسيا وتوسكانة. فقد أصبح الإنكليز (المبعوث في توسكانة أوراس مان، القنصل في ليفورنو جون ديك، العميل الروسي في ليفورنو راذيرفورد)


دوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو

الوسطاء الأساسيِّين بين الإمبراطورة الروسيَّة وأرشيدوق توسكانة الكبير في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)[5]. عمومًا، على الرغم من الاهتمام المتبادل، يمكن اعتبار العلاقات الدبلوماسيَّة ما بين روسيا وتوسكانة متقطِّعة، أكثر ممَّا هي راسخة وثابتة (على عكس العلاقات مع البندقيَّة، مثلًا). كما لم تكن العلاقات التجاريَّة بين الدولتين أفضل حالًا؛ إذ كانت تمرُّ عادةً عبر التجَّار الإنكليز أو الهولنديِّين[6].

كانت مشاركة الوسطاء سمة مميِّزة أيضًا للعلاقات الدبلوماسيَّة بين فلورنسا والبلاط الروسي، في عهد أرشيدوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو، الذي حكم بين عامي 1765 و1790، ثم أصبح لاحقًا إمبراطورًا للنمسا تحت اسم ليوبولدو الثاني

---

(5) عن روسيا وتوسكانة في القرن السابع عشر، يُنظر: S. Villani, «Ambasciatori russi a Livorno e rapport tra Moscovia e Toscana nel XVII secolo,» *Nuovi Studi Livornesi*, vol. 15 (2008), pp. 37-96.

عن تاريخ العلاقات التجاريَّة بين توسكانة وروسيا في القرن السابع عشر، يُنظر: C. Ciano, *Russia e Toscana nei secoli XVII e XVIII: Pagine di storia del commercio e della navigazione* (Pisa, 1980), pp. 9-21.

يُنظر أيضًا: R. Risaliti, *Russi a Firenze e Toscana*, vol. 1 (Firenze, 1992).

(6) جدير بالذكر أنَّ مؤلِّف «قصَّة البحَّار فاسيلي كوريوتسكي» البطرسية أدرج في روايته موضوعًا عن وصول «التجار الروس» إلى «مملكة فلورنسا»، حيث جاءت «الأميرة هيراكليا» مع «وصيفاتها» بالزوارق لمعاينة بضاعتهم. وهكذا، فإنَّ أحلام الروس بالتجارة مع توسكانة تجاوزت إمكاناتهم الفعلية بوضوح! ويعود وصول أول سفينة روسيَّة إلى ليفورنو في عام 1582، ولا نعرف عنها سوى أنها نقلت حمولة من سمك الرنكة: Ciano, p. 14.

جدير بالذكر أنَّ الزيارة التالية للسفن التي كانت تحمل علم أندريفسكي إلى ليفورنو، حدثت في عام 1766. (أمل الازدهار): L. Donolo, «Il conte Aleksej Orlov e il pittore Jacob Philipp Hackert a Livorno, teatro virtuale della battaglia di Cesmé,» *Nuovi Studi Livornesi*, vol. 9 (2001), p. 107.

(1790-1792)[7]. وقد اضطلع المبعوث النَّمساوي الأمير جوزف ماريا لوبوكوفيتس (كان سفيرًا بين عامي 1763 و1777) بمهمَّة ممثِّل توسكانة في بطرسبورغ. وفي نهاية عام 1765، نشأت احتكاكات معيَّنة بين بطرسبورغ وفلورنسا، ارتبطت بشكل التخاطب بين الحاكمين[8]. فقد أرسل بيترو ليوبولدو - بتاريخ السادس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1765 - رسالة إلى كاترينا الثانية يخبرها فيها بأمر اعتلائه عرش توسكانة. تسلَّمت الإمبراطورة الوثيقة، لكنَّها سلَّمت ي. م. لوبوكوفيتس، عبر ن. إ. بانين وأ. م. غوليتسين، مذكِّرة خاصَّة (في السادس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1765)، أرسل الدبلوماسي النَّمساوي نسخة عنها إلى رئيس وزراء توسكانة ف. أورسيني دي روزنبرغ في السابع من كانون الثاني/ يناير 1766. وجاء في المذكِّرة أن الأرشيدوق أخلَّ بالمراسم المتَّبعة منذ أيام عاهل توسكانة السابق، والد بيترو ليوبولدو، الإمبراطور النَّمساوي فرنسيس الأول (المتوفَّى في الثامن عشر من آب/ أغسطس 1765). فأولًا، ينبغي أن تجري المراسلة بين فلورنسا وبطرسبورغ باللغة اللاتينيَّة وليس بالإيطاليَّة، نحو ما فعل بيترو ليوبولدو. وكان على الأرشيدوق، ثانيًا التوجُّه إلى الإمبراطورة على النحو الآتي:

«Serenissima et Potentissima Princeps, Totuis Russiae Imperatrix et Autocratix, Domina cognata colendissima»

(«صاحبة السموِّ والجبروت، إمبراطورة عموم الرُّوسيا صاحبة السلطة المطلقة، السيِّدة الأخت المبجَّلة» - باللغة اللاتينيَّة)

وليس Signora mia sorella e Cougina («السيدة وابنة العم» - بالإيطاليَّة)،

(7) من المهم الإشارة إلى أنَّ بيترو ليوبولدو يدين، ربما، بواحد من الاسمين اللذين يحملهما، للإمبراطور الروسي بطرس الأكبر، والد الإمبراطورة إليزابيت التي كانت على سدة الحكم في عام 1747، حين حملت بيديها أرشيدوق توسكانة المقبل من جرن المعموديَّة (أمُّه في المعموديَّة). يُنظر:
F. Becattini, *Vita pubblica e privata di Pietro Leopoldo d'Austria Granduca di Toscana poi Imperatore Leopoldo II*, Seconda edizione (Siena, 1797), p. 18.

(8) وردت قصة عام 1765 في كتاب بيرتي **روسيا والدول الإيطاليَّة في حقبة توحيد إيطاليا**، الصادر في موسكو في عام 1959، ص 68-69. غير أن بيرتي لا يورد النص الأصلي للوثائق الدبلوماسيَّة. ونحن هنا نسد هذه الفجوة على أساس المواد الأرشيفية. عن قصة عام 1765، يُنظر:
Berti, pp. 52-53.

Majesté Impériale («صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة»)، وليس Majesté فحسب («صاحبة الجلالة» - بالفرنسيَّة)؛ وكان من الضروري توقيع الوثيقة بـ Obsequentissimus Cognatus et Servus (الأخ والخادم البالغ الإجلال» - باللاتينيَّة)، وليس Affezionatissimo Fratello, Servitore e Cugino («الأخ والخادم وابن العم المخلص» - بالإيطاليَّة). وكانت انتقادات كاترينا نابعة من رفض بيترو ليوبولدو وضع ألقابه الخاصة تحت نصِّ الرسالة مباشرة، وكذلك استخدامه المصطلح المجازي «la Nazione Moscovita» (أمة موسكو)، الأمر الذي يتناقض، بحسب رأي الإمبراطورة، مع التكوين الفعلي لإمبراطوريتها[9].

في الرسالة الجوابيَّة الموجَّهة إلى لوبوكوفيتش المؤرَّخة في الخامس عشر من شباط/ فبراير، طلب روزنبرغ الإعراب عن الشكر لكاترينا على موقفها العطوف تجاه الأرشيدوق (خصوصًا في ضوء المنافع المتبادلة المحتملة من التجارة والمواصلات البحريَّة)، وأبلغه بالمذكِّرة الجوابيَّة لبلاط سيِّده. فقد أوضح بيترو ليوبولدو أنه كتب بالإيطاليَّة إلى جميع الملوك الأوروبيِّين الآخرين، ولم يلقَ من جانبهم احتجاجًا (بل على العكس، إذ كتب الملوك لبيترو ليوبولدو بلغاتهم الوطنية). وفسَّر الاختلافات في الألقاب والتخاطب لا بوصفه أرشيدوق توسكانة فحسب، بل بوصفه ملكًا على المجر وبوهيميا، ولذا وضع نفسه على قدم المساواة مع كاترينا. أمَّا بخصوص الهفوات الصغيرة الأخرى، فقد وعد ليوبولدو بتجنُّبها مستقبلًا. وأمَّا تعبير la Nazione Moscovita فقد استخدمه على غرار استخدام «la Nazione Inglese»

---

(9) ASF, Segreteria e Ministro degli Esteri, Pezzo 2332, f. 498-500.

كانت ردَّة فعل كاترينا على المذكِّرة على النحو الآتي: «بما أنَّ لوبوكوفيتش ليس موفدًا من قِبَل الأرشيدوق، فلا أعتقد أنَّ ثمَّة حاجة إلى تخصيصه بمقابلة، وبإمكانه تسليم هذه الرسالة للوزراء، أو لي شخصيًا ولكن من دون مقابلته، إذا لم تجدوا حلًّا أفضل. لكن لا يجوز ترك الأمر من دون ملاحظات؛ إذ إنَّ الرأس المتوَّج لا يُعطى لقب soeur (الأخت)، مع أنَّه أضاف هنا et cousine (والقريبة)، وهو ما أطلب توضيحه» (قرار مكتوب بخط يدها في كانون الأول/ ديسمبر 1765: *СбРИО*, t. 57 (СПб., 1887), c. 418.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 57 (سان بطرسبورغ، 1887)، ص 418].

يُنظر أيضًا: Berti, pp. 52-55.

(الأمة الإنكليزية) بالنسبة إلى المملكة البريطانية كلها[10]. قُبلت توضيحات الأرشيدوق، على الرغم من أنَّ تدقيق شكلّيات التخاطب بين الجانبين في المراسلات استمرَّ في ما بعد[11].

باستثناء الحوار المذكور عبر المذكِّرات، كانت المراسلات بين فلورنسا وبطرسبورغ ذات طابعٍ رسميٍّ صرف، وتناولت تأكيد الصداقة المتبادَلة[12]، والأخبار عن أحداث البلاط (التّهاني والتّعازي)، وعن ولادة الأطفال[13]، وحالات الزواج[14].

حاولت روسيا في عام 1764 وضع الطائفة الأرثوذكسيَّة في ليفورنو تحت حمايتها[15]، لكنَّ كاترينا اصطدمت بمقاومة من جانب الإمبراطور النَّمساوي،

---

(10) ASF, Segreteria e Ministro degli esteri, Pezzo 2332, f. 504-507.

(11) Ibid., f. 510-510 verso:

رسالة روزنبرغ إلى لوبوكوفيتش بتاريخ 22 شباط/ فبراير 1766، وكذلك رسالة لوبوكوفيتش إلى المركيز دي بوت بتاريخ 15 نيسان/ أبريل 1766: Ibid., f. 512-512 verso.

وإلى روزنبرغ بتاريخ السادس من أيار/ مايو 1766: Ibid., f. 514-515.

يُنظر أيضًا: *СбРИО*, t. 109 (СПб., 1901), c. 177 (донесение Лобковица Кауницу от 8 апреля 1766 г).

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 109 (سان بطرسبوغ، 1901)، ص 177 (تقرير لوبوكوفيتش إلى كاونيتس بتاريخ الثامن نيسان/ أبريل 1766)].

(12) رسائل لوبوكوفيتس من موسكو إلى فلورنسا بتاريخ التاسع والخامس والعشرين من آذار/ مارس 1767 (Ibid., f. 523,525) والخامس من نيسان/ أبريل 1768 (Ibid., f. 529)، ورسائل روزنبرغ إلى لوبوكوفيتس بتاريخ الرابع من أيار/ مايو 1767 من بيزا (Ibid., f. 527) والحادي والعشرين من تموز/ يوليو 1769 (Ibid., p. 537).

(13) رسالة روزنبرغ إلى لوبوكوفيتس بتاريخ الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير 1766 (Ibid., f. 502)، والرسائل الجوابية بتاريخ التاسع عشر من نيسان/ أبريل 1768، والسادس عشر والعشرين من حزيران/ يونيو 1769 (Ibid., f. 531, 533, 535).

(14) رسالة لوبوكوفيتس إلى روزنبرغ بتاريخ الرابع من كانون الثاني/ يناير 1774: ASF, Segreteria e Ministro degli esteri, Pezzo 2206.

والرسالتان الجوابيتان في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر والثلاثين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1733.

(15) كتبت كاترينا في رسالتها إلى المبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين بتاريخ الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر 1764: «أرسل اليونانيُّون الأرثوذكس الذين يعيشون في مدينة ليفورنو رسالة يطلبون فيها وضع كنائسهم التي بنوها هناك تحت حمايتنا، وطلبوا أن نرسل إليهم ميثاقًا يؤكِّد ذلك، وأن=

الذي علَّل قراره برفض منح روسيا الحقّ في الحماية، وأنَّ ما من دولة أو طائفة أخرى في توسكانة تتمتَّع بمثل هذه الامتيازات[16].

على خلفيَّة طابع العلاقات المتبادلة الشكلي بين الدولتين، يمكن تقدير مدى حدَّة التقارب «الفعلي» بين روسيا وأرشيدوقيَّة توسكانة وجذريَّته، ابتداءً من عام 1769 حينما دخلت هذه المنطقة فلك السياسة الخارجية الروسيَّة، بسبب الحرب ضد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، بعدما غدت المكان الرئيسي لتمركز أسطول حملة الأرخبيل الروسيَّة[17]. فأصبحت بيزا المقرَّ الفعليَّ لقائد الحملة

---

= يُزوَّدوا بالقوانين الكنسيَّة. نحن سنلبِّي بعطف وطيب خاطر التماس إخوتنا اليونانيين، إخوة الدين، ولكن نودُّ قبل ذلك إرسال الميثاق الذي طلبوه، وإبلاغ صاحب الجلالة الإمبراطور بذلك، بوصفه أرشيدوق توسكانة، ومعرفة رأيه في الأمر. عليكم شرح ذلك لأولئك الأشخاص المكلَّفين إدارة أرشيدوقية توسكانة، وإطلاعهم على طلب اليونانيين الليفورنيِّين، وعلى عزمنا تلبية هذا الطلب، وذلك لإبلاغ صاحب الجلالة الإمبراطور بهذا الأمر. أمَّا بخصوص الميثاق المذكور، الذي نعتزم إصداره، فنحن نرسل إليكم نسخة عنه، ونحن بانتظار إخبار من طرفكم بخصوص موقف الإمبراطور منه، وعمَّا إذا كان سيكلِّف نفسه عناء العمل ليصبح هذا الميثاق ساري المفعول في ليفورنو»: *СбРИО*, t. 57, c. 16-17.
[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 57، ص 16-17].

(16) يُنظر تقرير د. م. غوليتسين من فيينا إلى بطرسبورغ في العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1764: «يبدو من الجواب الذي تلقاه، أنَّه بالرغم من تلكُّؤ الإمبراطور بتوضيح رأيه في هذه المسألة، فهو يواجه موقفًا محرجًا. وقد لاحظت أيضًا من خلال الأحاديث غير الرسمية مع أعضاء إدارة توسكانة، أنه يعتبر هذا الأمر شيئًا جديدًا، لأنَّ القوانين [المقصود الطوائف (المترجم)] الكنسية الأخرى في ليفورنو لا تتمتعً بأيٍّ حماية من دول أخرى، وأنَّ الكنيسة اليونانية مستقلة من حيث ممارستها شعائرها الكنسية، لِمَا تتمتَّع به من امتيازات منحها إياها الإمبراطور، بوصفه أرشيدوق توسكانة؛ لذا ليس هناك من أسباب تجعل اليونانيِّين الذين يعيشون هناك يخشون من أيِّ تدخل» (المرجع نفسه، ص 143).

(17) ظهر ممثِّل روسيا الدائم في بلاط أرشيدوق توسكانة أول مرة في عام 1776، وهو الكونت ديميتريو موتشينيغو (المفوَّض البحري العام في البداية، والقائم بالأعمال ابتداء من عام 1783، ومبعوث روسيا المفوَّض ابتداء من عام 1785؛ ليُصبح المبعوث النَّمساوي إ. زيديلير في عام 1785 نفسه وزيرًا مفوَّضًا لتوسكانة في روسيا)، لمزيد من التفصيل، يُنظر: Историко документальный департамент МИД России, Россия и Европа в XVIII.
[قسم التاريخ والوثائق في وزارة الخارجية الروسيَّة، روسيا وأوروبا في القرن الثامن عشر]، في: https://bit.ly/2KdGu4b
يُنظر قائمة المبعوثين الروس في توسكانة: ASF, Imperiale e Reale Corte, Pezzo 2246.
عن الكونت د. موتشينيغو يُنظر: [C. P. Воронцовm] Граф Моцениго, «Эпизод из Первой турецкой войны при Екатерине II-й, рассказе графа С. Р. Воронцова,» in: *Русский архив*, 1878, no. 12. =

الكونت أ. غ. أورلوف، وتحوَّل مرفأ ليفورنو الحر[18] إلى محطَّة لرسو السفن العسكريَّة وسفن النقل الروسيَّة.

***

كما كان متوقَّعًا، استقبلت السلطات التوسكانيَّة، التي لم تكن ترغب (كما العديد من الحكومات الإيطالية الأخرى) في التورُّط في النزاع بين كلٍّ من روسيا وتركيا، وصول كلٍّ من ألكسي وفيودور أورلوف (تحت الاسم المستعار «أوستروفوف» في البداية) بحذر. ففُرضت على تحرُّكات أ. أورلوف وحاشيته رقابة مُشدَّدة في ليفورنو وبيزا[19]. وقد لخَّص الوزير الأول الكونت أورسيني دي

---

= [[س. ر. فورونتسوف] الكونت موتسينيغو، «مشهد من الحرب التركيَّة الأولى في عهد كاترينا الثانية، في حديث الكونت س. ر. فورونتسوف»، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، العدد 12].

كانت لدى الكونت د. موتشينيغو منذ ما قبل الحرب نية الدخول في خدمة الروس. قدَّم خدمات جُلَّى إلى روسيا في أثناء الحرب، حيث أسهم في تجنيد اليونانيِّين، وزوَّد أ. غ. أورلوف بالخرائط والمرشدين البحريين. وفي أثناء وجوده في جزيرة زانت، كان لديه عملاء في مورية وألبانيا ودلماسيا. وقدَّم معلومات إلى أورلوف عن الوضع في حوض البحر المتوسِّط في جزيرة كانديا (كريت) وتونس.

(18) كتبت كاترينا إلى أورلوف في الأمر السَّامي بتاريخ الخامس عشر من تموز/ يوليو 1769: «بما أنَّ ليفورنو ميناء مفتوح للجميع، فلا يمكن أن تكون موصدة في وجهكم، طالما أنَّ العمائر البحريَّة العسكريَّة يمكن أن تستفيد من الحرِّية المطلقة ومن أفضليات المرفأ الحر. والأمثلة على ذلك كثيرة في الحروب الأخيرة بين إنكلترا وفرنسا. وهي يمكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة إليكم»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 371-372.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 371-372].

في الخامس من حزيران/ يونيو 1770، ورد خبر مماثل في الأمر السَّامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال إ. ن. آرف: «بما أنَّ ليفورنو ميناء مفتوح للجميع، فلا يمكن أن تكون موصدة في وجهكم، طالما أن العمائر البحريَّة العسكريَّة يمكن أن تستفيد من الحرِّية المطلقة ومن أفضليات المرفأ الحر. لقد رست سفن عمارتنا البحريَّة الأولى هناك، والأمثلة على ذلك كثيرة في الحروب الأخيرة بين إنكلترا وفرنسا. وهي يمكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة إليكم»: *СбРИО*, t. 1 (СПб., 1867), с. 129; см. таюже рескрипт на имя контр-адмирала С. К. Грейга от 9 октября 1773 г.: *СбРИО*, t. 118 (СПб., 1904), с. 475.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 129. يُنظر أيضًا: الأمر السَّامي الموجه إلى الكونت -أميرال س. ك. غريغ بتاريخ التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1773: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 118 (سان بطرسبورغ، 1904)، ص 475].

(19) كتب أ. غ. أورلوف في رسالته إلى غ. غ. أورلوف (1769): «الحقيقة، أقول إنني في وضع صعب جدًا، فأحيانًا لا أجد مكانًا أضع رأسي فيه؛ الجواسيس كثر في كل مكان وفي كل المرافئ، الكل يراقبني عن كثب، وكثيرون يزورونني. بإمكان الأسطول الرسو في كل الموانئ الحرة، بما في ذلك =

روزنبرغ، في رسالته إلى الكونت كاونيتس بتاريخ السابع والعشرين من أيار/ مايو 1769 من فلورنسا، مخاوف الحكومة التوسكانيَّة، على النحو الآتي:

«اضطرَّ الأخوان الموسكوبيَّان أورلوف إلى مغادرة البندقيَّة مع حاشيتهما بأمرٍ من الحكومة المحلِّية، للاشتباه بقيامهما بتجنيد الجنود والفنانين لخدمة البلاط الروسي. فقد استقرَّا في بيزا، وأثبتت زياراتهما المتكرِّرة إلى جنوى وليفورنو والبندقيَّة وإلى أماكن أخرى صحَّة الاشتباه بأنهما كانا يدبِّران مكيدة مُدوِّية. ثم تأكَّد لي أنَّ التحقيقات اللاحقة لحكومة البندقيَّة أثبتت أنَّ عمليَّة التجنيد التي قام بها الأخوان أورلوف كانت تهدف إلى تجهيز السُّفن ضد الباب العالي العثماني وراغوزيا، لمصلحة يونانيِّي دلماسيا وإليريا، المخلصين لروسيا والمتعاطفين معها. وبالفعل، ظهر في بيزا عدد كبير من اليونانيِّين والسلافيِّين، أغلبيتهم من البحَّارة المحترفين، وتوجَّهوا جميعًا إلى الأخوين أورلوف. وتردَّدت في ليفورنو شائعات مفادها أنَّهم كانوا مكلَّفين بتجهيز سفينة روسيَّة»[20].

بالفعل، اجتمع في توسكانة خلال ربيع وصيف عام 1769 عدد كبير من اليونانيِّين والألبان (كثيرون منهم من رعايا جمهوريَّة البندقيَّة)، الذين كانوا يستعدون للأعمال الحربية المقبلة في الأرخبيل بنشاط، ويتجنَّدون في خدمة

---

= ليفورنو كونها مرفأ حرًّا، وثمَّة لدى الخيرين من ماين مرافئ كثيرة في متناول أيديهم. أمَّا أنا فإنني أتوكل على الله في العمل بتأنٍّ في كل مكان، فأنا لا تنقصني الشجاعة»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 364.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 364].

يُنظر أيضًا: F. Pera, *Nuove curiosità livornesi inedite o rare trovate e raccolte da Francesco Pera* (Firenze, 1899), pp. 332-333.

(20) «Due fratelli Orloff Moscoviti, con altri loro nazonali di lor compagnia, furono fatti partire da Venezia per ordine di quel governo, come sospetti d'ingaggiar soldati ed artisti in servizio della corte di Russia. Vennero questi a stabilirsi in Pisa, e le frequenti spedizioni che di là facevano a Genova, Livorno, Venezia, ed altrove, confermarono il sospetto che avessero ordinato qualche rumoroso intrigo. Venni dipoi gl'ingaggi fatti dai fratelli Orloff avevano per oggeto l'armamento di bastimenti, per costiggiare contro gli Ottomanni ed I Ragusei, in favore dei Greci Dalmatini ed Illirici, devoti e participanti alla Russia; e che tale armamento si sarebbe seguito in Livorno o in Genova. Si son veduti inffati giungere a Pisa molti Greci e Schiavoni di professione, marinari per la maggior parte, e tutti a loro diretti. Molti di loro sono stati mandati a Genova sopra legni Genovesi, e non è stata a Livorno occulta la voce, che dovessero questi equipaggiar là un bastimento Russo» (Pera, p. 333).

روسيا[21]. وفي أيار/مايو من السنة نفسها، علم حاكم ليفورنو ف. بوربون ديل مونتي من تجارٍ راغوزيين - حلفاء الباب العالي العثماني منذ القدم - أنَّ أورلوف يحاول شراء السَّفينة الإنكليزيَّة «ريتشيل» التي يقودها القبطان ماكارديل، للحملة المرتقبة، وذلك بوساطة من القنصل البريطاني في ليفورنو. وتقدَّمت القنصلية الراغوزية، التي تخوَّفت من استيلاء الأسطول الروسي على سفنها، وكان خوفها مُسوِّغًا، بشكوى رسميَّة، فأمرت السلطات الفلورنسيَّة بوربون ديل مونتي بالعمل على إعاقة شراء السفن بشتَّى الوسائل. وكتب أورسيني دي روزنبرغ إلى كاونيتس في فيينا، في الرسالة الآنفة الذكر المؤرَّخة في السابع والعشرين من أيار/مايو يقول: «بقي اليونانيُّون والسلافيُّون الآخرون في ليفورنو، التي وصلها عدد من الضباط الروس، الذين لم يقدِّموا أنفسهم إلى الحاكم المحلِّي ولم يطلعوه على هدف زيارتهم؛ وثمَّة شكوك قوية في أنَّهم ينوون سرًّا تجهيز السفينة الحربية «ريتشيل» الإنكليزيَّة، بالتواطؤ مع القنصل الإنكليزي (ج. ديك - المؤلف)، بحيث سترفع العلم الروسي بعد خروجها من هذا المرفأ (ليفورنو - المؤلِّف)»[22].

قبل يوم من ذلك، في السادس والعشرين من أيار/مايو، أبلغ قنصل

---

(21) F. Venturi, *Il Settecento Riformatore, vol. 3: La prima crisi dell'Antico regime (1768-1776)* (Torino, 1979), pp. 23-29.

لم يضعف تدفُّق السلافيين واليونانيِّين إلى توسكانة طيلة عام 1769. ففي صبيحة العشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1769، مثلًا، وصل ثمانية سلافيِّين من تشيفيتا بيكايا إلى توسكانة على متن سفينة صغيرة، وكانوا ينوون الانخراط في خدمة الروس، فمنعتهم السلطات التوسكانيَّة من دخول المدينة، ما اضطرَّهم إلى انتظار المسؤول الروسي خارج ليفورنو: ASV, Inquisitori di Stato. Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

[تقرير قنصل البندقيَّة في ليفورنو ف. بيكي بتاريخ العشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1769].

كما يظهر من تقرير بيكي بتاريخ السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1769، فإنَّ القسم الأكبر من مواطني البندقيَّة من ذوي الأصول السلافيَّة كانوا موجودين في بيزا، على مقربة مباشرة من ألكسي أورلوف، الأمر الذي ضمن أمنهم (ASV, Inquisitori di Stato).

(22) «Altri ne sono restati in Livorno, dove sono comparsi alcuni uffiziali Russi, sensa essersi presentati a quel governatore, e senza aver dato conto di loro ; e dove si ha bastanza motivo per non dubitare, che si volesse segretamente armare in guerra, di concerto col console Inglese, una nave di quella bandera detta *rachella*, la quale avrebbe inalberta la bandera Russa, sortira che fosse da quel Porto» (Pera, p. 333).

البندقيَّة في ليفورنو فرنشيسكو بيكي في تقريره أنه لم تبق في هذا المرفأ سفينة واحدة تتبع الأسطول الروسي[23]. وفي السابع والعشرين من أيار/ مايو كتب أورسيني دي روزنبرغ إلى ممثِّل فلورنسا في البندقيَّة دومينيكو كوتيني، على وجه السرعة، أنَّ من الضروري التأكيد للبنادقة على أنَّه لا خطر من ظهور السفن التي استأجرها الأخوان أورلوف تحت العلم الروسي في ليفورنو. كانت قوانين ليفورنو لا تسمح بتسليح سفن الدول المتحاربة. لكنْ، إذا اشترى الأخوان أورلوف سفنًا تجاريَّة في ليفورنو مع فريق يتناسب وهذا النوع من السفن، واقتادوها إلى مرافئ أخرى لتسليحها، فإنَّ سلطات توسكانة لا تملك حقَّ منعهما من ذلك، والمسؤولية في مثل هذه الحال تتحمَّلها الدول الواقعة فيها هذه المرافئ[24]. وأُبعدَ خلال تلك الفترة من توسكانة بعض اليونانيين - الخطرين من وجهة نظر السلطات - ومن بينهم على وجه التحديد المشارك المعروف في حملة مورية لاحقًا بانايوتي ألكسيانو[25].

غير أنَّ روزنبرغ عرض جوهر المسألة بنبرة مغايرة بعض الشيء، في رسالته الآنفة الذكر إلى كاونيتس المؤرَّخة في السابع والعشرين من أيار/ مايو، حيث أشار إلى أنَّ بيترو ليوبولدو كان مضطرًّا سرًّا «occult» إلى إعاقة عمليَّة تسليح الأخوين أورلوف السفن، وذلك لسببين: فهو، **أولًا**، سعى إلى حماية مصالح رعاياه، لأنَّ تجارة توسكانة مع المشرق كانت تتمُّ بواسطة السفن الراغوزية، التي كان الأسطول الروسي يهدِّدها، بحسب ما كانوا يخشون في ليفورنو. **وثانيًا**، أنَّ تصرفات الأرشيدوق أملتها ضرورة صيانة قوانين ليفورنو، لأنَّ حياد المرفأ كان يسهم في ازدهارها. فقد كان من شأن التنازل أمام الروس أن يغيِّر موازين القوى في المنطقة، ويثير سخط الدول البحريَّة الأخرى[26]. وفي المحصِّلة، كما كتب روزنبرغ، مُنعت السفينة ريتشل من مغادرة مرفأ ليفورنو، وجرى تحذير الأشخاص المعنيِّين من مغبَّة الإخلال بقوانين الأرشيدوقيَّة. وفي

---

(23) ASV, Inquisitori di Stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

(24) ASF, Segreteria e Ministro degli esteri, Pezzo 2317.

(25) Donolo, pp. 108-109; Venturi, p. 33.

(26) Pera, p. 333.

الوقت نفسه، أتاح الحظر للسلطات التوسكانيَّة إمكان التواصل مع البلاط في فيينا، وتلقِّيها التعليمات بشأن الأعمال اللاحقة (على الرغم من أنَّ روزنبرغ سوَّغ تأخُّره بإبلاغ كاونيتس بما جرى قبل ذلك، مستندًا إلى تطوُّر الأحداث بسرعة عاصفة). فضلًا عن ذلك، كان من المفترض إطلاع قنصل توسكانة والباب العالي العثماني بما يجري (وقد ترك روزنبرغ مسألة اتِّخاذ القرار بشأن إطلاع الباب العالي، لفيينا)[27]. وفي الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو 1769، أجاب كاونيتس روزنبرغ بأنَّ السفير النَّمساوي في القسطنطينية أبلغ الباب العالي بما يحدث في ليفورنو، مؤكِّدًا تمسُّك الأرشيدوق التوسكاني بفكرة الحياد[28]. وفي الوقت نفسه، أبلغ المبعوث النَّمساوي في روسيا ي. م. لوبوكوفيتس فيينا في الحادي عشر من آب/ أغسطس 1769 أنَّ سان بطرسبورغ غير راضية عن أعمال أ. غ. أورلوف في بيزا، نظرًا إلى عدم فاعليتها[29].

هكذا، فقد كان موقف أرشيدوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو من الحضور الروسي في ليفورنو وبيزا ذا وجهين. فهو، من جهة، استقبل الضبَّاط الرُّوس في فلورنسا، وشارك في الأعياد التي كانوا ينظِّمونها، وتعامل معهم بمودَّة وولاءٍ في الظاهر؛ إلا أنَّه لم يقدم، من جهةٍ أخرى، قبل عام 1770 على دعم مبادرات الأخوين أورلوف لإقامة قاعدة عسكرية روسيَّة في دولته. وإذ عمل بيترو ليوبولدو باستمرار على تنسيق موقفه مع موقف شقيقه، إمبراطور النَّمسا جوزف الثاني، فإنه سعى إلى خلق انطباع يوحي بحياده الشخصي، فأعطى قنصل توسكانة في راغوزيا في الثامن والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، تعليمات تقضي بنفي أيِّ شائعة بشأن نشاط العملاء العسكريين

(27) Ibid., pp. 333-334.

(28) Ibid., p. 333.

وفي المحصِّلة، تمكَّنت السفينة الإنكليزيَّة، كما تردَّد، من مغادرة ليفورنو ورفعت العلم الروسي.

يُنظر: V. Ivancevic, *Pisa e Livorno nel confllito russo-Ragusso del 1769-1775* (Pisa, 1967), p. 29 (estratto dal N5-6- Ano III della «Rassegna periodica di informazioni del commune di Pisa»).

(29) *СбРИО*, t. 109, c. 393.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 109، ص 393].

الروس في توسكانة[30]. وقُدِّمت توضيحات مشابهة للحكومة الفرنسية في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر[31].

أصبح واضحًا في صيف عام 1769 أنَّ على أورلوف تعيين ممثِّل رسمي في توسكانة، وإذا أمكن في البلاطات الإيطاليَّة الأخرى أيضًا (باستثناء البندقيَّة، التي كان المركيز ب. ماروتسي يعمل فيها حينذاك). ومنح هذه الإمكانيَّةَ الأمرُ السَّامي المُرسَل من كاترينا باسم أورلوف في الحادي عشر من آب/ أغسطس 1769 (بحسب التقويم القديم)[32]. وكان من المفترض أن يختار أورلوف القناصل أو العملاء من بين الأعيان المحليِّين، أو من تجَّار البلاد الأخرى «الذين يقبلون الصلاحيات التي قد تحصل عليها بيوتاتهم من حمل هذا اللقب العمومي، من دون أن يطالبوا براتبٍ ماليٍّ، باستثناء ما يمكن أن يُدفع من حين لآخر لهذا الشخص أو ذاك ممَّن يُختارون، وذلك لضرورات تأمين عمل لجنتكم بصورة خاصة...»[33]. وتمثَّلت الخطوة الأولى والأهمُّ في هذا الاتِّجاه بتعيين الإنكليزي روبرت راذيرفورد في بيزا في الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769 (بحسب التقويم الجديد)، عميلًا لروسيا في توسكانة («في توسكانة وليفورنو»، بحسب ما جاء في التفويض، وبراتب وأموال للإنفاق على احتياجاته)[34]. وكان على راذيرفورد - الذي اقترحته

(30) ASF, Segreteria e Ministro degli esteri, Pezzo 2341.

(31) Pera, pp. 336-337.

(32) كتب أ. أورلوف لشقيقه غريغوري (في عام 1769) عن ضرورة أن يكون لديه رجله «الخاص» في توسكانة: «لقد كتبت سابقًا عن القناصل، فثمَّة حاجة إليهم، ويمكن العثور هنا بين إخواننا في الدين على العديد من الأشخاص الجيدين، ممَّن لن يطالبوا بتقاضي رواتب. فهلَّا أرسلتم أوراق اعتماد من دون ذكر الأسماء، بحيث يمكن إضافتها هنا. وأرسلوا أيضًا رخصًا للقراصنة، فهؤلاء لا يمكن أن تعطيهم شيئًا من دون كفالة، وثمَّة حاجة إلى وجود قناصل في ليفورنو، التي هي من أعمال توسكانة، وفي أنكونا الباباوية، وفي تريستي التابعة لفيينا، وفي بورت ماغون الإنكليزية، وفي أماكن أخرى في المرافئ الحرة أيضًا إذا اقتضى الأمر». *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 364.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 364].

(33) *СбРИО*, t. 1, c. 22.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 22].

(34) نستخدم هنا نسخة عن وثيقة التعيين التي أرسلها ب. ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين ضمن =

البعثة الدبلوماسيَّة البريطانية في الأرشيدوقيَّة على أورلوف[35] - العمل على تزويد الأسطول الروسي بالموارد الماليَّة (القيام بدور الوسيط المسؤول بين أورلوف وبين مصرفيِّي لندن وأمستردام والبندقيَّة)، وشراء المؤن والأسلحة، وكذلك تنفيذ أيِّ مهمَّات تكلِّفه بها القيادة البحريَّة الحربيَّة الإمبراطوريَّة[36].

صار نشاط أورلوف أكثف مع اقتراب العمارة البحريَّة الحربيَّة الروسيَّة الأولى، بقيادة الأميرال غ. أ. سبيريدوف من شواطئ إيطاليا، الأمر الذي أثار قلق حكومة توسكانة من دون شك. ودفعت المعلومات عن وصول سفن الأسطول الروسي إلى بورت ماغون سلطات فلورنسا، إلى التأكيد مجدَّدًا على التزامها الحياد. فأُبلِغَ الآباتي ر. نيقولي، مبعوث الأرشيدوق الكبير إلى باريس في الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1769 بتحرُّكات السُّفن الروسيَّة، وبالسعي إلى دعم استقلال المرافئ التوسكانيَّة، وبالدرجة الأولى ليفورنو. وكما في التعليمات إلى مبعوث توسكانة الخاص في البندقيَّة، أكَّدت السلطات التوسكانيَّة مجدَّدًا أنَّ للأسطول الروسي كامل الحقِّ في التزوُّد بالمؤن في ليفورنو، وفقًا للقوانين المحلِّية، لكن يُمنع الأخوان أورلوف من تجنيد الناس منعًا باتًّا، وستراقب الحكومة ذلك مراقبةً دقيقة[37].

على أنَّه مع النجاحات الكبيرة الأولى التي حقَّقها الجيش والأسطول الروسيان (في عام 1770، بصورة خاصة)، أصبحت علاقة السلطات التوسكانيَّة بأورلوف ورجاله أسلس. ولم يفوِّت الأرستقراطيُّون الروس فرصةً

---

= الرسالة المؤرخة في 13-14 حزيران/ يونيو 1770: РГАДА, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 24-24 об. [أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، الرقم التسلسلي 2045، الورقة 24 - ظهر الورقة 24 (النص الأصلي بالفرنسية)].

(35) وصف القنصل البريطاني في ليفورنو، في رسالة أرسلها إلى ب. ماروتسي، راذيرفورد جون ديك بتاريخ الخامس عشر من حزيران/ يونيو 1770، أنه «صديق له» (مقتبسة من النسخة الملحقة برسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 13-14 حزيران/ يونيو 1770: المرجع نفسه، الورقة 26- ظهر الورقة 26 [النص الأصلي بالفرنسيَّة]).

(36) المرجع نفسه، الورقة 24 - ظهر الورقة 24.

(37) ASF, Segreteria e Ministro degli esteri, Pezzo 2334.

لاسترضاء العائلة المالكة[38]. وفي شتاء 1770-1771 تطبَّعت علاقات أ. أورلوف بالسلطات المحلِّية بصورة نهائيَّة. وفي التاسع من كانون الأول/ ديسمبر 1770 أصدر الأرشيدوق بيترو ليوبولدو أمرًا إلى حاكم ليفورنو بوربون ديل مونتي، يقضي بتقديم كل المساعدة إلى أورلوف[39].

كانت مسألة البحث عن قواعد لتصليح سفن الأسطول الروسي من ضمن

---

(38) فعلى سبيل المثال، وصل أورلوف إلى فلورنسا في العاشر من آذار/ مارس 1770 لمقابلة أرشيدوقة توسكانة ماريا ليودوفيكا، ابنة ملك إسبانيا كارل الثالث، حيث قدَّم لها هدية عبارة عن خاتم مرصع بالماس: *GT*, 1770, 11. 42; *NM*, 1770, 21. 167; Donolo, p. 114.

لمزيد من التفصيل عن ذلك يُنظر الفصل السابع.

(39) Ibid., p. 119.

تؤكِّد الرسالة السرية التي بعث بها س. س. زينوفييف إلى سفير روسيا الجديد في إسبانيا، بتاريخ التاسع عشر من أيار/ مايو 1771، على استقرار العلاقات الروسيَّة - التوسكانيَّة: «يمكن القول عمومًا عن الدول الإيطالية أنها، رغم أنه لم تكن هناك أي علاقات معها في الماضي، وأنها لم تكن تعرف شيئًا عن روسيا، ولكن ما إن ظهرت الأساطيل هنا، في البحر المتوسِّط، وما إن وصل قادتنا العسكريون إلى مرافئها، وبدأ مواطنونا الآخرون يجولون في أرجاء إيطاليا كلها، ويتصرفون بشكل لائق، وبعدما تحققت الانتصارات الأولى على الأتراك، حتَّى أخذت هذه الدول تُظهر كل علامات الاحترام والتوقير لأمتنا. وتميز بصورة خاصة في هذا المجال أرشيدوق توسكانة، باستقباله الودود لكل القادة الذين زاروه، والتعامل مع مطالبهم المتعلقة بعملهم برحابة صدر. وهو ربما تصرف على هذا النحو بحكم ميله إلى البلاط الروسي، ورغبته في أن يكون هذا البلاط إلى جانبه في ما قد يقدم عليه من مقاصد وأفعال في المستقبل»: *СбРИО*, t. 97 (СПб., 1896), c. 319-320.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 97 (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 319-320].

ونشير هنا إلى أنَّ العلاقات بين ألكسي أورلوف وبيترو ليوبولدو لم تكن سلسة دائمًا. فقد كتب أورلوف إلى كاترينا في الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1772: «... في غضون ذلك، يتلخَّص عملي الرئيس الآن في نقل مخازن الذخيرة والمؤن التي أنشأتها هنا إلى المشرق، وذلك حرصًا منِّي على تفادي أي مصاعب قد تحصل لاحقًا، نتيجة فتور قد ينشأ في العلاقة مع أرشيدوق توسكانة. ورغبة مني في معرفة نواياه، ومن باب الحيطة، تقدمَّت بواسطة عميلنا راذيرفورد، بطلبات لتزويدنا بما نحتاج إليه من مستلزمات لإصلاح السُّفن في المرافئ المحليَّة، فكانت الإجابة التأكيد على أنَّني سأنال كلَّ المساعدة المرجوة، إنما لم تحصل حتَّى الآن أيُّ تغيُّرات في ما يتعلق بالأمور المطلوبة. ولم تسنح لي حتَّى الآن، يا مولاتي المبجلة، الفرصة للقاء الأرشيدوق بسبب سفره من بيزا إلى فلورنسا، التي سأتوجَّه إليها اليوم بالتحديد، وسأبادر إلى إطلاعكم على الفور، يا صاحبة الجلالة، على نوع الاستقبال الذي سأحظى به هناك»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII (СПб., 1888), c. 2.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12 (سان بطرسبورغ، 1888)، ص 2].

المهمات التي عمل عليها أ. غ. أورلوف، منذ الأيام الأولى لوجود العسكريين الروس في توسكانة. فالحفلات والهدايا النفيسة للسلطات والأرستقراطيين في توسكانة والتبرعات السخيَّة والخطوات الدبلوماسيَّة المعقدة، كلها كانت تهدف في نهاية المطاف إلى تأمين المرافئ والمؤن وقاعدة صيانة للأسطول. وشكّل سماح الأرشيدوق الكبير باستخدام مرفأ بورتو فيرايو، المرفأ الرئيس في الأرخبيل والواقع على ساحل جزيرة ألبا الشمالي، لحاجات الأسطول، أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة للتعاون بين القيادة الروسيَّة في حوض البحر المتوسِّط والسلطات التوسكانيَّة.

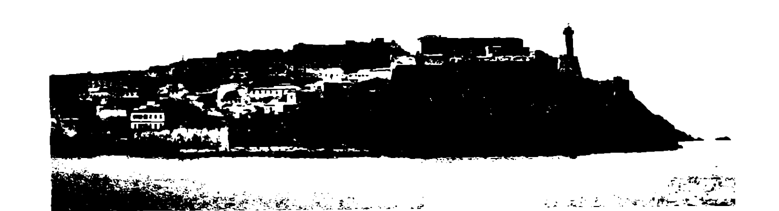
لفت هذا المرفأ انتباه القادة العسكريين الروس على الفور. فبعدما واجه الأخوان أورلوف المصاعب في تجنيد الجنود واقتناء السفن في ليفورنو وجنوى في صيف عام 1769، قرَّرا استخدام بورتو فيرايو للأغراض العسكريَّة، حيث احتشد فيه في أواسط شهر آب/ أغسطس عدد كبير من البحارة السلافيين واليونانيين والإيطاليين (من جنوى بصورة أساسية). غير أن السلطات التوسكانيَّة باشرت عمليَّات الملاحقة الداخلية على الفور، لإعاقة أعمال العملاء الروس النشيطة في ألبا[40].

غدا فتح المرافئ التوسكانيَّة أمام السفن الروسيَّة بصورة نهائية، مؤشرًا على «الدفء» في عام 1770 في العلاقات المتبادلة بين البعثة الروسيَّة وليفورنو. ودخل بورتو فيرايو في فلك المصالح العسكريَّة للأخوين أورلوف مجدَّدًا، بفضل خصائصه التقنية. فقد كانت أحواضه مؤهَّلة لاستقبال السُّفن الكبيرة وتصليحها[41].

---

(40) تلقَّى ديوان الأرشيدوق في الأول من آب/أغسطس 1769 رسالة من حاكم ليفورنو بوربون ديل مونتي، يتحدَّث فيها عن الشكوك بشأن تسليح السفن لصالح الأسطول الروسي في بورتو فيرايو، على غرار الأنباء التي وردت في السادس عشر من أيلول/ سبتمبر: ASF, Segreteria di Gabinetto, Pezzo 135, Copie lettere, Elenco delle lettere ricevute e rese, 1769.

(41) تبيَّن في نهاية عام 1770 أنَّ سفينة القيادة «الأساقفة الثلاثة» (بقيادة القبطان س. ك. غريغ) التي كان ألكسي أورلوف نفسه يبحر على متنها، تحتاج إلى تصليح فوري (يُنظر في هذا الصدد رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري، بتاريخ الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1770: Pietro Verri, *Carteggio Di Pietro E Di Alessandro Verri, vol. 4: Ottobre 1770 Dicembre 1771* (Milano, 1919), p. 97.



بورتو فيرايو

= كان حجم السفينة لا يسمح بتصليحها في مرفأ ليفورنو، فتلقى أورلوف إذنًا خاصًا من أرشيدوق توسكانة الكبير يسمح له بالقيام بعملية التصليح في بورتو فيرايو، وكان هذا الإذن صالحًا للمستقبل أيضًا: *GT*, 1770, 50. 199; *NM*, 1770, 99. 809, 100. 816; Donolo, p. 119.

وصلت السفينة «الأساقفة الثلاثة» إلى ألبا في 3-14 كانون الثاني/ يناير 1771 (*GT*, 1770, 50. 199; *NM*, 1770, 6. 47). فأرسل الكونتر-أميرال غريغ ضابطًا خاصًا إلى حاكم الجزيرة فيلينيوف يخبره فيه بوصوله. وقبل أن تبدأ عمليّة التصليح، أقام فيلينيوف حفلة تنكّرية في قصره، دعا إليها س. ك. غريغ والضبّاط الروس من السفينة «الأساقفة الثلاثة»، وكذلك ضباط حامية بورتو فيرايو والنبلاء المحليين (*GT*, 1771, 17. 27). وتفيد المعلومات أنّ أعمال التصليح استمرت حتّى ربيع عام 1771، وكانت شاملة وباهظة الكلفة على الأسطول الروسي (*GT*, 1771, 17. 68). وفي العشرين من شباط/ فبراير والثامن عشر من آذار/ مارس 1771 (وفق التقويم الجديد) وصلت إلى بورتو فيرايو للتصليح الفرقاطتان الروسيتان «سلافا» و«فينيرا» (محملة بالخشب) (*GT*, 1771, 13. 51; ASF, Consiglio di Regggenza, pezza 1026). غادرت السفينة «الأساقفة الثلاثة» بورتو فيرايو في الرابع عشر من شباط/ فبراير 1771 (*GT*, 1771, 16. 64; *NM*, 1771, 32. 252)، وفي الرابع من أيار/ مايو عادت الفرقاطة «فينيرا» من بورتو فيرايو إلى ليفورنو، جاهزة للإبحار في الحملة المقبلة (*NM*, 1771, 38. 301). وظلّت السفن المتوقّفة للتصليح في بورتو فيرايو تعود إلى ليفورنو خلال شهر أيار/ مايو 1771. (*GT*, 1771, 22. 87-88; *NM*, 1771, 42. 331-332, 45. 357)، وكذلك في شهر حزيران/ يونيو: في السابع والعشرين والثامن والعشرين من حزيران/ يونيو عادت فرقاطتان روسيتان من بورتو فيرايو إلى ليفورنو، هما «مينرفا» بقيادة القبطان روبرت دوغدال، و«الأرخبيل» بقيادة القبطان كوريل، اللتان كانتا في الحجر الصحي (*GT*, 1771, 27. 108; *NM*, 1771, 54. 429). وفي عام 1772، خضعت السفينة «الأساقفة الثلاثة» للتصليح مجدّدًا (كتب أورلوف إلى كاترينا في الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1772: «بعد عدّة أيام تتوجّه السفينة «الأساقفة الثلاثة» من مرفأ ليفورنو إلى المرفأ المسمّى فيرايو، للتصليح هناك. وبما أنّ قائد السفينة الكونتر-أميرال غريغ سيبقى من دون عمل، فقد أرسلته إلى بلاط جلالتكم الإمبراطورية السّامي حاملًا رسالتي ...»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 2.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12، ص 2]. =

خُصِّص للعلاقات المتبادلة بين بيترو ليوبولدو وبين العملاء الروس في دولته[42] فصلٌ خاصٌّ في كتاب آدم فاندروجكا *Leopold II* (**ليوبولدو الثاني**). فقد أشار فاندروجكا قبل كلِّ شيءٍ إلى أنَّ بيترو ليوبولدو كان يسترشد في مواقفه بالكامل بسياسة شقيقه الإمبراطور النَّمساوي جوزف الثاني[43]. فمنذ بداية الانتفاضة في كورسيكا، وبعد وصول الأسطول الروسي والأخوين أورلوف وحاشيتهما الكبيرة العدد، عمل بيترو ليوبولدو على جمع المعلومات عن خطط

---

= وكذلك الفرقاطة «ناكسيا». فبعد العمليَّات الحربية في عام 1771 والعودة إلى توسكانة، توجَّهت السفينة في صباح الثاني عشر من شباط/ فبراير 1772 إلى ألبا لإعادة تأهيلها لتصبح صالحة للقتال (*GT*, 1772, 7. 25. 28, 8. 31; *NM*, 1772, 10. 79, 13. 103, 22. 171) وهكذا، وصلت قرابة السادس والعشرين من شباط/ فبراير السفينة «القديس غيورغي» إلى ليفورنو آتيةً من باروس (*GT*, 1772, 9. 36; *NM*, 1772, 17. 234 13. 103, 22. 171). وفي صباح السابع من آذار/ مارس أبحرت السفينة «مينرفا» عائدة (*NM*, 1772, 21. 166). في غضون ذلك، وفيما كانت أعمال التصليح في «الأساقفة الثلاثة» متواصلة، وألكسي أورلوف يتنقل بين بيزا وليفورنو، عادت الفرقاطة «ناكسيا» في الحادي والثلاثين من آذار/ مارس 1772 من جزيرة باروس إلى ليفورنو (*GT*, 1772, 14. 56). طالت مدة تصليح السفينة «الأساقفة الثلاثة» أشهرًا عدَّة، ولكنها اضطرَّت بعد إبحارها إلى التوقف في ميسينا في صقلية لإصلاح إحدى صواريها (*NM*, 1772, 100. 821, 1773, 11. 87-88, 26. 207; *GT*, 1773. 6. 23). وبقيت بورتو فيرايو لاحقًا واحدة من قواعد الأسطول الروسي الإيطاليَّة. فقد كتب أ. غ. أورلوف إلى كاترينا من بيزا في الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1774: «... حدَّدتُ بورت ماغون وبورتو فيرايو التوسكانيَّة ومرفأ ليفورنو لإقامة الحجر الصحي بدايةً، وسأسعى للتوجُّه إلى ريفيل وكرونشتاد بعد تزويد السفن بحاجاتها وتصليحها في هذه المرافئ...»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 245.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 245].

(42) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب باللغة الألمانية في عام 1964 في ميونيخ وفيينا، وظهرت الترجمة الإيطاليَّة التي سنستند إليها، في عام 1968 في فلورنسا تحت عنوان: «Pietro Leopoldo. Un grande riformatore».

(43) يُنظر أيضًا رسالة أ. غ. أورلوف إلى كاترينا من بيزا في الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1772: «غادرتُ الأرخبيل في الثامن والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر متوجِّهًا إلى ليفورنو، لأتعرَّف إلى أفكار أرشيدوق توسكانة ونواياه، ذي صلة الدم الوثيقة جدًّا ببلاط فيينا، ذلك أنَّه يعتبر توصيات البيت البوربوني وتوجيهاته قوانين بالنسبة إليه، والمشارك بالطبع في التسليح المذكور (تسليح بلاط فيينا، بحسب ما تناهى إلى مسامع أورلوف – المؤلف). وإذا ما جنح إلى التخريب على جيوش صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة المظفَّرة، أمكن عندئذٍ أن يُحرم الأسطول الروسي الموجود في بحار المشرق، من كل الامتيازات التي يتمتَّع بها في مرافئ الممتلكات التوسكانيَّة حاليًّا، حيث تخضع سفننا لمختلف أنواع التصليحات، وتتزود بالذخائر والمؤن»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 2.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 2].

العملاء الروس في توسكانة وتحرُّكاتهم، على نحوٍ مستقلٍ وبحماسة كبيرة، ومن ثَمَّ إبحارها إلى فيينا في رسائل خاصة إلى جوزف الثاني وماري تيريز. فأبلغ، على وجه التحديد، الإمبراطور النمساوي بنتائج العمليّات الحربية في الأرخبيل، وبتفاصيل معركة شيسما، وبمشاركة الثوار اليونانيين في المعارك ضد الأتراك. وقد فسَّر فاندروجكا حماسة أرشيدوق توسكانة لجمع المعلومات التي عمل فيها، بالأسباب الآتية: **أولًا**، كان الشعور بالوحدة الأُسْرِيّة قويًّا جدًّا لدى بيترو ليوبولدو، ما أملى عليه تنسيق نشاطه مع مشروعات والدته وشقيقه السياسيَّة الخارجية؛ **ثانيًا**، رغبته في المشاركة النشيطة (التي لا تتناسب مع وضع أرشيدوقية توسكانة الكبيرة، المتواضع إلى حدٍّ ما) في الأحداث المهمَّة بالنسبة إلى أوروبا، حتَّى ولو اقتصرت مهمَّته على جمع المعلومات الضرورية ذات الطابع الاستشاري من حيث جوهرها؛ **ثالثًا**، ما كان بوسع بيترو ليوبولدو إلا أن يفكِّر بأنَّ شقيقه لا ورثة لديه، وأنَّ أرشيدوق توسكانة (أو أحد أبنائه) سيشغل عرش النَّمسا عاجلًا أم آجلًا؛ ورابعًا وأخيرًا، كانت عمليَّة جمع المعلومات تتلاءم كليًّا مع ميله إلى ممارسة السياسة «على أساس علمي»[44].



الإمبراطور ليوبولدو الثاني

بدأت الحقبة الأكثر نشاطًا في عمل بيترو ليوبولدو على دراسة طبائع الجالية الروسيَّة في توسكانة، خلال شتاء 1770-1771، عندما كان الأرشيدوق في بيزا مع بلاطه، بعد عودته من فيينا. فقدَّم بيترو ليوبولدو في رسائله إلى والدته وشقيقه شرحًا مفصَّلًا عن وضع الأسطول الروسي العائد من الأرخبيل، ووصف تصرُّفات الضبَّاط الروس وفرق السُّفن، وكتب عن العلاقات

(44) A. Wandruszka, *Pietro Leopoldo: Un grande riformatore* (Firenze, 1968), p. 205.

المتبدل بين رعايا كاترينا الثانية وبين الأجانب (الإنكليز والألمان والإيطاليِّين والاسكندنافيِّين)، الموجودين في الخدمة لدى الروس، ودخل في تفاصيل المعارك البحريَّة خلال صيف 1770 ومحاولات التحريض على انتفاضة شاملة للمسيحيِّين (اليونانيين وسكَّان الجبل الأسود) ضد الأتراك. وأوْلَى الأرشيدوق مسألة التلميحات المتعلِّقة بخطط الأسطول الروسي العسكريَّة في عام 1771 اهتمامًا خاصًّا، حيث كانت مسألة بالغة الأهمِّية البالغة بالنسبة إلى فيينا[45].

ابتداءً من كانون الأول/ ديسمبر 1770، طلب جوزف الثاني من بيترو ليوبولدو إطلاعه على لقاءاته مع الأخوين أورلوف. فكتب إمبراطور النَّمسا إلى شقيقه في السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1770: «إنَّ وصول الأخوين أورلوف يتَّسم بأهمية بالغة. بإمكانك أن تقدِّم إلينا خدمة كبيرة لو تمكَّنت من أن تحصل منهما، أو الأفضل من مرؤوسيهما والأجانب الذين يخدمون في الأسطول الروسي، على معلومات عن وضع الأسطول والعمليات المتوقَّع قيامه بها في المستقبل، وإلى أين يتوجَّه الأسطول في حملته العسكريَّة التالية»[46].

كما يرى فاندروجكا، تطلَّب تنفيذ المهمَّة التي طلبها الشقيق جهودًا معيَّنة من بيترو ليوبولدو. على الرغم من أنَّ ألكسي أورلوف روى بنفسه للأرشيدوق كلَّ تفاصيل معركة شيسما والعمليَّات البحريَّة الأخرى التي قام بها الأسطول الروسي (رسالة بيترو ليوبولدو بتاريخ الخامس من كانون الثاني/ يناير 1771)[47]، فإنَّ قسمًا كبيرًا من المعلومات، ولا سيَّما تلك المتعلِّقة بتحرُّكات الأسطول المقبلة، ظلَّ محجوبًا عن بيترو ليوبولدو.

---

(45) Ibid., p. 303.

(46) Ibid.

(47) عُلِّلت روايات أورلوف أيضًا بضرورة تبديد الشائعات المنتشرة في إيطاليا في صدد تفاصيل المعارك البحريَّة ببحر إيجة. فكتب أورلوف في الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1770 إلى مستشار السفارة الروسيَّة في باريس ن. ق. خوتينسكي، يقول: «عند وصولي إلى مرفأ ليفورنو في الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر المنصرم، وجدت الشواطئ الإيطاليَّة مترعة بشتَّى أنواع الشائعات عن سبب مجيئي إلى الأرخبيل؛ إذ إن أعداءنا الذين أغاظتهم نجاحات السلاح الروسي الباهرة، أكان في البر أم في البحر، يعملون بدافع الحسد وحده لبثِّ الأخبار الحاقدة بين الشعوب، =

اضطُرَّ أرشيدوق توسكانة الكبير إلى إقامة علاقات سرِّية مع عضو محفل فرسان مالطا الكونت ج. ج. م. مازين (دي مازين)، الذي قام بتجهيز سفينة، كما أشرنا، وتوجَّه إلى الأرخبيل ملتحقًا بالحملة الروسيَّة، من دون إذن رئيس المحفل(48). وصل مازين إلى ليفورنو في نهاية عام 1770، وبقي في الجزر بضعة أسابيع فقط؛ ثمَّ عاد، على الأرجح، إلى الأرخبيل برفقة أ. غ. أورلوف(49)، وفي حديثٍ مطوَّل مع الأرشيدوق الكبير، في أثناء إحدى الحفلات التنكُّرية في بيزا، حكى له عن المشكلات الكثيرة التي يواجهها الأسطول الروسي. وفضلًا عن ذلك، شاطر مازين بيترو ليوبولدو أفكاره عن كيفيَّة بناء النَّمسا سياستها البلقانيَّة، في ضوء احتمال تقسيم الجزء الأوروبي من تركيا، وظهور دول مستقلَّة صغيرة مكانها. وقال مازين للأرشيدوق أنه يودُّ عرض أفكاره على ماري تيريز وجوزف الثاني، وهو في طريقه إلى بطرسبورغ التي يتوجَّه إليها رسولًا، طالبًا وساطته. وصف الأرشيدوق مازين في رسالته

---

= ونشرها في الصحف اليومية، زاعمين زورًا وبهتانًا أنَّ هزيمة قواتنا على يد العدو في جزيرة ليمنوس هي التي جعلتني أغادر المشرق، وأنَّ السفن التي خسرناها وأحرقت أرغمتني على ترك هذه الجزيرة والمشرق عمومًا، واللجوء إلى إيطاليا مع ما تبقى من الأسطول. لا شيء أكثر نفاقًا من هذه الشائعات المغرضة، لأنَّ مرضي ومرض شقيقي الذي لم يتمكَّن من الوصول إلى إيطاليا، واضطر إلى البقاء في ميسينا، هو السبب الوحيد لسفري...»: *СбРИО*, t. 1, c. 66.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 66].

(48) عن الكونت دي مازين، يُنظر أيضًا الفصل الثالث.

(49) *GT*, 1771, 1. 3; *NM*, 1771, 2. 15.

تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة ب. دي زاموني بتاريخ السابع من كانون الثاني/ يناير 1771: AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

تمكَّن المغامر مازين من تبوُّؤ مركز بارز في بطرسبورغ لاحقًا، بفضل رعاية الأخوين أورلوف. يُنظر عنه الرسالة المستعجلة التي أرسلها المبعوث البروسي في روسيا الكونت ف. ف. فون سولمس إلى فريديريك الثاني بتاريخ 31 كانون الثاني/ يناير - 11 شباط/ فبراير 1774: «تمكَّن المدعو الكونت مازين الإيطالي وعضو في محفل فرسان مالطا، من نيل لقب كونتر-أميرال وقائد سفن، وذلك بفضل رعاية الأخوين أورلوف؛ ووقع عليه الخيار في العام الماضي لقيادة هذه السفن في الحملة ضد السويديين، في ما لو احتاج الأمر إلى ذلك؛ لكنَّه كان قد تعهَّد للوزيرين الفرنسي والإسباني آنذاك بإفشال هذه الحملة بانسحابه، كما اتَّضح قبل فترة وجيزة»: *СбРИО*, t. 72 (СПб., 1891), c. 477.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 72 (سان بطرسبورغ، 1891)، ص 477 (النص الأصلي بالفرنسية)].

إلى شقيقه على النحو الآتي: «هو رجل ذكي جدًّا، مفعم بالحيوية والحياة، ولكنَّه مع ذلك حادُّ الطباع، تجُول في رأسه مشروعات لا تُصدَّق، شجاع ذو خيالٍ واسعٍ، مغامرٌ كبير، موهوب وذو طموحات... أنا على يقين من أنَّه يختلق أمورًا كثيرة، ولكن مناظراته يمكن أن تنطوي على أفكار معقولة» (من رسالة بتاريخ الحادي والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1771). لم يتعهَّد بيترو ليوبولدو بشيءٍ لمازين، ولكنَّه كتب لشقيقه عن كلِّ شيءٍ وانتظر تعليماته[50].

بعد الحديث الأول بين أرشيدوق توسكانة ومازين، حدث اللقاء الثاني بينهما في منتجع المياه المعدنيَّة ببيزا، حيث لبَّى مازين دعوة الأرشيدوق إليها بوساطة أحد المالطيين مِمَّن يعملون في خدمة توسكانة. تحدَّث مازين إلى بيترو ليوبولدو بالتفصيل عن آرائه بخصوص السياسة النّمساوية، وكانت النتيجة أنَّ الأرشيدوق وصف مازين في رسالته التالية إلى شقيقه (بتاريخ الرابع من شباط/ فبراير 1771) بوصفه رجلًا «تُمكِنُ الاستفادة» من خدماته، ولكن «لا يمكن الوثوق به». في غضون ذلك، فشلت خطَّة اللقاء بين مازين وإمبراطور النَّمسا في فيينا تلقائيًّا: فقد توجَّه مازين إلى بطرسبورغ برفقة الأخوين أورلوف[51]، سالكًا طريق أوغسبورغ وليس فيينا[52]. وبعد بضعة أسابيع، كتب جوزف إلى شقيقه عن قناعته المشتركة مع ماري تيريز وكاونيتس بأنَّ مازين يعمل بموافقة ألكسي أورلوف على معرفة أكبر ما يمكن عن خطط فيينا

---

(50) Wandruszka, pp. 303-305.

(51) وقعت كاترينا مرسومًا ملكيًّا في العشرين من كانون الثاني/يناير 1771، باسم أ. غ. أورلوف، جاء فيه: «بعد اطِّلاعنا على الأنباء التي أرسلتموها إلينا، عن رغبة الفارس المالطي مازين بالدخول في الخدمة البحريَّة لدينا، فإننا نسمح لكم بقبوله في المنصب الذي ترونه ملائمًا، حتَّى ولو برتبة قبطان»: СбРИО, t. 1, c. 65.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 65].

(52) وصل أورلوف ومازين إلى فلورنسا قادمين من بيزا، في ليل السابع عشر إلى الثامن عشر من شباط/فبراير 1771، ثم غادرا إلى روسيا في العشرين من شباط/فبراير، حيث استُقبِلَ مازين بالترحاب، بحسب ما يقول مبعوث النَّمسا ي. م. لوبوكوفيتس: СбРИО, t. 109, c. 529; депеша от 3 мая 1771 г.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 109، ص 529؛ الرسالة المستعجلة المؤرخة في الثالث من أيار/ مايو 1771].

في مجال السياسة الخارجيَّة (الرسالة غير مؤرَّخة). وقد وافق بيترو ليوبولدو على رأي والدته وشقيقه (الرسالة إلى جوزف الثاني في الأول من آذار/ مارس 1771)[53].

كما لاحظ فاندروجكا، كان التقويم العامُّ لقوة الجيش والأسطول الروسيَّين - المستند إلى أحاديث بيترو ليوبولدو مع مازين، والضبَّاط الآخرين وسكرتير أ. غ. أورلوف، إيفان ميلوفسكي («Miluschky o Miluschka») - سلبيًا. لكن، وعلى الرغم من الرأي السلبي المتعلِّق بالقدرة العسكريَّة الروسيَّة، سعى أرشيدوق توسكانة، في رسالته إلى شقيقه بتاريخ الرابع من شباط/ فبراير 1771، بإلحاح، إلى إقناعه بعدم دخول النَّمسا في الحرب ضد روسيا (في ضوء موقف بروسيا الذي لا يمكن الركون إليه بوجهٍ خاص). ولهذا بالتحديد، كما يقول فاندروجكا، تلقَّى بيترو ليوبولدو خبر حياد النَّمسا الذي وصله من فيينا بـ **إيجابية** (أرسل في الحادي والثلاثين من كانون الثاني/ يناير 1771)، حيث أخذت (النَّمسا) على عاتقها دور الوساطة فقط[54].

بعد ذلك بفترة وجيزة، في السابع من شباط/ فبراير 1771، طلب جوزف من شقيقه مباشرة مراقبة مراسلات ألكسي أورلوف (بأيٍّ وسيلة ممكنة). فقد تطلَّب الوضع الحرج اتِّخاذ تدابير حاسمة. وأخذ الإمبراطور المسؤولية عن مراقبة المراسلات الروسيَّة على عاتقه. وتضمَّنت مهمَّة بيترو ليوبولدو، تاليًا، العثور على أشخاص مقرَّبين من أورلوف، قادرين على نسخ رسائله بسرعة. أبلغ أرشيدوق توسكانة شقيقه، في رسالة جوابيَّة بتاريخ السابع عشر من شباط/ فبراير 1771، استحالة القيام بعمليَّة المراقبة في الوقت الراهن. وفي أيِّ حال، كانت درجة اطِّلاع أورلوف على خطط الإمبراطورة الروسيَّة أقلَّ من اطِّلاعه

---

(53) Wandruszka, pp. 305-306.

وافق جوزف الثاني على تصرف بيترو ليوبولدو حيال مازين، وكتب إليه في الحادي والثلاثين من كانون الثاني/ يناير 1771 يقول إنَّه يمكن مازين طلب مقابلة الإمبراطور أو الالتقاء بالكونت كاونيتس. ولم تحظ خطَّة مازين، التي كانت تقضي بحصول النَّمسا على صربيا بعد انتهاء الحرب وسقوط الإمبراطورية العثمانيَّة، بموافقة فيينا. فقد اعتبر الإمبراطور ومستشاروه أن ضمَّ هذه الأراضي غير كافٍ: Ibid., p. 305.

(54) Ibid.

هو، أرشيدوق توسكانة، عليها، كما لاحظ بيترو ليوبولدو. كما أنَّ مراسلات أورلوف لم تكن كثيرة. فهو لم يكتب إلى كاترينا سوى رسالة واحدة في غضون شهرين. لكن يبدو أنَّ بيترو ليوبولدو تمكَّن من مراقبتها. وكان جوهر الرسالة يتلخَّص في تأكيد أورلوف أنَّ صحَّته جيدة، وأنه سيروي للإمبراطورة كلَّ التفاصيل عن الأمور الأخرى أثناء لقائهما المقبل في بطرسبورغ. وعاهد أرشيدوق توسكانة شقيقه أنَّه سيتمكَّن من جمع المعلومات الضروريَّة عن الأسطول الروسي، حتَّى في غياب أورلوف عن بيزا[55].

استخدم بيترو ليوبولدو، كما تُظهِر وثائق أرشيف الدولة في فلورنسا، عدَّة عملاء سرِّيِّين شملت مهمّتهم مراقبة الإدارة المحليَّة نفسها، وليس الضبَّاط الروس فحسب. غير أنَّ الحكومة التوسكانيَّة، كما تشير كلُّ الدلائل، لم تفلح في الحصول على أيِّ أسرار عسكرية روسيَّة جدِّية لمصلحة فيينا.

كان المدعوُّ فينتشينتسو مارتيني، العامل في بورتو فيرايو، أحد مخبري الحكومة التوسكانيَّة[56]. وبقيت التقارير التي أرسلها إلى فرانتشيسكو سيمينيتي، رئيس مجلس الدولة الفلورنسي محفوظة. وكانت مهمَّة مارتيني سرِّية، كما كتب هو بنفسه في العشرين من أيار/ مايو («In esecuzione de'venerati comandi di V. E. con tutta la segrettezza»). وروى مارتيني أنَّ فريق إحدى السُّفن الروسيَّة أعرب عند مغادرته بورتو فيرايو، عن شكره للأرشيدوق الكبير ولممثِّليه في ألبا، على الخدمات التي قدموها لتصليح السفينة. لكن إشكالًا بسيطًا وقع عند مغادرة السفينة المرفأ. فقد كان يُفترض أن تطلق المدفعيَّة الروسيَّة طلقات وداعيَّة، على أن تردَّ عليها مدفعيَّة الجزيرة بطلقات جوابيَّة؛ غير أنَّ مساعد الحاكم فيلينيوف تأخَّر في إطلاعه على هذه الترتيبات (بحسب رواية الحاكم)، فلم تطلق الطلقات الجوابيَّة، وأُعفِيَ مساعد الحاكم من منصبه.

---

(55) Ibid., pp. 305-306.

كتب جوزف لشقيقه في رسالة بتاريخ الرابع عشر من شباط/ فبراير 1771 يقول: «لكَم كنَّا سعداء لو كان كلُّ دبلوماسيِّينا دقيقين ومتيقِّظين، على غرارك»: Ibid., p. 305.

(56) لم يتسنَّ لنا، للأسف، معرفة من كان مارتيني على وجه التحديد، أي: هل كان من الموظفين التوسكانيِّين العاملين في جزيرة ألبا، أو ما شابه؟

لاحظ مارتيني، في معرض تحليله للخلاف، أنَّ ما حصل كان نتيجة للعلاقات السيِّئة بين الحاكم والضباط الروس الذين كانوا على جزيرة ألبا. وأطلع مارتيني سيمينيتي، تحديدًا، على عدم رضا رعايا الإمبراطورة عن معاملة فيلينيوف لهم. وأبلغ قباطنة السفن الروسيَّة النبلاء المحليِّين، بمن فيهم مارتيني نفسه، مباشرة بذلك، الذي أخذ على عاتقه مهمَّة تسوية النزاع بين الحاكم والجالية الروسيَّة، فعمل بانتظامٍ على دعوة الجميع إلى مآدب غداء مشتركة. وافترض أنَّه بعمله هذا يقدم خدمةً كبيرةً لبيترو ليوبولدو، لأنَّ مركز الضباط الروس (في ضوء إنفاقهم المالي الهائل ولا سيَّما في ألبا) كان رفيعًا جدًّا. فضلًا عن ذلك، ألمَحَ مارتيني بصورة ضبابيَّة إلى ضرورة استبدال فيلينيوف، نظرًا إلى سوء حالته الصحِّية، ولضعف ذاكرته الناجم عن ذلك، وهو ما لا يتلاءم مع مركزه[57].

واصل بيترو ليوبولدو القيام بدور ربِّ المنزل المضياف بالنسبة إلى أورلوف وحاشيته، وفي الوقت نفسه بوظيفة عميل فيينا الدبلوماسي رفيع المقام في توسكانة، إلى حين عقد صلح كوتشوك - كاينارجي (في 21 تموز/ يوليو 1774). وكما لاحظ فاندروجكا، فقد كانت رسائل أرشيدوق توسكانة بالغة التنوُّع من حيث محتواها؛ فهو لم يقدِّم لشقيقه معلومات عن الأسطول الروسي فحسب، بل أرسل أيضًا وصفًا لمسرحيَّة تفجير السَّفينة المتهالكة التي نظَّمها أورلوف للفنان فيليب هاكيرت[58]. وكانت الأعمال غير المشروعة، من وجهة نظر القانون التوسكاني، المتمثِّلة باختطاف الأميرة إليزابيت تاراكانوفا في ربيع عام 1775، إحدى اللحظات الأعقد في العلاقات بين بيترو ليوبولدو وألكسي أورلوف، بحسب رأي فاندروجكا. وهكذا، كتب أرشيدوق توسكانة إلى والدته في فيينا (في أيار/ مايو، على الأرجح): «كان بإمكانه (أورلوف - المؤلف) في كلِّ هذه القصة تجنُّب إفشاء الأمر، والتصرُّف على نحوٍ أكثر لباقة»[59].

---

(57) ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1026.

(58) Wandruszka, p. 306.

(59) اقتباس من: Ibid., p. 308.

علمًا أنَّ بيترو ليوبولدو لم يكن يثق بأصل تاراكانوفا الرفيع، بحسب رأي فاندروجكا: Ibid.

فظلال تصرُّفات أورلوف الجائرة - من وجهة نظر الكثيرين من الإيطاليِّين المعاصرين - تقع على حاكم توسكانة الذي كان يعلم بالظلم الحاصل ولم يعمل على منعه[60].

لكن، يمكن التأكيد، عمومًا، أنَّ استقبال الضباط الروس في توسكانة الجيِّد دائمًا في ظاهره، كان مفيدًا للأخوين أورلوف ولبيترو ليوبولدو على حدٍّ سواء. فقد نجح الأخوان أورلوف في إرساء قاعدة عسكرية في إيطاليا وترسيخ الأقدام في هذه المنطقة فترة طويلة. وتوافرت لأرشيدوق توسكانة فرصة الحصول على معلومات عن وضع الأسطول الروسي ونوايا قادته «من مصادرها الأولى»، وتقديم الخدمة لبلاط فيينا والاضطلاع بدور في السياسة الأوروبيَّة الدوليَّة في أثناء تلك الفترة.

## البندقيَّة

### قيام العلاقات الدبلوماسيَّة الأحاديَّة الجانب بين روسيا والبندقيَّة: بانو ماروتسي (1720-1790)

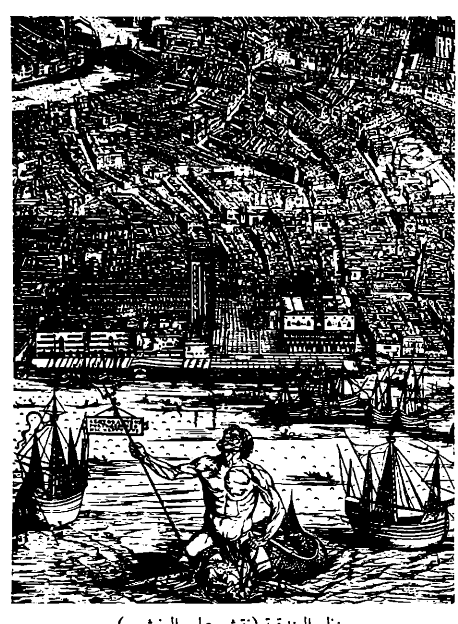
بدأت العلاقات الدبلوماسيَّة بين روسيا والبندقيَّة في القرن الخامس عشر، وتطوَّرت على نحوٍ ناشطٍ خلال القرن السابع عشر[61]، ثمَّ تسارعت بصورة ملحوظة في عهد بطرس الأول[62]، الذي عيَّن د. م. بوتسيس عميلًا قنصليًّا له في الجمهوريَّة. وكان من المفترض أن يستهدف نشاط الممثِّل الروسي خلق الظروف الملائمة للتجارة الناشئة بين كلٍّ من روسيا والبندقيَّة. فضلًا عن ذلك، زار السفير الروسي في فيينا البارون إ. خ. أوبريخ البندقيَّة في نيسان/أبريل 1711، وأجرى محادثات مع الدوق ج. كارنارو أفضت إلى دعوة التجار

---

(60) Ibid., pp. 308-309.

(61) لمزيد من التفصيل، يُنظر: Ph. Longworth, «Russian-Venetian Relations in the Reign of Tsar Aleksey Mikhailovich,» *Slavonic and East European Review*, vol. 64, no. 3 (1986), pp. 380-400. (يُنظر قائمة المراجع والمصادر في المرجع نفسه).

(62) يُنظر في هذا الصدد الفصل الأول، وكذلك قائمة (غير مكتملة) وثائق أرشيف الدولة في البندقيَّة، المتعلقة بتاريخ العلاقات الروسيَّة - البندقيَّة في القرن الثامن عشر: Berti, p. 48.



منظر البندقية (نقش على الخشب)

الرُّوس لممارسة التجارة في ممتلكات البندقيَّة، وإلى إنشاء أول قنصلية تجاريَّة روسية كان على رأسها الإيطالي م. كاريتا الذي كان يخدم لدى روسيا[63] (ابتداءً من عام 1712). وردَّت البندقيَّة بالمثل، فعيَّنت ممثِّلًا لها في بطرسبورغ هو السكرتير كابيلو. غير أن الأمر اقتصر على تعيينات مؤقَّتة إلى أن عيَّن البلاط الروسي ممثِّلًا تجاريًّا جديدًا لدى مجلس الشيوخ في البندقيَّة في عام 1715 هو ب. إ. بيكليميشيف. وكان من المفترض أن تقوم البندقيَّة بدورها بخطوات مماثلة، إلا أنَّ وفاة بطرس قطعت العلاقات الناشئة فترةً من الزمن[64].

تعود المحاولات الجديدة لإقامة علاقات تجاريَّة ودبلوماسيَّة بين روسيا والبندقيَّة إلى أواسط القرن الثامن عشر، إلى عامي 1748 و1755 على وجه التحديد. وترتبط هاتان المحاولتان بوصول سفن البندقيَّة إلى

(63) يُنظر في هذا الصدد الفصل الأول، وكذلك: А. И. Комиссаренко & И. С. Шаркова, «К истории русско-итальянской торговли в 40-50-х годах XVIII в.,» *Исторические записки*, t. 98 (1977), c. 313-314.

[أ. إ. قوميسارينكو وإ. س. شاركوفا، «عن تاريخ التجارة الروسيَّة - الإيطالية في أربعينيَّات وخمسينيَّات القرن الثامن عشر»، **مدونات تاريخية**، مج 98 (1977)، ص 313-314.]

(64) F. Seneca, «Francesco Lorenzo Morosini e un fallito progetto di accordo Veneto - russo,» *Archivio Veneto*, no. 106 (1963), p. 19-20.

سان بطرسبورغ (وصلت السفينة الأولى، «ليوكورووناتو»، إلى بطرسبورغ في نهاية عام 1747، بقيادة بيوتر سميخيا)، وبعمليات التجَّار الإيطاليِّين التجاريَّة الناجحة في روسيا، حيث أقنعوا مجلس شيوخ الجمهوريَّة بـ «المنفعة العظيمة من التجارة المباشرة مع الإمبراطوريَّة الروسيَّة». وفي عام 1748، أطلع قنصل البندقيَّة في باريس ف. ل. موروزيني الوزير الروسي غ. إ. غروس، على «رغبة جمهوريته بإقامة خطٍّ تجاريٍّ مع روسيا». وتلقَّى غروس بدوره توجيهات «لإبداء كل الاستعداد والميل والرغبة في أن ترسل جمهوريَّة البندقيَّة وزيرًا إلى البلاط هنا، وثمَّة وعد في المقابل بإرسال وزير من عندنا إلى الجمهوريَّة». وفي عام 1749، قدَّم سفير البندقيَّة في لندن بوزينيللو اقتراحًا مماثلًا إلى ممثِّل روسيا في إنكلترا ب. غ. تشيرنيشوف، «الذي أعربنا من خلاله عن استعدادنا للمساهمة في إقامة اتِّصالات جيِّدة مع الجمهوريَّة، ولإرسال وزير من قِبَلِنا إليها، إذا ما أرسلت هي أيضًا وزيرًا من عندها؛ غير أنَّ الأمور لم تتجاوز حدود الأحاديث بين الوزيرين، ولم تظهر أيُّ مبادرات من جانب الجمهوريَّة حتَّى عام 1755»[65].

في الثالث والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر 1755، قدَّم التاجر البندقي أناستاسي سياتي، بعلم مسبق من سلطات الجمهوريَّة، مذكِّرةً إلى هيئة الشؤون الخارجيَّة أعرب فيها عن «استعداد إدارة الجمهوريَّة لاستئناف التجارة مع روسيا»[66]. وفي عام 1756، سلَّمت الهيئة مذكِّرة جوابيَّة إلى سياتي «أعلنت فيها أنَّه لم تُفرض هنا أيُّ قيود على التجَّار البنادقة في تسويق سلعهم في المرافئ الروسيَّة وشراء السلع المحليَّة، على غرار ما يفعله رعايا الدول الأوروبيَّة الآخرون، وطلبت منه في هذا

---

(65) Доклад коллегии иностранных дел Екатерине II, подписанный Н. И. Паниным и А. М. Голицы-ным, от 31 августа 1767 г., in: *СбРИО*, t. 67 (СПб., 1889), c. 448-449.

[تقرير هيئة الشؤون الخارجية إلى كاترينا الثانية، الموقع من قبل ن. إ. بانين وأ. م. غوليتسين، بتاريخ الحادي والثلاثين من آب/أغسطس 1767، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 67 (سان بطرسبورغ، 1889)، ص 448-449].

(66) Комиссаренко and Шаркова, c. 323-324.

[قوميسارينكو وشاركوفا، ص 323-324].

السياق معلوماتٍ عن الأسس التي يرغب البنادقة وفقها القيام بتجارتهم مع الإمبراطورية - هل هي الأسس ذاتها التي يعمل بموجبها التجّار الأوروبيّون الآخرون، أم يرغبون بإعفاءات وامتيازات أخرى، وما هو نوعها»(67). لم تتقدَّم المفاوضات أبعد ذلك، وتوقَّفت بسبب نشوب حرب الأعوام السبعة. وظلَّ الوضع على حاله حتَّى عام 1761، حين بدأ مبعوثو البندقيَّة في كلٍّ من باريس ولاهاي ولندن، يتقدَّمون باقتراح جديد إلى الدبلوماسيِّين الروس لعقد «معاهدة تجاريَّة». فقيل لهم إنَّ نجاح هذا المشروع يتوقَّف بالدرجة الأولى على جمهوريَّة البندقيَّة نفسها، التي ينبغي لها «التمهيد لهذا الأمر بإرسال وزير من قِبلها».

استؤنفت مفاوضات لندن في عام 1762 بوساطةٍ من المبعوث الروسي في إنكلترا أ. ر. فورونتسوف (والكونت غ. ك. كايزيرلينغ من قبله) والدبلوماسيِّين البنادقة تومازو كفيريني وفرانتشيسكو لورينتسو مروززيني (ثم أندريا ترون)، الذين كان عليهم إبلاغ حكومة بطرسبورغ بشروط المعاهدة التجاريَّة التي يقترحها البنادقة. غير أنَّ المشروع الذي أُعِدَّ في عام 1762 لم يحظَ برضا كاترينا، لسببين بالدرجة الأول: **أولًا**، خلافًا لشروط معاهدة الصلح لعام 1718 بين البندقيَّة والباب العالي العثماني، التي نصَّت على أنَّ الأتراك يملكون وحدهم حقَّ الملاحة في البحر الأسود، يقترح الجانب البندقي في مشروع المعاهدة على الحكومة الروسيَّة أن تتَّفق بنفسها مع الأتراك على عبور السفن إلى البحر الأسود. **ثانيًا**، شعر الجانبان بضرورة نقل المفاوضات من لندن، لكنَّهما اختلفا في الرأي بصورة جذريَّة في صدد مكان اللقاءات المقبلة. فاقترحت البندقيَّة إجراء الاتِّصالات في فيينا بواسطة المبعوثين الروسي والبندقي، خوفًا من احتجاجات الباب العالي. أمَّا روسيا، فقد ألحَّت على أن تبادُل ممثِّلي الجانبين المفوَّضين، وعلى أن تُجرى

---

(67) Доклад коллегии иностранных дел Екатерине II от 31 августа 1767 г., in: *СбРИО*, t. 67, c. 449).

[تقرير هيئة الشؤون الخارجية إلى كاترينا الثانية بتاريخ الحادي والثلاثين من آب/أغسطس 1767، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 67، ص 449].

المفاوضات في بطرسبورغ، الأمر الذي رفضته البندقيَّة (وذلك بسبب ردَّة فعل الباب العالي، المتوقَّع أن يكون سلبيًّا)[68].

استؤنفت مناقشة المعاهدة التجاريَّة بين روسيا وبين البندقيَّة بين الحين والآخر، في النصف الأول من ستينيَّات القرن الثامن عشر (عبر السفير الروسي في فيينا د. م. غوليتسين[69] هذه المرَّة، الذي قدَّم اقتراحات في هذا الصدد إلى مبعوث البندقيَّة لدى بلاط فيينا، باولو رينيير)[70]. وكان الهدف من هذه المفاوضات تنظيم العلاقات التجاريَّة في البحر الأسود بالدرجة الأولى. فمنذ أواسط ستينيَّات القرن الثامن عشر بدأ الموضوع المتوسِّطي يسود العلاقات المتبادلة بين البندقيَّة وبين روسيا تدريجًا. فقد شعر البلاط في بطرسبورغ بضرورة الحصول على دعم مجلس الشيوخ[71]، إذا ما توتَّرت العلاقات مع تركيا. ولكن لم تُتَّخذ أيُّ خطوات ملموسة في هذا الاتجاه قبل عام 1768[72]. واختلفت

---

(68) المرجع نفسه، يُنظر أيضًا المعلومات حول موقف البندقيَّة: *АВПРИ*, Ф. 41/3, Д. 14.
[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسيَّة**، المجموعة 41/ 3، الملف 14]، وفي الفصل الأول من هذا الكتاب.

(69) يُنظر عنه الفصل الأول، الهامش رقم 120.

(70) فضلًا عن ذلك، كتب د. م. غوليتسين من فيينا في التاسع والعشرين من تموز/ يوليو (التاسع من آب/ اغسطس) 1766 يقول: «كتب إليَّ بونوماريوف، وكيل الشركة البطرسبورغية الموجود في ليفورنو قبل بعض الوقت، أنَّ أحد تجار البندقيَّة المدعو رونتسوني بعث له برسالة يقول فيها إنَّه إذا وافق بلاطنا على إرسال سفينة أو عدَّة سفن روسية إلى مرفأ البندقيَّة، محمَّلة بالبضائع الروسيَّة، وعادت هذه السُّفن إلى روسيا بحمولة من السلع المحليَّة أو المستوردة، فبإمكانه هو، أي رونتسوني، التشفع لدى إدارة البندقيَّة لتقديم بعض المنافع الجمركيَّة، وإنَّه تحدَّث مع عدد من نبلاء البندقيَّة من أصحاب القرار في الجمهوريَّة في هذا الصدد». أجاب غوليتسين بونوماريوف أنَّ عليه توجيه الشكر لرونتسوني في رسالة خاصة، على ألَّا يذكر اسم غوليتسين، إذ اعتبر المبعوث الروسي في فيينا أنَّ من الصعب القبول باقتراح رونتسوني، بالرغم من أنَّ المعلومات التي ذكرها جديرة بالاهتمام. فقد ذكر رونتسوني في رسالته، الأسعار التي تباع بها السلع الروسيَّة، وقدَّم شروحًا للموازين والمعايير الجمركية والعملات المتداولة: *СбРИО*, t. 67, c. 65-66.
[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 67، ص 65-66].

(71) في البندقيَّة. (المترجم)

(72) Seneca, pp. 21-24, 29-30.
يفسر أ. إ. قوميسارينكو وإ. س. شاركوفا الفشل في إقامة علاقات تجاريَّة منتظمة بين كلٍّ من روسيا والبندقيَّة في هذه المرحلة، بالعوامل التالية: المسافة الطويلة الفاصلة بين الدولتين، انعدام حرية =

تفسيرات كلٍّ من بطرسبورغ والبندقيَّة لفشل المفاوضات بشأن المعاهدة التجاريَّة. فقد اعتبرت كاترينا أنَّ البنادقة يسعون إلى إلقاء كامل المسؤوليَّة عن عواقب المعاهدة السياسيَّة على روسيا (نظرًا إلى المعارضة التركيَّة الثابتة حيال التقارب بين روسيا والبندقيَّة بالدرجة الأولى). وكما يظهر من الوثائق التي يذكرها المؤرِّخ ف. سينيكا، فإنَّ مجلس الشيوخ في البندقيَّة اعتبر أنَّ العلاقات القائمة بين البندقيَّة والباب العالي العثماني «موضوعيَّة»، ولذا فإنَّ تبادل السفراء ما بين روسيا والبندقيَّة يُخلُّ بالحياد الصارم الذي تتمسَّك به الأخيرة[73].

لم يكن موقع البندقيَّة في السياسة الدوليَّة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وازنًا، كما كان في القرن السابق. فقد وجدت الجمهوريَّة نفسها تدور في فلك جيرانها الأكثر جبروتًا، وبالدرجة الأولى إمبراطورية هابسبورغ[74]. وكما سنرى، فإنَّ المستشار النَّمساوي الكونت ف. أ. د. كاونيتس نفسه هو الذي سيُحدِّد موقع البندقيَّة في الحرب الروسيَّة - التركيَّة خلال الفترة الواقعة بين عامي 1768 و1774[75]. وأصبحت فيينا مركزًا للمفاوضات بين روسيا والبندقيَّة، وكان د. م. غوليتسين هو محرِّكها

= الملاحة في مضائق البحر الأسود، عدم تطوُّر الأسطول التجاري الروسي، جمود الطبقة التجاريَّة الروسيَّة، ومنافسة التجار الإنكليز والهولنديين، الوسطاء التجاريين بين روسيا وإيطالية: Комиссаренко & Шаркова, c. 325.

[قوميسارينكو وشاركوفا»، ص 325].

(73) جدير بالذكر أنَّ سينيكا نفسه كان مقتنعًا بأحقية مجلس شيوخ البندقيَّة التاريخية (Seneca, pp. 40-41). للاطلاع على تفاصيل القضية يُنظر رسالة د. م. غوليتسين من فيينا بتاريخ التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل 1766: *СбРИО*, t. 57, c. 525-527.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 57، ص 525-527].

المرسوم الملكي رقم 4 إلى د. م. غوليتسين في فيينا بتاريخ الثلاثين من حزيران/ يونيو 1766: *СбРИО*, t. 67, c. 8-9.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 67، ص 8-9].

(74) لمزيد من التفصيل، يُنظر: R. Cessi, *Storia della Repubblica di Venezia* (Frienze, 1981), pp. 672-680, 691.

(75) كان سفيرًا البندقيَّة في فيينا فخلال مرحلة الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى، رينيير وغرادنيغو، مقرَّبين جدًّا من كاونيتس. يُنظر: R. Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» *Atti del Reale Instituto Veneto di Science, Lettere ed Arti*, t. LXXIV, p. II. (1914-1915), p. 1578.

يُنظر أيضًا: Berti, p. 44.

الأساسي، بوصفه مصدر المعلومات الرئيس عن نوايا الإمبراطورة الروسيَّة والمعبِّر عن إرادتها.

استرشدت فيينا في موقفها من المفاوضات الروسيَّة - البندقيَّة باعتبارات منافعها الخاصة بالطبع. وتجلَّى ذلك في سنوات الحرب الروسيَّة - التركيَّة على أكمل وجه. فالنَّمسا، المحايدة من حيث الشكل، سعت إلى الحفاظ على توازن قوى فريد من نوعه، ونظرت بعين الإيجابيَّة إلى أعمال الأسطول الروسي في الأرخبيل[76]، لأنَّ نجاحات الأخوين أورلوف في حوض البحر المتوسِّط لم تلحق الضرر بالنمسا، بل أضرَّت بهيمنة فرنسا وإسبانيا والبندقيَّة في هذه المنطقة. في غضون ذلك، تعاطت فيينا بسلبيَّة مع تقدُّم القوَّات البريَّة الروسيَّة في بولندا وعلى طول شاطئ نهر الدانوب، إذ كانت نتيجة الحرب على البرِّ، بالقرب من حدود الإمبراطورية، تمسُّ النَّمسا على نحوٍ مباشر[77].

أتاحت سياسة فيينا المزدوجة لروسيا التعويل على دعم البندقيَّة لها في النزاع البحريِّ مع تركيا، لكن ضمن حدود معيَّنة: تلخَّص نشاط الدبلوماسيِّين الروس في البندقيَّة، المرتبط بالدرجة الأولى بكلٍّ من المركيز بانو ماروتسي والأمير د. م. غوليتسين، خلال فترة 1768-1775 في محاولات دائمة لإرغام البندقيَّة على اللعب بصورة مستقلَّة، وإقناعها بفرادة اللحظة التاريخيَّة المناسبة لتحرُّرها من النَّمسا. أمَّا بلاط فيينا فقاوم

---

(76) فُسِّر استقبال السُّفن الروسيَّة الودِّي في ليفورنو لاحقًا أيضًا بانتماء الأرشيدوق بيترو ليوبولدو إلى أسرة هابسبورغ المالكة. كما استقبلت تريستي التي كانت جزءًا من الإمبراطورية النمساوية، أيضًا، السفن الروسيَّة. يُنظر: C. Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» *Atti del Reale Instituto Veneto di Science, Lettere ed Arti*, t. LXXII, p. II (1912-1913), p. 1151.

(77) يُنظر تقرير ب. رينييرا من فيينا بتاريخ الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1769: Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» pp. 1579-1580; Wandruszka, p. 303.

ويُنظر أيضًا: П. П. Черкасов, *Двуглавый орел и королевские лилии: Становление русско-французских отношений в XVIII веке, 1700-1775* (М., 1995), с. 353.

[ب. ب. تشيركاسوف، **النسر ذو الرأسين والزنابق الملكية: تكون العلاقات الروسيَّة - الفرنسيَّة في القرن الثامن عشر**، 1700-1775 (موسكو، 1995)، ص 353].

هذه المحاولات بنشاط، مفضِّلًا الاضطلاع بدور الوسيط في سياسة البندقيَّة الخارجيَّة[78].

كما سبقت الإشارة، حدثت تغيُّرات حاسمة في العلاقات بين روسيا وبين البندقيَّة في عام 1768، وارتبطت بنشاط بانو ماروتسي[79]: ففي العاشر من آذار/مارس من هذا العام، عيَّنته كاترينا الثانية، من طرف واحد، قائمًا بالأعمال الروسيَّة في البندقيَّة، وكذلك لدى بلاطات الدول الإيطاليَّة الأخرى («chargé des Affaires de Notre Cour auprès de la Serenis. <si> me République de Venise et Autres Puissances d'Italie»)[80]. كان ماروتسي من رعايا جمهوريَّة البندقيَّة، وهو زار روسيا مرارًا في سبعينيَّات القرن الثامن عشر، وقام بدور الوساطة لدى اقتناء النبلاء الروس للتحف الفنيَّة في إيطاليا، بفضل علاقاته العائلية[81]. فقد استقرَّت أسرته في البندقيَّة منذ زمن طويل، ومارست التجارة

---

(78) Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» pp. 1575-1576, 1582-1583.

(79) عن ب. ماروتسي، يُنظر الفصل الأول. أكَّد ماروتسي، في الأول من أيلول/سبتمبر 1770، أنه يسعى منذ سبع سنوات (أي منذ عام 1763) إلى استمالة السياسي البندقي صاحب النفوذ الكبير أندريا ترون لدعم الجهود الرامية إلى إقامة علاقات دبلوماسية رسمية مع روسيا، على أساس المصالح التجاريَّة المشتركة في البحر الأسود بالدرجة الأولى (جرى الحديث عن هذه المفاوضات أعلاه)، ولكن ذلك يدل على أنَّ ماروتسي كان منخرطًا في فلك السياسة الروسيَّة منذ سنوات حكم كاترينا الأولى). وبحسب معطيات دائرة الوثائق التاريخية الروسيَّة، شغل ماروتسي مركز القائم بأعمال روسيا في مالطا (روسيا وأوروبا في القرن الثامن عشر)، في: https://bit.ly/35JqTAT

(80) Berti, pp. 44-45.

يُنظر أيضًا: C. Malagola, *L'istituzione della rappresentanza diplomatica di Venezia alla corte di Pietroburgo e una relazione sulla marina russa sotto Caterina II* (Venezia, 1906), pp. 9-10.

يُنظر في الفصل الأول أيضًا: مواد أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة المتعلِّقة بتعيين ماروتسي قائمًا بالأعمال الروسي.

(81) لمزيد من التفصيل، يُنظر: C. Maltezou, «Greci di Venezia al servizio della Russia nel Settecento,» in: *Море и берега. К 60-летию Сергея Павловича Карпова от коллег и учеников*, отв. ред. Р. М. Шукуров (М., 2009), с. 167-173.

[في: بحار وشواطئ: إلى سيرغي بافلوفيتش كاربوف من زملائه وتلامذته في ذكراه السنوية الستين (موسكو، 2009)، ص 167-173]. ساهم ماروتسي في الأعوام 1766-1768 في مفاوضات كاترينا مع تشيزاري باكاريا، حول رحلة الأخير إلى بطرسبورغ. يُنظر على سبيل المثال: C. Cantu, *Beccaria e il diritto penale* (Frienze, 1862), p. 167; *СбРИО*, t. 10 (СПб., 1872), c. 184-185 (письмо Екатерины И. П. Елагину 1767 г., письмо Маруцци к Елагину от 21 мая 1767 г.).

بنجاح. فكان أن ضَمَنَ ولاؤه للإمبراطوريّة الروسيّة وموهبته باعتباره رجل مالٍ مجرِّبًا وظيفة القائم بالأعمال، فضلًا عن سمعته العائليّة المستقرة في

---

= [مجلدات الجمعية التاريخية الروسيّة، مج 10 (سان بطرسبورغ، 1872)، ص 184-185 (رسالة كاترينا الثانية إلى إ. ب. يلاغين في عام 1767، ورسالة ماروتسي إلى يلاغين في 21 أيار/ مايو 1767)]؛ T. Cizova, «Beccaria in Russia,» *Slavonic and East European Review*, vol. 40, no. 95 (1962), pp. 384-408;

تلقّى ماروتسي طلبيّات لاقتناء تحف فنية من كاترينا الثانية (فقد كتبت الإمبراطورة إلى إ. ب. يلاغين: «بيرفيليفيتش: 'هل بإمكانكم اقتناء اللوحات التي جُلبت وفتحها ومعاينتها من دون ماروتسي؟ لقد تساءلنا عن ذلك بالأمس'»): *СбРИО*, t. 10, c. 255.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيّة، مج 10، ص 255].

يجري هنا الحديث عن ثماني لوحات دفع ثمنها في تشرين الأول/ أكتوبر 1767، وهي: المسيح المخلص، من بيلاد أمام الشعب المتأثر، لباولو فيرونزي؛ الطفل موسى محمولًا على مياه النيل، لباولو فيرونزي؛ الملكة السباتية تحمل الهدايا لسولومون، لأندريه سكيافوني؛ المسيح وبيلاد يقدمه للشعب، لتينتوريتو؛ حلم نبوخذ نصَّر، ليكوبو باسانة؛ أبيغائيل تزين داوود بالهدايا، وغضبه على زوجها نابال، لبادوانينو؛ أعجوبة يسوع عن الخبز والسمك، لبرناردو يتروتسي؛ انتصار غالاثيا على البحر، للوكا جوردانو: المرجع نفسه، ص 255-256. وكذلك د. م. غوليتسين (يُنظر رسالة ماروتسي إلى غوليتسين في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر): *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2043, Л. 43.

[أرشيف الدولة الروسيّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2043، الورقة 43].

وأمّا د. م. غوليتسين فقد كتب ماروتسي رسالة إليه بتاريخ 18/ 29 نيسان/ أبريل، يقول له فيها إنّه أرسل لوحتين إلى تشيفيتا بيكايا عبر ليفورنو. وكان ينبغي تحميلها على متن سفينة في تشيفيتا بيكايا، وفقًا لخطة الشحن التي اقترحها إ. إ. شوفالوف. اللوحة الأولى: «de Paul Fiamingo et représente Bacchus endromi»,

واللوحة الثانية: «de Gianni Ségala, represente Zelmire alletant son père dans la prison,» *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2044, Л. 36об.

[أرشيف الدولة الروسيّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، ظهر الورقة 36]؛

فضلًا عن ذلك، اقتنى ماروتسي لغوليتسين طقم أوانٍ للحلوى باهظ الثمن، مماثلًا للذي شاهده الأخير عند الكونت لوبوكوفيتس (رسالة ماروتسي إلى غوليتسين بتاريخ السادس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1769 - 6 كانون الثاني/ يناير 1770 من البندقيّة): *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 1-1об.

[أرشيف الدولة الروسيّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 1 - ظهر الورقة 1].

ووصلت طلبيّة من ن. ف. ربين (طلب ربين في رسالة إلى غوليتسين بتاريخ الرابع والعشرين من آذار/ مارس 1775، تسليم رسالة بخط يده إلى ماروتسي «يطلب فيها شراء ألواح مرايا وأدوات زينة =

البندقيَّة[82]. وتمثَّل طابع تعيين ماروتسي الاستثنائي في أنَّ كاترينا لم تأخذ في الاعتبار خطوات الجمهوريَّة الدبلوماسيَّة الجوابيَّة، بل كان المهمّ بالنسبة إليها فقط أن يكون لديها مبعوثها الخاص في إيطاليا عشية الحرب (لم يظهر قنصل البندقيَّة في بطرسبورغ إلا في ثمانينيَّات القرن الثامن عشر، أمَّا المعلومات عمَّا كان يجري في البلاط الروسي، فقد كان البنادقة يحصلون عليها من مبعوثيهم في فيينا وبرلين ومدريد وباريس ولندن وليفورنو والقسطنطينيَّة)[83]. وقد طلبت الإمبراطورة، ومعها ن. إ. بانين وأ. م. غوليتسين - اللذان وقعا النداء إلى سلطات البندقيَّة - من مجلس الشيوخ منح ماروتسي كل الحقوق والامتيازات التي تُوافق وضعه الدبلوماسي الجديد.

تضمَّن كتاب ك. مانفروني، الصادر منذ فترة بعيدة، تحليلًا لعلاقات روسيا والبندقيَّة[84]. فقد كان الهدف من المفاوضات التي جرت بوساطة من المبعوثين في فيينا: الروسي د. م. غوليتسين والبندقي باولو رينيير، عقد معاهدة تجاريَّة تتيح للسفن الروسيَّة الآتية من البلطيق التوقُّف في البندقيَّة

= أخرى لهذا الطقم [طقم أوانٍ للحلوى للسفارة في تساريغراد - المؤلف]، وإرسالها إلى تساريغراد»):
*СбРИО*, t. 5 (СПб., 1870), c. 170.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 5 (سان بطرسبورغ، 1870)، ص 170].

وقام ماروتسي أيضًا بدور الوسيط في مبادرة ترجمة «حياة» بطرس الأكبر للمؤلف ز. أورفلين (يُنظر رسائله إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 10-21 أيلول/ سبتمبر 1771، وبتاريخ الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1771- الرابع من كانون الثاني/ يناير 1772، وبتاريخ 17-28 آذار/ مارس 1772):
*РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2048, Л. 11, 47об.; Ед. хр. 2049, Л. 21.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2048، الورقة 11، ظهر الورقة 47؛ وحدة الحفظ 2049، الورقة 21].

(82) A. M. Alberti, «Venezia e la Russia alla fine del secolo XVIII (1770-1785),» in: *Archivio Veneto*, vol. X (1931), p. 235.

(83) Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» p. 1145.

(84) استنادًا إلى تقرير ب. رينييرا إلى مجلس الشيوخ في الثلاثين من نيسان/ أبريل 1768 (المرجع نفسه، ص 1147-1148) ظهرت الوثائق التي تتعلق بالمفاوضات قبل ذلك، في المصادر المنشورة في روسيا: يُنظر على سبيل المثال، الرسالة الملكيَّة الموجَّهة إلى د. م. غوليتسين في فيينا بتاريخ العاشر من آذار/ مارس 1768:
*СбРИО*, t. 87 (СПб., 1893), c. 42-43.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87 (سان بطرسبورغ، 1893)، ص 42-43].

(«لتقويم منفعة» هذا المسار و«ضرره»). ودلَّ ذلك في الوقت نفسه على أنَّ المصالح المتبادلة لكلٍّ من روسيا والبندقيَّة، ترتبط بمنطقة حوض البحر المتوسِّط. وفي محاولةٍ منها لإزالة كلِّ العقبات أمام تحقيق هذا الهدف، ولتخليص البندقيَّة من «الحرج» (أي أن تتوجَّه بنفسها بمبادرة نحو روسيا)، اتَّخذت كاترينا قرارًا يقضي بتعيين المركيز ماروتسي قائمًا بالأعمال في البندقيَّة.

عنى إعداد المعاهدة المحتملة ما بين روسيا والبندقيَّة التَّقارب المتبادل بين الدولتين؛ إذ إنَّه من الضروري، بحسب تفسير مانفروني، اعتبار تعيين ماروتسي بمثابة مواصلة منطقية للسياسة التي بدأت على تخوم العامين 1767 و1768 (فكما يبدو من المصادر الروسيَّة، كان تعيين ماروتسي بالنسبة إلى الإمبراطورة كاترينا الثانية يشكِّل خطوة في اتجاه تحقيق أهدافها البعيدة المدى في حوض البحر المتوسِّط الشرقي[85]. وفي المحصِّلة، وافق مجلس الشيوخ بعد فترة وجيزة على شروط الإمبراطورة الروسيَّة[86]. فإقامة العلاقات الدبلوماسيَّة مع روسيا من طرف واحد، أتاحت للبندقيَّة تلبية رغبة كاترينا والتبرُّؤ من هذه الخطوة أمام فيينا والقسطنطينيَّة في آنٍ واحد[87].

في أيار/مايو 1768، انتشر نبأ تعيين ماروتسي في إيطاليا كلِّها. وفي الثامن والعشرين من أيار/مايو، أبلغ مبعوث فلورنسا في البندقيَّة دومينيكو كوتيني حكومته بتعيين القائم الجديد بالأعمال. وأخذت تنتشر في توسكانة شائعات مفادها أنَّ ماروتسي صاحب الخبرة الكبيرة في شؤون البندقيَّة يعتزم القيام بمشاريع دبلوماسيَّة وماليَّة كثيرة. واستنادًا إلى هذه المعلومات، افترض كوتيني أنَّ نشاط ماروتسي لن يبقى من دون نتيجة. غير أنَّ حكومة البندقيَّة،

---

(85) ألحَّ د. م. غوليتسين على أنَّ الشائعات عن التطور الجذري في العلاقات بين البلدين، المرتبط بتعيين ماروتسي، مبالغ فيها إلى حدٍّ بعيد. فكلُّ ما فعلته كاترينا كان إحياء المبادرة التي تعود فكرتها والخطوات الأولى لتحقيقها إلى بطرس الأول: ASV, Dispacci degli Ambasciatori Senato, dalla Germania, filza 272.

يُنظر الفصل الأول.

(86) Berti, p. 45.

(87) Ibid., pp. 45-47.

كما أشار الدبلوماسي الفلورنسي، لم تكن تحبِّذ مشروعات التعاون التجاري مع البلدان الشماليَّة على الإطلاق[88].

ترسَّخ موقع ماروتسي «الرسمي» (بدايةً «من الجانب الروسي» بالطبع)، فكان ينبغي أن يستمر في نشاطه حتَّى ينشأ التوافق على بنود المعاهدة التجاريَّة. وكانت واجباته تشمل الاهتمام بالسفن الروسيَّة عند وصولها إلى البندقيَّة قادمةً من البلطيق. وهكذا، جاء في تقرير هيئة الشؤون الخارجية الموقَّع من ن. إ. بانين وأ. م. غوليتسين في الحادي والثلاثين من آب/ أغسطس 1767، ما يأتي:

«إنَّ المركيز ماروتسي، الأخ في الدين، ابن العائلة اليونانية المقيم في البندقيَّة منذ بعض الوقت، هو شخص، كما هو معروف، موسر جدًّا، ويملك فيها مكتبًا بارزًا للصيرفة. وهو يرغب في الإنعام عليه بمركز القائم بأعمال إمبراطوريَّة جلالتكم، بدافع نيل شرف الخدمة والحصانة المعلنة فحسب. وإنَّ تعيينه قائمًا بأعمال إمبراطوريَّة جلالتكم في جمهوريَّة البندقيَّة، وكذلك في كلِّ المرافئ الإيطاليَّة الأخرى، بشهادة اعتماد مفتوحة، على النحو الذي يُعيَّن به القناصل عادة، يحقِّق هدفًا مزدوجًا في هذه المهمَّة الجليلة. فجمهورية البندقيَّة ستحظى بذلك بالاحترام من جانب جلالتكم الإمبراطوريَّة، وستنال في الوقت نفسه الحماية من المخاطر المحتملة من جانب الأتراك، حيث إنَّه لن يُعتمد وزيرًا لديها كما تجري العادة، بل سيُعيَّن بوصفه مفوَّضًا لشؤون التجارة البحريَّة في إيطاليا كلها. ذاك من جهة، أمَّا من الجهة الأخرى، فلن يكون مستحبًّا، للسَّبب نفسه وبالدرجة الأولى، أن يُعتمد من جانب جلالتكم في إطار تبادل السفراء لإقامة الاتِّصالات المباشرة. وبذلك، فإنَّ المركيز ماروتسي يمكن أن يعود بالنفع على تجارتنا وعلى شؤوننا الأخرى، إذ ينال شرف خدمة جلالتكم الإمبراطوريَّة، ومن دون تحميل الخزينة أي أعباء مالية، ولا سيَّما في ما يتعلَّق بالتحويلات النقديَّة في المناطق الإيطاليَّة، لأنه سيكون بمثابة المصرفي الروسي الأول هناك»[89].

---

(88) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(89) *СбРИО*, t. 67, c. 451.
[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 67، ص 451].

جاء في وثيقة الاعتماد التي مُنحت لماروتسي في العاشر من آذار/ مارس 1768، ما يأتي:

«لأنّنا رأينا أنَّ من الضروري اعتماد قائم بالأعمال لروسيا في جمهوريَّة البندقيَّة المشرقة والمناطق الإيطاليَّة الأخرى، لرعاية شؤوننا وتجارتنا والذَّوْد عنها هناك، ولكي يحظى رعايانا الذاهبين إلى هناك لممارسة التجارة، بالحماية والمساعدة التي قد يحتاجون إليها، ولأنّنا علمنا بخصال المركيز ماروتسي الطيبة وسلوكه الحسن، وهو المقيم في البندقيَّة والموجود فيها حاليًّا، فقد اخترناه لمناقبه هذه قائمًا بالأعمال الروسيَّة في جمهوريَّة البندقيَّة المشرقة والمناطق الإيطاليَّة الأخرى، وكرَّسنا هذا التعيين في الوثيقة التي تنصُّ على قرارنا والموقَّعة من اللجنة. وإنَّا نتمنَّى على الحكَّام والمحافظين فيها الاعتراف بالمركيز المذكور قائمًا بأعمالنا، والسماح له بالقيام بهذه المهمَّة على أكمل وجه، ومنحه كل الحقوق والامتيازات والتسهيلات التي تتَّفق وهذه الصفة التي أسبغناها عليه، والتي يستفيد منها القائمون بالأعمال التابعون للملوك الآخرين، وتقديم المساعدة له في كلِّ الأمور التي نوكلها إليه، وإبداء كلِّ العون ومعاملته بالحُسنى. وإنَّا نتعهَّد في المقابل تقديم كلِّ ما يلزم عندما يُطلب منَّا ذلك»[90].

في غضون ذلك، كان لمجلس شيوخ البندقيَّة مطلق الحرِّية في إرسال وزيره إلى بطرسبورغ لإعداد المعاهدة. ومن المهمِّ في هذه الحال أنَّ قائمًا آخر بالأعمال تتناسب رتبته مع لقب مبعوث البندقيَّة العتيد في روسيا ومركزه، كان سيُستبدل بماروتسي. بالتالي، لم يكن وضع ماروتسي الرسمي في إيطاليا ثابتًا، إذ كانت مهمَّة تأمين الأسطول الروسي ماليًّا، التي كُلِّف بها مع بداية الحرب الروسيَّة – التركيَّة، مهمَّة دقيقةً جدًّا، وتطلَّبت جهودًا لا تتلاءم مع وضعه بوصفه قائمًا بالأعمال التجاريَّة[91]. فقد جاء في التعليمات التي تلقَّاها ماروتسي في العاشر من آذار/ مارس 1768 أنَّ مهمَّاته السياسيَّة «الحقيقيَّة» تتضمَّن العمل على إقامة

---

(90) *СбРИО*, t. 87, c. 43-44.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 87، ص 43-44].

(91) استنادًا إلى رسالة رينير إلى مجلس الشيوخ في الثلاثين من نيسان/ أبريل 1768:

Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» pp. 1147-1148.

علاقات مع مجلس شيوخ البندقيَّة، التي من شأنها أن تسهم في توطيد العلاقات الروسيَّة-البندقيَّة، وتمثيل روسيا في البلاطات الإيطاليَّة الأخرى، والرصد اليقظ لردَّات أفعال الباب العالي العثماني على القائم بالأعمال الروسي، ومراقبة الوضع الاقتصادي في الدول الإيطاليَّة (مع التركيز على ديناميَّة سياسة الأسعار فيها بوجه خاص)، والاعتناء بإخوة الدين الأرثوذكس الموجودين في إيطاليا[92]. وتمثَّلت وظيفة ماروتسي الثانية في البندقيَّة البالغة أهمِّيتها في العمل مع «الرأي العام»: ففضلًا عن التَّواصل مع نبلاء البندقيَّة[93] وتجنيد الأشخاص «المفيدين»، عمل المركيز بانتظام منذ بداية الحرب على نشر الأنباء التي كان يتلقَّاها من بطرسبورغ عن انتصارات الجيش الروسي، في الصحف الإيطاليَّة[94]. وكان يحقُّ لماروتسي التشفُّع لرعايا البلدان الأخرى ليُمنحوا الأوسمة الإمبراطوريَّة الرسميَّة (بما فيها حتَّى وسام القديس جاورجيوس المظفَّر)[95] لقاء الخدمات[96]. ثالثًا وأخيرًا، كانت مهمَّة ماروتسي تشمل أيضًا تأمين القروض المخصَّصة لحاجات الأسطول الروسي وتخليصها، وتوطيد العلاقات مع البيوتات المصرفيَّة الأوروبيَّة والإيطاليَّة،

---

(92) *СбРИО*, т. 87, с. 45-48.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 87، ص 45-48].

كان تبادل المعلومات يجري في الاتجاهين. فكان أ. م. غوليتسين يُطلع في رسائله ماروتسي على أخبار الجيش الروسي باستمرار. وفي المقابل، كان ماروتسي ينقل إليه الأخبار عن الجيش التركي، التي كانت تصله من مصادره، ويكتب له أيضًا عن الأحداث الإيطالية والأوروبية الداخلية.

(93) كما أشار ماروتسي في رسالة مشفَّرة إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ الحادي والعشرين من شباط/ فبراير - الرابع من آذار/ مارس 1769: «إن أصدقائي يعملون بأقصى طاقاتهم، لاستمالة عقول الناس إلينا»: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2044, Л. 23.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، الورقة 23 (النص الأصلي بالفرنسية)].

(94) كتب أ. م. غوليتسين عن ماروتسي هذا، تحديدًا، في رسائله بتاريخ 2-13 كانون الثاني/ يناير و23 كانون الثاني/ يناير-3 شباط/ فبراير 1770: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 3, 7об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 3، ظهر الورقة 7].

(95) يُنظر في هذا الخصوص رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين في 2-13 كانون الثاني/ يناير 1770 (المرجع نفسه).

(96) التي يقدِّمونها للدولة الروسيَّة. (المترجم)

والقيام بأيٍّ عمليَّات ماليَّة في إيطاليا وحفظ الأموال على نطاق أوسع[97]. كان تنفيذ المهمَّة الأخيرة يتَّسم بصعوبة بالغة. فمن جهة، كان قيام ماروتسي بدور الكفيل عند الحصول على القروض (من جنوى على وجه الخصوص)، يعرِّض سمعته وسمعة عائلته العمليَّة بصورة دائمة للخطر؛ ومن جهة أخرى، كان المركيز كثيرًا ما يتلقَّى اللوم من بطرسبورغ بسبب إنفاق الأموال غير المجدي وانعدام الشفافية في الحسابات (نتيجة التبذير في الأغلب، من جانب أ. غ. أورلوف، على سبيل المثال)[98].

تتكرَّر في رسائل ماروتسي إلى المسؤولين الرُّوس الطلبات بإرسال كتب توصية إلى البلاطات الإيطاليَّة الأخرى (نابولي، تورينو وفلورنسا، بالدرجة الأولى)، وذلك على مدى الحرب الروسيَّة - التركيَّة،[99] وتزويده أيضًا بالنسخة

---

(97) يُنظر على سبيل المثال: *СбРИО*, t. 1, c. 7, 13; *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 15об, 16, Л. 22, 22об.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 7، 13؛ **أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، ظهر الورقة 15 - الورقة 16، الورقة 22 - ظهر الورقة 22].

شارك القنصل البريطاني في ليفورنو د. ديك والعميل الروسي في توسكانة ر. راذيرفورد، ماروتسي في عمليَّات روسيا النقدية: *СбРИО*, t. 1, c. 37; *СбРИО*, t. 97 (СПб., 1896), c. 82; *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2049, Л. 25.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 37؛ **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97 (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 82؛ **أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2049، الورقة 25].

(98) هكذا، ففي عام 1771 اضطلع أ. أ. فيازيمسكي بدور «مضطهِد» ماروتسي (يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 30 تموز/يوليو - 10 آب/أغسطس): *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2047, Л. 25-28 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2047، الورقة 25 - ظهر الورقة 28].

(99) كتب القائم بالأعمال من فيينا في رسالته المؤرَّخة في 6-17 كانون الأول/ديسمبر 1768، على سبيل المثال، ما يأتي: «كتب لي أحد أصدقائي من تورينو، وهو ذو مركز مميز في البلاط هناك، يقول إنَّ وزير الخارجية قال له إنَّه سمع بارتياح نبأ تكليفي بمهمات القائم بأعمال جلالتكم الإمبراطوريَّة في إيطاليا كلها، وإنَّه لعلى يقين أن وثائق الاعتماد في حوزتي، وإنَّه سيكون من دواعي سروره البالغ أن يلتقيني في تورينو»: *СбРИО*, t. 87, c. 265.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 265 (النص الأصلي بالفرنسيَّة)]. =

الأصليَّة من كتاب الاعتماد الذي أُعطِيَ له في بطرسبورغ[100]. بيد أنَّ ماروتسي لم يحصل على هذه الوثائق بالرغم من طلباته المتكرِّرة، الأمر الذي أعاق نشاطه كثيرًا، وجعل وضعه بوصفه قائمًا بالأعمال غير مستقرٍّ إلى حدٍّ بعيد. فقد كانت الأوراق الرسمية تشير إلى أنَّه مبعوث إلى البندقيَّة وسائر إيطاليا، لكن هذه الصيغة لم تكن تتوافق مع الممارسة الدبلوماسيَّة إبَّان تلك الحقبة.

لم يلقَ نشاط ماروتسي حماسة تُذكر لدى سلطات البندقيَّة[101]، على الرغم من أنَّه راهن في البداية على علاقاتٍ متبادلةٍ مثمرة معها. فقد وصل ماروتسي إلى البندقيَّة قادمًا من روسيا، في نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1768، بعد توقُّف قرابة شهر ونصف الشهر في فيينا، أمضاها في المفاوضات مع أ. م. غوليتسين[102]. وكان عليه بعد ذلك تسليم أوراق اعتماده إلى مجلس الشيوخ، الذي لم ينعقد إلا في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1768، الذي كان

---

= وكتب ماروتسي يقول: «كما تحدَّث إلى ن. إ. بانين - قبيل سفره إلى روسيا - أنه يمكن أن تنشأ مصاعب في ما يتعلَّق بأوراق الاعتماد التي لا يُذكر فيها سوى البندقيَّة، وأنَّ ذلك لن يعجب البلاطات الأخرى، حيث يرد ذكرها مجتمعةً بعد ذكر الجمهوريَّة، ومن دون أيِّ تمييز (المرجع نفسه).

(100) يجدر بالذكر أنَّ عدد حالات التذكير وطلبات إرسال وثائق الاعتماد في رسائل ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين لا تحصى. وكانت المرَّة الأولى التي طلب فيها ماروتسي منحه صلاحيات أوسع في رسالته المؤرَّخة في 13-24 كانون الأول/ ديسمبر 1768: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2043, Л. 45-45об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2043، الورقة 45 - ظهر الورقة 45].

وقد لاحظ ماروتسي في رسالته إلى غوليتسين بتاريخ 31 تشرين الأول/ أكتوبر - 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1769 أنَّ وعودًا بهذا الخصوص قطعها له أ. غ. أورلوف: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2044, Л. 81.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، الورقة 81].

(101) Berti, p. 45.

(102) يتجلَّى خطُّ سير ماروتسي من روسيا إلى إيطاليا على نحوٍ بيِّن في رسائله إلى أ. غ. أورلوف. ففي الحادي والثلاثين من أيار/ مايو 1768 كان ماروتسي في ريغا، وفي 6-17 أيلول/ سبتمبر كان في فيينا، وفي 29 تشرين الأول/ أكتوبر - 9 تشرين الثاني/ نوفمبر في البندقيَّة: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2043, Л. 14об.-35.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2043، ظهر الورقة 14 - الورقة 35].

بمثابة نقطة بداية نشاطه في البندقيَّة، إذ اقترنت باندلاع الحرب الروسيَّة - التركيَّة، الأمر الذي أضفى على الفور أهمِّية بالغة على مهمَّته[103].

في الثالث والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر - الرابع من كانون الأول/

---

(103) هكذا، كتب أ. م. غوليتسين إلى ماروتسي في السادس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1768 ما يأتي: «لا يمكن إلا أن تكونوا على علم بقطع العلاقات بين روسيا والباب العالي... فنحن نفترض أنه علينا أن ننظر إلى صاحبة الجلالة الإمبراطورية، تمامًا كما ننظر إلى كلِّ الدول الأخرى التي لدينا علاقات مفتوحة معها، بما أن لدينا شخصًا معتمدًا من قِبَلِها، وأن نُطلعها على حقيقة علاقاتنا مع عدو المسيحيين المشترك. نفِّذوا ذلك بتسليم حكومتها نسخة دقيقة عن بياننا العام، من دون أن يقترن بأيِّ شيء يجعلها تبدو دعوة منَّا إلى التدخل في النزاع الغريب عنها؛ إذ ليس ثمَّة معاهدة تفرض عليها المشاركة فيه. فنحن لا يمكننا دعوة الجمهوريَّة إلى التورُّط في خصام مع جار خطر بسببنا، ولا نرغب في ذلك. هذا ما ينبغي أن تتلخَّص فيه مبادئ أعمالكم العلنية، وجوهر تفسيراتكم للحكومة. ولكنْ، يجب ألَّا تفوتوا الفرصة للتوضيح، من خلال أصدقائكم وبعض النبلاء - الذين تعلمون أنهم يرغبون منذ زمن في إقامة الجمهوريَّة علاقات أوثق معنا - بأنَّ الحرب بين الإمبراطورية الروسيَّة وهذا العدو القديم والخطر لدولة البندقيَّة، تتطلَّب تفهُّمًا كاملًا من جانب هذه الجمهوريَّة الحكيمة، وأنه لن يكون من قبيل المبالغة من جهتنا إذا ما افترضنا أنها ستميل إلى جانبنا، من دون التزامات محدَّدة في ما بيننا، وأنَّها لن ترفض دعم عمليَّاتنا في كلِّ الحالات وبشتَّى الوسائل، من دون أن يشكل ذلك عليها أيَّ خطر. ونحن إذ نعتبرها حذرة جدًّا في مسألة دخولها الحرب بطيش، إلا أننا نفترض أنَّها قد لا تفوِّت الفرصة، إذا ما سنحت، للتعويض عن الخسائر التي لا يمكن أن تنساها أبدًا. وإذا ما بارك الله سلاحنا بالنجاحات الحاسمة، بالقدر الذي يجعلها توقظ مثل هذه الرغبة لديها، فإننا سنراها تستغل من دون شك هذه الفرصة للتخريب على هذه العمليَّة الخطيرة التي تمثِّلها حربنا مع الأتراك. لقد حُضِّر لأعمال الحملة الأولى أو الثانية، وعليكم مواكباتها في توضيحاتكم. وسيكون كافيًا، إذا ما فكرت الجمهوريَّة بالحرب، أن تؤكِّدوا لها أننا سنُقبِلُ عليها في أيِّ وقت بكل الوسائل الضروريَّة كي نقوم بالعمل معًا. ونحن نكتفي في الوقت الحاضر بالطلب منها، مع التمسُّك بالسلام، أن توافق على الوسائل التي من شأنها تسهيل عمليَّاتنا، من دون أن تُظهر ذلك في العلن...»: *СбРИО*, t. 87, c. 217-219.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 217-219 (النص الأصلي بالفرنسية)].

تلقَّى ماروتسي التعليمات الآتية: «... بإمكانكم الإيحاء إلى أصدقائكم أنَّه إذا كانت الجمهوريَّة ترغب في إسداء الخدمة إلى روسيا، فبوسعها العمل على دعم شعلة الانتفاضة في أوساط أهالي الجبل الأسود. ويمكنها دعمهم بشكل غير مباشر، من خلال جمع مخازن صغيرة للذخائر الحربيَّة والمؤن الضروريَّة التي يمكنهم نهبها واستخدامها ضد الأتراك، بالقرب منهم عند الحدود الدلماسية. وأخيرًا، بإمكانكم، وفق ما ترون، الإيحاء إلى أعضاء مجلس الشيوخ ممَّن يحظون لديكم بثقة أكبر وممَّن تعتبرونهم الأكثر ميلًا إلى أن تستغل الجمهوريَّة حربنا لتحقيق المنافع للدولة، أن يوجهوا أعمال الجمهوريَّة. <...> عليكم استخدام معلوماتكم ومعارفكم المحليِّين لتقدِّموا أقصى فائدة ممكنة لصالح البلاط» (المرجع نفسه، ص 219-220 (النص الأصلي بالفرنسية)].

ديسمبر 1768، قُدِّمت أوراق اعتماد ماروتسي إلى مجلس الشيوخ في الجمهوريَّة[104]، وأشار القائم بالأعمال الروسي في رسالة إلى أ. م. غوليتسين، إلى «الحظوة» التي يحيطه بها أعضاء مجلس الشيوخ. ولقد خشي ماروتسي أن ينعكس تعيينه الجديد على وضعه كأحد رعايا البندقيَّة، بحيث يُمنع من زيارات مجتمع النُّبلاء المحليِّين[105]، إلا أنَّ شيئًا من هذا القبيل لم يحدث. فقد سُمح لماروتسي أن يكون منخرطًا في أوساط أرستقراطيِّي البندقيَّة، ومُنح الامتيازات عند تقديم المذكِّرات والتقارير الدبلوماسيَّة، الأمر الذي عزاه إلى جهود أصدقائه في مجلس الشيوخ، بل أكثر من ذلك، أثارت نجاحات ماروتسي، على حدِّ قوله، حسد العملاء والقائمين الآخرين بالأعمال، وبالتحديد الفرنسي والبروسي[106].

مع ذلك، سرعان ما ساءت العلاقات بين ماروتسي وسلطات البندقيَّة. وقد لاحظت أ. م. ألبيرتي – وهي مؤلِّفة دراسة خاصة عن العلاقات ما بين روسيا والبندقيَّة في تلك الحقبة – عن حقٍّ في هذا الصدد أنَّ بعض تصرُّفات ماروتسي

---

(104) *СбРИО*, t. I, c. 13.

**[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 13].**

جاء في الأمر الملكي الذي وجَّهته كاترينا إلى ماروتسي بتاريخ التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1769، وحدَّدت فيه طبيعة نشاطه، ما يأتي: «نكلِّفكم في المقابل إبلاغ الحكومة المحلِّية، وفقًا للمراسيم المعتادة، تحياتنا الصادقة، والتأكيد لها أننا نعتبر تساهل الجمهوريَّة في هذه الحال دليلًا صحيًا على ميلها الحقيقي إلى إقامة علاقات الصداقة والتواصل الطيب مع إمبراطوريتنا، وأنَّنا لن نتوانى في المقابل عن مبادلتها الموقف نفسه بإرادة صادقة، ونحن على يقين بأن صداقتنا المتبادلة وتوافقنا الطيب سيعودان بالفائدة على كلا الطرفين» (المرجع نفسه).

(105) يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين في 6-7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1768: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2043, Л. 38.

**[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2043، الورقة 38].**

(106) يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر – 10 كانون الأول/ ديسمبر 1768: المرجع نفسه، الورقة 42-45. لاحظ ن. إ. بانين في رسالة إلى ماروتسي بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس 1770 أنَّ «هذا البلاط (الفرنسي – المؤلف) يترك هناك قائمًا بالأعمال مزوَّدًا بوثيقة اعتماد من الملك، بهدف المماحكة فحسب والمطالبة بكل ما يُسمح لكم به، فيحقِّق مراميه بهذه الطريقة غير المباشرة»: *СбРИО*, t. 97, c. 129.

**[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 97، ص 129].**

ما كانت لتبعث على الثقة إزاءه لدى مجلس شيوخ البندقيَّة. وكانت محاولته تنظيم جولة لأحد الضباط الروس في ترسانة البندقيَّة، من بين هذه الممارسات. فضلًا عن ذلك، أرغم ماروتسي في كانون الأول/ ديسمبر 1768 كاهن الكنيسة اليونانيَّة في البندقيَّة على أداء موشَّح ديني مُهدى إلى كاترينا الثانية وحربها ضد الأتراك، الأمر الذي أثار السخط، للسببين التاليين على وجه الخصوص: **أولًا**، لأنَّ مثل هذا التكريم لا يؤدَّى إلا للدوق؛ **ثانيًا**، كان من شأن الدعوات العلنيَّة للحرب ضد تركيا أن تحطَّ من قدر الجمهوريَّة في نظر السلطان، الذي تربطها معه معاهدة سلام[107].

ترك تدخُّل روسيا في شؤون الجبل الأسود أثرًا سلبيًّا على العلاقات ما بين روسيا والبندقيَّة. ففي رسالتين مؤرَّختين في الثامن والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر والخامس من كانون الأول/ ديسمبر 1767 (بحسب التقويم الجديد)، أبلغ القنصل الفلورنسي في البندقيَّة كوتيني السلطات التوسكانيَّة بأمر منتحل الصفة ستيفانو (بيكولو). فأوضح المبعوث في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر أنه بناءً على المعلومات الأدقِّ التي حصل عليها من السلطات التوسكانيَّة في دلماسيا مؤخَّرًا، ظهر في الجبل الأسود شخصٌ يدعى ستيبان مالي - بيكولو، أعلن أنه بطرس الثالث، زاعمًا أنه نجا من الموت والملاحقات، ويعيش منذ بضع سنوات بين أهالي الجبل الأسود. جمع «بيكولو» فصيلًا من مؤيِّديه، وظهر على رأسه عند حدود دلماسيا بالقرب من مدينة كاتارو (كوتور)، وأخذ يتصرَّف كأنه سيِّد الممتلكات الفلورنسيَّة[108].

في الثلاثين من نيسان/ أبريل 1768، كتب كوتيني إلى فلورنسا عن ردَّة فعل الإمبراطورة كاترينا الثانية على الأحداث في الجبل الأسود، وإعادة زوجها المتوفَّى إلى الحياة. فقد أبلغ السفير الروسي في فيينا الأمير غوليتسين المبعوث الفلورنسي رينيير أنَّ الإمبراطورة قرَّرت إرسال مستشار خاص إلى هذه المنطقة هو السيِّد ميرك (Merch)، بعد توجيهها نداءات عديمة الجدوى إلى أهالي

(107) Alberti, p. 234; Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» p. 1149.

(108) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

الجبل الأسود وإلى «البابا الأول» رئيس الكنيسة الأرثوذكسيَّة المحلِّية؛ إذ أقدم المحتال الذي زعم أنه بطرس الثالث شخصيًّا على توجيه الإهانات إلى كاترينا وروسيا والبندقيَّة، على الرغم من الدعم الذي قدَّمته روسيا إلى الجبل الأسود في القرن الثامن عشر. فهدَّدت الإمبراطورة الروسيَّة بحرمان الجبل الأسود من عطفها وسخائها، إذا ما فشلت مهمَّة مبعوثها الخاص.

من المهمِّ أنَّ كاترينا حاولت الاستفادة من وحدة مصالح كلٍّ من روسيا والبندقيَّة في الجبل الأسود، لتنسيق الجهود المشتركة، فاقترحت على مجلس شيوخ البندقيَّة مؤازرة نشاط العميل الروسي في الجبل الأسود، وهو نشاط من شأنه أن يعود بالمنفعة على الدولتين، بحسب اعتقادها. غير أنَّ الجمهوريَّة الحذرة سارعت - عبر رينيير - إلى رفض اقتراح روسيا بلطف، متذرِّعةً بالصلح مع الباب العالي العثماني(109). فضلًا عن ذلك، أمرت حكومة البندقيَّة مبعوثها بإطلاع سلطات فيينا على سير المفاوضات مع د. م. غوليتسين، حيث إنَّ هذه السلطات كانت راضية عن موقف البندقيَّة، كما ذكر كوتيني في رسالته العاجلة(110).

أدَّى عدم ارتياح الباب العالي العثماني من نشاط ماروتسي، وكذلك أنشطة مبعوث الإمبراطورة الروسيَّة في الجبل الأسود، إلى تعقيدات كبيرة في العلاقات بين روسيا والبندقيَّة خلال شتاء 1768-1769(111). ففي العاشر من كانون الأول/ ديسمبر 1768، كتب القنصل التوسكاني إلى فلورنسا - عقب

---

(109) جاء في الأمر الملكي الذي صادقت عليه كاترينا في الثاني عشر من أيار/ مايو (9 أيار/ مايو 1768)، وتلقَّاه د. م. غوليتسين في فيينا في الرابع عشر من الشهر نفسه ما يأتي: «لاحظنا بدهشة كبيرة كيف أنَّ مجلس الشيوخ، وبذريعة تخوُّف البندقيَّة المزعوم، لم يتهرَّب من دعم ميرك ومساعدته في المهمَّة المعروفة الموكلة إليه فحسب، بل رفض التعاطي معه كليًّا»: *СбРИО*, t. 87, c. 86-87.
[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 86-87].
يُنظر رسالة ن. إ. بانين إلى غوليتسين في فيينا بتاريخ السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769: المرجع نفسه، ص 508-510.

(110) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(111) على أساس تقرير رينيير إلى مجلس الشيوخ بتاريخ الثلاثين من نيسان/ أبريل 1768: Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» pp. 1147-1148.

تعيين ماروتسي قائمًا بالأعمال لدى مجلس شيوخ البندقيّة مباشرة - يقول إنّ تركيا أخبرت حكومة البندقيّة (عبر سفيرها في القسطنطينيّة) أنّها تنظر بسلبية فائقة إلى إقامة علاقات دبلوماسيّة بين البندقيّة وروسيا، وترى ضرورة الالتزام التامّ ببنود معاهدة الصلح في بساروفيتش لعام 1718. فأكّدت البندقيّة في جوابها احترامها المعاهدات الموقّعة سابقًا، وتمسُّكها الصارم باستراتيجية الحياد التي اختارتها في الحرب الناشبة[112]. أمّا في ما يتعلّق بوجود المبعوث الروسي ماروتسي في البندقيّة فلا ينبغي أن يثير قلق تركيا: ذلك أنّ صلاحياته كانت تقتصر على الشؤون التجاريّة فحسب، ما لا علاقة له البتّة بالأمور السياسيّة. وأشار البنادقة إلى أنّ وضع ماروتسي لم يحدَّد بصورة دقيقة، لأنّ لدى المركيز الأوراق نفسها التي يُقدِّمها في كل الدول الإيطالية. فضلًا عن ذلك، أعطيت لمبعوث البندقيّة في القسطنطينيّة التعليمات ليُوضِّح للوزير شخصيًّا حقيقة وضع ماروتسي في الجمهوريّة: ذلك أنّ التاجر الأرثوذكسيّ الغنيّ ماروتسي إنّما حصل من روسيا على لقب مبعوث مكافأةً له، وأنّ مثل هذه الألقاب لا تتمتّع بأيِّ أهمّية في أوروبا.

بهذا المعنى تحديدًا فسّرت حكومة البندقيّة حديث د. م. غوليتسين مع باولو رينيير، وهو ما كتب عنه الأخير من فيينا الرسالة العاجلة الآنفة الذكر بتاريخ الثلاثين من نيسان/ أبريل 1768. فقد نقل عن غوليتسين وصفه ماروتسي بأنه شخص «بلا أصل، عديم الموهبة، ولا يفقه شيئًا ولا عمل له»[113].

هكذا، يظهر من رسالة كوتيني أنّ نشاط ماروتسي الذي كان يُفتَرَض أن يؤمِّن الدعم لروسيا في حربها ضد تركيا، بدا ملتبسًا منذ البداية على نحوٍ مزدوج: كأنّ مجال صلاحيات المبعوث الروسي كان مقيّدًا بصورة حادّة ومفرَّغًا من محتواه السياسي، إضافة إلى أنه زُعم تزويد الوزير الروسي في فيينا بتعليمات لنزع الثقة بماروتسي عمليًّا عند ظهور أوضاع خلافيّة[114].

---

(112) C. Manfroni, «La Campagna navale russo-turca (1770-1771),» *La Revisita Marittima* (Roma), Quarto trimester, vol. 4 (Dicembre 1913), p. 499.

(113) «Senza nscita, senza talanti, mai iniziato negl'affari, e senza commissioni,» (ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317).

(114) Ibid.

اشتدَّ قلق القسطنطينيَّة من التحالف المحتمَل بين كلٍّ من روسيا والبندقيَّة، نظرًا إلى انتشار شائعات لا تُصدَّق عن الحرب الروسيَّة - التركيَّة. فقد وردت في آذار/ مارس 1769 أنباء إلى البندقيَّة تزعم أنَّ إنكلترا قامت بعملية «تخريبية» في البحر المتوسِّط وهاجمت الأتراك. وكان اليونانيون من رعايا البندقيَّة على يقين تام حينذاك أنَّ روسيا عقدت تحالفًا وديًّا مع البندقيَّة رمى إلى طرد الأتراك من مورية؛ فضلًا عن انتشار شائعات أخرى تتعلق باتِّفاقات تفصيليَّة، زاعمةً أنَّ البندقيَّة حصلت على مورية وكريت، لقاء مشاركتها في الحرب إلى جانب روسيا. ويرى الباحثون أنَّ ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، الذي كان موجودًا في توسكانة حينذاك، كان مع مَنِ ارتبط به من المبعوثين الروس في اليونان مصدر هذه الأخبار الكاذبة، سعيًا منهم إلى تحريض اليونانيِّين على الانتفاضة الشاملة[115].

من الواضح أنَّ البندقيَّة سعت إلى الحفاظ على الحياد في الحرب الناشبة بشتَّى الوسائل. فكما أكَّد رينيير في حديث مع كاونيتس، كانت الأعمال الحربيَّة تهدِّد البندقيَّة بأخطار جمَّة، كتراجع التجارة مع المشرق، وانتفاضة رعايا الجمهوريَّة اليونانيين، والشكوك من جانب تركيا. كما أنَّ الأنباء في صدد استعداد الأسطول الروسي للانطلاق من كرونشتاد، لم تسهم في ارتفاع منسوب التفاؤل لدى البنادقة، فاضطرَّت كاترينا الثانية إلى التأكيد لرينيير باستمرار، عبر السفير في فيينا د. م. غوليتسين، على علاقات الصداقة بين روسيا والجمهوريَّة.

انتشرت شائعة في عددٍ من الدول الأوروبيَّة خلال عام 1769 أطلقتها الصحافة الهولنديَّة، بحيث لم تتناول التحالف هذه المرَّة، بل عداء البندقيَّة لروسيا. وعلى الرغم من طابع الأخبار الكاذبة هذه، كان الكثيرون في أوروبا مستعدِّين لتصديقها. وتصاعدت مجدَّدًا اتِّهاماتٌ بحقِّ البندقيَّة في القسطنطينيَّة تزعم أنَّها تساعد روسيا، (فاضطرَّ المبعوث في البندقيَّة إلى نفيها مرارًا). وسعت الجمهوريَّة إلى الحفاظ على حيادها، على الرغم من التوقُّعات بلجوئها إلى أعمالٍ نشِطة[116].

(115) Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» pp. 1149-1150.

(116) رأت كاترينا الثانية أنَّ موقف البندقيَّة من الوجود الروسي في حوض البحر المتوسِّط =

## أ. غ. أورلوف في البندقيَّة. البندقيَّة والدول الإيطاليَّة

وصل ألكسي وفيودور أورلوف إلى البندقيَّة في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر - الثامن من كانون الأول/ ديسمبر 1768[117]. وكان عليهما التيقُّن ممَّا إذا كان من الممكن استخدامها رأسَ جسرٍ

---

= سيتغيَّر نحو الأفضل، نظرًا إلى نجاحات الأسطول الروسي في مورية، فكتبت إلى غ. أ. سبيريدوف، في الأمر الملكي في الخامس عشر من تموز/ يوليو 1769: «إنها (البندقيَّة - المؤلف) ترغب منذ زمن بعيد في أوثق اتِّحاد معنا، ولكنَّها لا تجرؤ على إظهار ذلك بوضوح، خوفًا من مجاورتها الأتراك. وليس ثمَّة شك في أنَّ البنادقة يتمنَّون في سريرة أنفسهم الخير لنا، ذلك أنَّ من مصلحتهم هزيمة القوة التركيَّة وتقهقرها، ولكنَّهم سيظلُّون يتمسَّكون في الظاهر بموجبات الخوف المذكور، إلا إذا جعلتهم نجاحاتنا السريعة المهمَّة ينزعون القناع. عليكم، استنادًا إلى ذلك، التعامل مع الجمهوريَّة والتواصل مع المجلس ومطالبته، عندما يتيح الوقت لذلك، عبر القائم بأعمالنا في البندقيَّة المستشار الفاعل المركيز ماروتسي، الذي لن يتوانى من جهته عن تقديم كلِّ المعلومات الضرورية لكم»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 372.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 372].

ووجَّهت الإمبراطورة الأمر نفسه إلى الكونتر-أميرال آرف في عام 1770، وأضافت إليه ما يأتي: «... إلا إذا كان فرار رعاياهم من أبناء ديننا الأرثوذكسي، الذين خرجوا من أراضيهم وممتلكاتهم للمشاركة بالأعمال الحربية، يثير الإرباك في موقفهم من حربنا الراهنة»: *СбРИО*, t. 1, c. 129.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 129].

(117) حُدِّد التاريخ بناءً على رسالة ب. ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر - العاشر من كانون الأول/ ديسمبر 1768: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2043, Л. 43.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2043، الورقة 43].

وصل الأخوان أورلوف إلى البندقيَّة عبر فيينا التي وصلا إليها في الرابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر - الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1768 (يُنظر رسالة د. م. غوليتسين إلى نائب المستشار أ. م. غوليتسين بتاريخ الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر - الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر 1768 من فيينا: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, in: *Русский архив*, 1876, no. 7, c. 271.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، العدد 7، ص 271 (النص الأصلي باللغة الفرنسية)]:

أمّ الأخوان أورلوف خلال شهر تقريبًا حفلات الاستقبال ومسارح الأوبرا، وما شاكلها. وجدير بالذكر أن د. م. غوليتسين أشار إلى عدم رغبة الأخوين أورلوف في إقامة أيِّ اتِّصالات مع ممثِّلي «مجتمع النبلاء» في فيينا (المرجع نفسه؛ رسالة بتاريخ 5-16 تشرين الأول/ أكتوبر 1768). وعلى العكس، سعى الأخوان أورلوف إلى اتباع نمط حياة أكثر انفتاحًا، أثناء وجودهما في فيينا في السنوات اللاحقة.

للسفن الروسيَّة في البحر المتوسِّط. وقد زوَّدت كاترينا ألكسي أورلوف بالتَّوجيهات الآتية:

«عليكم إبقاء هذه المسألة سرِّية تمامًا حتَّى حين، لأنَّ السرية هي جوهر كلِّ الأعمال، وهي ضروريَّة اليوم أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، لأنَّنا لا نزال حتَّى الآن غير واثقين من أفكار جمهوريَّة البندقيَّة وأفعالها، إلى أنْ ترى أنَّ الأمور تتَّجه نحو تلبُّد الغيوم السوداء فوق الأتراك. وهذا في مصلحتها، بالطبع؛ إذ يمكن أن تجد في ذلك فرصة لاستعادة مورية، التي لا تزال خسارتها حسرةً في قلبها. فهي، نظرًا إلى سياسة المداراة المُفرِطة التي اعتادت سلوكَها، ستخشى أيَّ حركة على حدودها، تحسُّبًا لاستثارة الأتراك الذين تخشاهم إلى أقصى الحدود، وكي لا يلجأ أبناء الجبل الأسود والشعوب الأخرى المختلطة بهم إلى الضرب على حدودها، وهم المعتادون على الحروب الدائمة واقتناص الغنائم، عندما يتصالحون مع الأتراك. من هنا، لا بدَّ من أن تكون كلُّ أمورنا واستعداداتنا، هنا وعندكم، مموَّهة بحيث لا تنكشف فجأة وبأيِّ شكلٍ من الأشكال»[118].

كان الضابطان الروسيان الأخوان أورلوف (أو أسلوف، «d'Asloff») في البندقيَّة رسميًّا من أجل التعرُّف إلى المعالم المحلِّية، بحسب رواية المبعوث التوسكاني في البندقيَّة دومينيكو كوتيني في رسالته المستعجلة بتاريخ الخامس عشر من نيسان/ أبريل 1769. ومع ذلك، أثار سلوكهما المحايد في الظاهر الشكوك، ففُرِضَت عليهما رقابةٌ سرِّية. وسرعان ما تبيَّن أنَّ الأخوين أورلوف سحبا مرَّتين مبلغًا كبيرًا من المال من أحد المصرفيِّين المحلِّيِّين (عشرون ألف دوكات). وجعل نمط حياة الوجيهين الروسيَّين المتواضع في الظاهر سلطات البندقيَّة تعتقد أنَّهما قاما بتوزيع هذه النقود بطريقة سريَّة ما.

---

(118) *СбРИО*, t. 1, c. 10-11.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 10-11].

الأمر الملكي بتاريخ التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير 1769: «بعد احتلال الأتراك القسطنطينية، اضطرَّت البندقيَّة إلى التخلي لمحمد الثاني عن العديد من الجزر في الأرخبيل وعن مورية. وقد استعادت جزءًا من شبه الجزيرة هذه في عام 1687، إلا أنَّها خسرتها مجدَّدًا في عام 1715 وتخلَّت البندقيَّة عن مورية نهائيًّا، بموجب معاهدة الصلح التي عقدت في بساروفيتش في عام 1718» (المرجع نفسه، ص 10).

ولم تقتنع هذه السلطات بالتوضيحات التي قدّماها، حيث زعما أنَّ الأموال أنفقت على التبرُّعات[119] وعلى الألعاب[120] (أيكون الورق من بينها؟)[121].



البندقية (منظر من على جسر ريالتو)

(119) سجل ك. ل. ك. ريوليير وقائع توزيع الأخوين أورلوف التبرعات: «كانا يظهران في المعابد الدينيَّة (اليونانية – المؤلف) يوميًّا، فيظهران التزامهما الديني، ما جعل هذه الشعوب المتديِّنة بدورها ترى فيهما ممثِّلين لراعي ديانتها الأعلى. وكانا يتوقَّفان عند مداخل هذه الكنائس، محاطين بحاشية من الناس المحتشدين حولهما، فيدسَّان أيديهما في جيوبهما، المليئة بالنقود الذهبية والفضية، ويوزعانها عليهم، متباهين بالرحمة والأبهة. اقتباس من: B. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (M., 1996), c. 182.

[ف. بلوغين، **أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف – تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال** (موسكو، 1996)، ص 182].

(120) لم تكن هذه المسألة، إضافة إلى أمور أخرى، تتطابق مع الحقيقة، بحسب ما كانت ترى سلطات البندقيَّة. فالأخوان أورلوف تمكَّنا من جني أرباح طائلة من ألعاب الورق.

(121) كتب ف. إيفانوفيتش عن أنَّ الأخوين أورلوف كان يلعبان الورق، استنادًا إلى تقارير الدبلوماسيِّين الراغوزيين في توسكانة: Ivancevic, pp. 29-30.

وساورت هذه السلطات الشكوك في أنَّ الأخوين أورلوف يجنِّدان الناس لخدمة روسيا[122]، وسرعان ما اكتشفت قائمة بالأشخاص الذين جُنِّدوا. فقد تبيَّن عند التحقيق أنَّ بعض رعايا البندقيَّة غير موجودين في أماكن إقامتهم. وإذ افترضت حكومة البندقيَّة أنَّ خطط أ. غ. أورلف كانت تتضمَّن تشكيل فيلق من رعايا الدول الأخرى، فهي ألمَحَت إلى الأخوين أورلوف بضرورة مغادرة البندقيَّة[123]، وباستحالة إقامة قاعدة للأسطول الروسي فيها، فغادرا توسكانة[124] في نيسان/ أبريل 1769[125].

بعد رحيل الأخوين أورلوف من البندقيَّة، انتقلت وظيفة عميل الإمبراطورة الروسيَّة الرئيس في هذه المدينة نهائيًّا إلى بانو ماروتسي، الذي حصل في أيار/ مايو 1769 في روسيا على منصب المستشار الفعلي[126]، وما لبث أن

(122) كتب ي. ف. دولغوروكوف عن ذلك أيضًا: «مذكِّرات الأمير يوري فلاديميروفيتش دولغوروكوف، 1740–1830»، **روسيا الزمن الغابر**، العدد 9 (1889)، ص 491.

عن صلات الأخوين أورلوف مع ف. س. تامارا واليونانيين، وتحديدًا غ. بابازولي، في البندقيَّة، يُنظر: Плугин, c. 188-190.

[بلوغين، ص 188–190].

(123) يُنظر رسالة مارك إلى د. م. غوليتسين من فيينا بتاريخ الخامس من آب/ أغسطس 1769 (بحسب التقويم الجديد): «لا شك لديَّ في أن سعادتكم على علم بنيَّة الكونتين الأخوين أورلوف الشروع ببناء تحصينات بحريَّة هنا ضد الأتراك. وعلى أقل تقدير، فقد جمع أكبرهما لهذا الغرض عددًا من السلافيِّين واليونانيِّين من رعايا هذه الجمهوريَّة، بتحريض من أصحاب الغايات المغرضة الطامعين بالمكاسب. فقررت الحكومة أنَّ عليه ألَّا يضمر هذا الشر، واضطرَّت إلى إخطار هذين السيدين بضرورة الرحيل بأسرع ما يمكن، ومنعت رعاياها من الانضمام إليهما، تحت طائلة المعاقبة بتهمة ارتكاب جريمة ضد الدولة»: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, c. 281.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، ص 281 (النص الأصلي باللغة الفرنسية)].

(124) يرد في رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 7–18 آذار/ مارس 1769 أنَّ الأخوين أورلوف لا يزالان في البندقيَّة، بينما تذكر الرسالة المؤرَّخة في 18–29 نيسان/ أبريل أنهما موجودان في بيزا: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. I, Ед. хр. 2044, Л. 33, 36 об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، الورقة 33، ظهر الورقة 36].

(125) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(126) يُنظر مشروع رسالة ن. إ. بانين إلى ماروتسي بتاريخ العشرين من أيار/ مايو 1769: *СбРИО*, t. 87, c. 436.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 436].

أتى إلى توسكانة في الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، عشيَّة وصول الأسطول الروسي إلى ليفورنو، للتَّباحث مع ألكسي أورلوف. وفي الثامن عشر من الشهر نفسه، وصل ماروتسي إلى بيزا ليقدم نفسه إلى القائد العام للأسطول الروسي[127]. وليس من المستبعد أن تكون نقاشات مجلس وزراء البندقيَّة[128] بشأن الوجود الروسي المحتمل في حوض البحر المتوسِّط، هي موضوع الحديث الذي دار بين ماروتسي وأورلوف. ويمكننا الحكم على مواقف الأطراف من خلال التقرير الذي أرسله كوتيني، المبعوث الفلورنسي في البندقيَّة، في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769. فقد أكَّد أحد رؤساء المجلس، ف. ت. فوسكاري، أنَّ من المستبعد ظهور الأسطول الروسي في الأرخبيل في شتاء 1769-1770، وذلك لعدة أسباب، هي: الطريق الطويل الذي يتعيَّن على السُّفن اجتيازه من كرونشتاد إلى اليونان، فصل الشتاء غير الملائم تمامًا للملاحة الهادئة، عدم وجود مرافئ حليفة في المشرق، وبالتالي انعدام إمكانية التزوُّد بالمؤن، وأخيرًا الرَّقابة على تحرُّك الأسطول من جانب الدول الكبرى البحريَّة المعنيَّة. واقترح فوسكاري نبذ المخاوف معتبرًا أنَّها نابعة من خيال اليونانيِّين الخصب وهوسهم بالسعي إلى استعادة الإمبراطوريَّة البائدة. وأكَّد فوسكاري أنَّه لا يرى أفاقًا جدِّية لدى القوات الروسيَّة للقيام بأعمال قتاليَّة ناجحة في الأرخبيل في المستقبل[129]. وبحسب رأيه، فإنَّ فرنسا ذات المصالح

---

(127) *GT*, 1769, 43. 174; *NM*, 1769, 85. 700; *NM*, 1769, 84. 691.

(128) Collegio dei savi.

(129) كتبت كاترينا الثانية إلى فولتير في 8-19 كانون الثاني/ يناير 1770 بفطنة: «... إن أوروبا الحكيمة لا تستصوب مخطَّطاتي، إلا بعد تحقُّق النجاح السعيد» (مقتبسة من: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 10، ص 401). وجاء في رسالة ن. إ. بانين إلى ماروتسي المؤرَّخة في الحادي والعشرين من تموز/ يوليو 1769: «عليكم الآن، ولا سيَّما بعد وصول القوات البحريَّة إلى البحر المتوسِّط، إبلاغ أصدقائكم وأولئك الأشخاص المحليِّين الذين يمكنكم الاتكال عليهم بذلك على نحوٍ سرِّي، وإفهام هؤلاء وأولئك بمهارة إلى أيِّ حدٍّ يمكن أن يكون مشروعنا ملائمًا لمصالح الجمهوريَّة، وأن فوائدها منه ستتضاعف إذا ما رغبت بالعمل معنا ضد العدو المشترك؛ وسنبذل عندئذٍ أقصى جهودنا لزيادة قواتنا في تلك المنطقة كي نعمل معًا بحيوية أكبر؛ وأنَّ كل المكتسبات ستكون في مصلحة البنادقة، لأننا لا نرغب بها ولا يمكن بهذه البلدان النائية؛ وأنه سيكون بوسعها التعويض بسرعة عن خسائرها القديمة، ومن ثَمَّ استعادة مجدها الغابر. هذه فقط بعض التلميحات التي ينبغي أن تقدِّموها، مع إمكان مضاعفتها تبعًا للانطباعات التي ستتركها على سامعيها. لكن، إذا لاحظتم إمكان استمالة =

التجاريَّة في المشرق وفي مصر لن تسمح أبدًا بتغيير نظام العلاقات القائم في البحر المتوسِّط. كما أنَّ إنكلترا - التي تساعد روسيا في الظاهر - لن تخاطر أيضًا بقطع العلاقات مع الباب العالي العثماني، خوفًا من أن يُقدِّم هذا الأخير امتيازات تجاريَّة خاصَّة إلى فرنسا، ما يمكن أن يؤدِّي إلى عواقب اقتصاديَّة وخيمة على بريطانيا. أمَّا بخصوص العمليَّات البرية، فلن يسمح إمبراطور النَّمسا بأيِّ شكلٍ من الأشكال بحصول مثل هذا الإخلال الحاد بميزان القوى في بولندا، التي تفصل بين ممتلكاته والممتلكات الروسيَّة. بناءً عليه، افترض فوسكاري أنَّ تأهُّب القوات النمساوية القتالي على حدود الإمبراطوريَّة يسمح بالرهان على الاستقرار الأوروبي في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة. وعلى جمهوريَّة البندقيَّة، في ظلِّ الوضع الناشئ، عدم تسريع تجهيز الأسطول البحري للعام المقبل، تحت تأثير الأنباء الاستفزازية بمجيء السفن الروسيَّة[130].

---

= الجمهوريَّة حتَّى ولو بعد بدء عملياتنا وبعد بعض النجاحات التي تحققها، فعليكم في مثل هذه الحال العمل بصراحة أكبر والإيحاء جهارًا وبالعبارات المطلوبة بأنَّ الإمبراطورة مستعدَّة للتكاتف مع الجمهوريَّة وأن تنتزع لها كلَّ المنافع التي ترغب فيها في الحاضر والمستقبل. في غضون ذلك، اعملوا على أن تتلقَّى عماراتنا البحريَّة كل ما تحتاج إليه من دعم في ممتلكات البندقيَّة، مع الدفع نقدًا، كما هو معمول به عادة، وعلى أن تحصل على الإذن لها بالدخول إلى المرافئ؛ وكونوا على يقين من أنَّ رجالنا سيحافظون هناك على الانضباط التام. وإذا ما أعاقت مخاوفُ ما إعطاء هذا الإذن علنًا، فعليكم السعي إلى الحصول عليه سرًّا، مع إمكان إثارة ضجَّةٍ ما بعد ذلك في هذا الخصوص. وعليكم أن تقدِّموا مع هذا الطلب كل التأكيدات أن أميرالات الإمبراطورة لن يعيقوا الملاحة البحريَّة أمام المسيحيين، بل على العكس سيدافعون عن أيِّ سفينة مسيحية، ولا سيَّما تلك التي ترفع علم البندقيَّة، من اعتداءات البرابرة: СбРИО, t. 87, c. 457-458.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 457-458 (النص الأصلي بالفرنسية)].

(130) هكذا قوّم برناردو تانوتشي، رئيس حكومة نابولي، قبل فترة وجيزة، الوضع الناشئ في أوروبا في رسالة إلى فرديناندو غالياني في الحادي عشر من شباط/ فبراير 1769 (من كازيرتا): «يبقى انتظار ما يمكن أن تقوله إنكلترا. فهي ستختار الحياد، إذا ما انتصرت لديها الروح المصرفية والتجارية. أمَّا إذا غلبت السياسة ومصلحة الدولة العليا، فهي ستعلن الحرب على الأتراك، وسترسل الأسطول إلى البحر المتوسِّط. وإذا كانت مواجهة روسيا وحدها تحتاج إلى أسطولين، فإنَّ مواجهة روسيا وإنكلترا مجتمعتين تحتاج إلى أوروبا كلها»، واعتبر تانوتشي أنَّ النَّمسا هي الدولة الوحيدة القادرة على «ترويض روسيا»: «Rimane a vedree Inghilterra cosa dice. Se prevale lo spirit bancale e commercial, restera neutral; se vince la politica e la ragion di Stato, dovra intimar guerra al Turco, ed ecco flotta nel Mediterraneo. Sicché, contro la Russia sola, ci voglion due; contro Russia ed Inghilterra, ci vuole tutta Europa» (Tanucci, p. 311).

ويُظهر موقف فوسكاري مرة أخرى، ليس القصور في فطنة المسؤولين البنادقة فحسب، بل كذلك روح الابتكار الاستثنائية لدى الإمبراطورة الروسيَّة، التي لم تكن أوروبا ترغب في الإقرار بخطورة أفعالها.

استمرَّت النقاشات حول أعمال أسطول البندقيَّة المحتملة في ضوء وصول العمائر البحريَّة الروسيَّة، حتَّى بداية عام 1770[131]. هكذا، لاحظ القنصل التوسكاني كوتيني في رسالة عاجلة بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1769، حين كان قد مر شهر واحد على رسو قسمٍ من السفن الروسيَّة في بورت ماغون: «الحقيقة أنَّ من لا يرى هذا بأُمِّ العين، يصعب عليه تصديق حالة الإرباك والتشتُّت الذهني السائد لدى هؤلاء السادة (أعضاء مجلس وزراء البندقيَّة) في ما يتعلَّق بهذه القضية»[132].

في حديث بين رينيير ود. م. غوليتسين حصل في فيينا في خريف عام 1769، أجاب غوليتسين عن سؤال يتعلَّق بخطط روسيا العسكريَّة، فقال إنَّ القيادة البحريَّة تلقَّت أمرًا يقضي بالالتزام في كلِّ الأحوال بالقوانين المعمول بها في مرافئ جمهوريَّة البندقيَّة وممتلكاتها. واعترض رينيير قائلًا إنَّه سُجِّلت حالاتٌ كثيرةٌ من تجنيد رعايا البندقيَّة في إيطاليا (وصولًا إلى روما) وألبانيا، للخدمة لدى روسيا[133]. غير أنَّ غوليتسين تهرَّب من الإجابة عن الملاحظة الأخيرة، وأكَّد مجدَّدًا نوايا كاترينا الودِّية إزاء البندقيَّة[134].

---

(131) كتب ن. إ. بانين إلى ماروتسي في السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، بخصوص هذه النقاشات، قائلًا: «نعرف جيدًا أنه لا بد من الصبر مع حكومة مفرطة في الحذر كحكومة البندقيَّة، ولكن مع ذلك، إذا ما أدت الثقة بقواتنا وبسلوكنا، إلى إحياء ثقتها بقوتها الذاتية، أكان عاجلًا أم آجلًا، فسنكون مستعدِّين دائمًا لأخذ ذلك في الحسبان، ولن نحسد البنادقة إذا ما جنوا المنافع من نجاحاتنا»:
*СбРИО*, t. 87, c. 507.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 507 (النص الأصلي باللغة الفرنسيَّة)].

(132) «Sembra a dir vero duro a credesri per chi non puo consecerdo sul fatto, qual sia l'imbarazzo, e il diverso opinare di questi Signori su tale proposito» (ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317);

يُنظر أيضًا رسالة كوتيني بتاريخ الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1769.

(133) يُنظر أيضًا رسالة كوتيني المستعجلة بتاريخ الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769:
ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(134) Ibid.

تضاعف قلق البنادقة أكثر، مع اقتراب عمليَّات الأسطول الروسي العسكريَّة من الأدرياتيكي في الربيع. فسعت البندقيَّة بالوسائل الدبلوماسيَّة إلى ضمان وحدة الدول الإيطاليَّة في إعلان الحياد في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة. وتركَّز اهتمام البنادقة الزائد على توسكانة وجنوى، وكذلك على مملكة نابولي. فكتب مجلس شيوخ البندقيَّة إلى مبعوثه في نابولي في الثامن عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، عن ضرورة متابعة تحرُّكات الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط بكل دقَّة وانتباه. وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769، أبلغ المبعوث التوسكاني في نابولي جوزيبي بونيكي أنَّ زميله البندقي تلقَّى معلومات مقلقة عن اقتراب عمارة بحرية روسية، وطلب من الحكومة المحليَّة إبداء التضامن مع حكومته[135].

في غضون ذلك، تابع ماروتسي العمل، ولم تبقَ جهوده (كما كتب كوتيني إلى فلورنسا في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769) خفيَّةً عن عيون شرطة البندقيَّة السرِّية[136]. فقد لفتت تحرُّكات ماروتسي في إيطاليا انتباه هذه الأخيرة، ولا سيَّما الأموال التي تلقَّاها من روسيا في الأشهر الأخيرة، ورحلته إلى توسكانة برفقة ضابطين روسيين، انتباهها[137]. وتضمَّنت رسالة كوتيني المستعجلة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر تقويمًا عامًّا لنشاط ماروتسي، حيث جاء فيها أنَّ حكومة البندقيَّة كانت على يقين من أنَّ نشاط القائم بالأعمال الروسي لم يحقِّق نجاحًا يُذكر في توسكانة. وأكَّد النبيل البندقي جيرولامو موتشينيغو، العائد من روما عبر توسكانة، «أنَّ ماروتسي يُعامل في توسكانة تمامًا كما في البندقيَّة...»، أي إنَّه لا يحظى بتعاطفٍ خاصٍّ[138]. ووافقه الرأي عن بُعدٍ ف. س. تامارا، الذي كتب إلى نائب المستشار أ. م. غوليتسين من

---

(135) ASV, Senato, Corti, Registro 146, 1769. F. 159; ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2337.

(136) Inquisitori di Stato.

(137) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(138) «Mostrano questi Signori di sapere, che non abbia avuto nessun signifi cante accoglimento a codesta Parte il Ministro di Moscovia Maruzzi, e tanto più si confermano in quest'opinione all'udire, che il Sig. Girolamo Mocenigo (che dal suo viaggio di Roma passò per costì) asserisce, che anche in Toscana esso fû considerato, quale in Venezia pur si considera...» (Ibid.).

البندقيَّة في 1-12 أيار/ مايو 1769، قائلًا: «ليس اليونانيون وحدهم من يكره ماروتسي هنا، بل النُّبلاء البنادقة أيضًا. وليس صحيحًا أنَّ بيته يحفل بالزوار، كما يروي الفارس س. مارك (المقصود المبعوث ميرك - المؤلف)، بل على العكس، لا أحد يزوره، ولا سيَّما بعد خلافه مع الأخوين المعروفين باعتبارهما شخصين جيِّدين. إنَّه موضع تهكُّم سافر. <...> لقد حُذِّر الكونتان الأخَوَان أورلوف بشأنه بجدية»[139]. ومع ذلك، واصل القائم بالأعمال الروسي نشاطه بنجاح، فكتب كوتيني في رسالته المستعجلة بتاريخ التاسع من كانون الأول/ ديسمبر 1769 أنَّ ماروتسي تلقَّى باستمرار حوالات من بطرسبورغ مُستَحَقَّة الدفع في أمستردام. وكان ماروتسي يستبدل هذه الحوالات في البندقيَّة أسبوعيًّا بالدوكات المحليَّة، بما يعادل عشرين فلورين[140].

أثار نشاط الأخوين أورلوف في ليفورنو عدم الارتياح في البندقيَّة أيضًا، ارتباطًا باحتمال الإخلال بالتوازن العسكري في منطقة البحر المتوسِّط[141]. فأطلع مجلس شيوخ البندقيَّة سفيره في فيينا في الثالث عشر من أيار/ مايو 1769 على الوضع في توسكانة. وبناءً على معلومات من تجَّار ليفورنيين لم تُذكر أسماؤهم، يعتزم أشخاص روس من أصحاب المقامات الرفيعة، وصلوا مؤخرًا إلى بيزا، توزيع امتيازات صادرة عن الإمبراطوريَّة الروسيَّة في

---

(139) К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 284.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 284 (النص الأصلي باللغة الفرنسيَّة)].

أضاف تامارا في الرسالة نفسها: «أُعلِن في اليوم الثاني بعد وصولي إلى بيزا أنَّ المركيز تلقَّى أمرًا من قضاة التفتيش يخطرونه فيه بضرورة مغادرة المدينة. وقد تحدَّث وزير الإمبراطور عن ذلك بصوتٍ عالٍ. ودَعا ماروتسي المدَّعين العامين مرارًا إلى الغداء، ولكن لم يلبِّ أحد منهم الدعوة. ولم يتسنَّ لي التعرُّف تمامًا إلى الأمور، لكي أحكم على طبيعة عمله، ولكن يمكن الافتراض، بناءً على هذه الإهانات، بأنَّه قد يكون كُلِّف بمهمَّات خارج المدينة، ذلك أنَّ وجوده هنا عديم الجدوى» (المرجع نفسه). ويمكن أن تفسر المسألة الآتية موقف تامارا غير الودِّي إزاء ماروتسي على نحوٍ جزئي: «إنَّني أعاني العوز في كلِّ شيء، فالمركيز ماروتسي منع عني النقود بما يعادل ثلثي راتبي» (المرجع نفسه).

(140) المرجع نفسه.

رسالة دومينيكو كوتيني المستعجلة بتاريخ العشرين من أيار/ مايو 1769.

(141) المرجع نفسه.

ليفورنو[142]. واحتُجز في ليفورنو للسبب نفسه قباطنة يحملون وثائق إنكليزية مزوَّرة، حيث كانوا يعتزمون السفر إلى بورت ماغون، للانضمام إلى الروس والقتال ضد الأتراك والسُّفن الراغوزية. وأعلن أيضًا أنَّ سلافيين من رعايا البندقيَّة، خبراء في الملاحة وبناء السفن (ذُكرت أسماء لوبوفيتش، روكوفيتش، مارينكو، إيفانوفيتش، كاميناروفيتش، وغيرهم)، توجَّهوا إلى توسكانة سرًّا. ورأى القبطان البندقي غاسبارو مورو في فيراري عددًا كبيرًا من الأشخاص المتحدِّرين من كاتارو، المدينة التابعة للبندقية في الجبل الأسود، الذين يحملون أسلحة باردة ونارية، فأبلغ مجلس الشيوخ بذلك. كان مَنْ في البندقيَّة على يقين أنَّ كل هؤلاء الأشخاص يعتزمون الذهاب إلى الحرب ضد تركيا إلى جانب الروس، الأمر الذي استدعى فرض رقابة فاعلة من جانب حكومة البندقيَّة، ذلك أنَّ حياد الجمهوريَّة يُحظِّر على رعاياها المشاركة في هذه الحرب إلى جانب روسيا.

بدا لمجلس الشيوخ أنَّ من المشكوك فيه أن يرفض اليونانيُّون والألبان الأرثوذكس الاتصال بالممثِّلين الروس في إيطاليا، وكان من شأن ذلك أن يثير الارتياب لدى الباب العالي حتمًا. وفي المحصِّلة، أقرَّ مجلس الشيوخ مرسومًا خاصًّا قضى بمنع رعايا البندقيَّة من المشاركة في أعمال روسيا القتاليَّة ضد تركيا، معتبرًا مخالفة هذا القرار بمثابة جريمة ضد الدولة. وأُرسل المرسوم إلى كلٍّ من لندن وفيينا والقسطنطينيَّة، وكذلك إلى سلطات البندقيَّة في المشرق ودلماسيا وألبانيا[143]، وتُرجم أيضًا إلى اللغتين اليونانيَّة والكرواتيَّة. وقد سعت البندقيَّة بذلك إلى تلافي الاتِّهامات بتعاطف مواطنيها مع أحد الجانبين

---

(142) سُمح لأرولوف، بموجب أمر ملكي بتاريخ الرابع من آذار/ مارس 1769 بمنح الرتب العسكريَّة بصورة مستقلة، من رتب صف ضابط وحتَّى رتبة نقيب ضمنًا، «لأولئك الأشخاص من الوجهاء المحليين الذين ترون أنَّهم يقدِّمون خدمات نافعة فعلًا، أو على الأقل الذين ترون أنهم مستعدِّين لفعل ذلك، ولكن ليس من دون مكافأة مسبقة»: *СбРИО*, t. 1, c. 14.
[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 14].

(143) وُضعت شروحات الوضع المفصَّلة في الأدرياتيكي ولموقف البندقيَّة المرتكز على الالتزام ببنود معاهدة الصلح في باساروفيتش، الموجهة إلى الحكومة الفرنسية، وأرسلت في التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1769: ASV, Senato, Corti, Registro 146, 1769.159 verso.

المتحاربين، وإلى تأكيد حيادها الخاص[144]. وألقيت مسؤوليَّة خاصة في الوضع الناشئ على فرنشيسكو بيكي، قنصل البندقيَّة في ليفورنو، الذي كُلِّف بمراقبة رعايا الجمهوريَّة، مع إمكان ترحيلهم إلى البندقيَّة[145].

---

(144) Ibid., 48-49 verso.

(145) على سبيل المثال، أعلن بيكي في الثاني من حزيران/ يونيو 1769، أنه لا يوجد أحدٌ عمليًا في ليفورنو من المتحدِّرين من ممتلكات البندقيَّة في دلماسيا: ASV, Inquisitori di Stato. Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

وفي السادس عشر من حزيران/ يونيو أفاد أنَّ عدد السلافيين من رعايا البندقيَّة في المدينة قد ارتفع (نحو العشرين شخصًا): كانوا يتنقلون بين مدن توسكانة وليغوريا الساحلية. وبعد أسبوع من ذلك، كتب القنصل إلى البندقيَّة أنه على الرغم من عدم وجود سفن جاهزة في ليفورنو مخصصة للانضمام إلى الأسطول الروسي في ما بعد، استمرَّ وصول أشخاص إلى المدينة من كاتارو يسعون إلى الدخول في خدمة روسيا (تقرير بتاريخ الثالث والعشرين من حزيران/ يونيو 1769): ASV, Inquisitori di Stato. Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

وهذا مثال آخر من تجربة قنصل البندقيَّة في ليفورنو: «قبل يومين من إبحار الأسطول الروسي (أي في العاشر من نيسان/ أبريل 1770 - المؤلف)، زارني في بيتي شخص يدعى جورجيو لوكاشيفيتش، وهو رئيس الدلماسيين الذين يخدمون لدى الروس. أخبرني أنه هو ورفاقه البالغ عددهم اثنا عشر رجلًا يودون العودة إلى خدمة سيِّدهم صاحب السعادة الحاكم، إذا ما ضمنت لهم العفو عن فعلتهم، والالتحاق بجيش سعادته، لأنهم لم يكونوا في الخدمة عندما غادروا منازلهم. فأوضحت لهم في إجابتي أنه لا يمكنني إعطاء جواب دقيق، ولا يحق لي تقديم أيِّ ضمانة، ولكنني على يقين من أنهم سيلقون معاملة حسنة إذا ما عادوا إلى صاحب السعادة الحاكم. وقد كرَّر لوكاشيفيتش المذكور أنهم لن يذهبوا إلى أي مكان من دون ضمانة، وتوسل إليَّ لأبلِّغ إسعادتكم عن عزمهم هذا إذا ما مُنحوا العفو، وكذلك إبلاغ سفير البندقيَّة في مالطا، التي سيقصدها الدلماسيون على السفن الروسيَّة الراسية هنا. وأضاف لوكاشيفيتش أنَّ ثمَّة في مالطا اثني عشر سلافيًا آخر ينبغي إعادتهم...» - من تقرير فرنشيسكو بيكي بتاريخ الثالث عشر من نيسان/ أبريل 1770: ((Due giorni prima della partenza della fl otta russa - comparve in mia casa di notte tempo un tale Giorgio Lucacevich capo delli Schiavoni, che sono addetti al servizio dei Russi, e mi rappresentò, che tanto esso, che dodici suoi compagni, che qui si ritrovavono, sarebbero stati intenzionati di ritornare al servizio del loro Serenissimo Principe, sempre che da me' gli fosse stata data sicurezza di non essere castigati per il passo anno fatto, e di poter essere impiegati nell'armata del Medesimo Serenissimo Principe, giacché quando si dipartirono dalle loro case, non avevano alcun impiego; a tale proposizione le fû da me soggionto, che non potevo darle precisa risposta, ne tam poco avevo facoltà di darle alcuna sicurezza, ma che in quanto a me averei creduto, che ritornando al loro Serenissimo Principe sarebbero stati benignamente accolti; ma nuovamente mi replicò il predetto Lucacevichm che senza d'una sicurezza non voleano moversi, con pregarmi di rassegnar alle LL. EE. questa loro intenzione, e che degnandosi i concederle tal grazia, né avessero fatta precorrere la notizia al Veneto Ministro di Malta, per dove erano per incaminarsi colle navi Russe di qui; e più m'aggionse il detto Lucacevich, che in detta Malta vi si ritrovavano altri dodici d'essi Schiavoni che s'impegna di fare ritornare anche quelli...»): Ibid.

السلافيون الذين صعدوا إلى متن السفن الروسيَّة في ليفورنو هم: جورجيو لوكافيتش (الرئيس)، =

إذا كان الأخَوَان أورلوف قد نجحا في توفير الظروف الضروريَّة لوجود أسطول كاترينا في توسكانة، فقد ظلَّت سلطات البندقيَّة تتخوَّف من الوجود العسكري الروسي في إيطاليا. وسعى التوسكانيُّون إلى إقناع البنادقة أنَّ الأرشيدوقيَّة ستلتزم الحياد، غير أن الوقائع كانت تدلُّ على أنَّ رقابة موظفي بيترو ليوبولدو على الروس لم تكن صارمة[146]. وفي الوقت نفسه تقريبًا أبلغ القنصل الفلورنسي في البندقيَّة كوتيني عن تخوُّف البنادقة من الأعمال الجارية في جنوى لتجهيز السفن الحربيَّة الروسيَّة[147]. ولم تؤدِّ انتصارات القوات الروسيَّة البريَّة إلا إلى تفاقم قلق حكومة البندقيَّة المتزايد على مصير مستعمرات البندقيَّة في الحرب البحريَّة الناشبة[148]. أمَّا روسيا، فقد واصلت من جهتها العمل عبر مبعوثيها في البلاطات الأوروبيَّة (وتحديدًا في لندن وفيينا) على إقناع البنادقة أنَّ الأسطول الروسي لن يلحق أيَّ ضررٍ بممتلكاتها في البحر المتوسِّط[149].

استخدم روبرتو تشيسي في دراساته العلميَّة التي أجراها في عام 1915 مصدرًا مثيرًا للفضول، هو مدوَّنات أحاديث ماروتسي مع المدعو دراغانيتش المحفوظة في أرشيف الدولة بالبندقيَّة (أرسل دراغانيتش هذه المدوَّنات إلى الشرطة السرية «Inquisitori di Stato»). وكان دراغانيتش هذا يقوم بدور

---

= سيمون ملينيريتش، تريفون بالابان، بيترو دابوفيتش، ماتيو كلاريتش، كريستوفانو بيتروفيتش، زوان بانوفيتش، ماركو بانوفيتش، كريستوفانو ميدين، زوان دالماتينيتس، إيليا من كاستيلنووفو وميكيل ياكوبو. يُنظر أيضًا: Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» p. 1156.

(146) أشار قنصل البندقيَّة في ليفورنو بيكي، في تقريره بتاريخ الثاني من حزيران/ يونيو 1769، إلى أنَّ سفينة إنكليزية اشتراها الإنكليز مؤخَّرًا تبحر تحت العلم الإنكليز، وسترفع العلم الروسي في أحد المرافئ على البحر المتوسِّط: ASV, Inquisitori di Stato. Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

(147) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

يُنظر أيضًا الفصل الذي يتناول العلاقات الروسيَّة - الجنويَّة أثناء الحرب بين عامي 1768 و1774 في هذا الكتاب.

(148) Ibid.

تقرير كوتيني بتاريخ السادس من كانون الثاني/ يناير 1770.

(149) Ibid.

تقرير كوتيني بتاريخ الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير 1770.

أشبه بدور الوسيط «الرسمي» بين ماروتسي وسلطات البندقيَّة. وكان القائم بالأعمال الروسي يعلم أنَّ أحاديثه تصل إلى أعضاء مجلس الشيوخ، وكان بإمكانه أن يستشفَّ في الوقت نفسه موقف البنادقة من شخصه، من خلال مزاج دراغانيتش. وكما بيَّن تشيسي، كان عام 1770 إحدى المحطَّات المحوريَّة في مهمَّة ماروتسي الدبلوماسيَّة، حيث كانت مهمَّته تتمثَّل في جرِّ البندقيَّة إلى النزاع مع تركيا إلى جانب روسيا.

كان نشاط ماروتسي، بحسب رأي تشيسي، محكومًا بالحدود الآتية: فمن جهة، لم يكن بوسع مجلس الشيوخ، إعاقة دفاعه عن البلاط الذي يمثِّله بوسائله الخاصة، بحكم وضعه الدبلوماسي[150]. من جهة أخرى، لم يكن ماروتسي قادرًا بأيِّ شكلٍ من الأشكال، على التأثير في قرارات مجلس الشيوخ المتعلِّقة بالتقارب مع روسيا. وفي المحصِّلة، كان مضطرًّا إلى الاكتفاء بالعمل سرًّا على تجنيد أشخاص جدد للخدمة لدى روسيا وتأمين الدعم المالي للأسطول، في حين حاول مجلس الشيوخ وضع العراقيل أمامه[151]. فضلًا عن ذلك، لم تكن علاقات ماروتسي المعقَّدة مع مجلس الشيوخ في البندقيَّة[152] والمواقف السلبيَّة من نشاطه في النَّمسا، وحدها التي وضعت العراقيل أمام هذا النشاط، بل وكذلك تبعيَّة المركيز المطلقة للمبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين، الذي وصفه ماروتسي في أحد أحاديثه بأنه «شخص كسول إلى حدٍّ كبير، ميَّالٌ إلى الملذَّات والرَّفاهية، لا يهتمُّ بالأعمال، متهاون، عديم الاكتراث بكلِّ ما يمكن أن يقلق راحته»[153].

---

(150) هكذا، كتب باولو رينير، الذي أصبح مبعوثًا للبندقيَّة في القسطنطينيَّة، إلى نيقولو فوسكاريني في البندقيَّة، في السابع عشر من آب/ أغسطس 1773: «ينبغي ترك بلاط بطرسبورغ من دون مبعوث 'في البندقيَّة'»: Berti, p. 45.

(151) Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» p. 1585.

(152) Ibid., pp. 1587-1588; Berti, p. 45.

(153) Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» pp. 1577, 1584. (النص الأصلي بالإيطاليَّة). يُنظر الرأي الوارد في الحديث مع دراغانيتش، المدوَّن في الثاني والعشرين نيسان/ أبريل 1770: المرجع نفسه، ص 1587. وقدم مبعوث البندقيَّة في فيينا د. غرادينيغو وصفًا مماثلًا لغوليتسين. يُنظر الرسالة المستعجلة في التاسع عشر من آذار/ مارس 1774: Alberti, p. 238.

اقتربت الحرب من حدود البندقيَّة، مع نزول القوات الروسيَّة وبداية الأعمال القتالية في مورية في ربيع عام 1770. وتنطبق الكلمات التي كتبتها الإمبراطورة الروسيَّة إلى ف. غ. أورلوف في الثاني والعشرين من نيسان/ أبريل 1770، على البنادقة بالكامل: «لم يكن أحد يرغب في البداية بتصديق أننا وصلنا إلى هذا المكان، بل إنَّنا أقدمنا على مهاجمة عدونا. فقد اعتقد الكل بأننا سنطوف في البحر، ثم نعود أدراجنا من دون أن نفعل شيئًا. والآن، ها هم قد أدركوا خطأهم. فتحوا أعينهم، فلا يدرون ماذا يقولون وكيف يتصرَّفون، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم...»[154].

## بانو ماروتسي خلال عامي 1770 و1771

حلَّت محلَّ عدم وضوح الوضع الدولي والتباس الوضع الخاص للمركيز ماروتسي، - اللذين ميَّزا بداية مهمَّته الدبلوماسيَّة - مرحلةٌ اتَّسمت بتعزُّز ملحوظ في موقعه قائمًا بالأعمال الروسي. ففي عام 1770 بلغ نشاطه لاجتذاب البندقيَّة إلى جانب روسيا الذروة[155].

---

(154) *СбРИО*, t. 10, c. 416.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 10، ص 416].

(155) انتهى عام 1796 بصورة جيدة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى ماروتسي. ففي 11-22 كانون الأول/ ديسمبر، أبلغ أ. م. غوليتسين أنَّ مجلس الشيوخ في البندقيَّة، سمح لكل من هو على صلة بالبلاط الروسي، بعبور حدود الجمهوريَّة من دون عائق. وفي الرسالة التالية - بتاريخ 13-24 كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه - أشار ماروتسي: «أمَّا في ما يتعلَّق بمزاج الحكومة المحلية، فأعتقد أنَّه تغيَّر بعض الشيء، والدليل على ذلك السماح بالعبور»: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2044, Л. 82об, 84.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، ظهر الورقة 82، الورقة 84 (النص الأصلي بالفرنسية)]:

وفي السادس عشر من كانون الثاني/ يناير 1770، كتب ن. إ. بانو إلى ماروتسي في هذا الصدد: «عليكم توجيه التحيَّة شكليًّا باسم صاحبة الجلالة إلى مجلس الشيوخ، للموقف الذي اتَّخذه في حربنا الراهنة مع الباب العالي، المتوافق مع الصداقة القائمة بين الإمبراطورية والجمهورية؛ ولكن، نظرًا إلى الحذر القلق الذي يتَّسم به موقف الجمهوريَّة دائمًا، ربما لن يكون مُريحًا بالنسبة إليها الترويج الكبير لقرارها وإيلاؤه أهمِّية خاصة، من خلال التعبير عن شكرها علنًا، ربما تجدون أنَّ من الأفضل الاكتفاء بإبلاغ أولئك الشيوخ الذين لديكم علاقات معهم، بالمشاعر التي تملَّكت بلاطكم عند تلقِّيه تقريركم بشأن موقف مجلس الشيوخ هذا، وكذلك التأكيد لهم أنه بإمكانهم دائمًا الاعتماد على عواطف روسيا الثابتة تجاه الجمهوريَّة»: *СбРИО*, t. 97, c. 14-15. =

في آذار/ مارس 1770، عشيَّة بدء الأعمال القتاليَّة في اليونان[156]، أبلغ ماروتسي حكومة البندقيَّة بواسطة رجله المقرَّب دراغانيتش أنَّ روسيا تتطلَّع إلى التعاون مع الجمهوريَّة. وأضاف ماروتسي من عنده - وهذا ما سيكون بمثابة حجَّته الأساسيَّة في جداله مع السياسيِّين البنادقة - أنَّ على البندقيَّة الارتباط بمعاهدة مع روسيا على الفور، لأنَّ كاترينا الثانية لن تكون، بعد تحقيقها المكاسب في البحر المتوسِّط معنيَّةً بالصداقة مع البنادقة الذين يمرُّون بمرحلة عصيبة. فضلًا عن ذلك، يمكن التحالف مع روسيا تخليص الجمهوريَّة من المشكلات الدائمة مع السكَّان اليونانيِّين في الجزر التابعة لها، الذين يقعون تحت قدر معيَّن من تأثير بطرسبورغ[157]. وفي أيٍّ حال، كانت روسيا أيضًا بحاجة إلى توطيد العلاقات مع البندقيَّة، لأنَّ العلاقات بين البلاطين الروسي والنمساوي تردَّت إلى حدٍّ كبير في تلك الفترة. ففي آذار/ مارس 1770، أعاقت فيينا عمليًّا تعيين القنصل الروسي في تريستي (اختارت كاترينا لهذا المنصب اليوناني أنطون بابو)[158].

---

= **[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97، ص 14-15 (النص الأصلي بالفرنسيَّة)].

وكُلف ماروتسي بالعمل بكل الوسائل المتاحة على دفع البندقيَّة لاتخاذ مواقف أكثر حسمًا.

(156) توجَّه ماروتسي حينها، في التاسع من آذار/ مارس، من البندقيَّة إلى بيزا حاملًا مليونًا ونصف المليون من عملة البندقيَّة، مخصَّصة لحاجات الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط (*NM*, 1770, 22.174). ووصل في مساء اليوم نفسه إلى فيراري، وفي صباح العاشر من الشهر استأنف رحلته إلى توسكانة (*NM*, 1770, 22.175).

(157) أعرب ماروتسي عن أفكار مماثلة في رسالته إلى أ. م. غوليتسين بعث بها من ليفورنو بتاريخ 8-19 آذار/ مارس 1770: **أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 9 - ظهر الورقة 9.

كان ماروتسي متفائلًا جدًّا بإمكانية إقحام البندقيَّة في النزاع الروسي - التركي، ويبدو أنه كان يغلِّب رغباته على الواقع إلى حدٍّ كبير.

(158) يُنظر رسالة د. م. غوليتسين إلى بطرسبورغ بتاريخ العاشر من آذار/ مارس 1770:
*СбРИО*, t. 97, c. 38-39.

**[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97، ص 38-39].

كتبت كاترينا إلى بانين في هذا الصدد: «على السادة النَّمساويين بعد رفضهم القبول بقنصلنا في تريستي، إذا كانوا منسجمين مع أنفسهم، أن يطردوا مبعوثنا في فيينا ويعلنوا الحرب ضدنا. فرفضهم قبول القنصل إنما هو تصرف لا ينسجم مع فكرة الحياد»: المرجع نفسه، ص 39 (النص الأصلي بالفرنسيَّة).
=

ضاعف تطوُّر الأحداث في مورية خلال نيسان/ أبريل 1770 من حظوظ ماروتسي بتحقيق ما يصبو إليه. فقد أصبحت حججه أكثر وزنًا، وأخَذَت آراء السياسيِّين البنادقة من التحالف مع روسيا تتمايز بسرعة خاطفة. وظلَّ البلاط النَّمساوي الذي كان يتابع تطور الأحداث في حوض البحر المتوسِّط بانتباه خصم ماروتسي الأساسي. وفي الوقت نفسه، عقد القائم بالأعمال الآمال على أن تؤدِّي نجاحات الأسطول الروسي إلى استمالة الرأي العام في البندقيَّة إلى جانب روسيا، وإلى تغيير اتجاه سياستها الخارجيَّة. وبعد تلقِّيه معلومات عن التأرجح داخل حكومة البندقيَّة، عمل ماروتسي على إبلاغها عبر دراغانيتش أنَّه مستعدٌّ للقيام بدور الوسيط في المفاوضات بشأن قيام التحالف، ولكن إذا كان واثقًا من جدِّية نوايا البنادقة فحسب. ووضع ماروتسي حينذاك رسالة أرسلها إلى مجلس الشيوخ، عرض فيها كل مزايا التحالف بين روسيا وبين البندقيَّة. وتمثَّلت إحدى حججه «القويَّة» التي استخدمها بالنتائج الاقتصاديَّة المحتملة الناجمة عن تراجع النفوذ التركي في مورية؛ إذ سيكون بإمكان البندقيَّة الحصول على جزء من ممتلكات تركيا في الأرخبيل، وبالتالي تحسين أوضاعها الماليَّة والتجاريَّة. ورأى ماروتسي أنَّ الوضع في الأرخبيل يجعل هذا الأمر محتملًا جدًّا، على الرغم من الوضع القائم المكرَّس بمعاهدة بساروفيتش في عام 1718، التي فقدت البندقيَّة بموجبها أراضيها في بيلوبونيز. وكتب ماروتسي الوثيقة مستخدِمًا تعابير عامَّة، تاركًا لمجلس الشيوخ حرية العمل الضروريَّة، وضمَّنها تعابير الشكر الشكليَّة المُعتمَدَة دبلوماسيًّا لموقف البنادقة المتعاطف مع الروس[159].

إلا أنَّ جهود ماروتسي ذهبت أدراج الرياح، وذلك بسبب اعتراض النَّمسا

---

= وجاء في رسالة سرية أرسلت إلى أ. ف. ناريشكين في تورينو بتاريخ السابع من حزيران/ يونيو 1770: «ثمَّة في جمهوريَّة البندقيَّة قائم بالأعمال، بيد أنه لا يمكن قول أيِّ شيء حقيقي بشأنها، فهي لا تزال أسيرة تردُّدها الدفاعي، وتبقى مكبَّلة بخوفها المزمن وخشيتها من الأتراك، زد على ذلك فهي، من جهة، تُحجم عن الدخول في توافق ما معنا ضد الأتراك تحت ضغط المعارضين المحليِّين؛ وقد تكون خائفة، من جهة ثانية، من رعاياها، إخوتنا في الدين المتعاطفين جدًّا معنا، وهي في ذلك تشبه بلاط فيينا» (المرجع نفسه، ص 71).

(159) Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» pp. 1585-1589.

الدبلوماسي. ففي اللحظة الحاسمة من نقاشات البنادقة حول مزايا التحالف مع روسيا ونواقصه، تدخَّل مستشار النَّمسا كاونيتس، الذي اعتاد على إبلاغ سفير البندقيَّة رأيه بسياسة الجمهوريَّة بصورة مواربة، مُدينًا بشكلٍ **مباشر**، هذه المرَّة، أيَّ اتِّصالات دبلوماسيَّة بين كلٍّ من البندقيَّة وروسيا، في حديثه مع مبعوث البندقيَّة الجديد في فيينا د. غرادينيغو. وفي الثامن عشر من نيسان/ أبريل 1770، كتب مبعوث البندقيَّة في فيينا إلى مجلس الشيوخ أنَّ كاونيتس ينظر بقدر كبير من الشك إلى حملة الأسطول الروسي في مورية، ويشكِّك بقدرة الروس على ترسيخ أقدامهم، سواءً أفي بيلوبونيز أم في مولدافيا وفالاشيا. وأكَّد كاونيتس أنَّ كاترينا الثانية لا تسعى إلا إلى «الاقتحام» («casser les vitres») وهي لن تلتزم شروط القانون الدولي. فضلًا عن ذلك، ليست موارد روسيا من دون حدود، وسيتمكَّن الأتراك من استغلال هذا الأمر والانتصار في الحرب. واختتم كاونيتس القول إنَّ كلَّ هذه الحجج تفرض على البندقيَّة الالتزام بدرجة قصوى ببنود معاهدة الصلح مع الباب العالي العثماني. وفي الخامس من أيار/ مايو 1770، أبلغ غرادينيغو مجلس الشيوخ بما قاله كاونيتس: إنَّ على البندقيَّة ألَّا تخاف من روسيا، وألَّا تستجيب لدعوات بطرسبورغ[160].

تركت كلمات المستشار النَّمساوي التأثير السريع المطلوب. فرفض مجلس الشيوخ اقتراحات ماروتسي، الذي لم يبق أمامه سوى التعبير عن أسفه - في أحاديثه مع دراغانيتش - على الفرص التي أهدرتها البندقيَّة والخسائر التي منيت بها، نتيجة قرارها قطع المفاوضات بشأن الاتفاقية. ولم تتبدَّل حجج ماروتسي في أيار/ مايو 1770: فقد ركَّز على استيلاء الروس على القسطنطينيَّة في القريب العاجل (على الرغم من أنَّ عمليَّة مورية باءت بالفشل حينذاك)، وعلى التغيير الواسع في السياسة المتوسطيَّة، التي سيكون للبنادقة فيها موقع أكثر تواضعًا ممَّا كان قبل الحرب[161].

---

(160) Ibid., pp. 1549-1589.

(161) انتشرت الشائعات بشأن الاستيلاء على القسطنطينية في القريب العاجل على نطاقٍ واسع في عام 1770، وكان مصدرها بطرسبورغ. يُنظر رسالة المبعوث الفرنسي في روسيا ساباتيه دي كابرا إلى الأرشيدوق شوازول من بطرسبورغ في الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1769: «لقد دارت رؤوس الإمبراطورة الروسيَّة والمقربين منها على الأرجح. فهي لا تكفُّ عن الحلم والحديث والتفكير =

في منتصف شهر أيار/ مايو، قدَّم ماروتسي مذكِّرة إضافيَّة إلى مجلس الشيوخ حول العلاقات الروسيَّة - البندقيَّة، ولكنه لم يتلقَّ ردًّا عليها. فقد فضَّل مجلس الشيوخ التظاهر بأن لا وجود للقائم بالأعمال الروسي في البندقيَّة، خضوعًا لتوصية كاونيتس. وردًّا على ذلك، أبلغ ماروتسي سلطات البندقيَّة (في حديث دوَّنه دراغانيتش في الحادي والثلاثين من أيار/ مايو 1770) أنَّ مجلس الشيوخ باستخفافه هذا لم يوجِّه إليه إهانةً شخصيَّة فحسب، بل لبلاط بطرسبورغ أيضًا، الأمر الذي سيبلِّغه لكاترينا مضطرًّا[162]. واحتدم النزاع بين القائم بالأعمال الروسي وحكومة البندقيَّة أكثر فأكثر: ففي الثلاثين من حزيران/ يونيو 1770، اتَّخذ مجلس وزراء البندقيَّة الجديد، قرارًا يقضي بمنع نبلاء البندقيَّة من التواصل مع ماروتسي، فحُرم هو وكلُّ أفراد عائلته من اعتبار أنفسهم نبلاء بنادقة؛ ذلك أنَّ قانون البندقيَّة لا يسمح للنَّبيل البندقي أن يكون وزيرًا لبلاطٍ أجنبيٍّ في وطنه. غير أنَّ هذا المنع صُوِّر وكأنَّه تعبير عن الاحترام لكاترينا والقائم بأعمالها من جانب حكومة البندقيَّة، إذ إنَّ ماروتسي صار يُعتبر بناءً على ذلك مبعوثًا كامل الصلاحيات[163]. وفي الوقت نفسه، أعربت تركيا عبر سفير البندقيَّة في القسطنطينية عن احتجاجها على النشاط المالي لأعداء الباب العالي العثماني في البندقيَّة. وافترض مجلس البندقيَّة أنَّ الأتراك كانوا يلمحون إلى نشاط ماروتسي. فجرى إبلاغ المبعوث في القسطنطينيَّة أنَّ ماروتسي لم يعد نبيلًا بندقيًّا، بل هو على العكس دبلوماسي أجنبي من الدرجة الثانية، مستقلٌّ عن الجمهوريَّة وعن سلطتها القضائيَّة بالمطلق. بناءً عليه،

---

= بالاستيلاء على القسطنطينية. إنَّ هذا الهذيان يجعلها تعتقد أنَّ عمارتها البحريَّة الهزيلة (الأسطول المجهَّز كيفما اتفق الذي سيرسو في الأرخبيل بقيادة ألفينستون) سيثير الرعب في عاصمة الإمبراطورية العثمانيَّة...» اقتباس من: Черкасов, с. 359.

[تشيركاسوف، ص 359].

(162) فضلًا عن ذلك، علم ماروتسي أنَّ مبادراته كانت تلقَّى دعمًا على المستوى الدبلوماسي الأوروبي. فقد تباحث المبعوثان الروسي والبندقي في بريطانيا في حزيران/ يونيو 1770 بلندن في إمكان التحالف بين البلدين: Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» p. 1600.

(163) تقرير كوتيني بتاريخ الرابع من تموز/ يوليو والثامن من أيلول/ سبتمبر والثاني والعشرين منه، والثامن من كانون الأول/ ديسمبر 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317, 2318.

فإنَّ حكومة البندقيَّة لا تتحمَّل أيَّ مسؤولية عن أعمال ماروتسي. وأخيرًا، افترضوا في مجلس وزراء البندقيَّة أنَّ نتيجة قرار حرمان ماروتسي من حقوق النبيل البندقي المهمَّة تتمثَّل في انحسار إمكان اطِّلاعه على شؤون الجمهوريَّة، وسيكون تاليًا من الأصعب عليه إطلاع اليونانيِّين والرُّوس في المشرق وفي البلقان على مشاريع البندقية العسكريَّة، كما كان يفعل في السابق[164].

عقب ظهور المرسوم مباشرة، عرض ماروتسي وجهة نظره في المسألة، في رسالة وجَّهها إلى كلٍّ من المسؤولين الرفيعي المقام أ. م. غوليتسين ون. إ. بانين، حيث أطلعهما على خطوة البنادقة السياسيَّة، مُشيرًا إلى أنَّ على الإمبراطورة أن تفرض احترام دبلوماسيِّيها[165]. ومُذَّاك باتت مهمَّة ماروتسي أصعب.

في المحصِّلة، فكَّر ماروتسي بالانتقال من البندقيَّة إلى إحدى العواصم الإيطاليَّة[166]، وهو ما كان يسعى إليه السياسيُّون البنادقة في نهاية المطاف. وبناءً على قرار السلطات، أقدم شقيقا بانو ماروتسي، لامبرو وقسطنطين، بفصل ملكيتهما عن الحصَّة التي يملكها[167]، ونجحا في الخامس من حزيران/ يونيو

(164) اعتبر ماروتسي أنَّ سبب تصرفات مجلس وزراء البندقيَّة يكمن إلى حدٍّ كبير في استمرار اتِّهامه بأنه يعمل على تجنيد رعايا البندقيَّة للخدمة لدى روسيا (وكانت قصة القبطان اليوناني بوليكوتي التي سيأتي ذكرها لاحقًا، بالتحديد، هي التي جعلت صبر البنادقة ينفد).

(165) في منتصف آب/ أغسطس 1770، أُعلن عن احتجاجٍ شكليٍّ باسم كاترينا في البندقيَّة (مع الإشارة إلى أنَّ ماروتسي لم يتورَّط بفضيحة القبطان اليوناني بوليكوتي)، إضافة إلى ذلك، أبلغ د. م. غوليتسين سفير البندقيَّة في فيينا غراديغينو بعدم ارتياح الإمبراطورة. ولكن، كما افتُرِض في بطرسبورغ، كان من الضروري في حال الرفض، المماطلة وعدم اتِّخاذ خطوات إضافية أكثر حدَّة. يُنظر:
*СбРИО*, t. 97, c. 130-135.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97، ص 130-135].

(166) يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ الثلاثين من حزيران/ يونيو - الحادي عشر من تموز/ يوليو 1770، ورسالته إلى ن. إ. بانين بتاريخ الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو - التاسع من تموز/ يوليو 1770:
*РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 27-27 об., 31-32об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 27 - ظهر الورقة 27، الورقة 31 - ظهر الورقة 32].

(167) يُنظر في هذا الصدد: المرجع نفسه، الورقة 31.

1770 في استعادة لقب النَّبيل البندقي. ومع ذلك، لم يبدِّد كلُّ ذلك الشكوك في أنَّهما سيجدان الوسيلة الملائمة لمساعدة بانو واليونانيين سرًّا في الحرب ضد الأتراك.

تلخَّص جوهر النزاع وسبب غضب ماروتسي في أنَّ سلطات البندقيَّة أعلنته مبعوثًا روسيًّا، من دون صدور قرار عن كاترينا الثانية في هذا الشأن، إذ اكتفت بتعيينه مجرَّد قائم بالأعمال فقط. وكان العقاب ناجمًا حصرًا عن جوهر وضع ماروتسي الجديد، الذي كان ينبغي أن يأتيه من بطرسبورغ فحسب، وليس من البندقيَّة في أيِّ حالٍ من الأحوال[168]. حاول ماروتسي في عدَّة مذكِّرات قدَّمها إلى مجلس الشيوخ[169] دفع البنادقة إلى تبديل موقفهم، لكن من دون طائل. ولم تؤدِّ إلى نتيجة أيضًا الاحتجاجاتُ الرسميَّة الواردة من بطرسبورغ، التي لم تتَّسم بالإلحاح في الواقع. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1770، حاول ماروتسي مرةً أخرى معارضة المرسوم، لكن من دون نتيجة أيضًا[170].

يفسر المؤرِّخ روبرتو تشيسي حرمان ماروتسي المتأخِّر من حقوق النَّبيل البندقي (إذ إنَّ مشاركته النشطة في التحضير لعملية الأسطول الروسي بدأت في عام 1768!)، برغبة[171] في تحذير القائم بالأعمال الروسي بخصوص قانونيَّة نشاطه اللاحق. وفي نهاية تموز/ يوليو 1770، أفاد دراغانيتش أن ماروتسي مستاءٌ جدًّا من العقوبات، ويتَّهم مجلس وزراء البندقيَّة باتخاذ القرار منفردًا، دون التَّشاور معه، وهو الذي يمثِّل ضمانة نشاط ماروتسي الدبلوماسي. واعتبر ماروتسي أنَّ المسؤوليَّة الرئيسة في ما حصل تقع على المدَّعي العام ف. ل. موروزيني. واتَّضح في نهاية آب/ أغسطس 1770 بصورة نهائيَّة أنَّ الأمر الرئيس في مهمَّة ماروتسي لم يتحقَّق. فقد اتَّخذت البندقيَّة قرارها الالتزام بالسياسة الخارجيَّة النمساويَّة. وفي نهاية صيف 1770 توقَّفت الأحاديث

(168) المرجع نفسه، الورقة 33-35.

(169) قدَّمت المذكِّرة الثانية في الثالث من تموز/ يوليو 1770، يُنظر نصها في: المرجع نفسه، الورقة 39-40.

(170) تقرير كوتيني بتاريخ السابع من تموز/ يوليو 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(171) سلطات البندقيَّة. (المترجم)

المنتظمة بين كلٍّ من ماروتسي ودراغانيتش[172]. وفي أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، أعرب المبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين لسفير البندقيَّة غرادينيغو عن أسفه حيال الوضع النَّاشئ بشأن ماروتسي، وأضاف أنَّ هذا أيضًا هو شعور الإمبراطورة الروسيَّة في هذا الصدد[173]. وجدير بالذكر أنَّه أُشير في الرسالة المستعجلة التي بعث بها المبعوث النَّمساوي في بطرسبورغ زيدلير إلى المستشار كاونيتس، بتاريخ الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر 1770، إلى شائعات كثيرة في صدد خطط كاترينا الثانية لتعيين ممثِّلين لها لدى البلاطات الإيطاليَّة[174]، الأمر الذي دلَّ أيضًا على رغبة الإمبراطورة في إجراء تغيير جوهري في طابع الدبلوماسيَّة الروسيَّة بإيطاليا.

في الوقت نفسه، تعقَّدت عمليَّات ماروتسي الماليَّة أيضًا. ففي بداية

---

(172) Cessi, «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770,» pp. 1594-1602, 1604.

يُنظر أيضًا: Alberti, pp. 232-236.

وانتشرت في الوقت نفسه شائعة في فيينا مفادها: «يقال إنَّ رسولًا 'من فيينا' أفاد أنَّ البلاط الإمبراطوري النَّمساوي يقترح تحالفًا هجوميًا ودفاعيًا على الجمهوريَّة بخصوص الظروف الناشئة حصرًا؛ أو أن البلاط المذكور يدعو الجمهوريَّة إلى الانضمام إلى روسيا والبلاطات الأخرى الساعية إلى استعادة الممتلكات العثمانيَّة في أوروبا وتقاسمها؛ وأخيرًا، أو أنَّ الإمبراطورة الروسيَّة تقترح على البنادقة الاستحواذ على ممتلكاتهم في المشرق، ولكن وفق خطَّة أخرى غير تلك التي اقترحتها قبل عام، ورفضتها الجمهوريَّة. أي عبر التحالف حاليًا، مع ضمانات من الدول الكبرى البحريَّة وبلاطات الشمال» (تقرير كوتيني من البندقيَّة بتاريخ الثامن من أيلول/ سبتمبر 1770، وذكر كوتيني أنَّ مصدر معلوماته هو أحد أعضاء مجلس شيوخ البندقيَّة، الذي كشف في السابق أيضًا للمبعوث التوسكاني عن الكثير من تفاصيل الإدارة في البندقيَّة: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(173) Alberti, p. 236; Berti, p. 45.

يُنظر أيضًا رسالة ن. إ. بانين إلى ماروتسي في الرابع عشر من آب/ أغسطس 1770:
*СбРИО*, t. 97, c. 128-131.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 97، ص 128-131].

وأشار ماروتسي نفسه في عام 1770 إلى أنَّ مبعوثي البلاط النَّمساوي يسعون إلى إلحاق الضرر بروسيا بشتَّى الوسائل (ورد ذلك في رسالته إلى أ. م. غوليتسين من البندقيَّة في 1-12 تموز/ يوليو 1771:
*РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2047, Л. 17.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2047، الورقة 17].

(174) *СбРИО*, t. 109, c. 472.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 109، ص 472].

تموز/ يوليو 1770، أفاد القنصل التوسكاني في البندقيَّة كوتيني أنَّ ماروتسي تلقَّى سندات من بطرسبورغ بقيمة 900 ألف فلورين وحاول بيعها على الفور، لتحويل المبالغ المحصَّلة إلى ليفورنو، لتأمين احتياجات الأسطول الروسي في المشرق. غير أنَّ التجار الألمان الذين اعتاد ماروتسي التوجُّه إليهم، رفضوا هذه المرَّة شراء الأوراق الماليَّة منه، ولم يتمكَّن ماروتسي من بيعها إلا في آب/ أغسطس 1770، بعدما وافق أحد مُقرِضيه الأساسيِّين - التاجر شالخاوزير - على شروطه. وفي المحصِّلة، نجح ماروتسي في الحصول على نصف مليون فلورين في غضون ثلاثة أسابيع، وعُرفت في ما بعد تفاصيل الصفقة: فقد وجب تحصيل قيمة السندات البالغة 900 ألف فلورين في غضون ثلاثة أشهر، بمعدل 300 ألف فلورين في الشهر. واضطلعت بيوتات ماليَّة بدور الكفيل في الصفقة، في كلٍّ من لندن وباريس وأمستردام وفيينا وليفورنو، حيث قُدِّمت الضمانة للمبلغ النقدي المذكور. وقد انطلقت العمليَّة الماليَّة بناءً على رسالة وردت من بطرسبورغ، تضمَّنت الموافقة على أنشطة القائم بالأعمال في الدول الإيطاليَّة[175].

يُصبح موقف كاترينا الثانية المشكِّك بالبنادقة واضحًا، بالنظر إلى كلِّ ما ورد أعلاه، الأمر الذي انعكس في رسالتها إلى فولتير بتاريخ التاسع من آب/ أغسطس 1770، على سبيل المثال: «إنَّ البنادقة لا يقومون بشيءٍ عظيمٍ إلا بصعوبة، فهم يتذاكون بصورة مفرطة ويتحذلقون عندما يتطلَّب الأمر العملَ؛ أنا أوافقكم الرأي، سيدي الكريم، بأنَّهم لن تتاح لهم طويلًا فرصة ملائمة أكثر من هذه لاستعادة ما فقدوه»[176].

---

(175) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(176) اقتباس من: *СбРИО*, t. 13, c. 29.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 13، ص 29 (النص الأصلي بالفرنسية)].

في بداية ربيع عام 1770 كانت آراء كاترينا بالبنادقة تبدو أكثر تفاؤلًا، فهي في رسالتها إلى فولتير بتاريخ العشرين من آذار/ مارس 1770: «لو شاء السادة البنادقة، فلن يكون أسهل من إرسال مصطفى مع كانديد لتمضية عيد الاعتراف في الصوم الكبير في مدينتهم الرطبة، وفقًا لرغبتكم». اقتباس من: *СбРИО*, t. 10, c. 411.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 10، ص 411 (النص الأصلي بالفرنسيَّة)].

ويرد تقويم مماثل للعلاقات بين روسيا والبندقيَّة أيضًا في التعليمات السرِّية التي أُرسلت إلى السفير =

غير أنَّ مصائب ماروتسي تواصلت في ما بعد. ففي أيلول/ سبتمبر 1771 تبيَّن أنَّه متورِّط في الحادثة الآتية: فقد تلقَّى من خارج البندقيَّة مجموعة من الأحجار النفيسة، التي أقدمت السلطات على مصادرتها على الفور، لأنَّها كانت مصنَّعة في الخارج واعتبر نقلها بمثابة عمليَّة تهريب. بعد ثلاثين يومًا من المصادرة طالب ماروتسي بإعادة الأحجار، فرفض مجلس وزراء البندقيَّة طلبه، معلِّلًا رفضه بأنَّ القرار بالمصادرة قد صدر. فاعترض ماروتسي على هذا القرار أيضًا. وعلى الرغم من الموقف المحرج للغاية، اقترح سكرتير المجلس دزوليان على مجلس الشيوخ، رفض اعتراض ماروتسي بصورة قاطعة هذه المرَّة أيضًا. غير أنَّ السياسيَّ البندقيَّ النَّافذ أندريا ترون أعرب عن رفضه هذا القرار، وأكَّد أنَّ قرار مجلس الوزراء بحقِّ ماروتسي عادل ومنطقي من وجهة النظر القانونيَّة، لا بل إنَّ وقاحة هذه «الحشرة الدبلوماسيَّة اللجوج» («*molesto Insetto Diplomatico*»)، التي لا تُحسن التعاطي مع الحكام، تستحقُّ الصدَّ الحازم. بيد أنَّ ترون أشار بعد إعرابه عن رأيه هذا إلى أنه ينبغي عدم نسيان الاعتماد الذي يحدِّد حقوق القائم بالأعمال الروسي، قبل اتِّخاذ القرار النهائي. وأخذًا بعين الاعتبار وضع ماروتسي هذا، وليس شخصه في حدِّ ذاته، فمن الحكمة إعادة الأحجار الكريمة إليه؛ إذ لا يجوز تجاهل ما يمثِّله ماروتسي من أداة نافعة لدى بلاط بطرسبورغ، وأنَّ هذا الأخير يمكن أن ينظر بسلبيَّة إلى هذا التعسُّف بحقِّ دبلوماسييه، بحكم المزايا، إن لم يكن بحكم الهيبة. وأخيرًا، لا يمكن في

---

= الروسي في إسبانيا س. س. زينوفييف، بتاريخ التاسع عشر من أيار/ مايو 1771: «ثمَّة في جمهوريَّة البندقيَّة قائم بالأعمال، ولكن لا يمكن قول أيِّ شيء بشأنها إلا أنَّها تبقى في حالتها المعتادة من التردُّد، وهي فريسة الخوف والرعب المزمن من الأتراك، زد على ذلك أنَّها تحجم، من جهة، عن الدخول في توافقٍ ما معنا ضد الأتراك تحت ضغط المعارضين المحليِّين؛ وقد يكون من جهة أخرى أنَّها تخشى، على غرار بلاط فيينا، من رعاياها إخوتنا في الدين والمتعاطفين جدًّا معنا»: *СбРИО*, t. 97, c. 320.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 97، ص 320].

يُنظر أيضًا التعليمات الموجَّهة إلى الوزير المفوَّض المعيَّن في باريس الجنرال ميجر إ. س. بارياتينسكي بتاريخ الخامس والعشرين من تموز/ يوليو 1773: *СбРИО*, t. 118, c. 452-453.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة مج 118، ص 452-453].

وفي الأمر السامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال س. ك. غريغ في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1773 (المرجع نفسه، ص 476).

الظروف الراهنة الثناء على ذاك السياسي في البندقيَّة الذي نصح بتقديم الذَّريعة بسبب أمرٍ تافهٍ وإن كان عادلًا، بما يؤدِّي إلى تعكير صفو العلاقات المتَّسقة بين الجمهوريَّة وروسيا، سيِّدة الملاحة المطلقة في الأرخبيل، التي تحتاج فضلًا عن ذلك إلى المرافئ والمؤن مع اقتراب فصل الشتاء. غير أنَّ دزوليان، المعترض على رأي ترون، وبالرغم من الحجج المقدَّمة ظلَّ مصرًّا على أحقيَّة رأيه، إذ اعتبر أنَّ الإهانة التي وجَّهها ماروتسي إلى الجمهوريَّة من خلال مطالبه كانت كبيرة جدًّا. واعترض على رأي ترون قائلًا إنَّ البلاط الروسي لن يخلق لنفسه الأعداء بسبب الأحجار، وإن ماروتسي ما هو إلا مجرَّد موزِّع للسندات الإمبراطورية، أمَّا السياسة الفعلية فيحدِّدها ألكسي أورلوف. وجاءت نتيجة التصويت في مجلس الشيوخ لصالح الرفض النهائي بإعادة الأحجار إلى ماروتسي[177].

بعد إخفاقات عام 1770، اقتصرت أعمال ماروتسي على جمع المعلومات لمصلحة بلاط بطرسبورغ عن الأحداث في المشرق (وتحديدًا، الوضع في مصر، الذي سيلي الحديث عنه في الفصل الثامن)، وعلى العمليَّات الماليَّة، وكذلك إبلاغ حكومة البندقيَّة بانتصارات القوات الروسيَّة في البحر المتوسِّط والدانوب[178]، وعن حياة البلاط في بطرسبورغ، وكذلك تقديم الاحتجاجات في الأمور الثانوية المرتبطة بوجود الروس في البندقيَّة[179]. وفي أيار/ مايو

(177) تقرير المبعوث التوسكاني في البندقيَّة كوتيني بتاريخ الثامن والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1771: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(178) كان تقديم المعلومات لسلطات البندقيَّة عن الأعمال الحربية للجيش الروسي جزءًا من «الحرب الإعلامية» على المستوى الأوروبي العام. وروى ماروتسي لـ أ. م. غوليتسين في رسالة بتاريخ 18/ 29 أيار/ مايو 1773، كيف راهن (لقاء مال) مع القائم بالأعمال الفرنسي، الذي أكَّد أن القوات الروسيَّة لم تجتز الدانوب: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр.2050, Л. 11об.

**[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2050، ظهر الورقة 11].**

(179) تبدو دينامية التغير في وضع ماروتسي في البندقيَّة من خلال ذكر اسمه في أثناء جلسات المجلس لدى البلاط السامي. فقد تليت برقياته ورسائله في جلسات المجلس الدائمة في العاشر من شباط/ فبراير 1769، والثامن من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، والسادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1769، والثاني من نيسان/ أبريل 1770، والسادس من أيار/ مايو 1770، والثاني عشر =

1771 شكا ماروتسي للمبعوث الروسي في درسدن الأمير أ. م. بيلوسيلسكي بيلوزورسك - الذي كان يجول في إيطاليا - موقف البنادقة غير الودّي من روسيا. لكن، كما لاحظت أ. م. أليبرتي، لم يتقلّص ميدان نشاط القائم بالأعمال الروسي نهائيًّا. فقد تشكّلت حوله مجموعة من الضبّاط الرُّوس واليونانيِّين والبولنديِّين[180]، الذين سعوا إلى تقديم المساعدة إلى الأسطول الروسي في الأرخبيل «بصورة غير رسميَّة». وبدهيٌّ أنَّ هذه المجموعة ضمَّت عددًا معيَّنًا من المغامرين، الأمر الذي جعل سلطات البندقيَّة تتابع نشاط ماروتسي باهتمامٍ زائد. واعتبرت هذه السلطات المركيز مصدرًا للكثير من المكائد لمصلحة روسيا، ولذا كانت كلُّ مكافأةٍ يتلقَّاها من بطرسبورغ في نظرها دليلًا على نجاح مهمَّته الدبلوماسيَّة. وكانت العلاقات المنتظمة بين بانو ماروتسي وبين شقيقه لامبرو ذي النفوذ بين نبلاء البندقيَّة المستعدِّين لإفشاء أسرار الجمهوريَّة مصدرَ قلقٍ خاصٍّ لدى البنادقة (ولا سيَّما في عام 1774)[181].

ساءت العلاقات بين ماروتسي وبين القادة العسكريين الرُّوس (ألكسي أورلوف بالدرجة الأولى) في نهاية الحرب. ولم تصل أوراق اعتماده في البلاطات الإيطاليَّة الأخرى. ومع اقتراب نهاية الحرب مع تركيا شعر ماروتسي بانتهاء مهمَّته، وأعرب عن مخاوفه بخصوص مصيره في البندقيَّة بعد مغادرة الروس إيطاليا[182]. وشكا ماروتسي في رسالة إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 5-16

---

= من آب/ أغسطس 1770، والسابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1770، والتاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1770: *Архив Государственного Совета, t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II (1768-1796)* (СПб., 1869), c. 19, 36-37, 46, 48, 55, 61, 69.

[أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 19، 36-37، 46، 48، 55، 61، 69]. غير أن اسمه اختفى لاحقًا من على صفحات التقارير عن جلسات المجلس.

(180) ذكرت أ. م. أليبرتي من بينهم ديميتريو تيودورو الناشر البندقي صاحب العلاقات الواسعة من روسيا، الذي نشر كتابًا عن كاترينا الثانية: Alberti, p. 236.

(181) Ibid., pp. 234-235.

في غضون ذلك، غالبًا ما كانت تُسمع في مقاهي البندقيَّة آراء متعاطفة مع الانتفاضة اليونانيَّة في مورية (تعود هذه المعلومة إلى تموز/ يوليو 1770): Ibid., p. 236.

(182) كان أولو الأمر في بطرسبورغ يدركون ذلك. يُنظر، على سبيل المثال، التعليمات =

تموز/ يوليو 1774 أنَّ ألكسي أورلوف العائد من روسيا إلى توسكانة، لم يظهر في البندقيَّة، ولم يعمل على حلِّ المشكلات القائمة التي تواجه البعثة الروسيَّة في الجمهوريَّة، وفق ما اتُّفِقَ عليه مسبقًا[183]. وفي رسالة لاحقة، كان ماروتسي أكثر صراحة، حيث عرض تاريخ خدمته قائمًا بالأعمال للشؤون الروسيَّة في البندقيَّة، بوصفها عبارة عن تضحية متواصلة، وهو لم يجانب الحقيقة في ذلك. وتمثَّلت ذروة هذه التضحية في طرده من صفوف النبلاء البنادقة، الأمر الذي حرمه من حقوقه في الجمهوريَّة. وذكَّر ماروتسي غوليتسين أنَّ ن. إ. بانين كتب إليه - عقب اتِّخاذ المرسوم في الثلاثين من حزيران/ يونيو 1770 - يطلب منه التحلِّي بالصبر ووعده بالتعويض السخيِّ في المستقبل. وأشار المركيز بأسى قائلًا إنَّ عدم إرسال أوراق الاعتماد في البلاطات الإيطالية[184] لم يغيِّر وضعه خلال الحرب قطّ، بل على العكس من ذلك إذ تردَّى تمامًا في البندقيَّة. وانتهت الحرب، فطلب ماروتسي من ن. إ. بانين وأ. م. غوليتسين المساعدة لتعيينه في منصب آخر[185]. إضافة إلى ذلك، تفاقم الخلاف أكثر مع ألكسي أورلوف الذي اتَّهم المركيز بتجاوز صلاحياته، برفضه تسليمه أوراق اعتماد المراكز القنصلية في منطقة البحر المتوسِّط التي أودعها لديه سابقًا. وسوَّغ ماروتسي تصرُّفه في رسالة إلى أ. م. غوليتسين بأنَّ أورلوف سلَّمه أوراق الاعتماد لاستخدامها بصورة دائمة، فضلًا عن أنه حقَّق تقدُّمًا في المفاوضات مع المرشحين إلى هذه المراكز. واعتبر أنَّ سبب عدم ارتياح أورلوف يكمن في «نزاع المصالح» الدائر بين مختلف المرشحين لمنصب القنصل، وأضاف

---

= الموجَّهة إلى البارون أ. ف. أسيبورغ، المبعوث الروسي لدى «السيم» (البرلمان) الإمبراطوري في ريغينسبورغ، بتاريخ الثلاثين من أيلول/ سبتمبر 1774: *СбРИО*, t. 135 (СПб., 1911), c. 237.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 135 (سان بطرسبورغ، 1911)، ص 237].

(183) *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2051, Л. 11.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2051، الورقة 11].

(184) القسم الأكبر من رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين من البندقيَّة بتاريخ 8-19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1774 مكرَّس لهذا الموضوع: المرجع نفسه، الورقة 11.

(185) يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين من البندقيَّة بتاريخ 1-12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1774: المرجع نفسه، الورقة 41 - ظهر الورقة 42.

أنه ضحّى خلال الحرب بكلّ شيءٍ من أجل خدمة أورلوف وشقيقه، اللذين لم يفيا بوعودهما حياله[186].

وقفت بطرسبورغ إلى جانب أورلوف، بالطبع، فطلب ن. إ. بانين من ماروتسي باسم كاترينا في رسالة بتاريخ الحادي والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر - الثاني من كانون الأول/ ديسمبر 1774، إرسال أوراق الاعتماد إلى صاحبها الشرعي، بحسب رأيه[187]. وفي المحصِّلة، حُرم ماروتسي مع نهاية الحرب الروسيَّة - التركيَّة من لقبه باعتباره نبيلًا بندقيًّا، ولم يصبح مبعوثًا روسيًّا كامل الحقوق في أيٍّ من البلاطات الإيطاليَّة[188]. واستؤنفت العلاقات الدبلوماسيَّة بين روسيا والبندقيَّة في عام 1782، لكن من دون أيِّ مشاركة من قِبَل المركيز بانو ماروتسي.

## «اليونانيُّون» البنادقة في الخدمة الروسيَّة
## قصَّة القبطان بوليكوتي

كان الحفاظ على الحياد، كما سبقت الإشارة، إحدى المسائل المحورية التي واجهت جمهوريَّة البندقيَّة في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة. غير أنَّ الخطر على هذا الحياد، كان يكمن في سعي اليونانيِّين من رعايا الجمهوريَّة إلى القتال إلى جانب روسيا، انطلاقًا من أراضيها. التفَّ هؤلاء اليونانيُّون على مراسيم منع المشاركة في الحرب، التي اتَّخذها مجلس شيوخ البندقيَّة، فتطوَّعوا في صفوف القوات الروسيَّة، وخرجوا بذلك من تحت السلطة القانونية للبندقيَّة. وغدت

---

(186) يُنظر رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين من البندقيَّة بتاريخ 21-22 كانون الأول/ ديسمبر 1774: المرجع نفسه، الورقتان 85-86.

(187) *СбРИО*, t. 135, c. 275.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 135، ص 275].

يُنظر رسالة بانين إلى ألكسي أورلوف بتاريخ السابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1774: المرجع نفسه، ص 274.

(188) جدير بالذكر، أنَّ ماروتسي لم يتلقَّ الإفادة الخطِّية بالمبالغ التي أنفقت على حاجات الأسطول الروسي من أ. غ. أورلوف، إلا في الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1787 (بحسب التقويم الجديد). يُنظر: Maltezou, c. 173.

قصة القبطان أ. بوليكوتي، من رعايا البندقيَّة اليونانيِّي الأصل، أحد أسباب الخلافات الأكثر حدَّةً في هذا الخصوص، بين روسيا والبندقيَّة.

كانت المرَّة الأولى التي لفت فيها بوليكوتي انتباه سلطات البندقيَّة، على ما يبدو، في مطلع عام 1770. فقد روى المبعوث التوسكاني إلى البندقيَّة كوتيني، في تقريره المؤرَّخ في العاشر من آذار/ مارس، عن أحد التجار الأثرياء اليونانيِّين المدعوِّ كابيتاناكي، الذي عاش في البندقيَّة منذ ولادته فيها، أنه أرسل سفينته آتَّا (Atta) في تشرين الأول/ أكتوبر 1769 إلى جزيرة كريت بقيادة القبطان بوليكوتي، اليوناني المولود في كاستيلنووفا، وهي قلعة تابعة للبندقية بالقرب من مدينة كاتارو. وقبل إبحار السَّفينة فُتِحَت كُوى عديدة فيها تجاوزت الثلاثين، وحُمِّلت على متنها سرًّا المدافعُ مع خمسين برميلًا من البارود. وبعدما اكتسبت آتَّا التجاريَّة هويَّةً حربيَّة أبحرت إلى تريستي، حيث كان بوليكوتي يعتزم شراء الأسلحة والذخائر والمؤن. بيد أنَّه مُنع من إتمام مشترياته في تريستي، فتوجَّه إلى إيسترا، حيث تمكَّن أخيرًا من التزوُّد بالمؤن والذخائر بوساطة فعَّالة من أحد عملاء بانو ماروتسي[189].



البندقية

(189) أثبت البنادقة وجود علاقات بين بوليكوتي وماروتسي في نهاية شهر أيار/ مايو 1770، يُنظر في هذا الصدد تقرير كوتيني بتاريخ 26 أيار/ مايو: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

وتوجَّه بوليكوتي بعد ذلك إلى بوكا دي كاتارو في الجبل الأسود، حيث جمع فريقًا مكوَّنًا من الأرثوذكس بالكامل، ثم أبحر إلى المشرق مع حمولة من الأخشاب والسلع الأخرى. وفيما كانت السَّفينة لا تزال في كاتارو، علمت سلطات البندقيَّة أنَّ صاحبها كابيتاناكي كان ينوي بيعها. ونظرًا إلى خطورة مساعي بوليكوتي بالنسبة إلى البنادقة، طُلب إلى كابيتاناكي التريُّث في بيعها، وإبلاغ بوليكوتي بقراره هذا. فأجاب القبطان واعدًا بالخضوع لقرار ربِّ عمله.

غير أنَّ الأحداث تطوَّرت على نحوٍ مغاير. فعند عودته من كريت في أواسط شهر شباط/فبراير 1770 إلى جزيرة زانت التابعة للجمهوريَّة، أبلغ أ. بوليكوتي القيادة المحليَّة أنَّه يتخلَّى عن إجازة الملاحة الممنوحة له من البندقيَّة. وبعد إطلاق ثلاث طلقات مدفعيَّة، أُنزِلَ علم البندقيَّة ورُفِعَ العلم الروسي على الصَّارية، ثم أبحر بالسفينة من زانت متوجِّهًا إلى مورية، عازمًا الانضمام إلى الأسطول الروسي. وأضاف كوتيني أنَّ بوليكوتي كان يُعتبر ضابط الملاحة الأكثر خبرةً بين اليونانيِّين الذين يخدمون لدى البندقيَّة، مع كونه الأكثر مزاجيَّة. وتلقَّى بوليكوتي المال مرارًا من الروس، واعدًا بالمشاركة في الانتفاضة اليونانية، كما كان يتولَّى قيادة فريقٍ قويٍّ كبير العدد، إضافةً إلى أنَّه كان ماهرًا في الملاحة والقتال. وكان بوليكوتي أرثوذكسيًّا شديد الإيمان، تحدوه الآمال بقرب تحرير اليونانيِّين من تسلّط الأتراك[190].

تحسُّبًا لعواقب تصرُّف بوليكوتي، سارع مجلس شيوخ البندقيَّة إلى إيفاد رسول إلى القسطنطينيَّة وحُمِّل تعليمات إلى مبعوث البندقيَّة في تركيا، تقضي بتبرئة الجمهوريَّة أمام السلطان: فالبندقيَّة لا علاقة لها البتَّة بالحادث، وقد أرسلت أمرًا إلى القيادة في المشرق لاعتقال المذنب ومعاقبته. وطلبت البندقيَّة من بطرسبورغ، في الوقت نفسه، إلقاء القبض على بوليكوتي، وأبلغت البلاطات الأوروبيَّة الأخرى بالحادث.

وصلت إلى البندقيَّة في منتصف شهر آذار/مارس، سفينة تجاريَّة تابعة

---

(190) تقرير كوتيني بتاريخ العاشر من آذار/مارس 1770: Ibid.

لأسطول الجمهوريَّة، تحمل رسائل من ممثِّلي البندقيَّة في جزيرة زانت مؤرَّخة في مطلع الشهر. وأبلغ مدير الجزيرة العام بما فعله بوليكوتي، وتأسَّف لأنَّه كان بعيدًا أثناء الحادثة عن مكان حصولها، وأنَّه لهذا السبب لم يتمكَّن من احتجاز السفينة. وتبيَّن أنَّ سبب تخلِّي بوليكوتي المفاجئ عن إجازة الملاحة الممنوحة له من البندقيَّة كان على حدِّ زعمه عدم رغبته بالخضوع للحجر الصحِّي الذي يُفرَضُ على السُّفن العائدة من المشرق. فالحجر الصحِّي كان يقضي بكشف ضبَّاط الهيئة الصحِّية الإلزامي على السفينة. وقد جعل وجود سلعٍ مهرَّبةٍ (أسلحة، بارود، ذخائر) على متنها بوليكوتي يلجأ إلى اتِّخاذ خطوة حاسمة تمثَّلت في الانتقال إلى الخدمة لدى الروس(191).

دقَّ البنادقة ناقوس الخطر على الفور. فأرسلوا في منتصف شهر آذار/ مارس 1770 رسولًا خاصًّا من البندقيَّة إلى روما ونابولي وفيينا، حمل تعليمات إلى ممثِّلي الجمهوريَّة في هذه المدن، بخصوص فعلة بوليكوتي، حيث جاء فيها: «إنَّ قبطان إحدى السفن التجاريَّة الثريَّ من مرفأ زانت، وهو من رعايا الجمهوريَّة، عمل سرًّا على زيادة عدد مدافعه إلى 40 قطعة، وعدل عياراتها لتتلاءم مع المدافع القتاليَّة، وحمل أسرته على متن السفينة، ورفع علم القديس مرقس، ثم غادر المرفأ على الفور بعد إطلاق ثلاث طلقات مدفعيَّة». وقد أعيد صوغ هذا الوصف الذي تعمَّد في الواقع تحريف طبيعة تصرُّف بوليكوتي، في ما بعد على الأرجح، في رسالة المبعوث التُّوسكاني إلى روما سانت أوديل بتاريخ السابع عشر من آذار/ مارس 1770(192).

في غضون ذلك، وفي مطلع شهر نيسان/ أبريل 1770، رسا بوليكوتي

(191) تقرير كوتيني بتاريخ السابع عشر من آذار/ مارس 1770: Ibid.

(192) «Un ricco Capitano d'una Nave mercantile dell'Isola e Porto di zante, suddito della Repubblica Veneta, dopo aver segretamente aumentato la sua batteria fino al num. di 40 cannoni, con averne ridotto il calbro ad usi di Guerra, imbarcata nella propria Nave la sua famiglia, alzo la bandiera di San Marco, e salutolla con 3. Copli di cannone, e sarpo immediatamente dal Porto» (ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2291; Pietro Verri & Alessandro Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 3: Agosto 1769-settembre 1770 (dal 1766 al 1797)* (Milano, 1911), p. 225).

يُنظر أيضًا رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري من روما إلى ميلانو بتاريخ السابع عشر من آذار/ مارس 1770.

بسفينته عند طليعة العمارة البحريَّة الروسيَّة في مورية[193]. وعلمت البندقيَّة من رسالة مدير جزيرة زانت العام في التاسع من نيسان/ أبريل أنَّ بوليكوتي انضمَّ إلى العمارة الروسيَّة على واحدة من السفن التي حصل عليها الروس، غير أنَّ السفينة لم تكن بقيادته، بل بقيادة ضابطين روسيَّين[194]. وفي منتصف أيار/ مايو 1770، تلقَّت أمانة مدينة البندقيَّة التجاريَّة رسالة من بوليكوتي تتضمَّن وثيقة الإجازة بالملاحة، التي تخلَّى عنها القبطان اليوناني قبل شهرين[195].

لم تتوانَ البندقيَّة عن محاولات اعتقال مواطنها، لكن كما يفيد أحد التقارير الواردة من جزيرة كورفا إلى البندقيَّة في السادس عشر من تموز/ يوليو 1770، «رفض الأميرال الروسي (سبيريدوف على الأرجح) تسليم بوليكوتي. وعلَّل الأميرال الأمر بالأسباب الآتية: أصبح القبطان ملازمًا في القوات الروسيَّة، بفضل مآثره وشجاعته في معركة نافارين، وكذلك بفضل مزاياه الممتازة بوصفه بحَّارًا. فضلًا عن ذلك، أكَّد الأميرال الروسي أنَّ بوليكوتي يوناني، تخلَّى عن إجازة الملاحة الممنوحة من البندقيَّة وانضمَّ إلى أبناء جلدته، كي يسهم في تحقيق نهضة اليونان وعزَّتها. وأخيرًا، فإنَّ بوليكوتي، بحسب زعم الأميرال، شريك في ملكيَّة السفينة التي سرقها، ومن حقِّه بالتالي بيعها بمفرده، ومن ثَمَّ تسليم شريكه كابيتاناكي حصَّته من الصفقة. واختتم الأميرال بالقول إنَّ شرف الإمبراطورة الروسيَّة واستحالة إجراء محاكمة حرَّة، يمنعانه من تسليم بوليكوتي»[196].

بعد عام ونصف، في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر 1771، علم المبعوث التُّوسكاني في البندقيَّة كوتيني من السلافيين الذين وصلوا من المشرق

---

(193) تقرير كوتيني بتاريخ التاسع من نيسان/ أبريل 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

(194) تقرير كوتيني بتاريخ الخامس من أيار/ مايو 1770: Ibid.

(195) تقرير كوتيني بتاريخ التاسع عشر من أيار/ مايو 1770: Ibid.

(196) تقرير كوتيني بتاريخ الخامس والعشرين من تموز/ يوليو 1771: Ibid.
يُنظر أيضًا تقرير غ. أ. سبيريدوف إلى أ. غ. أورلوف في الثاني من شباط/ فبراير 1771:
*Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 651-652.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 651-652].

أنَّ القبطان بوليكوتي تُوفِّي بمرضٍ وبائيٍّ على متن إحدى السفن الروسيَّة. وفي مساء السادس من كانون الأول/ ديسمبر أُكِّد الخبر مع الإشارة إلى أنَّ الوفاة لم تكن طبيعية، بل نتيجة عملٍ دبَّره البنادقة. وبذلك، يكون قد نُفِّذ بدقَّة قرار مجلس شيوخ البندقيَّة القضائي بحقِّ بوليكوتي، فصودرت ممتلكاته ودُمِّر منزله بطلقة مدفعيَّة من إحدى السفن التابعة للبندقية[197]. ونضيف أنَّ بوليكوتي ورَّط معه ابن شقيقه د. د. بوليكوتي، الذي تسلَّم فرقاطة عمِّه بعد وفاته. وقد أشرك غ. أ. سبيريدوف الملازم د. بوليكوتي في حملته العسكريَّة، حيث شارك أيضًا في صفوف فصيل كوجوخوف في احتلال بيروت[198].

## روسيا والدول الإيطاليَّة الأخرى[199]

### مملكة سردينيا

كانت مملكة سردينيا، بحسب ما يرى مؤرخ العلاقات الروسيَّة - الإيطاليَّة ج. بيرتي[200]، أكثر الدول الإيطاليَّة اعتراضًا على إقامة اتِّصالات دبلوماسيَّة وعسكريَّة مع روسيا في سنوات الحرب الروسيَّة - التركيَّة. وعمومًا، كانت بييمونتي تحت ضغط مزدوج: **أولًا**، من جانب فرنسا وإسبانيا المعاديتين لروسيا، المحكومتين من أسرة بوربون التي تربطها أواصر القربى بالأسرة

(197) تقرير كوتيني بتاريخ السابع من كانون الأول/ ديسمبر 1771: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

ويُنظر أيضًا: Manfroni, «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71,» pp. 1156-1158.

(198) **أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 10، القائمة 1، وحدة الحفظ 645، الورقة 53.

يُنظر في هذا الصدد الفصلان الخامس والثامن.

(199) للاطلاع على تاريخ العلاقات بين روسيا والدول الإيطالية بإسهاب، يُنظر على سبيل المثال: Т. В. Зонова, *Россия и Италия: История дипломатических отношений, Учебное пособие*, Ч. 1 (М., 1998).

[ت. ف. زونوفا، روسيا وإيطاليا: **تاريخ العلاقات الدبلوماسيَّة، كتاب تدريسي**، ج 1 (موسكو، 1998)].

(200) Berti, p. 54.

الحاكمة في سردينيا؛ إذ كانت ماريا لويزا غابرييلا، شقيقة الملك كارل إيمانويل الأول (1701-1773)، متزوِّجة من فيليب الخامس (1683-1746) ملك إسبانيا حفيد لويس الرابع عشر؛ **وثانيًا**، تعرَّض تورينو للضغط من قبل إنكلترا التي كانت تلتزم الحياد في الظاهر، ولكنَّها كانت في الواقع تقدِّم مساعدة نشطة لروسيا في تجهيز الأسطول بتوسكانة[201]. ولاحظت باريس ازدواجية سياسة كارل إيمانويل، فكتب المبعوث التوسكاني إلى فرنسا الأباتي نيقولي في الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1769 إلى فلورنسا يقول: «لقد بذل ملك سردينيا ويبذل كل ما في وسعه، بوساطة من أصدقائه الطيبين الإنكليز، ليتجنَّب زيارة أصدقائه الطيِّبين الروس إلى مرفأي نيس وكالياري، وذلك بحجَّة أنَّ المؤن في الأول قليلة، وأنَّ مرسى الثاني غير ملائم»[202].

في غضون ذلك، لعلَّ المسؤولين في بطرسبورغ كانوا لا يزالون يعلِّقون الآمال على بيمونتي. ففي أثناء البحث في المكان الذي سيوجد فيه ألكسي أورلوف في إيطاليا، نصحته كاترينا بإلحاح بالتوقُّف في مملكة سردينيا بالتحديد:

«... إنَّ تورينو أو أيَّ مدينة أخرى من ممتلكات ملك سردينيا، هي الأفضل من بين الأماكن الأخرى لوجودكم، حيث تتوفَّر فيها حرِّية حركة مرافقيكم وأمنهم المطلق. لأنَّ هذا الملك، ونظرًا إلى موقعه الراهن الحسَّاس

---

(201) يُنظر على سبيل المثال الرسالة السرِّية إلى السفير الروسي في إسبانيا س. س. زينوفييف بتاريخ التاسع عشر من أيار/ مايو 1771: «إن بلاط تورينو كان على الدوام معارضًا للبلاطات البوربونية، من حيث نظامه السياسي وعلاقاته الطبيعية مع البلاط الإنكليزي، ولكن بعد تحالف هذه البلاطات مع البلاط النِّمساوي، صار مضطرًا إلى الإحجام عن أيِّ فعل، ذلك أنَّ ممتلكاته محاطة بتلك الدول، وعلى الرغم من رغبته في إقامة علاقات مباشرة معنا وفي تبادل الوزراء بيننا، إلا أنَّه لا يمكنه القيام بذلك، احترامًا للدول المذكورة، قبل انتهاء الحرب الحالية على وجه الخصوص، ومع ذلك فهو يتعامل بتساهل مع السفن التي تدخل مرافئه في سردينيا»: *СбРИО*, t. 97, c. 320.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97، ص 320].

يُنظر أيضًا التعليمات الموجَّهة إلى وزير روسيا المفوَّض في باريس إ. س. بارتينسكي بتاريخ الخامس والعشرين من تموز/ يوليو 1773: *СбРИО*, t. 118, c. 453.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 118، ص 453]. مرسوم ملكي باسم الكونتر-أميرال س. ك. غريغ بتاريخ التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1773 (المرجع نفسه، ص 475).

(202) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2334.

بين البلاطين البوربوني والنمساوي، لا بد من أن يتمنَّى الخير لإمبراطوريتنا، كما أنَّ مصالح بلاده التجاريَّة تجعله يحترم الأتراك؛ ولذا، يمكن الافتراض أنَّه إذا ما قمتم بعملكم على أراضيه بهدوء، فهو لن يسعى إلى معرفة حقيقة أهدافكم هناك أو توقُّعها، أو كما يؤكِّد الأشخاص العارفون في بلاطنا، فهو قد يتعمَّد تجاهلها، ولا سيَّما حين يعلم أنَّ إقامتكم هناك لن تطول»[203].

في نهاية المطاف، وعلى الرغم من تردُّد كارل إيمانويل الأول وشكوكه، سُمح للسُّفن الروسيَّة بدخول مرفأ كالياري ومرافئ سردينيا الأخرى، بل ثُبِّت ذلك في اتفاقية بين الدولتين، بحسب ما أكَّدت الشائعات[204]. بيد أنَّ هذه المرافئ لم يكن لها أيُّ أهمِّية تُذكر في تاريخ حملة الأرخبيل. ففي مطلع شباط/فبراير 1770 دخلت السفينة «روستيسلاف» (إحدى سفن عمارة غ. أ. سبيريدوف) التي تضرَّرت بسبب العاصفة ميناء أوريستانو السرديني، ثم غادرته إلى كالياري[205]. وبحسب صحيفة الملازم غ. كيلخين الميدانية، فإنَّ السفينة كانت في المملكة برعاية المدعوِّ فرنسيسكو زغافاريوس، القائم بأعمال القنصل الروسي. على أنَّ «روستيسلاف» لم تحظَ بالإصلاحات المطلوبة في سردينيا، واضطرَّت للانتقال إلى جنوى[206]. وبعد عام من ذلك - في كانون الثاني/يناير 1771 - وصل الروس مجدَّدًا إلى سردينيا، ورسَوْا بسفنهم في مرفأ كالياري؛ لكن كان لسمعة البحَّارة الروس المتعاظمة تأثيرها الفعال هذه

---

(203) *СбРИО*, t. 1, c. 8.
[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 1، ص 8]؛ الأمر الملكي الذي وجهته كاترينا إلى أ. غ. أورلوف بتاريخ كانون الثاني/يناير 1769.

(204) تقرير قنصل البندقيَّة في ليفورنو فرنشيسكو بيكي بتاريخ الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1769: ASV, Inquisitori di stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Busta 513.

(205) تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة دي زاموني إلى القنصل في ليفورنو فرنشيسكو بيكي بتاريخ التاسع والسابع عشر من آذار/مارس 1770.
*GT*, 1770, 10. 40; *NM*, 1770, 20. 159; ASV, Inquisitori di stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Busta 513.

(206) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 14-15об.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 14 - ظهر الورقة 15].

المرَّة. فلم يحظ الضبَّاط الروس بلقاء الحاكم المحلِّي فحسب، بل بمقابلة نائب ملك سردينيا أيضًا[207].

على الرغم من أنَّ روسيا لم تتمكَّن من الحصول على مساعدة عسكرية في سردينيا في أثناء الحرب، فإنَّ المملكة تمكَّنت من تأمين المؤن لحملة الأرخبيل. وكان العملاء الروس في سردينيا يفضِّلون اللحوم السردينيَّة على التوسكانيَّة في أثناء الحرب، فكتب القنصل السرديني في توسكانة الأباتي برونو دي زاموني في الثاني عشر من شباط/ فبراير إلى تورينو يقول إنَّ ضرورة شراء لحم العجل في سردينيا تفرضها نوعية اللحم؛ إذ إنَّ اللحوم التوسكانيَّة تتلف بسرعة أكبر، لسببٍ ما، أثناء الإبحار[208].

أمَّا بشأن إقامة العلاقات الدبلوماسيَّة بين مملكة سردينيا وروسيا، فتعود الخطوات الأولى[209] في هذا الاتجاه إلى أيار/ مايو 1770، حينما أرسلت كاترينا أ. ف. ناريشكين إلى تورينو مكلَّفًا بإجراء اتِّصالات مع الحكومة السردينيَّة. وكان هدف هذه المفاوضات النهائي التوصُّل إلى تبادل المبعوثين وإقامة تحالف ضد البوربونيِّين والنمسا[210]. لكن مهمَّة ناريشكين لم تتكلَّل بالنجاح لاحقًا (إذ اعتبرت بطرسبورغ أنَّ سبب ذلك يكمن في عدم رغبة

---

(207) *NM*, 1771, 14. 111.

(208) كان الأسطول الروسي يُزوَّد باللحوم من ليفورنو، وكذلك من مودينا وماسا:
AST, Italia, Lettere Ministri Frienze, Mazzo 2.

(209) انتقل أحد مواطني بيمونتي – المدعو ج. م. أودا (Auda) – إلى روسيا، وأصبح عميلًا تجاريًا، وشارك في انقلاب عام 1762، لكنَّه طُرِدَ من روسيا في ما بعد. يُنظر: P. Cazzola, «Presenze russe in Nizza sabauda (1770-1860),» *Studi Piemontesi*, vol. XIX, fasc. 1 (1990), p. 119.

(210) *СбРИО*, t. 97, c. 68-69.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 97، ص 68-69].

فضلًا عن ذلك، كتب د. م. غوليتسين من لاهاي عن معاهدة تجاريَّة بين هولندا ومملكة سردينيا، وأضاف أنَّه يمكن السعي إلى الحصول على الشروط نفسها للتجارة بين كالياري وروسيا. واعتبر غوليتسين هذا الاقتراح ملائمًا جدًّا، لأنَّ سردينيا تحتاج إلى الخامات على نحوٍ خاص. يُنظر: المرجع نفسه، ص 73. وفي السادس من آب/ أغسطس 1770، كتب ن. إ. بانين إلى د. م. غوليتسين من لاهاي: «أعرب بلاط تورينو خصوصًا عن موقفه الإيجابي من سلاحنا، ومنح كلَّ سفننا أذونات غير محدودة بالدخول إلى مرافئه، وتزوِّدها بكل ما تحتاج إليه فيها بحُرِّية» (المرجع نفسه، ص 124-125).

كارل إيمانويل الأول بإخلال توازن القوى الدبلوماسيَّة)[211]. وفي أواسط عام 1770، أجرى مبعوث سردينيا في هولندا المركيز دي كوردون مفاوضات بشأن المزايا التجاريَّة المتبادلة مع الأمير د. أ. غوليتسين، المبعوث الروسي في لاهاي. وكما لاحظ المؤرِّخ الإيطالي ج. ليفي، مؤلِّف دراسة خاصة في هذا الخصوص، تقدَّمت مملكة سردينيا باقتراحاتٍ مماثلةٍ إلى العديد من البلاطات الأوروبيَّة الأخرى، إلا أنَّها كانت تفضِّل في الواقع استخدام سفن الشركات الإنكليزيَّة والهولنديَّة لتحقيق أهدافها التجاريَّة[212].

ربما تكون مسألة إقامة ممثليَّات دبلوماسيَّة طرحت في بطرسبورغ أيضًا، في أثناء وجود الكونت أ. دي تريكتي فيها. فبحسب فرضيَّة بيرتي، يُحتَمَلُ أن يكون صديق ألكسي أورلوف الإيطالي دي تريكي، الذي وصل إلى بطرسبورغ في عام 1773، عميلًا شخصيًّا لكارل إيمانويل الأول ومُخبِرًا لديه، ومن بعده لدى ملك سردينيا الجديد (1773) فيتوريو أميديو الثالث. فتريكتي بالذات، الذي أصبح في ما بعد مقرَّبًا من الملك، هو مَنْ أبلغ تورينو عن آفاق التَّقارب السياسي والاقتصادي بين بييموتي وروسيا[213].

بيد أنَّ قيام علاقات دبلوماسيَّة دائمة بين الدولتين لم يتحقَّق في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة، ولم يحصل إلا بحلول عامي 1782 و1783، عندما توجَّه المركيز باريلَّلا سان مارتينو[214] إلى بطرسبورغ ممثِّلًا تورينو فيها، عقب زيارة الأمير الكبير بافل بيتروفيتش تورينو، وعُيِّن فيها بالمقابل مبعوثان روسيَّان، وهما على التتالي المبعوث الروسي السابق في لاهاي د. م. غوليتسين، ون. ب. يوسوبوف (من عام 1783)[215].

---

(211) يُنظر في هذا الصدد، على سبيل المثال، رسالة أ. م. غوليتسين إلى إ. س. بارياتينسكي في باريس بتاريخ التاسع والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1774: *СбРИО*, t. 135, c. 229.
[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 135، ص 229].

(212) G. Levi, «Les Projets du gouvernement sarde sur les relations économiques avec la Russie à la fin du XVIII siècle,» dans: *La Russie et l'Europe. XVI-XX siècles* (Paris; Moscou, 1970), pp. 283-284.

(213) Ibid., pp. 285-288; Berti, pp. 62-71.

(214) P. Cazzola, «Il principe Beloselskij,» *Piemonte vivo. Rassegna periodica di lavoro, arte, letteratura e costumi piemontesi*, no. 3 (1968), p. 3.

(215) دائرة التاريخ والوثائق في وزارة الخارجية الروسيَّة. روسيا وأوروبا في القرن الثامن عشر، في: https://bit.ly/3ifW0sO

عند بداية الأعمال القتاليَّة في الدانوب وخروج الأسطول الروسي من كرونشتاد، كانت جمهوريَّة جنوى منشغلةً بحلِّ «المسألة الكورسيكانيَّة»، المتمثِّلة في انتفاضة الكورسيكانيِّين بقيادة الجنرال باسكوال باولي. فبناءً على معاهدة فرساي لعام 1768، وافقت جنوى على دخول الجيش الفرنسي إلى كورسيكا، مقابل تأجيل تسديد ديونها للويس الخامس عشر، لينتهي الأمر بضمّ الجزيرة إلى فرنسا. وانتهت الأعمال القتاليَّة ضد فرنسا عمليًّا في عام 1769 بهزيمة باولي في معركة بونتي نوفو[216].

كانت سياسة جمهوريَّة جنوى في تلك الفترة مبنيَّة على العلاقات الودِّية مع فرنسا. وبالتالي، كان من المتوقَّع أن تكون ردَّة فعل جنوى حيال وصول الأسطول الروسي سلبيَّة[217].

مع ذلك، شهدت جنوى في ما بعد، في ربيع عام 1769، نشاطًا مكثَّفًا

(216) أقامت كاترينا الثانية علاقات مع باولي بواسطة القائم بالأعمال الروسي في البندقيَّة ب. ماروتسي. وقد وجَّه ن. إ. بانين في العشرين من أيار/مايو 1769 إلى ماروتسي التعليمات الآتية: «بصفتكم الوزير المعتمد لصاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة، أخبروه (باولي - المؤلف) أنَّ الإمبراطورة تراقب منذ زمنٍ بإعجاب جهود هذا الجمهوري المقدام البطولية، الرامية إلى تحرير شعبه من نير الظلم والاستكبار الذي يريدون فرضه عليه، وهي تتمنَّى بصدق أن تتكلَّل هذه القضية العادلة بالنجاح...». إن روسيا لا تستطيع تقديم المساعدة لباولي لأنها تخوض حربًا، لكنَّ كاترينا مستعدَّة لإرسال هدية إلى الجنرال الكورسيكاني، هي عبارة عن كتان وتيل قنب وجلود وقمح: «ويكفي أن يأمر باستئجار سفينتين إنكليزيتين أو غير ذلك على حسابه، وإرسالها لتلقِّي هذه المؤن في المرافئ الروسيَّة». وأضاف بانين أنَّ من مصلحة كورسيكا دعم العمليَّة الروسيَّة في البحر المتوسِّط، لأنَّ روسيا تسعى إلى «كبح استكبار مضطهد الحرِّية الكورسيكانية ومكائده ودسائسه». وكتب بانين: «... إنَّنا نتوقَّع منه السماح لسفن صاحبة الجلالة بالدخول الحرِّ إلى جميع المرافئ الخاضعة لسلطته، وتمكينها من التزوُّد بكلِّ ما تحتاجه وبكلِّ ما يمكن أن تنتجه جزيرة كورسيكا، لقاء الدفع نقدًا»: *СбРИО*, t. 87, c. 436-438.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 87، ص 436-438].

وعن علاقات الروس بباولي، يُنظر الفصل الثاني.

(217) Berti, pp. 55-57.

تقرير المبعوث التوسكاني في باريس نيقوللي بتاريخ الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1769: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2334.

للعملاء الروس. وكما لاحظت كاترينا في أمرها السّامي إلى غ. أ. سبيريدوف في تموز/ يوليو 1769: «لم تكن لدينا علاقات مباشرة مع جمهوريَّة جنوى، ولكن، بالرغم من كونها مرتبطة في سياستها بالبيوت البوربونيَّة، ولا سيَّما فرنسا التي تنازلت لها كليًّا عن جزيرة كورسيكا الخاضعة لها[218]، يمكن أن نأمل أنَّها لن ترفض السماح لأسطولنا بالرسو عند الحاجة[219]، انسجامًا مع نمط الحكم المستقل فيها، لأنَّ مثل هذا الرفض يتعارض مع دستورها»[220].

أبلغ قنصل البندقيَّة في جمهوريَّة جنوى غائيتانو جيرفازوني في العشرين من أيار/ مايو 1769 أنَّ المدعوَّ غافريل فيلاتوف (Gabrielle Filatof)، يزعم أنَّه روسي الأصل، في حين تفيد معطيات أخرى أنَّه مولود في اليونان، وأنَّه هو المسؤول عن استئجار[221] أولى السفن لـ «الروس»[222]. عاش فيلاتوف سنوات طويلة في «سْميرْنا»، ثم في ليفورنو التي جاء منها إلى جنوى للحصول على سفينة لروسيا. وبحسب معطيات جيرفازوني، فقد بلغت كلفة السفينة (طاقم من 150 شخصًا و58 مدفعًا)، بحسب العقد، 30 ألف فلورين، بما فيها رواتب الطاقم. فضلًا عن ذلك، دفع فيلاتوف مبلغًا إضافيًّا لقاء تسريع عمليَّة تجهيز السفينة. وما إن تمَّت الصفقة حتَّى ظهر في جنوى على الفور عشرات

---

(218) أي جنوى. (المترجم)

(219) في مرافئها. (المترجم)

(220) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, c. 372.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 372].

تعزَّزت الثقة بإمكانيَّة التعاون مع جنوى في عام 1770. فتكرَّر النص الوارد أعلاه في الأمر الملكيِّ الذي أرسلته الإمبراطورة إلى الكونتر-أميرال آرف، لكن أضافت إليه: «وهي في الواقع لم تضع أيَّ عائق أمام رسو إحدى سفننا العسكريَّة هناك»: *СбРИО*, t. 1, c. 129.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 129].

يُنظر أيضًا الأمر السَّامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال س. ك. غريغ بتاريخ التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1773: *СбРИО*, t. 118, c. 475-476.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 118، ص 475-476].

(221) تتحدث المؤلِّفة هنا عن «استئجار» السفينة تارة، وعن «شرائها» تارة أخرى، وذلك في الفقرة نفسها من النص أحيانًا. التزمنا هنا بما كتبته المؤلفة، على الرغم من التناقض الواضح. (المترجم)

(222) يُنظر أيضًا تقرير قنصل راغوزيا في توسكانة ت. ج. باتاكي بتاريخ التاسع والعشرين من أيار/ مايو 1769 إلى حكومته. سمّى باتاكي العميل الروسي في جنوى «Gabriello Filato»: Ivancevic, p. 34.

السلافيِّين واليونانيِّين، كان بينهم ضبَّاط[223]. وبناءً على بعض المعلومات، كانوا هؤلاء يعلنون جهارًا أنَّهم لن يكتفوا بمهاجمة الأتراك وحدهم، بل سيفعلون الشيء نفسه بسفن تلك الدول المسيحيَّة التي لديها علاقات مع الأتراك، ولا سيَّما السُّفن الراغوزية التي تبحر بِرُخصٍ تركيَّة...[224].

في السابع والعشرين من أيار/ مايو 1769 كتب جيرفازوني إلى البندقيَّة يقول إن هناك شخصين، إنكليزيَّين على الأرجح، عملا على شراء السفينة مع فيلاتوف، وإنَّ ثمن السَّفينة دُفع بالكامل، بحيث يجري العمل بوتائر سريعة على تجهيزها للإبحار. وظلَّت أعداد متزايدة من السلافيِّين تصل إلى جنوى عبر البحر والبرِّ، كانوا ينزلون في ضواحي المدينة، يتجمَّعون ثمَّ يأتون إلى المرفأ (ذُكر من بين الذين كانوا يعتزمون الصعود إلى السفينة الجديدة، كلٌّ من درامانتي ريزو، والإخوة الثلاثة ماركو جوفاني وبيترو، وجورجو سينوخ، وماتيو دي ترازي، وإيليا ريبوفيتش، وجورجو دي أوبليه، وآخرون). وتلقَّى الراغبون بالخدمة في صفوف الرُّوس تعليمات من عملاء فيلاتوف. وأفادت الشائعات أنَّ السفينة كانت ستخرج من المرفأ رافعة العلم الإنكليزي، بعد انتهاء التحضيرات للإبحار، لتعود فترفع الراية الروسيَّة عندما تصبح في البحر[225]. وكما أشار بانو ماروتسي في رسالة إلى أ. م. غوليتسين بتاريخ 23 أيار/ مايو – 3 حزيران/ يونيو 1769، أثارت المعلومات الواردة من جيرفازوني قلقًا بالغًا في البندقيَّة التي خشيت ردَّة فعل تركيا حيال تورُّط الدول الإيطاليَّة الفعلي في حملة الأسطول الروسي[226].

---

(223) ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.

يُنظر أيضًا تقرير قنصل البندقيَّة في ليفورنو بيكي بتاريخ السادس والعشرين من أيار/ مايو 1769، الذي يتحدَّث فيه عن شراء العملاء الروس زورقًا مع 18 مدفعًا، وعن أنَّ مفاوضات تُجرى لشراء سفينة أخرى. وأكَّد بيكي أنَّ عددًا كبيرًا من السلافيين الذين تجمَّعوا في ليفورنو توجَّه إلى مرفأ «لاسبيتسيا»، حيث كان يُفترض أن يصعدوا إلى السفن المشتراة في جنوى: ASV, Inquisitori di stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Busta 513.

(224) رسالة مارك باينا إلى د. م. غوليتسين بتاريخ الخامس من آب/ أغسطس 1769 (بحسب التقويم الجديد): К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 281.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، ص 281 (النص الأصلي بالفرنسية)].

(225) ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.

(226) *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2044, Л. 38об. =

عند هذه اللحظة، قرَّرت حكومة جنوى التدخُّل في الوضع. ففي الثالث من حزيران/ يونيو 1769 كتب جيرفازوني أنَّه وردت إلى مجلس الشيوخ شكوى عن لاقانونيَّة أعمال فيلاتوف التي تناقض حياد جمهوريَّة جنوى. وأعقب ذلك احتجاز السفينة وإرسال 36 جنديًّا للحيلولة دون تمرُّد السلافيِّين من طاقم السفينة[227]. وأشار جيرفازوني في إخباريَّة بتاريخ السابع عشر من حزيران/ يونيو، إلى أنَّ أحد عشر سلافيًّا توجَّهوا في الخامس عشر من الشهر نفسه من جنوى إلى البندقيَّة، بعدما فقدوا الأمل بقبولهم ضمن طاقم السفينة التي اشتراها فيلاتوف. وأكَّد قنصل البندقيَّة أنَّ الحكومة هدَّأت الوضع إلى حدٍّ كبير بإفشالها الصفقة، وباتت على يقين بعدم قيام العملاء الروس بمحاولات أخرى لشراء السفن الجنويَّة أو بناء أخرى جديدة[228]. وفي أواسط شهر تموز/ يوليو، أمضى ألكسي غريغوريفيتش أورلوف[229] نفسه ثلاثة أيام في جنوى، ولكنَّ ذلك لم يبدِّل الأمر في ما يتَّصل باستئجار السُّفن لأغراضٍ عسكريَّة روسيَّة.

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2044، ظهر الورقة 38].

(227) ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.

يُنظر أيضًا: *Storia della Guerra presente tra la Russia e la Porta Ottomana* (Venezia, 1770), t. VH, p. 42.

(228) ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.

لاحظ أ. غ. أورلوف في رسالة إلى شقيقه غ. غ. أورلوف (1769) في هذا الصدد ما يأتي: «اشتريت سفينة في جنوى، ولكن صودرت لسوء الحظ، ولم أسمح بالمطالبة باستعادة النقود، ولكنني أقول: سيحل العيد في شارعنا أيضًا، وسيدفعون الثمن أربعة أضعاف، عندما يكسو الريش جناحي»: **مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 364.

يعتبر م. م. فريدنبرغ أنَّ سلطات راغوزيا (دوبروفنيك) هي سبب «سوء الحظ» الذي أصاب هذه السفينة. في ما بعد، أخذ أ. غ. أورلوف موقفًا عدائيًّا من السفن الراغوزيَّة في شرق البحر المتوسِّط. وقد دفع مجلس شيوخ دوبروفنيك لقاء هذه السفينة ولقاء سفينة أخرى دمَّرها الراغوزيون في جنوى، 4300 دوكات لروسيا في عام 1775: M. M. Фрейденберг, *Дубровник и Османская империя* (M., 1984), c. 243-246.

[م. م. فريدنبرغ، **دوبروفنيك والإمبراطورية العثمانيَّة** (موسكو، 1984)، ص 243-246].

(229) رسالتان مستعجلتان بتاريخ الخامس عشر والثاني والعشرين من تموز/ يوليو، والسادس عشر من آب/ أغسطس 1769.

ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.

وبحلول منتصف تموز/ يوليو غادر السلافيُّون جنوى (عبر فيارجيو باتجاه بيزا وبورتو فيرايو) التي أتوها خلال الشهرين السابقين. أمَّا فيلاتوف، الذي أُبعد من جنوى، فقد سلَّم الأمور إلى شخصٍ غير معروف، وتوجَّه إلى ليفورنو. وبعدما منعت جمهوريَّة جنوى، وكذلك ملك سردينيا، تجهيز السُّفن لصالح الأسطول الروسي، غدت توسكانة مركز النشاط الروسي بصورة نهائيَّة[230].

بيد أنَّ الحظر الذي فرضته جنوى على شراء السُّفن وتجهيزها للحرب ضد الإمبراطورية العثمانيَّة، لم يَسْرِ على استقبال السفن العسكريَّة التي كانت تدخل مرافئ الجمهوريَّة رافعة العلم الروسي. ففي عام 1770 دخلت السفينة «روستيسلاف» مرفأ جنوى آتيةً من سردينيا (26 شباط/ فبراير - 8 آذار/ مارس 1770). أثار الاستقبال في جنوى استياء طاقم السفينة في البداية، فقد ردَّت حامية قلعة جنوى على طلقات التحيَّة السبع التي أطلقتها «روستيسلاف» بطلقات خمس فقط. إلا أنَّ قبطان السفينة ف. ف. لوباندين تلقَّى «التهنئة من الأمير» والوعد «بتنفيذ كل» أعمال الصيانة[231]. في هذا الصدد، كتب المهندس الروسي غ. كيلخين في صحيفته آنذاك: «إنَّ مدينة جنوى هي مدينة تجاريَّة كبيرة جدًّا، فيها ميناء لا يُستهان به لعددٍ كبيرٍ من السُّفن العسكريَّة والتجاريَّة، ومركز رائع لصيانة السُّفن»[232].

أرسل قبطان السفينة فاسيلي لوباندين على الفور رسولًا إلى بيزا ليسأل ألكسي أورلوف عن التعليمات اللاحقة[233]. ومن المعروف أنَّ أ. غ. أورلوف

---

(230) ASV, Console Veneto in Genova, Busta I.
رسالتان مستعجلتان من جيرفازوني بتاريخ السادس والعشرين من حزيران/ يونيو والأول من تموز/ يوليو 1769، علمًا أنَّ رسالة الأول من تموز/ يوليو أشارت إلى أنَّه سُجِّل نشاط ملحوظ للعملاء الروس في لاسبيتسيا، ولا سيَّما في المرافئ التوسكانيَّة: Ibid.

(231) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 16-17.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 16-17].

(232) المرجع نفسه، ص 17.

(233) *NM*, 1770, 22. 175-176.
أطلع د. م. غوليتسين نائب المستشار أ. م. غوليتسين في 13-24 آذار/ مارس 1770 على التفاصيل التي تلقَّاها من جنوى بخصوص السفينة «روستيسلاف»: «كانت تلك سفينة حربية بقيادة القبطان لوباندين الثاني، وكان على متنها 64 مدفعًا وطاقم من 600 رجل، من بينهم 300 مجهَّزين =

أوفد إلى «روستيسلاف» في جنوى كلًّا من الجنرال ليفيتانت ف. ي. داراغان والقبطان الملازم بولغاكوف لتنظيم الأعمال[234]. وصل داراغان إلى جنوى في 4-15 آذار/ مارس[235]، وأمر بتغيير صارية السفينة على الفور[236]. وفي نهاية

---

= للإنزال على نحوٍ جيِّد. انطلقت السفينة من أرخانغيلسك، وعرَّجت على كل من النروج وإنكلترا وسردينيا. وعلى مسافة ميلين من بورت ماغون، فقدت السفينة صاريتها الرئيسة. وفي كونتي (سردينيا) دخلت السفينة عاصفة شديدة، لم تجرؤ حتَّى سفينة تجاريَّة على دخولها. أرسل القبطان في طلب مرشد بحري من سافاري، على مسافة يوم واحد من كونتي، فبعث الحاكم مرشدًا جنويًّا مجرِّبًا. ومن هناك، أوفد لوباندين رسولًا إلى ليفورنو لتلقِّي الأوامر من القائد العام»: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 272.

[سيرة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي. ص 272 (النص الأصلي بالفرنسية)].

(234) أبلغ ألكسي أورلوف كاترينا في التاسع من آذار/ مارس 1770 بالاستقبال الجيد الذي حظيت به «روستيسلاف» في جنوى: «وصلت «روستيسلاف» إلى جنوى قبل بضعة أيام، بعدما فقدت صاريتها وتجهيزات أخرى. وقد استقبلت جمهوريَّة جنوى هذه السفينة استقبالًا ممتازًا في المرفأ، وهي تبذل كلَّ ما في وسعها لتأمين كلِّ ما يلزم لتجهيزها بأسرعِ ما يمكن. سارعتُ فور تلقِّي التقرير إلى إيفاد المستشار والنبيل خادم البلاط فاسيلي داراغان، مكلِّفًا إيَّاه الإشراف على عمليَّة إصلاح السفينة المتضرِّرة «روستيسلاف»، وإعادة تأهيلها بالكامل لتكون جاهزة للإبحار. وآمل أن تُنجز كلُّ الأعمال في وقت قصير وبالشكل المطلوب، معوِّلًا على كفاءة المستشار المذكور وغيرته»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 544-545.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 544-545].

(235) *NM*, 1770, 24. 192.

غير أنَّ ألكسي أورلوف لم يكن راضيًا عن استقبال «روستيسلاف»، كما يتبيَّن من تقريره إلى كاترينا الثانية في نيسان/ أبريل 1770: «فقد الرقم الثاني، المسمَّى «روستيسلاف» صاريتين فيما تضرَّرت ثالثة، ونجح بشكل من الأشكال (كذا!) في الوصول إلى جنوى، من دون مؤن أو مال. فأرسلت داراغان في اليوم نفسه إلى هناك، وكلَّفته بإصلاح كل ما يلزم بأسرع ما يمكن، وإرسال تقرير مسهب لي عن كلِّ شيء. وأمرته أن يستفسر من الجمهوريَّة عن الأسباب التي جعلتهم يطلقون طلقات مدفعيَّة تحيَّةً، أقل بطلقتين ممَّا هو مفترض، وأن يذكِّرهم أنَّ هذه السفينة هي سفينة إمبراطورية، وإلى ذلك روسيَّة، فضلًا عن كونها حربيَّة. وأمرته أن يقول لهم، مثلًا، إنَّه حين تصرَّف المسؤولون في ليفورنو على هذا النحو أيضًا، تقدَّمت بشكوى، فاعتذروا متذرِّعين بعدم سماع الضابط كل الطلقات، وأنهم في الواقع أطلقوا العدد المطلوب من طلقات المدفعيَّة. وقلت لهم تفضلوا وافعلوا ذلك في اليوم الثاني، فأطلقوا في اليوم الثاني كلَّ الطلقات المطلوبة، أمَّا طلقات اليوم الأول فاعتبرنا أنها لم تحصل. بادر العلم الفرنسي إلى توجيه التحية لنا أولًا، وأجبناه بالمثل. الجواسيس يتتبعون سفننا في كل مكان على سفن مختلفة»: *СбРИО*, t. 10, c. 413-414.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 10، ص 413-414].

(236) *NM*, 1770, 25. 199.

شهر نيسان/ أبريل تعيَّن على الملازم فولف الذي يخدم في صفوف القوات الروسيَّة، المجيء إلى جنوى لمعاينة وضع السُّفن الروسيَّة التي خضعت للصيانة في هذا المرفأ الإيطالي مدة 59 يومًا، وتقديم تقرير بهذا الخصوص[237].

كان مصرفيُّو جنوى على علاقة وثيقة ببانو ماروتسي[238]، الذي كان يتردَّد إلى جنوى مرارًا، ويُجري العمليَّات الماليَّة فيها بهدف تسييل أوراق الاعتماد الماليَّة، لتلبية حاجات حملة الأرخبيل. فقد وصل، مثلًا، إلى جنوى[239] في العشرين من شباط/ فبراير 1771 للحصول على قرض بقيمة مليون قرش من المصرفيِّين المحليِّين لتأمين مستلزمات إبقاء الأسطول الروسي في الأرخبيل على المستوى المطلوب. طال أمد المفاوضات، وأخفق ماروتسي في تحقيق الاتفاق المرجوِّ بحلول شهر آذار/ مارس[240]. ولم يتمكَّن من إقناع المصرفيين إلا في بداية العشرية الأولى من الشهر، حين فُتح له اعتمادٌ بمليونين ونصف المليون فلورين، بفائدة سنويَّة قدرها 5 في المئة، وذلك استنادًا إلى متانة الضمانات التي قدَّمها[241]. وكان على ماروتسي إرسال المبالغ التي حصل

---

(237) *GT*, 1770, 18.72; Ciano, p. 28.

تقرير قنصل البندقيَّة في ليفورنو فرنشيسكو بيكي بتاريخ الرابع من أيار/ مايو 1770:
ASV, Inquisitori di stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Busta 513.

وصل رسول من جنوى إلى ليفورنو في 19-30 نيسان/ أبريل، وأبلغ الضبَّاط والبحارة الروس الباقين في توسكانة أنَّ الفرقاطة الروسيَّة «روستيسلاف» التي توقَّفت في ليغوري بسبب سوء الأحوال الجويَّة ستصل قريبًا. وفي صباح العشرين من نيسان/ أبريل - الأول من أيار/ مايو 1770، وصلت الفرقاطة المنتظرة من جنوى إلى ليفورنو، وكان من المفترض أن يبحر على متنها من إيطاليا الضباط الروس الذين ظلّوا في ليفورنو، بعد مغادرة العمارة البحريَّة الأساسية باتجاه مورية. نزل قبطان السفينة والضباط والجنرال داراغان إلى الشاطئ، وقاموا بزيارة بروتوكولية إلى حاكم ليفورنو بوربون ديل مونتي.

(238) كتب ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين وز. غ. تشرنيشوف وأ. أ. فيازيمسكي في السادس والعشرين من أيار/ مايو - السادس من حزيران/ يونيو 1770، عن آفاق العلاقات الماليَّة المتبادلة مع جنوى: «يبدو لي أنَّ نوايا الجنويِّين جيِّدة جدًّا»: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 17.

**[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة**، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 17 (النص الأصلي بالفرنسيَّة)].

(وأشار ماروتسي إلى المصرفي المركيز غريمالدي بصورة خاصة).

(239) *NM*, 1771, 18. 142.

(240) *NM*, 1771, 20. 159.

(241) *NM*, 1771, 23. 182.

عليها إلى الأرخبيل، حيث كان من المفترض أن تنقلها من جنوى سفينتان حربيَّتان روسيَّتان أُرسِلَتا خصِّيصًا لهذا الغرض(242). وكان ماروتسي ينوي العودة إلى البندقيَّة بعد إنجازه مهمته(243)، لكنه بقي في جنوى(244) حتَّى نهاية شهر آذار/ مارس(245)، بسبب سوء الأحوال الجويَّة. وعاد ماروتسي إلى جنوى في منتصف شهر حزيران/ يونيو، حاملًا الوثائق التي تؤكِّد مصادقة كاترينا الثانية على القرض(246).

في المحصِّلة، كان لدى كاترينا الثانية في عام 1771 كلُّ المسوِّغات لتؤكِّد: «إنَّ جمهوريَّة جنوى لم تتعامل بتسامح مع رعايانا، بحكم موقعها وكذلك علاقاتها بالبيوتات البوربونيَّة، بيد أنَّها بدأت تسعى إلى التكفير عن ذنبها بعدما رأت مكاسبنا في مواجهة العدو خوفًا من الانتقام»(247).

إلا أنَّ العلاقات الدبلوماسيَّة الكاملة بين جنوى وروسيا لم تستقم إلى أن سقطت الجمهوريَّة في عام 1797(248). وفي عام 1782، وصل القائم بالأعمال

(242) *NM*, 1771, 32. 252.

(243) *NM*, 1771, 25. 198.

(244) *NM*, 1771, 26. 205.

(245) *NM*, 1771, 28. 221.

(246) *NM*, 1771, 52. 413.

(247) من رسالة زينوفييف، السفير الروسي في إسبانيا، السرية بتاريخ التاسع عشر من أيار/ مايو 1771: *СбРИО*, t. 97, c. 320.
[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 97، ص 320].

(248) أبلغ الأمير د. م. غوليتسين في رسالة دورية من باريس بتاريخ 14-25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1764، عشية الحرب الروسيَّة - التركيَّة، عن اقتراح جمهوريَّة جنوى الذي قدَّمه إليه مبعوث جنوى المركيز دي سوربا بصورة خطية، وفحواه عقد اتفاقية تجاريَّة مع روسيا على غرار الاتفاقية المعقودة بين جنوى والدانمارك. وكتب ن. إ. بانين إلى كاترينا بهذا الشأن: «هلا تفضلتم، صاحبة الجلالة، بالإيعاز إلى الجمهوريَّة لترسل إلينا شخصًا مكلَّفًا بالتفاوض على الاتفاقية، بما أنَّ هذا من مصلحتها أولًا. فتجَّارنا هم الذين يرغبون في المتاجرة وليس تجَّارها. أمَّا إذا تلكأت في ذلك، فيمكن تفويض الأمير غوليتسين، إذا ما رغبت بإجراء هذا التفاوض في باريس. لكن من الضروري، بدايةً، الاطلاع على الاتفاقية الدانماركية، التي يمكن الاستناد إليها. إلا أنه ينبغي طلب رأي لجنة التجارة في كلِّ ذلك». وافقت كاترينا على رأي بانين: *СбРИО*, t. 57, c. 146.
[مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 57، ص 146].

(الوزير المفوَّض لاحقًا) أ. س. موردفينوف إلى جنوى، وبقي فيها حتَّى عام 1786. وتوجَّه المركيز ستيفانو ريفارولا في اتجاه معاكس، من جنوى إلى بطرسبورغ، حيث وصل العاصمة الروسيَّة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1783. وخشية الإخلال بسياسة الحياد، أمر مجلس جنوى الصغير ريفارولا بالاكتفاء بتوجيه الشكر إلى الإمبراطورة على منح الجمهوريَّة شرف تعيين ماردفينوف، مع عدم مناقشة أيِّ اتِّفاقات سياسيَّة أو تجاريَّة. وفي نيسان/ أبريل 1785، غادر ريفارولا بطرسبورغ، من دون أيِّ انعكاسات على العلاقات الدبلوماسيَّة بين الدولتين[249].

### مملكة الصقليتين (نابولي)[250]

شكَّلت الحرب الروسيَّة - التركيَّة، كما في كلِّ إيطاليا، عاملًا محفِّزًا للتَّقارب بين روسيا ونابولي؛ إذ إنَّ وجود الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط وضرورة الإنفاق عليه فرضا اهتمام كاترينا الثانية بإقامة علاقات



كازيرتا. قصر ملك نابولي

دبلوماسيَّة ثابتة مع كلِّ الدول الإيطاليَّة، على الرغم من أنَّ العلاقات (بما فيها التجاريَّة) ما بين روسيا ومملكة الصقليَّتين كانت قبل الحرب في حدودها

---

(249) يُنظر: Berti, pp. 56-57, 94, 107-111.

(250) مملكة الصقليَّتين (Regno dell Due Sicilie): الاسم الجديد الذي اختاره فرديناندو الأول، ملك الصقليتين من آل بوربون، لما يملك من أراضي جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية، بعد نهاية الحقبة النابليونيَّة واستعادته الكاملة لسلطته في عام 1816. وكانت نابولي عاصمة لهذه المملكة. وقبل الثورة الفرنسيَّة وما تلاها من حملات نابليون، كان آل بوربون يحكمون هذه الأراضي، لكنها كانت مقسَّمة شكليًّا إلى مملكة نابولي ومملكة صقلية. (المترجم)

الدنيا. فمنذ عام 1756، كان يحقُّ للتجَّار الروس تصدير الحرير الإيطالي[251]، حيث ظهر في المقابل الكتَّان الروسي في أسواق نابولي. لكن، كانت تجري في الحالتين عمليَّة تزييف، كما يشير م. ل. كافالكانتي في دراسته. فقد كان يُزعم أنَّ الكتَّان الروسي الرخيص ذا النوعيَّة السيِّئة مجلوب من المشرق، وأمَّا الحرير الإيطالي الوارد إلى روسيا فكان يُصَنَّع في بولندا أو تركيا[252]. وكما يشير كافالكانتي، دلَّ تبادل السلع بين كلٍّ من روسيا ونابولي على أنَّ هذه العلاقات - على ضعفها وحدوثها بواسطة سفن دولٍ وسيطة ثالثة، إنكليزيَّة بالدرجة الأولى[253] - لم تنقطع، بل على العكس، عرفت تعزُّزًا وإن ببطءٍ.

أجرت حكومة نابولي ابتداءً من عام 1765 مراسلات منتظمة مع بطرسبورغ، عبر الممثِّلين الإسبان لدى البلاط الروسي. غير أنَّ ملك نابولي فرديناندو الأول بوربون، الحليف الأمين لفرنسا وإسبانيا، سعى أثناء الحرب إلى الحفاظ على الحياد في العلاقات بين الدولتين المتحاربتين في البحر المتوسِّط[254]. واتَّسمت التقويمات الأولى لآفاق العلاقات الروسيَّة - النابوليتانيَّة بقدر معيَّن من التشكيك. فكتبت كاترينا إلى أ. غ. أورلوف في السادس من أيار/ مايو 1769: «لا بدَّ من الإقرار بأنَّ تورينو وباقي المناطق

---

(251) تقصد المؤلِّفة على الأرجح استيراد الحرير الإيطاليّ وليس تصديره. (المترجم)

(252) M. L. Cavalcanti, *Le relazioni commerciali tra il regno di Napoli e la russia, 1777-1815, Fatti e teorie* (Genève, 1979), pp. 78-79.

يُنظر في المرجع نفسه قائمة السلع المصدَّرة من صقلية إلى روسيا في عام 1770 (ص 79)، والسلع المرسلة في الاتجاه المعاكس في عامي 1774 و1775 (ص 80)، ويُنظر أيضًا إحصاءات شيِّقة (ص 81-83). يُنظر أيضًا: Г. А. Сибирева, *Неаполитанское королевство и Россия в последней четверти XVIII в* (M., 1981).

[غ. أ. سيبيريفا، مملكة نابولي وروسيا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (موسكو، 1981)].

(253) Cavalcanti, p. 80.

ظهرت السفينة التجاريَّة الروسيَّة الأولى في نابولي في عام 1764.

(254) يُنظر تقرير مبعوث توسكانة في باريس نيقولي بتاريخ الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1769: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2334.

سمحت نابولي، على غرار فرنسا، لسفينة روسية واحدة بالدخول إلى مينائها، لأنَّ هذا ما كانت تقضي به العلاقات المتبادلة بين الدول غير الحليفة في زمن الحرب. يُنظر: Черкасов, c. 364.

[تشيركاسوف، ص 364].

الخاضعة لسلطة ملك سردينيا ليست طيِّعة لكم. ولكن، نظرًا إلى سفركم إلى نابولي، فإنني أَلفِتُ نظركم إلى أنَّ ملك نابولي، سليل البيت البوربوني، يرقص هو ووزارته على وقع اللحن الفرنسيِّ، وهذا اللحن لا ينسجم مع الصوت الروسي. في أيِّ حال، يبقى مكان وجودكم، اليوم كما في السابق، خياركم أنتم، والمهمُّ في الأمر أن يكون آمنًا بالنسبة إليكم»[255].

كانت الإمبراطورة على حق. فبالخضوع لضغط كلٍّ من فرنسا وإسبانيا، فرض البلاط الصقلي في نهاية عام 1769 حظرًا على دخول أكثر من ثلاث سفن حربيَّة في آن واحد إلى مرافئه، على غرار ما فعلته مالطا، ودعم هذا الحظر بتعزيز حاميات السواحل - في صقلية وشاطئ الأدرياتيكي وبرينديز وباري وبارليت ومانفريدونين وأوترانتو - لتثبيت التقيُّد الصارم بحياد المملكة في الحرب. وكما لاحظ مؤلِّفو كتاب **تاريخ الحرب الراهنة بين روسيا والباب العالي العثماني**، الصادر في البندقيَّة في سبعينيَّات القرن الثامن عشر، فقد اتَّخذت الدول الإيطاليَّة الأخرى تدابير حيطة مماثلة، وأُطلِعَت عليها بطرسبورغ في حينه[256].

كلُّ شيءٍ كان يشير إلى أنَّ نابولي كانت تتخوَّف بصورة جدِّية من أن يؤدِّي وجود قوة عسكريَّة روسيَّة كبيرة في البحر المتوسِّط إلى التأثير سلبًا في التجارة مع المشرق، وإلى اختلال ميزان القوى في المنطقة على نطاقٍ أوسع. غير أنَّ الإمبراطورة كاترينا ظلَّت تؤكِّد للحكّام الإيطاليِّين أنَّ الأسطول الروسي لن يلحق الضرر بأيِّ دولة مسيحيَّة، وأنَّ أنشطة الأسطول الإمبراطوري لن تتعارض مع اتفاقيَّات السلام بين الدول الإيطاليَّة وتركيا[257].

---

(255) *СбРИО*, t. 1, c. 17-18.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 1، ص 17-18].

يُنظر أيضًا: «إن وضعنا مع فرنسا يمكن أن ينطبق تمامًا على كلٍّ من إسبانيا ومملكة الصقليتين» (من أمر كاترينا السَّامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال آرف في الخامس من حزيران/ يونيو 1770 (المرجع نفسه، ص 127)؛ يُنظر أيضًا الأمر السَّامي الموجه إلى الكونتر-أميرال س. ك. غريغ في التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر 1773: *СбРИО*, t. 118, c. 127.

[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 118، ص 127].

(256) *Storia della Guerra presente tra la Russia e la Porta ottomana*, t. V, pp. 106-107.

(257) Ibid., p. 107.

مع تعزُّز الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط، وانسجامًا مع المنطق العام للعلاقات المتبادلة ما بين روسيا والدول الإيطاليَّة خلال سنوات المجابهة الروسيَّة - التركيَّة، أخذت السلطات في نابولي تخفِّف من تصلّبها تدريجًا، وصارت تخضع أكثر فأكثر للضغوط الروسيَّة، فبدأت مرافئها تستقبل سفن العمارة البحريَّة الروسيَّة[258]، لشراء السلع المخصَّصة للأسطول الإمبراطوري[259].

تجلَّت ازدواجيَّة موقف المملكة في قرار نابولي بشأن مسألة مهمَّة بالنسبة إلى القوات البحريَّة، تتمثَّل في التحيَّات المتبادلة بطلقات المدفعيَّة مع السفن الحربيَّة الروسيَّة (لنتذكر ردَّات الفعل الحادَّة من الجانبين على عدم إطلاق العدد الكافي من طلقات التحيَّة، في جنوى وبورتو فيرايو والمرافئ الأخرى). فقد تقرَّر في مملكة نابولي **عمومًا عدم إطلاق طلقات المدفعيَّة ترحيبًا بالسُّفن** الروسيَّة. وتطلَّب هذا الموقف تفسيرًا على أقل تقدير، ناهيك بدلالته على عدائيَّة سافرة؛ إذ أصدر ملك نابولي في نهاية عام 1769 قرارًا خاصًّا يقضي بعدم إطلاق طلقات الترحيب عند دخول السُّفن الروسيَّة إلى مرافئ صقلية، وعدم مطالبة الرُّوس بذلك. وأشار الملك إلى أنَّه إذا ما أطلق الروس طلقات المدفعيَّة وألحُّوا على الإجابة بالمثل، فينبغي أن يقال لهم إنَّ هذه المسألة لا تدخل في صلاحيات السلطة المحليَّة، بل يجب أن تكون هناك اتفاقيَّة بين الدولتين بهذا الخصوص.

لذا، فحينما دخلت السفينة الحربيَّة «روستيسلاف» مرفأ ميسينا في الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1770 مُطلقة طلقات التحيَّة - وكان على متنها ف. غ. أورلوف - لم تردَّ سلطات المرفأ على التحيَّة الروسيَّة بمثلها، وأوضح «محافظ المدينة» لأورلوف أن «طلقات التحيَّة لم تُطلق لأنَّ البلاط الروسي لم

(258) يُنظر، على سبيل المثال: *NM*, 1771, 97. 751.

(259) يُنظر في هذا الصدد رسالة ماروتسي إلى أ. م. غوليتسين من البندقيَّة بتاريخ 26 أيار/ مايو - 6 حزيران/ يونيو 1770: *РГАДА*, Ф. 1263, Оп. 1, Ед. хр. 2045, Л. 20.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 1263، القائمة 1، وحدة الحفظ 2045، الورقة 20].

يعقد معاهدة مع صقلِّية بهذا الشأن»[260]. وبعد أيام عدّة، كرَّر محافظ ميسينا موقف نابولي غير الودِّي تجاه الرُّوس، قائلًا إنَّ «إسبانيا لا تسمح لأكثر من ثلاث سفن بدخول المرفأ»، لذا فإنَّ المراكب اليونانية التي تواكب السفينة الروسيَّة ينبغي أن تغادر المرفأ، فضلًا عن أنه لا توجد في ميسينا مواد لتصليح السفن الروسيَّة[261]. أمَّا أ. غ. أورلوف تمكَّن من معالجة المسألة بإيفاده رسولًا خاصًّا من ليفورنو إلى نابولي وميسينا[262].

بعد مضي ثلاث سنوات تحسَّنت العلاقات ما بين روسيا ونابولي، حتَّى إنَّ رسولًا خاصًّا وصل إلى باليرمو في صقلِّية من بطرسبورغ في مطلع خريف عام 1774، بعد موافقة مسبقة من سلطات نابولي. وأنعمت كاترينا على المسؤول العسكري الصقلِّي الكونت كارافو بوسام القديسة حنَّة وثلاثة آلاف روبل راتبًا تقاعديًّا سنويًّا، لقاء الخدمات التي أدَّاها لروسيا في أثناء الحرب مع تركيا[263].

كان لقاء البحَّارة الروس بمملكة نابولي لا يبدأ، عادةً، بمدينة نابولي، بل بشواطئ صقلِّية، التي لم يكن بوسعهم تفاديها دائمًا. فالسُّفن الآتية من الأرخبيل لم تكن تخضع أحيانًا للحجر الصحِّي في ميسينا بصقلِّية فحسب (كما فعل فيودور أورلوف في نهاية عام 1770)، بل كانت تأتي إليها لإجراء التصليحات اللازمة، سواء في عام 1770 أم بعده أيضًا. ففي مطلع شهر شباط/ فبراير 1773، مثلًا، توقَّفت سفينة القيادة «الأساقفة الثلاثة» الآتية من الأرخبيل، في ميسينا لتصليح إحدى صواريها[264].

---

(260) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 43.
[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 43].

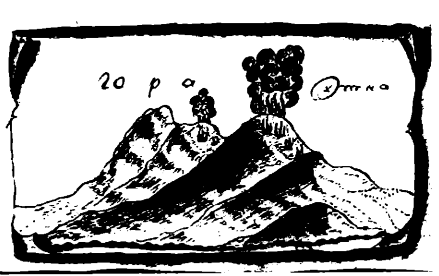
(261) المرجع نفسه، الورقة 45.

(262) *NM*, 1771, 2. 25, 4. 32, 9. 71.

(263) *NM*, 1774, 76. 608.
يُنظر أيضًا: *СбРИО*, t. 135, c. 427-428.
[**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 135، ص 427-428].

(264) *NM*, 1773, 87-88, 26. 207; *GT*, 1773. 6. 23, 14. 56.

ترك شاطئ صقلِّية، ولا سيَّما بركان إتنا، أثره في الصحائف العسكريَّة الجافَّة، على شاكلة السطور الآتية: «جبل شاهق وتلال»، «مبنى القلعة القديم»، «جبل إتنا الناري أو مونتيبيللو، الذي يقال إنَّه لا مثيل له في صقلِّية كلها. يبلغ ارتفاعه 30,000 خطوة، تغطيه الثلوج والرماد الذي تنفثه تلك البئر النارية على مدار السنة»[265].



«جبل إتنا الملتهب»

جذبت نابولي إليها الروس أيضًا لوجود كنيسة يونانيَّة فيها، خلافًا لروما[266]. وغالبًا ما كانت الصحف المحليَّة تشير إلى وجود العسكريِّين والنُّبلاء الروس في نابولي أثناء الحرب. وكان الروس يشاركون في مملكة الصقلِّيتين علية قومها حياتهم، وإن بشكلٍ أقل من مشاركتهم التي في توسكانة،

---

(265) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 42.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 42].

(266) كتب ف. ن. غوليتسين، الذي عاش في روما منذ عام 1768، عن خاله إ. إ. شوفالوف، في سيرة حياته: «كان متديِّنًا ويسافر من روما إلى نابولي، حيث توجد كنيسة يونانيَّة، خصيصًا ليؤدِّي الصوم السنوي وفق طقوسنا. وأينما حلَّ، كان الفقراء يتقاطرون إلى باب بيته، وكلهم أمل بالحصول على الصدقة»: Жизнь обер-камергера Ивана Ивановича Шувалова, писанная племянником его Тайным Советником Князем Федором Николаевичем Голицыным, in: *Москвитянин*, t. 2, Отд. IV (1853), c. 94.

[حياة الأوبركاميرهير إيفان إيفانوفيتش شوفالوف، بقلم ابن شقيقته المستشار الأمير فيودور نيقولايفيتش غوليتسين، في: **موسكفيتيانين**، مج 2، القسم الرابع (1853)، ص 94].

[**أوبركاميرهير** (من الألمانية: *Oberkammerherr*): أعلى منصب في البلاط الملكي، يتولاه في العادة أحد النُّبلاء المقرَّبين من القيصر، وهو أقرب ما يكون إلى حامل مفاتيح البلاط. وتكمن مهمَّته في الإشراف على فرسان القصر، وتنظيم مقابلات القيصر وأفراد الأسرة الملكية مع النُّبلاء والوجهاء وكذلك المبعوثين والسفراء الأجانب، وتقديم لائحة بأسماء من يُمنَحون شرف المقابلة إلى القيصر وأفراد الأسرة الملكية. وكان من يتولَّى هذا المنصب في روسيا خلال القرن الثامن عشر بمثابة الشخصية الثانية في البلاط بعد القيصر، أو ما يعادل الوزير الأول]. (المترجم)

وكانوا يحتفلون مع الجالية اليونانيَّة في نابولي بالأعياد الكنسيَّة ويهتمُّون بالآثار القديمة[267]. ففي نهاية عام 1768 - بداية عام 1769، قام إ. إ. شوفالوف بمعاينة الآثار هنا[268]. وفي بداية عام 1771، أمَّ عددٌ كبيرٌ من النُّبلاء الروس نابولي، وعلى رأسهم ف. غ. أورلوف[269]. وفي 31 كانون الثاني/ يناير - 11 شباط/ فبراير 1771، استقبل ملك نابولي فرديناندو الأول زائريه من الضبَّاط الروس في المقرِّ الملكي بكازيرتا[270]، وفي 17-28 شباط/ فبراير، في أثناء الصوم الكبير، حضر هؤلاء الضبَّاط (مع جنود الفيلق الألباني المحلِّي وضبَّاطه)[271] القدَّاس في الكنيسة اليونانيَّة المحليَّة. وفي صبيحة 11-22 آذار/ مارس، غادر فيودور أورلوف والضبَّاط المرافقون له نابولي إلى ليفورنو، ووصلوا توسكانة[272] في عيد الفصح. غير أنَّ الصحف أشارت إلى أنَّ قسمًا من الضبَّاط الروس بقي في نابولي للاحتفال بالعيد[273]. فحضر القداديس في

(267) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات الثقافية بين روسيا ونابولي يُنظر: Ф. Вентури, «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» in: *XVIII век* (СПб., 1975), с. 119-126.

[ف. فينتوري، «الأصداء الأدبيَّة النابوليتانيَّة للحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)،» في: **القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ، 1975)، ص 119-126].

(268) *NM*, 1769, 4. 29; ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2337, carteggio ordinario del Ministro di S.A.R alla Corte di Napoli.

رسالة بتاريخ السابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1768.

(269) كانوا عائدين من الأرخبيل بعد الحملة العسكريَّة في عام 1770، واضطروا في تشرين الثاني/ نوفمبر إلى الخضوع لحجرٍ صحِّي لمدة 49 يومًا في مرفأ ميسينا بصقلِّية. وبعد انتهاء هذا الحجر، نزل ف. غ. أورلوف والمقدَّم أوبوخوف والأمير فولكونسكي والنقيب دوماشنيف والمدعوُّ أكينفي كوزلوف، إلى الشاطئ في 16-27 كانون الثاني/ يناير 1771، وبدأت بذلك إقامتهم في مملكة الصقلِّيتين: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 46-48.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 46-48]. يُنظر أيضًا: *NM*, 1771. 2. 15, 4. 32; 9. 71.

(270) *NM*, 1771, 16. 128.

(271) *NM*, 1771, 22. 174.

(272) *NM*, 1771, 27. 212; *NM*, 1771, 28. 221.

(273) زار إ. إ. شوفالوف، مثلًا، نابولي في عام 1771؛ ونحن نعرف ذلك من رسالة ف. غالياني إلى السيدة «دي إيبيني» في الثالث عشر من نيسان/ أبريل 1771: Louise d'Epinay & Ferdinando Galiani, *Epistolario, 1769-1772* (Palermo, 1996), p. 309.

الكنيسة اليونانيَّة المحليَّة في أثناء أسبوع الآلام. وبعد قدَّاس الفصح قدَّم النُّبلاء الروس الهدايا إلى الكنيسة اليونانيَّة وكهنتها، ووزَّعوا صدقات سخيَّة على الفقراء(274).

وزار الرحالة الروس نابولي أيضًا في عامي 1773 و1774، وكان من بينهم كل من ن. ف. ريبنين وإ. غ. تشيرنيشوف والأمير س. س. غاغارين والبارون ن. أ. ديميدوف والكونت أ. إ. موسين بوشكين وغيرهم(275). وفي بداية الثلث الأخير من آذار/ مارس 1773 أتى إ. إ. شوفالوف مجدَّدًا من روما إلى نابولي، مرافقًا الأرستقراطيِّين الروس إلى كازيرتا للقاء الملك والملكة(276).

غدت نابولي بالنِّسبة إلى روسيا مكانًا مهمًّا للمفاوضات مع الدول الإيطاليَّة. ففي آذار/ مارس 1771، أطلع أورلوف - المنتشي بانتصار شيسما والنجاحات في الأرخبيل، قبيل سفره إلى ليفورنو - مبعوث البندقيَّة لدى بلاط نابولي على «المخطَّطات والأهداف العظيمة التي ينوي الروس تحقيقها في الحملة المرتقبة»:

«تناول الحديث بين سفير البندقيَّة في نابولي والكونت أورلوف القوى التي ينبغي أن تهيمن في البحر، بحسب ما يؤكِّد الموسكوبيون، .. والتي يراهنون بواسطتها على مهاجمة أراضي السلطان في الأرخبيل والانقضاض على الدردنيل وتطويق العاصمة نفسها، بقوى الجيش الروسي بعد اجتيازه الدانوب، وكذلك بواسطة الأسطول الروسي في البحر الأسود، وعندها يمكن أن تصبح القسطنطينيَّة في حالة يرثى لها. إنَّ هذه الطموحات العسكريَّة

---

(274) *NM*, 1771, 32. 253.

(275) *NM*, 1773, 24. 192, 26. 208; *GT*, 1774, 11. 44, 16. 62, 20. 77; *NM*, 1774, 21. 166, 23. 184, 31. 284, 34. 272, 36. 288, 38. 304, 51. 404.

يُنظر أيضًا: Е. В. Карпова, «Скульптурные портреты И. И. Шувалова,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб., 1998), с. 71.

[ي. ف. كاربوفا، «لوحات إ. إ. شوفالوف الفنية»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 71].

(276) *NM*, 1773, 24. 192, 26. 208.

والمخطَّطات المُغرِيَة المتَّصلة بنجاح الحملة العامّ، التي تتوقَّف بالكامل على مكاسب عمليَّات الجيش الروسي العسكريَّة على الدانوب، تشكِّل محتوى رسائل المبعوث المذكور، التي يميل السَّادة هنا إلى اعتبارها متَّسمةً بالمغالاة على الأرجح»[277].

على الرغم من أنَّ أحلام ف. غ. أورلوف بشأن القسطنطينيَّة والدَّردنيل لم تتحقَّق، فإنَّ موقف سلطات نابولي من روسيا تغيَّر تبعًا لمسار الحرب. وبعد انتهاء الحرب مع الأتراك، تمكَّنت كاترينا من إرسال البارون فريدريخ ميلخيور فون غريم إلى نابولي وسيطًا لإقامة العلاقات بين المملكة وروسيا. وتكلَّلت مهمَّة غريم بالنجاح؛ إذ قرَّرت الدولتان تبادل المبعوثين في عام 1777، وتحقَّق الأمر في عامي 1778 و1779[278].

تبيَّن على المدى التاريخي البعيد أنَّ مملكة الصقلِّيتين كانت الحليف الأفضل الذي يركن إليه في شبه الجزيرة الأبينينيَّة[279]. فاستمرَّت العلاقات الدبلوماسيَّة بين الدولتين بين عامي 1777 و1860.

---

(277) «Il discorso tenuto dal Residente Veneto a Napoli con il Conte d'Orloff ha versato sopra le forze, che li Moscoviti professan di dover avere prepotenti sul Mare, con le quali contano d'essere in grado di attaccare con profitto da più bande li Stati del Gran Signore in Arcipelago, investire i Dardanelli e stringere la Capitale stessa, qual dall'Esercito Russo, allorche avra passato il Danubio, e dalla Flottiglia pure de' Russi sul Mar Nero unitamente, e al tempo stesso potra esser ridotta nella più desolante situazione. Queste militari lusinghe ed altre ancora dipendenti per la felicita del loro esito quasi totalmente dalle operazioni vantaggiose delle Grand'Armata de' Moscoviti al Danubio sono il contenuto delle lettere al sudetto Sig. Residente, sopra le quali e sopra le forze sudette, questi Signori non son lontani, dal credere una qualche esagerazione».

تقرير مبعوث توسكانة في البندقيَّة دومينيكو كوتيني، بتاريخ الحادي والثلاثين من نيسان/ أبريل 1771: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2317.

يُنظر أيضًا تقريره بتاريخ السادس من نيسان/ أبريل 1771، مع ذكر حديث ممثِّل البندقيَّة في نابولي مع أورلوف.

(278) Berti, pp. 58-59; Cavalcanti, pp. 76, 84.

كان المبعوث النابوليتاني الأول في روسيا موتسيو دا هايتا، دوق سان نيقولا، الذي وصل إلى بطرسبورغ في السادس والعشرين من آب/ أغسطس 1779 (بحسب التقويم الجديد)، وفي نهاية العام نفسه، وصل المبعوث الروسي الكونت أ. ك. رازوموفسكي إلى نابولي: Ibid., p. 83.

(279) الإيطاليَّة. (المترجم)

نظرت روما بعين الشكّ، على ما يبدو، إلى آفاق التقارب بين العالم الكاثوليكي وروسيا الأرثوذكسيَّة، في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى، بحيث رفض البابا كليمنت الرابع عشر في عام 1769 السماح بتصدير القمح من الدولة البابويَّة (كان الحظر في الدول الإيطاليَّة الأخرى، كما لاحظنا، يشمل السِّلاح وحده)، لارتيابه في أنَّ روسيا هي المشتري الأول لهذا القمح، الذي سيُستعمَل لتلبية حاجات الأسطول الروسي[280]. وإذ تذمَّر بيترو فيري



روما، ساحة القديس بطرس

بصراحة من أنَّ النزاعات المزمنة بين الكاثوليك والأرثوذكس تجعل البابا يقف عمليًّا إلى جانب تركيا المسلمة، كتب إلى شقيقه أليساندرو في روما معاتبًا: «إنَّ الجيش <الروسي>، الذي لا يهرب منه أحد، الذي لا يفرُّ منه أحد، حيث

(280) رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري بتاريخ السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1769 (بحسب التقويم الجديد): Ibid., p. 135.

الانضباط أعمى، والرجال أشدّاء، هذا الجيش خُلق لكي ينتصر على تلك الدولة الفاسدة، المضعضعة قواها على نحوٍ فظيع، التي تمثّلها تركيا <...> أنا مسيحيٌّ، مسيحيٌّ حقيقيٌّ في هذه الحرب؛ أمّا أنتم أهل روما، فأتراكٌ، على ما أعتقد، إلى حدٍّ ما، والسبب في ذلك هو أنّ النزاعات بين الأنسباء الأقرب عادةً ما تكون أفظع. ثمّة بيننا وبين الروس الآن *filioque*[281] واحد، فهم أبناء عمومتنا من الدرجة الأولى»[282].

في غضون ذلك، كانت روما مركزًا بالغ الأهمّية للدعاية الموالية لروسيا في إيطاليا. فمن روما كانت تنتشر الأنباء عن سير العمليّات الحربيّة على الدانوب وفي الأرخبيل وتُفسَّر خطط كاترينا وأفعالها. وغدا مصدرًا رئيسًا للمعلومات عن روسيا والحرب الروسيّة - التركيّة حينذاك كلٌّ من إ. إ. شوفالوف[283] المقيم في إيطاليا إقامة دائمة، وكذلك الأمير ف. ن. غوليتسين ابن شقيقة شوفالوف الذي وصل إلى روما في عام 1768، وكان يحظى بدعم أ. غ. أورلوف ويملك دائرة واسعة من المعارف في توسكانة[284].

---

(281) المقصود الخلاف بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية في ما يتعلّق بانبثاق الروح القدس. فالكاثوليكية تقول إنّ الروح القدس منبثق عن الآب والابن، بينما ترفض الأرثوذكسية ذلك وتقول إنّ الروح القدس منبثق عن الآب فقط؛ وكلمة *filioque* اللاتينيَّة تعني «والابن»: *filio* تعني «الابن»، وque تعني «و». (المترجم)

(282) «Un'armata, in cui nessuno fugge, nessuno diserta; dove la subordinazione è cieca, dove gli uomini sono robusti, è fatta per conquistare uno stato corrotto e ferocemente ammollito, quale è il turco. Sono cristiano, cristianissimo, in questa guerra; ma voi altri, romani, sarete un pò turchi, a quello che credo; e la ragione si è, perché le inimicizie fra i prossimi parenti sono le più accanite; ora, fra i russi e noi v'è appena un fi lioque; sono i nostri cugini in primo grado»:

رسالة بيترو فيري إلى أليساندرو فيري بتاريخ الثلاثين من أيار/مايو 1770 (بحسب التقويم الجديد): Verri & Verri, vol. 3, p. 304.

(283) كانت مهمّة شوفالوف غير الرسميّة في روما خلال عامي 1771 و1772 تشمل المفاوضات مع بابا روما بخصوص إمكان إبعاد المبعوث البابوي في بولونيا، الذي كان يتعارض نشاطه مع مصالح روسيا، بحسب ما كانت تعتقد كاترينا.

(284) كان ف. ن. غوليتسين، الذي أصبح لاحقًا راعيًا لجامعة موسكو، ابن شقيقة إ. إ. شوفالوف: ب. إ. غوليتسينا، وعاش في إيطاليا برعاية خاله حتّى عام 1777. يُنظر أيضًا: *Storia della Guerra presente tra la Russia e la Porta Ottomana*, t. IV, p. 137.

كتب إ. إ. شوفالوف إلى شقيقته ب. إ. غوليتسينا عن ابنها ف. ن. غوليتسين من روما في الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر (بحسب التقويم الجديد) 1770: «يرغب الأمير في أن يلتقي=

ويشير نيفيير إلى أنَّ شوفالوف «لم يضطلع بدور الملحق الثقافي الروسي في روما فحسب في عام 1771، بل كان بحكم الأمر الواقع ممثِّل مصالح البلاط الروسي لدى العرش البابوي»[285].

كان من ضمن مهمَّات شوفالوف وغوليتسين اجتذاب الرأي العام المحلِّي إلى جانب روسيا، مستخدمين بالدرجة الأولى ذريعة ضرورة توحيد الدول المسيحيَّة في مجابهة الأتراك[286]. وتُبيِّن المراسلات بين الأخوين فيري على نحوٍ ممتاز ذاك الدور الذي اضطلع به شوفالوف وغوليتسين في روما. ففي رسالة بتاريخ السادس من آب/ أغسطس 1769، كتب أليساندرو المقيم في روما إلى شقيقه في ميلانو أنَّ الأمير غوليتسين ينفي صحَّة الأنباء عن الروس في الدانوب، ويتحدَّث أيضًا عن وجود 400 فرنسي في صفوف الجيش التركي[287]. وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر من

---

= جماعتنا الروس العائدين من الأرخبيل في توسكانة. وهو يعرف الكونت أورلوف وبعض الضبَّاط الآخرين. كان الكونت ودودًا جدًّا معه، وهو الآن يُبلغه تحيَّاته في الرسائل، ويرغب في أن يكون في توسكانة، حيث يوجد لديه الكثير من المعارف والأصدقاء...»: «Письма И. И. Шувалова к сестре его родной, княгине Прасковье Ивановне Голицыной, урожденной Шуваловой,» *Москвитянин*, no. 10 (1845), c. 151.

[«رسائل إ. إ. شوفالوف إلى شقيقته الأميرة براسكوفيا إيفانوفنا غوليتسينا، المولودة شوفالوفا»، موسكفيتيانين، العدد 10 (1845)، ص 151].

(285) А. Нивьер, «Екатерина Великая и Иван Иванович Шувалов. Штрихи к сравнительному историческому, психологическому и политическому портрету,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8, c. 173.

[أ. نيفيير، «كاترينا الكبرى وإيفان إيفانوفيتش شوفالوف. خطوط نفسية وسياسية مقارنة للوحة تاريخية»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8، ص 173]. يُنظر الاقتباس من رسالة شوفالوف إلى ن. إ. بانين في أيار/ مايو 1772 عن التكليفات الجديدة في الميدان الدبلوماسي (ص 173-174).

(286) Donolo, pp. 110-111; Venturi, pp. 33-34.

ثمَّة معطيات أيضًا تفيد أنَّ الجالية التركيَّة واجهت جهود شوفالوف وغوليتسين بنشاط، وذلك بنشر أنباء معاكسة (رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري بتاريخ الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 1770 (بحسب التقويم الجديد): Verri, vol. 4, p. 133.

(287) Verri and Verri, vol. 3, p. 13.

كتب أليساندرو في الثلاثين من أيلول/ سبتمبر 1769 عن معلومات جديدة تلقَّاها من روس مقيمين في روما، ذات محتوى معاكس هذه المرَّة؛ إذ تحدَّثت عن كون تطوُّرات الأحداث في الحرب البرِّية غير مؤاتية تمامًا (ص 90).

العام نفسه (بحسب التقويم الجديد) نقل أليساندرو إلى شقيقه معلومات عن انتصارات الجيش الروسي، تلقَّاها غوليتسين من شوفالوف مباشرة[288]، وفي الخامس عشر من آب/ أغسطس 1770 (بحسب التقويم الجديد)، أطلع شوفالوف نفسه فيري على معلومة تلقَّاها من أورلوف تتحدَّث عن انتصارات الأسطول الروسي على الأتراك[289]. وجدير بالذكر أنَّ أليساندرو اعترف لأخيه في رسالة بتاريخ الثامن عشر من نيسان/ أبريل 1770 يقول: «نحن لا نعرف عن الروس سوى ما تكتبه الصحف، فالجنرال شوفالوف ([كذا!] لم يحمل شوفالوف رتبة عسكرية أبدًا) والأمير غوليتسين ليسا في روما»[290].

---

(288) Ibid., p. 108.

(289) Ibid., p. 428.

كتب أليساندرو فيري في الثاني والعشرين من آب/ أغسطس 1770 أنَّ شوفالوف أطلعه على نسخة(؟) من رسالة أ. غ. أورلوف («generale dell'azione») إلى المبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين: Ibid., p. 435.

(290) «Dei russi non ne sappiamo di più di quello che dicono le gazzette, perché non è più a Roma il generale Schouvalof né il principe Gallitzin» (Ibid., pp. 258-259).

سُجِّلت اتِّصالات أليساندرو فيري بالجالية الروسيَّة في روما أيضًا في الرسائل المؤرَّخة في الخامس من حزيران/ يونيو 1770 (بحسب التقويم الجديد)، والثاني عشر من أيلول/ سبتمبر 1770 (بحسب التقويم الجديد)، والخامس عشر من أيلول/ سبتمبر 1770 (كتب أليساندرو أنه رأى بنفسه الأوراق الواردة من بطرسبورغ): Ibid., pp. 325, 461, 465.

في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 1770 (بحسب التقويم الجديد) (سجَّل أليساندرو الاتِّصال الشخصي بغوليتسين)، في السادس عشر من آذار/ مارس 1771 (بحسب التقويم الجديد) (سُجل الاتِّصال بـ إ. إ. شوفالوف الموجود في روما): Verri, vol. 4. pp. 13, 163.

في السادس عشر من شباط/ فبراير 1774 (بحسب التقويم الجديد)، يذكر بيترو فيري وصول إ. غ. تشيرنيشوف إلى ميلانو في الخامس عشر من شباط/ فبراير، أمَّا في الثالث من نيسان/ أبريل (بحسب التقويم الجديد) فيطلع أليساندرو شقيقه على الحديث الذي أجراه مع تشيرنيشوف في روما: Pietro Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 6: Genniao 1773-giugno 1774* (Milano, 1928), pp. 184, 213.

فضلًا عن ذلك، أطلع إ. إ. شوفالوف الأباتي ف. غالياني على عمليَّات الجيش الروسي القتالية، سواء أفي الدانوب أم في الأرخبيل (على سبيل المثال، رسالته إلى غالياني بتاريخ السابع عشر من أيلول/ سبتمبر 1771 (الأباتي ف. غالياني ومراسلاته الروسيَّة): *A Window on Russia: Papers from the V International Conference*, pp. 119-120.

كان إ. إ. شوفالوف على علاقة جيِّدة بالأوساط العليا في مجتمع روما[291]، فاستنادًا إلى مذكِّرة تتعلَّق بزيارة الضبَّاط الروس إلى روما في تشرين الثاني/ نوفمبر 1772، تمكَّن شوفالوف بسهولة من تنظيم لقاء الضبَّاط الأرثوذكس الروس بالبابا. لكن، مع مغادرته إيطاليا إلى فرنسا في عام 1773، ألقي عبء النُّفوذ الروسي في روما على عاتق زوار المدينة الخالدة من أصحاب المقامات الرفيعة. وفي عام 1781، عُين غاسبار سانتيني قنصلًا روسيًّا في روما، بفضل الخدمات التي قدَّمها إلى ألكسي أورلوف وحملة الأرخبيل إلى حدٍّ كبير، كما يؤكِّد س. س. أندروسوف (وعلى وجه التحديد في تمويل الأسطول الروسي)، في مطلع السبعينات من القرن الثامن عشر[292]. ومن المعروف أنَّ البابا التقى في عام 1782 وليَّ العهد الأمير الكبير بافل بيتروفيتش في أثناء جولته في أوروبا. أمَّا ممثِّل الدولة البابويَّة الدبلوماسيُّ الأوَّل (ممثِّل البابا بيوس السَّادس

(291) تكوَّنت الدائرة الواسعة من معارف شوفالوف، على ما يبدو من مراسلاته، على الفور بعد وصوله إلى روما في نهاية عام 1767. كتب ك. غ. رازوموفسكي إلى شوفالوف من موسكو، في الرابع من شباط/ فبراير (بحسب التقويم الجديد) 1768: «أرى بارتياح خاص أنَّكم لا تشعرون بالسأم أثناء وجودكم في روما، وأنه وصل بكم الأمر إلى حدٍّ (كذا!) أنَّكم تقيمون مآدب عشاء صغيرة خاصة، وهو ليس بالأمر السهل على الأجانب أبدًا»: A. A. Васильчиков, *Семейство Разумовских*, t. 1 (СПб., 1880), c. 337.

[أ. أ. فاسيلتشيكوف، **عائلة رازوموفسكي**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1880)، ص 337].

ولاحظ في رسالة أخرى (في السادس عشر من شباط/ فبراير (بحسب التقويم الجديد) 1768)، أيضًا «حجم التعارف العظيم والجيد الذي حقَّقتموه في روما» (ص 340). وكتب شوفالوف نفسه إلى ب. إ. غوليتسينا: «إن جميع الوزراء الأجانب هنا أصدقاء لي» (من رسالة من روما بتاريخ التاسع من تموز/ يوليو 1770): «Письма И. И. Шувалова к сестре его родной, княгине Прасковье Ивановне Голицыной, урожденной Шуваловой,» *Москвитянин*, no. 10 (1845), c. 149.

[«رسائل إ. إ. شوفالوف إلى شقيقته الأميرة براسكوفيا إيفانوفنا غوليتسينا، المولودة شوفالوفا»، **موسكفيتيانين**، العدد 10 (1845)، ص 149]. يُنظر أيضًا شهادة أخرى مماثلة لـ ف. ن. غوليتسين: Жизнь обер-камергера Ивана Ивановича Шувалова, писанная племянником его Тайным Советником Князем Федором Николаевичем Голицыным, c. 94.

[حياة نبيل البلاط إيفان إيفانوفيتش شوفالوف، كتبها ابن شقيقته ومستشاره الأمير فيودور نيقولايفيتش غوليتسين، ص 94].

(292) C. O. Андросов, «Гаспаре Сантини - дипломат и художественный агент в Риме,» in: *Век Просвещения*, Вып. I (M., 2006), c. 104-105.

[س. أ. أندروسوف، «غاسباري سانتيني: الدبلوماسي والعميل الفنِّي في روما»، في: **عصر التنوير**، الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 104-105].

الشخصيُّ في روسيا) المطران الخلقيدوني جوفاني أندريا أركيتي، فلم يتوجَّه إلى بطرسبورغ إلا في عام 1783.

***

هكذا، كانت حملة الأرخبيل أمرًا مفاجئًا للدول الإيطاليَّة: مملكة سردينيا، جمهوريَّة جنوى، مملكة الصقلِّيتين، جمهوريَّة البندقيَّة وأرشيدوقيَّة توسكانة الكبرى[293]. فقد أدَّى الوجود العسكري الروسي إلى اختلال ميزان القوى القائم على نحوٍ فجائيٍّ في حوض البحر المتوسِّط. وبفضل مخطَّطات كاترينا الواسعة النطاق، انتقلت علاقات روسيا مع الدول الإيطاليَّة من طرف واحد عمليًّا تحت ضغط الإمبراطورة الروسيَّة إلى مستوى جديد نوعيًّا، ومع ذلك فقد ظلَّت العلاقات المذكورة غير رسمية على الصعيد الدبلوماسيِّ حتَّى نهاية ستينيَّات القرن الثامن عشر، واقتصرت على التجارة الفاترة.

بدهي أنَّ سياسة الدول الإيطاليَّة تشكَّلت بالدرجة الأولى تحت تأثير جيرانها الأقوى: النَّمسا التي مارست الازدواجية في سياستها[294]، وفرنسا التي دعمت تركيا، وإنكلترا «المحايدة» في الظاهر، الحليفة لروسيا عمليًّا. بالتالي، فإنَّ تكتيك السلطات في توسكانة والبندقيَّة وجنوى وبييمونتي ونابولي كان يتأرجح بين نقطتين متعارضتين، تبعًا لتقدُّم الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط وتطوُّر العمليَّات في مورية والأرخبيل اليوناني: من جهةٍ السَّعيُ إلى الالتزام الثابت بالحياد العسكري (أي تقييد وصول السفن الروسيَّة إلى المرافئ العائدة إلى هذه الدول، وفرض الرَّقابة على نشاط العملاء الروس)؛ ومن

---

(293) يُنظر: Venturi, p. 74.
يُنظر أيضًا في المرجع نفسه قائمة مصادر المسألة.

(294) لم تنخدع السلطات الروسيَّة بشأن نوايا البلاط النَّمساوي. فتعليقًا على رسالة للمبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين بتاريخ 18-29 حزيران/يونيو 1765 (عن رفض مبعوث محفل مالطا في فيينا الكونت هاميلتون طلب فارسين مالطيِّين تأدية الخدمة لدى الروس، معلِّلًا رفضه بأنَّ المحفل يُجهِّز حملة ضد القراصنة البحريين البرابرة)، كتبت كاترينا بخط يدها: «أليس من الأفضل أن تُعزى هذه التعقيدات من جانب المالطيِّين إلى تلك الروح النمَّامة التي تعمل ضدَّنا اليوم في فيينَّا؟ فالفارس هاميلتون لن يخطو خطوة من دون موافقة هذا البلاط»: [**مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة**، مج 57، ص 287].

جهة أخرى الاعتراف بضرورة الأخذ في الحسبان وجود الأسطول وأصحاب المقامات الرَّفيعة من رعايا كاترينا في إيطاليا، أو توفير النظام الملائم لنشاطهم، كما كانت الحال في توسكانة.

في المحصِّلة، تغلَّبت الحسابات البراغماتيَّة بشدة على التَّصريحات العلنيَّة عن الحياد وعدم التدخُّل. فوجَّهت الدول الإيطاليَّة أنظارها باهتمام متزايدٍ نحو روسيا، وأظهرت في الأغلب تعاطفًا أكبر معها.

اضطلع نشاط المشاركين في حملة الأسطول الروسي في الأرخبيل بدورٍ كبيرٍ في توليد سمعة روسيا و«الروس» في أرشيدوقيَّة توسكانة الكبرى.

# الفصل السابع

# الرُّوس في إيطاليا: حياة الجالية الرُّوسيَّة اليوميَّة في توسكانة (1775-1769)

م. ب. فيليجيف

وهكذا، انتصر فوتيوس على محمد.. يا لهذه المغامرة! سنكون على حدود روسيا، ولن يفصل أوترانتو عن بطرسبورغ سوى خطوةٍ واحدةٍ، وجزءٍ صغيرٍ من البحر: *Dux foemina facti!*[1] وكل ذلك حقَّقته امرأة واحدة! إنه لأمر رائع، إنَّه لأكبر من أن يكون حقيقة.

(من رسالة فرديناندو غالياني
إلى البارون غولباخ من نابولي)
17 نيسان/ أبريل 1770[2]

---

(1) امرأة تصدَّرت الحدث! (المترجم)

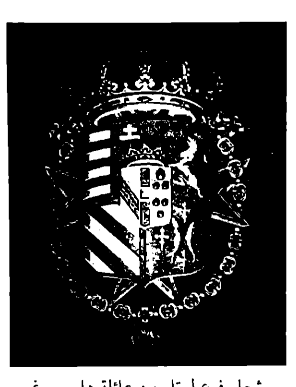
(2) «Photius aura donc triomphé de Mahomet. Quelle aventure! Nous serons limitrophes des Russes, et d'Otrante à Pétersbourg il n'y aura plus qu'un pas et un petit trajet de mer: Dux foemina facti! Une femme aura fait cela! c'est trop beau pour être vrai» (*L'abbé F. Galiani correspondance avec Madame D'Épinay-Madame Necker, Madame Geoffrin, etc, Diderot, Grimm, D'Alembert, De Sartine, D'Holbach, etc.* (Paris, 1881), p. 95).

بعد المحاولات الفاشلة لإقامة قاعدة يتموضع فيها الأسطول الروسي في البندقيَّة مستقبلًا، قرَّر ألكسي أورلوف الانتقال إلى توسكانة. وما حتَّم اتِّخاذ هذا القرار وجود مرفأ ليفورنو بالأرشيدوقيَّة، أوَّل مرفأ حرٍّ في أوروبا (ابتداءً من عام 1547)؛ إذ كان يمكن إجراء أيِّ صفقات تجاريَّة فيه دون الخضوع للرسوم الجمركيَّة والرقابة التفتيشيَّة المعتادة في الأماكن الأخرى. ومن المهمِّ أيضًا أنَّه نشأت في ليفورنو قنصليَّات لدول أوروبيَّة بحريَّة عديدة، كإنكلترا وهولندا والسويد وفرنسا وإسبانيا وغيرها، وذلك منذ أواسط القرن السادس عشر. وقد اضطلعت القنصليَّة الإنكليزيَّة عمليًّا بدور الوسيط بين روسيا والإدارة المحليَّة خلال سنوات الحرب. فضلًا عن ذلك، كان مرفأ ليفورنو مفتوحًا أمام كلِّ البلدان المتحاربة، وذلك بناء على مرسوم أرشيدوق توسكانة فرانتشيسكو (فرانس الأول)، الصادر في الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1739؛ علمًا أنَّ قواعد الشروط الصحيَّة كانت صارمة؛ إذ كان يتعيَّن على كلِّ سفينة وافدة إلى المرفأ الخضوع مع طاقمها لفحصٍ خاصٍّ، بل لحجرٍ صحِّي في بعض الحالات (كما كان الأمر بالنسبة إلى السُّفن العائدة من المشرق)[3]. كلُّ هذه الأمور أوجزتها كاترينا في الأمر السَّامي الموجَّه إلى غ. أ. سبيريدوف بتاريخ الخامس عشر من تموز/ يوليو 1769: «بما أنَّ ليفورنو مرفأ مفتوح أمام الجميع، فلا يمكن أن يكون مقفلًا بوجهكم بالطبع، لأنَّ العمائر البحريَّة يمكن أن تستفيد من الحرِّيَّة غير المحدودة والأفضليَّات التي يؤمِّنها المرفأ الحر. والأمثلة على ذلك كثيرة في الحروب الأخيرة بين إنكلترا وفرنسا. وهي يمكن أن تشكِّل قاعدة بالنسبة إليكم أيضًا»[4].

---

(3) يُنظر: C. Ciano, *Russia e Toscana nei secoli XVII e XVIII, Pagine di storia del commercio e della navigazione* (Pisa, 1980), p. 27.

(4) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), с. 371-372.
[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 371-372]. يُنظر أيضًا الأمر السَّامي الموجَّه إلى الكونتر-أميرال آرف بتاريخ الخامس من حزيران/ يونيو 1770: *СбРИО*, Т. 1 (СПб., 1867), с. 129.
[**مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 129].
وقد تأكَّدت كاترينا بالتجربة العمليَّة في عام 1770 من صواب القرار الذي اتَّخذته.



شعار فرع لوتار من عائلة هابسبورغ

يجدر الذكر أنَّ توسكانة لم تكن الخيار «الإيطالي» الوحيد لتموضع الأسطول الروسي. ففي البدايَة، نصحت كاترينا أورلوف - كما سبقت الإشارة إليه - بالتفكير بمملكة سردينيا بوصفها قاعدةً محتمَلةً للسفن الإمبراطوريَّة[5]. فبعد وفاة الأرشيدوق التوسكاني الأخير من أسرة ميديتشي في عام 1737، انتقل حكم الأرشيدوقيَّة إلى أسرة لورين، وبالتحديد إلى فرانس ستيفان زوج ماري تيريز (من عام 1736). وفي عام 1745، أصبح فرانس ستيفان إمبراطورًا على النَّمسا تحت اسم فرانس الأول. وعلى هذا النحو، دخلت توسكانة في فلك نفوذ البلاط النَّمساوي. وانتقلت أرشيدوقيَّة توسكانة الكبرى عشيَّة الحرب الروسيَّة - التركيَّة في عام 1765 إلى بيترو ليوبولدو، ابن فرانس وماري تيريز الثاني، شقيق إمبراطور النَّمسا جوزف الثاني الأصغر، الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور ليوبولدو الثاني. ومن البدهيِّ أن رابطة الدم التي ربطت توسكانة بآل هابسبورغ في فيينا بعُرى راسخة، كانت تُربِكُ الإمبراطورة الروسيَّة. وقد أفلح أورلوف في تأسيس جالية روسيَّة بتوسكانة في نهاية المطاف، بفضل دعم الإنكليز النشيط ووضع ليفورنو الخاص، متجنِّبًا العواقب الدبلوماسيَّة الجديَّة[6].

تكوَّنت وجهتا نظر في الكتابات الإيطاليَّة المعاصرة في ما يتعلَّق بطابع حياة رعايا كاترينا في هذه الدولة الإيطاليَّة. فقد تحفَّظ فرانكو فينتوري في كتابه المهمِّ *Il Settecento Riformatore* **(القرن الثامن عشر، قرن الإصلاحات)**، الصادر في عام 1979، من جهة على الرأي القائل إنَّ ظهور الرُّوس في توسكانة

(5) المرجع نفسه، ص 8؛ الأمر السَّامي الذي وجَّهته كاترينا إلى أ. غ. أورلوف في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1769 (يُنظر أيضًا الفصل السادس).

(6) لمزيد من التفصيل يُنظر الفصل السادس.

أدَّى إلى سلسلة من النزاعات، وتوقَّف بالتفصيل عند جوانب نشاط ألكسي أورلوف «الإيجابيَّة»، الثقافيَّة بالدرجة الأولى، مع زملائه[7]. وبالفعل، فقد بذل أورلوف جهوده، حتَّى الماليَّة، لتحفيز نشاط الفنانين والشعراء والمترجمين والموسيقيين، الذين تمكَّنوا من إقناع الرأي العام الأوروبيِّ بضرورة انضمام الدول الإيطاليَّة الأخرى إلى روسيا في نزاعها مع تركيا. وأتيح لسكان توسكانة في الفترة 1769–1775 التعرُّف إلى الممارسات الثقافيَّة «الغريبة» بالنسبة إليهم، ابتداءً من تطبيق أجندة التواريخ الروسيَّة المشهودة العملي، حيث صارت تنظِّم بمناسبتها في توسكانة احتفالات جديدة وواسعة النطاق.

من جهة أخرى، لفت تشيزاري تشيانو في كتابه **روسيا وتوسكانة في القرنين السابع عشر والثامن عشر** (1980) الانتباه إلى تبعاتٍ أخرى نجمت عن الوجود الروسي في توسكانة، في معرض دراسته الجانب الاقتصادي من العلاقات الروسيَّة – الإيطاليَّة. وإذ استند تشيانو في استنتاجاته – على غرار فينتوري – إلى مادة أرشيفيَّة واسعة، فقد بيَّن أنَّ نشاط رعايا الإمبراطورة الروسيَّة في إيطاليا خلال سبعينيَّات القرن الثامن عشر ولَّد على الدوام نزاعاتٍ ذات طابع اجتماعي وقانوني. فهم لم يأبهوا كثيرًا في أعمالهم النشطة على الأراضي التوسكانيَّة بالقوانين المحليَّة، معتمدين على أنَّهم يخضعون لسلطة كاترينا الثانية القانونيَّة. وكما لاحظ تشيانو «كان الرُّوس يتصرَّفون بوصفهم قوَّات احتلال، لا ضيوفًا»[8].

كما يبدو لنا، تعكس وجهتا النظر هاتان خصائص التعايش المعقَّد الأساسيَّة، التي كانت لجماعتين متباينتين على نحوٍ جوهريٍّ.

***

وجدت توسكانة نفسها في عام 1769 أمام وضع صعب، فقد تعيَّن عليها مُذَّاك التعامل مع واقع لم تعرفه من قبل، واقعٍ يتمثَّل بوجود دائم لجالية

(7) F. Venturi, *Il Settecento Riformatore, vol. 3: La Prima crisi dell'Antico Regime (1768-1776)* (Torino, 1979), pp. 74-75.

(8) Ciano, p. 39.

أرثوذكسيَّة كبيرة العدد، تتألَّف من رعايا الإمبراطورة كاترينا الثانية، فضلًا عن اليونانيِّين والسلافيِّين الذين يؤدُّون الخدمة لديها. وقد غيَّر هذا الأمر جديًّا حياة المدن التوسكانيَّة؛ إذ تفيد معطيات تشيزاري تشيانو أنَّ عدد رعايا كاترينا الثانية الإجمالي في ليفورنو تجاوز في أحيان كثيرة الثلاثة آلاف شخص، في حين كان مجموع عدد سكَّان هذه المدينة يبلغ في عام 1769 نحو 46,158 نسمة، وزهاء 40,000 في عام 1770[9]. وبذلك، شكَّلت نسبة أولئك الذين يخدمون لدى الرُّوس نحو 7,5 في المئة من مجمل عدد سكَّان المدينة. وعرض تشيانو إحصاءات معبِّرة - مبنيَّة على يوميات شهود عيانٍ عاصروا الحرب - عن عدد سفن الأسطول الحربي الروسي في مرفأ ليفورنو؛ إذ بلغ تقريبًا عشر سفن في عام 1771، وثلاث عشرة سفينة على أقل تقدير في عام 1772، وخمس سفن في عام 1773، وما لا يقل عن أربع عشرة في عام 1774 (بما فيها سفن العمارة البحريَّة الخامسة الأخيرة بقيادة س. ك. غريغ)[10]. وبناءً على معطيات مؤرخ آخر للأسطول هو لويجي دونولو، بلغ عدد السُّفن التجاريَّة التي تحمل العلم الروسي في مرفأ ليفورنو اثنتي عشرة سفينة في عام 1771، وتسع سفن في عام 1772، واثنتين وعشرين سفينة في عام 1773، واثنتين وعشرين في عام 1774، وتسع سفن في عام 1775، وخمس عشرة سفينة في عام 1777، وما بين خمس عشرة وعشرين سفينة في ثمانينيَّات القرن الثامن عشر، وما بين عشرين وثلاثين سفينة في تسعينيَّات القرن نفسه. علمًا أنَّ إجماليَّ عدد السُّفن التجاريَّة التي أمَّت ليفورنو سنويًّا خلال تلك الفترة تراوح ما بين 350 و400 سفينة[11]. يتبيَّن ممَّا تقدم أنَّ السُّفن التجاريَّة الإمبراطوريَّة شكَّلت نحو 6 في المئة من مجموع السُّفن التي ألقت مراسيها في المرفأ التوسكاني في عامي 1773 و1774.

كانت وتيرة حياة الجاليَّة الروسيَّة في توسكانة تتبع إيقاع العمليات الحربيَّة في الأرخبيل. فعلى مدار السنة، كانت المرافئ التوسكانيَّة (وتحديدًا ليفورنو

(9) Ibid., p. 30.

(10) Ibid., p. 29.

(11) L. Donolo, «Il conte Aleksej Orlov e il pittore Jacob Philipp Hackert a Livorno, teatro virtuale della battaglia di Cesmé,» *Nuovi Studi Livornesi*, vol. 9 (2001), p. 134.

وبورتو فيرايو) تستقبل السُّفن التي تحتاج إلى تصليح، وكانت طواقمها تنزل إلى الشاطئ، وتبقى إلى حين انتهاء عمليَّة تصليحها وإبحارها إلى الأرخبيل أو إلى روسيا. وكان من الصعب في مثل هذه الظروف تجنُّب النِّزاعات بين البحَّارة الرُّوس والسكَّان المحلِّيين. فكانت تحصل حالات سرقة[12] وعراك[13]،

---

(12) نُفِّذ في الثالث من آذار/ مارس 1770 على متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة» حكم الإعدام شنقًا بأحد بحَّارتها. فقبل بضعة أيَّام من ذلك اليوم، عمد هذا البحَّار، في أثناء وجوده على الشاطئ، إلى سرقة مناديل وقمصان نشرتها غسَّالات محليَّات لتجف، بالقرب من بوابة «كابتشيني» (Porta detta de'Cappuccini). شكت الغسَّالات أمرهنَّ إلى الشرطة فاعتقل السَّارق وسلَّمته سلطات ليفورنو إلى س. ك. غريغ، الذي حكم على السارق بالإعدام شنقًا على الفور: *GT*, 1770, 10. 40; Donolo, p. 113.

عمومًا، لم تكن عمليَّات الشنق العلنيَّة أمرًا نادرًا على السُّفن الرُّوسية. ففي الثلث الثاني من شهر نيسان/ أبريل 1770، حُكم بالإعدام شنقًا على خمسة بحَّارة يخدمون في صفوف الرُّوس، لجرائم مختلفة ارتكبوها. وبعد تنفيذ الحكم، الذي رافقه إطلاق طلقات المدفعيَّة، لفت أجسادهم في أكياس ورُمِيَت في البحر: *NM*, 1770, 30. 239.

في نهاية شهر كانون الثاني/ يناير 1773، كان الأميرال سبيريدوف في مركز الاهتمام العام بعد حصول عمليَّة سرقة كبيرة في منزله. ففي صبيحة السابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير، أقدم خادم سبيريدوف، وهو فتى روسي، بالتواطؤ مع أحد اليونانيِّين، على سرقة سيِّده الذي كان يقيم في فيلَّا بضاحية المدينة، وفرَّ إلى توسكانة. وكان من بين المسروقات أموال نقديَّة ومجوهرات بقيمة إجماليَّة قُدِّرت بنحو الألف تسيكين [التسيكين: Zecchino بالإيطاليَّة وSequin بالإنكليزيَّة: قطعة نقديَّة ذهبيَّة، سُكَّت في البندقيَّة في عام 1284، وظلَّت متداولة حتَّى زوال جمهوريَّة البندقيَّة في عام 1797. (المترجم)]. أمرت السلطات التوسكانيَّة باعتقال السارق. وفي مطلع شهر شباط/ فبراير اعتُقِل في روما السارقان - الخادم الروسي الذي عُرِّف عنه بأنَّه تيودورو إيرمينيو، واليوناني تومازو مستاتوينوم - ثم نُقلا في الثامن من شباط/ فبراير إلى ليفورنو لإنزال العقاب بهما: *GT*, 1773, 5. 20, 16. 64; *NM*, 1773, 9. 71-72, 12. 95, 30. 239.

يشير تشيانو إلى أنه كانت تنتشرة على نطاقٍ واسعٍ، في أثناء الحرب، عادةُ تسليم السلطات التوسكانيَّة المجرمين إلى قباطنة السُّفن الرُّوسية لإنزال العقاب بهم، وغالبًا ما كان العميل الروسي روبرت راذيرفورد يقوم بدور الوسيط في هذا المجال. وبدهي أنَّ رعايا كاترينا الثانية هم فقط مَنْ كان يجري تسليمهم. وقد حصلت مفارقة في الحادثة الآنفة الذكر، حين اعتبرت فلورنسا الرسميَّة أنه يتعيَّن تسليم خادم سبيريدوف فقط للرُّوس، أمَّا شريكه فلا. وفي نهاية المطاف، وعلى الرغم من كلِّ جهود راذيرفورد، سُلِّم تيودورو إيرمينيو وحده: Ciano, pp. 37-38.

(13) إضافةً إلى البحَّارة، كان يحدث أن يشارك الضبَّاط المخمورون أيضًا في العراكات. ففي آذار/ مارس 1771، تشاجر في بورتو فيرايو بجزيرة ألبا، ضبَّاط روس كانوا يلعبون البليارد، وقد ألهب النبيذ عقولهم، فأخذوا يتبادلون الإهانات، وما كان منهم إلا أن اشتبكوا في عراك بالأيدي. وانتهى العراك الذي استُخدمت فيه عصي البليارد والزجاج المحطم والقوارير الفارغة والكؤوس وأغطية المصابيح، بتشوُّهات وعاهات. واضطر القادة الرُّوس إلى الاعتذار من حاكم الجزيرة فيلنيف. ولكنْ، =

ومخالفات للقوانين المحلّيّة[14]، وأحيانًا عمليّات قتل أو انتحار[15]. وتضرّرت مزارع المحار في ليفورنو، وسمّمت خنازير البحّارة الرُّوس مزروعات الفلاحين[16]. وكانت المشكلة في أنّ القوانين التوسكانيّة لم تكن تسري على

---

= تحسُّبًا لتكرار حوادث من هذا النوع، فُرض حظر على لعب البليارد في جزيرة ألبا، بعد الساعة الحادية عشرة مساء: ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1026.

رسالة فيلنيف المستعجلة إلى فلورنسا بتاريخ الحادي والعشرين من آذار/ مارس 1771.

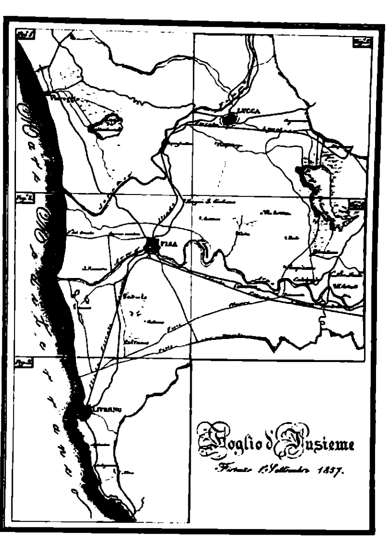
(14) في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1771 تجاوز زورق ذو 24 مجذافًا، من سفينة «روستيسلاف»، حاجزًا عسكريًّا في فلورنسا بسرعة فائقة، فقطع السلسلة التي تمنع الدخول إلى المرفأ. ثم غادرت «روستيسلاف» ليفورنو ليل السبت. وفي صباح اليوم نفسه، كان تقرير عن الحادثة على طاولة العميل الروسي في توسكانة راذيرفورد. فطُلب منه إبلاغ الضبّاط الرُّوس أن يكونوا أكثر حذرًا في الليل، خصوصًا في الأماكن التي تتولّى حراستها قوّات الحرس التُّوسكاني، وبضرورة إرسال طلبات دخول المرفأ في الوقت المناسب. إضافة إلى ذلك، طُلب من الرُّوس التعويض عن الضرر اللاحق بالسلسلة التي قطعت في الليل. وافق راذيرفورد على القيام بذلك عن طيب خاطر، واعتذر أمام بوربون ديل مونتي على تصرُّف ضباط «روستيسلاف» الذين أكّدوا أنّ ما حصل لم يكن نتيجة عدم احترامهم لسلطات ليفورنو. وفي صبيحة العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، قام الكونت فيودور أورلوف، فور خروجه من المستشفى، بزيارة بوربون ديل مونتي، وأعرب له عن أسفه لما حصل، وشكر باسم الإمبراطورة الحاكم على الاستقبال الذي أولاه للرُّوس في ليفورنو. وأكّد فيودور أورلوف أنه إذا ما ثبت ذنب قائد الزورق فسيكتب على الفور إلى شقيقه ألكسي الذي سيعاقب المذنب (رسائل بوربون ديل مونتي إلى رئيس مجلس الدولة سيمينيتي في فلورنسا، بتاريخ الثامن عشر والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر): ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1026.

(15) هكذا، ألقى سكرتير إ. إ. شوفالوف (سكرتير ف. ن. غوليتسين، بحسب معلومات أخرى) بنفسه في نهر أرنو ببيزا في صبيحة السابع والعشرين من شباط/ فبراير 1770. كان السكرتير قد أصيب بمسٍّ في عقله قبل بعض الوقت، فوضع شوفالوف حرسًا من ثلاثة رجال لمراقبته. لكن السكرتير خدعهم، وبلغ النهر ورمى بنفسه فيه. سمع أحد المراكبيِّين الصراخ فسارع إلى إنقاذه، لكن كان قد فات الأوان. وعُثر على جثّة السكرتير بعد نحو شهر في البحر بالقرب من فياريجو، ودُفن في مقبرة اليونانيِّين في ليفورنو: *NM*, 1770, 18. 143; *GT*, 1770, 13. 51.

في الثامن من نيسان/ أبريل 1771، تعارك ثلاثة بحّارة يونانيين يخدمون في صفوف الرُّوس في إحدى الحانات، وانتهى العراك بمقتل أحدهم: *GT*, 1771, 15. 60.

(16) رابطت مجموعة كبيرة من الزوارق الروسيّة في أثناء الحرب في أخاديد بمحيط ليفورنو، وبالتحديد في المكان حيث توجد الحانة المعروفة باسم «Casina delle ostriche»، حيث كان يُربَّى المحار. وجاء في تقرير حاكم ليفورنو إلى فلورنسا في السابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1783 أنّ وجود الرُّوس ألحق ضررًا كبيرًا بصناعة المحار. كما انعكست تربية البحّارة الرُّوس الخنازير في ضاحية ليفورنو وسان ياكوبو، سلبًا إلى حدٍّ كبير على المحاصيل، لأنّ الخنازير كانت ترعى في الحقول المزروعة: Ciano, pp. 42-43.

البحَّارة الرُّوس، الذين لم يكونوا يُحاكمون وفقًا للقوانين المحليَّة، فضلًا عن اختلاف الممارسة القضائيَّة بين الطرفين. زد على ذلك أنَّ تسليم المذنبين إلى القيادة الروسيَّة لم يكن يضمن تعرضهم للعقاب لاحقًا، بل على العكس، تكرَّرت مرارًا الحالاتُ التي كان قادة الأسطول يغطُّون فيها جرائم مرؤوسيهم. وأخيرًا، كانت السلطات التوسكانيَّة تفضِّل عمومًا عدم الدخول في نزاع مع روسيا، وكثيرًا ما كانت تضطرُّ إلى التراجع عن ملاحقة المُخلِّين بالقوانين[17].



توسكانة، شاطئ بحر تيران

مع ذلك، نجحت القيادة الروسيَّة عمومًا، في رأينا، في تجنُّب وقوع نزاعات جديَّة. وهذا ما كانت ترمي إليه جزئيًّا، على الأرجح، الاحتفالاتُ الصَّاخبة التي نظَّمها أ. غ. أورلوف لسكَّان كلٍّ من بيزا وليفورنو.

(17) كانت الحادثة الأكثر صخبًا، بحسب ما أفاد تشيانو، تلك التي حصلت في المسرح الأرمني، في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير 1784، بعد انتهاء الحرب الروسيَّة - التركيَّة، وذلك عندما رفض أحد الضبَّاط الرُّوس من سفينة راسية في مرفأ ليفورنو دفع ثمن بطاقة الدخول إلى حفلة الأوبرا، ثم افتعل عراكًا مع أفراد إحدى الدوريَّات. إلا أنَّ سبيريدوف أصرَّ على تبرئة مرؤوسه، بالرغم من وضوح ذنبه. فقرَّرت الحكومة التوسكانيَّة عندئذ إبلاغ بطرسبورغ بالأمر مباشرة. حاول المبعوث الروسي في توسكانة د. موتشينيغو معالجة المشكلة، غير أنَّ جهوده لم تسفر عن أيِّ نتيجة، وبلغت الوثيقة كاترينا الثانية، فما كان منها إلا أن أمرت بتسليم الضبَّاط الرُّوس مُفتعِلي العراك إلى أرشيدوق توسكانة، الأمر الذي أثار غضب سبيريدوف. والمثير للاستغراب أنَّ سبيريدوف لم ينصع لأمر كاترينا في نهاية المطاف. ففي أيار/مايو 1784، أبحرت العمارة البحريَّة الروسيَّة ومعها الضبَّاط المذنبون الخمسة، مخلِّفةً - فضلًا عن ذلك - دينًا كبيرًا مستحقًّا عليها: Ibid., pp. 43-47.
عن حجم الدين، يُنظر: Ibid., pp. 47-49.

من البدهيِّ أنَّ نشاط الجاليَّة الروسيَّة الثقافي والمدني والدبلوماسي كان في الأغلب مرتبطًا بوجود المسؤولين العسكريِّين والمدنيِّين الرُّوس الكبار في توسكانة، كألكسي وفيودور أورلوف وإ. إ. شوفالوف، وبنسبة أقل غ. أ. سبيريدوف وس. ك. غريغ وآخرين. وتمثَّلت سمة نشاط رعايا كاترينا الثانية الرئيسة بالتعاون الوثيق مع ممثِّلي السلك الدبلوماسي الإنكليز (السفير أوراس مان والقنصل في ليفورنو جون ديك) وكذلك مع القباطنة الإنكليز الذين استفادوا من حياد ملك إنكلترا لتقديم مساعدة فاعلة للأسطول الروسي.

عادةً ما كانت تبدأ فترة وجود العسكريِّين الرُّوس، العائدين من الأرخبيل في توسكانة، بحجر صحِّي لمدة ثلاثة أسابيع في إحدى مستشفيات ليفورنو. وكتب س. ب خميتيفسكي الذي خضع للحجر الصحِّي في ليفورنو في عام 1774 ما يأتي: «دار الحجر الصحِّي: ثمَّة فيها مبانٍ عديدة، حيث يمكن النُّبلاء العيش براحة، وحيث يعاملنا المشرفون على الحجر، نحن الرُّوس، باحترام مميَّز وثقة، لا يُعامَلُ بها أحدٌ من الجنسيَّات الأخرى بمثلها؛ ولا شيء يجعلهم يعاملوننا بهذا القدر من الاحترام سوى سخائنا <...> وثمَّة دار أخرى، أكبر من الأولى، لكنَّها بعيدة عن المدينة، غير أنَّ الإقامة فيها غير مريحة ومُكلِفة ومُمِلَّة»[18].

كانت الأنظمة تُلزم الخاضعين للحجر الصحِّي بقطع أيِّ اتِّصالات مع العالم الخارجي، غير أن قيادة الأسطول كانت تباشر باستقبال الزوار عمليًّا، وهي لا تزال في المستشفى. وكان يلي الأسابيع الثلاثة من التعطل الإجباري الدخول الاحتفالي إلى المدينة، وسلسلة أخرى من الاحتفالات (كالحفلات الراقصة والموسيقيَّة، والتزيين بالأضواء، وإطلاق طلقات المدفعيَّة من السُّفن، والمآدب في منزل الدبلوماسيِّين الإنكليز، حيث كان ينزل أورلوف عادةً، والزيارات إلى بلاط فلورنسا والمشاركة في استقبالات هذا البلاط، والاحتفال بالمناسبات الكنسيَّة والزمنيَّة ...إلخ).

---

(18) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: И. М. Смилянская, М. Б Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 690.

[إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 690 (الطبعة الروسيَّة)].

كانت فلورنسا، عاصمة توسكانة، مدينة جذَّابة بفضل بلاط الأرشيدوق الكبير، وبريق حياة المجتمع الرَّاقي. ووصف القبطان س. ب. خميتيفسكي المدينة على النحو التالي: «إنها عاصمة الأرشيدوق التُّوسكاني، يخترقها نهر كبير إلى حدٍّ لا يُستهان به، وقد بُنيت جدران حجريَّة على ضفتيه، تحسُّبًا لفيضان مياهه، وهي مدينة كبيرة كثيفة السكَّان وذات مبانٍ فائقة الجمال، ويوجد فيها متحف مُعتبر تُعرض فيه آثار قديمة نادرة. وبُنيت فيها أيضًا كنيسة صُنعت مذابحها من فسيفساء باهظة القيمة. وثمَّة في كلِّ المدن الإيطاليَّة نوافير تتدفَّق مياهها النقيَّة من دون توقف، عبر أنابيب مُدَّت لهذا الغرض، وأقيمت من حولها تماثيل عديدة لأبطال ونساء، أو لوحوش وثعابين تزحف على الأرض. تبعث هذه النوافير بمياهها المتدفِّقة البهجة في نفوس الناس، وتضفي على المدينة جمالًا أخَّاذًا»[19]. ومع ذلك، كانت الزيارات إلى فلورنسا أقلَّ من الزيارات إلى المواقع الأخرى في توسكانة: ليفورنو وبيزا وضاحية بيزا سان جوليانو.

كانت ليفورنو قاعدة للأسطول ومكانًا للمفاوضات مع الدبلوماسيِّين الإنكليز، وكذلك لمعاينة أوضاع السُّفن وأحوال الجنود النفسيَّة، وما يشبه مركزًا للأعمال في توسكانة وفسحة أساسيَّة للإحسان والاحتفالات. وتضمَّنت صحيفة الملازم في الأسطول غ. كوشيليوف، وصف المدينة الآتي: «ليفورنو مدينة تجاريَّة غنيَّة على الرغم من أنَّها ليست كبيرة. وشوارعها على قدرٍ كبيرٍ من النظافة، وأبنيتها رائعة. تتكوَّن منازلها بمعظمها من أربع وخمس وستِّ طبقات. وتقع في وسطها ساحة نظيفة جدًّا، تنتصب على جانبها الأيمن الكنيسة الرئيسة، وتحيط بها مبانٍ جميلة. وفيها أيضًا مسرح كبير نسبيًّا تتكوَّن مقصوراته من خمس طبقات، وتُقدَّم فيه أوبرا كوميديَّة وحفلات باليه متقنة»[20].

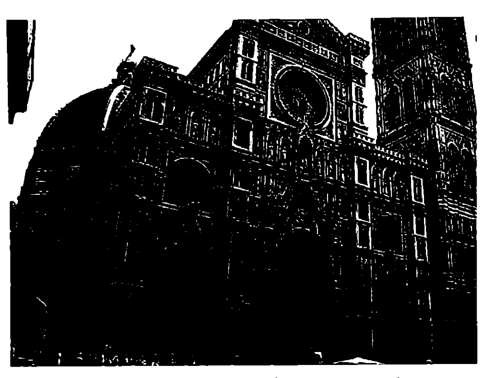
---

(19) المرجع نفسه، ص 693.

(20) *РГА ВМФ*, Ф. 315 (Коллекция: Материалы по истории русского флота), Оп. 2, Д. 43, Л. 14.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315 (المجموعة: مواد حول تاريخ الأسطول الرُّوسي)، القائمة 2، الملف 43، الورقة 14]. يُنظر أيضًا وصفًا مشابهًا لليفورنو، ولكن أكثر إسهابًا، بقلم س. ب. خميتيفسكي، يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 690-691.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 690–691 (الطبعة الروسيَّة)].



فلورنسا، كاتدرائية (دومو، سانتا ماريا ديل فيوري)

كانت بيزا لأشهر عديدة مقرًّا لإقامة أ. غ. أورلوف وصحبه في توسكانة. وقدَّم الملازم غ. كوشيليف الوصف الآتي للمدينة ومعالمها الأساسيَّة: «عند الوصول إلى مشارف بيزا، لا يكاد المرء يرى سوى قبَّة الجرس المائلة الظَّاهرة من فوق أشجار الغابة المحيطة بها. <...> وبيزا مدينة قديمة، محصَّنة بسورٍ بسيط، لكنَّها أكبر من ليفورنو. يقسمها نهر أرنو إلى قسمين، وقد بنيت فوقه أربعة جسور حجريَّة، وكذلك جدران على ضفَّتيه. ثمَّة من بين شوارعها خمسة هي الأنظف والأكثر اتِّساعًا، أما الشوارع الباقية فضيِّقة جدًّا. فيها قصر الغراندوقات وكنيسة قديمة جدًّا، هي كنيسة السيدة الكبيرة ذات الزخارف الفائقة الجمال في وسطها، وهي مبنيَّة من الرُّخام على الطِّراز القوطيِّ، وتتميَّز قبَّة الجرس بكونها مائلة إلى جهة واحدة، على الأرجح بسبب ضعف الأرض في هذه الجهة أسفلها، لكنها على الرغم من انحنائها لم تتصدَّع يومًا قط. وثمَّة أيضًا قبَّة لعمادة الأطفال الحديثي الولادة ذات طراز معماري جميل نوعًا ما، وكذلك ما يُسمَّى الحقل المقدَّس، حيث يُدفن كبار القوم، ومسرح جيِّد إلى حدٍّ ما تقام فيه حفلات راقصة عامَّة، وفيه ستّ عشرة مقصورة، وهناك مسرح آخر مؤلَّف من خمس طبقات»[21].

---

(21) المرجع نفسه، دُوِّن هذا الوصف في شهر شباط/ فبراير 1774. يُنظر أيضًا الوصف الذي قدَّمه خميتيفسكي لبيزا، حيث أشار إلى أنَّ أبواب كاتدرائيَّة بيزا النحاسيَّة «كبيرة الحجم، صُبَّت عليها من الخارج أقوال إنجيليَّة من الكتاب المقدس، بصورة بديعة جدًّا» يُنظر: [صحيفة س. ب. خميتيفسكي]:
Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 692.
[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 692 (الطبعة الروسيَّة)].

على غرار بيزا، كانت سان جوليانو، الواقعة على مسافة أربعة إلى خمسة أميال، غالبًا، مكانًا للاحتفال بالأعياد وإقامة حفلات لهو الجالية الروسيَّة في توسكانة. اشتُهِرَت المدينة بينابيع المياه الحارَّة («المياه المعدنيَّة الدافئة إلى حدٍّ ما»)، التي كان يأتي إليها بعض كبار المشاركين في حملة الأرخبيل لتلقِّي العلاج. وقد ترك خميتيفسكي، الذي زار هذا المنتجع المشهور في أوروبا، ذكريات حالمة عن جلسات علاجه بالمياه وعن النزلاء الذين كانوا «يتناولون طعامًا خفيفًا في الحانة، بعد الحمامات الساخنة، ويتنزَّهون بعد الغداء حول هذه الحمامات، حيث يُشيع جمال الموقع وعذوبة الأزهار والأشجار الحبور في نفوسهم إلى أقصى حدٍّ»[22].

سجَّلت الصحف التوسكانيَّة عددًا كبيرًا من زيارات اليوم الواحد التي كان أورلوف وغيره من أصحاب المقامات الرفيعة يقومون بها من ليفورنو إلى بيزا، وبالعكس. فقد كان أورلوف يعبر عند الضرورة المسافة بين المدينتين في غضون ساعة، في حين كانت تستغرق هذه الرحلة، عادةً، من ساعتين إلى ثلاث ساعات (كتب غ. كوشيليف: «لم تكن الطريق الجيِّدة من المدينة تمتدُّ طويلًا، لتبدأ بعدها طريق قذرة تمرُّ عبر خلاء في الغابة تتخلَّله مستنقعات. وعلى الرغم من الجهود الجبارة لتجفيف هذه المستنقعات، بواسطة عدد كبير من الأقنية، كانت تبقى موحلة في الأغلب. لم أشاهد طوال ثلثي الطريق سوى كنيسة واحدة، قديمة البناء، أشبه بالأطلال، أمَّا في الأغلب فقد مررنا عبر أماكن خلاء. تبدأ بعد هذه الكنيسة طريق مغطَّاة بالتربة بصورة جيِّدة إلى حدٍّ ما، وعلى جانبيها أقنية للتجفيف»)[23].

## ألكسي أورلوف في توسكانة

ارتبطت فترات نشاط الجالية الروسيَّة البارز في توسكانة بوجود ألكسي غريغوريفيتش أورلوف فيها، فقد كان يُضْفِي وتيرةً سريعةً على حياة الجالية،

(22) يُنظر: المرجع نفسه.

(23) *РГА ВМФ*, Ф. 315 (Коллекция: Материалы по истории русского флота), Оп. 2, Д. 43, Л. 14.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315 (المجموعة: مواد حول تاريخ الأسطول الرُّوسي)، القائمة 2، الملف 43، الورقة 14].

ويحفِّز العلاقات مع الطبقة الراقيَّة التوسكانيَّة والأجنبيَّة. ومكث أ. غ. أورلوف في توسكانة لفترات متقطعة من نيسان/ أبريل 1769 حتَّى أيار/ مايو 1770، ومن كانون الأول/ ديسمبر 1770 حتَّى حزيران/يونيو 1771 (حيث سافر خلال هذه الفترة إلى روسيا)، ومن أيلول/ سبتمبر 1771 حتَّى تموز/ يوليو 1772، ومن أيار/ مايو 1773 حتَّى أيلول/ سبتمبر 1773، وأخيرًا، من تموز/ يوليو 1774 حتَّى حزيران/ يونيو 1775.

تميَّز نشاط أ. غ. أورلوف في توسكانة خلال الفترة الواقعة بين عامي 1769 و1772 باتِّساع كبير، وجذب اهتمام البلاط والدبلوماسيِّين والصَّحافة المحليَّة، وبلغ الذروة في شتاء عام 1770-1771 وربيع عام 1771، عقب انتصار شيسما. إلا أن نشاط كبار المسؤولين الرُّوس الكبار في توسكانة بدأ بالانحسار، ابتداءً من النصف الثاني من عام 1772 مع تراجع الحرب في حوض البحر المتوسِّط الشرقي إلى المقام الثاني بالنِّسبة إلى بطرسبورغ والسياسة الأوروبيَّة على حدٍّ سواء.

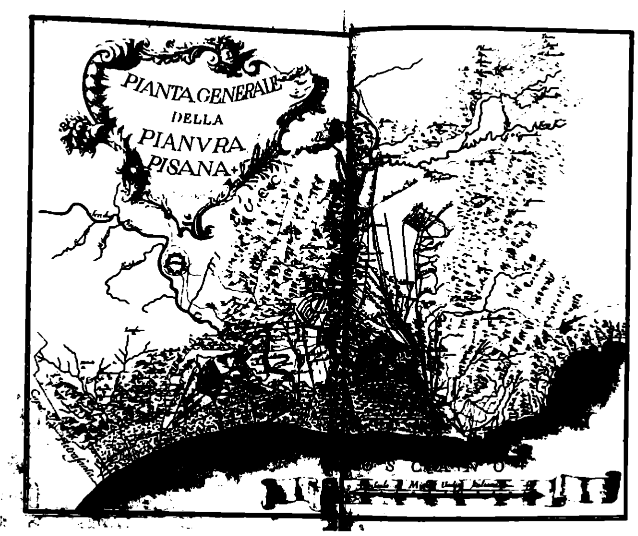
### نيسان/ أبريل 1769 - أيار/ مايو 1770

بدأت الجالية الرُّوسية في توسكانة تتشكَّل في ربيع عام 1769. ووفقًا لمعطيات **جريدة توسكانة** المحليَّة[24] (*La Gazzetta Toscana*) وصل في تلك الفترة بالتحديد عددٌ كبيرٌ من رعايا كاترينا الثانية إلى بيزا، التي أصبحت فيما بعد مكان إقامة ألكسي أورلوف «التوسكاني» الدائم. كان الرُّوس في البداية يستأجرون شققًا في فندق «Dell'Ussero»، ومن ثَمَّ منزلًا مستقلًّا مخصَّصًا لشخصيَّة رفيعة المقام، كان يُفتَرَضُ وصولها إلى بيزا في القريب العاجل، أي ألكسي غريغوريفيتش نفسه[25].

---

(24) صدرت *La Gazzetta Toscana* (**جريدة توسكانة**) أسبوعيًّا في فلورنسا خلال الفترة الواقعة بين عامي 1767 و1811. يُنظر: B. Righini, *I periodici fiorentini (1596-1950) Catologo ragionato*, vol. 1 (Firenze, 1955), p. 230.

(25) *GT*, 1769, 14. 55.




لوحة عامة لسهل بيزا

في مساء السادس عشر من نيسان/ أبريل[26]، وصل الكونت أليساندرو أوكستروف موسكوفيتا (Alessandro Oxtrov Moscovita)[27] إلى بيزا ترافقه حاشيَة كبيرة، ونزل في غرف استُؤجرت مسبقًا، عازمًا على البقاء في توسكانة مدةً طويلة. وأشارت الصحف إلى أنَّ سبب إقامة أ. غ. وف. غ. أورلوف الرسمي

(26) ترد تواريخ الأحداث في توسكانة المذكورة هنا وفق التقويم الغريغوري، أو أحيانًا وعند الضرورة وفق التقويمين اليولياني والغريغوري في آن واحد.

(27) أطلق قنصل جمهوريَّة راغوزيا في ليفورنو «تومازو جولياني باتاكي» في رسائله إلى حكومته على أورلوف اسم أوستروف (Ostroff): V. Ivancevic, *Pisa e Livorno nel conflito russo-raguseo del 1769-1775* (Pisa, 1967), p. 29.

استخدم الأخوان أورلوف هذا الاسم المستعار في أثناء تجوالهم في أوروبا. وينبع هذا الاسم المستعار من التسمية الإقطاعيَّة التي وهبتها كاترينا لألكسي أورلوف في عام 1765. يُنظر أيضًا:
В. Плугин, *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского: Документальная повесть с некоторой долей вымысла* (M., 1996), c. 175.

**[ف. بلوغين، أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي: قصة وثائقية مع قدر من الخيال (موسكو، 1996)، ص 175].**

في بيزا كان ضرورة العلاج في منتجعات المياه المعدنيَّة الشهيرة في إيطاليا[28] (سعى الأخوان أورلوف إلى توخِّي السرِّيَّة، على الرغم من أن الحكومة التوسكانيَّة كانت تعلم جيِّدًا بالطبع من هو الكونت «أوستروف»)[29].

في الحادي والثلاثين من تموز/ يوليو 1769، قدَّم النقيب في شرطة بيزا أندريا فورتونا تقريرًا إلى محافظ ليفورنو فيليبو بوربون ديل مونتي عن وصول الرُّوس إلى المدينة. وكما يرد في التقرير، نزل ألكسي وفيودور أورلوف مع سكرتير واثني عشر خادمًا في منزل كوريني بـ «بيزا»، بينما نزل الآخرون في منزلي كاسبيريني وكيزا. كما حضر إلى بيزا في الوقت عينه إيفان إيفانوفيتش شوفالوف. وإلى ذلك، نزل الدلماسيُّون، القريبون من الجالية الروسيَّة، في فندق «Del Corona»، لينتقلوا من بعد إلى منزل أرملة فيورزي[30].

في أيلول/ سبتمبر 1769 وردت معلومات إلى ليفورنو - عبر قباطنة سفنٍ رَسَت في المرفأ - عن احتمال وصول عمارة بحريَّة روسيَّة إلى توسكانة في القريب العاجل. ونشرت صحيفة *Le Notizie del Mondo*[31] **(أخبار العالم)** التوسكانيَّة في عددها الصادر في 16 أيلول/ سبتمبر 1769، خبرًا وصلها من ليفورنو: فقبل يوم من ذلك التاريخ، في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر، وصلت إلى المرفأ التوسكاني من بطرسبورغ سفينة إنكليزيَّة تحمل على متنها الكافيار والحديد والزبدة وغير ذلك من السلع. وروى قبطان السَّفينة أنَّ ثمَّة

---

(28) *GT*, 1769, 16. 62.

(29) Ivancevic, p. 34.

(30) Donolo, pp. 109-110; Venturi, *Il Settecento Riformatore*, p. 33.

(31) صدرت صحيفة *Le Notizie del Mondo* **(أخبار العالم)** خلال الفترة بين عامي 1768 و1791 (صدرت في الثمانينيَّات كاستمرار لنشرة *Gazzetta di Firenze* **(مجلة فلورنسا)** مرتين في الأسبوع، ثم ثلاث مرات). يُنظر: Righini, p. 359.
عن سمعة الصحيفة خلال سنوات الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى، يُنظر رسالة بيترو فيري إلى أليساندرو فيري من ميلانو في السادس والعشرين من آب/ أغسطس 1769: **«احصل على** *Notizie del Mondo* (أخبار العالم) التي تصدر في فلورنسا؛ فكما كتبت لك: هي الصحيفة **الإيطاليَّة الفضلى»** (procurati le *Notizie del Mondo*, stampate a Firenze; sono come ti scrissi, i migliore fogiletti d'Italia») (Pietro Verri & Alessandro Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 3: Agosto 1769-settembre 1770 (dal 1766 al 1797)* (Milano, 1911), p. 35).

في بطرسبورغ خمسين سفينةً حربيَّة وتجاريَّة، من بينها 17 سفينة خطيَّة مجهَّزة بسبعين مدفعًا[32]، تستعدُّ للإبحار باتجاه البحر المتوسِّط للقيام بأعمال حربيَّة في المشرق والأرخبيل. وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي تتحدَّث فيها الصحف التوسكانيَّة عن خطط الإمبراطوريَّة الروسيَّة العسكريَّة في البحر المتوسِّط[33].

كان من شأن وصول العمائر البحريَّة الروسيَّة في حدِّ ذاته أن ينجم عنه في العادة تصاعد نشاط العملاء الرُّوس على نحوٍ كثيف، وانتقال الضبَّاط الجماعي من بيزا إلى ليفورنو. وكان يترافق وصول السُّفن، وكذلك إبحارها مع مآدب واحتفالات واستعراضات بالأنوار والألوان. وكانت الفرقاطة «ساعي البريد» - بقيادة النقيب ف. يروبكينو - السَّفينة الروسيَّة الأولى التي تصل إلى ليفورنو، وذلك في صبيحة السابع من شباط/ فبراير 1770. وفي الخامس عشر من الشهر نفسه، رست السَّفينة «الأساقفة الثلاثة» بقيادة القبطان س. ك. غريغ، والفرقاطة «أمل الرَّخاء» بقيادة القبطان ب. أنيتشكوف، في المرفأ التُّوسكاني، وتبادلتا مع السَّفينة «ساعي البريد» الرَّاسيَة في المرفأ تسعًا وسبعًا من طلقات المدفعيَّة على التتالي؛ وتكرَّر تبادل الطلقات في الصباح التالي. ولكن مدفعيَّة

---

(32) NM, 1769, 608.

(33) تحدثت صحيفة *Le Notizie del Mondo* (**أخبار العالم**) في عددها الصادر في 26 أيلول/ سبتمبر عن وصول العمارة البحريَّة الروسيَّة إلى زوند، ومن ثم توجُّهها إلى الأرخبيل للحرب ضد الباب العالي، وذلك في المواد التي تلقَّتها من جنوى في العشرين من أيلول/ سبتمبر، ومن ليفورنو في الثاني والعشرين من الشهر نفسه: *NM*, 1769, 77. 636.

وفي الوقت نفسه، أخذت زيارات ألكسي أورلوف إلى ليفورنو تتكرَّر أكثر فأكثر، حيث وصلها في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر وأقام في منزل القنصل الإنكليزي ديك حتَّى الخامس والعشرين من الشهر نفسه، ثم قفل عائدًا إلى بيزا. وفي خبر مماثل من ليفورنو، أنبأت *La Gazzetta Toscana* (**جريدة توسكانة**) قرَّاءها أنَّ المعلومات المتوافرة لديها تفيد أنَّ العمارة البحريَّة الروسيَّة المؤلَّفة من 20 سفينة خطيَّة، ستصل قريبًا إلى ليفورنو، وستتوجَّه من ثَمَّ نحو المشرق: *GT*, 1769, 39. 158.

في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر تكرَّرت الأنباء عن وصول العمارة الروسيَّة في القريب العاجل، حيث أفادت المعلومات المتوافرة أنَّها وصلت إلى بورت ماغون: *GT*, 1769, 40. 162.

في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، وردت معلومات من ليفورنو تقول إنَّ قبطان إحدى السُّفن الإنكليزيَّة التي وصلت إلى المرفأ الأسبوع المنصرم، روى أنَّه شاهد عددًا كبيرًا من السُّفن بالقرب من جبل طارق، وافترض ناشرو الصحيفة أنَّ الحديث يتناول السُّفن الروسيَّة بالتحديد: *GT*, 1769, 41. 166.

«الأساقفة الثلاثة» كانت تردُّ هذه المرَّة على طلقات التحيَّة الصادرة من قلعة ليفورنو العسكريَّة. وفي السادس عشر من شباط/ فبراير استقبل محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي القبطان غريغ[34].

في بداية العشريَّة الثالثة من شهر آذار/ مارس 1770 توقَّعت ليفورنو إبحار كلِّ سفن العمارة البحريَّة الروسيَّة، على الرغم من تواصل شراء الموادِّ الغذائيَّة والمؤن الأخرى للإبحار المرتقب في الوقت نفسه[35]. وفي الثامن والعشرين من آذار/ مارس، أفادت *La Gazzetta Toscana* **(جريدة توسكانة)** أن جميع الضبَّاط الرُّوس المقيمين في بيزا خلال شتاء 1769-1770 كانوا قد غادروها متوجِّهين إلى ليفورنو. وأعلن ألكسي أورلوف في اليوم نفسه أنَّ السُّفن ستقلع حالما تصبح الرياح مؤاتيَّة[36]. ولم تصبح «الرياح مؤاتيَّة»، على ما يبدو، إلا في الثاني عشر من نيسان/ أبريل (الأول من نيسان/ أبريل بحسب التقويم القديم)، عندما توجَّه الكونت أ. غ. أورلوف إلى اليونان (انتشرت، في هذا الوقت، شائعات في إيطاليا مؤدَّاها أنَّ كاترينا الثانية عيَّنته حاكمًا على مقدونيا كان ذلك من بنات الخيال في الواقع)[37].

عقب مغادرته في صبيحة الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل، غادر على الفور كلٌّ من إ. إ. شوفالوف وابن شقيقته الأمير ف. ن. غوليتسين فلورنسا، متوجِّهين إلى روما[38]. وأخيرًا، وصلت في صباح الأول من أيار/ مايو 1770 إلى ليفورنو السَّفينة «روستيسلاف» بقيادة القبطان فاسيلي لوباندين، التي كانت قد دفعتها العاصفة بعيدًا من بقيَّة عمارة سبيريدوف وخضعت للتصليح في جنوى، حيث كان سيغادر إيطاليا على متنها الضبَّاط الرُّوس الذين ظلُّوا في ليفورنو (الأمر الذي حصل في السابع عشر من أيار/ مايو 1770)[39].

---

(34) *GT*, 1770, 8. 30-31.

(35) *NM*, 1770, 24. 192; *NM*, 1770, 26. 205.

(36) *NM*, 1770, 26. 205.

(37) *NM*, 1770, 30. 239; Ciano, p. 28.

(38) *NM*, 1770, 33. 263.

(39) *GT*, 1770, 21. 84; *NM*, 1770, 38. 303, 40. 326; Ciano, p. 28.

وبذلك، انتهت المرحلة الأولى من وجود الأسطول الروسي في توسكانة: كانت الحرب دائرة في البحر، وخلت الجالية الروسيَّة من أفرادها.

## كانون الأول/ ديسمبر 1770 - حزيران/ يونيو 1771

في أثناء الأعمال القتاليَّة النشطة في مورية خلال صيف عام 1770 وخريفه، لم تذكر الأخبار التوسكانيَّة المحلِّيَّة رعايا كاترينا الثانية إلا لمامًا[40]. وبناءً على الأنباء المتعدِّدة الواردة منذ بداية الصيف من مختلف المدن الإيطاليَّة، كان يمكن قراء صحيفة *Le Notizie del Mondo* **(أخبار العالم)** الاعتقاد بتكبُّد جيش أورلوف سلسلة من الهزائم في مورية، بل بإبادته، وأنَّ أورلوف نفسه أصيب بجراح بليغة[41]. وافترض الصحافيون التوسكانيُّون أنَّ الأسطول الروسي في ظلِّ الظروف الناشئة سيغادر بحر إيجة في تموز/ يوليو، من دون أن يخوض معركة حاسمة مع الأتراك[42].

غير أنَّ الأنباء عن انتصار شيسما أعادت إحياء الاهتمام بروسيا والرُّوس. وظهرت الأنباء الأولى عن المعركة بين الأسطولين المتحاربين، وعن الانتصار الحاسم الذي حقَّقه الأسطول الروسي، في الصحافة التوسكانيَّة في الثامن عشر من آب/ أغسطس 1770، أي بعد مضي شهرٍ ونصف على المعركة[43]. فقد وصلت الأنباء عن شيسما إلى ليفورنو بفضل قبطان إحدى السُّفن الراغوزيَّة،

---

(40) باستثناء الأنباء عن أعمال العملاء الرُّوس في توسكانة، كـ «ر. راذيرفورد» الذي أعدَّ في مطلع شهر حزيران/ يونيو 1770 ثمانين ألف تالير لإرسالها إلى المشرق، تأمينًا لاحتياجات الأسطول الروسي، أو كـ «ب. ماروتـي» الذي تلقَّى في البندقيَّة، في أواسط شهر أيلول/ سبتمبر، 900 ألف فلورين للأغراض نفسها، أو الأنباء عن وصول النُّبلاء الرُّوس إلى فلورنسا، كـ «أ. ف. ناريشكين» الذي وصلها في مطلع كانون الأول/ ديسمبر 1770: *NM*, 1770, 54. 445-446; *NM*, 1770, 76. 622; *GT*, 1770, 49. 195.

(41) *NM*, 1770, 48. 398, 52. 429-430, 56. 462-463, 58. 480, 61. 502, 62. 509.

(42) *NM*, 1770, 58. 477, 479, 60. 493-494, 63. 520, 64. 527.

(43) يذكر لويجي دونولو أنَّ إ. إ. شوفالوف وابن شقيقته الأمير ف. ن. غوليتسين كانا في روما أحد مصادر المعلومات الرئيسة عن معركة شيسما، حيث سافرا في شهر نيسان/ أبريل 1770 إلى ليفورنو خصِّيصًا لتقصِّي الأنباء عن المعركة. يُنظر: Donolo, pp. 114-115; G. Bonifacio, «La Prima discesa russa in Mediterraneo,» *Rivista di cultura marinata*, no. 3 (Maggio-giugno 1943).

الذي تلقَّى بدوره هذه المعلومات من سفينة يونانيَّة صادفها في أثناء إبحارها[44]. وبعد ثلاثة أيام (في الحادي والعشرين من آب/ أغسطس)، ظهر تقرير مسهب عن معركة شيسما كُتب استنادًا إلى أقوال قبطان إنكليزي يخدم في صفوف الرُّوس يُدعى بوديتش (Bodic)، ووصل ضمن رسائل من جزيرة مالطا[45]، ثمَّ ورد عقب ذلك تأكيد انتصار أورلوف من لندن، التي قدَّم فيها السفير الروسي تقريرًا رسميًّا عن الانتصار إلى سكرتير الدولة الإنكليزي اللورد روشفور[46]. وانتشرت في الوقت نفسه تقريبًا أنباء معركة شيسما في إيطاليا كلها - في بالميرو[47] ونابولي[48] وروما[49] - وسرعان ما صارت أوروبا كلها تلهج بالانتصار الرُّوسي[50]. وجدير بالذكر أنَّ معركة شيسما جرى تناولها على الفور في سياق مخطَّطات

(44) *NM*, 1770, 66. 543.

(45) *NM*, 1770, 67. 552.

من المعروف أنَّ السَّفينة الأولى التي كانت تُقلُّ الأسرى المسيحيِّين المحرَّرين من لدُن الأتراك توجَّهت إلى مالطا بالتحديد بأمر من أ. غ. أورلوف.

(46) *NM*, 1770, 68. 555; *NM*, 1770, 68. 560, 71. 581-582.

(47) يُنظر رسالة المبعوث التُّوسكاني في نابولي جوزيبي بونيكي إلى الكونت روزنبرغ، بتاريخ الحادي والعشرين من آب/ أغسطس 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2337.

(48) من المحتمل أن يكون النبأ قد وصل إلى نابولي قبل ذلك، في بداية العشريَّة الثانية من آب/ أغسطس، يُنظر رسالة فرديناندو غالياني إلى لويزي دي إيبيني من نابولي بتاريخ الحادي عشر من آب/ أغسطس 1770: Louise d'Epinay & Ferdinando Galiani, *Epistolario, 1769-1772* (Palermo, 1996), 9. 166.

(49) رسالة المبعوث التُّوسكاني لدى البلاط البابوي سانت أوديل إلى المبعوث الفلورنسي في نابولي بونيكي بتاريخ الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2345.

(50) انتشرت معلومات من مصادر مختلفة: معطيات المبعوث الروسي في لندن، رسائل من ليفورنو وجزيرة مالطا، رسالة الأميرال سبيريدوف إلى السفير البريطاني في توسكانة أوراس مان، تقرير مبعوث البندقيَّة في لندن جوزيبي غيمبيرتي بتاريخ السابع من أيلول/ سبتمبر 1770: ASV, Dispacci degli ambasciatori al Senato Inghilterra, Busta 124.

رسالة القائم بالأعمال في فيينا غ. إ. بوليتيكي بتاريخ 1/ 12 أيلول/ سبتمبر 1770: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, in: *Русский архив*, 1876, no. 7, c. 274.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، العدد 7، ص 274].

بدا حجم النصر في البداية مبالغًا به بالنسبة إلى المبعوث التُّوسكاني، ولكن الرسائل التي تلقَّاها الأرشيدوق شوازول بعد عدة أيام، أكَّدت تفاصيل معركة شيسما: تقارير الأباتي نيقولي من باريس في الثالث والثامن من أيلول/ سبتمبر 1770: ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2334.

كاترينا «اليونانيَّة»، بحيث عنى الانتصار في المعركة الكبيرة في نظر الصحافيِّين التوسكانيِّين تلقائيًّا اقتحام القسطنطينيَّة في القريب العاجل[51].

في مطلع شهر أيلول/ سبتمبر 1770، أخذ الضبَّاط الرُّوس المشاركون في حملة الأرخبيل يصلون إلى إيطاليا تباعًا. ففي الثالث منه، وصلت إلى ميسينا من المشرق الفرقاطة الإنكليزيَّة «فينتشيلسي» بقيادة القبطان غودهول، وعلى متنها الأمير ي. ف. دولغوروكوف وعدد من الضبَّاط البحريِّين[52] وعاد إلى ليفورنو حينذاك أيضًا الجنرال ف. ي. داراغان، الذي وصل إلى توسكانة على متن الفرقاطة الإنكليزيَّة «الأمير إدوارد» (وكان على السَّفينة معه الضَّابطان التوسكانيان إدواردو بيرلينغييري الذي التقى أورلوف في الأرخبيل، وجوفاني بوناكورسي الذي استعلم عن الكثير من تفاصيل معركة شيسما)[53]. وأخيرًا، في مساء السادس من كانون الأول/ ديسمبر 1770، رست في ليفورنو سفينة الأميراليَّة «الأساقفة الثلاثة» بقيادة القبطان س. غريغ، وعلى متنها أ. غ. أورلوف. وفي التاسع والعاشر من الشهر نفسه، توجَّه أورلوف المريض (كانت حالته الصحيَّة «ليست على ما يرام»)[54] إلى مستشفى «Lazzaretto di S. Rocco»، حيث تعيَّن عليه الخضوع للحجر الصحِّي المعتاد. واستؤجرت في الوقت نفسه عدَّة شققٍ في ليفورنو له ولحاشيته. وتمكَّن أورلوف خلال وجوده في الحجر الصحِّي بمستشفى سان روكو من التحضير لدخوله الاحتفالي إلى ليفورنو[55]. فقد ذكرت أخبار الصحف في الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر أنَّ الكونت الروسي سيخرج بعد بضعة أيام من المستشفى، وسيقام حفل لمناسبة عودته إلى توسكانة، حيث أُعِدَّت أثوابٌ فاخرة لخدمه. وأشير أيضًا إلى أنَّ حكومة ليفورنو ستؤدِّي له مراسم التكريم التي تليق به[56].

---

(51) *NM*, 1770, 70. 576.

(52) *NM*, 1770, 72. 591.

(53) *GT*, 1770, 36. 144, 38. 152; Donolo, pp. 115-116.

(54) *NM*, 1770, 101. 825.

(55) *GT*, 1770, 41. 204.

(56) تقريرا مبعوث سردينيا في توسكانة ب. دي زاموني بتاريخ السابع عشر والرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1770: AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

وفي السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، تحدَّث أورلوف في ليفورنو إلى الدبلوماسيِّين البريطانيِّين في توسكانة، حيث قام السفير أوراس مان والقنصل في ليفورنو جون ديك بزيارته في المستشفى برفقة محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي[57]. وفي الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1770، غادر أورلوف مستشفى ليفورنو، وحقَّق مبتغاه الذي كان قد عقد العزم على القيام به مسبقًا، أي دخوله توسكانة بأكبر أبَّهة ممكنة[58]. فأغدق الهدايا على العاملين في مستشفى ليفورنو بسخاء[59]، وتوجَّه من ثَمَّ برفقة العميل الروسي في توسكانة ر. راذيرفورد في عربةٍ خاصَّة إلى منزل القنصل البريطاني. واستقبَلَ أورلوف وحاشيتُه في قصر ديك محافظ ليفورنو وضباطًا توسكانيِّين من قوات البحريَّة والمشاة، ثم ردُّوا بزيارة المحافظ. وفي مساء اليوم نفسه، حضر الضبَّاط الإنكليز والرُّوس والتوسكانيُّون مسرحيَّة في ليفورنو. وفي التاسعة من صباح الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1771، غادر أورلوف ليفورنو متوجِّهًا إلى بيزا التي وصلها بعد ساعة[60].

غدت مهمَّة أ. غ. أورلوف الأساسيَّة، التحضير للحملة العسكريَّة المقبلة ضد الأسطول التركي، وتحديد المرافئ التي يمكن السُّفن الرُّوسية أن تخضع فيها لأعمال الترميم الضروريَّة[61]، وتطلَّب منه ذلك المشاركة بنشاط في حياة إيطاليا السياسيَّة كلِّها. فشارك خلال شهري شباط/ فبراير وآذار/ مارس في مأدبة غداء لدى الأمير كسافييه السَّكسوني، وزار روما وفلورنسا. في غضون ذلك،

---

(57) *GT*, 1770, 52. 208.

(58) *GT*, 1771, 1. 4.

(59) جدير بالذكر أنَّه ظهرت بعد فترة وجيزة، في الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر، شائعات تؤكِّد أنَّ أورلوف تخلَّى عن فكرة إقامة احتفالات في ليفورنو، وذُكر أنَّ الهزيمة الكبرى التي مُنِيَ بها الأسطول الروسي بالقرب من الدردنيل هي السبب المحتمل لذلك. يُنظر تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة دي زاموني بتاريخ الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 1770: AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

(60) يبدو أنَّ الهديَّة التي أرسلها أورلوف إلى رئيس محفل فرسان مالطا الأكبر تعود إلى تلك الفترة بالتحديد، وقد تمثَّلت بخمسة وثمانين عبدًا تركيًّا نُقلوا إلى الجزيرة في الثالث من كانون الثاني/ يناير 1771 على متن سفن روسيَّة كانت متوجِّهة إلى المشرق: *NM*, 1771, 14. 112.

(61) *NM*, 1771, 2. 15, 4. 32, 9. 71.

أجرى شقيقه فيودور مفاوضات مع ملك نابولي. وفي نهاية شباط/ فبراير، غادر أ. غ. أورلوف إلى بطرسبورغ فجأة[62]، وبقي فيها قرابة الشهر، وتمكَّن في 8-19 آذار/ مارس من إلقاء كلمة أمام المجلس السَّامي لدى البلاط، وعرض رؤيته للوضع في الأرخبيل وآفاق أعمال الأسطول اللاحقة.

في طريق عودته من بطرسبورغ، عرج أورلوف على فيينا وبقي فيها فترة وجيزة، التقى خلالها الإمبراطورة ماري تيريز والكونت كاونيتس (في 20 و30 نيسان/ أبريل 1771)، وأجرى كذلك محادثة مع السفير الروسي د. م. غوليتسين. في غضون ذلك، لم تنقطع الصلات بين القاعدة الروسيَّة في توسكانة والأرخبيل. وابتداءً من منتصف آذار/ مارس 1771، بدأت السُّفن الروسيَّة تغادر توسكانة متوجِّهة إلى المشرق، فيما عملت سفن أخرى على إنجاز أعمال الترميم بوتائر سريعة والتزوُّد بشتَّى أنواع المؤن من موادَّ غذائيَّة وأخشابٍ وغيرها[63].

أخيرًا، عاد أ. غ. أورلوف في أيار/ مايو 1771 من بطرسبورغ إلى توسكانة[64]، فوصل في الساعة العاشرة من صباح العاشر من هذا الشهر إلى فلورنسا، التي مكث فيها فترةً وجيزةً، ثمَّ غادرها إلى ليفورنو[65]. وفي الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، وصل ألكسي أورلوف إلى بيزا ونزل في قصر كوريني.

ابتداءً من نهاية شهر نيسان/ أبريل، كانت حياة المجتمع الراقي في المدن التوسكانيَّة تضجُّ بالحيويَّة: كان رعايا الإمبراطورة الروسيَّة يزورون قصر الأرشيدوق، ويقيمون حفلات الاستقبال مع الحلفاء الإنكليز. وفي 5-16

---

(62) G. d'A., 1771, no. 4. 5, 21.

(63) يُنظر على سبيل المثال: GT, 1771, 18. 70; NM, 1771, 31. 245.

(64) وصل أورلوف إلى بطرسبورغ قرابة 4-15 آذار/ مارس 1771، ولكن عُرف في إيطاليا أنه سيعود سريعًا إلى توسكانة. وفي 8-19 نيسان/ أبريل كان أ. غ. أورلوف والأمير ي. ف. دولغوروكوف والملازمان روزنبرغ ورابلين في برلين، وفي 18-29 نيسان/ أبريل في فيينا، حيث قاموا بزيارة إلى الأمير كاونيتس. وفي 19-30 من الشهر نفسه، استقبل الإمبراطور النَّمساوي أورلوف والنبلاء المرافقين له، وتناولوا طعام الغداء مع السفير الروسي في فيينا الأمير غوليتسين إلى مائدة كاونيتس: *NM*, 1771, 35. 273; *NM*, 1771, 36. 285; *NM*, 1771, 38. 299; *NM*, 1771, 39. 306.

(65) *NM*, 1771, 38. 300.

حزيران/ يونيو أصدر أورلوف أمرًا طلب فيه من كبار الضبَّاط الصعود إلى متون سفنهم، غير أنَّ ذلك لم يحصل إلا في صبيحة 8-19 حزيران/ يونيو 1771 بسبب هبوب العاصفة.

أخيرًا، في منتصف نهار 9-20 حزيران/ يونيو، أبحر الأسطول الروسي المؤلَّف من 11 سفينة (سبع سفن حربيَّة، وأربع سفن للنقل)، متوجِّهًا نحو المشرق. وكان على متنها الأخوان ألكسي وفيودور أورلوف (وصل أ. غ. أورلوف إلى باروس في 28 حزيران/ يونيو - 9 تموز/ يوليو 1771)، وكذلك ي. ف. دولغوروكوف، وأمَّا س. ك. غريغ فقد بقي في توسكانة («لسوء حالته الصحيَّة»، بحسب ما ذكرت الصحف التوسكانيَّة)[66].

### نهاية عام 1771 - تموز/ يوليو 1772

لم يعد أ. غ. أورلوف إلى ليفورنو من الأرخبيل إلا في الثامن والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1771 - الثامن من كانون الثاني/ يناير 1772، وذلك على متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة»[67] (غادر الأرخبيل في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، تمامًا كما في عام 1770، وذلك في السابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر (أي الثامن من كانون الأول/ ديسمبر 1771 بالتقويم الجديد).

قبل مجيء ألكسي أورلوف إلى ليفورنو آتيًا من الأرخبيل، وصل شقيقه فيودور إلى المدينة، عقب العمليَّة غير الموفقة عند رودوس. وأصبح فيودور، وهو لا يزال في الحجر الصحِّي، مصدرًا للحيويَّة الاجتماعيَّة والدبلوماسيَّة. فبوساطة من راذيرفورد، العميل الروسي في توسكانة، التقى بالأرشيدوق غلوستير، شقيق ملك إنكلترا جورج الثالث. وبعد خروجه من المستشفى، تناول طعام الغداء أكثر من مرَّة مع محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي، وزار البلاط الفلورنسي ثمَّ غادر إلى بطرسبورغ في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من دون انتظار وصول شقيقه[68].

---

(66) *GT*, 1771, 26. 103-104; *NM*, 1771, 50. 396, 51. 405.

(67) *GT*, 1772, 3. 12; *NM*, 1772, 4. 31.

(68) *NM*, 1771, 94. 728; *NM*, 1771, 95. 734; *NM*, 1771, 100. 774.

بعد انتهاء إقامة أ. غ. أورلوف في الحجر الصحّي، انتقل مع حاشيته - وفق العرف المتّبع - إلى منزل القنصل البريطاني في ليفورنو، حيث استقبلهم محافظ المدينة بوربون ديل مونتي الذي قدّم تهانيه بنجاحات الحملة السابقة. وانتعشت الحياة الاجتماعيّة بقوة جديدة، فأقيمت مآدب الغداء الاحتفاليّة في منزل المحافظ تارة، وفي منزل جون ديك تارة أخرى(69). وتردّد ألكسي أورلوف وكبار العسكريّين الرُّوس الآخرين على البلاط في فلورنسا مرارًا؛ وفي نهاية شباط/ فبراير - بداية آذار/ مارس 1772 زار روما، حيث أجرى مفاوضات مع الأرشيدوق غلوستير، كما فعل شقيقه فيودور سابقًا(70).

في غضون ذلك، رست السُّفن التي وصلت لتمضية الشتاء في الجزء الأوسط من حوض البحر المتوسِّط، في موانئ مالطا وصقليّة ومملكة نابولي وتوسكانة، للخضوع لعمليات الصيانة(71). وكانت السَّفينة «ساراتوف» التي رست في مالطا للصيانة الأكثر مبعثًا للقلق، إلا أنَّ عمليَّة تصليحها التي استغرقت أشهرًا عدَّة أُنجِزَت بنجاح. وفي الخامس والعشرين من آب/ أغسطس - الخامس من أيلول/ سبتمبر 1772 وصل أ. غ. أورلوف وس. ك. غريغ إلى مالطا متخفِّيَيْن على متن السَّفينة «روستيسلاف»، فتفقَّدا السَّفينة «ساراتوف» ووزَّعا على طاقمها والعاملين على تصليحها المكافآت(72).

لم يسارع أ. غ. أورلوف خلال صيف عام 1772 في العودة إلى الأرخبيل. ففي تموز/ يوليو، افتتح مؤتمر السَّلام في فوكشاني (وكان شقيقه غ. غ. أورلوف على رأس الوفد الرُّوسي)، واستمرَّت الهدنة من أيار/ مايو حتَّى آب/ أغسطس. ولم يغادر ليفورنو برفقة س. ك. غريغ على متن السَّفينة «روستيسلاف» إلا في 16-27/ 18-29 تموز/ يوليو(73)، ليستقرَّ في الأرخبيل فترةً أطول من أيِّ

(69) *GT*, 1772, 5. 20; *NM*, 1772, 9. 70; *GT*, 1772, 6. 24; *NM*, 1772, 10. 78.

(70) *GT*, 1772, 10. 40, 11. 43; *NM*, 1772, 17. 234.

(71) *NM*, 1771, 97. 751.

(72) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1860, Л. 58-65.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1860، الورقة 58-65].

(73) *GT*, 1772, 31. 124; *NM*, 1772, 61. 506.

وقتٍ مضى، إذ استمرَّت حتَّى 18-29 نيسان/ أبريل 1773 (ولم يرجع بعدها إلى ليفورنو قط).

## أيار/ مايو - أيلول/ سبتمبر 1773

وصل ألكسي أورلوف إلى ليفورنو، قادمًا من الأرخبيل في صباح 11-22 أيار/ مايو 1773[74]. وبعد ذلك بفترة وجيزة، في الثاني عشر من حزيران/ يونيو، وصل إ. إ. شوفالوف إلى فلورنسا، آتيًا من روما (غادرها في السابع من الشهر نفسه)، فاستقبله ملك توسكانة وملكتها على الفور[75]. وفي صيف عام 1773، كما في الأعوام السابقة، تابع أ. غ. أورلوف وإ. إ. شوفالوف - وفق ما أفادت به الصحافة المحليَّة - التجوال بين بيزا وليفورنو وفلورنسا، مشاركين بنشاط في المناسبات التي يحييها البلاط وعِلْيَة القوم، مواصلين على ما يبدو الاضطلاع بالأدوار السياسيَّة والاجتماعيَّة الملقاة على عاتقهما. ففي صبيحة الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 1773 لبَّى شوفالوف وألكسي أورلوف دعوة إلى مأدبة غداء في فلورنسا، أقامها الوزير الأول لورينسو كورسيني للمبعوثين الأجانب ورجال البلاط والأرستقراطيِّين المحليِّين، وحضرا بعد ذلك الاحتفال والقداس لمناسبة ولادة ابنة المركيزة ماريا ماغدلينا بوربون ديل مونتي[76]، وفي السادس عشر من تموز/ يوليو 1773، شارك أورلوف وشوفالوف مع السيِّدات والسَّادة الأجانب الذين كانوا يخضعون للعلاج في منتجع المياه المعدنيَّة في سان جوليانو، في الحفلة الراقصة التي أقامتها جمعيَّة النُّبلاء المحليَّة[77].

---

(74) *GT*, 1773, 22. 88, 23. 92; *NM*, 1773, 42. 336, 44. 351.

في عام 1772 تراجع اهتمام الصحف الإيطاليَّة بتحرُّكات رعايا كاترينا الثانية في إيطاليا بصورة ملحوظة. ويُعزى هذا التحوّل في اعتقادنا إلى أنَّ الرجل الذي كانت أعماله تمثِّل «الذريعة الإعلاميَّة» الأهمَّ في توسكانة - ألا وهو ألكسي أورلوف - لم يرجع إلى أرشيدوقيَّة توسكانة العظمى خلال شتاءَي عامي 1772 و1773. ففي غياب أورلوف كان اهتمام الصحافة الإيطاليَّة المحلِّيَّة يلتفت أحيانًا نحو إ. إ. شوفالوف وإلى غ. أ. سبيريدوف الذي وصل في الخريف للعلاج، إلا أنَّهما كانا أقلَّ أهميَّة من حيث الأخبار بالنسبة إلى المجتمع الراقي.

(75) *GT*, 1773, 25. 99; *NM*, 1773, 48. 383-384.

(76) *GT*, 1773, 26, 102-103, 27. 105-106; *NM*, 1773, 51. 407, 52. 416.

(77) *GT*, 1773, 30. 118.

في صبيحة 16-27 آب/ أغسطس غادر ألكسي أورلوف فلورنسا متوجِّهًا إلى بطرسبورغ[78].

### تموز/ يوليو 1774 - حزيران/ يونيو 1775

من المعروف أنَّ سفر أورلوف من روسيا تأخَّر هذه المرَّة. فقد تحدَّث أمام مجلس البلاط السَّامي مرَّتين، في تشرين الأول/ أكتوبر 1773 وفي أيار/ مايو 1774؛ وأمضى الشتاء وبداية الربيع في ممتلكاته بضواحي موسكو. وفي تموز/ يوليو عاد أورلوف إلى توسكانة محمَّلًا بالهدايا والأوسمة، واقترنت عودته، كما في السابق، بنفقات سخيَّة على تنظيم الاحتفالات الصيفيَّة. وكان من المتوقَّع أن يتوجَّه إلى الأرخبيل من دون إبطاء، ولكنَّه تلقَّى نبأ توقيع صلح كوتشوك - كاينارجي في ليل 1-12 آب/ أغسطس 1774، عندما أبحرت السُّفن الأولى التي ترفع العلم الروسي إلى المشرق. وذكرت الصحف أنَّه اضطُرَّ إلى إيفاد رسول إلى روبرت راذيرفورد في ليفورنو على جناح السرعة، حاملًا الأمر بتعليق مغادرة السُّفن الروسيَّة[79].

في أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر 1774، كان ألكسي أورلوف موجودًا في توسكانة، غير أنَّ اسمه نادرًا ما كان يُذكر في الأخبار المحليَّة. وانتشرت شائعات مفادها أنَّ الكونت مريض، وأنه لم يتعاف إلا في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر[80]. وعكف أورلوف هذه المرَّة على تنظيم عودة الأسطول إلى روسيا، غير أنَّ عمله لم يقتصر على ذلك فقط. إذ من المعروف أنَّه أشرف في ربيع عام 1775 على تنفيذ رغبة سريَّة للإمبراطورة، تمثَّلت في خطف الأميرة تاراكانوفا، الأمر الذي أثار ضجَّة لا مثيل لها في توسكانة، وغدا من دون شكٍّ أحد أسباب الذكرى «السيئة» الأساسيَّة التي خلَّفها الكونت أورلوف.

أخيرًا، غادر أ. غ. أورلوف توسكانة في 12-23 حزيران/ يونيو 1775

---

(78) *GT*, 1773, 35. 138; *NM*, 1773, 70. 576.

(79) *GT*, 1774, 34. 136; *NM*, 1774, 66. 527, 67. 535.

(80) *GT*, 1774, 37. 148, 46. 184.

بصورة نهائيَّة، متوجِّهًا إلى بطرسبورغ برًّا، بعدما عَهَد إلى الجنرال إيفان أبراموفيتش غانيبال إنجاز الأعمال المتبقيَّة في الأرشيدوقيَّة من بعده[81].

تجدر الإشارة إلى أنَّ أ. غ. أورلوف، المستقلّ والمُبذِّر بإفراط، لم يثر الإعجاب فحسب، بل الانتقادات الجديَّة في صفوف المثقَّفين والأرستقراطيِّين الإيطاليِّين، حتَّى قبل حادثة اختطاف الأميرة تاراكانوفا. فقد دلَّ سلوكه الثقافيُّ والحياتيُّ على أنَّ روسيا لا تزال أسيرة الغلاظة، التي لا يمكن إخفاؤها بالتَّسرْبُل في «رداء الحضارة»، بحيث لا تؤدِّي محاولات تلقيحها بالعادات الثقافيَّة والسياسيَّة الأوروبيَّة بالقوة إلا إلى تفاقمها، الأمر الذي بدأ مع بطرس الأكبر.

كانت زيارة ألكسي أورلوف إلى روما - في نهاية شهر شباط/ فبراير 1772 - إحدى المحطَّات السَّاطعة التي سوَّغت مثل هذه الاستنتاجات. فالرواية «الرسميَّة» كانت تقول إنَّ أورلوف انتوى اللحاق بالأيام الأخيرة من الكرنفال في روما، لكنَّه توجَّه إلى هناك في الواقع لإجراء مفاوضات مع وليام هنري، الأرشيدوق غلوستير، شقيق ملك إنكلترا جورج الثالث، الذي كان يقوم بجولة في إيطاليا[82]. وفي السابع والعشرين من شباط/ فبراير، وصل أورلوف برفقة القنصل الإنكليزي في ليفورنو جون ديك، والتقيا بغلوستير على الفور، ثم انخرطا بنشاط في حياة مجتمع روما الرَّاقي[83]. اعتزم أورلوف، كالعادة، اكتساب ودٍّ أهل روما بهداياه الفاخرة. وأرسل، من بين أمور أخرى، خادمه إلى ليفورنو على جناح السرعة، لجلب قطع فرو نادرة وعلبة تحتوي قطع عملة قديمة تعود إلى أيام ما قبل بطرس الأكبر، كان قد تركها في توسكانة، ليقدِّمها هديَّة إلى غلوستير[84].

---

(81) *GT*, 1774, 50. 199-200, 52. 208, 53. 212; *NM*, 1774, 97. 774, 98. 782, 99. 790, 103. 822, 104. 830, 105. 837-838; Ciano, p. 33; Donolo, p. 129.

(82) *GT*, 1772, 10. 40, 11. 43; *NM*, 1772, 17. 234.

(83) *NM*, 1772, 19. 152. 23. 184.

(84) *NM*, 1772, 21. 168.

عن هدايا أورلوف يُنظر أيضًا رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري بتاريخ الثامن والعشرين من آذار/ مارس 1772: Pietro Verri & Alessandro Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 5: Gennaio-Dicembre 1772* (Milano, 1926), p. 46.

حُفظ وصفٌ مفعمٌ بالسخرية المُرَّة لتصرُّفات أورلوف في روما في مذكِّرات الكاتب الإيطالي المعروف جوفاني غوراني (عاصر الحرب الروسيَّة – التركيَّة)[85] تحت عنوان «النكتة الروسيَّة» («Anecdote Russe»). جاء فيه:

«تحدَّث الإنكليزيَان اللذان التقيتهما في روما، لدى المركيزة جينتيلا بوك بادولا، ... طويلًا عن هذا الطَّاغية الروسي، وعن قوَّته الجسديَّة الاستثنائيَّة وفظاظته. وإليكم هذه الحادثة التي حصلت في منزل المركيزة، ممَّا رواه لي مَنْ شاهدها بأمِّ العين:

رغب الكونت أورلوف مرَّة في أثناء وجوده في ضيافة هذه السيِّدة، بعرض قوَّته الجسديَّة التي تُقارَنُ بقوَّة هرقل، فأخذ قطعًا من الكريستال والحديد وغيرها من المواد الأخرى الشديدة الصَّلابة، وسحقها من دون أيِّ جهد يُذكر. ثم أخذ التفاحة الأقسى وضغطها بين إصبعيه وهشَّمها إلى قطع صغيرة. وكرَّر هذه التجربة ذات مساء في حضرة الأرشيدوق غلوستير، شقيق ملك إنكلترا. فأصابت إحدى قطع التفاحة المتطايرة وجه الأمير وجرحته. شعر كلُّ من رأى ذلك بالضيق، إلا الكونت أورلوف؛ إذ كان الوحيد الذي لم تظهر عليه ملامح الارتباك، بل لم يكلِّف نفسه عناء إبداء أيِّ اعتذار للأرشيدوق عمَّا حصل. فهل يمكن النَّذل الذي خنق إمبراطوره بيديه أن يُكِنَّ ولو ذرَّة من الاحترام لشقيق الملك؟ كان الكونت أورلوف هذا يتحدَّث عن الأحداث المأساويَّة الفظيعة التي تحصل في عهد كاترينا الثانية، وكأنَّها أمور عاديَّة جدًّا. هؤلاء هم الأشخاص الكريهون الذين اختارتهم هذه الإمبراطورة دائمًا، ليكونوا قوى مُحرِّكة لمطامعها وطغيانها»[86].

---

(85) عن صلات غوراني بروسيا، يُنظر: Venturi, *Il Settecento Riformatore*, p. 29.

(86) «Deux Anglois que je rencontrai à Rome, chez la marquise Gentili Bocca Paduli, me confi rmèrent la vérité de cette relation avec les mêmes circonstances que j'ai détaillées. On a beaucoup parlé de ce tyran de la Russie, de sa force extraordinaire et de sa brutalité. Voici un fait qui s'est passé dans la maison de cette marquise et qui m'a été attesté par des témoins oculaires. Le comte Orlow voulut un jour, chez cette dame, donner des preuves de sa force digne d'être comparée à celle d'Hercule; il prit diff érentes pièces de crystal, de fer, et d'autres matières très-dures qu'il brisa entre ses mains sans faire beaucoup d'eff ort. Il plaça une pomme des plus dures entre deux doigts d'une seule main, et en rapprochant ses doigts il brisa la pomme en plusieurs morceaux. Un soir il fi t cette = expérience en présence du duc de Glocester, frère du roi d'Angleterre. Un des éclats de la pomme

جدير بالذكر أنَّ دور ألكسي أورلوف في اغتيال بطرس الثالث، كان على ما يبدو معروفًا جيِّدًا في إيطاليا[87]. ولا يتبيَّن ذلك من خلال «نكتة» ج. غوراني فحسب، بل أيضًا من تقرير قنصل راغوزيا في ليفورنو تومازو جوليانو باتاكي إلى حكومته في التاسع والعشرين من أيار/ مايو 1769. وصف باتاكي أورلوف والضبَّاط الرُّوس الذين جاؤوا معه إلى توسكانة أنهم «زعماء المؤامرة على القيصر بطرس، الرَّامية إلى تنصيب كاترينا على العرش»[88]. وعلى النحو الآتي يتذكر الكونت أليساندرو فيري، الذي كان يعيش في روما (1741-1816)، أورلوف:

«ثمَّة بين الأجانب النُّبلاء الموجودين هنا (في روما - المؤلف)، جنرال الأسطول الروسي الكونت أورلوف ضخمٌ، هائلٌ، أشبه بـ «مَارْسْ» (Mars)[89]، ذو لياقة بدنيَّة ممتازة، وسيم، له ندبة كبيرة على خدِّه الأيمن إثرَ ضربةِ سيف. رأيته مرتديًا ثوبًا ألبانيًّا.. كان منظرًا بهيًّا»[90].

---

frappe le prince anglois au visage et le blessa. Tous les spectateurs témoignèrent la douleur que cet = accident leur causoit; le comte Orlow lui seul n'en parut pas ému et ne daigna pas faire la moindre excuse au duc. Le scélérat qui avoit étranglé son empereur pouvoit-il avoir quelqu'égard pour le frère d'un roi? Ce même comte Orlow racontoit comme des faits ordinaires les événemens tragiques et atroces qui ont marqué et flétri le règne de Catherine II. Voilà quels sont les hommes abominables que cette impératrice a toujours choisis pour être les agens de son ambition et de son despotisme» (Jean Gorani & Citoyen François, *Mémoires secrets et critiques des cours, des gouvernemens, et des moeurs des principaux états de l'Italie*, t. II (Paris, 1793), pp. 31-32).

يُنظر أيضًا رسالة أليساندرو فيري إلى بيترو فيري بتاريخ الحادي عشر من آذار/ مارس 1772: «يروون لي عن قوَّة الجنرال أورلوف المدهشة، وأنَّه يضع التفاحة بين السبابة والوسطى ويهشِّمها من دون جهد»: Verri & Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri,* vol. 5, p. 3; Плугин, с. 334. [بلوغين، ص 334].

(87) يُنظر على سبيل المثال: F. Pera, «Alessio Orloff,» in: F. Pera, *Ricordi e biografie livornesi* (Livorno, [1867]), pp. 451-452.

(88) مقتبسة من: Ivancevic, p. 34.
اعتبر باكاتي، مخطئًا، أنَّ ألكسي أورلوف كان مقرَّبًا من كاترينا.

(89) مارْس (Mars): إله الحرب في الميثولوجيا الرومانيَّة؛ وهو أيضًا إله الزراعة والخصوبة. كان الثاني من حيث الأهميَّة بعد جوبيتر، وكانت معظم الأعياد الرومانية الخاصة به تحصل في الشهر الثالث من السنة، ولذا سُمِّيَ الشهر على اسمه. (المترجم)

(90) «Fra li forestieri distinti vi è il conte d'Orloff, generale della flotta moscovita, che è un = Marte di figura, grande, smisurato, ben fatto, fisionomia civile ed un gran taglio di sciabola alla

«الجنرال أورلوف، رجل ضخم وقويٌّ جدًّا. رأيته يحطِّم رزمة من الخرائط، ولكن يمكن أشخاصًا ذوي قوَّة جسديَّة متوسِّطة للغاية القيام بذلك معتمدين على الحذق وحده. ورأيته أيضًا يهشِّم تفاحة بأصابعه، وهذا ليس بالأمر المدهش. <...> ويُقال أيضًا إنَّه قادر على رفع حصان مع فارسه، إنَّما الصحيح أنَّه تمكَّن هنا (في روما - المؤلفة) من رفع رجل إنكليزي أطول منك بشبر واحد، في الهواء بيديه بسهولة. ويبدو من بنيته الجسديَّة أنَّه قويٌّ جدًّا»[91].

على الرغم من بريق انتصارات الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط، ومن جديَّة نشاط ألكسي أورلوف السياسي في إيطاليا، فقد تذكَّره معاصروه الإيطاليُّون، ولا سيَّما أعضاء الصالونات الأرستقراطيَّة في روما، بوصفه رجلًا ذا قوَّة جسديَّة هائلة، سخيًّا بصورة مفرطة، وإلى ذلك جاهلًا بعادات المجتمع الراقي، بل مُتَبَاهيًا بذلك (ربَّما عن وعي!).

اقترنت «غلاظة» القائد العسكري الروسي بسلوك قادة الأسطول الروسي الأدنى رتبة في توسكانة، البعيد كل البعد عن المعايير الأوروبيَّة، الأمر الذي كتب عنه المؤرِّخ تشيزاري تشيانو بإسهابٍ في مؤلَّفه **روسيا وتوسكانة في القرنين السابع عشر والثامن عشر**[92].

## إيفان شوفالوف والجالية الروسيَّة

غالبًا ما كان الكونت إيفان إيفانوفيتش شوفالوف إلى جانب أ. غ. أورلوف في أثناء وجوده في توسكانة أو روما. فقد كان شوفالوف يعيش في إيطاليا في الفترة بين

---

guancia dritta. L'ho veduto vestito all'albanese ed era pittoresco» (из письма к Пьетро Верри от 4 = марта 1772 г.: Verri & Verri, *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri,* vol. 5, p. 32).

(91) «Il generale Orloff è un uomo grande e forte assai. Io gli ho veduto a rompere un grosso mazzo di carte, ma questo lo fanno anche gli uomini di forza mediocre e dipende molto dalla destrezza. Ho veduto pure rompere il pomo fra le dita, ma non è neppure questa cosa straordinaria, perchè lo fracassa tra l'indice ed il medio, è vero, ma fa delle dita come una tenaglia e questa forza pure è stata fatta da altri a tale occasione. Mi dicono però che alza un cavallo su cui stia un uomo: ed è certo che qui portava in aria sulla braccia un inglese, grande un palmo più di te, con somma facilità. Egli dev'essere fortissimo a quanto si vede dalla sua corporatura».

من الرسالة إلى بيترو فيري بتاريخ الثامن عشر من آذار/ مارس 1772: Ibid., pp. 38-39.

(92) Ciano, pp. 36-38.

عامي 1767 و1773، وهو الصديق المقرَّب من إليزابيت بيتروفنا[93] والوجيه وراعي العلوم والفنون. وكان دوره معروفًا على نطاقٍ واسعٍ في اقتناء نتاجات الفنون لصالح بلاط بطرسبورغ ولمعرض اللوحات الفنيَّة في الإرميتاج[94]، وذلك بناءً على طلب من كاترينا الثانية. غير أنَّ نشاطه في دعم عمليَّة كاترينا في حوض البحر المتوسِّط لا يزال مُبهَمًا حتَّى الآن، ولا توجد لدينا أيُّ أدلَّة مباشرة عن مهمَّته الرسميَّة في إيطاليا. لكنَّ إ. إ. شوفالوف كان أثناء وجوده في توسكانة أو روما يتواصل كتابيًّا مع نائب المستشار أ. م. غوليتسين، ويخبره عن تحرُّكات أورلوف والأسطول الروسي، ويتَّصل بماروتسي أيضًا، «بأمر» من غوليتسين بشأن «أمور» الأول، بما يشكِّل ربَّما دليلًا إضافيًّا على أنَّ شوفالوف كان حتَّى قبل عام 1771[95] ينفِّذ في إيطاليا مهمَّات ترتبط بشؤون السياسة

---

(93) الإمبراطورة الروسية **إليزابيت الأولى**: ابنة بطرس الأكبر وكاترينا الأولى، حكمت روسيا خلال الفترة 1741-1761. شهدت روسيا في عهدها نهضة اقتصادية وعلمية، فتأسَّست جامعة موسكو التي تحمل اسم العالم الموسوعي لومونوسوف وأكاديمية الفنون في بطرسبورغ. خاضت حروبًا ناجحة ضد فنلندا وبروسيا، وتمكَّنت من توسيع أراضي روسيا على حسابهما. من معالم عهدها إلغاء حكم الإعدام للمرَّة الأولى منذ مئات السنين. (المترجم)

(94) В. Ф. Левинсон-Лессинг, *История картинной галереи Эрмитажа (1764-1917)* (Л., 1985).

[ف. ف. ليفينسون - ليسينغ، **تاريخ معرض الإرميتاج للوحات الفنية (1764-1917)** (لينينغراد، 1985)].

لمزيد من التفصيل عن نشاط شوفالوف في اقتناء النتاجات الفنية للزبائن في روسيا، يُنظر:
S. Androsov, «Ivan Šuvalov e la sua cerchia a Roma,» in: *Italia-Russia. Incontri culturali e Religiosi fra '700 e 900'. Atti dell convegno internazionale, Napoli, 9-10 ottobre 2008* (Napoli, 2009), pp. 11-17.

(95) رسالة من بيزا بتاريخ الثامن من شباط/ فبراير 1770 وأخرى من فلورنسا في شهر آذار/ مارس من العام نفسه: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 281.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 281].

يخلص أ. نيفير - استنادًا إلى رسالتي شوفالوف هاتين - إلى الاستنتاج الآتي: «توجَّهت الحكومة الرُّوسية إلى شوفالوف بطلب المساعدة أول مرة في نهاية عام 1769 - مطلع عام 1770، حين كان الأخوان أورلوف يجريان التحضيرات في إيطاليا لحملتهما في بحر إيجة»: A. Нивьер, «Екатерина Великая и Иван Иванович Шувалов: Штрихи к сравнительному историческому, психологическому и политическому портрету,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб., 1998), с. 173.

[أ. نيفير، «كاترينا الكبرى وإيفان إيفانوفيتش شوفالوف: خطوط نفسية وسياسية مقارنة للوحة تاريخية»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 173].

والدبلوماسيَّة، وليس اقتناء النتاجات الفنيَّة فحسب[96]. ويشكِّل دليلًا على ذلك الحدثُ المعروفُ جيِّدًا في الكتابات التاريخيَّة، المرتبطُ بإزاحة الموفد الباباوي في وارسو أ. م. دوريني في بداية عام 1772، الذي شارك فيه شوفالوف، تنفيذًا لرغبة الإمبراطورة الروسيَّة التي لم تكن راضيةً عنه[97].



الكونت إيفان شوفالوف

يمكن تأريخ الحقبة الإيطاليَّة من حياة شوفالوف على النحو الآتي: في أيار/ مايو 1767 كان على الأرجح في البندقيَّة، وفي تموز/ يوليو - تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه في تورينو، ومن نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1767 وحتَّى تموز/ يوليو 1769 في روما، وفي تموز/ يوليو من العام نفسه في فلورنسا، وفي أيلول/ سبتمبر في بيزا، وفي تشرين الأول/ أكتوبر في بيزا، وفي آذار/ مارس من العام نفسه في فلورنسا، ومن منتصف نيسان/ أبريل 1770 حتَّى آذار/ مارس 1771 في روما، وفي نيسان/ أبريل من العام نفسه في نابولي، وفي أيار/ مايو 1771

(96) يبدو أنَّ الإيطاليِّين المعنيِّين بالتعاون مع الأسطول الروسي كانوا قادرين على التوجُّه إلى شوفالوف، طالبين التوسُّط لدى بطرسبورغ. ففي جلسة المجلس السَّامي في البلاط بتاريخ الثالث والعشرين من نيسان/ أبريل 1767 (بحسب التقويم القديم): «عرض الكونت ك. غ. رازوموفسكي رسالة من إ. إ. شوفالوف تتضمَّن رسالة من الإيطالي توري يقول إنَّه قائد سفينة، وتقرَّر بناءً على القانون العام الخاصِّ بقيادة السُّفن، بألَّا يُترك طلب توري من دون رد»: *Архив Государственного Совета, Т. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II (1768-1796)* (СПб., 1869), с. 93.

**[أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 93].**

(97) Д. Н. Костицын, «Дипломатическое поручение Екатерины II И. И. Шувалову,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8, с. 116-138.

[د. ن. كوستيتسين، «تكليفات كاترينا الثانية الدبلوماسيَّة لـ إ. إ. شوفالوف»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8، ص 116-138].

حتَّى نيسان/ أبريل 1772 في روما، وفي أيار/ مايو في ليفورنو وبيزا، وفي حزيران/ يونيو في روما، ومن تموز/ يوليو حتَّى تشرين الأول/ أكتوبر في فلورنسا، ومن تشرين الثاني/ نوفمبر 1772 حتَّى آذار/ مارس 1773 في روما، وفي نيسان/ أبريل من العام نفسه في نابولي، ومن أيار/ مايو حتَّى حزيران/ يونيو في روما، وفي تموز/ يوليو في بيزا، وفي تموز/ يوليو وآب/ أغسطس في فلورنسا، وفي أيلول/ سبتمبر في ميلانو، حتَّى 22 تشرين الأول/ أكتوبر في تورينو»[98].

تحوَّل إ. إ. شوفالوف خلال إقامته في إيطاليا إلى شخصيَّة ذات شأن بالنسبة إلى دول شبه الجزيرة الأبينينيَّة، وغدت تحرُّكاته في أرجاء إيطاليا موضع اهتمام الصحافة الإيطاليَّة، ما يتيح التدقيق في إعادة رسم خريطة مساره الإيطالي التي وضعها د. ن. كوستيتسين.


الكونت ألكسي أورلوف

ففي نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر 1768 (كلُّ التواريخ هي وفق التقويم الجديد)، كان شوفالوف موجودًا في نابولي، حيث عاين آثارها التاريخيَّة واستقبل عيد الميلاد الأرثوذكسي في الكنيسة اليونانيَّة المحليَّة[99]. وسرعان ما عاد من نابولي إلى روما، حيث كان على ما يبدو في صحبة الأمير إ. خ. كاونيتس، أوبرهوفمارشال[100] البلاط النَّمساوي، الذي حضر انتخاب البابا كليمنت الرابع

(98) نعرب عن جزيل الشكر لـ د. ن. كوستيتسين الذي تفضل ووافق على تقديم المعلومات لنا عن مسار جولات إ. إ. شوفولوف الإيطاليَّة وأطرها الزمنية.

(99) *NM*, 1769, 4. 29.

(100) **أوبرهوفمارشال**: من الألمانية «*Oberhofmarschall*»: هي واحدة من أعلى الرتب في سلم النُّبلاء الذين يخدمون في القصر الملكي. وكانت وظيفة الأوبرهوفمارشال الإشراف على القصر وحدائقه وإدارة شؤونه، وعلى الخدم العاملين فيه؛ كما كان يشرف أيضًا على تنظيم الاستقبالات والاحتفالات في البلاط الملكي. وكان في الواقع شخصية مركزية ذات شأن ونفوذ كبيرين داخل البلاط. اعتمدت هذه الوظيفة في روسيا ابتداءً من عام 1726، وألغيت في عام 1917 في عهد الحكومة المؤقَّتة عقب الثورة. (المترجم)

عشر[101]. نحن لا نعلم شيئًا عن فحوى أحاديث إ. إ. شوفالوف مع السياسيِّين النابوليتانيين أو النمساويِّين، لكنَّها بالكاد كانت تتناول الحرب الناشبة بين روسيا وتركيا. وفي الرابع عشر من تموز/ يوليو 1769 وصل إ. إ. شوفالوف إلى فلورنسا في آن واحد تقريبًا مع ألكسي أورلوف[102]، وانتقل في التاسع والعشرين من الشهر نفسه برفقة حاشية كبيرة (مؤلَّفة من 38 شخصًا، من بينهم ضباط وسكرتيريون وخدم)، إلى منتجع المياه المعدنيَّة سان جوليانو بالقرب من بيزا. وعمل شوفالوف في صيف عام 1769 كثيرًا على تنظيم الاحتفالات في توسكانة، وشارك في حياة البلاط التُّوسكاني، والتقى بالأرستقراطيِّين المحليِّين، عاملًا، على ما بدا، على إدخال الأخوين أورلوف في حياة المجتمع الرَّاقي في توسكانة[103]. وفي مساء الخامس من آب/ أغسطس 1769 قام أ. غ. أورلوف وشوفالوف والأمير كوزلوفسكي وأربعة ضبَّاط روس بزيارة لليفورنو بضع ساعات، ثمَّ غادروا في مساء اليوم نفسه عائدين إلى سان جوليانو. وبالرغم من أنَّ الهدف من زيارتهم ظلَّ غامضًا، لكن الواضح أنَّها لم تكن بهدف الترفيه[104].

في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس 1769، غادر شوفالوف سان جوليانو، وأمضى بعض الوقت في توسكانة[105]. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر أفادت *La Gazzetta Toscana* **(جريدة توسكانة)** من فلورنسا أنَّ العديد من الضبَّاط الذين يخدمون في صفوف الرُّوس توجَّهوا إلى بيزا خلال الأسبوع، نظرًا إلى وصول الأسطول الروسي المرتقب إلى ليفورنو في القريب العاجل. كما سارع إ. إ. شوفالوف الموجود في فلورنسا، بعدما انتهى أخيرًا من معاينة معالم المدينة، بدوره في الذهاب إلى بيزا، متوجِّهًا

(101) *NM*, 1769, 37. 291; *NM*, 1769, 42. 332.

(102) *GT*, 1769, 28. 112; *NM*, 1769, 56. 456.

(103) *GT*, 1769, 28. 112; *NM*, 1769, 56. 456; *GT*, 1769, 31. 125.

(104) *NM*, 1769, 64. 524.

(105) *GT*, 1769, 39. 157.

كتبت *La Gazzetta Toscana* **(جريدة توسكانة)** في نبأ من فلورنسا في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر أنَّ شوفالوف منشغل في الوقت الراهن بمعاينة معالم فلورنسا: *GT*, 1769, 41. 163.

إليها في الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر برفقة السفير الإنكليزي لدى البلاط التُّوسكاني أوراس مان[106].

في شباط/ فبراير - آذار/ مارس 1770 كان شوفالوف في فلورنسا. وأشارت الصحف إلى وصول أ. غ. أورلوف وي. ف. دولغوروكوف («المعروف بحملته على الجبل الأسود») إلى فلورنسا، ومعهما الأمير غاغارين والنقيب إ. خريستنيك وإ. إ. شوفالوف وابن شقيقته الأمير ف. ن. غوليتسين[107]. وفي الثاني والعشرين من شباط/ فبراير تناول هؤلاء النُّبلاء الرُّوس طعام الغداء مع ممثلي الأرستقراطيَّة المحليَّة، في منزل سفير بريطانيا في توسكانة أوراس مان[108]، وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه استقبل ملك وملكة توسكانة ألكسي أورلوف وشوفالوف والضبَّاط الرُّوس الآخرين في لقاء خاص، اختُتم بمأدبة غداء أقيمت خصِّيصًا لهذه المناسبة. وفي الثامن والعشرين من شباط/ فبراير توجَّه إ. إ. شوفالوف إلى بيزا برفقة أ. غ. أورلوف[109]، ثم غادرها في 16-17 آذار/ مارس إلى فلورنسا للمشاركة في الاحتفال بعيد شفيع إمبراطور النَّمسا جوزف الثاني، شقيق بيترو ليوبولدو[110]. وفي نيسان/ أبريل 1770 غادر شوفالوف توسكانة عائدًا إلى روما على الفور عقب توجُّه أ. غ. أورلوف إلى مورية[111].

في نهاية عام 1771 ومطلع عام 1772 كان شوفالوف في روما، وعمل على تنحية المبعوث البابوي في بولندا أ. م. دوريني[112]، وكان من المفترض أن يلتقي هناك بألكسي أورلوف في نهاية فصل الشتاء. وفي أيار/ مايو 1772، عاد

---

(106) *GT*, 1769, 46. 183; *NM*, 1769, 91. 748.
(107) *GT*, 1770, 8. 30; *NM*, 1770, 16. 127.
(108) *NM*, 1770, 16. 127.
(109) *GT*, 1770, 9. 33, 36; *NM*, 1770, 18. 140; *NM*, 1770, 18. 143; *NM*, 1770, 19. 150.
(110) *NM*, 1770, 23. 183.
(111) *NM*, 1770, 33. 263
(112) Костицын, c. 116-138.
[كوستيتسين، ص 116-138].

مجدَّدًا إلى توسكانة برفقة ابن شقيقته الأمير ف. ن. غوليتسين[113]، والنبيل البندقي الكونت ديميتريو موتشينيغو، ونزل الضيوف في قصر ألكسي أورلوف بـ«بيزا»[114]. وفي مطلع شهر أيلول/سبتمبر 1772، تعيَّن على شوفالوف تقديم الخدمات إلى الحملة في حوض البحر المتوسِّط بعد مغادرة أ. غ. أورلوف الأرخبيل، فتولَّى في فلورنسا تقديم الكونتر-أميرال ف. ي. تشيشاغوف - الذي قاد العمارة البحريَّة الرابعة من كرونشتاد إلى ليفورنو في 25 آب/أغسطس - 5 أيلول/سبتمبر 1772 - إلى الأرشيدوق الكبير[115]. ولم يغادر شوفالوف فلورنسا متوجِّهًا إلى روما، إلا في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1772[116]، عائدًا إلى توسكانة في حزيران/يونيو 1773[117]، ليمضي أيامه مجدَّدًا بصحبة أ. غ. أورلوف وممثِّلي الأرستقراطيَّة التوسكانيَّة والروسيَّة[118]. وفي الثامن من آب/أغسطس 1773 التقى شوفالوف في فلورنسا بالكونتر-أميرال س. ك. غريغ، الذي كان في طريقه إلى بطرسبورغ لقيادة العمارة البحريَّة الجديدة الخامسة في البحر المتوسِّط[119]. وبعد شهر من سفر أ. غ. أورلوف إلى سان بطرسبورغ، غادر شوفالوف فلورنسا أيضًا، فانطلق في الساعة الخامسة من بعد ظهر التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر متوجِّهًا نحو بولونيا[120]، في طريقه إلى باريس ولندن وسان بطرسبورغ، بحسب ما أشارت صحف البندقيَّة واسعة الاطِّلاع[121].

(113) يُنظر رسالة شوفالوف إلى ن. إ. بانين بتاريخ 4-15 أيار/مايو 1772 (المرجع نفسه، ص 137).

(114) GT, 1772, 20. 79.

(115) تجدر الإشارة إلى أنَّ تشيشاغوف سلم قيادة العمارة إلى م. ت. كوناييف، وعاد إلى بطرسبورغ بعد لقائه الأرشيدوق: NM, 1772, 73. 604.

(116) NM, 1772, 89. 732.

(117) في الثاني عشر من حزيران/يونيو وصل شوفالوف إلى فلورنسا، آتيًا من روما التي غادرها في السابع من الشهر نفسه، حيث التقى ملك وملكة توسكانة على الفور: GT, 1773, 25. 99; NM, 1773, 48. 383-384.

(118) GT, 1773, 33. 129, 132; NM, 1773, 65. 519.

(119) NM, 1773, 64. 512.

(120) المقصود مدينة بولونيا الإيطاليَّة، عاصمة إقليم إميليا رومانيا ومقاطعة بولونيا في شمال إيطاليا. (المترجم)

(121) Ibid.

هكذا، كان شوفالوف موجودًا دائمًا في توسكانة خلال الفترة بين عامي 1769 و1773، إمَّا إلى جانب أ. غ. أورلوف، وإمَّا مؤدِّيًا في غيابه بعض «الوظائف» والمهمَّات التمثيليَّة السرِّية على الأرجح، ليس بصفة رسميَّة، بل بوصفه أرستقراطيًّا مقبولًا في أوساط المجتمع الإيطاليِّ العليا. ويشير ف. ن. غوليتسين، الشاهد المباشر على نشاط شوفالوف في توسكانة في هذا الصدد إلى ما يأتي: «عند وصول الكونتين الأخوين أورلوف إلى إيطاليا، سعى إيفان إيفانوفيتش أينما حَلَّ إلى أن يؤمِّن لهما كلَّ التسهيلات الضروريَّة المتعلِّقة بالعمليات الحربيَّة المزمع القيام بها في الأرخبيل، من خلال معارفه المقرَّبين؛ الأمر الذي جعلاهما يُزجِيَان له غالبًا التنويه والتقدير»[122].

غير أنَّ النظرة إلى كلٍّ من أورلوف وشوفالوف في صالونات توسكانة وروما كانت تجمع نقيضين: فقد مثَّل أ. غ. أورلوف، وفق هذه النظرة، «بربريَّة» الرُّوس، الذين تنبع نواقصهم من «الخطأ» الكامن في سيرورة حضارتهم. في حين أظهر إ. إ. شوفالوف في المقابل الرُّوس بوصفهم متنوِّرين أوروبيِّين جُدُدًا، يتمتَّعون بالعلوم والأدب ويقدِّرون الفنون[123]. فقد جسَّد مدير عام

(122) حياة الأوبركاميرهير إيفان إيفانوفيتش شوفالوف، بقلم ابن شقيقته المستشار الأمير فيودور نيقولايفيتش غوليتسين، في: موسكفيتيانين، مج 2، القسم الرابع (1853)، ص 94.

(123) ما يثير الاهتمام أنَّ شوفالوف نفسه كان يعتبر أرستقراطيِّي روما «برابرة». فقد كتب إلى شقيقته ب. إ. غوليتسينا في العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1770 (بحسب التقويم الجديد) من روما يقول: «... هنا في روما، كما سبق لي أن كتبت، لا مكان للهو أوللتسلية، فالحياة هنا هادئة جدًّا. وشغفي بالفنون ولقاءاتي مع الأجانب ومع عدد قليل من السادة المحليِّين هي كلُّ ما يشفي غليلي. وأنتِ تعلمين من رسائلي السابقة أنَّ النُّبلاء هنا ذوو سلوك سمج، ولذا فإن جميع الوزراء الأجانب [المقصود السفراء والممثِّلين الأجانب على الأرجح. (المترجم)] نادرًا ما يتعاملون معهم. فهم يختلفون عن بقية الناس من حيث عاداتهم وتعاملهم وسلوكهم؛ هم أشبه بأناس حديثي نعمة. يصعب عليَّ فهم أنَّ الأرض التي صدَّرت كلَّ العلوم والفنون إلى كلِّ البلدان، تقبع فيها مثلُ هذه الجهالة، وكيف أنَّ هذه المدينة، عاصمة المنتصرين وحكام العالم بأسره في العصور القديمة، ترزح في مثل هذا الوضع اليوم. والأكثر إثارة للسخرية هذه المآدب، مآدب العشاء التي لا تساوي شروى نقير، فتراهم يقدِّمون أطباق الطعام مع المشاعل، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة السخيفة. وهم إلى اعترافهم بالسأم لا يحسنون المرح. والإفراط في المجاملات هو السبب في ذلك. أمَّا الأجانب فيعيشون في ما بينهم ببساطة، ويمضون أوقاتهم على أفضل وجه. فالأجانب من مختلف الشعوب في روما يتواصل بعضهم مع بعض أكثر ممَّا يتواصلون مع أبناء البلد»: [«رسائل إ. إ. شوفالوف إلى شقيقته الأميرة براسكوفيا إيفانوفنا غوليتسينا، المولودة شوفالوفا»، موسكفيتيانين، العدد 10 (1845)، ص 150-151].

أكاديميَّة الفنون الروسيَّة في سان بطرسبورغ إ. إ. شوفالوف، روسيا المُتَأوْرِبَة بصورة طبيعيَّة. وكان الإيطاليُّون يعرفون رعايته الفنَّانين والموسيقيِّين الرُّوس بنشاط[124]، كما يعرفون زيارته المعالم والآثار التاريخيَّة والتقاءه الناس الأكثر تنورًا، واهتمامه بالعلوم. أما أ. غ. أورلوف، قاتل الإمبراطور بيوتر، فقد كان على العكس! كان يرفع الناس في الهواء ويهشِّم التفَّاح بإصبعين في صالونات كبار القوم[125].

كانت آليات استكشاف الرُّوس المدينين الثقافيَّ والسياسيَّ الإيطاليِّين تتمحور حول لوحة محدَّدة. فقد سعت الجالية الروسيَّة، من جهة، إلى خلق انطباع عن خضوعها للقوانين المحليَّة التوسكانيَّة، والأوروبيَّة على نطاقٍ أوسع. واتَّسمت المؤسسات السياسيَّة - الثقافيَّة الغربية عن «المدى العمومي» الروسي بأهميَّة خاصَّة، ولا سيَّما بالنسبة إلى أورلوف وشوفالوف، ومنها الصحافة على سبيل المثال، التي كان لأورلوف، على ما يبدو، القدرة على التأثير فيها (عبر

---

(124) لمزيد من التفصيل، يُنظر: A. Busiri Vici, «L'Erudito della Corte Russa del Settecento. Ivan Ivanovitch Schouvaloff, ed i suoi rapporti con Roma,» *L'Urbe* (Nuova serie), no. 6 (1976), pp. 39-52; Костицын, с. 116-138; Р. В. Головенкова, «И. И. Шувалов и пенсионерство в Императорской Академии художеств,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8, с. 46-47; Е. Б. Мозговая, «И. И. Шувалов и Академия художеств,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8, с. 160-161; Androsov, «Ivan Šuvalov e la sua cerchia a Roma».

[كوستيتسين، ص 116-138؛ ر. ف. غولوفينكوفا، «إ. إ. شوفالوف والتقاعد في أكاديمية الفنون الإمبراطوريَّة»، في: العصر الفلسفي: التقويم الأدبي، مج 8، ص 46-47؛ ي. ب. موزغوفويا، «إ. إ. شوفالوف وأكاديمية الفنون»، في: العصر الفلسفي: التقويم الأدبي، مج 8، ص 160-161].

(125) تتَّسم شهادات الشهود على «تصرفات» أورلوف بالأهميَّة، ولا سيَّما لأنَّها اعتبرت نموذجًا للسلوك «المحترم» على المستوى الرسمي. يُنظر رسالة المبعوث الروسي في فيينا د. م. غوليتسين إلى إ. إ. بيتسكي في 9-20 تموز/ يوليو 1771 عن استقبال كاونيتس لأورلوف في فيينا، التي جاء فيها: «أتَحْتُ للأمير كاونيتس في اليوم الثاني فرصة التعرف إلى الكونت، فدعوتهما إلى مأدبة غداء. وأولى الأمير الكونت اهتمامًا بالغًا، ثم أسرَّ إلي على حدة أنَّ خصائل الكونت بدت له على درجة عالية من الوقار، وأنَّه فضلًا عن أسلوب التخاطب الجذَّاب والصادق الذي يتميَّز به، فإن حديثه كله كان مفعمًا بالمشاعر النبيلة والإنسانية وسموِّ الروح، بما يدلُّ على العظمة. وقد كرَّر لي هذا الكلام أكثر من مرة»: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 275.

[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 275 (النص الأصلي بالفرنسيَّة)].

جدير بالذكر، أنَّ مدائح كاونيتس المبالغ فيها بحقِّ أورلوف، تبدو مواربة المعنى، لكأنَّه يستغرب لباقة الكونت!

تمويل المواد الضروريّة السخيّ على وجه التحديد). واستخدما بنشاط أيضًا آليات التّواصل القائمة لِعِليّة القوم من النُّبلاء، بغية تحسين صورة روسيا. ومن جهة أخرى، كان نشاط النبيلين البطرسبورغيَّين، ولا سيَّما أ. غ. أورلوف، مفعمًا على الغالب بإدراك حقيقة قوَّته الخاصَّة، التي لم تكن تعني شيئًا بالنسبة إلى تقاليد الدول الإيطاليَّة السياسيَّة والثقافيَّة العريقة. وشكَّل استعراض أورلوف قدرته الجسديَّة رمزًا لهذا الشعور الذي كان يسيطر على رعايا كاترينا.

لا شكَّ في أنَّ أ. غ. أورلوف وإ. إ. شوفالوف كانا شخصين متمايزين، من حيث الطباع والحاجات الثقافيَّة المختلفة. ومن المستبعد أن تكون قد جمعتهما صداقة وطيدة قبل وجودهما المشترك في إيطاليا، أو بعده. لكنهما كانا في شبه الجزيرة الأبينينيَّة، من دون ريب، لاعبين على مسرح سياسيٍّ واحد، بل ربَّما تكون سيناريوات كاترينا الثانية تضمَّنت مثل هذا التباين في «الأدوار» السياسيَّة.

## ألكسي أورلوف والرَّعايا البريطانيُّون في توسكانة

كما سبق وذكرنا، كان رعايا ملك إنكلترا جورج الثالث في أثناء وجود العسكريِّين الرُّوس في توسكانة، معاونين نشطين للأخوين أورلوف[126]. فقد قدَّم ممثِّلو إنكلترا الدبلوماسيُّون لدى بلاط بيترو ليوبولدو - وبالدرجة الأولى المبعوث أوراس مان والقنصل في ليفورنو جون ديك - مساعدة متنوِّعة للأخوين أورلوف ورفاقهما. فغالبًا ما كان مان يقوم برحلات قصيرة برفقة القادة البحريِّين الرُّوس[127]، فيما كان ديك يستقبل ألكسي أورلوف بانتظام في ليفورنو، حيث كان ينزل هذا الأخير في القصر القنصلي، ويشارك[128] بفاعلية

(126) للاطلاع على التعاون الدبلوماسيِّ بين روسيا وإنكلترا خلال الحرب، يُنظر الفصل الثاني.

(127) على سبيل المثال، قام إ. إ. شوفالوف برفقة أوراس مان برحلة إلى فلورنسا في الثالث عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769، وفي الرابع من كانون الأول/ ديسمبر 1769 تناول ألكسي أورلوف طعام الغداء مع أوراس مان: *GT*, 1769, 46, 183; *NM*, 1769, 91, 748; *NM*, 1769, 97, 804.

(128) أي ديك. (المترجم)

في الأنشطة التي يُقدِم عليها القادة العسكريُّون الرُّوس (بما في ذلك عمليَّة اختطاف الأميرة تاراكانوفا، التي خلَّفت صيتًا سيئًا).

كان العميل الروسي في توسكانة (ابتداءً من تشرين الثاني/ نوفمبر 1769) روبرت راذيرفورد إنكليزيًّا أيضًا، حيث عمل على تأمين المشتريات من مؤن الأسطول الروسي الغذائيَّة والقتاليَّة[129]، وأقام التنسيق بين الجالية الروسيَّة ومحافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي، وكُلِّف بإدارة الممتلكات والأموال الواردة إلى ليفورنو في غياب القادة العسكريِّين الرُّوس[130].

اضطلعت السُّفن التي تحمل العلم البريطاني بدورٍ مهمٍّ في تأمين احتياجات حملة الأرخبيل. فقد كان من شأن الراية الإنكليزيَّة تأمين التغطية للسُّفن، التي كانت تُقتَنى تنفيذًا لأوامر ألكسي أورلوف. إذ كان يحقُّ لإنكلترا،

(129) هكذا، تلقَّى راذيرفورد، المرتبط بالممثِّل الإنكليزي في توسكانة، أمرًا من الأميرال غ. أ. سبيريدوف، خلال النصف الثاني من كانون الأول/ ديسمبر 1769، يقضي ببدء شراء الموادِّ الغذائيَّة لصالح العمارة البحرية الروسيَّة الرَّاسية في بورت ماغون. فاستأجر راذيرفورد، بعد الحصول على إذن من أرشيدوق توسكانة الكبير، سفينة إنكليزيَّة وأرسل على متنها 60 ذبيحة من الثيران و60 برميلًا من اللحوم المملَّحة، كانت مخزَّنة في ليفورنو، إضافةً إلى كمِّية من الحبوب والخبز المجفَّف، الذي حُضِّر خصِّيصًا للبحارة الرُّوس: *NM*, 1769, 104. 852; ASV, Inquisitori di Stato, Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli, Livorno, Busta 513.

[تقرير القنصل التوسكاني في ليفورنو بيكي، بتاريخ الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1769].

يبدو أنَّ مشتريات العملاء الرُّوس في توسكانة أثارت قلق بابا روما، الذي عمد في منتصف كانون الأول/ ديسمبر 1769 إلى منع تصدير الحبوب من المنطقة البابوية (يُنظر رسالة أليساندور فيري من روما إلى بيترو فيري في ميلانو في السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1769): Verri & Verri, vol. 3, p. 135.

المرجَّح أنَّ راذيرفورد لم يكن الوحيد المكلَّف بشراء المؤن الغذائيَّة للأسطول الروسي. فقد أفادت صحيفة *Le Notizie del Mondo* (**أخبار العالم**) أنَّ التاجر الليفورني أوتوفرانك تلقَّى من الممثِّلين الرُّوس مبلغًا كبيرًا بشكل أوراق ماليَّة، وكان عليه تسييل قسم منها وإرساله إلى بورت ماغون، وشراء الحبوب بالجزء المتبقِّي لتحضير الخبز المجفَّف، وهذا ما حصل. وفي الثاني والعشرين من شباط/ فبراير وضعت تحت إشراف راذيرفورد سفينتان تجاريَّتان إنكليزيتان، محملتان بالمؤن الغذائيَّة والسِّلاح، كانتا وصلتا من بطرسبورغ، وكان من المقرَّر توجُّههما إلى المشرق لاحقًا: *NM*, 1770, 4. 30; *NM*, 1770, 8. 63; *NM*, 1770, 10. 78; *GT*, 1771, 9. 36; *NM*, 1771, 18. 142.

(130) عن راذيرفورد، يُنظر أيضًا الفصل السادس.

بوصفها دولةً محايدةً، القيام بمثل هذه المشتريات في أيٍّ من المرافئ الإيطاليَّة؛ فكانت السُّفن البريطانيَّة تبحر باستمرار ما بين سان بطرسبورغ وليفورنو وجزر الأرخبيل، محمَّلة بالمؤن الغذائيَّة للأسطول الروسي. وأخيرًا، كان القباطنة الإنكليز بالتحديد (روبرت براون، أو بروون)[131]، أحد مصادر المعلومات الأساسيَّة عن الأحداث الدائرة في بحر إيجة.

أثار دور الأسطول الإنكليزي هذا، غالبًا، شكوك السلطات التوسكانيَّة وممثِّلي السلك الدبلوماسيِّ الأجنبيِّ لدى بلاط بيترو ليوبولدو. وتتَّسم الحادثة التي وقعت في منتصف تموز/ يوليو 1770 بالدلالة في هذا السياق، عندما أبحرت السَّفينة الإنكليزيَّة «القديس بولس» بقيادة القبطان توماس باركمان من ليفورنو إلى الأرخبيل (كانت تنقل الأموال والمؤن للأسطول الرُّوسي). وسادت قناعة بأنَّ السَّفينة سترفع العلم الروسي حال مغادرتها توسكانة. وولَّدَت العلاقة المحتملة بين السَّفينة البريطانيَّة والرُّوس أثناء الحرب مع تركيا الشكوك بقانونيَّة أعمال الإنكليز؛ إذ احتُمِلَ أن يُعتَبَرَ سلوكهم مساعدةً مكشوفةً للجيش الروسي على أراضي ليفورنو (الأمر الذي تحظِّره القوانين المحليَّة)، ممَّا يَفتَرِضُ احتجاز السَّفينة[132]. أوضح أحد موظفي الحكومة التوسكانيَّة، المدعو فينتشينتسيو ديلي ألبيرتي، المسألة في رسالة إلى المستشار التوسكاني الكونت أورسيني دي روزنبرغ (الموجود حينذاك في فيينا) في الحادي والعشرين من تموز/ يوليو، مُرفقًا إيَّاها بمذكِّرة توضيحيَّة من محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي، مؤرَّخة في السادس عشر من الشهر نفسه. أكَّد المحافظ في مذكِّرته أنَّه لا يمكن أي سفينة الخروج من ليفورنو إلا تحت العلم الذي دخلتها به، وأمَّا تبديل العلم في عرض البحر فلا يخضع للقوانين المحليَّة بأيِّ حالٍ من الأحوال. وفي هذه الحال، اعتُبِرَت «القديس بولس» دائمًا سفينةً إنكليزيَّةً (بما في ذلك من قِبَل القنصل البريطاني ديك).

---

(131) للمزيد عنه، يُنظر الفصلان الخامس والثامن أيضًا.

(132) فضلًا عن ذلك، اختار القبطان باركمان طاقمًا لسفينته، يزيد عدده على عدد البحَّارة المفترض وجودهم على هذا النوع من السُّفن في زمن السلم. وزيادة على ذلك، أقام طاقم «القديس بولس» احتفالاتٍ صاخبةً عشيَّة إبحارها من ليفورنو. وقد أثار تصرُّف البحَّارة الإنكليز هذا سخط محافظ المدينة، الذي أبلغ القنصل البريطاني جون ديك بذلك.

كان يُسمح للإنكليز الذين وقفوا على الحياد في الحرب الدائرة نقل الأموال والمؤن والسلاح بوصفها سلعًا اعتياديَّة. وكما يتبيَّن من تقرير محافظ ليفورنو، فإنَّ القنصل السويديَّ قدَّم احتجاجًا شديد اللهجة بصدد إبحار السَّفينة «القديس بولس»، لأنَّ قسمًا كبيرًا من طاقمها الذي اختاره القبطان باركمان كان يتألَّف من السويديِّين. وأمرت الحكومة السويديَّة ممثِّلها في توسكانة التأكُّد بصرامة من عدم التحاق البحَّارة السويديين بالخدمة لدى الرُّوس، غير أنَّ بوربون ديل مونتي ردَّ على احتجاج القنصل قائلًا إنَّ معلوماته تفيد أنَّ البحَّارة السويديِّين العاملين على السَّفينة «القديس بولس» لا يُعتبرون من الناحية الشكليَّة في الخدمة السويديَّة، لذا لا يَسَعُهُ احتجازهم. واعتبر مجلس الدولة التُّوسكاني منطق بوربون ديل مونتي مقنعًا، ووافق على قراره السَّماح للسَّفينة بمغادرة المرفأ. وأبلغ روزنبرغ ألبيرتي في رسالة مؤرَّخة في الثلاثين من تموز/ يوليو 1770 أنَّ الأرشيدوق الكبير بيترو ليوبولدو، الموجود في فيينا أيضًا، صادق على قرار المجلس[133].

كما سبق ذكره، كانت السُّفن الإنكليزيَّة بالتحديد هي التي تنقل إلى توسكانة هدايا ألكسي أورلوف إلى ممثِّلي النُّخبة الإداريَّة المحليَّة. ففي السابع من آب/ أغسطس 1770، وصلت إلى ليفورنو السَّفينة «تارتار» بقيادة روبرت براوون. وعاد مع براوون اثنان من الضبَّاط الرُّوس، كما نُقِلَ على متن السَّفينة أيضًا حصان عربي أصيل مع عُدَّة ركوب ثمينة، هديَّةً من أورلوف إلى الأرشيدوق بيترو ليوبولدو[134]. إضافةً إلى ذلك، وصلت على متن السَّفينة «تارتار» مجموعة من العبيد، السود والبيض، الذين أرسلهم أورلوف هدايا إلى التوسكانيِّين الذين أدَّوا الخدمات للأسطول الروسي، أو الجديرين بتقديم الهدايا لهم بحكم مقاماتهم الرفيعة. فتسلَّم بيترو ليوبولدو، فضلًا عن الحصان، عِدَّة عبيد مغاربة، وكذلك جاريتين في الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر، قدَّمهما أورلوف هديَّة لزوجة الأرشيدوق[135]. وقام القنصل البريطاني

(133) ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1007.

(134) GT, 1770, 32. 128.

(135) = GT, 1770, 33. 132; NM, 1770, 64. 527.

في ليفورنو جون ديك بدور الوسيط بين أورلوف وبيترو ليوبولدو. فكتب في الحادي عشر من آب/أغسطس رسالة إلى الكونت أورسيني دي روزنبرغ، يوضح فيها تفاصيل المهمَّة التي أوكلها إليه أورلوف. وجدير بالذكر أنَّ ديك سلَّم الحكومة التوسكانيَّة، فضلًا عن الهدايا المذكورة، نسخًا عن رسائل تلقَّاها من المشرق بواسطة القبطان بروون. كان ديك واثقًا أنَّ الأرشيدوق الكبير مهتمٌّ بالمعلومات «الأصيلة» («authentic»)، عما يجري في حوض البحر المتوسِّط الشرقي. فضلًا عن ذلك كلِّه، كان على متن السَّفينة 135 رزمة من الحرير والسلع الأخرى العائدة إلى تجَّار ليفورنيِّين، صادرها أورلوف من اليونانيِّين «السَّفَلة» («villainous») (القراصنة اليونانيُّون على ما يبدو)، الأمر الذي كان من شأنه أن يترك تأثيرًا إيجابيًّا على الحاكم التُّوسكاني[136]. وفي العشرين من أيلول/سبتمبر 1770 وصل إلى فلورنسا عبدٌ مغربيٌّ أرسله أحد الجنرالات الموسكوبيِّين» (أورلوف على الأرجح) هذه المرَّة هديَّة إلى السفير البريطانيِّ في توسكانة أوراس مان[137].

في عام 1771، كما أُشير سابقًا، كان شقيق ملك إنكلترا، الأرشيدوق غلوستير، موجودًا في إيطاليا، حيث شكَّل وجوده هذا في روما وتوسكانة مناسبةً لعددٍ كبيرٍ من اللقاءات الدبلوماسيَّة، بما في ذلك مع كلٍّ من فيودور وألكسي أورلوف. فقد قام غلوستير بزيارة فيودور أورلوف مرَّتين: المرَّة **الأولى** في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1771 برفقة حاشيته، بمعيَّة القنصل البريطاني ديك والعميل راذيرفورد؛ والمرَّة **الثانية** - في الخامس عشر من الشهر نفسه - قرَّر غلوستير إبداء التفاتة خاصَّة نحو فيودور أورلوف، فعاده في مستشفى ليفورنو من دون سابق إنذار، ومن دون حاشية كبيرة و«بثياب بسيطة»، إدراكًا منه أنَّ أورلوف ليس بصحَّة جيِّدة[138].

---

= تقرير المبعوث السرديني في توسكانة دي زاموني بتاريخ الثالث عشر من آب/أغسطس 1770:
AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

(136) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2341.

(137) *GT*, 1770, 38. 150.

(138) *NM*, 1771, 94. 728.

هكذا، ترسَّخت العلاقات المتميِّزة بين رعايا العاهلين الروسي والإنكليزيِّ، الموجودين في توسكانة، على أعلى المستويات.

مع ذلك، عكَّرت نزاعاتٌ تافهةٌ، في بعض الأحيان، مناخ الصداقة بين البحَّارة البريطانيِّين والرُّوس. وفي نيسان/ أبريل 1772، كاد الأمر يصل إلى حدِّ سفك الدماء، بحسب وصف الصحافيِّين التوسكانيِّين البليغ. كانت تلك الحادثة أشبه بالنكتة التاريخيَّة، ولكن الكتابات الصحافيَّة، التي كانت تنقل تفاصيل حياة أسطول حملة الأرخبيل المعيشيَّة النادرة، تبدو جديرة بالاهتمام.

كانت تعيش على متن إحدى السُّفن الرُّوسية دبَّة مدجَّنة اعتادت السِّباحة في البحر ثمَّ الصعود إلى أقرب سفينة، متسلِّقة الحبال. وكانت هذه الدبَّة تختار سفينة إنكليزيَّة في أغلب الأحيان، الأمر الذي كان يثير الرعب في نفوس بحَّارتها. فطلب القبطان الإنكليزيُّ من القبطان الروسي مرارًا ربطها، ولكن من دون طائل. وبعدما نفد صبره هدَّد بقتلها إذا ما صعدت مجدَّدًا إلى متن السَّفينة الإنكليزيَّة. وفي ليل التاسع إلى العاشر من نيسان/ أبريل تسلَّقت الدبَّة كالعادة سفينة الإنكليز، الذين بادروا إلى قتلها على الفور. وعندما علم البحَّارة الرُّوس بما حدث امتشقوا السلاح، واتفق القبطانان على إبعاد السَّفينتين عن المرفأ إلى مسافة طلقة مدفعيَّة، والدخول في المعركة. كانت المعركة على وشك الوقوع، عندما وصل الخبر إلى قادة الأسطولين في ليفورنو، الذين أدَّى تدخُّلهم إلى درء معمعة حقيقيَّة[139].

لكن، بما أنَّه لم تقع نزاعات جديَّة بين البحَّارة الرُّوس والبريطانيين، بحسب المعلومات من المصادر المتاحة، يمكن الافتراض أنَّ العلاقات بين ممثِّلي الدولتين كانت جيِّدةً عمومًا.

## خلق صورة روسيا الثقافيَّة في إيطاليا والنشاط الثقافيُّ الروسي في توسكانة

ابتداءً من عام 1769، وبوجهٍ خاصٍّ بعد حملة الأسطول الروسي الناجحة صيف العام 1770، انتشر في أرجاء إيطاليا رأي مفاده أنَّ الجيش الروسي

(139) *GT*, 1772, 16. 64; *NM*, 1772, 31. 266-267.

سيستولي على القسطنطينيَّة في القريب العاجل. فتحدَّثت التقارير الدبلوماسيَّة وتقارير القادة العسكريِّين الرُّوس (فيودور أورلوف، مثلًا) عن ذلك، ولَهَجَ به المثقَّفون النُّبلاء. وغدت أعمال الرُّوس مادَّة للنقاشات حول إعادة رسم شاملة لخريطة أوروبا، الأمر الذي تناغم مع التصوُّر السائد عن علاقة سياسة كاترينا بسياسة بطرس الأول، الذي أنجز واحدًا من أعظم مشروعات التنوير الأوروبي؛ وفق ما تؤكِّده الكتابات الفرنسيَّة عن روسيا (وفي مقدِّمتها **تاريخ الإمبراطوريَّة الروسيَّة في عهد بطرس الأكبر** لفولتير، الصادر في أعوام 1759-1763). وتمثَّل الإنجاز المذكور بصنع بلاده من «العدم». فنقرأ في مقدِّمة ناشر الترجمة الإيطاليَّة من «**التعليمات**» [تعليمات كاترينا][140]، الصادر بفلورنسا في عام 1769 ما يأتي: «كان الملوك الرُّوس يملكون أراضيَ شاسعة هي الأكثر اتِّساعًا في العالم، وكان كلُّ حاكم يفرض نظامًا جديدًا. وأخيرًا (يقول السيِّد فولتير) وُلِد بطرس، وتكوَّنت روسيا؛ ومن دون شك، في هذا العصر بالتحديد خرجت من الفوضى»[141]. لقد «ترك» بطرس لكاترينا القضيَّة البالغة أهميَّتها، المتمثِّلة بإدخال الواقع الروسي الجديد في أطر التشريع المنتظم[142]. وعلى هذا النحو، ارتبطت النجاحات في الحرب ارتباطًا لا ينفصم، بصعود الإمبراطوريَّة الروسيَّة الثقافيِّ - السياسيِّ الجامح إبَّان القرن الثامن عشر.

---

(140) المقصود تعليمات كاترينا الثانية، وهو بيان من المبادئ القانونيَّة وضعته الإمبراطورة الرُّوسية، تداخل مع أفكار التنوير الفرنسيَّة. جُمع ليكون دليلًا للجنة عموم روسيا التشريعيَّة التي انعقدت في عام 1767 بهدف وضع نظام قوانين حديث، بديلًا من نظام قوانين موسكو. اعتقدت كاترينا أنَّ تعزيز القوانين والمؤسَّسات يتقدَّم على كلِّ شيءٍ في سبيل تعزيز النظام الملكي. وأعلنت التعليمات المساواة بين جميع الرجال أمام القانون ورفض عقوبة الإعدام والتعذيب، وسبقت بذلك ما جاء في دستوري الولايات المتحدة وبولندا في ما بعد. ومع أنَّ «التعليمات» أكَّدت الحكم المطلق، فقد كان الموقف من القنانة أكثر ضبابيَّة، حيث أُعيدت صياغة الفصل المخصَّص للفلاحين عدَّة مرات، تبعًا لتطوُّر رؤية كاترينا للموضوع. (المترجم)

(141) «I Sovrani di Russia possedevano i più vasti Stati dell'Universo, e ciascuno meritava un nuovo sistema: Finalmente (dice M de Voltaire) Pietro nacque, e la Russia fu formata, ed è questa senza dubbio quell'Epoca appunto, nella quale escì dal Cahos» (*Istruzione emanata da Caterina seconda imperatrice e legislatrice di tutta la Russia stante la commissione stabilita da questa sovrana per la reduzione di un Nuovo Codice delle Leggi tal quale è stata impressa in Russia, in Alemagna, in Francia*, Tradotta nuovamente dal Francese in lingua Toscana (Firenze: Nella Stamperia Bonducciana, [1769]), Con Approvazione, p. 3.

(142) Ibid., p. 4.

إلا أنَّ توقُّع تمكُّن روسيا من توسيع حدودها بفضل قوَّة سلاحها - في أواخر ستينيَّات القرن الثامن عشر ومطلع سبعينيَّاته - والتغلغل في أوروبا الوسطى والجنوبيَّة، لم يعزِّز الاهتمام بالبلد «الشمالي» فحسب، بل ولَّد أيضًا مخاوف بالغة الجديَّة. فصارت صورة روسيا الثقافيَّة تأخذ سماتٍ مخيفةً أكثر فأكثر. وتراجعت الأسطورة القائلة بـ «تحوُّلات» بطرس، لتحلَّ محلَّها أساطير جديدة وأدلَّة واقعيَّة عن «البربريَّة» و«التوحُّش» و«الطُّغيان». في مثل هذا الجو، كان ظهور كتاب الأباتي شاب دوتروش *Le voyage en Sibérie* (رحلة في سيبيريا) في أوانه، حيث جسَّد الأفكار المشكِّكة لجان جاك روسو وشارل مونتيسكيو بشأن روسيا، مستندًا إلى انطباعاته المباشرة من رحلته إلى الإمبراطوريَّة، ليشكِّك بحضاريَّة الشعب الرُّوسي(143). فمن المعروف أنَّ شاب دوتروش نفى أهميَّة إصلاحات بطرس الحاسمة في إدخال الحضارة الأوروبيَّة إلى روسيا حين قال: «أعتقد أنَّ بطرس الأول أنشأ أمَّة جديدة، غير أنه لم يغيِّر شيئًا في نظام الحكم، فبقيت الأمَّة ترزح تحت العبوديَّة التي رسَّخ قيودها»(144).

ألهب حجم مخطَّطات الإمبراطوريَّة الروسيَّة مخيِّلة المثقَّفين الإيطاليِّين. فكتب الأديب الكونت أليساندرو فيري المعروف (من روما) - أحد أوائل مترجمي شكسبير إلى الإيطاليَّة - إلى شقيقه بيترو في ميلانو في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1769، ما يأتي: «سنرى ما سيفعله الأسطول الروسي. لا ريب في أنَّ المخطَّط كبير. تطوَّر هؤلاء الرُّوس بسرعة حقًّا.

---

(143) «لقد اكتشف القارئ الذي خدَّرته خرافة بطرس: «روسيا جديدة»، وجه روسيا البربري متواريًا خلف مظهر حضاري. <...> ... ولم يرحم النقاد روسيا بعد شاب»: «...le lecteur, obnubilé par le mythe de Pierre, découvrait une nouvelle Russie, dont la face barbare se cachait sous les apparences de la civilisation. ...après Chappe, les critiques ne ménagèrent plus la Russie» (F.-D. Liechtenhan, *Les Trois christianismes et la Russie: Les Voyageus occidentaux face à l'Église orthodoxe russe. XV-XVIII siècle* (Paris, 2002), p. 159).

(144) «Pierre Ier semble avoir créé une nouvelle nation: mais il n'a fait aucun changement dans la constitution du gouvernement; la nation est toujours dans l'esclavage, et il en resserre les liens» (J. Chappe d'Auteroche, *Voyage en Sibérie*, t. 1 (Amsterdam, 1769), p. 179).

وبحسب رأي الأباتي كان الطغيان والعبودية سائدين في روسيا خلال عهد كاترينا أيضًا. فانتقد بحدَّة طباع الفلاحين الرُّوس الفظَّة وتعصبهم الديني، وخنوع النُّبلاء أمام التاج، وانعدام المؤسَّسات الاجتماعيَّة («la société») التام تقريبًا.

فصار لديهم شعراء جيِّدون ومسرحيَّات جيِّدة، وعمدوا إلى ترجمة الكثير من الكتب الفرنسيَّة، والجميع يقول إنَّ بطرسبورغ تُماثل باريس. غير أنَّ الطغيان لا يزال قائمًا، ومزاجيَّة العاهل هي القانون هناك. إنَّهم لن يتقدَّموا من دون حكومة معتدلة. تتمتَّع قواتهم بلياقة عالية، وأعتقد أنَّ مدفعيتهم هي الأفضل في أوروبا، وبالتالي في العالم كلِّه. ومن بين أمَّتي الروس والأتراك، أنا أدعم الرُّوس، فهم أقلُّ قساوة وتعصُّبًا من الأتراك وأكثر تعلُّمًا منهم. ولكنَّني أوافق على أنَّ كلتا الأمَّتين فظيعةٌ، وإذا استمرَّ الأمر على هذا المنوال، وتغلبت إحداهما، فإنَّ وجه أوروبا سيتغيَّر»[145]. وفي السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير 1770، كتب أليساندرو فيري: «... أنا أعطي صوتي لروسيا؛ وإنني لأتمنَّى رؤية انكسار المارد العثماني، الأمَّة البربريَّة، التي تضطهد القريب وتستعبد النساء، ولم ترغب في تقبُّل العلوم قطّ. لدى الرُّوس حكومة مستبدَّة، ولكنَّهم أنشأوا أكاديميَّة للعلوم على الأقل بعدما خرجوا بالأمس من العبوديَّة ووقفوا على أقدامهم. لكنْ، ما الذي سيحصل لنا ولقوانيننا إذا ما تمكَّنت امرأة واحدة من بسط سيطرتها على جزء من العالم، يمتدُّ من سيبيريا حتَّى مصر؟ لن يبقى لنا في شيخوختنا سوى رواية القصص عن الأحداث العظيمة»[146].

(145) «Staremo a considerare che farà mai la fl otta russa. Certo che il progetto è grande. Questi russi hanno fatto presto davvero. Hanno già dei buoni poeti, delle buone tragedie, hanno tradotti molti libri francesi, e tutti dicono che Pietroburgo è un Parigi. Ma il dispotismo è in tutto il suo vigore, e non v'è legge altro che il capriccio del sovrano. Senza un governo moderato, non anderanno molto avanti. La truppa è in un ottimo piede. L'artiglieria si pretende che sia la migliore di tutte le altre d'Europa, e perciò del mondo. Delle due nazioni sono piuttosto per i russi; sono men crudeli, meno fanatici, e più colti dei turchi; ma accordo che sono terribili tutti due, e che se la cosa va avanti, e che uno di loro abbia gran vantaggi, si potrebbe mutare la faccia di Europa»:

من رسالة أليساندرو فيري من روما إلى بيترو فيري في ميلانو، بتاريخ السابع من تشرين الأول/أكتوبر 1769: Verri & Verri, vol. 3, p. 100.

(146) «...Dò il mio voto alla Russia; e vorrei veder distrutto quel colosso ottomano, nazione Barbara, che impala il prossimo, che tiene schiave le donne, e che non hai mai voluto acconsentire alle scienze. Almeno i moscoviti hanno un governo dispotico, ma, esciti l'altro ieri dalla barbarie, e alzatisi per andare con due sole gambe, hanno già un'accademia di scienze. Ma se una donna possedera tutto quello squarcio di mondo, che sta dalla Siberia all'Egitto, che avverra di noi e dei nostri regoli? Si salvi chi può. Avremo la consolazione di raccontare cose grandi nella nostra vecchiezza:

من رسالة أليساندرو فيري من روما إلى بيترو فيري في ميلانو في السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير 1770: Ibid., pp. 170-171.

عزَّز نشاط كاترينا الإصلاحي الثقة في إمكانيَّة تحقيق خططها إلى حدٍّ كبير. وعلى غرار الصَّحافة الناطقة بالفرنسيَّة، غالبًا ما عمدت صحف البندقيَّة وفلورنسا وروما (بتأثير مباشر من الدبلوماسيِّين والنُّبلاء الرُّوس الموجودين في إيطاليا على الأرجح) إلى ذكر اللجنة القانونيَّة[147]، بوصفها هيئة استشاريَّة للسلطة لدى الإمبراطورة، وناقشت «**التعليمات**»[148] والمشروعات المعروضة على لقاء الجمعيَّة الاقتصاديَّة المستقلَّة[149] في عام 1769 الرامية إلى تحسين أوضاع الفلاحين[150]. كان الهدف من نشر هذه المواد إظهار عدم تطابق واقع الحكم الكاتريني مع فكرة الاستبداد السياسي الذي تتَّصف به روسيا.

كانت الأنباء الواردة من سان بطرسبورغ، المنشورة في الدوريَّات الإيطاليَّة، خلال زمن الحرب، مؤلَّفة بأغلبيتها من المعلومات المستقاة من أكاديميَّة العلوم

(147) **اللجنة القانونيَّة**: هيئات مشتركة مؤقتة في روسيا في القرن الثامن عشر، كانت تجتمع لتنظيم القوانين التي بدأ سريان مفعولها بعد إقرار مجموعة قوانين عام 1649. (المترجم)

(148) عن مناقشة «التعليمات» في فرنسا، يُنظر: Н. Ю. Плавинская, ««Наказ» Екатерины II во Франции в конце 60- начале 70-х гг. XVIII в.: переводы, цензура, отклики в прессе,» in: *Русско-французские культурные связи в эпоху Просвещения: Исследования и материалы* (М., 2001), с. 9-36.

[ن. ي. بلافينسكايا، «"تعليمات" كاترينا الثانية في فرنسا في نهاية ستينيَّات - بداية سبعينيَّات القرن الثامن عشر: الترجمات، الرقابة، الأصداء في الصحافة»، في: **العلاقات الثقافية الروسيَّة - الفرنسيَّة في عصر التنوير: دراسات ومواد** (موسكو، 2001)، ص 9-36].

(149) **الجمعية الاقتصادية المستقلة**: واحدة من أولى الجمعيات العلميَّة في روسيا. تأسَّست في سان بطرسبورغ في عام 1765، بإشراف الكونت غريغوري أورلوف وبرعاية كاترينا الثانية. وهي في الواقع المنظمة الاجتماعية والعلمية الأولى في روسيا، وسُمِّيَت «المستقلَّة» لأنَّها لم تكن تخضع لأيِّ إدارة أو جهة حكوميَّة. هدفت الجمعية إلى دراسة أوضاع الزراعة وظروف الحياة الاقتصادية في روسيا، وكذلك إلى نشر المعلومات المفيدة للمزارعين، وكانت أول من نشر المعطيات الإحصائيَّة عن أحوال الحقول والتربة والغابات وتجارة القمح وتربية النحل ...إلخ. ظلَّت الجمعية قائمة حتى عام 1919 حين أُعِيدَ تشكيلها في عام 1982. (المترجم)

(150) عن هذه الخطوة الدعائيَّة الناجحة جدًّا التي أقدمت عليها كاترينا، يُنظر: В. А. Сомов, «Вольтер на конкурсе Вольного экономического общества (Две рукописи, присланные из Швейцарии в 1767 г.),» in: *Русско-французские культурные связи в эпоху Просвещения: Исследования и материалы*, с. 37-99.

[ف. أ. سوموف، «فولتير في لقاء الجمعيَّة الاقتصاديَّة المستقلة (مخطوطتان مرسلتان من سويسرا في العام 1767)»، في: **العلاقات الثقافية الروسيَّة - الفرنسيَّة في عصر التنوير: دراسات ومواد**، ص 37-99].

في بطرسبورغ. وسرعان ما لقيت المؤلَّفات المترجمة إلى الإيطاليَّة عن روسيا رواجًا واسعًا في توسكانة: فعلى خلفيَّة انتصارات الجيش والأسطول الرُّوسيين على الأتراك، وازدهار العلوم والأدب، وإصلاحات كاترينا التنويريَّة، بدت النجاحات الحربيَّة استمرارًا طبيعيًّا لآليَّة أَوْرَبَة روسيا التي أطلقها بطرس الأكبر.

كُرِّس فصلٌ خاصٌّ لمسألة العلاقات الثقافيَّة بين الجالية الرُّوسية في توسكانة والأدباء والمثقفين المحليِّين في عمل المؤرِّخ الإيطاليِّ فرانكو فينتوري الموسوعيِّ *Il Settecento Riformatore* (**القرن الثامن عشر، قرن الإصلاحات**)، الذي لم يفقد أهمِّيته حتَّى الآن (المجلد الثالث، الفصل الثالث)[151]. ولأنَّ المؤلِّف فينتوري لم يُترجم إلى اللغة الروسيَّة[152]، فإنَّنا نجيز لأنفسنا تقديم عرضٍ موجزٍ للموضوعات الأساسيَّة لذاك الجزء من العمل المكرَّس للعلاقات الثقافيَّة الروسيَّة في توسكانة.

كان الأباتي جوفاني ديل توركو (1739–1801 على أبعد تقدير) أوَّل من استرعى اهتمام ألكسي أورلوف من بين الموظفين التوسكانيِّين. عمل والده رانييري فالنتينو في جامعة بيزا، حيث تلقَّى ديل توركو علومه فيها. وفي عام 1762، أصبح ديل توركو نائبًا لمسؤول مكتبة الجامعة الرئيس. وفي أثناء عمله في بيزا اعتزم القيام بمجموعة من المشاريع الأدبيَّة، كان من بينها إصدار مجلَّة أدبيَّة، وكذلك وضع شرح مبسَّط لنظام إسحاق نيوتن الذي صدر في عام 1765. وفي عام، 1766 انتقل ديل توركو إلى فلورنسا، حيث عكف على ترجمة **إلياذة** هوميروس مع تعليقات عليها، وصدر الإنشاد الأول منها في عام 1767 مرفقًا بكرَّاس من تأليفه حمل عنوان: **تحليل أشعار هوميروس**

(151) لمزيد من التفصيل، يُنظر: E. Cinnella, «Il Settecento russo di Franco Venturi,» *Cromohs*, vol. 10 (2005), pp. 1-19.

(152) لم يظهر الفصل الثالث من المجلد الثالث («الرُّوس في توسكانة بيترو ليوبولدو») باللغة الروسيَّة كاملًا. يُنظر: Ф. Вентури, «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» in: *XVIII век*, Сб. 10 (Л., 1975), с. 119-126.

[ف. فينتوري، «الأصداء الأدبية النابوليتانية للحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768–1774)»، في: **القرن الثامن عشر**، المجموعة العاشرة (لينينغراد، 1975)، ص 119–126.

**والترجمة الحاليّة**[153]. وعلى الرغم من إخفاق ترجمة الإنشاد الأوَّل، أصدر ديل توركو ترجمة الإنشاد الثاني، ثم «قائمة السُّفن، أو بيوتيا[154]»، إلا أنَّ دراساته توقَّفت عند هذا الحد.

في أثناء وجوده في فلورنسا، دار ديل توركو في فلك مجموعة من المثقَّفين التوسكانيِّين من مثال كوزيمو ماري وتشيزاري بيكاريا وأليساندرو فيري. وكما افترض فينتوري، سعى ديل توركو في فلورنسا إلى تأكيد مكانته في ميدان النَّشاط الثَّقافي، فعمل على البحث عن راعٍ للعلوم والفنون. وأخيرًا، حالفه الحظ في ربيع عام 1769، حين تقاطعت رغباته (واهتماماته السابقة بالثَّقافة الهيلينيَّة) مع مقاصد ألكسي أورلوف الذي وصل إلى توسكانة. وفي عام 1769، أنجز ديل توركو بسرعة غير اعتياديَّة ترجمة **تعليمات** كاترينا الثانية، وأصدرها (مُهداةً إلى أورلوف)[155].

في عام 1770، أي في أثناء وجود الأسطول الروسي في الأرخبيل، أصدر ديل توركو كتابًا عن أوضاع المسرح الإيطاليِّ في عصره. وتوطدت علاقته بالجالية الروسيَّة، مع عودة أورلوف إلى توسكانة في كانون الأول/ ديسمبر 1770. وتدلُّ الحادثة الآتية على ذلك: سارع ديل توركو إلى زيارة أورلوف في الثامن من كانون الأول/ ديسمبر، حين كان الأخير لا يزال في الحجر الصحِّي الإلزامي، بعد عودته من المشرق، حيث استُقبل بقدر كبير من الود. فعانقه أورلوف كصديق، الأمر الذي كانت قوانين المستشفى تحظِّره بحزم. وفي النتيجة، اضطرَّ ديل توركو لتمضية فترة كاملة من الحجر الصحِّي

---

(153) للاطِّلاع على عرض مسهب لأفكار ديل توركو، يُنظر: Venturi, *Il Settecento Riformatore*, pp. 76-78.

(154) المقصود مقاطعة بيوتيا (Boeotia) في اليونان، وهي واحدة من أكثر المناطق عراقة في تاريخ الإغريق القديم، وموطن هرقل وبلوتارخ وبيلوبيد والعديد من الفلاسفة والعلماء وأبطال الإغريق القدامى. (المترجم)

(155) استندت الترجمة إلى الطبعة الفرنسية من **التعليمات** للعام 1769. ظهرت أوَّل مقالة انتقاديَّة لترجمة الأباتي ديل توركو لـ **التعليمات** في فلورنسا في الثالث عشر من نيسان/ أبريل 1770، أي بعد يوم واحد من مغادرة أورلوف والأسطول الروسي الأرخبيل: Ibid., p. 80; *NL*, 1770, 15. 228.

مع أورلوف[156]. ويبدو أنَّ ديل توركو تقدَّم في أيار/مايو 1771 إلى بيترو ليوبولدو بطلب منحه إجازة من مكتبة جامعة بيزا، لاعتزامه القيام برحلة إلى المشرق. لبَّى الأرشيدوق الكبير طلب ديل توركو في الأول من حزيران/يونيو، وفق ما أشار إليه فينتوري، موافقًا بذلك عمليًّا على تحوُّله إلى ما يشبه سكرتير لدى أورلوف. وحصل ديل توركو في اليوم نفسه على الوثائق الضروريَّة لمغادرة توسكانة، علمًا أنَّ سجلَّ جوازات السَّفر الصَّادرة عن السلطات التوسكانيَّة أشار إلى أنَّ سفره مقرَّر لمدة سنة[157].

أمضى ديل توركو عام 1772 كلَّه بعيدًا من توسكانة، حيث طلب في تموز/يوليو من العام نفسه تمديد فترة إجازته، لأنَّه كان لا يزال في بطرسبورغ. وفي عام 1773، أمضى فترة طويلة بصحبة ألكسي أورلوف في الأرخبيل. وعندما غادر الأسطول الروسي حوض البحر المتوسِّط في عام 1775، اضطُرَّ ديل توركو إلى الرجوع إلى بيزا ومعاودة العمل في مكتبة الجامعة المحليَّة، وواصل مراسلة اليونانيِّين العاملين لدى الرُّوس، ومنهم على سبيل المثال بانايوتي ألكسيانو. في ما بعد، عاش ديل توركو في البندقيَّة بعض الوقت (حيث تعرَّف إلى الشاعر والكاتب المسرحي الإيطاليِّ الكبير عصرذاك فيتوريو ألفييري)، ثمَّ في الجزائر (في عام 1784)[158]، وبعد ذلك في إسبانيا، حيث حاول الحصول على أموال كان قد أقرضها للسفير التركي في المغرب أحمد قوجا عبر المحكمة. وانخرط ديل تروكو في أثناء وجوده بإسبانيا في مجموعة معارضة لرئيس الوزراء الإسباني الكونت خوسيه فلوريدبلانك، بزعامة المركيز دي مانكا، ما كلَّفه سنوات عديدة من الاعتقال (بتهمة «سياسيَّة»)، ولم يخرج من سجنه إلا في عام 1791. وفي التسعينيَّات، انتقل ديل توركو إلى المغرب

---

(156) Pietro Verri, *Carteggio Di Pietro E Di Alessandro Verri, vol. 4: Ottobre 1770 Dicembre 1771* (Milano, 1919), p. 92; Venturi, *Il Settecento Riformatore*, p. 83.

(157) ASF, Segreteria e Ministero degli Esteri, Pezzo 2741.

(158) خصَّصت روسيا معاشًا تقاعديًّا لديل توركو في عام 1784. يُنظر في هذا الصدد رسالة نائب المستشار الكونت أوسترمان إلى الوزير المفوَّض في جنوى أ. موردفينوف، بشأن تخصيص معاش تقاعدي للبروفيسور ديل توركو، 26 كانون الثاني/يناير 1784: *АВПРИ*, Ф. 48, Оп. 2, Ед. хр. 4. [أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 48، القائمة 2، وحدة الحفظ 4].

بعد محاولات عديدة للعثور على عمل في مدريد. ولا نعرف شيئًا محدَّدًا عن تاريخ وفاته، وكلُّ ما يمكننا قوله إنَّ ديل توركو لم يكن على قيد الحياة في عام 1801[159].

جذبت عمليَّات الأسطول الروسي الواسعة النطاق انتباه العديد من المغامرين الإيطاليِّين، الذين كان الأباتي ديل توركو من بينهم من دون شك. وليس من المستغرب أنَّه قبيل انطلاق الأسطول الروسي إلى الأرخبيل في بداية عام 1770، وصل إلى توسكانة أيضًا جاكومو كازانوفا، الذي رغب في المشاركة بحملة الأرخبيل، لكي يشاهد سقوط القسطنطينيَّة بأمِّ العين. فاستقبله ألكسي أورلوف الذي كان يعرفه من سان بطرسبورغ على متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة». عرض كازانوفا خدماته مترجمًا وخبيرًا باليونان، غير أنَّ أورلوف وافق على اتِّخاذه صديقًا وحسب. رفض كازانوفا اقتراح أورلوف، وقال جملته الشهيرة: «لن تتمكَّنوا من اجتياز الدردنيل من دوني!»، فأجابه أورلوف: «سوف نرى!». بعد ذلك، غادر كازانوفا ليفورنو[160].

من بين المثقَّفين الأوروبيِّين الذين مارست مؤلَّفاتهم تأثيرًا في فهم روسيا في توسكانة، نخصّ بالذكر فولتير، الذي كانت أعماله رائجة بصورة غير اعتياديَّة في إيطاليا، ولا سيَّما تلك التي تتناول روسيا. وتجدر الإشارة من بين الإيطاليِّين إلى ماركو كولتيلليني صاحب إحدى المطابع في ليفورنو وناشر أعمال فرانتشيسكو ألغاروتي وبيترو فيري[161]، وكذلك جوزيبي بيللي بينتشيفيني الذي انتقل إلى بطرسبورغ في أواسط سبعينيَّات القرن الثامن عشر، وصار واحدًا من شعراء بلاط كاترينا (وقد كان متابعًا للكتابات الأوروبيَّة عن

---

(159) Venturi, *Il Settecento Riformatore*, pp. 74-89.

لمزيد من التفصيل عن ديل توركو، يُنظر أيضًا الفصل التاسع.

(160) لمزيد من التفصيل يُنظر: Donolo, p. 114; Дж. Казанова, *История моей жизни* (M., 1991).

[ج. كازانوفا، قصَّة حياتي (موسكو، 1991)].

(161) A. Wandruszka, *Pietro Leopoldo: Un grande riformatore* (Firenze, 1968), pp. 300-301; R. Risaliti, *Russi a Firenze e Toscana*, vol. 1 (Firenze, 1992), pp. 26-29.

روسيا باهتمام، ومطّلعًا على أعمال لومونوسوف وكانتيمير الأدبيّة)[162]. ويُعتبر الكتاب الصادر في ليفورنو في عام 1771 تحت عنوان: **دراسة عن الأدب الروسي تتضمَّن قائمة بالأدباء الرُّوس البارزين من أيام بطرس الأكبر**[163]، المحاولة الأهم لتعريف توسكانة بالآداب الروسيّة. وأثارت هذه الدراسة التي أعدَّتها المجموعة الأدبيّة - المؤلّفة من إ. ف. بوغدانوفيتش وس. غ. دوماشنيف (الذي كان أيضًا مرافقًا لألكسي أورلوف في الأرخبيل)، والتي ترجمها دومينيك فون بليكفورد إلى الألمانيّة[164]- اهتمامًا كبيرًا لدى المجلات الأدبيّة الإيطاليّة: *Le Novelle Letterarie* **(الروايات الأدبية)** و*Le Notizie Letterarie* **(الأخبار الأدبية)** التوسكانيّتين، و*Le Efemeridi Letterarie* **(المشاعر الأدبية)** الصّادرة في روما، و*La Gazzetta Letteraria* **(المجلة الأدبية)** الصّادرة في ميلانو. وعلى الرغم من الاختلافات الجزئيّة، إلا أنَّ التعليقات اتَّفقت في الرأي على تحقيق الآداب والعلوم نجاحات عظيمة في روسيا، وربطتها بالتطور التنويري العام منذ أيام بطرس الأكبر، قاهر البربريّة الروسيّة البدائيّة.

---

(162) كتابات في دفتر يوميات بيللي بتاريخ الأول من نيسان/ أبريل والتاسع من أيار/ مايو 1770: Pelli Bencivenni G. Efemeridi (1759-1808), pp. 158, 191, at: https://bit.ly/3oSLmec

(163) «Essai sur la littérature russe contenant une liste des gens de lettres russes qui se sont distingués depuis le règne de Pierre le Grand».

(164) ظهر تعليق الصحافي والناشر البندقي المعروف دومينيكو كامينيرغ على الكتيب في عام 1771 في مجلة *L'Europa Letteraria* **(أوروبا الأدبية)**. لمزيد من التفصيل عن النشرة يُنظر: F. Venturi, «Qui est le traducteur de l'essai sur la littérature russe?,» *Revue des études slaves*, t. 38 (1961), pp. 217-221; C. G. De Michelis, «L'Oeuvre de Catherine II en Italie en XVIIIe siècle,» dans: *Catherine II & l'Europe* (Paris, 1997), p. 226.

وبعد ف. فينتوري، يذكر تشيزاري دي ميكليس أيضًا الإصدار: Componimenti poetici di varj autori in lode di Caterina II, augustissima imperatrice di tutte le Russie. Napoli, 1771 (Ibid., p. 225); Вентури, «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» с. 124-126.

[فينتوري، «الأصداء الأدبية النابوليتانية للحرب الروسيّة - التركيّة (1768-1774)»، ص 124-126]. يُنظر أيضًا: С. Гардзонио, «Образ российской империи в итальянской поэзии конца XVIII - начала XIX вв.» in: *Казань, Москва, Петербург: Российская империя взглядом из разных углов* (М., 1997), с. 106-116.

[س. غرادزونيو، «صورة الإمبراطوريّة الروسيّة في الشعر الإيطالي في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر»، في: قازان، موسكو، بطرسبورغ: **نظرة من زوايا مختلفة على الإمبراطوريّة الروسيّة** (موسكو، 1997)، ص 106-116].

أشار ف. فينتوري إلى أنَّ الرأي العام التُّوسكاني كان ميَّالًا إلى روسيا وسياسة كاترينا الثانية على وجه العموم، على الرغم من التزامه جانب الحذر في البداية. وقد دلَّت على ذلك الأصداء الإيجابيَّة على انتصارات الأسطول الروسي في الأرخبيل، التي ظهرت في الصحف التوسكانيَّة، وتحديدًا في صحيفة *Le Notizie del Mondo* (**أخبار العالم**) الفلورنسيَّة التي اقتبسنا منها مرارًا (الأنباء الواردة، سواءٌ أمِنْ توسكانة أم الأرخبيل والدانوب أم من بطرسبورغ).

مع صدور الطبعتين التوسكانيَّتين من **التعليمات**، برز أيضًا اهتمام بسياسة الإمبراطورة الروسيَّة الداخليَّة، بما في ذلك إصلاحاتها الزراعيَّة. وتفاعلت الصحافة الإيطاليَّة بانتظام مع تطوُّر تمرُّد بوغاتشوف. ولاقت رواجًا واسعًا وسريعًا في توسكانة ترجماتُ مؤلَّفات أ. ف. بيوشينغ - سيرة حياة الفيلدمارشال مينيخ (صدرت الترجمة في فلورنسا في عام 1773) - والجزء «الرُّوسي» من كتابه **الجغرافيا الجديدة** (1770)[165]. وأسهمت عمليَّات الأسطول الروسي، في مورية في الوقت نفسه، في زيادة اهتمام التوسكانيِّين باليونانيِّين وبالأحداث الجارية في الأرخبيل، إذ كانت تظهر بشأنها التقارير بانتظام على صفحات صحيفة *Le Notizie del Mondo* (**أخبار العالم**)، وعلى الأرجح بفضل العملاء الرُّوس[166].

إلى الآراء التي أعرب عنها فينتوري يمكن القول إنَّ فلورنسا أصبحت مركز اهتمامٍ زائدٍ من لَدُنِ الرُّوس، ليس بسبب العلاقات السياسيَّة والعسكريَّة بين روسيا وتوسكانة فحسب، بل بوصفها مركزًا ثقافيًّا أوروبيًّا كبيرًا. وقد زار إ. إ. شوفالوف فلورنسا مرارًا، وعاين آثارها ومعالمها، وهذا ما أشارت إليه *La Gazzetta Toscana* (**جريدة توسكانة**) في نبأ من فلورنسا في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1769. ففي القصر الملكي بالاتسيو بيتي، حيث كانت

---

(165) صدرت الترجمة الإيطاليَّة لعدد من مجلدات **الجغرافيا الجديدة** لبيوشينغ، مع وصف مسهب لروسيا تحديدًا. عمليًّا عشية وصول القسم الأساسي من السُّفن الروسيَّة إلى توسكانة التي كانت في طريقها إلى الأرخبيل. يُنظر التعليق على هذه الطبعة في: *NL*, 1770, 3. 33-37; 1770, 5. 68; 1770, 10. 145-146.

(166) Venturi, *Il Settecento Riformatore*, pp. 90-110.

أكاديميَّة ديل تشيمينتو الشهيرة تعقد اجتماعاتها فيه، زار على وجه التحديد «الكابينيتو» (Gabinetto) التي أعيد ترميمها بناءً على أمر أرشيدوق توسكانة الكبير (في الكابينيتو جُمعت مجموعة من الأجهزة العلميَّة ووسائل الرياضيات)[167]. كانت الكابينيتو تحت إشراف الأباتي فيليتشي فونتانا (1730-1805)، عالم الفيزياء والعلوم الطبيعيَّة، الذي أسَّس لاحقًا متحف فلورنسا للفيزياء والعلوم الطبيعيَّة (افتُتِح في عام 1775)، وكان المسؤول عن عمل الأجهزة الخاصَّة المُستخدمة في «أعقد العلوم». أُعجب شوفالوف الذي كان مُلمًّا بالعلوم الطبيعيَّة من دون شك بما رآه، وأهدى فونتانا ميداليَّة ذهبيَّة تزيد قيمتها على الخمسين تسيكين، وتحمل على أحد وجهيها صورة كاترينا وعلى الآخر النص الآتي: **المعبد الذي تتلقَّى الإمبراطورة فيه من الآلهة القوانين لحكم الشعوب الخاضعة لها**[168]. وبوجهٍ عامٍّ، كتبت الصحافة التوسكانيَّة عن رحلات شوفالوف الإيطاليَّة قائلةً إنَّه كان يحرص على التعرُّف إلى الأشخاص الأكثر علمًا وثقافة في كلِّ مدينة، وكان يمنحهم الميداليَّات الذهبيَّة باسم كاترينا، على غرار ما فعل في فلورنسا[169].



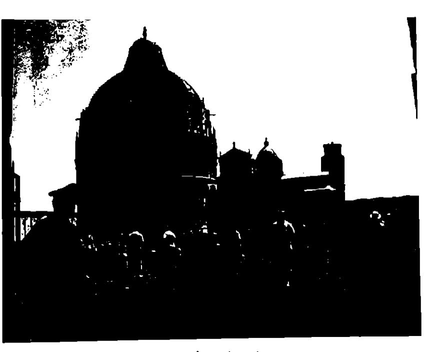
فلورنسا، كنيسة سانتا كروتشي

(167) يُنظر القائمة الكاملة بهذه الوسائل، في: ASF, Imperiale e Reale Corte, Pezzo 5249.

(168) *GT*, 1769, 41. 163.

(169) *GT*, 1769, 45. 180-181.

في العاشر من نيسان/ أبريل، 1771 انتُخب الأخَوَان أورلوف، ألكسي (غيابيًّا على الأرجح) وفيودور، بالإجماع عضوين في أكاديميَّة «Etrusca» (التوسكانية) في كورتون (بالقرب من أريتسو)، حيث أبلغ نائب سكرتير الأكاديميَّة ومسؤول المراسم (hofmeister) لدى أرشيدوق توسكانة الكبير المركيز فينوتي، الأخوين أورلوف بخبر انتخابهما في رسالة موجَّهة إليهما من ليفورنو. وفي تموز/ يوليو، 1771 قدَّم الأخوان أورلوف هديَّة خاصَّة إلى الأكاديميَّة وُضعت في متحفها، وهي عبارة عن عُدَّة حصان تتألَّف من سرج مكسو بمخمل أسود وأردية من الفضة الصَّلبة وأزهار من الذهب، وغمامات وشكيمة ورِكَاب ولجام وفتحات للمسدَّسات وسوط ومهماز؛ وكانت كلُّها مرصَّعة بالأحجار الكريمة بأسلوب شرقي. كانت كلُّ هذه الأشياء ملكًا لمساعد أحد الباشاوات الأتراك، قائد الأسطول في معركة شيسما، وكانت ضمن الغنائم التي ظفر بها الرُّوس في المعركة[170].


بيزا، ساحة العجائب

غدت بيزا، فضلًا عن ذلك، مركزًا لسياسة ألكسي أورلوف التعليميَّة. فقد ذكرت الصحافة الأوروبيَّة أنَّه وصلت إلى ليفورنو في 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1773 فرقاطة قادمة من باروس وعلى متنها 26 صبيًّا و12 فتاة (ما مجموعه 36 شخصًا بحسب معلومات أخرى) من أُسَرٍ يونانيَّة. وبعد فترة الحجر الصحِّي التي انتهت في تشرين الثاني/ نوفمبر 1773 توجَّه الجميع إلى بيزا[171]، ليكونوا في عداد تلامذة

(170) *GT*, 1771, 18. 71, 28. 112.

(171) نقل القبطان دافيدوف على متن السَّفينة نفسها ثلاثة أحصنة عربية، تخصُّ ألكسي =

المدرسة التي أنشأها أورلوف تنفيذًا لأمر كاترينا، ألا وهي المدرسة الرُّوسية اليونانيَّة[172]. ويبدو أنَّ مجموعة أخرى من الفتيان والفتيات اليونانيِّين وصلت إلى ليفورنو قبل فترة وجيزة - في التاسع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر - آتية من جزيرة زانت، على متن سفينة تجاريَّة يونانيَّة. واحتُفِلَ بافتتاح المدرسة في الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر - الخامس من كانون الأول/ ديسمبر 1773، الواقع فيه يوم شفيعة الإمبراطورة الروسيَّة. فنظِّم بهذه المناسبة حفل خاص للنُّبلاء الرُّوس والتوسكانيِّين[173]. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1773، وصلت أعداد أخرى من اليونانيِّين الشباب الذين خُصِّص لهم 120 مقعدًا في المدرسة الجديدة. درس التلامذة الفنون، وتلقَّوا الغذاء والرعاية على حساب الإمبراطورة. فضلًا عن ذلك، كان من المفترض، بناء على أمر كاترينا، أن تُنشأ مدرسة أخرى في توسكانة لنحو ستِّين شخصًا، لتعليمهم مختلف أنواع المهن. وكان ابن بيزا، تشيزاري ستودياتي، هو مدير هاتين المؤسَّستين التعليميَّتين[174].

---

= أورلوف: GT, 1773, 44. 176.

(172) كان هؤلاء تلامذة المدرسة التي أنشئت سابقًا في جزيرة ناكسوس (يُنظر الفصل الخامس).

(173) حقَّق الموسيقار الروسي الشهير مكسيم بيريزوفسكي، الذي تلقَّى علومه وعاش في إيطاليا، نجاحًا باهرًا في أثناء كرنفال شباط/ فبراير 1773 ذاته بفضل مسرحيَّاته الأوبراليَّة.

(174) GT, 1773, 44. 176, 47. 188, 50. 199, 1774, 3. 11; *NM*, 1773, 85. 696, 87. 712, 93. 760.

كان الكونت د. موتشينيغو (يُنظر الفصل السادس، الهامش 17) هو الذي أرسل الأطفال اليونانيين إلى ليفورنو، تجسيدًا لفكرة إرسالهم إلى روسيا «لتربيتهم، ممَّا يُسهِم في استعادة العلاقات بين روسيا واليونانيين في المستقبل، وهذا ما حصل»: [С. Р. Воронцовт] Граф Моцениго, «Эпизод из Первой Турецкой войны при Екатерине II-й, рассказе графа С. Р. Воронцова,» in: *Русский архив*, 1878, no. 12.

[[ س. ر. فورونتسوف] الكونت موتسينيغو، «مشهد من الحرب التركية الأولى في عهد كاترينا الثانية، في حديث الكونت س. ر. فورونتسوف»، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، العدد 12].

لاحقًا، وصل قسم من الشبان اليونانيّي الأصل إلى روسيا. وفي مرسوم ملكي بتاريخ التاسع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1774 أمرت كاترينا الجنرال المهندس م. إ. موردوفين بإنشاء مدرسة في أورانيناوم للفتيان اليونانيِّين الذين اختيروا في الأرخبيل: «يرسل الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، تنفيذًا لرغبتنا، إلى هنا الفتيان اليونانيِّين الذين اختيروا في الأرخبيل، وعددهم قد يبلغ المئتين على وجه التقريب. ولذا، فإنَّنا نرغب في أن تنشئوا لهم مسبقًا مدرسة، وأفوِّضكم وضع خطَّة وكشفٍ تقديريٍّ بكلفتها...»: = *СбРИО*, t. 27 (СПб., 1880), c. 5.

لأغراض ثقافيَّة أيضًا، قدَّم ألكسي أورلوف للنبلاء التوسكانيين والإنكليز في ليفورنو، أحد العروض المشهديَّة الأكثر تعبيرًا، وتمثَّل بتفجير إحدى السُّفن الروسيَّة القديمة الراسية في المرفأ المحلِّي(175). ففي السادس والعشرين من نيسان/ أبريل 1772، توجَّه الكونت مع قسم كبير من حاشيته وضبَّاط روس من بيزا إلى ليفورنو، لحضور المسرحيَّة التي انتهت بمشهد السَّفينة المحترقة في مرفأ ليفورنو. ولتفسير هذا التصرُّف الغريب للوهلة الأولى، إن لم يكن الشاذ، الذي أقدم عليه القائد العسكري الروسي، لا بدَّ من العودة بضع سنوات إلى الوراء.

أمرت كاترينا في عام 1770 إ. إ. شوفالوف، الموجود حينذاك في روما، بالعثور على فنَّان يرسم سلسلة من اللوحات تتناول انتصار الأسطول الروسي في معركة شيسما، رغبةً منها في تخليده. وحصل شوفالوف في سعيه هذا على مساعدة من يوحنا فريدريك رايمينشتاين، المؤرِّخ الألماني المعروف، المقيم في روما أيضًا، الذي كان على علاقة بالبلاط الروسي. فوقع خيارهما على الرسَّام البروسي الشهير ياكوب فيليب هاكيرت(176). وفي أيلول/ سبتمبر 1770، تلقَّى هاكيرت عرضًا رسميًّا من شوفالوف مع وعد بمكافأة سخيَّة لقاء عمله.

---

= [مجلدات الجمعية التاريخية الروسيَّة، مج 27 (سان بطرسبورغ، 1880)، ص 5]. لمزيد من التفصيل، يُنظر: Г. Л. Арш, *Этеристское движение в России: Освободительная борьба греческого народа в начале XIX в. и русско-греческие связи* (М., 1970), с.134.

[غ. ل. آرش، **الحركة التحررية اليونانيَّة في روسيا: نضال الشعب اليوناني التحرُّري في بداية القرن التاسع عشر والاتصالات الروسية - اليونانية** (موسكو، 1970)، ص 134].

(175) كُرِّس عمل خاص لتناول هذا الموضوع، هو: Donolo, «Il conte Aleksej Orlov e il pittore Jacob Philipp Hackert a Livorno, teatro virtuale della battaglia di Cesmé».

(176) عن علاقات هاكيرت الروسيَّة، يُنظر: Л. Ю. Савинская, «Письма Я. Ф. Хаккерта князю Н. Б. Юсупову. К истории коллекционирования в России 1770-80-х годов,» in: *Памятники культуры. Новые открытия: Письменность, Искусство, Археология (Ежегодник, 1989)* (М., 1990), с. 232-240.

[ل. ي. سافينسكايا، «رسائل ي. ف. هاكيرت إلى الأمير ن. ب. يوسوبوف. حول تاريخ جمع التحف الفنية في روسيا»، في: **آثار الثقافة، اكتشافات جديدة: الآداب، الفن، علم الآثار (الكتاب السنوي، 1989)** (موسكو، 1990)، ص 232-240].

وصل هاكيرت إلى ليفورنو في منتصف كانون الأول/ديسمبر 1770 ليطَّلع من أورلوف شخصيًّا على محتوى اللوحات المفترض؛ واستمرَّ العمل على الرسوم التخطيطيَّة في روما خلال عام 1771. وفي تشرين الأول/أكتوبر منه وافقت الإمبراطورة على خطَّة هاكيرت[177]. وبعدئذٍ وقَّع شوفالوف عقدًا مع الفنَّان، ولحَظَ الاتفاق حجم اللوحات وموضوعاتها، وكذلك قيمة العمل الإجماليَّة التي بلغت 12 ألف فلورين، وهو مبلغ كبير جدًّا بمقاييس ذاك العصر. وفي بداية عام 1772، حمل هاكيرت شخصيًّا مسوَّدة اللوحة الأولى إلى ليفورنو لعرضها على ألكسي أورلوف العائد من الأرخبيل، فأمر بوضع اللوحة الأولى في قاعة منزله الكبرى بـ «بيزا»، حيث كان بمقدور الضبَّاط الرُّوس إعطاؤها حقَّها من التقدير. والأمر الوحيد الذي لم يحظ بإعجاب أورلوف بعض الشيء هو منظر السَّفينة المحترقة في اللوحة الثانية التي وصلت من توسكانة؛ فرأى أنَّه من الممكن تحقيق تشابهٍ كبيرٍ مع الواقع على النحو التالي: إحراق إحدى السُّفن غير القابلة للترميم، لكي يتمكَّن هاكيرت من رؤية الحريق وألوانه وعمقه، وسطوع النار وارتفاعها، وعمود الدخان وانعكاس النار في المياه. وتقرَّر القيام بذلك في مرسى ليفورنو ليلًا، بحيث تُستعاد المعركة التي وقعت في خليج شيسما قبل عامين بهذا القدر أو ذاك من الصدقيَّة البصريَّة[178].

وصل أورلوف إلى ليفورنو في الساعة السادسة من مساء السادس والعشرين من نيسان/أبريل، برفقة الأرشيدوق غلوستير والضَّابطين الإنكليزيَّين العقيد رينسفورد والرائد هيوورد، ونزلوا جميعًا في منزل القنصل ديك، حيث أقيم حفل استقبالٍ رسمي شارك فيه محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي وضبَّاط توسكانيُّون محليُّون، ثم قُدِّمت مسرحيَّة في المسرح المحلِّي.

---

(177) لوحات ستٌّ: هجوم الرُّوس على الأتراك نهار الخامس من حزيران/يونيو (بحسب التقويم الجديد)، على خلفيَّة اللوحة - غير بعيد من خليج شيسما؛ معركة الخامس من حزيران/يونيو والحريق على سفينتين لنائب الأميرال؛ اندحار الأتراك في خليج شيسما؛ استعدادات الأسطول الروسي قبيل الهجوم الأخير؛ إحراق الأسطول التركيِّ ليل السابع من حزيران/يونيو؛ إبحار القوَّات الرُّوسية المظفَّرة من شيسما مع عددٍ من السُّفن الأسيرة (سفينة وأربعة مراكب).

(178) Donolo, pp. 119-122.

وفي مساء اليوم التالي، في السابع والعشرين من نيسان/ أبريل، وصل عدد كبير من الأرستقراطيِّين التوسكانيِّين من بيزا وفلورنسا إلى ليفورنو لحضور المشهديَّة الموعودة. ومساء الثامن والعشرين من الشهر نفسه، قُدِّمت أخيرًا المشهديَّة المنتظرة: أُشعِلَت النيران في السَّفينة الروسيَّة الراسية على مسافة أربعة أميال من المرفأ، فاحترقت على مرأى من الجمهور الرفيع المقام. وفي الساعة التاسعة من صباح التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل، وبعد تبادل التحيَّات الرسميَّة مع المحافظ بوربون ديل مونتي، صعد الأرشيدوق غلوستير إلى متن الفرقاطة الإنكليزيَّة «ألارم» (المنبه)، وغادر متوجِّهًا إلى نيس. وقد ظلَّ ألكسي أورلوف مرافقًا لغلوستير حتَّى اللحظات الأخيرة[179]، بحسب ما أفادت الصحف المحليَّة.

أخيرًا، كان الاهتمام الذي أولاه كلٌّ من كاترينا وألكسي أورلوف بالشاعرة الفلورنسيَّة المعروفة في منتصف القرن الثامن عشر ماريا مادالين موريللا فرنانديس (1727-1800) أحد المعالم البارزة في تاريخ العلاقات الثقافيَّة الروسيَّة - التوسكانيَّة[180]. عُرفت هذه الشاعرة أيضًا باسم كوريللا أوليمبيكا، واشتُهِرت بنظم الشعر الارتجالي الرائع، وكانت صاحبة صالون موسيقي أدبي ذائع الصيت. وأصبحت كوريللا في عام 1765 شاعرة البلاط لدى بيترو ليوبولدو، وبقيت في توسكانة حتَّى عام 1775. كما تعرَّف ألكسي أورلوف إلى الشاعرة الفلورنسيَّة في شهر شباط/ فبراير من عام 1770 في أثناء حضوره كرنفال فلورنسا. وكانت ثمرة اللقاء، على ما يبدو، ظهور ديوان ثلاثيَّات كوريللا:

«Il signor Conte Alessio Orlow plenipotenziario e general comandante in capite dell'armata di S.M. l'Imperatrice di tutte le Russie nei mari di levante, cav. di diversi ordini etc. senza data, in 4)».

---

(179) Ibid., pp. 125-129; *GT*, 1772, 18. 71-72; *NM*, 1772, 35. 298.

(180) يُنظر على سبيل المثال: Ч. Бёрни, *Музыкальные путешествия: Дневник путешествия 1770 г. по Франции и Италии* (Л., 1961), с. 113.

[ش. بيورني، رحلات موسيقية: يوميات رحلات العام 1770 في فرنسا وإيطاليا (لينينغراد، 1961)، ص 113].

[«السيد الكونت ألكسي أورلوف، قائد جيش صاحبة الجلالة، إمبراطورة عموم الروسيا في بحار المشرق، حامل العديد من الأوسمة ...إلخ»][181].

بدأ منذ عام 1770 التعاون (وربما المراسلة)[182] بين كوريللا وكلٍّ من كاترينا وأورلوف، بحيث بلغ ذروته، على ما يبدو، في عامي 1773 و1774. وفي عام 1773 أرسل أورلوف - الموجود حينذئذٍ في جزيرة باروس - هديَّة إلى موريللا فرنانديس عبارة عن قطعة قماش لثوب من الديباج المذهَّب يدويِّ الصنع[183]. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه، ردَّت كوريللا على كاترينا الثانية برسالة شعريَّة «أنيقة» نُشِرَت في الصحيفة الفلورنسيَّة الأدبيَّة *Novelle letterarie* (**الروايات الأدبية**)، مجَّدت فيها «المرأة الجالسة على العرش، التي سوف يبقى مجدها يثير الإعجاب في العصور القادمة، تمامًا كما في عصرنا الراهن (القرن الثامن عشر - المؤلفة)»:

Odi l'Epica tromba altisonante,
Odi l'Istoria, che di Lei ragiona
Al Tempo attento che le sta davante
Vibrandosi sull'ali
A raccoglier le gesta alme immortali,
Non gia per farne il fero usato scempio,
Ma perchй fi n ch'ei batta i vanni suoi
Vuol porle innanzi ai Regi ed agli Eroi
Utile sempre e tormentoso esempio[184]

---

(181) A. Ademollo, *Corilla Olimpica* (Firenze, 1887), p. 127.
ليس تاريخ صدور الديوان معروفًا على نحوٍ دقيق، بل يرد ذكر ديوان الثلاثيات في عام 1773 عند صدوره في بطرسبورغ: *NL*, 1773, 48. 756; A Sua Eccelenza il Sig. Conte Alessio Orlow plenipotenziario e general comandante in capite dell'armate di Sia Maesta' l'Imperatrice di tutte le Russie nei mari de Levante cavaliere di diversi ordini &c. &c. &c. Corilla Olimpica. [SPb.], 1773; A. Cipriani, «Una donna forte del Settecento,» *Pistoia Programma*, no. 41 (1988), pp. 17-24.

(182) Ademollo, pp. 118-119.
راسلت كوريللا أيضًا الجنرال باسكاولي باولي (المرجع نفسه).

(183) *NM*, 1773, 16. 127; *GT*, 1773, 9. 33.

(184) *NL*, 1773, 48. 757-758.
[الترجمة: «اسمع النفير الملحمي المدوِّي، اصغِ إلى صوت التاريخ الذي يحكي عنها أمام الزمن، الواقف أمامها متيقِّظًا، يخفِّق بجناحيه، يجمع المآثر البطولية الخالدة. ولكن ليس لتعريضها =

وصلت أبيات موريللا فرنانديس الشعريَّة إلى مسامع الإمبراطورة الروسيَّة على الفور. وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1774، وصل رسول من بطرسبورغ إلى فلورنسا، ثم انتقل إلى ليفورنو، وعلم منه الجميع في المدينة أنَّ كاترينا الثانية أعربت عن اغتباطها بأشعار كوريللا، ووهبتها 500 تسيكين[185]. وفي الأول من تموز/ يوليو 1774، وبعد عودته إلى توسكانة بفترة وجيزة، جاء ألكسي أورلوف خصِّيصًا إلى فلورنسا، لكي يقدِّم هديَّة إلى كوريللا باسم الإمبراطورة الروسيَّة (عربون شكر على أبياتها الشعريَّة أيضًا)، عبارة عن علبة نُشُوقٍ مطليَّة بالذهب، مرصَّعة بقطع الماس ملونة[186]. واقترحت كاترينا حينذاك على كوريللا الانتقال إلى بطرسبورغ، فتكون تحت رعايتها، إلا أنَّ الشاعرة رفضت متذرِّعة بظروف عائليَّة (ضرورة الاعتناء بابنة شقيقتها). فما كان من الإمبراطورة إلا أن خصَّصت لها معاشًا سنويًّا قدره 100 تسيكين، ثبَّته بافل الأول من بعدها[187]. واستمرَّت كاترينا في مراسلة كوريللا لاحقًا. وكرَّرت في عام 1779 مجدَّدًا دعوتها موريللا فرنانديس بالانتقال إلى بطرسبورغ. وطلبت من البارون غريم إقناعها بذلك. غير أنَّ الشاعرة رفضت هذه المرَّة أيضًا، متخوِّفةً من السفر الطويل والبرد الروسي، بحسب ما أفاد بعضهم[188]. ومهما كان من أمرٍ، فإن نشاط كوريللا في سبعينيَّات القرن الثامن عشر يدلُّ على طابع التعاون الثقافيِّ المكثَّف؛ إذ يبدو أنَّ إبداع كوريللا حظي بتقدير الإمبراطورة الرُّوسية والمقرَّبين منها، لأنَّه وفَّر للإمبراطوريَّة الدَّعم

---

= للدمار المعتاد الجائر، بل يبقى يخفِّق بجناحيه، يرغب في عرضهما على الملوك والأبطال، كمثالٍ أليم، إنَّما مفيد دائمًا»]. (المترجم)

(185) *NM*, 1774, 8. 63; *GT*, 1774, 5. 17.

(186) *NM*, 1774, 53. 424; *GT*, 1774, 28. 110.

(187) Ademollo, p. 117; L. Morelli, «Due donne del '700, in una ricerca della Provincia di Firenze,» in: A. Giordano, *Letterate Toscane del Settecento. Un regesto* (Firenze, 1994), p. 273; «Elogio della Celebre Poetessa D. Maddalena Fernandez, sotto il Pastoral nome di Corilla Olimpica,» (BNCF, Rossi-Cassigoli, MSS, Misc. 29. III); *Il carteggio tra Amaduzzi e Corilla Olimpica (1775-1792)*, a cura di Luciana Morelli (Firenze, 2000), p. 207.

(رسالة كوريللا بتاريخ السابع والعشرين من أيار/ مايو 1782).

(188) *Il carteggio tra Amaduzzi e Corilla Olimpica (1775-1792)*, p. xi.

الأيديولوجيَّ الضروريَّ في أوساط المثقَّفين الإيطاليِّين[189] والأوروبيِّين الغربيِّين بوجهٍ عام.

## الأعياد الروسيَّة في توسكانة

مع وصول الرُّوس إلى توسكانة، ازدهرت روزنامة أيَّام الأعياد التي ازداد عددها. فإلى جانب الأعياد الكاثوليكيَّة صارت الاحتفالات تجري هنا خلال فترة 1769-1775 لمناسبة الأعياد الكنسيَّة الأرثوذكسيَّة، و«الأعياد الرسميَّة المَهيبة» و«أعياد النصر»[190]، سواء في الأرشيدوقيَّة أم في الإمبراطوريَّة الروسيَّة، وكانت تتوالى الاحتفالات من دون توقُّف أحيانًا، لمناسبة وصول الدبلوماسيِّين والقادة العسكريِّين الرُّوس أو سفرهم، فضلًا عن النشاطات الخيريَّة.

كانت الاحتفالات «الروسيَّة» تتميَّز من حيث المشاركين أيضًا: الضبَّاط والجنود الرُّوس، بحَّارة البلدان الصديقة لروسيا (إنكلترا بالدرجة الأولى، وكذلك هولندا والدانمارك)، وكبار المسؤولين والرَّعايا العاديِّين لدى أرشيدوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو.

كان النُّبلاء الرُّوس والتوسكانيُّون هم الذين ينظِّمون الاحتفالات الرَّامزة إلى طابع العلاقات الودِّي بين الدولتين. فكان مثل هذه الاحتفالات يُجرى عشيَّة وصول العمارة البحريَّة الروسيَّة إلى ليفورنو أو مغادرتها، حيث كان المنظِّمون يسعون بذلك إلى استمالة ممثِّلي النُّخبة الاجتماعيَّة والسياسيَّة المحليَّة. وبدهيٌّ أنَّ هذا النوع من النشاط كان يخفت مع بدء الأعمال القتاليَّة في الأرخبيل ومغادرة أغلبيَّة السُّفن الروسيَّة ليفورنو.

---

(189) فضلًا عن ذلك، كان لدى أ. غ. أورلوف وهيئة أركانه علاقات وثيقة مع الهيلينيِّين الإيطاليِّين، الذين اضطلعوا بدورٍ معيَّن في تكوُّن الفكرة الوطنيَّة اليونانيَّة (يُنظر الفصل التاسع بهذا الخصوص).

(190) **الأعياد الرسميَّة المَهيبة**: هي الاحتفالات بعيد ميلاد صاحب الجلالة الإمبراطوريَّة وأفراد الأسرة المالكة وعيد شفيعه، وكذلك عيد التتويج والجلوس على العرش. وكانت تُقام القداديس وتُتلى التراتيل في الكنائس، خصيصًا في هذه المناسبات؛ **أعياد النصر**: هي الاحتفالات بانتصارات الجيش الروسي في حروبه ومعاركه مع الأعداء، وقد بدأ الاحتفال بها منذ أيام بطرس الأكبر. (المترجم)

كان إ. إ. شوفالوف هو من أرسى بداية «الموسم الرُّوسي» في توسكانة، في صيف عام 1769. فهو الذي نظَّم الاحتفالات الباذخة التي شارك فيها أول مرة الثنائي الأرشيدوقي: بيترو ليوبولدو وماريا لودفيكا. وليس من المستبعد أنَّ بروز شوفالوف في مقدِّمة الصورة لم يكن من قبيل المصادفة، وإنَّما لحرف الانتباه عن ألكسي أورلوف إلى حدٍّ بعيد، إذ كان يحضر الاحتفالات مع عدم كشفه أهداف وجوده الحقيقيَّة في توسكانة.



ماريا لويزا. زوجة دوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو

في 18-26 تموز/يوليو 1769 وصل إ. إ. شوفالوف إلى منتجع المياه المعدنيَّة في بلدة سان جوليانو الصغيرة، الواقعة على مقربة من بيزا، حيث استأجر شقَّة. وسرعان ما أقام حفلًا راقصًا في جمعيَّة النُّبلاء المحليَّة، دعي إليه النُّبلاء الرُّوس والتوسكانيُّون. وكان من المفترض ألَّا يكون هذا الحفل الأخير، بل إن الحفلات الراقصة ستتكرَّر في الأيَّام القريبة. فقد كان من المقرَّر إقامة حفل خاصٍّ لمناسبة وصول الكونت أ. غ. أورلوف إلى سان جوليانو[191]. وقد ذكرت الصحف آنذاك أنَّ أ. غ. أورلوف وإ. إ. شوفالوف والأمير ف. أ. كوزلوفسكي وأربعة ضبَّاط روس، زاروا ليفورنو بضع ساعات في مساء الخامس من آب/أغسطس (بحسب التقويم الجديد)، ثم عادوا إلى سان جوليانو في الليلة نفسها[192]. وفي السابع من آب/أغسطس، أقامت المركيزة الرفيعة النَّسب ليلا ماريا بالافيتشيني مأدبة غداء على شرف شوفالوف والنُّبلاء الرُّوس الآخرين. وفي مساء التاسع من الشهر نفسه، أقيم الحفل الراقص التالي

(191) *GT*, 1769, 31. 125.

(192) *NM*, 1769, 64. 524.

في جمعيَّة النُّبلاء بِسان جوليانو، حيث كان ألكسي أورلوف هذه المرَّة هو صاحب الدعوة[193].

في الثاني عشر من آب/أغسطس 1769 استقبل بيترو ليوبولدو وزوجته ماريا لودفيكا ألكسي أورلوف في بيزا. وورد في الأنباء الرسميَّة أنَّ أورلوف «حامل العديد من الأوسمة، وهو الآن جنرال ليفيتنانت في الجيش الرُّوسي»[194]. ووجَّه أورلوف إلى الأرشيدوق وزوجته دعوة لحضور الحفل الرَّاقص المقرَّرة إقامته بِسان جوليانو في الثالث عشر من آب/أغسطس (بعد أربعة أيام فقط من الحفل السابق). وأُخطِرَ إ. إ. شوفالوف مسبقًا بزيارتهما، فأمر برشِّ قسمٍ من الطريق، من بيزا إلى سان جوليانو، بالمياه للتخفيف من الغبار، الأمر الذي أذهل التوسكانيِّين. افتُتِح الحفل الرَّاقص عند وصول بيترو ليوبولدو على الفور، واستمر حتَّى ساعة متأخِّرة من الليل، وتميَّز بقدر كبير من البذخ، بحسب ما أفادت الصحف التوسكانيَّة. وقف أورلوف أمام



بيترو ليوبولدو وأسرته

(193) *GT*, 1769, 33. 133.

(194) *GT*, 1769, 33. 133.

الجمهور بثوب مُوَشّى بالأحجار الكريم، ما دلَّ من حيث الشَّكل على مستوى التمثيل الرفيع في الحفل. ومن بين مزايا اتَّسم بها هذا الحفل أنَّه نُوِّه بالإضاءة الممتازة وبحضور أصحاب المقامات الرفيعة المحليِّين والأجانب، فضلًا عن كمٍّ الطعام الوفير. وإضافةً إلى ذلك، أُنيرَت بواسطة المصابيح والمشاعل واجهات ثلاثة قصور في سان جوليانو ومنازل الساحة الرئيسة والنوافير وواجهة جمعيَّة النُّبلاء، وذلك بأمر من شوفالوف[195].

كما نُظِّمت احتفالاتٌ خاصَّةٌ للفئات الدنيا من سكَّان سان جوليانو، إذ أمر شوفالوف بفتح جناح خاصٍّ في السوق المحليَّة أمام الجمهور، وتجهيز خشبة مسرح خاصَّة للموسيقيِّين، بحيث تكون المساحة المخصَّصة للرقص واسعة إلى أقصى ما يمكن. ووُزِّع في الوقت نفسه الخبز واللحوم المقدَّدة على الفقراء على نفقة شوفالوف، وسُمح لهم بالشرب من نافورة يتدفَّق منها النَّبيذ (من خزانات ضخمة سعتها 30 برميلًا)، أقيمت خصِّيصًا، وذلك من الساعة الثامنة حتَّى منتصف الليل. وتشير الأخبار إلى أنَّ الاحتفالات اتَّصفت بحُسن التنظيم، حتَّى إنَّه لم يقع حادث واحد، برغم احتشاد عددٍ كبيرٍ من الناس، وقد تحقَّق ذلك بفضل وجود عددٍ كبيرٍ من جنود حامية بيزا في المكان، كما تشير الأخبار نفسها[196].

هكذا، أتاح تنظيم احتفالات آب/أغسطس في سان جوليانو لألكسي أورلوف التخلِّي نهائيًّا عن دور الرحَّالة الرفيع المقام «أوستروفوف» شبه السرِّي،

---

(195) عن سلسلة الاحتفالات والاستقبالات هذه كتب سفير روسيا في فيينا د. م. غوليتسين إلى نائب المستشار أ. م. غوليتسين من فيينا في الثاني من أيلول/ سبتمبر 1769 يقول: «يشرفني أن أضع بين أيديكم الصحيفة الإيطاليَّة المرفقة، مع رجاء قراءة المقالة التي أشرت إليها في النهاية. فهي تتحدَّث عن لقاء السيِّدين الكونتين أورلوف مع أرشيدوق توسكانة الكبير، وعن الاحتفال الذي أقاماه مع السيد شوفالوف في اليوم التالي، وحضره صاحبا الجلالة الملكية وكبار النُّبلاء من أنحاء بيزا. إنَّ السَّادة أبناء وطننا، إذ يُولِمون على هذا النحو للشعب الميَّال نحو الاحتفالات الترفيهيَّة، فإنهم يكتسبون تعاطفه ويجعلونه يشعر بالأسى عند مغادرتهم»: К биографии графа А. Г. Орлова Чесменского, с. 271-272;
[سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، ص 271-272 (النص الأصلي بالفرنسية)].
وجاء في التعليق على المقالة: «ورد في الصحيفة الملحقة، إضافة إلى ما سبق، أنَّ الأرشيدوق التُّوسكاني بقي في الحفل حتى الساعة الثانية ليلًا، وأنَّ الكونت أورلوف الذي تميَّز بالحفاوة البالغة كان يرتدي ثوبًا مُوشّى باللآلئ الباهظة الثمن» (المرجع نفسه، ص 272).

(196) *GT*, 1769, 33. 133; *NM*, 1769, 66. 540.

هذا الرجل الذي جاء لتلقِّي العلاج وللدخول في اللعبة السياسيَّة المكشوفة. فهو لم يعد بعد اليوم بحاجة إلى غطاء دبلوماسي من إ. إ. شوفالوف، بل أصبح هو بالذات أفضل منظِّم للاحتفالات الرئيسة في أرشيدوقيَّة توسكانة. غير أنَّ سخاءه الذي كان عبئُه يقع على الخزينة الروسيَّة لم يذهب هباءً على الإطلاق؛ إذ تشير المصادر إلى أنَّ الفلورنسيِّين وسكَّان بيزا وليفورنو كانوا يحبُّون أورلوف لسخائه الذي لا حدود له[197]. ومن ذلك أنَّ سفير سردينيا في توسكانة الأباتي برونو دي زيموني يتحدَّث عن حجم إنفاق أورلوف في تلك الفترة، مؤكِّدًا أنَّ معطياته تشير إلى أنَّه كان يتلقَّى من أمستردام 20 ألف تسيكين شهريًا[198].

غالبًا ما كانت مآدب الغداء الاحتفاليَّة التي كانت تقام على نفقة الضبَّاط الرُّوس تقترن بهدايا يقدِّمها أورلوف باسمه أو باسم كاترينا الثانية إلى التوسكانيِّين، الذين يقدِّمون الخدمات إلى الأسطول الروسي، ومن بينهم

(197) F. Becattini, *Vita pubblica e privata di Pietro Leopoldo d'Austria, granduca di Toscana poi imperatore Leopoldo II*, Seconda edizione (Siena, 1797), pp. 102-103; Ademollo, p. 127; M. A. Timpanaro Morelli, *Autori, stampatori, librai: Per una storia dell'editoria in Firenze nel secolo XVIII* (Firenze, [1969]), pp. 450-451.

يُنظر أيضًا المشهد الآتي: في عام 1770، وفيما كان ألكسي أورلوف في ساحة ليفورنو الرئيسة، فقد قطعة ماس كبيرة سقطت من خاتمه. فأعلن على الفور عن جائزة قدرها 30 تسيكين لمن يعثر عليها. وشاءت المصادفة أن يجدها فقير وجاء بها إلى صائغ محلِّي طالبًا مبلغًا زهيدًا من المال مقابلها. فما كان من الصائغ، الذي أدرك على الفور ما جاء به الفقير، إلا أن اصطحبه إلى محافظ ليفورنو، الذي منح الرجل الفقير الثلاثين تسيكين الموعودة، وسلم قطعة الألماس إلى صاحبها: *GT*, 1770, 15. 60; Donolo, p. 114.

(198) تقرير بتاريخ السادس والعشرين من شباط/ فبراير 1770: AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

أنفق ألكسي أورلوف هذه النقود، على سبيل المثال، في أثناء الكرنفالات الفلورنسيَّة الشهيرة. ففي 21 حزيران/ يونيو 1772، توجَّه أورلوف بصحبة عدد من الضبَّاط الرُّوس إلى فلورنسا، حيث استقبلهم الأرشيدوق الكبير والأرشيدوقة في الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه. وتلقَّى أورلوف في أثناء وجوده في فلورنسا دعوة من رئيس أخوية فرسان مالطا كورسيني إلى مأدبة غداء أقيمت على شرف سفراء الدول الأجنبية، ولنبلاء البلاط والأرستقراطيَّة المحليَّة. وأرجأ النُّبلاء الرُّوس سفرهم من فلورنسا، رغبةً منهم في حضور سلسلة من الاحتفالات التقليدية، بما في ذلك الاحتفال في ساحة سانتا كروتشي، الذي جرى في الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو. وبعد انتهاء الاحتفال عاد أورلوف إلى ليفورنو: *GT*, 1772, 26. 102, 104; *NM*, 1772, 50. 419, 51. 425; *GT*, 1772, 27. 106, 108.

كوزيمو ماري، صديق الأباتي جوفاني ديل توركو، الذي كرَّمه الأخَوَان أورلوف في الرابع والعشرين من أيار/ مايو 1772 في أثناء مأدبة غداء أقيمت في بيزا خصِّيصًا بهذه المناسبة. فقدَّم ألكسي أورلوف هديَّة إلى ماري باسم كاترينا الثانية هي عبارة عن علبة (وبعضهم يقول علبة نُشُوق) مطليَّة بالذهب ومرصَّعة بحبَّاتٍ من الماس الكبيرة الحجم، تُقدَّر قيمتها بنحو 700 تسيكين. وأعطت هذه الهبة *La Gazzetta Toscana* (**جريدة توسكانة**) الذَّريعة للحديث عن «تطوُّر الفنون السَّريع في بطرسبورغ»[199].

شكَّلت الهدايا الدوريَّة سمةً بارزة لوجود النُّبلاء الرُّوس في توسكانة، وكانت تسبق عادة مغادرة رعايا كاترينا الثانية إلى الأرخبيل. فخلال شتاء وربيع عام 1770، نشط أورلوف في تقديم الهدايا النَّفيسة إلى كبار المسؤولين التوسكانيِّين. وفي نهاية كانون الثاني/ يناير، وزَّعت قيادة الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط - في أثناء وجودها في بيزا (كان بلاط الأرشيدوق في المدينة آنذاك) - قطع فرو نادرة وثمينة، جُلبت من روسيا مع صندوقين من الفضة[200].

## الأعياد الكنسية

كان الأرثوذكس في توسكانة يؤمُّون الكنيسة اليونانيَّة في ليفورنو عادة (أعطي الإذن ببناء الكنيسة اليونانيَّة في ليفورنو في 14 تموز/ يوليو 1754، ثم أعيد التأكيد عليه في 7 آب/ أغسطس 1760)[201].

---

(199) *GT*, 1772, 22. 87-88; *NM*, 1772, 43. 362:
كما كان الرُّوس الموجودون في بورتو فيرايو وفي الأنحاء الأخرى من توسكانة يثيرون الدهشة بحجم إنفاقهم الكبير بصورة غير اعتيادية. كانت سخيةً فوق العادة أيضًا عطاءاتُ الكونتر-أميرال غريغ والآخرين لسكَّان ألبا الذين تعاونوا معهم. فقد ذكرت الصحف أنَّ غريغ قدَّم عند مغادرة سفينة «الأساقفة الثلاثة» ألبا في عام 1771 كمًّا كبيرًا من الهدايا إلى النُّبلاء المحليِّين. فحصل المدعو بيترو جانيتي، مثلًا، على ساعة ذهبية: *GT*, 1771, 17. 68.

(200) *NM*, 1770, 4. 29; *NM*, 1770, 5. 39.

(201) أقام سكَّان ليفورنو من اليونانيين الأرثوذكس مقبرتهم الخاصَّة في عام 1770، في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة، وما لبثت أن سُوِّرت في عام 1774. يُنظر على سبيل المثال: G. Vivoli, *Guida di Livorno antico e moderno e dei luoghi più notabili dei suoi contorni* (Livorno, 1997), pp. 132-133.

بحسب وصف س. ب. خميتيفسكي، يعود الفضل في بناء الكنيسة إلى التبرُّعات الروسيَّة: «ثمَّة في ليفورنو كنيسة يونانيَّة واحدة، مزخرفة نوعًا ما، فيها إيقونسطاس مذهَّب وأوانٍ هديَّة من الرُّوس، وصليب وإنجيل، وغرفة مقدَّساتٍ غنيَّة جدًّا أرسلتها سيدتنا صاحبة الجلالة المعظَّمة من روسيا»(202). خدم في هذه الكنيسة من عام 1771 حتَّى عام 1775 الأسقف اليوناني سيرافيم الثاني الذي أتى من الأرخبيل(203). وأسهم وصول العسكريِّين الرُّوس في الشتاء والربيع إلى توسكانة بصورة خاصَّة في أنَّ احتفالات رعايا الإمبراطورة الروسيَّة الأرثوذكس بعيد الفصح كانت تُجرى بأكبر قدر ممكن من الأبَّهة، فضلًا عن الأعياد الاثني عشر، وعيدي الميلاد والبشارة، بحسب تقارير الصحف الإيطاليَّة. كما كان يمثِّل عيد ميلاد يوحنا المعمدان أهميَّة خاصَّة في الروزنامة الكنسيَّة بالنسبة إلى الأسطول الروسي (إذ كان يصادف يوم انتصار شيسما)، ومثله أيضًا عيد القدِّيسَيْن بطرس وبولس وعيد القديس أندراوس المعروف بأوَّل المدعوِّين(204). وكانت الاحتفالات بالأعياد الكنسيَّة تترافق غالبًا مع الأعمال الخيريَّة (حيث كان الضبَّاط الرُّوس يوزِّعون النقود على الفقراء)، ومنح الهدايا المميَّزة وإنارة السُّفن الروسيَّة الراسية في ميناء ليفورنو.

وهكذا، وصل عدد كبير من الضبَّاط الرُّوس إلى ليفورنو من بيزا في عيد الميلاد خلال عامي 1769 و1770(205)، وكان من بينهم على الأرجح ألكسي أورلوف الذي بقي في ليفورنو في ما بعد. وتُبُودِلَت لمناسبة العيد الهدايا بين

---

(202) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 691.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 691 (الطبعة الروسيَّة)].

(203) لمزيد من التفصيل عنه وعن وصوله إلى ليفورنو، يُنظر الفصل الخامس.

(204) أحد تلامذة المسيح الاثني عشر وشقيق بطرس الرسول. كان تلميذًا ليوحنا المعمدان، ليصبح بعدئذٍ من أوائل من اتَّبعوا المسيح، وسُمِّيَ «أوَّل المدعوِّين»، لأنه أوَّل من دعاه السيِّد المسيح ليتبعه. يجدر بالذكر أنَّ إنجيلي متَّى ولوقا يضعانه في المرتبة الثانية بعد شقيقه بطرس، فيما يضعه إنجيل مرقص في المرتبة الرابعة. (المترجم)

(205) GT, 1770, 2. 7.

تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة الأباتي برونو دي زاموني بتاريخ الثامن من كانون الثاني/ يناير 1770: AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

أورلوف ومحافظ المدينة فيليبو بوربون ديل مونتي، فحصل أورلوف على طريدة اصطيدت خلال اليوم السابق، وقدَّم إلى المحافظ في المقابل فرو ثعلب فاخرًا[206]. وفي عيد الميلاد في العام التالي، جاء أورلوف إلى ليفورنو مجدَّدًا، فتوجَّه هو والضبَّاط والجنود الرُّوس لحضور قداس العيد في الكنيسة اليونانيَّة التي زُيِّنت خصِّيصًا لهذه المناسبة. ولم تتوان الصحف عن ذكر أعطيات أورلوف وصدقاته بعد القداس للفقراء الذين تجمَّعوا قرب الكنيسة انتظارًا للكونت الروسي المعروف بغناه وسخائه[207]. وفي 25 كانون الأول/ ديسمبر - 5 كانون الثاني/ يناير 1773، أُضيئت لمناسبة العيد السُّفن الروسيَّة الرَّاسية في خليج ليفورنو وزُيِّنت بالأعلام[208].

أقيمت مأدبة غداء في ليفورنو لمناسبة عيد البشارة لعام 1770، تلتها عمليَّة إطلاق نار طقسيٍّ من البنادق في الهواء، من متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة». وفي مساء اليوم نفسه أطلقت مدفعيَّة السَّفينة ثلاث طلقات[209].

لم يؤدِّ وجود الأرثوذكس في توسكانة الكاثوليكيَّة عمومًا (باستثناء حوادث نادرة)[210] إلى صراع دينيٍّ ثقافيٍّ حاد. وكمثال يستحق التقدير على «التسامح»

---

(206) *GT*, 1770, 2. 8; *NM*, 1770, 3. 24.

(207) *GT*, 1771, 2. 6; *NM*, 1771, 4. 30

(208) *GT*, 1773, 2. 8; *NM*, 1773, 3. 23.

(209) *GT*, 1770, 15. 58.

(210) اقتبس ف. فينتوري تقرير مبعوث سردينيا في توسكانة برونو دي زاموني من فلورنسا بتاريخ الثالث عشر من تموز/ يوليو 1772، وقد جاء فيه: «انتظرت السلطات الكنسيَّة بنفاد صبر كبير مغادرة هؤلاء الضيوف [الرُّوس]، وذلك لأنَّ أحاديثهم في صدد بعض الأمور لم تتجاوز كل الحدود فحسب، بل ألحقت ضررًا كبيرًا بالدين، حيث أفسدت العديد من الشباب، وأسهمت في انجذابهم نحو المحفل الفرنكوماسوني»: Ф. Вентури, «Итало-русские отношения с 1750 по 1825 г.,» in: *Россия и Италия: Из истории русско-итальянских культурных и общественных отношений* (М., 1968), с. 31.

[ف. فينتوري، «العلاقات الإيطاليَّة - الروسيَّة من العام 1750 وحتى العام 1825»، في: **روسيا وإيطاليا: من تاريخ العلاقات الثقافية والإجتماعية الروسيَّة - الإيطاليَّة** (موسكو، 1968)، ص 31].

اضطرت السلطات إلى التدخُّل علنًا أحيانًا للدفاع عن الامتيازات الكاثوليكيَّة. ففي كانون الثاني/ يناير 1771 احتجَّ رهبان مستشفى سان أنطونيو لدى محافظ ليفورنو لأنَّ كاهنًا من الكنيسة الأرثوذكسيَّة اليونانيَّة جاء إلى مستشفاهم ليمنح القربان لرجلٍ على فراش الموت؛ إذ أخلَّ بالعرف الذي كان يفرض عليه إقامة الطقوس الضروريَّة إمَّا في الكنيسة وإما في منزل خاص. ففرضت السلطات =

في القرن الثامن عشر، يمكن اعتبار الأمر الذي أصدره ألكسي أورلوف في عام 1773 بالاحتفال بالعيد الذي له منزلة خاصة لدى **الكاثوليك**، ألا وهو عيد «Corpus Domini» (عيد جسد الرب، الذي تحتفل به الكنيسة الكاثوليكيَّة في الخميس أو الأحد اللذين يليان عيد العنصرة). ومن المعروف أنَّ الموكب الدينيَّ في ليفورنو وصل إلى مستشفى سان روكو التي كان ألكسي أورلوف يُمضي فيها فترة الحجر الصحِّي. فكان أن زيَّن أورلوف نوافذ المستشفى لمناسبة العيد، ودفع كلفة باهظة على تلبيس جدرانها. واصطفَّت وحدة من الجنود الرُّوس أمام الكنيسة القريبة، وأطلقت ثلاث طلقات من بنادقها تحيَّة للعيد الكاثوليكي[211].

## الأعياد الرسميَّة المَهيبة

كانت احتفالات الجالية الرُّوسية في توسكانة بالأعياد الرسميَّة المَهيبة، وكذلك في الإمبراطوريَّة الروسيَّة، تجري حتمًا في عيد ميلاد كاترينا الثانية (21 نيسان/ أبريل - 2 أيار/ مايو)، وفي عيد جلوسها على العرش الروسي (28 حزيران/ يونيو - 9 تموز/ يوليو)، وفي عيد تتويجها (22 أيلول/ سبتمبر - 3 تشرين الأول/ أكتوبر)، وفي عيد ميلاد الأمير الأكبر بافل بيتروفيتش (20 أيلول/ سبتمبر - الأول من تشرين الأول/ أكتوبر)، وفي عيد شفيعة الإمبراطورة (24 تشرين الثاني/ نوفمبر - 5 كانون الأول/ ديسمبر)، وفي ذكرى معركة

---

= التوسكانيَّة فيما بعد قيودًا إضافيَّة، منها على وجه التحديد أنَّ على الكاهن الأرثوذكسي ارتداء ثوبه الكهنوتي في الكنيسة وفي منازل مواطنيه فقط. وحصل الأمر نفسه أيضًا مع البروتستانت (الإنكليز والهولنديِّين). يُنظر: Ciano, pp. 34-35.

(211) *GT*, 1773, 25. 100; *NM*, 1773, 49. 392.

وجدير بالذكر أنَّ عطايا سخيَّة أخرى تلت هذا التصرُّف السموح. فقد غادر ألكسي أورلوف المستشفى في اليوم التالي (علمًا أنَّ عاملي الأجهزة الطبية المحلية في المدينة تلقوا هدايا ثمينة كالعادة). وتوجَّه بعربة القنصل البريطاني ديك إلى مقرِّه، حيث أدَّى الضبَّاط الإنكليز والتوسكانيُّون له مراسم الترحيب به. وبعد مأدبة الغداء المشتركة، قام أورلوف بزيارات في المدينة. وفي الرابع عشر من حزيران/ يونيو، غادر ليفورنو متوجِّهًا إلى بيزا، وقدَّم قبل سفره هديَّة إلى المحافظ بوربون ديل مونتي، هي عبارة عن عدد كبير من العبيد الأتراك، الذين وصلوا قبيل ذلك إلى توسكانة على متن سفينة بانايوتي ألكسيانو.

شيسما السنويَّة (24-26 حزيران/ يونيو - 5-7 أيلول/ سبتمبر). ولكن أضيفت في أرشيدوقيَّة توسكانة العظمى إلى الأعياد المذكورة أعياد ميلاد أرشيدوق توسكانة بيترو ليوبولدو ووالدته إمبراطورة النَّمسا ماري تيريز (13 أيار/ مايو) وشقيقه إمبراطور النمسا جوزف الثاني (17 آذار/ مارس)[212]. وكانت تضاف إلى هذه المناسبات أحيانًا الأعياد الرسميَّة المَهيبة لبلدان أخرى. ففي الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير 1773 احتُفِلَ في ليفورنو بعيد ميلاد ملكة إنكلترا، حيث أقام القنصل ديك حفل استقبال مَهيبًا في قصره، وأطلقت السُّفن الروسيَّة والبريطانيَّة إحدى وعشرين طلقة مدفعيَّة على شرف العاهلة البريطانيَّة[213].

يمكن الحكم على اتِّساع الاحتفالات وما تخلَّلها من أنشطة، من خلال معلومات الصحافة التوسكانيَّة، التي كانت تنشر تقارير مفصَّلة عمَّا يجري. ففي عام 1771 بدأت في 16-27 نيسان/ أبريل بـ «بيزا» سلسلة احتفالات ترفيهيَّة لمناسبة عيد ميلاد كاترينا الثانية، حيث أقام الضبَّاط الرُّوس حفلًا راقصًا[214]. وفي 19 نيسان/ أبريل - الأول من أيار/ مايو وصل إلى ليفورنو فيودور أورلوف قادمًا من بيزا (كان ألكسي أورلوف لا يزال في طريقه من بطرسبورغ)، ونزل في منزل القنصل البريطاني ديك، على غرار شقيقه ألكسي[215]. وسرعان ما نُظِّم حفل تنكريٌّ، دُعِيَ إليه أيضًا ضبَّاط البلدان الحليفة، وفي مقدِّمتها الدانمارك، الذين وصلوا إلى بيزا خصِّيصًا في هذه المناسبة. وقد زُيِّن بهذه المناسبة القصر بالأنوار، وكذلك واجهات المنازل التي يقطنها الضبَّاط الرُّوس[216]. وأقيم في عيد ميلاد كاترينا الثانية (21 نيسان/ أبريل - الثاني من أيار/ مايو) مجدَّدًا حفل استقبال كبير، تخلَّله رقص ومأدبة غداء، شارك فيها فيودور أورلوف والضباط

---

(212) عن الأعياد والمناسبات الاحتفالية في بلاط بيترو ليوبولدو، يُنظر على سبيل المثال:
A. Contini, «Concezione della sovranità e vita di corte in età leopoldina (1765-1790),» in: *La Corte di Toscana dai Medici ai Lorena. Atti delle giornate di studio Firenze, Archivio di Stato e Palazzo Pitti 15-16 dicembre 1997* (Roma, 2002), pp. 129-220.

(213) *NM*, 1773, 7. 55.

(214) *GT*, 1771, 18. 70-71.

(215) *GT*, 1771, 19. 76.

(216) *GT*, 1771, 19. 75.

البحريُّون الرُّوس والتوسكانيُّون والقنصل ديك والعميل راذيرفورد والكثيرون غيرهم (حمل المشاركون في الحفل طوال اليوم أوشحة خاصَّة، كانت بمثابة جواز مرور إلى متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة»)[217]. كما أُقيم الاحتفال الرئيس على متن سفينة الكونتر-أميرال «الأساقفة الثلاثة»، التي زُيِّنت مقدِّمتها ومؤخَّرتها بالأعلام، وترافق مع طلقات مدفعيَّة - ليس من السُّفن الروسيَّة فحسب، بل من السُّفن الهولنديَّة والدانماركيَّة أيضًا -؛ وفي المساء زُيِّنت سفن العديد من البلدان الراسية في الميناء، بالأنوار. أمَّا على البرِّ، فقد أقيمت احتفالات غفيرة استمرَّت حتَّى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي[218].

بعد ثلاثة أيام من عيد ميلاد الإمبراطوريَّة الروسيَّة، هلَّ عيد رسميٌّ رفيع آخر، هو عيد ميلاد الأرشيدوق بيترو ليوبولدو، وبعد ثمانية أيام أخرى هلَّ عيد ميلاد والدته الإمبراطورة ماري تيريز. وعلى هذا النحو، كان يمكن الاحتفالات أن تستمرَّ أكثر من أسبوعين من دون توقُّف.

كانت الاحتفالات بأعياد الأرشيدوقيَّة التوسكانيَّة الخاصَّة شبيهة بالأعياد «الرسميَّة الروسيَّة المَهيبة». وبحسب تقارير الصحف، فقد حضر عدد من الضبَّاط الرُّوس، وكذلك الإنكليز والهولنديِّين والدانماركيِّين، في أثناء غياب أ. غ. أورلوف، الاحتفال لمناسبة عيد ميلاد أرشيدوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو، الذي تخلَّلته مأدبة غداء، وذلك في الخامس من أيار/مايو 1771[219]. أمَّا في عيد الإمبراطورة ماري تيريز، فقد حضر أ. غ. أورلوف إلى العاصمة التوسكانيَّة من فيينا مباشرة. وفي الثالث عشر من أيار/مايو زار الشقيقان ألكسي وفيودور أورلوف والضبَّاط الرُّوس الآخرون، ومعهم السفير البريطاني أوراس مان، الأرشيدوق بيترو ليوبولدو للإعراب عن احترامهم، ثم

---

(217) *GT*, 1771, 18. 72, 19. 75-76.

(218) Ibid.

(219) *GT*, 1771, 19. 76; *NM*, 1771, 38. 300. 76.

تقرير المحافظ بوربون ديل مونتي إلى رئيس مجلس الدولة سيمينيتي بتاريخ السادس من أيار/مايو 1771، وتقرير أليساندرو أداني سيمينيتي بتاريخ الخامس من أيار/مايو 1771، وتقرير مبعوث سردينيا في توسكانة دي زيموني بتاريخ السادس من أيار/مايو 1771: ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1026; AST, Italia, Lettere Ministri Firenze, Mazzo 2.

حضروا لقاءً خاصًّا معه لمناسبة عيد ميلاد الملكة الأم الثالث والخمسين[220]. وفي مساء اليوم نفسه، حضر الأخوان أورلوف وي. ف. دولغوروكوف أ. ف. ناريشكين وس. غ. دوماشنيف عرضًا مسرحيًّا احتفاليًّا[221]. وفي اليوم التالي، وقبيل السفر إلى بيزا، استقبلت زوجة بيترو ليوبولدو، التي غابت عن الاحتفال بسبب المرض، كلًّا من ألكسي وفيودور أورلوف والضبَّاط الرُّوس الآخرين[222].

كان إ. إ. شوفالوف يأتي خصِّيصًا أحيانًا للمشاركة في الاحتفالات الرسميَّة التوسكانيَّة[223]. وكان من الواضح كليًّا أنَّ الرعايا الرُّوس، أكانوا في روسيا أم في توسكانة، يَعَوْنَ تمامًا مدى أهميَّة مثل هذه الأعياد من الناحية السياسيَّة، ويحرصون على ألَّا تؤدِّي الهفوات إلى إلحاق الضَّرر بالتحسُّن المتحقِّق بصعوبة في العلاقات الروسيَّة - التوسكانيَّة.

كان شهر تموز/يوليو هو الفترة الثانية التي تحفل بالأعياد الكثيرة في توسكانة، ليس من حيث أهميَّته، بل من حيث تعاقبه الزمني. فقد كانت تجري الاحتفالات بالمناسبات «الروسيَّة»، كانتصار شيسما، وعيد جلوس كاترينا

---

(220) في تلك الفترة ذاتها تعيَّن على أرشيدوق توسكانة النظر في شكوى بائع الكتب بوير، بتاريخ السادس من نيسان/أبريل 1771 (من مرسيليا) ضد الأمير دولغوروكوف (ي. ف. دولغوروكوف، على ما يبدو). فقد أكَّد بوير، العامل باسم شقيقه، التاجر الفرنسي من مورية، أنَّ دخول الرُّوس إلى بيلوبونيز شكَّل خسارة بالنسبة إلى الفرنسيين الذين يعيشون هناك؛ إذ إنَّ التاجر بوير سلَّم دولغوروكوف عشرة آلاف قرش أمانةً، وأعطى الأخير كلمة شرف أميريَّة بإعادتها بأسرع ما يمكن. ومُذَّاك، لم يلتقِ بوير الأمير دولغوروكوف. وفي الرابع من أيار/مايو 1771، أبلغ بيترو ليوبولدو محافظ ليفورنو بوربون ديل مونتي أنَّه لا يرى ضرورة للتدخُّل في هذه القضية، ولكنَّه فوَّض المحافظ إيجاد فرصة لإبلاغ الأمير دولغوروكوف بمطالب بوير، على أن يقدم له تقريرًا بذلك. وأجاب بوربون ديل مونتي في السادس من أيار/مايو 1771 أنَّه لا يمكن تنفيذ أمر الأرشيدوق لأنَّ دولغوروكوف غادر ليفورنو في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1770، ولم يرجع إلى توسكانة منذ ذلك الحين: ASF, Consiglio di Reggenza, Pezzo 1026.

(221) *GT*, 1771, 20. 77-78; *NM*, 1771, 39. 309.

(222) *GT*, 1771, 20. 79; *NM*, 1771, 40. 316.

(223) في السابع عشر من آذار/مارس 1770، وصل شوفالوف إلى فلورنسا قادمًا من بيزا ليشارك في الاحتفالات بعيد شفيع إمبراطور النِّمسا جوزف، شقيق أرشيدوق توسكانة الكبير بيترو ليوبولدو: *NM*, 1770, 23. 183.

على العرش وعيد القدِّيسَيْن بطرس وبولس[224]؛ إذ قدَّمت الصحف الإيطاليَّة وصفًا مليئًا بالتفاصيل الكثيرة المعبِّرة، عن الاحتفال بذكرى انتصار شيسما السنويَّة الثانية في بيزا، في الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو - الخامس من تموز/ يوليو 1772. فبعد القداس الاحتفالي قدم الكونت أ. غ. أورلوف هديَّة للكنيسة الأرثوذكسيَّة في ليفورنو، هي عبارة عن ثمانية مصابيح من الفضة. ثم بدأت الاحتفالات، فأقام الضبَّاط الرُّوس في اليوم الأول من العيد حفلة تنكريَّة راقصة في المسرح الجديد، استمرَّت من الساعة الثامنة مساء حتَّى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي. وترافق الاحتفال مع طلقات مدفعيَّة عديدة. وقُدِّم في اليوم التالي عرض مسرحيٌّ مجانيٌّ، ترافق مع زينة واسعة بالأنوار، ثمَّ أقيم مجدَّدًا حفل راقص آخر في بيزا في اليوم الثالث الموافق 26 حزيران/ يونيو - السابع من تموز/ يوليو 1772. إضافة إلى ذلك، زُرعت حديقة من أشجار الحمضيَّات في غضون سبع ساعات بساحة سان نيقولو المحاذية للمسرح، وزُيِّنت بالأنوار الكثيفة المثبتة على أقواس. وتدفَّق نبع في وسط الحديقة، جلس حوله المدعوُّون إلى الحفل، عزفت فيه الأوركسترا العسكريَّة الروسيَّة خلالها على آلات النَّفخ والإيقاع الموسيقيَّة[225].

وبعد يومين من ذلك، في صبيحة الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو - التاسع من تموز/ يوليو 1772، أقيمت في ليفورنو سلسلة من الاحتفالات الجديدة، لمناسبة الذكرى السنويَّة العاشرة لجلوس كاترينا الثانية على العرش (الذي كان لألكسي أورلوف دور كبير في تحقيقه في عام 1762)، أذهلت

(224) GT, 1772, 28. 112, 29. 116; NM, 1772, 57. 475.

من المعروف أنه كان للاحتفال بعيد بطرس منذ أيام بطرس الأكبر مغزى خاصٌّ على مستوى الدولة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاحتفال بعيد شفيع ولي العهد بافل بيتروفيتش.

(225) GT, 1772, 28. 110, 112; Ciano, p. 33.

احتُفل بذكرى معركة شيسما السنويَّة في عام 1773 في ليفورنو (في السابع من تموز/ يوليو بحسب التقويم الجديد)، بحضور ألكسي أورلوف. وتوجَّه أورلوف إلى متن السَّفينة «النصر» بعد مشاركته فيه مأدبة غداء احتفالية (مع البحَّارة الهولنديِّين والسويديِّين) أقامها الضبَّاط البحريُّون الرُّوس على شرفه، لمناسبة ذكرى الانتصار السنويَّة الثالثة. وحضر في مساء اليوم نفسه حفلًا راقصًا في قصر القنصل ديك، ثم قفل عائدًا إلى بيزا في الثامن من تموز/ يوليو: GT, 1773, 28. 110, 112, 29. 116; NM, 1773, 55. 438, 56. 446-447.

الجمهور التُّوسكاني مجدَّدًا. فبعد الاستقبال الصَّباحي لدى الكونت ألكسي أورلوف الذي وصل من بيزا في اليوم السابق، توجَّه الضبَّاط الرُّوس إلى الكنيسة لحضور القدَّاس الاحتفالي، الذي أقام الكونت بعده، كما في كل مرَّة، مأدبة غداء باذخة في منزل القنصل البريطاني ديك، دُعِيَ إليها العديد من النُّبلاء التوسكانيِّين. وفي المساء، أجرى الخبراء الرُّوس في ساحة ليفورنو الرئيسة عرضًا للألعاب الناريَّة، فأظهرت النيران المشتعلة مشاهد تُصوِّر تتويج الإمبراطورة وشعار روسيا، مؤطَّرًا بدوائر ناريَّة. استمر العرض ثلاث ساعات ترافقه أنغام الفرقة الموسيقيَّة، وانتهى بإحراق قصرٍ بُنِيَ لهذا الغرض، ممَّا أثار إعجاب الجمهور. ثم انتقل الاحتفال من شوارع ليفورنو إلى قاعات قصر الشعب (Palazzo pubblico) المحلِّي المضاءة بأنوار ساطعة. وأمر أورلوف ببناء «قاعة» واسعة خارج القصر ووضع لوحات فيها. كانت تعلو القاعة قبَّة مزيَّنة بضفائر الزهور، وكانت مفتوحة بحيث يتمكَّن الخارجون من باب القصر الرئيس الوصول إليها من دون عائق. استمرَّ الاحتفال حتَّى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي، واتَّصل بالاحتفال المقرَّر في عيد القدِّيسَيْن بطرس وبولس.

بعد عام من ذلك، في تموز/ يوليو من عام 1773، لم تكن الاحتفالات بـ «الأعياد الرُّوسية» أقل أُبَّهة. ففي صباح 28 حزيران/ يونيو - 9 تموز/ يوليو، حضر الضبَّاط الرُّوس في بيزا حفل استقبال في منزل ألكسي أورلوف، الذي أقام مأدبة غداء لمناسبة جلوس الإمبراطورة على العرش. وقد وُزِّعت بأمر من أورلوف في أثناء المأدبة الصدقات على الفقراء الذين احتشدوا حول قصره. وفي مساء اليوم نفسه، كان من الممكن رؤية مشهدٍ بات تقليديًّا في ساحة نيقولو؛ إذ أمر أورلوف بإعداد حديقة في الساحة، نُصبت في وسطها خيمة (شبيهة بـ «قاعة» عام 1772) تتوسَّطها نافورة ووُزِّعت التماثيل من جهتها الخارجيَّة. كما زُيِّنت بالأضواء واجهاتُ المنازل في الساحة والأقواس التي شكَّلت المداخل إلى الحديقة والمسرح المحلِّي. ولم يغب المسرح عن بال منظِّمي الاحتفال، فزُيِّنت صالته وخشبته بالأنوار بزخارف على الطراز الصيني، ووضعت على جوانبها مرايا كبيرة. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، بدأت أنشطة ترفيهيَّة جديدة، كان أوَّلها حفل تنكريٌّ شارك فيه كبار القوم من التوسكانيين والأجانب المقيمين في بيزا، وتميَّزت بالأطعمة الفاخرة التي قُدِّمت فيها. في

المساء، أُضيئت ساحة سان نيقولو مجدَّدًا بالأنوار، وقُدِّمت في المسرح حفلة موسيقيَّة شارك بالغناء فيها كليمينتينا كيافاتشي وجوستو فرديناندو تيندوتشي، والتينور توتي والمغنِّي المحلِّي غوستافو لادزيريني. واستمرَّ الحفل الراقص الذي أقيم بعد ذلك، حتَّى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي(226).

تواصلت الاحتفالات في بيزا وليفورنو، وبعد بضعة أيام من عيد القدِّيس بطرس (30 حزيران/ يونيو - 11 تموز/ يوليو)، جاء دور نبلاء بيزا للردِّ بإقامة حفل راقص تكريمًا لأورلوف والضبَّاط الرُّوس، حيث أُجْرِيَ في جمعيَّة النُّبلاء المحليَّة، واستمرَّ أيضًا حتَّى السادسة صباحًا. وقد حضر الحفل، بحسب ما ذكرت الصحف، كلٌّ من أ. غ. أورلوف وإ. إ. شوفالوف، و«العديد من السيِّدات والسَّادة الأجانب، نزلاء منتجع المياه المعدنيَّة في سان جوليانو»(227).

نظَّم أ. غ. أورلوف احتفالات تموز/ يوليو 1774 في بيزا مجدَّدًا، بأقصى ما أمكنه من الأبَّهة والبذخ، وكانت الأمور تسير نحو عقد الصلح، ولم تفصل عن موعد توقيعه إلا بضعة أسابيع في 10-21 تموز/ يوليو 1774. ففي مطلع شهر تموز/ يوليو 1774 وصل أورلوف، مع الصناعي وراعي الفنون المعروف نيكيتا أكينفيفيتش وزوجته، إلى ليفورنو ونزلوا في منزل القنصل ديك. وفي الخامس من الشهر نفسه (بحسب التقويم الجديد) أقيم حفل استقبال ومأدبة غداء على شرف الضبَّاط والنُّبلاء الرُّوس، لمناسبة ذكرى معركة شيسما السنويَّة الرابعة. وتوافق الاحتفال مع الإعلان عن تعيينات ومكافآت جديدة، من بينها على وجه التحديد الحظوة الخاصَّة من قبل كاترينا الثانية التي نالها الكونتر-أميرال غريغ؛ إذ أنعمت عليه بوسام القدِّيسة حنَّة، والعميل الروسي في توسكانة راذيرفورد الذي مُنح علبةُ نُشُوقٍ مطليَّةٌ بالذَّهب ومرصَّعة بالماس. وجرى الاحتفال في اليوم التالي بعيد جلوس كاترينا على العرش وعيد القدِّيسَيْن بطرس وبولس، في بيزا بصخب كالمعتاد؛ فأقيمت حديقة واسعة من أشجار الحمضيَّات في ساحة سان نيقولو، توسَّطتها نافورة، وذلك وفق التصميم الذي وضعه المهندس الإيطالي جوزيبي غائيتابو وموافقة ألكسي أورلوف عليه.

---

(226) *GT*, 1773, 29. 115-116; *NM*, 1773, 57. 455.

(227) *GT*, 1773, 30. 118.

كانت الحديقة بمثابة مدخل ومخرج للمسرح، الذي تحوَّلت قاعته إلى صالة للرقص مضاءة بعدد هائل من الشَّمع. وكما في الحالات السابقة، عزفت الفرقة الموسيقيَّة أنغامها أثناء الاحتفال، وأقيمت حفلة تنكريَّة راقصة واحتفالات على نطاق أضيق في ليفورنو أيضًا[228].

أخيرًا، مع وصول الرعايا الرُّوس، لم يعد شهر كانون الأول/ ديسمبر في توسكانة الكاثوليكيَّة، شهر عيد ميلاد السيد المسيح فحسب؛ فقد كان هذا الشهر يبدأ بالاحتفال بعيد القدِّيسة كاترينا وعيد القدِّيس أندراوس المعروف بأوَّل المدعوِّين، وهما القدِّيسان اللذان يشترك المسيحيون كافَّة في تبجيلهما. غير أنَّ الاحتفالات المميَّزة كانت تحصل في عيدي هذين القدِّيسَيْن وفق التقويم اليولياني وليس الغريغوري. ففي عيد القدِّيسة كاترينا كان يُحتَفَلُ بيوم شفيعة الإمبراطورة الروسيَّة (24 تشرين الثاني/ نوفمبر - 5 كانون الأول/ ديسمبر)[229]، أما في الثلاثين من تشرين الثاني/ نوفمبر - الحادي عشر من كانون الأول/ ديسمبر - فقد كان يُحتفى به في روسيا منذ القدم بوصفه عيد حامي الأسطول الروسي. وفضلًا عن القداديس الإلزاميَّة في الكنيسة اليونانيَّة في ليفورنو، كانت تُجرى في هذه الأيام احتفالات غير اعتياديَّة. وهكذا، ففي عام 1770، جاء ألكسي أورلوف على متن السَّفينة «الأساقفة الثلاثة» إلى ليفورنو بعد عودته من الأرخبيل، عقب الحملة المظفَّرة خلال العام المذكور، متأخرًا يومًا واحدًا عن الاحتفال بعيد شفيعة الإمبراطورة. غير أنَّه أمر بالاحتفال بعيد القديس أندراوس بكلِّ ما يلزم من أبَّهة: فرُفعت الأعلام على كلِّ السُّفن الروسيَّة الراسية في الميناء، أمَّا على سفينة «الأساقفة الثلاثة» بقيادة غريغ، فقد رُفعت أعلام مختلف الدول البحريَّة. وبعد مأدبة الغداء الاحتفاليَّة أطلقت السُّفن الروسيَّة ثلاث طلقات مدفعيَّة، وفي الساعة السابعة مساء، وبعد سلسلة أخرى من الطلقات المدفعيَّة، زُيِّنت السَّفينة «الأساقفة الثلاثة» بالأنوار على

---

(228) *GT*, 1774, 28. 110, 112, 29. 115-116; *NM*, 1774, 53. 424, 55. 440.

(229) احتُفِلَ في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر (24 تشرين الثاني/ نوفمبر بحسب التقويم القديم) 1770 في ليفورنو بعيد القدِّيسة كاترينا: فأقيم قداس احتفالي في الكنيسة اليونانيَّة المحليَّة، حضره الضبَّاط والجنود الرُّوس العائدون من الأرخبيل، وتحديدًا طاقم الفرقاطة «الكونت تشيرنيشوف» (ولاحت في الأفق في اليوم نفسه الفرقاطة «روستيسلاف»: *GT*, 1770, 49, 196; Donolo, p. 119.

نحو رائع: فأُضيئت المصابيح على كل الصَّواري والعوارض، بحيث كان من الممكن رؤية الأعلام المرفوعة حتَّى من وسط المدينة(230).

كان من المفترض أن يكون شهر أيلول/ سبتمبر - مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر أيضًا، فترة للاحتفال بالأعياد الروسيَّة «الكبرى» في توسكانة. غير أنَّ الاحتفالات الواسعة النِّطاق في ذكرى تتويج كاترينا الثانية وعيد ميلاد وليِّ العهد بافل، كانت تحصل في الأغلب خلال هذه الفترة في الأرخبيل، بعيدًا من توسكانة؛ إذ إنَّ الحملة العسكريَّة كانت تستمرُّ عادةً حتَّى تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي عام 1774، عقد صلح كوتشوك - كاينارجي، فاحتُفِلَ في توسكانة بعيد تتويج الإمبراطورة وكذلك بعيد ميلاد ولي العهد قائد الأسطول الروسي بافل بتروفيتش، بحضور الكونت أ. غ. أورلوف، بصخب وبريق كبيرين. فتحدَّثت الصحف، كما في كلِّ مرَّة، عن حفل الاستقبال الباذخ الذي أقامه الضبَّاط، وكذلك كيف زيَّن القبطان اليوناني الذي يخدم لدى الرُّوس بانايوتي ألكسيانو، فرقاطته «القديس بولس» بالأعلام(231). لكنْ، كانت كل الأمور تشير إلى أنَّ زمن «الاحتفالات الروسيَّة» البرَّاقة في أرشيدوقيَّة توسكانة الكبرى يسير نحو الأفول.

## حفلات الرَّقص والتَّرفيه

إلى جانب الاحتفالات المتنوِّعة التي رافقت الوجود الروسي في توسكانة، واستعراض «سخاء» الإمبراطورة الروسيَّة وقائد الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط الكونت أ. غ. أورلوف، كانت هناك أيضًا احتفالات ترفيهيَّة، لا ترتبط للوهلة الأولى بالمناسبات الرسميَّة ولا بالروزنامة الكنسيَّة. غير أنَّ القيادة الروسيَّة والسلطات التوسكانيَّة على حدٍّ سواء كانت تتعامل معها باهتمام دائم.

---

(230) GT, 1770, 50. 200.

(231) GT, 1774, 41.

في كانون الأول/ ديسمبر 1774، أقام أورلوف للمرة الأخيرة احتفالًا في توسكانة لمناسبة عيد شفيعة الإمبراطورة: NM, 1774, 99. 750.

كانت مغادرة السُّفن الروسيَّة إلى الأرخبيل ووصولها إلى ليفورنو يحدثان مترافقين مع مؤثِّرات مسرحيَّة، وكان الهدف منها التأكيد بأهميَّة ما يحصل وإضفاء بريق عسكري على وجود روسيا في حوض البحر المتوسِّط. فكانت ترافق مغادرة الأسطول أحيانًا مناوراتٌ يحتشد النُّبلاء التوسكانيُّون لمشاهدتها. فعلى سبيل المثال، في لحظة خروج السُّفن الروسيَّة من ميناء ليفورنو في عام 1771 أبحر مركب من الشاطئ على متنه أرستقراطيُّون فلورنسيُّون رغبوا بمشاهدة إبحار الأسطول الروسي. وعندما علم أورلوف بذلك، أمر بإنزال المرسى وأرسل إلى بقيَّة السُّفن أمرًا يقضي بالقيام بمناورات استعراضيَّة، وبعد الانتهاء من ذلك غادر توسكانة بصورة نهائيَّة[232].



حفل راقص في قصر الحكمة في بيزا

كانت تُجرى أيضًا احتفالات خاصَّة، كما سبق ذكره، عند خروج النُّبلاء الرُّوس الآتين إلى ليفورنو من الحجر الصحِّي، ولا سيَّما الأخوين أورلوف.

لم يكتفِ الأخَوَان أورلوف بتنظيم الاحتفالات، بل شاركا أيضًا في الأنشطة الترفيهيَّة التي كانت السلطات التوسكانيَّة تنظِّمها. وكانت الكرنفالات الفلورنسيَّة تحظى بشعبيَّة خاصَّة لدى رعايا كاترينا الثانية. فقبل بداية العمليَّات الحربيَّة في عام 1770، شارك في الاحتفالات كلٌّ من ألكسي أورلوف

(232) *NM*, 1771, 51. 405.

وإ. إ. شوفالوف وي. ف. دولغوروكوف والأمير ف. ن. غوليتسين[233]، الذين أمضوا الأسبوع الأخير من شباط/ فبراير وبداية شهر آذار/ مارس في فلورنسا[234]. وفي الثاني والعشرين من شباط/ فبراير (بحسب التقويم الجديد) تناول النُّبلاء الرُّوس طعام الغداء مع ممثِّلي الأرستقراطيَّة المحليَّة بمنزل السَّفير البريطاني في توسكانة أوراس مان[235]، وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه التقى ألكسي أورلوف وإ. إ. شوفالوف والنُّبلاء الرُّوس الآخرون أرشيدوق توسكانة وعقيلته في لقاء خاصٍّ، أعقبته مأدبة غداء أقيمت خصِّيصًا للمناسبة. وفي الخامس والعشرين من شباط/ فبراير عاد غوليتسين ودولغوروكوف إلى بيزا، وتبعهما في الثامن والعشرين من الشهر نفسه أورلوف وشوفالوف، ليُبحِروا على الفور باتجاه المشرق، بحسب ما ورد في الأنباء. وتوجَّه إلى بيزا في الوقت نفسه، القنصل البريطاني ديك الذي كان أورلوف نزل في منزله[236].

شهد كرنفال عام 1770 أنشطة ترفيهيَّة خاصَّة نُظِّمت بناء على أمر بيترو ليوبولدو، على شرف الكونت ألكسي أورلوف. ففي ساحة سانتا كروتشي قدم نحو 600 فلورنسي شاب عرضًا مسرحيًّا، استند موضوعه إلى تاريخ انتصار ملكة الماساغيِّين على جيش الملك الفارسي كير. وكان سيناريو العرض يتضمَّن على ما يبدو مشاركة أورلوف وبيترو ليوبولدو الشخصيَّة، حيث كان سينشب بينهما، وفق السيناريو، تنافس ترؤُّس حسناوات الاحتفال[237].

وفي شتاء عام 1771، قام أورلوف بزيارة قصيرة إلى فلورنسا برفقة ف. ن. غوليتسين والكونتر-أميرال غريغ ونبلاء روس آخرين، وذلك قبيل سفره إلى بطرسبورغ، لكنَّه على ما يبدو لم يتمكَّن من حضور بداية احتفالات ذاك العام

---

(233) *NM*, 1770, 16. 125; *GT*, 1770, 8. 30.

(234) *NM*, 1770, 18. 140; *GT*, 1770, 9. 33, 36.

(235) *NM*, 1770, 16. 127.

(236) *GT*, 1770, 9. 33, 36; *NM*, 1770, 18. 140; *NM*, 1770, 18. 143; *NM*, 1770, 19. 150.

(237) Becattini, pp. 102-103; Ademollo, p. 127.

عن العلاقات المتبادلة بين بيكاتيني وأ. غ. أورلوف، يُنظر: Timpanaro Morelli, pp. 450-451.

الكرنفاليَّة[238]. وفي عام 1772، حضر ألكسي أورلوف كرنفال روما[239]. وفي عام 1773، كان ألكسي أورلوف لا يزال في الأرخبيل عندما أبدع الموسيقار الروسي مكسيم بيريزوفسكي - الذي كان يعيش في إيطاليا حينذاك - في كرنفال فلورنسا[240]. أمَّا في عام 1774، فقد أشارت الصحف إلى أنَّ الأمير ن. ف. ريبين كان الوحيد من بين كبار المسؤولين الرُّوس الذين حضروا الكرنفال[241].

***

(238) *NM*, 1771, 16. 125-126; *GT*, 1771, 8. 30-31.

(239) *NM*, 1772, 17. 134.

(240) *NM*, 1773, 17. 136; *GT*, 1773, 9. 33.

وصل الموسيقار الروسي مكسيم بيريزوفسكي إلى إيطاليا في نهاية عام 1769. وفي عام 1771، حصل على لقب أكاديمي من الأكاديميَّة الفلهارمونيَّة ببولونيا (وكان إ. ب. يلاغين هو من رشَّحه). وبحسب ما تفترض ل. أ. لوباتينا فإن بيريزوفسكي سافر برفقة ألكسي أورلوف والمقرَّبين منه في كانون الثاني/يناير من عام 1771 لحضور حفل افتتاح أوبرا الموسيقار التشيكي ي. ميسليفيتش «مونتيتسوما» في فلورنسا. فضلًا عن ذلك، وضع بيريزوفسكي بطلب من أورلوف أوبرا «ديموفونت» خصِّيصًا للأسبوع الكرنفالي بـِ «ليفورنو» (1773). وقد غادر الموسيقار الروسي إيطاليا في نهاية عام 1773.

يُنظر: Л. А. Лопатина, «Породнились в музыке Россия и Италия,» in: *Россия и Италия*, Вып. 2 (M., 1996), c. 59-69.

[ل. أ. لوباتينا، «روسيا وإيطاليا تتآخيان في الموسيقى»، في: **روسيا وإيطاليا**، الإصدار 2 (موسكو، 1996)، ص 59-69].

يُنظر أيضًا: P. Cazzola, *Russia-Bologna. Tre secoli di rapporti, incontri e viaggi* (Bologna, 1990), pp. 62-63.

(241) *NM*, 1774, 17. 136; *GT*, 1774, 9. 34.

كما سبق وذُكر، أثار أورلوف في أثناء وجوده في احتفالات البلاط في فلورنسا الاهتمام، لا بقوته الجسدية الهائلة فحسب، بل أيضًا بالدور الذي اضطلع به في أحداث روسيا السياسيَّة في عام 1762. يقول السفير البريطاني في توسكانة أوراس مان: «كان من بين الضيوف <في إحدى الحفلات في فلورنسا> الكونت أورلوف بالمصادفة، محرك الثورة الأخيرة الأساسي في بطرسبورغ <...> وهو يؤكِّد أنَّ الكارثة لم تكن نتيجة للمعاملة القاسية، بل إنَّ بطرس الثالث تُوفِّيَ بسبب اليأس والسكر». وبالقدر نفسه من الجزم، أكد الضبَّاط الرُّوس الذين التقى بهم مان واستقبلهم في ليفورنو أو في فلورنسا «كأنَّما تنفيذ لأمرٍ ما، بأنه لم تكن هناك أيُّ عملية قتل لبطرس، بل إنَّه تُوفِّيَ وفاة طبيعية وهادئة». (النص الأصلي باللغة الإنكليزيَّة): J. Doran, *'Mann' and Manners at the Court of Florence, 1740-1786, Founded on the Letters of Horace Mann to Horace Walpole*, vol. II (London, 1876), p. 214.

لا بد من الموافقة من دون شك على رأي ف. فينتوري الذي قال إنَّ الأعمال الحربيَّة حفَّزت تطوُّر العلاقات الثقافيَّة بين روسيا وتوسكانة. ففي تلك الأعوام، لم تتعرَّف النُّخبة المتعلِّمة في توسكانة، بل في إيطاليا كلِّها، إلى أعمال تتعلَّق بتاريخ الأدب الروسي، وكوَّنت تصوُّرًا كاملًا إلى حدٍّ ما عن مبادرات كاترينا الثانية التشريعيَّة، وتمكَّنت من نسج علاقات مباشرة مع أكثر ممثِّلي مجتمع بطرسبورغ تميُّزًا، من حيث ثقافتهم المتنوِّرة. أكثر من ذلك، يمكن التأكيد بيقين تامٍّ على أنَّ حياة المدن التوسكانيَّة التي استقرَّت فيها الجالية الروسيَّة ومظهرها شهدا تحوُّلات واضحة ابتداءً من عام 1769 (وإن يكن لفترة ليست بالطويلة كثيرًا)[242].

إنَّ توحيد الاحتفالات وفق التقويمين اليولياني والغريغوري، فضلًا عن «مضاعفة» مناسبات التَّرفيه، أسهم في تكامل الأعياد الرُّوسية مع الأعياد الدينيَّة المحليَّة والمناسبات التذكاريَّة التي يحتفل بها البلاط. وإلى جانب الاحتفالات بالأعياد الدوريَّة، كانت حفلات الرقص والاستقبال والعروض المسرحيَّة، التي كان يشارك فيها العسكريُّون والنُّبلاء الرُّوس الذين كانوا يجولون في إيطاليا والنُّبلاء الأجانب، فضلًا عن ممثِّلي الأرستقراطيَّة التوسكانيَّة، كانت هذه الحفلات، بحسب ما تفيد به النشرات الصحافيَّة، تصبح أكثر إثارةً وبهرجةً بوجود الأخوين أورلوف وضبَّاط الأسطول الروسي في توسكانة (يمكن الحكم على كيفيَّة تمضية العسكريِّين الرُّوس الجوَّالين في إيطاليا أوقاتهم، من خلال كتاب يوميَّات السفر من ليفورنو إلى روما الصَّادر في عام 1772).

انخرطت إيطاليا في نهاية ستينيَّات القرن الثامن عشر في الجدل الأوروبيِّ العام، وخصوصًا الفرنسي، حول صورة روسيا الثقافيَّة، إلا أنَّ تجربتها كانت فريدة من نوعها إلى حدٍّ كبير. فإذا كانت الأغلبيَّة الساحقة من أوروبا المتنوِّرة تتقبَّل «الأسطورة الروسيَّة» من منظار المؤلَّفات الأدبيَّة - الاجتماعيَّة فحسب

---

(242) بدهيٌّ ألَّا تقتصر التغيُّرات على الصورة المثاليَّة للتكثيف الحاد وغير المتناقض للعلاقات الثقافية. فوجود لاعب جديد في السياسة الإيطاليَّة ولَّد نزاعات على المستويين «الأعلى» و«الأدنى» على حدٍّ سواء.

(حتَّى ولو كان أصحابها شهودًا مباشرين على ما يجري الحديث عنه)، فإنَّ الدول الإيطاليَّة (وبالدرجة الأولى أرشيدوقيَّة توسكانة الكبرى) تكاد تكون الأولى في التاريخ الأوروبي التي تواجه جالية روسيَّة كبيرة العدد تكتسب خبرة التَّعامل المباشر مع رعايا كاترينا، وتشارك في سلسلة كاملة من التجارب الثقافيَّة والسياسيَّة.

# الفصل الثامن

## «هاجَريُّون» أم حُلَفاء؟ الاتِّصالاتُ الرُّوسيَّة - العربيَّة العسكريَّة والسياسيَّة

إ. م. سميليانسكايا

ضاعت فرصة عظيمة لإنشاء حكومة تحت حمايتنا في سوريا، عندما وقّع الرُّوس معاهدة السَّلام وتركوا ظاهِرَ العُمَر تحت رحمة جيش السُّلطان الجزَّار[1].

ف. بيرسين

أدَّى نصر شيسما وإنشاء إمارة الأرخبيل وهيمنة الأسطول الروسي في شرق البحر المتوسط بالمشاركين في الحملة إلى التَّواصل مع العالم العربي... مع أولئك «الهَاجَرِيِّين الكفَّار» الذين كانوا حتَّى حينذاك جزءًا لا يتجزَّأ من الجماعة الإسلاميَّة العثمانيَّة. كان العالم العربي بالنِّسبة إليهم عالمًا مغلقًا، مجهولًا، غريبًا من حيث إيمانُه وثقافتهُ وتنظيمُه الاجتماعيُّ السياسيّ.

لمفهوم «الهَاجَرِيِّ» كما هو معروف أصلٌ في الكتاب المقدَّس؛ إذ يُنسَبُ إلى نسل هاجر، خادمة سارة وجارية إبراهيم التي طُرِدَت إلى صحراء

(1) W. Persen, «The Russian Occupations of Beirut, 1772-74,» *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. 42, nos. 3-4 (1955), p. 284.

شبه الجزيرة العربيَّة أو شبه جزيرة سيناء[2]. على أنَّ هذا المفهوم لم ينطوِ في الأصل على معنى سلبيٍّ - كما كانت حال مصطلح الـ «بوسورمان»[3] - وقد استُخدم في الوثائق الرسميَّة أحيانًا. فمنذ القرن الخامس عشر على الأقلّ، صار يُطلَقُ على المسلمين اسم «الهاجَرِيِّن» في اللغة الروسيَّة القديمة: «يُسمَّى التتار هاجريين نسبةً إلى هاجَر»[4]؛ وفي القرن الثامن عشر أطلقت صفة «تتار» و«أتراك» على جميع المسلمين في اللغة الروسيَّة واللغات الغربيَّة. واكتسب مفهوم «الهاجَري» في الوعي الروسي معنى سلبيًّا تحت تأثير المجابهة الدينيَّة - السياسيَّة. واستُخدِم، عادةً، مقترِنًا بتعريفات كـ «غير المؤمنين»، «الكفّار»، «المرذولين من الله». ومن هنا، نَجَمَ تعبيرُ «النَّحس الهاجَري». وساد في الخطاب الرسمي إبَّان حقبة الحرب الروسيَّة - التركيَّة مصطلح «هاجَرِيُّون»، أي «أعداء المسيح».

تحت تأثير الشَّغف الباروكي[5] بالرموز التوراتيَّة والقرآنيَّة، أصبحت

---

(2) وفقًا للرواية القرآنيَّة، فإنَّ إسماعيل هو الاسم العربيُّ لابن هاجر و«للمسلم الأصيل» إبراهيم، الذي شيّد الكعبة مع أبيه. نشأ إسماعيل بين البدو وتعلم لغتهم العربيَّة، ولذا قيل: «إسماعيل ابن العرب»، وفي تاريخ العرب خلال العصور الوسطى، اعتُبر الأب المؤسِّس لسلالة الإسماعيليين، أي العرب: Т. К. Ибрагим & Н. В. Ефремова, *Мусульманская священная история: От Адама до Иисуса. Рассказы Корана о посланниках божьих* (М., 1996), с. 112-113.

[ت. ك. إبراهيم ون. ف. يفريموفا، **التاريخ الإسلامي المقدَّس: من آدم إلى يسوع، قصص القرآن عن رسل الله** (موسكو، 1996)، ص 112-113].

يُنظر أيضًا: *Полный православный энциклопедический словарь*, Репринт. Изд. (М., 1992), t. I, с. 50.

[**القاموس الموسوعي الأرثوذكسي الكامل**، طبعة مستنسخة (موسكو، 1992)، مج 1، ص 50].

(3) **البوسورمان**: تحريف اصطلاحي لكلمة «مسلم» استُخدِمَ في روسيا في الماضي للدلالة على الأجنبي «الكافر»، غير المسيحي، غير الأرثوذكسي. (المترجم)

(4) *Словарь русского языка XI-XVII вв* (М., 1975), Вып. 1, с. 20.

[**قاموس اللغة الروسيَّة في القرنين الحادي عشر والثامن عشر** (موسكو، 1975)، الإصدار الأول، ص 20].

(5) **الباروكيَّة أو الباروك** [Barouque بالإنكليزيَّة، Baroque بالفرنسيَّة، Barocco بالإيطاليَّة]: هي فترة تاريخيَّة في الثقافة الغربيَّة نشأت من طريق أسلوب جديد في فهم الفنون البصريَّة (الأسلوب الباروكّي)، أنتج أعمالًا عديدة في حقول فنية متنوعة، كالأدب، والعمارة والنحت والرسم والموسيقى والأوبرا والرقص والمسرح ...إلخ، انطلاقًا من سياقاتٍ تاريخيَّة وثقافيَّة مختلفة. برز عصر الباروك =

أسطورة طرد هاجر وإسماعيل من بيت إبراهيم إلى صحراء سيناء (أو الحجاز) رمزًا لطرد الأتراك المسلمين إلى آسيا بالنسبة إلى مسيحيِّي أوروبا وروسيا. ونعيد إلى الأذهان، هنا، كيف رتَّب القنصل الروسي تيودور ألكسيانو الإضاءة في مقرّه بـ «بورت ماغون»، خلال مناسبة الاحتفال بيوم تتويج الإمبراطورة في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1770، حيث جسَّدت النيران سارة وهي تطرد هاجَر مع ابنها إسماعيل، فيما تلتهم شعلةٌ نار أخرى المساجد التركيَّة[6]. وينبغي القول إن بطرس الأول لم ينسَ قطُّ أنَّه لا توجد صحارى رمليَّة في آسيا الصغرى، عند دعوته إلى طرد الأتراك من أوروبا إلى «خيمهم وصحاريهم، ... من حيث أتوا»، وأنَّ الأتراك الأناضوليِّين ليسوا متحدِّرين من الجزيرة العربيَّة، وإنَّما كانت الصورة التوراتيَّة عن

---

= بشكل أساسيٍّ في أوروبا الغربية خلال القرن الثامن عشر بأكمله وفي بدايات القرن الثامن عشر. وقد اتَّسمت هذه الفترة بنزاعاتٍ دينية قويَّة بين البلدان الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة، إضافةً إلى اختلافات بيِّنة في ما بين الولايات المؤيِّدة لنظام الحكم المطلق والولايات البرلمانيَّة، حيث بدأت طبقة برجوازية ناشئة بوضع أسس الرأسمالية.

تضمَّن مصطلح «باروك» خلال فترة طويلة (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) معنى تحقيريًّا، حيث اعتُبِرَ أسلوبًا خدّاعًا وغريبًا ومبالغًا فيه، إلى أن أُعيد تقويمه في ما بعد خلال القرن العشرين. وقسَّم بعض المؤرِّخين عصر الباروك إلى ثلاث فترات زمنية: فترة البدايات (1580–1630)، فترة النُّضج (1630–1680)، الفترة المتأخرة (1680–1750). ويُعتبر الفن الجديد والفن الهيليني والفن القوطي والرومانسي أمثلة على هذه المراحل الباروكية.

من خصائص الفنِّ الباروكيِّ الأساسيَّة طابعه الوهمي والمتصنَّع والزُّخرفي. فهو يسعى إلى خلق واقعٍ بديلٍ من خلال الخيال والوهم. وقد عُبِّر عنه من خلال الاحتفالات على أنواعها، وفي المباني، كالكنائس أو القصور أو الحي أو المدينة بأكملها، التي تحوَّلت جميعها إلى مسارح للحياة، بل إلى خشبات مسرح تقدِّم الحقيقة والوهم، حيث تتعرَّض الحواس إلى الخداع والاحتيال. واستنادًا إلى ذلك، حاولت الكنيسة الكاثوليكيَّة مكافحة الإصلاح، فوسمت نفسها بالبهاء والروعة لتظهر تفوُّقها على الكنائس البروتستانتيَّة، وقدّمت أعمالًا كالقداديس المهيبة، والمناسبات اليوبيليَّة والمواكب الدينيَّة، وكإعلان القداسة وتنصيب البابا. وكذلك كانت الاحتفالات الملكيَّة والأرستقراطيَّة مع بعض الأحداث كالتتويج، والزفاف، والولادات الملكيَّة والجنائز وزيارات السفراء، أو أي حَدَث يسمح للعاهل نشر سلطته لإبهار الشعب. فقد كانت الاحتفالات الباروكيَّة تشكِّل مزيجًا من كلِّ الفنون: من الهندسة المعماريَّة والفنون البصريَّة إلى الشعر والموسيقى والرقص والمسرح والألعاب النارية وتنسيق الزهور والألعاب المائية ...إلخ. (المترجم)

(6) *G. d'A.*, no. 101 (1770).

[صحيفة أمستردام، العدد 101، المؤرّخ في 18 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1770]. يُنظر في هذا الصدد، الفصل الثالث.

العالم لا تزال حيَّة في وعيه؛ تلك الصورة التي تحوَّلت في القرون الوسطى إلى فكرة عن شعب مسلم واحد، عن «هاجَرِيِّين»، «سراسنة»[7]، «أتراك»[8]، خرجوا يومًا ما من الجزيرة العربيَّة. وحدّدت هذه الصورة للعالم، إلى حدٍّ ما، الخطاب الرسمي الذي انتهجته الدعاية الروسيَّة في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة. بيد أنَّ حدس كاترينا الثانية الجيوسياسي وكذلك حدس معاونيها المقرَّبين، المرتكز على حسابات براغماتيَّة بالكامل، أوحى لها باحتمال وجود حلفاء لروسيا بين رعايا الباب العالي المسلمين في حربها مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

كان معروفًا في روسيا انسلاخُ أقاليم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة الفعلي عنها في شمال أفريقيا - الجزائر، تونس، طرابلس -؛ تلك الأقاليم التي مارس أسطولها في القرن الثامن عشر القرصنة، وشكَّل خطرًا حقيقيًّا على الملاحة الأوروبيَّة في البحر المتوسط. فرأت كاترينا الثانيَّة، في تعليماتها إلى سبيريدوف، ضرورة توجُّه غريغوري أندرييفيتش ببيان إلى بايَي الجزائر وتونس يدعوهما فيه إلى العمل المشترك، على الرغم من أنَّ هذا الأمر بدا مناقضًا لتصوُّراتها الأخلاقيَّة ولبرنامجها العقيدي المسيحي[9]؛ ولربَّما انطلقت الإمبراطورة من أهميَّة موقعي الجزائر وتونس الاستراتيجيَّين.

---

(7) السراسنة: تسمية أطلقها اليونانيُّون والرومان قديمًا، ومن بعدهم مسيحيُّو أوروبا في زمن الحروب الصليبة، على العرب. وشملت هذه التسمية جميع المسلمين خلال القرون الوسطى. (المترجم)

(8) لمزيد من التفصيل عن أصول هذه المفاهيم ومعانيها في الأدب الروسي في القرنين الرابع عشر والثامن عشر، يُنظر: С. А. Кириллина, *«Очарованные странники»: Арабо-османский мир глазами российских паломников XVI-XVIII столетий* (М., 2010), с. 245-247.

[س. أ. كيريلينا، **«الرحالة المفتونون»: العالم العربي - العثماني بِعُيون الحجاج الرُّوس في القرون السادس عشر - الثامن عشر** (موسكو، 2010)، ص 245-247].

(9) تقتصر المعلومات عن المصالح الروسيَّة في هذه المنطقة على أنَّ القنصل السويدي في الجزائر كان يمثِّلها خلال منتصف القرن الثامن عشر، وأنَّ هذه المصالح اقتصرت على نقل البضائع والركاب من الجزائر إلى الإسكندريَّة على متن السفينة «مادونا دو لا غاتسيا»، التي كانت ترفع العلم الروسي في عام 1754، وأيضًا على قيام القبطان «الروسي» فرانكوفيتش بنقل حمولات مماثلة ابتداء من عام 1757: Т. Л. Мусатова, *Россия-Марокко: далекое и близкое прошлое, Очерки истории русско-марокканских связей в XVIII-начале XX в.* (М., 1990), с. 12.

[ت. ل. موساتوفا، **روسيا - المغرب: الماضي البعيد والقريب، دراسات في تاريخ العلاقات الروسيَّة - المغربيَّة في القرن الثامن عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو، 1990)، ص 12]. =

كتبت كاترينا في الأمر السَّامي الموجَّه إلى الأميرال سبيريدوف المؤرَّخ في 15 تموز/ يوليو من عام 1769 ما يأتي: «في ما يتعلَّق بالقراصنة الأفارقة في البحر المتوسط، الذين ينطلقون من تونس والجزائر وأماكن أخرى، اتركوهم وشأنهم، على الرغم من كونهم رعايا عثمانيِّين، إلا إذا تعرَّضوا لكم بالأذى». وأكَّدت ضرورة مقاتلتهم إذا ما هاجموا أيَّ سفينة مسيحيَّة، وتحرير المسيحيِّين، على الرغم من رهانها على حياد القراصنة الوهمي؛ ثمَّ أكملت تقول: «بل أكثر من ذلك، إذا رأيتم خلال رحلتكم أنَّ ثمَّة ضرورة للتوجُّه ببيانٍ أو بغير ذلك إلى تلك الجمهوريَّات البربريَّة[10] لإبعادها من طاعة العثمانيِّين، بما يخدم عمليَّاتكم الرئيسة، فنحن نُطلق يديكم في هذا، بوصفكم قائد الأسطول العام»[11].

كما نعلم، فإنَّ حدس كاترينا خانها في هذه الحال؛ إذ قاتل داي الجزائر وباي تونس في حرب 1774-1776 ضد روسيا تحت الراية العثمانيَّة. وعلى الرغم من ذلك، لم يخفت اهتمام كاترينا ومعاونيها بهذه المنطقة، وتُشيرُ إلى ذلك الصَّلاحيات التي منحتها أ. غ. أورلوف من أجل عقد «صلحٍ جزئيٍّ» مع الباب العالي و«معاهدات مع الدول الأفريقيَّة»، في اجتماع مجلس البلاط السَّامي

= وانتشرت في مجتمع العاصمة الروسيَّة والبلاط قصص عن الجزائر وتونس للكاتب المعروف وقتذاك ف. أ. أمين (حوالى 1735-1770) الذي وُلد في اسطنبول وخدم في شبابه عند داي الجزائر. وكان أمين قد عُمِّد في الأرثوذكسيَّة بلندن، ووصل إلى روسيا في بداية عهد كاترينا الثانية، وعُيِّن في عام 1763، مترجمًا بمكتب الإمبراطورة. كان كاتبًا غزير الإنتاج ومؤلفًا للروايات الروسيَّة الأولى، متعدِّد اللغات وصاحب مصيرٍ مدهش. ينظر عنه على سبيل المثال: *Русская литература XVIII века* (M., 1979), c. 436-438.

[**الأدب الروسي في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1979)، ص 436-438].

(10) أطلق وصف «البربريَّة» على الجزائر وتونس وطرابلس، نظرًا إلى وقوعها على الساحل البربري (Barbarie) التسمية القديمة لشمال أفريقيا. وكما هو معروف، فقد أطلق اليونانيون القدماء اسم البربر على كل من لم يكن ينتمي إلى العالم اليوناني، ولم يتكلم اليونانيَّة. وتسميها كاترينا جمهوريَّة، في الأغلب بسبب انتخاب دايات الجزائر وبايات طرابلس (قبل عام 1711) وتونس (قبل عام 1710).

(11) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб., 1886), c. 373.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 373].

المنعقد في 10 آذار/ مارس من عام 1771 لمناقشة الشروط التي يُمكن أن تقوم عليها معاهدة السلام مع الباب العالي[12]. بيد أنَّ هذه الخُطَط لم تتحقَّق، ولكنْ نصَّ البند الثاني عشر من معاهدة كوتشوك - كاينارجي، التي أُبرِمَت في عام 1774 على ما يأتي: «إذا أراد البلاط الإمبراطوري الروسي عقد اتفاقيَّات تجاريَّة مع الأفارقة، أيْ مع كانتونات طرابلس وتونس والجزائر»، يأخذ الباب العالي على عاتقه «ضمان تقيُّدها بكلِّ الشروط التي يمكن أن تنصَّ عليها تلك الاتفاقيات»[13]. لم تنجح العلاقات مع الكانتون التونسي ولا مع الكانتون الجزائري، حتَّى بعد إبرام معاهدة السلام. وتطلَّب الأمر إرسال المشارك في حملة الأرخبيل ماتفي غريغوريفيتش كوكوفتسيف[14] لمعاينة شواطئها سرًّا مرتين.

---

(12) *Архив Государственного Совета (АГС), т. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II* (1768-1796) (СПб., 1869), с. 369.

[**أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية** (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، ص 369].

(13) اقتباس من: Е. И. Дружинина, *Кючук-Кайнарджийский мир 1774 г. (его подготовка и заключение)* (М., 1955), с. 289.

[ي. إ. دروجينينا، **معاهدة كوتشوك - كاينارجي 1774 (إعدادها وإبرامها)** (موسكو، 1955)، ص 289].

(14) كوكوفتسيف م. غ. (1745-1793): قبطان من الدرجة الأولى، خريج المدرسة الحربيَّة البحريَّة لأبناء النبلاء. خضع لدورة تدريبيَّة في مالطا وشارك في معركة شيسما. أبحر في منطقة الأرخبيل في الفترة 1771-1775. أُرسِل كوكوفتسيف إلى إسبانيا في نهاية عام 1775 «للتعرف إلى الأسطول والموانئ المحليَّة»، بحسب التكليف الرسمي، أما في الواقع «فلجمع المعلومات عن الوضع العسكري - السياسي في الجزائر وتونس». انتحل صفة وكيل تجاري وعاين بنزرت في تونس، وقدم نفسه إلى الباي بوصفه نبيلًا روسيًا يبغي التعرف إلى آثار قرطاجة وأوتيك [أوتيك أو «عتيقة»، هي إحدى مدن تونس، تقع في ولاية بنزرت. تعتبر من الناحية التاريخيَّة إحدى أقدم المستعمرات الفينيقيَّة في وسط شمال تونس. دعاها ابن خلدون باسم «وطاقة» (المترجم)]. زار الجزائر متظاهرًا بأنه فرنسي يعاين أطلال قيطون [تقع ما تسمى بلاد قيطون في ولاية بومرداس بالجزائر، فيها قلعة أثريَّة تُعرف بقلعة قيطون (المترجم)]. أثمرت رحلة كوكوفتسيف مؤلفين هما: «الأخبار الموثوقة عن الجزائر وطباع شعبها وعاداته» (سان بطرسبورغ، 1780)، و«وصف للأرخبيل والساحل البربري، إضافة إلى التاريخ القديم» (سان بطرسبورغ، 1780). لم ينل كوكوفتسيف ترقيات كبيرة في عمله بسبب زواجه «من زنجيَّة»، بحسب رأي ف. م. لوريه. كان بافل قنسطنطينوفيتش كوكوفتسيف، عالم اللغات الساميَّة الروسي الكبير، واحدًا من ذريته، ما يعني أن دماء أفريقيَّة جرت في عروقه أيضًا: В. М. Лурье, *Морской биографический словарь. Деятели Российского флота XVIII века* (СПб.: Информационный центр «Выбор», 2005), с. 122-123.

أثارت اهتمامَ القرَّاء الروس المستمر بأفريقيا الشماليَّة الأخبار المتعلِّقة بكلٍّ من المغرب والجزائر وتونس (وطرابلس الغرب، بنسبةٍ أقل)، وكذلك الأخبار عن العلاقات مع الدول الأوروبيَّة وحرب القراصنة والأحداث السياسيَّة الداخليَّة (من اضطرابات واقتتال داخلي وما شابه) ما كان يُنشر دوريًّا في صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**.

نجح أ. غ. أورلوف في نهاية الحرب فحسب، على ما يبدو، في إقامة علاقات سريَّة مع باي طرابلس الغرب، من بين «الكانتونات» الأفريقيَّة، طرابلس نفسها التي أسر قراصنتها المبعوثين الرُّوس غ. بابازولي وم. سارو وإ. بالاتينو في عام 1764[15]. وتنبغي الإشارة إلى أنَّ باي طرابلس علي باشا لم يشارك في حرب 1768-1774، ورفض تلبية طلب السلطان إرسال قواتٍ إلى الجيش العثماني[16]. وثمَّة أدلَّة على أنَّه كانت لديه علاقاتٌ مع حاكم مصر علي بك أيضًا[17].

يمكن الحكم على اتِّصالات أ. غ. أورلوف مع علي باشا، استنادًا إلى رسالة أورلوف الجوابيَّة غير المؤرَّخة إلى باي طرابلس، حيث يتَّضح من خلالها أنَّه كانت ثمَّة رسائل متبادلة بين أورلوف وبين الباشا، لكنَّها

---

= [ف. م. لوريه، **القاموس البيوغرافي البحري. شخصيات الأسطول البحري في القرن الثامن عشر** (سان بطرسبورغ: المركز الإعلامي «الخيار»، 2005)، ص 122-123].

(15) يُنظر الفصل الأول.

(16) Н. А. Иванов, «Государство Караманлы в Ливии,» in: *История Востока, t. III: Восток на рубеже средневековья и нового времени. XVI-XVIII вв* (M., 2000), с. 422.

[ن. أ. إيفانوف، «الدولة القرمانليَّة في ليبيا»، في: **تاريخ الشرق، مج 3: الشرق على تخوم القرون الوسطى والعصر الحديث، القرنين السادس عشر - الثامن عشر** (موسكو، 2000)، ص 422].

[حكمت عائلة قرمانلي المستقلَّة ليبيا، وانخرطت في حروب الساحل البربري في القرنين السابع عشر والثامن عشر]. (المترجم)

(17) *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 22, 16. III.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1772، العدد 22، 16. III].

ذكرت الصحيفة أنَّ علي بك انخرط في مفاوضات مع حكومتي تونس وطرابلس للعمل معًا من أجل تحقيق «الاستقلال التام» عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

لم تُفضِ إلى أيِّ نتيجة. فقد كتب ألكسي أورلوف في رسالته إلى الباشا، بخطِّه الرديء، ومن دون صراحته ودقّته المعهودتين[18]، بل بأسلوبٍ بيروقراطيٍّ متكلف ومعقَّد، هادفًا - على ما يبدو - إلى تمويه تهكُّمه على نحوٍ ديبلوماسيٍّ: «تسلَّمتُ رسالتكم المؤرَّخة في شهر ربيع الأول[19] بارتياحٍ كبير، وتوسَّمت فيها تعاطفكم النَّبيل مع أفكار صاحبة الجلالة إمبراطورة عموم روسيا، سيِّدتي صاحبة العطوفة والجبروت. كان لديَّ الكثير من الأسباب لأتوقَّع من جانبكم هذا النمط من التفكير بثقة مطلقة، لأنَّه سيتعيَّن على الشعوب والقادة التابعين للباب العالي أو المرتبطين به - بهذا الشكل أو ذاك - أن يأخذوا في اعتبارهم - بعد انتهاء الحرب ما بين الإمبراطوريَّة الروسيَّة والباب العالي وإقرار السلام المنتظر، بحكم التزامهم في ظلِّ الظروف الناشئة - آمال صاحبة الجلالة ووعودها التي أعلنتها وأكَّدتها في عهدها المقدَّس أمام العالم كلِّه، وكذلك أن يرغبوا - بناءً على ذلك - بملء إرادتهم، ومن دون أيِّ تردُّد، في أن يكونوا نافعين لبلاطنا السَّامي، بما يؤكِّد الثِّقة الرَّاسخة بالصلح المُبرَم مؤخَّرًا، الذي ستعمُّ منافعه وثماره وموجباته حتمًا كلَّ مكان، حيث يعيش أنصار الجانبين المتصالحين من إخوة الدين وأتباع الديانة نفسها. وعلى العموم، أتمنَّى لكم، حضرة الباشا الموقَّر، كلَّ الخير، وسأبقى أتطلَّع إلى كسب مودَّتكم دائمًا»[20].

باختصار، أوضح ألكسي أورلوف لحاكم ولاية طرابلس التابعة

---

(18) كتب د. ن. بانتيش كامينسكي أنَّ أ. غ. أورلوف كان مفطورًا على «الخطاب اللطيف المقتضب»: Д. Н. Бантыш-Каменский, *Словарь достопамятных людей Русской земли*, t. 4 (M., 1836).

[د. ن. بانتيش كامينسكي، **قاموس الشخصيَّات المرموقة في روسيا**، مج 4 (موسكو، 1836)].

(19) الشهر الثالث بحسب التقويم القمري. وبما أنَّ الكلام دار في رسالة أ. غ. أورلوف عن إبرام معاهدة الصلح لعام 1774، يمكن الافتراض أن رسالة الباشا كانت قد حُرِّرت في أيار/ مايو من عام 1774، أي قبل شهر ونصف أو شهرين من انتهاء الحرب. نلاحظ حرص أ. غ. أورلوف ومَن هم في دائرته على إدخال كلمات عربيَّة إلى النص.

(20) *АВПРИ*, Ф. Сношения России с Турцией, Оп. 89, Ед. хр. 1944, Л. 1-2.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، مجموعة علاقات روسيا مع تركيا، القائمة 89، وحدة الحفظ 1944، الورقة 1-2].

(للباب العالي) أنَّ إعرابه عن «التَّعاطف النَّبيل» مع البلاط الروسي لم يعد (الآن) بعد إبرام معاهدة الصلح يمثِّل مِنَّة من جانبه، لأنَّ إبداء جميع رعايا الباب العالي الاحترام لهذا البلاط لن يكون رغبة من لدنهم بل التزام. ولا يسعنا هنا إلا لفت الانتباه إلى مقدار اللباقة التي يوصِّف بها أورلوف العلاقة بين الباب العالي وبين الأقاليم التابعة له، آخذًا بعين الاعتبار موقف الباب العالي الحاد من خسارته ممتلكاته الأفريقيَّة. فهو يكتب عن «تبعيَّتها، **أو أيِّ شكلٍ من أشكال الارتباط**» بها. هذا، واستؤنفت العلاقات السريَّة بين كلٍّ من أ. غ. أورلوف وباشا طرابلس بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب. فقد أجرى الوزير الروسي المفوّض لدى الجمهوريَّة الراغوزيَّة حينذاك أ. س. موردفينوف، بين أيار/مايو 1783 وكانون الثاني/يناير 1784، بوساطة من البروفيسور د. ديل توركو الآنف الذكر[21] ونائب قنصل راغوزيا موليللو، مفاوضات في جنوى مع سفير طرابلس سيدي أحمد بشأن عقد معاهدة تحالف مع الإمبراطوريَّة الروسيَّة، بناءً على اقتراح داي طرابلس. وما لبثت هذه المحادثات أن استؤنفت في عام 1785، إلا أنَّها لم تتكلّل بالنَّجاح على ما يبدو[22].

فضلًا عن «الدول البربريَّة»، كانت مصر أيضًا موضع اهتمام روسيا، قبيل اندلاع الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى. ففي عام 1768، قبل بدء الحرب بعدَّة أشهر، تحدَّثت **أنباء سان بطرسبورغ** عن الأجواء المعادية للحكومة، المنتشرة في مناطق عدَّة من الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، وعلى وجه الخصوص ما تعلَّق منها بسياسة المصري علي بك. بيد أنَّ تعليمات الإمبراطورة إلى قائد العمارة البحريَّة غ. أ. سبيريدوف في عام 1769، عند توجُّهه إلى البحر المتوسط، لم تتضمَّن أيَّ شيء بخصوص علي بك ومصر.

---

(21) يُنظر الفصل السابع.

(22) *АВПРИ*, Ф. 48: Сношения России с Генуей, Оп. 2, Ед. хр. 2, 3, 4, 14, 15, 20, 24.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 48: العلاقات بين روسيا وجنوى، القائمة 2، وحدة الحفظ 2، 3، 4، 14، 15، 20، 24].

مع ذلك، ما لبث أن نشأت علاقات تحالفيَّة مع حاكمي الولايتين العثمانيَّتين مصر وفلسطين: علي بك والشيخ ظاهر العمر بالتحديد. ولا بدَّ من القيام برحلة في التاريخ لفهم مغزى هذه العلاقات وتقويم أهمِّيتها(23).

---

(23) أثار تعاون قيادة الأسطول الروسي في البحر المتوسط مع الحكَّام العرب، المنتفضين ضد الباب العالي، اهتمام الأوروبيِّين المعاصرين، الذين تركوا أدلَّة على تلك الأحداث. وربَّما كان مؤلِّف **التاجر اليونانيُّ** سيفير لوزينيان المقرَّب من حاكم مصر علي بك هو المصدر الأغنى بالمعلومات، الذي يتطلَّب، على الرغم من ذلك، مقاربةً نقديَّةً. ظهر هذا المؤلَّف بترجمة روسيَّة عن اللغة الألمانيَّة في سنوات الحرب الروسيَّة - التركيَّة الثانية تحت اسم: [**قصة تمرُّد علي بك ضد الباب العالي العثماني مع أخبارٍ متنوعة جديدة عن مصر وفلسطين وسورية والدولة التركيَّة، وأيضًا عن الرحلات من حلب إلى بالزور (بالميرا)** (موسكو، 1789)]. وحملت معلوماتٍ أقل مؤلَّفاتُ الرحَّالتيْن الأوروبيَّين ج. بريوس وق. ف. فولني (العالِم الموسوعي الفرنسي شاسبيوف)، المعاصرين للأحداث، المشبعين بروح عصر التوسُّعات الكولونياليَّة المبكرة. فقد اهتمَّا بالاتِّصالات الروسيَّة - العربيَّة من زاوية التغلغل الروسي في المنطقة. فتبنّى الإنكليزي بريوس وجهة النظر الشائعة وقتذاك القائلة بعدم جهوزيَّة واضعي السياسة الروسيَّة لترسيخ مواقعهم في شرق البحر المتوسط. أمَّا أخبار المعاصرين من العرب فقد كانت ضحلة المعلومات ومُتحيِّزة سياسيًّا. ويمكن أن تشكِّل الصحافة الأوروبيَّة والمحليَّة في تلك السنوات مادةً للبحث النقدي: فهي مصدرٌ متناقضٌ إلى أقصى حدٍّ، ويحوي أخبارًا صحيحة فضلًا عن كمٍّ من الأخبار غير المعقولة والتلفيقات والشائعات، علمًا أنَّ الأخبار المشار إليها تتيح أحيانًا فهم الكيفيَّة التي كانت تُرسَم بها شخصيَّات الأطراف المتصارعة لأغراض دعائيَّة.

كان ق. م. بازيلي (1809-1884) قنصل عام روسيا في بيروت، الباحث الروسي الأول في الاتِّصالات الروسيَّة - العربيَّة خلال سنوات الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)، الذي تطرَّق إليها في معرض دراسته تاريخ سوريا: К. М. Базили, *Сирия и Палестина под турецким правительством в историческом и политическом отношениях* (Иерусалим; М., 2007), а также изд.: (Одесса, 1862); (СПб., 1875); (М., 1962).

[ق. م. بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني من الناحيتين التاريخيَّة والسياسيَّة** (القدس؛ موسكو، 2007)، وأيضًا إصدارات: أوديسا، 1862؛ سان بطرسبورغ، 1875؛ موسكو، 1962]. [**ملحوظة:** صدرت ترجمة كتاب بازيلي العربيَّة في عام 1989 عن دار التقدم، موسكو. (المترجم)]

جدير بالذكر أنَّ استخدامه الحوليَّات العربيَّة ومحفوظات ذاكرة المجتمع من شواهد سمح له بتوصيف اصطفاف القوى السياسيَّة في المنطقة بدقَّة مذهلة وفق مقاييس ذاك العصر. وبفضل أصله اليوناني وعلاقاته مع زعماء النضال الوطني اليوناني، تلمَّس ق. م. بازيلي بدقَّة السيرورات القوميَّة التي كانت تعتمل في المجتمع العثماني خلال منتصف القرن التاسع عشر، وفسر استنادًا إلى ذلك أحداث نهاية القرن الثامن عشر، متوقِّعًا تفكُّك الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بنتيجة الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774). واعتبر أنَّ تقاطع الظروف السيِّئ وحده (وليس فشل السياسة الروسيَّة كما ظنَّ بريوس) هو الذي حال دون انبعاث الدولة العربيَّة المستقلَّة في مصر وسوريا والجزيرة العربيَّة: بازيلي، ص 68). =

كانت مصر وسوريا حتى الفتح العثماني في بداية القرن السادس عشر تشكِّلان سلطنة مملوكيَّة مستقلَّة، وهي دولة يعود تاريخها إلى حقبة

---

= حظي الجانب العسكري من الاتِّصالات الروسيَّة - العربيَّة بشرحٍ مفصَّلٍ ووافٍ في بحث أ. ب. سوكولوف المستند إلى مواد أرشيفيَّة محليَّة. يُنظر: А. Соколов, «Архипелагская кампания, 1769-1774 гг.,» in: *Записки Гидрографического департамента Морского министерства*, t VII (СПб., 1849).

[أ. سوكولوف، «حملة الأرخبيل، 1769-1774»، في: **تدوينات المركز الجيو-مائي لوزارة البحريَّة**، مج 7 (سان بطرسبورغ، 1849)].

لم تولِ الأبحاث اللاحقة التي تناولت حملة الأرخبيل - وصولًا إلى دراسة غ. أ. غريبينشيكوفا - تحليل الأعمال القتاليَّة في السنوات الأخيرة من الحرب إلا اهتمامًا قليلًا، ولم تُقدِّم أيّ إضافةٍ تُذكَر على البحث الجدِّي الذي قدّمه أ. ب. سوكولوف.

لم يرجع المؤرِّخون المحليُّون إلى تناول التعاون الروسي - العربي خلال الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، في سياق دراسة تاريخ العرب الحديث (ف. ب. لوتسكي، ون. أ. إيفانوف)؛ وتمثَّل أعمالهم المستندة إلى مادة واقعيَّة - أُدخِلَت في التداول خلال القرن التاسع عشر- أهميَّة تأريخيَّة في الأغلب. وهكذا، نظر ف. ب. لوتسكي إلى الأحداث بوصفها حركة تحرُّرٍ وطنيٍّ شعبيَّة مناهضة للإقطاع - وفقًا لوجهات النظر التاريخيَّة التي كانت سائدة في عصره - ورأى دور «روسيا القيصريَّة» في «تعزيز» دعم هذه الحركة بهدف إضعاف تركيا: В. Б. Луцкий, *Новая история арабских стран* (М., 1965), с. 29-31.

[ف. ب. لوتسكي، **تاريخ البلدان العربيَّة الحديث** (موسكو، 1965)، ص 29-31].

أمَّا ن. أ. إيفانوف فقد نظر إلى هذه الأحداث السياسيَّة بوصفها بروزًا للنزعة الانفصاليَّة العربيَّة وصراعًا فوقيًّا بين «القصور»، عُمِلَ خلاله على حلّ مسألة إحياء كيان الدولة العربيَّة. ووجَّه إلى علي بك تهمة التردُّد والتقاعس عن إقامة التعاون مع روسيا، وإلى الشيخ ظاهر تهمة التَّصالُح مع السلطان ورفض الحماية الروسيَّة: *История Востока*, t. III, c. 401, 407, 417-418.

[**تاريخ الشرق**، مج 3، ص 401، 407، 417-418].

بدوره، وضع ستيغني ب. ف. (اسم ب. بيرينوف المستعار) - بوصفه ديبلوماسيًا وباحثًا في العلاقات الدوليَّة - سلسلة مقالات لدراسة هذه المسائل من زاوية تاريخ العلاقات الروسيَّة - العربيَّة. فوسَّع قاعدة المصادر، واستخدم الدراسات التاريخيَّة الأوروبيَّة الغربيَّة، ونجح في تقديم صورة أكثر تفصيلًا عن اتِّصالات علي بك السياسيَّة مع أ. غ. أورلوف، وعلاقات التعاون بين العرب والأسطول الروسي إبَّان الأعمال الحربيَّة وصداها في الدوائر الاجتماعيَّة الروسيَّة والأوروبيَّة الغربيَّة. وفسَّر الأحداث بوصفها دعمًا روسيًا لحركة التحرّر الوطنيَّة: П. Перминов, «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII в.,» *Азия и Африка сегодня*, nos. 7-8 (1987).

[ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسيَّة - العربيَّة في القرن الثامن عشر»، **آسيا وأفريقيا اليوم**، العددان 7-8 (1987)]. =

= قدم ت. ي. كوبيشانوف مقاربة جديدة للموضوع في إطار دراسة تصوُّر العرب عن الرُّوس، ممَّا سمح له برؤية الأحداث بعيون المؤرِّخين العرب. ولم يكتفِ كوبيشانوف بإعادة تكوين صورة الأعمال القتاليَّة على نحوٍ جليٍّ وكاملٍ، وبإظهار وجه الحرب الآخر الدموي، الذي جلب للشعب المصائب والآلام وأظهر موقف عامَّة الشعب من أعمال الأسطول الروسي، هذا الشعب الذي كانت أفكار إحياء كيان الدولة العربيَّة غريبة عنه، وكاد يعتبر الأحداث مجرَّد غاراتٍ قرصنيَّةٍ وعقابٍ على الخطايا، تتساوى مع جشع جباة الضرائب وتعسُّف الجنود العثمانيين والكوارث الطبيعيَّة. يُنظر: Т. Ю. Кобищанов, «Крест над Бейрутом: российская экспедиция в Восточное Средиземноморье 1769-1774 гг. в восприятии сирийских современников,» *Вестник МГУ*, Сер. 13: *Востоковедение*, no. 2 (2009), с. 20.

[ت. ي. كوبيشانوف، «صليب فوق بيروت: الحملة الروسيَّة في شرق البحر المتوسط 1769–1774 في تصوُّرات المعاصرين السوريين»، **نشرة جامعة موسكو**، السلسلة 13: **الاستشراق**، العدد 2 (2009)، ص 20]. أولى علم التاريخ الأوروبي الغربي دراسة الأحداث التي نتناولها اهتمامًا ضعيفًا، إلا أنَّها حظيت باهتمام المؤرِّخين الفرنسيِّين، حيث سنحت لهم فرصة استخدام رسائل القناصل الفرنسيِّين في سوريا إلى وزارة خارجيتهم المحفوظة في الأرشيفات الفرنسيَّة. ومن بين الكتب الفرنسيَّة المبكرة نذكر مؤلَّف إدوارد لوكروا ذا الطابع «الاستشراقي» الزاخر بالنكات والشائعات غير الموثوقة: E. Lockroy, *Ahmed le Boucher: La Syrie et l'Égypte au XVIIIe siècle* (Paris, 1888).

خرج إلى النور في عام 1928 العمل التأسيسي للفرنسي شارل رو عن تاريخ «الوكالات» الفرنسيَّة في سوريا وفلسطين في القرن الثامن عشر، الذي تطرَّق إلى الموضوع الذي نحن في صدده: F. Charles-Roux, *Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe Siècle* (Paris, 1928).

كما ظهرت خلال الفترة بين عامي 1927 و1930 مقالات لأوريان تتناول على وجه الخصوص موضوع التعاون الروسي – العربي في عصر كاترينا الثانية تحديدًا: Auriant, «Catherine II et l'Orient, 1770-1774 (Documents inedit),» *L'Acropole* (Paris), vol. 5, nos. 3-4 (1930), pp. 188-220; Auriant, «Les Corsaires grecs allies de la Russie, 1787-1789 (Documents inedit),» *L'Acropole*, vol. 9, no. 33 (1934), pp. 20-28; Auriant, «Un agent de Catherine II en Egypte: M. de Thonus (1784-1789),» *L'Acropole*, vol. 2, no. 6. (1927), pp. 112-127; Auriant, «Un aventurier vénitien en Égypte: Carlo Rossetti,» *L'Acropole*, vol. 4, nos. 15-16 (Juillet- Decembre 1929), pp. 175-193.

حملت كلُّ هذه الأعمال طابع العداء للسياسة الروسيَّة في شرق البحر الأبيض المتوسط التي ألحقت الضرر بمواقع التجارة الفرنسيَّة المشرقيَّة. وكان مؤلِّفوها يميلون إلى تقويم عمليَّة الأسطول الروسي في سوريا بوصفها غارات قرصنة على المدن العربيَّة. واتسمت مقالة ف. بيرسين المقتضبة، التي ظهرت في برنامج البحوث العربيَّة بالجامعة الأميركيَّة في بيروت، واستخدمها المؤرِّخون العرب مصدرًا إضافيًّا – إلى جانب المصادر المتداولة – بموضوعيَّة أكبر وبتقويمٍ أكثر توازنًا. بيد أنَّ هذا الباحث لم يأخذ بعين الاعتبار، للأسف، اصطفاف القوى على المسرح الدولي وإمكانات المشاركين في الأحداث عسكريًّا وسياسيًّا بشكلٍ كافٍ: فقد افترض أنَّ روسيا – التي امتنعت عن الدفاع عن المصالح العربيَّة عند إبرام معاهدة كوتشوك – كاينارجي – فوَّتت على نفسها فرصة إقامة دولة تحت حمايتها في سوريا.

هكذا، لا تزال توجد إلى الآن تباينات جديَّة في تأويل التعاون الروسي – العربي في أثناء الحرب الروسيَّة – التركيَّة، ناهيك بوجود الكثير من المغالطات في عرض الأحداث. ولا تزال عمليَّة تقارُب =

برُمَّته[24]. اكتسبت السلطنة هذا الموقع بفضل مرور الطرق التجاريَّة الدوليَّة عبر أراضيها، بحيث ربطت أوروبا بإيران والهند والصين وجنوب شرق آسيا وأفريقيا الداخليَّة، فضلًا عن أهمِّية السلطان المملوكي السياسيَّة والدينيَّة في العالم الإسلامي، بوصفه حاميًا للمدينتين المقدَّستين، مكَّة والمدينة. ففي القاهرة ودمشق، كانت تتشكَّل قوافل الحجاج التي تنقل المَحْمَل مع غطاء الكعبة المقدس إلى مكَّة، والهدايا والنفقة إلى أشراف الحجاز، حراس أماكن عبادة المسلمين؛ فكان عشرات الآلاف من الحجَّاج من كلِّ أنحاء العالم يتوافدون إليها ضمن هذه القوافل. وكان من الطبيعيِّ أن يتمتَّع السلطان، حارس المدينتين المقدَّستين والمدافع عنهما، بهيبةٍ خاصَّة في العالم الإسلامي.

بيد أنَّ السلطنة المملوكيَّة سقطت تحت ضغط الجيوش التركيَّة، وتنازلت للإمبراطوريَّة العثمانيَّة عن موقعها المهيمن في الشرق الأوسط[25]. وتحوَّلت

---

= الجانبين المرتبكة (بسبب التعارض الديني بين الدولتين المتحاربتين) غير مدروسة حتَّى الآن. ويبقى السؤال عن معنى العمليَّات السياسيَّة التي جرت في العالم العربي مطروحًا للنقاش، بما يعني مشاركة المجموعات الاجتماعيَّة المختلفة فيها وتأثُّرها (العمليَّات) بالحرب الروسيَّة - العربيَّة والاتِّصالات التي تخلَّلتها.

(24) يُنظر: Н. А. Иванов, *Османское завоевание арабских стран, 1516-1574* (М., 1984).

[ن. أ. إيفانوف، **الفتح العثماني للدول العربيَّة، 1516-1574** (موسكو، 1984)]. [صدرت ترجمة الكتاب العربيَّة عن دار الفارابي، بيروت، 1988]. (المترجم)

(25) حدث هذا عند نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث، عندما حصل تحوُّل تكتوني غيَّر خريطة العالم الجيوسياسيَّة. والكلام يدور على الاكتشافات الجغرافيَّة العظيمة، التي كان الدافع إليها البحث عن طرق بحريَّة نحو الأسواق الشرقيَّة، وكذلك الفتوحات الاستعماريَّة المبكرة في المحيط الهندي المتزامنة مع نشوء إمبراطوريات جبارة في الشرق: التشينغ في الصين، المغوليَّة في الهند، الصفويَّة في إيران، العثمانيَّة التي امتدت على مساحات واسعة من غرب آسيا وشمال أفريقيا والبلقان. وفي معرض «الردِّ المُوَازي» على امتلاك الأوروبيِّين الخطوط البحريَّة إلى آسيا، استقرَّت تلك الإمبراطوريات على طرق المواصلات البريَّة التجاريَّة الأساسيَّة من آسيا إلى أوروبا. وبكلام آخر، يمكن النظر إلى تلك المتغيِّرات الجيوسياسيَّة باعتبارها نتيجة للصراع على طرق المواصلات التجاريَّة. وفي نهاية المطاف، حفَّز هذا الصراع تطوُّر البورجوازيَّة في أوروبا، أو في الدول المتقدِّمة على الأقل. أمَّا النُّخب السياسيَّة الشرقيَّة فقد اكتفت بالاستيلاء على الأراضي وبعائدات الحرب والجمارك التي راكمت ثروات خياليَّة في أيدي السلالات الحاكمة، ولم تُرْسِ شروط تطوُّر شعوبها على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي. ولم تكن الإمبراطوريات الشرقيَّة الناشئة كيانات سياسيَّة آنيَّة عابرة، بل تركت آثارًا على التطوُّر الثقافي وعلى الارتقاء السياسي اللاحق في المناطق التي نشأت فيها.

هذه الإمبراطوريَّة، التي ضمَّت كلَّ مناطق جنوب غرب آسيا والبلقان تقريبًا، فضلًا عن شمال أفريقيا (باستثناء المغرب)، إلى سيّدةٍ لبحارٍ خمسة: الأسود، مرمرة، إيجة، الأبيض المتوسط، الأحمر. وهدَّدت أوروبا بالفتح مرَّتين (حصار فيينا في العامين 1529 و1683)، وأنشأ باباوات روما اتِّحادًا للدول الأوروبيَّة في المرَّتين(26)، من أجل النضال المشترك ضد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وراودت تفكير الملوك الأوروبيين أكثر من مرَّة مشاريعُ طرد الأتراك إلى آسيا بقوَّة الشعوب والدول المسيحيَّة(27). وانتهت قرونٌ من المواجهات المسلَّحة مع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بخسارة الأتراك بعض المناطق، وبإبرام معاهدات صلح تحوَّل الباب العالي بموجبها تدريجًا إلى عضوٍ في «محفل القوى الأوروبيَّة». برزت في القرن الثامن عشر، كما هو معروف، ظاهرات تأزُّم عميقة في حياة الإمبراطوريَّة العثمانيَّة(28) تجلَّت بالدرجة الأولى، في وهن سلطة الدولة المركزيَّة، وفي نمو النزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة (الجهويَّة)(29). وتمثَّل الدافع

---

(26) هزمت الرابطة المقدَّسة التي تألَّفت من إسبانيا والبندقيَّة ومالطا وجنوى وسافوي [دوقيَّة تاريخيَّة عاصمتها تورينو، عند جبال الألب إلى جنوب شرق فرنسا وشمال غرب إيطاليا. (المترجم)] ودول إيطاليَّة أخرى الأسطول العثماني عند ليبانتو [مدينة في اليونان على ساحل خليج كورنث الواقع بين شبه جزيرة بيلوبونيز وبين الجزء الأساسي من اليونان. (المترجم)] في عام 1571. كما وجَّهت الرابطة المقدَّسة التي أنشأها البابا إينوسنت الحادي عشر وشملت كلًّا من النمسا وبولندا والبندقيَّة ومنظمة فرسان مالطا وروسيا (التي انضمت إليها في ما بعد) عدَّة ضربات إلى الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، انتهت بإبرام صلح كارلوفيتس (كارلوفجة) في عام 1699.

(27) أفكار كلٍ من هنري الثامن (1589–1610) ووزيره سيوللي وبطرس الأول و«مشروع كاترينا الثانية اليوناني». وكانت هذه المشاريع، في كلِّ مرَّة، تتوخَّى أهدافًا سياسيَّة خاصَّة.

(28) يُنظر في هذا الصدد: M. C. Мейер, *Османская империя в XVIII в.: Черты структурного кризиса* (M., 1991).

[م. س. مير، **الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في القرن الثامن عشر: ملامح الأزمة البنيويَّة** (موسكو، 1991)].

(29) أدخل ن. إ. إيفانوف مفهوم «النزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة العربيَّة» في دراسات المستعربين الرُّوس، وافترض بن «مشاعر النزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة العربيَّة... وجدت تعبيرها سواءٌ أفي إحياء تقاليد نظام الدولة المحلِّي أم في إيقاظ وعي البورجوازيَّة الأرستقراطيَّة التاريخي (قصد ن. أ. إيفانوف، الزعامة المدينيَّة العربيَّة - المؤلفة)، أم في تقديس العادات العربيَّة واللغة. كان هذا لا يزال بعيدًا عن القوميَّة؛ وعلى الرغم من ذلك، وجدت هذه النزعة الإقليميَّة نفسها بشكلٍ واضح إلى حدٍّ ما، في موقع النقيض للعدميَّة القوميَّة التي ميَّزت العثمانيَّة الكلاسيكيَّة، فكانت بوصفها الشكل البدائي الذي =

إلى ولادة النزعة الاستقلاليَّة العربيَّة[30] إلى حدٍّ بعيد في العلاقات الاقتصاديَّة والثقافيَّة العالميَّة الجديدة، التي أسهم الانخراط فيها في وعي العرب لهويَّتهم ومصالحهم الخاصَّة (وليس من قبيل المصادفة أن يتوجَّه علي بك إلى المصريِّين، داعيًا إيَّاهم إلى «تذكُّر ماضيهم المجيد»، قاصدًا بذلك، على ما يبدو، ازدهار السلطنة المملوكيَّة)[31].

استرشد كلٌّ من علي بك في مصر وظاهر العمر في فلسطين بالمصالح الإقليميَّة في سياستهما، مدفوعَيْن بطموحاتٍ سلطويَّة خاصَّة، الأمر الذي أثار ردَّة فعل حادَّة لدى اسطنبول. فقد كانت مصر بمثابة أهراء العاصمة، وأمَّا تجارتها وصناعاتها الحرفيَّة فقد كانت تعود على الباب العالي بإيرادات كبيرة. وكانت القوات المسلحة العثمانيَّة المتمركزة في مصر تضمن استقرار الإمبراطوريَّة السياسي في الجنوب، فضلًا عن مسؤوليتها في حفظ الأمن بالحجاز. وبدورها، كانت سوريا بمثابة رأس جسر عسكريٍّ – سياسيٍّ مهمٍّ بالنسبة إلى الإمبراطوريَّة العثمانيَّة، إذ كانت تؤمِّن التواصل مع المناطق التابعة للباب العالي في شبه الجزيرة العربيَّة وفي أفريقيا، وتمدُّ الحروب التركيَّة

---

= اكتسبه الوعي الوطني»: *История Востока*, t. III, c. 395.

[تاريخ الشرق، مج 3، ص 395].

(30) **النزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة** أو الجهَوِيَّة (Regionalisme): مصطلح يُستخدم في السياقين السياسي والإداري. تهدف هذه النزعة إلى تطبيق اللامركزيَّة وإلى إبراز خصائص إقليمٍ ما اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وتعزيزها، ورفعه نحو نظام دولة الأمة، وذلك بالدفاع عن هذه الخصائص وحفظها في إطار الدولة من خلال المطالبة بمنح صلاحيات أوسع أو بحكم ذاتي للإقليم. ويستخدم مصطلح الجهويَّة للدلالة على اتِّجاه الدولة المركزيَّة لمنح الجهات أو الأقاليم سلطات إداريَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة، وهو على العكس من مصطلح النزعة الانفصاليَّة الذي يعني رغبة الانفصال عن الدولة بأساليب عنفيَّة أو سلميَّة. (المترجم)

(31) ينقل سيفير لوزينيان كلمات علي بك التي توجَّهَ بها إلى وجهاء المماليك المدعوِّين إلى اجتماع (الديوان): «إذا كانوا يرغبون في التحرُّر من السلطة الاستبداديَّة، فهذا هو الوقت الأفضل والأنسب لذلك، لأنه عندما يكون السلطان مشغولًا بالحرب الروسيَّة، فلن يجدوا ظروفًا أفضل من أجل استعادة حقوقهم التليدة وحريتهم»: С. Лузиньян, *История о возмущении Али-бея против Оттоманской Порты с различными новыми известиями о Египте, Палестине, Сирии и Турецком государстве также, о путешествиях из Алеппа в Бальзору*, Пер. с нем. А. Алексеева (М., 1789) c. 59.

[س. لوزينيان، **قصة تمرُّد علي بك على الباب العالي العثماني مع أخبارٍ جديدة متنوِّعة عن مصر وفلسطين وسورية والدولة التركيَّة، كما عن الرحلات من حلب إلى بالزورا** [تدمر (المترجم)] تحقيق أ. أكسييفا (موسكو، 1789)، ص 59].

بالقوى المسلَّحة، وتقوم بوظيفتها السياسيَّة - الدينيَّة الرئيسة المتمثِّلة بخدمة قافلة الحجِّ المقدَّسة، فكان هذا كلُّه يتطلَّب فرض رسوم ضريبيَّة على سكَّان الإيالات السوريَّة.

بعد القضاء على السلطنة المملوكيَّة، منح الأتراك مصر وضعًا خاصًّا، لا ينجم عنه إجراء تحوُّلات كاملة في بنيتها الاجتماعيَّة - السياسيَّة، بما يتلاءم مع النظام البيروقراطي المتطوِّر نسبيًا في الإمبراطوريَّة ولتنظيم الجيش على أساس محاربين فرسان (عسكري إقطاعي)[32]. ونتيجةً لذلك، إلى جانب مؤسَّسات السلطة التركيَّة التي يرأسها الحكام - الولاة، المُرسَلون من اسطنبول برتبة وزير عادةً، أُعِيدَ في مصر - منذ نهاية القرن السابع عشر - إحياء السلطة المملوكيَّة التقليديَّة برئاسة شيخ البلد - رأس النخبة المملوكيَّة - المنتخب من بين البكوات المماليك[33].

في القرن الثامن عشر مالت كفَّة ميزان القوى السياسيَّة في مصر بشكلٍ ملحوظٍ لصالح النُّخب المملوكيَّة. وصار شيخ البلد هو القابض الفعلي على زمام السلطة العليا. أمَّا رؤساء الوحدات الإداريَّة - الإقليميَّة الكبرى وقادة

(32) كان جيش الإمبراطوريَّة العثمانيَّة منذ نشوئها يقوم على الفرسان المحاربين. وكانوا ينقسمون إلى فئتين: تألَّفت الفئة الأولى من الفرسان المحاربين في الحاشية الإمبراطوريَّة الذين كانوا يتقاضون مرتَّباتهم لقاء خدمتهم؛ فيما تألفت الفئة الثانية من الفرسان المحاربين الإقطاعيِّين الذين يتملَّكون الأراضي على نحوٍ مشروط، أي مقابل دفع مبالغ معيَّنة للسلطنة، فكلَّما ازدادت المبالغ المدفوعة توسَّعت مساحة الأراضي التي يتملَّكونها، ومن لم يوجد منهم فيها تُسحب منه ملكيَّة الأراضي. (المترجم)

(33) امتلك زعماء البيوتات المملوكيَّة ألوفًا من المماليك، الذين كانوا يُشتروْن يُفَّعًا في الأسواق التركيَّة. (أوجد الاحتلال العثماني لساحل البحر الأسود والقوقاز، كما غارات تتار القرم، أسواقًا واسعة للرقيق من سكَّان جنوب روسيا والقوقاز الذين كان يُؤسَرون). وكان المملوك يبقى عبدًا طالما هو في مرحلة الإعداد العسكري، ثم يُعتَقُ بعد اعتناقه الدين الإسلامي وتقبله الثقافة الإسلاميَّة، ليصبح عضوًا في البيت المملوكي. وكان أرباب البيوتات المملوكيَّة الكبيرة يسعون إلى ترقية أفراد بيتهم إلى مرتبة البك المملوكي وإدماجهم في النظام الإداري - العسكري. عن النظام المملوكي، يُنظر:

В. Е. Смирнов, «Мамлюкские институты как элемент военно-административной и политической структуры османского Египта,» in: *Одиссей. Человек в истории. Рыцарство: реальное и воображаемое* (М., 2004), с. 144-169.

[ف. ي. سميرنوف، «المؤسَّسات المملوكيَّة كأحد عناصر البنية الإداريَّة - العسكريَّة والسياسيَّة في مصر العثمانيَّة»، في: **أوديسيا. الإنسان والتاريخ. الفروسية: الواقع والمتخيل** (موسكو، 2004)، ص 144-169].

قطعات الجيش العثماني المتمركزة في مصر - أو حتى أصحاب الرتب العالية في الجهاز البيروقراطي العثماني - فقد أصبحوا في أغلبيتهم بَكَوَات. بيد أنَّ هذا التعايش بين السلطة البيروقراطيَّة العثمانيَّة الواهنة ونخب النِّظام المملوكيِّ - الفاقد للهرميَّة السلطويَّة الصارمة، القائم على العلاقات الشخصيَّة المتبادلة - بدا فاقدًا للأهليَّة في المنظور التاريخي. فالذي أضعف هذا النظام بالدرجة الأولى ذاك الصراع الداخلي بين البيوتات المملوكيَّة على أساس التنافس الحادِّ بين أعضائها، الذي عمل الباشاوات العثمانيُّون على تأجيجه بمهارة. وقد خفتت هذه المنافسة بعض الشيء في منتصف القرن الثامن عشر بفضل هيمنة أسرة القازدوغلي، التي تمكَّنت من إزاحة الباشاوات العثمانيِّين عن السلطة الفعليَّة. وبرز بين مملوكي هذه الأسرة في تلك الفترة علي بك الكبير، الذي تميَّز بذكائه الحادِّ وطموحه وثقافته وتسلُّطه وقسوته[34].

---

(34) وُلد علي بك الكبير 1728-1773، بحسب رواية ب. ماروتسي، وس. لوزينيان، ن. أ. إيفانوف في القوقاز (في أبخازيا) في عائلة كاهنٍ سلافي. يُنظر: *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Вене цией, Ед хр. 44, Л. 87; Лузиньян, с. 43; *История Востока*, t. III, c. 416.

[**أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقيَّة، وحدة الحفظ 44، الورقة 87؛ لوزينيان، ص 43؛ **تاريخ الشرق**، مج 3، ص 416].

وقد اكتفى كلٌّ من المؤرِّخ السوري عبد الكريم رافق والباحث الأميركي د. كريسيليوس في كتابيهما بالقول إنَّ علي بك كان شركسيًّا، أي إنه كان ينتمي إلى الاتحاد الذي ضمّ عددًا من الإثنيَّات القوقازيَّة [شركس، أبخاز، مرغلان وهم فئة عرقيَّة من الجورجيين، وغيرهم. (المترجم)]، حيث اختطف في سن الخامسة عشرة، ونقل إلى مصر. وفي عام 1743 تقريبًا أهداه ملتزم جمارك يهوديٌّ إلى أسرة قازدوغلي حيث ترعرع. حقَّق علي بك بدعم من سيِّده حيثيَّة رائعة، إذ أصبح حاكم منطقة (كاشفًا) في عام 1749، وبيكًا في عام 1755، ثم شيخ البلد في عام 1760. (افترض ن. أ. إيفانوف أنَّ هذا الحدث حصل في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1757). وفي عام 1766، خلال الصراع بين مجموعات المماليك، أُقيل ونُفي إلى الحجاز، وفي طريقه إلى هناك هرب إلى فلسطين حيث أنشأ أو عزَّز علاقات الصداقة التي كانت قائمة مع الشيخ ظاهر العمر. ولعلَّهما بدآ مُذَّاك وضع خططهما المشتركة لاقتسام السلطة على سوريا. ولم يتسنَّ لعلي بك تثبيت نفسه في منصب شيخ البلد إلا في عام 1767. وكان بيته حينذاك يضم نحو 3000 مملوك. وفي عام 1768 نكّل بأعدائه من دون رحمة: فأزاح في الربيع ضباط الإنكشاريَّة بعد صراع مسلَّح واستبدل بهم مماليكه، وفي أيلول/ سبتمبر من العام نفسه (إبَّان الحرب الروسيَّة - التركيَّة) ارتكب مذبحة بِبَكَوَات البيوتات المعارضة، فـ «أنجز بها ثورته»، بحسب قول د. كريسيليوس (في كتابه، ص 55). وأرسل علي بك في فترة لاحقة قواتٍ عسكريَّة إلى الجنوب لمواجِهَ اتحاد قبائل خفار البدويَّة القوي، الذي تعرَّض للهزيمة وخسر زعيمه هُمام. وهكذا، نعمت مصر بالهدوء، وتعزَّزت خزينة علي بك بفضل وضع اليد على ممتلكات الخصوم المهزومين: =

أرسى علي بك بداية نهجٍ جديدٍ في السياسة المصريَّة، فأقام علاقاتٍ علنيَّةً مع الأوروبيين متخطِّيًا صلاحيات السلطان (دعا مستشارين أوروبيِّين من أجل إنشاء وحدة مدفعيَّة في جيشه، عندما كان يجهِّز حملته على سوريا). وضمَّت دائرته المقرَّبة مسيحيين أقباطًا وتجَّارًا من البندقيَّة واليونان. ويشهد تعاطف شيخ البلد مع المسيحيِّين على تسامحه الديني وعلى بُعْدِ نظره وسَعْيِه إلى التخلِّي عن النزعة الانعزاليَّة الشرقيَّة التقليديَّة، على الرغم من استياء الأوساط الإسلاميَّة المصريَّة المتمسِّكة بالتقاليد. ووقف علي بك في مواجهة الباب العالي، مُحاوِلًا توحيد الجهود مع جارَيْهِ حاكِمَي طرابلس وتونس، وكذلك مع الحبشة المسيحيَّة[35]. وأقام، أخيرًا، علاقاتٍ تحالفيَّةً مع روسيا عدوَّة السلطان، في أثناء الحرب الروسيَّة - التركيَّة.

لا أساسَ في رأينا لاعتبار علي بك مُصلِحًا، ناهيك بالمقارنة بين أعماله وإصلاحات بطرس الأكبر[36]؛ لكنْ من الواضح أنَّه سعى إلى إقامة دولةٍ مستقلَّةٍ على غرار السلطنة المملوكيَّة، من دون أن يقطع العُرَى الدينيَّة - السياسيَّة التي كانت تربطه بالسلطان على نحو حاسم، محاولًا جمع وظائف رئاسة الجهاز الإداري العثماني وزعامة المماليك في يدٍ واحدة.

أوْلَى علي بك تطوير التجارة الخارجيَّة اهتمامًا خاصًّا، وكانت تلك

Abdul-Karim Rafeq, *The Province of Damascus, 1723-1783* (Beirut, 1966), p. 250; D. Crecelius, *The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Bey Aby Al-Dhahab, 1760-1775* (Minneapolis; Chicago, 1981), p. 44.

(35) أبلغ المركيز كافابولكو في 28 أيار/مايو 1770 من مالطا أنَّ السفينة الفرنسيَّة التي وصلت من دمياط في أواخر شهر نيسان/أبريل حملت أخبارًا كان من ضمنها أنَّ «علي باشا رفض من القاهرة تقديم أيِّ مساعدة للسلطان، وأنَّه قتل بعض أعضاء الحكومة البالغ عددهم أربعةً وعشرين، مِمَّن مالوا إلى جانب الأتراك، وهذا ما جعله سيدًا مستقلًا، ومكَّنه من توقيع اتفاق تعاون متبادل مع حاكم الحبشة»: *АВПРИ*, Ф. 66/6, Сноше ния России с Мальтой, Ед. хр. 74, Л. 22.

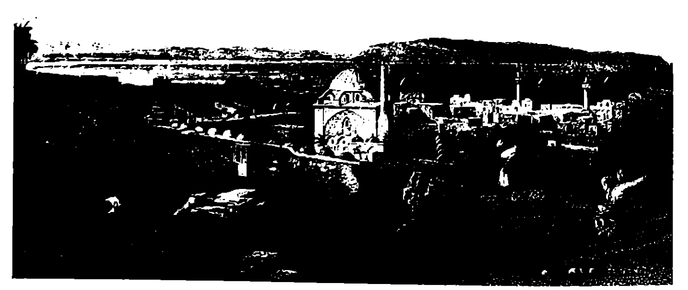
[أرشيف السياسة الخارجيَّة للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 66/ 6، علاقات روسيا مع مالطة، وحدة الحفظ 74، الورقة 22].

(36) يُنظر: «Османский Египет и североафриканские вилайеты в XVIII в.,» in: *стория Востока*, t. III, c. 417.

[«مصر العثمانيَّة والولايات الأفريقيَّة الشماليَّة في القرن الثامن عشر،» في: تاريخ الشرق، مج 3، ص417].

ميزة العصر؛ فأزاح التجَّار والصرَّافين (المُرابين) اليهود الذين كانوا يتمتَّعون بحماية بلاط السلطان من الخدمة الجمركيَّة، ونكَّل بهم بقسوة، وأحلَّ ممثِّلي طائفة الرُّوم الكاثوليك اللاجئين من سوريا محلَّهم، وخلق مناخًا ملائمًا لتطوُّر التجارة الأوروبيَّة. واستحصل على رخصةٍ لإبحار السُّفن الأوروبيَّة في البحر الأحمر، وصولًا إلى السويس، من أجل توجيه التدفُّقات التجاريَّة من الهند عبر الطريق الأقصر الأكثر أمانًا من تلك التي تمرُّ عبر الخليج الفارسي أو تلتفُّ حول أفريقيا. فوفَّر ذلك إيرادات إضافيَّة إلى الجمارك المصريَّة.

كانت علاقات علي بك مع السلطان متوتِّرة عشيَّة الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774). فقد أبعد الباشاوات العثمانيِّين عن مصر بشكل تعسُّفي، وقلَّص المدفوعات الضريبيَّة السنويَّة إلى الخزينة العثمانيَّة تحت ذرائع متعدِّدة؛ لكنَّه استمرَّ يقدِّم الهدايا إلى السلطان ويُظهِر له آيات التبجيل، على ما يؤكِّد د. كريسيليوس[37].



منظر عكا في مطلع القرن التاسع عشر

(37) Crecelius, p. 71.

لم يكن الوضع السياسيُّ الداخليُّ في سوريا إبّان الحرب مؤاتيًا بالنسبة إلى الباب العالي، على الرغم من أنّها لم تشهد نزعاتٍ تدعو إلى توحُّد اجتماعي - سياسي، خلافًا لِما جرى في مصر. فقد تميَّزت سوريا عن مصر بعدم تجانس بنيتها السياسيَّة الداخليَّة، وبتنوُّعِ سكَّانها الكبير من حيث إثنيَّاتهم وطوائفهم. ترسَّخت الإدارة العثمانيَّة التقليديَّة في الكيانات الإداريَّة الاقليميَّة الكبيرة: الإيالات، مع مراكز لها في حلب ودمشق وصيدا وطرابلس. وغابت الحدود الواضحة في شرق سوريا، حيث كانت تلك أراضٍ لاتِّحادات العشائر البدويَّة الخارجة على سلطة السلطان عمليًّا، التي تشكل خطرًا دائمًا على المزارعين. بيد أنَّ جبل لبنان الممتدَّ على طول البحر - موطن الدروز والموارنة - تمتَّع بالحكم الذاتي تاريخيًّا. وأخيرًا، نشأت في فلسطين - جنوب سوريا - إمارة الشيخ ظاهر العمر التابعة للباب العالي على قاعدة مؤسَّسات الإدارة العثمانيَّة.

اضطلعت ولاية دمشق بدورٍ سياسيٍّ محوريٍّ في سوريا، وظلَّ عثمان باشا الكرجي (أو الغورجي، أي الجيورجي)[38] واليًا على دمشق منذ عام 1760. كان عثمان باشا مخلصًا للسلطنة خلافًا لعلي بك وظاهر العمر، وبعيدًا من النزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة العربيَّة، إذ نَهَجَ سياسةَ تهدئةِ المجموعات المتصارعة في دمشق، ولم يُثقل كاهل أصحاب الحِرَف والتجَّار بالإتاوات، ما أكسبه سمعةً حسنةً بين الدمشقيِّين. كما حارب في الوقت نفسه النزعات الانفصاليَّة في إيالته بحزم، وفرض ضرائب استثنائيَّة على سكَّان الريف، فأثار بذلك سخط مُلَّاك الأرض وسكَّان مدن الأطراف، وقد شهدت على ذلك انتفاضةُ يافا والرَّملة (1767) المدعومة من الشيخ ظاهر العمر المعادي لوالي دمشق[39]. وُلِدَت العداوة بين الرَّجلين على أرضيَّة المنافسة على السلطة: فقد انتشر نفوذ الشيخ

(38) لم يكن عثمان باشا يومًا مملوكًا لآل العظم، الوجهاء السوريِّين الذين شغلوا منصب الولاة السوريِّين على مدى أربعة أجيال خلال القرن الثامن عشر. حصل على لقب الصادق لقاء تزويده السلطان بمعلوماتٍ عن المخابئ السريَّة التي حُفظت فيها كنوز سيِّده أسعد العظم الذي أُعدِمَ وصودرت ممتلكاته. أُدخل لقاء هذه الخدمات في دائرة البيروقراطيَّة العثمانيَّة، فعُيِّن واليًا على طرابلس، ومن ثمّ على دمشق.

(39) Rafeq, pp. 234-251.

ظاهر السياسيُّ خارج حدود فلسطين، وامتدَّت ممتلكاته المتنامية إلى أراضي إيالة دمشق. علاوة على ذلك، انتمى كلاهما إلى أوساط متباينة من النُّخبة السياسيَّة السوريَّة: منهم المُوالون للباب العالي ومنهم المناهضون له، ومنهم كذلك المتعصِّبون دينيًّا أو المتسامحون، فضلًا عن الانعزاليِّين أو أنصار تطوير الاتِّصالات مع أوروبا.

تحدَّر الشيخ ظاهر العمر الزيداني (نحو 1690–1775) من عائلة أحد ملتزمي الضرائب. ومع بداية الحرب كان قد بلغ سنًّا متقدِّمة، وصار سياسيًّا محنَّكًا على رأس عائلة كبيرة. وشقَّ طريقه من ملتزمٍ لقلعةٍ فلسطينيَّةٍ صغيرةٍ إلى حاكمٍ لجزءٍ كبيرٍ من فلسطين ليحمل لقب «شيخ عكَّا، أمير الأمراء، حاكم الناصرة وطبريا وصفد وسائر الجليل»، وهو لقب ناله في عام 1768 بفضل الرشى والدَّسائس التي حيكت في بلاط السلطنة، فأعطاه الحقَّ في أن يكون تحت قيادة السلطان مباشرة. وقد «برز في الأغاني الشعبيَّة القديمة دومًا بوصفه مُدافعًا عن قضايا العرب، وحاملًا لفكرة القوميَّة العربيَّة»، على حدِّ قول ن. أ. إيفانوف. ولم يكن في ممتلكاته بؤرة للإنكشاريَّة ولا موظَّفين أتراكًا. وشغلت الشخصيَّات ذات الأصول العربيَّة كلَّ المراكز القياديَّة والإداريَّة لديه. وكان العربي الأرثوذكسيُّ إبراهيم الصبَّاغ وزيره الأول الذي يدير كلَّ شؤونه الاقتصاديَّة[40]. وكانت القبائل العربيَّة في شرق الأردن هي دعامة ظاهر العمر الأساسيَّة، التي حافظ على علاقات وديَّة معها. أمَّا الجيش فقد تألَّف من مرتزقة المغاربة ومن الشيعة (المتاولة) المُجنَّدين في لبنان»[41]. والجدير ذكره أنَّ التسامح الديني والسياسة والتجارة الأوروبيَّة المؤاتية قرَّبا الشيخ الفلسطيني من علي بك، إذ جمعتهما النَّزعة الاستقلاليَّة الإقليميَّة العربيَّة والمشاريع السياسيَّة الطموح.

على غرار علي بك، نَهَجَ الشيخ ظاهر سياسةً اقتصاديَّةً داخليَّةً قريبةً من

---

(40) كتب إدوارد لوكروا، جامع الشائعات والنكات، من دون إسنادٍ، عن أصل إبراهيم الصبَّاغ اليهودي، مطلقًا عليه اسم «الوزير اليهودي» (Le minister juif). يُنظر: Lockroy, p. 72.

(41) *История Востока*, t. III, c. 399-400.

[تاريخ الشرق، مج 3، ص 399–400].

المركنتيليَّة. وإذ قضى على الصراع الداخلي في إمارته وضمن أمنها من غارات البدو وابتزاز جامعي الضرائب العثمانيِّين، فقد مهَّد السبيل أمام إعمار الأراضي المهملة وزرع المحاصيل التجاريَّة في الحقول المستصلحة. كما أسَّس ظاهر احتكار شراء الخامات الزراعيَّة والمنتجات الحِرفيَّة وتسويقها، فوضعها تحت إشرافه. واستخدم الأموال المكتَسبة في إعادة بناء قلعة «سان جان دارك» الصليبيَّة المهدَّمة والإنفاق على القوَّات المسلَّحة وبناء قصر وتحسين ميناء عكّا التجاري.

ربطت ظاهر العمر علاقات صداقة مع الواليَيْن العثمانيَّين في صيدا نعمان باشا (1760-1763) وخَلَفِهِ محمد باشا العظم (1764-1770)[42]، فأعطاه نعمان باشا حقوق جباية الضرائب من الشيعة، سكَّان سفوح التلال الجنوبيَّة من لبنان، واضعًا بالتالي هذه المنطقة وسكَّانها، متاولة ناصيف نصار، تحت سيطرته. كان هذا مكسبًا قيِّمًا، إذ إنَّ المتاوِلة امتلكوا منذ عام 1759 **التزام** قلعة صور الساحليَّة[43]. إضافةً إلى ذلك، فقد حدَّت ممتلكاتِهم الأراضي التي كان يحكمها الأمراء اللبنانيُّون الشهابيُّون، الذين كانت لديهم نزاعات حدوديَّة مع المتاولة؛ فاستحوذ الشيخ ظاهر بذلك على مفتاح التأثير في سياسة لبنان المجاور أيضًا.

كان الأمير منصور الشهابي (1714-1774) حاكمًا للبنان قبل الحرب، وقد نُصِّب في عام 1763[44]، وحظي في صراعه على السلطة مع ابن أخيه

(42) تُظهر تجربة الباب العالي وجود منافسة بين الشخصيات العثمانيَّة الرفيعة، فكانت تتحوَّل عداءً متبادلًا في معظم الأحيان. ولم يكن نعمان باشا يحبُّ عثمان باشا الكرجي، بل ذهب إلى دعم خصومه بكلِّ طيبة خاطر. ولم تكن لدى محمد باشا العظم بالتأكيد أسسٌ لعلاقات صداقة مع مملوك آل العظم السابق الذي خان مصالحهم.

(43) وردت كلمة «التزام» بالروسيَّة. (المترجم)

(44) لم يشمل نظام الإدارة العثماني جبل لبنان الذي كان نظام حكمه وراثيَّ الطابع، وكان يفتقر عمليًّا إلى جهاز دولة وجيش نظامي. فقد كانت لدى الأمير الحاكم فصائل صغيرة من المرتزقة تقوم بوظائف الشرطة، ومجموعات من المواطنين اللبنانيِّين المتطوعين (ميليشيا). وكان الأمير يحكم في الجرائم الكبرى ويضطلع بدور الحكم في النزاعات بين المقاطعجيَّة، مُلَّاك الإقطاعات الوراثيَّة الذين يلتزمون دفع الضرائب وتأدية الخدمة العسكريَّة. ولم تكن حدود الإمارة اللبنانيَّة ثابتة؛ إذ كان الأمير =

ومنافسه الأمير يوسف، بمساندة والي صيدا والشيخ ظاهر، وكان هؤلاء الثلاثة في موقع المعارضة لوالي دمشق عثمان باشا الكرجي. وبدوره، فتَّش الأمير يوسف عن حماية لدى عثمان باشا، الذي عيَّنه - عبر ابنه محمد باشا والي طرابلس - حاكمًا لقضاء جبيل اللبناني الجنوبي[45].

على هذا النحو، كانت سوريا منقسمة إلى معسكرين سياسيَّين متواجهين عشيَّة الحرب، الأمر الذي انطوى على الخطر بالنسبة إلى الباب العالي إذا ما اندلعت[46].

كشفت الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) عن العديد من الشوائب في النظام السياسي العثماني، وأدخلت تعديلات على اصطفاف القوى السياسيَّة الداخليَّة.

جعلت هزيمة الأسطول التركي في شيسما ساحل الإمبراطوريَّة العثمانيَّة المتوسِّطي عرضة للخطر، فقرَّر الباب العالي تعزيز موقع عثمان باشا الكرجي،

---

= يخوض صراعات دائمة من أجل توسعتها، وإخضاع الطوائف والجماعات الإثنيَّة المجاورة. وقد تكوَّنت الإمارة إثنيًا من الدروز والموارنة، من أبناء الطوائف الإسلاميَّة والمسيحيَّة غير المتزمِّتة ممَّن لجأوا إلى الجبال هربًا من الاضطهاد الذي تعرَّضوا له إبَّان هيمنة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة والخلافة العربيَّة. لمزيد من التفصيل، يُنظر: Ilya F. Harik, *Politics and Change in a Traditional Society of Lebanon, 1711-1845* (Princeton, NJ, 1968).

(45) لعلَّ ثمَّة خطأً واضحًا هنا في تحديد موقع جبيل. (المترجم)

وُلد الأمير يوسف (1748-1791) في عائلة الحاكم الأمير ملحم الشهابي (1701-1760) الذي أبعد من الحكم في عام 1754 بضغط من إخوته. ودخل يوسف حلبة الصراع السياسي باكرًا، وأصبح حاكمًا لجبيل في عام 1763 أو 1764، وحاز سريعًا على ثقة السكَّان اللبنانيِّين، ولا سيَّما مسيحيِّي شمال لبنان، الذين كانوا يعانون من ظلم مشايخ آل حمادة المتاولة. أزاح يوسف آل حمادة من جبيل بعد عدَّة مواجهات مسلَّحة، ثمَّ وجَّه ضربة إلى المجموعة الأخرى من المتاولة التي كانت تحكم سهل البقاع. واستحقَّ بذلك رضا السلطنة، ناهيك بتعاطف عثمان باشا المتزايد، نظرًا إلى السياسة التي استمرَّ بنهجها. ولعلَّ هذه الأحداث هي التي سبَّبت له العداء من جانب متاولة جنوب لبنان.

(46) لمزيد من التفصيل عن اصطفاف القوى السياسيَّة في سوريا في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر، يُنظر: И. М. Смилянская, «Сценарии политической жизни Сирии и Египта XVIII в.,» in: *Политическая интрига на Востоке* (М., 2000), с. 246-274.

[إ. م. سميليانسكايا، «سيناريوهات الحياة السياسيَّة في سوريا ومصر خلال القرن الثامن عشر»، في: **المؤامرة السياسيَّة في الشرق** (موسكو، 2000)، ص 246-274].

فلبّى طلبه القديم بتعيين ابنه درويش باشا واليًا على صيدا في عام 1770. غير أنَّ هذا التبديل جرَّ وراءه صراعاتٍ سياسيَّةً جديدة. فبتنحية محمد باشا العظم عن ولاية صيدا فقد الأمير منصور سندًا في صراعه مع ابن أخيه الأمير يوسف، ما جعله يتخلَّى عن منصب الحاكم ليوسف. وعلى هذا النحو، بسط يوسف سلطته على لبنان كلِّه. وقد عزَّز انقلاب الأحداث هذا موقع عثمان باشا، ولكنَّه ولَّد صراعًا سياسيًّا جديدًا بين حاكم لبنان ومتاولة الشيخ ناصيف نصَّار، ممَّا أدَّى أيضًا إلى انخراط الشيخ ظاهر العمر في الصراع.

انتهت الحرب إلى اصطفاف جديد للأوساط السياسيَّة العربيَّة المتوسطيَّة المعارضة للباب العالي. فوحَّد داي الجزائر وباي تونس ومؤيِّدوهما المتشدِّدون قوَّاتهم المسلَّحة مع أسطول السلطان. في المقابل، استغلَّ مُعارِضا السياسة الانعزاليَّة والتعصُّب الدِّيني علي بك وظاهر العمر مصاعب الباب العالي العسكريَّة والسياسيَّة لتحقيق مخطَّطاتهما السياسيَّة، فتوجَّها إلى التعاون مع الإمبراطوريَّة الروسيَّة، عدو السلطان العسكري.

من غير المرجَّح أن يكون علي بك وظاهر العمر مستعدَّيْن وقتذاك لقطع العلاقات مع السلطان **بالكامل**، متجاهِلَيْن مشاعر رعايا السلطان من المسلمين، الذين كانوا يرفعون الصلوات يوم كلِّ جمعة من أجل خيره وعزَّته. فكانا يسوِّغان خطواتهما السياسيَّة طيلة مدَّة الحرب بضرورة محاربة استبداد **الباشاوات العثمانيِّين**، بالدرجة الأولى. وكان هدف علي بك الحقيقي، على ما يبدو، تعزيز السلطة على مصر وبسط السيطرة السياسيَّة على سوريا في إطار الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وهذا ما جعل المبعوث السياسيَّ الفرنسيَّ المهندس البارون دي توت يقول إنَّ علي بك سعى من خلال احتلاله سوريا، إلى إقامة حاجز بين مصر والأتراك، وكانت لديه النيَّة لتنصيب الشيخ ظاهر العمر واليًا على دمشق[47].

لم يباشر علي بك وظاهر العمر تنفيذ مشروعاتهما مع بداية الحرب. فلأكثر من عام، ظلَّ علي بك يراقب تطوُّر الأحداث على الجبهة الروسيَّة -

---

(47) F. de. Tott, *Mémoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares* (Amsterdam, 1785).

التركيَّة؛ فأرسل في المرحلة الأولى من الحرب ثلاثة آلاف جندي مصري إلى الجيش العثماني المقاتل، تلبية لطلب الباب العالي[48]، وطلب من السلطان في شباط/ فبراير من عام 1769 إزاحة الوالي عثمان باشا الكرجي من منصبه، زاعمًا أنَّه استقبل في سوريا هاربين من مصر[49].

من المرجَّح أن تكون قطيعة علي بك مع السلطان قد حصلت في بداية عام 1770[50]. فقد ألحق قنصل روسيا في البندقيَّة بانو ماروتسي تقريره عن شهر نيسان/ أبريل بنصِّ رسالة يونانيَّة من الإسكندرية، مؤرَّخة في شباط/ فبراير من عام 1770 جاء فيها: «لقد حصلنا على معلوماتٍ مهمَّة جدًّا: بعد أن أجهز علي بك على جميع أعدائه وعلى أعيان تلك البلاد، مُخضعًا كل مصر، نودِيَ به ملكًا، وبدأ بسكِّ عملة تحمل اسمه». وانتهت الرسالة بالكلمات التالية: «يُسمّيه الأتراك **الروسي** (Les Turks L'appelent Russe)»[51]. وفي أيار/ مايو، ورد خبر آخر من مالطا، من قنصل روسيٍّ آخر، هو المركيز كافالكابو[52]، يتضمَّن معلوماتٍ مشابهة. (وزَّعت كاترينا الثانية مُخبريها على نحوٍ ممتاز: فقد كانت

(48) Crecelius, p. 71.

(49) Ibid., p. 76.

(50) حصلت القطيعة في بداية الحرب، بحسب رواية سيفير لوزينيان. وكان فرمان الباب العالي – المتضمِّن أمرًا بإعدامه لاتِّهامه زورًا بنيته الانضمام إلى روسيا، الذي تمكَّن علي بك من اعتراضه – هو ذريعة هذه القطيعة وسبب امتناعه عن إرسال قوات من جيشه إلى اسطنبول. وإذا كانت هذه الأحداث قد وقعت بالفعل، يمكن ردُّها إلى بداية عام 1770، حين ظهرت معطيات مماثلة في الصحف. عاد لوزينيان نفسه إلى مصر، وانضمَّ إلى علي بك في عام 1771، العام نفسه الذي كتب علي بك في نهايته إلى أ. غ. أورلوف للمرَّة الأولى. يُنظر: Лузиньян, с. 57.

[لوزينيان، ص 57].

(51) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Ед. хр. 44, Л. 90.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقيَّة، وحدة الحفظ 44، الورقة 90].

(52) كتب كافالكابو في 20 أيار/ مايو أنَّ قبطان السَّفينة الفرنسيَّة الذي وصل لتوِّه من دمياط أخبره أن: «علي باشا رفض من القاهرة تقديم أيِّ مساعدة إلى السلطان، وأنه قتل عددًا من الأشخاص من أعضاء حكومته، الذين كانوا مخلصين للأتراك، وأصبح بنتيجة الأمر سيِّدًا مستقلًّا»:

*АВПРИ*, Ф. 66/6, Сношение России с Мальтой, Ед. хр. 44, Л. 22.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 66/ 6، علاقة روسيا مع مالطا، وحدة الحفظ 44، الورقة 22].

مالطا مركز تقاطع لطرق المواصلات عبر البحر المتوسط، أما البندقيَّة فكانت المحطَّة النهائيَّة للسُّفن الآتية من شرق البحر المتوسط).

كادت تكون صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**[53] أولى الصحف التي نشرت الأخبار عن إعلان علي بك «ملكًا». ففي النصف الأول من عام 1770، لم يُولِ السَّاسة الأوروبيُّون هذا الخبر اهتمامًا، ولا سيَّما أنَّه تناقض مع فرمان السلطان الصَّادر بين نهاية عام 1769 وبداية عام 1770، الذي كلَّف علي بك نفسه دعم أحد الهاشميِّين المتصارعين على زعامة الحجاز[54].

بالفعل، نفَّذ علي بك هذه الإرادة السلطانيَّة في صيف عام 1770، وأرسل جيشًا إلى مكة لمواكبة القافلة المقدَّسة، بقيادة مملوكه السابق محمَّد بك[55]. لكنَّ عواقب هذه العمليَّة كانت غير متوقَّعة بالنسبة إلى الباب العالي، إذ رفع نجاح الحملة على مكَّة من هيبة علي بك في العالم الإسلامي، ودفعه إلى القيام بخطوات سياسيَّة رمت إلى إضفاء سمات استقلاليَّة على سلطته عن الباب العالي. وانتشر على نطاقٍ واسعٍ في الصحافة الأوروبيَّة خبر يقول إنَّه

---

(53) ذكرت الصحيفة (استنادًا إلى الأنباء الواردة من البندقيَّة في شهر نيسان/ أبريل)، أن علي بك «أصبح ملكًا على مصر». ونشرت في العدد التالي، في أيار/ مايو، تأكيدًا من إلبا السفلى بأن «علي بك أعلن ملكًا على مصر وسط فرح الأهالي الذي لا يُوصف». وأعرب التجَّار الأوروبيون والأقباط واليونانيون والجالية اليهوديَّة بصورة خاصة عن «سعادتهم المعلنة»: *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 43, 28. V, no. 44, 1. VI.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 43، 5.28، العدد 44، 6.1].

(54) شغر هذا المنصب بوفاة الشريف الذي هو أيضًا من الهاشميين، سلالة النبي المباشرين. ويورد د. كريسيليوس معلومات عن أن عبد الله، أحد المتنافسين على هذا المنصب، حصل على أمر سلطاني بتعيينه عن طريق الرشى (Crecelius, p. 72) ويبدو أن تزامن الحدثين إصدار الفرمان وإعلان علي بك حاكمًا سياديًا – أثار الشائعات عن أن الحملة على الحجاز، كانت بقرارٍ مستقل من علي بك.

(55) حصل محمد بك على لقب أبو الذهب، لأنه نثر قطعًا نقديَّة ذهبيَّة، وليس فضيَّة كما كانت العادة، عندما رُقّي إلى رتبة بك، وكان، كسيده، من أصول قوقازيَّة، (وبحسب إحدى الروايات، شركسيًا). وكان علي بك قد اشتراه، أو حصل عليه هديَّة من ملتزم الجمارك اليهودي بحدود عام 1760، وحاز بسرعة على ثقة علي بك الذي عيّنه أمينًا على خزينته (خزندار) وزوّجه من أخته. وعلى غرار علي بك، حقّق محمد بك حيثيَّة بارزة (حصل على لقب بك في عام 1764)، وبوصفه قائدًا موهوبًا، كان علي بك يكلفه بالمهمات العسكريَّة الأساسيَّة (المرجع نفسه، ص 45-47، 73، 75 وغيرها).

بمباركة شريف مكة أُعلِن علي بك سلطانًا على مصر والجزيرة العربيَّة، وسيِّدًا على البحرين المتوسط والأحمر. استمرَّ علي بك في غضون ذلك - كما يؤكِّد د. كريسيليوس نفسه - في التوقيع على الوثائق بوصفه قائمقامًا (نائبًا، أو قائمًا بأعمال باشا مصر العثماني)[56]. بيد أنَّ النقود المسكوكة في مصر وصلت إلى اسطنبول، وقد طُبع عليها اسم علي بك بعد اسم السلطان مصطفى الثالث، وعام 1769 بدلًا من عام 1757، تاريخ تنصيب السلطان على العرش[57]. كان ذلك بمثابة تحدٍّ.

ربَّما تكون رسالة علي بك - المؤرَّخة في نهاية تموز/يوليو 1770 - المرسَلة إلى مجلس شيوخ البندقيَّة، هي ما أثار ضجة كبيرة في الصحافة الأوروبيَّة، ووصلت نسخة عنها إلى روسيا مع تقرير المركيز بانو ماروتسي. أبلغ ماروتسي، في رسالة عاجلة مؤرَّخة في 2-13 تشرين الأول/أكتوبر، أنَّ سفينةً وصلت من مصر تحمل أخبارًا عن استيلاء علي بك على مكَّة وجدَّة، النقطتين المهمَّتين لنقل البُنِّ وكلِّ السلع الأخرى التي تدخل إلى مصر من الهند؛ وعن أنَّ علي بك أعلن نفسه حاكمًا سياديًّا باسم السلطان علي، وأنَّه بعث رسالة إلى جمهوريَّة البندقيَّة أبدى فيها رغبته بإقامة علاقات طيِّبة معها، بيد أنَّ البنادقة لم يجرُؤوا على الإجابة خشية ردَّة فعل الباب العالي. وألحق ماروتسي برسالته المستعجَلة نسخةً من رسالة علي بك بالإيطاليَّة. وجاء في ترجمتها الروسيَّة على وجه التحديد: «أنتم إخوتنا في المياه وعلى الأرض، لأنَّنا جميعًا أبناء آدم. نحن لنا ديننا، وأنتم لكم دينكم» (ألم يكن هذا المقطع من الرسالة هو ما أقنع الإمبراطورة بتسامح علي بك الدِّيني؟). كان الهدف من الرسالة الإعلان عن أنَّه «لا يوجد في نظام حكمنا ظلمٌ ولا رشى، بل أمنٌ واستقرار: لا توجد تهم باطلة، ولا نسمح أن يفقد أحدٌ أملاكه، ونحن لا نبيع شرفنا بالمال، وهي خطيئة ينبغي ألَّا تكون عند الرجال العظماء». (وبكلام آخر، أعلن علي بك أنَّ النظام والعدالة وأمن الممتلكات قد ساد في الدولة وغاب

(56) المرجع نفسه، ص 73-74.

(57) المرجع نفسه، ص 74. تجدر الإشارة، إلى أنه كان لمصر دارها الخاصة لسك النقود قانونيًا، وحق سك القطع النقديَّة المنخفضة القيمة.

عنها الفساد). وتتحدَّث الرسالة، إضافة إلى ذلك، عن طرد الملتزمين السابقين، ممثِّلي الملَّة اليهوديَّة من الجمارك الذين اتُّهِموا بكلِّ أنواع المصائب اللاحقة بالتجارة الأوروبيَّة، وكذلك بنشر معلومات كاذبة عن مصر («لأنَّهم، بكذبهم وخبثهم، يمكن أن يعكِّروا صفو صداقتنا من خلال أخبار مُراسِليهم المجافية للحقيقة على نحوٍ مطلق. ولذا، ينبغي ألَّا تكون هناك ثقة بهذه الأمَّة، لا من جانبنا ولا من جانبكم»). وتضمَّنت رسالة علي بك دعوةً إلى إنشاء تجارة حرَّة في مصر، لتنتهيَ بالكلمات الآتية: «لينجِّنا الله من وساوس الشيطان والأرواح الشريرة. هذه المملكة كثيرة الخصوبة، سعيدة وخالية من كل ظلم. كلُّ الأغنياء والفقراء راضون لأنَّ العدالة تتقدَّم على المصلحة، ولذلك ينمو السناء والخير أكثر من مياه النِّيل الوفيرة المتدفِّقة»[58].

كما نرى، يحتوي خطاب رسالة علي بك إلى البندقيَّة بعض الأفكار ذات المنحى الإنساني. ومن الصعب الجزم ما إذا كانت هذه الكلمات تدلُّ على سعة فكر علي بك، أو على تأثير المقرَّبين إليه من الأوروبيِّين. ولكنَّ الواضح أنَّ الرسالة تحدَّثت عن ظهورٍ سياسيٍّ كبيرٍ في شرق البحر المتوسِّط. ومُذَّاك، لم يغب علي بك عن أنظار الصّحافتين الأوروبيَّة والروسيَّة.

كانت الحملة على سوريا ضد عثمان باشا هي مشروع علي بك الكبير التالي، إذ أرسل إليها جيشًا يقوده الخودشاشي[59] إسماعيل بك، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1770، بعد عودة محمد أبو الذهب إلى القاهرة من الحجاز. وقام بالتحضير المسبَق لهذه العمليَّة دعائيًّا وعسكريًّا[60]، فبعث إلى الشيخ ظاهر مبلغًا من المال مخصَّصًا لتجنيد محاربين في جيشه، عبر القنصل الفرنسي في

---

(58) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Ед. хр. 46, Л. 77об., 93-96.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقيَّة، وحدة الحفظ 46، ظهر الورقة 77، الأوراق 93-96].

(59) عُرف مماليك البيت المملوكي الواحد بالخودشاشيِّين، وكان إسماعيل بك على غرار علي بك، مملوكًا لإبراهيم كتخدا، رئيس وحدة المستحفظة في الجيش، وأحد أفراد بيت القازدوغلي ذي النفوذ.

(60) لم يتضمَّن التحضير للحملة اتِّهام عثمان باشا بإيواء الهاربين المصريِّين فحسب، بل أيضًا بمعاملته السكَّان السوريِّين بقساوة.

عكّا[61]، واشترى إضافةً إلى ذلك مدافع من البندقيّة ومن محفل فرسان مالطا، واستقدم مستشارين أوروبيّين[62]. وبلجوئه إلى طلب مساعدةٍ من المسيحيّين في صراعه مع إخوانه في الدين، انتهك علي بك شروط الحرب المقدّسة (الجهاد) على نحوٍ صفيق، من وجهة النظر الإسلاميّة.

جرت عمليّة الجيش في سوريا بنجاح نسبي، كما هو معروف. فبعد معركةٍ صغيرةٍ مع قوّات عثمان باشا عند يافا، وصلت القوات المصريّة إلى المزيرب[63]، من دون أن تواجه أيّ مقاومة من السكّان، الذين أنهكتهم أطماع عثمان باشا الضريبيّة. وهنا، رفض إسماعيل بك مهاجمة باشا دمشق، متذرّعًا بأنّ الأخير كان متوجهًا إلى الحجّ برفقة القافلة المقدّسة، ما أثار سخطًا شديدًا لدى ظاهر العمر المشارك في الحملة مع جيشه ومع فِرَق المتاولة. وتفرّقت الوحدات التي كانت بقيادة إسماعيل بك في أنحاء فلسطين، وشاركت في ما بعد، على الأرجح، في حصارات القدس الفاشلة[64]؛ فعاد ظاهر العمر والمتاولة أدراجهم.

كانت عمليّة الجيش الثانية التي قادها محمد بك أبو الذهب هذه المرّة أنجح، حيث خرج من القاهرة في نيسان/ أبريل 1771. فقد دُعمت العمليّة بحملة دعائيّة تجلّت في توزيع بيانٍ من علي بك موجّهٍ إلى سكّان دمشق يعلن فيه أنّ ما ترمي إليه الحملة هو تحرير سوريا من الطاغية عثمان باشا.

في نهاية أيار/ مايو 1771 كانت كلُّ فلسطين، باستثناء القدس

---

(61) Crecelius, p. 76.

(62) كانت عمليّة تجنيد المغاربة الآتين من شمال أفريقيا، في فصائل المرتزقة العسكريّة، تجري عادة في الموانئ الفلسطينيّة: Ibid.

(63) المزيرب: قرية سورية تبعد مسيرة يوم عن دمشق، وكانت عادةً محطة القافلة المقدّسة الأولى، حيث يشتري الحجّاج الموادّ الغذائيّة والملابس الضروريّة للطريق الطويل إلى مكة. (المترجم)

(64) جدير بالذكر أنّ «التركي مصطفى تاتارافلو»، المقيم في كانديا، أخبر في 24 كانون الثاني/ يناير 1771 أنّ ثمّة شائعاتٍ تقول إنّ مصر «يحكمها علي بك بنفسه حاليًّا، وقد أرسل قوّاته إلى القدس لطرد كلّ الأتراك منها». وبالتالي، فإنّ حصار القدس الأول كان يمكن أن يحصل في بداية الحملة السوريّة، استنادًا إلى هذه الشائعات: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 1об.
[أرشيف الدولة الروسيّة للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، ظهر الورقة 1].

وصيدا، قد تحرَّرت من الوجود العثماني. وفي الثالث من حزيران/ يونيو، ألحقت قوَّات محمد بك وإسماعيل بك وظاهر العمر وحلفائه المتَّحدة الهزيمة بجيش عثمان باشا وأبنائه، المدعوم من قوَّات باشاوات كيلِّيس وحلب وعينتاب بأمر من السلطان. دل ذلك كلُّه على أنَّ النزاع السوري قد تجاوز حدود سوريا.

في الثامن من حزيران/ يونيو، 1771 دخلت قوَّات حلفاء علي بك العرب دمشق، التي تركها الباشاوات العثمانيُّون تحت رحمة المنتصرين. وأعلن محمد بك الأمان لسكَّان المدينة. ونشرت **أنباء سان بطرسبورغ** (في عددها الرقم 72، الصادر في 2 أيلول/ سبتمبر 1771) خبرًا يقول إنَّ ثورةً اندلعت في المدينة بعد هروب عثمان باشا منها، وإنَّ الثوَّار نهبوا المساجد التي خبَّأ فيها الباشا كنوزه. نُظِّفت المدينة من القوَّات التركيَّة، بيد أنَّ المتصرين أخفقوا في الاستيلاء على قلعة دمشق حيث تحصَّن الإنكشاريون. ولم يُلحِقِ القصف المدفعيُّ الخسائر بالقلعة، لأنَّ القذائف التي تطايرت من فوق أسوارها، سقطت في الأحياء السكنيَّة، بل في باحة المسجد الأموي[65]. ومع ذلك، كانت الطريق إلى حلب مفتوحة. وأوردت الصحافة أخبارًا عن هلع اليهود الحلبيِّين من خطر استيلاء المصريِّين على المدينة[66]؛ بل إنَّ صحفًا نشرت إشاعات كاذبة عن استحواذ قوات علي بك على حلب والقدس[67].

بدا الأمر كأنَّ علي بك كان في ذروة مجده ونجاحه، بما لا يوازيه إلا ما حقَّقه محمد علي، مُحدِّث مصر في بداية القرن التاسع عشر؛ غير أنَّ الحال سرعان ما تبدَّلت في معسكر المنتصرين. فبعد عشرة أيَّام من الدخول إلى دمشق - عندما كانت القاهرة لا تزال تحتفل بالنصر - أعلن محمد بك

---

(65) Crecelius, p. 77.

(66) *Санктпетербургские ведомости*, no. 72 (1771), 2. IX.

[أنباء سان بطرسبورغ، 1771، العدد 72، 2. 9].

(67) *Санктпетербургские ведомости*, no. 97, 4. X.

تجدر الإشارة إلى أنَّ مصير القدس والأماكن المقدَّسة لم يستدع اهتمامًا خاصًّا من لدن الصحافة على ما يبدو.

أبو الذهب عن إنجاز مهمّته: ألا وهي إبعاد عثمان باشا الكرجي عن الحكم، وغادر المدينة عائدًا بالجيش إلى مصر.

حاول علي بِكْ وظاهر العمر التوجُّه إلى السلطان مجدَّدًا بطلب تنحية عثمان باشا، غير أنَّ فرمانًا سلطانيًّا صادرًا في الأول من آب/أغسطس 1771 ثبَّت تفويض عثمان باشا للسنة التالية.

لا تزال نقاشات تدور بين المؤرِّخين حتَّى الآن، في ما يتعلَّق بأسباب رفض محمد بك أبو الذهب مواصلة احتلال سوريا[68]. ويميل المؤرِّخ السوري المعاصر عبد الكريم رافق إلى فرضيَّة المؤامرة، معتبرًا أنها الأوثق. ويقول في هذا الصدد إنَّ محمد بك أجرى محادثاتٍ سريَّةً مع الباب العالي، وإنَّه حصل على وعدٍ بتعيينه بدلًا من علي بك بعد عزله. ويؤيد ف. بيرسين هذه الفرضيَّة. أمَّا المستعرب الأميركي دانييل كريسيليوس، فيعارض فرضيَّة المؤامرة، لأنَّ محمد بك - بحسب رأيه - لم يقم بأعمال عدائيَّة ضد سيِّده وصهره في غضون الأشهر التسعة التي تلت مغادرته سوريا، على الرغم من نقمة الأخير عليه؛ علمًا أنَّ علي بك كان هو المبادر إلى توجيه الضربة الأولى في الخلاف الدائر بينهما[69].

في أيِّ حال، تقوَّضت هيبة السلطات التركيَّة في سوريا إلى حدٍّ بعيدٍ إثرَ خروج القوَّات المصريَّة منها، وذلك نتيجة عجز الجيش العثماني عن مواجهة حلفاء علي بك المتمرِّدين، وفرار الوالي المُخْزِي من دمشق، في حين كان الدمشقيُّون مستعدين للقتال من أجل مدينتهم. وكان لِبيانِ علي بك دوره في هذا المجال. وأدَّت هذه الأحداث إلى وقوع اضطرابات في طرابلس وغزو

---

(68) يذكر هؤلاء من بين هذه الأسباب: عدم قدرة القوَّات المصريَّة على إخضاع قلعة دمشق التي كان الإنكشاريون يدافعون عنها، إنهاك القوات المملوكيَّة نتيجة الحرب الطويلة، خوف القيادة المملوكيَّة من عقاب السلطان والهلع أمام القوات العثمانيَّة الموحَّدة المحتشدة في شمال دمشق.

(69) عن قصَّة احتلال دمشق والجدل حول أسباب التخلِّي عنها، يُنظر: Rafeq, pp. 251-257; Persen, p. 278; Crecelius, pp. 76-89.

طرح المؤرِّخون فرضيَّة تقول بوجود سببٍ ثالثٍ لانسحاب محمد بك، وهو تهويل إسماعيل بك عليه من عقاب الله على انتهاكه قوانين الجهاد.

البدو أراضي الولاية، فضلًا عن تجاوزات الجنود المرتزقة الذين لم يحصلوا على رواتبهم.

في صباح يوم الثاني من أيلول/ سبتمبر 1771، سحق ظاهر العمر قوّات عثمان باشا بالقرب من بحيرة الحولة، كانت دخلت بُغية جمع الضرائب وفرض النظام وتهدئة السكّان، فكان الأمر أنَّ الباشا نفسه بالكاد نجا من الموت.

فُسِّرت صلابة ظاهر العمر في مقاومة الأتراك - على الرغم من عودة الجيش المصري إلى الوطن - بِنِيَّة علي بك بتوجيهه حملةً جديدةً إلى سوريا؛ لذا، رفض الشيخ ظاهر محاولات السلطات العثمانيَّة إقناعه بمصالحة السلطان. وعلاوة على ذلك، طُلِبَ من درويش باشا في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر مغادرة صيدا.



منظر صيدا، صيدون القديمة

بيد أنَّ الأحداث تطوَّرت على نحوٍ مأساوي في صيدا. ففي البداية فرض الأمير يوسف سيطرته على المدينة التي تخلَّى عنها الباشا، وعيَّن الشيخ علي جنبلاط - زعيم عشيرة الدروز الموالية له - قائدًا عليها؛ غير أنَّ انتكاسةً أصابت الأمير: فمن أجل إلحاق الأذى بالشيخ ظاهر، اقترح عثمان باشا على الأمير يوسف مهاجمة المتاولة، حلفاء الشيخ ظاهر العمر، واعدًا لقاء ذلك

بإعفاء جبل لبنان من دفع ضرائب الميري لمدَّة عامين. وافق يوسف لكنَّه تكبَّد هزيمة قاسية في ضواحي بلدة النبطيَّة. وترك الشيخ علي جنبلاط - خصم دسائس عثمان باشا - ساحة المعركة احتجاجًا، وخرج من صيدا. وبعد حصارٍ قصير الأمد، سقطت صيدا في يَدَي قوَّات الشيخ ظاهر العمر والمتاولة، ومعهما الفصيل الذي أرسله علي بك إلى عكَّا، وتعرَّضت المدينة للنَّهب المعتاد جزاء مقاومتها. ولم يسلم من الأذى سوى مقر القنصل الفرنسي وممتلكات التجَّار الأوروبيِّين[70]، للتأكيد مرة أخرى، على الأرجح، على رغبة علي بك وظاهر العمر في تطوير العلاقات التجاريَّة مع الأوروبيِّين. وانتهى النزاع بتعيين رجل ظاهر العمر الأفريقي «الشجاع» أحمد دنغزلي قائدًا لحامية صيدا (مقرِّ الباشاوات العثمانيِّين!)[71].

أدَّت هذه الأحداث إلى استقالة عثمان باشا وأبنائه من قيادة إيالات سوريا في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1771. وعيَّن السلطان محمَّدَ العظم واليًا على دمشق التي وصلها في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر.

أظهرت كلُّ هذه الأحداث التي وقعت في سوريا خلال عامي 1770 و1771[72]، إلى أيِّ حدٍّ كان الوضع السياسي معقَّدًا وغير مستقرٍّ خلال سنوات الحرب الأولى.

في غضون ذلك، ظل علي بك حتَّى تشرين الثاني/ نوفمبر 1771 يعقد الآمال على تنظيم حملة جديدة على سوريا، حتَّى بعد استقالة عثمان باشا. كان حاكم مصر شديد الرغبة في حصول مثل هذه الحملة[73]. وقد

---

(70) *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 13, 14. II.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1772، العدد 13، 14. 2] (وفقًا لتقرير من حلب، مؤرَّخ بتاريخ 14 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1771).

(71) Базили, с. 77.
[بازيلي، ص 77 (ص 66 من الطبعة العربيَّة)].

(72) لمزيد من التفصيل عن هذه الأحداث، يُنظر: المرجع نفسه؛ Rafeq, *The Province of Damascus*; Crecelius, *The Roots of Modern Egypt*.

(73) وصل خبر من ليفورنو نقله قبطان سفينة تجاريَّة فرنسيَّة يفيد أنَّ تجَّار الإسكندرية يعيشون حال قلق، خشية أن يصادر علي بك كلَّ السُّفن لنقل القوَّات إلى سوريا، ذلك أنَّ ما يجري في القاهرة =

عزَّزت نجاحات الشيخ ظاهر العمر - الذي استولى على غزَّة والرَّملة ويافا، فضلًا عن صيدا - آمال علي بك تلك. (لم يتمكَّن الأتراك من استعادة المدن المذكورة إلا لفترة قصيرة، بعد رحيل المماليك).

تعود إلى تلك الحقبة أيضًا رسائلُ علي بك وكبارِ معاونيه الأولى إلى أ. غ. أورلوف. ولا تزال هذه الرَّسائل تُقَوَّم في الأغلب استنادًا إلى تقرير س. لوزينيان[74]. في غضون ذلك، خضعت رسائل حاكم مصر لقراءة دقيقة في اجتماع مجلس البلاط السَّامي بِبطرسبورغ، وحُفِظت نسخُها في أرشيف الأسطول الحربي. وتسمح هذه الرسائل، فصلًا عن وثائق روسيَّة أخرى، بوضع تصوُّر مختلف، بل أكثر دقَّةً من رأي لوزينيان عن مرحلة التَّعاون الروسي - العربي الأولى.

يمكن التأكيد قبل كلِّ شيء أنَّ علي بك كان المبادر إلى إقامة علاقات عسكريَّة روسيَّة - عربيَّة، خلافًا لوجهة النظر الشائعة القائلة إنَّ المبادر إلى ذلك كان أ. غ. أورلوف، كما اعتُبر سابقًا. لكنْ، ينبغي إلقاءُ نظرةٍ على

---

= تجنيد جيش جديد لإرساله إلى هناك: *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 90, 11. XII.

[أنباء سان بطرسبورغ، 1772، العدد 90، 11. 12؛ وورد خبر مماثل في العدد 97، 6. 12].

(74) بعث علي بك برسالة إلى أورلوف بواسطة يعقوب الأرمني - بحسب ما يقول لوزينيان - عارضًا إبرام «اتِّحادٍ أبديٍّ مع صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة»، كي «يُوَاجِهَا عدوَّهما معًا». وكان علي بك مستعدًّا لتزويد الأسطول الروسي والجيش «بكلِّ أنواع المؤن الغذائيَّة والأموال، إذاك كان لديه نقصٌ في ذلك»: Лузиньян, с. 64.

[لوزينيان، ص 64].

لم يلحق يعقوب الأرمني بأورلوف إلى باروس، فتبعه إلى ليفورنو حيث سلَّمه الرسالة. وسرعان ما ردَّ أورلوف برسالة تمنَّى فيها «كلَّ السعادة» لعلي بك، قائلًا إنَّه سيرسل الرسالة إلى الإمبراطورة، وأنَّه «لن يُثقل كاهله الآن لا بالذخائر الحربيَّة ولا بالأموال؛ ولكن عندما سيكون لديه نقص في ذلك، فهو لن يتأخَّر بطلب المساعدة التي وُعِدَ بها». ويُزعَم أنَّ أورلوف بعث برسالته عبر غيورغي، وهو يوناني أرثوذكسي من القسطنطينيَّة، ولكن غيورغي هذا، مات في الإسكندريَّة، وذهبت الرسالة عبر أيدٍ أخرى (ص 64-65). لم تتعرَّض هذه الرواية إلى التشكيك في الدراسات التاريخيَّة الأوروبيَّة، بل ظهر التباين فقط في ما خصَّ توقيت إرسال رسالة علي بك؛ إذ اتفق الجميع على عام 1771. غير أنَّ أوريان ولوكروا ربطاه بحملة أبي الذهب على سوريا. أما بيرسين، فقد ربطه بفشل الحملة على دمشق، معتبرًا أنَّ علي بك عوَّل على مساعدة روسيا له، إذا ما تحالف معها، بغرض إطاحة أبي الذهب واستعادة سوريا: Persen, p. 279.

الطريق الطويل الذي اجتازه الجانبان للقاء أحدهما الآخر، قبل التطرُّق إلى هذا الموضوع. ومن الطبيعيِّ أن تكون معرفتنا أفضل في ما يتعلَّق بالخطوات الروسيَّة نحو العالم العربي.

## على طريق إقامة الاتِّصالات الروسيَّة - العربيَّة الحربيَّة والسياسيَّة الأولى (1769-1772)

عندما بلغت عمارة سبيريدوف البحريَّة زوند[75] في نهاية آب/ أغسطس 1769، أرسل المركيز بانو ماروتسي تقريرًا من البندقيَّة يقول فيه إنَّ أحد البكوات المصريِّين، وهو صاحب نفوذ كبير، انتهز فرصة اندلاع الحرب الروسيَّة - التركيَّة وخلع النير التركي عن مصر، وأنَّه يتمنَّى الآن النجاح لجيوشنا في حربها مع الباب العالي. وتابع ماروتسي يقول: «إنه يعرب عن تعاطفٍ كبيرٍ مع بلاطنا. ويلاحظون في القاهرة أنَّ من ينقل خبرًا طيِّبًا عن جيوشنا ينال مكافأةً جيدة». ولكنْ، «ثمَّة مشكلة هنا، فهو ليس مسيحيًّا». اعتقد ماروتسي، على ما يبدو، أنَّ هذه المسألة تشكِّل عائقًا أمام إقامة علاقات متبادلة، أكان بالنسبة إلى الإمبراطورة المسيحيَّة، أم للبِك المسلم. ومع ذلك، نصح القائم بالأعمال ن. إ. بانين بالاستفادة من هذه الفرصة لما فيه عزَّة الإمبراطورة ودولتها. واقترح جسَّ مُيول البِكْ بواسطة أحد البيوتات التجاريَّة البندقيَّة في مصر[76]. وسرعان ما نقلت كاترينا الثانية خبر ماروتسي إلى ب. أ. روميانتسيف، شارحة إياه على طريقتها: لديَّ خبر يقول إنَّ أحد البَكَوَات المصريِّين أرسل إلى البندقيَّة يطلب إقامة علاقات معنا»[77]. (يبدو أنَّ الإمبراطورة قوَّمت مغزى الإشارات

---

(75) زوند: مضيق يقع بين الدانمارك والسويد، يربط بحر البلطيق ببحر الشمال. (المترجم)

(76) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 40, Л. 115-116.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة**، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقيَّة، الملف 40، الورقة 115-116].

(77) مقتبس من: С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, с. 280.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14، ص 280].

التي أرسلها علي بك على نحوٍ صحيح). هدفت كاترينا الثانية من خلال هذه الأخبار والمعلومات المتفائلة الأخرى، إلى حثٍّ رومیانتسیف على تنشيط عمليّات جيشه. في غضون ذلك، كان الأمر لا يزال بعيدًا من العلاقات الفعليَّة.

تلقَّى ماروتسي ردًّا من بطرسبورغ على تقريره المرسل في آب/ أغسطس، تضمَّن تعليمات ن. إ. بانين يطلب منه فيها التحقُّق من وضع البِك المصري. فأرسل المركيز رسالةً عاجلةً في نيسان/أبريل 1770 يقول فيها إنَّه أوفد أناسًا موثوقين إلى علي بك للاستعلام عن نواياه[78]. وقد تزامن هذا التقرير مع الأخبار الأولى عن إعلان علي بك «ملكًا» على مصر، الأمر الذي اعتبرته كاترينا الثانية موهبة لدى علي بك في استغلال الوضع السياسي. ونال المركيز ماروتسي شكر الإمبراطورة على تفانيه في الخدمة[79]. وبعد مرور ثلاثة أشهر، أبلغ ماروتسي أنَّه لم يتلقَّ أخبارًا من رجاله الموثوقين، ولن يجرؤ على البدء بما أوصى به بانين، نظرًا إلى حساسية القضيَّة. وأخيرًا، أرسل ماروتسي في تشرين الثاني/ نوفمبر 1770 (حين بدأ علي بك حملته على سوريا) إلى بطرسبورغ، الأخبار التي طال انتظارها عن نتائج تدابيره الاستطلاعيَّة؛ فأخبر أنَّ علي بك مرتاح جدًّا لـ «عمليَّات» الكونت أورلوف «الملائمة في التوقيت» (ربما، كان المقصود حصار شواطئ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة والعلاقة المتساهلة حيال الرَّعايا المصريِّين). وبحسب رأي ماروتسي، فإنَّ مشاعر حاكم مصر هذه، تسمح للكونت أ. غ. أورلوف بالقيام بخطوة في اتِّجاهه. ونصح أن يقوم أورلوف بزيارة سفينة فرنسيَّة، سيعود تجَّار مصريُّون على متنها من القسطنطينيَّة، وأن يُظهر لهم الودَّ، ويتلفَّظ في حديثه معهم بكلمات إطراء بحقِّ علي بك. وينبغي له بعد ذلك - بحسب رأي ماروتسي - الإعراب من خلالهم (التجَّار) عن رغبته في إقامة علاقات طيِّبة مع حاكم مصر، وعن نيَّته إظهار الاحترام لبضائع علي بك، واعتبار رعاياه بمثابة أصدقاء لروسيا[80]. كانت هذه

(78) *АВПРИ*, Ф. 41/3, Сношения России с Венецией, Д. 44, Л. 87об.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطوريَّة الروسيَّة، المجموعة 41/ 3، علاقات روسيا مع البندقيَّة، الملف 44، ظهر الورقة 87].

(79) المرجع نفسه، الملف 45، الورقة 56.

(80) المرجع نفسه، وحدة الحفظ 76، الورقة 78.

السياسة تتَّسم بأهميَّة كبيرة في ظروف حصار الأسطول الروسي شرق البحر المتوسِّط. فقد تطابقت خطَّة عمل المركيز ماروتسي مع أعراف الدبلوماسيَّة الشرقيَّة، ولعلَّه فَهِمَ مدى صعوبة المهمَّة على نحوٍ أفضل؛ بيد أنَّ أ. غ. أورلوف فضَّل العمل على نحوٍ مختلف.

غنيٌّ عن البيان أنَّ كاترينا لم تكفَّ عن متابعتها الحثيثة للأحداث الجارية في مصر - منذ أخبار ماروتسي الأولى عن موقف علي بك الإيجابي حيال نجاحات القوات الروسيَّة - فتبادلت الأحكام بشأنها في مراسلاتها مع فولتير.

ففي العشرين من أيار/ مايو 1770، أكَّدت في رسالة إلى فولتير قائلةً: «لقد عرف **الملك** المصري **علي** كيف يستفيد من الحدث» (التشديد من المؤلِّفة). ربَّما، كانت تقصد أنَّ علي بك استغل الحرب الروسيَّة - التركيَّة للانفصال عن تركيا والاستيلاء على الحجاز[81]. وأضافت الإمبراطورة في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1770 بغية تسويغ تعاطفها حيال الحليف المستقبليِّ المسلم (كانت لدى المركيز ماروتسي أوامر بالبحث عن طرائق للتواصل مع علي بك): «أظنُّ أنَّ علي بك يجد مصلحة في استمرار الحرب، أكثر ممَّا في السلام. ويُقال إنَّ المسيحيِّين والأتراك مسرورون منه كثيرًا، لأنه يلتزم التَّسامح حيال الأديان الأخرى، ولأنَّه شجاع وعادل»[82]. (كرَّرت كاترينا توصيف علي بك على هذا النحو عدة مرَّات)[83].

---

(81) قَوَّمت الصحافة الغربيَّة المعارك التي حصلت بين محمد بك وبدو الحجاز بأمرٍ من السلطان، كما لو كانت أفعالًا مستقلَّة أقدَمَ عليها علي بك.

(82) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Перевел с французского Иван Фабиян (М., 1805), Ч. 1, с. 137-138.

**[مراسلات الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778**، ترجمها عن الفرنسيَّة إيفان فابيان (موسكو، 1805)، ج 1، ص 137-138].

(83) كتبت الإمبراطورة في رسالتها المؤرَّخة في 12-23 كانون الثاني/ يناير 1771: «من الأفضل أن تنتخبوا السيد المصري علي بك: فهو عادل، إنساني، لطيف. أكثر من هذا، هو مُحِبٌّ للتَّسامح الديني؛ مع أنَّه يحبُّ في الحقيقة النهب أحيانًا، ولكن يمكن غفران التَّجاوزات الأخرى للمقرَّب منه» (يدور الحديث عن نهب قوات محمد بك أبو الذهب العسكريَّة كنوز مكة): المرجع نفسه، ص 148.

في الوقت نفسه، علَّق فولتير في 18 أيار/ مايو (بحسب التقويم الجديد)، على الأخبار المبكرة حول إعلان علي بك ملكًا، وربَطها بمصالح روسيا على الفور: «إذا كان صحيحًا أنَّ مصر قد خلعت عنها النير المصطفويَّ[84]، فأنا على يقين أنَّه كان لجلالتكم دور في هذه الثورة. فمن يستطيع إرسال أسطول من سواحل النيفا إلى بيلوبونيز، يسهل عليه إرسال شخصٍ بارعٍ في التفاوض إلى بلاد الأهرام»[85]. من الصعب الجزم إذا كان فولتير يهدف إلى الاستيضاح عن وجود جواسيس روس في مصر، أم أنه نصح بهذا الأسلوب بإرسالهم إلى هناك؛ أو لعلَّه أراد بكلامه هذا التوصُّل إلى الأمرين. في كلِّ الأحوال، واصل فولتير تطوير فكرته عن الجاسوسيَّة الروسيَّة، فكتب في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1770، أي بعد مرور نصف عام تقريبًا، عندما كان الجميع يشككون في ما إذا كان «علي قد أصبح ملكًا على مصر»، نظرًا إلى انقطاع أخبار البحَّارة: «إنَّني أجرؤ حتَّى على القول، صاحبة الجلالة، إنَّه سيكون لديكم بالطبع إسرائيليٌّ طيِّبٌ ما على هذه الأرض الفرعونيَّة، ليساعد الثورة باسم الرب، وسيرفع إليكم تقريرًا بشأنها»[86]. وسارع فيلسوف فيرني[87] بعد مرور أسبوعين - في 25 تشرين الأول/ أكتوبر - يزفُّ إلى الإمبراطورة خبرًا تلقَّاه مؤخَّرًا من مرسيليا يقول إنَّ علي بك فاز بالسلطة على مصر، ثم أضاف في رسالة مؤرَّخة في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر: «أُصلِّي للسيِّدة العذراء التي لا يؤمن علي بك بها كثيرًا كي تكون تلك حقيقة لا لبس فيها»[88]. بيد أنَّ الإمبراطورة كانت قد تلقَّت من ماروتسي معلوماتٍ أدقَّ عن الحاكم المصري.

---

(84) نسبة إلى اسم مصطفى، والمقصود بالقول هنا: نير السلطان المسلم. (المترجم)

(85) المرجع نفسه، ص 84.

(86) المرجع نفسه، ص 124.

(87) فولتير - فيرني، أو فيلسوف فيرني: لقب يُطلق على فولتير نسبةً إلى مدينة فيرني. وفيرني مدينة فرنسيَّة تقع في منطقة جبليَّة بالقرب من الحدود السويسريَّة، ذُكِرَت في وثائق القرن الرابع عشر تحت اسم فيرنيخ، وبقيت فترة طويلة قريةً غير ملحوظة حتى عام 1759، حين تملَّك فولتير الأرض التي تقوم عليها وأسماها فيرني. فبعد أن أصيب بخيبة أمل من صرامة الأخلاق الكالفينيَّة ومغادرته جنيف، سعى إلى العزلة في فيرني ليكون بمأمن من السلطات الفرنسيَّة والسويسريَّة، ولاستقبال ضيوفه وعرض إنتاجاته. لقد أرضت فيرني كلَّ متطلَّباته. (المترجم)

(88) المرجع نفسه، ص 127، 130.

جدير بالذكر أنَّ مخاوف فولتير بشأن الأحداث المصريَّة كانت مفهومة، ذلك أنَّه ربط هزيمة الباب العالي السريعة والكاملة بنجاحات علي بك. فكتب يقول في أيار/مايو من عام 1770: «لو تحوَّل السَّخَط المصري - الذي استهواني إلى هذا الحد - إلى فعل، لانتهت في رأيي الإمبراطوريَّة التركيَّة إلى الأبد»[89]. إلا أنَّ فولتير أعرب في كانون الثاني/يناير 1771 في بداية حملة علي بك على سوريا عن أمنياته مازحًا: «وأنا أيضًا أريد أن يتملَّك (علي بك - المؤلِّفة) سوريا، وصولًا إلى حلب، وأن تعود المناطق الأخرى الممتدَّة من حلب إلى نهر الدانوب إليكم»[90]. سلَّم فولتير، على ما يبدو، بفكرة انتصارات علي بك، على الرغم من أنه كان يمزح بالطبع بخصوص المنطقة الممتدَّة من نهر الدانوب إلى حلب. ومن الطريف أن علي بك آمَنَ، بعد مرور عشرة أشهر، بإمكان تحقيق مثل هذا المشروع (سنتناول هذا الموضوع في ما بعد).

دلَّت أقوال فولتير الجديَّة والهزليَّة هذه على أنَّه أولى انتفاضة حاكم مصر وتأثيرها في صدامات تلك السنوات العسكريَّة - السياسيَّة أهميَّة كبيرة.

حلَّلت كاترينا الأحداث المصريَّة بتبصُّرٍ كبير، محاولةً تكهُّن أفعال علي بك، فكتبت في 2-13 كانون الأول/ديسمبر 1770، ولم تكن الأخبار عن بدء الحملة السوريَّة قد وصلت بعدُ إلى أوروبا: «أعتقد أن استمرار الحرب لا يمكن إلا أن يكون ملائمًا لعلي بك»[91]. وفي 3-14 أيار/مايو 1771،

---

(89) المرجع نفسه، ص 115.

(90) المرجع نفسه، ج 2، ص 12.

(91) *СбРИО*, t. 13, c. 49.

[مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة، مج 13، ص 49].

ورد في الرسالة المؤرَّخة في 4-15 كانون الأول/ديسمبر من عام 1770 المترجمة عن الفرنسيَّة ما يلي: «أظن، أنَّ علي بك يجد مصلحة في استمرار الحرب أكبر ممَّا في السلام. ويقال إنَّ المسيحيِّين والأتراك مسرورون منه كثيرًا، لأنه يلتزم التَّسامح حيال الأديان الأخرى، ولأنَّه شجاع وعادل»: *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Ч. 1, c. 140.

[مراسلات الإمبراطورة الروسيَّة كاترينا الثانية والسيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778، ج 1، ص 140].

أكَّدت كاترينا: «السلام ليس قريبًا جدًّا، عكس ما تقول الصحف، وأعتقد أنَّه لا مفرَّ من حملةٍ ثالثة، وسيكون لعلي بك الوقت الكافي لتعزيز مواقعه، وإذا هو لم ينجح في ذلك، في أسوأ الأحوال، سيكون بإمكانه المغادرة إلى البندقيَّة»(92). آنذاك، كانت قد وصلت في الوقت نفسه أخبارٌ غامضة من سوريا عن إخفاقات إسماعيل بك. وفي 14-25 آب/أغسطس من العام نفسه، هتفت الإمبراطورة محتفلةً: «لا تُعيقوا السلطان علي بك: سترون أنه سيكون جميلًا بعد استيلائه على دمشق في 6 حزيران/يونيو (أخطأت كاترينا بيومين - المؤلفة). فلو أنَّ عزيزتكم اليونان، التي تعيش بالتمنِّيات فقط، تصرَّفت بتلك القوة كما تصرَّف هذا الحاكم، لما بقي مسرح أثينا حاكورةً تنمو فيها الخضار، ولما صارت الليسيه إسطبلًا»(93). فهي لم تتوقَّع انقلاب الأحداث المأساوي بالنسبة إلى علي بك. وبعد مرور سنة، في آب/أغسطس 1772، وردًّا منها على ملاحظة فولتير الذي قال: «إنَّ هذا المسكين، علي بك، يستحق الشفقة، إذ يقال إنَّه هُزم ولاذ بالفرار» (يدور الحديث عن أحداث نيسان/أبريل 1772، عندما انتصر محمد بك أبو الذهب على علي بك)، علَّقت قائلة: «يعتريني الأسف على المصيبة الصغيرة التي ألمَّت بصديقنا علي بك»(94). (ربَّما كتبت الإمبراطورة عن **المصيبة الصغيرة**، لأنَّها علمت عن العمليَّات المشتركة بين الأسطول الروسي وعلي بك).

كان الموضوع الآخر الذي أثارته الإمبراطورة في مراسلاتها مع فولتير يتعلَّق بوضع علي بك السياسي، وهي لم تتوانَ في 30 آب/أغسطس - 10 أيلول/سبتمبر 1770 عن القول: «... شوهدت قطعة نقديَّة في القسطنطينيَّة، مسكوكة باسم علي، ملك مصر»(95). وأصرَّت في 12-23

(92) *СбРИО*, t. 13, c. 73.

[مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة، مج 13، ص 73].

(93) المرجع نفسه، ص 146.

[تحمل الإمبراطورة بقسوة على اليونانيِّين لعدم ترميمهم المسرح الأثيني المهدَّم، الذي تحوَّل إلى حقل لزراعة الخضار، وإهمالهم المدارس التي انهارت لتُستخدم إسطبلاتٍ]. (المترجم)

(94) المرجع نفسه، ص 263.

(95) مجلدات الجمعيَّة التاريخيَّة الروسيَّة، مج 10، ص 32.

كانون الثاني/ يناير 1771 على قول ما يأتي: «مهما قال ملك بروسيا، فإنَّ علي بك هو حاكم مصر الأعلى»[96].

لم تكتفِ الإمبراطورة بمناقشة الأحداث المصريَّة مع مراسليها الأوروبيِّين فقط، بل شاركت في أعمال مجلس البلاط السَّامي بنشاط، حيث تليت أخبارُ انتصارات علي بك في الحجاز و«خضوع مصر الكامل له» ونوقشت في جلستيه المنعقدتين في 21 و25 تشرين الأول/ أكتوبر 1770 (بحسب التقويم القديم)[97]. ومن المرجَّح أن يكون البحث تطرَّق خلال الجلستين إلى المسائل التي طرحها ماروتسي بشأن إقامة علاقات مع علي بك، بيد أنَّنا لم نعثر على أيِّ معطياتٍ متعلِّقة بالقرارات التي يمكن أن تكون قد اتُّخذت. وبالنظر إلى أنَّ الكونت ن. إ. بانين تلا في المجلس بعد شهرين من ذلك – في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1770 (بحسب التقويم القديم) – الأمر الملكيَّ الذي أعدَّه، الموجَّه إلى ألكسي أورلوف، في صدد منحه «كامل الصلاحيات لوقف العمليَّات العسكريَّة في الأرخبيل، إذا ما رغب الباب العالي في ذلك»[98]، فاهتمام كاترينا ورئيس هيئة الشؤون الخارجيَّة انصب على مناقشة مشروع «السلام الخاص» بحوض البحر المتوسِّط؛ وفقدت، بالتالي، مسألة العلاقات مع علي بك راهنيَّتها مؤقتًا.

برزت أمام كاترينا ومساعديها المقرَّبين مسألة أهمّ تتعلَّق بجدوى بقاء الأسطول المُكْلِف في البحر المتوسِّط، ما استوجب حضور أ. غ. أورلوف إلى بطرسبورغ، فغادر ليفورنو على عجل، ووصل إلى العاصمة الشماليَّة في الرابع من آذار/ مارس 1771. ولقي هذا الوصول المفاجئ أصداء في أبيات الشُّعراء البارزين[99]. وفي العاشر من آذار/ مارس، ناقش مجلس البلاط السَّامي

---

(96) المرجع نفسه، ص 62.

(97) *АГС*, с. 64.

[أرشيف مجلس الدولة، ص 64].

(98) المرجع نفسه، ص 71.

(99) В. П. Петров, *Ода его сиятельству графу Алексею Григорьевичу Орлову на прибытие его из Архипелага в Санкт-Петербург. 1771 марта 4 дня.* ([СПб., 1771]); П. С. Потемкин, *Стихи на приезд из Архипелага графа Алексея Григорьевича Орлова, сочиненные 1771 году, марта 4 дня.* ([СПб., 1771]).

[ف. ب. بتروف، قصيدة غنائيَّة لسعادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف لمناسبة وصوله =

النصَّ الذي يمنح أورلوف صلاحيات عقد «السَّلام الخاصّ» مع الباب العالي، وكذلك «الاتفاقيات مع الدول الأفريقيَّة».

بقي أ. غ. أورلوف في روسيا شهرًا، على ما يبدو، ثم غادر إلى ليفورنو، وتوقَّف الكلام على مشروع «السَّلام الخاصّ»، ليُطرَح مجدَّدًا في ما بعد في سياق معاهدة السَّلام الشَّاملة. أما أورلوف، فعكف على تنظيم حصارات السواحل العثمانيَّة والدوريَّات البحريَّة في الأرخبيل. وبحلول شهر آب/ أغسطس 1771، برزت أمامه ضرورة توسيع مسرح العمليَّات الحربيَّة، وصولًا إلى سواحل سوريا ومصر.

بعدما باتت مسألة التعاون مع علي بك حاجةً ملحَّة، أرسل أورلوف في الأول من آب/ أغسطس 1771 شقيقه فيودور إلى جزيرة رودوس على رأس عمارة بحريَّة، ومن ثَمَّ إلى سواحل أفريقيا. وثمَّة أساس للاعتقاد أنَّه أعطى أيضًا أمرًا لبعض السُّفن اليونانيَّة وللقبطان كوريلي - الذي كان يخدم في الأسطول الروسي («القرصان»، وفق ما كانت تسمِّيه الصحف الأوروبيَّة) - بالانتقال إلى تلك المياه. أصيب فيودور أورلوف بوعكة صحيَّة في الطريق فعاد إلى مرفأ آوزا، وأوفد ضابط المدفعيَّة النقيب لفوف إلى مصب نهر النيل (لم نفلح للأسف في التحقُّق من اسمه الأول). وعلى غرار تجربة حملة الأرخبيل، وضع لفوف خرائط لسواحل رودوس وقبرص ومصبِّ النيل، وأرسل في الوقت نفسه المترجم اليونانيَّ كاربوني لإجراء «محادثاتٍ سريَّة مع علي بك»(100).

= إلى سان بطرسبورغ من الأرخبيل. 4 آذار/ مارس من عام 1771 ([سان بطرسبورغ، 1771])؛ ب. س. بوتيومكين، أشعار لمناسبة وصول الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، نُظمت في عام 1771، 4 آذار/ مارس ([سان بطرسبورغ، 1771]).

(100) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII (СПб., 1888), с. 11.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 12 (سان بطرسبورغ، 1888)، ص 11]:

لم يرسل ألكسي غريغوريفيتش «مخطَّطات» الجزر ومصبِّ النيل و«مواقع بحريَّة أخرى» مع «شروحات عنها مدوَّنة في السجلّ» - مرفقةً بملاحظات كاربوني إلى الإمبراطورة بواسطة لفوف - إلا في أيار/ مايو 1772، «من أجل الاطّلاع».

سنعلم عن مصير مستقبل مهمَّة كاربوني من رسالة علي بك الذي لم يذكر مع ذلك اسم الرسول. فقد أخبر حاكم مصر أنَّ شخصًا وصل إلى أمين سرِّه قائلًا إنَّه مكلَّف بتسليم رسالة من الكونت أورلوف إلى علي بك، لكنَّه أضاع «الرسالة» في الطريق. (نعتقد أنَّه لم تكن هناك رسالة، بما أنَّ ألكسي غريغوريفيتش كان يفضِّل عدم إثبات الأسرار على الورق، فضلًا عن أنَّ الرجل أُرسل لمجرَّد «الاستعلام الدقيق عنه» [المقصود علي بك] بحسب رواية أخرى؛ علمًا أنَّ الحديث عن فقدان الرسالة قد يكون جزءًا من سيناريو المراسلة نفسها). طلب هذا الشخص (وهو كاربوني من دون شك) «الحصول على معلومات مفصَّلة عن الأمور والأحوال المحليَّة»، فـ «لُبِّيَ طلبه كاملًا». لكنْ، ينبغي الافتراض أنَّ هذه الأوراق لم تحمل تواقيع خشية الاستفزازات التركيَّة. وقد سُلِّمت هذه الرسائل إلى إ. ف. ميلوفسكي سكرتير أ. غ. أورلوف، الذي عاد وأرسل كاربوني إلى القاهرة مجدَّدًا في 6 أيلول/ سبتمبر، حاملًا رسالة إلى علي بك يُعلمه فيها أنَّ الرسائل المُغفَلَة وصلت[101]. وكما يتبيَّن من الوثائق، أصبح جواب ميلوفسكي هذا مسوِّغًا لصوغ علي بك رسائله ورسائل مُعاوِنيه التي نقلت إلينا أصواتهم باعتبارهم مُشاركين في الأحداث، وهم أمين سرِّه ومنجِّمه القبطيُّ المعلِّم عطا الله رزق و«السَّفير المفوَّض» التاجر البندقيُّ كارلو روسيتي [تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الرسائل وصلت إلينا

---

(101) كان مصير كاربوني محزنًا، وقد حدَّثتنا عنه مذكِّرة أورلوف التي جاء فيها: «توفِّي هذا الرسول قبل وصوله إلى ليفورنو (حيث كان عليه تقديم عرض شفهي عن مهمته - المؤلفة)، وضاع معه كلُّ ما كان يمكن أن يرويه زيادةً على ملاحظاته المدوَّنة»، أي إنَّ كلَّ ما كان يمكن أن يرويه كاربوني مات معه. دوَّن أ. غ. أورلوف هذه الملاحظة على النسخة المحفوظة من «مذكِّرات وملاحظات خاصَّة وضعها المترجم اليوناني كاربوني». أمَّا عن كاربوني نفسه، فتقول الوثيقة إنَّه عند إرسال مدفعيَّة النقيب لفوف إلى السواحل المصريَّة، «أُنزل إلى اليابسة وأُرسل إلى مدينة القاهرة، المقرِّ المعتاد لحاكم مصر الحالي علي بك، للتعرُّف إليه من كثب». وكما نرى، لا يرد في الوثيقة أيُّ ذكرٍ لرسالة أورلوف، التي يُزعم أنَّ كاربوني أضاعها: *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 20-21.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 20-21].

مترجمةً عن الإيطاليَّة، التي كانت اللغة الدبلوماسيَّة المعتمَدة في بلدان حوض البحر المتوسِّط]. وتتَّسم هذه الرسائل بأهميَّة استثنائيَّة في فهم شخصيَّة علي بك والأشخاص الذين كان يثق بهم، وكذلك لفهم الأشكال التي سعوا من خلالها إلى عرض نواياهم على الجانب الرُّوسي؛ إذ يبدو علي بك على صفحات تلك الرسائل حاكمًا مستقلًا ومعبِّرًا في الوقت نفسه عن احتجاج سكَّان «مصر الكبرى» («يبسط سيِّدي حكمه على مصر كلِّها، وصولًا إلى الحدود الفارسيَّة»، أي على أراضي السلطنة المملوكيَّة السابقة) ضد «النِّير البربري» التركي («يمارس الأتراك ظلمًا عظيمًا على سوريا والقدس، وعلى مناطق أخرى»). لقد «امتشق علي بك السلاح» لإزالة هذا النِّير، ولذا، حظي بمساندة سكَّان سوريا الذين انتقلوا إلى جانبه (ثمَّة مبالغة كبيرة هنا). لقد حمى المسيحيِّين ودافع عن الأراضي المقدَّسة، وحصل بفضل ذلك على مساعدة من الله.

وُضعت رسائل علي بك وكبار مساعديه، بما يتوافق مع مواقعهم، على نسق الرسائل الدبلوماسيَّة لرجال دولة ذات سيادة، وكانت ترمي إلى إقامة علاقات وديَّة بين حاكمين مستقلين وتبادلهما السفراء. وبناء على أعراف المراسلات الدبلوماسيَّة كان محتوى كلِّ رسالة يتوافق مع صلاحيات واضعها وواجباته.

بوصفه حاكمًا مستقلًّا، توجَّه علي بك إلى الإمبراطورة الروسيَّة، عبر رجلها المفوَّض الكونت أ. غ. أورلوف؛ فجاءت رسالته لتعبِّر لأورلوف عن مشاعره الوديَّة النابعة من وحدة التفكير («أناس ذوو تفكير مشترك»)، المبنيَّة على الإيمان المشترك بالعدالة (النضال المشترك ضد طغيان السلطان العثماني). وأعرب علي بك، في الوقت نفسه، عن أسفه لتوجُّه أورلوف المتأخِّر إليه (كانت كاترينا على حقٍّ عندما رأت في تعبير علي بك العلني عن ترحيبه بالانتصارات الروسيَّة إشارةً إلى إقامة علاقات روسيَّة - مصريَّة). أمَّا عرض المسائل التفصيليَّة فتركه، كما يُفترض بالحاكم، لرجاله المفوَّضين.

ترجمةٌ عن النص الإيطالي لرسالة علي بك المصري إلى الكونت أ. غ. أورلوف. القاهرة 4 شعبان من عام 1185 (22 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1771)؛



علي بك (صورة مطبوعة من البندقية في القرن الثامن عشر)

من البلاط الملكي المعظَّم في القاهرة، مدينة يوسف، حماها العليُّ القدير، الذي يعقد عليه علي بك كلَّ آماله، إلى الصديق العزيز الغالي، الأسد المبجَّل، صاحب السمو الكونت أورلوف، قائد عام القوات البريَّة والبحريَّة، مفوَّض صاحبة الجلالة المعظَّمة إمبراطورة عموم الروسيا، فليساعدها الله على نصرة العدالة، ويكلِّلها بالمجد والعزة.

منذ قدوم حضرتكم، ونحن ننتظر رسائلكم بفارغ الصبر، لكنْ على الرغم من استيائنا من عدم تلقِّيها، فقد واسانا سلوككم مع مواطنينا، الذي علمنا به، وعلَّقنا الأمل على محبَّتكم وعلى صداقة إمبراطورتكم صاحبة العطوفة. إنَّ صفاتكم الطيبة وعدالتكم على وجه الخصوص تجعلنا نتمنَّى الصداقة المتبادلة وننشدها. وليس لديَّ شكّ في بلوغها: فهي تُكتسب بسهولة وتترسَّخ بين أناسٍ ذوي تفكير مشترك.

أنا لم أتسلَّم رسالة فخامتكم، فالشخص الذي كُلِّف بنقلها أضاعها، وقد حضر إلى أمين سرِّي وشرح الأمر، وطلب الحصول على معلومات مفصَّلة عن الأمور والأحوال المحليَّة. ولقد لُبِّيَ طلبه كاملًا، لكنْ كل ما أعطي له بقي من دون توقيع.

رجع الشخص نفسه وحمل إلينا رسالة من أمين سرِّكم الأكبر ومستشاركم الحربي السيد ميلوفسكي(102)، التي علمنا من خلالها أنَّ الرسائل غير الموقَّعة

(102) يدور الكلام على إيفان فاسيليفيتش ميلوفسكي، أمين سرِّ أ. غ. أورلوف.

**قد وصلتكم، وهذا ما دفعنا إلى كتابة هذه الرسالة والتأكيد على صداقتنا، وهي مرفقة أيضًا برسالة من مستشارنا الأول مع بعض الأخبار. لقد ائتمنَّا السيد كارلو روسيتي الذي وكَّلناه رسولًا إلى فخامتكم على تلك الرسالة، وقد توجَّه إلى دمياط، حيث سيتوقَّف وينتظر منكم جوابًا، كما أنَّ لديه أوامر بإبلاغ نوايانا إلى قبطان الفرقاطة الموفد من قِبلكم، السيد كاريليا.**

**ليبارككم الرب بكل خير.**

**النص الأصلي باللغة العربيَّة من ملك مصر إلى الكونت ألكسي أورلوف مع الختم الملكي[103].**

أنيط بالوزير عطا الله رزق[104] إظهار أسس الدولة المصريَّة الفكريَّة والسياسيَّة على النحو الأكثر جاذبيَّة، مع توصيف لأحوالها العصريَّة وأهدافها الحربيَّة - السياسيَّة. وكان ينبغي أن تمجِّد معلوماته أفعال ملكه وإنجازاته، وأن تجمِّل واقع الأحوال الحقيقي على الطريقة الشرقيَّة. ورغبةً منه في استمالة الجانب الروسي، شدَّد رزق على تطلُّع علي بك إلى حماية الأراضي المقدَّسة (على الرغم من أنَّ القدس كانت لا تزال تحت حكم الأتراك حينذاك). وانطلاقًا من مصالح كِلا الجانبين السياسيَّة المشتركة، فقد رسم رزق بصراحة تامَّة خطوط تقسيم مناطق النفوذ المستقبليَّة (الأمر الذي يذكِّر بمشروعات فولتير شبه الهزليَّة)، وخُطط علي بك الاستراتيجيَّة القريبة، المتمثِّلة في الاستيلاء على قبرص، مفتاح المواصلات البحريَّة السوريَّة، بمساعدة الأسطول الروسي.

**ترجمة عن النص الإيطالي لرسالة الوزير المصري Resch Attala[105] إلى**

---

(103) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 6, 6об., 7.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 6، ظهر الورقة 6، الورقة 7].

(104) يذكر أوريان أنَّ اسمه «عبد الله رزق»، الذي تنبَّأ بسقوط القسطنطينيَّة وببعض إخفاقات علي بك، بصفته منجمًا: Auriant, «Catherine II et l'Orient, 1770-1774,» p. 209.

يُنظر أيضًا: Lockroy, p. 75.

(105) هكذا ورد اسم المعلم رزق في النصِّ الإيطالي، على ما يبدو، الذي سمَّاه علي بك «مستشارنا الأول» (الكاتب الرئيس، على الأرجح، بحسب التسمية العربيَّة، وهو أشبه ما يكون بأمين سرٍّ)، أما رزق نفسه، فهو «وزير» وفقًا لجدول المراتب الأوروبيَّة.

الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، مؤرَّخة في التاسع من شهر شعبان من عام 1185، الموافق لـ 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1771.

سعادة قائد عام القوات البحريَّة والبريَّة الروسيَّة، مفوَّض صاحبة الجلالة المعظَّمة إمبراطورة عموم الروسيا، (فلينصرها الله دومًا وليكلِّلها بالمجد).

رعاكم الله، أخانا العزيز المبجَّل السيد الكونت أورلوف، أنحني أمامكم وأبلِّغكم أنَّ الأتراك يقترفون في سوريا والقدس، كما في أماكن أخرى، ظلمًا عظيمًا. إنَّ سيِّدي، بناءً على تصوُّراتي[106]، يبذل بحماسةٍ كلَّ ما في وسعه من أجل تحرير الأراضي المقدَّسة من النِّير البربري، ولأجل ذلك حمل السلاح ضدَّه. كانت محاولته الأولى تثبيت سيطرته على مصر العليا والسفلى، وعلى كلِّ الموانئ، وعلى مدينة جدَّة، وقد دُمِّر كلُّ ما كان في حوزة الأتراك، ممَّا كانوا ينتفعون به[107] في الأماكن المذكورة. وبعد تحقيق ذلك، وجَّه قوَّاته العسكريَّة إلى الاستيلاء على غزَّة، تزامنًا مع العمليَّات الناجحة جدًّا التي قامت بها جيوش إمبراطورتكم ضدَّ العدو. ولقد رفعتُ الشكر ليسوع المسيح على كل هذه الانتصارات الإلهيَّة التي رسَّخت لديَّ القناعة بأفضليَّة الدين المسيحي. وبعد احتلال غزة، أخضعت مدن رامة ويافا ونابلس[108] وغيرها، وانضمت إلى قوَّاتنا كلُّ القوات التي كانت ضدَّ سيِّدي - التي وصل تعدادها إلى 20 ألفًا - وحذا حذوها شيخ عكَّا (d'Acri) ضاهر[109] مع كلِّ أبنائه وأتباعه (الذين بلغ عددهم نحو 30000 مقاتل)، وأيضًا المتاولة (Metuali)، وبعد احتلال القلاع، وإبادة الكثير من الأتراك، استسلم عدد كبير من المسلَّحين لسيِّدي. واستُولِيَ من ثَمَّ على صيدا (Seida)، وأرسل كل الدروز (Drusi) الذين يقطنون جبل لبنان طالبين الحماية. ويُحضَّر في هذه الأيام لإرسال القادة المعيَّنين إلى مواقعهم في القدس والمناطق الأخرى الآنفة الذكر. وأنا أرى أنَّ الله يمدُّ العون لسيِّدي، في كلِّ

---

(106) من الواضح أن رزق قصد في الأغلب تأثيره الشخصي في علي بك بصفته منجِّمه.

(107) يبدو أنَّ المقصود هنا إبادة علي بك ضبَّاط الوحدات الإنكشاريَّة العثمانيَّة وملتزمي الجمارك من اليهود.

(108) *Rama, Giaffa, Napoli di Soria.*

(109) المقصود ظاهر العمر. (المترجم)

الظروف، لحمايته المسيحيِّين ودفاعه عن أرضه المقدَّسة. إنَّني أسمع بفرح عظيم عن نوايكم الطيِّبة حيالنا تتردَّد من كل حدب وصوب.

أرسل إليكم سيِّدي رسالته عربونًا عن محبَّته، وأمرني بإبلاغ سعادتكم عن رغباته. وسيكون من المفيد جدًا لو أرسلتم، سعادتكم، بعض السُّفن مع جنرال حاذق، للاستيلاء على جزيرة قبرص، فيرسل سيدي، في الوقت نفسه، قائدًا مع قوة كافية لتسلُّمها، وعندئذٍ سيسعُكم إعادة سفنكم، إذا ما رغبتم بذلك. إن نجاح هذه العمليَّة سيتيح لسيِّدي الاستيلاء على كلِّ المناطق المجاورة لهذه الجزيرة وإلحاق خراب عظيم بالأتراك من دون صعوبة تُذكر. وبعد ذلك، ستتعزَّز الصداقة ما بين ملكينا، وستتوطَّد أكثر بتبادل السفارات. أمَّا من جهتنا، فنعد بتنفيذ كلِّ ما تطلبونه منَّا.

بعد هذا الشرح، أرجو من سعادتكم الإجابة بالتفصيل عن كلِّ الأمور، من خلال جمارك الإسكندريَّة أو دمياط. إننا ننتظر ذلك بفارغ الصبر. ومن دون أدنى شكٍّ، سيُقضى بهذه الطريقة على الباب العالي العثماني، وسيستحوذ سيِّدي على كلِّ مصر، وصولًا إلى الحدود الفارسيَّة؛ أمَّا أنتم، فستأخذون القسطنطينيَّة... وهكذا، يسقط العثمانيُّون، ولن يكون فصلٌ بيننا؛ فستكون أرضنا أرضكم، وأرضكم أرضنا. وليضاعف الربُّ مجدكم.

*Resh Atalla minister del governo d'Egiptte*

(النص الأصلي باللغة العربيَّة)[110].

كما ينبغي لـ «السفير المفوَّض»، أعرب كارلو روسيتي عن استعداده للشروع في نقاش «الشروط المتعلِّقة بالمنافع المتبادلة»، وتوقَّع من أ. غ. أورلوف الموافقة على التفويض.

من دمياط مؤرَّخة في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1771.

بعد كتابة أمين عام مجلس الوزراء العظيم ومستشار الدولة السيد ميلوفسكي جوابًا مؤرَّخًا في 6 أيلول/ سبتمبر على رسالتي المرسلة من دون توقيع، سُلِّم إلى

---

(110) أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 3، ظهر الورقة 3، الورقة 4، ظهر الورقة 4.

الحاكم، واعتزم إرسالي إليكم من أجل الحصول على شروط المنافع المتبادلة، أكان بالنسبة لسعادتكم، أما بالنسبة إلى هذه الدولة. وقد دفعه خبر وصول القبطان كوريل مع الفرقاطة إلى دمياط إلى إيفادي على وجه السرعة لتسليم هذا القبطان رسالة موجَّهة إلى سعادتكم، ولمعرفة نواياكم إذا أمكن. بيد أنَّني على الرغم من استعجالي الوصول إلى هنا، فإنَّني للأسف لم ألحق بالقبطان كوريل، الذي غادر تاركًا رسالةً باسم صاحب الجلالة علي بك، ملك مصر والقدس وعموم سوريا. وبعد فتح الرسالة بموجب التوكيل المعطى إليَّ، علمت أنَّه كان ينوي العودة مجدَّدًا إلى هنا، وقد تحدَّث في الوقت نفسه عن بعض الغنائم التي تعود إلى الحاكم المحلِّي ورعاياه، ونحن نرغب في استعادتها. وبعد انتظار ذلك الضابط خمسة أيام من دون طائل، اعتزمت استئجار القبطان الفرنسي لودفيخ أدوفرين[111] بغية إيصال رسالة الحاكم المصري مع رسالة أخرى من وزيره الأول إلى سعادتكم. ولا أدري إن كنتم سعادتكم ستُقدِمون على عملٍ ما، قبل عقد معاهدة واضحة، فهذا القرار يعود إليكم وحدكم يا صاحب السعادة، وإذا ما رأيتم أنَّ مجيئي سيكون ملائمًا، فإنَّ كلمة واحدة منكم ستجعل الحاكم هنا يرسلني من دون إبطاء. وسيكون من دواعي سروري البالغ التعرُّف إلى شخصيَّة تتَّسم بمثل هذه المناقب الممتازة. إنَّ القرار بعودة القبطان (المذكور) السريعة سيمنحني فرصة الالتقاء بكم، لأؤكِّد لكم بفائق الاحترام أنَّني سأبقى في خدمة سعادتكم.

خادمكم المطيع،

روسيتي[112].

كان الطرد الذي احتوى رسائل علي بك ورزق وروسيتي (كانت الرسائل بحسب قول غ. أ. سبيريدوف، «مكتوبة بالتركيَّة»، أي بالأحرف العربيَّة) قد وصل في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1771 إلى جزيرة باروس على متن سفينة

(111) يكتب أوريان: «القبطان» («Luis Audiffren»): Auriant, «Catherine II et l'Orient, 1770-1774,» p. 209.

(112) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 10.
[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 10].

فرنسيَّة، بفارق بضعة أيام فقط على مغادرة أ. غ. أورلوف إلى ليفورنو. تسلَّم سبيريدوف الطرد وأرسله إلى ليفورنو على الفور[113]، وكتب إلى «رسول» علي بك «المفوَّض» كارلو روسيتي بشأن الغنائم والأسرى المصريِّين الذين أسرتهم السُّفن التي تحمل العلم الروسي، مؤكِّدًا له أنَّ كلَّ البضائع المصريَّة ستُعاد إلى أصحابها، أو سيُدفع ثمنُها كاملًا[114].

تؤكِّد وثائق أرشيف مجلس الحكومة أنَّ كارلو روسيتي زار باروس في كانون الأول/ ديسمبر 1771، حيث التقى ألكسي أورلوف[115].

## التعاون الروسي - العربي: الفصول الأولى للتعاون الحربي والسياسي (عام 1772)

ردَّ أ. غ. أورلوف على رسالة علي بك، وكان هذا الردُّ بالفعل أنموذجًا للفنِّ الديبلوماسي، إذ جمع في أسلوب مخاطبته بين الصيغتين الدبلوماسيَّتين الروسيَّة والعربيَّة:

---

(113) رسالة غ. أ. سبيريدوف إلى رزق (المرجع نفسه، الورقة 13، ظهر الورقة 13)، التي لم يخبر غريغوري أندرييفيتش فيها رزق عن تسلُّم الرسائل فحسب، بل وجد أنَّ من الضروري (على غرار ما ورد في رسالة رزق) إعطاء معلومات متفائلة عن انتصارات روسيا على البرِّ وفي البحر.

(114) تكتسب رسالة سبيريدوف أهميَّة من وجهة نظر الوصف، المثالي على الأقل، للنظم المتَّبعة في مجلس الأرخبيل في ما خصَّ الغنائم والأسرى. فقد كتب الأميرال: «لا يحدث هذا (الاستيلاء على الغنائم - المؤلفة) لا لأنَّ أحدًا من قادتنا كان يرغب في تحقيق المنافع، بل لكي لا نقدم، نحن القيادات في الظروف الحربيَّة، مزيدًا من الشكوك للمشكِّكين؛ لذا، فإنَّنا نعمل على معاينة كل ما نحصل عليه، ونضع قائمة موثوقة بقيمته، تبيِّن ما يُسمح ببيعه بعد تقدير قيمته، نقدًا لا عينًا، لمن يدفع الثمن؛ وتوضع لائحة بالأسرى الذين نسعى على هدي رحمة مولاتنا إمبراطورة عموم روسيا إلى البحث عن فرص تحريرهم وأساليبه من دون فدية أو مصلحة شخصيَّة. وهذا ما تؤكِّده الممارسة... وأيًّا كان عدد رعايا ملك مصر وحاكمها المجيد علي بك، أو سيكون، فإننا سنسعى إلى إطلاق سراحهم وإرسالهم إلى دمياط، أو إلى أيِّ مكانٍ يرغبون فيه»: *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 17.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 17].

(115) يُنظر: П. Перминов, «Три эпизода из истории русско- арабских связей в XVIII в.,» *Азия и Африка сегодня*, no. 7 (1987), c. 36.

[ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسيَّة - العربيَّة في القرن الثامن عشر»، **آسيا وأفريقيا اليوم**، العدد 7 (1987)، ص 36].

**نحن، الكونت ألكسي أورلوف، الجنرال المفوَّض من صاحبة الجلالة المعظَّمة كاترينا الثانية إمبراطورة عموم الروسيا، قائد القوَّات المسلَّحة البحريَّة والبريَّة الروسيَّة الأعلى في بلاد الشام (الآن في بلاد الشام، أي في شرق البحر المتوسِّط، وليس فقط في الأرخبيل! - المؤلفة)، حائز كلِّ الأوسمة الروسيَّة من رتبة فارس، إلى علي بك صاحب الانتصارات المجيدة، حاكم مصر وسوريا العظيم، القوي والمخيف لأعدائه في سائر فلسطين والبلاد البعيدة، كما الأسد للغزلان؛ المنتصر على خصومه والمدافع المقدام عن مملكة يوسف. نتمنَّى لكم من كلِّ قلبنا الصحة والسعادة والعظمة ومجد السلاح المكلَّل بالانتصارات العالية دومًا.**

تمكن أ. غ. أورلوف من إعلام علي بك أنَّه قدَّر تلميحه الدقيق إلى تقديس المسلمين والمسيحيِّين على السواء قصص الإنجيل؛ بل إنَّه طوَّر هذه الفكرة مُقارِنًا علي بك الذي حرَّر شعوبًا كثيرةً من جلاديها بيوسف الذي أنقذ المصريِّين من المجاعة في غابر الأزمان. وأكَّد أيضًا اعترافه الكامل بمطالب علي بك الإقليميَّة، وبحقّه في حماية الأماكن المقدَّسة، مُرفِقًا اعترافه هذا بالإشادة به، مبالغًا على الطريقة الشرقيَّة، جامعًا ذلك كلَّه في صور بلاغيَّة أنموذجيَّة:


الكونت ألكسي أورلوف

**تلقينا رسالتكم القيِّمة، التي استشففنا من خلالها بارتياح التعبير عن صداقتكم لنا، وبغيرة مماثلة نعرب نحن، في المقابل، عن شكرنا للعناية الإلهيَّة التي أرسلت يوسف في غابر الأزمان إلى أرض المملكة المصريَّة لكي يخلص شعبها من المجاعة، فاستجابت اليوم لتأوُّهات الناس الشجيَّة، أولئك الرازحين تحت أثقال الجور والعَسَف، واختارتكم أنتم، البطل الشجاع الأغرَّ، الزعيم العظيم والحكيم، فأرسلتكم لتحرير الشعوب من أيدي جلاديها، الذين قهرهم الله مرارًا بسلاحكم الجبار، وجعلكم الفائز بالمملكة المصريَّة، والمدافع عن الأماكن المقدَّسة ومخلِّص الشعوب الصغيرة التي ستعيش في النعيم، وستبقى**

**في كلِّ أصقاع الأرض تمجِّد شجاعة حاكم مصر وسوريا والأراضي المجاورة الجديد وقوته وعدالته - وقد دانت جميعها لهذا المنتصر - الذي يذيع صيتُه لحظةً بلحظة، بفضل سلاحه وانتصاراته، في بلدان الشرق كافَّة. لقد خُلِّد اسمُه بشهامته وكرمه أمام شعبه في كلِّ بقاع الأرض، تاركًا للأجيال القادمة مثالًا حيًّا للشجاعة والفضيلة.**

أعرب أ. غ. أورلوف لعلي بك في الختام عن صدق مشاعره الوديَّة، وأخبره أنَّه يبعث إليه بالرسالة مع شخص رفيع المقام هو الكونت إ. فوينوفيتش الحائز وسام القديس جاورجيوس المظفَّر (أعرب علي بك في رسالته الجوابيَّة عن ارتياحه لرفعة مقام رسول أورلوف). وتوجَّه فوينوفيتش على متن فرقاطة حربيَّة، حاملًا تفويضًا لتقديم «التفسيرات الشفهيَّة» إلى شخصيَّة رفيعة المقام مثله، مفوَّضة من علي بك:

**باسم صداقتنا الأكيدة ومودَّتنا تجاهكم، وشعورنا بالارتياح التامِّ، نشكر لكم رسالتكم، ونرسل جوابًا عنها مع رسولنا الخاصِّ الضَّابط والفارس الكونت فوينوفيتش، كي يوصلها لكم عبر شخصٍ مفوَّض منكم ترسلونه إلى الفرقاطة لتسلُّم رسالتنا، وكذلك لسماع التفسيرات الشفهيَّة من الفارس فوينوفيتش المفوَّض من قبلنا. تقبَّلُوها منَّا علامةً على غيرتنا الصَّادقة ومودَّتنا الدائمة تجاهكم، وثقوا أنَّنا نتمنَّى لكم من أعماق قلبنا أن يبارك العليُّ القدير سلاحكم لتحقِّقوا الانتصارات على أعدائكم دائمًا، وليكلِّلْ كلَّ فضائلكم بالصحَّة والعمر المديد والسعادة والعزَّة والعظمة، لما فيه خير رعاياكم وبهجة مُحبِّيكم. صديقكم المخلص الكونت ألكسي أورلوف. سُلِّمت في إيطاليا، توسكانة، مدينة بيزا، في السادس والعشرين من شهر نيسان/ أبريل 1772.**

من أجل تماثل النُّصوص الكامل، أضاف أورلوف في الحاشية: «نسخة الرسالة الأصليَّة مرفقة بترجمة إلى اللغة الإيطاليَّة، التي ينبغي أن تترجم إليها النصوص الواردة من مصر باللغة العربيَّة»[116].

---

(116) Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским. 1770-1773, = in: *Русский архив*, 1880, III (2), с. 246-247.

كما نرى، ظلَّ أ. غ. أورلوف على عادته لا يُودِعُ الأسرار على الورق، وأضفى طابعًا سريًّا على المهمَّة كلها. فكان على فوينوفيتش استقبال الشخص المفوَّض على متن الفرقاطة، وعدم النزول إلى البرِّ، وعدم الذهاب إلى القاهرة. دلَّ ذلك كلُّه على أنَّ عدم الثقة بين الجانبين لم يذلَّل.

مع ذلك، لا تزال رسالة علي بك، وكذلك جواب أ. غ. أورلوف، يحتفظان بأهميَّة استثنائيَّة حتَّى الآن، كونهما يدلان على أنَّ السياسيَّيْن كانا يبحثان عن سبلٍ للتَّفاهم: فقد احتوت الرسالتان بين السطور على حوار بين الأديان، استوجبه إيجاد تبرير ديني - أخلاقي لتحالف شخصيَّتين تعتنقان ديانتين مختلفتين، وضعا هدفًا رئيسًا لهما هو تحرير الشعوب من الاضطهاد العثماني.

في 23 أيار/ مايو 1772، أرسل أ. غ. أورلوف إلى ن. إ. بانين نسخة عن رسالته الجوابيَّة إلى علي بك طالبًا تسليمها للإمبراطورة، وذيَّلها بحاشيةٍ تفيد أنَّه أرسل الرسالة[117] قبل عدَّة أيام على متن فرقاطة خاصَّة من ليفورنو[118]. وبكلام آخر، لم يكن ألكسي غريغوريفيتش على عجلةٍ من أمره: فقد مرَّ ما بين رسالة علي بك وجواب أورلوف عليها نصف عام تقريبًا(!). وإذا ما استُثني الوقت الضروريُّ لإيصال الرسائل المصريَّة إلى باروس، ومن ثَمَّ إلى ليفورنو، ومن هناك إلى بطرسبورغ، ومن ثَمَّ إعادتها إلى ليفورنو؛ ومع ذلك، فوَّت أورلوف ما لا يقلُّ عن شهرين[119]. فمن الواضح أنَّ ألكسي

= [مراسلات الكونت ن. إ. بانين مع الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، 1770-1773، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، III (2)، ص 246-247].

(117) إلى علي بك. (المترجم)

(118) أُرسلت كلُّ تقارير أ. غ. أورلوف المؤرَّخة في أيار/ مايو 1772 إلى بطرسبورغ، مع الضَّابط لفوف نفسه، والذي كان عليه تسليم الإمبراطورة الأوراق المتعلِّقة بإرساله إلى الشواطئ المصريَّة في آب/ أغسطس 1771: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 8-11.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 8-11].

(119) نقصد بذلك الوقت الفاصل بين إرسال سبيريدوف الرسائل المصريَّة إلى ليفورنو في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1771 - التي كان ينبغي إيصالها إلى أورلوف في موعد لا يتجاوز مطلع كانون الثاني/ يناير 1772 - وموعد إرسالها في 25 كانون الثاني/ يناير إلى العاصمة الروسيَّة، حيث نوقشت على الفور في مجلس الدولة، ومن المفترض أن تكون الأوامر بشأنها قد أرسلت إلى أورلوف على وجه السرعة، ومن ثَمَّ تلقِّيه التعليمات الحكوميَّة التي كان يجب أن تصله في بداية نيسان/ أبريل.

غريغوريفيتش لم يكن يشعر بالحماسة كما كان في بداية الحرب، ولم يُبدِ حزمًا، بل كان حذرًا. كان ذلك كلُّه، على الأرجح، نتيجة الخيبات التي عاناها في التَّعاون مع اليونانيِّين، وردَّة فعل حيال الوضع الدولي المتبدِّل، وربَّما على علائم برودة الإمبراطورة تجاهه. إضافة إلى ذلك، لم يكن، على ما يبدو، من السهل عليه، وهو الوفي لفكرة الحرب «ضد أعداء المسيح»، إيجاد المُسوِّغ الديني والأخلاقي للتَّحالف مع حاكمٍ مسلم.

الحقيقة أنَّ الملازم والفارس أنطون بسارو، زميل أورلوف القديم و«نائب إمارة الأرخبيل العام»، أُرسِلَ في 11-22 نيسان/أبريل 1772 من مرفأ آوزا إلى السواحل المصريَّة، على متن المركب الشراعي «اليونان»، تنفيذًا لأمر ألكسي غريغوريفيتش. ومن ثَمَّ صدر أمر إلى مساعد أورلوف، الرائد والفارس غيورغي ريزو، الذي كان يُبحِر مقابل شواطئ الأناضول منذ شهر كانون الثاني/يناير، بالتوجُّه إلى السواحل السوريَّة عبر رودوس على رأس عمارة بحريَّة صغيرة مؤلَّفة من سفن يونانيَّة تابعة للروس(120) والإبحار بينها وبين الإسكندريَّة(121). ووفقًا لتقرير غيورغي ريزو، فقد كان على عمارته البحريَّة «أن تعمل، بموجب الصلاحيات المعطاة لها،... كلَّ ما في وسعها لإلحاق الأذى بالعدو، ليس في البحر فقط، بل على اليابسة أيضًا»(122).

فُسِّر إرسال السُّفن اليونانيَّة، وليس الروسيَّة، إلى المنطقة، على ما يبدو،

---

(120) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 182.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 182].

(121) وفقًا لرسالة أ. غ. أورلوف المنشورة في: *Gazette d'Amsterdam*, no. 85 (1772)، تألَّفت العمارة البحريَّة من السفينة الشراعيَّة الثلاثيَّة الصواري «القديس نيقولاي» (12 مدفعًا و90 شخصًا)، والسفينة الشراعيَّة «نوتردام دو مونتي سباليو» (30 شخصًا)، والسفينة الشراعيَّة ثلاثيَّة الصواري «القديسة كاترينا» (16 مدفعًا و90 شخصًا)، والمركب «تشِك دام دو كاليكيتا» (12 مدفعًا و70 شخصًا)، ومن ثلاث سفنٍ صغيرة (شارك ما مجموعه 360 يونانيًا). وتحدَّثت معلوماتٌ أخرى عن سفينتين شراعيَّتين وسفينتين صغيرتين فقط. لقد دار الحديث، على ما يبدو، عن تلك السُّفن الأربع الخاصَّة، التي خدم عليها ريزو في الأسطول الروسي: *РГАДА*, Ф. 10, Оп. 1, Ед. хр. 645, Ч. II, Л. 78.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة، المجموعة 10، القائمة 1، وحدة الحفظ 645، القسم 2، الورقة 78].

(122) المرجع نفسه، الورقة 216.

بمعرفة طواقمها لظروف الملاحة في البحر المتوسِّط على نحوٍ أفضل؛ كما أتاح «التخلُّص» من «الأسطول اليوناني الصغير»[123] في أثناء الهدنة، غير أنَّه أظهر في الوقت نفسه عدم أهميَّة العمليَّة المرتَقَبة.

تلقَّى أ. بسارو وهو في الطريق خبرًا من سفينة تابعة للبندقيَّة عن فرار علي بك إلى فلسطين، فأبلغه بدوره إلى سبيريدوف في 2 أيار/مايو[124]. ووصل ريزو وبسارو إلى دمياط في 18-29 أيار/مايو، حيث أدركا هناك الفرقاطة «القديس بولس» (بقيادة القبطان بانايوتي ألكسيانو)، التي كان إ. فوينوفيتش على متنها. قرَّر ريزو وبسارو الرسو عند دمياط، بداية لـ «إلحاق الضرر بتجارة العدو ومصادرة مؤنه الغذائيَّة»[125]. لكن، بما أنَّ بسارو علم من أسرى «أتراك» (يبدو أنَّهم مسلمون مصريُّون) أنَّ «الأتراك طردوا **الباشا** علي بك»[126] من مصر، وأنَّه يعيش في مدينة حيفا السوريَّة، وينتظر سفينةً ما لتنقله إلى أيِّ مكان خوفًا من الأتراك، فقرر التوجُّه إلى حيفا «لنقل الباشا المذكور، لو أراد ذلك، إلى آوزا أو إلى أيِّ مكان يرغب»[127]. لكنَّ العمارة البحريَّة انقسمت قبل ذلك. وانطلقت «للبحث عن العدو في مختلف أنحاء السواحل السوريَّة». فذهب ريزو إلى «صور عازمًا مهاجمتها»[128]. أما بسارو فتوجَّه إلى شواطئ

---

(123) هكذا ورد اسمه في الصحافة الأوروبيَّة.

(124) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 182.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 182].

وبالفعل، غادر علي بك مع الخزنة والمماليك الذين يثق بهم، القاهرة في ليل 17/ 28 نيسان/ أبريل من عام 1772. ووصل غزَّة في 27 نيسان/أبريل - 8 أيار/مايو، وانضمَّ إلى ظاهر العمر في الرملة في 4-15 أيار/مايو: Crecelius, p. 94.

(125) *G. d'A.*, 1772, no. 85.

(126) ربَّما هكذا دعا المصريُّون علي بك، معتبرين أنه قائمّقام للباشا العثماني، وليس سلطانًا. غير أنَّ اليونانيِّين كانوا يدعون الوجهاء المصريِّين بالـ «باشاوات».

(127) *РГА ВМФ*, Ф. 870, Оп. 1, Д. 1149.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 870، القائمة 1، الملف 1149].

نُشِرَ سجلُّ المركب «اليونان» بصورة مختصرة، في: **مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 58-59.

(128) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 216.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 216].

سكاروبانتو (Scaroponto) لكي يؤمِّن الحماية لهذه الجزيرة، حيث يوجد عدد كبير من سفن الدولتسِّينيِّين»[129].

يتَّضح من هذه الأنباء أنَّ عمارة ريزو - بسارو لم تتوجَّه إلى السواحل المصريَّة تلبيةً لطلب علي بك بالمساعدة[130]، وإنَّما بهدف إلحاق الضَّرر بالعدو (عندما انطلقت العمارة في مطلع نيسان/ أبريل، كان علي بك لا يزال في القاهرة). وربَّما، أيضًا، لاستطلاع الأوضاع في مصر، على الرغم من أنَّهم كانوا يعلمون في الأسطول بميول علي بك الوديَّة تجاه روسيا (وإلا فَلِمَ كان التفكير بإنقاذه؟!).


قلعة في خليج حيفا - عكا

تطوَّرت الأحداث لاحقًا على النحو الآتي: صادفت عمارة ريزو في طريقها إلى صور، فلوكة عربيَّة مقابل عكا، أرسلها علي بك بعدما عَلِمَ بظهور السُّفن الروسيَّة. ودعا علي بك قباطنة السُّفن ليعرِّجوا على حيفا «لإجراء بعض المباحثات حول الأعمال القتاليَّة»[131]. غير أنَّ ريزو

(129) G. d'A., 1772, no. 85.

تقع جزيرة سكاروبانتو أو كارباتوس بين جزيرتي كريت ورودوس.

[الدولتسينيُّون: سكَّان مدينة أولتسي القديمة أو دولتسي بالإيطاليَّة، ومعظمهم من الألبان، وهي تقع جنوب الجبل الأسود على البحر الأدرياتيكي، وكانت حينذاك تتبع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة]. (المترجم)

(130) ترسَّخت وجهة النظر هذه في الكتابات المحليَّة والأوروبيَّة (ق. م. بازيلي، ف. بيرسين، ب. بيرنوف، ت. ي. كوبيشانوف وغيرهم)، غير أنَّها تبسِّط الطريق الذي قطعه الجانبان لتحقيق التعَّاون.

(131) = РГА ВМФ, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 218 об.

الحذر أرسل، أولًا، الرائد الألباني تشيفالو (Giacomache Gavala) إلى الفلوكة مع مترجم يوناني «للتعرُّف إلى حقيقة الأوضاع على نحوٍ أفضل». أمَّا هو فأكمل طريقه إلى صور، واستعدَّ للقيام بعمليَّة إنزال فيها. (ينبغي القول إنَّ ما فعله ريزو كان خطأً تكتيكيًا كبيرًا، لأنَّ صور كانت في يد المتاولة، وخاضعة لسيطرة الشيخ ظاهر[132]، ولأنَّ الخطر العثماني كان يتهدَّد صيدا حينذاك).

لم يظهر الرائد الألباني، بدوره، في معسكر علي بك، بل أرسل إليه المترجم. ولم تتبدَّد الشكوك إلا بعدما استُقبِلَ المترجمُ «بحفاوة»، وحصل على «العباءة[133]، وفق العادة الشرقيَّة»، وعاد برفقة ضابط مصري نقل إلى ريزو طلب علي بك بدخول السُّفن إلى حيفا[134].

في 23 أيار/ مايو - 3 حزيران/ يونيو، رست عمارة بسارو مقابل حيفا، وقد سبقه إليها ريزو، كما وصلت أيضًا السَّفينة «القدِّيس بولس» وعلى متنها الكونت فوينوفيتش حاملًا جواب أ. غ. أورلوف الذي طال انتظاره إلى علي بك، ومفوَّضًا لإجراء المفاوضات. وأخيرًا، توفَّرت الشروط اللازمة للأعمال المشتركة.

على الرغم من أنَّ الرائد الألبانيَّ وجد علي بك «أقرب إلى المنتصر منه

---

= [أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، ظهر الورقة 218].

(132) في «مذكِّرات الملازم في الأسطول سيرغي بليشييف اليوميَّة، في الطريق من جزيرة باروس إلى سورية»، المؤرَّخة في أيلول/ سبتمبر - تشرين الأول/ أكتوبر 1772، يرد ذكر عكًا وصيدا وصور وحيفا، والكثير من القرى، بوصفها تابعة للشيخ ظاهر: Л. Г. Кислягина, «Тайная миссия лейтенанта русского флота Сергея Плещеева в Сирию в 1772 г.,» in: *Арабский Восток: Сб. статей* (М., 1997), с. 95.

[ل. غ. كسلياغينا، «المهمة السريَّة للملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في سوريا في عام 1772»، في: **الشرق العربي: مجموعة مقالات** (موسكو، 1997)، ص 95].

(133) وردت في الروسيَّة: «القفطان». (المترجم)

(134) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 218 об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، ظهر الورقة 218].

إلى اليائس»[135]، إلا أنه كان في وضع حرج. فقد أمر فرمان سلطاني قائد القوات السلطانيَّة (سرعسكر) عثمان باشا المصري باستعادة إيالة صيدا إلى الإدارة العثمانيَّة، والتحقت بجيشه قوَّات حاكم حلب بقيادة خليل باشا الدلي والي أُرفة، والميليشيا اللبنانيَّة («الدروز الجبليُّون»، وفق الترجمة الروسيَّة، وكان جبل لبنان يُسمَّى أيضًا جبل الدروز). لم تهاجم القوات العثمانيَّة من جهة فلسطين، بل عبر أراضي حليفها اللبناني الجبليَّة. وبلغ تعداد الميليشيا اللبنانيَّة، وفق حسابات المؤرِّخ اللبنانيِّ طنوس الشدياق (أحد رجالات عصر النهضة) الواقعيَّة نحو 20 ألفًا، أي ضعف قوَّات ظاهر العمر وحلفائه المتاولة وعلي بك[136]. حاصرت القوات العثمانيَّة صيدا، وبعد أسبوع من الحصار كان أحمد دنغزلي مستعدًّا لتسليم المدينة.

في الرابع والعشرين من أيار/مايو، وصلت أنباء إلى معسكر على بك تفيد أن فرقاطة تركيَّة تتَّجه من بيروت إلى صيدا وعلى متنها قوَّة إنزال. فقرر علي بك والشيخ ظاهر، عندئذ، طلب المساعدة من ريزو. وهكذا انخرطت العمارة الروسيَّة في الأعمال القتاليَّة، فأُرسلت ثلاث سفن يونانيَّة من عمارة ريزو لمواجهة الفرقاطة (بقيادة كل من ستيفانوبوبولي[137] وكاليغا وفالزاماتي)، أرغمت الفرقاطة التركيَّة على الانكفاء، فتبعتها سفنٌ أخرى أصغر كانت تشارك في حصار صيدا. جنحت إحدى هذه السُّفن فأحرقها البحَّارة اليونانيُّون، وتمكَّن طاقمها من الوصول إلى الشاطئ سباحةً، وانضمَّ إلى صفوف الجيش العثماني

---

(135) *G. d'A.*, 1772, no. 85.

قبل ذلك بأسبوعين، كان علي بك محبطًا للغاية عند لقائه مع الشيخ ظاهر، وبكى حتَّى اعتلَّت صحَّته، وفقًا للمؤرِّخ ميخائيل الصبَّاغ. لكن، ما لبث أن استعاد شجاعته، ورسم خلال اجتماعه مع ظاهر وإبراهيم الصبَّاغ خطَّة عودته إلى القاهرة بمساعدة الشيخ ظاهر:

[ميخائيل نيقولا الصبَّاغ، **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني: حاكم عكا وبلاد صفد**، تحقيق قنسطنطين الباشا المخلِّصي (حريصا، 1945)، ص 120].

(136) طنوس الشدياق، **كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان** (بيروت، 1858)، ص 389-390.

(137) رقي جوزف ستيفانوبوبولي في 14 كانون الثاني/يناير 1772 إلى رتبة «ملازم في الأسطول» في آن واحد مع بانايوتي وألكسندرو ألكسيانو، وصدر أمر يقضي بإدراج الثلاثة في قائمة عديد الأسطول»: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 62.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 62].

ناشرًا «الرعب والبلبلة» بشائعات عن اقتراب الأسطول الروسي بكامله[138]. افتتحت السُّفن الروسيَّة المعركة بقصف مدفعي لمواقع الجيش التركي، وأرغمت المدافعين عن التَّحصينات على الفرار[139]، ثم دخلت القوات البريَّة المعركة «وتقاتل الجانبان بعنادٍ كبير، وبقدر من التكتيك»[140]، على حدِّ قول ق. م. بازيلي. وكان أن حسم الفرسان المماليك المعركة الدمويَّة[141]. زفَّ الشيخ ظاهر العمر خبر هذا الانتصار إلى أورلوف، مقدِّرًا الجهود المشتركة، مع مبالغة كبيرة في تقدير النجاحات: «... وبجهود منسَّقة وموحَّدة طُرِدَت قوَّات العدو التركيِّ والجبليِّين الدروز، وكان عددها يربو على الخمسين ألفًا، متكبِّدة خسائر لا تحصى في الأرواح»[142].

---

(138) С. Ушаков, *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского,* почерпнутая из достоверных Российских и иностранных источников *С. Ушаковым* (СПб., 1811), Ч. 3, с. 64.

**[س. أوشاكوف، حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي المستقاة من مصادر روسية وأجنبية موثوقة** (سان بطرسبورغ، 1811)، ج 3، ص 64].

(139) افترض ف. بيرسين أنَّ مشاركة الأسطول الروسي في المعركة شكَّلت العامل الحاسم في الانتصار، مستندًا في ذلك إلى آراء الفلورنسي المعاصر لتلك الأحداث ج. ماريتّي والمؤرِّخين العربيَّين طنوس الشدياق وحيدر الشهابي، وكذلك المؤرِّخ اللبناني قسطنطين الباشا: Persen, p. 280.

سَرَتْ شائعاتٌ مفادها أنَّ الشيخ ظاهر دفع أموالًا للعمارة الروسيَّة لقاء مشاركتها في هذه العمليَّة. غير أنَّ بيرسين لم يكن ميَّالًا إلى تصديقها. أمَّا فولني ولوكري وأوريان فقد صدَّقوها. بيد أنَّ المصادر الروسيَّة التي سجَّلت واقعة الدفع لقاء عمليَّة بيروت فحسب لم تؤكِّد هذه الشائعات.

(140) Базили, с. 78.

[بازيلي، ص 78]. [ص 58 من الترجمة العربيَّة الصادرة عن دار التقدم، موسكو، 1989 (المترجم)].

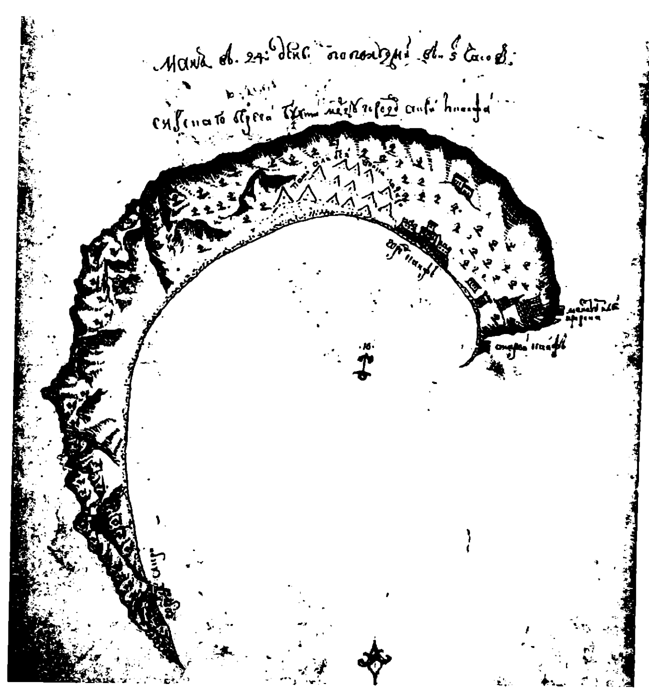
(141) قام ت. ي. كوبيشانوف بمحاولة جديرة بالاهتمام لرسم صورة استعاديَّة لمعركتي صيدا وبيروت. يُنظر: Кобищанов, с. 9-16.

[كوبيشانوف، ص 9-16].

يعتبر المؤلِّف أنَّ ممارسات العمارة البحريَّة اليونانيَّة العاملة تحت العلم الروسي، كانت بمثابة عمليَّات لقراصنة يونانيِّين، وهذه وجهة نظر لا ترتكز للأسف إلى أيِّ أساس؛ في حين تتحدَّث المدوَّنات العربيَّة عن سفن الأسطول الروسي (الموسكوبي)، وليس عن قراصنة. أما لوكروا وأوريان فقد كتبا بالفرنسيَّة وجهة نظر تفتقر بالقدر نفسه إلى الموضوعيَّة عن قيام الأسطول اليوناني العامل تحت الراية الرُّوسيَّة بـ«عمليات قرصنيَّة».

(142) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 66.

**[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 66]. =



منظر خليج حيفا من مدينتي عكا (إلى اليسار) وحيفا ومن ضمنها معسكر علي بك (إلى اليمين).
في عام 1772، من صحيفة السفينة «اليونان»

توجَّهت سفن ستيفانوبوبولي وكاليغا وفالزماتو إلى بيروت للّحاق بالسفن الفارَّة من صيدا (حيث احتمت بمدافع بيروت)، فاضطرَّت السُّفن الروسيَّة إلى التراجع بعد تعرُّضها للنيران من قلعة بيروت[143].

= مقطع من رسالة «شيخ عكا ظاهر العمر»: يبدو الخبر الذي نشرته *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) في عددها الرقم 86، المستل من الرسالة الواردة من لارنكا (قبرص)، أكثر موثوقيَّة: «...أرسل شيخ «صور (فينيقيا)» رسولًا أخبر أنَّ قوَّات الشيخ ظاهر أحرزت النصر في صيدا يوم 11 حزيران/ يونيو على قوَّات خليل باشا حاكم كيليس وعلى الدروز بقيادة الأمير يوسف، وأنَّ المهزومين تكبَّدوا ما يزيد على 500 قتيل، فيما لم تتجاوز خسائر الشيخ ظاهر 363 رجلًا، وأنَّ ابنه [علي] طارد المهزومين وأحرق خمس قرى كبيرة وجسرًا فوق نهر صيدا».

(143) يُنظر الملحق الثالث في كتاب: = Базили, с. 556.

أقيمت الاحتفالات في عكّا بعد ورود الأخبار عن انتصار قوّات ظاهر وعلي بك الحاسم، بدعمٍ من الأسطول الروسي، وأُطلِقَت العيارات الناريَّة، ورُفعت الأنخاب على شرف كاترينا الثانية. كما أقام المبعوثون الأوروبيُّون أيضًا حفل استقبالٍ للضبَّاط الرُّوس (تلقَّى القنصل الفرنسي توبيخًا من سلطاته بسببه)[144]. وأنعم على غيورغي ريزو وأنطون بسارو بـ «معاطف فروٍ ثمينة»، وأُرسلت سلالٌ من الكعك إلى طاقم السفينة. وأوصل الكونت إ. فوينوفيتش هدايا أ. غ. أورلوف إلى علي بك (أشار الأخير في رسالة الشكر إلى تلقِّيه «طردًا مع هدايا من صاحب السعادة من ذلك المكان النَّائي، حمله رسوله الخاصُّ الفارس الكونت). وتلقَّى أورلوف في المقابل ثلاثة جياد أصيلة مع كسوةٍ ثمينة على الأرجح[145]. وباختصار، جمعت الشعائر والطقوس العربيَّة والأوروبيَّة «الحلفاء» في آخر المطاف.

جدير بالذكر أنَّه خلافًا لافتراض فولني، لم توقَّع أيُّ اتفاقات في حيفا، بل يمكن الاستنتاج من رسالة الشيخ ظاهر إلى أ. غ. أورلوف أنَّ فوينوفيتش وعلي بك والظاهر توصَّلوا إلى بعض الاتفاقات الشفهيَّة. ولذا كتب الشيخ ظاهر: «إنَّ الأوامر الواردة من سعادته ستطبَّق بدقَّة وبالكامل، وستدخل السُّفن

---

= [بازيلي، ص 556].

[كانت قلعة بيروت أو البرج البحري، مقرًا للحاميات العسكرية العثمانية، وكان موقعها في الجنوب الشرقي من مدخل مرفأ بيروت فوق محلة مقبرة الخارجة. وقد اشتهرت هذه القلعة بمناعتها وأهميتها الاستراتيجية، نظرًا الى موقعها المباشر على البحر، وهي بذلك تشبه قلعة قايتباي في الإسكندرية. ينظر: حسان حلاق، «بيروت... قلعتها وأبراجها القديمة – لمحة تاريخية للد»، في: [https://bit.ly/2LGvnkW]. (المترجم)

(144) كتب س. بليشييف في تقريره: «استقبلنا» التاجر الفرنسي، القنصل كامارون «بلباقة، غير أنه أسرَّ إلينا أنَّه تلقَّى ورفاقه تأنيبًا من رؤسائهم في مرسيليا، حينما علموا أنَّهم أظهروا الودَّ لأوائل الوافدين السادة الضباط الرُّوس». يُنظر: Кислягина, с. 94.

[كسيلياغينا، ص 94].

(145) يُنظر: Кобищанов, с. 12.

[كوبيشانوف، ص 12].

يُنظر أيضًا: *РГА ВМФ*, Ф. 870, Оп. 1, Д. 1149, Л. 33, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 71.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 870، القائمة 1، الملف 1149، الورقة 33، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 71].

إلى ميناء حيفا من دون عائق. إضافةً إلى ذلك، ستنفَّذ حتمًا أيُّ تعليمات خاصَّة ترد من سعادته»[146]. لكن أيُّ «أوامر» كانت هذه (باستثناء الدُّخول الحرِّ إلى الميناء)، وأيُّ «تعليمات» انتظرها الحلفاء؟ كلُّ ذلك بقي في عالم الغيب.

أرسل علي بك «أحد معاونيه المقرَّبين، الموقَّر ذا الفقار بك»، «المحبوب كالابن»، إلى ألكسي أورلوف، طالبًا «الوثوق به»، أيْ منحه الثقة الكاملة[147]، لإنجاز «بعض الأمور» (للاتفاق على شروط تقديم المساعدة على الأرجح). وكُلِّف ذو الفقار (توفي في عام 1773) بنقل رسالتين من علي بك، وأخرى من الشيخ ظاهر إلى أورلوف (تُلِيَت الرسالتان في مجلس البلاط السَّامي المنعقد في 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1772)[148]. تضمَّنت هذه الرسائل طلبًا للمساعدة[149]، فضلًا عن بعض المعلومات، بما في ذلك ما يتَّصل بأنَّ علي بك «كتب لصاحب السعادة قبل ذلك أكثر من مرَّة»[150] (على أنَّ المصادر الروسيَّة لا تذكر شيئًا عن هذه الرسائل، ربَّما لعدم وصولها إلى المُرسَل إليه).

بعد مرور شهر، أرسل علي بك رسالة جديدة بواسطة الأرمني يعقوب

---

(146) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 67об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، ظهر الورقة 67]:

حفظت رسائل علي بك والشيخ في الأرشيف، للأسف، في عرض مقتضب للمترجم.

(147) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 597, Л. 66, 71.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 597، الورقة 66، 71]:

مقتطفات من رسالتي علي بك إلى أورلوف.

(148) *АГС*, с. 381.

[**أرشيف مجلس الدولة**، ص 381].

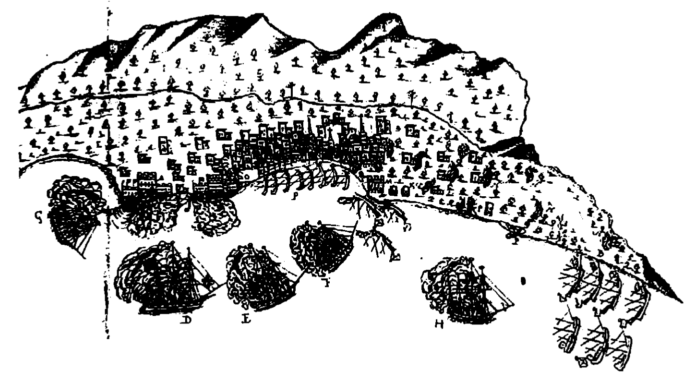
(149) نعتقد أنَّ أخبار لوكروا المزعومة عن عرض علي بك القدس والأراضي المقدَّسة على الرُّوس، مقابل مساعداتهم، كانت من ضمن الشائعات الكاذبة التي روَّجتها الأجهزة الدبلوماسيَّة الفرنسيَّة:

Lockroy, p. 73.

(150) *РГА ВМФ*, Ф. 313, Оп. 1, Д. 597, Л. 66.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 313، القائمة 1، الملف 597، الورقة 66].

يحدِّد فيها حجم المساعدة المبتغاة، وجاء في الرسالة (كما نقلها المترجم):
«بخصوص الاحتياجات المطلوبة، لقد أوفد قبل ذلك الموقر ذو الفقار بك إلى سفينة القائد غيورغي ريزو، رسولًا إلى صاحب السعادة، حاملًا طلبًا كتابيًّا وشفهيًّا بالمساعدة، وهو يكرِّر طلبه الآن متمنِّيًا إرسال 1000 ألباني و10 جنود مدفعيَّة و5 قاذفين مع مدافع هاون وذخائرها و200 ألف ريال إلى عكًّا. وإذا قدر الله[151] له الوصول إلى مصر، فإنَّ نفقات القوات البريَّة، كما الأموال، ستُردُّ بأمرٍ من سعادته. أما الأمور الأخرى فينقلها الأرمني يعقوب إلى صاحب السعادة شفاهة. حيفا، ربيع الآخر 1186»[152].



منظر شاطئ بيروت من السفينة «اليونان» (مقطع) في عام 1772

كان من شأن هذا الطلب أن يضع أ. غ. أورلوف في مأزق[153]؛ فمن المعروف جيِّدًا أنَّ الأسطول كان يعاني نقصًا مزمنًا في القوات البريَّة. وما كان

(151) من المفترض أن تكون قد وردت الصيغة التقليديَّة «إن شاء الله» في النص العربي، وأن تكون الجملة أوضح: «عندما يصل إن شاء الله إلى القاهرة، فسيعيد ...».

(152) المرجع نفسه، «ربيع الآخر»، أي ربيع الثاني الموافق 2-31 تموز/يوليو (بحسب التقويم الجديد) من عام 1772.

(153) وفق إحصاءات أ. ب. سوكولوف بلغ عديد القوات البريَّة والبحريَّة التي أرسلت إلى البحر المتوسِّط في الأعوام 1769-1772 زهاء 12,200 رجلٍ: Соколов, с. 40.
[سوكولوف، ص 40].

بوسع وحدات المرتزقة «الألبان» سد هذا النقص. فبناءً على معلومات غ. ل. آرش، «بلغ مجموع البلقانيِّين المشاركين في حرب الأرخبيل البحريَّة خلال الأعوام 1770-1774، بحسب بعض المعطيات، 6 آلاف و413 رجلًا»[154]. ولم يكن الوضع من الناحية الماليَّة أفضل، فقد كانت الأموال تُحوَّل عبر المصارف الأوروبيَّة على شكل قروض بصعوبةٍ بالغة.

بعد أقل من أسبوعين على معركة صيدا، أي في 4-15 حزيران/ يونيو (وفقًا لصحيفة السَّفينة الشراعيَّة «اليونان»)، توجَّهت العمارة البحريَّة نحو بيروت[155]. وكان هدفها معاقبة الأمير يوسف على أعماله الحربيَّة عند صيدا، بحسب رواية روسيَّة أولى، أو على إطلاقه النار على ثلاث سفن حاولت اللِّحاق بالسُّفن التركيَّة[156] بحسب رواية أخرى. لكنْ، ترسَّخت رواية ثالثة لدى المؤرِّخين العرب تقول بـ «توَجُّه سفينة الموسكوبيين لتحاصر بيروت بناءً على توجيه من ظاهر»[157]. وتبدو كلمة «**توجيه**» هنا أشبه بـ «**أمر**»، بحسب

---

(154) Г. Л. Арш «Албания: Рост сепаратизма местных властителей,» in: В. Н. Виноградов (редактор), *История Балкан. Век восемнадцатый* (М., 2004), с. 486.

[غ. ل. آرش، «ألبانيا: نمو النزعة الانفصالية لدى الحكَّام المحليِّين»، في: ف. ن. فينوغرادوف (تحرير)، **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر** (موسكو، 2004)، ص 486].

(155) وصل ذو الفقار إلى السَّفينة «اليونان» عشيَّة إبحارها حاملًا الرَّسائل إلى أورلوف، وبرفقته «أحد عشر رجلًا مسلَّحًا من الأتراك والعبيد (يُقصد بـ «الأتراك»، على الأرجح، المماليك المسلمين، وبـ «العبيد»: الأفارقة).

(156) ورد التفسير الأقرب إلى هذه الرواية في «الرسالة الخاصَّة المرسلة من الأرخبيل» المنشورة في **أنباء سان بطرسبورغ** (العدد 87، 30. 10): «بعد الحفاوة (من علي بك - المؤلفة) عاد الضبَّاط إلى السفينة وابتعدوا من شاطئ عكَّا. وعند اقترابهم من بيروت همَّ السيد ريزو بإلقاء المرساة، ولكنَّ قذائف المدفعيَّة التي أطلقت من القلعة أرغمته على التراجع؛ فقرَّر الانتقام من المدينة وحاميتها متشجِّعًا بالانتصارات السابقة. فطالب أولًا بأن يُقدَّم له الاعتذار على إطلاق النار وإهانة العلم الروسي. ولما رُفض هذا الطلب بإباء، أقنع اليونانيِّين بالقيام بعمليَّة إنزال، وأرسلهم بالمراكب والزوارق إلى الشاطئ، بقيادة السيد ياماكا». وبكلام آخر، أراد كاتب الرسالة تصوير الأحداث كأنَّها مبارزة ما بين أنصار الشرف العسكري والكبرياء. أمَّا في الواقع فقد كان الأمر أكثر جديَّة.

(157) الشدياق، ص 391:

«اكتفى ميخائيل الصبَّاغ، في هذا الخصوص، بالتأكيد أنَّ الشيخ ظاهر طلب من الباب العالي إصدار فرمانٍ بتولِّيه بيروت، لأنَّه إذا كانت بيروت وصيدا في يديه، يصبح إمداد جبل الدروز بالمؤن الغذائيَّة رهن إرادته. ووفقًا للصبَّاغ، حاول الشيخ ظاهر الاستيلاء على المدينة بالقوَّة، ولكن من دون =

تفسير ت. ي. كوبيشانوف الميَّال إلى هذه الرواية. وكان على ريزو «تحمُّل مسؤوليَّة تنفيذه أمام الحلفاء»[158]. ويبدو لنا أنَّه لا ممارسات القيادة في أثناء حصار بيروت ولا طبيعة العلاقات بين «الحلفاء» كانت تتوافق مع هذا التفسير؛ بل ربَّما يمكن الافتراض أنَّ ظاهر اقترح توجيه ضربة للعدوِّ في بيروت، لا أكثر. فتحرُّكات العمارة الحربيَّة كانت تنسجم أكثر مع «الأوامر» التي تلقَّتها من القيادة عند مغادرتها باروس، وكانت تقول بضرورة «إلحاق أقصى أذى ممكنٍ بالعدوِّ، ليس في البحر فحسب، بل في البر أيضًا».

دوَّنت صحيفة السَّفينة «اليونان» الأحداث بإيجاز: في 7 حزيران/ يونيو اقتربت السُّفن من قلعة بيروت فرُفعت الأعلام الروسيَّة وبدأت بإطلاق النار على بطاريَّات العدوِّ، التي ردَّت بالمثل. وفي 8 و11 حزيران/ يونيو، كثَّفت السُّفن قصفها المدينة، في أثناء نزول القوات إلى الشاطئ، وفي غضون ذلك اقتحمت قوَّة إنزالٍ المدينة تحت غطاءٍ من القصف، مُشعِلةً النِّيران في كلِّ المباني التي صادفتها في طريقها (والتهمت النِّيران حينذاك مطبعة القدِّيس جاورجيوس الأرثوذكسيَّة). وفي 12 حزيران/ يونيو توقَّف القصف. وبعد عودة قوَّة الإنزال إلى السَّفينة ابتعدت السُّفن عن مرمى النيران. وفي 16 حزيران/ يونيو، وصل «يونانيُّون» من بيروت إلى السَّفينة (ورد في النص على الأرجح كلمة «روم» أو «روم أرثوذكس»)، موفدين من «الأتراك» لإعلان الاستسلام. وفي 17-28 حزيران/ يونيو، رفعت السُّفن مراسيها وأبحرت باتِّجاه قبرص.

هكذا، استمرَّت العمليات القتاليَّة عشرة أيام تقريبًا. وتخفي أسطر الصحيفة الرسميَّة المقاومة الشرسة التي أبداها السكَّان المسلمون، وفرار المسيحيين إلى الجبال، وعمليَّات النهب التي ارتكبتها قوَّة الإنزال عند اقتحامها المدينة (علمًا أنَّ الدروز الجبليِّين، الأعيان والفلاحين على حدٍّ سواء،

---

= جدوى. وإذ يسعى الصبَّاغ إلى التعمية على علاقات الشيخ ظاهر بروسيا، فهو لا يأتي على ذكر المساعدة التي قدَّمها الرُّوس في معركة صيدا، كما لم يذكر حصار السُّفن الروسيَّة بيروت في عام 1772: الصبَّاغ، ص 115-116.

(158) Кобищанов, с. 16.

[كوبيشانوف، ص 16].

نزلوا في الليلة التالية وأكملوا عمليَّات النَّهب، وأتلفوا كلَّ ما لم يتمكَّنوا من حمله)[159]. وتتوارى خلف أسطر الصَّحيفة أيضًا قصَّة المفاوضات بين غ. ريزو وسلطات بيروت، التي ألحَّ خلالها ريزو على تسليم المدينة، أو حقيقة دفْعِ فديةٍ كبيرةٍ لقاء العُدول عن استباحة المدينة ثلاثة أيام، المعمول بها وفقًا لقانون تلك الحقبة الحربي[160] (اقتدى ريزو بالأسلوب الذي اتَّبعه الأسطول الروسي في الأرخبيل، علمًا أنَّ العمائر البحريَّة الروسيَّة كانت تفضِّل الانكفاء وعدم انتظار الفدية، حين تُوَاجِهُ قوَّاتٍ تفُوقُها عددًا، أثناء حصارها مدينةً ما). ففي بيروت، كما أشار ت. ي. كوبيشانوف، جعلت قوَّات الأمير يوسف التي وصلت إلى المدينة ريزو أكثر مرونةً؛ إذ يؤكِّد طنُّوس الشدياق أنَّ الأمير منصور الشهابي والشيخ ظاهر العمر مارسا تأثيرهما على مسار المفاوضات. ويزعم أنَّ الشيخ «أعاد (أبعَدَ) السُّفن» بناءً على رغبة الأمير، وأنَّ الأخير دفع للقائد 25 ألف قرش، وهذا في رأينا مبلغ زهيد[161]. وتؤكِّد «الرِّسالة الخاصَّة من الأرخبيل» أنَّه فضلًا عن دفع الغرامة الحربيَّة، فُرض على حكَّام بيروت «أداء يمين الولاء للعلم الروسي من الآن فصاعدًا»[162]. ويقول ف. بيرسين الذي تعامل مع المصادر بروح نقديَّة إنَّ الأمير يوسف وافق أيضًا على عقد تحالفٍ مع علي بك

---

(159) يتضمَّن كتاب عبد الله بن طراد البيروتي، **مختصر تاريخ الأساقفة الذين رُقُّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت** (الصادر في بيروت في عام 2002، الذي يؤرِّخ الوقائع الأرثوذكسيَّة) وصفًا لهذه الأحداث الدراميَّة (ص 89-90). وقد نقل أ. ي. كريمسكي نسخةً من مخطوطة هذا الكتاب إلى روسيا، ونشر ترجمة لجزء منها في: *Древностях восточных*, t. 3., Вып. 1 (M., 1907).

[**العصور الشرقيَّة القديمة**، مج 3، الإصدار الأول (موسكو، 1907)، تحت عنوان «من حوليَّات الكنيسة البيروتيَّة»]، من دون ذكر المؤلِّف.

(160) يذكر أوريان من دون الاستناد إلى مصدر أنَّ ريزو وجَّه إنذارًا إلى المدينة برفع العلم الروسي، وبدفع جزية للأسطول توازي ما كان يُدفَع للسلطان: Auriant, «Catherine II et l'Orient, 1770-1774,» p. 214.

إذا كانت هذه المعلومة صحيحة (المصادر الروسيَّة لا تذكر شيئًا بهذا الخصوص)، يمكن الافتراض أنَّ الجانب الروسي كان لا يزال يحاول في سياق الأعمال القتاليَّة تحديد أهداف عمليَّاته في المنطقة وشروطها.

(161) الشدياق، ص 391.

(162) *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 87.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1772، العدد 87].

والرُّوس لمدَّة أربعة أشهر؛ بحيث يُستنتج من هذا الخبر أنَّ التركيبات السياسيَّة في العلاقات بين الأطراف كافَّةً كانت أعقد ممَّا نتصوَّر[163].

تضمَّنت صحيفة السَّفينة نصًّا غامضًا جدًّا يفيد أنَّه «حضر إلى قائدنا من بيروت، يوم إبحار السَّفينة، يونانيُّون أرسلهم 'الأتراك' يقولون إنَّ هؤلاء يريدون السلام ويرغبون في أن يكونوا من رعايا روسيا، وإنَّهم يتعهَّدون من الآن فصاعدًا بتقديم كلِّ خدمة ومساعدة للسُّفن التي ترفع العلم الروسي، عند وصولها، وبتأمين كلِّ احتياجاتها، وهم جلبوا لهذا الغرض نحو 100 قدم من الحرير»[164].

يتيح هذا النصُّ الاستنتاج أنَّه كانت ثمَّة قوى في المدينة حينذاك تميل إلى إقامة علاقات مع القيادة الروسيَّة، على غرار علي بك والشيخ ظاهر العمر. وبكلام آخر، كان التذمُّر يعتمل في أوساط السكَّان العرب (تجدر الإشارة إلى أنَّ مفهوم «التابعيَّة» في اللغة الروسيَّة، في أثناء تلك الحقبة، لم يكن يحمل معناه الحالي؛ أمَّا في العربيَّة فقد استُخدم على الأرجح مصطلح «الحماية»، أو «الرعاية»)[165].

ما يسترعي الانتباه أيضًا أنَّ المسلمين لجأوا في اتِّصالاتهم مع الرُّوس إلى الاستعانة بالمسيحيِّين، أو «المشرقيّين» - أوروبيِّي البحر المتوسِّط، العاملين لدى المسلمين. ودلَّ هذا على أنَّه كان لدى المجتمع المسلم آليَّاته الخاصَّة لإقامة العلاقات مع الأوروبيِّين.

---

(163) Persen, p. 280.

(164) *РГА ВМФ*, Ф. 870, Оп. 1, Д. 1149, Л. 42об.

[أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي، المجموعة 870، القائمة 1، الملف 1149، ظهر الورقة 42]:

لا يبدو «خياليًّا» إلى هذا الحدِّ (كما اعتقد ف. بيرسين) خبرُ س. لوزينيان بأنَّ سكَّان بيروت الأرثوذكس الساخطين على أسيادهم الدروز، طالبوا الرُّوس بالمجيء وتحريرهم من هذه التبعيَّة. ويزعم أنَّ الرُّوس نصَّبوا المدعوَّ «محمود» حاكمًا على المدينة، مفترضين أنَّه سيدفع الجزية للأسطول الروسي (قصة تمرُّد علي بك).

(165) Х. К. Баранов, *Арабско-русский словарь* (М., 1970), t. I, c. 249.

[خ. ك. بارانوف، قاموس عربي - روسي (موسكو، 1970)، مج 1، ص 249].

كسرت هذه الأحداث التي جرت على مدى ثلاثة أسابيع ونيِّف جليد عدم الثِّقة، ولكنَّها لم تُستكمَل. فقد بدأت مفاوضات فوكشاني، وأُعلِنَت الهدنة بين الطرفين المتحاربين، وفرضت حظرًا على تحرُّك السُّفن الحربيَّة، الأمر الذي اضطر أ. غ. أورلوف إلى تمويه أنشطته.



س. أ. بليشييف

في الثلاثين من آب/أغسطس 1772 أوفد[166] الملازم سيرغي بليشييف[167] والمتطوِّع البروسيَّ في الجيش الروسي النقيب البارون كلينغيناو[168]، برفقة كلٍّ من «وزير» علي بك «المفوَّض» ذي الفقار و«السَّاعي» الأرمني «الحاج يعقوب» على

---

(166) أورلوف. (المترجم)

(167) عُرف س. أ. بليشييف (1752-1802) بوصفه كاتبًا وعضوًا في المحفل الماسوني وقريبًا من دائرة نوفيكوف. كان مقرَّبًا من العائلة المالكة في عهد بافل الأول، وما لبث أن فَقَدَ حظوته لاحقًا. سُجِّل في الخدمة العسكريَّة وهو في سن الخامسة، وفقًا للعادات المتَّبعة وقتذاك، وأُوفدَ في سنِّ الثلاثين، إلى إنكلترا (1765) للخضوع لدورة تدريب بحريَّة، وظلَّ طيلة سنوات خمس يبحر عند شواطئ أميركا الشماليَّة. عُيِّن سيرغي بليشييف مع شقيقه فاسيلي في عمارة ألفينستون البحريَّة في عام 1770. وبعد معركة شيسما أبحر على السفينة «روستيسلاف» التي كانت مقرَّ قيادة ألكسي أورلوف، فلفت الضابط الشاب انتباه القائد، الذي كان يفضل إيكال المهمَّات الخاصَّة إلى ضبَّاطٍ يعرفهم. خصَّص بليشييف تقريره المسهب «يوميَّات رحلة الأسطول من جزيرة باروس إلى سورية» لألكسي أورلوف شخصيًا، وقد حفظت عدة نسخ مخطوطة منه في مجموعات، ما يدل على الاهتمام الذي حظي به في المجتمع. وفي عام 1773 نشر التقرير بصياغة أدبيَّة تحت عنوان: «يوميَّات الرحلة من جزيرة باروس الأرخبيليَّة التابعة لروسيا إلى سوريا والأماكن المشهورة في نطاق القدس، مع عرضٍ موجَزٍ لفتوحات علي بك، بقلم الملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف» (سان بطرسبورغ، 1773). ولا يدلُّ نشر التقرير بهذه السرعة على اهتمام المجتمع الروسي المتعلِّم الكبير بالموضوع فحسب، بل على اهتمامات المشاركة الأدبيَّة في الحملة أيضًا. اكتشفت ل. غ. كيسلياغينا النصَّ ضمن مخطوطة تحمل عنوان: «مؤلَّفات مختلفة جديرة بالاهتمام»، في أرشيف آل بانين وفي أرشيف الدولة الروسيَّة للوثائق القديمة: Кислягина, с. 88-99.

[كسيلياغينا، ص 88-99].

(168) قدم سيرغي بليشييف صورة أدبيَّة اقتبسناها آنفًا (يُنظر الفصل الخامس) عن الجو الذي ساد هذه الرحلة.

متن السفينة الإنكليزيَّة «ذات العشرين مدفعًا»، التي يملكها القبطان روبرت براون («سفينة براون»)[169] الذي كان يخدم في الأسطول الروسي. كان ذو الفقار يحمل جواب أ. غ. أورلوف المتضمِّن وعدًا بتقديم المساعدة لعلي بك. وعلى الرغم من تأكيد بليشييف في «يوميَّات الرحلة» - التي نُشِرَت في ما بعد - أنَّ رحلته التي تمَّت بإذن من أورلوف، كانت فقط بهدف الالتقاء بـ«الفارس المجيد» علي بك، ومعاينة بعض «الأمور المثيرة للفضول» التي سيمرُّون بالقرب منها[170]؛ غير أنَّ هدف الرحلة الحقيقي كان تفقُّد «قوَّات علي بك وتفحُّص انضباطها العسكري»[171]. فضلًا عن ذلك، نقل بليشييف وكلينغيناو، تحت ستار الرحلة، الأسلحة والذخائر إلى حليفيهما العربيَّين، وإنْ بكميَّات أقل ممَّا طلبه علي بك[172]. والتقى الموفدان بعلي بك والشيخ ظاهر، وشاركا في الإعداد لعمليَّة الاستيلاء على قلعة يافا، بوصفهما مستشارين عسكريَّين. كان عليهما قيادة هذه العمليَّة.

---

(169) كانت تلك السفينة «تارتار»، التي استخدمتها الحملة للشحن ونقل البريد.

(170) Плещеев, *Дневные записки*, с. 2.

[بليشييف، **يوميَّات رحلة الأسطول**، ص 2].

(171) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 230.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 230].

(172) وفقًا لـ «س. بليشييف» نُقلت «مدافع عيار ثلاثة أرطال مع كلٍّ ما يلزمها من ذخيرة، أي: بارود، قذائف، قنابل غير محزَّمة في أكياس، رصاص، فتائل» (**يوميَّات رحلة الأسطول**، ص 32)، ويخبر س. لوزينيان مع توضيحات وبعض الفوارق: ثلاثة مدافع عيار أربعة أرطال، ثمانية براميل من البارود الناعم، 500 قنبلة وثلاث عربات مدفعيَّة: Плещеев, *Дневные записки*, с. 32; Лузиньян, с. 81.

[بليشييف، **يوميَّات رحلة الأسطول**، ص 32؛ لوزينيان، ص 81]. [طُوِّر نظامٌ روسيٌّ للعيارات الحربيَّة المحليَّة منذ عهد بطرس الأول. فقد قام قائد المدفعيَّة ياكوف فيليموفيتش بروس (1635-1670) في عام 1726 بتطوير المدفعيَّة الروسيَّة (وهو متحدِّر من عائلة إنكليزيَّة عاشت في روسيا منذ عام 1647. كان رجل دولة وجنديًا ودبلوماسيًا ومهندسًا وعالِمًا وأحد أقرب المقرَّبين من بطرس الأول). ووضع تصنيفًا روسيًا للأسلحة الناريَّة على أساس وزن القنبلة أو كرة الحديد المصبوب. وكانت وحدة القياس التي ابتكرها هي الرطل المدفعي كرة من الحديد المصبوب ذات قطر يساوي 2 إنش، أي نحو 5 سم، ووزن يناهز الـ490 غ، أي إن المدفع الثلاثي الأرطال = مدفعًا عيار 3 أرطال. ويعتبر هذا المدفع خفيفًا وعمليًّا، ذلك أنَّه يطلق كرة حديديَّة بزنة 3 أرطال، أي كيلوغرام ونصف الكيلوغرام تقريبًا، وعيار القطر الداخلي لسبطانته الثلاثيَّة الأرطال = 75 مم. والمدفع الرباعي الأرطال = مدفعًا عيار 4 أرطال، وهو خفيف أيضًا، ويطلق كرة حديديَّة بزنة 4 أرطال، أي 2 كيلوغرام تقريبًا، وعيار قطر سبطانته الداخلي الرباعيَّة الأرطال = 88 سم. وهكذا دواليك...]. (المترجم)



خان في عكا في مطلع القرن التاسع عشر

الواقع أنَّ السلطات العثمانيَّة نجحت إبَّان الصراع على صيدا في استعادة يافا (أو بحسب رواية بيرسي: «رفضت المدينة الرضوخ لعلي بك بعد طرده من مصر»)[173]، فأصبحت القلعة مُذَّاك عائقًا أمام عودة قوَّات علي بك إلى مصر. وعند وصول بليشييف، كان حصار يافا لا يزال مستمرًّا للشهر الثاني من دون جدوى (منذ حزيران/ يونيو 1772). كما لم تنجح أيضًا العمليَّة التي خطَّط لها الضابطان الروسيَّان، لأنَّ كلينغيناو أصيب بطلقة قاتلة من القلعة، ولم يتمكَّن بليشييف إلا من إحراق قسم من سفن العدو الرَّاسية أمام القلعة؛ ذلك أنَّ الفصائل العربيَّة واليونانيَّة رفضت دخول الخليج تحت نيران مدفعيَّة العدو، ولم يبق أمامه سوى إطلاق النار غير الفعَّال من السُّفن على المدينة من مسافة نصف ميل.

---

(173) Persen, p. 281.

تولى أحمد بك طوقان، أحد أعيان نابلس البارزين مهمَّة الدفاع عن يافا. والجدير ذكره أنَّ طوقان هذا هو شقيق متسلِّم نابلس (1771) الذي عيَّنه محمد باشا العظم. كانت زراعة القطن متطوِّرة في جبال نابلس، وكانت أوساط التجَّار ومُلّاك الأراضي فيها ناقمة على ظاهر العمر لفرضه احتكار تجارة القطن. أمَّا يافا فقد كانت بمثابة مرفأ لنابلس. يُنظر: Beshara Dumani, *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900* (Berkley; Los Angeles; London, 1995), pp. 43, 95.

غير أنَّ مأثرة سيزغي بليشييف تلخَّصت في أمر آخر، عنينا وصفَهُ المُسهَب للمناطق الخاضعة لسلطة الشيخ ظاهر ولوضعها السياسيِّ والاقتصاديِّ ولأحوال قوّات علي بك المملوكيَّة. وتركَّز اهتمامه على توصيف سمات العالم العربيِّ، تلك التي تجعله مفهومًا من الرُّوس أو أقرب إلى الوعي الروسي.

تحدَّث بليشييف كذلك عن الحفاوة التي استقبله بها مع رفاقه سكَّانُ عكا، الذين أبدوا اهتمامًا شديدًا بعدد السُّفن الروسيَّة الآتية لمساعدة علي بك وموعد وصولها. وأثارت الأنباء عن توقُّف الهدنة واستئناف الأعمال الحربيَّة فرح السكَّان وحماستهم (كتب بليشييف بشيء من السذاجة: «فرح سكَّان عكا فرحًا عظيمًا، واعتبروا أنفسهم محظوظين بمساعدة الرُّوس لهم ضد الأتراك»)[174]. دلَّ هذا وذاك على التأييد الذي كانت تلقاه سياسةُ الشيخ ظاهر في مجابهة السلطة العثمانيَّة، وكذلك على نجاح دعاية علي بك وظاهر، اللذين وظَّفا وهج انتصار «الحلفاء» في شيسما في خدمة مصالحهما. ولم يتبادر إلى ذهن القيادة الروسيَّة أن الشيخ ظاهر كان في توجُّهه إلى السوريِّين يقدِّم نفسه بوصفه الآمر الذي يحدِّد للأسطول الروسي كيف ومتى يتصرَّف قبالة السواحل السوريَّة.

بالانتقال إلى وصف قوّات علي بك، توصَّل بليشييف إلى اكتشافٍ مفاجئٍ مفاده أنَّ ثمَّة عددًا كبيرًا بين المماليك يتحدَّرون من أراضي جنوب روسيا، مِمَّن وقعوا في الأسر وباعهم تتار القرم في أسواق الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وبمرور الوقت، ولَّد هذا النبأ الأسطورة القائلة بميل المماليك إلى التعاون مع روسيا، لأنَّ كُثُرًا منهم وُلِدوا رعايا روسًا.

لم يفوِّت بليشييف فرصة زيارة الناصرة وقانا الجليل، أي الوصول إلى بحيرة طبريا (كانت زيارة القدس تعني الموت آنذاك، لأنَّ المدينة كانت في أيدي العثمانيِّين). وتأكَّد له هناك أنَّ السكَّان العرب الأرثوذكس لا يزالون يُكنُّون الودَّ لروسيا على الرغم من الحرب. ولفت انتباهه في الوقت نفسه انتشار تقديس القدِّيس جاورجيوس المظفَّر الواسع في أوساط المسلمين،

---

(174) Плещеев, *Дневные записки*, c. 69.
[بليشييف، يوميَّات رحلة الأسطول، ص 69].

وعلاقتهم الوديَّة برهبان دير القدِّيس جاورجيوس في الرَّملة. وأكَّد سيرغي بليشييف بذلك مشاهدات الحجاج الرُّوس القديمة، علمًا أنَّه وصف الرحلة نفسها جاء بأسلوب أدب الرحلات، لا بأسلوب الحج، الأمر الذي كان يتلاءم مع روح عصر التنوير والدعاية الروسيَّة في زمن الحرب، التي لم تتَّسع لأفكار حماية الأماكن المقدَّسة والدفاع عنها.

استمرَّت رحلة بليشييف أكثر من شهرين بقليل، ليعود بعدها إلى باروس على «سفينة براون» نفسها[175]، وكان برفقته «مبعوث» علي بك الجديد إلى ألكسي أورلوف، المدعو سليمان كيغيا (كيخيا، كتخدا[176]، رئيس التشريفات) مع حاشيته، لأنَّ ذا الفقار كان حينها قد تُوُفِّيَ، فتواصلَ تبادل الرسائل والمبعوثين بالتالي بين علي بك وبين أورلوف على نحوٍ مكثَّف إلى حدٍّ ما.

في نهاية آب/أغسطس 1772، توجَّهت القيادة العثمانيَّة إلى أ. غ. أورلوف بطلب السَّماح لها بإرسال سفنٍ إلى سوريا على الرغم من الهدنة، من أجل «قمع المتمرِّدين الذين ظهروا بالقرب من دمشق»[177]. رفض الكونتر-أميرال يلمانوف الطلب، وكان آنذاك ينوب عن القائد في آوزا، ولكن لا بسبب التعاطف مع المتمرِّدين، بل من «باب الحذر» كما قال، لأنَّه «كان من المتعذِّر معرفة نيَّتهم الحقيقيَّة». لم يرفض أ. غ. أورلوف، عند عودته إلى الأرخبيل، السَّماح بعبور السُّفن التركيَّة فحسب، بل اتَّخذ كلَّ تدابير الحذر، لأنَّ الأتراك

---

(175) استغرقت الطريق إلى باروس ثلاثة أسابيع تقريبًا، بينما وصلت سفينة ب. براون «تارتار» إلى السَّواحل السوريَّة في غضون أسبوع. إلى هذا الحدِّ كانت ظروف الملاحة في المنطقة غير مستقرَّة، ولا سيَّما مع حلول فصلي الخريف والشتاء.

(176) **كيخيا، أو كتُخْدا**: كلمة تركيَّة تعني المشرف على القصر، رئيس التشريفات في البلاط، أو مساعد في شؤون الحكم. والكلمة في الأصل فارسيَّة، مركَّبة من «كاخ» وتعني القصر، و«يار» وتعني صاحب، مدير. (المترجم)

(177) من تقرير الكونت أ. غ. أورلوف المؤرَّخ في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1772:
*Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 24.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 24].

تضمَّن مقتطف من تقرير يلمانوف الموجَّه إلى سبيريدوف الحديث عن خروج الأسطول التركي من الدردنيل «ضد علي بك، الذي سُمِّيَ المتمرِّد» (المرجع نفسه، ص 39).

عمدوا أثناء الهدنة إلى حَشْد قوّاتهم البحريَّة في منطقة باتراس[178] وعند الشواطئ المصريَّة نفسها، بذريعة معاقبة المتمرِّدين. هناك، عند مصبِّ النيل، جُهِّزت السُّفن الحربيَّة وسفن النقل على وجه السرعة[179]. فقد كشف أ. غ. أورلوف نيَّة العدو الحقيقيَّة، معتبرًا أنَّ الأتراك يعتزمون توجيه ضربة إلى باروس بواسطة أساطيل أولتشي[180] والجزائر وتونس (أيَّد المؤرِّخون العسكريُّون هذه الفكرة في ما بعد). فكانت السُّفن المتجمِّعة في الإسكندرية، بحسب رأي أورلوف، «لا تنوي إخضاع مصر وسوريا، التي تصاعدت الاضطرابات فيها لحظة بلحظة»، بل أيضًا المشاركة في الهجوم على باروس[181]. بدا خطر القوات التركيَّة المحتشدة لأورلوف كبيرًا، حتَّى إنَّه أحجم عن دخول ميناء آوزا بسفينته، وأمر كلَّ السُّفن برفع أشرعتها والخروج إلى البحر بجهوزيَّة قتاليَّة. وما كادت الهدنة تنتهي حتَّى أرسل أورلوف العمائر البحريَّة إلى أماكن تجمُّع أسطول العدو.

أصبحت أعمال بانايوتي ألكسيانو عند السواحل المصريَّة جزءًا من هذه العمليَّات. وهكذا، ارتبطت مسألة درء هجوم الأسطول العثماني على الشواطئ السوريَّة بمهمَّة الدفاع عن قاعدة الأسطول الروسي المركزيَّة في البحر المتوسِّط على نحو وثيق. وكانت عمارة ألكسيانو - المؤلَّفة من فرقاطة «القدِّيس بولس» وسفينتين شراعيَّتين يونانيَّتين - قد انطلقت من بورتو تريو في باروس في 6-17 تشرين الأول/ أكتوبر. واضطُرَّ ألكسيانو للتوقُّف قسرًا في قبرص بسبب الرياح العاتية التي أبعدت إحدى السَّفينتين عن الفرقاطة. وفي العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر تلقَّى ألكسيانو نبأً يقول إنَّ سفينتين حربيَّتين

---

(178) مدينة يونانيَّة تقع على الطرف الشمالي الغربي من بيلوبونيز على خليج باترايكوس، وتُعدّ أكبر مدينة وميناء في بيلوبونيز. (المترجم)

(179) من تقرير الكونت أ. غ. أورلوف (المؤرّخ في 3 آذار/ مارس 1773):
*Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, с. 128.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 128].

(180) مدينة قديمة تقع على البحر الأدرياتيكي جنوب الجبل الأسود، وكانت تتبع الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. (المترجم)

(181) المرجع نفسه.

تركيَّتين من ذوات الاثني عشر مدفعًا، ترسوان في دمياط بحماية مدفعيَّة القلعة، وعليهما ما يزيد على 700 بحار من شمال أفريقيا، وهما محاطتان بعدد من السُّفن الصغيرة، وإنَّ خمس سفن كبيرة وعددًا كبيرًا من السُّفن الصغيرة جاهزة للخروج من الإسكندريَّة للانضمام إليها. وكما كتب أ. غ. أورلوف في الشهادة المعطاة إلى ألكسيانو في عام 1777، كانت السُّفن «تنوي التوجُّه إلى قلعة يافا لمساعدتها ضد علي بك، الذي كان يحاصرها حينذاك»[182].

كانت روحُ الشَّجاعة والإقدام المقترنة بحبِّ المجازفة، التي ما بَرِحَت تُحرِّك المشاركين في حملة الأرخبيل منذ انتصار شيسما، تحفَّز قبطان «القدِّيس بولس» في هذا الوضع الحرج المستجدِّ على دخول المعركة في 21 تشرين الأول/أكتوبر، التي انتهت بتدمير سفن العدوِّ الكبيرة وأسر سفنه الصغيرة، فضلًا عن أسر سفينة أخرى في اليوم التالي كانت آتيةً من الإسكندرية. وقد أُسِرَ على متن هذه السفينة القائد المعيَّن من دمشق سليم بك وحاشيته، و«الراية المحمَّديَّة» التي ائتمنه السلطان عليها ورايات وشارات التميُّز الحربي[183].

---

(182) Граф Алексей Орлов-Чесменский, Контр-адмирал Алексиано: Аттестат, in: *Русский Архив*, 1886, III, c. 478.

[الكونت ألكسي أورلوف - تشيسمينسكي، الكونتر-أميرال ألكسيانو: وثيقة شهادة، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، مج 3، ص 478].

(183) ورد في رواية أ. غ. أورلوف الحادثة ما يأتي: «صادف [ألكسيانو] في طريقه إلى مدينة يافا سفينتين شراعيَّتين تركيَّتين مدجَّجتين بالسلاح مع قوَّات عسكريَّة، متوجِّهتين إلى يافا لمحاربة علي بك. وكان على متنيهما اثنان من البكوات، أحدهما سليم بك والآخر آغا إنكشاري وأربعة آغَوَات ومئتان وخمسون إنكشاريًّا وخمسة عشر مدفعًا وغير ذلك من الأعتدة العسكريَّة وخمسة أعلام وستُّ رايات وأربعة طبول وأعتدة مختلفة وغنائم أخرى. وعندما علم [ألكسيانو] بنيَّتها الذهاب إلى يافا، قطع عليها الطريق وأرغمها على العودة أدراجها» (المرجع نفسه، ص 497). لمزيد من التفصيل عن المعركة والرواية التي نتابع، يُنظر: *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII, c. 128-130; А. Кропотов, *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского, почерпнутая из достоверных российских и иностранных источников* (СПб., 1816), c. 133-138.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12، ص 128-130؛ أ. كروبوتوف، **حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي، مستقاة من مصادر روسيَّة وأجنبيَّة موثوقة** (سان بطرسبورغ، 1816)، ص 133-138].

تدلُّ الحادثة الآتية على تردِّي معنويَّات القوَّات المسلَّحة العثمانيَّة: ما كاد ألكسيانو يرفع العلم الروسي ويطلق بضع طلقات عند التقائه بسفينة سليم بك، حتَّى «بثَّت هذه المفاجأة الرعب في نفوس =

وأصبحت هذه العمليَّة واحدةً من تلك العمليَّات التي جعلت ألكسي أورلوف يقدِّر عاليًا دور البحَّارة والضبَّاط اليونانيِّين في الحرب. وأدَّت هذه العمليَّة إلى ارتباك قائد حامية الإسكندرية، الذي أمر بنقل كلِّ القوَّات من السُّفن إلى البرِّ للدفاع عن القلعة والمرفأ، ما سمح لألكسيانو أن يجوب البحر على طول السواحل المصريَّة بحُرِّية، قاطعًا الطريق على تجارة العدو.

بعد الانتصار الباهر الذي أحرزه عند دمياط، توجَّه ألكسيانو مع السُّفن التي ترافقه إلى الشواطئ السوريَّة، واستولى وهو في طريقه بعد معركة على سفينتين حربيَّتين معاديتين أخريين. والتقى في حيفا بالشيخ ظاهر وعلي بك، وشارك في قصف يافا التي كانت قوات الحليفين العربيين لا تزال تحاصرها[184]. إضافةً إلى ذلك، سلَّم ألكسيانو علي بك رسالة من أ. غ. أورلوف.

يُورد أوريان نصَّ هذه الرسالة الروسيَّة (التي لا شك في وجودها)

---

= الأعداء، فأسرعوا بإنزال العلم من دون أيِّ مقاومة واستسلموا، فنُقِلُوا إلى الفرقاطة بزوارق وأُسِرَ آخرون كانوا على السفينة الأخرى». وبلغ مجموع عدد الأسرى 120 رجلًا.

(184) ترسَّخ في الأدبيات المحليَّة تصوُّر خاطئ، في رأينا، في صدد مشاركة ألكسيانو في قصف «مرفأ صور اللبناني» الذي حاصره آنذاك علي بك. استمرَّ القصف يومين. وكما أشار الباحث الفرنسي فرانسوا شارل رو عن حقّ، «كانت يافا هي التي تعرَّضت للحصار، وليس صور، التي لم تكن مرفأً لبنانيًا، بل كانت خاضعة للشيخ ظاهر». وهذا ما كتب عنه س. بليشيف قبل مجيء ألكسيانو بشهر:
Charles-Roux, p. 104; Плещеев, *Дневные записки*, с. 17.

[بليشييف، **يوميَّات رحلة الأسطول**، ص 17]. وكانت لدى قيادة العمارة البحريَّة الروسيَّة علاقات وديَّة مع حاكم صور الشيخ أحمد عباس، منذ عام 1772 على الأرجح. وفي الثامن من أيلول/ سبتمبر 1773، شكا الشيخ أحمد لكوجوفوف أنَّ فوينوفيتش صادر سفينة تابعة لصور مع حمولتها، وأنَّهم تلقَّوا وعدًا من أورلوف وسبيريدوف، حينذاك، بالسماح لهم بممارسة «التجارة الحرَّة»، كونهم وضعوا أنفسهم تحت حماية الإمبراطورة:
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 77об.

[**أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، ظهر الورقة 77].

وأخطأ أورلوف أيضًا في عام 1777 عندما أكَّد أنَّ ألكسيانو شارك في حصار يافا إلى حين استسلامها. فهو، بعدما أكَّد مشاركة ألكسيانو النشِطة في عمليَّات الدوريَّات البحريَّة، أشار إلى أنَّ الغنائم التي استولِيَ عليها كانت «تُسلَّم إلى الأسطول بكاملها»:
Граф Алексей Орлов-Чесменский, Контр-адмирал Алексиано: Аттестат, с. 479.

[الكونت ألكسي أورلوف - تشيسمينسكي، الكونتر-أميرال ألكسيانو: وثيقة شهادة، ص 479].

مترجمًا إلى الفرنسية، لكنْ من دون أن يشير إلى تاريخها ولا إلى مكان وجودها. ويُخبر أ. غ. أورلوف فيها علي بك أنَّ الباب العالي انتهز الهدنة ليُعطي أمرًا بتجهيز عمارتين بحريَّتين - من شمال أفريقيا وألبانيا - تحملان اثني عشر ألفًا من الجنود للإنزال في سوريا بهدف إعادة السيطرة العثمانية على المناطق المتمرِّدة (بيد أنَّ ألكسي غريغوريفيتش لم يأتِ على ذكر خطر هذه العمليَّة التركيَّة على باروس، ربَّما ليضاعف من أهمِّية الأعمال العسكريَّة الروسيَّة الموجَّهة لحماية علي بك والشيخ ظاهر في نظر الحليفين العربيين). وتابع أورلوف القول إنَّه سيرسل العدد الكافي من السُّفن الحربيَّة إلى البحر الأدرياتيكي - وفقًا لالتزامات الإمبراطورة الروسيَّة - للحيلولة دون دخول عمارة الدولْتسينيِّين البحرَ المتوسِّط، ولدرء عمليَّات الباب العالي ضدَّ علي بك. وذكر أنَّ الإمبراطورة أعلنت للتوِّ عن استئناف الأعمال القتاليَّة ضدَّ السلطان، وعن مباركتها التَّحالف الرَّاسخ مع علي بك لأنَّها على يقين أنَّه سيفي من جهته بوعوده، وسيقدِّم كلَّ دعمٍ ممكنٍ للرُّوس في سوريا. وقال ألكسي أورلوف أيضًا إنَّه أرسل فرقاطة ليتباحث علي بك مع قائدها بشأن طريقة تبادل المعلومات على النحو الأسرع والأمثل.

كتب أورلوف في رسالته أيضًا أنه يرغب في الحصول على معلومات عن وضع علي بك وقواته المسلحة وعدد حلفائه، وكذلك عن الوضع في مصر، بأسرع ما يمكن، كي يتمكن من تحديد حجم المساعدة التي ستُسدى إليه. وزعم ألكسي أورلوف أنه ينوي إرسال عمارةٍ بحريةٍ تحمل ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف جندي إلى علي بك، وأن عليه إبلاغه قبل إرسالها، من دون إبطاء، عن المكان الذي ينبغي أن تُنزَلَ فيه القوات[185]. ومن المعروف أن مساعدة علي بك الفعلية لم تتأخر فحسب، بل كانت أيضًا أقل كثيرًا من المتوقع. ومن الصعب القول ما إذا كانت المعلومات الواردة في الرسالة مجرد عملية تضليل متعمدة للعدو، إذا ما وقعت الرسالة في يديه، أو هي خطوة تكتيكية هدفها «تشجيع» الحليف[186]، أو أن أورلوف

---

(185) Auriant, «Catherine II et l'Orient, 1770-1774,» p. 218.

(186) يُنظر رسالة أ. غ. أورلوف إلى غ. أ. سبيريدوف المؤرخة في 20 كانون الأول/ ديسمبر =

كان لا يزال يعلّق الآمال على نموّ «قواته الألبانية» العاصف، وهو الاحتمال الأضعف.

عاد ألكسيانو إلى باروس في مطلع كانون الثاني/يناير 1773[187]. وفي الثلث الأخير من الشهر نفسه، أُوفِدَ الملازم ثانٍ ماكسيميليان (ماغنوس) فون باومغارتين من فوج بري أوبريجينسكي إلى السواحل المصرية[188]، مكلفًا الاضطلاع بدور المستشار والمستطلع في سوريا، أي ذاك «الإسرائيلي الطيِّب» الذي كتب عنه فولتير إلى الإمبراطورة. كان باومغارتين من مرؤوسي أ. غ. أورلوف في الفوج المذكور، وكان معروفًا منه بالتالي جيِّدًا، وسبق له أن أرسله من قبل في مهمة خاصة مرةً واحدةً على الأقل[189]. وقد حملت المهمة الجديدة طابعًا سريًّا بحتًا، مُوَّهَ تحت ستار بريء، ألا وهو شراء الأرزّ للأسطول تارةً، أو شراء الجياد لأورلوف تارةً أخرى.

## الاتِّصالات الروسية - العربية بين عامي 1773 و1774

دشن إرسال م. باومغارتين إلى السواحل المصرية والسورية حقبةً جديدةً من التعاون الروسي - العربي أكثر زخمًا، واكتسب هذا التعاون طابعًا سياسيًا علمانيًّا أيضًا، بما يتجاوز التعليل الدِّيني. وتلخصَ هذا التعاون بشعار: ينبغي للأسطول الروسي «تقديم المساعدة والحماية لكلٍّ من يطلبهما»، وفقًا لمشيئة الإمبراطورة[190]. وكان

---

=من عام 1773، وفيها يوصي أورلوف بـ «طمأنة» الحلفاء العرب بشأن المساعدة ووضعها «موضع التنفيذ»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, оп. 1, Д. 66, Л. 175об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، ظهر الورقة 175].

(187) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 250об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، ظهر الورقة 250].

(188) والسورية. (المترجم)

(189) عند وصول أسطول سبيريدوف إلى مينوركا، كُلف باومغارتين بمرافقة المركيز كافالكابو إلى مالطا. ونفترض بأن الهدف كان تفحّص التحصينات والمرفأ ومخازن الأسلحة، بعين العسكري المجرب.

(190) من رسالة الكونت إ. فوينوفيتش إلى الشيخ ظاهر العمر المؤرخة في 13 حزيران/يونيو =

على مبعوث ألكسي أورلوف، على ما يبدو، تحضير الأرضية السياسية لمرحلة التعاون الجديدة في ما بين الحلفاء، وهو ما فعله في أيٍّ حال.

أبحر ماكسيميليان باومغارتين من الأرخبيل صباح السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير على متن سفينة إنكليزية ثلاثية الصواري، بعد الاحتفالات بِعِيد ميلاد الكونت غ. غ. أورلوف التي تخللها حفل راقص وإطلاق قذائف مدفعية وألعاب نارية. وعلى مقربة من الإسكندرية «ألمَّ مرضٌ خطيرٌ» بضابط فوج بري أوبريجينسكي. وتعرضت السفينة لعاصفة هوجاء دفعتها نحو الشاطئ الفلسطيني، فاضطُرت إلى الرسو في ميناء حيفا، حيث غادرها باومغارتين «المريض» إلى الشاطئ. وعلى هذا النحو، وجد نفسه «بطريق المصادفة» في معسكر علي بك والشيخ ظاهر بالقرب من عكا.

حظيت إقامة باومغارتين في فلسطين باهتمام معاصريه، حيث وَرَدَ عن س. لوزينيان أن «الجنرال الروسي أرسل ماكسيميليان بونغيرد، ألماني الأصل، المجند في الخدمة الروسية» في نهاية شهر شباط/فبراير 1773، «لتفحص خليج الإسكندرية» (كان هذا الأمر على ما يبدو، من ضمن مهمته السرية بالفعل – المؤلفة). وقد أرغمه الطقس السيِّئ على النزول في إيوبي (يافا – المؤلفة). «وتلبيةً لرغبته في رؤية علي بك فقد قُدِّمَ إلى الأمير الذي استقبله بحفاوةٍ بالغة، وطرح عليه أسئلةً كثيرةً في ما يعني شؤونهم، وخصص له سكنًا لدى رئيس دير أرثوذكسي»[191]. وكما نرى، لم ترد أيُّ كلمة عن مرض باومغارتين، وإنما اتضح جليًّا دوره بوصفه مستشارًا. ثمة أمر آخر مثير للفضول:

---

= من عام 1773: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 321.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 321].

فهم الشيخ ظاهر ومعاونوه هذا الشعار على النحو المناسب. فبتكليفٍ من ظاهر، رد أحمد دنغزلي على إ. فوينوفيتش أنه تأكد اليوم من مشاعر الأخير الودِّية حيال «صاحب السموّ» شيخ عكا، بعد إبلاغه برغبة «صاحبة الجلالة الملكية الإمبراطورة في تقديم المساعدة والحماية لكل من يطلبهما»، دعمًا منها للضعفاء (ظهر الورقة 321).

(191) Лузиньян, с. 58.

[لوزينيان، ص 58].

هل كان إسكان «ألماني الأصل» هذا في ديرٍ أرثوذكسيٍّ حرصًا على سلامته أم كان ذلك من باب احترام خصوصية نمط حياته، أم بهدف إبقائه تحت المراقبة على الأرجح؟ ومن المعلوم أنه سارع إلى مغادرة هذا الدير إلى صور، عقب ذهاب علي بك إلى مصر، وبدأ مراسلة الشيخ ظاهر من هناك، على حدِّ قوله[192].

يكتنف الغموضُ كيفيةَ تعامل باومغارتين مع قرار علي بك المفاجئ والمُمِيت بالتوجُّه إلى القاهرة، وأيُّ دورٍ اضطلع به في ذلك. ففي منتصف ذلك الشهر، عند ظهور ضابط فوج بري أوبريجينسكي في أراضي الشيخ ظاهر، سقطت يافا[193]، وأصبحت الطريق إلى مصر مفتوحةً أمام علي بك. وجدير بالذكر أن المدينة لم تسقط بالاقتحام، على الرغم من تضرُّر قلعتها كثيرًا جراء

---

(192) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 1.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 1].

كتب القبطان س. ب. خميتيفسكي أن السفينة التي أبحر على متنها باومغارتين كانت متوجِّهة إلى الإسكندرية لشراء الأرزِّ [دُخنِ سوروتشيني - نسبة إلى مدينة سوروتشين الروسية في الأورال - وكان هذا النوع من الحبوب قد أدخل إلى روسيا أول مرة في عهد بطرس الأكبر (المترجم)]. عادت السفينة إلى باروس في 12 تموز/يوليو، إلا أن باومغارتين (مكسيم باومغارد) بقي بسبب المرض (**صحيفة ستيبان بيتروف ابن خميتيفسكي**). يُنظر: И. М. Смилянская, М. Б Велижев & Е. Б. Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 661.

[إ. م. سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 661 (الطبعة الروسية)].

ويبدو أنه من هنا أتى تأكيد مؤرِّخ حملة الأرخبيل أ. ن. بيتروف أن باومغارتين كان أُرسِلَ إلى الإسكندرية بغرض شراء الأرزِّ، ليعود من ثَم أدراجه: А. Н. Петров, *Война России с Турцией и польскимиконфедератами в 1769-1774 гг*, t. V (СПб., 1874), с. 103.

[أ. ن. بيتروف، **حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية في الأعوام 1769-1774**، مج 5 (سان بطرسبورغ، 1874)، ص 103].

(193) كان حصار يافا هو الحدث الذي أثار انتباه السكان العثمانيِّين، وانتباه الصحافة العالمية أيضًا. واستُخدم هذا الموضوع في اسطنبول لأغراضٍ دعائية: فقبل قرابة شهرٍ من سقوط القلعة، انتشرت في العاصمة العثمانية شائعات عن احتلال المدينة وعن إبادة الكثير من سكانها بالنار والسيف على أيدي المنتصرين: *Санктпетербургские ведомости*, 1775, no. 19, 5. III. По известиям из Константинополя от 4 января.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1775، العدد 19، 5. 3. بحسب الأخبار الواردة من القسطنطينية في 4 كانون الثاني/يناير].

القصف المدفعي من البرِّ والبحر، بما في ذلك قصف المدفعية الروسية(194)، بل إثرَ حصارٍ منهكٍ دام ثمانية أشهر(195).



منظر يافا

بعد مرور شهر، في 10-21 آذار/مارس، أرسل علي بك والشيخ ظاهر رسائل إلى باروس تتضمن خبرًا عن سقوط يافا، وطلبًا جديدًا بالمساعدة («إرسال سفن له [لعلي بك] لمحاصرة القلعة من جهة البحر»)(196).

---

(194) أشار سيرغي بليشيف إلى أنه بعد مقتل كلينغيناو، الذي تمكن من إحداث خرق في سور القلعة من الطلقة الأولى، واصل خادمه الدانماركي إطلاق النار، ولكن بفاعلية أقل: Плещеев, *Дневные записки*, с. 49.

[بليشيف، **يوميّات رحلة الأسطول**، ص 49].

(195) في دحضٍ لشائعات القسطنطينية الكاذبة، سارعت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** (العدد 44، 31/5/ 1773) إلى نشر معلومات أصدق من صيدا، مؤرخة في 19 شباط/فبراير، وقد جاء فيها: «إن مدينة يافا التي صمدت على مدى ستة أشهر في وجه الحصار، استسلمت أخيرًا في السابع عشر من الشهر نفسه. وعقد علي بك والشيخ ظاهر معاهدات جديرة بالثناء مع سكان تلك المدينة الشجعان. وبعد ذلك، عادت قوات باشا نابلس إلى بلادها، أما العسكر البربر (وحدات المرتزقة المغاربة - المؤلفة) فقد أعلنوا الطاعة لعلي بك، وبقي السكان آمنين في حياتهم وممتلكاتهم. وأبلغ الشيخ ظاهر وعلي بك بذلك حاكم صيدا، الذي عبر عن سعادته بإقامة الاحتفالات على مدى ثلاثة أيام كاملة».

(196) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 260об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، ظهر الورقة 260].

أخبر ف. بيرسين أن سفينة روسية وصلت إلى سوريا في آذار/مارس 1773، مؤكِّدة =

وترافقت الطلبات هذه المرة مع إرسال سفينة مسلحة ثلاثية الصواري محملة «بالمؤن»[197]. ولكن، للأسف، لم تصل هذه السفينة، كما لم تصل الرسائل إلى باروس إلا في 23 نيسان/ أبريل - 4 أيار/ مايو، بعد وفاة علي بك جراء إصابته بجروحٍ خطيرةٍ بمنزله في أزبكية القاهرة.

في غضون ذلك، أمر أ. غ. أورلوف بإرسال عمارة إ. فوينوفيتش - المؤلفة من ثماني سفن - إلى السواحل السورية[198]. وشكل الأميرال غ. أ. سبيريدوف بدوره «مجلسًا حربيًّا على سفينته» (هل كان لـ «المؤن» دورٌ في ذلك؟)، وضم إليه الكونتر-أميرال يلمانوف والجنرال إ. أ. غانيبال والقبطان ف. ف. روكسبورغ. واتخذ المجلس قرارًا يقضي بعدم الاكتفاء بإرسال عمارة فوينوفيتش إلى السواحل السورية، بل إرفاقها بعمارة أخرى. وتذرع أعضاء المجلس بأن إرسال العمارة البحرية سيعود بنفعٍ كبيرٍ «أكان ذلك نتيجة الحصول على غنائم كثيرة (كان الأسطول، على ما يبدو، يعاني من مصاعب مادية جمة - المؤلفة)، أم من إلحاق ضررٍ كبيرٍ بالعدو وتكبيده الخسائر». وفي نهاية المطاف، كان من شأن العمارتين أن «تقدِّما بعض الفائدة لجيشنا الرئيس»، لأنهما ستصرفان انتباه القوات التركية عن الدانوب (بدا أن أ. غ. أورلوف استرشد بالحجج ذاتها، لكنه تصرف بحذرٍ أكبر). وكان من المفترض أن تتألف العمارة الثانية «من سفن أو فرقاطات بقيادة قبطان روسي» (أي ليس من اليونانيين، كما كان الأمر عليه من

---

= قرب ظهور الأسطول الروسي، من أجل نقل علي بك إلى دمياط: Persen, p. 287.

(197) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 260.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة، 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 260].

(198) تألفت عمارة فوينوفيتش من الفرقاطات «القدِّيس نيقولاي» (بقيادة الرائد ثانٍ إ. فوينوفيتش)، «سلافا» (بقيادة الملازم مارك فوينوفيتش)، «ناكسيا» (بقيادة الملازم كوريل). ولم تكن «ناكسيا» في عداد العمارة، بل جنحت بها العاصفة إلى رودوس حين كانت تُبحر جنوب الأرخبيل، ووصلت إلى الساحل السوريّ، ثم انضمت إلى عمارة فوينوفيتش عند التقائها بها). وضمت عمارة فوينوفيتش أيضًا السفينة الثلاثية الصواري «زابياكا» (بقيادة ن. كوجيفيتش)، والمراكب «أونيون» (بقيادة الملازم بيتر أونافيزوبولو) و«إيفلوني» و«روندانيلا» (بقيادة الملازم إيليا سابليتش) وسفينة واحدة ذات صاريتين.

قبل - المؤلفة). واستلزم الأمر أيضًا «مضاعفة عدد القوات النظامية وغير النظامية»(199).

عُهِدَ بدور القبطان «الروسي» إلى م. غ. كوجوخوف، الذي لم يكن معروفًا بمشاركته في العديد من العمليات الحربية فحسب(200)، بل بحزمه أيضًا. وقد تألفت عمارته من ثماني سفن بقيادة يونانيِّين يخدمون في الأسطول الروسي(201)، فضلًا عن الفرقاطة «ناديجدا». وأولى سبيريدوف وأعضاء المجلس الحربي هذه العملية أهمية كبيرة. وعلى الرغم من أن غريغوري أندرييفيتش سبيريدوف، المعروف بدقة مراسلاته، رد على رسائل حليفيه العربيين على الفور، مهنِّئًا بالاستيلاء على يافا، ومعلنًا عن قرب إرسال العمارتين البحريتين، مضيفًا تمنِّياته بالنصر وبعودة علي بك إلى القاهرة(202)، إلا أن المساعدة الروسية تأخرت وبات اليأس سيد الموقف.

يبقى لغزًا حتى الآن السبب الذي جعل علي بك يبدِّل قراره ويتوجه إلى القاهرة، من دون انتظار وصول المساعدة الروسية، على الرغم من إلحاحه على

---

(199) المرجع نفسه، ظهر الورقة 260.

(200) كان ميخائيل غافريلوفيتش كوجوخوف في عام 1773 في الثالثة والأربعين من العمر، وهو خرِّيج مدرسة مشاة البحرية للنُّبلاء، شارك برتبة ضابط صفٍّ بحريٍّ في حرب الأعوام السبعة (1756-1763). وصل إلى الأرخبيل مع عمارة إ. ن. آرف. ومُنح وسام القدِّيس جاورجيوس من الدرجة الرابعة جزاءَ الاستيلاء على بيروت. أنهى خدمته في عام 1783 برتبة قبطان جنرال ميجر. يُنظر: Лурье, с. 119.

[لوريه، ص 119].

(201) تألفت عمارة كوجوخوف من الفرقاطات «ناديجدا» (بقيادة القبطان م. غ. كوجوخوف) من: «القدِّيس بولس» (بقيادة الملازم بانايوتي ألكسيانو)، السفينة الشراعية «ستيتس» (بقيادة ضابط الصف البحري بوليكوتِّي)، «القديس ألكسي» (بقيادة ضابط الصف البحري فالزاماتي)، «القديسة كاترينا» (بقيادة ضابط الصف البحري كوبا)، «القدِّيسة حنة» (بقيادة ضابط الصف البحري بالاميد)، المركب «دويزدا» (بقيادة ضابط الصف البحري أنطون ألكسيانو)، السفينة الشراعية «سالونيكا» (بقيادة ليوناردو كالوغيروبولو)، «أكفافيليتسي» (بقيادة قسطنطين سكاردولي). وكانت هذه السُّفن تحمل، إضافةً إلى طواقمها الكتيبة الألبانية الثانية التابعة للقوات غير النظامية بقيادة غيورغي دوسا.

(202) *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 261об-262об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، ظهرا الورقتين 261 و262].

الدعوة إلى «التعاون». هل خاب أمله بالدعم الروسي[203]، أو لم يشأ العودة إلى القاهرة على «الحراب الروسية»، بعدما علم بحقيقة الوضع في مصر، أو لأنه صدق الدعوات الصادرة من هناك؟ فمن المعروف أنه بدأ منذ خريف عام 1772 يتلقى رسائل من أنصاره تطالبه بالعودة إلى مصر. وكتب س. إ. بليشييف يقول إن «جواسيس دراويش» وصلوا إلى معسكر علي بك من القاهرة في 19 أيلول/ سبتمبر 1772 (كان الدراويش والرهبان يقومون عادةً بدور العملاء السريِّين) حاملين أخبارًا تقول إن بَكَوَات القاهرة وعدوا بمساعدة علي بك إذا ما جاء إلى مصر، وأضافوا أن «كل المسيحيِّين يُجمِعُون على عودته»[204]. غير أن الشيخ ظاهر شكك بصدقية قسمٍ من هذه الرسائل على الأقل. أما المؤرِّخ المعاصر د. كريسيليوس كان على يقين تام من أن محمد بك أبو الذهب هو من كان يقف وراء هذه الرسائل، بل إنه هو الذي أملى الإجابات على أسئلة علي بك[205].

كان من المهمِّ بالنِّسبة إلى محمد بك إغراء غريمه ليخرج من فلسطين في أقرب وقتٍ ممكن، فنصب له كمينًا؛ ذلك أن أنصار علي بك كانوا موجودين في القاهرة فعلًا، وكانت أعدادهم تتزايد مع تزايُد تفاقم استياء السكان من حكم محمد بك. وقد توجه هذا الأخير إلى أتباع علي بك هؤلاء بالتحديد في خطابه الذي ألقاه خلال اجتماع ديوان الأعيان المصريِّين الموسع، حيث أكد لهم أنه إذا عاد علي بك إلى القاهرة، فسيأتي حلفاؤه الرُّوس معه لينتزعوا ممتلكات المصريِّين من أصحابها، ليرتكبوا في مصر ما ارتكبه الإنكليز بحقِّ المسلمين في هندوستان[206]. فعلت كلماته فعلها، وساعده في ذلك تنامي المشاعر

---

(203) ذكر ق. ف. فولني الواسع الاطِّلاع (يتأكد ذلك من تطابق معطياته مع نصِّ رسالة الشيخ ظاهر)، أنه وفقًا للوعود الروسية، كان من المتوقع إرسال قوات حماية من 600 شخص. واستنادًا إلى المصادر الروسية، يمكن الاستنتاج أن العدد الذي كان يُفتَرَضُ إرساله يقارب سبعمئة وخمسين رجلًا.
C. E. Volney, *Voyage en Syrie et en Egypt, pendant les années 1783, 1784 & 1785* (Paris, 1787), vol. 2, p. 111.

(204) Плещеев, *Дневные записки*, с. 52.
[بليشييف، يوميَّات رحلة الأسطول، ص 52].

(205) Crecelius, p. 100.

(206) Лузиньян, с. 91.
[لوزينيان، ص 91].

=

المعادية للمسيحيِّين بين المسلمين[207]. وفي المحصِّلة، تمكن محمد بك من جمع جيشٍ قوامُهُ ستون ألف مقاتل، أرسله عند ورود أول الأخبار عن خروج علي بك إلى الصالحية، البلدة الواقعة عند دلتا النيل التي تمرُّ منها الطريق إلى سوريا عبر الصحراء.

كما ذكر فولني[208]، حاول الشيخ ظاهر مرارًا إقناع علي بك بالبقاء وانتظار المساعدة الروسية، وكتب إلى أ. غ. أورلوف بعد مقتل علي بك يقول إنه امتنع حتى عن وضع قواته بتصرُّف علي بك، الأمر الذي رد عليه الأخير قائلًا: «إذا لم تعطني القوات سأذهب إلى القاهرة العظيمة مع عبيدي وخدمي وحدهم»[209]، مُبديًا «لنا استياءه» (شدد ظاهر عمومًا على أن علي بك اتخذ قراره بإرادته): «فكنا مرغمين حينئذٍ على مجاراته في ذلك» - ويبدو الشيخ ظاهر هنا كأنه يُسوِّغ تصرُّفه أمام أ. غ. أورلوف - «حرصًا منا على صداقتنا الحقيقية وعلى سمعتنا، كي لا يذهب وهو متكدِّر من جهتنا، وحتى لا نُشتم مِمن يجهل حقيقة الأمر». (وكما نرى، لم يسترشد الشيخ ظاهر بمشاعر العزة والإخلاص فحسب، بل أخذ في حسبانه الرأي العام الذي لن يغفر له خيانة الحليف).

وضع الشيخ ظاهر قواته بقيادة ابنه البكر عثمان بتصرُّف علي بك محدِّدًا

---

= [الترجمة الفارسية لاسم «أرض الهندوس»، ويُستخدَم أحيانًا كاسمٍ مرادفٍ للهند. أما المصطلح الروسي الذي تعتمده المؤلِّفة فهو للدلالة على ذلك الجزء الواقع في جنوب شرق القارة الهندية]. (المترجم)

(207) Crecelius, p. 102.

دفعت هذه المشاعر الرحالة الإنكليزي بروس إلى مغادرة مصر.

(208) Volney, vol. 2, p. 111.

(209) من رسالة الشيخ ظاهر من يافا إلى أ. غ. أورلوف المؤرخة في 20 أيار/ مايو من عام 1773:

*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 3.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 3].

استُخدمت في الترجمة الإيطالية للرسالة كلمة «شكلاف» (كتب خميتيفسكي كلمة «سكلاف»)، قاصدًا بها «العبيد»)، ويبدو أنها محرفة من الكلمة العربية «الصقَالِبَة»، لأنها تعود من دون شك إلى فهمه التقليدي لكلمة «العبد». واستخدم ظاهر مفهوم «المماليك» في نصٍّ مماثل في الرسالة الثانية: «سأذهب إلى القاهرة مع مماليكي وخدمي فحسب»:

*РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 5.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 5].

عدة شروط: أن يرافق بنفسه علي بك حتى غزة، ومن هناك يتوجه الأخير مع القوات إلى قلعة العريش المحصنة، ويرسل «أشخاصًا موثوقين لاستطلاع القوات المُعادِية»، والتحقُّق من صحة المعلومات التي تتضمنها الرسائل؛ على أن يبقى هناك، في العريش، منتظرًا عودة رجال الاستطلاع. وافق علي بك على شروط الشيخ ظاهر، إلا أنه لم ينفِّذ الشرط الأساسي، إذ أرسل «أشخاصًا موثوقين»، ولكن لم ينتظر عودتهم. فعلى الرغم من كل شيء، تابع علي بك طريقه «وكأن يد الله العليا قادته إلى مصيره المحتوم»؛ فقطع في يومٍ واحدٍ مسيرة يومين عبر الصحراء، ووصل إلى الصالحية مع قواته المنهكة التي بالكاد بلغ تعدادها عشرين ألفًا (من بينها ثلاثة عشر ألفًا من قوات الشيخ ظاهر)، ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام جيش محمد بك (يشير مراسل دورية *Annual Register* (السجل السنوي) إلى التفصيل الآتي: كان اليوم يوم جمعة، وهو اليوم المخصص لدى المسلمين للصلاة؛ فاقترح محمد بك تأجيل المعركة إلى السبت، رغبةً منه في عدم انتهاك قدسية الجمعة، غير أن علي بك رفض ذلك)[210]. بدأت المعركة التي أبدى فيها مماليك علي بك شجاعةً مذهلةً وإخلاصًا لسيِّدهم، على ما أشار المراسل نفسه[211]. بيد أن غلبة العدوِّ كانت جلية. وأصيب علي بك بجراح عديدة، وطوقه الأعداء، وعندما رأى رجال الشيخ ظاهر أن حياته في خطر هُرِعُوا إليه لإنقاذه، وما لبثوا أن تركوه وغادروا بعد أن رفض الفرار». وذكر الشيخ ظاهر، فيما بعد، على نحوٍ لا يخلو من التهكُّم، أن محمد بك وإسماعيل بك نقلا علي بك إلى منزله في القاهرة «باحترام»، حيث فارق الحياة متأثِّرًا بجراحه[212]. حدث ذلك في الثامن من أيار/مايو 1773 (بحسب التقويم الجديد).

إذ أدرك الشيخ ظاهر حجم الضربة الموجعة التي ألحقها به (وبحلفائه الرُّوس) مقتلُ علي بك، كتب إلى أ. غ. أورلوف: «... حالما يعلم عدونا المشترك بالوضع، وبمقتل علي بك، فسيعمل على إلحاق أكبر أذى ممكنٍ بنا،

---

(210) *AR*, 1773, ch. 3.

(211) Ibid.

(212) Crecelius, p. 103.

إذا ما أدرك أنه لم تعد لدينا أيُّ مساعدة، وهو سيكفُّ يديه عنا فعلًا إذا ما كنتم سعادتكم والإمبراطورة حماةً لنا»[213].

لكن، قبل أن يقرِّر الشيخ ظاهر الاعتماد على المساعدة الروسية، كان قد بدأ على ما يبدو يميل إلى فكرة المصالحة مع السلطان. فبإيعاز من اسطنبول دخل مصطفى باشا - الذي خلف محمد العظم في منصب والي دمشق ما بين عامي 1772 و1773 - في مفاوضات مع ظاهر، مستعينًا بالقنصل الفرنسي في صيدا. وقد وضع الشيخ ظاهر شرطًا للمصالحة، تمثل في منحه حكم كلِّ المناطق التي استولى عليها (مدى الحياة، على ما يبدو، أي على أساس «المالكانة»)، متعهِّدًا بدفع الإتاوة (الميري) المتوجِّبة وتقديم المساعدة للقافلة المقدسة. واستنادًا إلى رسالة مصطفى باشا إلى القنصل الفرنسي (في 9 أيار/مايو، بحسب التقويم الجديد) بدأت المراسلة بين الجانبين بعد معركة الصالحية، ولم تتوقف إلا في تموز/يوليو 1773، حين أصبحت العمائر البحرية الروسية قبالة الشواطئ السورية[214].

تلقى ماكسيميليان باومغارتين، على ما يبدو، أنباءً عبر مُخبِريه عن هذه المفاوضات، وأجرى تقويمًا واقعيًّا لنتائجها المحتملة. فقد بدا أن كل العمل الذي بُذل لإقامة علاقات بين أ. غ. أورلوف وعلي بك كان عرضةً للخطر؛ وأن الأسطول الروسي سيفقد قواعده على الشاطئ السوري، فيصبح جنوب شرق البحر المتوسِّط بكامله في أيدي الأعداء، وتتبدد كلُّ الجهود والأموال التي أنفقت على تجهيز السُّفن الروسية المرسلة إلى علي بك. وأخيرًا، لم يغب عن بال باومغارتين أن ذلك يعني انتهاء مهمته بالفشل.

فبدأ باومغارتين العمل بنشاط، مستفيدًا من مساعدة ملتزم الجمارك (مدير الجمارك) في صور مولينار (يبدو من اسمه ومهنته أنه «مشرقي» أنموذجي). وسعى إلى إفشال المصالحة بين الشيخ ظاهر والسلطات العثمانية («سعيتُ إلى

---

(213) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 6.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 6].

(214) Rafeq, p. 300.

جعل الشيخ ظاهر وحلفائه يتمسكون بالتدابير التي اتخذوها ضد الباب العالي سابقًا»). وذكر الشيخ بقرب وصول العمارة البحرية، مؤكِّدًا ثبات الصداقة الروسية. وعلى وجه العموم، بذل باومغارتين، كما كتب في رسالته إلى غ. أ. سبيريدوف، أقصى الجهود «لاستمالتهم إلى التحالف، أملًا بكسب الوقت الكافي على الأقل، كي أتمكن من إطلاع سعادتكم على الأوضاع هناك».

بدهي أن الشيخ ظاهر كان يرغب، في ظلِّ تلك الظروف، في الحصول على ضمانات بشأن المساعدات الروسية، ورأى باومغارتين أن «الحظ عاكسه» في هذا الأمر. فقد أراد ظاهر توقيع «معاهدة»، واقترح بنوده الخاصة لها، بينما لم يكن باومغارتين يملك مثل هذه الصلاحيات. فقرر عندها الاكتفاء «أول مرة» بالموافقة على تلك البنود التي لا تجعله يبدو «مخطئًا عن غير قصد» (كتب في تقريره مسوِّغًا تصرُّفه: «إذا ما تصرفت في كلِّ ذلك خلافًا لإرادتكم وسياستكم»، فإن ذلك «كان بدافع الغيرة الصادقة» فحسب[215]. والواقع أن ضابط فوج بري أوبريجينسكي تصرف فعلًا بقدرٍ معين من المغامرة على نحوٍ «يخالف سياسة» روسيا، لأن الإمبراطورة ما كانت لتستطيع تنفيذ البنود الأساسية التي اقترحها الشيخ ظاهر، حتى ولو رغبت في ذلك. ولعل مواصلة الشيخ ظاهر المساومة على شروط الهدنة مع مصطفى باشا، حينذاك، كانت هي المُسوِّغ الوحيد لتصرُّف باومغارتين على هذا النحو.

بقي نصُّ المعاهدة (والأصح، مشروع الاتفاق المبدئي) بشأن «التحالف مع روسيا»، الذي عقد بين الشيخ ظاهر العمر والملازم ثانٍ باومغارتين محفوظًا بترجمته الإيطالية، فلم يصل إلى الأميرال غ. أ. سبيريدوف إلا في الثاني من شباط/ فبراير 1774 (بحسب التقويم القديم)، عند عودة العمارة البحرية الروسية إلى آوزا، بعد الاستيلاء على بيروت، فحُفِظَ في الأرشيف من دون أن يُنشر. وجدير بالذكر أن هذا النص يتيح فهم طموحات الشيخ ظاهر التوسعية،

---

(215) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 1-3.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 1-3].
وصلنا تقرير باومغارتين هذا إلى غ. أ. سبيريدوف مجتزأً للأسف.

وتصوُّره لأسس العلاقات السياسية - القانونية مع روسيا. وهو ينص على التالي:

**الشروط التي نطلبها من صاحبة الجلالة الإمبراطورة كاترينا الثانية عبر صاحب السعادة الكونت أورلوف:**

**1. إذا ما أُبرم الصلح بين جلالة الإمبراطورة كاترينا الثانية والباب العالي العثماني، فإن هذا سيثبِّت سلطتنا على الأراضي والمناطق التي فرضنا عليها سلطتنا بالقوة.**

**2. إذا ما ثبتت جلالة الإمبراطورة سلطتنا على الدولة السورية، فإننا نتعهد بدفع ألفي كيس[216] سنويًّا، (يحتوي كل كيس خمسمئة قرش، ويساوي كلُّ قرشٍ أربعين نحاسية)، وذلك مقابل رعاية الإمبراطورة الأبدية.**

**3. إذا ما أُبرم الصلح قبل تنفيذ الشرط الثاني، فإننا نلتزم بدفع مئتي كيس سنويًّا لصاحبة الجلالة الإمبراطورة، بشرط أن تبقى صيدا وحيفا وغزة ونابولي[217] والمناطق التابعة لها في أيدينا وتحت حكمنا.**

**4. ينبغي أن تكون السُّفن الحربية التابعة لصاحبة الجلالة الإمبراطورة في بحارنا طالما استمرت الحرب، وأن تستخدم عند الضرورة، وأن يكون عندنا أيضًا شخصية من قِبَل صاحب السعادة الكونت أورلوف مفوضة بالسلطة الحقيقية على هذه السُّفن، بحيث يمكننا مناقشة الأوضاع معها.**

**5. أن يكون في ديارنا التجار من رعايا صاحبة الجلالة الإمبراطورة، وأن تجوب سفنها بحارنا.**

---

(216) الكيس [يقابله في الإيطالية La borsa]، ويحتوي على 500 قرش. والقرش قطعة نقدية فضية، والنحاسية قطعة نقدية من النحاس. افترض بازيلي أن القرش كان يساوي روبلًا فضيًا روسيًا حينذاك:
Базили, с. 560.
[بازيلي، ص 560].

(217) نابولي: أي نابلس، المنطقة التي سماها س. بليشييف «الممتلكات النابوليتانية»:
Плещеев, *Дневные записки*, с. 17.
[بليشييف، يوميّات رحلة الأسطول، ص 17].

**6. نتفق على أن تدفع المناطق التي يستولي عليها جنود صاحبة الجلالة الإمبراطورة في البحر أو في البرِّ، الغرامات الحربية، بما يتناسب وثروة كلٍّ منطقة، وكما يرتئي القائد المرسل على رأس القوات.**

**التوقيع على النصِّ الأصلي بالتركية[218] وإلى جانبه الختم.**

**7. نرجو من الإمبراطورة المظفرة دائمًا أن تضعنا تحت حمايتها إلى الأبد، وأن تعتبر مناطقنا جزءًا مكوِّنًا من الدولة الروسية، وأن تدافع عنا وترعانا دائمًا وتبسط سلطانها على بلادنا[219].**

يتبين من هذه الوثيقة أن الشيخ ظاهر افترض أن هذا التحالف سيجعل الإمبراطورة تُدرِجُ البنود التي تراعي مصالحه، في شروط معاهدة السلام مع الباب العالي. فقد كانت لديه طموحات ببسط سلطته على سوريا كلها («تثبِّت الإمبراطورة سلطتنا على الدولة السورية»)، مفترضًا أن القوات الروسية ستساعده في تحقيق ذلك (مناطق «يستولي عليها جنود» الإمبراطورة)، وستكتفي بالحصول على الغرامات الحربية من «الأماكن» التي يُستولى عليها لصالحه. وعمومًا، اعتقد الشيخ ظاهر أنه «سيكون من السهل جدًّا «الاستيلاء على باروت[220] ومناطق أخرى مختلفة في سوريا، خلال العمليات الحربية، وطرد أنصار الباب العالي الموجودين هناك»، أي أنصار السلطان[221] (عند وصول عمارة فوينوفيتش إلى الشواطئ السورية في فترة لاحقة، أكد إيفان فوينوفيتش في رسالته المؤرخة في 14 حزيران/ يونيو 1773 إلى الشيخ ظاهر، وبعدما أطلعه باومغارتين على نصِّ «معاهدة

(218) كانت الأحرف واللغات لا تزال تختلط على المشاركين في الحملة، مطلقين اسم التركية على الكتابة العربية: الرسالة كانت مكتوبة بالعربية.

(219) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 7-7об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 7 – ظهر الورقة 7].

(220) بيروت. (المترجم)

(221) رسالة الشيخ ظاهر إلى غ. أ. سبيريدوف: *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 8.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 8].

التحالف»، أن أورلوف أرسله «من أجل زيادة ممتلكاتكم، فليصُنها الله وليضاعفها إلى الأبد!»)[222].

إذا حدث أنه لم يُستولَ على سوريا قبل إبرام الصلح (لم يُعرِّف النصُّ حدودها، لكن من الواضح أنها شملت بيروت، التي كانت مع جبل لبنان تابعة لباشا صيدا)، فعلى الإمبراطورة أن تثبِّت في معاهدة السلام مع الباب العالي حق الشيخ ظاهر في حكم الأراضي التي في حوزته الآن (إيالة صيدا على وجه التحديد). وتقضي شروط المعاهدة[223] أن تُرابِط السُّفن الروسية عند السواحل السورية في زمن الحرب، وأن يكون مستشارٌ عسكريٌّ في حضرة الشيخ، مفوضٌ قيادة هذه السُّفن. وبذلك، يتوفر للشيخ إمكان التحكُّم الفعليِّ بالأسطول الروسي. ويمقابل تنفيذ بنود المعاهدة هذه، يحصل التجار الرُّوس على حقِّ التحرُّك بحُرِّية عند الشواطئ السورية. كانت تلك شروط الشيخ الفلسطيني، الذي كان مستعدًّا للانضواء بموجبها تحت رعاية الإمبراطورة وحمايتها. لم يكن لمفاهيم «الحماية» و«التبعية» («تشملنا بسلطانها») في ذاك الزمن - كما أشرنا آنفًا - معنى سياسيٌّ - قانونيٌّ صارم. فسواءٌ أَفُهِمت على أنها دفع إتاوة معينة، أم أن تصير الأراضي جزءًا من الدولة الروسية، فقد كان الأمر يعني، في كلتا الحالين، أن الإمبراطورة ملزمة بحماية ممتلكات الشيخ بواسطة قواتها العسكرية في زمن الحرب، وبهيبتها الدولية في زمن السلم. أما بخصوص حجم الإتاوة، فقد سعى الشيخ ظاهر، بوصفه رب أسرةٍ حريصًا، لأن يكون أدنى كثيرًا من المبلغ الواجب عليه دفعه للخزانة العثمانية عن تلك الأراضي.

إذ أدرك الشيخ ظاهر، على ما يبدو، أنه بالغ في مطالبه، فقد دخل في «مساومة» منتظرًا شروط الجانب الروسي («إبلاغنا بالشروط الملائمة لسعادتكم، وفقًا لمشيئة الإمبراطورة ومباركتها»)[224].

---

(222) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 322об.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، ظهر الورقة 322].

(223) معاهدة التحالف بين الشيخ ظاهر وروسيا. (المترجم)

(224) رسالة الشيخ ظاهر إلى أ. غ. أورلوف المؤرخة في 31 أيار/ مايو 1773:
= *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 61, Л. 6об.

غير أن الرد من باروس لم يأتِ إلا في مطلع عام 1774، عندما عادت السُّفن الروسية إلى آوزا، بعد الحصول على الغرامة الحربية لقاء الاستيلاء على بيروت، كما سبق ذكره. وقبيل إبحار عمارة كوجوخوف - فوينوفيتش الموحدة (سيأتي الحديث عنها لاحقًا)، كتب الشيخ ظاهر رسالة أخرى إلى أورلوف في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1773، طلب فيها التأكيد - بعد قراءة «الشروط» المتفق عليها مع باومغارتين - ببقاء بيروت وجبل لبنان تحت سلطة الأمير يوسف الشهابي الذي انتقل إلى كنف الإمبراطورة، والموافقة على تخفيض الإتاوة التي تعهد ظاهر بدفعها بموجب المعاهدة. وتابع ظاهر: «نترك ذلك لحكمة سعادتكم، ونحن سنقبل كل ما تقرِّرونه دون نقاش»[225]. لم تسنح الفرصة لقبول شروط أ. غ. أورلوف «دون نقاش» لأن الظروف تبدلت، وشارفت الحرب على الانتهاء وإبرام الصلح. فتوقف البحث في مسألة المعاهدة مع الشيخ الفلسطيني. وبدوره، استأنف الشيخ ظاهر مفاوضات المصالحة مع السلطات التركية.

فيما كان الشيخ ظاهر العمر والملازم في فوج بري أوبريجينسكي يتفاوضان على عقد معاهدة التحالف، كانت تُجهز في الأرخبيل العمائر البحرية لشنِّ الحملة على السواحل السورية، خلال شهري أيار/مايو - حزيران/يونيو 1773.

في الحادي والعشرين من نيسان/أبريل 1773، وقع أورلوف التعليمات «إلى السيِّد الرائد والفارس الكونت فوينوفيتش بشأن ما يجب عليه القيام به في

---

= [أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، ظهر الورقة 6].

(225) «... إننا نعقد كل آمالنا على صداقتكم وعلى رعاية الإمبراطورة المظفرة وحمايتها، ومن الممكن أن تروا سعادتكم - بعد الاطِّلاع على الشروط المتفق عليها مع السيد باومغارتين - أنه يجب عليهم، بعد سيطرتنا على بيروت، الخروج من مناطق جبل الدروز، التابعة لحاكم صيدا، لأن الأمير جوزف (يوسف الشهابي) وضع نفسه تحت رعاية الإمبراطورة، وينبغي أن تكون هذه الأماكن تابعة له»:
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 69об.-70.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 69 - الورقة 70].

أثناء وجوده في سوريا، التي أرسلناه إليها على رأس العمارة البحرية الموكلة إليه». وورد في البند الأول: «عليكم حالما تتلقون هذا الأمر (وهذا يعني أن ألكسي غريغوريفيتش كان يستعجله - المؤلفة)، التوجُّه مع الفرقاطة 'سلافا' والسفينة الثلاثية الصواري 'زابياكا' وأربعة زوارق بمجاذيف ومركبٍ شراعيٍّ نحو الشاطئ السوري، وأن تبحروا هناك قدر ما ترونه ضروريًّا، وحيث يكون بإمكانكم إرباك العدو وإلحاق أكبر أذى به». ثم تلت ذلك بنودٌ أخرى بشأن تفتيش سُفُن الدول المحايدة والحليفة، والبضاعة المسموح مصادرتها، وحول كل ما له علاقة بشروط الحصار. وتضمن بندٌ خاصٌّ توصياتٍ بخصوص الأسرى «الأتراك» (نعتقد أن المسلمين هم المقصودون): إذ تنبغي مبادلتهم بالمسيحيين المُعتَقِين أو إطلاق سراحهم، بشرط ألا يشاركوا في الحرب بعد الآن[226]. ومن بين بنود التعليمات الثلاث عشرة، تطرقت ثلاث منها فقط (بما فيها البند الأول الوارد أعلاه) بشكلٍ عامٍّ إلى مساعدة الحلفاء العرب: «**سادسًا**، لا يُحظر (!) عليكم الدخول إلى موانئ علي بك (لم يكن ألكسي غريغوريفيتش يعلم شيئًا عن مصيره) أو حلفائه، والقيام بكلٍّ ما ترونه ممكنًا لمساعدته، برًّا وبحرًا؛ **سابعًا**، لديكم السلطة المطلقة للقيام بعمليات إنزال ومحاصرة القلاع والمدن والقرى، وفرض الغرامات الحربية عليها، وفعل كلٍّ ما يمكن لإلحاق أكبر أذى ممكن بالعدو، لما فيه مصلحة سلاح صاحبة الجلالة الملكية المظفرة»[227]؛ ومن دون شكٍّ، كانت هناك بعض التعليمات الشفهية بشأن العلاقة مع علي بك وظاهر العمر.

اتسقت أعمال إ. فوينوفيتش مع التعليمات المعطاة له بالكامل. فمنذ نهاية نيسان/ أبريل وحتى منتصف حزيران/ يونيو تقريبًا، طافت سفنه في منطقة قبرص وعند سواحل مصر وسوريا، فأخذت «الغنائم» وحاربت القراصنة،

---

(226) «إذا ما أخذتم أسرى من الأتراك، فيسمح لكم بإطلاق سراحهم بعد أخذ تعهد كتابي منهم باسم صاحبة الجلالة الإمبراطورية، بعدم المشاركة في الحرب ضد سلاح ملكتنا، أو مبادلتهم إذا أمكن بالمسيحيين الذين يعتقونهم من العبودية»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 75-75об

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 75 - ظهر الورقة 75].

(227) المرجع نفسه.

وسوقت البضائع المصادرة في دمياط. وفي 12-23 حزيران/ يونيو، حينما أصبح «من غير المجدي» القيام بالدوريات البحرية، لأن «الجميع كانوا جاهزين للعراك»، بدأت العمارة البحرية بالتجمُّع في صور، حيث التقى إيفان فوينوفيتش بباومغارتين[228].

كان من الوضح أن ألكسي أورلوف لدى وضع التعليمات لفوينوفيتش استرشد، بالدرجة الأولى، بمسائل الحصار وبإمدادات الأسطول المادية، أما التعاون مع الحلفاء فقد احتل الدرجة الثانية في سُلم اهتماماته؛ بينما رأى غ. أ. سبيريدوف والمجلس الحربي أن القيام بعمليات مشتركة مع الحلفاء العرب أهمُّ بكثير من الناحية التكتيكية.

في المحصِّلة، تلقى م. غ. كوجوخوف تعليماتٍ أدق من غ. أ. سبيريدوف وتصرف بسرعةٍ أكبر. ونُصح خلال ذلك بالإصغاء إلى رأي بانايوتي ألكسيانو، الذي يمتلك خبرة الإبحار عند السواحل السورية. لقد تضمنت التعليمات مبادئ تعكس السياسة الدينية الروسية، التي مارست الاتِّصالات الروسية - العربية تأثيرًا في تشكيلها. فطُلِبَ من كوجوخوف ألا تُمارَس أيُّ مضايقاتٍ أو أعمالِ نهب أو تخريبٍ بحقِّ حلفاء علي بك عند تقديم المساعدة إليه؛ على الرغم من كونهم «محمديِّين» ورعايا أتراكًا سابقين. وسُلِّم الرسائل الموجهة إلى علي بك التي تضمنت على وجه التحديد شروط تزويده بقوات روسية. وقد نصت هذه الشروط على حظر إرغام المسيحيِّين الذين ستتألف منهم الوحدات، على اعتناق الإسلام؛ واقترحت «تموين» الجنود على نحوٍ جيِّد ودفع الرواتب إليهم وإبلاغ القيادة بموعد استرجاعهم[229].

---

(228) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 304-306.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 304-306].

(229) «... ألا يجري بأيِّ شكلٍ من الأشكال إرغام أيٍّ من أفراد قواتنا المسيحيِّين على اعتناق الديانة المحمدية أو محاولة إقناعه بذلك، وألا يتدخل أحد في ديانتهم أبدًا، وأن يكونوا مكرمين على النحو المطلوب تحت حمايتكم أيها السيد العظيم (علي بك - المؤلفة) أو حماية أصدقائكم؛ وأن يقدم لهم أثناء وجودهم في جيشكم أو جيوش أصدقائكم ما يكفي من الغذاء، وأن يُمنحوا المكافآت لقاء أعمالهم، وأن تدفع إليهم رواتب نقدية...»: *РГА ВМФ*, Ф. 315, Оп. 1, Д. 1, Л. 272-284. =

وكُلِّف كوجوخوف أيضًا إجراء مُسُوحاتٍ للسواحل السورية ووضع توصيف لها وتصنيفها، والحفاظ على الفرقاطة «ناديجدا» الموضوعة تحت إمرته، البالغ عدد طاقمها مئتين ورجل[230]، وعدم إبلاغ السُّفن المحايدة التي يلتقونها بوجهتهم لمساعدة علي بك. فقد بقيت المهمات في مصر وسوريا مغطاة بستارٍ من السرِّية.

أبحر م. غ. كوجوخوف من باروس بعد فوينوفيتش؛ إذ تلقى في العشرين من أيار/ مايو أمرًا بالتوجُّه إلى جزيرتي هيدرو وسبيتسيا و«الظهور مقابل نابولي دي رومانيا» (لترويع الأتراك، على ما يبدو)، ثم مواصلة الإبحار «من دون إضاعة للوقت» (أي الإسراع) نحو السواحل المصرية والسورية. بيد أنه لم يصل إلى حيفا إلا في 17 حزيران/ يونيو، أي بعد خمسة أيام من وصول عمارة فوينوفيتش[231].

عند وصول العمارتين البحريتين، كان الوضع السياسي في سوريا قد تغير على نحوٍ ملحوظ، الأمر الذي بدل مهماتهما أيضًا.

زالت الحاجة إلى الحملة على مصر بعد مقتل علي بك. وعكف الشيخ ظاهر على تحصين يافا على وجه السرعة، متخوِّفًا من عدوان من جانب محمد بك أبو الذهب. وبدل خصمه حتى وقت قريب، الأمير اللبناني يوسف الشهابي، نهجه السياسي جذريًّا؛ إذ قطع العلاقات مع السلطات العثمانية وانتقل إلى جانب الشيخ ظاهر عاقدًا معه حلفًا عسكريًّا، ما جعله في كنف الجانب الروسي.

في غضون ذلك، بقي الأمير يوسف شخصيةً غامضةً بالنسبة إلى الرُّوس،

---

= [أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 315، القائمة 1، الملف 1، الورقة 272–284].

(230) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 8.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 8].

(231) ملخص تقرير كوجوخوف: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 106об.-107.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 106 – الورقة 107].

وساورتهم الشكوك بقدرات ميليشياته العسكرية (كتب فوينوفيتش في رسالته إلى الشيخ ظاهر: «لا أُعوِّل كثيرًا على شجاعة قوات الدروز، فأنا لا أعرفهم بما فيه الكفاية»)[232].

بالفعل، كان سلوك الأمير يوسف الشهابي السياسي مدعاةً لعدم الثقة، لأنه تميز بالنزَق والانعطافات غير المتوقعة، لكأنه كان عاجزًا عن احتساب خطواته مسبقًا. فقد غير، في بداية حياته السياسية، سياسة الأمراء اللبنانيِّين الحاكمين التقليدية القائمة على معارضة السلطات العثمانية، وذلك في سياق صراعه مع عمِّه الأمير منصور. كما تورط في أعمال الباشاوات العثمانيِّين الضعفاء وغير البارزين. ورفض عشية معركة صيدا اقتراح الشيخ ظاهر عقد معاهدة صلح معه ومع علي بك[233]، بسبب العداوة مع الأمير منصور والمتاولة، وربما خوفًا من مطامع الشيخ ظاهر التوسُّعية، أو لاتِّكاله المُفرِط على العثمانيِّين، علمًا أنه كان من شأن تحالف هؤلاء السياسيِّين، لو حصل، أن يغيِّر مجرى الحياة السياسية في سوريا ومصر، لما فيه مصلحة الأمير اللبناني نفسه.

بعد حصار الأسطول الروسي بيروت في صيف عام 1772، سارع الأمير يوسف - مدفوعًا بمشاعر الكراهية للأمير منصور[234] - والخوف من ظاهر أكثر من خوفه من الأسطول الروسي، إلى السِّرعَسكَر عثمان باشا ووالي دمشق مصطفى باشا، طالبًا إرسال حامية عثمانية إلى بيروت. استجابت السلطات العثمانية لهذا الطلب على الفور، وأرسلت فصيلًا من المغاربة بقيادة أحمد الجزار، المملوك المصريِّ السابق. بدا الخيار التركيُّ مقبولًا بالنسبة إلى الأمير يوسف: فقد تميز أحمد بك في معركة صيدا، وكان مدينًا بحياته للأمير يوسف،

---

(232) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 32.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 32].

(233) الشدياق، ص 390؛ Базили, с. 77.
[بازيلي، ص 77].

(234) يكتب طنوس الشدياق عن «الحقد»: [الشدياق، ص 393].

الذي رفض النكوث بأصول الضِّيافة وتسليمه لقاء فدية كبيرة لمحمد بك أبي الذهب، الذي كان لديه ثأر على الجزار.

أدرك أحمد الجزار بدوره أهمِّية بيروت باعتبارها مرفأً بحريًّا لإيالة دمشق ومركزًا تجاريًّا لجبل لبنان. فأعاد بناء تحصينات المدينة، وزودها بمدفعية قوية، واختار فصائل مرتزقة خاصة به، ورفض إعادة المدينة إلى الأمير يوسف، فشل حياة الإمارة الاقتصادية. ولم تلق شكاوى الأمير إلى السلطات العثمانية آذانًا صاغية. استشاط الأمير يوسف غضبًا، وبدل نهجه السياسي الخارجي على نحوٍ حادٍّ.

فتصالح مع عمِّه منصور، وأقدم في 9 تموز/يوليو 1773 بوساطة منه - بحسب تفسير قسطنطين بازيلي الدقيق لأخبار المصادر العربية - على «عقد حلفٍ دفاعيٍّ [مع الشيخ ظاهر] ضد الباشا، ومعاهدة خاصة توجها بمقتضاها إلى الأميرال الروسي (إلى قائد العمارة البحرية القبطان كوجوخوف في الواقع - المؤلفة) بطلب تحرير بيروت من الجزار»[235]. وكتب ظاهر في

---

(235) سجل المؤرِّخون اللبنانيُّون هذا الحدث. فقد وصف عبد الله طراد بإسهاب كيف أن الأمير يوسف طلب مشورة الأعيان اللبنانيِّين - الأمراء والمشايخ - الذين أقرُّوا أنه لا مناص من الكتابة إلى الشيخ ظاهر والتصالُح معه وطلب مساعدته لتحرير بيروت من الجزار. جرى اللقاء بين الشيخ والأمير بالقرب من صيدا في مكان ذي رمزية هو ضريح النبي يونس. وقد أكدت مشاركة حاشية ظاهر وأعضاء عائلة الأمير الحاكم ومشايخ جبل الدروز أهمِّية هذا اللقاء. التقى الأمير والشيخ «وتصافحا وتسالما وتعاهدا. وحصل من الشيخ ظاهر إلى الأمير كل احترام. وتفاوضا بأمر حصار الجزار في بيروت». ثم جرى الحديث عن ضرورة التوجُّه بطلب المساعدة من روسيا، ونطق الشيخ كلماته الشهيرة: «أنا كاتب لجزيرة بارس لحضور مراكب المسكوب إلى مصر لأجل نصرة علي بك. وعلي بك ما تمهل بل ركب من عكا لمصر وانكسر وجرح ومات. فإن حضرت المراكب أرسلها لحصار بيروت بالبحر. وأنت اجمع عساكرك وانزل [من الجبل] إلى الجزار حاصره بالبرِّ»: [البيروتي، ص 95]؛ يُنظر أيضًا: Кобищанов, с. 20. [كوبيشانوف، ص 20].

أرفق طنُّوس الشدياق خبر طلب الأميرين الشهابيين يوسف ومنصور بإرسال السُّفن الروسية بواسطة ظاهر، بتوضيح يقول إن «قائد الأسطول، مفوض الإمبراطورة كاترين، قد امتثل لظاهر العمر»، بما أن ظاهرًا كان «صديقها، الذي توحد معها في الحرب مع الدولة العثمانية»: الشدياق، ص 394.

كما نرى، اختلف أسلوب الشيخ ظاهر في تعاطيه مع الرُّوس على نحوٍ حاسم قاطع مع أدبيات خطاباته الموجهة إلى مواطنيه؛ مما ولد لدى السوريِّين انطباعًا خاطئًا عن العلاقات بين قيادة الأسطول وبين علي بك وظاهر.

رسالته إلى كوجوخوف، عند وصول الأخير إلى حيفا «لقد أنجزنا منذ أيام اتِّحادنا مع أصحاب السمو (الأمراء الشهابيِّين - المؤلفة)، وبتنا نشكِّل جسدًا واحدًا. وقد طلبوا المساعدة في الشأن البيروتي، وأعطيناهم الوعد بأن سفن أصدقائنا الحقيقيِّين الرُّوس ستصل في القريب العاجل، وبأننا سنطلب منهم مهاجمة **باروت**، وهم بناءً على هذا الوعد ينتظرون قدومكم»[236]. وبالتالي، ثمن الشيخ ظاهر المعاهدة، لأنها منحته حليفًا في مواجهة اسطنبول، هو الأمير اللبناني ذو النفوذ الذي يقف جبل لبنان من خلفه، واعتبر أنه مدين بذلك إلى حدٍّ بعيد لروسيا، التي عول الأمير يوسف أيضًا على مساعدتها. وأدى هذا الحلف («الوحدة») إلى إحداث تغيير في الوضع السياسي في سوريا، ترافق مع وصول العمارتين البحريتين الروسيتين.

كان ماكسيميليان باومغارتين أول من أطلع إيفان إيفانوفيتش على الوضع الجديد، ونصحه بقبول اقتراح الشيخ ظاهر والمشاركة في حصار بيروت. وحتى قبل وصول سفن كوجوخوف، كان فوينوفيتش قد أرسل في 14-25 أو في 15-26 تموز/ يوليو، بناءً على إلحاح الشيخ ظاهر، السفينة الثلاثية الصواري «زابياكا» مع سُفُنٍ صور وصيدا إلى بيروت، لفرض الحصار عليها من البحر[237]. وتباهى كثيرًا في ما بعد بهذا العمل «المتميِّز»، «لأنه منع نقل المؤن من طرابلس إلى بيروت، بحيث ساعد الجوع في استسلام القلعة إلى حدٍّ بعيد»[238].

---

(236) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 120, Л. 18об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 120، ظهر الورقة 18].

(237) أصر الشيخ ظاهر على إرسال السُّفن الروسية من أجل الحصار، حتى لا يظن سكان بيروت أن «اتفاقاتنا لا معنى لها»، أما الكونت فوينوفيتش فقد كتب في 13 حزيران/ يونيو 1773 إلى أحمد دنغزلي يقول: «سأرسل سفينتي الثلاثية الصواري غدًا مع زورقين، وينبغي أن تنضم سفنكم إليها تحت قيادة سفينتي لحصار تلك المدينة، ومنع قائدها من إدخال المؤن والذخائر إلى القلعة، وإخراج كنوزه من الجهة الأخرى». وحث الشيخ ظاهر فوينوفيتش على البدء بحصار بيروت، خوفًا من أن ينجح الجزار في إخراج خزنته وكنوزه من بيروت: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 321, 322об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 321، ظهر الورقة 322].

(238) من تقرير الرائد أول الكونت إيفان فوينوفيتش إلى الأميرال سبيريدوف، من الفرقاطة =

بوصول عمارة كوجوخوف إلى سوريا، التقى قائدا العمارتين البحريتين كوجوخوف وفوينوفيتش، وكذلك باومغارتين في 19 تموز/يوليو عند حيفا، وتبادلوا التعليمات المُرسَلة من أ. غ. أورلوف و«غ. أ. سبيريدوف». وبناء على أمر الأخير، تولى القبطان كوجوخوف قيادة العمارة الموحدة لكونه الأعلى رتبة، وأُسندت إلى الرائد الكونت إ. فوينوفيتش مهمة تأمين الاتّصال بالحلفاء العرب، لأن كوجوخوف لم يكن يعرف اللغة الإيطالية، ولم يكن هناك - على ما يبدو - مترجمون من اللغة العربية. إضافة إلى ذلك، اتُّخذ قرار يقضي بالتقاء العمارتين البحريتين في صيدا. وتسلم م. غ. كوجوخوف من الشيخ ظاهر في اليوم التالي، نص «معاهدة الصداقة» («الحلف مع روسيا»)، التي أُبرمت مع باومغارتين، وكذلك خبر إقامة تحالف بين الشيخ والأمير يوسف («مع الأمراء الدروز»)، مرفقًا بطلب تقديم المساعدة إلى الأمير.

بالفعل، توحدت السُّفن في 23 حزيران/يونيو - 4 تموز/يوليو من عام 1773؛ والتقى كوجوخوف وفوينوفيتش وباومغارتن بحاكم صيدا أحمد دنغزلي، الذي أوكل الشيخ ظاهر إليه دور الوسيط في العلاقات مع «الأمراء الدروز»، وأصبح بمثابة الضامن («اسمه المبعوث»)[239] لتنفيذ تعهُّدات ظاهر، الذي كان لا يزال في يافا. وبدأوا مجتمعين هناك «كتابة المعاهدة»: بنود الاتفاقية مع الدروز، التي كان الشيخ ظاهر والأمير يوسف قد حدَّدا مضمونها العام بمشاركة باومغارتين، على ما يبدو[240].

بعد يومين (في 25 حزيران/يونيو - 6 تموز/يوليو)، أبحرت العمارة

= «القديس نيقولاي» الراسية في مرفأ آزوف في 31 كانون الثاني/يناير 1774: *Материалы для истории русского флота*, t. XII, c. 227.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، مج 12، ص 227].

(239) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 64.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 64].

(240) أحضر باومغارتين شروط الاتفاقية من ظاهر ويوسف الشهابي: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 63.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 63].

الموحدة يرافقها أحمد دنغزلي باتجاه بيروت، ووصلتها في اليوم نفسه ورست بعيدًا عن مرمى مدفعية قلعتها[241]. وبدأ القائد التفاوض مع «الأمراء الدروز» (مع الأمراء والمشايخ الأكثر نفوذًا في الواقع)، لأنه كان من الضروري الاتفاق على الأسس السياسية للتعاون بين الرُّوس والدروز وتنظيم العمليات الحربية.

خلافًا لحصار بيروت في عام 1772، الذي هدف حصرًا إلى «إلحاق الأذى بالعدو»، اعتمدت أعمال العمارة البحرية في عام 1773 شعار القائد الجديد القائل: «تقديم المساعدة والحماية لكلٍّ من يطلبهما». وتطلب ذلك اتفاقات متبادلة مناسبة وصوغها كتابة[242]. نتيجةً لذلك، استبقت العمليات

(241) تُمثِّل عملية حصار بيروت واحتلالها - التي دامت أربعة أشهر - المحطة الأهم في الاتِّصالات الروسية - العربية. وتأتي المصادر الأساسية لوصفها من شهادات المشاركين فيها بالدرجة الأولى. ملخص تقرير م. غ. كوجوخوف: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 106-111.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 106-111]؛ تقرير إ. فوينوفيتش [(المرجع نفسه، الملف 53، ظهر الورقة 304-310)]؛ تقرير ماكسيميليان باومغارتين [(المرجع نفسه، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 61، الورقة 1-2)]؛ «صحيفة» البارون م. بالين «عن الحملة السورية من عام 1773 إلى بداية عام 1774»، التي وصلت إلينا في مسودة الترجمة من اللغة الألمانية: *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 4-6об.

[**أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري**، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، الورقة 4 - ظهر الورقة 6]؛ وصف الأحداث نقلًا عن المشاركين في الأحداث، وعن وثائق القبطان س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 686-687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، ص 686-687 (الطبعة الروسية)]؛

لا تقلّ أهمية عنها مراسلات إ. فوينوفيتش وم. غ. كوجوخوف مع الشيخ ظاهر العمر؛ رسائل الشيخ ظاهر والأمير يوسف الشهابي إلى أ. غ. أورلوف وغ. أ. سبيريدوف، وكذلك وثائق أخرى محفوظة في **أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، وقد ظلت بأغلبيتها خارج نطاق الدراسة العلمية. وترد بعض التفاصيل المهمة عن هذه الأحداث في المدونات العربية لكلٍّ من: عبد الله طراد، حيدر الشهابي، طنوس الشدياق، وغيرهم. لكن كتاب تلك المدونات قليلو الاطِّلاع عمومًا، فضلًا عن أنهم متحيِّزون سياسيًّا بشكلٍ ملحوظ. وينطوي وصف تلك الأحداث لدى المؤرِّخين المحليِّين على كثيرٍ من عدم الدقّة، بل الأخطاء. كلُّ هذا جعل من الضروريِّ تقديم عرضٍ كاملٍ لظروف تلك العملية وأحداثها، استنادًا إلى الوثائق الأرشيفية.

(242) كتب إ. فوينوفيتش عند وصوله إلى صور إلى أحمد دنغزلي: «بما أن الأمر يحتاج مسبقًا إلى تحضير جيِّد، ومن ثَم الشروع بالعملية، لذا ينبغي لسمو الأمير الدرزي إرسال مفوض من قبله على وجه السرعة، يمكنني الاتفاق معه بالتفصيل على احتياجات هذه الحملة وموعدها...»: =

الحربية ورافقتها مراسلاتٌ نشطة، طالت جوانب الأعمال المشتركة السياسية والتجارية، بل حتّى الدينية، وكذلك عقد معاهدات وتوقيع استسلام وما شابه.

جرت المراسلات مع الجانب اللبناني على ما يبدو خلال الفترة الواقعة بين 25 حزيران/ يونيو و16 تموز/ يوليو. فوفقًا لمذكِّرات المتطوِّع الألماني البارون بالين - الذي شارك في الحصار - مر يوم السادس عشر من تموز/ يوليو «في مفاوضات وتوافقات مع الدروز»(243)، وفي مساء السابع عشر منه، وقع الدروز على «بنود الاتفاقية الممهورة بالأختام»(244). وكما كتب خميتيفسكي: «عقدت معاهدة مع الأمير الدرزي، الأمر الذي استدعى مشاركة إيفان فوينوفيتش فيها»(245).

كتب المشاركون في مقدِّمة الاتفاقية: «إن العمارة البحرية الروسية الإمبراطورية بقيادة سعادة النبيل السيد ميخائيل كوزوخوف (كوجوخوف)، قبطان السفينة التابعة لصاحبة الجلالة الإمبراطورية إمبراطورة عموم الروسيا،

---

= *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 321.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 321].

(243) *РГВИА*, Ф 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 4.
[أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، الورقة 4].

(244) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп.1, Д. 91, Л. 107об.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 107].

ثمة صعوبات كبيرة في تأريخ الأحداث: غالبًا ما نجد صعوبة في تحديد التقويم المعتمد في التواريخ؛ عدا عن تضمُّن المصادر نفسها تباينات كبيرة في تحديد تلك التواريخ. فجُلّ الأخبار يدلّ خصوصًا على أن توقيع المعاهدة جرى في 17 تموز/ يوليو 1773، غير أن نصها المنشور في ترجمة عن الإيطالية، مؤرخ بـ «14 تموز/ يوليو 1774» (؟). وبما أن الخطأ هو في السنة، يمكن الافتراض أنه حصل عند الترجمة المزدوجة (عن العربية إلى الإيطالية، ومن ثَم إلى الروسية) وانسحب أيضًا على تحديد اليوم. أما المصادر العربية فلا تتضمن تواريخ عادة.

(245) صحيفة س. ب. خميتيفسكي. يُنظر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, с. 686.
[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، ص 686 (الطبعة الروسية)].

الموجودة في هذه البحار السورية، دُعِيتُ من قِبَل صاحب السعادة السيد ضاير عمر (ظاهر العمر)، قائد مدينة أكريا (عكا) الأعلى التابعة له، لمساعدة أمراء أمة من يُسمون الدروز وزعمائها، الذين يعتزمون محاصرة مدينة باروت، بغطاءٍ من قوات صاحبة الجلالة الإمبراطورية المجيدة ومساندتها، ولهذا الغرض وصل السيد الروسي الآنف الذكر مع عمارته إلى مياه باروت، حيث اجتمع بأمراء الدروز المذكورين أعلاه وزعمائهم، واقترح عليهم البنود التالية، التي وافقوا عليها واتفقوا بوساطة أحمد آغا دنغزلي، حاكم صيدا، المرسل من قبل سعادة شيخ أكريا من أجل هذه المهمة»[246].

تبسِّط المقدِّمة (بداعي الاختصار، أو لأسباب أخرى لا نعرفها) عملية إعداد نصِّ الاتفاقية. فيُفهَم منها أن كوجوخوف اقترح (أو ربما أملى؟) «البنود»، ووافق الدروز عليها. وتُخفي هذه الصيغة الاتفاقات الأولية بين كلٍّ من الشيخ ظاهر والأمير يوسف (تشير السجلات الأرشيفية إلى أن باومغارتين نقل هذه «الشروط» إلى كوجوخوف، التي كان حصل عليها من الشيخ ظاهر والأمير يوسف قبل وصول كوجوخوف)[247]. وتُغفِلُ المقدِّمة أيضًا العمل الذي قام به كلٌّ من كوجوخوف وفوينوفيتش ودنغزلي على الاتفاقية، وكذلك المراسلات والنِّقاشات مع الدروز.

فضلًا عن ذلك، يدور الكلام في المقدِّمة على طرفين متعاهدين، هما القبطان كوجوخوف العامل في خدمة الإمبراطورة الروسية، والأمراء والمشايخ

---

(246) اقتباس من: *Материалы для истории русского флота*, t. XII, c. 233.
[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، مج 12، ص 233].

(247) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 63.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 63].
كتب أحمد دنغزلي إلى إيفان فوينوفيتش في هذا الصدد: «وافق الحلفاء (الدروز) مع صاحب السعادة سيدي الشيخ ضاير (ظاهر)... على طاعة أوامر سعادة الشيخ المذكور، ووضع أنفسهم تحت سلطته بالكامل...». ويجري الحديث عن الاتفاقات التي توصل إليها الأطراف قبل وصول العمارة البحرية: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 321об.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، ظهر الورقة 321].

الدروز («الأمراء والزعماء»)، وكلا الطرفين يمثِّل مصالح كلٍّ من الإمبراطورة الروسية و«الأمة المسماة الدروز»[248]. غير أن المعاهدة تضمنت أيضًا بنودًا تعكس مصالح الشيخ ظاهر، مما يؤكِّد وجود توافق مسبق بين الشيخ والأمير يوسف.

بكلامٍ آخر، كانت المعاهدة ثمرة مفاوضات ونقاشات عسكرية – سياسية جدِّية متعدِّدة الجوانب؛ واستُهِلت بتناول المسائل السياسية. فالأمراء والمشايخ الدروز يتعهدون في البند الأول «ويلتزمون... بالاعتراف من الآن فصاعدًا بصاحبة الجلالة الإمبراطورية حاميةً لهم، وباستقبال السُّفن الروسية في موانئهم وتقديم كلِّ مساعدة تحتاج إليها» [البند الأول]. ويتطابق هذا البند بالكامل مع الاقتراح الذي قدمه «أتراك» مجهولون بواسطة «يونانيِّين» إلى غيورغي ريزو عند إبحار عمارته من بيروت في عام 1772. فقد تناول الحديث في اقتراح «الأتراك» عامَذاك عن الرغبة في الانضواء تحت التابعية الروسية، أما في المعاهدة التي نحن في صددها، فالحديث يتناول الحماية. وبما أن كلتا الوثيقتين وصلت إلينا مترجمتين عن الإيطالية، وترجمت بدورها عن العربية، يمكن إذًا الافتراض أن مصطلح «الحماية» استُخدِمَ في النصِّ العربي أيضًا. ويؤكِّد هذه المقاربة أيضًا النصُّ المُقتَطَف من تقرير م. غ. كوجوخوف، الذي جاء فيه أن «هذه المدينة حصلت على حماية صاحبة الجلالة الإمبراطورية، ملكتنا الرحيمة»[249].

(248) وقع الوثيقة («الممهورة بأختام حِبرِية») عدة أشخاص، لكن المترجم لم يتمكن من قراءة أسمائهم. وعلى حدِّ قول الأمير يوسف نفسه، إنهم «أولئك الزعماء الذين يلتزمون، بحسب العادات القديمة، مساحات واسعة من الأراضي من الأمير الحاكم، وهذا ما يجعلهم أقوياء جدًّا» (من رسالة الأمير يوسف إلى أ. غ. أورلوف بتاريخ الأول من كانون الثاني/ يناير 1774. الملحق [ص 919 من هذا الكتاب]). إن مشاركة المقاطعجية اللبنانيِّين الأكثر نفوذًا (مُلاك الأرض الإقطاعيِّين) في هذا الحلف السياسي – العسكري، تعكس طابع نظام الإمارة السياسي اللبنانية الوراثي. فالأمير الحاكم، الذي كانت هذه النخبة، وفقًا للتقاليد، تشارك في انتخابه، ما كان ليخاطر متفردًا في اتِّخاذ قرارٍ يتعلق بمسألة سياسية معقدة، كالتعاون مع دولة مسيحية مثلًا، تنخرط في حربٍ مع السلطان، ولا سيما أن أغلبية الدروز «يحبِّذون الأتراك أكثر»، على حدِّ قول الأمير نفسه (المرجع نفسه).

(249) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 109об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 109].

وفقًا للمعاهدة، كانت مفاهيم «الدفاع»، «الحماية»، «التابعية»، تعني منح الأسطول الروسي حُرِّية دخول الموانئ ونيلها المساعدة على تموين السُّفن وترميمها، فضلًا عن احتياجات أخرى، وكذلك دفع إتاوات منتظمة في الأعوام التالية [في «السنين القابلة»] بالحجم الذي «يُتَوَافَقُ عليه مع شيخ أكريا (عكا)» (البند الحادي عشر). وقد كتب الشيخ في «معاهدة الصداقة» عن المبالغ التي اعتزم دفعها.

وعد «الأمراء والزعماء» الدروز بـ «الحفاظ على الصداقة الراسخة» مع الشيخ ظاهر، «التابع من الآن فصاعدًا لصاحبة الجلالة الإمبراطورية الطيِّبة الذكر، ومع كلِّ أصدقائه وأتباعه» (وهذا يعني الحفاظ أيضًا على الصداقة مع المتاولة، الذين هم في حالة عداء مع الدروز) [البند الثاني]. وطالما كانت الحرب مستمرة بين روسيا و«الباب العالي العثماني»، يجب على الدروز، وكذلك على «شيخ أكريا»، البقاء «في حالة حرب» مع الباب العالي، وعدم إبرام معاهدة سلام معه [الباب الثالث]. وإذا كان أحد «الزعماء» الدروز «مُعادِيًا لروسيا أو لسموِّ شيخ أكريا»، فعلى الجميع الوقوف ضده، واعتباره عدوًّا لهم» [البند الرابع]. وعلى هذا النحو، كانت مصالح الشيخ ظاهر مُصانةً على قدر المساواة تقريبًا مع المصالح الروسية.

تناغَمَ بندٌ خاصٌّ مع مبادئ إقامة علاقات ودِّية بين روسيا والدول المسلمة، المتمثِّلة في إعادة الكنائس التي حُوِّلت إلى كنائس إلى المسيحيِّين، وتحرير أسراهُم من العبودية [البند الثامن].

ثم تلت ذلك بنودٌ في المعاهدة ذات طابع عسكري؛ فكان على الدروز تقديم قوة من خمسة آلاف إلى ستة آلاف رجل لمحاصرة بيروت من البرِّ، واقتحامها «في اليوم المحدد» [البند الخامس]، أي عندما تفتح المدفعية الروسية «الثغرات اللازمة الواسعة» في سور المدينة، ومن ثَم نقل المعارك إلى شوارعها [البند العاشر]. وتلافيًا لوقوع صدامات بين الحلفاء في أثناء المعارك في المدينة، نظرًا إلى الشبه بين الدروز وجنود الجزار والميليشيا المحلِّية، تقرر عدم مشاركة القوات الروسية في عملية الاقتحام، واكتفاؤها بالدفاع عن بطارياتها وقصف المدينة ومحاصرتها من البحر. وتعويضًا عن المشاركة في

عمليات النهب المعتادة بعد الاستيلاء على المدينة، تحصل هذه القوات على غرامة حربية بمقدار ثلاثمئة قرش نقدًا، وعلى شكل حرير وصوف وأوانٍ فضية وأشياء ثمينة أخرى. أما إذا استولت القوات الروسية على شيءٍ ما من المدينة أو من القلاع، فيحسم ثمنه من قيمة الغرامة المتفق عليها [البند العاشر](250).

وينبغي أن تكون كلُّ الأسلحة الخفيفة والطبول والرايات الموجودة في المدينة، فضلًا عن «السفينتين الشراعيتين»، من حصة الرُّوس. و«أما المدينة، مع قلاعها والمدافع والبارود وغير ذلك، فتبقى في أيدي الدروز» [البند التاسع].

أخيرًا، لم يُسمح للدروز بإجراء مفاوضات مع المُحاصَرين بشأن الاستسلام «من دون علم القائد الروسيِّ»، لكن تَعينَ على القائد عدم عرقلة هذه المفاوضات، إلا إذا أَلحَقَتِ الضرر بالأسطول الروسي (إذا «أساءت» إليه) [البند السادس]. ونصت الاتفاقية على أن يبقى أحمد الجزار في أيدي من يأسره، إذا ما وقع في الأسر. أما إذا استسلمت المدينة، فمن حقِّه أن يختار الجهة التي يستسلم لها [البند التاسع]. وتناول البند الأخير من الاتفاقية [الثالث عشر] مسألة احتجاز رهائن (أمانات) من الدروز، ضمانًا لتنفيذ شروط الاتفاقية («كي يلتزموا تنفيذ عهودهم»)(251). ونقل هؤلاء الرهائن إلى السُّفن.

---

(250) *Материалы для истории русского флота*, t. XII, c. 23.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، مج 12، ص 23].

«وبما أن التشابه بين قوات الدروز وبين قوات القلاع التركية وقوات مدينة باروت يمكن أن يؤدِّي إلى عدم تعرُّف القوات الروسية عليها، فتطلق النار ببساطة على القوات الصديقة، أو تسمح عن غير قصد لقوات العدوِّ بمهاجمتها أثناء الاقتحام، فقد تقرر تجنُّبًا لذلك تكليف القوات الروسية بالدفاع عن بطارياتها القادرة على فتح ثغرات ضرورية وواسعة، يتمكن الدروز من الدخول عبرها إلى المدينة والانقضاض على العدوِّ، من دون دخول الرُّوس معهم. وللتعويض عن عدم مشاركة القوات الروسية في عمليات النهب المعتادة، لتعذُّر دخولها إلى المدينة، يتعهد الزعماء الدروز الوارد ذكرهم أعلاه، بدفع مبلغ للسيِّد القائد الروسي قدره 300,000 ليفك (قرش) وكل ليفك من 40 زوجًا من القطع النقدية السلطانية المتداولة، نقدًا وعلى شكل حرير وصوف وأوان فضية وممتلكات أخرى منقولة بقيمتها الحقيقية. وإذا أثبت الدروز بعد عدة أيام أن القوات الروسية استولت على شيء من المدينة والقلاع، فتُستَبدَل قيمته أو تُحسَم من المبلغ المذكور».

(251) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 323.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 323]. يُنظر نص الاتفاق: = *Материалы для истории русского флота*, t. XII, c. 233-236.

نفذ الجانب الروسي شروط المعاهدة. وكتب الأمير يوسف في رسالة، مؤرخة في الأول من كانون الثاني/يناير 1774 (بحسب التقويم القديم) إلى أ. غ. أورلوف: «... لا يسعني إلا أن أشكر الرب وحاكم أكريا (عكا) على تقديمهم هؤلاء الناس إلي، ولا يمكنني إلا أن أثني على ثباتهم وصلابتهم ومهارتهم وشجاعتهم. وباختصار، أبهروني بأعمالهم وطيبة قلوبهم وإخلاصهم»[252]. بيد أن هذا التقريظ استوجب أربعة أشهر من الجهد الحربي والمعارك الضارية مع العدو، الذي استُخِف بقواه، وخيبة الأمل بالحلفاء، والعمل على إقامة علاقات سلام مع الأعيان والسكان اللبنانيين.

بدأت الأعمال القتالية في 23 تموز/يوليو - 3 آب/أغسطس 1773. وكان سكان بيروت قد عاشوا قرابة شهرٍ كاملٍ حصارًا بحريًّا، وهم يترقبون قصف العمارة البحرية بقلقٍ قاتل. كانت هذه العمارة تضمُّ إحدى عشرة سفينة حربية كبيرة (فرقاطات، سفن ثلاثية الصواري، سفن شراعية ذات مجاذيف)، مزودة بـ 232 مدفعًا، فضلًا عن السُّفن الشراعية الصغيرة التي قدمها الشيخ ظاهر والأمير يوسف[253]. وعلى الرغم من إشارة س. ب. خميتيفسكي إلى أن «المدينة لم تزعجهم (أي لم تتسبب بالإزعاج للعمارة البحرية - المؤلفة) حينذاك إطلاقًا»[254]، فإن بالين يقول إنه كان يحدث تبادلٌ للنيران من حين

---

= [مواد لتاريخ الأسطول الروسي، مج 12، ص 233-236].

لم نذكر البند الثاني عشر الذي يتحدث عن إعادة السفينة الإنكليزية التي استولى عليها الجزار، الأمر الذي دل على العلاقات الودِّية مع بريطانيا العظمى.

(252) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 71об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، ظهر الورقة 71].

(253) يُنظر: Базили, с. 557-558.

[بازيلي، ص 557-558].

(254) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

إلى آخر[255]. وتمكن الجزار في غضون هذا الشهر من الاستعداد للهجمات المضادة، ونشر قسمًا من قواته - نحو ألفي مقاتل - في البساتين، خارج حدود أسوار المدينة، لمواجهة قوات الإنزال الروسية.

كانت خطة الأعمال القتالية التي شارك قادة السُّفن وم. باومغارتين في إعدادها تقضي بأن تبدأ السُّفن الشراعية والفرقاطة «ناديجدا» القصف، بعد اقترابها من الشاطئ، لتشتيت انتباه المدافعين عن عملية الإنزال. وكان على قوة الإنزال المؤلفة من 787 رجلًا من «السلافيين» و«الألبان»، بقيادة باومغارتين، النزول في شمال غرب المدينة (يُقصد بـ «السلافيين» و«الألبان»، كما سلف ذكره، صرب دلماسيا والجبل الأسود).

«بدأت عملية نقل قوة الإنزال إلى الشاطئ» عند طلوع فجر 23 تموز/ يوليو - 2 آب/ أغسطس، <...> بعد تلقِّي إشارة من القوات الحليفة تنبئ بالاقتراب من المدينة»[256]. إلا أن تعاون القوات الروسية والدرزية انتهى على ما يبدو عند هذه الإشارة التي أنبأت ببدء العمليات، لتُباشِر القوات الروسية عملها منفردةً بعد ذلك.

كما ورد في ملخص تقرير كوجوخوف، «أدى نزول القوات على الشاطئ والقصف المدفعي من السُّفن إلى انسحاب الأتراك المتمركزين في البساتين إلى داخل المدينة (يطلق كوجوخوف على العرب المسلمين، تقليديًّا، اسم «الأتراك»). بعدئذٍ، تموضعت تلك القوات في مواقع أفضل وأنسب»[257].

---

(255) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 4об.

[أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، ظهر الورقة 4].

(256) تقرير كوجوخوف إلى الأميرال غ. أ. سبيريدوف. يُنظر: Г. А. Гребенщикова, *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования* (СПб., 2007), c. 425.

[غ. أ. غريبينشيكوفا، **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث** (سان بطرسبورغ، 2007)، ص 425].

(257) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 107об.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 107].

حملت قوة الإنزال معها أربعة مدافع من عيار ستة أرطال، ونصبت بطاريتين بقيادة البارون م. بالين والملازم البحري الكونت إيفان فوينوفيتش (شقيق قائد الفرقاطة «سلافا» ماركو فوينوفيتش، قريب قائد العمارة الأصغر وسَمِيُّه، تلك العمارة التي أرسلها أ. أورلوف). ونُزع في اليوم التالي مدفعان من عيار اثني عشر رطلًا مع ذخائرهما من السُّفن، ونُقلا إلى الشاطئ، «يرافقهما الملازم البحري أنينيكوف ومدفعيٌّ وبحاران»[258]. وعلى هذا النحو، نُصبت ثلاث بطاريات تضمُّ ستة مدافع، مع طواقمها المؤلفة من ثلاثة مدفعيِّين وستة جنود أنفار. وكانت هذه البطاريات تحت حماية قوة الإنزال، التي تحصنت في منازل مهجورة، وشُيِّدت حولها التحصينات، حيث كانت الأعمال فيها تجري ليلًا، بعيدًا من أعين العدو (الجدير ذكره أن البارون بالين كتب في صحيفته: «كان يُفترَضُ نصب بطارية، إلا أن العدو طردنا، لأنه كان قادرًا على الرؤية تحت ضوء القمر»)[259]. وتلخصت مهمة البطاريات في فتح ثغرة في سور المدينة، تتسلل منها إلى داخلها القوات الحليفة المهاجمة.

حينذاك، في 23 تموز/ يوليو، اقتربت السُّفن من المدينة ورَسَت في صفٍّ قتاليٍّ («اصطفت بشكلٍ نصف دائري»، على حدِّ قول بالين)، وبعدما ثُبِّتت بالحبال[260]، بدأت تقصف المدينة وتحصيناتها، ليلًا نهارًا من دون توقُّف. واستمر الأمر على هذا المنوال تقريبًا حتى الخامس من آب/ أغسطس. وتبين أن العدو لا يُستهانُ به. فكتب س. ب. خميتيفسكي في صحيفته، نقلًا عن مشاركين في العملية: «على الرغم من أن تسعة مدافع كانت على سور المدينة من جهة البحر، كان واحدٌ منها فقط من عيار خمسة وثلاثين رطلًا، أما الأخرى فقد تراوحت عياراتها بين ثلاثة وأربعة أرطال، لكنها كانت تطلق القذائف بدقة ومهارة، مما أرغم السُّفن «القديس بولس» و«سلافا» و«ناكسيا» و«نيقولاي»،

---

(258) المرجع نفسه.

(259) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 5.

[أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، الورقة 5].

(260) سلسلة (أو حبل) تُثبت من أحد طرفيها بمؤخرة السفينة، ويتصل طرفها الآخر بالمرساة الكبيرة لإبقاء السُّفن في الوضعية المطلوبة.

على الابتعاد من مرمى النيران. كما أن الفرقاطة «ناديجدا»، التي شاركت في المعركة، اضطرت للتراجع بعد ثلاثة أيام، بعد أن تلقت عددًا أكبر من القذائف، ولا سيما عند خطِّ الماء[261]، فتضعضعت بالكامل جراء إصابتها بالقذائف المعادية، أو نتيجة القصف الكثيف الذي انطلق منها. لقد أُطلِقَ منها كلُّ البارود والقذائف، ما أدى إلى حدوث تسرُّب مائي كبير إليها[262]. وهزت أصوات القصف المدفعي صيدا، بل وصلت أصداؤه إلى دمشق نفسها[263].

«كان تأثير القصف المدفعي نفسيًّا بالدرجة الأولى»[264]، كما لاحظ كوبيشانوف بحق. ففكرة نهاية العالم حاضرة دائمًا في وعي أناس المجتمع التقليدي. ولذا، خلق دوي المدافع المصمِّ للآذان وصراخ المتحاربين وانفجارات القنابل، شعورًا بحلول يوم القيامة[265]. بيد أن المدينة كانت مبنية من الحجر الصلد (يقول حيدر الشهابي إنها مبنية من الحجر الرملي، لكن المقصود هو الحجر الجيري على الأرجح)، فعجزت القنابل عن تدمير المباني، وأدت إلى تثليمها على نحوٍ جزئيٍّ، ولحق الضرر بسور المدينة فحسب[266]،

---

(261) خط الماء (Waterline): هو الخط الذي يلامس فيه سطح ماء البحر (عندما يكون هادئًا) هيكل السفينة المبحرة؛ وهو واحد من عدة خطوطٍ على هيكل السفينة يُظهر العمق الذي تبلغه عندما تكون محملة جزئيًا أو كليًّا. (المترجم)

(262) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

(263) Charles-Roux, p. 211; Кобищанов, с. 6.

[كوبيشانوف، ص 6]. يُنظر أيضًا: [حيدر الشهابي، **تاريخ أحمد باشا الجزار** (بيروت، 1955)، ص 53].

(264) Кобищанов, с. 6.

[كوبيشانوف، ص 6].

(265) الشهابي، ص 53.

(266) لم يكن من الصعب القيام بذلك، على حدِّ قول خميتيفسكي، «فسور المدينة كان رقيقًا، أشبه بسياج، فعمل الجزار على بنائه ليلًا نهارًا، على عجل (لم يكن للمدينة أسوار حتى عام 1772:
Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

=

فيما لجأ أفراد الحامية والسكان إلى الأزقة الضيِّقة، المتعرِّجة، المغطاة بقباب حجرية[267]. لذا، كانت الخسائر بين السكان لا تُذكر. وأصيبت تحصينات المدينة بأضرارٍ بالغة، وتكبدت الحامية خسائر فادحة في أثناء الغارات التي شنتها خارج الأسوار (كان الجزار يزجُّ بمرتزقته المغاربة في هذه الغارات من دون رحمة).

في نهاية المطاف، نجح الرُّوس بفتح ثغرة في السور، بحلول الثاني والعشرين من تموز/يوليو، بواسطة البطاريات الثلاث، تكفي لدخول 60 رجلًا دفعة واحدة؛ وأُطلِعَ الدروز على ذلك، فطالبوا بإجراء مفاوضاتٍ أعلنوا فيها ضرورة فتح ثغرة أخرى في السور، الأمر الذي تطلب تغيير موقع إحدى البطاريات.



أمير ماروني في زي عسكري
(قد يكون الابن الأصغر للأمير يوسف الشهابي)
عام 1770

ترافق قصف الأسوار بغارات شنها العدو من داخل المدينة، بيد أن قوة الإنزال كانت تصدُّها في كلِّ مرة بنجاح. («وكان العدو يتقهقر في كلِّ مرة إلى داخل المدينة، متكبِّدًا خسائر فادحة، وذلك بفضل شجاعة قواتنا، على الرغم من تفوُّقه العددي»)[268]. أما البيارتة فكانوا ينجحون في سدِّ

---

= «ما إن احتل الجزار بيروت حتى أخذ يحصِّنها بسور ويجدِّد الحصون (القلاع، على ما يبدو - المؤلفة) التي ألحق الرُّوس بها الضرر. وفرض لهذا الغرض غرامة (حربية) على السكان، هادمًا قصور الأمراء لاستخدامها في التحصينات»: Базили, с. 81.

[بازيلي، ص 81 (ص 61 من الطبعة العربية)].

(267) المرجع نفسه، ص 82 [(ص 62 من الطبعة العربية)].

(268) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 107об-108.

**[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة** 107 - الورقة 108].

الثغرات بالصناديق والسلال المملوءة رملًا، ما اضطر البطاريات إلى مواصلة قصفها ليلَ نهارَ منعًا لإعادة ترميم الأسوار. وقُتل إيفان فوينوفيتش الأصغر وأصيب الملازم المهندس البارون ماكسيميليان فون بالين في رجله خلال تبادل إطلاق النار.

بحلول الحادي والثلاثين من تموز/يوليو، أُحدِثَت ثغرة كبيرة أخرى في السور، لكن الدروز رفضوا اقتحام المدينة في هذا اليوم أيضًا. فاقترح كوجوخوف، خلافًا لشروط المعاهدة، «أن تسير قواتنا في المقدِّمة، بشرط ألا يتخلف الدروز عنها»، فما كان منهم إلا أن رفضوا هذا الاقتراح أيضًا[269]. أخذ المقاتلون الدروز، «الذين ظلُّوا على مسافة ثلاثة فرستات عن رجالنا»، موقف المراقب منذ بداية المعارك: «ظلُّوا في مواقعهم خلال اليومين الأولين، ثم أخذوا يتناقصون يومًا بعد يوم، مُنسلِّين نحو قراهم»[270]. وكانت فرق المقاتلين الدروز تتألف من الفلاحين، الذين «لا يفقهون شيئًا تقريبًا في فنون الحرب، لكنهم شجعان جدًّا إذا لم يضمروا الخيانة»، على حدِّ قول الأمير يوسف[271]. ولم يكن هؤلاء قادرين على تحمُّل الأعمال القتالية طويلة الأمد، لأسبابٍ ليس أقلُّها أنهم كانوا مجبرين على تأمين أعتدتهم وغذائهم على حسابهم الخاص.

بيد أنه كانت لدى الدروز أسبابهم الخاصة لرفض المشاركة في الأعمال القتالية هذه المرة. فكما كتب الأمير يوسف نفسه كان مشايخ الدروز الذين يقودون مجموعات المقاتلين «يتمنون الخير للأتراك أكثر منه

---

(269) Базили, с. 558.
[بازيلي، ص 558].

(270) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.
[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

(271) رسالة الأمير يوسف الشهابي إلى أ. غ. أورلوف، المؤرخة في الأول من كانون الثاني/يناير 1774:
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 72.
[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 72].

للمسيحيِّين»[272]. ولم تكن الحرب ضد البيارتة بالتحالف مع الكُفار الغرباء، تثير لديهم الحماسة. وكان بين مشايخ «اليزبكيِّين» مَن وقف إلى جانب أحمد الجزار، وهم الشيخ عبد السلام العماد والشيخ حسين تلحوق والمحيطون بهما. وعلى حدِّ قول صاحب **مختصر تاريخ الأساقفة** المجهول الهوية[273]، «... المشايخ خانوا بانتقالهم إلى جانب الجزار»[274]. غير أن مطالبة الرُّوس بدفع فديةٍ لهم لقاء الاستيلاء على بيروت، كانت هي الحجة الرئيسة التي تذرع بها المشايخ الدروز لرفض اقتحام المدينة («تعهد رجالنا بالاستيلاء على المدينة لقاء الثمن المذكور أعلاه»)[275]. فقد نظر المشايخ الدروز إلى الرُّوس بوصفهم مرتزقة مُلزَمين بالقتال، وذلك خلافًا لشروط المعاهدة التي فرضت عليهم[276] محاصرة المدينة (كانت هذه، على ما يبدو، إحدى نقاط الخلاف الرئيسة بينهم وبين الرُّوس، وهو ما ذُلِّل بصعوبة). وبالمناسبة، كان

---

(272) المرجع نفسه.

(273) يطلق عليه أ. ي. كريمسكي اسم «تاريخ أساقفة بيروت».

(274) البيروتي، ص 69. ترجمة كريمسكي، وهي الأفضل (يُنظر: من الحوليات الكنسية البيروتية خلال الفترة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ص 67)، إذ يرد في النص فعل «خان»، بمعنى «خان»، «غدر»، «خدع». وكتب طنُّوس الشدياق عن خيانة المشايخ، الذين «مالوا» إلى جانب الجزار (الشدياق، ص 395). فلم يتحدث هذا المؤرِّخ ولا ذاك عن الرشوة، كما فعل كوبيشانوف في تفسيره لنص عبد الله طراد (كوبيشانوف، ص 7-8). ترجم كريمسكي جزئيًّا ذاك القسم من المخطوطة الذي كتبه مؤلِّف أرثوذكسي مجهول الهوية في القرن الثامن عشر وعرضه بتصرُّف. «وقد أعاد البيروتيُّ العلمانيُّ، المهتمُّ بالشؤون الكنسية عبد الله طراد، صياغتها وأكملها حتى عام 1824» (أ. ي. كريمسكي، **تاريخ الأدب العربي الحديث** (موسكو، 1971)، ص 336). وجلب كريمسكي نسخة من المخطوطة من لبنان في نهاية القرن التاسع عشر، واستخدمها في الدراسات الأدبية قبل مئة عام تقريبًا من صدورها حديثًا في بيروت. [صدرت بعنوان: **مختصر تاريخ الأساقفة الذين رُقُّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت: بيروت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، تحقيق وتقديم نائلة قائدبيه (بيروت: دار النهار، 2002)]. (المترجم)

(275) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, c. 688.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 688 (الطبعة الروسية)].

ويذكر ف. بيرسين الحجة ذاتها: Persen, p. 283.

(276) على الدروز. (المترجم)

خميتيفسكي المستاء جدًّا من عدم تعويض نفقات الحملة ميالًا أيضًا إلى اعتبار هذه العملية عملًا مأجورًا («لم يبق شيء في الخزنة من هذه الفدية، أو بالأحرى العملية المأجورة»)[277].

في الأول من آب/ أغسطس، أبلغ الأمير يوسف القيادة الروسية أن «قواته خرجت عن طاعته، وتفرق قسم كبير منها»[278]، «وبات الأمل بمن تبقى من قواته ضعيفًا جدًّا»[279]؛ علمًا أنه كان ثمة أمل حينذاك بأن العدو قد يعمد إلى تسليم المدينة حقنًا للدماء حين يرى الاستعدادات لاقتحامها، لأن «القلاع وبطاريات المدفعية تعرضت لأضرار كبيرة، ودُمِّرت أجزاء أخرى[280] كليًّا، و[بَدَت] الثغرات فيه واسعة إلى حدٍّ كبير». وبما أنه كان من شأن انسحاب القوات الدرزية أن «يشجِّع» العدو، فقد قرر المجلس الحربي أن يتقدم الأمير يوسف مع فصيل من 600 رجل نحو البطارية المنصوبة عند الشاطئ بحماية قوة الإنزال الروسية، ويتمركز على مقربةٍ منها، وأن يرابط فصيل آخر من 1000 مقاتل بقيادة أمير شهابي آخر، عند المعسكر الروسي الأعلى[281]. ومع ذلك، كانت الآمال المعقودة على الدروز ضعيفة. فوفقًا لما جاء في صحيفة م. بالين «تلقينا» في ليل الأول من آب/ أغسطس «أمرًا يقضي بسحب البطارية إلى الخلف، وأُنذرت المدينة مرةً أخرى في اليوم التالي بالاستسلام، لكن قائد حاميتها ظل صامدًا ورفض الإنذار»[282].

---

(277) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

(278) Базили, с. 558.

[بازيلي، ص 558].

(279) تقرير م.غ. كوجوخوف إلى غ. أ. سبيريدوف: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 108.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 108].

(280) من السور. (المترجم)

(281) المرجع نفسه، ظهر الورقة 108- الورقة 109.

(282) = *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 5об.

في الثاني من آب/أغسطس، أُرسل الملازم ماركو فوينوفيتش[283] على وجه السرعة إلى الشيخ ظاهر في عكا طلبًا لقوات دعم. وفي الرابع من الشهر نفسه، أعلن الأمير يوسف واصفًا نفسه بأنه سيكون «عديم الشرف إن لم يعد في وسعه» تقديم المساعدة، لأن هذه الفصائل ستتشتت أيضًا. واقترح «تحسُّبًا» نقل قوات الإنزال إلى السُّفن، ريثما تصل قوات ظاهر، وإبقاء المدينة محاصرة برًّا وبحرًا، واعدًا بقطع الاتِّصال بين الجبل وبيروت[284] (الأمر الذي عنى أن المدينة لم تكن محاصرةً من البرِّ بالكامل حينذاك).

أخيرًا، أرسل الجزار في 5 آب/أغسطس أحد الدراويش إلى كوجوخوف مع خبرٍ يقول إنه يرغب بالدخول في مفاوضات[285]. واستنادًا إلى ما قاله القبطان خميتيفسكي، فقد اشترط الجزار إعادة قوات الإنزال إلى السُّفن لبدء المفاوضات. وقد توافق هذا الطلب مع نوايا القيادة تمامًا: فعلى حدِّ قول خميتيفسكي «كنا بحاجةٍ إلى ذلك»، و«لجأ الرُّوس إلى الحيلة في بعض الاتِّفاقات مع تشيزاربيه»[286]، أي إنهم وافقوا على طلب الجزار، «فنقلوا المدافع وقوات الإنزال إلى السُّفن بشكلٍ منظم»[287]، وابتعدت العمارة البحرية من القلعة.

وفقًا لتقرير كوجوخوف، استقبل هو وفوينوفيتش في السادس من آب/

---

= [أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، ظهر الورقة 5].

(283) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 109.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 109].

(284) المرجع نفسه.

(285) المرجع نفسه.

(286) الجزار. (المترجم)

(287) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

أغسطس رسولًا حمل الاقتراح الآتي من الجزار: بدلًا من تسليم بيروت إلى الأمير يوسف الشهابي، تدخل المدينة في تبعية كاترينا الثانية، وتصبح تحت حماية الشيخ ظاهر العمر، مع بقائها في أيدي الجزار، حيث سيقاتلان الباب العالي جنبًا إلى جنب[288]. (لم يكن الجزار، على حدِّ قول خميتيفسكي، «يرغب في إعطائنا أي شيء، سوى أن يكون واحدًا من الحلفاء، على غرار البكوات الآخرين»)[289]. رُفِضَ العرض لأنه كان يتناقض مع «الشروط» المتفق عليها مع الدروز، والأهم من ذلك لأنه لم يتضمن دفع مبلغ الثلاثمئة ألف قرش الذي كان قد تعهد الأمير يوسف بدفعه لقاء تسليمه المدينة. وتوقفت المفاوضات.

في 18 آب/ أغسطس، أُنزِلَت القوات في جهة شمال شرق بيروت، حيث قام سكان المدينة بهدم البيوت وأزالوا تحصينات الرُّوس في الجهة الشمالية الغربية، حيث أُنزِلَت القوات أول مرة[290]. وكان الموقع الجديد لإنزال القوات ملائمًا، لأنه وضع اتِّصال المدينة بالجبل تحت سيطرة الرُّوس.

في هذه المرحلة الثانية من الحصار التي بدأت بعد الخامس من آب/ أغسطس وتميزت بتغليب المفاوضات على الأعمال الحربية، ازداد وضع السكان سوءًا نتيجة الحصار المحكم الذي ضربه الأمير يوسف من جهة

---

(288) يُنظر: Гребенщикова, с. 427.

[غريبينشيكوفا، ص 427].

لا تقتبس غريبينشيكوفا هنا، للأسف، تقرير كوجوخوف، بل تعيد روايته وفقًا لتفسيرها هي. أما استخدامها مفهوم «التبعية» ومصطلح «المحمية الصُّورية» (بدلًا من مفهوم «الحماية») فمثير للشكِّ على ما يبدو.

(289) Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 687.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 687 (الطبعة الروسية)].

(290) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 9, Л. 109об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 9، ظهر الورقة 109].

الجبل. فقد بدأت المجاعة في المدينة، ما اضطر الناسَ إلى أكل لحم الدواب، وكذلك الكلاب[291].

عاد ماركو فوينوفيتش حينذاك - في الثامن عشر من آب/ أغسطس - إلى المُحاصِرين، يرافقه راهب أرسله الشيخ ظاهر ليُخبِر أن الأخير منهمكٌ في حرب داخلية مع ابنه، ولا يمكنه إرسال قوات حاليًّا[292] (لعل الشيخ ظاهر، على غرار الدروز، اعتبر أن على «المرتزقة» أن يتعاملوا مع الوضع بأنفسهم). عندئذٍ، في 19 آب/ أغسطس، عُزِّزت قوة الإنزال بكتيبة من الألبان بقيادة الرائد غيورغي دوسي، وتركزت الأعمال القتالية في شمال شرق بيروت (كانت غارات المغاربة التي تنطلق من المدينة لرمي قوة الإنزال في البحر، تُشَنُّ عبر البوابة الشرقية).

كان الجزار في آب/ أغسطس لا يزال يعلِّق الآمال على المساعدة العثمانية، وهو لذلك لم يدخل في المفاوضات مجددًا. وبالفعل، تحركت قوات باشاوات حلب وطرابلس ودمشق، من دمشق باتجاه بيروت بقيادة عثمان باشا المصري. وكما جرت العادة، ترافق تقدُّم القوات بأعمال نهبٍ وعنفٍ

---

(291) الشهابي، ص 53. يُنظر أيضًا: Кобищанов, с. 9.

[كوبيشانوف، ص 9].

أجرى إ. غ. قنسطنطينوبولسكي و«ت. ي. كوبيشانوف»، مقارنة لشهادات عددٍ من المصادر العربية عن الوضع التموينيِّ في المدينة، وتوصلا إلى استنتاج مثبت بالبراهين على أن المجاعة في بيروت تفشت في المرحلة الثانية من الحرب: И. Г. Константинопольский, «Общественно-политическая история Бейрута в конце XVIII - начале XIX в. Дипл.» работа на соиск. степ. магистра, МГУ, М., 2008.

[إ. غ. قنسطنطينوبولسكي، «تاريخ بيروت الاجتماعي - السياسي في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر»، رسالة ماجستير، جامعة موسكو الحكومية، موسكو، 2008].

(292) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 109об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 109].

تجدر الإشارة إلى أن أخبار المصادر الفرنسية عن تمضية ماركو فوينوفيتش اثني عشر يومًا في بيروت في أثناء المفاوضات مع الجزار خلال منتصف آب/ أغسطس وعودته مستاءً جدًّا مجرد أخبار خاطئة. وما يمكن الحديث عنه بالأحرى أنه عاد مستاءً إثر زيارته عكا بسبب رفض الشيخ ظاهر تقديم المساعدة: Кобищанов, с. 9.

[كوبيشانوف، ص 9].

مارسها الجنود بحقِّ سكان المدن والأرياف، وعاد الخطر العثماني ليشد لُحمة أسرة الشيخ ظاهر. وتلبيةً لتوسُّلات الأمير يوسف بالمساعدة، وبسرعة تحركت قوة بقيادة علي بن الشيخ ظاهر، نحو الجبل لمواجهة القوات العثمانية.

كان العام الخامس من الحرب مع روسيا في نهاياته، وكان الجيش العثماني يعاني تضعضعًا ملحوظًا، بعدما فَقَدَ قدراته القتالية إلى حدٍّ بعيد، نتيجة الهزائم التي تكبدها على الجبهة الروسية، ونتيجة الفوضى العارمة التي عمت سوريا. فأثار اسم علي، بعد معركة صيدا، الذعر لدى الأتراك، ولا سيَّما بعد الشائعات التي رافقت تقدُّم قواته وبالغت في تضخيم خطرها عليهم. فدب الذعر في نفوس الباشاوات الذين غادروا معسكرهم على عجل، وعادوا إلى دمشق، تاركين قواتهم. أما الأمير يوسف - الذي أعاد جمع مقاتليه - وكذلك الشيخ ظاهر فقد تقاسما غار المنتصرين بالتساوي.

وصلت أخبار فرار الجيش العثماني إلى بيروت في 13-24 أيلول/ سبتمبر. وأما الخسائر بالأرواح وفقدان الأمل بالمساعدة العثمانية والمجاعة المتفاقمة في بيروت فقد أرغمت الجزار على استئناف المفاوضات في منتصف أيلول/ سبتمبر. ويبدو أن الكونت إيفان فوينوفيتش زار بيروت حينذاك، وهو ما كتب عنه في تقريره: «كلفني قائد الأسطول القبطان كوجوخوف بإجراء مفاوضات... مع القائد البيروتي تشيزاربيه، فذهبت إلى المفاوضات شخصيًّا من دون تلكُّؤ <...>، معرِّضًا نفسي لأن أفقد حياتي، وليس فقط حرِّيتي، نظرًا لغدر العدو»[293]. كان الخطر بالنسبة إلى فوينوفيتش حقيقيًّا بالفعل. ففيما كانت المفاوضات جارية في 16 أيلول/ سبتمبر، خرجت فجأة أعداد كبيرة من «الأتراك» من المدينة، و«اشتبكوا في معركة شرسة» مع قوة الإنزال[294]، استمرت خمس ساعات متواصلة، وكادت تكون الأكثر ضراوة خلال حرب بيروت. وأما مغاربة الجزار فاضطرُّوا إلى ترك ساحة المعركة هذه المرة أيضًا بعد تكبُّدهم خسائر فادحة.

---

(293) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 307об.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، ظهر الورقة 307].

(294) المرجع نفسه، الملف 91، ظهر الورقة 109.



بيروت في أربعينيات القرن التاسع عشر

في الثامن عشر من أيلول/ سبتمبر، «أرسل الجزار درويشًا ينقل اعتذاره، زاعمًا أن البربر (الشمال أفريقيين - المؤلِّفة) هم الذين افتعلوا المعركة من دون الرجوع إليه، ومُعربًا عن رغبته بزيارة صيدا، ليبحث معنا ومع الشيخ ظاهر العمر مسألة تسليم مدينة باروت»[295]. شعر الجزار بعد لقائه إ. فوينوفيتش بالثقة تجاهه، فقرر السفر على سفينته، لكنه طلب ضمان عودته هو وحاشيته «آمنين سالمين»[296] إلى بيروت، إذا ما فشلت المفاوضات. وفي اليوم التالي، توجه الجزار إلى صيدا على متن سفينة شراعية برفقة الكونت إ. فوينوفيتش والملازم م. باومغارتين[297].

---

(295) المرجع نفسه.

(296) المرجع نفسه، الملف 92، ظهر الورقة 79.

(297) راسل الجزار الشيخ ظاهر قبل أن يقرِّر الدخول في مفاوضات معه. وبدأت المراسلات بينهما عندما توجه كوجوخوف إلى الشيخ ظاهر للمرة الثانية بطلب «إما أن يساعد بقواته، وإما أن يقنع تشيزاربيه بتسليم المدينة» (وذلك قبل عودة ماركو فوينوفيتش حاملًا رفض الشيخ إرسال القوات). اقترح الشيخ على الجزار تسليم المدينة إلى الرُّوس والانخراط في الخدمة لديهم، مهدِّدًا بإرسال قواته لمساعدة الرُّوس إذا ما رفض ذلك. (لم يتمالك س. ب. خميتيفسكي نفسه عن الملاحظة اللاذعة: «لقد دافع الشيخ ظاهر عنا في فاقتنا»). انتظر الجزار بعض الوقت، معوِّلًا على المساعدة =

جرت في صيدا خلال الفترة الواقعة بين 19 و25 أيلول/ سبتمبر 1773 المفاوضات بشأن تسليم المدينة، غير أنها لم تُسفِر عن توقيع صكِّ الاستسلام. وعاد المشاركون فيها إلى بيروت، التي وصلها أحمد آغا دنغزلي، حاملًا شروط الشيخ ظاهر لتسليمها. فكما نرى، واصل الشيخ ظاهر العمر الاضطلاع بدورٍ مهمٍّ في الأحداث. وفي 29 أيلول/ سبتمبر (27، بحسب رواية فون بالين) - 10 تشرين الأول/ أكتوبر، أُقرت بنود الاستسلام المكتوبة باللغة الإيطالية في اجتماع الضباط القادة وأحمد آغا دنغزلي. ووقع كوجوخوف على هذه البنود التي مهرها أحمد دنغزلي بختمه، وهي تتلخص بما يأتي: 1) يخرج الجزار من القلعة (كانت بيروت المحصنة أشبه بـ «القلعة»)، ويدخل المدينة ضابطان (يمثِّلان كلًّا من ظاهر والرُّوس) على رأس قوة لحمايتها من الدروز (فقد كانت أعمال النهب التي مارسها الجبليُّون الدروز في عام 1773 لا تزال حية في الذاكرة)؛ 2) يخرج الجزار وأولئك المغاربة الذين يقرِّرون الانضمام إلى ظاهر بسلاحهم (ذاك السلاح الذي تطلع الرُّوس للحصول عليه، بناءً على اتفاقية مع الدروز)؛ 3) حماية السكان (وبكلام آخر، عدم السماح بأيِّ أعمال نهبٍ وعنفٍ من جانب المنتصرين)؛ 4) إعتاق الأسرى المسيحيِّين من كلِّ المذاهب (لم يرد ذكر إعادة إعمار الكنائس)[298].

توجه أحمد آغا إلى بيروت حاملًا هذه الوثيقة، و«بعد فترة وجيزة أرسل صك الاستسلام من المدينة، موقعًا من الجزار وممهورًا بختمه»[299].

أخيرًا، كما جاء في تقرير كوجوخوف: «في الثلاثين من الشهر نفسه (30 أيلول/ سبتمبر - 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1773 - المؤلِّفة)، خرج الجزار من القلعة مع نحو ألفٍ ومئتي رجل من الباب الغربيِّ، ودخلت قوات صاحبة

= العثمانية، ولم يتخذ قراره بالاستسلام المشرِّف إلا بعد رسالته الثانية إلى الشيخ ظاهر: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, c. 688.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 688 (الطبعة الروسية)].

(298) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 68.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 68].

(299) المرجع نفسه، الملف 91، ظهر الورقة 109.

الجلالة الإمبراطورية النظامية بسلاحها المظفر بقيادة السيد الملازم بومغارتن من الباب الشرقيِّ واحتلتها»[300]. وكتب المؤلِّف المجهولُ الهوية[301]: **ودخلوا قبابطين المسكوب ووضعوا عسكر منهم بالقلعة والأبراج ونشروا راياتِهم**[302] (كي لا تسبِّب إزعاجًا للسكان، ولا يتشتت الجنود في المدينة - المؤلِّفة). لقد رفعت الأعلام دلالةً على انتقال المدينة إلى كنف الإمبراطورة.

أخرج ممثِّل الشيخ ظاهر يعقوب الصيقلي رجال أحمد الجزار مع أسلحتهم وممتلكاتهم من المدينة[303]، وفقًا لشروط الاستسلام، وكان الشيخ حسين تلحوق مع رجاله في انتظارهم عند البوابة لحماية الجزار[304] على ما يبدو. ولم يصل الأميران الشهابيان يوسف ومنصور إلى بيروت إلا في 6-17 تشرين الأول/أكتوبر، فتسلما المدينة. على أن السكان الذين دافعوا عن مدينتهم بضراوة على مدى أربعة أشهر وعانوا مجاعةً رهيبةً، كانوا لا يزالون في حالة هيجان، فأقدموا في ليل السابع من تشرين الأول/أكتوبر على مهاجمة القوات الروسية الموجودة في المدينة بهدف «إبادتها». قُمِعَ التمرُّد، وأعدَمَ الأمير يوسف زعيم المتمرِّدين المدعو سعيد علي[305].

---

(300) المرجع نفسه.

(301) البيروتي، ص 89.

[آثرنا عدم ترجمة النص، فأخذناه كما هو من كتاب عبد الله بن طراد البيروتي كما هو بأخطائه اللغوية. والملحوظة نفسها تعني الهامشين 309 و327 أيضًا]. (المترجم)

(302) المرجع نفسه، ص 98:

ذكر خميتيفسكي هذه الأحداث باختصار: «... دخل السيد كوجوخوف تلك المدينة، فمَوضَعَ الحرس ورفع الأعلام الروسية على القلاع وأعلم الأمير الدرزي بذلك، فجاءه الأخير وأُطلِقَت عدة طلقات مدفعية من المدينة تحية له». يُنظر: **Смилянская, Велижев & Смилянская,** ***Россия в Средиземноморье*****, Приложение 8, с. 688.**

[سميليانسكايا [وآخرون]، روسيا في البحر الأبيض المتوسط، الملحق الثامن، ص 688 (الطبعة الروسية)].

(303) الشهابي، ص 53.

(304) الصباغ، ص 121.

(305) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 110.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 110].

انهمكت القوات الروسية الموجودة في بيروت خلال تشرين الأول/ أكتوبر ومطلع تشرين الثاني/ نوفمبر على ما يبدو في ترميم تحصينات المدينة وأسوارها. واستنادًا إلى مذكِّرات الرائد المهندس م. بالين، بدأ «ترميم» سور المدينة لتأمين الدفاع عنها، و«أُنجِزَت عملية الترميم في 4 [تشرين الثاني/ نوفمبر]، ونُصِبَت بطاريات المدفعية في أماكن مختلفة. وبقيت الحامية حتى الثاني من كانون الثاني/ يناير (13 كانون الثاني/ يناير، بحسب التقويم الجديد) 1774». وكان كلا البُرجين البحريين في أيدي الرُّوس «تحت قيادة أحد يونانيِّي ليمان (ليمونسا؟) المدعوِّ إيبيفان»[306].

انشغل م. غ. كوجوخوف والأمير يوسف في غضون ذلك بتقاسم الغنائم الحربية. وكان الجانبان غير راضِيَين عن قلتها. فقد استنفدت مدفعية الجزار (كما مدفعية الرُّوس) كل ذخائرها تقريبًا، أما المغاربة فقد خرجوا من المدينة بأسلحتهم، لأنهم انتقلوا إلى خدمة حليف روسيا الشيخ ظاهر. وخسر الجانب الروسي طيلة أشهر الحرب في بيروت 34 رجلًا، فضلًا عن 96 جريحًا؛ وأما خسائر أحمد الجزار فقد بلغت 800 قتيل[307].

باشر الأمير يوسف بجمع مبلغ الثلاثمئة ألف قرش الذي كان عليه دفعه بموجب الاتفاقية غرامةً حربيةً، نقدًا وعينًا حريرًا وأوانيَ فضِّية، وغير ذلك من الأملاك المنقولة[308]. فروى المؤرِّخ المجهول الهوية بتجرُّد: **وتوزع**

---

(306) *РГВИА*, Ф. 846, Оп. 16, Д. 1948, Л. 6.

[أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 846، القائمة 16، الملف 1948، الورقة 6].

من المحتمل أن يكون هو «ستيبان» نفسه الذي «خلف ذكرى حميدة من بعده»، بحسب قسطنطين بازيلي، والذي اعتقد بازيلي وبقية المؤرِّخين الرُّوس مخطئين أنه باومغارتين نفسه: Базили, с. 83.

[بازيلي، ص 63 (من الطبعة العربية)].

(307) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 110.

[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 110].

(308) ثمة الكثير من الشكِّ في صحة ما يقوله بيرسين في صدد امتناع الأمراء عن دفع المبلغ الذي كانوا تعهدوا بدفعه، ولجوء قائد العمارة البحرية إلى الضغط على الرهينة اللبناني [المقصود رسول الأمير يوسف (المترجم)]، بُغية إرغامهم على الدفع: Persen, p. 283.

الغرش على النصارى والإسلام وجمعوه لهم ورفعوه إلى القبابطين[309]. وذكر طنُّوس الشدياق أن الأمير يوسف جمع السلاح من كلِّ أهل بيروت عقابًا لهم على المقاومة، وفرض عليهم غرامة (لا يقسم الشدياق السكان إلى مسيحيِّين ومسلمين). وصادر أيضًا أملاك الشيخين عبد السلام العماد وحسين تلحوق والمقربين منهما، عقابًا لهما على دعم الجزار، وتمكن بذلك من دفع مئتين وخمسين ألف قرش لقائد الأسطول[310]. ويورد ت. ي. كوبيشانوف أدلة موثقة عن مُصادَرَات نُفِّذت بالقوة ومن دون رحمة[311].

فيما كان الأمير يوسف يصادر هذه الأموال، قام م. غ. كوجوخوف وإ. فوينوفيتش بزيارة الشيخ ظاهر في عكا تلبية لدعوته (كان الشيخ قد كتب لفوينوفيتش قبل أن تبدأ العمليات الحربية: «أدعوكم ... لزيارتي في **أكريا**، بعد أن تستولوا على **باروت**، إن شاء الله، كي نتشاور في كل الأمور»)[312]. وقد أسهمت الأحداث الجارية في تعزيز هيبة هذا السياسي الشرقيِّ الجليل. فتمكن من بسط حمايته على كلِّ من عانى مصاعب الحصار البحري، مستفيدًا من علاقاته بالعمارة البحرية الروسية. وفيما كانت الأعمال القتالية جارية، ظلت السُّفن الروسية تجوب البحر مقابل الساحل السُّوري، مُبقِيَةً على اتِّصالها مع الشيخ ظاهر (كانت الاتِّصالات نشِطةً جدًّا: فقد أرسل إ. فوينوفيتش 43 رسالة إلى الشيخ وحده)[313]. وكانت السُّفن الروسية تؤمِّن الحماية للمياه الساحلية

---

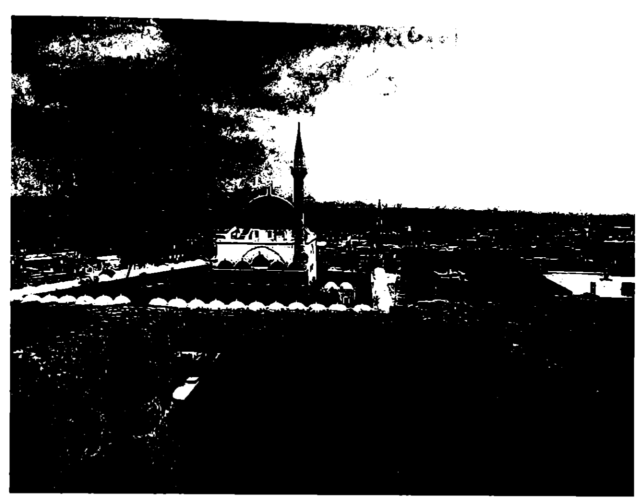
(309) البيروتي، ص 98. يُنظر أيضًا: Из бейрутской церковной летописи, с. 68-69.
[من حوليات الكنيسة البيروتية، ص 68-69].

(310) الشدياق، ص 395.

(311) Кобищанов, с. 12.
[كوبيشانوف، ص 12].

(312) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 323об.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، ظهر الورقة 323].

(313) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 308.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 308].



منظر مدينة عكا من على سطح قصر الشيخ ظاهر العمر

من السُّفن العثمانية والقراصنة، ولكنها كانت تستولي على «الغنائم» في الوقت نفسه. وتمكن الشيخ ظاهر من إنقاذ قاضي القدس العائد من قبرص، من أيدي الرُّوس بصعوبة. فسُلِّم القاضي إلى الشيخ مع أمتعته وأمواله(314)، بأمر من فوينوفيتش. وشكا الشيخ ظاهر إلى كوجوخوف أن رعاياه باتوا يخشون السُّفن الروسية خشيتهم القراصنة، وأنهم أوقفوا التجارة مع مصر (فطلب في هذا السياق بإلحاح منحه الامتيازات الروسية لتوزيعها على أصحاب السُّفن في يافا وعكا وصور وصيدا)(315).

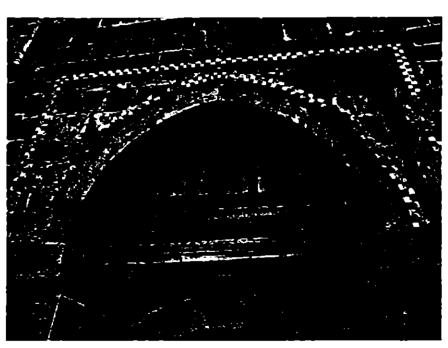
---

(314) من تقرير إ. فوينوفيتش: «استولت سفينة روندانيلل على زورقٍ كان على متنه قاضي القدس آتيًا من قبرص إلى يافا، حاملًا جواز سفر من شيخ عكا (نذكّر أن القدس كانت خاضعة للسيطرة العثمانية وليس لسيطرة الشيخ ظاهر - المؤلفة)، الذي أفرجتُ عنه احترامًا للشيخ المذكور الساعي إلى تحريره؛ وأعدت إليه كل أمتعته وأمواله». *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 53, Л. 308-308об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 53، الورقة 308 - ظهر الورقة 308].

(315) المرجع نفسه، ظهر الورقة 323: كتب ظاهر إلى إ. فوينوفيتش: «أرجو ألا تلحق عمارتُك الضرر بسفن صيدا وصور وعكا ويافا، لأنها سفننا في الواقع. إنِّي أقدر صداقتكم تجاهنا، وأرجو إرسال الامتيازات اللازمة».

تشفع الشيخ أيضًا لتحرير ستة وعشرين تركيًّا، كانوا وقعوا في الأسر بالقرب من بيروت، ونُقِلوا إلى آوزا؛ فأوضح في رسالته إلى الأميرال سبيريدوف أن تسليمهم من شأنه أن «يخدم مقاصدنا جدًّا»، أي علاقاته مع السلطات العثمانية(316).


بوابة قصر الشيخ ظاهر العمر في عكا

بيد أن مسألة الحصول على المساعدة العسكرية الروسية، ظلت تحظى لدى الشيخ بالأولوية، حتى بعد الاستيلاء على بيروت. فطلب ظاهر من كوجوخوف وفوينوفيتش البقاء مع عمارتيهما «في أنحائنا هذا الشتاء»، وكان لهذا الطلب مُسوِّغاته الجدِّية؛ ذلك أن خطرًا خيم على الشيخ ظاهر، ألا وهو غزو محمد بك أبي الذهب - قاهر علي بك - ممتلكاته، بمباركة من السلطات العثمانية، بل بتحريضٍ منها. وكانت القوات المصرية قد وصلت إلى غزة فعلًا، ولم يبق في طريقها سوى يافا (شكا الشيخ ظاهر في رسالته المؤرخة في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1773 إلى أ. غ. أورلوف قائلًا: «وإذا ما كانت سفن سعادتكم في هذه الأنحاء خلال هذا الوقت، يمكنها أن تشكِّل عائقًا كبيرًا أمام السُّفن التي تنقل المؤن إلى جيش البك المذكور»). لكن، بما أن كوجوخوف وفوينوفيتش رفضا تمضية الشتاء عند السواحل السورية من دون إذن القيادة (كانت السُّفن قد صارت غير صالحة للقتال، بحسب قول خميتيفسكي)، فقد كتب الشيخ إلى أورلوف: «إدراكًا منا

(316) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 72.
[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 72]:
(«... أكتب هذه الرسالة لسعادتكم، طالبًا تحرير هؤلاء الأتراك وإرسالهم إلينا. نرجو منكم التكرُّم بقبول طلبنا هذا، لأنه يخدم مقاصدنا جدًّا...»).

لكرمكم تجاهنا، فإننا نرجو من سعادتكم أن ترسلوا آخرين إلى خليج دمياط، عند وصول هؤلاء السادة إليكم، على أن يأتوا إلى أنحائنا أيضًا» (شدد ظاهر دائمًا على تأثير دعم الرُّوس له على السلطات العثمانية وعلى المزاج الشعبي أيضًا). وطلب الشيخ في الرسالة نفسها وضع جنود مرتزقة بتصرُّفه، وساوم على حجم رواتبهم. «بما أن عدم بقاء هؤلاء السادة سيجعل وضعنا صعبًا، فقد طلبنا منهم إبقاء عدد من الألبان عندنا، على الأقل. لكن هؤلاء السادة أجابونا بعدما استمعوا إلى طلبنا أن الراتب الذي سيُدفع لهم ينبغي أن يكون أعلى بكثير من الراتب المعتاد الذي حددته سعادتكم. وسبب ذلك لنا همًّا وغمًّا عظيمين، ولا سيَّما أننا بحاجة إلى ألف رجل من قوات سعادتكم لتأمين حماية القلاع، ولن يكون في وسعنا تأمين احتياجاتهم إذا ما اضطررنا إلى دفع هذا الراتب». ومع ذلك، «من محبَّتنا العظيمة ورغبتنا ببقاء بعض القوات لدينا... فقد احتفظنا بهؤلاء عندنا» (ربما «احتفظ» بأولئك الذين كانوا مفروزين للدفاع عن علي بك، وشاركوا في حصار بيروت). بيد أن الشيخ أضاف أنه يحتاج إلى سبعمئة رجل آخرين[317].

لا نعلم عن تسليم الكتيبة الألبانية سوى أنه وُقِّعت في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1773 اتفاقية بين الشيخ ظاهر وم. غ. كوجوخوف، حيث تعهد الأخير بموجبها أن يقوم بعد عودته من عكا إلى بيروت بتسليم الكتيبة بقيادة الرائد غيورغي دوسي إلى أحمد آغا دنغزلي «لوضعها» في خدمة الشيخ في عكا «كي يستخدمها» ضد الباب العالي العثماني. وكان من المفترض أن تبقى الكتيبة لدى الشيخ، «بقدر ما يراه سعادة الكونت أورلوف مناسبًا». وتعهد الشيخ ظاهر بعدم التضييق على ضباط الكتيبة وجنودها، وأن يدفع لهم الرواتب ويزوِّدهم بالخبز المجفف واللحم والأرزِّ، وأن يوزِّع عليهم كوبًا من النبيذ وآخر من

---

(317) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 70-70об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، الورقة 70 - ظهر الورقة 70].

تجدر الإشارة إلى أنه لم يبق في آوزا خلال صيف عام 1773 سوى ثمانمئة رجل من القوات البرية. يُنظر: Гребенщикова, с. 439.

[غريبيشنيكوفا، ص 439].

«الفوتكا»[318] يوميًّا، وكذلك زبدةً وشمعًا بقيمة أربعة عشر درهمًا للشخص الواحد[319]. وبلغ الراتب الشهري لهذه الوحدة العسكرية ضعف ما كان يحصل عليه رجال حملة الأرخبيل ابتداءً من عام 1771[320] (جدير بالذكر أنه حصلت زيادة شاملة في الرواتب حينذاك، كما أخذ كوجوخوف في حسبانه، على ما يبدو، صعوبات الخدمة في البيئة العربية - الإسلامية الغريبة). وبقي مصير الكتيبة الألبانية في ما بعد مجهولًا. فالمصادر لا تذكر شيئًا عن الموعد الذي رآه ألكسي أورلوف «ملائمًا» لإعادتها. فثمة صفحات في السياسة الروسية إزاء سوريا ومصر في تلك الحقبة، ظلت مقفلة، ومن غير المرجح أن تتاح الفرصة للاطِّلاع عليها في يومٍ ما. بيد أنه من المعروف أن الرائد دوسي عمل (مع فصيله على ما يبدو) على «قمع تتار» القرم في عام 1777[321]. وهذا يعني أنه عاد إلى روسيا مع رجاله الألبان بعد توقيع معاهدة كوتشوك - كاينارجي، وانتقل إلى القرم أو بريآزوفي[322].

---

(318) الفودكا. (المترجم)

(319) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 69-69об.

[أرشيف **الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 69 - ظهر الورقة 69].

(320) كان من المقرر دفع مبلغ 64 قرشًا شهريًا (يعادل روبلًا فضيًا) للرائد، و48 للقبطان، و36 للملازم، و20 للملازم ثان، و16 للعريف، و8 لعسكري الصف (المرجع نفسه، ظهر الورقة 69). وفي 12 آذار/ مارس من عام 1771 اتخذ سبيريدوف قرارًا قضى بدفع 24 قرشًا للقبطان و16 للملازم و10 للملازم ثان و4 لعسكري الصف: *АВПРИ*, Ф. Сношения России с Турцией, Оп. 8, Д. 1914, Л. 2.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، مجموعة علاقات روسيا مع تركيا، القائمة 8، الملف 1914، الورقة 2].

لكن، مع نهاية عام 1773 وبداية عام 1774 رفض اليونانيُّون الخدمة لقاء 4 قروش في الشهر، وطالبوا بـ 6 أو 8 قروش: Гребенщикова, с. 438.

[غريبيشنيكوفا، ص 438].

(321) *РГАДА*, Ф. X: Прошения греков и других иностранцев на имя императрицы Екатерины II, Оп. 1, Ед. хр. 645, Л. 43.

[**أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**، المجموعة 10: عرائض يونانيين وأجانب آخرون موجّهة إلى الإمبراطورة كاترينا الثانية، القائمة 1، وحدة الحفظ 645، الورقة 43].

(322) منطقة جغرافية تقع على ساحل بحر آزوف، إلى جنوب السهل الأوروبي الشرقي، تحدُّها روسيا وأوكرانيا. (المترجم)

في كانون الأول/ ديسمبر 1773، عاد القباطنة الرُّوس إلى العمارة البحرية في بيروت، ووعد الأمير يوسف الشهابيُّ الذي جمع مبلغًا كبيرًا[323]،

(323) وُزِّع هذا المبلغ وفقًا للنِّظام البحري: نال قائد الأسطول أ. غ. أورلوف العُشر (25 ألف قرش)، ونال قائد العمارة البحرية م. غ. كوجوخوف عشر المبلغ المتبقّي (22500)، ووُزِّع السُبع على قادة الفرقاطات (إ. فوينوفيتش، م. فوينوفيتش، ب. ألكسيانو، كاريل) مع مبلغ مساوٍ له (5785,6) لباومغارتين. وخُصِّص المبلغ المتبقِّي 173572 قرشًا «للضباط والرتب الدنيا من حيث الرواتب»: Соколов, с. 383.

[سوكولوف، ص 383].

سبب هذا التوزيع ارتباكًا في الأسطول، واستاء س. ب. خميتيفسكي من عدم تعويض الخسائر التي تكبدتها الخزنة، فكتب يقول: «ثمة خسائر كبيرة. فقد خسرنا عمليًّا الفرقاطة ناديجدا التي أمست عديمة الجدوى، وتحتاج الفرقاطات الأخرى إلى تصليحات كبيرة أيضًا، وقد استنفدنا كل البارود والقذائف والكرات الحديدية والخراطيش على السُّفن كلها، من دون طائل. وتكبدت الخزينة خسارة هائلة على شراء المؤن بأسعار باهظة، طيلة ثمانية أشهر [استغرقتها الحملة]». وأضاف خميتيفسكي: «بلغ عدد القتلى والجرحى من اليونانيين والسلوفونيين حوالى المئة»: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 688.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 688 (الطبعة الروسية)].

أثار توزيع المغانم هذا شكوكًا كبيرة لدى الأميرال سبيريدوف أيضًا، لكنه رأى أنه ينبغي «عدم التدخُّل في هذه التوزيعات قبل الأوان...، وترك أمر النظر فيه والحكم عليه إلى سعادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف»، المنتظرة عودته من روسيا. فضلًا عن ذلك، اعتبر الأميرال أنه قد يكون في الأمر خلفية سياسية موجهة ضد الأمير يوسف، لأن رسول الشيخ ظاهر شارك باسمه في هذا التوزيع. وعلاوة على ذلك، فقد شارك في التوزيع أيضًا «السلافون والألبان واليونانيون، الذين كانوا يبدون شجاعة أكبر كثيرًا، مما في سبيل الراتب وحده عندما يتعلق الأمر بالمغانم، كما سبقت الإشارة إليه. ونعتقد أنه لا يمكن استعادة ما وُزِّع عليهم من دون إثارة استيائهم العارم». وأنهى سبيريدوف رسالته إلى يلمانوف بالموعظة التالية، حيث نقل فيها المناخ السائد والعلاقات المتبادلة في الأسطول بهذه الصورة الحية والجلية: «وهكذا، فأنا لا أظنُّ أن سعادته قد يسمح باستعادة ما وُزِّع من الرُّوس وحدهم فقط، إذ يبدو لي أن في إمكان سيادتكم، بما لديكم من فكرٍ سديدٍ، أن تتكرموا وتشرحوا لسعادته كل ما ورد أعلاه على نحوٍ أفضل. وأنا لن أتدخل في كل هذه القضية، وسأغادر من دون إبطاء»: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 64-65.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 64-65].

ربما كان كِلا القائدين يدرك أن جزءًا كبيرًا من التوزيع يعود إلى أ. غ. أورلوف نفسه. وربما تعكس كل هذه الخلافات عدم استحسان قسم من كبار الضباط العمليات المكلفة جدًّا في سوريا، ولم تكن جدواها مفهومة. ومن دون أن يعلق على استنتاجه، توصل س. ب. خميتيفسكي إلى خلاصة ذات دلالات كثيرة: «لقد حصل البكوات من تحالفهم مع روسيا على حمايتها، ومساعدتها لهم عند الضرورة، =

أن يدفع المال المتبقّي في السنة المقبلة. وحُفِظَ الدين المتوجِّب عليه بعناية في أوراق الحملة[324].

وكان على سفن كوجوخوف وفوينوفيتش العودة إلى باروس.

كتب م. غ. كوجوخوف في تقريره: «في الثاني من كانون الثاني/ يناير 1774، خرجت حاميتنا بقيادة السيد باومغارتين من المدينة، وانتقلت إلى السُّفن كالسابق»[325]. انفصلت العمارتان البحريتان مغادرتين مرفأ بيروت في 8-19 و9-20[326] من الشهر نفسه، وخرجتا إلى عرض البحر، لمواجهة عواصف الشتاء، محملتين بالهدايا إلى القيادة (من ضمنها «جياد مع لوازمها» لكلٍّ من أ. غ. أورلوف وغ. أ. سبيريدوف). ورافق العمارتين رسولٌ من قِبَل الشيخ ظاهر.

لا تذكر الوثائق الرسمية الروسية شيئًا عن بقاء نحو مئة رجل في قلعة بيروت وأبراجها. أما المؤلِّف المجهول الهوية فيقول: ... **سافروا وأبقوا منهم بالقلعة والأبراج نحو مئة نفر يقيموا [يقيمون] البنديرة نهار الأحد والعيد (العلم**

---

=وعلى تجارة حرة لهم في كلٍّ المشرق»: Смилянская, Велижев & Смилянская, *Россия в Средиземноморье*, Приложение 8, с. 688.

[سميليانسكايا [وآخرون]، **روسيا في البحر الأبيض المتوسط**، الملحق الثامن، ص 688 (الطبعة الروسية)].

(324) تقول رسالة يوسف (جوزيب) الشهابي المؤرخة في 1 كانون الثاني/ يناير 1774 (التاريخ نفسه ملحوظ في رسالته التي طلب فيها قبوله مع ناسه وممتلكاته في التابعية الروسية) إنه سيدفع مبلغ 250 ألف قرشٍ من أصل الـ 300 ألف، ويبقى المبلغ المتبقي دينًا عليه حتى الصيف القادم: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 70.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، الورقة 70].

واقترح غ. أ. سبيريدوف، الذي سلم زمام الأمور إلى يلمانوف، في نهاية شباط/ فبراير 1774 أن يُبقِي نسخة الرسالة الأصلية لديه في المكتب «إلى أن يتخذ سعادته القرار» (المرجع نفسه، الورقة 63).

(325) *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 91, Л. 110об.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 91، ظهر الورقة 110].

(326) بحسب التقويمين. (المترجم)

الروسي - المؤلِّفة). وبعد عام ونصف فقط من مغادرة الأسطول الروسي مياه البحر المتوسِّط، أي في عام 1775، وبعدما توجهت عمارة بحرية عثمانية إلى شواطئ سوريا ومصر، **قال الأمير يوسف إلى الأنفار المسكوبية الباقية أن يُنزلوا البنديرة ويَنزلوا هم من القلعة والأبراج وسلموهم إلى المسلمين**[327].

من كان هؤلاء «الرُّوس»؟ إنهم، من دون شكٍّ، أولئك الألبان واليونانيُّون الذين تشكلت منهم الوحدات غير النظامية في العمارة البحرية. وقد استأجرهم الأمير يوسف للخدمة لديه، بموافقة من القيادة الروسية، لقاء مرتبٍ زهيدٍ قدره 15 كيسًا، إذا ما صدقنا المصادر العربية[328]، أو 7500 قرش في السنة، أي نحو ستة قروش بالمتوسِّط للشخص الواحد في الشهر (وهو مبلغ أقلُّ مما اتُّفق عليه بين كوجوخوف وظاهر)[329].

قبل عام من ذلك، في عام 1772، بعد مغادرة عمارة ريزو البحرية، اقترح أعضاء الأسرة الشهابية - الذين كانت قصورهم تقع في بيروت - على الأمير يوسف أن يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن بيروت، بيد أن الأمير فضل الجزار[330]؛ إذ من المرجح أن يكون الأمير افترض آنذاك أن الحامية «الروسية» ستضمن أمن بيروت بالتأكيد، فتمنع هجمات الأسطول التركيِّ والقراصنة والدوريات البحرية الروسية. لقد بدا بعد إبرام صلح كوتشوك - كاينارجي كأن ما من شيءٍ سيمنع الأمير يوسف من إبعاد «الرُّوس» وراياتهم عن تحصينات

(327) البيروتي، ص 98.

(328) يُنظر: Кобищанов, с. 13.

[كوبيشانوف، ص 13].

(329) يتحدث ف. بيرسين عن 300 ألباني استبقاهم كوجوخوف حتى شباط/ فبراير 1774، إلى أن يُدفع المبلغ الكامل للعمارة الروسية، ويضيف أن بيروت كانت طيلة تلك الفترة تحت السيطرة الروسية: Persen, p. 283.

(330) الشدياق، ص 393.

يقول الشدياق إن الجزار تعرض لمحاولة اغتيال نظمها الأمير منصور الشهابي، الذي رشا رجالًا مغاربة أطلقوا النار عليه وأصابوه في عنقه بجراح خطيرة، أثناء نزوله إلى بيروت عبر أحد الأحراج (ص 392).

المدينة[331]. لكن، طالما بقي أسطول الأرخبيل في البحر المتوسِّط، ظلت الحامية الروسية تمثِّل رمزًا لـ «الحماية» الروسية بالنسبة إلى الشهابيِّين. لقد أصبحت فكرة مجابهة الباب العالي بمساعدة روسيا، التي طرحها علي بك، قريبة من حاكم لبنان شبه المستقلّ هذا. وليس من قبيل المصادفة أن الأمير يوسف طلب مرتين قبوله هو وكل المناطق الواقعة تحت سلطته في التابعية الروسية.

مع أحداث عام 1773، انتهت العلاقات الروسية - العربية المباشرة. بيد أن ألكسي أورلوف ظل حتى نهاية الحرب يتابع الوضع السياسي في مصر وسوريا وسياسة حكامهما عن كثب، ربما معلِّقًا الآمال على مواصلة الأعمال المشتركة.

في 5-16 تموز/ يوليو 1773، عندما كانت العمارة البحرية الروسية تستعدُّ لمحاصرة بيروت، أعلن أ. غ. أورلوف من بيزا أنه تلقى «أخبارًا مؤكدة» عن وفاة علي بك. (كان الاتصال وتنسيق الأعمال بين القيادة والوحدات حينذاك معدومين تقريبًا). واستنادًا إلى هذه الأخبار، طلب أورلوف من سبيريدوف «التعامل الجدِّي مع أيِّ إجابات قد تصلكم من هذا الحاكم الجديد، أو من ظاهر العمر وأمراء الشعوب الدرزية في سوريا» (كانت معرفة ألكسي أورلوف ببنية سوريا الإثنية ضعيفة على ما يبدو). فقد اعتبر العلاقات الودِّية مع حاكمي مصر (حتى ولو كان غير علي بك) وفلسطين بمثابة ظروفٍ مؤاتيةٍ لروسيا («... لن يكون من السيِّئ أبدًا الاستفادة من هذه الفرصة المؤاتية لنا»)؛ ولذا، تخوف من أن يؤدِّي الصراع الداخليُّ بين البكوات إلى تعزيز قوة «أعدائنا». وأرسل أ. غ. أورلوف الرسالة الموجهة إلى محمد بك المنتصر، إلى سبيريدوف «غير مختومة» كي يستطيع الأخير - كما كتب ألكسي أورلوف - رؤية «قوة سؤالي إليه [إلى محمد بك أبي الذهب]، عما إذا كان عدوًّا لنا أو صديقًا، وأن جوابه وتصرُّفه سيُملِيَان التدابير المناسبة لتعاملنا اللاحق معه ومع حلفائه في مصر».

---

(331) اعتبر كوبيشانوف، وكذلك بيرسين، طقوس رفع العلم الروسي بمثابة دليل على أن الضباط الرُّوس سلموا المدينة إلى الأمير يوسف شكليًا فحسب، «وواصلوا تصرُّفهم في المدينة بوصفهم أسيادها الشرعيِّين»: Кобищанов, с. 13.

[كوبيشانوف، ص 13].

ربما كان الأمر مختلفًا هنا ودل على أن المدينة أصبحت تحت حماية الأسطول الروسي.

لقد طلب أورلوف تسليم الرسالة إلى البك نفسه، واقترح على سبيريدوف أيضًا أن «يجيبه شخصيًّا»[332]. ومن غير المعروف ما إذا كانت الرسالة قد سُلِّمت أم لا، وقد تكون الظروف المصرية حالت دون ذلك. وفي 31 آب/ أغسطس - 11 أيلول/ سبتمبر 1773، أبلغ سبيريدوف أورلوف أن السلافوني أخبره من الإسكندرية (ظهر عميلٌ خاصٌّ في مصر، على ما يبدو) عن وصول بحارة بنادقة من سوريا، يقولون إن حاكم عكا لا يزال «يقاتل السلطات التركية ويرفض الصلح»، على الرغم من موت علي بك. وقال كورتوفيتش هذا إنه «لا توافق بين محمد بك والباشا التركي في القاهرة، ما يجعل الشعب يتخوف من وقوع صدام كبيرٍ بينهما، فيما يروِّج البعض أن الباشا التركي ينوي المغادرة إلى القسطنطينية، خوفًا من محمد بك»[333].


قبة فوق ضريح الشيخ ظاهر العمر بالقرب من عكا

في 20-31 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1773، أبلغ ألكسي أورلوف سبيريدوف [كان الاتصال بعمارة كوجوخوف لا يزال مقطوعًا] عن شائعات متعدِّدة تقول إن محمد بك «تمرد في القاهرة على الباب العالي، على غرار غريمه المهزوم علي بك، رافضًا سلطته على مصر، وطرد الباشا المعتمد من قِبَله في القاهرة». وطلب أورلوف الاستفسار عن صحة الشائعات التي تقول بتوجيه «محمد بك والشيخ ظاهر العمر إلى الأسطول رسائل تتوسل المساعدة». وأشار أورلوف إلى أنه

---

(332) *РГА ВМФ*, Ф. 190, Оп. 1, Д. 119, Л. 32-33.
**[أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 190، القائمة 1، الملف 119، الورقة 32-33].

(333) المرجع نفسه، المجموعة 315، القائمة 2، الملف 609، ظهر الورقة 3.

إذا تأكدت هذه الشائعات، وما إذا كانا يحاربان الباب العالي فعلًا و«أنهما متحالفان ويطلبان المؤازرة»، فينبغي «منحهما الأمل» بالمساعدة و«تحويلها إلى واقع»، من أجل «إلحاق الأذى بالعدو»[334]. لقد تناول الحديث على ما يبدو ضرورة ممارسة ضغطٍ إضافيٍّ على الأتراك بواسطة الحليفين العربيين، لجعله يقبل بالشروط الروسية لمعاهدة الصُّلح.

بيد أن حسابات ألكسي أورلوف لم تتحقق. فقد استعد محمد بك للاستيلاء على سوريا، عازمًا على إزاحة الشيخ ظاهر من طريقه. أما ظاهر، الذي كان واقعًا بين نارين – نار السلطات العثمانية ونار حاكم مصر – فلم يعوِّل على مساعدة روسية جدية، وسارع بعد مغادرة العمارة البحرية الروسية إلى الاستجابة لاقتراح آخر من الجانب العثماني بالمصالحة مع السلطان. وفيما كانت الحرب دائرةً، كان الأتراك مستعدِّين لقبول شروط الهدنة التي اقترحها الشيخ ظاهر.

أثارت الشائعات في صدد مصالحة الشيخ ظاهر والسلطان عاصفةً من الاستياء لدى أورلوف. فأرسل تعليمات في عام 1774 إلى يلمانوف، الذي حل مكان سبيريدوف في قيادة أسطول الأرخبيل، يطلب منه فيها إرسال عمارة بحرية صغيرة لقطع تجارة العدوِّ بين مصر وبين القسطنطينية (عاد الحصار ليكون أداةً للضغط السياسيِّ مجددًا). واقترح أورلوف استطلاع «أحوال الحاكم ظاهر العمر، الذي تصالح مع الباب العالي العثماني، بحسب ما تفيد الشائعات المؤكدة مرارًا هنا، على الرغم من إرساله مبعوثه إلي حاملًا رسالةً منه (ولا يزال المبعوث على الأسطول حتى الآن). وحصل على فرمانٍ سلطانيٍّ يثبِّت سلطته على المدن والأراضي التي احتلها علي بك في سوريا، ثم استولى عليها هو من بعده. وإذا ما تبين أن شكوك قائد عمارتنا البحرية الصغيرة صحيحة أو محتملة، فينبغي أن تتوقف فورًا كلُّ المراسلات الودِّية من جانبنا مع الحاكم السوري المذكور ظاهر العمر، ومعها مظاهر الثِّقة تجاهه واعتباره حليفًا لعدوِّنا»[335]. انقطعت عند هذا الحدِّ، كما تشير كلُّ الدلائل، العلاقات مع الشيخ ظاهر العمر، وأُبعِدَ مبعوثُهُ من الأرخبيل.

(334) المرجع نفسه، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 66، ظهر الورقة 175–176.

(335) = *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 92, Л. 168об.

أوصى ألكسي أورلوف - الذي أفعمه عدم الثِّقة بالحلفاء العرب - أ. ف. يلمانوف حينذاك «باستطلاع أحوال الأمير البيروتي يوسف، وتبيُّن موقفه من مشاريعنا». بدا لأورلوف أن «من السهل» استيضاح ذلك، من خلال مطالبة الأمير «بمبلغ الخمسمئة ألف قرش المتبقِّي المتوجِّب عليه للأسطول الروسي، لقاء تسليمه العاصمة بيروت، والموثق بسندٍ خاصٍّ مرفَقٍ بهذه الرسالة». لذا، تقرر بناءً على أمر أورلوف، إبقاء «مبعوث» يوسف الشهابيِّ في قاعدة الأسطول بالأرخبيل، «مكرمًا، والقول له إنني سأصل قريبًا»[336].

من المعروف أن الأمير يوسف وفى ديونه فعلًا، أما مراسلاته مع قيادة الأسطول الروسي فاستُبدِلت مع الوقت بتبادل للرسائل مع ممثِّل روسيا المفوض في القسطنطينية، لأن الإنجاز الرئيس للاتِّصالات الروسية - العربية كان إنشاء قنصليتين روسيتين في كلٍّ من بيروت ودمشق، إضافةً إلى قنصلية عامة في صيدا[337].

هكذا، ماذا مثلت الاتِّصالات الروسية - العربية، العسكرية والسياسية، أثناء حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل؟ هل كانت تهدف إلى دعم حركة التحرُّر الوطني العربية، أو كانت محاولةً فاشلةً لبسط سيطرة روسيا على الأراضي العربية؟

من البدهيِّ أنه يصعب اعتبار التعاون الروسي - العربي، العسكري والسياسي، خلال الفترة الواقعة بين عامي 1770 و1774 دعمًا لحركة التحرُّر الوطني العربية، لأن هذه الحركة لم تكن قد ظهرت في العالم العربي

---

= [أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 92، ظهر الورقة 168].

(336) المرجع نفسه.

(337) لمزيد من التفصيل في هذا الصدد يُنظر في صفحات تالية من هذا الكتاب:
И. М. Смилянская, *Политическая интрига Екатерины II в Египте в войну 1787-1791 гг: Конрад Тонус.*

[إ. م. سميليانسكايا، مكيدة كاترينا الثانية السياسية في مصر إبان حرب الأعوام 1787-1791: كونراد طونوس].

حينذاك[338]. فقد اعتبر «حلفاء» روسيا العرب أنفسهم مدافعين عن مصر وسوريا في وجه الهيمنة العثمانية، بل كانت لديهم خطط لإنشاء دولٍ على أسسٍ أكثر عدالة، غير أنهم سعوا بالدرجة الأولى وراء أهدافهم السياسية الطموح. وكان للقيادة الروسية بدورها أهدافها الخاصة: كان من المهم بالنسبة إليها تحويل اهتمام القوات المسلحة العثمانية عن جبهات الحرب البرية في الشمال، وإضعاف الإمبراطورية العثمانية بتوجيه ضربة إلى وحدة أراضيها. فكانت تُقبِل على تقديم المساعدة إلى الحلفاء العرب، حينما كانت العمليات المشتركة تخدم أهدافها الخاصة. وعلى هذا النحو، قامت علاقات التعاون الروسية - العربية على أساسٍ من المصالح المتبادلة[339]: المصالح العسكرية - الاستراتيجية بالنسبة إلى روسيا (ولذا، فإنها استخدمت قواها هناك على نحوٍ لا يُلحِقُ الضرر بعملياتها الأساسية)، ومصالح الحلفاء العرب العسكرية - السياسية، الذين سعوا إلى إنجاز مهماتهم بمساعدةٍ من روسيا. وفي نهاية المطاف، كانت هذه الاتِّصالات للعالم العربي بمثابة تذليل للعزلة الثقافية والسياسية، ولروسيا إدخال عالمٍ جديدٍ في فضاء ثقافتها وعلاقاتها السياسية الخارجية.

صاغت الإمبراطورة كاترينا الثانية بنفسها الأساس الفكري لهذا التعاون، المتمثِّل في تقديم المساعدة في الحرب لكلِّ من يطلبها في صراعه

(338) إن عدم فهم المؤرِّخين العرب معنى الأحداث الجارية وموقف مختلف فئات السُّكان السوريِّين السلبي الغالب من عمليات الأسطول الروسي، وعدم اعتماد زعماء المعارضة للسلطة العثمانية على القوى الاجتماعية، بل على وحدات عسكرية تقليدية غير مضمونة، أو على قوات مرتزقة مستعدة للانتقال إلى جانب المنتصر، وخضوع السُّكان لحكامهم «الإقطاعيين»، بصرف النظر عن مواقعهم السياسية...؛ كلُّ ذلك دل على عدم وجود عملية تكاتف قوميٍّ في المنطقة. فقد قابل المسيحيُّون أعمال الرُّوس بإيجابية عمومًا، انطلاقًا من مشاعرهم الدينية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقوم أحمد باشا الجزار بعمليات تنكيل قاسية بعد الحرب بحقِّ أولئك المسيحيين الذين كانت لهم علاقات مع العمارة البحرية الروسية. يُنظر في هذا الصدد: Кобищанов, с. 19.

[كوبيشانوف، ص 19].

وجدير بالذكر أن الجزار نفسه كان مستعدًّا لإقامة علاقات مع الأسطول الروسي، الذي كان يستعدُّ لتكرار ملحمة حملة الأرخبيل في الحرب الروسية - التركية الثانية (1787-1791). ولكن من المعروف أن الحرب الروسية - السويدية أعاقت هذه العملية.

(339) الدعوة «إلى مصالحنا المشتركة» حاضرة في الوثائق العربية والروسية على حدٍّ سواء.

مع العدوِّ المشترك. غير أن المساعدة في الصراع ضد هذا العدو أصبحت في الحرب مشروطةً بقبول الحماية الروسية.

كان الاعتراف **بحماية** إمبراطورة روسيا، بل حتى الانضواء في كنف **التابعية** الروسية، بالنسبة إلى سكان شرق البحر المتوسِّط، مجرد تعبير عن أشكال التعاون المختلفة مع الأسطول الروسي. فقد سادت العلاقات الشخصية، علاقات التبعية والزبائنية في نظام المنطقة السياسي. أما مفاهيم «الحماية» و«التابعية» التي طبعت هذا التعاون فلم تكن تحمل معنى سياسيًّا - حقوقيًّا، كما يحدِّده القانون الدولي المعاصر، بقدر ما كان لها معنى تمثيليٌّ - حمائيٌّ، على غرار اختيار التابع لسيِّده[340].

بما أنه لم يكن قد تبلور تعريفٌ سياسيٌّ - حقوقيٌّ لمفهوم «الرِّعاية» في الثقافة الروسية، كان يُسبغ عليه المعنى الملائم تبعًا للحالة. إذ اقتصرت هذه الرِّعاية - وكذلك المساعدة - بالنسبة إلى روسيا على زمن الأعمال الحربية، وافترضت بالدرجة الأولى استخدام موانئ الحليف البحرية. لقد اتخذت العلاقات الروسية - العربية معالم غير واضحة في فترة ما بعد الحرب، لأن المهمات الاستراتيجية الروسية تركزت على حوض البحر الأسود الشمالي ونظام المضائق.

فهم الشيخ ظاهر والأمير يوسف - اللذان كانت مناطق حكمهما عرضة للخطر من جانب السلطان - «الرعاية» و«التابعية» بوصفهما تبديلًا للمولى أو السيِّد - الإمبراطورة الروسية محل السلطان - مع اعتماد أشكال أكثر مُلاءَمةً للتبعية، وتأمين الحماية من الأعداء الخارجيِّين (أما علي بك فقد اعتبر نفسه حاكمًا سياديًّا). وأما التعابير من نوع: «أرضنا ستصبح أرضكم، وأرضكم أرضنا»، أو «سيصبح الساحل السوري جزءًا لا يتجزأ من الدولة الروسية»،

---

(340) وجد هذا التفسير لمفهوم «الحماية» أو «الرِّعاية» متابعةً منطقية له في نظام الوصاية الذي انتشر في الإمبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن عشر، وعُبِّر عنه بالفرنسية بكلمة protégé، أي وصاية دولة أجنبية على أحد رعايا الإمبراطورية. ولم يكن الشخص المشمول بالوصاية يفقد صلاته السياسية والاقتصادية بمجتمعه، ولكنه كان يتمتع في الوقت نفسه بالحماية القانونية للدولة الأوروبية.

فقد كانت في الواقع مجرد لياقاتٍ وبلاغةً كلاميةً أكثر مما هي ترسيم لأفقٍ سياسي.

لم تكن الأوساط الحاكمة في روسيا مؤهلةً لتأخذ على عاتقها مهمة إرساء السيطرة في هذه المنطقة، لأسباب سياسية داخلية وخارجية، فضلًا عن أن كاترينا لم تَسعَ إلى هذا الهدف. وهي لم تتمكن من إظهار مسؤوليتها تجاه حلفائها العسكريِّين، إلا بإدراج فقرة في معاهدة كوتشوك - كاينارجي تقضي بامتناع الطرفين المتصالحين عن ملاحقة أولئك الذين تعاونوا مع الخصم أثناء الحرب ومعاقبتهم.

# القسم الثالث

## الحرب الكلامية

إ. م. سميليانسكايا
م. ب. فيليجيف
ي. ب. سميليانسكايا

# الفصل التاسع

## اكتسابُ المَجد:
## دعمُ السِّياسة المتوسِّطية الدِّعائي

إ. م. سميليانسكايا
ي. ب. سميليانسكايا

تفانٍ في سبيل مجد الشعب والإمبراطورة لا يعرف حدودًا.
فَنَيْلُ العزة يستلزمُ دهورًا، ولكنْ عبثًا من دونها يعيش الإنسان.

**بافل بوتيومكين. «الرُّوس في الأرخبيل»**

مع نهايات ستينيات القرن الثامن عشر، كانت الإمبراطورة قد حققت الكثير في سعيها إلى فرض الإقرار بتأثير روسيا في الشؤون السياسية الأوروبية. وعلى حدِّ قول ن. إ. بانين: «لقد راقب العالم بدهشة كيف أخذ البلاط [الرُّوسي] يضطلع بدورٍ في الشؤون العامة، مساوٍ لدور الدول الكبرى، فضلًا عن كونه اللاعب الأول في الشمال»[1].

بيد أن أكثر ما شغل بال منظِّمي الحملة هو نظرة المعاصرين والأجيال القادمة إلى المشروع المتوسِّطي، وما إذا كان سيجلب المجد لعهد كاترينا

(1) اقتباس من: Н. Д. Чечулин, *Внешняя политика России в начале царствования Екатерины II. 1762-1774* (СПб., 1896), с. 46.

[ن. د. تشيتشولين، **سياسة روسيا الخارجية في بداية عهد كاترينا الثانية، 1762–1774** (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 46].

الثانية، أم إنه سينقلب عارًا عليه (كما كتبت كاترينا نفسها إلى سبيريدوف: «سينقلب خزيًا وعارًا عليك وعلي»)[2]، فضلًا عن تحقيق المنافع السياسية والعملية. فلم يدفع الاهتمام بذاكرة الإمبراطورة التاريخية إلى العمل على تأمين النجاح على الجبهتين العسكرية والسياسية فحسب، بل أيضًا إلى بذل جهودٍ كبيرةٍ من أجل ابتداع أسطورة تاريخية وسياسية، ووضع الأساس الأيديولوجي لسياستها وتوجُّهاتها الدعائية.

## مهمات الحملة الدعائية الكاترينية

كانت كاترينا تدرك جيِّدًا من دون شكٍّ - عندما شرعت في تنفيذ مشروعها المتوسِّطي - أن نجاح خططها يتوقف إلى حدٍّ كبير لا على الحكومات والحكام فحسب، بل كذلك على الرأي العام في أوروبا وعلى تعاطف رعاياها معها. وقد أعربت في الأمر السامي المؤرخ في 10 تموز/يوليو 1770، الموجه إلى أ. غ. أورلوف عن رؤيتها في ما يتعلق بالدور الذي ينبغي أن تضطلع به روسيا أمام الرأي العام الأوروبيِّ، في ضوء وجود أسطولها في البحر المتوسِّط، مُلقِيَةً درسًا في الثقافة السياسية تفعَمُه روح عصر التنوير: «ينبغي أن يبني الحكام والدول سلوكهم المتبادل على مبادئ العدالة الحقيقية المعمول بها». وهي إذ تربت على أساليب السياسة الأوروبية المعاصرة لها، فقد طورت فكرتها بما يتناسب وثقافة العصر الحديث الأوروبية: «ينظر العالم إلى كلِّ أعمال البلاطات المؤثِّرة ويحكم عليها وفق قواعد أخرى (مغايرة لمبادئ العدالة الحقيقية - المؤلِّفة). أما من ينجح في **كسب تعاطف الجمهور**، فسيكون على يقين تام بأن الجهة المعادية لن تجرُؤ - علانيةً على الأقل - على العمل ضده، خشية أنْ تثير سخط كلِّ أجزاء الجمهورية المسيحية وشكوكها، فتمنح الخصم منفعةً أكثر وقدرةً أكبر على تحقيق أهدافه» (التشديد من المؤلِّفة)[3]. ويفسِّر هذا

---

(2) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, in: *СбРИО*, t. X (СПб., 1872), c. 391.

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 10 (سان بطرسبورغ، 1872)، ص 391].

(3) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» = Сообщ. кн. Н. А. Орловым, in: *СбРИО*, t. I (СПб., 1867), c. 41.

المقطع من أمر كاترينا الثانية الملكيِّ الأهمية الكبيرة التي أولتها لسلاح الكلمة في صراعها على اكتساب الرأي العامِّ الأوروبي.


كاترينا الثانية في زينة إغريقية

كانت الأنشطة الدعائية ضرورية أيضًا من أجل إقناع الأقربين والآخَرين بقدرة روسيا على ممارسة النُّفوذ في حوض البحر المتوسِّط. فلم تكن حملة الأرخبيل، كما ذكرنا، مشروعًا محفوفًا بالمخاطر فحسب، بل باهظ الكلفة أيضًا، ما ولد تقويماتٍ مختلفةً لدى معاصريه ومؤرِّخيه. فما الذي أظهره هذه المشروع: أهو قوة روسيا، أم ضعف الأتراك؟ وقد ذهب فولتير إلى مقارنته بحملة هنيبعل، رغبةً منه بتملُّق كاترينا بالطبع؛ بيد أن الإمبراطورة أجابته بدلعٍ سياسيٍّ: «تودُّون مقارنة مشروع الحملة في البحر المتوسِّط المنسوب إلي عن غير وجه حقٍّ (سأجيز لنفسي ذكر اسم صاحبه، بعد نجاحه)، بمشروع هنيبعل («ما من مشروع أعظم من مشروع هنيبعل»)»(4). على أن القرطاجيِّين قاتلوا ماردًا كان في

---

= [«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي،» نقلًا عن الأمير ن. أ. أورلوف، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 41].

يعود استخدام كاترينا الثانية مصطلح: «جمهورية الدول المسيحية» (respublica populi christiani) إلى أواخر القرون الوسطى على ما يبدو، ويعني مجتمع أو أسرة البلدان المسيحية. لم يكن مفهوم «الجمهورية» (من: respublica، أي: الشأن العام، المصلحة العامة) قد ترسخ نهائيًّا في أوروبا خلال عهد هنري الرابع (نهاية القرن السادس عشر - بداية القرن السابع عشر)، بوصفه شكلًا خاصًّا للحكم. عن تطور مصطلح «الجمهورية»، يُنظر: М. А. Бойцов & С. Н. Пшизова, «Монархия,» in: *Словарь средневековой культуры*, Под ред. А. Я. Гуревича (М., 2003), с. 310-312.

[م. أ. بويتسوف وس. ن. بشيزوفا، «الملكية»، في: **قاموس ثقافة القرون الوسطى**، تحت إشراف أ. ي. غورفيتش (موسكو، 2003)، ص 310-312].

(4) Вольтер - Екатерине, 30 октября 1769 г., in: *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год*, Перевел с французского Иван Фабиян (М., 1805), Ч. 1, с. 58.

[من فولتير إلى كاترينا، 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1769، في: **مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778**، ترجمها عن الفرنسية إيفان فابيان (موسكو، 1805)، ج 1، ص 58].

ذروة قوته، إما نحن فنواجه شبحًا ضعيفًا، سينهار حال لمسه»[5]. وكما نرى، فإن الإمبراطورة الروسية استخدمت منذ القرن الثامن عشر، صورة «الرجل المريض» لتوصيف الإمبراطورية العثمانية. لكأنها تناست أن الباب العالي يمكن أن يكون خصمًا «مخيفًا» لروسيا، فسعت إلى إظهاره شبحًا قابلًا للانهيار في وضح النهار بنظر المجتمع الأوروبي. ولعلها أرادت بهذه المقارنة مواجهة موقف أوروبا السلبيِّ من مشروعها وتبديد الشكوك غير المُسوغة بنجاحه.

من المعروف أن وزير خارجية فرنسا الدوق شوازول وصف حملة الأرخبيل بأنها مشروع رومانسيٌّ بالدرجة الأولى، على الرغم من كونها عملية مُبهِرة: «إنه لمشروع باهظ الكلفة، ولا أظنُّ أنه حقق الكثير»[6]. وكتب فيودور أورلوف إلى الإمبراطورة بعد الانتصارات الأولى في مورية: «أقول ما يفكِّر به البعض. لم يرغب أحدٌ في أن يصدِّق في البداية أننا وصلنا إلى هذا المكان، بل إننا هاجمنا عدونا. فالجميع اعتقد أننا سنجوب البحر ونعود أدراجنا من ثَم، من دون أن نفعل شيئًا. لقد أدركوا خطأهم الآن. فتحوا أعينهم، وتملكتهم الدهشة، فلا يدرون ماذا يقولون وماذا يفعلون»[7]. وانتابت منفِّذَ المشروع الرئيس ألكسي أورلوف أيضًا شكوكٌ دفينةٌ في نجاحه وجدواه عمومًا. فقد كتب إلى ن. إ. بانين بعد انتصار شيسما، ذاك الانتصار الذي «لا مثيل له»، على حدِّ تعبيره: «تبين لي الآن أن ذهابنا بعيدًا إلى هذا الحدِّ، لم يكن سُدى»[8]. بيد أنه

(5) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, с. 401.

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، ص 401].

(6) اقتباس من: С. М. Соловьев, «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994), Кн. XIV, с. 332.

[س. م. سولوفيوف، «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994)، الكتاب 14، ص 332].

(7) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, с. 416.

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، ص 416].

(8) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI (СПб, 1886), с. 561. =

عاد وأعرب في جلسات مجلس البلاط السامي في آذار/مارس 1771 عن شكوكه في جدوى الوجود الروسي في الأرخبيل[9].

هكذا، كان على دعم سياسة روسيا المتوسِّطية الدعائيِّ أن يثبت **واقعية** تدخُّلها العسكريِّ في شرق البحر المتوسِّط **وجدواه**. وإذا كانت نجاحات الجيش والأسطول ساعدت على إثبات **واقعية** المشروع وتبديد التصوُّرات عن قوة الأتراك ومناعتهم، فإن تعليل **جدواه** ما كان ليتحقق إلا بواسطة السِّلاح **الكلامي**. وكانت أنواع هذا السلاح مختلفة: من البيانات السامية، إلى أشعار المديح يطلقها شعراء البلاط من أمثال ف. إ. مايكوف وم. م. خيراسكوف وب. س. بوتيومكين وغيرهم، إلى رسائل كاترينا الثانية إلى مراسليها في أوروبا، وفي مقدِّمهم فولتير وغريم (انتشرت هذه الرسائل بسرعة، وليس عبثًا أن يكتب فولتير إلى كاترينا: «يسرُّني أن أعلن عنها بتواضعٍ أمام أشخاص أعلم أنها ستسبِّب لهم الإزعاج»)[10]. وشملت هذه الأنواع أيضًا الخطب الاحتفالية والمواعظ، المرافقة للاحتفالات بالانتصارات، التي كانت تنقل أخبار هذه الانتصارات إلى رعايا الإمبراطورة على أوسع نطاق. إضافة إلى ذلك، عُزِّزت المعارك الكلامية بحقنٍ مالية وأعمالٍ مسرحية واستعراضية.

نحن، إذ ننتقل إلى تحليل الاستراتيجيات الدعائية التي استخدمتها السلطات في معرض تعليلها المشروع المتوسِّطي، فإننا نضع نصب أعيننا مهمة الكشف عن أفكار الدعاية الكاترينية المحورية، وكذلك فهم كيفية اجتماع الوسائل في النصوص الدعائية، كاستثارة المشاعر **الدينية** لدى الأرثوذكس **والمسيحيِّين كافة**، وكذلك كتحفيز دوافع خدمة الوطن واستخدام الذرائع التقليدية المتعلِّقة بتحرير الحضارة الإغريقية الوثنية من البرابرة، فضلًا عن طرح الأفكار **العقلانية** عن المنافع السياسية من الوجود الروسي في المشرق.

---

= [مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11 (سان بطرسبورغ، 1886)، ص 561].

(9) يُنظر الفصل الخامس.

(10) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 65.

[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 65].

## «إنقاذُ الآخيِّين!»[11]

«أصبو إلى تغيير مصير اليونانيِّين التُّعساء...
شُدُّوا العزيمة، فها نحن آتون لإنقاذكم...».

**بافل بوتيومكين. «الرُّوس في الأرخبيل»**

«أُحبُّ اليونانيِّين على الرغم من عيوبهم».

**من كاترينا الثانية إلى فولتير**

لدى مقاربتها سيناريوات حملة الأرخبيل المحتَمَلة[12]، نظرت كاترينا الثانية – بوصفها سياسيًّا براغماتيًّا – إلى إخوة الدين البلقانيِّين الناقمين على الاضطهاد العثمانيِّ، بوصفهم وقودًا في حربها على الباب العالي بالدرجة الأولى. بيد أنها لم تكن مستعدة لطرح الأمر أمام أوروبا أو روسيا على هذا النحو **البراغماتي**. فعملت في ندائها «إلى الشعوب اليونانية والسلافية»، على تقديم حملتها بطريقةٍ لا تُولِّد أوهامًا زائدة (فهي لم تؤكد أن تحرير إخوة الدين يندرج ضمن مهماتها المباشرة)، ولكنْ من دون أن تسعى إلى تبديل رأي أوروبا برسالتها «الإنقاذية». فقد تضمنت مقدِّمة رسالتها إلى إخوة الدين (1769) حيلةً سياسيةً حاذقة، تُعلِّل نداءها إلى كلِّ شعوب البلقان الأرثوذكسية بصورة منطقية. كانت الرسالة في صيغتها الأولى موجهة إلى «الشعوب السلافية المؤمنة بالأرثوذكسية» (كانت لهيئة الشؤون الخارجية، تقليديًّا، علاقاتٌ مع السلافيين)، وما لبثت أن عدلتها لتصبح على النحو الآتي: «إلى الشعوب السلافية واليونانية المؤمنة بالأرثوذكسية، التي تقطن القارة وجزر الأرخبيل على حدٍّ سواء». وبدلًا من تعداد البلدان التي

(11) الآخيون: إحدى القبائل الإغريقية الأساسية (لا بل الأكثر عراقة)، إلى جانب الأيونيين والدوريين والأيوليين. قطنوا شبه جزيرة بيلوبونيز. نشأت الحضارة الآخية في الفترة بين عامي 1300 و1100ق.م. ويعد المؤرخون **الإلياذة** و**الأوديسة** مرجعين رئيسين في دراسة حضارة الآخين. يعطي هوميروس في **الإلياذة** انطباعًا بأن مدينة موكناي (أو ميسينة (Mycenae)) كانت تهيمن على المدن الهيلينية الأخرى. فقد لبت هذه المدن نداء أجاممنون، ملك موكناي، عندما أهاب بالهيلينيين، ولا سيما الآخيين، جمع قواهم والانطلاق إلى حرب طروادة لمحو العار الذي ألحقه باريس، ابن ملك طروادة، حين خطف زوجة ملك إسبرطة هلينا. يطلق هوميروس في ملحمته على أجاممنون اسم «ملك البشر» و«سيد الآخيين». (المترجم)

(12) يُنظر الفصل الثاني.

يعيش فيها السلافيُّون، وجهت نداءها إلى «رعايا تلك البلدان والمستعبَدين فيها، وكذلك إلى أولئك الذين يعيشون في جوارها أيضًا»[13]. وبذلك، تكون كاترينا قد دعت كل الشعوب الأرثوذكسية إلى المشاركة في الحرب، مُعلِّلةً ذلك بأن الأتراك مستعدُّون للتدخُّل في شؤون كلِّ الدول الأرثوذكسية والمجاورة «من دون وَجَل»، كما فعلوا حين تدخلوا في مسألة وضع الأرثوذكس بـ «بولندا» من قبل، من دون أن يتورعوا عن انتهاك «الصُّلح الأبديِّ» بصورةٍ غادرة.

بعد تلقِّيه نبأ الانتصارات الأولى في مورية من ماروتسي، اقترح بانين في مجلس البلاط السامي، بتاريخ الحادي والثلاثين من أيار/ مايو 1770، إيفاد رسول إلى الكونت أورلوف «كي يعمل، تبعًا للظروف، على إقناع شعوب تلك المنطقة بتوجيه بيانٍ إلى كلِّ الدول المسيحية، تعلن فيه أنها تمردت على ظلم المُحمديِّين، وامتشقت السِّلاح للتخلُّص من النير البغيض، وتطلب من هذه الدول مد يد العون لها»[14].

واصلت الإمبراطورة تطوير استراتيجيتها «اليونانية» في أمرها التالي إلى أ. غ. أورلوف - المؤرخ في 19 تموز/ يوليو 1770 - فأكدت أن «كل دول الجمهورية المسيحية غير المتحيِّزة ترى أن الحق إلى جانبنا» (على الرغم من أنها أكثر من يدرك عدم واقعية هذا الرأي - المؤلِّفة). بيد أنها اعتبرت أن من الضروريِّ «ترسيخ هذا الرأي المفيد جدًّا لنا في وعي الجمهور»، لما فيه «مصلحة وطننا ومنعته». وقد تطلب ذلك أن تلتزم الأعمال التي تجري في اليونان تحت قيادة أورلوف «الشُّجَاعة والوطنية»، بحدود «العدالة الجلية والنزاهة الشخصية»؛ وهذا بالضبط ما ينبغي نقله إلى الرأي العامِّ العالميِّ، ليس باسمنا فحسب، بل باسم اليونانيِّين أنفسهم أيضًا.

---

(13) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Д. 1867, Л. 1.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، علاقات روسيا مع تركيا، الملف 1867، الورقة 1].

(14) *Архив Государственного Совета (АГС), t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II* (1768-1796) (СПб., 1869), Стб. 365.

[أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية (1768-1796) (سان بطرسبورغ، 1869)، العمود 365].

لهذه الغاية، تَعَينَ على أ. غ. أورلوف توحيد «الشعوب اليونانية المختلفة» تحت قيادته، جاعلًا منها في أقرب وقتٍ ممكنٍ «كتلةً جليةً تسعى إلى هدفٍ مشتركٍ، وتظهر أمام الملأ كيانًا جديدًا ومتكاملًا» (أوضح بانين هذه الفكرة في رسالته المرفقة بأمر الإمبراطورة: «ينبغي أن يشكِّل اليونانيُّون «حكومةً تتجسد في كيانٍ موحدٍ، يتألف من نوابٍ منتَخَبين عن كلِّ مقاطعة». وبكلامٍ آخر، فقد تناول الحديث، بحسب تفسير نيكيتا إيفانوفيتش، إنشاء ما يشبه البرلمان). وتابعت كاترينا: «ولكي يقوم هذا الكيان الجديد - المكون بموجب قانونٍ عامٍّ (يُشرحُ على أوسع نطاق) يُعلِن عن وجوده السياسيِّ - بالدعوة إلى إقامة جمهورية مسيحية وفق النمط الآتي، على سبيل المثال...». ثم يلي ذلك نموذجٌ لنداءٍ موجه إلى الدول المسيحية باسم «الشعوب اليونانية»، بحيث يتناول هذا النِّداء الظلم الفظيع الذي ترزح الشعوب اليونانية تحته وعدم قدرتها على تحمُّله، لأنه ينطوي على خطر إبادتها بالكامل، وبالتالي هلاك «المسيحية بأسرها». لقد عمقت «هذه الحرب الغاشمة الغادرة التي بدأها الأتراك» ضد الإمبراطورية الروسية كراهية الأتراك لليونانيِّين، كونهم إخوة للرُّوس في الدين من جهة، وأتاحت الفرصة لتحريرهم من جهة أخرى. وهم امتشقوا السِّلاح الآن، داعين إلى نصرة المسيح المخلص، واتحدوا جميعًا في حلفٍ مقدسٍ، عازمين على الدفاع عن دينهم وحرِّيتهم حتى آخر نقطة دم في عروقهم، اتحدوا على هذا النحو ليكونوا عضوًا جديدًا في الجمهورية المسيحية، جمهورية كلِّ الحكام والأقاليم، متوسِّلين ومستغيثين بكل الحكام والبلدان، مستحلفينهم بجراح المخلِّص ودمائه الاعتراف بهم ومدِّهم بكلِّ عونٍ ممكنٍ وحماية». وهم، بدورهم، سيعودون بالنفع على المسيحية جمعاء، بوقوفهم «سدًّا» في وجه الباب العالي (تبرز هنا معالم المشروع اليونانيِّ المقبل مبكِّرًا)[15].

في رسالته المرفقة بالأمر الملكيِّ، شرح بانين لأورلوف فحوى خطة الإمبراطورة السياسية: «إنني على يقين من أن سيادتكم ستدركون أهمية هذا

(15) «Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» с. 42.

[«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، ص 42].

العمل السياسية وفائدته؛ إذ إن أعمال سيِّدتنا صاحبة الجلالة، ستضفي صورةً جديدةً على عدالتها واعتدالها ونزاهتها (المقصود تخلِّي الإمبراطورة عن الأراضي التي احتلتها - المؤلِّفة). ويمكن القول إن كل دولة تدين بالمسيحية ستكون ملزمةً بإبداء مظاهر الاحترام لهذه الديانة، وعدم الاستهانة بها، ووقوفها في وجه كلِّ من تتسبب سياستُهُ بإلحاق الضرر بالمسيحيِّين التُّعَساء، المنتَفِضين من أجل التخلّص من مصائبهم»[16]. فكما أظهر مسار مفاوضات السلام الروسية - التركية، التي مارست الدول المسيحية الأوروبية تأثيرًا نَشِطًا عليها، لم يؤدِّ «إبداء مظاهر الاحترام للمسيحية»، الذي عول عليه بانين، إلى تحرير البيوتات الحاكمة في هذه الدول من الخوف من الإمبراطورية الروسية، ومن السعي إلى الإخلال بميزان القوى الهشِّ، مبدأ السياسة الدولية الرئيس في القرن الثامن عشر.

يصعب القول ما إذا كان ذلك نابعًا من عدم فهم مغزى الوثيقة الرئيس، أو من عدم الرغبة في تركيز الاهتمام عليه، إلا أن بانين تحدث عن هدف الأوامر التكتيكيِّ التي تضمنتها الوثيقة فحسب، وعن التوْق إلى استخدام «احترام المسيحية» ذريعةً لفرض القيود على أيِّ دولةٍ تعارض تدخُّل روسيا في شؤون الإمبراطورية العثمانية، بما يؤدِّي إلى تخفيف معاناة اليونانيِّين. في الوقت نفسه، فإن ما كان يهمُّ كاترينا في لحظة اندلاع الانتفاضة اليونانية (أو هكذا بدا من بطرسبورغ) هو إيصال فكرة الاعتراف باليونان كيانًا مستقلًا إلى أوروبا: إعلان اليونانيِّين الموحدين «عضوًا جديدًا في الجمهورية المسيحية، جمهورية جميع الحكام والأقاليم»، ومدُّهم بصفتهم هذه «بكلِّ أنواع العون والحماية»، وهو ما كانت الإمبراطورة تعمل من أجله.

بكلام آخر، أرادت كاترينا من مناشداتها أوروبا المسيحية حماية اليونانيِّين الحصول على موافقة الدول الكبرى (أو بالأحرى استطلاع المناخ السياسيِّ

(16) Переписка гр. Н. И. Панина с гр. А. Г. Орловым-Чесменским, in: *Русский архив*, 1880, t. III (2), c. 230.

[مراسلات الكونت ن. ي. بانين مع الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، المجلد الثالث (2)، ص 230].

والقيام بمحاولة لاستمالة الرأي العامّ) على تفكيك الإمبراطورية العثمانية، بما يؤدِّي إلى تحريرهم.

أعرب بانين في نهاية رسالته عن اعتقاده بأن ألكسي أورلوف سيواجه مصاعب «كَأْدَاء» في تحقيق خطة الإمبراطورة، نظرًا إلى عدم وجود زعماء متنوِّرين بين اليونانيِّين («بين السكان المحليِّين»)، يتحلون بالصلابة والحيوية («الحذاقة»)، مؤهلين لقيادة أبناء شعبهم (لبسطِ «شيء من السطوة على نفوسهم»)، وليكونوا أداة كفوءة للقيام بهذه المهمة. وكان ألكسي أورلوف يعي ذلك جيِّدًا، على ما يبدو؛ فعمل في موازاة محاولة إنشاء «كيانٍ متكاملٍ» في جزر الأرخبيل في خريف عام 1770 (كان هذا اقتراح سبيريدوف، كما هو معروف)[17]، على التحضير للانتفاضة اليونانية الرامية بصورةٍ أساسية إلى جسِّ موقف المجتمع الأوروبيِّ من سياسة روسيا اليونانية.

وبعد مرور عام، ظهر **نداء الشعب اليونانيِّ إلى أوروبا المسيحية كلِّها** في الصحف الأوروبية؛ ثم نُشِرَ في ملحق صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** بتاريخ 16 آب/أغسطس 1771 في روسيا، تحت عنوان: «صرخة الشعب اليونانيِّ إلى المسيحيِّين الأوروبيِّين». تجعلنا فكرة نداء اليونانيِّين غير الاعتيادية إلى أوروبا المسيحية، فضلًا عن نصِّ النِّداء نفسه القريب من مشروع الوثيقة الذي طرحته كاترينا في الأمر السامي المؤرخ في 19 تموز/يوليو من عام 1770، نرتاب بوجود صلة بين هاتين الوثيقتين، الأمر الذي تؤكِّده ظروف نشر النِّداء التي تناولها المؤرِّخ الإيطاليُّ ف. فينتوري[18].

شَابَ ظهورَ نصِّ النِّداء بالفرنسية في الصحيفة الأوروبية *Courier du Bas-Rhin, ou Gazette de Cleves* (**مراسل باران أو جريدة كليفز**) الواسعة الانتشار،

---

(17) يُنظر الفصل الخامس.

(18) Ф. Вентури, «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» in: *XVIII век*, Сб. 10 (Л., 1975), с. 119-126.

[ف. فينتوري، «الأصداء الأدبية النابوليتانية للحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)»، في: **القرن الثامن عشر**، مج 10 (لينينغراد، 1975)، ص 119-126].

في 20 نيسان/أبريل 1771 بعضُ الالتباس. فقد جاء في تقديم الصحيفة التقرير أنها حصلت عليه من الأرخبيل عبر إيطاليا، وأنه كُتب باليونانية. وقد شكك فرانكو فينتوري بهذه الرواية عن حقٍّ، لأن النص مماثلٌ لذاك الذي نُشر في صحيفة *Le Notizie del Mondo* (**أخبار العالم**) الفلورنسية في السادس من تموز/يوليو. أما كاماريانو سيوران فقد كان لديها معلومات تفيد أن يفغيني فولغاريس هو مَنْ ترجم النص إلى اللغات الأوروبية (بما في ذلك إلى اللغتين اليونانية والرومانية) بتكليفٍ من كاترينا بعد نشره، كما أكدت عمومًا أن الإمبراطورة كانت تعطي الأوامر بترجمة النشرات التي تخدم مصالح سياساتها، بحيث كانت تظهر بمبادرة منها في الأغلب[19].

يتفق كلا الباحِثَيْن في الرأي على أن النِّداء وُضِعَ في الوسط الإيطاليِّ المُولَع بالحضارة الهيلينية، وهو وسط مقرب من أ. غ. أورلوف. غير أن الباحثة الرومانية تنسب أُبُوة النِّداء إلى البروفيسور جوفاني ديل توركو، الذي رافق أورلوف في رحلاته في حوض البحر المتوسِّط، بحسب قولها[20]؛ بينما لا يتردد فينتوري في نَسْبِ النِّداء إلى أنطونيو جيكا[21]، الآنف الذكر، الأمر الذي

---

(19) A. Camariano-Cioran, «La Guerre russo-turque de 1768-1774 et les Grecs,» *Revue des études sud-est européennes*, tome 3, nos. 3-4 (1965), p. 531.

(20) Ibid.

ظهر اسمه في أرشيف هيئة الشؤون الخارجية: *АВПРИ*, Ф. 48/2, Сношения России с Генуей, Д. 4, 14, 21.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 48/2، العلاقات بين روسيا وجنوى، الملف 4، 14، 21].

في ثمانينيات القرن الثامن عشر، ارتباطًا بتخصيصه بمعاشٍ تقاعديٍّ لقاء مشاركته في المفاوضات مع باي طرابلس. وبكلام آخر، لا يمكن دحض علاقات ديل توركو.

(21) كتب د. د. شامراي في أربعينيات القرن العشرين عن أن النِّداء كُتِب «بطلبٍ من القيادة الروسية»، وأن أ. جيكا هو مؤلِّفه: Д. Д. Шамрай, Коллекция «Россика» в Публичной библиотеке и проблемы ее собирания и изучения (Публ. Н. А. Гринченко), at: https://bit.ly/3ihb75z

[د. د. شامراي، مجموعة «روسيكا» في المكتبة العامة ومشكلات جمعها ودراستها (منشورات ن. أ. غرينتشينكو)].

ويطلق غ. ل. آرش عليه لقب الكونت جيكا ويعتبره «أحد عُمَد هيمارا»: В. Н. Виноградов (редактор), *История Балкан. Век восемнадцатый* (М., 2004), с. 485.

[ف. ن. فينوغرادوف (تحرير) **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر** (موسكو، 2004)، ص 485].

تؤكِّده موادُّ أرشيف وزارة الخارجية. فهذه الموادُّ تقول إن أورلوف قَبِلَ جيكا في الخدمة الروسية برتبة نقيب، واستعان به لتجنيد الألبان في الفيلق الألباني. وكان جيكا مثقفًا مُتقِنًا للغتين الإيطالية واليونانية، مما جعل الوصيف النبيل س. غ. دوماشنيف يستعين به في الأمور المكتبية في «الإدارة» (ديوان أورلوف العسكريِّ على ما يبدو). ولقد تضمنت وثيقة الأرشيف الكلمات الآتية: «لقد اعتُبِرَت إحدى رسائله المطبوعة باللغة الإيطالية التي



س. غ. دوماشنيف

تحمل عنوان: «استغاثات اليونانيِّين الموجهة إلى أوروبا المسيحية» («Voti del Greci alla Europa Christiana») قطعةً أدبيةً راقيةً في إيطاليا»[22].

في رأينا أن صحيفة *Courier du Bas-Rhin, ou Gazette de Cleves* (**مراسل باران أو جريدة كليفز**) اعتبرت «القطعة الأدبية الراقية» - التي وضعها الإيبروسي أ. جيكا - نصًّا يونانيًّا وصل من الأرخبيل الذي «تجعله الأحداث الراهنة موضع اهتمامٍ خاصٍّ، وتُضفِي عليه أهميةً كبيرة». وإذ قدر محرِّر الصحيفة في تقديمه النداء الطابع الدرامي الذي وُسِمَت به تعاساتُ اليونانيِّين و«رغبتهم في الانتقال إلى تحت سلطة دولةٍ مسيحية ما»، إلا أنه ألمح بشفافية - على ما نظنُّ - إلى أنه «ليس من الصعب إدراك حقيقة من كتب هذه الوثيقة، ولأيِّ غرضٍ»، قاصدًا بذلك مصلحة روسيا فيه.

---

(22) *АВПРИ*, Ф. 2/6, Внутренние коллежские дела, Д. 7177, Л. 475-475об.
[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 2/ 6، الشؤون الإدارية الداخلية، الملف 7177، الورقة 475 - ظهر الورقة 475].

أشار أ. جيكا في النِّداء إلى أنه على الرغم من دعم اليونانيِّين روسيا في حربها ضد الأتراك، على غرار دعمهم معارك جمهورية البندقية والبلاط النمساوي، إلا أن الأتراك يعتقدون أن ثمة **علاقاتٍ مميزةً بين روسيا واليونانيِّين** على وجه التحديد، وأنهم (أي الأتراك) يعتبرون اليونانيِّين «عدوهم الداخلي» الذي يريدون التخلُّص منه، بحيث «لا يتورط بعد الآن في مثل هذه التهلكة، التي يعترفون بأنهم يقتربون منها في هذه الحرب». إن خطر الإبادة الشاملة أو التحوُّل إلى الإسلام يخيِّم على اليونانيِّين. بيد أن أولئك المتحوِّلين إلى الإسلام سيعزِّزون قوة الجيش التركي، ومن ثَم الخطر الإسلامي على أوروبا المسيحية، لأن الأتراك «لن يكفُّوا عن شنِّ الغزوات في كلِّ مكان يعتقدون أنهم الأكثر غلبةً فيه».

هكذا، تضمن النِّداء - فضلًا عن أفكار تحرير إخوة الدين اليونانيِّين على يد الروس - تطويرًا لفكرة المجابهة بين العالمين المسيحي والإسلامي، التي ترتدي أهمية بالغة، بحسب رأي كاترينا، في اجتذاب المجتمع الأوروبي الغربي، وكذلك لفكرة الدفاع عن الحضارة الكلاسيكية.

أصبح مصير المسيحية مرتبطًا بمصير اليونانيِّين الآن، فالحرب لن تنتهي ما لم تُحل المسألة اليونانية. تلك كانت الفكرة التي أراد جيكا الإيحاء بها إلى أوروبا باسم اليونانيِّين: «إن كل التعاسة وأعمال القتل والاضطهاد والخطر على المسيحية، ستكون على الدوام دافعًا لملامة المتسبِّب في إبرام صلح بغير أوانه، بوصفه مصدرًا لكلِّ هذه المصائب». ثمة هنا دعوة خفية لروسيا كي لا تبرم السلام ما لم تتأمن حماية **اليونانيِّين** (كان أ. غ. أورلوف قد تلقى تفويضًا من كاترينا حينذاك للشروع بمفاوضات السلام، إذا ما طلب الأتراك ذلك). بيد أن حماسة جيكا في تحميل الحكام المسيحيِّين خطيئة عدم حماية اليونانيِّين، كانت موجهة في الواقع ضد البيوتات الأوروبية الغربية الحاكمة، «أولئك الذين يضعون في مكاتبهم أوروبا على كفة الميزان»، متمسِّكين بمبدأ الحفاظ على موازين القوى السياسية في حوض البحر المتوسِّط وأوروبا. كما اعتقد جيكا أن العقبات التي تضعها الدول أمام نجاحات روسيا العسكرية والسياسية هي «السبب في تعثُّر السلاح الروسي المظفر، وليس العدو». وعمل على نقل هذه الفكرة إلى القراء باسم الشعب اليوناني.

وإذ وضع جيكا مسألة تحرير اليونانيِّين في إطار الصراع بين العالمين المسيحي والإسلامي، فإنه اختتم نداءه بشكلٍ حماسيٍّ، كما لو أنه ينطق باسم النمسا التي تختزن ذاكرتها الخطر التركي على فيينا في عام 1683، والتي: «ستقول بالتأكيد إن روسيا تبقى في كلِّ الأحوال أفضل بكثير من الأتراك، أعداء الدم البشري، أيًّا يكن شكل انتهاء هذه الحرب التي تخوضها ضدهم بنجاح. وستقول أيضًا إن بعبع الحقد الأعمى أعاق سحق عدو الجنس البشري...»(23).

كما نرى، يبدو هذا النِّداء أو «صرخة الشعب اليوناني» بمثابة وثيقة ذات دلالات متعدِّدة، جاءت تنفيذًا لطلبٍ سياسيٍّ من الإمبراطورة وألكسي أورلوف، وكذلك تعبيرًا عن الفكرة الوطنية لدى اليونانيِّين. لقد استند وعيُ اليونانيِّين هويتهم، وفق هذه الفكرة، إلى أساس وطني علماني بصورة جزئية فقط، مع طغيان **المبدأ الطائفي** الموروث من العصور الوسطى، ومن الواقع الطائفي السائد في الإمبراطورية العثمانية بنظامها الملِّي وهيمنة الأعراف الإسلامية على هذه الهوية.

أما من الناحية السياسية، فقد كان نداء اليونانيِّين - الداعي إلى عدم السماح بهلاكهم - يعني منح روسيا فرصة إحراز انتصارات ترغم الأتراك على الإقرار بحقِّ اليونانيِّين بالحكم الذاتي الداخلي، **برعاية روسيا، شقيقتهم في الإيمان**. وهنا بالتحديد كَمُنَ هدف السياسة الدعائية الكاترينية الأساسي(24).

---

(23) Вопль Греческого народа к Европейским христианам, Перевод с италианского языка, in: *Санкт-петербургские ведомости*, 16 августа 1771, Прибавление к no. 65.

[«صرخة الشعب اليوناني إلى المسيحيين الأوروبيين»، ترجمة من اللغة الإيطالية، في: **أنباء سان بطرسبورغ**، 16 آب/ أغسطس 1771، ملحق العدد 65].

(24) عززت الحملة الدعائية نية الإمبراطورة الروسية تشييد كنائس جديدة أو ترميم الكنائس القائمة: «لقد حصلتم الآن على كلِّ ما يلزم لتزويد خمسين كنيسة بما تحتاج إليه من غرف مقدسات وأوانٍ وكتب. وإرادتنا بخصوص هذه الأغراض الكنسية هي الآتية: ينبغي أن تُستَخدَم في العمل على تحقيق القضية المشتركة مع الكونت أورلوف، بوصفه القائد العام على اليابسة، وهو مَنْ يقرِّر بنفسه أين ومن يحتاج إليها ويستفيد منها». (من التعليمات الموجهة إلى سبيريدوف في حزيران/ يونيو 1769. اقتباس من: В. А. Уляницкий, *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке* (М., 1883), с. XCVI.

[ف. أ. أوليانيتسكي، **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر** (موسكو، 1883)، ص XCVI].

لم يكن الترويج لرسالة روسيا التحريرية إزاء اليونانيِّين موجهًا إلى المجتمع الأوروبي الغربي فحسب، بل أيضًا إلى رعايا كاترينا الرُّوس أيضًا. فمن أجلهم تُرجمت «صرخة الشعب اليوناني»، ونشط الشعراء، وألقى أكثر رجال الكنيسة فصاحةً مواعظهم.

وبالفعل، سيكتب شعراء كاترينا بين عامي 1769-1770:

أيا أسطول النصر، امخر دربك المنشود...

لا لتجلب لنا جلد الخروف الذهبي[25]،

فلكاترينا تحقيق النصر هو المُراد

وتخليص المسيحيِّين الأبرياء من البلاء الفظيع.

**ف. مايكوف، «أشعار عن مغادرة الأسطول الروسي ريفيل[26] إلى البحر الأبيض المتوسِّط» (1769).**

لا لأجل الخروف الذهبي،

ولا لأندروميدا التعيسة،

أيها الرُّوس! ملوكُ الحرب أنتم

وانتصارات الحرب مِلْكُ أيديكم...

ليس فخارًا تناديتم للنزال:

بل حمايةً للأقربين وللخَلَاص.

**م. خيراسكوف، قصيدة غنائية للجيش الروسي [شباط/ فبراير عام 1769].**

---

(25) في الأسطورة اليونانية القديمة، أحب أفامانت - ابنُ إله الرياح إيول وملك قبيلة المينيِّين في بيوتي - إلهة الغيوم نيفيللا التي أنجبت له ابنًا هو فريكس (المطر الصاخب)، وابنةً هي غيللا (النور الساطع). ثم أحب أفامانت إينو الجميلة، ابنة ملك فيفان كادما، وتزوجها. غضبت نيفيللا وقررت جلب الجفاف إلى البلاد انتقامًا. ومن أجل درء البلاء، قررت إينو التضحية بولدي زوجها على مذبح زفس. غير أن نيفيللا تمكنت من إنقاذهما بعد أن غطتهما بالغيوم وحملتهما إلى كولخيدا (مملكة كانت تقع على أراضي جورجيا المعاصرة) ملفوفين بجلد خروف ذهبي. وفي الطريق، سقطت غيللا في مياه الخليج الذي حمل اسمها - غيلوسبونت (الدردنيل حاليًّا). أما فريكس فوصل إلى كولخيدا وقدم الخروف السحري ضحيةً على مذبح زفس، وعلق جلده الذهبي على سنديانة في غابة أريس. (المترجم)

(26) ريفيل: التسمية الروسية القديمة لمدينة تالين، عاصمة إستونيا راهنًا. (المترجم)

سائر أنت لتهز الخارج عن القانون،

لتنقذَ الوطن،

وتحمي اليونان.

**(ف. بيتروف، «قصيدة غنائية عن انتصار الأسطول الروسي... عند خِيُوس (1770)».**

في عام 1769، نشرت الصحف عظةً حملت مديحًا إلزاميًّا لكاترينا التي وهبها الله: **الغيرة لتحرير الكنيسة المقدسة وكل التراث المسيحي من الاسترقاق السراسيني المر**[27]. وفي عظة العام الجديد، في عام 1771، أعلن المتروبوليت بلاتون (ليفشين) قائلًا: «لو أن أبطالنا وصلوا إلى تلك الأماكن النائية من أجل القتال حصرًا وإظهار شجاعتهم على الملأ، لما كان ذلك مناقضًا لعادات الشعوب. ولكنْ، ثمة سببٌ آخر مختلف كليًّا. فالشعب هناك سيرى فيهم مخلِّصين ومنقذين. تلكم هي الحقيقة»[28]. أما خطاب بلاتون نفسه لمناسبة انتصار شيسما، فقد نُشِرَ مع ترجمة إلى اليونانية، وأرفقه المترجم بالأبيات الآتية:

من اللغة الروسية وُضعت هذه الترجمة،

ليتسنى للشعب اليوناني فهمها،

الشعب الذي يتطلع بفرح شديد

إلى انتصارات الرُّوس في بلاده،

إلى أسطول صاحبة الجلالة الجبار

يأتي لإنقاذهم،

يُغرق أسطول الفرعون التركي

(27) *Санктпетербургские ведомости*, 1769, no. 83, Прибавление.

[أنباء سان بطرسبورغ، 1769، العدد 83، ملحق].

(28) *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном* (M., 1780), t. 2, c. 319.

**[أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسييفنا من العام 1763 وحتى عام 1780** (موسكو، 1780)، مج 2، ص 319].

في لجة المياه الرهيبة،

وتظهر معجزته، كما معجزة موسى للأنام.

(موقعة من كيساري، أرشمندريت فولوجسكي. (التشديد من المؤلفة))[29].

## «الغيرة لتحرير الكنيسة المقدسة وكلّ التراث المسيحيِّ من الاسترقاق السراسيني المر»

حظيت الدعوة إلى مساعدة إخوة الدين واستخدام هذه الفكرة الساميَة في تعليل الدخول العسكري إلى حوض البحر المتوسِّط بأنصار كثر. بيد أن هذه الدعوات والتفسيرات لم ترُقْ للجميع. فقد أدركت الإمبراطورة الروسية جيِّدًا أن من شأن خطابها الدِّعائي وسط مسيحيِّي «الإيمان اليوناني» والتعاون مع إخوة الدين البلقانيِّين أن يسبِّبا تعقيدات خطيرة في العلاقات مع جمهورية البندقية والنمسا، اللتين يعيش فيهما رعايا سلافيُّون ويونانيُّون.

بالفعل، أغلقت البندقية مرافئها في وجه السُّفن الروسية مع بداية الحرب، وأعاقت مرور السُّعاة الرُّوس عبر أراضيها وعبر الجبل الأسود من حين إلى آخر، ومارست الاضطهاد بحقٍّ من انتقل إلى خدمة روسيا من بين الأرثوذكس. وهي لم تفعل ذلك كله خوفًا من غضب الباب العالي فحسب، بل لأن سلطات البندقية كانت منزعجة من تأثير الدِّعاية الروسية في سكان الجمهورية الأرثوذكس، المستائين من هيمنة الكنيسة الكاثوليكية، على ما أُعلن رسميًّا[30].

سعت كاترينا إلى التخفيف من هذا القلق، وإلى اكتساب تعاطف أوروبا المسيحية مع روسيا ودعمها لها في الحرب مع الإمبراطورية العثمانية، فقامت بعدة محاولات لنقل النزاع العسكري - السياسي مع الأتراك، إلى مستوى **الصراع الديني، المسيحي - الإسلامي**. فتضمنت رسالة هيئة الشؤون الخارجية إلى البلاطات الحاكمة في أوروبا - التي أبلغتها فيها بقطع العلاقات

(29) المرجع نفسه، ص 288.

(30) لمزيد من التفصيل، يُنظر الفصل السادس.

بين الإمبراطوريتين العثمانية والروسية - التأكيد أن روسيا تخوض الحرب بوصفها حاميةً لمصالح العالم المسيحي كلِّه.

جدير بالذكر، أن الوثائق السياسية الخارجية التي شرح فيها الباب العالي أسباب إعلان الحرب على روسيا أشارت - بما يتلاءم مع روحية العصر الحديث - إلى نكث الحكومة الروسية المعاهدات مع الدولة العثمانية (النشاط المسلح والأعمال التخريبية المباشرة التي تمارسها روسيا عند الحدود الروسية - التركية، وعدم الوفاء بالتعهُّدات بسحب القوات من بولندا، والتدخُّل المُفرِط في الشؤون الداخلية البولندية)، فضلًا عن أنها لم تتسم بطابعٍ دينيٍّ (وهذا أمر مفهوم، لأن الأتراك كانوا يُعوِّلون على دعم الدول الأوروبية)[31].

ردًّا على ذلك، لم تكتفِ كاترينا الثانية في مذكِّراتها الموجهة إلى البلاطات الأوروبية (في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1768) بدحض الحجج التركية، بل وجهت الاتِّهامات إلى «أعداء السلام العالمي في الإمبراطوريتين» (مُلمِّحةً إلى فرنسا). وتحدثت الإمبراطورة عن «سذاجة الشعب التركي» الذي وصل «إلى درجة من التذمُّر دفعت الحكومة إلى أخذه في الحسبان» (والحديث هنا يتناول تعصُّب الجمهور التركي الذي طالب بالحرب على روسيا). وزعمت كاترينا وجود «رغبةٍ لدى المسيحية جمعاء» بتقديم الدعم لها في حربها مع الإمبراطورية العثمانية؛ «عدو المسيحية المشترك»[32].

يتجلى نقل الأهداف والمهمات السياسية المتعمد إلى المستوى الدينيِّ - في نداء الإمبراطورة الآنف الذكر - الموجه إلى اليونانيِّين و«الشعوب السلافية المؤمنة بالأرثوذكسية، والخاضعة للتبعية التركية». فهي تتهم الأتراك «بكراهية المسيحية والحقد عليها»، ليس المسيحية المشرقية فحسب، بل الغربية أيضًا. وقد استخدمت الحجج اللاهوتية التي تقول إن «التعاليم المُحمدية» تسعى إلى

---

(31) يُنظر: А. Петров, *Война России с Турцией и польскими конфедератами* (СПб., 1866), t. I, c. 75-80.

[أ. بيتروف، حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية (سان بطرسبورغ، 1866)، مج 1، ص 75-80].

(32) المرجع نفسه، ص 86-87.

«زجِّ أرواح المسيحيِّين وأجسادهم كافة في التهلكة» (تقصد المسيحيِّين الذين يعيشون ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية).

انعكست فكرة الصراع المسيحي - الإسلامي، لدى إرسال العمائر البحرية، في التعليمات التي أعطيت للأميرال سبيريدوف، كي لا يلحق أيُّ أذى بسفن الدول المسيحية (الحقيقة أن الإمبراطورة سعت إلى عدم استثارة معارضة الدول الأوروبية مخططاتِها، أكثر من حرصها على تأكيد سمعتها بوصفها حاميةً للمسيحيِّين)، مع السماح له بحرِّية «العمل العسكري» عند الشواطئ الإسلامية[33].

بيد أن إحياء فكرة «جمهورية الشعوب المسيحية» الجذابة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، لم تلقَ صدى في الغرب في القرن الثامن عشر[34]، فخلُصَت كاترينا إلى القول في رسالة إلى فولتير: «بما أن الرغبة في مواجهة البرابرة المشتركة قد تبددت لدى الدول الأوروبية الأخرى، فإن روسيا ستجني ثمار النصر وحدها»[35]. وظهر استخدامٌ ساخرٌ لمفهوم «الحملات الصليبية» في خطاب الإمبراطورة الروسية، حين كتبت عن «الحملة الصليبية» التي يشنُّها الأتراك ضد روسيا المسيحية، بالتعاون مع الفرنسيِّين والبولنديِّين[36].

---

(33) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 366-375.

[مواد لتاريخ الأسطول الروسي، ج 11، ص 366-375].

(34) نعيد إلى الأذهان أن انجذاب كاترينا الثانية والدائرة المحيطة بها إلى أفكار الدوق سيوللي وهنري الرابع المتعلِّقة بـ «جمهورية الدول المسيحية» التي دعت إلى «طرد الأتراك والتتار إلى آسيا»، يعود بالضبط إلى بداية الحرب الروسيَّة - التركيَّة. وقد طلبت الإمبراطورة، كما أشرنا، ترجمة «مدونات» سيوللي المكونة من تسعة مجلدات، كانت قد بدأت بالصدور ابتداءً من عام 1770:

А. Зорин, <<*Кормя двуглавого орла...*>>: *Русская литература и государственная идеология в последней трети XVIII — первой трети XIX века* (М., 2001), с. 52.

[أ. زورين، «تغذية النسر ذي الرأسين...»: **الأدب الروسي وعقيدة الدولة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الثلث الأول من القرن التاسع عشر** (موسكو، 2001)، ص 52].

(35) Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, с. 351.

[أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، ص 351].

(36) يُنظر: *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. =

من حيث جوهر الأمر، خرج دور حوض البحر المتوسّط - بوصفه فضاءً مفتوحًا للمجابهة بين المسيحية والإسلام - من الخطاب السياسيّ الأوروبي. فقد قدم ملك فرنسا «الأكثر مسيحية»، الدعم إلى الباب العالي المسلم طيلة سنوات الحرب الروسية - التركية، على الرغم من إعلانه الحياد[37]. ولم ترغب مالطا أيضًا في المشاركة بتقديم الدعم النشِط إلى روسيا، على الرغم من أن «حماية الصليب المقدس وأنصاره في مواجهة الكفار هي في أساس وجوده» (أي: محفل فرسان مالطا - المؤلِّفة)[38]، بحسب ما كتبت كاترينا إلى رئيس المحفل. وكما أشارت دورية *Annual Register* **(السجل السنوي)**، فإن «الأسباب السياسية - الاقتصادية، وليس المجابهة الدينية، هي التي أثارت «حميةً خاصةً لدى الدول المتوسطية»: فقد أخل مشروع روسيا بـ «المبادئ» وبـ «موازين القوى»[39]، التي تلخصت في تلافي الاحتلالات الكبيرة أو تشكيل كيانات دولٍ جديدة. «فضلًا عن ذلك كلِّه، يمكن أن نضيف الخوف العام من قوة روسيا المتعاظمة، والتأكُّد من نتائج الهيمنة الواضحة المُحققة، التي تفرضها على هذا النحو التعسُّفي في شؤون الشمال»[40].

---

1, с. 47; «Собственноручное черновое письмо Екатерины II к Вольтеру от 3 июля 1769 г.,» in: = Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, с. 345-348.

[**مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير**، ج 1، ص 47؛ «مسودة رسالة كاترينا الثانية بخط اليد إلى فولتير بتاريخ الثالث من تموز/ يوليو 1769»، في: أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، ص 345-348]. عن أصداء موضوعة «الحملة الصليبية» ضد روسيا لدى شعراء العصر الكاتريني، يُنظر: В. Ю. Проскурина, *Мифы империи: Литература и власть в эпоху Екатерины II* (М., 2006), с. 168-174.

[ف. ي. بروسكورينا، **الأساطير والإمبراطوريات: الأدب والسلطة في عصر كاترينا الثانية** (موسكو، 2006)، ص 168-174].

(37) ساعد حلفاء السلطان الكاثوليك الإمبراطورية العثمانية عن طيب خاطر. وقد عمل المهندس الفرنسي البارون دو توت على وجه الخصوص على تحصين الدردنيل والقسطنطينية، وجلب البولنديِّين والحرفيِّين من راغوزيا (دوبروفنيك) لبناء السفن للباب العالي.

(38) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XI, с. 370-371.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 11، ص 370-371].

(39) «... يضعون أوروبا على كفة الميزان»، قيلت بمرارةٍ في «صرخة الشعب اليوناني» أيضًا.

(40) *AR*, 1771, pp. 1-2.

اكتسبت شعارات المجابهة المسيحية - الإسلامية طابعًا تجريديًّا في روسيا نفسها أكثر فأكثر، حيث اقترنت بأفكار مجردة عن دور «الرُّوس» الإنقاذي، وليس بخطواتٍ سياسية ملموسة أو بحلِّ النزاعات الطائفية. وفي تسعينيات القرن الثامن عشر عبر غ. د. ديرجافين عنها بـ «قصيدة غنائية لمناسبة الاستيلاء على مدينة إزمائيل»[41] على النحو الآتي:

أنتم، الذين تحلمون
بمنع الرُّوس من السير على درب المجد،
من دون جدوى عدو المسيح تساعدون
وإيمانكم تبدِّلون!
وبدل ارتكاب الخطأ،
فكِّروا أولًا بهدوء،
درب العدالة الإلهية هو غاية الرُّوس،
فكِّروا واتخذوا القرار:
مع من أنتم، وضد من تقومون؟
هل بإمكانكم تغيير مصيركم؟
لن تنجحوا، **لأن الرُّوس وُلِدوا**
**ليحموكم من البرابرة،**
**ومن انتهاكات التيموريين**[42]،

---

(41) عن دور «الروس» الإنقاذي و«الخطاب الإمبراطوري الحماسي» لدى ديرجافين، يُنظر:
**Проскурина, с. 190-194.**

[بروسكورينا، ص 190–194].

[**مدينة إزمائيل** (إسماعيل): مدينة في منطقة أوديسا (أوكرانيا المعاصرة). تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنها أُنشِئت في عام 1590. خضعت للإمبراطورية العثمانية، واستولى عليها الرُّوس أول مرة في عام 1770، ولكنهم تخلوا عنها للأتراك في عام 1774، بموجب معاهدة كوتشوك - كاينارجي؛ ثم عادوا واستولوا عليها في عام 1809 بعد عدة محاولات فاشلة، وبقيت جزءًا من الإمبراطورية الروسية، ثم الاتِّحاد السوفياتي، لتصبح في ما بعد تابعة لأوكرانيا، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي]. (المترجم)

(42) **التيموريُّون**: نسبة إلى تيمورلنك، والمقصود التتار والمغول. (المترجم)

**ليحرسوكم من إيحاءات عمر[43]،**
**ينتقمون للحروب الصليبية،**
**يطهِّرون مياه الأردن،**
**ويحرِّرون القبر المقدس...**
(التشديد من المؤلِّفة).

الواقع أن «الرُّوس الأمجاد» بالكاد كانوا مستعدِّين لاجتراح مثل هذه المآثر من أجل تحرير المقدسات. فجدير بالذكر أن تقديس الأماكن المقدسة لم يكن بالنسبة إلى الضباط الذين أُرسلوا من حملة الأرخبيل إلى فلسطين، سوى غطاءٍ ملائمٍ للنشاط السياسيِّ والاستطلاعيِّ العسكري[44]. ولم يحظَ آثوس - الذي جابتْ سفن العمائر البحرية البحر بمحاذاته - باهتمامهم (زاره قادة الحملة فترةً قصيرة)، كما لم يُبدوا حماسة لزيارة الأماكن المقدسة في جزر إمارة الأرخبيل. ولم يخطر في بال أحد على ما يبدو تنظيم رحلات لقادة السفن إلى الأماكن المقدسة (التي أصبحت تقليدًا متبعًا في القرن التاسع عشر)، لا أثناء الهدنة ولا بعد انتهاء الأعمال القتالية[45].

لم تترك بيانات المجابهة المسيحية - الإسلامية أثرًا على أوضاع رعايا

(43) المقصود الخليفة عمر بن الخطاب، ويقصد الشاعر حماية اليونانيِّين من تأثير تعاليم الإسلام عليهم. (المترجم)

(44) يُنظر: С. Плещеев, *Дневные записки путешествия из архипелагского России принадлежащего острова Пароса в Сирию и к достопамятным местам в пределах Иерусалима находящимся с краткою историею Алибеевых завоеваний, Российского флота лейтенанта Сергея Плещеева в исходе. 1772 лета* (СПб., 1773).

**[س. بليشييف، يوميات الرحلة التي قام بها الملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في نهاية صيف عام 1772، من جزيرة باروس الأرخبيلية التي تعود لروسيا، إلى سوريا والأماكن المشهودة الواقعة في حدود القدس، مع عرض سريع لفتوحات علي بك** (سان بطرسبورغ، 1773)].

(45) أُنشئت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحديدًا، بعد تحرير الفلاحين، الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الإمبراطورية، بدعمٍ فاعل من الأسرة المالكة. وقد تمثلت إحدى مهماتها الرئيسة بتطوير حركة الحج في أوساط الشعب (تؤكِّد الوثائق على الصلة بين إصلاح عام 1861 وإنشاء الجمعية). وأُنشئت أيضًا الجمعية الروسية للملاحة البحرية والتجارة، التي كانت الأسرة المالكة وكبار الموظفين من النبلاء من أكبر المساهمين فيها، وذلك بهدف تسهيل انتقال الحجاج الرُّوس إلى الأماكن المقدسة في فلسطين (وكذلك لتيسير العمليات التجارية).

الإمبراطورة من أتباع الديانة الإسلامية، بل على العكس. إذ عمدت كاترينا، إبان الحرب الروسية - التركية، إلى تقديم جملة من الامتيازات للمسلمين الرُّوس، ومنحتهم حق بناء المساجد من دون قيود، وذلك خشية وقوع اضطرابات في أوساط قسمٍ كبيرٍ منهم، وللحيلولة دون قيام علاقاتٍ ودِّية بين تتار أورنبورغ وقازان وخَانِية القرم[46].

لم يمنع الخطاب المسيحيُّ العامُّ كاترينا وأورلوف من الانتقال بخفة إلى البحث عن حلفاء آخرين في معسكر «الهاجَرِيِّين الكفار»، أي المسلمين، وإلى التعاون بهذا القدر أو ذاك من النجاح مع الحاكمين المتمرِّدَيْن علي بك والشيخ ظاهر العمر[47]. ففي مراسلاتها مع فولتير، وصفت كاترينا «السُّلطان المصري» علي بك، المنشق عن الباب العالي، أنه حليفها الطبيعي[48]، وأنه ليس «عدوًّا للمسيح»، وراحت تمتدح تسامحه (كتبت كاترينا: «يُقال إن المسيحيِّين والأتراك مسرورون منه كثيرًا، لأنه يلتزم التسامح حيال الأديان الأخرى، ولأنه شجاع وعادل»)[49]، واقترحت على فولتير مازحةً «تعميد علي بك بتغطيسه في الماء أو بأيِّ شكلٍ آخر»[50]. وعلى الرغم من أنه كان في تسامح الحاكِمَيْن العربيين الدِّيني قدر من المبالغة على الأرجح (كانت هذه المبالغة ضرورية كي يصبحا بطلين، في نظر المراسلين المتنوِّرين!)، إلا أن الأعمال القتالية في حوض البحر المتوسِّط خلال عامي 1772 و1773 اتسمت بالتعاون مع الحاكِمَيْن العربيين المسلمَيْن.

---

(46) Соловьев, с. 284-285; Г. В. Ибнеева, *Путешествия Екатерины II: Опыт <<освоения>> имперского пространства* (Казань, 2006), с. 111-128.

[سولوفيوف، ص 284-285؛ غ. ف. إيبنييفا، **رحلات كاترينا الثانية: تجربة «استكشاف» الفضاء الإمبراطوري** (قازان، 2006)، ص 111-128].

(47) يُنظر الفصل الثامن.

(48) ناقش فولتير وكاترينا الثانية أعمال علي بك في مراسلاتهما مرارًا، متأثِّرَيْن بنجاحاته وإخفاقاته. يُنظر الفصل الثامن بهذا الخصوص.

(49) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 137-138.

[**مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير**، ج 1، ص 137-138].

(50) المرجع نفسه، ج 1، ص 150.

مع تطوُّر الأعمال القتالية، فقدت العلاقات المتبادلة بين الأعداء صبغتها الدينية، بعدما خضعت لقوانين الحرب (من دون أن تُستثنى من ذلك عادة تحويل الجوامع إلى كنائس وبالعكس). فحمل العسكريُّون الرُّوس السِّلاح في مورية لحماية الأتراك - الذين سلموا القلعة - من اليونانيِّين الغاضبين:

نحن بطبيعتنا لسنا قساة،
ولكنْ نغفرُ لكم، أنتم الشعوب البائسة،
التي تئنُّ كل لحظةٍ تحت وطأة المآسي القاسية.

هكذا تعامل ف. ب. بتروف مع هذا الحدث (قصيدة غنائية لمناسبة انتصار الأسطول الروسي في مورية عام 1770). وبحسب الضباط الرُّوس، «بدا اليونانيُّون جاهلين بقوانين الحرب **الحضارية**، خلافًا للأتراك»[51].

اهتمت كاترينا شخصيًّا بوضع الأسرى الأتراك، ودعت إلى التعامل مع العدوِّ المهزوم بإنسانية. واقتداءً بهذه الدعوة، أفرج أورلوف عن قسمٍ من الأسرى الأتراك[52]؛ كما توقَّف عن إطلاق النار على العمارة البحرية التركية المحتجزة في خليج شيسما، من أجل منح البحارة الأتراك الفرصة لترك سفنهم والوصول إلى الشاطئ. وكان الضباط الرُّوس والأتراك يتبادلون الزيارات

---

(51) «Собственноручный журнал капитана-командора С. К. Грейга,» *Морской сборник*, t. II (1849), c. 717.

[«صحيفة القائد-القبطان س. ك. غريغ بخط يده»، **المجموعة البحرية**، مج 2 (1849)، ص 717].

أشار غريغ إلى أن اليونانيِّين «الذين كانوا يجهلون قوانين الحرب التي تلتزم بها الشعوب المتحضِّرة بحزم» هاجموا الأتراك في أثناء انسحابهم من قلعة ميسيتريا بموجب الاتفاقية.

(52) هذا ما تحدث عنه بافل بوتيومكين في مسرحيته الدرامية «الرُّوس في الأرخبيل»، على لسان أ. غ. أورلوف، محرِّر الأسرى الأتراك:

بالسيف والشجاعة مَجدَ نفسه،
ولا نزال نحن نبذل الجهد لتمجيد أنفسنا،
ونسعى إلى تخليص التعساء من الكارثة.

П. Потемкин, *Россы в Архипелаге: Драмма* (СПб., 1772), c. 43.

[ب. بوتيومكين، **الروس في الأرخبيل: دراما** (سان بطرسبورغ، 1772)، ص 43].

والهدايا في أوقات الهدنة. وأخيرًا، اقترح الجانب الروسي، خلال مفاوضات السلام، منح «كلتا الديانيتين الحرية في أراضي الإمبراطوريتين»[53].

انعكست كلُّ هذه التقلُّبات في العلاقات المسيحية - الإسلامية في مفردات الوثائق الرسمية وفي لغة الشِّعر. فأطلقت في بداية الحرب نعوتٌ على المسلمين تتناسب مع التقاليد التوراتية والفولكلورية: كالهاجَرِيين، الإسماعيليين، السراسنة، المُحمديِّين غير الصادقين، الهاجَرِيين الأشرار، أعداء المسيح ...إلخ، بيد أنه أخذت تترسخ في الوقت نفسه مفاهيم ولدتها أفكار عصر التنوير من نوع: الطغاة، البرابرة، السلطة الاستبدادية، التي تقف إدارة كاترينا - أثينا واهبةً القوانين في وجهها:

إنك أنتِ قاهرة الطاغية الوحشيِّ،
مُشرِّعة القوانين المتوجة بالانتصارات،
خذي اللوحة، وانصبي العدل في رابعة النهار:
إلى المنطقة التي أزهرت فيها قوانين ليكورجوس وسولون[54]
ارسلي قوانينك، حيث ستبقى موضع إجلال إلى الأبد.
(ف. ب. بتروف، **«قصيدة لمناسبة انتصارات الأسطول الروسي في البحر»**).

مع نهاية الحرب، أصبح استخدام المصطلح الحربي المعتاد - الخصم أو العدو - للدلالة على الأتراك، أمرًا مفضلًا. ومع اقتراب موعد إبرام معاهدة السلام صار الحديث عن وحدة الجنس البشري الذي تتساوى فيه الدماء

---

(53) Е. И. **Дружинина**, *Кючук-Кайнарджийский мир 1774 г. (его подготовка и заключение)* (М., 1955), с. 130.

[ي. إ. دروجينينا، **معاهدة كوتشوك - كاينارجي 1774 (إعدادها وإبرامها)** (موسكو، 1955)، ص 130].

(54) **ليكرجوس** (800-730ق.م.): مشرِّع إسبارطة الأسطوري، الذي حولها إلى مجتمع عسكري، وفقًا لعرافة معبد أبولو في مدينة دلفي. احتوت إصلاحاته فضائل ثلاث هي: المساواة (بين المواطنين)، اللياقة العسكرية، الصرامة.

**سولون**، أو صولون (640-560ق.م.): مشرِّع يوناني، شاعر ورجل قانون أثيني، سن مجموعة من القوانين الإصلاحية التي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك. وعلى الرغم من أن إصلاحاته فشلت في ما بعد، إلا أنه يُعتبر المُمَهِّد لقيام ما سُمِّيَ النظام الأثيني الديمقراطي لاحقًا. (المترجم)

المسيحية والمسلمة المُهرَقة، تظهر أكثر فأكثر على صفحات الوثائق المتعلِّقة بالحرب[55].

على هذا النحو، برزت إلى جانب النظرة إلى شرق البحر المتوسِّط - بوصفه فضاءً يمرُّ خطُّ المجابهة بين المسلمين والمسيحيين عبره - صورةٌ أخرى لمجتمع متعدِّد الطوائف، يعتبر سفك الدماء خطيئة ينبذها الله. لقد كانت غلبة هذه الصورة النمطية أو تلك في وعي المجتمع الثقافي، تتوقف على الوضع السياسيِّ وعلى الدعاية الحكومية إلى حدٍّ بعيد. ولم تكن كاترينا، من حيث الجوهر، تميل إلى تضخيم أهمية التصوُّرات السائدة عن صراع المسيحية والإسلام في شرق البحر المتوسِّط، في اللعبة السياسية الفعلية.

## التوجُّه إلى التراث الكلاسيكي

ما كانت الإمبراطورة الروسية «المتنوِّرة» لتُفوِّت فرصة الاستفادة من وجود الأسطول الروسي في شرق البحر المتوسِّط، في سياق افتتان عصرها **بالماضي الإغريقي القديم**. فهي لم تكن تشاطر بالكامل أوهام الكثيرين من محبِّي الحضارة الهيلينية، وإلى حدٍّ ما فولتير نفسه بشأن قدرة اليونانيِّين على إحياء ماضيهم العظيم، بعد التخلُّص من النير العثماني[56]. بيد أنها لم تتوانَ عن

(55) هكذا، على الرغم من أن خطاب الجنرال - النائب العام لمناسبة الاحتفال بالسلام عبر عن شكر الرعايا لكاترينا الثانية على «الدفاع عن الدين»، تضمن مع ذلك الصيغة التي تدعو إلى «الرحمة بالبشرية». يُنظر: С. Ушаков, *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского,* почерпнутая из достоверных Российских и иностранных источников С. Ушаковым (СПб., 1811), с. 85.

**[س. أوشاكوف، حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي المستقاة من مصادر روسية وأجنبية موثوقة** (سان بطرسبورغ، 1811)، ص 85].

نورد للمقارنة مقطعًا من رسالة كاترينا إلى فولتير مؤرخة في عام 1770، حينما كانت نهاية الحرب لا تزال بعيدة: «إذا اعتبرنا أن قتل التركي أمرًا يُكافَأ عليه كلُّ مسيحيٍّ، فإن جيشي كله سيذهب إلى الجنة بعد الحرب». Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государствен ном архиве Министерства иностранных дел, in: *СбРИО*, t. XIII (СПб., 1874), с. 35.

[أوراق كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 13 (سان بطرسبورغ، 1874)، ص 35].

(56) لمزيد من التفصيل عن هذه الأوهام، يُنظر: O. Augustinos, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era* (Baltimore; London, 1994); D. Constantine, *Early Greek Travelers and the Hellenic Ideal* (Cambridge, 1984).

تعزيز هذه الأوهام في أوساط المجتمع. فالاهتمام الواسع بالثقافة اليونانية وبالترجمات من اللغة اليونانية القديمة، وتوجُّه الشعر والفنِّ المعماري الروسيين نحو المنابع الإغريقية القديمة، ما كان ليحصل من دون تأثيرٍ مُوجهٍ من الأعلى[57].

نُشِرت مقالات من «موسوعة» ديدرو ودالامبير تحت عناوين: إسبارطة، اليونان، «مورية أو بيلوبونيز، مع كل الأمكنة القديمة والجديدة فيها»[58]. وفي ذروة الحرب - في 18 أيار/مايو 1770 - (في أثناء العمليات العسكرية في مورية) ظهر الإعلان الآتي في **أنباء سان بطرسبورغ**: «تدعو الجمعية التي تسعى إلى ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة الروسية الراغبين في ترجمة الكتب الوارد ذكرها أدناه، والتي اختيرت لهذا الغرض [نشير إلى أن كاترينا كانت هي من أسس هذه الجمعية في عام 1763]. وسيُدفع من ستة إلى ثمانية وإلى تسعة روبلات للصفحة الواحدة باللغة الروسية. كما سيحظى الكتاب اليونانيُّون واللاتين بمعاملة خاصة. وتفيد الجمعية، في الوقت نفسه، بوجود كتب أخرى قيد الترجمة». ثم تلت ذلك قائمتان: **الأولى** تحتوي المؤلفات المترجمة حينذاك (نحو ثلاثين كتابًا، من بينها أربعة لمؤلِّفين من العصر القديم)؛ فيما تضمنت **الثانية** تسعة وأربعين عنوانًا لمؤلِّفات مُقترَحة للترجمة إلى اللغة الروسية (من بينها ثلاثة وعشرون مؤلفًا من الأدب

---

(57) يُنظر، على سبيل المثال: Э. Д. Фролов, *Русская историография античности (до середины XIX в.)* (Л., 1967); Зорин, <<*Кормя двуглавого орла...*>>; Проскурина, *Мифы империи*; И. Е. Путятин, *Образ русского храма и эпоха Просвещения* (М., 2009).

[إ. د. فرولوف، **التأريخ الروسي للعصر الكلاسيكي القديم (حتى أواسط القرن التاسع عشر)** (لينينغراد، 1967)؛ زورين، «**تغذية النسر ذي الرأسين...**»؛ بروسكورينا، **الأساطير والإمبراطوريات**؛ إ. ي. بوتياتين، **صورة المعبد الروسي وعصر التنوير** (موسكو، 2009)].

(58) *Санктпетербургские ведомости*, 29 января 1770, no. 9; С. Я. Карп, *Французские просветители и Россия. Исследования и новые материалы по истории русско-французских культурных связей второй половины XVIII в* (М., 1998).

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 29 كانون الثاني/يناير 1770، العدد 9؛ س. ي. كارب، **التنويريون الفرنسيون وروسيا: دراسات ومواد جديدة في تاريخ العلاقات الثقافية الروسية - الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر** (موسكو، 1998)].

الكلاسيكي اليوناني واللاتيني)[59]. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1770، كتبت الإمبراطورة إلى فولتير: «سأحتاج إلى تعلُّم اللغة اليونانية في جامعةٍ ما قريبًا، علمًا أن هوميروس يُترجَمُ إلى اللغة الروسية. وسيكون هذا كافيًا كبداية. وسنرى، تبعًا للظروف، ما إذا كنا سنحتاج إلى نجاحاتٍ أخرى»[60]. وفي كانون الثاني/ يناير 1777، تلقى فولتير التقرير الآتي من الإمبراطورة: «لقد قرأت ترجمتين جديدتين إلى الروسية هذا الشتاء، الأولى لتاسو[61]، والثانية لهوميروس. الجميع يقول إنهما جِّيدتان جدًّا»[62]. وكما بين أ. ن. يغونوف، الباحث في ترجمات هوميروس إلى اللغة الروسية، كان بين يدي كاترينا، على الأرجح، «الجزء الأول من **الإلياذة**، الصادر بترجمة يكيموف في عام 1767». لقد احتاجت كاترينا إلى صدور هذه الترجمة، على الرغم من كلِّ مساوئها، «من أجل إظهار صورة العهد الباهرة»[63] وتحقيق مخططاتها السياسية.

في معرض دراسة «آثار تعرُّف المجتمع الروسي على الأدب الكلاسيكيِّ القديم»، في مطلع القرن العشرين، أشار تشيرنياييف إلى أن ترجمات كلاسيكيِّي العصر القديم صدرت في سبعينيات القرن الثامن عشر وثمانينياته، أكثر من أيِّ وقت آخر، عن مطابع بطرسبورغ التابعة للدولة بالدرجة الأولى[64] (وقد

---

(59) *Санктпетербургские ведомости*, 18 мая 1770, no. 40, Прибавление.

[أنباء سان بطرسبورغ، 18 أيار/ مايو 1770، العدد 40، ملحق].

(60) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 122.

[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 122].

(61) **توركواتو تاسو** (Torquato Tasso) (1544-1595): كاتب وشاعر إيطالي بارز في القرن السادس عشر، أهمُّ أعماله وأشهرها ملحمة «تحرير أورشليم» (1575)، التي يصف فيها مواجهة النصارى والمسلمين أثناء حصار القدس في نهاية الحملة الصليبية الأولى. (المترجم)

(62) المرجع نفسه، ج 2، ص 161.

(63) А. Н. Егунов, *Гомер в русских переводах XVIII-XIX вв* (М., 2001), с. 48-49.

[أ. ن. يغونوف، **هوميروس في الترجمات الروسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** (موسكو، 2001)، ص 48-49].

ترجم ميخائيل بوبوف قصيدة توركواتو تاسو «تحرير أورشليم» من الفرنسية، وصدرت في روسيا في عام 1772.

(64) П. Черняев, «Следы знакомства русского общества с древнеклассической =

أكدت حساباتنا أساس الدليل الموحد المعاصر للكتاب الروسي، الصادر عن المطبعة الوطنية في القرن الثامن عشر، هذه الاستنتاجات)؛ ولم تُنجَز خلال ذاك العقد ترجمة **الإلياذة** و**الأوديسة** إلى اللغة الروسية فحسب (أي بعد الحرب الروسية - التركية بفترة وجيزة، في أثناء حقبة إعداد «المشروع اليوناني»)، بل صدرت أيضًا مؤلفات كلٍّ من: فيرجيل، أوفيد، غاي، يوليوس قيصر، أبوليوس، شيشرون، سوتيونيوس، فلوطرخس، ديموستيني، فيلون السكندري، سينيكا، أبولودور الأثيني، ديودور الصقلي، وغيرهم[65]؛ حتى إن بعضها لم يُصدَر مرة أخرى.

---

литературой в Екатерины II, Материалы для истории классического образования в России в био- = библиографических очерках его деятелей былого времени,» in: *Филологические записки*, IV Вып. (Воронеж, 1904-1905).

[ب. تشيرنيابيف، «آثار تعرُّف المجتمع الروسي على الأدب الكلاسيكي القديم في عصر كاترينا الثانية، مواد لتاريخ التعليم الكلاسيكي في الكتابات البيبلوغرافية لناشطيه في العصور القديمة»، في: **كتابات لغوية**، 4 إصدارات (فورونيج، 1904-1905)].

(65) **فيرجيل** (70-19ق.م.): شاعر روماني، مؤلِّف **الإنياذة**.

**أوفيد** (43ق.م. - 17م): شاعر روماني قديم، أشهر أعماله «التحوُّلات» التي تناولت الميثولوجيا الإغريقية والرومانية.

**غاي** (1809-1872): شاعر كرواتي من أعلام عصر الأنوار.

**يوليوس قيصر** (100-15ق.م.): إمبراطور، قيصر، جنرال وكاتب روماني.

**أبوليوس** (125-18ق.م.): كاتب لاتيني وخطيب أمازيغي (بربري). فيلسوف وعالم طبيعي ومسرحي وشاعر. ولد في مدينة مادور (مداوروش المعاصرة) في الجزائر. كان يسمِّي نفسه في مخطوطاته أحيانًا أبوليوس المادوري الأفلاطوني.

**شيشرون** (106-43ق.م.): كاتب وخطيب روما المميز.

**سوتيونيوس** (6-140م): مؤرِّخ روماني، ولد في منطقة هيبو بالجزائر. كتب تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وشرح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في روما.

**فلوطرخس** (46-120م): فيلسوف ومؤرِّخ يوناني. أهم كتبه السير المقارنة لعظماء اليونان والرومان.

**ديموستيني** أو **ديموستينيس** (384-322ق.م.): رجل دولة إغريقي وخطيب بارز في أثينا القديمة. تشكِّل خطبه تعبيرًا مهمًّا عن الثقافة اليونانية القديمة، وتوفِّر فهمًا شاملًا لسياسة اليونان وثقافتها.

**فيلون الإسكندري** (20ق.م. - 50م): فيلسوف يهودي، ولد في الإسكندرية. عاش في الفترة الهيلينستية. استخدم الرمز لمواءمة الفلسفة اليونانية واليهودية.

**سينيكا** (4ق.م. - 65م): فيلسوف وكاتب مسرحي روماني. ولد في قرطبة وتوفِّي بالقرب من روما. =

كان الشعر الروسي، الذي احتفى بانتصارات البحر المتوسِّط مقرِّظًا، مشبعًا بصور من العصر الإغريقي القديم أيضًا. فحفلت قصيدة خيراسكوف الشهيرة «معركة شيسما» باستعادات واضحة من **الإلياذة**، وبحماسة شاعريةٍ تنبأ فيها الأدباء الرُّوس لليونانيِّين بعودة «العصر الذهبي» القريبة:

آباءَ العلم اليونانيِّين المُستَعبَدين!
استريحوا، فقد حل عليكم عصرٌ ذهبيٌّ،
ودنا عهدُكم السعيد.
واستعراضات آلفيوس[66] الصامتة حتى الآن
ستعيدون إحياءها إلى الأبد
على شرف كاترينا!
**(ف. بتروف).**

أو:

شعلةُ النُّور التي تُضِيءُ الكون
سوف تنير طريق كاترينا
وتطرد مُحِبِّي مُحمدٍ
وترفع من شأن اليونانيِّين مجددًا.
والعلوم الهابطة ستنهض من كبوتها
ويذوي الجهلة المتفاخرون...
**(ف. مايكوف).**

---

= **أبولدور الأثيني** (180-120ق.م.) مؤرِّخ ولغويٌّ يوناني من القرن الثاني قبل الميلاد، أرخ تاريخ سقوط طروادة.

**ديودور الصقلي** (90-30ق.م.): مؤرِّخ يونانيٌّ ذاع صيته في القرن الأول قبل الميلاد، عاش في روما في عهدي يوليوس قيصر وأغسطس قيصر. كتب تاريخ العالم في موسوعته التي سماها **مكتبة التاريخ**، وتألفت من أربعين مجلدًا. (المترجم)

(66) **ألفيوس**: في الميثولوجيا اليونانية القديمة إله النهر الذي يحمل اسمه في بيلوبونيز، وابن الإلهين أوسيان (إله المحيطات) وتيثيس (إلهة الأنهر). أحب الحورية أريتوسا، مرافِقة الإلهة أرتميس (إلهة الصيد والخصوبة والعذرية)، فتبعها بعدما اتخذ هيئة صياد، حتى جزيرة أورتيغيا القريبة من صقلّية. استغاثت أريتوسا بأرتميس التي حولتها إلى نبع، فجعله ألفيوس رافدًا لمياهه. (المترجم)

يمكن الموافقة بالكامل على استنتاج ف. ي. بروسكورينا أن «الميل إلى التاريخ المُؤسْطَر»، أي «الخالد»، رفع الدولة نفسها وقدسها وعززها، تلك الدولة المُتَخَيلة، ليس في الأعمال الواقعية والأفعال الناجحة إلى حدٍّ ما أحيانًا وحسب، بل أيضًا في تصاميم الانتصارات التاريخية «الخالدة»[67]. بيد أن الصور المسيحية ظلت حاضرةً أيضًا، على الرغم من اللجوء إلى الصُّور الإغريقية القديمة. ففي «قصيدة... لمناسبة الاستيلاء على ياش»[68] الصادرة في عام 1769، بعث ف. بتروف الأمل في نفوس «قبيلة» اليونانيِّين «الشجعان»، حين قال:

«... كاترينا، وحدها مخلِّصة كلِّ الحزانى» - مما يعطي ف. ي. بروسكورينا المسوغ للقول بحقٍّ: «يعمد بتروف في غمرة بحثه عن الترميز الأدبي الأكثر ملاءمة لصورة الإمبراطورة، إلى دمج الموضوعات اليونانية الوثنية ... بالموضوعات الإنجيلية»، فيجمع بين الإلهة أثينا والعذراء والدة الربِّ المخلص[69].


س. توريللي. استعارة تمثل انتصار كاترينا الثانية على الاتراك والتتار، في عام 1772

تابع ديرجافين هذا النهج الذي «يجمع» بين المسيحي والوثني، مصوِّرًا كاترينا في «قصيدة غنائية لمناسبة الاستيلاء على مدينة إزمائيل» في عام 1791 وهي تحمل صليبًا بإحدى يديها، ومصباحًا مضيئًا بيدها الأخرى على غرار أثينا. وتعكس هذه الصورة الازدواجية في فهم السياسة الروسية، فهي تنفِّذ واجبها التقليدي بوصفها

---

(67) Проскурина, с. 168.
[بروسكورينا، ص 168].

(68) ياش: مدينة رومانية تعتبر عاصمة رومانيا الثقافية؛ وكانت أيضًا عاصمةً لإمارة مولدوفيا في القِدَم. (المترجم)

(69) المرجع نفسه، ص 170.

دولة أرثوذكسية، وتعيد في الوقت نفسه إمبراطورية «آباء العلوم» - «اليونانيِّين المستعبَدين»، إلى حظيرة العالم الأوروبي، الأمر الذي يتلاءم مع اهتمامات عصر التنوير والثقافة الكلاسيكية الثقافية.

لم تهتم الإمبراطورة الروسية بالشعارات الدينية فحسب، بل حرصت أيضًا، من دون شكٍّ، على أن يترك الكساءُ اليونانيُّ القديم - الذي أسبغته على سياستها الشرقية - أثَرَهُ على رعاياها وعلى الأجانب. بيد أنها هي نفسها ما كانت لترى في هذا الكساء أكثر من مجرد زيٍّ من أزياء المسرح السياسي. ففي مراسلاتها مع فولتير، تلقفت **الموضوع اليوناني**[70] الذي كان يشغل بال الفيلسوف باهتمام، إلا أن اهتمامها هذا، على ما نعتقد، تحول مع مضي حملة الأرخبيل قُدمًا، إلى مجرد لَعِبٍ على المثال اليوناني (القديم، بالتأكيد!). ولعدم رغبتها في اعتبار نفسها خاسرة أيًا تكن نهاية الحرب، كانت الإمبراطورة تلمح في لعبتها السياسية إلى إمكان تجسيد المثال الأعلى اليوناني في الحياة الخارق تارةً (وقد بدأ فولتير نفسه يخطِّط بحماسةٍ لمستقبل أثينا الثقافي الزاهر ولإطلاق «الألعاب الإسثميانية»[71] مجددًا)، وتُلقِي مسؤولية انهيار الآمال كاملةً، تارةً أخرى، على ورثة «الإسبارطيِّين»[72] و«الأثينيِّين» الجدُد، «غير الجديرين» بماضيهم. لقد كانت لهجة مراسلات كاترينا مع فولتير تحتمل الدعابة أحيانًا، ولكنْ مع دنو نهاية الحرب صار من الصعب أكثر إعادتها إلى جادة النقاش الجدِّي للمسائل اليونانية.

---

(70) للاطلاع على تطوير فولتير هذه الفكرة، يُنظر على سبيل المثال: Camariano-Cioran, p. 530.

(71) **الألعاب الإسثميانية** (نسبةً إلى برزخ إسثميان): كانت هذه الألعاب تنظم في اليونان القديمة تكريمًا للإله بوسيدون. وكانت تجري في الربيع، مرةً كل عامين، عند برزخ إسثميان الذي يصل جزيرة مورية باليونان. اكتسبت هذه الألعاب أهمِّيتها على مستوى اليونان، بعد إطاحة الطاغية كيبسليدس (نحو 582ق.م.). وكانت تجري خلالها مسابقات في الجمباز والفروسية والشعر والموسيقى، وتستمر عدة أيام، ويحصل فيها الفائز على سعفة نخيلٍ وإكليلٍ من الورد. وما لبثت أن حُظرت مع غيرها من الألعاب والمهرجانات الوثنية في القرن الرابع، بعد اعتناق المسيحية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول. (المترجم)

(72) لمزيد من التفصيل عن الولع بـ «الفكرة الإسبارطية»، يُنظر: E. Rawson, *The Spartan Tradition in European Thought* (Oxford, 1969).

لم تتحدث كاترينا صراحة عن إحياء استقلال اليونان، حتى في معرض ابتهاجها بنجاح العمليات العسكرية في مورية خلال أيار/مايو 1770؛ ولكنها أعربت عن سعادتها بالتعرُّف إلى الأسماء والتسميات القديمة: «يبدو أن اليونان يمكن أن تعود حرة من جديد، لكنها لا تزال بعيدة جدًّا من ذاك الوضع الذي كانت عليه في ما مضى؛ ولكن من المشوِّق أن نسمع عن تلك الأماكن التي شنفوا آذاننا بالحديث عنها في صغرنا» (وَرَدَ هذا الكلام في رسالة إلى فولتير مؤرخة في 27 أيار/مايو 1770، فرد الفيلسوف بكلِّ جدية: «إن مشروعكم بخصوص اليونان هو الأجدر بالثناء بين كلِّ المشاريع الأخرى التي عرفناها على مدى ألفي عام»)(73). وبعد الهزائم الأولى في مورية، تراجعت آمال الإمبراطورة في إحياء ازدهار اليونان التليد، بيد أن النموذج المثالي بقي حاضرًا في الدعاية الرسمية وفي لعبتها (السياسية)، إذ كتبت إلى فولتير في 22 تموز/يوليو 1770 تقول: «إن انتعاش اليونان يتوقف على اليونانيِّين وحدهم. وأنا، من جهتي، سأستخدم كل الوسائل كي أزيِّن الخريطة الجغرافية بربط كورينث بموسكو؛ علمًا أنني لا أعرف ما ستكون النتيجة... فأحباؤكم اليونانيُّون أظهروا شجاعة مماثلة لشجاعة أسلافهم القدماء في حالاتٍ عديدة، فضلًا عن أنهم لا ينقصهم الذكاء». ثم عادت بعد سنة (في 14 آب/أغسطس 1771) لتضيف: «فلو أن عزيزتكم اليونان، التي تعيش على التمنِّيات فقط، تصرفت بتلك القوة كما هذا الحاكم (علي بك - المؤلِّفة)، لما بقي مسرح أثينا حاكورةً تنمو فيها الخضار، والليسيه إسطبلًا»(74).

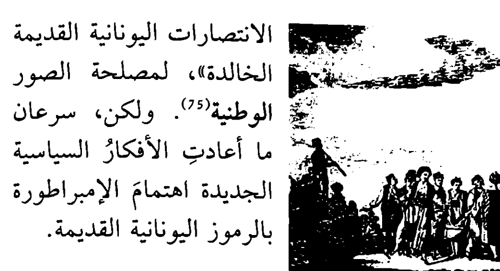
في منتصف سبعينيات القرن السابع عشر، تجلت خيبة أمل كاترينا في تغيير الميول المعمارية والفنية: فلدى مناقشة تنظيم الاحتفالات في موسكو، لمناسبة الصلح مع الأتراك في عام 1775، تخلت الإمبراطورة عن «صور

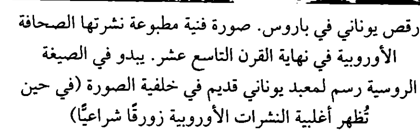
---

(73) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 87, 90.

[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 87، 90].

(74) المرجع نفسه، ج 1، ص 97-98، ج 2، ص 31.





رقص يوناني في باروس. صورة فنية مطبوعة نشرتها الصحافة الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر. يبدو في الصيغة الروسية رسم لمعبد يوناني قديم في خلفية الصورة (في حين تُظهر أغلبية النشرات الأوروبية زورقًا شراعيًّا)

الانتصارات اليونانية القديمة الخالدة»، لمصلحة الصور الوطنية[75]. ولكن، سرعان ما أعادتِ الأفكارُ السياسية الجديدة اهتمامَ الإمبراطورة بالرموز اليونانية القديمة.

كانت الفترة بين عامي 1779 و1782 حقبة «المشروع اليوناني». ففي عام 1771، أُطلِق اسم قسطنطين على حفيد الإمبراطورة الثاني، ورُسِم له أن يكون حاكم الإمبراطورية اليونانية المقبلة؛ فبُدِئَ بتعليمه «اللغة الهيلينية - اليونانية» منذ الصغر، وأحيط بحاشية من النُّبلاء اليونانيِّين. وقد شاركت كاترينا الثانية شخصيًّا في وضع برامج أحفادها التعليمية، وحرصت على أن يحتل التاريخ اليونانيُّ القديم موقعًا مركزيًّا فيه[76].

لدى وصوله إلى روسيا في عام 1779، شيد ش. كاميرون مجموعة من المنشآت في تسارسكوي سيلو من أجل «خلق البيئة المشبعة بروح العصر الإغريقي الذي ترغب به كاترينا»[77]؛ فكان بإمكانها الانعزال هنا مع تحفها القديمة المفضلة، التي كانت تُنقل إليها مع الكتب والوثائق من القصر الشتوي

(75) Д. О. Швидковский, «Династическая политика и архитектура во второй половине царствования Екатерины II,» in: *Век Просвещения*, Вып. 1 (M., 2006), c. 144.

[د. أ. شفيدكوفسكي، «سياسة السلالة الملكية والهندسة المعمارية في النصف الثاني من عهد كاترينا الثانية»، في: **عصر التنوير**، الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 144].

(76) يُنظر: Учебные книги и тетради великого князя Александра Павловича, in: *СбРИО*, t. I, c. 380.

[كُتب الأمير العظيم ألكسندر بافلوفيتش ودفاتره التعليمية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1، ص 380].

(77) Швидковский, c. 149.

[شفيدكوفسكي، ص 149].

إلى مقرّها الصيفي، وكان تأمُّلها يكاد يعادل العمل على شؤون الدولة. وقد كتبت في 4 نيسان/أبريل 1787 إلى سكرتير الدولة في كييف أ. ف. خرابوفيتسكي[78]، الذي كان من مهماته إعداد مجموعة الأحجار الكريمة واختيار التُّحف التي تودُّ الإمبراطورة اقتناءها: «اطلعنا على التُّحف التي جُلِبَت من باريس. يُكلف الكونت دي لين (Pr. De Ligne) سيغيور وكوبينتسيل بوضع قائمة بالرسائل»[79].

أُنشِئَت في بطرسبورغ مدرسة عسكرية لليونانيِّين، الذين انخرطوا في المجتمع الراقي الروسي في سياق خدمتهم روسيا[80]. وساد نمط جديد من

---

(78) [А. В. Храповицкий], *Памятные записки А. В. Храповицкого, статс-секретаря императрицы Екатерины Второй* (М., 1862), с. 25.

[أ. ف. خرابوفيتسكي، مدونات أ. ف. خرابوفيتسكي، **سكرتير الدولة لدى الإمبراطورة كاترينا الثانية** (موسكو، 1862)، ص 25].

تجدر الإشارة إلى أن فتور اهتمام الإمبراطورة باقتناء التُّحف القديمة يعود إلى الفترة التي اضطرت فيها روسيا إلى خوض الحرب على جبهتين (ضد تركيا في الجنوب، وضد السويد في الشمال)، وانهيار الآمال بإرسال حملة جديدة إلى البحر المتوسِّط (وبتحقيق «المشروع اليوناني»). فكتب خرابوفتسكي في 28 تموز/يوليو: «جلبت تحفًا رخصة، فتأملتها وقالت إنه لا حاجة إليها: 'من الأفضل شراء عجل وإرساله إلى الجنود' في فنلندا بالطبع» (ص 86).

(79) **الكونت دي لين** (1735-1814): جنرال وكاتب رافق الإمبراطور النمساوي جوزف الثاني (تحت اسم الكونت فالكينشتاين) في رحلة مع كاترينا الثانية إلى القرم. الكونت ل. ف. دي سيغيور (1753-1830)، مبعوث فرنسا في بطرسبورغ من عامي 1784 و1789، رافق كاترينا الثانية إلى القرم من ضمن السلك الدبلوماسي. الكونت ل. فون كوبينتسيل (1753-1809)، مبعوث النمسا وسفيرها في روسيا من عام 1779 ولغاية عام 1800. (المترجم)

(80) يُنظر على سبيل المثال: مؤلف المترجِم في هيئة الشؤون الخارجية اليوناني المتحدِّر من جزيرة ميتيلينا (لسبوس) أ. باللادوكليس «أشعار عن الثوب اليوناني، الذي تكرمت جلالة الإمبراطورة بارتدائه في الحفلة التنكرية» (سان بطرسبورغ، 1771). ويقدِّم بوتيومكين إلى كاترينا وجوزف الثاني في سيفاستوبول فرقة من الأمازونيات مؤلفة من يونانيات بلقانيات: А. М. Панченко, «„Потемкинские деревни“ как культурный миф,» in: *XVIII век, Сб. 14: Русская литература XVIII - начала XIX в. в общественно-культурном контексте* (Л., 1983), с. 96.

[أ. م. بانتشينكو، «"قرى بوتيومكين" كأسطورة ثقافية»، في: **القرن الثامن عشر، المجموعة 14: الأدب الروسي في القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر في السياق الاجتماعي - الثقافي** (لينينغراد، 1983)، ص 96].

[**الأمازونيات**: شعب من النساء المقاتلات، وهن بحسب الأسطورة أول من استخدم الحصان =

المثقف يشمل اتقان البلاغة والاطِّلاع على الميثولوجيا اليونانية ومعرفة الأدب الكلاسيكي وتاريخ اليونان القديمة وروما[81].

كان شغف الأمير غ. أ. بوتيومكين بالحضارة اليونانية القديمة ظاهرة استثنائية بِحَق[82]. فمن المعروف على سبيل المثال عشاء «مُحبِّي الهيلينية» الذي أقامه الأمير في منطقة أوزيركي[83] في 25 حزيران/ يونيو 1779، وجلس فيه الضيوف مستلقين على أرائك، فيما كانت جوقة المغنِّين تنشد «باللغة الهيلينية - اليونانية»، مُمجِّدة الإمبراطورة[84]. وعلى حدِّ قول أ. ن. ساموليلوف، ابن شقيقة بوتيومكين، أقدم الأمير على استعادة «التسميات القديمة»[85] في شبه جزيرة القرم بعد إخضاعها، و«أضاء نورًا في مملكة البونت القديمة!»[86]، وذلك «من أجل إبهار كاترينا بألق الأعمال القديمة العظيمة، وزعزعة الذكريات عن البرابرة الذين استباحوا مؤسسات الشعوب المستنيرة ومحوها». وبكلام آخر،

---

= لأغراض القتال. ربطت الميثولوجيا الإغريقية والأمازيغية الأمازونيات بمناطق عديدة، كاليونان وسيكيثيا وشمال أفريقيا، أو بشكلٍ أدق نوميديا القديمة. كانت المقاتلات الأمازونيات يقطعن الثدي حتى يتمكن من استخدام القوس والنبال دون عائق. وتحكي الميثولوجيا الأمازيغية عن أمازونيات عدة كأثينا وميدوسا. وثمة تفسيرات عدة لاسم أمازونية، أبرزها التفسير الذي يعتبر هذا الاسم أمازيغي (بربري) الأصل، ويرى البعض أن تيهيا الملقبة بالكاهنة، هي إحدى الأمازونيات الأمازيغيات اللواتي قدن الأمازيغ في مواجهة الغزوات الأجنبية]. (المترجم)

(81) Фролов, с. 67.

[فرولوف، ص 67].

(82) جذب غ. أ. بوتيومكين انتباه إليزابيت بيتروفنا أيضًا بمعلوماته عن «اللغة الهيلينية - اليونانية»: А. Н. Самойлов, «Жизнь и деяния генерала-фельдмаршала князя Григория Александровича Потемкина-Таврического,» in: *Русский архив*, 1867, с. 95, 594.

[أ. ن. ساموليلوف، «حياة وأعمال الجنرال الماريشال الأمير غريغوري ألكسندروفيتش بوتيومكين تافريتشكسي»، في: **الأرشيف الروسي**، 1867، ص 95، 594].

(83) أي البحيرات. (المترجم)

(84) يُنظر: Проскурина, с. 171.

[بروسكورينا، ص 171].

(85) من المعروف أن «تافريديا» هو اسم القرم القديم، و«أَخْتِيَارْ»: اسم سيفاستوبول، و«آخت مسجد»: اسم سيمفيروبل، و«كافا»: اسم فيدوسيا ...إلخ.

(86) Самойлов, с. 594.

[ساموليلوف، ص 594].

كانت إعادة إحياء الرموز المماثلة للفضاء اليوناني على شواطئ البحر الأسود، التي قام بها بوتيومكين، بمثابة إعلان وراثة روسيا التراث اليوناني القديم؛ ناهيك بأن هذه الأعمال كانت ترمي إلى ترسيخ عبادة شخصية الإمبراطورة في روسيا، كما كانت جزءًا من صياغة «النظام الشرقي» الأيديولوجية. هذا النظام الذي اقترحه بوتيومكين وشكل نموذجًا جديدًا لـ «مشروع» أ. أ. بيزبورودكو «اليوناني».

على هذا النحو، سارعت روسيا إلى التعويض عن الوقت الضائع في استيعاب التراث اليوناني القديم. وما لا شك فيه أن نجاحات حملة الأرخبيل منحت هذه العملية زخمًا أكثر جدية.

## الاحتفال بالانتصارات والفكرة الوطنية

غدا تنظيم الاحتفالات في روسيا وخارجها - حيث يوجد الجيش والأسطول - سلاحًا للحملة الدعائية الرسمية لتسويغ غزو حوض البحر المتوسِّط. فكما عرضنا في فصول سابقة (الثالث والخامس والسادس والسابع)، أضيفت الاحتفالات بالانتصارات في البرِّ والبحر، إلى روزنامة الأعياد الرسمية لمناسبة عيد شفيعي الإمبراطورة ووليِّ العهد بافل ويوم جلوس كاترينا على العرش وتتويجها، والأعياد الكنسية ورأس السنة. وكانت الاحتفالات لمناسبة إبرام معاهدة كوتشوك - كاينارجي، التي أُجرِيَت في موسكو خلال عام 1775، حدثًا استثنائيًّا من حيث درجة الإبهار التي اتسم بها (حُدِّد العيد في العاشر من تموز/ يوليو على مساحة الإمبراطورية كلِّها، بيد أن الاحتفالات في موسكو بدأت عمليًّا مع دخول الإمبراطورة العاصمة في 25 كانون الثاني/ يناير، واستمرت حتى أواخر الخريف)[87]. وبعد عقد من الزمن، أشار أحد المعاصرين لتلك

---

(87) Ушаков, Приложения, с. 75-100; В. Майков, *Описание разных увеселительных зрелищ, представленных во время мирнаго торжества, заключеннаго между Российскою империею и Оттоманскою Портою. В высочайшем присудствии Ея Императорскаго Величества, всеавгустейшей и непобедимой монархини матери Отечества Екатерины II и их императорских высочеств, при многочисленном собрании народа, близь Москвы на Ходынке, 1775 года июля 16 дня* (М: При государственной военной коллегии, 1775).

[أوشاكوف، الملاحق، ص 75-100؛ ف. مايكوف، **وصف مختلف العروض الترفيهية التي** =

الأحداث والشاهد عليها غ. س. فينسكي إلى أن: «كاترينا، التي كان إزعاج بولندا والانتصار على الأتراك وسلخ القرم عنهم، بمثابة المشهد الأول في مسرحيتها السياسية، عملت على إلهاء شعبها وإبهار بصره، وعلى ذرِّ الرماد في عيون أوروبا، من خلال الاحتفالات المبهرة...»[88].

أكد الباحثون في الثقافة الاحتفالية في القرن الثامن عشر مرارًا أن العيد بقي في تلك الحقبة، شكل التواصل الكلامي وغير الكلامي الأهمَّ بين السلطة والرعايا داخل البلاد[89]. وتلخصت خصوصية العيد الذي رافق وجود الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط في أنه مثل روسيا أول مرة خارج حدودها (بعد بطرس، على أقلِّ تقدير!) على المساحة الممتدة من بورت ماغون وتوسكانة، وحتى جزر الأرخبيل. وعلى هذا النحو، كان سلاح الاحتفالات بالأعياد موجهًا إلى جمهورٍ واسعٍ جدًّا.

كانت كاترينا الثانية هي واضعة برامج أغلبية الاحتفالات ومحرِّرتها

---

= قُدّمت خلال الاحتفال بالسلام المبرم بين الإمبراطورية الروسية والباب العالي العثماني. بحضور صاحبة الجلالة الإمبراطورية، عطوفة الملكة أمِّ الوطن التي لا تُقهر كاترينا الثانية، وأصحاب السمو الإمبراطوري، وجموع غفيرة من الناس في خودينكا على مقربة من موسكو، يوم 16 تموز/ يوليو العام 1775 (موسكو: الإدارة العسكرية الحكومية، 1775)، يُنظر في هذا الصدد: M. Домшлак, «Архитектура старинного праздника,» *Декоративное искусство СССР*, no. 12 (1965), c. 34-36.

[م. دومشلاك، «هندسة الأعياد القديمة»، فن الزخرفة في الاتحاد السوفياتي، العدد 12 (1965)، ص 34-36].

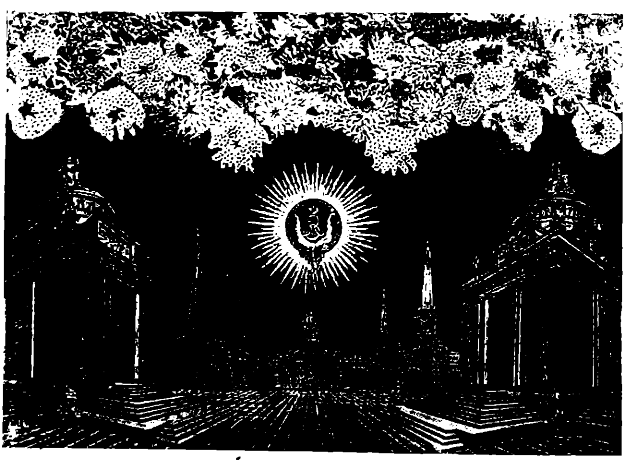
(88) Г. С. Винский, «Мое время. Записки,» in: *Екатерина II. Фасад и задворки империи* (M., 2007), c. 35.

[غ. س. فينسكي، «زمني. مذكرات»، في: كاترينا الثانية: واجهة الإمبراطورية وفناؤها الخلفي (موسكو، 2007)، ص 35].

(89) يُنظر: P. Уортман, *Сценарии власти: Мифы и церемонии русской монархии* (M., 2002); Д. Д. Зелов, *Официальные светские праздники как явления русской культуры конца XVII - первой половины XVIII века: История триумфов и фейерверков от Петра Великого до его дочери Елизаветы* (M., 2002), c. 304.

[ر. أورتمان، سيناريوهات السلطة: أساطير الملكية الروسية وطقوسها (موسكو، 2002)؛ د. د. زيلوف، الأعياد الزمنية الرسمية بوصفها ظاهرة من ظاهرات الثقافة الروسية في نهاية القرن السابع عشر - النصف الأول من القرن الثامن عشر: تاريخ الانتصارات والألعاب النارية منذ بطرس الأكبر وابنته إليزابيت (موسكو، 2002)، ص 304].

ومراقبتها. وكانت كلُّ الهيئات الحكومية والكنسية ملزمة بإقامة الاحتفالات (كانت التوجيهات بإقامة صلوات الشكر ترد من السينودوس مع الأعداد المتأخِّرة من المطبوعات الدورية في غالب الأحيان، والتي كانت أخبار الانتصارت تصل عبرها. أما السلطات المدنية فكانت تتلقى التعليمات عبر القنوات الإدارية). أما في الخارج، فكان الدبلوماسيُّون والقادة العسكريُّون هم من يعمل على تنظيم الاحتفالات (ولنتذكر الاحتفالات التي أُقيمت في بورت ماغون وتوسكانة والأرخبيل التي تحدثنا عنها في فصول سابقة). كما أُشرِكَ فنانون بارزون في تنظيم الاحتفالات، التي وُضعت لها معزوفات موسيقية خاصة (نذكر إشراك م. بيريزوفسكي ود. بورتنيانسكي، اللذين كانا في دورة دراسية في إيطاليا). ونظم مسؤولون كبار احتفالات شعبية، وأقاموا نصبًا تذكارية في قصورهم وممتلكاتهم، ما يعني محو الحدود بين العام والخاص في هذا المجال.



ي. أ. فيدوسيف. أنوار الزينة في موسكو احتفالًا بالسلام في عام 1775

تنوعت الاحتفالات بالانتصارات وبإبرام «السلام المجيد» من حيث حجمُها وزخمُها بين العواصم والمحافظات، بين روسيا وقواعد الأسطول والجيش خارج الحدود. بيد أن النصوص الكلامية في سيناريوات الاحتفالات

(البيانات، القصائد الغنائية الرسمية، خطابات الشكر، الخطب المؤثِّرة، النقوش على النُّصُب التذكارية، العروض المسرحية، برامج الألعاب النارية المطبوعة والإضاءات)، اقترنت في كلِّ مكان بأنشطة غير كلامية (المفرقعات النارية الملونة المبهرة للنظر[90]، التألُّق، الموسيقى[91]، الطلقات النارية وقرع الأجراس). وفي العواصم، تحولت احتفالات «النصر» إلى مجموعة ضخمة من العروضات المسرحية على مدى أيام عدة (أو أشهر عدة)، التي تضمنت مرور المواكب وحفلات الاستقبال في القصور وحفلات راقصة وتنكُّرية وعروضًا مسرحية ومهرجانات شعبية مع الألعاب النارية؛ وشملت الاحتفالات أيضًا رفع أقواس النصر وإقامة النُّصب التذكارية وسك الميداليات والقطع المعدنية والأوسمة وتوزيعها.

كان كلُّ شيءٍ موجهًا إلى المشاعر والعقول، معمِّقًا تأثير الأفكار التي وضعها منظِّمو الاحتفالات على المشاهدين والمشاركين فيه.

كانت لغة المهرجان معروفة جيِّدًا لمنظِّميه والمشاركين فيه. فقد ظلت «رزم» سيناريو الاحتفالات الرئيسة طوال القرن الثامن عشر من دون تغيير؛ إذ كانت تُفتَتَحُ بالقداديس والصلوات المترافقة مع تبرُّعات سخية لتلبية احتياجات الكنيسة في معظم الأحيان[92]، وتُستكمَل بحفل استقبال يدُعى إليه ممثِّلو

---

(90) يُنظر: M. A. Алексеева, *Фейерверки и иллюминации в графике XVIII в. Каталог выставки* (Л., 1978).

[ن. أ. ألكسيفا، **الألعاب النارية والإضاءات في جدول القرن الثامن عشر، فهرس المعارض** (لينينغراد، 1978)].

(91) H. A. Огаркова, *Церемонии, празднества, музыка русского двора XVIII — начала XIX в* (СПб., 2004).

[ن. أ. أوغاركوفا، **طقوس وأعياد وموسيقى البلاط الروسي في القرن الثامن عشر – بداية القرن التاسع عشر** (سان بطرسبورغ، 2004)].

(92) على سبيل المثال، قُدِّمت أوانٍ كنسية ثمينة إلى كنيسة رقاد السيدة العذراء في بورت – ماغون، وفي عام 1772 حصلت الكنيسة الأرثوذكسية في ليفورنو على مصابيح فضية من أ. غ. أورلوف. وفي عام 1775 قدمت الإمبراطورة «كأسًا وطبقًا مع نجمة، مصنوعين من الذهب الثمين المرصع بالماس» إلى كاتدرائية أوسبينسكي في موسكو ...إلخ.

المجتمع الراقي[93]، وبعروض سخاء أولياء الأمر على الشعب[94]، ومن ثَم تُختَتَم بعروض وولائم منتصف الليل[95]، لتنتهيَ أخيرًا بالألعاب النارية (مفرقعاتٍ وطلقاتٍ نارية). وكانت تتخلل كل مهرجان «مفاجأة» عبارة عن ابتكارٍ يُرادُ له أن يترسخ في الذاكرة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، وعادةً ما كان يحمل رسالة الحملة الدعائية الرئيسة في طياته.

كان العيد في روسيا القرن الثامن عشر مناسبةً لاستعراض الكرم والثراء على الدوام. بيد أن المكرمات التي غمر بها منظِّمو الاحتفالات المشاركين فيها والمشاهدين اكتسبت مغزى إضافيًّا إبان الحرب. فقد كان الهدف منها إظهار عظمة الإمبراطورية الروسية، ووضع حدٍّ لأيِّ شكوك في محدودية إمكاناتها ومواردها البشرية (وهي، بالمناسبة، شكوك وجيهة إلى حدٍّ بعيد). لذا، بدا التبذير، وإلى حدٍّ ما «بربرية» الاحتفالات التي أذهلت أوروبا[96]، أمرًا مسوغًا كليًّا بالنسبة إلى الإمبراطورة أثناء الحرب الروسية - التركية، التي كانت تتطلب إنفاقًا ماليًّا هائلًا وقروضًا أجنبية كبيرة. فمن المعروف أن كاترينا تعمدت التوسُّع في شراء التُّحف لمجموعة

---

(93) لم تكن حفلات الاستقبال تُجرى في القصور على البرِّ فقط، بل على سفن العمارة البحرية أيضًا، حيث كان يُدعى ممثِّلو المجتمع الراقي (يُنظر الفصول الخامس والسادس والسابع).

(94) كان يتجلى ذلك، قبل كلِّ شيء، في توزيع المكرمات (قطع نقدية أو «قطع معدنية» تُسَكُّ خصِّيصًا للاحتفالات). فكان سيناريو احتفالات عام 1775 يتضمن قيام ممثِّل الإمبراطورة بتقديم الهبات إلى الجمهور باسمها: «ما إن خرجت الإمبراطورة حتى أعطيت الإشارة، فانطلق الجنرال ميجر بوتيومكين مع اثنين من مساعديه على صهوة جواده عبر الشوارع المحددة، لينثر القطع المعدنية على الجمهور. ونال كلُّ جندي من الجنود المصطفِّين في الشوارع قطعة نقدية واحدة». ووُزِّعت قبل ذلك ميداليات ذهبية على المدعوِّين إلى القصر: Ушаков, с. 93.

[أوشاكوف، ص 93].

(95) ظل تقليد تقديم العجول المشوية للشعب (على مثال النقانق في سان جوليانو) ونوافير النبيذ سمة الأعياد غير الدينية المُميِّزة شبه الدائمة على مدى القرن الثامن عشر. ولم تكن الاحتفالات في روسيا وخارجها إبان الحرب الروسية - التركية استثناءً من ذلك (يُنظر الفصل السابع). فيصف أوشاكوف احتفالًا أُقيم في حقل خودينكا بموسكو في عام 1775، على النحو الآتي: «أطلق مدفعان إشارة بدء الاحتفال، فقُدِّمت عجول مشوية وُضعت على أهرام أقيمت لهذا الغرض، وسُكب النبيذ في نوافير، وتلت ذلك ألعاب شعبية مختلفة»: المرجع نفسه، ص 95.

(96) للاطِّلاع على اندهاش الأوروبيين بتبذير منظِّمي الاحتفالات، يُنظر الفصل السابع والفصل العاشر.

الإرميتاج في عام 1770، وأقدمت على شراء قطعة ماس هندية في أمستردام في عام 1772، الأمر الذي أثار دهشة أوروبا[97]. كان كلُّ ذلك يهدف إلى التأكيد على صورة إمبراطوريتها المتألِّقة؛ وهي أكدت لفولتير أكثر من مرة خلال الحرب أن دولتها «لا تشعر» بهذه الحرب. وأشارت في عام 1770 إلى أنها لا تذكر «ما إذا كانت قد ابتُكِرت أساليب لهوٍ وترفيهٍ في أسبوع المرافع[98] في ما مضى، بقدر ما يحصل في هذا العام. لا أعلم أيضًا ما إذا كان يحصل الأمر نفسه في القسطنطينية» (بداية عام 1770)[99]. ولاحظت بعد عام مجددًا، كأنما بصورة عَرَضية: «لا أذكر منذ زمنٍ طويلٍ أسبوع مرافع مرحًا كالذي شهدناه هذا العام. فالاحتفالات وحفلات الرقص والعروض المسرحية وغيرها تواصلت من تشرين الأول/ أكتوبر حتى شباط/ فبراير من دون توقُّف» (3-14 آذار/ مارس 1771)[100]. وأخيرًا، كتبت في آب/ أغسطس بدعابةٍ ملكية: «ما دامت هذه الحرب مستمرة، فإن حديقة قصري ستحاكي ملعب البولينغ، لأني سآمُرُ برفع نصب تذكاريٍّ فيها، بعد كلِّ واقعةٍ

(97) لم يكن خافيًا على أحدٍ في أوروبا أن غ. غ. أورلوف حصل على ماسة من عيار 200 قيراط عبر وسطاء، وقد بلغ ثمنها 400 ألف روبل (اشتُرِيَت بأموال الدولة)، وقدمها هدية إلى الإمبراطورة (أُطلق عليها في ما بعد اسم «أورلوف»).

(98) **أسبوع المرافع**، أو **أسبوع الماسلينيتسا**، (أسبوع السمن، أو الزبدة): احتفال روسي سلافي، يرجع تاريخه إلى عصر الوثنية الروسي، وكان يرمز إلى توديع الشتاء واستقبال الربيع، وكان من أكثر الأعياد فرحًا وبهجة في روسيا، حيث ترافق مع بدء الأعمال في الحقول في بداية الربيع. وقد اعتبرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أسبوع المرافع واحدًا من أعيادها، إذ يسبق الصوم الأرثوذكسي الكبير مباشرة. ويُحظر المذهب الأرثوذكسي تناول اللحوم في هذا الأسبوع، أما الألبان فيمكن تناولها بكثرة. وتُشتقُّ لفظة «ماسلينيتسا» من كلمة ماسلو (السمن أو الزبدة) الروسية. ينتهي الأسبوع يومَ الأحد ويُدعى يوم العفو أو المغفرة، وفيه يطلب الناس من أقاربهم وأصدقائهم أن يغفروا لهم إساءاتهم. وتُعتبر الفطائر الروسية («البليني») جزءًا لا يتجزأ من تقاليد هذا الأسبوع في روسيا. ويودع الأسبوع بالرقص والغناء، ويقوم الناس في هذا اليوم بإحراق دمية من التبن ترمز إلى الشتاء الراحل. (المترجم)

(99) *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 67.

[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 67].

(100) المرجع نفسه، ص 155.

مجيدة»، وستكون جميعها من المرمر الروسيِّ: «فيها من كلِّ الألوان»[101]. فأسمع فولتير الإمبراطورة ما كانت ترغب في سماعه. وأعرب عن إعجابه، بالتحديد في رسالته المؤرخة في 10 تشرين الأول/ أكتوبر 1775: «لا تكفُّ احتفالاتك عن إثارة دهشتي. فلا يمكنني أن أفهم كيف انتقل البحر الأسود، بأمر من جلالتكم، إلى السهل الممتدِّ في ضواحي موسكو. إنني أرى سُفُنًا في هذا البحر، ومُدُنًا على سواحله تغصُّ بموائدَ لأعدادٍ لا تُحصى من الناس، وبأنوارٍ بهيجة، وروائع دار الأوبرا كلها مجتمعةً في مكانٍ واحد... لا أحد عندنا يصدق ذلك الآن...»[102].

تتجلى أهمِّية الاحتفالات ما بين عامي 1769 و1775، بوصفها أنشطة دعائية في كيفية إسهامها بتطوير **عقيدة السلطة السياسية** ونشرها أيضًا.

ظهرت الإمبراطورة المظفرة في الاحتفالات بوصفها خليفةً لانتصارات حكام روسيا السابقين ووريثةً شرعية للتاج الروسي وحاكمًا يتسم **بالقُدسية**. وفي هذا السياق، بدا الخطاب عن **إرث بطرس**، الذي لقي انتشارًا واسعًا جدًّا، أمرًا مناسبًا. فمن المعروف أن صلاة الشكر التي أقيمت في كاتدرائية بيتروبافلوفسك في 15 أيلول/ سبتمبر 1770، لمناسبة انتصار شيسما، انتهت بحركة مسرحية من بلاتون نحو ضريح بطرس الأكبر (أصبح بلاتون [ليفشين] أُسقُفًا لمدينة تفير في هذا العام بالتحديد)، حين قال: «لقد انبعث بطرس الأكبر حيًّا، انبعث في خليفته العظيمة كاترينا الثانية... يمكننا القول إن الأعمال التي تُمجِّد وطننا اليوم، ما هي إلا قيامة لبطرس، أو بثًّا لروحه في كاترينا... انهض وتمتع بثمار أعمالك.. فالأسطول الذي بنيته، لا يوجد في بحر البلطيق اليوم، ولا في بحر قزوين، ولا في البحر الأسود، ولا في المحيط الشمالي.. فأين هو؟ إنه في البحر المتوسِّط، في البلدان الشرقية، في الأرخبيل، على مقربةٍ من أسوار القسطنطينية.. إنه في تلك الأماكن التي شَخَصْتَ بناظريك إليها مرارًا، عازمًا على إخضاع الباب العالي المتعجرف. إن النسور الروسية المظفرة، المحلِّقة عاليًا، تملأ الشرق كله، حاملةً اسمك،

(101) المرجع نفسه، ج 2، ص 29-30.
(102) المرجع نفسه، ص 157.

وهي تسعى إلى الوقوف أمام الأسوار البيزنطية»[103]. حينذاك، أُقيم عمود النصر عند ضريح بطرس، العمود الذي نُقشت عليه أشعار فاسيلي مايكوف، وإلى جانبها العظة التي جمعت بين اسمي بطرس وكاترينا. تلك العظة التي كللت اسم الإمبراطورة بالمجد أكثر من اسم مؤسِّس الأسطول الروسي، على حدِّ قول ف. ي. بروسكورينا[104]. وبما أن تقاليد المديح مجدت بطرس بوصفه «إلهًا أرضيًّا ومخلِّصًا دنيويًّا، ارتبط بربِّ السماوات والمسيح المخلِّص بصلة كاريزماتية خفية»[105]، صار مُمكِنًا التوجُّه إلى كاترينا بالكلام التالي: «**بكِ**، بعطاياكِ، استعدنا بطرس الأكبر، **وعلى مثاله**، **نرى الخلود بكِ** (خطاب الشكر الذي ألقاه المدعي العام في احتفالات عام 1775).

---

(103) Платон (Левшин), Слово при случае совершаемых молитв над гробом Петра Великого по причине одержанныя флотом Российским над Оттоманским флотом во Архипелаге славныя победы, 1770 годы июня 24 дня (Произнесено 15 сентября 1770 г. в Петропавловском соборе) с греческим переводом, пер. архимандрит Кесарий Воложский, in: *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном*, t. 2, с. 278-284.

[بلاتون (ليفشين)، كلمة ألقيت أثناء الصلوات التي أقيمت عند ضريح بطرس الأكبر، لمناسبة انتصار الأسطول الروسي المجيد على الأسطول العثماني في الأرخبيل، في الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو 1770 (ألقيت الكلمة في 15 أيلول/ سبتمبر 1770، في كاتدرائية بيتروبافلوفسك) مع ترجمة من اليونانية من الأرشمندريت كيساري فولوجسكي، في: **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسييفنا من العام 1763 وحتى عام 1780**، مج 2، ص 278-284].

(104) Проскурина, с. 122.

[بروسكورينا، ص 122].

جدير بالذكر أن مرسوم مجلس الشيوخ الصادر بتاريخ الرابع عشر من تموز/ يوليو 1777 اشترط بصورة خاصة «أن تتضمن الصلوات السنوية في ذكرى معركة شيسما تخليدًا لذكرى بطرس الأكبر، بوصفه مؤسِّس الأسطول الروسي الأول ومبدع الانتصارات البحرية»: *РГА ВМФ*, Ф. 212, Указы (отд. II), Д. 47, Л. 103.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 212، المراسيم (القسم الثاني)، الملف 47، الورقة 103].

(105) В. М. Живов, «Государственный миф в эпоху Просвещения и его разрушение в России конца XVIII века,» in: *Из истории русской культуры t. 4: XVIII — начало XIX в,* (М., 2000), с. 665.

[ف. م. جيفوف، «أسطورة الدولة في عصر التنوير وتدميرها في روسيا خلال نهاية القرن الثامن عشر»، في: **من تاريخ الثقافة الروسية، مج 4: القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر** (موسكو، 2000)، ص 665].


المتروبوليت بلاتون (ليفشين)

هكذا، أعطى الاحتفال بالانتصارات مسوِّغًا إضافيًّا لمقارنة كاترينا ببطرس والجمع بينهما، معزِّزًا تقديس الصورة الملكية. فكان اللجوء الدائم إلى موضوعة **المعجزة** المقترنة بأفعال الإمبراطورة وبإنجازات جنودها بمنزلة الدليل على أنها «أقوى من الموت»: «لقد حركت صلواتك الرياح، وغيرت وجهتها نحو الأعداء» (كلمة بلاتون ليفشين في القداس الاحتفالي على شرف انتصار شيسما، ردًّا على الأقاويل إن تقاطع الظواهر الطبيعية حَسَنَ الطالع وحده الذي أتاح انتصار الأسطول الروسي). فالانتصار هو **معجزة الملكة الرئيسة**، إنه **الهبة** التي أنعم الله بها عليها، إنه من أفضال «نِعَم الربِّ التي هبطت علينا» (من بيان كاترينا في عام 1775). ولم يكن من قبيل المصادفة أن يكتب الأميرال غ. أ. سبيريدوف في تقريره إلى بانين بعد انتصار شيسما: «... أما كاترينا العظيمة، ملكتنا الكلية العطوفة، فقد **تمكنت بتعليماتها الحكيمة**، من خلالنا نحن عبيدها، وبواسطة سُفُننا الروسية، **من تدمير الأسطول العثماني وإحراقه وتحويله إلى رماد**» (!). وتحضر موضوعة «المعجزة» التي تجترحتها الإمبراطورة لتحقيق الانتصارات، في الشعر على الدوام، فتُستكمل الاستعارات اللغوية الكلاسيكية هنا، بالرموز الأرثوذكسية بنجاحٍ تام:

بكبرياءٍ يرنو أسطولنا، نحو مينرفا في الغيوم،

«وروح كاترينا إلى شيسما تسبقه وتحوم». (التشديد من المؤلِّفة)

**(م. خيراسكوف).**

ولكن باسم كاترينا

ليس فقط رؤوس الأفاعي،

بل كلُّ الشرور في العالم ستختفي،

ومعه الرُّوس بكلِّ شيءٍ سيفوزون...

**(ف. مايكوف).**

حيث البراءة، هناك ارتقاء إلى السماء،
وحيث كاترينا فثمة انتصار.
**(ف. مايكوف).**

هكذا، ظهرت انتصارات السِّلاح الروسي في الحرب الروسيَّة - التركيَّة، في الدعاية الرسمية في مطلع سبعينيات القرن الثامن عشر، بوصفها «مساعدةً وَهِبَةً من السماء. فاكتسبت الاحتفالات مغزى خاصًّا مقدسًا. فهي، بالدرجة الأولى، بمثابة شكرٍ للعليِّ القدير على الخير الذي أنعم به على العرش.

كانت الطقوس الدينية في أساس الاحتفالات. وقد أزاحت هذه الطقوس (القداديس المتواصلة، تقديم الأواني الكنسية الثمينة للمعابد، زياحات الصليب، قرع الأجراس ...إلخ) الفوضى الكرنفالية «الوثنية» إلى المقام الثاني على نحوٍ ملحوظ. فقد تضمن البيان الصادر في 17 آذار/ مارس 1775 «لمناسبة إبرام معاهدة السلام مع الباب العالي العثمانيِّ»، الذي حدد موعد الاحتفالات في كلِّ أنحاء البلاد»، الإشارة إلى الجزء الأرثوذكسي من هذه الاحتفالات فقط: «تلبيةً منا للواجب المقدس والسارِّ أمام عرش الربِّ، نُحدِّد العاشر من شهر تموز/ يوليو المقبل موعدًا لتنظيم الاحتفالات في جميع أنحاء الإمبراطورية في آن واحد، وبالتالي، سيوحِّد جميع رعايانا المُخلِصين شفاههم وقلوبهم معنا في عاطفةٍ حارة وصادقة لتمجيد اسم الربِّ، وتوسُّل رحمته الأبدية»[106].

كان شعار حملة البحر المتوسِّط، بوصفها حملة من أجل تحرير إخوة الدِّين الرازحين تحت نير الكفار، ملائمًا جدًّا. فمع انتهاء عام 1770 الحافل بالانتصارات، أعلن الأسقُف بلاتون (ليفشين):

«بعدما قام الأسطول الروسي الآتي من أقاصي الشمال، باستعراض الشواطئ الأوروبية، رسا في الشرق وبسط سلطته على الأرخبيل. فوقف الهاجَرِيُّ مشدوهًا وقد أذهله منظر الأبطال الذين لن يجد خلاصًا منهم عندما

---

(106) *ПСЗ*, t. 20, c. 82 (no. 14. 274).
**[مجموعة القوانين الكاملة**، مج 20، ص 82 (العدد 14، 274)].

يباغته مصيره المشؤوم. **فنعمة السماء التي هبطت على أبطالنا كانت جليةً**، حتى إن الجحيم والنار اتحدا من أجل إهلاك العدوِّ وأسلحته كلِّها».

«ولا بد من القول هنا إن أبطالنا لو وصلوا إلى تلك الأماكن النائية من أجل القتال حصرًا، وإظهار شجاعتهم أمام الملأ، لما كان ذلك مناقضًا لعادات الشعوب. ولكنْ، ثمة سببٌ آخر مختلفٌ كليًّا. فالشعب هناك سيرى فيهم مُخلِّصين ومُنقذين. تلكم هي الحقيقة. فالروسي لم يدخل أرضًا من قبل إلا وكان منتظرًا فيها شعبٌ يستقبله بفرحٍ مُعلَن. ومولدافيا وفالاشيا ومورية والأرخبيل وجورجيا.. كلُّها شاهدة على ذلك. فمن يملك شرعية حكم شعبٍ أكثر من ذاك الذي يحظى بمحبته ويجد في حكمه الأمان والرخاء؟ **ذلكم هو السبب الحقيقي الذي يجعل الرب يؤازر سلاحنا ويساعده، لأنه سلاحٌ عادل**» (التشديد من المؤلِّفة)[107].

بعد كلمات ممثِّلي رجال الدين المحليِّين في الاحتفالات التي أُقيمت في فولغودا في عام 1775، قُدِّمَ الانتصار على أصحاب الدين الآخر بما يشبه مسرحية مدرسية: «قدم اثنان من تلامذة المدرسة الدينية عرضًا، فأدى أحدهما دور الروسي متقدِّمًا من الجهة الشمالية الشرقية، فيما أدى الآخر دور التركيِّ آتيًا من الجهة الجنوبية؛ ودار بينهما حوارٌ شعريٌّ انتهى بتخلِّي التركيِّ عن غطرسته وعن إيمانه بمُحمد، وإعلانه رغبته بالتحوُّل إلى المسيحية»[108].

في القراءة المدنية، لم تكن الاحتفالات بالانتصارات تخلو من معاني **خدمةِ ما هو مقدس أيضًا**؛ فكان الوطن هو هذا الرمز المقدس. وكان على

---

(107) Платон (Левшин), Слово на новый 1771 год, in: *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном*, t. 2, c. 318-319.

[بلاتون (ليفشين)، كلمة في العام الجديد 1771، في: **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسيفنا من العام 1763 وحتى عام 1780**، مج 2، ص 318-319].

(108) С. Ковалев, «Торжество празднования Кучук-Кайнарджийскаго мира в городе Вологде,» in: *Русский архив*, 1903, t. III (5), c. 516.

[س. كوفاليوف، «الاحتفالات بمعاهدة كوتشوك - كاينارجي في مدينة فولوغدا»، في: **الأرشيف الروسي**، 1903، مج 3 (5)، ص 516].

هذه الاحتفالات، بحسب فكرة الإمبراطورة، أن تُسهِمَ في «إذكاء شعلة الشجاعة وحبِّ الوطن» لدى الرعايا. فمن أجل «أبنائنا، أبناء الوطن الحبيب المخلصين...» هبطت الإمبراطورة من عليائها (فهي «أقوى من الموت»!) إلى الأرض، إلى مستوى رعاياها، مستعدة لمكافأة المقاتلين وكلِّ الشعب الذي تحمل المصاعب (كان توزيع المكافآت جزءًا لا يتجزأ من الاحتفال، وكانت الإمبراطورة تسأل شخصيًّا عن أسماء المتميِّزين في المعارك، كي لا تفوتها مكافأتهم): «إننا نرى سعادتنا وسلوانا فقط في تأمين الحياة الآمنة والرغيدة لرعايانا» (بيان السابع عشر من آذار/ مارس 1770 المتعلِّق بمنح المَكرُمات لمختلف الفئات)[109].

كان سيناريو احتفالات تموز/ يوليو 1775 يفترض تنقُّل الإمبراطورة الدائم في موسكو: فهي لم تكتفِ بالظهور أمام الرعايا، بل أظهرت أيضًا وحدتها مع **أبناء الوطن**، و«رعايتها الأمومية» لهم واستعدادها للتمتُّع معهم بخيرات العالم المكتَسَب، وذلك من خلال الصلوات المشتركة ومشاركتهم اللهو وتناول الطعام. ولم تؤدِّ مفردات وحدة الدم في مثل هذه الحال إلا لتعزيز معنى وطنية **الأبناء**، التي تجمع بين خدمة الإمبراطورة وخدمة الوطن في وحدةٍ لا تنفصم.

جدير بالذكر أنه أُقيم حفلُ استقبالٍ في القاعة الماسِّية بعد القداس في كاتدرائية أوسبينسكي[110]، في يوم الاحتفالات الرئيس في العاشر من تموز/ يوليو، ولم يحضره غير رعايا الإمبراطورة من ممثِّلي «الطبقات العليا الخمس»، حيث سُمح لهم بالتقدُّم إليها..، «أما الوزراء الأجانب الممثِّلون لدولهم

(109) *ПСЗ*, t. 20, c. 82-86 (no. 14275, 17 марта 1775 г.).

[**مجموعة القوانين الكاملة**، مج 20، ص 82-86 (العدد 14275، 17 آذار/ مارس 1775)].

(110) تركت العظة التي ألقاها الأسقف بلاتون (ليفشين) في القداس الاحتفالي انطباعًا قويًّا، فكتبت الإمبراطورة إلى البارون غريم: «جعلنا بلاتون نبكي جميعًا... بكت الكنيسة المزدحمة بأكملها.. وأنا أيضًا بكيت». يُنظر: Письма Екатерины Второй к Гримму (1774-1796), Изд. с пояснит. примеч. Я. Грота ,in: *СбРИО*, t. 23 (СПб., 1878), c. 29.

[رسائل كاترينا الثانية إلى غريمّ (1774-1796)، طبعة مع ملاحظات توضيحية لـ «ي. غروتّ»، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 23 (سان بطرسبورغ، 1878)، ص 29].

لدى البلاط الإمبراطوري الروسي، فقد دُعوا إلى القاعة الماسِّية إفراديًّا، ولم يقدِّموا التهاني إلى الإمبراطورة يومذاك»[111]. وفي 21 و23 تموز/ يوليو، لم تكتفِ الإمبراطورة «بالذهاب لمشاهدة الألعاب الشعبية» في ساحة خودينكا، بل زارت السوق الشعبية، «حيث ابتاعت سلعًا مختلفةً بمبلغ مُعتبَر»، وأبلغت «البائعين الرُّوس في تلك الحوانيت عطفها الملكي».

أخذت موضوعات التاريخ الروسي الوطني تنافس الاستعارات الكلاسيكية من روما القديمة، من حيث توظيفها في الرمزية الاحتفالية (على الرغم من أن ذلك لم يكن يعني التخلِّي عن اللجوء إلى المقارنة بين روما وبين روسيا)[112]. وقد حصل ذلك التحوُّل تدريجًا، على غرار التحوُّل في السياسة الدعائية الكاترينية الذي جرى تدريجًا أيضًا.

جدير بالذكر أن احتفالات البلاط في المرحلة الأولى من تنفيذ المخطط المتوسِّطي، على سبيل المثال، كانت حافلةً بالرموز الكلاسيكية القديمة بالدرجة الأولى؛ علمًا أنه ليس من السهل العثور فيها على الابتكار. فتصميم الاحتفالات في زمن بطرس كان يحمل طابع فنٍّ روما العظيم في الحقبة الإمبراطورية[113]. وربما تمكن الإشارة فقط إلى الاهتمام الزائد بالتراث اليونانيِّ القديم، إلى جانب التراث الرُّوماني. فعلى سبيل المثال، تُبيِّن معطيات الاختصاصيِّين في علم الموسيقى أن «الموضوعات اليونانية» كانت سائدة على نحوٍ لا مثيل له (سواء قبل الحرب أم بعدها) في النتاجات الموسيقية المكرسة للاحتفالات بـ «أعياد النصر» وبـ «الأعياد» الكاترينية على حدٍّ سواء، في مرحلة تنظيم حملة الأرخبيل والإعداد لانطلاق العمارة البحرية الأولى. ففي عيد ميلاد كاترينا الثانية في

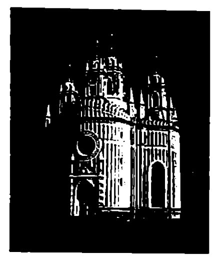
---

(111) Ушаков, с. 90.
[أوشاكوف، ص 90].

(112) Уортман, с. 187.
[أورتمان، ص 187].

(113) يُنظر: Г. С. Кнабе, *Русская античность* (М., 1999); Уортман, *Сценарии власти*.
[غ. س. كنابيه، **العصور الروسية القديمة** (موسكو، 1999)؛ أورتمان، **سيناريوات السلطة**].

21 نيسان/أبريل 1769 قُدِّمت أوبرا «أوليمبيادا» (موسيقى ت. ترايتِّي، حوار ب. ميتاستازيو)، و«باليه الرياضيِّين والشبان اليونانيِّين» و«باليه الشعب اليوناني» بإخراج غ. أنجوليني. ولمناسبة يوم تتويجها في 22 أيلول/سبتمبر 1770 قُدِّمت أوبرا سيريا[114] «أنتيغون» (موسيقى ت. ترايتِّي، حوار ب. ميتاستازيو)، وباليه «اللهو والضحك واللعب، طُرُق النساء المقدونيات الدائمة في إغواء الجنود والبحارة الإيبيريِّين» (موسيقى غ. ف. راوباخ، إخراج غ. أنجوليني)؛ وبعد يومين، في 24 أيلول/سبتمبر 1770 قُدِّمت باليه د. شبرينغير «الأرغوناوتيون الجدد»[115] لمناسبة انتصار شيسما.


كنيسة شيسما. الأرشمندريت ي.م. فيلتون. 1777-1780

حلت خيبة الأمل باليونانيِّين «الإسبارطيِّين» بعد هزيمة الانتفاضة اليونانية والإخفاقات في مورية. وأعطى انتصار شيسما - وكذلك الانتصارات على البرِّ - زخمًا للجمع شيئًا فشيئًا بين النماذج المعاصرة

(114) **أوبرا سيريا** (Opera-seria بالإيطالية، أوبرا جدِّية): نوع من الأوبرا الإيطالية ظهر خلال نهاية القرن السابع عشر في إبداع الموسيقيِّين من مدرسة نابولي للأوبرا. كانت الأوبرا من هذا النوع تدور حول موضوع ميثولوجي، بطولي أو تاريخي، أسطوري، مع توزيع دقيق للمشاهد والموسيقى. من أبرز مؤلِّفي هذا النوع الأوبرالي: أليساندرو سكارلاتي وفريدريخ هيندل وأنطونيو ساليري وموزار في مرحلته المبكرة وغيرهم. (المترجم)

(115) Огаркова, с. 244-246.

[أوغاركوفا، ص 244-246].

[**بحارة الأرغو أو أرغاناوتي أو الأرغوناوتيون** (Argonauts) بالإنكليزية: هم، بحسب الأسطورة اليونانية، مجموعة من الأبطال الإغريق (عددهم خمسون) الذين أبحروا قبل حرب طروادة مع ياسون ابن أيسون ملك أبولكسوس في تساليا، إلى آيا التي عرفت في ما بعد باسم كولخيس أو كولخيدا، والواقعة على الطرف الأقصى من البحر الأسود. جاء اسمهم من سفينة الأرغو التي سُمِّيَت على اسم صانعها أرغوس. كان الهدف من الحملة إحضار الصوف الذهبي للكبش الذي هرب عليه إينو إلى الساحر ييتيس ملك آيا، الذي أكرم وفادته وزوجه ابنته خليكوس، فنحر الكبش وعلق صوفه في غابة أريس، حيث ظل يحرسها أفعوان دائم السهر لا ينام. وبعد مغامراتٍ كثيرة، أنهى من بقي منهم حيًّا المهمة واستعاد الصوف الذهبي، وقد ساعدت الساحرة ميديا إبنة ملك كولخيدا إييتا الأبطال في استعادته، ثم ما لبث ياسون أن تزوجها]. (المترجم)

والرموز القديمة (بل إنها أزاحتها أحيانًا): بين ماراثون وشيسما، و«هنيبعل» والإخوة أورلوف؛ فصارت مآثر «الرُّوس» تُقدم على نحوٍ لا يقلُّ شأنًا عن مآثر الأبطال الرومان واليونانيِّين[116]، وباتت صورة مآثر «الرُّوس» أمرًا مرغوبًا في العروض الاحتفالية.

وها هي مسرحية ب. بوتيومكين «الرُّوس في الأرخبيل» (1772)، التي تصوِّر معركة شيسما، تحلُّ مكان العُروض اليونانية. كما تمكن سكان بيزا وليفورنو مع الرُّوس المشاركين في الاحتفالات الصاخبة بذكرى معركة شيسما السنوية [الخامس من تموز/يوليو من الأعوام 1772 و1773 و1774]، من مشاهدة عرض ناريٍّ مَهيبٍ للمعركة (إحراق سفينة متهالكة في الخليج)، نظمه ألكسي أورلوف للفنان ف. هاكيرت في نيسان/أبريل من عام 1772.

ابتداءً من عام 1771، بدأت النبرة «الوطنية» تطغى في مراسلات كاترينا مع فولتير، بعدما كانت هذه المراسلات تحفل بمناقشة «الموضوعات اليونانية»؛ إذ كتبت الإمبراطورة في آب/أغسطس 1771 على سبيل المثال أنها تفضِّل النيفا على البوسفور، وأنها ستُعيد بناء ضاحية سان بطرسبورغ بعد الحريق، بدلًا من إعادة بناء طروادة (حُلم الفيلسوف)[117].

---

(116) كتب فولتير إلى الإمبراطورة معلِّقًا بالأسلوب نفسه على توصيفاتها الحماسية للأخوين أورلوف وسردها لخطب الأسقف بلاتون: «ما دام لديكم شخص مثل بلاتون في بطرسبورغ، فإنني على يقين من أن الأخوين أورلوف سيحلان محل ملتيادس وثيميستوكليس. يُنظر: *Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера*, Ч. 1, с. 170.

[مراسلات الإمبراطورة الروسية كاترينا الثانية مع السيد فولتير، ج 1، ص 170].

[ملتيادس: قائد يوناني كبير، ابن أحد السيمِّين المشهورين الذين شاركوا في سباق العربات الألعاب الأولمبية القديمة. اشتُهِرَ بدوره في معركة ماراثون، حيث يعود إليه الفضل الأول في انتصار الأثينيِّين على جحافل الملك داريوس الأول.

ثيميستوكليس: سياسي وقائد بري وبحري يوناني. كان شجاعًا وداهيةً وماهرًا في الحرب والسياسة. حث مواطنيه على بناء أسطول ضخم، لما رأى الخطر الذي يتهدد أثينا بعد معركة ماراثون. قاد الحرب البحرية ضد الأسطول الفارسي ودمره في معركة سالاميس]. (المترجم)

(117) المرجع نفسه، ج 2، ص 30-31.

بيد أن الوعي الذاتي القومي، كان لا يزال يبحث عن تعابيره المفاهيمية في سبعينيات القرن الثامن عشر، وكذلك كانت حال المشاعر الوطنية. ونعتقد أن تواجد الأسطول في البحر المتوسِّط والمصاعب التي واجهته أدت دورًا معينًا في تشكُّل الهوية الوطنية. فليس من قبيل المصادفة أن يكتب ألكسي أورلوف إلى الإمبراطورة عن شجاعة «الجوداريِّين»، أي عن أولئك الذين يقتاتون بخبز الجودار، أو عن «أبناء البلد» الذين «لا نتوقع منهم دائمًا الأفضل في تلبية واجب محبة الوطن والتفاني في خدمته وحسب، بل تحمُّل أعباء العمل العسكري ومشقاته أيضًا». وقد ولدت هذه الخصال، بحسب رأيه، «فوارق كبيرة بين الناس الرُّوس وبين الأجانب» العاملين في الخدمة الروسية.

لعل الإمبراطورة كانت ترغب في تعزيز هذه المشاعر. وفي أيِّ حال، ترددت النبرة الوطنية بصورة جلية في الاحتفالات بحلول السلام في عام 1775. فلم يحتفظ الموضوع «اليوناني» بأهميته في تلك الاحتفالات المَهيبة، إلا في سياق الحديث عن مأثرة المقاتل الروسي الحربية («حملوا معهم الرعب والمحبة في كلِّ مكان، الرعب للأعداء، والإنسانية للمهزومين»)[118]. وقد غيرت الإمبراطورة أسلوبها في تصميم الاحتفالات: فصارت ترغب في رؤية صورٍ لأراضيها الجديدة المكتسبة، بدلًا من الصور القديمة: «معبد يانوس، كما معبد باخوس، ومعبد لا نعرف عنه شيئًا، كلها استعارات لا تُطاق، عفا عليها الزمن...»؛ حتى إن «الموضوع القوطي» بات يمثِّل في الفنِّ المعماريِّ الروسي، كما يؤكِّد إ. بوتيانين، عودة إلى العصر الوطنيِّ والبيزنطيِّ القديم، إلى الماضي التاريخيِّ الروسي[119].

---

(118) Платон (Левшин), Слово на торжество славного мира, празднованнаго 1775 года иулия 10 дня (Успенский собор в Кремле), in: *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном*, t. 3, c. 76.

[بلاتون (ليفشين)، كلمة ألقيت في الاحتفال لمناسبة السلام المجيد في العاشر من تموز/ يوليو 1775 (كاتدرائية أوسبينسكي في الكرملين)، في: **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسيفنا من العام 1763 وحتى عام 1780**، مج 3، ص 76].

(119) Путятин, c. 170-178.

[بوتياتين، ص 170-178].

في نيسان/أبريل 1775، كتبت كاترينا إلى غريم تخبره أنها رفضت مشروع الاحتفالات الأول المقدم إليها، ورسمت السيناريو الخاص بها أمام فاسيلي باجينوف، الذي استُدعِيَ إليها:

«عزيزي باجينوف، ثمة مرجٌ على مسافة ثلاث فرستات من المدينة، تخيل أن هذا المرج هو البحر الأسود، وأن ثمة طريقين خلف المدينة: إحدى هاتين الطريقين ستكون نهر تانايس (الدون)، والأخرى نهر بوريسفين (دنيبر)، ستبنون مطعمًا عند مصب الأول وتطلقون عليه اسم آزوف، ومسرحًا عند مصب الثاني تسمونه كينبورن، وستصنعون شبه جزيرة القرم من الرمل، وتضعون هناك «كيرتش» و«يِنِيكالي» اللتين ستكونان قاعتين للرقص. وإلى اليسار من تانايس، ستبنون مقصفًا تضعون فيه نبيذًا وطعامًا للشعب، وسوف تُنَظَم ألعاب ضوئية مقابل القرم تعكس ابتهاج الدولتين بإبرام السلام؛ وتُطلق ألعاب نارية على الضفة الأخرى من الدانوب، كما ستُنشر زوارقُ وسفنٌ وستُضاء في المكان الذي يمثِّل البحر الأسود، وعلى ضفاف النهرين اللذين هما عبارة عن طريقين في الوقت نفسه، ستوضع مجسمات لطواحين وأشجار ومنازل مضاءة، وعلى هذا النحو سيكون لدينا احتفال من دون بهرجة مفرطة، ولكن ربما أفضل كثيرًا من كلِّ ما عداه، وسيكون فيه الكثير من الجمال. <...> نسيت أن أقول لكم إن تاغانروغ ستكون إلى اليمين من تانايس، حيث سيقام معرض. <...> وبما أن المكان واسع، والوقت ليل، فسيكون كلُّ شيء على ما يرام، ولن يكون على الأقل أسوأ من المعابد الوثنية التافهة، التي سئمت منها بصورة فظيعة»[120].

هكذا، كان يُفترض أن تتحول احتفالات النصر، بحسب كاترينا، إلى عيدٍ شعبيٍّ عام. لذا، استُخدمت صورٌ للأراضي المكتسبة حديثًا مفهومة تمامًا، مع توضيح المنافع التي حققها السِّلاح الروسي، بدلًا من («المعابد الوثنية التافهة») التي يصعُب اعتبارها رموزًا قريبة من الشعب. ومع ذلك، عمد ف. إ. مايكوف إلى تفسير معاني هذه الصور لمن لا يعرفها: «يُمثِّل آزوف، حيث تقع صالة

---

(120) Письма Екатерины Второй к Гримму, с. 21 (письмо от 7 апреля 1775 г.).
[رسائل كاترينا الثانية إلى غريمّ، ص 21 (الرسالة المؤرخة في 7 نيسان/ أبريل 1775)].

الطعام، الوفرة الناجمة عن السلام؛ وتُمثِّل العجول والنوافير شعب النوغاي[121] الذي كان يعيش رَفِهًا»[122].

كان للسلطات ما أرادته؛ إذ تُظهِر المذكرات القليلة المتوفِّرة أن الحرب الروسية - التركية بقيت في ذاكرة من لم يشارك في المعارك، من خلال الاحتفالات المَهِيبة والحاشدة فحسب.

هكذا، فإن الملازم في فوج نارفا للفرسان المسلحين ببنادق قصيرة، فاسلييف (المولود في عام 1736)، لم يأتِ في مذكِّراته على ذكر حملة الأسطول الروسي في الأرخبيل إطلاقًا، بل تحدث باغتباط كبير عن قيامه بزيارة خودينكا، بعد مأدبة غداء لدى عمه، في الخامس من تموز/يوليو، أي قبل أسبوع تقريبًا من بدء الاحتفالات، لمشاهدة الخيام والمسرح والمدن والسفن وغيرها الجاري بناؤها»، ثم عن رؤيته الإمبراطورة في أيام الاحتفالات التي تخللتها ألعاب نارية وإضاءات وحفلات تنكُّرية: «تكرمت صاحبة الجلالة بتناول الطعام في قلعة آزوف، في خودينكا، ونُظِّمت للشعب في الوقت نفسه ألعاب وأنشطة ترفيهية مختلفة»[123].

أما ل. أ. ترافين الذي وصل من مقاطعة بيسكوف حاملًا الجزية، فقد خصص الحديث في مذكِّراته عن احتفالات عام 1775، من بين كلِّ الأحداث

---

(121) شعب النُّوغاي: يُعدُّ شعب النُّوغاي المتحدِّر من قبيلة القبجاق التركية من الشعوب التي حافظت على ثقافتها جيلًا بعد جيل، على الرغم من انخراط أبنائها في الثقافات الأخرى. ويُعتبر هذا الشعب وريثًا للأُرطة (Orda) الذهبية ومحاربي قبيلة القبجاق، الذين امتزجوا مع المغول حين ساندهم الملك نوغاي في حروبهم آنذاك. وبعد هزيمة دولة أستراخان التتارية، التي كان جزء كبير من سكانها من النوغاي، على يد الدولة الروسية في أواسط القرن السادس عشر، هاجر قسم كبير منهم إلى شبه جزيرة القرم. وبعدما فقد النُّوغاي دولتهم، لم يتمكنوا من التأقلم مع الوضع الجديد، ولم يبق أمامهم سوى الترحال، إلى أن استقر قسم كبير منهم في شمال القوقاز. (المترجم)

(122) Майков, *Описание разных увеселительных зрелищ.*

[مايكوف، وصف مختلف العروض الترفيهية].

(123) К. Васильев, *Дневник поручика Васильева, 1774-1777 гг.*, Предисл. Е. Щепкиной (СПб., 1896), с. 96-98.

[فاسلييف، يوميات الملازم فاسلييف، 1774-1777، مقدمة ي. شيبكينا (سان بطرسبورغ، 1896)، ص 96-98].

التي شهدتها سبعينيات القرن الثامن عشر: قبل وصول موكب الإمبراطورة إلى بوابة بريتشيستينكا، «عمد المشاهدون إلى استئجار مواقع في بيوت السادة مقابل نصف روبل، وروبل، ليتمكنوا من مشاهدتها، وفي 21 تموز/يوليو وصل الموكب إلى الحقل قادمًا من المدينة». أما في خودينكا التي «رُسِمَ» فيها آزوف وتاغانروغ، فوُضِعت طاولات للوجهاء، وعجول لعامة الشعب، ونافورة شراب، «وأقيم على الجانبين مسرحان للحرفيِّين، وثالث للكوميديِّين، ورابع للغجر، أما الخامس فكان الأكثر إدهاشًا، حيث كان البهلوانيُّون يسيرون على الحبال...». وذكر أيضًا التدافع حول العجول ونوافير النبيذ ولاعبي السيرك في «المسارح» ومسرح الغجر، وتحدث أيضًا عن أن «كل هذا بني بتكاليف باهظة، فقد بيعت الألواح والحطامات بعدئذٍ باثنين وأربعين ألف روبل للتجار»[124]. ولم يذكر ترافين حملة الأرخبيل في مذكّراته إطلاقًا.

حتى الأميرال المُسِن موردفينوف، الذي ودع في يوم ما السفينة «ناديجدا بلاغوبوليتشيا» في ليفورنو، ولم يكتب شيئًا في مذكّراته لا عن حملة الأرخبيل ولا حتى عن انتصار شيسما، أتى على ذكر الاحتفالات، وإن بصورة جافة: «عُقِدَ الصُّلح مع الأتراك في 10 تموز/يوليو... من عام 1774». وأقيمت احتفالات لهذه المناسبة بعد عام «في جميع أنحاء الدولة»[125].

استنادًا إلى مذكّرات التاجر تولتشينوف (الذي «حضر القداس في كاتدرائية قازان الذي أقامه مطران سمولينسك، وحضره القائد العام مع جميع النبلاء»)، فإن

---

(124) Л. А. Травин, *Божьим милосердием облагодетельствованного Леон тия Артамонова сына Травина, урожenца из бедного состояния родителей, происшедшего в достоинство благородства, бывшия с 1741 года в жизни его обстоятельства и приключения, для сведения и пользы собственного потом ком его, описанная самим им*, *Вступит, статья Л. Софийского*, in: *Труды Псковского археологического общества*, t. 10 (1914), c. 91-93.

[ل. أ. ترافين، سيرة حياة ليونتي أرتمانوف، ابن ترافين، المولود لأبوين فقيرين، الذي أغدقت عليه النعمة الإلهية ورفعته إلى مقام نبيل بجدارة، ومغامراته منذ العام 1741، كتبها بنفسه لكي تكون مصدر معرفة وفائدة لذريته، في: أعمال جمعية الأرخبيل في بيسكوف، مج 10 (1914)، ص 91-93].

(125) С. И. Мордвинов, *Записки адмирала Семена Ивановича Мордвинова*, писанные собственною его рукою (с примечаниями С. Елагина) (СПб., 1868).

[س. إ. موردفينوف، مذكرات الأميرال سيميون إيفانوفيتش موردفينوف، كتبها بخط يده (مع تعليقات س. يلاغين) (سان بطرسبورغ، 1868).

الاحتفالات المركزية لم تُجْرَ في موسكو فحسب، بل في بطرسبورغ أيضًا، حيث وقفت فرق الحرس والأفواج الميدانية صفين على جانبي الطرق من كاتدرائية قازان حتى القصر الشتوي. وعند الوصول في الصلاة إلى «العمر المديد»، أطلقت النار في الهواء ثلاث مرات، فيما أطلقت مدفعية القلعة نيرانها، وقُرعت أجراس الكنائس طيلة النهار... وقد بقيتُ أَجُولُ إلى ما بعد منتصف الليل في شوارع كبيرة تشعُّ بالأنوار كالقلعتين، وتغصُّ بحشد كبيرٍ من البشر»[126]. وأُقيمت احتفالات لم يسبق لها مثيل في مدن المقاطعات الإمبراطورية أيضًا[127].

لم يكن من قبيل المصادفة أن تعمل السلطات على ترسيخ الانتصار على الأتراك في ذاكرة رعايا الإمبراطورة الروسية، بحيث يطغى على ويلات الحرب وأهوال انتفاضة بوغاتشوف التي أُخمِدت للتو. فلو لم يكن هناك لاعبو سيرك وعجول ونوافير نبيذ... فهل كان المعاصرون سيتذكرون معارك مورية وشيسما وسيطرة الأسطول الروسي على الأرخبيل على مدى سنوات أربع؟ وحده كاتب المذكِّرات الرائع وصاحب الكلمة اللاذعة، غ. س. فينسكي، لم يتمكن من كبح تهكُّمه عند وصفه الاحتفالات بعد بضعة عقود: «افتُتِحت الميلودراما بدخول الإمبراطورة بكامل أناقتها، يتقدمها ويرافقها البلاط الفاخر وأفواج من الحراس الشخصيِّين طِوَالُ القامة وجموع غفيرة من الناس. كانت بوابات الاحتفال المبنية كيفما اتفق من الحصائر ولِحَاء الشجر، ولكنِ المزخرفة والمذهبة والمزينة باللوحات المناسبة، تثير إعجاب الجميع إلى حدِّ الجنون. وفوق ذلك كلِّه الموسيقى العسكرية وقرع الأجراس والطلقات المدفعية. ويمكن لأيٍّ كان أن يتصور كم كانت هذه الظاهرة ساحرة على نحوٍ لا مثيل له، على الرغم من الشتاء القاسي»[128].

---

(126) И. А. Толченов, *Журнал, или Записка жизни и приключений Ивана Алексеевича Толченова* (М., 1974), с. 64.

[إ. أ. تولتشينوف، صحيفة، أو سيرة حياة إيفان ألكسييفيتش تولتشينوف ومغامراته (موسكو، 1974)، ص 64].

(127) لمزيد من التفصيل، يُنظر على سبيل المثال: Ковалев, с. 513-518.

[كوفاليوف، ص 513-518].

(128) Винский, с. 35.

[فينسكي، ص 35].

في غضون ذلك، لم يقتصر «العبء» الأيديولوجي الواقع على الاحتفالات، التي رافقت حملة الأسطول الروسي في الأرخبيل، على «الإبهار» و«ذرِّ الرماد في العيون». فالاحتفالات الفاخرة، التي تؤكِّد على عظَمَة الإمبراطورية الروسية ومواردها التي لا تنضب، كان من شأنها أن تُسهم في ترسيخ سلطة الإمبراطورية القوية في الداخل، وتعزِّز أهمِّيتها في الخارج. فـ «ظاهرة» الاحتفالات التي انطلقت من فضاء القصر إلى الشارع (وأُعِدت تفاصيلها في إطار رموز زمنها المسرحية) كانت مُعَدةً على أساس المشاركة الشعبية الواسعة في احتفال إنتصار الإمبراطورة الروسية، لتُقرِّب بين الحاكم وبين الرعايا. فقد أسهمت المشاركة في الاحتفالات في تكوين ذاكرة المُعاصِرين والأجيال القادمة التاريخية، عن الانتصارات على الإمبراطورية العثمانية. وفي نهاية المطاف، فقد عززت الاحتفالات التي مجدت انتصارات الأسطول والجيش - على الصعيد العاطفي - شعور الرعايا بالانتماء إلى الوطن الواحد، وكانت بمثابة تعبير عن أهمية الفكرة الوطنية المتزايدة[129].

---

(129) كتب أ. غ. أورلوف - على سبيل المثال - بوصفه أحد رعايا الإمبراطورية المخلِصين، عقب معركة شيسما مباشرة: «إن غيرة كلٍّ من كان معي ورغبتهم في نيل **«عطف إمبراطوريتنا العظيمة وخدمة الوطن وكسر كبرياء العدو وتمجيد قواتنا البحرية»**، قد تحققت كلُّها إلى حدٍّ ما».
*РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 10, Л. 25.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 10، الورقة 25]. (التشديد من المؤلفة).

عن ميزة الخطاب الوطني، يُنظر: О. Г. Агеева, «К вопросу о патриотическом сознании в России первой четверти XVIII,» in: *Мировосприятие и самосознание русского общества (XI-XX вв.)* (М., 1994), с. 39; Е. Н. Марасинова, *Власть и личность: очерки русской истории XVIII века* (М., 2008), с. 254-307; А. Б. Каменский, «Подданство, лояльность, патриотизм в имперском дискурсе России XVIII в.: исследовательские проблемы,» *Ab Imperio*, no. 4 (2006); I. Schierle, «Patriotism and Emotions: Love of the Fatherland in Catherinian Russia,» *Ab Imperio*, no. 3 (2009).

[أ. غ. أغييفا، «نحو مسألة الوعي الوطني في روسيا في الربع الأول من القرن الثامن عشر»، في: **وعي العالم والوعي الذاتي في المجتمع الروسي (القرن الحادي عشر - القرن العشرون)** (موسكو، 1994)، ص 39؛ ي. ن. ماراسينوفا، **السلطة والشخصية: دراسات في التاريخ الروسي في القرن الثامن عشر** (موسكو، 2008). ص 254-307؛ أ. ب. كامينسكي، «التبعية، الولاء، الوطنية في الخطاب الإمبراطوري الروسي القرن الثامن عشر: مسائل بحثية»، **البحوث الإنسانية، العدد 4** (2006)].

عندما انتهى عام 1775 «الوطني»، طرحت السياسة مهمات جديدة أمام الإمبراطورة ومعاونيها. وتغيرت معها إشارات السلطة الأيديولوجية الموجهة إلى المجتمع. بيد أن ذلك كان سلاحًا دعائيًّا، يعالج مهماتٍ أخرى لحرب أخرى.

هكذا، ناورت كاترينا الثانية بِحُرِّية في استخدام الذرائع الدينية والثقافية والسياسية، في تعليل سياستها المتوسِّطية دعائيًّا. وقد ساعدتها أفضل العقول والمواهب في عصرها في ذلك. وفي الوقت نفسه، تجعلنا السُّهولة التي انتقلت بها من ذريعة إلى أخرى نفترض أن الدِّعايةَ متعدِّدةَ الأوجه كانت تنطوي على بحث عن **التكتيك** الصحيح في اللعبة السياسية المعقدة.

أدت الصحافة الوطنية والأجنبية – التي لم تكن تنقل أفكار الدول فحسب، بل تراقب قابلية تحقيقها أيضًا – أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، دورًا ملحوظًا في عرض مشروع الإمبراطورة الروسية في الأرخبيل.

## الفصل العاشر

# المشروع المتوسِّطي في مرآة الصحافة الروسية والأوروبية الغربية

**ي. ب. سميليانسكايا**
**م. ب. فيليجيف**

«ثلاثة أجزاء الكرة الأرضية، تتخيل هذا المشهد الجديد مشدوهة، مشهد قواتك الجديدة وهي تحقِّق الانتصارات والمآثر المجيدة».

**من خطاب الجنرال - المدعي العام**
**في احتفالات عام 1775**

«العالم كله يتطلع إلينا اليوم بحسد يتحرق شوقًا، من دون شك، كي يرى الدولة الروسية ضعيفة... إننا في قلب الحسد والشر».

**بافل بوتيومكين. «الرُّوس في الأرخبيل»**

### صحافة تسعينيات القرن الثامن عشر في روسيا وأوروبا: من كان ينقلُ أخبارَ الحربِ إلى القارئ، وكيف؟

في معرض تقويمها لنتائج الحرب الروسيَّة - التركيَّة، أعلنت كاترينا في عام 1775 أنها تعتبر «إرسال أسطولها إلى الأرخبيل، وحضوره المجيد هناك،

ومن ثم عودته إلى موانئه ظافرًا، الحدث الأكثر فلاحًا في عهدها»[1]. ولم تكن الإمبراطورة تقصد بذلك نتائج مشروعها المتوسِّطي السياسية والاقتصادية فحسب، فقد تَمَثل مجد هذا المشروع ونجاحه أيضًا في الصدى الاجتماعي الهائل الذي تركته أعمال الأسطول الروسي في حوض المتوسِّط، بفضل الصحافة الوطنية والأجنبية. ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الصحافة قد أصبحت أحد المكوِّنات الأساسية في الحياة الاجتماعية الأوروبية بتشكيلها التصوُّرات عن العالم، فضلًا عن إمكاناتها في خلق جوٍّ من التعاطف سواءٌ أَمَعْ شخصيات تاريخية معينة أم مع شعوب بكاملها أو التنديد بها. وعلى غرار السياسيِّين الآخرين، كانت الإمبراطورة الروسية مضطرة إلى أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.

ترافق نموُّ تأثير الصحافة الأوروبية في القرن الثامن عشر، مع زيادة نسخ الصحف وتضاعف أعداد القراء[2]. فكان المواطن المُحب للاطِّلاع في أوروبا الغربية، إذا ما توافرت لديه الإمكانات، يشترك بعدة صحف تصله مع بريده اليومي. وإلى جانب الاشتراكات الفردية، انتشرت الاشتراكات الجماعية على نطاق واسع، في فرنسا على سبيل المثال، حيث شاعت قاعات المطالعة العامة[3]. وبحسب رأي الباحث الأميركي البارز في شؤون الصحافة الأوروبية جيريمي بونكين، كانت دائرة القراء في أوروبا الغربية خلال القرن الثامن عشر واسعة، حتى إنه كان يمكن أن تجد فيها الأرستقراطي والفلاح على حدٍّ سواء[4].

---

(1) *Материалы для истории русского флота*, Ч. XII (СПб., 1888), с. 299.

[**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**، ج 12 (سان بطرسبورغ، 1888)، ص 299].

(2) C. Labrosse, P. Rétat & H. Duranton, *L'Instrument périodique: La Fonction de la presse au XVIIIe siècle* (Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1985).

(3) P. Benhamou, «Inventaire des instruments de lecture publique des gazette,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles): Table ronde internationale, Saint-Étienne, 21-23 mai 1992*, textes réunis par Henri Duranton, Claude Labrosse & Pierre Rétat (Saint-Étienne: Publications de l'université de Saint-Étienne, 1992), pp. 121-129.

(4) J. Popkin, *News and Politics in the Age of Revolution: Jean Luzac's Gazette de Leyde* (Ithaca: Cornell University Press, 1989).

كان دور الصحافة الروسية الاجتماعي أيام الحرب الروسيَّة - التركيَّة الأولى أكثر تواضعًا من دون شكٍّ، وذلك لأسباب عديدة. **أولًا**، كانت دائرة قراء الصحف الروسية ضيقة جدًّا (سنتحدث عن ذلك في ما بعد)، ولم تكن منظومة توزيع المطبوعات الدورية متطوِّرة بالقدر الكافي[5]. ولم تحدث القفزة الحادة في عدد النسخ وفي عدد المشتركين إلا في بداية القرن التاسع عشر، الأمر الذي ارتبط تقليديًّا بنشاط ن. م. كارامازين، الصحافي الذي أنشأ صحيفة **بشير أوروبا** في عام 1802، التي بلغ عدد نسخها في سنتها الأولى 3600 نسخة. **ثانيًا**، كانت صحيفتا **أنباء موسكو وأنباء سان بطرسبورغ** عمليًّا صحيفتين حكوميتين، بينما لم يكن العديد من الصحف والمجلات الأوروبية مرتبطًا بأهواء البلاطات الأوروبية (ولا سيما المطبوعات الهولندية غير الخاضعة للرقابة)، الأمر الذي أسهم في تكوين **الرأي العام**. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنه على الرغم من أن مصادر معلومات جمهور القراء الرُّوس كانت أقل مقارنةً مع مثيله الأوروبي (كانت الصحافة الأجنبية التي تصل إلى روسيا في متناول عددٍ محدودٍ من القراء)، كانت ساحة الصحافة الأوروبية الإعلامية خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر تميل إلى الوحدة: فكانت تجري في روسيا مناقشة كلِّ الأخبار الأساسية المنتشرة في أوروبا، ولا سيما أخبار الحرب[6].

---

(5) لمزيد من التفصيل، يُنظر: А. Ю. Самарин, *Читатель в России во второй половине XVIII века* (М., 2000), с. 131-132.

[أ. ي. سامارين، **القارئ في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر** (موسكو، 2000)، ص 131-132].

(6) من المعلوم أن الاهتمام بالموضوع العسكري كان أمرًا طبيعيًّا تمامًا، إذا ما أخذنا في الحسبان المعطيات المتوفِّرة عن تركيبة جمهور قراء «الأنباء» الاجتماعية. فبناءً على حسابات د. ف. تيوليتشيف كانت أغلبية قراء **أنباء سان بطرسبورغ** في موسكو، خلال أواسط القرن الثامن عشر، تتألف من العسكريِّين (النُّبلاء)، الذين شكلوا 40 في المئة من المشتركين. ومن المستبعد أن يكون هذا الرقم قد تغير خلال عقد ونصف من الزمن. يُنظر: Д. В. Тюличев, «Московские подписчики «Санкт-петербургских ведомостей» в середине XVIII в.,» in: *Книга и ее распространение в России в XVI-XVIII вв* (Л., 1985), с. 106.

[د. ف. تيوليف، «المشتركون في «أنباء سان بطرسبورغ» الموسكوبيون في أواسط القرن الثامن عشر»، في: **الكتاب وانتشاره في روسيا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر** (لينينغراد، 1985)، ص 106]. =

تدلُّ مجلدات المجموعات الصحافية - المحتوية تقاريرَ العمليات القتالية وبياناتها وسجلاتها المقتبسة من صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** وغيرها من المطبوعات - على نموٍّ اهتمام القراء بالمعلومات العسكرية في روسيا. إذ يتركز اهتمام أغلبية هذه القصاصات بالحروب الروسية - التركية (وبالدرجة الأولى حرب 1736-1740، وحرب 1768-1774)[7]. فغالبًا ما كانت هذه المجموعات الصحافية تتضمن مواد أُضيفت خصِّيصًا إلى الصحف في سنوات الحرب، فكانت كلُّها تقريبًا مكرسة للأنباء الواردة من الجيش الروسي[8]. وبحسب رأي الباحثين، كان اهتمام القراء في القرن الثامن عشر «بمواد الصحف التي تتناول الحرب، كبيرًا إلى حدٍّ أن بعض دور النشر عمد إلى إعادة إصدار هذه المواد المختارة في كتب خاصة»[9].

في ما بعد، عند دراسة مسألة نقل صورة حملة الأرخبيل في الصحافة الوطنية والأجنبية، ستُعقَدُ مقارنة منشورات أنواع مختلفة من إصدارات خلال

---

= والمعلوم أيضًا أن «عدد قراء **أنباء سان بطرسبورغ** كان أكبر بعدة مرات من عدد المشتركين فيها» (ص 105).

(7) Л. Э. Базанова & М. И. Фундаминский, «Материалы газеты *Санктпетербургские ведомости* во владельческих конволютах XVIII века,» in: *Книга и ее распространение в России в XVI-XVIII вв*, с. 113-126.

[ل. إ. بازانوفا وم. إ. فونداminسكي، «مواد صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** المجموعة في مجلدات خلال القرن الثامن عشر»، في: **الكتاب وانتشاره في روسيا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر**، ص 113-126].

(8) المرجع نفسه، ص 116. بخصوص الإضافات (الملاحق) إلى صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**، يُنظر: Л. Э. Базанова, ««Прибавления» к газете «Санктпетербургские ведомости» (1728-1800 гг.),» in: Академия наук СССР, Библиотека, *Материалы и сообщения по фондам отдела рукописной и редкой книги, 1985* (Л., 1987), с. 141.

[ل. إ. بازانوفا، ««إضافات» إلى «سان بطرسبورغ» (1728-1800)»، في: أكاديمية العلوم السوفياتية، المكتبة، **مواد وأنباء من مجموعات قسم المخطوطات والكتب النادرة، 1985** (لينينغراد، 1987)، ص 141].

(9) Базанова & Фундаминский, с. 119-120.

[بازانوفا وفونداminسكي، ص 119-120].

فضلًا عن ذلك، غالبًا ما كانت تُتَدَاوَل الأخبار التي تنقلها الصحف عن حرب الأعوام 1768-1774، بعد نسخها يدويًّا (ص 122-123).

الفترة الواقعة بين عامي 1769 و1775: 1) **المنشورات السريعة**، وبالدرجة الأولى **أنباء سان بطرسبورغ** (بدأت بالصدور ابتداءً من عام 1728) و*Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) (بدأت بالصدور ابتداءً من عام 1688) وكذلك **أنباء موسكو** (بدأت بالصدور ابتداءً من عام 1756)، و*Gazette de France* (**الجريدة الفرنسية**) (بدأت بالصدور ابتداءً من عام 1631)، و*Gentleman's Magazine* (**مجلة جنتلمان**) (صدرت 1731)، وكانت كلُّها تصدر مرتين في الأسبوع في «أيام البريد»، وتميزت بكونها من المنشورات الأكثر اطِّلاعًا عليها في بلدانها؛ 2) **المطبوعات التحليلية** التي كانت تُصدِرُ تقارير سنوية، وفي مقدِّمها الدورية السنوية البريطانية *Annual Register* (**السجل السنوي**) (صدرت ابتداءً من عام 1758؛ 3) **الدوريات الأدبية والاجتماعية الأسبوعية** والشهرية: **تروتين** («**ذكر النحل**») و**بوستوميليا** («**الثرثارون**») اللتان أصدرهما ن. إ. نوفيكوف خلال عامي 1769 و1770، و**النملة المجتهدة** لصاحبها ف. غ. روبان (1771). و**أشياء متنوِّعة** التي أصدرها غ. ف. كوزنيتسكي تحت إشراف كاترينا الثانية (من عام 1769 حتى أيار/ مايو 1770). ويدلُّ الإقبال على هذه الدوريات، وكذلك حسن اطِّلاعها وسرعة تعاملها مع الأحداث، على مدى تأثيرها في رأي القراء العام في شرق أوروبا وغربها.

يسمح تحليل الصحافة الروسية باستخلاص استنتاج مفاده أنه على الرغم من فيض الأخبار الموثوقة وغير الموثوقة، المتعلِّقة بالحرب الروسيَّة - التركيَّة، كانت هذه الصحافة تهتمُّ بالدرجة الأولى بإطْلاع القارئ على سير الأعمال القتالية، مع التأكيد لوضع الجيش والأسطول الروسيين الممتاز، وفي المقابل حال الجيش والأسطول التركي السيِّئة، وعلى خوف الأتراك العارم من الجيش الروسي ومنابعه الدينية والعسكرية، وعلى علاقة حملة الأرخبيل بمشاريع الاستيلاء على القسطنطينية وفكرة عزلة الإمبراطورية العثمانية الشاملة. وكانت تسعى أيضًا إلى تعريفه باليونانيِّين والسلافيِّين المُتعَاوِنين مع الحملة. وقد اتسمت المعلومات الواردة في الصحف الروسية بالإيجاز، فتشابهت إلى حدٍّ بعيدٍ مع القوالب الأيديولوجية «الرسمية» (وسنتحدث عن ذلك في ما بعد)؛ بينما اتسمت الصحافة الغربية بقدرٍ كبيرٍ من التباين في ما بينها، سواءٌ أَمِن حيث طريقةُ تقديم المعلومة، أم من حيث المواقف السياسية والأولويات.

كانت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**)[10] مخصصة في البداية للهوغونوتيِّين[11] الفرنسيِّين النازحين إلى هولندا. وقد نجحت الصحيفة في نيل حقِّ التوزيع في فرنسا، مع حفاظها على وضعها بصفتها مطبوعة أجنبية مستقلة. وسرعان ما اكتسبت سمعة الوسيلة الإعلامية الأجنبية الأكثر شعبية[12]. وقد نشرت الصحيفة تقارير مسهبةً عن المراسم في بلاطات أوروبا والإمبراطورية العثمانية، كما أصدرت نشراتٍ دوريةً عن الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية (وإن أقل) في العواصم الأوروبية. وفي نهاية القرن الثامن عشر احتلت الأنباء الواردة من أميركا حيِّزًا متزايدًا في الصحيفة، فيما كانت المعلومات عن الأحداث في آسيا وأفريقيا تحظى باهتمام أقل. ونادرًا ما كان يصدر عددٌ من *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) خِلْوًا من أخبار روسيا[13]. ففضلًا

---

(10) تمكنا من العمل على كلِّ أعداد هذه الصحيفة تقريبًا، بفضل مؤسسة فولتير (أكسفورد) التي أعدت النسخة الرقمية من *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**). لذا، لا بد من التعبير عن امتناننا للمكتبة التاريخية الحكومية العامة، التي اقتنت هذه الطبعة الإلكترونية في عام 2006 بناءً على طلبنا.

(11) **الهوغونوتيُّون** [Huguenot(s) بالفرنسية]: اسم البروتستانت الفرنسيِّين منذ القرن السادس عشر. يتحدر الاسم من الكلمة الفرنكو-سويسرية eyguenot (aguynos)، وتعني الأخ أو عضو اتِّحاد جنيف البروتستانتي ضد أرشيدوق سافوي. تأثر الهوغونتيُّون بتعاليم جون كالفين، وتعرضوا للاضطهاد في فرنسا. وفي نهاية القرن السابع عشر فر نحو 200 ألف منهم من فرنسا إلى بلدان بروتستانتية، كإنكلترا والدانمارك وسويسرا وهولندا وبروسيا، وإلى المستعمرات الإنكليزية في أميركا الشمالية وغيرها. اعتبرت هجرة الهوغونوتيِّين هجرة أدمغة، إذ كان عدد كبير منهم من المتعلِّمين والحرفيِّين ومن الطبقة البرجوازية، فعملوا في ميداني الصيرفة (البنوك) والتجارة. (المترجم)

(12) يمكن الحكم على أهمية هذه الصحيفة من خلال تفوُّقها المطلق على كلِّ المطبوعات الأجنبية الأخرى في فرنسا خلال أربعينيات القرن الثامن عشر بباريس: 77-80 في المئة في عام 1742، و75.2 في المئة في عام 1747. وازدادت أهمِّيتها بعد «ثورة البريد» في منتصف خمسينيات القرن الثامن عشر. وكانت **صحيفة أمستردام** متاحة للقراءة في مكتبتين عامتين في باريس وفي مدينتين أخريين في المقاطعات. يُنظر:
G. Feyel, «La Diffusion des gazettes étrangères en France et la révolution postale des années 1750,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles)*, pp. 82-98; Benhamou, pp. 121-129; J. Sgard (dir.), *Dictionnaire de journeaux, 1600-1789* (Paris, 1991), vol. 1, pp. 450-453; S. Charles, «Sur l'écriture du présent: La Gazette d'Amsterdam et la Gazette de France,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles)*, pp. 177-185; P. Rétat, «Les Gazetiers de Hollande et les puissances politiques: Une difficile collaboration,» *Dix-Huitième Siècle*, no. 25 (1993), pp. 319-335; P. Rétat (dir.), *La Gazette d'Amsterdam: Miroir de l'Europe au XVIIIe siècle* (Oxford: Voltaire Foundation, 2001).

(13) تجدر الإشارة إلى أن كل المطبوعات الإعلامية الأساسية في أوروبا تقريبًا أولت روسيا اهتمامًا كبيرًا. عن كيفية وصول المعلومات عن روسيا إلى الصحف الأوروبية، يُنظر: G. Dulac, «L'Image de la Russie dans les gazettes et les correspondances diplomatiques et ses annexes (1774- =

عن حياة البلاط[14] والاتصالات الدبلوماسية، كانت الصحيفة تنشر أخبارًا عن الاكتشافات العلمية والبعثات[15] والحرائق[16] ونزوح الكالميك[17] إلى منطقة أستراخان[18]، وعن وباء الطاعون وانتفاضة بوغاتشوف، ناهيك المقالات الكثيرة المخصصة للتطعيم ضد الجدري. وكانت الأخبار المتعلقة بالتجارة أكثر ما يهمُّ جالية البروتستانت الفرنسيِّين التجارية في أمستردام، إلا أنها نشرت الكثير من التعليقات السياسية أيضًا[19]. وتناول مراسلون كثر، سواءٌ أَمِنْ سان بطرسبورغ والقسطنطينية أم من مدن أخرى في أوروبا وآسيا، الحرب الروسيَّة - التركيَّة خلال الفترة 1768-1774 وحملة الأرخبيل اللتين مستا مصالح التجارة المشرقية على نحوٍ مباشر.

كانت *Gentleman's Magazine* **(مجلة جنتلمان)** موجهة إلى القارئ البريطاني بالدرجة الأولى: فقد أولت الأخبار السياسية والجنائية الداخلية وأخبار البرلمان، وكذلك الأخبار الأدبية والإعلانات الخاصة، اهتمامًا أساسيًّا. ومع ذلك، لم تهمل الصحيفة الأخبار العالمية.

---

1780),» dans: *Nouvelles, gazettes, mémoires secrets (1775-1800): Actes du colloque international, Karlstad, 17-20 septembre 1994*, études réunies et présentées par Birgitta Berglund-Nilsson (Karlstad: Karlstad university press, 2000), pp. 71-88. =

(14) نقلت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** باهتمام خبر شراء قطعة ماس من عيار 779 قيراط في أمستردام تنفيذًا لأمر كاترينا ونقلها إلى بطرسبورغ: *G. d'A.*, 1772, no. 64, 70.

(15) عن بعثة بالاس وغميلين، على سبيل المثال (*G. d'A.*, 1768, no. 88; 1773, no. 31)، وعن الحدائق التي زرعها بستاني كاترينا إيكليبين (1778, no. 102)، وعن مراقبة كسوف الشمس (1774, no. 10).

(16) عن الحريق الذي أتى على قصر إليزابيتا بيتروفنا الخشبي، الذي بناه لها إ. إ. شوفالوف (*G. d'A.*, 1772, no. 27)، وعن احتراق 500 منزل و12 كنيسة في فيليكي أوستيوغ (*G. d'A.*, 1772, no. 57)، وعن الحرائق في ستاريا لادوغا (*G. d'A.*, 1773, no. 55) وغيرها.

(17) **الكالميك، أو القلميقيون**: جماعة إثنية مغولية ينتمون إلى شعب الأويرات (أو الأويرد) وموطنه الأصلي المنطقة الغربية من منغوليا. كان الأويرات جزءًا من إمبراطورية جينكيز خان، وبعد تفكُّك الإمبراطورية هاجر قسم منهم إلى روسيا وحملوا اسم الكالميك، وأنشأوا خانية الكالميك في منطقة شمال شرق القوقاز الروسية. وهم يشكِّلون اليوم أغلبية سكان جمهورية كالميكيا ذات الحكم الذاتي على شاطئ بحر قزوين الغربي. (المترجم)

(18) *G. d'A.*, 1773, no. 38.

(19) Sgard (dir.), vol. 1, p. 452.

حرصت *Gazette de France* **(الجريدة الفرنسية)**[20] على تقديم نفسها بوصفها ناطقةً رسميةً باسم الحكومة الملكية (فكانت تضع العنوان الآتي تحت اسمها: «*Organe officiel du gouvernement royal*» **(الجهاز الرسمي للحكومة الملكية)**)؛ فإلى جانب المعلومات عن حياة بلاط فرساي، كانت تنشر معلوماتٍ دبلوماسيةً وسياسيةً كثيرة. وعلى غرار الحكومة الفرنسية، اتخذت موقفًا معاديًا لروسيا في الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774).

ولم تكتفِ الدورية السنوية البريطانية *Annual Register* **(السجل السنوي)** بتقديم عرض للأحداث السنوية وفقًا لتسلسلها الزمني، بل قدمت للقارئ أول تحليلٍ شاملٍ للوضع السياسيِّ في العالم[21]، اتسم بمستوى مهنيٍّ حقيقيٍّ، وتضمن ملاحظاتٍ وتوقُّعاتٍ دقيقة. ونعتقد أن واضعي المجلة أبدوا تواضعًا مفرطًا عندما وضعوا المقدِّمة الآتية لأحد أعدادها:

«إن عرض هذه الأحداث بالشكل المطلوب، ووصف طبيعتها واتجاهاتها، والكشف عن تداعياتها الأبعد مدى، يحتاج إلى مواهب تاريخية وسياسية عظيمة. وبما أننا لسنا على مستوى هذه المهمات، فسنحاول عرضها قدر الإمكان، وسيكون من دواعي سرورنا لو أننا أصبنا النجاح في تقديم مدونات يستفيد منها المؤرِّخون المستقبليُّون في أبحاثهم، ولو أن قراءنا رأوا أننا لم نكن كسالى في عملنا ومساعينا (حتى ولو لم نوفق في تحقيق أهدافنا)»[22].

يدلُّ تنوُّع المراسلات الواردة إلى الصُّحف والدوريات المذكورة ونوعيتها على سعة اطِّلاع العاملين على إصدارها. هذا، ولم يكن لدى الناشرين

---

(20) نشكر ي. أ. أكيليف على المساعدة التي قدمها في دراسة أعداد هذه المطبوعة المحفوظة في باريس.

(21) محتويات *Annual Register* (السجل السنوي) لأعوام 1758-1778 متاحةٌ على الإنترنت، في: www.bodley.ox.ac.uk/ilej

وكانت هذه الصحيفة التي بدأ السياسي البارز إدمون بيرك بإصدارها منذ عام 1758 عبارة عن عرض سنوي للأحداث في أوروبا والعالم، وكانت تتضمن أيضًا نصوصًا بيوغرافية وتقارير عن عمل السُّفن والبرلمان، فضلًا عن عروض موجزة عن الكتب.

(22) *AR*, 1772, preface, p. 2.

الأجانب مُخبِرون علنيُّون وسريُّون في الأوساط الحكومية فحسب، بل في المدن الساحلية والصناعية أيضًا؛ لذا، فَهُمْ كانوا على اطِّلاع على حياة البلاط وسياسته وعلى الأمزجة السائدة في المجتمع الراقي وبين عامة الناس، أكان في الدول المسيحية أم في محيط الحاكم العثماني. وقد حدد هذا إلى حدٍّ كبيرٍ مستوى الصدقية التي اتسمت بها الأخبار المنشورة في الدوريات المطبوعة. وابتداءً من تفاقم النِّزاعات الدينية في بولندا وتدخُّل الإمبراطورية العثمانية في «الشؤون البولندية»، توفرت لقارئ الصحف الأوروبية إمكان التعرُّف على سير الحرب البرية بالتفصيل، وذلك من خلال تقارير المراسلين المفصلة من وارسو وجبهة الدانوب والقرم وغيرها من الأماكن. وكانت حملة الأرخبيل، منذ أن بدأت تحضيراتها السرية، موضوعَ تتبعٍ من عددٍ كبيرٍ من المراسلين في سان بطرسبورغ والقسطنطينية وغيرهما من مدن أوروبا وآسيا. وكانت **الرسائل** الشخصية والعملية، الواردة إلى الأوروبيِّين من التجار من مدن شرق البحر المتوسِّط - التي كان مراسلو الصحف يضعون أيديهم عليها - من بين مصادر المعلومات الفريدة عن الأوضاع في الأرخبيل ومناطق الإمبراطورية العثمانية الأخرى، على الرغم من أنها لم تكن موثوقة تمامًا. ومن الصعب التقليل من أهمية آراء شهود العيان هؤلاء عن الأوضاع في مناطق الحكام المتمرِّدين على الباب العالي (علي بك بالدرجة الأولى)، وعن أعمال الأسطول الروسي عند شواطئ فلسطين أو عند سِمِيرْنَا[23]، على الرغم من أنه لم يكن ممكنًا التحقُّق دائمًا من صحة معلوماتهم[24].

---

(23) سْمِيرْنا: مدينة يونانية قديمة تقع على ساحل الأناضول الغربي على البحر المتوسِّط، ويعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وتقع أطلالها ضمن مدينة إزمير التركية. سُمِّيَت بهذا الاسم نسبة إلى إحدى الأمازونيات (سبق ذكرها في هامش خاص). كما كان هذا الاسم يطلق سابقًا على حيٍّ في مدينة أُفْسُسْ، وقد حُوِّر لاحقًا ليصبح زمورنا وزمورنايس، ومنه اشتُق اسم المدينة الحديث: إزمير. (المترجم)

(24) مع أن مراقبة الرسائل كانت أمرًا شائعًا، إلا أنه يصعب في حالات كثيرة معرفة كيفية وصول هذه الرسائل الخاصة والرسمية إلى مراسلي الصحف. كان ناشرو الصحف لا يُخفون اهتمامهم بمعرفة محتويات المراسلات الخاصة والدبلوماسية؛ وقد أخبروا القراء باعتزاز له ما يُسوِّغه أن محتويات الرسائل التي وصلت إلى الفرقاطة الروسية من باروس، «تحتوي» معطياتٍ سبق نشرها على صفحات الصحيفة في الأعداد السابقة (وهذا يعني أن الرسائل قد فتحت) (*G. d'A.*, no. 76, 20. IX, 1771 r.). كما =

لم تكن صحيفتا أنباء موسكو وأنباء سان بطرسبورغ تملكان عددًا كبيرًا من المراسلين الأجانب، وكان متاحًا لهما الوصول إلى المعلومات عبر شخصيات مقربة من الإمبراطورة من أمثال غ. غ. أورلوف ون. إ. بانين. بيد أن الصحيفتين غالبًا ما كانتا تُعِيدان نشر مواد عن الأحداث في حوض البحر المتوسِّط سبق نشرها في أوروبا. فضلًا عن ذلك، كانت تصلهما نصوص التقارير الرسمية والرسائل الخاصة أيضًا. وكانت الصحيفتان تُسجِّلان أدق تفاصيل تحرُّكات العمائر البحرية الروسية، من بينها، على سبيل المثال، خبر يقول إن أهالي البندقية شاهدوا سفينةً روسيةً تعبر على مقربة من شواطئهم.

جدير بالذكر أنه لم يكن مستوى صدقية المعلومات المنشورة في الصحف ليتوقف على اتِّساع صلات الناشرين وحسب، بل أيضًا على قدرتهم على منع ظهور مواد مضلِّلة أو مُتحامِلَة على صفحات صحفهم. فمن المعروف أن تأثير الصحافة الأوروبية على أمزجة أوساط واسعة من القراء جعل الحكام يسعون إلى استخدام وسائل التأثير على الصحافة[25]. وسعت روسيا بدورها إلى استخدام قواعد اللعبة نفسها، التي استخدمتها البلاطات الأوروبية الأخرى في تكوين المجال الإعلامي. فعلى سبيل المثال، كانت المقالات المقدمة إلى الصحف الإيطالية - بتوجيهٍ من ألكسي أورلوف - تتضمن معلوماتٍ مبالغٌ بها عن قدرة الأسطول الروسي في حوض البحر المتوسِّط[26]، أو تُصَوِّر

= كان المراسلون يقتنصون الأخبار من قباطنة السفن التجارية الوافدة إلى مرافئ المدن، وينقلونها إلى الصحيفة مباشرة (كان المراسل في هذه الحال يذكر اسم القبطان وسفينته، ويتذرع أيضًا بضرورة الحصول على تأكيدات إضافية لإثبات صحة المعلومة الواردة سابقًا). وغالبًا ما كان المحرِّرون يلجأون في مثل هذه الحالات إلى استخدام تعبير «يقال إن...» أو «ثمة شائعة تقول إن ...» ...إلخ.

(25) يتسم بالدلالة في هذا السياق مثالُ صحيفة الهوغونوتيين *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) التي سعت الحكومة الفرنسية في القرن الثامن عشر مرارًا إلى شراء ناشريها، لتنشر المعلومات التي تلائم فرساي. يُنظر بهذا الخصوص: Rétat, pp. 319-335.

(26) منها على سبيل المثال الخبر الذي ورد من ليفورنو في 13 كانون الثاني/ يناير 1771، ومفاده أن لدى الكونت أورلوف على متن سفينة يونانية 80 برميلًا من البارود و25 ألف رطل من الرصاص وكميات كبيرة من الذخيرة، وأنه ستُنقلُ كلُّها بأمر منه إلى كريت. ويقول الخبر أيضًا أن الأمير دولغوروكوف أرسل إلى الجبل الأسود سفينتين محملتين «بألف صندوق من البارود وكمية معتبرة من الذخائر الحربية». وقد حصل المصرفي أوتوفرانك على 600 ألف إيكو ستُرسل إلى بورت ماغون لتُنفَقَ =

أورلوف نبيلًا رفيع المقام، سخيًّا[27]، حاميًا للملاحة المتحضِّرة[28]، أو تُخبِر أوروبا عن انتصارات الأسطول الروسي الجديدة. وفي بعض الأحيان، كان المراسلون الرُّوس رفيعو المقام ينشرون في الصحف الأجنبية معلوماتٍ مشكوكٌ بصحتها، ومنها على سبيل المثال معلومة تفيد أن قائد القوات البرية الروسية الأعلى تلقى عبر الساعي خبرًا يزعم توجُّه الأسطول الروسي – الذي بُنِيَ على نهر الدون – للانضمام إلى العمارة البحرية في المتوسِّط، وهو يمخر عباب بحر آزوف (كذا!)، وأن الجنرال الكونت توتليبين حقق نجاحًا كبيرًا في الأناضول، وأن الجيش التركي لا يتجاوز الستِّين ألفًا، وأن مصر خلعت عنها النِّير العثماني، وأن أربعة جسور ستُبنى فوق نهر دنيبر[29]. من الواضح أن نشر هذه المواد في صحيفة هولندية «مستقلة» كان يخدم روسيا من دون شكٍّ، ولا يُستبعد أن يكون مدفوعًا (لقاء مال) من الخزينة الروسية[30]. وكان

---

= على شراء كلِّ ما يحتاج إليه الأسطول الروسي (G. d'A., no. 11). وفي شباط/ فبراير 1771 وصل من مالطا خبر يقول إن خمس سفن روسية محملة بـ 12 ألف برميل من البارود و24 ألف برميل من الرصاص و16 ألف بندقية، إضافةً إلى عدد كبير من المدافع وغيرها من الأعتدة الحربية (G. d'A., no. 23, 20. III في 5 شباط/ فبراير من مالطا). ولوحظ الأمر نفسه في الصحافة التوسكانية – ولا سيَّما في صحيفة *Le Notizie del Mondo* (أخبار العالم) واسعة النفوذ، وكذلك *La Gazzetta Toscana* (جريدة توسكانة) التي كانت تصلها المواد من يد أورلوف مباشرة أو عبر عملائه (خصوصًا عبر المركيز بانو ماروتسي). (لمزيد من التفصيل، يُنظر الفصل السادس).

(27) على سبيل المثال، الخبر الذي يقول إن الكونت أورلوف قدم إلى الأرشيدوق هديةً عبارة عن معطف من فرو الثعلب قيمته ألف تسيكين، وتلقى في المقابل هديةً من الأرشيدوق عبارة عن علبة للتبغ من الذهب والماس (G. d'A., no. 16) (بيزا، 31 كانون الثاني/ يناير).

(28) ورد خبر من ليفورنو في الخامس من آب/ أغسطس 1772 يفيد أن ألكسي أورلوف أبلغ مَنْ على متن السفينة «روستيسلاف» الراسية بالقرب من كورسيكا أنه أرسل فرقاطةً عسكرية روسية إلى الشواطئ البربرية «لإخضاع الجزائريِّين والقراصنة الآخرين»، وأن الفرقاطة دخلت المرفأ وحررت سفينة ليورنية» (G. d'A., 1772, no. 67).

(29) G. d'A., 1770, no. 34, 24. IV.

هنا ولاحقًا أعداد الصحف الأجنبية مؤرخة وفق التقويم القديم (الغريغوري)، أما الوطنية فوفق التقويم الجديد (اليولياني). يمكن أن ترد تواريخ الأحداث وفق التقويمين في آن واحد.

(30) لم يكن مستغربًا في هذا السياق أن الرسائل الواردة من بطرسبورغ، أو من أماكن تمركز القوات البرية أو البحرية الروسية، إلى المفوض فوق العادة في لاهاي الأمير د. أ. غوليتسين، كانت تُنشر بالكامل أو جزئيًّا في *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام)، مثلًا. فلو حصل «تسريب» المعلومات هذا مرة أو مرتين، =

الكثير من هذه الأخبار يصل إلى روسيا، بالدرجة الأولى عبر صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** الحكومية (ومن بعدها في صحيفة **أنباء موسكو**). ولا بد من التذكير أيضًا أن مطبعة أكاديمية العلوم - التي كانت تُطبع فيها **أنباء سان بطرسبورغ** - كانت تُصدر أيضًا نسخة باللغة الألمانية مخصصة للجمهور الأوروبي المتعلِّم.

ظل التأخير في إيصال الأخبار معضلةً جدِّيةً واجهتها الصحافة الدورية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وقبل ظهور الاتصالات البرقية (التلغراف)، كان العاملون في الصحافة والحكومات عاجزين عن تذليل هذه المعضلة. وقد طالت هذه المشكلة الأخبار الواردة من حملة الأرخبيل بصورة خاصة. فإذا كانت الأخبار الواردة من لاهاي وأمستردام ولندن تظهر بعد بضعة أيام في الصحف الفرنسية والبريطانية والهولندية، فقد كانت تستغرق الأخبار الواردة من ليفورنو وأنكونا والبندقية وأورونتو ومرسيليا ما بين أسبوعين أو ثلاثة، ومن سان بطرسبورغ ما بين ثلاثة وأربعة أسابيع، ومن القسطنطينية وسْمِيرْنا ما بين خمسة وثمانية أسابيع، ومن سوريا ومصر من ثمانية إلى ستة عشر أسبوعًا. أما الأخبار الآتية من بحر إيجة فقد كانت تسلك طريق إيطاليا على السُّفن الحربية أو التجارية العابرة، التي كانت تتوقف لفترات طويلةٍ جدًّا بسبب سوء الطقس[31] أو الحجر الصحِّي (كان تأخُّر وصول أخبار انتصار شيسما إلى روسيا شهرين (!) أجلى الأمثلة على ذلك. يُنظر الفقرات التالية). وكانت الأنباء الواردة من القوات البرية العاملة تصل إلى الصحافة الروسية متأخِّرةً شهرًا في الأغلب[32].

---

= لكان من الممكن الشك بعدم نزاهة العاملين في البعثة. ولكن، كان المبعوث د. أ. غوليتسين، على الأرجح، يقوم بدور المُوصِل للمعلومات من الحكومة الروسية. أما *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) فكانت تختار الخطوات الدعائية بِحُرِّية (ربما لقاء أجر) أو عن غير قصد. ويكتب ديولاغ بالتفصيل عن أن غوليتسين أولى «العمل» مع الصحافة اهتمامًا كبيرًا، بهدف ترسيخ سمعة روسيا الجيدة: Dulac, pp. 74-77.

(31) على سبيل المثال، وصل في 21 نيسان/ أبريل من البندقية الخبر الآتي: «إن الرياح العاتية التي تهبُّ في هذه الأيام الأخيرة تعيق وصول المعلومات من المشرق، ولا أحد يعرف شيئًا هنا عما يحصل في مورية»: *G. d'A.*, no. 38, 1770 г.

(32) كانت الأخبار عن انتصارات الجيش البريِّ الروسيِّ ومآثر الجنود الرُّوس، وعن الوضع =

بمرور الزمن، عندما بدأت تظهر دراسات تاريخية عن الحرب الروسيَّة - التركيَّة، بات قسم كبير مما نشرته الصحف الروسية والغربية قديمًا وغير مؤكد، أو صار يُنظر إليه على أنه مجرد خبريات مُضحِكة. لذا، لم تعد الصحف تشكِّل مرجعًا تاريخيًّا يُعتدُّ به بالنسبة إلى الباحثين، علمًا أن صورة الحدث التاريخيِّ المَعِيش وُلِدت بفضل الصحف التي تناولت تفاصيل الفسيفساء الصغيرة والكبيرة الشاملة والمعقدة من النصوص الفنية والأدبية وأدلة المعاصرين الوثائقية؛ ومعها بالتحديد تكونت الذاكرة التاريخية عن البلدين والشعبين المتحاربين. وكما تُبيِّن البحوث المعاصرة[33] فإن إعادة بناء صورة الماضي التاريخي، على النحو الذي رآه به مُعاصِرُوه والأجيال اللاحقة، لا تقلُّ أهمية عن إعادة بناء «ما كان قائمًا بالفعل» على نحوٍ دقيق.

## صورة روسيا: التوقُّعات وخَيْبَات الأمل والتنبُّؤات

وضع نبأ اعتقال السفير الروسي في القسطنطينية أ. م. أوبريسكوف وإعلان الباب العالي الحرب على روسيا في تشرين الثاني/نوفمبر 1768 ردات

---

= العام عمومًا، تُنشر عادةً في ملاحق خاصة في صحيفتي أنباء سان بطرسبورغ وأنباء موسكو، وتوضع على أساس التقارير الرسمية الواردة من مكتبي غوليتسين وروميانتسيف العسكريين. وكانت التقارير العسكرية ذات طابعٍ رسميٍّ، الأمر الذي يؤكِّده مصدرها «الجغرافي». فقد كانت الملاحق توضع على أساس المعلومات الواردة من بطرسبورغ بالتحديد.

(33) عن نظرية الأسطورة الاجتماعية - التاريخية، يُنظر: Г. С. Кнабе, *Избранные труды. Теория и история культуры* (М.; СПб., 2006), с. 416-441; Г. С. Кнабе, *Жажда тождества, Культурно-антропологическая Культурно-антропологическая идентификация: Вчера, Сегодня, Завтра* (М., 2003), с. 10-12; Г. С. Кнабе, «Арбатская цивилизация и арбатский миф,» in: *Москва и московский текст русской культуры* (М., 1998), с. 176-185. О теоретических спорах относительно исторической памяти см., например: Л. П. Репина & Ю. А. Арнаутова, «Введение,» in: *История и память: Историческая культура Европы до начала Нового времени*, Под ред. Л. П. Репиной (М., 2006), с. 5-55.

[غ. س. كنابيه، **أعمال مختارة. نظرية الثقافة وتاريخها** (موسكو؛ سان بطرسبورغ، 2006)، ص 416-441؛ غ. س. كنابيه، **التوق إلى التماثل، الهوية الثقافية - الأنتروبولوجية: الأمس، اليوم، الغد** (موسكو، 2003)، ص 10-12؛ غ. س. كنابيه، «حضارة آربات والأسطورة الأرباتية»، في: **موسكو ونص الثقافة الروسية الموسكوبي** (موسكو، 1998)، ص 176-185. وعن الجدل النظري بشأن الذاكرة التاريخية، يُنظر، على سبيل المثال: ل. ب. ريبينا وي. أ. أرناتوفا، «مقدِّمة»، في: **التاريخ والذاكرة: ثقافة أوروبا التاريخية قبل بداية العصر الحديث** (موسكو، 2006)، ص 5-55].

الفعل الروسية في مركز اهتمام الصحافة الوطنية والأجنبية على الفور. فقد بهتت الأخبار السابقة التي كانت تملأ الصحف عن بذخ البلاط الروسي أو الاكتشافات المذهلة لبعثة باللاس وغيميلين، أمام خطر الهزات الكبيرة على الساحة الأوروبية. ولم تنافس أخبار دخول روسيا الحرب، لفترة قصيرة سوى الأنباء عن تلقيح الإمبراطورة وولي العهد ضد الجدري. بيد أن هذه الأنباء غابت عن الاهتمام في ربيع عام 1769، بعدما غدت الحرب هي الموضوع الرئيس للمعلومات الواردة من أوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية.

في الأشهر الأولى من الحرب، حينما كان الجيشان البريان بقيادة كل من أ. م. غوليتسين وب. أ. روميانتسيف يخوضان القتال في بودولي وبريدنيستروف، سادت في الصحف الفكرة القائلة باستمرارية[34] الأعمال المُعادِيَة للأتراك، منذ

(34) تتسم بدلالة خاصة في هذا السياق «الرسالة إلى الناشر» المنشورة في صحيفة تروتين - لصاحبها ن. إ. نوفيكوف - بتاريخ 15 أيلول/ سبتمبر 1769. ينقل كاتب «الرسالة» الحوار الذي جرى في أحد الصالونات بالعاصمة. وقد شارك في الحوار عسكريٌّ عائد من الجيش العامل في الدانوب ورجل «مُسِنٌّ»، من المشاركين في حملة الفيلدمارشال مينيخ ضد الأتراك خلال النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الثامن عشر: «التقينا به في إحدى الزيارات. سأله الضيوف كالعادة عن الأحداث التي يصادفها جيشنا... كان الجميع فرحين بنجاحات الجيش المجيدة، وتمنوا انتهاء الحرب بأسرع ما يمكن». فرد الرجل «المُسِنُّ» قائلًا إن «الجنود الرُّوس لا يزالون يخشون الأتراك»، «جنودنا يخافون. أذكر أننا كنا على مسافة ثلاثين فرسًا من الإنكشاريين، وكنا نرتجف من الخوف، وكان هؤلاء يركضون يضربون الجميع بسيوفهم وصدورهم مكشوفة ووجوههم رهيبة، أشبه ما يكونون بالوحوش الكاسرة. <...> آه! كم هم ماهرون في استخدام السيف... باختصار، إن هؤلاء البرابرة يولدون من أجل إبادة الجنس البشري». اعترض العسكري بحدة على هذا الكلام: «يعرف العسكريُّون الرُّوس قيمة عدوِّهم جيِّدًا. ليس الأتراك من يخيفنا، بل نحن من يبعث فيهم الرعب والهلع. إن جنودنا يحتقرون الإنكشاريِّين و'الصبايحيِّين' والأرناؤوط وكل الأعداء الآخرين. لا يوجد جندي عندنا لا يرغب في مقاتلة الإنكشاريين. <...> إنه لمخجل القول إن جنودنا القدماء كانوا يخافون الأتراك: ... **إذا كنت تخاف التركي إلى هذا الحد، فما الذي كان بوسعك فعله ضد البوسيين، ولكننا انتصرنا عليهم أيضًا»** (تروتين، 1769، الورقة XXI، ص 161-163). وهكذا، بحسب تأويل نوفيكوف، فإن الجندي الروسي القديم من عصر مينيخ كان يخاف الأتراك، بينما يتصرف المشاركون في النزاع الجديد مع الباب العالي على نحو مغاير: وذلك بالدرجة الأولى بسبب انتصار القوات الروسية على بروسيا في حرب السنوات السبع، أي في عهد إليزابيت بيتروفنا، ولذا فإن النصر المظفر بانتظارهم، بالطبع (كانت هذه الفكرة حاضرة في الصحافة الوطنية في زمن الحرب)، علمًا أن تأكيد استمرارية الانتصارات كان موجودًا حتى قبل حرب السنوات السبع.

[**الصبايحيُّون أو الصبايحية**: تسمى في الجزائر أيضًا السبايسية، وهي فرقة عسكرية من الخيالة، =

بطرس الأول وابنته إليزابيت بيتروفنا، حتى كاترينا الثانية (وجدير بالذكر أن آنا يوانوفنا وبطرس الثالث بقيا خارج هذا الخط). وأصبحت العودة إلى بطرس الأول عاملًا مهمًّا في تعليل الأعمال الجارية في البحر المتوسِّط.

لم يكن من قبيل المصادفة ظهور مقالة ف. غ. روبين في صحيفة **النملة المجتهدة** في عام 1771، تحت عنوان «خطاب الإمبراطور بطرس الأكبر أمام الجنرالات الرُّوس، بعد الاحتفال بالانتصار البحري، وبعد منحهم رتبة الأميرالية في عام 1714». وقد ورد في الخطاب ما يأتي: «أيها الإخوة الأعزاء! هل بينكم من كان يظن قبل عشرين عامًا أنه سينتصر معي في بحر البلطيق، على سفنٍ صنعها الرُّوس بأنفسهم؟ وأننا سننتقل للعيش في أماكن كسبناها بفضل جهودنا وشجاعتنا؟ يعتبر الكُتاب أن اليونان كانت موطنًا للعلوم، التي انتقلت إلى إيطاليا من بعدها، ومن هناك إلى كل أنحاء أوروبا. وقد حان دورنا الآن! فالعلوم تدور كما يدور الدم في عروق الإنسان، وبعد أن تترسخ عندنا، يمكن أن تعود إلى اليونان، إلى موطنها الأول. إنني على يقين أن الرُّوس سيجعلون الدول الأكثر تنوُّرًا تشعر بالخزي بسبب نجاحاتهم في مجال العلوم وعظمة مجدهم الذائع الصيت والوطيد»[35].

بالاستناد إلى التجربة التاريخية، كانت مهمة الصحافة الروسية منذ بداية الحرب، إثبات أفضلية الجيش الروسي على التركي. وقد أسهم ذلك في تحقيق أهداف العمليات الطموح في المتوسِّط. فقد تضمن الحوار بين الجنديين - القديم والجديد - الذي نشره نوفيكوف في صحيفة **تروتين**، على سبيل المثال، مقارنةً بين وضع كلٍّ من الجيشين الروسي والتركي، حيث أكد الجندي الشاب من العهد الكاتريني: «على الرغم من أن جيش الأعداء كثير العدد، فإن فيه عددًا

---

= تأسست فصائل فرقتها الأولى خلال عهد لوي فيليب، في بداية الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر (1831)، بوصفها جيشًا رديفًا عميلًا للمحتلِّ الفرنسي، وأسهمت في تكريس احتلال الجزائر. وقد تعدى دورها الجزائر، فشاركت في إسقاط تونس والمغرب في يد فرنسا. كانت فصائل الفرقة تتشكل من العرب والبربر، ويقودها ضباط فرنسيُّون. وكلمة صبايحي (sipâhi) تركية الأصل وتعني الجندي، وهي مأخوذة من اللفظ الفارسي «سباهي»، وما لبثت أن انتقلت إلى اللغة الفرنسية (spahi)]. (المترجم).

(35) *Трудолюбивый муравей*, 1771, no. 25, c. 199.

[النملة المجتهدة، 1771، العدد 25، ص 199].

من الأرجل أكثر، أما في جيشنا فعدد الأيدي أكبر. وعندما يمتشق كلُّ جندي السلاح عندنا، فهو لا يفكر بغير النصر، وهو إذ يحمل سلاح الحقِّ في يد، والغار في اليد الأخرى، فسيندفع وسط النيران، متقدًا حماسةً ومرددًا: **ما الذي نخشاه؟** فالله معنا، وأمُّنا **كاترينا** معنا، أما أعداؤنا وكارهو سعادتنا، فلسوف ننتصر عليهم في كلِّ مكان. وإذا ما كانت الحماسة متقدة في نفوس جنودنا دائمًا كما هو الأمر الآن، فلسوف تهتز اسطنبول». بعد هذا الكلام شعر الرجل «المُسِنُّ»، صاحب المزاج المشكِّك المشارك في الحوار، بالخجل من شكوكه، ولخص المؤلِّف نتيجة الجدل على النحو الآتي: «فليقرأ هذا الكلام كلُّ المُسِنِّين والمُسِنات الذين يُخيفون أحفادهم بالأتراك»[36]. وفي صحيفة **نوفيكوف** الأخرى ظهرت مقالة في حزيران/ يونيو 1770 تحت عنوان «أنباء من القسطنطينية» يكتب فيها «مراسل تركي» عن «الإحباط» السائد في العاصمة العثمانية: «ما من شعب آخر يصل به الأمر إلى حدِّ الاحتفاء بانتصار سلاح العدو، ولكن هذا ما يحصل عندنا (عند الأتراك - المؤلِّفان). إن السلاح الذي هزم به الأتراك أعداءهم من قبل، الذي كان إذا ما رفعوه يبثُّون الرعب في أوروبا كلِّها، ها هو يبعث الهلع فينا اليوم ويسبِّب البؤس الشعبي. لا نعلم وفق أيِّ سياسة كاذبة تُحول بها كلُّ هزيمةٍ يُلحقها بنا العدو إلى انتصارٍ يحتفل به الديوان. ولكن الشعب لا يصدِّق هذه الأكاذيب، وكلُّ طلقة من مدفعية السراي تضاعف الإحباط الشعبي وتذكِّر بالهلاك ... الآتي؛ كلُّ الأخبار الكتابية التي ترد من الجيش تُخفى بحرص شديد عن عيون الشعب، بيد أن الجنود العائدين من الجبهات يخبرونه يوميًّا بحقيقة الوضع. يخبرونه عن شجاعة العدو والموت الذي يحمله سلاحه؛ إذ ما من أحد في القسطنطينية يفكر بإمكانية الانتصار على الرُّوس. أصبحت كلمة **الجندي الروسي** تثير الرعب في أشجع الجنود، وما من أحد يرغب في التطوُّع في الجيش اليوم. والإنكشاريون الذين كانوا يقتحمون كل المخاطر في سبيل الذهب، باتوا الآن يأنفونه. فلا غضب السلطان يبعث فيهم الشجاعة، ولا النقود ولا لعنات المُفْتِين على رؤوس أولئك الذين لا يريدون الالتحاق بالجيش. يتحدثون في كلِّ مكان عن سقوط الملكية

---

(36) *Трутень*, 1769, Лист XXI, 15. IX, c. 163-165.

[تروتين، 1769، الورقة XXI، 15. 9، ص 163-165].

التركية، ويجوب الشعب الطرقات يائسًا، ويصرخ: **انهض يا محمد، كلنا هَالِكُون!** ولكن ما من أحد يعلم أين هو الآن، وما الذي يخبِّئه لشعبه. لقد جعل الرُّوس الأتراك في وضع مأساوي يُماثل الوضع الذي أدخل الأتراك فيه اليونانيِّين خلال مئة سنة. إنكشاريو محمد ينادون طلبًا للمساعدة، ولكنهم لا يستلُّون السيف من غمده»(37).

أخيرًا، انتعش الاهتمام بالتنبُّؤات القديمة في الصحافة الوطنية، مع بداية الحرب، من قرب سقوط القسطنطينية. ومن المحتمل جدًّا أن هذا الاهتمام لم يكن نابعًا من الرغبة في ممالأة متطلبات القراء فحسب، بل كان موجهًا من الأعلى. ففي كانون الثاني/ يناير 1769 كتبت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**:

«بعد إعلان الأتراك الحرب على روسيا، استخلص العالِم السيد الدكتور نيفتون، أسقف بريستول (توماس نيوتن، 1704-1782) في مؤلَّفاته التي تتضمن تفسيرًا لنبؤات النبي دانيال، الواردة في الفقرتين 44 و45 من الإصحاح الحادي عشر: [اللذين يقولان: وتُفْزِعُهُ أخبارٌ من الشرقِ ومن الشمالِ، فيَخْرجُ بِغَضب عظيمٍ لِيُخْرِّبَ وَلِيُحَرِّم كثيرِينَ. ويَنْصُبُ فُسْطَاطَهُ بينَ البُحُورِ وجَبَلِ بَهَاءِ القُدْسِ، ويَبْلُغُ نِهايتَهُ ولا مُعينَ لهُ] فاستخلص الاستنتاج الآتي: إن الأتراك يقتربون الآن من سقوطهم، وأنهم سيخسرون كل البلدان والمناطق التي يسيطرون عليها، وستنهار مملكتهم ويُبادون. ويرد في الإصحاح نفسه من نُبوءات دانيال في الفقرة 40 ما يأتي: «ففي وقتِ النهايةِ يُحاربُهُ ملكٌ منَ الجَنُوبِ، فيثُورُ عليهِ ملكُ الشمالِ بمركباتٍ وبفرسانٍ وبسفنٍ كثيرةٍ، ويدخُلُ الأراضي ويجْرُفُ ويطْمُو»؛ وفي الفقرة 42: «ويمدُّ يدَهُ على الأراضي، وأرضُ مِصْرَ لا تنْجُو»(38).

---

(37) *Пустомеля*, Июнь 1770 г, с. 43-45.

[بوستوميليا، حزيران/ يونيو 1770، ص 43-45]. يُنظر أيضًا المقالة بعنوان: «أخبار السراي السرية»، ص 45-48.

(38) No. 5, 16. I, 1769, Л. 2-2об.

[العدد 5، 16. 1، 1769، الورقة 2 - ظهر الورقة 2].

النص نفسه منشور في صحيفة أنباء موسكو (العدد 7 (1769)، الورقة 1).

ترد الحُجة ذاتها في الملحوظة المنشورة في العدد الرابع عشر من صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**، بتاريخ السابع عشر من شباط/ فبراير 1769، حيث تتضمن الخبر الوارد من تيبينغ (تيوبينغين) في شهر كانون الثاني/ يناير ما يأتي:

«صدر العديد من النُّبوءات التي تتحدث عن هلاك الأتراك المحتم، ولكنْ لا واحدة منها تثبت بهذا الشكل الواضح والصادق، كما تُثبت النبوءة الواردة في الصفحة 102 من مذكرات الدكتور ستيفان غيرلاخ، الذي كان واعظًا لدى سفارة القيصر في تساريغراد، وقد نشرها حفيده الأستاذ صامويل غيرلاخ في عام 1674 بعد مئة عام على وفاته تقريبًا. وقد عُثِرَ عليها في قبر قسطنطين الكبير، وهي مكتوبة بأحرف يونانية، ثم فُسِّرت قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية، وهي تقول التالي: في الخمسعشرية[39] الأولى من مملكة إسماعيل، المسماة محموف، ستنتصر عشيرة باليولوغي، وسيستولي القيصر على المدينة وسيحكمها وسيُخضع شعوبًا عديدة ويجتاح جزرًا كثيرة، وصولًا إلى البحر الأسود، وسيكتسح البلدان الواقعة على الدانوب. وفي الخمسعشرية الثامنة سيستولي على بيلوبونيز أو مورية. وفي الخمسعشرية التاسعة سيهاجم الأراضي الشمالية، وفي العاشرة سيدمر دلماسيا. وسيحلُّ سريعًا وقتٌ يغرقُ فيه الدلماسيُّون في صراع عظيم، فيتفتتون إلى أجزاء صغيرة. بيد أن القبائل والشعوب الشمالية ستتحد وستهاجم إسماعيل من البرِّ والبحر وتهزمه شر هزيمة. وستبقى ذريته تحكم فترةً وجيزةً، بل قصيرة جدًّا، وستهلك في القريب العاجل.

يبيِّن التاريخ لنا أن كل بنود نبوءاته قد تحققت، باستثناء الأخيرة فحسب»[40].

---

(39) **الخمسعشرية**: وحدة زمنية مؤلفة من 15 سنة، كانت تُستخدم في الإمبراطورية الرومانية وغيرها لتأريخ الأحداث العادية. (المترجم)

(40) يُنظر ملاحظة ممثلة في: *Московские ведомости*, 1769, no. 16, 24/II, Л. 2об.-3.

[أنباء موسكو، 1769، العدد 16، 24/ 2، ظهر الورقة 2 - الورقة 3].

يُنظر أيضًا ملاحظة أخرى من دون توقيع في صحيفة **أشياء متنوِّعة**: «مرت ثلاثمئة وخمس عشرة سنة على استيلاء محمد الثاني على مدينة القيصر (تساريغراد)، بعدما انتزعها من قسطنطين باليولوغا آخر الأباطرة اليونانيِّين. ولكن، إلى متى ستبقى مدينة القيصر المجيدة في يد السلطان العظيم؟ لا يعلم ذلك إلا من في يده السلطة على الزمن والسنين» (**أشياء متنوِّعة**، 1769، العدد 38، ص 108).

في 10-21 آذار/مارس 1769، ظهرت معلومات عن انتشار نبوءات مماثلة وسط المسلمين العثمانيِّين. وقد اقترنت الأنباء عن ملاحقة الأتراك اليونانيِّين بالكلمات الآتية، خشية أن «يفكِّروا بالوقوف إلى جانب الرُّوس للتخلُّص من النِّير التركي القاسي»: «إن ما يحمل التركي على هذا التصرُّف إنما هو النُّبوءة التي تجعله يشعر بقرب نهاية الدولة التركية أو العالم عمومًا. فقرآنهم الذي يؤمنون به صالحٌ لفترة قصيرة من الزمن. وهكذا، فإن شائعة تدور في أوساط عامة الشعب تقول إن دولتهم في طريقها إلى الانهيار، وهي سوف تُدمر على يد روسيا، لا على يد أيِّ جهة أخرى»[41].

في 8-19 كانون الثاني/يناير 1770، ظهرت في الصحيفة البطرسبورغية «مجموعة رسائل من داخل إقليم ميكيلينبورغ، مؤرخة في 18 كانون الأول/ديسمبر، يُتحدثُ فيها عن قرب هزيمة الأتراك، استنادًا إلى الكتاب المقدس: «تقول هذه التعاليم إن الدولة التركية ستُدَمر قبل عام 1773 على يد الرُّوس والفرس»[42] (وهذه «التعاليم» انبنت على أساسها منظومةٌ موحدةٌ تتلاءم مع نظام الزمن والتاريخ والنُّبوءات الطبيعي، بالاستناد إلى الإشارات التوراتية المتفرِّقة التي تتحدث عن سقوط الدولة التركية - المؤلِّفان). وفي 25 أيار/مايو - 5 حزيران/يونيو، يتناول الحديث في العدد 42 اكتشاف مخبأٍ سريٍّ في كنيسة القدِّيس يوحنا في مالطا، يحتوي أوراقًا تعود إلى محفل فرسان مالطا (خبرٌ من «مدينة فاليتا الواقعة في جزيرة مالطا، بتاريخ السابع عشر من آذار/مارس»). ومرة أخرى، شكلت النُّبوءات عن استعادة القسطنطينية جزءًا خاصًا من النصوص التي عُثِر عليها. واقتبست الصحيفة الجملة الآتية منها: Constantinopolis a TucCIs DIV possessa reDIt ad Russos أي: «القسطنطينية التي استولى عليها الأتراك منذ زمن بعيد، ستؤول إلى الرُّوس»[43]. وتؤكد الملاحظة المرفقة بالنص، أن هذه النبوءة تكتسب

---

(41) *Санктпетербургские ведомости*, 1769, no. 20, 10. III.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1769، العدد 20، 10. 3].

(42) المرجع نفسه، العدد 3، الورقة 2 - ظهر الورقة 2.

(43) المرجع نفسه، العدد 42، الورقة 2.

مغزى إضافيًّا مهمًّا في سياق الحرب الدائرة، بحيث «لا يشكُّ أحدٌ في صحتها».

ما له دلالته أن الصحف الروسية سعت في الأغلب إلى تقديم نشرها النُّبوءات المختلفة عن سقوط الإمبراطورية التركية وعاصمتها بيد الرُّوس، وكأنها معلومات مستقاة من مصادر أوروبية غربية، «إنكليزية» أو «مالطية» أو «ميكيلينبورغية». كما يمكن العثور في المخطوطات الأرثوذكسية على نبوءاتٍ مماثلةٍ انتشرت منذ سقوط الإمبراطورية البيزنطية في عام 1453. وربما كان الناشرون المتنوِّرون «يعتذرون» لنشرهم حكاياتٍ مشكوكٌ في صحتها، باعتمادهم على مصادر أخرى، تصدِّقها «الشعوب التي تؤمن بالخرافات» (كان اليونانيُّون والأتراك من بين هذه الشعوب بحسب اعتقادهم). ومع ذلك، فقد كانت المعلومات التي نشرتها الصحف الروسية عن النُّبوءات المتعلِّقة بسقوط القسطنطينية في القريب العاجل[44]، ملائمة تمامًا في السنوات الأولى من الحرب الروسيَّة - التركيَّة في الأعوام 1768-1774.

هكذا، عملت الصحافة الروسية مع بداية أنشطة الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط، على توجيه القارئ الروسي ليُصغي إلى تقارير النصر فحسب، وتقبُّل كلِّ الانتصارات بوصفها نتيجة طبيعية لخطط بطرس الأكبر، والإيمان برسالة الإمبراطورية الروسية النبوية بوصفها محرِّرة المسيحيِّين المعذبين.

من البدهيِّ أن أخبار الحرب الروسيَّة - التركيَّة في صحف العاصمة قبل عام 1770 كانت تتناول عمليات الجيش البريِّ في الدانوب حصرًا. بيد أن التقرير الأول عن حركة العمارة الروسية في البحر المتوسِّط[45] تضمن كل عناصر برنامج كاترينا الدعائي: فكرة الدعم اليونانيِّ الشامل للأسطول الروسي، هلع السكان الأتراك عشية الحرب، نشاط القائد العام ألكسي أورلوف، والأهمُّ من ذلك فاعلية أعماله:

(44) لمزيد من التفصيل، يُنظر: R. Clogg, «The Byzantine Legacy in the Modern Greek World: The Megali Idea,» in: Lowell Clucas (ed.), *The Byzantine Legacy in Eastern Europe* (Boulder: East European Monographs, 1988), pp. 259-265.

(45) أنباء سان بطرسبورغ، العدد 10، 2 شباط/ فبراير.

«إيطاليا. من رسالة وصلت من تريستي في 27 كانون الأول/ ديسمبر.

تلقينا خبرًا يفيد أن الأسطول الروسي وصل إلى بورت ماغون بسلام، حيث كان في انتظاره حشد كبير من اليونانيِّين منذ زمن طويل، وقد جاؤوا كلُّهم لمرافقته إلى الأرخبيل. يعمل اليونانيُّون والسلافيون من دون كللٍ على بناء سفن صغيرة، يمكنها أن تشكِّل فائدةً كبيرةً في الحرب. ويتسلح سكان لاتسيدومسك (لاكديمون) بكلِّ قواهم، وينتظرون وصول الأسطول الروسي حتى ينتفضوا ضد الأتراك بدعم منه. ويشاطرهم سكان بيلوبونيز الرأي. أما الأتراك المقيمون في تلك البلدان فيعيشون في خوفٍ عظيمٍ، ويعتزم بعضهم الفرار عند وصول الأسطول الروسي، فيما ينوي بعضهم الآخر الاستسلام للروس من دون مقاومة. وتنتظر مناطق كسيرومير وتسيماتسا وسافتا (الواقعة في جزيرة كانديا) وصول الأسطول الروسي بفارغ الصبر. وقد أرسل الكونت أورلوف كمية كبيرة من البارود والرصاص وصناديق الأسلحة، إلى تسيماتسا على متن سفينة يملكها المدعو ميسولونغي، حيث وصلت إلى مقصدها بسلام»[46].

بدأت الصحافة الغربية تكتب بحذر عن حملة الأسطول الروسي المحتملة في البحر المتوسِّط، منذ كانون الثاني/ يناير 1769[47]، ولكنْ، قليلون في أوروبا هم الذين آمنوا بنجاح عملية البحر المتوسِّط قبل عام 1770. في البداية، أي في عام 1769 - مطلع عام 1770، برز شيءٌ من ترقُّب حركة الأسطول في مقالات المراسلين الأوروبيين، فيما كان ينتقل من بحر البلطيق إلى البحر المتوسِّط؛ إذ إن أوروبا لم تكن قد أدركت، على ما يبدو، أن «غرباء» من البحار الشمالية يمكنهم أن يصبحوا قوةً فاعلةً رئيسية عند تقاطع الطرق التجارية والمصالح الجيوسياسية. فأخبرت الصحف قراءها بلهجة متعالية أن الهولنديِّين، بل حتى الفرنسيين، قدموا المساعدة إلى السفن الروسية «التي ضلت الطريق» في العاصفة، وأما الإنكليز فقد وضعوا مرافئهم وأحواض

---

(46) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 10, 2. II, Л. 2.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 10، 2. 2، الورقة 2].

(47) *G. d'A.*, 1769, no. 4.

سفنهم بتصرُّفها. ويمكن تفسير هذه اللهجة، بحسب رأي محلِّل بريطاني في عام 1770 بالموقف من روسيا، باعتبارها دولة لا تكاد طموحاتها القصوى تتجاوز منطقة البلطيق «الطرفية»: «قوبلت جهود بطرس الأكبر الهادفة إلى بناء أسطول وبحارة بالإعجاب، بوصفها عملًا تحديثيًّا ومحاولة غير معتادة من رجلٍ غير اعتيادي. فكانت سفنه العظيمة وأميرالاته مادة تسليةٍ له وللآخرين في البلطيق، وقوةً تدميرية للسويديِّين في مرحلة أفول مملكتهم. ولم يكن في وسع القوى البحرية - التي شُكِّلت في البلطيق وبقيت محبوسةً فيه - أن تُثير قلق الدول التجارية العظمى...»[48].

أدت الانتصارات الأولى في حوض البحر المتوسِّط الشرقي إلى تخفيف ارتياب أولئك الذين سخروا من إمكانات الأسطول الروسي أو استخفُّوا بها. وابتداءً من ربيع عام 1770 أثارت الأنباء عن وصول العمائر البحرية الروسية إلى مورية وعملياتها الناجحة المشتركة مع اليونانيِّين دهشة القراء الرُّوس والأوروبيِّين الغربيِّين، فضلًا عن الأخبار الكاذبة عن «الاستيلاء» على كوروني ومودون وكلِّ بيلوبونيز تقريبًا [باستثناء قلعتين تركيتين (!)]. فنشرت الصحافة البريطانية رأي الإنكليز بخصوص نجاحات الرُّوس في مورية، مرفقةً إياه بالتعليقات الآتية:

«أصبح الرُّوس، بعد نجاحات الحملة السابقة، أسيادًا لخوتين وياش ومولدافيا وفالاشيا، وأزاحوا الأتراك من دنيستر، واستولوا على مورية كلِّها تقريبًا، وها هم يستعدُّون لاجتياح جزر الأرخبيل اليونانية، ويهدِّدون كل الممتلكات التركية في أوروبا. ولعل الدول المجاورة تنظر بحسد، على ما يبدو، إلى كلِّ هذه المكتسبات الهائلة، ولعلها ستقف في وجه هذا النجاح. بضعة أشهر فقط وستبدد هذه الشكوك، وإلى ذلك الحين علينا تأجيل استنتاجاتنا وانتظار الأحداث»[49].

بانتظار تأكيد النجاحات الجديدة، ذهبت مخيِّلة العديد من الناشرين في روسيا وأوروبا بعيدًا في اتجاه المبالغة المفرطة في تقدير إمكانات الأسطول

(48) *AR*, 1770.

(49) *GM*, 1770, vol. 40 (May), p. 194.

الروسي، وأخذ الرغبات على محمل الواقع. فما إن اقتربت سفن العمارة البحرية الأولى من شواطئ بيلوبونيز، حتى سادت التوقُّعات بانتصار الرُّوس على قلاع الدردنيل. وفي ربيع عام 1770 امتلأت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** بأنباء عن انتصارات مزعومة حققها الأسطول الروسي في الدردنيل، أو عن مشروعات روسية واسعة النطاق تهدف إلى الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الأتراك من أوروبا. ففي 12-23 آذار/ مارس، نشرت الصحيفة الخبر الآتي من ألمانيا: «بنفاد صبر كبير ينتظرون هنا عبور الأسطول الروسي الدردنيل، الأمر الذي يمكن أن يحصل في نهاية هذا الشهر (آذار/ مارس - المؤلِّفان)»[50]. وكان الاستيلاء على القسطنطينية هو هدف العمليات القتالية النهائي في بحر مرمرة، استنادًا إلى المخبرين الأوروبيِّين بالطبع: «يتحدثون هنا (في ليفورنو - المؤلِّفان) بحقٍّ أن قسمًا من الأسطول مخصص لمهاجمة القسطنطينية، أما القسم الآخر فلمهاجمة اليونان والجزر التركية في الأرخبيل»[51]. وفي حزيران/ يونيو 1770، عندما اضطر الأسطول الروسي إلى مغادرة بيلوبونيز، تناهى إلى مسامع القارئ الروسي أن «الرُّوس دمروا جزءًا من الأسطول التركيِّ عند الدردنيل»[52]. وأعادت الصحف البريطانية نشر هذه الأخبار الخيالية (بيد أنها لم تتوانَ عن دسِّ السمِّ في العسل) فكتبت: «تفيد الأنباء الأخيرة أن الأسطول الروسي تمكن من عبور هذه المضائق الشهيرة [الدردنيل]، ولكنْ من كان يتصور قبل خمسين عامًا أن هؤلاء المتوحشين (savages) الذين يملأون المحيط بسفنهم الحربية سيتمكنون من الارتقاء إلى هذه المستويات خلال هذه الفترة الوجيزة. ومن يعلم؟ فلعل هؤلاء الناس سيتمكنون من منافسة الدول العظمى البحرية على السيطرة في البحار، خلال الفترة نفسها؟!»[53].

---

(50) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 21, Л. 2-2 об.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 21، الورقة 2 - ظهر الورقة 2].

(51) المرجع نفسه، 1770، العدد 22، 16. 3، ظهر الورقة 1؛ يُنظر أيضًا: 1770، العدد 30، 13. 4، الورقة 2 - ظهر الورقة 2، 1770، العدد 31، 16. 4، الورقة 3.

(52) خبر من ألمانيا مأخوذ من رسالة واردة من البندقية: العدد 47، 11. 6، ظهر الورقة 2، العدد 50، 22. 7، ظهر الورقة 1.

(53) *GM*, 1770, vol. 40, July, pp. 289-290.

واصلت الصحف الأوروبية نشر معلومات من هذا النوع حتى حزيران/ يونيو 1770[54]، إلى أن بدأت تحلُّ محلها في شهر آب/ أغسطس، أدلة مذهلة عن «معجزة» حقيقية حصلت عند أطراف الدردنيل، عنينا بها انتصار شيسما.

يتسم تاريخ نشر المعلومات عن انتصار شيسما بدلالة بالغة في فهم طبيعة تطوُّر الموضوع الإعلامي ومواعيد نشر الأنباء في الصحف الأوروبية[55]. لم تبدأ الأخبار الأولى عن انتصار شيسما تصل إلى القارئ الأوروبي الغربي إلا في بداية آب/ أغسطس 1770. ففي السابع من هذا الشهر نشرت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) خبرًا عن هذا الحدث بنبرة حذرة. وكان وصل هذا الخبر من تورونتو بتاريخ 2-13 تموز/ يوليو (أي بعد سبعة أيام فقط من الانتصار!)، وجاء فيه أن معركةً ضاريةً وقعت في «ضواحي الدردنيل، هُزم فيها الأتراك». ولكن، لم يكن واضحًا ما إذا كان الأمر يتعلق بمعركة شيسما أو بمعركة أخرى[56]. وانقضت ثلاثة أسابيع أخرى قبل أن تنشر الصحيفة خبرًا عن وصول سفينة إنكليزية تحمل رسالة مستعجلة من الكونت أورلوف <...> تقول إن الأسطول يستعد للدخول في معركة ضد الأسطول التركي»[57]. وفي مطلع شهر أيلول/ سبتمبر نشرت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) مادة وصلت من ليفورنو في 4-15 آب/ أغسطس، [أي بعد أربعين يومًا من المعركة!] تقول إن السفينة الراغوزية «كونتسيبسيون» دخلت مرفأ المدينة للتو، وإن قبطانها روى أنه سمع في الخامس من تموز/ يوليو في خليج أثينا (!) دوي مدفعية في البحر استمر أيامًا ثلاثة، ثم التقى سفينة يونانية صغيرة تحمل خبرًا عن معركة دارت بين الأسطولين التركي والروسي،

---

(54) عن اهتمام الصحف الأوروبية، يُنظر أيضًا: D. Constantine, *Early Greek Travelers and the Hellenic Ideal* (Cambridge, 1984), pp. 169-171.

(55) عن خصوصية تقديم المعلومات، في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) على وجه التحديد، حيث كانت تُنقل الأخبار إلى القارئ على شكل حكاية ذات عقدة، من خلال الرسائل والأخبار الشفهية والمواد المحددة أو مجهولة المصدر، الموثقة أو غير الموثقة، المبنية على الشائعات، يُنظر: Charles, pp. 178-182.

(56) *G. d'A.*, 1770, no. 63.

(57) *G. d'A.*, 1770, no. 59, 28. VIII.

وأن الرُّوس انتصروا فيها، وأصبحوا أسياد الملاحة في الأرخبيل[58]. وأخيرًا، في 27 من آب/ أغسطس - 7 أيلول/ سبتمبر[59]، بعد يومين من تلقّي السفارة الروسية في لاهاي خبر تأكيد الانتصار في شيسما، أصبح بمثابة النبأ الأول الأكثر إثارة في الأعداد التالية. فكتبت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** المتحفِّظة عادةً: «تلقينا نبأ من زانت يفيد أن الرُّوس ألحقوا هزيمة ساحقة بالأسطول العثماني، عند ذاك الرأس الذي أحرق فيه اليونانيُّون أسطول زركسيز في معركة سالاميس[60] الشهيرة. وبعد هذا الانتصار سيصبح الرُّوس أسياد هذه البحار المطلقين. وتؤكِّد الرسائل أن ألفينستون احتجز 14 سفينة في الدردنيل (12 سفينة راغوزية وسفينتين فرنسيتين)، كانت تتجه إلى القسطنطينية محملة بالذخائر. وثمة رأي آخر يقول إن خيوس باتت خاضعة للروس»[61]. وكتبت الصحيفة في العدد التالي: «يتحدثون في مالطا عن وصول 400 عبد مسيحيٍّ أعتقهم الرُّوس المنتصرون على الأسطول العثماني، الذين استولوا على 14 سفينة تركية محملة بالمؤن كانت متجهة من الإسكندرية إلى القسطنطينية، وهم الآن يُحاصرون الدردنيل»[62]. وظهرت في العدد نفسه معلومة وصلت من البندقية، تقول إن الأسطول الروسي «يبسط سيطرة مطلقة في الأرخبيل اليوم. وتؤكد كلُّ المعلومات الواردة من البحر اليوناني الخبر المذكور سابقًا عن انتصار الرُّوس الكبير على الأسطول التركي برُمته...». وتفيد الأخبار ذاتها أن «قائد العمارة البحرية ألفينستون» يحاصر الدردنيل، بل حتى إن «قسمًا من السُّفن التابعة له لاحَقَ الأتراك وعبر المضائق بسلام»، وأن القسطنطينية في وضع حرج للغاية، لتعذُّر وصول قوافل المؤن إليها، أكان من جهة البحر

---

(58) *G. d'A.*, 1770, no. 71, 4. IX.

(59) *G. d'A.*, 1770, no. 72.

(60) معركة سالاميس: معركة بحرية وقعت في عام 480ق.م. بين تحالف المدن اليونانية القديمة والإمبراطورية الفارسية في إطار الحروب الفارسية - اليونانية. جرت المعركة بالقرب من بحر إيجة، في مضيق سالاميس، بين البر اليوناني وجزيرة سالاميس، وهي جزيرة في خليج سالونيكي بالقرب من أثينا. وتمثِّل هذه المعركة ذروة الصراع في مرحلة الغزو الفارسي الثاني بلاد الإغريق. تمكن فيها الأثينيُّون وحلفاؤهم بقيادة تيموستوكليس من هزيمة الأسطول الفارسي الضخم. (المترجم)

(61) *G. d'A.*, 1770, no. 73, 11. IX.

(62) *G. d'A.*, 1770, no. 74, 14. IX.

المتوسِّط أم من جهة البحر الأسود. وتتحدث الصحيفة أيضًا عن «الغرامة الحربية الباهظة» التي فرضها الرُّوس على جزر الأرخبيل[63].

هكذا، انقضى ما يقارب الشهرين بين انتصار شيسما وظهور المعلومات المؤكدة عنه في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) بيد أن الخبر المثير عن انتصار الرُّوس على العثمانيِّين اكتسب ملامح أسطورة، جعلت منه حدثًا تصحُّ مقارنته بنموذج معركة كلاسيكية، كمعركة سالاميس، أما سقوط القسطنطينية فبدا بالنسبة إلى القارئ الأوروبي أمرًا بحكم المُنتهي (ليس عبثًا أن فولتير كان مستعدًّا لتقبُّله!). وجدير بالذكر أن القارئ الروسي لم يعلم بانتصار شيسما إلا في 7-18 أيلول/ سبتمبر، وذلك عبر صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**، أي بعد 11 يومًا من نشر الخبر في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**). وفي روسيا أيضًا، وُضِعَ هذا الانتصار في سياق الاستيلاء المحتمل على المضائق والقسطنطينية. فكتبت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** في 14-25 أيلول/ سبتمبر 1770 (العدد 74): «لم يعد ثمة شكٌّ الآن في أن الأسطول الروسي سيُلقي مراسيه أمام القسطنطينية».

بعد الانتصارات في مورية وشيسما في عام 1770، كانت الصحافة المحلية في حال انتشاء، كما أن تبديلًا طرأ على لهجة الصحافة الأوروبية إزاء حملة الأرخبيل. فلم تكتف الصحف بالكتابة عن آفاق الاستيلاء على القسطنطينية البراقة، بل أخذت تتحدث عن «إنسانية» الرُّوس و«عدالتهم»، الرُّوس، وأنهم «اكتسبوا صداقة كلِّ الأمم في الأرخبيل»، وليس اليونانيِّين وحدهم، بل الأتراك[64] أيضًا. كما تحدثت عن سخاء الإمبراطورة الروسية التي قدمت هدايا كنسية قيِّمة[65] إلى الكنيسة اليونانية في بورت ماغون، وعن الفارق الكبير بين **الرُّوس الحضاريِّين والإنسانيِّين، والأتراك القُساة**[66].

يبيِّن تحليل الصحافة الروسية والأجنبية أن نجاحات روسيا، ولا سيما

---

(63) Ibid.

(64) *G. d'A.*, 1770, no. 82, 12. X.

(65) *G. d'A.*, 1770, no. 101, 18 XII.
ليفورنو، 23 تشرين الثاني/ نوفمبر. يُنظر الفصل الثالث بهذا الخصوص.

(66) يُنظر، على سبيل المثال: *G. d'A.*, 1770, no. 97, 4. XII.

العملية المتوسطية، لم تقترن بوعي جبروت إمبراطورية كاترينا الثانية التدريجي الحقيقي وحسب، بل بتزايد الاهتمام بمستقبل شرق البحر المتوسِّط السياسي وشعوبه أيضًا. فاعتبار النجاح الروسي مجرد «حالة عَرَضِية»، قاد الأوروبيِّين الغربيِّين إلى مناقشة مختلف التنبُّؤات والتكهُّنات المتضاربة إلى جانب التوقُّعات العقلانية. ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1769، كتبت صحيفة بريطانية جدية أن «ثمة نبوءة» لدى الأتراك المُوَسْوَسِين «في القسطنطينية وأجزاء أخرى من البلاد <...> تقول إن الرُّوس الكفار سيستولون على بلادهم خلال عامي 1769 و1770، وإن هذه النُّبوءة هي التي تفسِّر الإخفاقات الراهنة»[67]. وفي عام 1770 كانت النُّبوءات هي أفضل الحجج التي استُخدِمت في تفسير أسباب نجاحات الرُّوس: «ستصبح الحرب بين روسيا وتركيا موضع اهتمام عام اليوم. فالنُّبوءات تتحقق، وأن ما كتبه **الأسقف برونيت**[68] عن بطرس الأول تُحقِّقه كاترينا اليوم... فقد كتب يقول إن بطرس سيبني الأسطول في آزوف وسيهاجم به القسطنطينية، ولكن الأسقف لم يكن يعتقد أنه سيتمكن من تحقيق هذه الفكرة. فما الذي كان سيقوله هذا المؤرِّخ لو رأى كيف تقوم البطلة اليوم بتحقيق فكرة أعظم، لا تقتصر على بحر البلطيق فحسب، بل تشمل المحيط والبحر المتوسِّط بأساطيلها؟ هذه البطلة التي تمكنت بفضل عبقريتها العملية من جعل رعاياها ينافسون الدول البحرية الكبرى الأخرى على زعامة البحار خلال سنوات قليلة، ليتقاسموا الثروات البحرية في البنغال وباتاغونيا[69] مع إسبانيا وإنكلترا»[70]. وسرعان ما كررت **أنباء أمستردام** للقراء الفأل المعروف، مستندةً إلى أمزجة اليونانيِّين: ليس من يونانيٍّ إلا ويؤمن أن شعبه سيشهد قريبًا

---

(67) *GM*, 1769, vol. 39, Октябрь, p. 466.

للمقارنة مع كيفية عرض صورة «جماعتنا» وصورة «الآخرين» في الصحافة الأوروبية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، يُنظر: C. Labrosse, «De l'usage de l'autre dans le discours de l'information politique (gazettes et journaux, 1784-1785),» dans: *Nouvelles, gazettes, mémoires secrets (1775-1800)*, pp. 121-134.

(68) غيلبيرت بيرنيت (Gilbert Burnet) (1643-1715): أسقف سولسبيرغ، والمقصود مؤلفه الصادر مرارًا **تاريخ عصري** (*Bishop Burnet's History of His Own Time*). (المترجم)

(69) **باتاغونيا**: منطقة في جنوب الأرجنتين وتشيلي، وهي جزء من نهاية اليابسة، حيث تنتهي قارة أميركا الجنوبية والجبال الجليدية. (المترجم)

(70) *GM*, 1770, vol. 40, May, p. 194.

تحقيق النُّبوءة الحتمية التي تقول إنهم سيتحررون من النِّير العثماني على يد الشعب الروسي، على ما كانوا يعتقدون[71].

جدير بالذكر أن نشر النُّبوءات المختلفة في الصحافة الأوروبية كان يمكن قراءتها بوصفها دليلًا على ضعف شعب الإمبراطورية العثمانية الميال إلى «الخرافات». فكان على الأوروبي المتنوِّر أن يقرأ بسخرية مثلًا أن الأتراك يعتبرون إخفاقات العمليات البرية في عام 1769 بمثابة **عقاب من السماء**[72]، وأنه **لا سعادة**[73] للأتراك مع الرُّوس، وأن «**الفلكيِّين وحدهم يتنبأون** بنجاحات الأتراك في هذا العام [1774]»[74].

بموازاة الإعجاب بقوة الرُّوس أخذت تظهر على نحوٍ متزايد علائم القلق والجزع في أوروبا، من سيطرة الرُّوس الواضحة في شرق البحر المتوسِّط. فأخذت تتغير نبرة التعليقات على الأنباء الواردة من منطقة البحر المتوسِّط تدريجًا. وبعد الشخصيات الرسمية، بدأت الصحف تكتب عن الخطر الذي يتهدد «ميزان القوى» القائم، مقولة السياسة الأوروبية الرئيسة في القرن الثامن عشر. وقد أعربت الدورية البريطانية السنوية عن الرأي الغالب، على ما يبدو، عندما كتبت في نهاية عام 1770 أن تغلغل روسيا في البحر المتوسِّط «لا يتلاءم مع المبادئ التي تعمل الدول التجارية بموجبها، ولا مع مجمل مبادئ النظام السياسي العام في أوروبا، التي حرصت هذه الدول على اتباعها دائمًا، وهي تتلخص في الحفاظ على التوازن وتجنُّب الاحتلالات الكبيرة وإنشاء كيانات دولتية جديدة... ومما يثير الدهشة كثيرًا، النجاحُ غير الاعتيادي الذي حققته الإمبراطورة كاترينا بقواتها البحرية متوسِّطة الحجم وبسفنها سيِّئة التسلُّح والتجهيز، التي يقودها بحارة أجلاف عديمو الخبرة، بعدما أرسلت النار والسيف إلى سواحل اليونان وجزر الأرخبيل»[75].

---

(71) *G. d'A.*, 1771, no. 48.

(72) *G. d'A.*, 1770, no. 3, 9. I.

(73) *G. d'A.*, 1770, no. 30, 13. IV.

(74) *G. d'A.*, 1774, no. 44, 3. VI.

(75) *AR*, 1770, pp. 2-3.

في عام 1771، لم يعد الرُّوس يثيرون الإعجاب في حوض البحر المتوسِّط، بل الخوف الذي أعقبه الغيظ. فمن جهة، ما كان لعزم الرُّوس على اجتثاث القرصنة أو تأمين حرِّية الملاحة لسفن الدول الدول المسيحية[76] (استنادًا إلى «خطة بطرس الأكبر»)[77]، إلا أنْ يثير الارتياح لدى الصحف الصادرة في الدول الأوروبية التجارية. بيد أن تفتيش «دوريات السُّفن» الروسية للسُّفن التجارية وحصار الدردنيل ألحقا خسائر كبيرة بالتجارة المشرقية، أما المسيحيُّون في الإمبراطورية العثمانية فقد كانوا مهددين باستمرار بالتعرض للمذابح من جانب الأتراك ولهجمات الرُّوس أيضًا[78] (كتب مراسل *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) من مدينة «سْمِيرْنَا» الواقعة في آسيا الصغرى أن «أغلبية التجار الأوروبيِّين غادروا المدينة، خوفًا من هجمات الرُّوس»)[79].

حظي ألكسي أورلوف[80]، قائد الأسطول الروسي العام وبطل حملة الأرخبيل الأول، باهتمام الصحافة، على نحوٍ زاد بعض الشيء عن الاهتمام بالأسطول نفسه. فغدا ابتداءً من عام 1770 شخصية جسدت روسيا والرُّوس عمومًا، بالنسبة إلى الصحف التي كانت تسجِّل كل خطوة

---

(76) *G. d'A.*, 1771, no. 48.

ورد في 14 تموز/ يوليو 1771 الخبر الآتي من القسطنطينية: «... يسمح القباطنة الرُّوس بعبور السفن المسيحية بحُرِّية، ولكنهم يحرصون بدقة على منع وصول السفن الآتية من المرافئ المصرية إلى تركيا. غادر القبطان بوليان (Paulian) (من سان تروبيه) هذا المرفأ متوجِّهًا إلى مورية، وكان سعيدًا جدًّا بالوقوع في أيديهم، إذ كانت له تجربة مُرة حين وقع في أيدي القراصنة الذين أخذوه هو وطاقم سفينته رهائن واستعبدوهم».

(77) كتب مراسل في البندقية «أن الرُّوس يسعون إلى تحقيق خطة بطرس الأول، الذي أراد تأمين حُرِّية الملاحة سواء أفي البحر الأسود أم في البحر الأبيض»: *G. d'A.*, 1771, no. 65, 12. VIII.

(78) بحسب رأي الباحث في العلاقات الروسية - البريطانية م. س. أندرسون، حتى في بريطانيا التي ساعدت روسيا، أعربت بعض الصحف عن مخاوف جدية من تعزز قوة الرُّوس:
M. S. Anderson, *Britain's Discovery of Russia, 1553-1815* (New York, 1958), p. 130.

(79) *G. d'A.*, 1770, no. 56, 13. VII.

(80) بدأت الأعمال النشيطة، وبالتالي الأنباء المشوِّقة، مع وصول ألكسي أورلوف إلى الأرخبيل. فكتبت *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) في خريف عام 1771: «يبدو أن الأخبار الواردة من المشرق ستصبح أكثر تشويقًا. إذ تفيد الرسالة الأخيرة أن الجنرال أورلوف أصدر بعد يومين من وصوله إلى باروس أمرًا إلى القوات البرية والبحرية بتوحيد قواها للقيام بعملٍ ما خطير»: *G. d'A.*, 1771, no. 72, 6. IX.

من خطواته. ولم يقتصر ذلك على الصحف الإيطالية فحسب[81]، بل شمل مراسلي الصحف الأخرى أيضًا. فأبرزت الصحف بإيعازٍ خفيٍّ من أورلوف نفسه على الأرجح صفاتٍ لشخصيته، كالأُبهة والسخاء والرحمة والشجاعة والعدالة[82]. وكانت التقارير المُسهَبَة عن الاحتفالات التي كان ينظِّمها، والهدايا التي كان يقدِّمها إلى الشخصيات الحاكمة في البلدان التي توقف عليها نجاح أعمال الأسطول في البحر المتوسِّط ووجوده في مرفأ ليفورنو التوسكاني، تؤكِّد تحلِّي الكونت ألكسياوتز أرلو (Alexiowitz Orlow) **بالسخاء والأُبهة**.

فكما ذكرت *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**)، أهدى أورلوف أرشيدوق توسكانة الكبير معطفًا من فرو الثعلب[83]، وقدم هدايا ثمينة من بين الغنائم التي حصل عليها في معركة شيسما إلى الأكاديمية المحلية[84]. وفي عام 1772 توجه أورلوف خصِّيصًا إلى روما للقاء وليِّ عهد بريطانيا الأرشيدوق غلوستر. وبحسب نبأ ورد من روما بتاريخ 3-14 آذار/مارس، قدم إليه «معطفًا نادرًا ومجموعةً من ميداليات قُدامى القياصرة الرُّوس الرائعة»[85]. وزار الضابط في الخدمة الروسية روزنبرغ مدينة هامبورغ خصِّيصًا (نبأ وارد من هامبورغ في 19-30 حزيران/يونيو) لكي يقدِّم باسم الكونت أورلوف «سيفًا مُحدبًا نفيسًا إلى الحاكم المحلِّي، تبلغ قيمته ألفي دوكات، فضلًا عن غمده من الجلد الأخضر المدبج بالذهب. وكانت قبضة هذا السيف [الذي كان لباشا تركيٍّ]

---

(81) يُنظر الفصلان السادس والسابع.

(82) يذكر س. أوشاكوف في «سيرة حياة» أ. غ. أورلوف كلمات أحد المعاصرين الذي قدم أورلوف بصورة تكاد تحاكي صورة بطل من أبطال الإغريق: «ظننت أنني أرى بطلًا من أبطال اليونان القديمة... رزانة هادئة على محياه، عينان إغريقيتان، ابتسامة هادئة...»: C. Ушаков, *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского*, почерпнутая из достоверных Российских и иностранных источников С. Ушаковым (СПб., 1811), с. 13.

[س. أوشاكوف، **حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي المستقاة من مصادر روسية وأجنبية موثوقة** (سان بطرسبورغ، 1811)، ص 13].

(83) *G. d'A.*, 1770, no. 16.

(84) *G. d'A.*, 1771, no. 65.

(85) *G. d'A.*, 1772, no. 27.

عبارة عن تمثال نصفي للإسكندر الكبير، وعلى نصله أحرف يونانية تقول إنه كان لأحد القياصرة اليونانيِّين فيما مضى»[86].

أكدت الأنباء أن الكونت أورلوف يُطلق سراح الأسرى الأتراك[87]، ويُعتق المسيحيِّين الذي استعبدهم الأتراك والقراصنة، بما يدلُّ على تراحمه مع الآخرين. كما كان من شأن سلوكه - الذي تناولته التقارير - إبان معركة شيسما، وكذلك رسائله التي نُشِرت في الأرخبيل ووعده بالدفاع عن السكان اليونانيِّين[88] أن تخلق صورة القائد العسكري العادل والحكيم، إضافةً إلى أنه دعا كلَّ البلدان المتحضِّرة في شرق البحر المتوسِّط، بما فيها الإمبراطورية العثمانية إلى العمل معًا ضد القرصنة[89]، ومنع وصول الأسطول العثماني إلى فلسطين لقمع انتفاضة علي بك[90].

ابتداءً من عام 1773، تراجعت الكتابة عن أورلوف أيضًا. فقد ظل المراسلون الأجانب يسجِّلون وصوله إلى ليفورنو أو بيزا أو سان بطرسبورغ، ولكن تعابير الإعجاب السابقة غابت كليًّا. وقد فُسِّر سفره إلى روسيا في عام 1774 بداية بأنه تلقى إذنًا لقضاء بعض الوقت في عُزبته

---

(86) G. d'A., 1772, no. 55.

(87) نشرت *Gazette d'Amsterdam* (صحيفة أمستردام) في تشرين الأول/ أكتوبر 1770، على سبيل المثال، رد أورلوف على نواب شمِيزنًا الذي أشار فيه إلى حُسن معاملة الأسرى وإخلاء سبيل أسرى معركة شيسما من الأتراك (العدد 83، 16/ 10). وفي عام 1772 أشارت الصحيفة نفسها إلى أن الكونت أورلوف أطلق سراح عدد كبير من أسرى الأتراك في الأرخبيل قبل سفره من ليفورنو إلى بيزا، وزودهم بالمال للعودة إلى الوطن (العدد 30، 14/ 10).

(88) ورد نبأ من شمِيزنًا يفيد أن «الجنرال الكونت أورلوف أعلن في اليونان بأسره وفي المناطق الأخرى الخاضعة للحكم التركي أنه سيأمر بإعدام أسير تركي من بين الأسرى البالغ عددهم 500 أسير، إذا ما أعدم الأتراك أي شخص ينتمي إلى الطائفة اليونانية أو أيِّ طائفةٍ مسيحيةٍ أخرى»: G. d'A., 1770, no. 89, 6.XI.

(89) «ورد خبر يفيد أن الألبان في العمارة البحرية الروسية أعلنوا التمرُّد واستولوا على سفينتين، وأخذوا يمارسون القرصنة بهما، وأن الكونت أورلوف أصدر أمرًا إلى سفنه... ودعا الأتراك أيضًا وسكان الأرخبيل للعمل معًا من أجل دحر هؤلاء القراصنة»: G. d'A., 1772, no. 7.

(90) G. d'A.,1772, no. 99-101.

بالقرب من موسكو[91]، بيد أن الصحف خرجت في آذار/ مارس 1774 بنبأ يقول: «يؤكّد بعضهم أن ألكسي أورلوف لم يعد قائدًا للأسطول الروسي، وأنه سيعيش في فلورنسا بوصفه سفير البلاط الروسي مُطلَقَ الصلاحية في إيطاليا»[92].

كما تراجعت خلال الفترة 1772-1774 أخبار حملة الأرخبيل إلى المقام الثاني في الصحف الروسية والغربية على حدٍّ سواء. فبدا أن الأسطول كان عاطلًا عن العمل هناك، فلم ترد الأخبار المهمة إلا من القوات البرية ومن مدن أوروبا وموسكو التي اجتاحها وباء الطاعون، أو عن حركة بوغاتشوف. ولم يشغل موضوع مكتسبات روسيا في شرق البحر المتوسِّط حيِّزًا مهمًّا أيضًا، في التقارير التي تناولت مفاوضات السلام. فبعد توقيع اتفاقية السلام، فقدت التعليمات الأيديولوجية الرامية إلى تعبئة الرأي العامِّ الأوروبيِّ لصالح روسيا راهنيتها السياسية.

ترافق تضاؤل الاهتمام بالعملية المتوسطية في روسيا مع ابتعاد غ. غ. أورلوف عن شخص الإمبراطورة. فمع تراجع نفوذ أسرة أورلوف لدى كاترينا، اشتدت الانتقادات الموجهة إلى حملة الأرخبيل، بسبب تكاليفها الباهظة وعدم تأثيرها الكافي في مسار الحرب. ومُذاك، أخذت أخبار البحر المتوسِّط تغيب عن الصفحات الأولى في صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ**. فمن بين كل الموضوعات المرتبطة بحملة الأرخبيل، حظيت قصة علي بك والعلاقات الروسية - العربية، باهتمامٍ ملحوظ. وحلت الأخبار اليومية عن الحياة الاجتماعية في البلاطات الأوروبية محل أخبار العمليات الحربية الشاملة.

في غضون ذلك، ترسخ القلق والانزعاج في الصحف الغربية من استطالة أمد الحرب وعرقلة الملاحة في البحر المتوسِّط. ففي عام 1772 صارت هذه الصحف تكتب أكثر فأكثر عن أمراض البحارة الرُّوس وعن «الفوضى

(91) *G. d'A.*, 1774, no. 10, 4. II.

(92) *G. d'A.*, 1774, no. 25.

العارمة» في جزر الأرخبيل وعن عدم جدوى حصار الدردنيل[93]. وفي نهاية عام 1773، كتبت *Annual Register* **(السجل السنوي)** ما يأتي: «ذلكم هو حال الأمور **المحزنة** في البحر المتوسِّط. فمنذ السنة الأولى لم تكن الحملة البحرية على مستوى الآمال التي ولدتها النجاحات الأولى، وكلفت روسيا تكاليف طائلة. ومن الواضح أن هذه الحملة خلفت خرابًا كبيرًا وخسائر فادحة، وشكلت عبئًا على ممثِّلي أممٍ مختلفة، من دون أن تُلحق ضررًا جديًّا بالأتراك أو أن تضعفهم. ونعتقد أنه فيما كان الرُّوس منشغلين بنهب السفن التجارية الغنية في هذا العام [1773]، كانت القسطنطينية تتزود بالحبوب والمؤن من مصر وسوريا بكمِّيات كبيرة. وما دامت عاصمة الإمبراطورية في مأمن، فإن نتيجة هذه الحرب الوحيدة تتمثل في إفلاس بعض التجار أو تخريب بعض الجزر النائية، الأمر الذي لا يعني الكثير للباب العالي»[94].

مُذاك، سادت فكرة «النجاح العَرَضي» قصير الأمد في تقويمات أنشطة الأسطول الروسي، سواءٌ أَفي الصحف البريطانية أم في تلك الناطقة بالفرنسية. فكثيرًا ما أشارت هذه الصحف إلى أن أعمال التجنيد أنهكت روسيا، وأن وضعها الاقتصادي يكاد يكون كارثيًّا (فعلى سبيل المثال، كتبت *Annual Register* **(السجل السنوي)** البريطانية في نهاية عام 1771 - بداية عام 1772 أن «بضع سنوات من النجاحات بهذا الثمن، من شأنها أن تقود روسيا إلى الكارثة»)[95].

رغبة منها في قطع دابر هذه الأحاديث، قررت كاترينا الإقدام على خطوةٍ لا سابقة لها، تمثلت في شراء قطعة ماسٍ من عيار 200 قيراط بقيمة 400 ألف

---

(93) *G. d'A.*, 1772, no. 31, 17. IV; *G. d'A.*, 1772, no. 54, 68. 7. VII, 25. VIII. Cp.: Anderson, pp. 131-132.

جدير بالذكر أن السفير البريطاني في سان بطرسبورغ ش. كيتكارت سارع في الكتابة إلى لندن في كانون الأول/ ديسمبر 1770 يقول إن «الأسطول الروسي سيِّئ البناء والقيادة والتمويل. وثمة خلافات بين الضباط، وتتفشى الأمراض بين البحارة؛ والدردنيل منيع وحصار القسطنطينية عديم الجدوى»: *СбРИО*, t. 19 (СПб, 1876), c. 166.

[مجلدات الجمعية التاريخية الروسية، مج 19 (سان بطرسبورغ، 1876)، ص 166].

(94) *AR*, 1773, p. 22.

(95) *AR*, 1771, p. 80.

روبل، الأمر الذي كتبت عنه كلُّ صحف أوروبا تقريبًا[96]. وفي كلِّ الأحوال، يمكن الموافقة على رأي ج. ديولاك حين لاحظ أن الطبيعة «المتناقضة» التي تتسم بها روسيا الساعية إلى توطيد نفوذها في أوروبا الغربية على نحوٍ متزايد تدفعها إلى القيام بعمليات باهظة الكلفة، تثير دهشة الدبلوماسيِّين والصحافيين على حدٍّ سواء[97]، على الرغم من بؤس سكانها ومشكلاتها الاجتماعية وسوء إدارتها.

بعد توقيع معاهدة كوتشوك - كاينارجي، اختفى ذكر النجاح الروسي في البحر المتوسِّط من الصحف الغربية كليًّا. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تَخلُص الدورية البريطانية السنوية - التي اعترفت أن روسيا «بلغت ذروة المجد» في حربها مع تركيا - إلى القول: «لقد أدت **عمليات صغيرة (كذا!)** بين الرُّوس والأتراك في البحر المتوسِّط إلى نتائج معينة في حينه، بيد أنها لم تترك أي عواقب في وقتنا الراهن»[98].

## صورة الإمبراطورية العثمانية: أعداءٌ وأبطالٌ وضحايا

حولت أحداث فترة 1769-1774 في شرق البحر المتوسِّط، انتباه القراء الواسع نحو الطرف المُبادِر إلى الحرب، أي الإمبراطورية العثمانية. فقد أثارت قرارات الديوان وكفاءة الجيش التركي القتالية اهتمامًا بالغًا لدى الصحافة. وقد اكتسب النِّزاع الروسي - التركيُّ حدة خاصة في ضوء انتفاضة اليونانيِّين المسيحيِّين المُتوَقعة، وفي ضوء أعمال التمرُّد المندلعة في مقاطعات الإمبراطورية العثمانية العربية.

أيُّهم كان «البرابرة» و«الأعداء»، وأيُّهم ضحايا النِّزاع البائسين؟ لقد قدمت المعلومات التي نشرتها المطبوعات الأوروبية والروسية إبان الحرب مادةً غنية للقارئ لحثِّه على إنعام التفكير في هذا الأمر واستخلاص الاستنتاجات.

---

(96) سرعان ما أضيفت قطعة الماس هذه - وقد أُطلق عليها اسم «أورلوف» في روسيا - إلى صولجان الإمبراطورية الروسية المُذهب.

(97) Dulac, p. 84.

(98) *AR*, 1774, p. 8.

منذ بداية الحرب، عملت المطبوعات الدورية على تلبية اهتمام القراء الأوروبيِّين والرُّوس المتزايد بالإمبراطورية العثمانية، فنشرت معلوماتٍ متنوِّعةً عن النُّظم المتبعة في الباب العالي. وفي عام 1769 كان لا يزال من الممكن قراءة آراء «إيجابية» عن بعض طباع الأتراك[99] في مجلة **أشياء متنوِّعة**[100] التي كانت تصدر تحت إشراف كاترينا نفسها.

لكن، سرعان ما أخذت تتبدل نبرة الحديث عن الأتراك، فقدمت المجلة الوصف التالي لإحدى الميداليات في مقالة تحت عنوان «رسالة آدم آداموف ابن فارغيت»:

«على أحد وجهيها صورة السلطان التركيِّ جالسًا على العرش محاطًا بالوجهاء، ويحمل أحدهم سيفًا فوق رأس شخص ممدد عند قدمي السلطان الذي اكتسى بردائه الأرجواني المُوشى بأزاهير الزنبق، وأكياسُ النقود التي جلبها مُلقاةٌ أمام العرش. كلُّ شيء يُبيِّن من هو ومن أين أتى ولأيِّ غرضٍ يَمْثُلُ كالعبد أمام السلطان. أما على الوجه الآخر، فتوضح الكلمات الآتية المشهد على نحو أفضل: «صديق الأتراك، صديق الجزائريِّين، صديق البرابرة، عدو المسيحيِّين ومضطهِدهم». شكرًا للسيد فارغيت الذي يكشف هذه الحقائق العظيمة أمام العالم. يبقى أن نقول: O tempora! O mores! («يا لهذا الزمن! يا لهذه الأخلاق!»)[101].

---

(99) يُنظر على سبيل المثال مجلة أشياء متنوِّعة، 1769، العدد 3، ص 7، حيث يرد الكلام التالي عن السلطان محمد الثاني: «كان يمضي فصل الشتاء فيها (في تساريغراد – المؤلِّفان) للترويح عن النفس، بعيدًا من الأعمال الحربية. فكان يلتقي العلماء والحكماء، وأحيانًا جنود الحرس»:
*Ни то, ни сио в прозе и стихах* (ежесубботное издание), 1769, Лист 9, 25. IV, с. 66.

[**لا هذا ولا ذاك: شعرًا ونثرًا** (نشرة أسبوعية)، 1769، الورقة 9، 25. 4، ص 66].

كانت نشرة **لا هذا ولا ذاك** تصدر بإشراف ف. غ. روبين. أما المجلة نفسها فكانت تُصدِرُ خمسمئة نسخة: П. Н. Берков, *История русской журналистики XVIII в* (М.; Л., 1952), с. 235-239.

[ب. ن. بيركوف، **تاريخ الصحافة الروسية في القرن الثامن عشر** (موسكو؛ لينينغراد، 1952)، ص 235–239].

(100) كانت مجلة **أشياء متنوِّعة** تُصدِرُ ألف نسخة في البداية، وبعد ثلاثة أشهر صارت تصدر خمسمئة نسخة إضافية؛ ثم عادت لتصدر بألف نسخة شهريًّا: المرجع نفسه، ص 225.

(101) *Всякая всячина*, 1769, no. 13, c. 40.

[**أشياء متنوِّعة**، 1769، العدد 13، ص 40].

منذ ذلك الحين أخذت تتشكل في الصحف الروسية وبعض الصحف الأوروبية صورة الدولة العثمانية «المريضة» بجيشها الضعيف وأسطولها السيِّئ. وشهد عاما 1769 و1770 الرقم القياسي من حيث كمية الأخبار التي تتحدث - بهذا الشكل أو ذاك - عن ضعف الجيش والأسطول التركيين والفرار من الجندية والفوضى، وعن «غيظ» السكان، بل عن «احتباطهم».

لم تكن حملة الأرخبيل الروسية قد وصلت إلى شواطئ مورية عندما نقلت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** «رأيًا» من القسطنطينية يقول إن أسطول الأتراك المؤلف من 250 سفينة يشكو من حالٍ يُرثى لها، وإن طواقمه تتمرد وهو لا يصلح للمناورات الكبيرة»[102]. فيؤكِّد النبأ الوارد من ليفورنو في 18 نيسان/ أبريل أن **حال إحباط عامة** تسود في القسطنطينية، وأن السفن التركية الست التي غادرت «الترسانة»[103]، **سيِّئة إلى درجة تجعل من المخيف إنزالها إلى الماء**[104]. وعلى غرار *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** نشرت الصحف البريطانية معلوماتٍ عن ميل القيادة التركية إلى الرفاهية وانعدام الانضباط لدى الجنود[105]. فكتبت *Annual Register* **(السجل السنوي)** في كانون الأول/ ديسمبر 1770 أن كل مصائب الإمبراطورية العثمانية تنبع من فترة السلام المديدة التي تعيشها، الأمر الذي دمر روح الدولة القتالية:

«لم يعد الأتراك كما كانوا، وهم يحتاجون إلى أكثر من قدرات القيصر بطرس [الأول] لكي يعودوا عظماء، فمن الأسهل تحضير المتوحِّشين وتعليم الجُهال، مقارنةً بتخليص الشعوب المتقهقرة من عاداتها السيِّئة. إن هذه الإمبراطورية الضخمة الخرقاء سيِّئة التأسيس، تسير، على ما يبدو، بالفعل، نحو الانهيار...» (ثم تُعبِّر الصحيفة عن شكوكها في قدرة

---

(102) *G. d'A.*, 1770, no. 3, 9. I.

(103) حوض بناء السفن. (المترجم)

(104) *G. d'A.*, 1770, no. 37.

(105) من ذلك، على سبيل المثال، أن القادة الأتراك يعمدون عند الإعداد للحرب إلى تجهيز عربات باهظة الثمن. أما خيمهم وأسلحتهم في ساحة الوغى فتُزين بالذهب والفضة. وأما الجنود فيجوبون المدينة كالعصابات، يهدِّدون السكان مطالبين بتجهيزهم، والوزير عاجز عن منعهم من فعل ذلك: *GM*, 1769, vol. 39, p. 105.

الباب العالي على التعافي من خسائره، في ظلّ «تهاون الحكومة التركية وكسلها»)[106].

في التقارير الواردة من ساحات المعارك، قدمت صحيفة **تروتين** الصورة التهكُّمية التالية عن عجز العسكريِّين الأتراك:

«لا يزال الأمر على حاله، ولا شيء جديد عندنا: فنحن نطرد الأتراك، وهم يفرُّون أمامنا؛ وقد ابتعدوا الآن، حتى إننا لا نستطيع اللحاق بهم. وهكذا، نحن ننتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سنتناول فيه طعام الغداء في خوتين. وبعد غداءٍ فاخرٍ وارتشاف القهوة التركية، نتحرق شوقًا إلى معرفة ما الذي يتناوله الوزير التركي على العشاء. في الجيش عندنا لا يأبهون بالأتراك والتتار، بل إن أحد الضباط العائدين من الجبهة دخل الخيمة، عازمًا على استكمال كتابة ما كان قد بدأه قبل المعركة، بعد طرد خان القرم. بيد أن هجوم العدو جعله ينسى بعض الأمور، فغضب وشتم التتار قائلًا: لقد جاء الخان، على ما يبدو، كي يمنعني من الكتابة فحسب، وليس لاستعادة خوتين»[107].

استُكمِلت صور التركي «المريض» بنشر معلومات تناولت شتى أنواع المصائب في جيوش السلطان، من أوبئة ومصاعب متعلِّقة بالمواد الغذائية والرواتب، إلى أعمال التمرُّد المتكرِّرة في صفوف القوات الإنكشارية أو في وحدات الجيش التركي الأخرى، وحالات الفرار المتزايدة وما شابهها. ونشرت الصحف الأوروبية معلومات مماثلة، فعلى سبيل المثال نشر مراسلو *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) بانتظام معلوماتٍ مثيرةً للذعر عن **نقص المواد الغذائية في القسطنطينية**، إثر معركة شيسما، وعن تفشِّي الطاعون في المدينة وتزايد حالات الفرار من الجيش[108].

---

(106) *AR*, 1770, pp. 6-7, 28.

(107) *Трутень*, 1769, Лист XVI, 11. VIII, c. 123.
[تروتين، 1769، الورقة 16، 11. 8، ص 123].

(108) *G. d'A.*, 1770, 5. X; *G. d'A.*, 1770, no. 24, 22. III.; *G. d'A.*, 1770, no. 38, 2. 1. IV; *G. d'A.*, 1770, no. 49, 30 V; *G. d'A.*, 1770, no. 50.

لم تكتفِ الصحف بالكتابة عن ضعف الأتراك، بل نقلت أيضًا أخبارًا عن أشكال جديدة من عنف السلطان ورعاياه المسلمين وقساوتهم: «أمر السلطان وهو في حالة **غضب شديد** بذبح اليونانيِّين»، «سقط اليونانيُّون في القسطنطينية ضحايا **حقد** السلطان»[109]؛ «أُحبِطَت مؤامرة جديدة في «سْمِيرْنا» كان من شأنها أن تؤدِّي إلى هلاك المدينة، حيث **أقدم خمسون تركيًّا على نهب منازل اليونانيِّين وإحراقها**، واقترفوا مذبحة فظيعة؛ ويقولون في البندقية إن سكان القسطنطينية ذبحوا جميع اليونانيِّين الذين وقعوا في أيديهم»؛ وورد في أيار/ مايو خبر آخر من البندقية يقول إن **الأتراك يرتكبون الفظائع**، وإنهم هاجموا اليونانيِّين «أثناء القداس في الكنيسة»؛ وورد في اليوم نفسه خبر من «أنكونا» يفيد أن الحامية التركية نهبت المدينة «وفتكت بالكثيرين فيها»[110].

ونشرت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** معلوماتٍ مماثلةً تقريبًا، منها على سبيل المثال ما يأتي: تفيد الأنباء الواردة من المشرق أن الانتفاضة يمكن أن تندلع هناك أيضًا بسبب ارتفاع الأسعار على نحوٍ غير اعتيادي و«إخفاقات السلاح التركي»؛ ولا يُبدِي رعايا السلطان أي احترامٍ للحكومة؛ لذا، افقد اضطر السلطان إلى التخلِّي عن فكرة استعراض القوات بنفسه. وحصلت «اضطرابات خطيرة» في القسطنطينية في 4-15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1769، بحيث بالكاد تمكن السلطان من النجاة، وتُعزى هذه «الاضطرابات» إلى الفقر ووباء الطاعون؛ فضلًا عن تمرُّد الإنكشارية في المدينة[111]. ويعيش سكان القسطنطينية حال بلبلة بسبب انتصارات الرُّوس، «فيما أصاب الخمول التجار والفنانين والحرفيِّين»، وهم يتساءلون متى سيدخل الرُّوس المدينة. ويقدم الخبر التالي الوارد «من ألمانيا» صورة بليغة عن وضع الجيش التركي العام:

---

(109) *G. d'A.*, 1770, no. 19, 6. III.

(110) *G. d'A.*, 1770, no. 24, 22. III.; *G. d'A.*, 1770, no. 38, 2. 1. IV; *G. d'A.*, 1770, no. 49, 30 V; *G. d'A.*, 1770, no. 50.

(111) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 4, 12. I, Л. 1об.-2; *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 20, 9. III; *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 28, 6. IV, Л. 2об.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 4، 12. 1، ظهر الورقة 1 - الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 20، 9. 3؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 28، 6. 4، ظهر الورقة 2].

«كنت قبل فترة في حفلة في وارسو، وكان أحد الأشخاص في الحفلة متنكّرًا في زيٍّ تركي، وعلى رأسه عمامة كُتِبَت عليها الكلمات التالية: مظهري كمن يعلن الحرب، ولكنني مثل جميع الأتراك في المعركة مع الرُّوس. طلبوا من الشخص المتنكِّر خلع القناع، فتبين أنه امرأة عجوز». وقيل أيضًا إن إخفاقات الجيش التركي الدائمة والتأخير المستمر في دفع الرواتب سببا الفرار الجماعي من الجيش، وقد نقل الجنود الفارُّون إلى القسطنطينية الأخبار «الحقيقية» السلبية عن سير الحملة الروسيَّة - التركيَّة. وأدت محاولات إظهار المجتمع العثماني، ولو على الورق، أنه مجتمع منقسم، بالإضافة إلى ظهور كتابات عن حسن اطِّلاع «الشعب» التركي على وضع الدولة «الحقيقي» البائس، وأن هذا «الشعب» هو الذي سعى إلى إحلال السلام مع روسيا، بحسب **أنباء سان بطرسبورغ**: «يتوق الشعب إلى السلام بحماسة كبيرة، ويطالب بإعدام أولئك الذين نصحوا بإعلان الحرب على روسيا»[112]. وهكذا، أصدرت الصحافة الحكم النهائي بحقِّ الدولة العثمانية «المريضة»، متهمةً إياها بالتعصُّب الأعمى والإيمان بالخرافات.

من البدهي ألا تُجمع كلُّ الصحف الأوروبية على كراهية الإمبراطورية العثمانية. فمن المعروف جيِّدًا أن فرنسا الرسمية كانت تدعم الأتراك، وتقف ضد بريطانيا والدانمارك وروسيا في الساحة الدولية. ولذا، تميزت الأخبار التي كانت تنشرها **صحيفة فرنسا** عن الأخبار التي كان يروِّجها البروتستنات الدانماركيُّون والبريطانيُّون، وكذلك عن أخبار الصحف الروسية. وتسمح لنا دراسة المطبوعات الدورية بالقول إن الصحافة كانت عبارة عن مقياس يُعبِّر عن تقلُّب الاهتمام العام والتعاطف مع طرفي الصراع إبان الحرب. فابتداءً من عام 1771، وفيما كانت الصحف الروسية لا تزال تؤجِّج المشاعر

---

(112) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 30, 15. IV, Л. 2об; *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 32, 20. IV, Л. 2; *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 34, 27. IV, Л. 2, no. 42, 25. V, Л. 2об, и др.; *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 11, 5. II, Л. 2.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 30، 15. 4، ظهر الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 32، 20. 4، الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 34، 27. 4، الورقة 2؛ العدد 42، 25. 5، ظهر الورقة 2 وغيرها؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 11، 5. 2، الورقة 2.

السلبية حيال الأتراك لدى القارئ الروسي، أخذت تتراجع حدة عداء الصحف الأوروبية للعملاق المستمر في المقاومة، على الرغم من مظاهر الوهن الذي أصابه. فتراجعت شيئًا فشيئًا كتابات *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** والصحف البريطانية عن ضعف الأتراك أو قسوتهم؛ بل إنها عمدت على العكس من ذلك وعلى نحوٍ متزايد إلى تظهير معلومات عن تحضيرات الجيش والأسطول التركيين الناجحة لمواصلة الحرب، وعن صدِّ الهجمات الروسية، والمساعدة التي يتلقاها الأتراك من المغرب ومن المُوالين الجزائريِّين والتونسيِّين والدولتسيِّين، وعن التدابير الناجحة التي يلتزم الباب العالي جانبها لتأمين استقرار أسعار الخبز في القسطنطينية. وظهرت في مجلة أسبوعية بريطانية قصة مسهبة عن الإنكشاري الوسيم الشجاع الذي أهداه رومیانتسيف إلى فريدريك البروسي، فأعتقه الإمبراطور كي يعود إلى زوجته وأسرته في الإمبراطورية العثمانية[113]. وكتبت الصحف في عام 1773 عن «المقاومة الشرسة» التي أبداها الأتراك في وجه الرُّوس «في جزيرة كانديا على مدى ثلاثة أسابيع، إلى أن سقط القسم الأكبر من رفاقهم قتلى وحوصر الآخرون»[114]. وفي نهاية عام 1773 نشرت *Annual Register* **(السجل السنوي)** قصة القائد العسكري التركي الشهير حسن بك، الحافلة بتفاصيل المغامرات، حيث تضمنت أوصافًا من نوع «غير الاعتيادي»، «الشجاع»، «المبتكر»، «البارع» وغيرها، وهي صفات لم تطلقها هذه الصحيفة على أيِّ قائدٍ عسكريٍّ روسيٍّ، وذلك على غرار أفضل نماذج القرن الثامن عشر الأدبية[115].

شعر أ. غ. أورلوف، على الأرجح، بهذا التبدُّل في الأمزجة لصالح الإمبراطورية العثمانية، فسارع إلى دفع رسالة شكرٍ من رسولٍ عثمانيٍّ أنقذته سفينة روسية للنشر. وجدير بالذكر أن هذه الرسالة نُشرت مع مقدِّمة تتضمن نبأ من ليفورنو مؤرخًا في 20-31 تشرين الأول/ أكتوبر 1772 مفاده أن الأسطول العثماني في حالة سيِّئة، وأن السفن الروسية هي التي ترافق الرسل المبعوثين

(113) *GM*, 1772, vol. 42, April, pp. 178-179.

(114) *GM*, 1773, vol. 43, 6. VI, p. 347.

(115) *AR*, 1773, pp. 28-29.

من الباب العالي إلى الأسطول الروسي[116]. وبعد نشر هذه المعلومة، لم تُطرح مرةً أخرى مسألة ضعف الجيش والأسطول العثمانيين في *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) على سبيل المثال.

لقي موضوع تحرير الشعوب المستَعبَدة من النِّير العثماني، منذ بداية الحرب الروسية - التركية، اهتمامًا واسعًا في المطبوعات الدورية الروسية والأجنبية. ففي عامي 1769 و1770 قدمت الصحف اليونانيِّين بوصفهم ضحايا البرابرة الأتراك الرئيسين. وانتظرت روسيا وأوروبا اندلاع انتفاضة ورثة «الأبطال الأغارقة القدامى»، مؤسِّسي الحضارة الأوروبية، بمساعدة المقاتلين الرُّوس.

فمنذ نهاية عام 1769 وطيلة عام 1770، كان القراء الرُّوس أسرى الانتظار الحماسي للحظة التي ينال فيها مسيحيُّو الإمبراطورية العثمانية حُرِّيتهم، وفي مقدِّمتهم اليونانيُّون. ولم تكن الإمبراطورة الروسية والمقربون منها وحدهم من خدعوا أنفسهم بانتظار انتصارات اليونانيِّين العسكرية، بل شاركتهم هذا الانتظارأيضًا أوروبا الغربية نفسها.

وفي شباط/فبراير 1770، ذكرت الصحف أن اليونانيِّين ينتظرون العمارة البحرية الروسية في بورت ماغون كي يرافقوها إلى الأرخبيل، وأن اليونانيِّين والسلافيين **يعملون بجدٍّ على بناء سفن صغيرة، يمكن أن تؤدِّي خدمة جيِّدة. وينوي سكان لاكديمون امتشاق السلاح أيضًا، من دون انتظار وصول الأسطول الروسي لبدء التحرُّكات ضد الباب العالي**. وتسود مشاعر مماثلة لدى يونانيِّي بيلوبونيز، فيما يراقب الأتراك هناك كل هذه التحضيرات بيأس، فبعضهم يؤدِّي الخدمة وبعضهم الآخر يستعدُّ للاستسلام للروس من دون مقاومة ما إن يصل الأسطول الروسي» (التشديد من المؤلِّفين)[117]. وذكرت *Gentleman's Magazine* (**مجلة جنتلمان**) البريطانية «أن الجزر اليونانية

---

(116) *G. d'A.*, 1772, no. 94.

(117) *G. d'A.*,1770, no. 13, 13. II; то же: *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 10, 2. II, no. 16, 25. II.

[وكذلك صحيفة أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 10، 2. 2، العدد 16، 25. 2].

ستنتفض عند أول ظهور للأسطول الروسي، وستعترف بصاحبة الجلالة سيِّدةً عليها»(118). وسرعان ما تأكدت هذه الأنباء؛ ففي 4-15 شباط/ فبراير وردت معلومات من أنكونا تفيد أن مورية تنتظر وصول الأسطول الروسي كي تنفض عنها النِّير العثماني، وأما سكان كيميرا (خيمارا) ويانين وفيساليا وليفاديا فلا ينقصهم إلا السلاح كي يبدأوا التحرُّك»(119)؛ وأن اليونانيِّين «يعتبرون الظروف الراهنة ملائمةً جدًّا للتخلُّص من النِّير العثماني وإعادة الدولة اليونانية إلى ماضيها الزاهر»(120).

سرعان ما نُقلت إلى القراء الأوروبيِّين أخبارٌ من هامبورغ، مؤرخة في 11-22 أيار/ مايو، تفيد أن «مورية تخلصت من النِّير العثماني بمساعدة القوات الروسية، وأن اليونانيِّين يعملون الآن على إنشاء حكومتهم الخاصة، على غرار الأمم المسيحية الأخرى»(121). أما القراء الرُّوس فقيل لهم إنه «بعد الاستيلاء على قلعتي رومانيا (نابولي دي رومانيا) ومالفازيا (مومنيمفاسيا) (لم يُستوْلَ على القلعتين - المؤلِّفان)، حاز اليونانيُّون الأماكن الأخرى في مورية بسرعة كبيرة، حيث يُبدي الماينيُّون شجاعةً لا نظير لها بمؤازرة الرُّوس، وقد حصل الأسطول الروسي على كمِّيات كبيرة جدًّا من السِّلاح والمؤن، وهو يزوِّد بها اليونانيِّين الذين سينتقلون من دون أدنى شكٍّ إلى جانب الرُّوس بعد تحريرهم»(122). ظلت مثل هذه الأخبار الحماسية تُنشر حتى نهاية تموز/ يوليو 1770؛ فكتبت **أنباء سان بطرسبورغ** عن الانتصارات في مورية، وعن ارتياح الكونت أورلوف الكبير لشجاعة اليونانيِّين. وخلص الناشرون من كل ذلك إلى الاستنتاج الآتي: «وباختصار، سيرتفع الصليب المقدس والنسر الروسي

---

(118) *GM*, 1770, vol. 40, 1. II, p. 137.

(119) *G. d'A.*, 1770, no. 21.

(120) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 34.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 34].

(121) *G. d'A.*, no. 43, 1770.

(122) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 42, 25. V.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 42، 25. 5].

في القريب العاجل في كلِّ أنحاء مورية»[123]. وظهر نبأ يقول إن الإمبراطورة زارت الأمير ل. أ. ناريشكين الذي أقام «معبد ديانا» ونصبًا على شرف وصول الرُّوس إلى مورية على رأسٍ بحري[124].

بيد أنه سرعان ما جعلت الأنباء الواردة عن الإخفاقات في مورية الرُّوس والأوروبيِّين يُعيدون النظر بنظرتهم المتفائلة إلى مقاومة اليونانيِّين. فكتب البريطانيُّون أكثر فأكثر عن «**الحرب الدموية** في مورية»[125]، وعن أن «الدماء تتجمد في العروق» من الفظائع التي يرتكبها كلا الجيشين في مورية[126]. وردت الصحف الروسية على ذلك بنشر أخبار عن عدم سماح الرُّوس لليونانيِّين بالانتقام من الأتراك[127].

بعد هزيمة الانتفاضة اليونانية في بيلوبونيز، أعربت الصحف عن تعاطفها مع سكان مورية المساكين[128]. أما **(مجلة جنتلمان)** *Gentleman's Magazine* البريطانية فقد نشرت مقالة عن انسداد الأفق أمام اليونانيِّين الذين فرُّوا من الحرب إلى ممتلكات البندقية: «يعلن الكثيرون أنهم يفضِّلون تحمُّل أيِّ مِحَنٍ على العودة مجددًا إلى الاستبداد العثماني، بعدما رأوا ما حل باللاجئين اليونانيِّين الذين عادوا إلى مورية بعد الجلاء ليفتك بهم الأتراك بوحشية»[129].

على وجه العموم، بعد نجاحات الأسطول الروسي في شيسما، وهزيمة الانتفاضة اليونانية في بيلوبونيز، سادت خيبة الأمل باليونانيِّين في الصحافة:

---

(123) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 57, 16. VII.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 57، 16. 7].

(124) *Санктпетербургские ведомости* (Прибавления), 1770, no. 59, 23. VII.
[أنباء سان بطرسبورغ (ملحق)، 1770، العدد 59، 23. 7].

(125) *GM*, 1770, vol. 40, July, pp. 289-290.

(126) المصدر نفسه، ص 343-344. يُنظر أيضًا: Constantine, pp. 171-172.

(127) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 82, 12. X.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 82، 12. 10].

(128) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 70, 31. VIII.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1770، العدد 70، 31. 8].

(129) *GM*, 1770, vol. 40, October, p. 486.

«اليونانيُّون لا يبرُّون بالوعد»، وهم حاقدون وقساة على الأتراك[130]، إنهم «جهلة»:

كانت هزيمة اليونانيِّين «... متوقعة، إذا ما أخذنا في الحسبان جهلهم المفرط وعجز الرُّوس عن تقديم مساعدة فعالة إليهم... كان من المفهوم أنهم سينتفضون من أجل التحرُّر من مضطهِديهم، وأن ذكرياتهم عن مجدهم الوطني التليد ستجعلهم يعتقدون أنهم يتحلون بشجاعة أجدادهم... يعرف الرُّوس جيِّدًا أن هذا الشعب الذي يعيش حال انحطاط منذ أكثر من ألفي سنة، وقد حطمته دهور العبودية والتخلُّف، أصبح انحلاله وعجزه التام عن تقويم الظروف مضرب مثلٍ، وتقوم شجاعته على أنه لم يلتقِ عدوه يومًا، فلا يمكنه أن يحقِّق في لحظةٍ واحدةٍ ما لم يفعله أجداده، فيصد القوات النظامية من دون انضباطٍ عسكريٍّ أو إتقانٍ للفنِّ العسكري، ليهزم الغزاة الذين كان بالنسبة إليهم مجرد شعبٍ من شعوب الإمبراطورية العظيمة وجزءًا من أجزائها...»[131].

أشارت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** إلى هلع اليونانيِّين من «غضب الأتراك»، وإلى «فقدانهم الرغبة في مواصلة القتال إلى جانب روسيا»، وإلى اضطرار الجنرال أورلوف إلى إصدار بيان آخر وعد فيه اليونانيِّين بالحماية القوية وبمساعدة الإمبراطورة الروسية، من أجل حثِّهم على حمل السلاح والانضمام إلى القوات[132]. وقد اكتفت الصحف الأوروبية خلال الفترة الواقعة بين عامي 1771 و1773 بالحديث فقط عن أولئك اليونانيِّين الذين انتقلوا إلى الخدمة لدى الرُّوس وشاركوا معهم في العمليات القتالية.

لم تلقَ فكرة المجابهة المسيحية - الإسلامية الاهتمام المطلوب في الصحافة. فقد حاولت كاترينا استغلال هذه الفكرة لِجَسِّ إمكانات الحصول على دعم الدول المسيحية في جنوب أوروبا. فإذا كانت هذه المسألة ظلت تتردد في الصحف الروسية في عام 1769، ارتباطًا بالاستيلاء على خوتين أو

---

(130) *G. d'A.*, 1770, no. 59, 28. VIII; *G. d'A.*, 1770, no. 82, 12. X.

(131) *AR*, 1770, p. 5.

(132) *G. d'A.*, 1770, no. 53, 3. VII.

التهنئة بالعام الجديد 1770[133] على سبيل المثال، إلا أن خيبة الأمل بإمكانات الانتفاضة اليونانية جعلتها أقل راهنية، مقارنةً بإمكانات إقامة تحالف مع المتمرِّدين على الباب العالي من المسيحيِّين والمسلمين على حدٍّ سواء.

تناولت الصحافة إبان الحرب أيضًا الأخطار الأخرى المُحدِقة بالباب العالي العثماني، المتمثِّلة في المتمرِّدين «الجورجيِّين» و«أهل القرم» الذين لا يُؤمَن جانبُهم. فبحسب الصحافة الروسية لم يكن الضغط المباشر الذي مارسته الإمبراطورة على الأمير الجورجي إيراكل، هو الذي دفع جورجيا إلى الدخول في حلف حربيٍّ مع روسيا، بل كان هناك لذلك سببٌ شبهُ «أسطوري»: فالمئة ألف رجل الذين يتألف منهم جيش ملك جورجيا «يفضِّلون الموت

(133) «تقوم صحيفة أشياء متنوِّعة بواجبها، فتتقدم من صاحبة الجلالة بأصدق التهاني بالانتصار على عدو المسيح وعدو إمبراطوريتنا، ولمناسبة انتصار خوتين أيضًا. فكما يذوب الشمع في النار، اختفت القوة البوسورمانية أمام مُحِبِّي الله، أمام ملكتنا التقية وقواتها الأرثوذكسية...»:
*Всякая всячина*, no. 115 (1769), c. 305-306.

[أشياء متنوِّعة، العدد 115 (1769)، ص 305-306].

وللمقارنة: «سيدتنا الرحوم! تقبلي من كُتاب أشياء متنوِّعة أصدق التهاني بحلول عام 1770 الجديد. ولا يسعنا هنا إلا أن نتذكر إنجازات جلالتكم ضد عدو المسيحية، والأعمال المظفرة المجيدة التي تحققت خلال العام المنصرم. ويبشِّر العام الجديد بنجاحات مماثلة. فقد استُولِيَ على خوتين التي لن تجرؤ على الوقوف بوجه سلاحنا المخيف بعد اليوم. آزوف وتاغانروغ الراقدتان تحت الرماد والتراب، نهضتا من القبور وعادتا إلى الحياة مع وصول قوات جلالتكم المنقذة. أما بوخارست التي كانت عاصمة الإمارات القوية في الماضي، فها هي تنحني مع المدن الخاضعة لها عند أقدام عرشك. كل ذلك نتيجة هزيمة العدو وتشتيت قواه أينما اعترض طريقك. إنه يخفي عاره خلف الدانوب الآن، ولكنه لن يُفلح في مداراة الخوف والهلع والحزن والندم والحنق والغضب.. هذه المشاعر التي تملأ قلبه. إنه يفتش عن النصح، ولكنه لا يقبل بالحقيقة. يريد إيقاف الحرب، ولكنه يعود إلى التسلُّح، كما فعل فرعون من قبل. فلتتجرع أسرة محمد كأس غضب الربِّ حتى الثمالة، بعدما بلغت غطرستها الذروة. إن روسيا المتوجة بانتصاراتها ترفع صوتها مبتهجة، وتلهج باسمِك شاكرة لك عنايتك بها، وتعلن جلالتك أميرة على مولدافيا وفالاشيا. فهذه البلاد تهنأ اليوم تحت جناحك، فلتصفق كل الشعوب، فلتفرح الأمم والقبائل الرازحة تحت نير الاضطهاد القاسي سنين طويلةً، فلتُثر البحار وتنتفض الجزر والأرض، إذ ترى اقتراب خلاصها من الواقع المرير، خلاصها على يد كاترينا الثانية الحكيمة، التي سيتمجد اسمها اليوم، وفي العصور الآتية. فليمنحكم إله الآلهة وربُّ الأرباب النعمة والبركات في السنة الجديدة 1770. بقلب صادق يصلِّي الرعايا الطائعون، كُتاب أشياء متنوِّعة، من أجل خير صاحبة الجلالة الإمبراطورية»:
*Барышек Всякие Всячины 1770 года*, no. 151, c. 411-413.

[مجموعة أشياء متنوِّعة لعام 1770، العدد 151، ص 411-413].

على مواصلة دفع جزية العار المتمثِّلة بإرسال النساء إلى حريم السلطان العثماني»[134]. ونوهت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** بنجاحات الجورجيِّين في الحرب ضد الباب العالي، ساعية في الأغلب إلى نشرها جنبًا إلى جنب مع الأنباء عن انتفاضة اليونانيِّين والسلافيين في منطقة شرق البحر المتوسِّط، وإدراجها في السياق نفسه[135]؛ بل أكثر من ذلك، إذ غالبًا ما كان الجورجيُّون (ومعهم أبناء الجبل الأسود) يجسِّدون مثال الرجولة في النضال ضد الباب العالي بالنسبة إلى اليونانيِّين: «يبثُّ الجورجيُّون وأبناء الجبل الأسود رعبًا عظيمًا؛ فاقتراب وصول الأسطول (الروسيِّ - المؤلِّفان) يحمل خطرًا كبيرًا على الأتراك، وقد تكتل الشعبان المذكوران ضدهم، وهما يقدِّمان إلى اليونانيِّين مثالًا يُقتدى به»[136]. وكتبت **أنباء سان بطرسبورغ** في 5-16 شباط/ فبراير عن انضمام الأرمن إلى الجورجيِّين في النضال ضد الباب العالي: «حث بطريركُهم إخوة الدين على العمل يدًا واحدة مع اليونانيِّين»[137].

في المقابل، كان تتار القرم بمثابة حلفاء غدارين للإمبراطورية العثمانية، إذ سعوا إلى إبرام صلح انفصالي مع أعداء تركيا عند أول فرصة. فكتبت **أنباء سان بطرسبورغ** في آذار/ مارس 1770 عن محاولات السلطان التركي العديمة الجدوى لرفع الروح القتالية لدى تتار القرم، بإرسال 700 «كيس» من الذهب إلى خان التتار[138]. وعلى الرغم من كلِّ الجهود التي بذلها الأتراك، اكتفى الخان بالعمل على حماية أراضيه، وفكر جديًّا بالصلح مع روسيا (وردت أنباء مماثلة من وارسو في شهر نيسان/ أبريل، نُشرت في عدد 4 أيار/ مايو من الصحيفة)[139].

---

(134) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 4, 12. I, Л. 2об.
[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 4، 12. 1، ظهر الورقة 2].

(135) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 9، 29. 1، الورقة 2، العدد العاشر، 2. 2، الورقة 2، العدد 11، 5. 2، الورقة 2، العدد 36، 4. 5، الورقة 1، ظهر الورقة 1، وغيرها.

(136) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 20، 9. 3، الورقة 2، ظهر الورقة 2.

(137) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 11، الورقة 2، نبأ من وراسو بتاريخ 13 كانون الثاني/ يناير.

(138) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 24، الورقة 1، ظهر الورقة 1.

(139) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 36، الورقة 2، ظهر الورقة 3.

أخيرًا، أطلعت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** قراءها على الأحداث الجارية في أطراف الإمبراطورية العثمانية الجنوبية الغربية، التي ما كانت لتبعث على التفاؤل في القسطنطينية. وقد روت الصحيفة لقرائها، مثلًا، في 25 أيار/ مايو عن «الجمهورية الجزائرية» وانفصالها عن الباب العالي[140].

بيد أن الأحداث الجارية في مصر المرتبطة بنشاط علي بك، غدت الموضوع الأساسي المتعلّق بتحرُّكات التمرُّد في الإمبراطورية العثمانية الذي تناولته الصحف الروسية والغربية.

أصبح اسم **علي بك** معروفًا جيِّدًا لدى قراء الصحف الغربية والروسية، ابتداءً من ربيع عام 1770، ما أثار تعاطفًا واضحًا معه منذ البداية؛ وعندما أعلن نفسه حاكمًا على مصر ومكة والمدينة بات قوةً قادرةً على التأثير في المناطق والمدن التجارية المسيحية في الشرق الأوسط. وقد أشبعت الصحف الأوروبية فضول قرائها، فلم تكتفِ بنشر معلومات بيوغرافية عنه، بل ساقت أيضًا معلومات عن مصر وعن التجارة المسيحية فيها وعن منح الأوروبيِّين حق عبور السويس[141]. وجدير بالذكر أن *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) نشرت في كانون الأول/ ديسمبر 1770 رسالة عن علي بك أرسلها المركيز ماروتسي إلى البلاط الروسي، وأرسل المبعوث الروسي في لاهاي د. أ. غوليتسين نسخةً عنها إلى الصحيفة[142]. وهكذا، حظيت «الثورة في مصر» باهتمامٍ واسعٍ في الصحافة البريطانية أيضًا، وشمل ذلك «علي بك ذائع الصيت»[143].

ابتداءً من شباط/ فبراير 1770، تعززت قوة علي بك وحَظِيَ باهتمامٍ متزايدٍ في روسيا. وفي نيسان/ أبريل من العام نفسه، كتبت **أنباء سان بطرسبورغ** الكلمات الآتية: «لقد تحررت مصر من النِّير العثماني». وفي أيار/ مايو، تكرر نشر هذا الخبر مرارًا، وأُضيف إليه أن الاضطرابات الجارية في مصر أثارت

(140) **أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 42، ظهر الورقة 1.

(141) *G. d'A.*, 1770, no. 90, 9. XI.

(142) *G. d'A.*, no. 98.

(143) *AR*, 1770, pp. 39-40.

«خوفًا عظيمًا» لدى سكان القسطنطينية، وأن السلطات التركية قلقةٌ من الأوضاع في مصر، وأن علي بك أصبح «ملكًا على مصر» في القاهرة[144].

في عام 1771، واصلت المطبوعات الدورية نشر الأخبار عن علي بك، وتابعت تحرُّكاته باهتمامٍ زائد. ولكن، حتى نهاية العام لم يظهر أيُّ تلميح عن علاقة الحاكم المصري بالرُّوس. وقد تجلى التعاطف معه في إطلاق صفة «المجيد» عليه أحيانًا، والحديث عن «رضا الشعب عن حكم علي بك في كلِّ المناطق الخاضعة له، وفرحه بالتخلُّص من النِّير العثماني البغيض، وهو يعلِّق الآمال على البقاء تحت رعايته، لأن الأتراك في حربٍ مع إحدى الدول المسيحية»؛ وأن «علي بك في وضعٍ ممتازٍ ومجدٍ عظيم»، وأن «هذا الحاكم ثاقب الذهن وعادل» ويحرص على عدم إلحاق الأذى بالتجار ...إلخ[145].

ظهر اسم علي بك والعمارة البحرية الروسية أول مرة في سياق خبر واحد أوردته *Gazette d'Amsterdam* (**صحيفة أمستردام**) في كانون الثاني/ يناير 1772[146]، لكن من دون أيِّ صلة بينهما[147]. وبعد أقل من شهرين، نشرت الصحيفة أنباءً تزعم أن علي بك مستعد لإعلان الولاء لروسيا، وللاستيلاء على قبرص بمساعدة

---

(144) *Санктпетербургские ведомости*, 1770, no. 10, 2. II.; *Санктпетербургские ведомости*, no. 35, Л. 2; *Санктпетербургские ведомости*, no. 38, 11. V, Л. 2об.; *Санктпетербургские ведомости*, no. 41, 21. V, Л. 2об; *Санктпетербургские ведомости*, no. 43, 28. V, Л. 1об.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1770، العدد 10، 2. 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 35، الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 38، 11. 5، ظهر الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 41، 21. 5، ظهر الورقة 2؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، العدد 43، 28. 5، ظهر الورقة 1].

(145) *Санктпетербургские ведомости*, 1771, no. 87, 1. XI; *Санктпетербургские ведомости*, 1771, no. 89, 8. XI; *Санктпетербургские ведомости*, 1771, no. 91, 15. XI.

[**أنباء سان بطرسبورغ**، 1771، العدد 87، 1. 11؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1771، العدد 89، 8. 11؛ **أنباء سان بطرسبورغ**، 1771، العدد 91، 15. 11].

(146) *G. d'A.*, 1772, no. 9, 8. II.

«أما بخصوص العمارة البحرية الروسية فقد عادت على ما يبدو إلى مرفأ باروس. وعلمنا من الرسائل الأخيرة الواردة من حلب أن قوات علي بك استولت على صيدا أو صيدون في سوريا» (المرجع نفسه).

(147) *G. d'A.*, 1772, no. 24, 24. III; *G. d'A.*, 1772, no. 29, 10. IV.

الأسطول الروسي، ومنح الرُّوس مرفأً فيها، وأن هؤلاء صاروا يتمتعون بِحُرِّية الملاحة في المياه المصرية ويتزودون بالمؤن في الإسكندرية، وأن الأخبار الواردة من مورية تفيد أن أرمنيًّا وصل «إلى الإسكندرية موفدًا من الجنرال أورلوف»(148). ونشرت الصحف الروسية في نيسان/ أبريل «شائعة» تقول أن علي بك منح الرُّوس أفضل مرفأ في قبرص، ونال الحاكم المصري المدائح مجددًا: «علي بك تواقٌ بطبيعته إلى اجتراح الأعمال العظيمة»(149).

سرعان ما أخذت ترد إلى الصحف الأوروبية في صيف عام 1772 أخبار عن عملية **الرُّوس** المشتركة مع علي بك والشيخ ظاهر العمر، وعن قصف بيروت(150). وقد وصلت هذه الأخبار من القسطنطينية إلى أمستردام، ومن ليفورنو إلى روسيا، عندما أرغمت الهدنة ألكسي أورلوف على إصدار بيانٍ يفيد أن أعمال علي بك المشتركة ليست مع الرُّوس، وإنما مع «عمارة بحرية يونانية صغيرة» أو «أسطول يونانيٍّ صغير» بقيادة «غيورغ ريسو المقدوني»(151). بيد أن أورلوف لم يفلح في إخفاء علاقاته التحالفية مع علي بك، وسرعان ما ظهرت التقارير المفصلة في الصحف الأوروبية - خلال عامي 1772 و1773 - عن العمليات المشتركة بين قوات علي بك والشيخ ظاهر العمر وسفن الأسطول الروسي، عند يافا وبيروت(152). ونشرت صحيفة **أنباء سان بطرسبورغ** معلومات مماثلة، ولكن من دون ذكر المساعدة والحضور الروسيِّين.

ونشرت **أنباء سان بطرسبورغ** في 1-12 تموز/ يوليو 1773 (العدد 56)، نبأ عن هزيمة علي بك ومقتله، من دون أن تذكر شيئًا عن الفصيل الذي قيل

---

(148) *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 28, 6. IV; *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 31, 17. IV.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1772، العدد 28، 6. 4؛ أنباء سان بطرسبورغ، 1772، العدد 31، 17. 4].

(149) *G. d'A.*, 1772, no. 77, 25. IX.

(150) *G. d'A.*, 1772, no. 85, 23. X.

(151) *Санктпетербургские ведомости*, 1772, no. 86, 26. X, no. 87, 30. X.
[أنباء سان بطرسبورغ، 1772، العدد 86، 26. 10، العدد 87، 30. 10].

(152) *G. d'A.*, 1772, nos. 74, 75, 77, 99-101, 1773, nos. 22, 25, 27, 48, 56, 92, 94, 100; *AR*, 1773, chaps. 2-3.

إن ألكسي أورلوف أرسله لنجدته. وكان البريطانيون هم الذين تحدثوا عن هذا الفصيل «الروسي»: «كان في عداد هذا الفصيل السيِّئ الحظ نحو 400 روسي ويوناني وألباني، عملوا منفردين، مدعومين ببطارية مدفعية تضمُّ عشرين مدفعًا. <...> صمدوا ببسالة وقُتلوا عن بكرة أبيهم. <...> في غضون ذلك، ظهرت سفن روسية قبالة الشواطئ المصرية، لكنها اختفت عندما علمت بتحوُّل الأوضاع المشؤوم»[153].

بدلت أحداث عام 1773 كليًّا لهجة الأخبار عن الأعمال القتالية في حوض البحر المتوسِّط. فالحرب في القسم الشرقي من هذه المنطقة، صارت أكثر فأكثر تثير انزعاج القارئ الأوروبي، الذي انتظر إبرام الصلح طويلًا. وإذا كانت الرسائل الواردة من مصر في بداية أعمال علي بك الناجحة تثير تعاطف الأوروبيِّين معه عمومًا، إلا أن رسائل التجار المسيحيِّين من مدن سوريا وفلسطين ومصر، التي اجتاحتها الحرب والاضطرابات، بدأت *Gazette d'Amsterdam* **(صحيفة أمستردام)** في عام 1773 بنشرها، وقد حفلت بالأوصاف الإيجابية للمدافعين عن يافا في وجه علي بك، وبالشكاوى من «تراجع التجارة، والتأكيد على أن أهل جدة يخافون علي بك، وأن شريف مكة قد مات، ويمكن أن تعم الاضطرابات الجزيرة العربية...». وتشير الرسائل إلى «أن الحرب التي عانت سوريا منها طويلًا، تجتاح مصر اليوم»[154]. ولم تُخفِ الصحافة البريطانية انزعاجها أيضًا، غير أنها اعترفت أن مصالح بريطانيا، خلافًا للمصالح الفرنسية، لم تتضرر كثيرًا، ولكن «التجارة المشرقية انتكست نهائيًّا، وليس معروفًا من الذي تضرر أكثر من هذه الحرب اللصوصية: أهي الدول التجارية الأوروبية أم تركيا؟ من الواضح أن تلك الدول التي تتمتع بالامتيازات أكثر من غيرها، كانت الأكثر تضرُّرًا من تداعيات الحرب، ويقال إن تجار مرسيليا وبعض التجار الآخرين... أصيبوا بالإفلاس بصورة نهائية... والخسائر الفادحة التي تكبدتها الدول التجارية الأساسية تركت آثارها على أوروبا برُمتها، وسببت ركودًا شاملًا في التسليف التجاري...»[155].

---

(153) AR, 1773, p. 26.
لا تؤكد المصادر الروسية هذا النبأ.

(154) ثم تتحدث الرسائل عن هزيمة علي بك: *G. d'A.*, 1773, no. 53, 2. VII.

(155) *AR*, 1773, p. 22.

هكذا، شهد موقف الصحافة من الإمبراطورية العثمانية تحوُّلات ملحوظة خلال الفترة بين عامي 1768 و1774. ففي بداية الحرب، كانت الإمبراطورية تُقدم في الأغلب بوصفها «عملاقًا مريضًا»، يتعامل بقسوة وحشية مع الشعوب الخاضعة له، ولا سيما المسيحية. وسادت في الصحف الروسية طيلة سنوات الحرب الفكرة التي تقول بعزلة الباب العالي الخانقة. وفي المقابل، أدرجت هذه الصحف أعمال روسيا في سياق الصورة العامة التي تعكس نضال الشعوب العديدة ضد الباب العالي. وعلى هذا النحو، ظهرت روسيا بوصفها حليفًا قويًّا للمقاتلين في سبيل «قضية» الدول «العادلة». وكانت حيثيات هذه «القضية العادلة» تتبدل تبعًا للظروف، فتأخذ طابعًا دينيًّا (في حالة الشعوب السلافية - الصرب، أهل الجبل الأسود على سبيل المثال - واليونانيِّين والجورجيِّين والأرمن)، أو سياسيًّا (نضال المصريِّين والسوريِّين ضد «النِّير» التركي)، أو تاريخيًّا - رساليًا (سعي اليونانيِّين إلى استعادة «حُرِّيتهم التليدة»).

مع وصول الحرب إلى منتصفها، برز افتراق متزايد بين الموقفين الروسي والأوروبي الغربي. فأوروبا التي أنهكتها الحرب والاضطرابات في التجارة المشرقية، لم تعد تأبه لأيِّ ذرائع، مهما بدت جدية. فابتداءً من عامي 1772 و1773 تقريبًا، بدت مسألة اتفاقية السلام التي تضع حدًّا لطموحات روسيا، من أجل «حفظ ماء» وجه الباب العالي العثماني، هي الحجة الوحيدة الجذابة فعلًا، من بين الحجج التي بدا الرأي العامُّ مستعدًّا لتقبُّلها حينذاك.

## موقف الصحافة من السلام وأهمية الحرب

هكذا، فإن الحرب التي أثارت الاهتمام والحماسة، فضلًا عن القلق في أوروبا، في البداية، باتت مدعاةً لعدم الارتياح أكثر فأكثر، فتراجعت أخبارها في الصحافة الأوروبية إلى المقام الثاني تدريجًا[156]. فترددت الأحاديث في العديد من المطبوعات عن حاجة كلٍ من روسيا وتركيا إلى السلام. ونشرت الصحف كلَّ المعلومات عن مفاوضات فوكشاني وبوخارست، وعن تحرُّكات

(156) يظهر ذلك جليًا عند المقارنة، مثلًا، بين حجم الأخبار في *Annual Register* (السجل السنوي) في الفترتين 1769-1770 و1771-1774.

الرسل الرُّوس والأتراك، التي كان من شأنها أن توضح بشكل أو بآخر آفاق معاهدة السلام العتيدة. ولم تكتف الصحف في صيف عام 1774 بنشر الأخبار عن معاهدة الصلح بإسهاب مفرط وحسب، بل نشرت أيضًا نص معاهدة كوتشوك - كاينارجي كاملًا[157].

عند إعداد التقرير السنوي لعام 1774، أولت دورية *Annual Register* (السجل السنوي) اهتمامًا خاصًّا باحتفاء الرُّوس الواسع بعقد معاهدة الصلح قائلةً: «لا شيءَ يضاهي الفرح والابتهاج اللذين عما سان بطرسبورغ عند وصول النبأ الذي يؤكِّد إبرام الصلح. فأمرت الإمبراطورة بإقامة الاحتفالات ثمانية أيام، ووُزِّعت الميداليات، كالمعتاد بروحية هذا البلاط الباذخ، وأُتيحت حتى لأكثر أفراد المجتمع بؤسًا فرصة المشاركة في الابتهاج الشعبي، ففُتحت أبواب السجون لكلٍّ من لم يكن محكومًا بجرائم خطيرة. وتذكروا في هذه الأيام البهيجة حتى أولئك البؤساء المنسيِّين في مجاهل سيبيريا المتجمِّدة، فصدر أمرٌ يقضي <...> بإطلاق سراح جميع المنفيِّين منذ عام 1746»[158]. وقارنت النشرة البريطانية بشيءٍ من التهكُّم بين احتفالات موسكو وبين ذاك «المشهد الذي لا نظير له» في تساريغراد: «قدم إبرام السلام لسكان القسطنطينية مشهدًا لم يسمعوا به ولم يشاهدوه من قبل. فعبرت الفرقاطات الحربية الروسية الدردنيل، وألقت مراسيها في الخليج. ووصلت سفن تجارية روسية محملة بالبضائع من موانئ البحر الأسود إلى هذه العاصمة»[159].

نجحت الصحف في روسيا وخارجها، في رأينا، في تقديم صورة كاملة للقارئ المهتمّ عن الأعمال القتالية والسياسية، التي رافقت حملة الأسطول الروسي في البحر المتوسِّط، وذلك من خلال الأخبار الجارية القصيرة والتقارير التحليلية أثناء الفترة الواقعة بين عامي 1768 و1774. وقد أثبتت توصيفات الأحداث وتقويماتها، التي نشرتها الصحف في سنوات الحرب، جدارتها إلى حدٍّ بعيد.

---

(157) يُنظر، على سبيل المثال: G. d'A., 1774, no. 53, 65, 66.

(158) AR, 1774, p. 8.

(159) AR, 1774, pp. 9-10.

شكلت هذه الكتابات الصحافية، مع مذكرات شهودٍ عيانٍ أضيفت إليها في ما بعد، تقويم حملة الأرخبيل التاريخي وأهميتها في تاريخ روسيا ومنطقة شرق البحر المتوسِّط، وذلك قبل نشر الوثائق الأرشيفية بزمنٍ بعيد. ففي مطلع القرن التاسع عشر، كتب غ. س. فينسكي في معرض تقويمه لتداعيات حملة الأرخبيل: «اعتاشت إيطاليا المُستعبَدة على آثارها وأصنامها القديمة ولوحاتها ومُغنِّيها وموسيقيِّيها، لكن من دون أن يكون لها أيُّ وزن. <...> واستلقت تركيا المهزومة المُهانة على يد روسيا، تأخذ قسطًا من الراحة على الأريكة؛ استلقت مستسلمة لقدرها المحتوم، لا ترى ولا تريد أن ترى ما تُحضِّره لها جارتها. أما اليونانيُّون التعساء، الذين حرضتهم روسيا على هذه الحرب ثم تخلت عنهم، فقد ذاقوا بمفردهم كل آلام انتقام معذِّبيهم القساة...»، وعلى الرغم من ذلك «ظهرت روسيا في مظهر محترم»[160]. وكانت الصحافة البريطانية قد كتبت شيئًا مماثلًا في عام 1774: «هكذا انتهت الحرب بين هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين، التي ارتقت فيها إحداهما إلى ذروة المجد، وانحدرت الأخرى إلى أسوأ حالٍ وهوان، وإنْ من دون خسائر كبيرة في الأراضي». بيد أن افتراض الصحافي أن هذه الحرب ستكون الأخيرة بالنسبة إلى روسيا وتركيا لم يكن صائبًا: «من المرجح أن تكون هذه الحرب الأخيرة بينهما لسنوات طويلة... ومن المحتمل جدًّا أن تظهر مصالح جديدة وتتشكل علاقات جديدة لدى جيرانهما، الذين سيرسمون سياسة جيِّدة لكلتا الإمبراطوريتين، فتنسيان العداوات السابقة وتعملان سوية في سبيل القضية الواحدة»[161]. وبعد ثلاث عشرة سنة، ستعاود الصحافة الكتابة عن الحرب الروسيَّة - التركيَّة الجديدة.

---

(160) Г. С. Винский, «Мое время. Записки,» in: *Екатерина II. Фасад и задворки империи* (M., 2007), c. 33-35.

[غ. س. فينسكي، «زمني. مذكرات»، في: **كاترينا الثانية: واجهة الإمبراطورية وفناؤها الخلفي** (موسكو، 2007)، ص 33-35].

(161) *AR*, 1774, p. 10.

# خاتمة

في احتفال النصر على الأتراك في عام 1775، ألقى المتروبوليت بلاتون (ليفشين) الكلمات الآتية:

«لمع سيف الرُّوس في البلدان النَّائية فجأة. وبدأ جيشنا يطأ بأقدام جنوده المظفَّرين، تلك الأماكن التي كانوا في السابق يدلُّون عليها الفتية الصغار في المدارس على الخرائط فحسب».

«على غفلةٍ، غطَّت الجيوش الروسيَّة الشُّجاعة أراضي فالاشيا ومولدافيا وبيسَّارابيا وبلغاريا وخيرسون وكوبان وشيركيسيا وكولخيدا وموريا ونيغرامونت (الجبل الأسود) وشواطئ الأرخبيل، كما غطَّت السواحل السوريَّة والمصريَّة أيضًا. لقد حملت معها الرعب والرحمة أينما حلَّت: الرعب للمقاومين، والرحمة للمهزومين»[1].

بالفعل، أصبح الحضور في حوض البحر المتوسِّط منذ عام 1769 دليلًا مهمًّا على انخراط الإمبراطوريَّة الروسيَّة «في محفل» الدول العظمى، وأتاح لها، ليس «وطْء» الأراضي التي كانت مهدًا للحضارة الأوروبيَّة بـ «أقدامها

(1) Платон (Левшин), Слово на торжество славного мира, празднованнаго 1775 года иулия 10 дня (Успенский собор в Кремле), in: *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном* (М., 1780), t. 3, c. 76.

[بلاتون (ليفشين)، كلمة ألقيت في الاحتفال لمناسبة السلام المجيد في العاشر من تموز/يوليو 1775 (كاتدرائية أوسبينسكي في الكرملين)، في: **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسييفنا من العام 1763 وحتى عام 1780** (موسكو، 1780)، مج 3، ص 76].

المظفَّرة» فحسب، بل المشاركة أيضًا لفترة طويلة في الحفاظ على ميزان القوى السياسيَّة والعسكريَّة في هذه المنطقة بالغة الأهمِّية، التي شكَّلت مركزًا تتقاطع فيه المواصلات الأوروبيَّة - الآسيوية - الأفريقيَّة، وساحةً للمنافسة الإنكليزيَّة - الفرنسيَّة. ودفع التوجُّه الجديد في السياسة الخارجيَّة روسيا إلى تطوير دبلوماسيَّتها، وإقامة العلاقات الدبلوماسيَّة مع البلاطات الحاكمة في دول حوض المتوسِّط، ومع قيادة محفل فرسان مالطا، وإلى إنشاء شبكة قنصليَّة واسعة. وفي ما بعد، عُلِّل التوجُّه المتوسِّطي لمصالح روسيا الجيوسياسيَّة بإصرارٍ متزايد، ومن هنا استمدَّ **استمراريَّته التاريخيَّة** (وعلى وجه التحديد، في إطار التحالف المُعادي لنابوليون في عهد بافل الأول، والتعاون الإنكليزي - الفرنسي - الروسي والأعمال العسكريَّة - السياسيَّة الرامية إلى إقامة اليونان المستقل في ثلاثينيَّات القرن التاسع عشر وغيرها. وكانت خطوات التعاون العسكري - السياسي، الروسي - العربي في عهد كاترينا الثانية، إلى حدٍّ ما، اللبنة الأولى في العلاقات العسكريَّة - السياسيَّة، السوفياتيَّة - العربيَّة في العصر الحديث).

في معرض البحث عن دعائم لخططها، استخدمت كاترينا الثانية مختلف أشكال التعاون مع شعوب حوض البحر المتوسِّط؛ فاختير اليونانيُّون والبلقانيُّون للخدمة الروسيَّة على نطاقٍ واسع، حيث شارك هؤلاء في العمليَّات العسكريَّة البحريَّة المشتركة، وشكَّلوا شبكةً واسعةً من العملاء الرسميِّين (القناصل) والسرِّيين. وأسهمت هجرة اليونانيِّين الواسعة إلى روسيا، عقب الحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774) في استيطان مناطقها الجنوبيَّة وإعمارها ثقافيًّا واقتصاديًّا. وقد حصل ذلك كلُّه في سياق العمل على تحقيق «مشروع» الإمبراطورة «اليوناني»، الذي تبلورت معالمه في سنوات الحرب. ولم تتوانَ الإمبراطورة الروسيَّة أيضًا عن دعم حركات المتمرِّدين في كورسيكا ومصر وسوريا عسكريًّا.

عوَّلت كاترينا الثانية ومساعدوها المقرَّبون، عند صوغ التسويغ العقائدي لسياستها المتوسِّطية، على **الرأي العام** في الدول الأوروبيَّة، وعلى تلك الأوساط التي استُخدمت في تحقيق هذه السياسة. واكتسب التوجُّه إلى الرأي

العامّ الروسي، الذي كان في طور التشكُّل، أهمِّية مماثلة. وأُخِذَت التصوُّرات الواقعيَّة والميثولوجيَّة السائدة لدى مختلف الشرائح الاجتماعيَّة في الحسبان في كل الأحوال. وهذا ما يُفسِّر الاختلافات في التسويغات العقائديَّة للخطوات السياسيَّة، وفي الخطاب المُستخدَم، وفي أساليب صوغ الوثائق الرسميَّة والخاصَّة، ذات الصلة بالنَّهج المتبع في السياسة المتوسِّطيَّة. فقد اقترن اللجوء إلى فكرة إنشاء «جمهوريَّة الدول المسيحيَّة» بغية طرد المسلمين من أوروبا، بالاعتراف بوحدة الجنس البشري وخطيئة سفك دمه؛ وتجاورت الدعوات إلى النضال من أجل «الحُرِّية المدنيَّة»، مع استخدام صُوَر الحضارة الكلاسيكيَّة القديمة ومُثُلها. وتعايشت لغة عصر التنوير مع الخطاب السياسيِّ - الدينيِّ واستخدام الميثولوجيا الإغريقيَّة القديمة على نطاقٍ واسع. وقد مارست اللهجة الرسميَّة التي وصلت إلى الرُّوس عبر البيانات والعظات والأخبار الصِّحافيَّة، وكذلك الاحتفالات الرسميَّة بمناسبات انتصارات الأسطول الروسي، وإصدارات الكتب المتزايدة عن منطقة البحر المتوسِّط وترجمات التراث الكلاسيكي القديم... كلُّ ذلك مارس تأثيره في وعي المجتمع. وفي المحصِّلة، تزايد في روسيا الجدل حول دورها الرساليِّ في الدفاع عن العالم المسيحيِّ، في مواجهة خطر أصحاب الدين الآخر.

تُقدِّم دراسة سياق السياسة المتوسِّطيَّة الثقافي الفرصة لتحليل عمليَّة تكوُّن ظاهرة تقديس الإمبراطوريَّة وعقيدة الحكم المطلق المستنير. وأدَّت حرب الأعوام 1768-1774 دورًا هائلًا في تاريخ حكم كاترينا الثانية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكرِّر الإمبراطورة لمبعوثيها مرارًا الفكرة القائلة إن أعداءها قدَّموا إليها خدمةً عندما ورَّطوا تركيا في الحرب ضد روسيا. فبعدما أنجزت كاترينا المهمَّات المطروحة أمام روسيا منذ أيام بطرس الأول ببراعة، اكتسبت مكانتها المنشودة بوصفها وريثة بطرس، وعزَّزت شرعيَّة اعتلائها العرش. وقد كتب مايكوف في حينه: «كم هي محظوظة روسيا... فبطرس كان والدها، وكاترينا اليومَ أمَّها».

لم تجلب الحرب المجد للإمبراطورة وحدها، بل لـ «نسورها» أيضًا.. لكوكبةٍ كاملةٍ من القادة العسكريِّين والملاحين ورجال الدولة. واضطلعت

بالدور الأهم في حملة الأرخبيل، من دون شكٍّ، مواهبُ رجلين مختلفين كليًّا هما: أ. غ. أورلوف وغ. أ. سبيريدوف، اللذان تمكَّنا من تبادل الدعم وإكمال أحدهما الآخر ببراعة.

كان من الصعب، على ما يبدو، إيجاد شخص أفضل من ألكسي أورلوف، العملي، الشجاع، الذكي، لتحقيق خطط كاترينا. ولم تكن تنقصه سوى خبرة قيادة الأسطول التي كانت متوفِّرة لدى غ. أ. سبيريدوف. فخلال الفترة 1770-1775 أصبح الكونت ألكسي أورلوف، «الجنرال المفوَّض باسم صاحبة الجلالة الإمبراطورية كاترينا الثانية، إمبراطوريَّة كل الروسيا، قائد الأرخبيل وغيرها وغيرها وغيرها»، بمثابة الرَّمز المُجسِّد لروسيا في حوض البحر المتوسِّط. وكان نشاطه متنوِّعًا، حيث شمل التحضير للانتفاضة اليونانيَّة وللأعمال المشتركة بين الأسطول وبين الثوار، وقيادة حملة الأرخبيل العليا برُمَّتها، وقيادة عدد من المعارك وتنظيم عمليَّة إمداد الحملة، وإقامة الاتِّصالات السياسيَّة والدبلوماسيَّة مع دول إيطاليا، وإنشاء مدارس لـ «الأطفال اليونانيِّين»، وتنظيم شبكة عملاء روسيا في مختلف أنحاء منطقة البحر المتوسِّط. وأقام أ. غ. أورلوف علاقات عسكريَّة - سياسيَّة مع الحكَّام العرب، المسلمين بالدرجة الأولى، في كلٍّ من مصر وفلسطين وجبل لبنان، وأجرى مفاوضات ودِّية مع باي طرابلس. بيد أنَّ كلَّ مبادرات أورلوف ما كانت لتتحقَّق لولا العمل الدؤوب والخلاق الذي اضطلع به غ. أ. سبيريدوف حيث شمل اهتمامه القاعدة الحربيَّة في باروس و«كيان جزر الأرخبيل السياسي» التي أقسمت يمين الولاء لروسيا والمدرسة وإيصال «الرخام» اليوناني إلى روسيا، وكذلك دعم العمليَّات عند شواطئ سوريا. لقد وقع على عاتق ألكسي أورلوف وشقيقه فيودور وغ. أ. سبيريدوف وأ. ف. يلمانوف وس. ك. غريغ والعديد من الضبَّاط الآخرين، من دون شك، عملٌ لا مثيل له لفرض الحضور السياسي والعسكري الروسي في المنطقة وتعزيزه، وقد تخلَّلت هذا العمل هفوات وهزائم، وحُقِّقت أيضًا نجاحاتٌ جدِّية.

ومن الصعب التقليل أيضًا من دور أ. غ. أورلوف في إقامة أقنية الاتِّصال الإعلامي بين بطرسبورغ وبين إيطاليا. وقد حظي بدعمٍ راسخٍ من إ. إ. شوفالوف

في هذا المجال. فتمكَّن أورلوف من إقامة علاقاتٍ ودِّية مع أرشيدوق توسكانة وزوجته، ومع الدبلوماسيِّين البريطانيِّين في فلورنسا وليفورنو، وعِليَة القوم في مدينتي ليفورنو وبيزا، وتعلَّم ممارسة التأثير في الفضاء الإعلامي في إيطاليا وأوروبا، بإقامة علاقات مع محرِّري الصحف الأوروبيَّة ذات النفوذ. وأدهش الأخوان أورلوف أوروبا ببذخهما وسخائهما أثناء الاحتفالات بالأعياد الروسيَّة التي كانا ينظِّمانها في ليفورنو وبيزا. وكان لدى إ. إ. شوفالوف دور آخر. ولكنَّه اضطلع هو أيضًا، من دون شكٍّ، بمهمَّات سرِّية كلَّفته بها الإمبراطورة، وكان مُرحَّبًا به في أوساط علية القوم في روما وفلورنسا ونابولي. وبرزت بصورة واضحة الصلة المباشرة بين تنقُّلات كلٍّ من أورلوف وشوفالوف في إيطاليا إبان حملة الأرخبيل. فغالبًا ما كان شوفالوف إلى جانب أورلوف في تلك الفترة، مضفيًا الأناقة و«الثقافة» والألَق على محيطه.

تمثَّلت نتيجة حملة الأرخبيل المهمَّة في أنَّ شرق البحر المتوسط لم يعد بالنسبة إلى الرعايا الرُّوس مجرَّد مركزٍ لاجتذاب الحجَّاج الأرثوذكس القليلي العدد، أو مكانًا لأرض **الإلياذة** و**الأوديسة** شبه الأسطورية. فقد اكتسب معالم جغرافية ملموسة، وامتلأت أرضه بأناسٍ حقيقيِّين - من يونانيِّين وأتراكٍ وعربٍ - يمكن إقامة علاقات براغماتيَّة معهم. وخلال أربع سنوات من وجودها، أكَّدت إمارة الأرخبيل إمكانيَّة إقامة مثل هذه العلاقات، بهذا القدر أو ذاك من النجاح.

بدا كأنَّ أوهامًا كثيرة انهارت، فتبيَّن أنَّ اليونانيِّين بعيدون كلَّ البعد عن أولئك «الإسبارطيِّين، حاملي الصليب الأرثوذكسي» المُتخَيَّلين، وكفَّ تحريرهم عن أن يبدو حقيقة قريبة؛ بل إنَّ ما أصبح أكثر وهمًا هو الاستيلاء على القسطنطينيَّة.

لكن، كما اتَّضح، كان أصحاب القرار في بطرسبورغ يفكِّرون على نحوٍ مُغاير. فكان «مشروع» كاترينا «اليوناني» لعام 1782، وإعداد عمائر بحريَّة جديدة في عام 1786، بمثابة الاستمرار المجيد لحملة الأرخبيل الأولى.



# موضوعات ذات صلة

## الموضوع الأول

# رموزُ حوض البحر المتوسِّط
# وحقائقُه في الوعي الثقافي الرُّوسي
# (القرن الحادي عشر - أواسط القرن الثامن عشر)

**إ. م. سميليانسكايا**

مدينةُ أورشليم أمُّ المدن.
ولِمَ ذلك؟
لأنها تنتصب وسط البلاد،
ووسط العالم؛
لأن مدينة أورشليم،
تحتضن ضريحًا من الحجر الأبيض؛
لأن في ذاك الضريح الحجري الأبيض
يرقد رداء المسيح نفسه...

**قصيدة عن كتاب الحكمة**[1]

---

(1) **كتاب الحكمة**، أو **كتاب الحمام**: ديوان من الأدب الفولكلوري الروسي القديم يتضمن أشعارًا روحية شعبية سلافية-شرقية كُتبت باللغة الروسية القديمة، ظهر في نهاية القرن الخامس عشر - بداية القرن السادس عشر، بشكل أسئلة وأجوبة عن ظهور الكون والخليقة والأقوام والشعوب، وعن الظواهر الطبيعية، فضلًا عن معلومات جغرافية وغير ذلك. ولتسمية الكتاب قصة منفصلة؛ فالترجمة الحرفية عن الروسية هي «كتاب الحمام»، ولكنْ ليس للحمامِ دورٌ في ذلك. فثمة تشابه في اللغة الروسية بين كلمة «غلوبينا»، وتعني «العمق»، وتُفهم أيضًا بمعنى «الحكمة»، وبين كلمة «غولوب»، وتعني =

تتبدل ذاكرة الشعب الثقافية على امتداد كينونته التاريخية. وتتكون طبقات هذه الذاكرة في مختلف حقبات تاريخ الجماعة الإثنية، تحت تأثير الأحداث السياسية والاجتماعية والطبيعية والثقافية، وتترسخ في اللغة والفولكلور والكتابة. كما تتشرب الأيديولوجيا الرسمية أيضًا بالنماذج النمطية العائدة للرؤية التاريخية إلى العالم، فلا تكون قادرة على التأثير في وعي المعاصرين إلا من خلال الاستعانة بالذاكرة التاريخية.

توج حضور الإمبراطورية الروسية العسكري - السياسي في حوض شرق البحر المتوسِّط، منذ أواخر ستينيات القرن الثامن عشر، عملية طويلة امتدت على مدى قرون من استكشاف هذه المنطقة **دينيًّا وثقافيًّا**.

تجدر الإشارة إلى أن حوض شرق البحر المتوسِّط اندمج في حياة روسيا الثقافية قبل حوضه الغربي بفترةٍ طويلة. فبعد انقسام الكنيسة، صار حوض البحر المتوسِّط الغربي يقترن[2] «بلاتينية» روما المرذولة حتى نهاية القرن السابع عشر، ونادرًا ما كان الأرثوذكس الرُّوس يوجدون هنا، باستثناء العبيد المحررين من نير العثمانيِّين. يختلف الأمر في ما يعني أراضي الإمبراطورية البيزنطية - في ما بعد الدولة العثمانية - التي امتزجت في صورتها الانطباعاتُ والمعارفُ المتولِّدة من زيارات أجيال كثيرة من رجال الدين وممثِّلي السفارات والحجاج الرحالة والتجار والأسرى والعسكريِّين.

استُخدِمت في خطاب كاترينا الثانية السياسي - مع الحلقة اللصيقة بها - شتى أنواع الأفكار النمطية الكامنة في الذاكرة التاريخية الروسية في فهم حوض البحر المتوسِّط[3] بمهارة، وهو خطاب رافق الحرب الروسية - التركية وحملة

---

= «الحمام». فحُرِّفت الكلمة في التداول الشعبي، وصار الكتاب يُعرف بـ «كتاب الحمام»، في حين أن المقصود هو «كتاب الحكمة». وثمة تفسير آخر للازدواجية في العنوان ساد بين المؤمنين، يقول إن الكتاب موحى به من الروح القدس، الذي اعتُبِرَ الحمام الأبيض دائمًا رمزًا له، ولذا يصح أيضًا العنوان الثاني: **كتاب الحمام**. (المترجم)

(2) في الوعي الروسي. (المترجم)

(3) تناول المؤرِّخون الرُّوس في القرن التاسع عشر المسائل المطروحة في سياق دراسة تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الرُّوسية. يُنظر على سبيل المثال، الطبعة الحديثة لمؤلف ماكاري (بولغاكوف، =

أسطول البلطيق في الأرخبيل. سيتناول هذا الفصل هذه الأفكار النمطية، أو بصورة أدق، الكيفية التي كان مواطن روسيا يتصور بها المدى المتوسِّطي، وكذلك تلك المعلومات التي كانت تسترعي اهتمامه، وما الذي كان يتوقعه

---

= مطران موسكو وكولومينسك)، تاريخ الكنيسة الروسية، الكتب I–VII (موسكو، 1994–1996)؛ ويُنظر كذلك: А. П. Лебедев, *История греко-восточной церкви под властью турок* (СПб., 1904).

[أ. ب. ليبيديف، **تاريخ الكنيسة اليونانية – الشرقية تحت حكم الأتراك** (سان بطرسبورغ، 1904)].

وفي إطار دراسة العلاقات المتبادلة بين روسيا والبطريركيات الشرقية: Н. Ф. Каптерев, *Характер отношений России к православному Востоку в XVI и XVII столетиях*, Изд. 2 (Сергиев Посад, 1914).

[ن. ف. كابتيريف، **طابع علاقات روسيا بالشرق الأرثوذكسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، ط 2 (سيرغييف بوساد، 1914)].

ويُنظر أيضًا لدى معالجة المسألة الشرقية: С. Жигарев, *Русская политика в восточном вопросе (Ее история в XVI-XIX веках, критическая оценка и будущие задачи): Историко-юридические очерки* (М.: Унив. тип., 1896), t. 1-2.

[س. جيغاريف، **السياسة الروسية في المسألة الشرقية (تاريخها خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، مقاربة نقدية ومهام مستقبلية): دراسات تاريخية – قانونية** (موسكو: المطبعة الجامعية، 1896)، مج 1–2].

كانت هذه المسائل موضع اهتمام المؤرِّخين الرُّوس المعاصرين في العقدين الأخيرين أيضًا، وذلك في معرض تناولهم تاريخ الشرق الأوسط في روسيا بالدراسة: Б. М. Данциг, *Ближний Восток в русской науке и литературе* (М., 1973).

[ب. م. دانتسيغ، **الشرق الأوسط في العلم والأدب الروسيين** (موسكو، 1973)].

ويُنظر كذلك في سياق دراسة مفهوم «روما الثالثة»: Н. В. Синицина, *Третий Рим, Истоки и эволюция средневековой концепции, XV- XVI вв.* (М., 1998).

[ن. ف. سينيتسينا، **روما الثالثة، نشوء نظرية القرون الوسطى وتطورها، القرنان الخامس عشر والسادس عشر** (موسكو، 1998)].

وتحليل مختلف جوانب تشكُّل صورة القدس في الوعي الروسي: *Иерусалим в русской культуре*, Сост. А. Баталов & А. Лидов (М., 1994); *Новые Иерусалимы: Иеротопия и иконография*, Ред.-сост. А. М. Лидов (М.: Индрик, 2009), и др.

[**القدس في الثقافة الروسية**، إعداد أ. باتالوف وأ. ليدوف (موسكو، 1994)؛ **الأورشليمات الجديدة: الفضاء المقدس والأيقونوغرافيا**، إعداد وتحرير أ. م. ليدوف (موسكو: إندريك، 2009)، وغيرهم].

وعرض تاريخ المسيحية الشرقية: К. А. Панченко, *Османская империя и судьбы православия на Арабском Востоке (XVI - начало XIX века)* (М., 1998); М. И. Якушев, *Христианские субъекты Османской Империи- Антиохийский и Иерусалимские патриархаты- в политике Российской Империи: 30-е гг. XIX - начало XX в.: Автореферат диссертации на соискание ученой степени кандидата исторических наук* (М., 2009), и российскую церковную политику в Палестине: Н. Н. Лисовой, *Русское духовное и политическое присутствие в Святой Земле и на Ближнем XIX - начале XX в.* (М.: Индрик, 2006), и др. =

الأشخاص المشاركون في حملة الأرخبيل من مختلف الشرائح، وماذا كانت رؤيتهم في حوض البحر المتوسِّط خلال ستينيات القرن الثامن عشر وسبعينياته.

## الأراضي المقدسة في منطقة البحر المتوسِّط

مع بداية انتشار المسيحية في روسيا تعرف المؤمنون إلى أسماء الأماكن المقدسة المتصلة بتاريخ العهد القديم وبحياة المخلِّص على الأرض، وكذلك بمواعظ الرسل ومآثر النُّساك: فلسطين، مصر، سيناء، القسطنطينية، آثوس، روما، كورينث، باتموس، إيفيس. إلا أن هذه التسميات الجغرافية كانت بالنسبة إلى الأغلبية المطلقة من الأرثوذكس في روسيا القديمة ومملكة موسكو - حتى في الإمبراطورية الروسية - ذات مغزى ومعنى رمزيين بالدرجة الأولى.

كان التعرُّف الروحيُّ الرمزيُّ إلى الأرض المقدسة يجري مع تلاوة الصلوات وإدراك كنه رمزية المعبد، وكذلك من خلال القراءات والمواعظ الكنسية[4]. فقُدِّمت الأماكن المقدسة الواقعة في منطقة البحر المتوسِّط في

---

= [ك. أ. بانتشينكو، **الإمبراطورية العثمانية ومصائر الأرثوذكسية في الشرق العربي (القرن السادس عشر - بداية القرن التاسع عشر)** (موسكو، 1998)؛ م. إ. ياكوشيف، **العناصر المسيحية في الإمبراطورية العثمانية -بطريركيتا إنطاكية والقدس- في سياسة الإمبراطورية الروسية إبان ثلاثينيات القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين: موجز أطروحة مرشح في علوم التاريخ** (موسكو، 2009)، والسياسة الكنسية الروسية في فلسطين: ن. ن. ليسوفوي، **الحضور الروحيُّ والسياسيُّ الروسيُّ في الأراضي المقدسة والشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين** (موسكو: إندريك، 2006)، وغيرها].

[يُقصدُ باستخدام مصطلح «أورشليم» بصيغة الجمع («أورشليمات» و«أورشليمات جديدة») محاولة نقل صورة المدينة المقدسة والأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين إلى المؤمنين في بلدانهم، تلك التي عاش فيها السيد المسيح ومشى عليها وصُلِبَ فيها وفيها تحققت قيامته، من خلال إعادة بناء ما يشبه هذه الأماكن، وكذلك من خلال «التذكارات» التي كانت تُجلَبُ من فلسطين، ومن خلال «ذخائر» القدِّيسين والأواني والأدوات الطقسية وما شابهها، لتودع في الكنائس والأديرة ويتبرك بها المؤمنون أو ليُستخدم بعضها في الصلوات ...إلخ]. (المترجم)

(4) كما كتب أ. ل. باتالوف وأ. م. ليدوف، كانت الأرض المقدسة والقدس حاضرتين «في الوعي الأرثوذكسي بصورة يومية في جميع الشعائر الدينية على مدار اليوم. أما المعبد الذي تمحورت حوله حياة الجماعة الأرثوذكسية فكان على صورة جبل القدس. وكانت كلُّ رموز الشعيرة الدينية التي تجري فيها، ككلّ مُكوِّناتها والأدوات المقدسة المستخدمة فيها، تُماثِلُ نظيراتها المقدسية. وكانت كلُّ الكنائس الأرثوذكسية تتطلع رمزيًّا نحو معبد القبر المقدس [كنيسة القيامة (المترجم)] في القدس، الذي شُيِّد في المكان حيث صُلِبَ المخلِّص وشهد قيامته»: =

الفنون الكنسية (على مثال الصورة المُتكوِّنة المُفترَضة)، وتجسدت في الأدوات الطقسية ذات المغزى الرمزي (طاولة المذبح - القبر المقدس، الأواني القديمة، الأورشليمات[5]، الأضرحة والرسوم عليها، رسم كنيسة القيامة[6] وما شابهها). و«نَقَلت» ذخائر الحجاج والهدايا - «التذكارات» من البطاركة الشرقيِّين - المُرسلة إلى الكرسيِّ الملكيِّ والبطريركيِّ والكراسي الدينية الأخرى - الأرض المقدسة إلى روسيا على نحوٍ غيبي. وضمت هذه «التذكارات» أجزاءً من الذخائر المقدسة وحجارةً من الأماكن الأثرية، وكذلك «قياسات» القبر المقدس[7]. وأسهم انتشار الكتب المسيحية والأيقونوغرافيا والذخائر

---

= (أ. ل. باتالوف وأ. م. ليدوف، «المقدمة»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 3).

جدير بالذكر أنه ليست المعابد الأرثوذكسية وحدها تحوز مثل هذا المغزى الرمزي، بل الكنائس المسيحية الغربية كذلك. وقد كرس الباحث الأميركي ر. أوسترهوت كتابه لتحليل آثار الهندسة الكنسية في الغرب الروماني التي أنشأت معبد القبر المقدس: R. Ousterhout, «Loca Sancta and the Architectural Response to Pilgrimage,» in: R. Ousterhout (ed.), *The Blessings of Pilgrimage* (Urbana; Chicago, 1990).

(5) И. А. Стерлигова, «Иерусалимы как литургические сосуды в Древней Руси,» in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 46-62.

[إ. أ. ستيرليغوفا، «الأورشليمات كأواني ليتورغية في روسية القديمة»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 46-62].

(6) Л. А. Беляев, «Иерусалимские мотивы в надгробиях средневековой Москвы,» in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 148-153.

[ل. أ. بيليايف، «موضوعات مقدسية على أضرحة موسكو القروسطية»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 148-153].

(7) ورد ذكر مثل هذه التذكارات، على سبيل المثال، في شهادة بطريرك القدس غيرمان (1534-1579) في عام 1541، المرسلة مع التذكارات إلى المطران ماكاري. يُنظر: **Макарий (Веретенников), «Макарий (Веретенников), «архим. Грамота иерусалимского патриарха Германа новгородскому архиепископу Макарию,»** in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 205-211.

[ماكاري (فيرتينيكوف)، «الأرشمندريت، شهادة بطريرك القدس غيرمان إلى مطران نوفغورود ماكاري»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 205-211].

وعند بناء دير كريوسني أمر البطريرك نيكون بإقامة صليب من خشب السرو فيه، «يعادل من حيث طولُهُ وعرضُهُ صليب المسيح، وزَخرَفَهُ بالفضة والذهب والأحجار الكريمة، ووضع فيه 300 قطعة من ذخائر العديد من الشهداء القدِّيسين ودمائهم وأجزاءً من الأحجار الفلسطينية المقدسة» (وهذه الأشياء كلُّها عبارة عن «تذكارات»)، وأعلن في الشهادة المرفقة: «إن من يأتي مؤمنًا للسجود أمام صليب القيامة هذا تنزلُ عليه بركةٌ مماثلةٌ لبركة صليب القيامة المقدس ذاك التي تنزل على حجاج الأماكن الفلسطينية المقدسة»: Каптерев, с. 62.

= [كابتيريف، ص 62].

أيضًا في تَشَكُّل التصوُّرات في الوعي التاريخيِّ الروسيِّ عن انتماء روسيا إلى ذاك العالم الذي تُمثِّل القدس مركزه المقدس[8].

انعكست تجارب فهم الأرض المقدسة أيضًا على استعادة رموز القدس في تصاميم كييف القديمة[9] وكاشين الصغيرة[10] وغيرهما من

---

= يُنظر أيضًا: Восточнохристианские реликвии: Сб. Статей, Ред.-сост. А. М. Лидов (М., 2003); Тысяча лет русского паломничества: Каталог выставки, Сост. и науч. ред. Е. М. Юхименко (М., 2009).

[الذخائر المسيحية الشرقية: مجموع مقالات، إعداد وتحرير أ. م. ليدوف (موسكو، 2003)؛ ألف عام على الحج الروسي: كاتالوغ المعرض، إعداد وتحرير علمي أ. م. يوخيمنكو (موسكو، 2009)].

(8) ذكر القمْص دانيال في حينه أن «خلف المذبح، خلف الجدران، في كنيسة قيامة الرب يقع محور الأرض، وقد شيدَت فوقه قُبة وفي الأعلى فسيفساء تُصوِّر المسيح، وكتابة تقول: «من هذه النقطة تقاس السماء والأرض». وبالتالي، إنما يعني «محور الأرض» مركزَ الكون (السماء والأرض): «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» in: *Книга хожений. Записки русских путешественников XI-XV вв.*, Сост., подг. текста, пер., вступл. и комм. Н. И. Прокофьева (М., 1984), с. 34.

[«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، في: **كتاب الرحلات: مذكرات الرحالة الرُّوس في القرون الحادي عشر - الخامس عشر**، إعداد وتحقيق وترجمة وتقديم وتعليق ن. إ. بروكوفييف (موسكو، 1984)، ص 34].

[**القمْص**: أصل الكلمة في اليونانية «إيغومونوس» وتعني «المسؤول» أو «القائد»، وهو لقب ديني كان يحمله في الأساس رئيس الدير في الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الشرقية، ويعادل منصب رئيس الدير (abbot) في الكنيسة الغربية]. (المترجم)

(9) И. Н. Данилевский, *Повесть временных лет: Герменевтические основы изучения летописных текстов* (М., 2004), с. 194-206; О. В. Белова & В. Я. Петрухин, «Святые горы, Киев и Иерусалим в славянской мифопоэтической традиции,» in: *Новые Иерусалимы*, с. 445-457.

[إ. ن. دانيليفسكي، **قصة السنوات العابرة: الأسس التأويلية (الهيرمنوطيقية) لدراسات نصوص المدونات التأريخية** (موسكو، 2004)، ص 194-206؛ أ. ف. بيلوف وف. ي. بيتروخين، «الجبال المقدسة، كييف والقدس في التقاليد الشعرية الأسطورية السلافية»، في: **الأورشليمات الجديدة**، ص 445-457].

(10) يُنظر: Е. М. Сморгунова, «Город Кашин - земной образ Небесного Иерусалима, или «Богословие в камне»,» in: *Русская провинция: миф-текст-реальность*, Сост. А. Ф. Белоусов и Т. В. Цивьян (М.; СПб., 2000), с. 368-384.

[ي. م. سمورغونوف، «مدينة كاشين، الصورة الأرضية للقدس السماوية، أو «علم اللاهوت في الحجر»»، في: **الريف الروسي: الأسطورة - النص - الواقع**، إعداد أ. ف. بيلوأوسوف وت. ف. تسيفيان (موسكو؛ سان بطرسبورغ، 2000)، ص 368-384].

المدن[11]. وثمة أمثلةٌ كثيرةٌ على «نقل» المقدسات الفلسطينية إلى الأرض الروُّسية: إقامة موضع الجمجمة[12] في موسكو (على غرار «محور الأرض» الواقع في درب الجلجلة)، وخطة بوريس غودنوف لبناء كنيسة قُدْسِ الأقداس في كرملين موسكو[13]، وما شابه. وتجدر الإشارة أيضًا إلى تجربة البطريرك نيكون الذي استعاد طوبوغرافية القدس وضواحيها على ضفاف نهر إيسترا، في ضاحية موسكو بالقرب من دير القدس الجديدة، وأطلق عليها اسم الأردن[14].

اكتمل الإدراك الرمزيُّ الخاصّ بطوبوغرافية حوض البحر المتوسِّط المقدسة منذ القدم أيضًا في انطباعات شهود العيان من زوار الأماكن التي يعرفونها من النصوص المقدسة، وتوصيفاته لها.

يُعتبر أدب رحلات الحجِّ من روسيا إلى حوض البحر المتوسِّط

---

(11) يُنظر: *Новые Иерусалимы.*

[الأورشليمات الجديدة].

(12) **موضع الجمجمة** («لُوبنُوِيي مييسْتَو» (Лобное место) بالروسية): منصة في الساحة الحمراء في موسكو على مقربة من كاتدرائية القدِّيس باسيل، تبلغ مساحتها 13 مترًا مربعًا، يُعتقد أنها بُنِيَت في القرن السادس عشر، وظلت حتى عام 1917 تُستخدَمُ لتنظيم مسارات الصليب في الأعياد الأرثوذكسية، وكذلك لإعلان الأوامر القيصرية. يُستخدَمُ المصطلحُ الروسيُّ «لُوبنُوِيي مييسْتَو» ترجمةً روسيةً لما ورد في **إنجيل يوحنا** (الإصحاح التاسع عشر): «فخرج وهو حاملٌ صليبه إلى الموضع الذي يُدعى «موضع الجمجمة»، وبالعبرانية «جلجثة»». (المترجم)

(13) А. Л. Баталов, «Гроб Господень в замысле «Святая Святых» Бориса Годунова,» in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 154-173. См. также: Лисовой, с. 37.

[أ. ل. باتالوف، «القبر المقدس في خطة «قدس الأقداس» لبوريس غودونوف»، في: **القدس في الثقافة الرُّوسية**، ص 154–173. يُنظر أيضًا: ليسوفوي، ص 37].

(14) كانت خطة نيكون تتوافق مع منطق التفكير التقليدي، إلا أنه لجأ إلى طرائق التصميم المعماريِّ العصريِّ، مستخدمًا تصميم كنيسة القدس الدقيق، وكذلك تصاميم أخرى لها، بحسب رأي بوسيفا – دافيدوفا. وفي المحصلة «حل التطابق التامُّ مكان التشابُه الرمزي»، الأمر الذي صدم ممثِّلي المجتمع الروسي (واليوناني – المؤلِّفة) في تلك الحقبة، إذ رأوا فيه شيئًا من التجديف: И. Л. Бусева-Давыдова, «Об идейном замысле «Нового Иерусалима» патриарха Никона,» in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 177.

[إ. ل. بوسيفا – دافيدوفا، «عن خطة البطريرك نيكون الفكرية لبناء «القدس الجديدة»»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 177].

الشرقي[15]، جزءًا مهمًّا من الآداب الروسية، ابتداءً من القرن الحادي عشر. وقد احتفظ هذا الأدب بأهمِّيته في القرن الثامن عشر في أثناء العمل على تخليق صورة العالم المتوسِّطي في روسيا. ولهذا المصدر سماتُهُ الخاصة.

برهن الباحثون منذ فترةٍ طويلةٍ على أن أدب الحجِّ لم يكن يهدف إلى

(15) لم تظهر الإصدارات المطبوعة لأدب الحجِّ في روسيا إلا بعد حملة الأرخبيل (ف. غريغوريفيتش بارسكي، ن. خ. رادزيفيل، وآخرون). وقد أصبح هذا الأدب مادة لدراسات المصادر والمراجع والنشرات العلمية في القرن التاسع عشر، حين دخلت أغلبية آثاره في التداول العلمي. ولوحظ في العقود الأخيرة انتعاش اهتمام العلماء الرُّوس والأجانب بأدب رحلات الحجِّ وبدراسته حديثًا وإعادة إصداره. يُنظر على سبيل المثال: С. Ю. Житнев, *История русского православного паломничества в X-XVII веках* (М., 2007); *Книга хожений*; *Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова, 1701-1703*, Изд. Л. А. Ольшевская, А. А. Решетова & С. Н. Травников (М. 2008); ««Хождение» игумена Даниила,» Первая редакция, Подгот. Текста, пер. и коммент. Г. М. Прохорова, in: *«Хождение» игумена Даниила в Святую Землю в начале XII в.* (СПб, 2007); ««Паломник», вторая редакция «Хождения» игумена Даниила,» Подгот. текста И. В. Федоровой, пер. Г. М. Прохорова, in: *«Хождение» игумена Даниила в Святую Землю в начале XII в.*

[س. ي. جيتنوف، **تاريخ الحج الأرثوذكسي الروسي في القرون العاشر - السابع عشر** (موسكو، 2007)؛ **كتاب الرحلات**؛ **رحلة حج الكاهن الموسكوبي يوحنا لوكيانوف إلى الأرض المقدسة، 1701-1703**، إصدار ل. أ. أولشوفسكايا، أ. أ. ريشيتوف وس. ن. ترافنيكوف (موسكو، 2008)؛ ««رحلة» حج القمْص دانيال»، التحرير الأول، إعداد النص وترجمة وتعليق غ. بروخوروف، في: **«رحلة» حج القمْص دانيال في بداية القرن الثاني عشر** (سان بطرسبورغ، 2007)؛ ««الحاج»، التحرير الثاني لـ «رحلة» حج القمْص دانيال»، أعَد النص إ. ف. فيودوروفا، ترجمة غ. بروخوروف، في: **«رحلة» حج القمْص دانيال في بداية القرن الثاني عشر**].

وأيضًا: T. Stavrou & P. Weisensel, *Russian Travelers to the Christian East from the Twelfth to the Twentieth Century* (Columbus (Ohio): Slavica publ., 1985); G. P. Majeska, *Russian Travelers to Constantinople in the Fourteenth and Fifteenth Centuries* (Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1984).

وأخيرًا، صار المستشرقون أيضًا ينظرون إلى الحجِّ بوصفه مصدرًا لدراسة الشرق. يُنظر: С. А. Кириллина, *«Очарованные странники»: Арабо-османский мир глазами российских паломников XVI-XVIII столетий* (М., 2010); К. А. Панченко, «Старообрядец в Леванте: Османский мир начала XVIII века в описании русского паломника Ивана Лукьянова,» in: *Восхваление Исааку Моисеевичу Фильштинскому посвящается* (М., 2008), с. 339-350.

[س. أ. كيريلينا، **«الرحالة المفتونون»: العالم العربي - العثماني بعيون الحجاج الرُّوس في القرون السادس عشر - الثامن عشر** (موسكو، 2010)؛ ك. أ. بانتشينكو، «مؤمن متمسك بالطقوس القديمة في المشرق: العالم العثماني في بداية القرن الثامن عشر بعيون الحاج الروسي إيفان لوكيانوف»، في: **مهداة إلى الجدير بالحمد إسحاق موسييفيتش فالشتينسكي** (موسكو، 2008)، ص 339-350].

نشر المعرفة الدنيوية عن عالم الخليقة[16]، بل ظهر من أجل **التنوير الروحي**. وليس من قبيل المصادفة أن القمْص دانيال (القرن الثاني عشر) وشماس دير ترويتسي «سيرغييف زوسيما» (الذي قام برحلاته على طريق الحجِّ خلال الفترة 1419–1422) خشيا التشبُّه بالعبد الكسول إذا لم يكتبا مؤلفهما عن الحجِّ ليكون في متناول المؤمنين: «عملنا على كتابة هذا العمل من أجل الإنسان المؤمن، خشية التمثُّل بالعبد الكسول الذي أخفى التالانت[17] عن سيِّده، ولم يجلب له الدخل. وإن من يتلهف بروحه وفكره نحو هذه الأماكن المقدسة فسيلقى من الله ثوابًا يُعادلُ ثواب من يتحمل عناء الوصول إليها»[18].

حدد هدف الحجاج موضوع الوصف أيضًا، فتركز جلُّ اهتمامهم على وصف الأماكن المقدسة. وكما أشار س. ب. روزانوف، فـ «إن كل اهتمام يشدُّ

(16) ليس من المقنع اعتبار أدب الرحلات إلى الأراضي المقدسة نوعًا من مذكرات الرحلات التي تتميز عن الرحلات الدبلوماسية والتجارية، كونها «تتضمن مشاهد من المحتوى الأسطوري التوراتي» على وجه التحديد: **Н. И. Прокофьев**, «Хожение: путешествие и литературный жанр,» in: *Книга хожений*, с. 15.

[ن. إ. بروكوفييف، «رحلات الحج: الرحلات والفن الأدبي»، في: **كتاب الرحلات**، ص 15].

إنما ربما من الأصح القول إن مذكرات الرحلات هي أشبه بـ «مقاطع مُدرَجة» في النصِّ الأدبي. وقد لا يكون من المفيد الاكتفاء بالتأكيد على الخصائص الأسلوبية في «أدب الرحلات المتعلِّق بالحج». يُنظر: **Данциг**, с. 15.

[دانتسيغ، ص 15].

(17) **تالانت، أو طالنط** (باللاتينية Talentum): وحدة نقدية استُخدِمَت في كلٍّ من اليونان القديمة والإمبراطورية الرومانية والمشرق وشمال أفريقيا. (المترجم)

(18) «رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 27–28.

خلافًا للحجِّ إلى مكة في الإسلام، لا تفرض المسيحية ضرورة الحجِّ إلى القدس، بل تشجِّع على الفكرة التي تقول إن «البحث عن الخلاص عند الله» يتمُّ بالعمل الروحي و«ليس بالقدمين». واختتم الراهب زوسيما مؤلفه بالكلمات الآتية: «لقد كُتب لنا جميعًا هذا التقرُّب المبارك من الله والقبر المقدس وكلِّ الأماكن المقدسة، فينال المرء الثواب (من الله) على النحو الذي ينالُهُ الحاجُّ إلى المكان المقدس في مدينة القدس ويرى تلك المقدسات. طوبى لمن رأى وآمن، وطوبى ثلاث مرات أكثر لمن لم يرَ وآمَن»: *Книга хожений*, с. 135.

[**كتاب الرحلات**، ص 135].

عن هذه الرؤية، هو بالنسبة إليهم نتاج الضعف الأخلاقي، أي الخطيئة»[19]. وهكذا، كانت رموز الفضاء المقدس تمثِّل بالنسبة إلى الحاجِّ موضوعًا أهم بما لا يقاس من صور الزمن الفاني الحية.

ليس وعي الحاجِّ الجغرافي وحده كان شاخصًا إلى عصري العهد القديم والعهد الجديد، بل وعيه التاريخي أيضًا. فما إن كانت قدم الرحالة تطأ أرض شرق حوض البحر المتوسِّط، لكأنما ينعتق من زمنه فيزيح القديمُ المقدسُ الواقعَ اليوميَّ المَعِيش، وغالبًا ما كانت معاناة أحداث العهدين القديم والجديد تمحو سمات أحداث الحاضر الدنيوية.

ظلت المعلومات عن جغرافية حوض البحر المتوسِّط الشرقي وظروفه الطبيعية وتاريخه وثقافته شحيحة للغاية في كتابات الرحلات المبكرة. ولا بد من الإقرار أن محاولاتنا قراءة أدب رحلات الحج القديم من منطلق إسهامه في معرفة ثقافة المنطقة، لم تكن مثمرة. فصورة الأرض المقدسة **الرمزية** ظلت زمنًا طويلًا تهيمن على فهم منطقة حوض المتوسِّط، حتى في وعي **شهود العيان** الذين واصلوا البحث في الأراضي الغريبة عن تلك المعالم التي كانت معرفتُهم بها تقتصر على الكتب فحسب.

إذ تناول الخبير في أدب رحلات الحجِّ - الغربي والوطني - أ. ن. فيسيلوفسكي خصائص هذا الأدب الأسلوبية، فقد أشار إلى شُحِّ الوصف الذي «أَخْلَتْ فيه الأسطورة الحية المكان للملاحظة الطوبوغرافية». وافترض العالِم أن هذه الملاحظات لم تكن سوى إشارة إلى هذا المشهد أو ذاك من القصة الإنجيلية - التي كان يُولِّد ذِكْرُها صورةً حيةً في مخيِّلة المؤلِّف والقارئ - لم يُذكَر على صفحات أدب رحلات الحج. فبالنسبة إلى أجيال الحجاج «الذين

---

(19) С. П. Розанов, «Предисловие,» in: «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим, на Синай и Афон (1707-1709),» Изд. под ред. С. П. Розанова, ППС, t. 21, Вып. 1 (61) (1914), c. XLIII.

[س. ب. روزانوف، «المقدمة»، في: «رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس، سيناء وآثوس (1707-1709)»، نشر بإشراف س. ب. روزانوف، **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**، مج 21، الإصدار 1 (61) (1914)، ص XLIII].

تشربوا مثل هذه النظرة الرمزية إلى العالم، كان مجرد ذكر فلسطين يستحضر... سلسلةً كاملةً من الصور الأخرى»، التي كانت تظهر «بفعل العادة وبتأثير التماثل اللاواعي»[20].

لا تتمثل سمة أدب رحلات الحجِّ المميِّزة في فهم شرق حوض البحر المتوسِّط الرمزيِّ فحسب، بل كذلك في القصور الذي شَابَ الكشفَ عن صورته أسطرةٌ عامةٌ في وعي كِلَا القارئِ والمؤلِّف، تلك الصورة التي افترضت وجودَ صورةٍ أصليةٍ (Archetype). وتؤكِّد م. ف. روجديستفينسكايا هذا الأمر، إذ تقارن بين وصف القمْص دانيال لفلسطين، والوصف الذي تضمنته «رحلة أغابي إلى الجنة» المنحولة (النسخة الأولى من القرنين الثاني عشر والثالث عشر). ويتبين أن دانيال «يُضفي قدرًا من القداسة» على صورة فلسطين: «إن فلسطين تُقارَن بالجنة» (بتلك الجنة التي تصفها أغابي على هذا النحو: «الأشجار متنوِّعة، والأزاهير متنوِّعة، والخضار متنوِّعة»)[21]. أَوَلَيْسَ هذا ما جعل الحجاج الآخرين يُولُون النباتات الغريبة كـ «أشجار التين والزيتون والخرنوب والتفاح وغيرها من الأشجار المثمرة الأخرى» (القمْص دانيال) اهتمامًا خاصًّا؟ أما حينما كان يجري الحديث عن المزروعات المعتادة، كالشعير والقمح، فقد كان يُؤكدُ وفرة حصادها («وافرة الغلال»: فاسيلي غاغارا، من القرن السابع عشر). ولا شك في أن هذه النعوت ترمز إلى طابع الأرض المقدسة المقدس[22].

---

(20) А. Н. Веселовский, «К вопросу об образовании местных легенд в Палестине,» *ЖМНП*, Кн. 5 (1885), с. 173.

[أ. ن. فيسيلوفسكي، «حول مسألة نشوء الأساطير المحلية في فلسطين»، **مجلة وزارة التعليم العام**، الكتاب الخامس (1885)، ص 173].

(21) М. В. Рождественская, «Образ Святой Земли в древнерусской литературе,» in: *Иерусалим в русской культуре*, с. 11.

[م. ف. روجديستفينسكايا، «صورة الأرض المقدسة في الأدب الروسي القديم»، في: **القدس في الثقافة الروسية**، ص 11].

(22) كتب دانيال، مُولِيًا أرض الخليل أهمية خاصة: «وثمة هنا أرض وعدها الله وباركها ووهبها كل الخيرات: القمح والعنب والزيت وهي تزخر بكلِّ أنواع الخضار والكثير من الماشية؛ الأغنام والأبقار تتوالد فيها مرتين في السنة؛ والنحل ملتصق بالحجارة على تلك الجبال الحمراء»:

= «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» с. 53.

بدهيّ أنه لا بد من أن تؤخذ في الحسبان أيضًا الفحوى المزدوجة، الرمزية والواقعية، للوصف عند تقويم صدقية، أو بالأحرى واقعية أخبار الحجاج عما رأوه.

أما بخصوص التعريفات الجغرافية، فإن ما استرعى انتباه ب. م. دانتسيغ هو ميل الحجاج إلى تجاهل الأسماء الجغرافية المعاصرة لهم، واستخدام التسميات القديمة[23]، أي فهم جغرافيا الأماكن المقدسة من خلال النصوص التوراتية والقديمة العهد. علمًا أن المعارف الجغرافية للحاج قد لا تخلو من الدقة أحيانًا: «ثمة عشرون فرستًا من هنا إلى كريت. ويمكن عبور البحر العظيم هنا، إلى القدس على متن مركب، وإلى الأماكن المقدسة على متن سفينة، وكذلك إلى سيلونيا وروما»[24] (بعد الإشارة إلى ما يقع «إلى اليسار وإلى اليمين»، كان يرد أحيانًا ذكر البلدان التي تقع «خلف» الأماكن التي جرت زيارتها). وعمومًا، كانت معرفة الحاج الروسي في القرون الوسطى «نظرية» (من خلال الكتب) أكثر منها عملية. وبعدما هاجم دانيال أولئك الذين يكتبون زورًا عن الأماكن المقدسة («يكذبون ويضللون»)، فإنه أكد صواب معلوماته

---

= [«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 53].

عن السياق الرمزي لوصف الطبيعة يُنظر على سبيل المثال: Д. С. Лихачев, *Развитие русской литературы X-XVIII веков: Эпохи и стили* (М., 1973), с. 153; А. Н. Ужанков, «Эволюция пейзажа в русской литературе XI-первой трети XVIII в.,» in: *Древнерусская литература: Изображение природы и человека* (М., 1995), с. 19-88.

[د. س. ليخاتشيف، **تطوُّر الأدب الروسي في القرون العاشر- الثامن عشر: العصور والأساليب** (موسكو، 1973)، ص 153؛ أ. ن. أوجانكوف، «تطوُّر فن التصوير الطبيعي في الأدب الروسي في القرن الحادي عشر – الثلث الأول من القرن الثامن عشر»، في: **الأدب الروسي القديم: وصف الطبيعة والإنسان** (موسكو، 1995)، ص 19-88].

(23) Данциг, с. 33.

[دانتسيغ، ص 33].

لعله من الحالات النادرة أن نصادف تسمية عصرية لدى دانيال، حين يقول: أوبيا «تسمى الآن مدينة ياف باللغة الفرنجية» (ص 58).

(24) «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» с. 29.

[«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 29].

غالبًا ما كان الحجاج في الأوصاف الجغرافية يطلقون اسم البحر الأبيض على بحر إيجة وعلى بحر مرمرة، وكذلك على البحر المتوسّط (وكانوا يطلقون على البحر الأخير أيضًا اسم البحر العظيم).

لأن «فيرجيل»[25] كان رجلًا طاهرًا ومُسِنًّا، و«واسع الاطلاع جدًا»، وقد رافق دانيال **ناهلًا الطيبة من الكتب المقدسة حقًّا**[26].

بيد أن فن رحلات الحج، وكذلك استيعاء الرحالة العالم، لم يبقيا من دون تغيير. فبمرور الزمن، أخذت آفاق السرد تتسع تدريجًا، وتغيرت أيضًا صورة حوض البحر المتوسِّط الشرقي، المنقولة إلى المعاصرين والأبناء، مكتسبةً مداها الطبيعي وسماتها الواقعية.

بدأ الرحالة الرُّوس خلال الحقبة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر إشباع «المدونات الطوبوغرافية» عن الأماكن الشهيرة، بقصصٍ مستمدةٍ من الأناجيل المنحولة ومن الأساطير الشعبية المحلية (كتب ف. غريغوريفيتش بارسكي في القرن الثامن عشر أنها «تُروى نقلًا عن ألسنة الناس»)[27]، وسرد الأعاجيب التي تجترحها الأيقونات والينابيع المقدسة وما شابه ذلك. وصار هؤلاء الرحالة يولون في سردهم القصصي اهتمامًا متزايدًا بالأخبار المتصلة بما هو عجيبٌ خارقٌ للعادة، كالأهرام المصرية والحيوانات الغريبة (كالتمساح والنعامة)، وأجهزة التفريخ الأفريقية التي «تَفقُس فيها الفراخ من دون قرقة»[28]،

---

(25) دليله. (المترجم)

(26) المرجع نفسه، ص 64.

استخدمنا هنا اسم فيرجيل، دليل دانتي في دوائر الجحيم والجنة، لأن الحجاج كانوا يُولُون وجود دليل حكيمٍ ومجرب يرافقهم في الأماكن المقدسة أهمِّية كبيرة.

(27) *Странствования Василья Григоровича-Барского по святым местам Востока с 1723 по 1747* (СПб., 1885), с. 322.

**[أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي في الأماكن المقدسة في الشرق من عام 1723 حتى عام 1747** (سان بطرسبورغ، 1885)، ص 322].

وقد حملت الطبعة الأولى العنوان التالي: *Пешеходца Василия Григоровича-Барского Плаки-Альбова, уроженца Киевскаго, монаха Антиохийскаго, путешествие к святым местам, в Европе, Азии и Африке находящимся, предприятое в 1723 году и оконченное в 1747 г., им самим писанное* (СПб., 1778).

**[الرحلة التي قام بها الرحالة فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي بلاكي - ألبوف، المولود في كييف، الراهب الأنطاكي، إلى الأماكن المقدسة، الموجودة في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وامتدت من عام 1723 حتى عام 1747، وقد كتبها بنفسه** (سان بطرسبرغ، 1778)].

(28) «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 39.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 39].

وشبكات إمداد المدن بمياه الشتاء التي تُجمع في خزانات تحت الأرض (وجدير بالذكر أن الحديث عن هذا الأمر ورد لدى القمْص دانيال). ومع الوقت، أخذت تظهر في الكتابات ملاحظات معيشية من نوع: «يعلف العربُ الإبلَ فولًا يابسًا، ولا يقدِّمون لها الماء طيلة أيام ثلاثة»[29]؛ ويسوقون الماعز في شوارع القاهرة، ويحلبونها هناك لبيع حليبها[30]؛ وفي رودوس تنتصب أعداد كبيرة من «الطواحين الهوائية» على طول الشاطئ «كالنجوم»[31] (علمًا أن فاسيلي تحدث في القرن الخامس عشر عن نواعير مدينة حماه المشهورة، وعن خاناتها وأسواقها وبازاراتها المكشوفة)[32]. ويمكن أن نصادف أيضًا معلوماتٍ اقتصاديةً أيضًا لدى الحجاج: ففي دير سيناء بمصر «ثلاثة خانات، ولدى البطريرك ثلاثة أيضًا. ويدفع نزلاء هذه الخانات أكانوا تجارًا أم صُناعًا من مختلف الانتماءات الدينية، أجرًا شهريًّا لقاء حوانيتهم بما يعادل نصف يفيموك، وأحيانًا يفيموكين أو ثلاثة في الشهر للشخص الواحد»[33].

تقود مراقبة الطبيعة أرسيني سوخانوف إلى اكتشافٍ مهمٍّ: ينمو القمح

---

(29) «Хождение купца Василия Познякова по Святым местам Востока,» in: *ППС*, 18-й вып (СПб., 1887), t. 6, Вып. 3 (18), Василий Позняков посетил Константинополь, Египет, Синай и Палестину в 1558-1560 гг.

[«رحلة التاجر فاسيلي بوزدنيكوف إلى الأماكن المقدسة في الشرق»، في: **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**، الإصدار الثامن عشر (سان بطرسبورغ، 1887)، مج 6، الإصدار 3 (18)، زار فاسيلي بوزدنيكوف القسطنطينية ومصر وسيناء وفلسطين خلال الفترة الواقعة بين عامي 1558 و1560].

(30) «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» c. 38.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 38].

(31) *Странствования Василья Григоровича-Барского*, c. 268.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ص 268].

(32) «Хождение гостя Василия в Малую Азию, Египет и Палестину,» in: *Книга хожений*, c. 168, 171, 173 и т. д.

[«رحلة التاجر فاسيلي إلى آسيا الصغرى ومصر وفلسطين»، في: **كتاب الرحلات**، ص 168، 171، 173 ...إلخ].

(33) «Проскинитарий *Арсения* Суханова, 1649-1653,» *ППС*, t. VII, Вып. 3 (1889) c. 39.

[«كتاب رحلة الحج لأرسيني سوخانوف، 1649-1653»، **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**، مج 7، الإصدار 3 (1889)، ص 39].

والشوفان والجودار بريًّا في فلسطين وسوريا، لكنها تبدو «وكأنها مبذورة، قوية، كثيفة، عالية، وأما سنابلها فهي كتلك المبذورة عندنا، على أن حبوبها قليلة»[34] (نالت هذه المعلومات حقها من التقدير في القرن العشرين، عندما نظم الأكاديمي المُهَجِّن عالم الوراثة ن. إ. فافيلوف). (بعثةً إلى هذه المنطقة لدراسة منشأ هذه النباتات)[35].

بمرور الزمن، صارت أعمال الحجِّ تترافق مع تنفيذ المهمات الحكومية، ولم يعد الانصراف عن الطاعة الدينية يُعتبر إثمًا. وهكذا، ففي أواسط القرن السابع عشر، اتسمت سيرة رحلة حجِّ أرسيني سوخانوف - الذي أُرسِل للتعرُّف إلى كيفية أداء إخوة الدين الشرقيِّين شعائرهم الدينية - بالاهتمام المتزايد غير الديني بتحصينات القسطنطينية وجزر الأرخبيل والقدس. (وعلى حدِّ قول ك. أ. بانتشينكو، «وهو، إذ يتحدث عن تحصينات القدس، يُبدِي معرفة بهندسة التحصين وعلم حركة القذائف بما لا تتلاءم مع مقامه الكهنوتي، ويقدِّم نصائح عملية في شؤون حصار المدينة واقتحامها»)[36]. ويمكن أن يُفسر هذا الاهتمام بقلق موسكو بشأن خطط بطريرك القدس بايسي الرامية إلى توجيه ضربة إلى الإمبراطورية العثمانية، بقوى الموسكوبيِّين وقوزاق زابوروجي ومولدافيا وفالاخيا الموحدة، وذلك بهدف تحرير إخوة

---

(34) المرجع نفسه، ص 29، 49.

(35) Н. И. Вавилов, *Пять континентов: Повесть о путешествиях в поисках новых растений* (М., 1962).

[ن. إ. فافيلوف، **القارات الخمس: قصة الرحلات بحثًا عن النباتات الجديدة** (موسكو، 1962)].

(36) Панченко, *Османская империя и судьбы православия на Арабском Востоке*, с. 142.

[بانتشينكو، **الإمبراطورية العثمانية ومصائر الأرثوذكسية في الشرق العربي**، ص 142].

جدير بالذكر أن اطِّلاع أرسيني على الفن الدفاعيِّ العسكريِّ لم يكن أمرًا مفاجئًا، فقد كان معمار أديار، وكانت الأديار عبارة عن منشآت دفاعية. وعندما أبحر قبالة جاليبولي لاحظ أرسيني أن سور المدينة من جهة البحر «فيه الكثير من النوافذ بموازاة الأرض، يصل عددها إلى 25، وعليها مزاليج من الحديد، عدا الأسوار الجانبية وفيها نوافذ لا يحصى عددها: «مدينة ميتيلين مبنية على الحجر الصخري الطبيعي، ولذا لا يمكن الحفر تحتها إطلاقًا»؛ ولدى مدينة خيوس أسوار حجرية، وخندق صخري عميق، والمدافع «لا يحصى عددها»: «Проскинитарий *Арсения* Суханова,» с. 19-20, 23.

[«**كتاب رحلة الحج** لأرسيني سوخانوف»، ص 19-20، 23].

الدين. ويمكن اعتبار اهتمام الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكي بالمرافق العسكرية أمرًا طبيعيًّا، إذا ما أخذنا في الحسبان أنه أدى فريضة الحجِّ إبان حروب بطرس الأكبر مع الأتراك[37].

لم يعد حجاج القرنين السابع عشر والثامن عشر يُخفون فضولهم الدنيوي أيضًا؛ فعندما علم فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي بأمر السفير الروسي أ. أ. فيشنياكوف القاضي بمقابلة السلطان كتب يقول: «سأطيع بكلِّ سرور، ليس بغرض التكريم والتبجيل (ها هو الحاج هنا يفكر بما هو دنيويٌّ وأثيم – «التكريم» و«التبجيل» – المؤلِّفة)[38]، بل بحكم الفضول والرغبة في التعرُّف إلى **مقامات الآخرين وعاداتهم**»[39] (هنا ولاحقًا التشديد من المؤلِّفة)، علمًا أنه لم يكن حاجًّا عاديًّا[40]، إذ تحولت رحلات الحجِّ بالنسبة إليه إلى نمط

---

(37) يذكر إيبوليت فيشينسكي أن قلعة رودوس ذات أسوار وأبراج حجرية متينة وخندق عميق وبوابات حديدية، وفيها الكثير من المدافع، أما في مدينة طرابلس فثمة قصور ثلاثة مزودة بمدافع ...إلخ يُنظر: «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 25, 30.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 25، 30].

(38) في حديثه عن صفات ماكاري كالوغريس، مؤسِّس المدرسة اليونانية في جزيرة باتموس، يشير فاسيلي إلى أن ماكاري تخلى عن «المجد والتكريم، من أجل الوطن»، وعاد إلى جزيرته الأم لنشر التعليم. وغالبًا ما تُسمى مدرسة باتموس التي أسسها ماكاري في عام 1713 الآن «جامعة الأرخبيل»؛ حيث طور غريغوريفيتش بارسكي معارفه، فطوب مؤسِّسها قدِّيسًا واعتبره «منوِّر الشعب اليوناني العظيم **«القديس أنتيباس»**، رئيس الدير الباتموسي (دليل دير القديس يوحنا الإنجيلي في باتموس. باتموس، 2009. ص 29). لقد أصبح «المجد والتكريم»، وكذلك خدمة الوطن، من دون شك، من بين قيم غريغوريفيتش بارسكي الأخلاقية، ما يدل على تأثُّره بالأفكار التنويرية:
*Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 346.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 2، ص 346].

(39) المرجع نفسه، ج 2، ص 371.

(40) كان عمل الحاج شاقًّا دائمًا، وانطوى على الكثير من المصاعب. غير أن أحد الحجاج القدامى كتب في مذكراته: «لا أشعر بأيِّ وهن في جسدي، بل دائمًا كالنسر أخفف عنه، وببركة الله أحفظه وبقدرة العلي أقوِّيه». «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» с. 73.

[«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 73].

ويتطرق الحجاج اللاحقون إلى المصاعب الجسدية بالتفصيل: إذ يتحسر غريغوريفيتش بارسكي على رفيق دربه المتوفى روفيم، «محبوب ستيفان يافورسكي»: *Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. I, с. XI.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 1، ص XI]. =

حياة: وفي نهاية ترحاله الذي استمر سبعة وعشرين عامًا، تحسر لكونه لم يتدبر نصيحة معلِّمه ماكاري بترك «كلِّ أسفاره» ليخدم وطنه بالعمل على دراسة «التعاليم الهيلينية» (دورة الدراسة اليونانية). غير أنه، على حدِّ قوله، تصرف كطفل، «طفلٍ متفلسفٍ» فَضلَ «التمتُّع بالسفر وبتاريخ الأماكن المختلفة»[41]؛ بل إنه رفض في نهاية ترحاله الاقتراح التكريمي الذي عرضه عليه فيشنياكوف بتسليمه منصب راعي كنيسة البعثة الروسية في القسطنطينية، لأن من شأن ذلك أن يعيق «تعلُّمَه الصامت»، ويحرمَهُ من «حرية»[42] زيارة بعض «الأماكن الصالحة» والأديرة، ويجعل عودته السريعة إلى الوطن أمرًا صعبًا[43].

قاد حبُّ الاستطلاع غريغوريفيتش بارسكي إلى روما وإلى مقرِّ بابا

= فهو يقول إن روفيم عانى من «العوز، وهو يسير شتاءً وصيفًا، ومن الرياح الباردة، من الأمطار ولهيب الشمس الحارقة، وقد عانى جسديًّا من ذلك» ([**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ص 210]). ولم تكن مسألة تأمين المبيت والغذاء أقل مشقة بالنسبة إلى الحاج. فهناك، حيث لا أديرة ولا منازل للإيواء، كما في إيطاليا، كان الحجاج يحصلون على هذا وذاك «عن طريق الصدقة»، فكانت فكرة المبيت والغذاء تُقلق عمليًّا كل واحدٍ منهم. وكانت الملابس، ولا سيَّما الأحذية، تَبلَى بسرعة بسبب السير طويلًا في العراء. وكان خطر القراصنة يتهددهم في البحر، وخطر اللصوص في البر. وكان الحجاج، سواءٌ أفي آسيا أم في أوروبا (في النمسا مثلًا)، يسيرون ليلًا خوفًا من اللصوص ([**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ص 28]). وجدير بالذكر أن الاهتمام بأمور الجسد، المميِّزة للإنسان، خصوصًا منذ عصر النهضة، حتى في القرن الثامن عشر، اقترنت لدى الحجاج بـ «بمأثرة القصاص» التقليدية «بسبب الخطيئة، من جهة، «وحبًّا بالربِّ والأماكن المقدسة» من جهة أخرى». يُنظر:
Розанов, с. XLIII.

[روزانوف، ص XLIII].

(41) *Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 348.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 2، ص 348].

(42) جدير بالذكر أن ليونتي زيلينسكي أيضًا يربط بين الحج وبين الشعور بالحرية. فهو، في أحاديثه المنمقة، يشبِّه حياة الدير بالأشغال الشاقة، والدير بالسجن، أما «الترحال» في الأماكن المقدسة فأشبه «بالاستقلالية المتحرِّرة» التي أخرجته من وطنه، ودفعته إلى الترحال «في أراضٍ غريبةٍ غير مأهولة بملء إرادته»: Письма монаха Полтавского монастыря о. Мартиниану, in: *АВПРИ*, Ф. Библиотека Азиатского департамента, Оп. 506, Д. 7, t. 2, Л. 56, 91, 101.

[رسائل الراهب في دير بولتافا الأب مارتينيانو، في: **أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، مجموعة مكتبة دائرة آسيا، القائمة 506، الملف 7، مج 2، الورقة 56، 91، 101].

(43) *Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 375.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 2، ص 375].

روما، الأمر الذي كان سببًا في اتِّهامه بالهرطقة في آثوس. وقد اندس في حوران (حاران «باليونانية»، حيران «بالعربية»، بحسب تعبيره) في قافلة للحجاج المسلمين كانت عائدةً من الحجِّ، متنكِّرًا بزيٍّ درويش، مخافة أن يكون ضحية التطرُّف الديني[44]، ودخل دمشق برفقتهم وزار المسجد الأموي الشهير (القائم على كنيسة يوحنا المعمدان البيزنطية، التي شيدت بدورها مكان معبد جوبيتر الوثني)، وزار أيضًا مسجد السليمانية وتكية الصوفية فيها[45]. وفي سالونيا، لم يتردد في الدخول إلى الأكاديمية اليهودية، حيث «تُدرس مختلف أنواع العلوم، حتى الفلسفة، وحيث يتجادل الفلاسفة في ما بينهم، كالمعتاد، وبمختلف اللغات»، بحسب قوله[46]. كما أن فاسيلي كان طموحًا إلى التعلُّم؛ فَجالَ في مراكز التعليم (على غرار العلماء المسلمين أو الطلاب الأوروبيِّين في القرون الوسطى) وجمع الكتب. وعند تفشِّي مرض الطاعون، اعتزل مدة أربعة أشهر في جزيرة باتموس[47]، وعمل على وضع كتاب لاتيني - يوناني تدريسي، مُعِدًّا نفسه للقيام بدور المعلِّم. وقد فعل ذلك كله كمأثرة رهبانية، على الرغم من أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها الدافع إلى ذلك.

---

(44) في حالة مماثلة، عندما استُجوِبَ أحد اليونانيِّين المدعو «نيقولاي ميخايلوف» في مقر بعثة الأرخبيل؛ إذ تبين أنه جال فترةً طويلةً في العالم بـ «رداء صحراويٍّ تركيٍّ» وأم المساجد، بل تلقى صدقة من السلطان: *РГА ВМФ*, Ф. 188, Оп. 1, Д. 65, Л. 69-73.

[**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، المجموعة 188، القائمة 1، الملف 65، الورقة 69-73].

(45) *Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 236-238.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 2، ص 236-238].

«ثمة معبدٌ بناه الهاجَرِيُّون خارج مدينة دمشق (خارج أسوار المدينة القديمة - المؤلِّفة)، في سهل فسيح وخلاب على شاطئ نهر، فيه صوامع عديدة، على غرار دير جميل، تُسمى التكايا. وثمة أيضًا فندق يقع في مكان جميل جدًّا، أُقِيمَ للفقراء من الحجاج الذاهبين للحج في مكة، وفي وسط الباحة قبة حجرية عظيمة، فيها سبيل تجري فيه المياه نهارًا ليلًا: يا له من مبنى عظيم القيمة، رائع المنظر، وهذه صورة له (أرفق فاسيلي مخطوطته برسوم).

(46) المرجع نفسه، ص 262.

(47) كان الرهبان المنعزلون عن العالم في أثناء الوباء، يُنزلون له الطعام والماء بحبل (المرجع نفسه، ص 355).

في القرن الثامن عشر، صار أدب الحجِّ يقترب تدريجًا من أدب الرحلات، الذي يحمل أهدافًا تنويرية ويتسم بنفحةٍ أدبيةٍ مميِّزة[48]. هذا ما كان عليه مؤلف غريغوريفيتش بارسكي، وكذلك رحلة راهب دير بولتافا ليونتي زيلينسكي (قام برحلته إلى الأراضي المقدسة في عام 1765)، الذي أطلق على نفسه اسم «غريغوريفيتش الصغير». فمؤلف زيلينسكي، وكذلك غريغوريفيتش بارسكي، قليلا الشبه بالكتابات الروسية القديمة عن رحلات الحجِّ، وأشبه أكثر بمذكرات الرحالة المُحِبِّ للاستطلاع[49] (وعلى الرغم من أن ليونتي أشار إلى أنه «غير مؤهل لشحذ القلم تبعًا للعرف السائد»[50]، إلا أن مؤلفاته كُتِبَتْ على شكل رسائل إلى الأصدقاء، كما هو رائج).

تراجع اهتمام ليونتي بتعليمات معلِّمه الأخلاقية، وعُنِيَ أكثر بصيت روايته، متطلِّعًا إلى الاشتهار كاتبًا. وبروحية ثقافة المدرسة الدينية-الديرية، أدخل في روايته قصصًا ساخرة، بل هزلية عن المصائب التي كانت تحلُّ دومًا برفيق دربه الراهب في الأراضي المقدسة؛ بل إنه أرفق الحكاية عن الاغتسال في مياه «نهر الأردن المقدس» بتعليقات تقول إنه عَبَرَ مياهه العكرة السريعة بصعوبة، «لكي أقول لكم فحسب، من دون خجل إنني سبحت فيه أكثر من مرة»[51].

---

(48) أدى س. ب. روزانوف قسطه بتناول هذه العملية في مطلع القرن العشرين:
Розанов, с. II, XLIII.

[روزانوف، ص II، XLIII].

(49) Письма монаха Полтавского монастыря о. Мартиниану.

[رسائل الراهب في دير بولتافا الأب مارتينيانو].

(50) «بما أنني اعتدت منذ فتوتي على صنع ألواح الناقوس أو صقلها، وعلى حفر النقوش والزخارف على الصلبان، أكثر مما أنا مؤهل لشحذ القلم على غرار العرف السائد. فهل لي أن آمل أن يجعل هذا النقد القاسي صعلوكًا مثلي يتبدل مع هذا العرف، على غرار كُتاب الروايات الذين يعمدون بتصوُّراتهم المُغالية في التزويق الهادفة إلى إرضاء الجمهور المتنوِّع، إلى وضع مؤلفات لا طعم لها ولا رائحة، تبعث الملل في نفس كلِّ قارئ، ولا سيما ذاك العديم الخبرة اللاهث وراء الموضة (الكلُّ سواء)...» (المرجع نفسه، الورقة 4).

(51) Письма монаха Полтавского монастыря о. Мартиниану, Л. 94.

[رسائل الراهب في دير بولتافا الأب مارتينيانو، الورقة 94].

سمحَ ليونتي لنفسه مرة واحدة فقط بالتعبير عن المشاعر السامية التي غمرته عند رؤيته القدس: لقد بدت المدينة «جميلة إلى حدٍّ أنني لم أتمالك نفسي فانهمرت دموع الفرحة التي فاضت من عيني، =

تقبل ليونتي زيلينسكي، بقدر معين من النقد، المعلومات المتعلِّقة بطوبوغرافية الأماكن المقدسة: «بالرغم من أنني صدقت للوهلة الأولى، ولكنْ حماسة تصديقي الساذجة ظلت عالية، إلى أن وصلت إلى القدس. فحين قال لنا اليونانيُّون، وكذلك العرب، أن البيت الرابع الواقع عند بستان جثسيماني[52] هو بيت والدَي السيِّدة العذراء، عندئذٍ فترت ثقتي وصرت حذرًا حيال المعلومات غير الصحيحة، وآليت على نفسي هناك في القدس ألا أصدق أحدًا بعد الآن، قبل أن أتأكد من الأمر بنفسي»[53].

مع الوقت، توسعت تصوُّرات الحجاج الجغرافية. فابتداءً من القرن السابع عشر، في أقلِّ تقدير، يُلاحظ ظهور اهتمامهم بالخرائط الجغرافية. وقد عُثِر بين كتب أرسيني سوخانوف وأمتعته على «أوراق تتضمن رسومًا لأراضٍ مختلفة»[54]، كان قد استولى عليها القراصنة المسيحيُّون. وعلى الرغم من أن إيبوليت فيشينسكي أورد دليلًا يتفق والنصوص التوراتية على أن النيل هو بين أربعة أنهر تنبع من الجنة، ولذا فإن مياهه «عذبة جدًّا» وسمكه أيضًا لذيذ، غير أنه كما يبدو لم يكن واثقًا جدًّا من ذلك، ولذا فقد ظل يلاحق العرب المُسِنِّين بأسئلته «من أين ينبع النهر؟»[55]. وكان غريغوريفيتش بارسكي الأكثر معرفة

= عندما رأيت أخيرًا ما رغبت نفسي في رؤيته سنين طويلة. لقد تملكني شعور عارم بالارتياح، فسجدت مرارًا شاكرًا الرب الغفور الرحيم الذي يحقِّق ببركاته رغبات المؤمنين، بل عبيده الآثمين، وأنا واحد منهم» (الورقة 111).

(52) **بستان الجثسيماني**: بستان في جبل الزيتون في القدس يُعرف بأنه المكان الذي صلى فيه يسوع المسيح في الليلة السابقة للصلب، وكان يتردد إليه كثيرًا طلبًا للعزلة والترويح عن النفس. وأصل كلمة جثسيماني آرامي، معناه معصرة الزيت، وهي مكان يصفه متى ومرقس أنه كان مكانًا محاطًا بسياج، ويقول عنه يوحنا إنه بستان. (المترجم)

(53) المرجع نفسه، الورقة 98.

(54) «Проскинитарий *Арсения* Суханова,» с. 75.

[«كتاب رحلة الحج لأرسيني سوخانوف»، ص 75].

(55) «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 57.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 57].

في غضون ذلك، صدق كلٌّ من فارسونوفي (قام برحلته في أعوام 1461-1464) وإيفان لوكيانوف من دون تردُّد أن النيل «ذو الأوتار الذهبية» ينبع من الجنة: «Хожение Варсонофия в Египет, на Синай и в Палестину,» in: *Книга хожений*, с. 162; *Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова, 1701-1703*, с. 64. =

بالجغرافيا، بيد أن معارفه كانت ذات طابع عمليٍّ بالدرجة الأولى؛ إذ قدم وصفًا مفصلًا للطريق الذي سلكه من البندقية إلى الأرخبيل، ولجزر الأرخبيل، وكذلك لسوريا وفلسطين اللتين جال فيهما بالطول والعرض خلال ست عشرة سنة من وجوده هناك. وقد نفى بصورة حازمة الأوهام القائلة إن نهر الأردن يصب من البحر الميت في البحر الأحمر (الأسود، بحسب تعبيره)، وأكد أن «بحري» طبريا والميت هما مجرد بحيرتين.

لم يعد حجاج القرنين السابع عشر والثامن عشر يكتفون بـ «الجغرافيا التوراتية»، بل صاروا يرون العالم المعاصر ويستخدمون الأسماء الجغرافية المعاصرة، مقارنين في حالات كثيرة بينها وبين الأسماء القديمة، أو بين التسميات باللغات الأجنبية: «طرابلس، أو شام طرابلوس بالتركية»[56]، «تُسمى الشام، باللغتين التركية والعربية»[57]، «مصر» - «إيجيبت باليونانية، وكايير باللاتينية»[58]. ويؤكِّد غريغوريفيتش بارسكي أن إيجيبت هو اسم «هيليني»، ويعني «مصر» بالتركية، و«مايار»(؟) بالعربية (كان الحجاج كثيرًا ما يخلطون بين الأسماء العربية والتركية، نظرًا إلى أن مصطلح «أتراك» كان في كتابات

= [«رحلة فارسونوفي إلى مصر وسيناء وفلسطين»، في: **كتاب الرحلات**، ص 162؛ **رحلة حج الكاهن الموسكوبي يوحنا لوكيانوف إلى الأرض المقدسة، 1701-1703**، ص 64]. علمًا أن إيبوليت فيشينسكي يتصور جغرافية مكان أحداث يوم القيامة بدقة: «عندما سوف يحاسب المسيح الأحياء والأموات، سوف يتفجر من وادي الجوز وكرم العنب ومن قبر السيدة العذراء نهر من النار فيجري في وادي البكاء بمحاذاة دير مار سابا حتى بحر سدوم ويغمر كل الآثمين ويغرقهم، فيحلُّ الجحيم الذي سوف يلقى فيه الآثمون صنوف العذاب إلى الأبد»: «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 84.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 84].

فضلًا عن ذلك، كان إيبوليت يعرف مواقع البلدان في المنطقة، على الرغم من أنه استخدم التسميات التاريخية والعصرية في آن. ويتراءى له أنه يرى من قمة جبل القدِّيسة كاترينا (بسيناء)، القدس التي يستغرق الوصول إليها ثمانية أيام، و«الممالك الأربع»: «الأثيوبية، الميدية، العربية، المالفية»، وكذلك صحراء قادس. أما البحر الأحمر (البحر الأسود، بحسب قوله) فيمتدُّ «حتى البحر - المحيط»، الذي يحيط بالأرض كلها ([«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 55]).

(56) [«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 30].

(57) [«كتاب **رحلة الحج** لأرسيني سوخانوف»، ص 162].

(58) المرجع نفسه، ص 35.

القرنين السابع عشر والثامن عشر يُستخدم غالبًا بمعنى: «مسلمون»، وكان التصوُّر عن الإثنية العربية يعاني من التشويش).

وفي العصر الباروكي، ازداد اهتمام الحجاج بمسائل بناء المدن والعمارة الإسلامية (وصف غريغوريفيتش بارسكي مسجد السليمانية الدمشقي أنه «معبد رائع ونفيس»).

حصلت خلال قرن من الحجِّ الروسيِّ إلى حوض البحر المتوسِّط الشرقي تغييرات في فهم المشهد والجغرافيا، وكذلك في فهم سكان المنطقة أيضًا. فقد كان الحجاج الأوائل مُقتِّرين في الحديث عن سكان الأراضي المقدسة، واكتفوا عادة بذكر انتمائهم الديني. فكتب دانيال عن «المسيحيِّين» (قاصدًا بذلك الأرثوذكس)، و«السراسنة» (تسمية العرب القديمة، التي شملت في القرون الوسطى كلّ المسلمين)، و«الفريز» («اللاتين» - الكاثوليك) و«الجيدوف» (اليهود). وتحدث حجاج القرن الخامس عشر (زوسيما، فارسونوفي، فاسيلي) عن «السراكان»، «سراتشين»، «سراسين»[59]، قاصدين بذلك المسلمين. وروى التاجر فاسيلي الذي جال في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين في عام 1466: «.. إنه توفِّي، وقد كان ملكًا على المدينة، التي يسيطر عليها السراسنة الآن» (أي المسلمين)[60]، ولم يكتب عن الناس من «مختلف المعتقدات» وحسب (إلى جانب «اليهود»، ذكر أيضًا «الفرياز» و«الأرمن» و«اليعاقبة» وغيرهم)[61]، بل عن ممثِّلي «جميع اللغات» أيضًا (يذكر من بينهم

(59) السراسنة، ساراسين، ساراكينوس (ترد أيضًا هنا: ساراكين، سراتشين): مصطلح استخدمه الرومان لتسمية سكان الصحراء في إقليم البتراء الروماني، ثم صار يُطلق على العرب. وفي القرون الوسطى وخلال الحروب الصليبية، توسع استخدام المصطلح ليشمل كل من يَدِينُ بالإسلام؛ وما لبث أن انتقل الاسم إلى اللغات الأوروبية. ويُرجح أن أصل الكلمة مشتق من الكلمة العربية (شرقيُّون)، لوصف العرب المشارقة. أما مصطلح «: «الفريز» أو الفارياز» الذي يستخدمه الكاتب (الحاج فاسيلي) فهو تحريف لكلمة «الفرنج» التي استخدمها العرب للدلالة على الصليبيِّين، وهو يقصد بها هنا الكاثوليك. (المترجم)

(60) «Хождение гостя Василия в Малую Азию, Египет и Палестину,» с. 178.

[«رحلة التاجر فاسيلي إلى آسيا الصغرى ومصر وفلسطين»، ص 178].

(61) في كنيسة قيامة المسيح «كانت القداديس تؤدى من قِبَل الكنيسة اليونانية (الأرثوذكسية - =

الأتراك و«العرب» - البدو على ما يبدو). ولكن، مع شُحِّ التوصيفات، لم يُوَلِّد السراسنة - المسلمون أي نفور متعصِّب لدى الحجاج، على الرغم من أنهم كانوا ينظرون إليهم بوصفهم غرباء مختلفين، ولذا لم يولوهم أي اهتمام. لكن الشيء الوحيد الذي أثار دهشة الحجاج حينذاك هو ذاك التبادل التجاري النشط الذي كان قائمًا بين المسلمين وبين المسيحيين، والتعايش في ما بينهم في البلدات والخانات، وهو أمر مستغرب وغير عادي بالنسبة إلى الإنسان الروسي: «كلُّ من يأتي إليها (إلى الخانات - المؤلِّفة)، ومن أيِّ ديانة كانت، يلقى كل عناية، ويحصل على الطعام والشراب»[62]؛ بل إن القمْص دانيال يتذكر بدفءٍ الشيخ السراسيني الذي رافقه هو ورفاق دربه إلى القدس. وبالرغم من أن الراهب زوسيما سخط على «السراسنة الملاعين»، الذين طالبوا أن يدفع لهم لقاء فتح الكنيسة، أو «العرب الأشرار» - اللصوص، إلا أنه تحدث في نهاية كتابه عن تجربة تعامله مع أبناء الدين الآخر، ووضع قاموسًا صغيرًا للأرقام اليونانية والعربية، ولأسماء الله باللغات المختلفة («داناي باليهودية، الله بالعربية، أوفيوس باليونانية، ديوس بالفرنجية، أريستفا بالأرمنية، تينغري بالتترية، بوغ بالروسية»)[63]. وجدير بالذكر أن الحجاج الأرثوذكس الأوائل أَمُّوا الكنائس الكاثوليكية عن طيب خاطر، وتعاملوا مع رجال الدين الكاثوليك، ولم يكونوا عدائيِّين تجاه أبناء الكنائس الأخرى، على الرغم من أنهم كانوا يعتبرون **الأرثوذكس** وحدهم **المسيحيِّين**.

في القرن السادس عشر، تغيرت علاقة الحجاج الرُّوس بأبناء الديانات والكنائس الأخرى. وقد ظهر ذلك بوضوح في قصة التاجر فاسيلي بوزنياكوف (1558-1560)، الذي لم يُسَلِّم باعتبار أبناء الكنائس الأخرى مسيحيِّين: «ويُسَمّون كلّ هؤلاء الهراطقة مسيحيِّين: اللاتين، والأحباش،

---

= المؤلِّفة)، والكنيسة الإيفرية (الجورجية - المؤلِّفة)، والكنائس الصربية والفرنجية والسريانية واليعقوبية والميلفيدينية (الملكية - المؤلِّفة)، والكوفيدية (القبطية - المؤلِّفة)، والنسطورية» (المرجع نفسه، ص 175).

(62) المرجع نفسه، ص 169.

(63) *Книга хожений*, с. 136.

[كتاب الرحلات، ص 136].

والأقباط، والأرمن، والأربعة عشريون[64]، والموارنة، وغيرهم من الهراطقة الملاعين»[65].

تكمن أسباب تشدُّد الحجاج الرُّوس المتزايد حيال أبناء الكنائس الأخرى، في رأينا، في هجوم الكنيسة الكاثوليكية على الأرثوذكس، الذي بدأ يتصاعد ابتداءً من القرن السابع عشر: وتجلى في نشر المذهب الكاثوليكي ببولندا والمناطق الغربية من روسيا، ثم تصاعد مع نشاط الإرساليات الكاثوليكية ذات الأهداف التبشيرية في الشرق العربي، وأخيرًا مع إصدار الفرمان السلطاني (1689) الذي نقل إدارة أهم الأماكن المقدسة التي كانت في عهدة الكنيسة الأرثوذكسية إلى الكاثوليك، بضغطٍ من الملك الفرنسي[66]. على أن الحجاج لم يوجِّهوا الانتقادات إلى الكاثوليك وحدهم، بل إلى الأرثوذكس أيضًا: فقد رأى أرسيني سوخانوف أن «الأتراك» أفضل في بعض الحالات من «جماعتنا»، أي اليونانيِّين؛ أما إيفان لوكيانوف فقد كتب يقول: «لقد أصبح اليونانيُّون أسوأ من الأتراك بالنسبة إلينا، على الرغم من أنه شتم الأتراك قبل ذلك، واصفًا إياهم بـ «البوسورمان» و«الكلاب»[67]. وقد عانى الحجاج أشد المعاناة من القراصنة البحريِّين، الذين كانوا من شتى الديانات و«الأمم»[68].

---

(64) **الأربعة عشريُّون**، أو الطائفة الأربعة عشرية: طائفة مسيحية تقول إن احتفال عيد الفصح يكون في الرابع عشر من نيسان/ أبريل. فبحسب إنجيل يوحنا صُلب المسيح في القدس يوم الجمعة في 14 نيسان/ أبريل، بينما تحدِّد الأناجيل الأخرى حدوث هذا الحدث في الجمعة 15 نيسان/ أبريل. (المترجم)

(65) Хожение купца Василия Познякова, с. 36.

[رحلة حج التاجر فاسيلي بوزنياكوف، ص 36]. يطلق بوزنياكوف صفة المسيحيِّين، على كلٍّ من «اليونانيِّين والسريان والصرب والإيفريين، الرُّوس والأرنانيتيِّين والفالاخ» (ص 37).

(66) يُنظر: Лисовой, с. 39.

[ليسوفوي، ص 39].

(67) *Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова, 1701-1703*, с. 33-35, 37.

[**رحلة حج الكاهن الموسكوبي يوحنا لوكيانوف إلى الأرض المقدسة**، 1701–1703، ص 33–35، 37].

(68) مارس المسيحيُّون والمسلمون من سكان شمال أفريقيا ومالطا وأوروبا والمشرق العربي أعمال القرصنة، على حدٍّ سواء. فكما كتب إيبوليت فيشينسكي: إن القراصنة البحريِّين – المالطيين =

تبدلت بالتدريج أيضًا توصيفات المسلمين في أدب الحج، وصارت مع الوقت أكثر تفصيلًا. وتعرضت صورة المسلمين للشتم مرارًا بالطبع، ولكننا لا يمكن أن نوافق بالكامل على رأي ك. أ. بانتشينكو الذي أشار إلى أنه مع بداية القرن الثامن عشر «شُيطِنَت صورة التركي (المسلم، إذا توخينا الدقة - المؤلِّفة) في الوعي الموسكوبي على نحوٍ نهائي»(69). صحيح أن التاجر بوزنياكوف أطلق الشتائم بحقِّ المسلمين في القرن السادس عشر: «الأتراك النجِسون (أي الكفار - المؤلِّفة)»، «الملحدون»، «العرب الذين يخالفون القوانين بإفراط»، ولكن نفوره من المسلمين لا يعود إلى الاختلاف في الدين، بقدر ما هو ناجم عن أن «الكثير من الرعب على الطريق كان سببه الأتراك والعرب في البحر والبر»(70). وتكررت اتِّهامات الحجاج بحقِّ

---

= والفرنسيِّين و«الإنفليمنكيِّين» (الهولنديِّين) والإنكليز والألمان و«الكليف» (اليونانيِّين) وغيرهم - «يلحقون أضرارًا فادحة، ويحطِّمون السُّفن الصغيرة»: «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 26.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 26].

كانت الحكومة العثمانية تُسَيِّر في مياه حوض البحر المتوسِّط الشرقي سفنًا حربية كبيرة كي تواكب قوافل السُّفن التجارية، البالغ عددها نحو 57 سفينة، مرة أو مرتين في السنة. وكما كتب فاسيلي غريغوريفيتش، فقد اضطر إلى التوقُّف شهرين في دمياط «لاستئجار سفينة، لأن الوضع في البحر كان خطيرًا جدًّا حينذاك بسبب القراصنة، ولم تكن السُّفن المسيحية تجرؤ على الإبحار. وبعد حلول فصل الشتاء وتفرُّق القراصنة، استأجرت سفينة مسيحية وأبحرت إلى طرابلس»: *Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 166, 217.

[**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ج 2، ص 166، 217].

من المعلوم أن التنقُّل برًّا عبر أراضي الإمبراطورية العثمانية انطوى على أعمال اللصوصية وعلى مخاطر أخرى، من بينها فساد رجال الجمارك. ويتحدث الحجاج أيضًا عن مصير سكان روسيا الجنوبية البائس، حيث وقعوا في الأسر أثناء غزوات تتار القرم. وقد دون فاسيلي غريغوريفيتش أسماء 40 أسيرًا وأسيرة روسًا، توسلوا طالبين العمل على تحريرهم، وكذلك أسماء مالكيهم من يونانيِّين وأتراك ويهود، وإبلاغ السفير بذلك ([**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي**، ص 375]).

(69) Панченко, «Старообрядец в Леванте,» с. 345.

[بانتشينكو، «مؤمن متمسك بالطقوس القديمة في المشرق، ص 345].

(70) Хожение купца Василия Познякова, с. 24, 31, 38.

[رحلة حجِّ التاجر فاسيلي بوزنياكوف، ص 24، 31، 38].

جدير بالذكر أن السُّفن المسلمة والحجاج المسلمين المتوجهِّين إلى مكة عانوا أيضًا من القراصنة والبدو. وكانت تُطلق صفة «حازي» (حاج، حاجي) على الحجاج المسيحيِّين في القدس، و«ميرحازي» =

المسلمين («الترك والعرب») لاحقًا أيضًا، لكنها كانت ناجمة من الغربة أكثر منها من الضغينة. وفي المقابل، اكتشف إيبوليت فيشينسكي بدهشة أن المسيحيِّين والمسلمين يمكن أن يسجدوا للمقدسات ذاتها (لأثناسيوس الكبير في أثناء العاصفة البحرية، لصورة القديس جاورجيوس في اللحظات الصعبة، لسنديانة سيدنا إبراهيم التي يحفظ لها «الأتراك قدسية خاصة»). فضلًا عن ذلك، يهتف الأتراك - بحسب قول إيبوليت - في أثناء وجودهم في كنيسة القيامة في عيد الفصح، عند ظهور النار المقدسة: «الله، الله، الإله المسيحي عظيم!»، أما الباشا نفسه «فقد بكى»[71] عند رؤيته هذه المعجزة. أما أرسيني سوخانوف فكتب أنه لم يصادف أي عداوة بين المسلمين حياله: «لم أسمع أي كلمة من أيِّ أحدٍ في أثناء المتاجرة أو خلال تجوالي المتكرِّر في المدينة أو حولها»[72].

عَمَدَ حجاج عصر التنوير، من أمثال ليونتي زيلينسكي والراهب إيغناتي، في معرض المقارنة بين «جماعتنا» و«الغرباء»، إلى التركيز على أمور أخرى. فقد فضل كتاب القرن الثامن عشر محاكمة «الآخرين» بسبب «وحشيتهم» بالدرجة الأولى، فكتبوا عن «العرب المتوحِّشين»، زاعمين أن وحشيتهم تنبع من بربريتهم («العرب الأشرار برابرة»). وكان يجري الحديث عادةً في هذه الحال عن البدو والجبليِّين، الذين كانت الغزوات بالنسبة إليهم وسيلة عادية لتأمين متطلبات العيش؛ علمًا

= (وهو كلمة محرفة من «أمير الحج») التي كانت تُطلق على رؤسائهم. وقد استعمل الحجاج الرُّوس هذين المصطلحين.

(71) «Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим,» с. 25, 59, 91, 98.

[«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس»، ص 25، 59، 91، 98].

(72) «Проскинитарий *Арсения* Суханова,» с. 59.

[«كتاب رحلة الحج لأرسيني سوخانوف»، ص 59].

يكرِّر إيفان لوكيانوف أقوال أرسيني سوخانوف: «ويتهم أولئك الشيوخ اليونانيُّون التركي اللطيف ظلمًا بأنه يمارس العنف. لقد رأينا بأنفسنا أنهم لا يتعرضون لأيِّ عنف، سواءٌ أفي دينهم، أم في أيِّ أمر آخر. الكلُّ يكذبون بحق التركي»: *Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова, 1701-1703*, с. 37.

[رحلة حج الكاهن الموسكوبي يوحنا لوكيانوف إلى الأرض المقدسة، 1701-1703، ص 37].

أن الحجاج الرُّوس كانوا منذ القدم يشعرون بالاستياء من «هوس» إخوة الدين العرب، الذين كانوا يأتون في عيد الفصح ويجتمعون في كنيسة القيامة، فيعبِّرون عن مشاعرهم، وفقًا للتقاليد الشعبية على نحوٍ عاصف: «يطوف الأحباش حول قبر السيد المسيح، يحملون أربعة دفوف كبيرة، ويدورون حول القبر، يضربون على الدفوف، يقفزون ويتراقصون كالمهرِّجين، ويعودون إلى الخلف مجددًا ويقفزون. إنني لأعجب لرحمة الربِّ الذي يتحمل كل ذلك. يعجز الإنسان عن تحمل رؤية هذا الجنون الشيطاني الذي يمارسه هولاء الملاعين في الكنيسة حول قبر السيد المسيح»[73]. وفي القرن الثامن عشر، وصف المالوروسي[74] ليونتي زيلينسكي، هذا بأنه «مشهد شنيع» و«مهزلة عربية»[75]. وجدير بالذكر أن أرسيني سوخانوف تعامل مع هذا التصرُّف في أواسط القرن السابع عشر بقدر أكبر من الهدوء، بوصفه تقليدًا غريبًا وغير عاديٍّ بالنسبة إليه: «كانت هناك نيران كثيرة في كلِّ أنحاء الكنيسة، وكان زعيق وضجيج وضغط، وصراخ لا مثيل له؛ بعضهم يلعب، والآخر يقفز كيفما اتفق، الشبان والفتيان من كل الأديان هنا، **ومعهم جماعتنا** (أي الأرثوذكس – المؤلِّفة)»[76].

هكذا، صار الحجاج في القرنين السابع عشر والثامن عشر يولون خصائص شعوب حوض البحر المتوسِّط الإثنية والدينية اهتمامًا متزايدًا. وصار الحجاج الرُّوس في تلك الحقبة يُفرِّقون بين كلٍّ من العرب والأتراك والتركمان، ويُظهرون الاهتمام باللغتين العربية والتركية، وكثيرًا ما يُضَمِّنون نصوصهم جملًا عربية وتركية؛ بالرغم من أن ذلك لم يكن ليُلغيَ التشوُّش السابق في تحديد انتماء «الغرباء» الديني والإتني، وكذلك وجود بعض التصوُّرات الخرافية عنهم (فتحت تأثير النصوص التوراتية، أطلق فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي، على سبيل المثال، في البداية اسم «الأثيوبيِّين» على الفلسطينيِّين العرب).

---

(73) المرجع نفسه، ص 42-43.

(74) من روسيا الصغرى. (المترجم)

(75) Письма монаха Полтавского монастыря о. Мартиниану, Л. 278.

[رسائل الراهب في دير بولتافا الأب مارتينيانو، الورقة 278].

(76) «Проскинитарий *Арсения* Суханова,» с. 88.

[«كتاب رحلة الحج لأرسيني سوخانوف»، ص 88].

من الواضح أن كتابات الحجاج عن الأراضي المقدسة أصبحت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ذات شعبية، وليس في الأوساط العلمية الكنسية أو المحيطة بالكنيسة فحسب[77]، كما كان الأمر في السابق. فقد أشار ناشر «أسفار» غريغوريفيتش بارسكي، ف. غ. روبان في مقدِّمة الكتاب، إلى أن مؤلف غريغوريفيتش «ينسخه كلُّ من وصلت إليه ولو معلومات ضئيلة. ففي روسيا الصغرى والمحافظات المحيطة بها، ليس من مكان أو منزل معروف إلا ووُجِدت فيه نسخة. وقد أعيد نسخه مراتٍ عديدةً في كلِّ المدارس الدينية تقريبًا لحفظه في أرشيفات الأبرشيات، وسعى أشخاص صالحون، روحيون وعلمانيون، إلى الحصول عليه لقاء مبالغ كبيرة»[78].

جذب أدب الحجِّ انتباه الأوساط العليا الحاكمة بصورة مبكِّرة نسبيًّا؛ فصارت المعلومات الواردة في كتابات الحجاج تُدون في أوراق مكتب السفارة (هيئة الشؤون الخارجية منذ أيام بطرس الأكبر)، أما المخطوطات فقد حُفِظت في مكتب وزارة خارجية الإمبراطورية الروسية وأرشيفها؛ كما عَمَدَ السفراء الرُّوس في القسطنطينية إلى استجواب الحجاج[79].

هكذا، غدت تقاليد الحجِّ على مدى قرون طويلة من روس القديمة ومملكة موسكو وروسيا إلى الأراضي المقدسة، في رأينا، قناة بالغة الأهمية

---

(77) عن شعبية النماذج الأخرى من أدب الحج يدلُّ واقع الأمر على أنه وصل إلينا عدة مئات من النسخ من كتابات تناولت أكثر من 70 رحلة حج. وبحسب معلومات ن. إ. بروكوفييف فقد وصلنا مئات عديدة من النسخ من «رحلة حج تريفون كورابينيكوف»، وثمة 150 نسخة معروفة من «رحلة حج القمّص دانيال». ولكن، اكتُشفت خلال القرن التاسع عشر كتابات عن رحلات الحجِّ، ويوجد منها نسخة واحدة واحدة أو بضع نسخٍ وحسب:

*Книга хожений*, с. 5.

[كتاب الرحلات، ص 5].

(78) *Странствования Василья Григоровича-Барского.*

[أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي].

(79) في عام 1743، في نهاية فترة وجوده في الشرق الأوسط، تلقى فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي دعوة من السفير الروسي في القسطنطينية (اسطنبول) ألكسي أندرييفيتش فيشيانكوف، حيث حكى غريغوريفيتش للسفير عن رحلته على مدى أيام عديدة أثناء مآدب مشتركة جمعتهما:

*Странствования Василья Григоровича-Барского*, Ч. II, с. 369-370.

[أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي، ج 2، ص 369-370].

ليس لنقل التراث الكنسيِّ المسيحيِّ إلى أوروبا الشرقية فحسب، بل كذلك لنقل صورة حوض البحر المتوسِّط، التي تشبعت من عصر إلى آخر بسماتٍ وحقائق جديدة. ومع ذلك، فقد ظل عالم حوض البحر المتوسِّط يُمَثِّل في هذه التقاليد مجرد مدخل إلى القدس. فقد غدا هذا العالم ضيقًا على إنسان التنوير. فالاهتمام المتزايد في أوروبا بمنابع الحضارة الكلاسيكية، أدى إلى اكتشاف عالَمِ شرق البحر المتوسِّط على نحوٍ مختلف. فلم يعد يجري الانحناء أمام المقدسات الدينية، بل أمام إبداعات الهيلينيِّين الوثنيِّين. وبدأ الاهتمام بشرق حوض البحر المتوسِّط في روسيا ينتقل تدريجًا - خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر - من الأراضي المقدسة إلى الأراضي اليونانية. وجدير بالذكر أن اهتمام القيادة انصب على الأرض المقدسة، إبان حملة الأسطول الروسيِّ في الأرخبيل، من منطلق الحصول المفاجئ على حليفين هناك، هما علي بك وظاهر العمر. ونعتقد أن ضابطًا روسيًّا وحيدًا، هو الملازم سيرغي بليشييف، قُدِّرَ له زيارة الناصرة وقانا الجليل في الأراضي المقدسة. ولكن لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن المادة الثامنة من معاهدة كوتشوك - كاينارجي (1774) تضمنت شرطًا خاصًّا ينصُّ على حقِّ الحجاج الرُّوس في الوصول إلى القدس[80].

## حوضُ البحرِ المتوسِّط اليونانيُّ وروسيا

كان لتعرُّف الرُّوس على حوض البحر المتوسِّط اليونانيِّ جذوره العميقة ومصادره المتنوِّعة أيضًا.

حدد «اختيار الدين» الذي قام به الأمير فلاديمير، مسبقًا، **الدور الخاص** الذي اضطلع به **اليونانيُّون**، من بين شعوب منطقة البحر المتوسِّط، بحملهم ثقافة الشرق الأرثوذكسي إلى روس القديمة، ومن ثم روسيا. وقد اكتملت العلاقات العسكرية - السياسية والتجارية بين روس القديمة وبيزنطة في القرن العاشر، بعلاقات كنسية يونانية - روُّسية متنوِّعة. حتى أواسط القرن

(80) *ППС*, t. 14, nos. 14-164, c. 960.
[المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية، مج 14، الأعداد 14-164، ص 960].

الخامس عشر، كانت الكنيسة الروسية في حال تبعية لبطاركة القسطنطينية المسكونيِّين، الأمر الذي لم يُحدِّد مسبقًا تنصيب يونانيِّين غالبًا على كرسيِّ المطرانية في كييف وفلاديمير، وفي موسكو لاحقًا، بل انتقال رؤساء الكهنة الرُّوس إلى القسطنطينية أيضًا. وكان من شأن إقامة بطريركية خاصة في موسكو في عام 1589 وتأسيس الإدارة البطريركية أن أسهم في توطيد العلاقات الكنسية. فمنذ نهاية القرن السادس عشر وعلى امتداد القرن السابع عشر، زار البطاركة الأرثوذكس من البطريركيات الشرقية الأربع كلِّها دولة موسكو، وشاركوا بنشاطٍ في شؤونها السياسية الخارجية والداخلية[81].

غالبًا ما اضطلع كبار رجال الدين الأرثوذكس اليونانيُّون - ابتداءً من القرن السادس عشر - بدور المستشارين لدى السفراء والوسطاء الرُّوس في علاقاتهم مع الصدر الأعظم[82]، وكانوا في أحايين كثيرة عبارة عن عملاء سياسيِّين بأجورٍ مرتفعة. فبفضل «الرسائل الدورية» من هؤلاء تمكنت حكومة موسكو من متابعة الأحداث في الإمبراطورية العثمانية؛ علمًا أن المعلومات كانت

(81) في عام، 1586 زار موسكو بطريرك إنطاكيا يواكيم، الذي طلب منه القيصر فيودور إيفانوفيتش المساعدة في إنشاء بطريركية موسكو. وفي عام 1588، استقبلت موسكو بطريرك القسطنطينية يريميا، الذي بارك تأسيس البطريركية في روسيا. وفي عامي 1619 و1620، كان في موسكو بطريرك القدس فيوفان المشارك في مجمع موسكو، الذي انتخب البطريرك فيلاريت. وفي عام 1649، وصل بطريرك القدس بايسي وشارك بنشاط في أعمال ضمٍّ أوكرانيا إلى روسيا. وفي عام 1653، جاء إلى موسكو البطريرك المسكوني السابق آفاناسي طالبًا التبرُّعات (تميز الكرسي المسكوني في القسطنطينية بتغيير بطاركته بكثرة). وخلال الفترة بين عامي 1654-1656، كان في روسيا بطريرك أنطاكيا ماكاري الذي شارك في مجمع تصحيح كتاب الخدمة في الكنيسة وغيره من الكتب الكنسية. وفي عامي 1666 و1667، شارك بطريرك الإسكندرية بايسي وكذلك بطريرك أنطاكيا ماكاري في المجمع الذي خلع البطريرك نيكون. يُنظر: Макарий (Булгаков), *История русской церкви*, Кн. V-VI; Панченко, *Османская империя и судьбы православия на Арабском Востоке*, с. 82-86.

[ماكاري (بولغاكوف)، **تاريخ الكنيسة الروسية**، الكتابان 5-6؛ بانتشينكو، **الإمبراطورية العثمانية ومصائر الأرثوذكسية في الشرق العربي**، ص 82-86].

(82) كانت الكتب الواردة من البعثات وتقارير المبعوثين الرُّوس المرسلين إلى تركيا لدواعٍ مختلفة (بلغ عدد هذه البعثات ثلاثين)، وتمثِّل مصدر المعلومات الأهم عن حوض البحر المتوسِّط الشرقي: Данциг, с. 22.

[دانتسيغ، ص 22].

في حالاتٍ كثيرةٍ ذات طابع ذاتي، وتخدم مصالح المخبرين السياسية. وعلى حدِّ تعبير ب. أ. تولستوي، ممثِّل روسيا الأول في القسطنطينية، فإن اليونانيِّين «كلهم يكذبون، ولا يمكن الوثوق بهم إطلاقًا»[83]. ولكن لم يصبح بالإمكان الاستغناء عن خدمات كبار رجال الدين القسطنطينيِّين والمترجمين اليونانيِّين والتخلُّص من التبعية لهم، إلا بعد إنشاء سفارة روسية دائمة في الإمبراطورية العثمانية، لديها مِلاكُها الخاصُّ من المترجمين والعملاء.

تراكم كمٌّ كبيرٌ من السلبيات خلال التاريخ الطويل من العلاقات الكنسية الروُّسية – اليونانية، من مشكلات ونزاعات عالقة وشكاوى متبادلة، وقد تركت آثارها على العلاقات مع إخوة الدين اليونانيِّين. وكانت المشكلات موجودة دائمًا، لكنها تفاقمت على نحوٍ خاصٍّ بعد مجمع فيرارو الفلورنسي (1437–1440). وقد ولدَ بيان الوحدة بين الكنائس الذي أقره المجمع، أسطورة في المجتمعين اليوناني والروسي، مفادها أن سقوط القسطنطينية كان نتيجة انحراف اليونانيِّين عن الدين[84]. وعلى الرغم من تخلِّي بطاركة القسطنطينية اللاحقين عن الوحدة، إلا أنهم ظلُّوا في روسيا القديمة يتهمون اليونانيِّين بالانحرافات

---

(83) П. А. Толстой, *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота*, Сост., вступ. статья, археографическое введение С. Ф. Орешковой, примечания и указатели И. В. Зайцева (М., 2006), с. 346.

[ب. أ. تولستوي، **وصف البحر الأسود: أرخبيل إيجة والأسطول العثماني**، الإعداد والمقالة الافتتاحية والمقدِّمة الأثرية الجغرافية بقلم س. ف. أوريشكوفايا، تعليقات وتوجيهات إ. ف. زايتسيف (موسكو، 2006)، ص 346].

حذر بطريرك القدس دوسيفي، العميل والمستشار الروسي الأهم ب. أ. تولستوي من أن «اليونانيِّين لا يحفظون السر».

(84) يُنظر رسالة المطران فيليب في عام 1471 إلى نوفوغوردتسي: Каптерев, с. 6-7.

[كابتيريف، ص 6–7].

وجدير بالذكر أنه إلى هذه الأسطورة بالذات يستند القيصر فيودور والبطريرك أيوب في المذكرة الموجهة إلى بطريرك القسطنطينية. يُنظر: К. Ю. Ерусалимский, «История на посольской службе: дипломатия и память в России XVI в.,» in: *Исто-рия и память: Историческая культура Европы до начала нового времени*, Под ред. Л. П. Репиной (М., 2006), с. 724.

[ك. ي. يروساليمسكي، «تاريخ الخدمة في السفارة: الدبلوماسية والذاكرة في روسيا في القرن السادس عشر»، في: **التاريخ والذاكرة: ثقافة أوروبا التاريخية حتى بداية العصر الحديث**، بإشراف ل. ب. ريبينا (موسكو، 2006)، ص 724].

الهرطقية. فضلًا عن ذلك، كان من بين اليونانيِّين الذي انخرطوا في خدمة القيصر، أو جاؤوا إلى روسيا طلبًا للإحسان، عدد لا يستهان به ممن اشتُبِهوا بالكذب والطمع. وقد خلق ذلك صورة متناقضة في الوعي الروسي عن إخوة الدين اليونانيِّين، فهم إما متديِّنون ومتعلِّمون - إنما متكبرون ومتعجرفون - وإما طماعون ومُخادعون وكذابون[85]. والجدير ذكره أن الكثير من الشكاوى كانت متبادلة، وعادت لتظهر مجددًا بسهولة في القرن الثامن عشر، عندما قيام العلاقات الروُّسية - اليونانية الأولى.

في الحقبة الكييفية[86]، يمكن الافتراض أن المعارف الأولى عن بنطس العظيم[87] أو البحر الأبيض (بحر إيجة)، لم تظهر بفضل وصول رجال الدين اليونانيِّين إلى روسيا القديمة وحسب، بل كذلك بفضل التجار اليونانيِّين الذين كانوا يرافقون بضاعتهم في طريقهم من الفارياغ[88] إلى اليونان. وقد ظل التجار الرُّوس طويلًا عاجزين عن منافستهم. وعلى الرغم من أن الحجاج تحدثوا عن التقائهم تجارًا روسًا في القسطنطينية والأرخبيل، بل حتى في مصر، إلا أن مشاركة التجار الرُّوس في التجارة المتوسطية لم تكن ذات شأن قبل القرن التاسع عشر. ولم تنقطع العلاقات التجارية مع اليونانيِّين حتى بعد سقوط بيزنطة. فقد اعتبر الباب العالي العثماني البحر الأسود بحيرة داخلية، ظلت حتى صلح كوتشوك - كاينارجي في عام 1774، لا يُسْمَح بالملاحة فيها إلا للسُّفن التي تعود لرعايا الإمبراطورية. وقتذاك، تمكن البحارة اليونانيُّون في الإمبراطورية العثمانية من توطيد موقعهم وسطاءَ تجاريِّين بين حوض البحر

(85) يُنظر: Каптерев, с. 346 и др.
[كابتيريف، ص 346 وغيرها].

(86) المقصود الحقبة التي كانت فيها كييف مركزًا للدولة الروسية القديمة (روس الكييفية). (المترجم)

(87) إحدى تسميات البحر الأسود القديمة. وقد اشتُهِرَ لدى الإغريق باسم بنطس أوكسينوس، أي «البحر المضياف» وعرفه العرب قديمًا ببحر البنطس (Pontus). (المترجم)

(88) **الفارياغ**، أو الفارياغيُّون (Varyages بالإنكليزية): جماعة قطنت روسيا القديمة، وكان الرُّوس يطلقون هذا الاسم على المتحدِّرين من اسكندنافيا ومن شعوب أخرى مجاورة (سلافيُّو منطقة البلطيق). وقد اشتهر الفارياغ في روسيا القديمة وبيزنطة باعتبارهم جنودًا مرتزقة وتجارًا. ويربط بعض المصادر في روسيا بينهم وبين الفايكنغ. (المترجم)

المتوسِّط وروس القديمة[89]، ثم مع روسيا (ليس بوصفهم وسطاء تجاريِّين فحسب؛ إذ إن الحجاج الرُّوس، مثلًا، كانوا يرسلون التقارير إلى السلطات والرسائل إلى الأقارب بواسطة التجار اليونانيِّين)[90].

جرت بطرائق مختلفة أيضًا عملية اكتشاف الرُّوس حوض البحر المتوسِّط اليوناني بصورة مستقلة.

كان فضاء الأماكن المقدسة في الشرق، ولا سيما المبجل منها، يبدأ بالنسبة إلى الحاج الروسي من العالم اليونانيِّ، أي من القسطنطينية («تساريغراد» وتعني مدينة القيصر). وقد اكتفى عددٌ غير قليل من الحجاج عمومًا بزيارة هذه المدينة فقط، حيث كانت كاتدرائية أياصوفيا وحدها، قبل الاحتلال العثماني، بما فيها من مقدسات، تمثِّل عالمًا كاملًا في حدِّ ذاتها[91]. ولكن، إذا ما تابع الحاج مسيرته[92] في اتِّجاه الأراضي المقدسة بفلسطين، فسيجد في طريقه

(89) كانت الجاليات اليونانية موجودة في روسيا الموسكوبية - في كلٍّ من موسكو ونيجني، ابتداءً من القرن السابع عشر على وجه الخصوص - وبعد حقبة بطرس الأكبر بدأت الجالية اليونانية تتشكل في بطرسبورغ. ففي عام 1708، بلغ عدد الذين سُجِّلوا في موسكو وحدها أحد عشر شخصًا برتبة دينية ونقيبًا واحدًا و22 تاجرًا يونانيًّا، و31 حرفيًا، كما عُثِرَ على ثلاثين يونانيًّا لم يأتوا فورًا للتسجيل في مقرِّ السفارة [المقصود هيئة الشؤون الخارجية، التي تحولت لاحقًا إلى وزارة شؤون الإمبراطورية الروسية الخارجية (المترجم)]. وتشير الوثائق التي عثر عليها ن. ف. كابتيريف إلى أنه كان يوجد في ممثِّليات البطاركة الشرقيِّين لدى القيصر تجار يونانيِّين بصفة أقارب للبطريرك. يُنظر أيضًا قانون عام 1710 عن الجالية اليونانية في نيجني وحقوقها وامتيازاتها، الذي أقرته إليزابيت بيتروفنا في عام 1742. M. Чулков, *Историческое описание российской коммерции при всех портах и границах от древних времян* (СПб., 1785), t. 2, Кн. 1, c. 65.

[م. تشولكوف، **عرض تاريخي للتجارة الروسية في جميع المرافئ والحدود منذ العصور القديمة** (سان بطرسبورغ، 1785)، مج 2، الكتاب الأول، ص 65].

(90) يُنظر: «Проскинитарий *Арсения* Суханова,» c. 34.

[«كتاب **رحلة الحج** لأرسيني سوخانوف»، ص 34]؛ أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي في الأماكن المقدسة في الشرق من عام 1723 حتى عام 1747.

(91) لمزيد من التفصيل، يُنظر: G. P. Majeska, *Russian Travelers to Constantinople in the Fourteenth and Fifteenth Centuries* (Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1984).

(92) تجدر الإشارة هنا إلى أن الحجاج الذين لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانية، كانوا يلجأون إلى خدمات المترجمين اليونانيِّين، ويفضِّلون الانتقال على متن السُّفن اليونانية، وينزلون في المآوي التابعة للأديرة اليونانية الأرثوذكسية، ويقيمون العلاقات مع رجال الدين الناطقين باليونانية.

آثوس وجزر الأرخبيل اليوناني وقبرص، التي اكتسبت قداستها، وفق التقاليد الكنسية، بفضل حياة وأفعال وأضرحة القدِّيسين، آباء الكنيسة، وعددٍ لا يُحصى من الشهداء المبجلين؛ وليس عبثًا أن القمْص دانيال قال عن قبرص إنه «يرقد فيها عدد لا يُحصى من القدِّيسين»[93]. (جدير بالذكر أن الإسلام الشعبي - أحد الأديان الإبراهيمية - كان يضفي قدسية على الأراضي التي يرقد فيها الأتقياء)[94].

تراكمت المعرفة عن القسم اليونانيِّ من حوض المتوسِّط في أرشيفات الدولة أيضًا. ولم يؤدِّ ظهور دولة غير صديقة تُدين بدينٍ مغاير على أراضي الإمبراطورية البيزنطية في القرن الخامس عشر، إلا إلى ازدياد الحاجة المُلحة في الحصول على معلومات سياسية. وفي المحصِّلة، نشأ منذ نهاية القرن السادس عشر تقليد يقضي أن يكون دخول روسيا من جهة الجنوب عبر بوتيفل[95] فحسب، وكان على رئيس إقليم بوتيفل، وقبل أن يطلب من موسكو الإذن بالسماح للأجانب بالعبور إلى أراضي الدولة أن يسأل: «من هم ومن أين أتوا، وعبر أي أراضٍ ومدن مروا، ولأيِّ غرض يتوجهون إلى موسكو، وماذا يحملون معهم، أيْ هل من مقدسات في حوزتهم، وهل لديهم إفادات من البطريركية أو وثائق تحمل أخبارًا سياسية من مختلف عملاء حكومتنا؟»[96]. وفي مركز الشؤون الخارجية بموسكو كان يُستأنف استجواب الوافد، فيُسأل عن البلدان التي زارها، وماذا رأى وسمع في الطريق، وهل من حرب في مكانٍ ما أو استعدادات لها، وما شابه ذلك[97]. واكتسب جمع المعلومات العسكرية

(93) «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» с. 30-31.
[«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 30-31].

(94) H. Laust, *Les Gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans (658-1156/1260-1744)*, traduction des Annales d'ibn Tulun et d'ibn Gum'a (Damas, 1959), p. 246.

(95) بوتيفل: مدينة في أوكرانيا. بسطت روسيا سيطرتها عليها في عام 1500، وأصبحت المدينة وقلعتها الشهيرة أحد مواقع الدفاع الرئيسة على تخوم الإمبراطورية الروسية الجنوبية الغربية. (المترجم)

(96) Каптерев, с. 105.
[كابتيريف، ص 105].

(97) المرجع نفسه، ص 110.

=

والسياسية عن حوض البحر المتوسِّط الشرقي طابعًا منتظمًا منذ بداية القرن الثامن عشر، عندما ظهرت ممثلية روسية دائمة في القسطنطينية (عُين ب. أ. تولستوي كأول سفير دائم في القسطنطينية في نهاية عام 1701). وعندئذٍ، قام ب. أ. تولستوي بوضع الوصف الروسي الأول لجزر الأرخبيل اليوناني، بتكليفٍ من بطرس الأكبر، وزوده بمخططات ورسوم من الأطلس التركي لبيري رايس (الصادر في القرن السادس عشر)[98]. وجدير بالذكر أن وثائق مركز الشؤون الخارجية أو مجموعات هيئة الشؤون الخارجية، ما كادت تكون معروفة خارج جدران هاتين المؤسستين. وكان إسهام المعلومات الواردة فيها في خلق صورة الحضارة المتوسطية اليونانية ضعيفًا، مقارنةً بالدور الذي أدته المعارف التي تضمنتها الكتب في هذا المجال.

بالنسبة إلى الروسي القديم المُولَع بالكتب، وصلت صور الحضارة اليونانية العريقة وعظمة الإمبراطور قسطنطين، بالدرجة الأولى، عبر شواهد التقاليد الكنسية البيزنطية. وقد حضر العالَمُ اليونانيُّ في الكثير من المؤلفات المعتمدة على قراءةٍ لا بد منها لأدب سِيَر القدِّيسين (الهاغيوغرافيا) البيزنطي، ولمختلف السِّيَر التاريخية ولترجمات هوميروس والمؤلفات المنسوبة إلى أرسطوطاليس[99]. حتى إن الحجاج الأرثوذكس المولعين بالكتب، ابتداءً من

---

= تواصل استخدام تجربة الحصول على المعلومات من شهود العيان في القرن الثامن عشر أيضًا. فكان على جميع البحارة الذين أُرسِلُوا بأمر من كاترينا الثانية للتدريب في الأسطول الإنكليزي تقديم إفادات مكتوبة عن كلٍّ ما رأوه في الخارج.

(98) يُنظر: **Толстой,** *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота.*

**[تولستوي، وصف البحر الأسود: أرخبيل إيجة والأسطول العثماني].**

(99) يُنظر: *Словарь книжников и книжности Древней Руси* (СПб., 1987-1998), Вып. 1-3.

**[قاموس الكتاب والمكتبات في روسيا القديمة** (سان بطرسبورغ، 1987-1998)، الإصدارات 1-3].

يُنظر أيضًا: **Э. Д. Фролов,** *Русская историография античности (до середины XIX в.)* (Л., 1967); **Д. М. Буланин,** *Антич-ные традиции в древнерусской литературе XI-XVI вв* (Munchen: Sagner, 1991).

[إ. د. فرولوف، **التأريخ الروسي للعصر الكلاسيكي القديم (حتى أواسط القرن التاسع عشر)** (لينينغراد، 1967)؛ د. م. بولانين، **تقاليد العصر القديم في الأدب الروسي القديم في القرون الحادي عشر - السادس عشر** (ميونيخ: ساغنير، 1991)].

القمْص دانيال، لم تفهم الإشارة إلى مكان موقع طروادة الوثنية التي سمعوا بها: «ومقابل تلك الجزيرة [كريت] كانت توجد مدينة عظيمة اسمها طروادة» (علمًا أن طروادة بالنسبة إلى دانيال كانت مقدسة وفقًا للرواية الكنسية: «وهنا مشى القدِّيس بولس، وعلم هذه البلاد كل شيء وعمدها»)[100].

في القرن الثامن عشر، واصل الحجاج، في أثناء زيارتهم المقدسات المسيحية اليونانية، البحث باندفاعٍ كبيرٍ عن الأسماء والأماكن المشهودة، المرتبطة بالعصر الكلاسيكيِّ القديم. وينطبق ذلك بصفة خاصة على فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي الذي عاش في آثوس، وكذلك في باتموس وفي القسطنطينية. فقد لاحظ في مؤلفاته أن «جزيرة ستانكو» كانت موطن الفيلسوف والطبيب أسكليبيوس، «تلميذ أبوقراط»[101]، بل إنه قارن بين مدرسة ماكاري في باتموس وبين أكاديمية أثينا القديمة («كبُرَت هذه المدرسة بفضل جهوده وسمعته وحكمته، وغدت بالنسبة إلى اليونانيِّين الفقراء الرازحين تحت نير المحمديِّين في الأسر، كتلك التي كانت قائمة في أثينا القديمة»)[102].

بالنسبة إلى القارئ الروسيِّ العلمانيِّ، المتابع للفلسفة الغربية، صار العالم اليونانيُّ الأثوذكسيُّ في القرن الثامن عشر يتوارى تدريجًا، أو راح يتشابك على نحوٍ غير مألوفٍ بالعصر الإغريقيِّ الوثنيِّ، مُولِّدًا تصوُّرات عن العلاقة الجينية بين التراث الإغريقي القديم وبين اليونان المعاصرة. لقد كانت هذه الانطباعات أدبية حصرًا، وظهرت على أساسها صورة جديدة عن اليونان، التي أضفت على سكانها سمات مُتَوَهمة تعود إلى أبطال الإغريق القدامى. وليس عبثًا أن الرُّوس صاروا يطلقون اسم «الإسبارطيِّين» على أهالي بيلوبونيز[103]، على غرار الأوروبيِّين الغربيِّين، (علمًا أن فولتير نفسه اقترح على كاترينا الثانية بكلِّ

---

(100) «Хожение Даниила, игумена Русской земли,» с. 29.

[«رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، ص 29].

(101) *Странствования Василья Григоровича-Барского,* Ч. II, с. 19, 162, 178.

[أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي، ج 2، ص 19، 162، 178].

(102) المرجع نفسه، ص 189.

(103) لمزيد من التفصيل في هذا الصدد، يُنظر الفصلان التاسع والعاشر.

جدية، إحياء الأكاديمية القديمة في أثينا). ولا يسعنا إلا الموافقة على ملاحظة إ. د. فرولوف أنه في ظروف الولع بالتراث الكلاسيكيِّ غدت حضارة العصر الإغريقيِّ القديم «بيئة شاملة اغتذى عليها تَكَوُّن الوعي الاجتماعي، بحيث إذا أخذنا أي مجالٍ من مجالات الثقافة أو الأيديولوجيا، فسنعثر فيه على الأشكال الإغريقية القديمة، على المادة الإغريقية القديمة، بوصفها المنطلق لتطوُّر التصوُّرات الأصيلة»[104].

هكذا، كانت سُبُل استكشافِ روسيا فضاءَ منطقة البحر المتوسِّط الثقافي والسياسي والاقتصادي مختلفةً عما كانت عليه في البلدان الأوروبية. فقد ركزت روسيا القديمة اهتمامها منذ البداية على بيزنطة، وظلت فترةً طويلةً بعد سقوط القسطنطينية تعتمد في تعرُّفها هذه المنطقة إلى التجربة السابقة للعلاقات داخل الطوائف، وإلى الوساطة اليونانية. وليس من قبيل المصادفة أن كاترينا الثانية أمرت بدعم إخوة الدين اليونانيِّين في نضالهم ضد النِّير العثماني «البغيض»، عندما أرسلت حملة الأرخبيل إلى حوض البحر المتوسِّط الشرقي، بوصف هذا الدعم إحدى مهمات مشروعها الرئيسة. وغدا التعاون مع اليونانيِّين (على أملِ تقديم الدعم الممكن لإخوة الدين الآخرين في البلقان) الشغل الشاغل لمنظِّمي الحملة والمشاركين فيها، ولا سيما في مرحلتها الأولى بوجهٍ خاص. ولكن، وكما تَبَينَ سريعًا في ما بعد، فإن توقُّعات اليونانيِّين والرُّوس المتبادلة، المرتكزة على التصوُّرات الميثولوجية بصورة أساسية من كِلَا الجانبين، انطوت على خيبة أملٍ عميقة واستياءات ونزاعات. وعمومًا، فقد تركت العلاقات مع اليونانيِّين - التي تبدلت مرارًا على امتداد حملة الأرخبيل من الإعجاب إلى العدائية - تأثيرها من حيث الجوهر في خطط كاترينا المتوسطية وفي استراتيجية خوض الحرب.

ظلت روسيا على مدى قرون تُفضِّل المنطقة الشرقية على الغربية من البحر المتوسِّط، وحكمت عليها من خلال شهادات اللاهوتيِّين ورجال الدين والحجاج الرحالة، أكثر من معرفة التجار والبحارة والعسكريِّين العملية. وفقط

(104) Фролов, с. 86.
[فرولوف، ص 86].

في القرن الثامن عشر أخذت صورة هذا العالَم تفقد تدريجًا سمات عتبة القدس المقدسة الرمزية، وصارت تتشبع بالحقائق الدنيوية. ولكن، يمكن القول بكلِّ ثقةٍ إن الصورة المستمدة من الكتب، المشبعة بالرموز المسيحية، عن الفضاء المتوسِّطي الشرقيِّ ظلت تهيمن في روسيا حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولم يبدأ استكشاف هذا الفضاء بصورة عملية على نطاق لم يسبق له مثيل، إلا مع حملة كاترينا الكبرى في الأرخبيل.

## الموضوع الثاني

# مَكيدةُ كاترينا الثانية السياسية في مصر إبان حرب الأعوام 1787-1791 : كونراد طونوس

إ. م. سميليانسكايا

استُكمِلت العلاقات الروسية - العربية والتعاون العسكريُّ - السياسيُّ بين الجانبين إبان حرب الأعوام 1768-1774، بإنشاء الخدمة القنصلية[1]، التي كان يجري عبرها التواصل مع السكان العرب، وكذلك تنظيم مهمة كونراد طونوس السرية.

غدت مهمة طونوس في حدِّ ذاتها مثالًا على المكيدة السياسية المُدبرة على نحوٍ بارع، القائمة على سيناريو محبوك ومبنيٍّ على خطوات سياسية معقدة محفوفة بالمخاطر، مُعدة مسبقًا، ومحسوبة جيِّدًا على ما بدا؛ وذلك لتحقيق هدفٍ مرسومٍ بدقة يتمثل في سلخ مصر عن الإمبراطورية العثمانية. وبما أن العملية جرت تحت غطاءٍ كثيفٍ من السرية، فقد كان من المفترض أن تترك لدى غير العارفين بحقائق الأمور انطباعًا بأنها مجرد تحوُّلٍ عفويٍّ مفاجئٍ في الأحداث.

---

(1) مُنحت روسيا بموجب البند الحادي عشر من معاهدة كوتشوك - كاينارجي مع تركيا، منذ عام 1774، الحق بتعيين قناصل في كلِّ الأماكن التي تراها ضرورية. عارض الباب العالي على مدى عشر سنوات افتتاح القنصليات الروسية، وعندما عُقدت الاتفاقية التجارية ما بين روسيا وتركيا وفُعِّلت الاتفاقيات القديمة في عام 1784، أُنشئت القنصليات في الجزر الإيونية والبلقان وآسيا الصغرى وسوريا، حيث كان من مهامِّها توسيع علاقات روسيا والتجارة الروسية في كلِّ مناطق الإمبراطورية العثمانية. (المترجم)

كانت العملية تخريبية وموجهة ضد الإمبراطورية العثمانية. وبما أن روسيا كانت في حالة حرب معها، فقد اعتبرت كاترينا الثانية أنها في حلٍّ من أيِّ أعراف قانونية أو أخلاقية، يمكن أن تقيِّد حركتها؛ فكتبت في تعليماتها إلى طونوس: «بما أننا في حرب مفتوحة مع عدوٍّ المسيحية، فلا شيء يمنعنا من استخدام كلِّ الوسائل من أجل إلحاق الأذى به...»[2]. وعلى الرغم من إيلاء كاترينا هذه العملية أهمية كبيرة (فقد جاء في التعليمات الموجهة إلى طونوس: «نسأل الله العلي القدير أن يحميكم من كلّ شرٍّ، ونعدكم أن تأديتكم هذه الخدمة العظيمة لنا، لن تبقى من دون مكافأتنا الملكية الجزيلة»)[3]، فقد كانت بمثابة خيارٍ بديلٍ في منطقة البحر المتوسِّط. وبكلام آخر، فهي لم تكن خطًّا استراتيجيًّا، بل مجرد لعبة سياسية.

كان البارون كونراد (كوندرات، بحسب التسمية الروسية) فون طونوس نمساوي الجنسية («الأمة القيصرية»، بحسب القائمة الرسمية)، وكان له اثنتان وثلاثين سنة في عام 1782 (فهو من مواليد عام 1750). قبل عامين من ذلك، أي في آذار/ مارس 1780، وفيما كان يخدم في الجيش الملكي البولندي برتبة رائد أول، التحق بالرتبة ذاتها بفوج يامبورغ لِحَمَلَة البنادق القصيرة، من خارج المِلاك. أي بكلام أدق، التحق طونوس بالفوج، لكنه كان في إجازة دائمة، وبقي في خدمة الجنرال-الفيلدمارشال الكونت زاخار تشيرنيشوف «في موسكو «لمقتضيات الضرورة»، حيث كان يُكلف، على ما يبدو، بمهمات خاصة، لم يُذكَر شيء عن ماهيتها[4]. وعمومًا، كان ستار من السرية يلف شخصية

---

(2) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Сношения России с Турцией, Д. 980, Л. 6.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، علاقة روسيا مع تركيا، الملف 980، الورقة 6].

(3) المرجع نفسه، ظهر الورقة 5.

(4) *Список военному департаменту и находящимся в штате при войске в полках, гвардии, в артиллерии и при других должностях генералитету и штаб-офицерам* (СПб., 1784), с. 763; *РГВИА*, Ф. 489, Оп. 1, Д. 2087, Л. 329об.-330.

[قائمة بأسماء الجنرالات وضباط الأركان في ملاكات القوات في الأفواج وقوات الحرس والمدفعية والوظائف الأخرى، لدى الدائرة العسكرية (سان بطرسبورغ، 1784)، ص 763؛ أرشيف الدولة الروسية للتاريخ العسكري، المجموعة 489، القائمة 1، الملف 2087، ظهر الورقة 329-=

طونوس. ففي هيئة الشؤون الخارجية التي خدم فيها طونوس خمس سنوات ونصفًا، لم نتمكن من العثور على ملفٍّ شخصيٍّ له، أما مدونات القناصل فلم تتضمن سوى الكلمات الآتية: «استُخْدِمَ في مهمة سرية بمصر»[5].

في الأول من آذار/مارس 1783، «سُرِّح» كونراد طونوس من الفوج «ليُرسَل بناءً على مشيئة صاحبة الجلالة الإمبراطورية إلى بلادٍ غريبة»، أي إنه عُيِّن قنصلًا عامًّا في الإسكندرية، بدعمٍ من جهةٍ رفيعة، على ما نعتقد. فقد لفت طونوس الأنظار، على ما يبدو، باندفاعه في العمل وبخصاله الخاصة التي تجلت بصورة لامعة في ما بعد في مصر، ولا سيما بدهائه السياسي والشجاعة التي دافع بها عن كرامة العلم الروسي وعن مصالح وطنه الجديد. غادر طونوس إلى مصر برفقة زوجته الروسية «إيلينا أندرييفا وابنته، والأجانب الذين كانوا في خدمته، وهم يوغان تسينينداريوس وزوجته وأنطون فيريل»[6]. وكان هذا كلُّ ما لديه في روسيا. فلم يكن طونوس يملك أراضي ولا فلاحين أقنانًا، فطلب من الإمبراطورة قبيل سفره إلى مصر في مهمته السرية، في حال مقتله، الاعتناء بأسرته المؤلّفة من زوجته وثلاثة أطفال صغار («des «trois enfans tres jeunes»)، هو معيلهم الوحيد، إذا ما قُتِلَ، ووهبهم «قطعة أرض، تجد زوجته فيها مأوى، وتمكّنها من توفير تربية أطفالها على نحوٍ لائق»[7].

---

= الورقة 330]. يُنظر بعض التفاصيل الإضافية عن طونوس ومهمته، لدى: И. М. Смилянская, «О политике Екатерины II в Средиземноморье и первых российско-арабских политических контактах,» *Анналы* (Ин-т востоковедения РАН), Вып. V-VI (1997), с. 5-36.

[إ. م. سميليانسكايا، «عن سياسة كاترينا الثانية في حوض البحر المتوسط والعلاقات السياسية الروسية - العربية الأولى»، آنالي (معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الروسية)، الإصداران 5-6 (1997)، ص 5-36].

(5) АВПРИ, Ф. 89/8, Ед. хр. 2060, Л. 119об.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، وحدة الحفظ 2060، ظهر الورقة 119].

(6) *АВПРИ*, Ф. 2: Внутренние коллежские дела, Оп. 6, Д. 7251, no. 501, Л. 394.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 2: شؤون الهيئة الداخلية، القائمة 6، الملف 7251، العدد 501، الورقة 394].

(7) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 977, Л. 11об.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 977، ظهر الورقة 11].

يوحي سلوك طونوس في مصر وحقيقة بلوغه الرابعة والثلاثين من عمره أن البارون - الذي بدّل وظيفته وجنسيته مرتين على الأقل - ما كانت تنقصه روح المغامرة، وهي صفة كانت تحظى بالتقدير في القرن الثامن عشر. ولعل مَرَد انجذابه إلى الخدمة الروسية أن سياسة كاترينا الثانية وفريقها كانت تسير أحيانًا على حافة المغامرة، وهذا ما راق له وتلاءم مع نزعاته. وكان من الأسهل على الأشخاص العمليِّين والشجعان، فضلًا عن ذلك، شق طريقهم في الخدمة الروسية في عهد كاترينا.

في السنوات الثلاث الأولى من وجوده في الإسكندرية، اكتسب القنصل العام الروسي نفوذًا وسط القناصل الأوروبيِّين، وأقام علاقات «حميمة على نحوٍ خاصّ» (plus intimes)، بحسب تعبيره، مع إبراهيم بك (1735-1816) ومراد بك (1750-1801)، اللذين كانا في سدة السلطة، وهما مملوكان في الماضي لمحمد بك أبي الذهب، الجورجي الأبخازي الأصل (أباظي)، الذي كانت سياسته المستقلة تثير قلقًا جديًّا لدى الباب العالي.

خشية تكرار أحداث الحرب الروسية - التركية الأولى وانسلاخ مصر عن الإمبراطورية، أرسل الباب العالي، عشية الحرب الجديدة، أسطولًا إلى هذا البلد بقيادة قبودان باشا حسن، مدعومًا بقوات برية بقيادة عبدي باشا. وكان الهدف من هذه الحملة عزل إبراهيم ومراد بك، وإعادة خصمهما إسماعيل باشا إلى الحكم في مصر (توفي في عام 1791، وقد كان **خشداش** علي بك في الماضي، ونصيرًا لمحمد بك أبي الذهب خلال سبعينيات القرن الثامن عشر). وقد حُضِّرَ للحملة في إطار من السرية، بيد أن المبعوث الروسي في القسطنطينية ي. إ. بولغاكوف تمكن من إخطار البِكَيْن بالأمر، بواسطة طونوس. وبحسب المؤرِّخ المصري الجبرتي، لم يعِر البِكَان المعلومة أهمية، ولم يستعدا للمواجهة[8]. وعند وصول الأسطول التركي، وجدا نفسيهما في عزلة سياسية

(8) Абд ар-Рахман ал-Джабарти, *Египет в канун экспедиции Бонапарта (1776-1798)*, Пер., предисл. и примеч. Х. И. Кильберг (М., 1978), с. 267.

[عبد الرحمن الجبرتي، **مصر عشية حملة بونابرت (1776-1798)**، ترجمة وتقديم خ. إ. كيلبيرغ (موسكو، 1978)، ص 267].

=

خارجية، لأن القناصلة الأوروبيِّين أيدوا عملية قبودان باشا، ولم يبق إلى جانب البكَيْن المغضوب عليهما سوى طونوس، بيد أنه أنجز المهمة بنجاح بالغ.

طلب البِكَان من طونوس كتابيًّا التوسُّط لحلِّ النزاع؛ ولكن حسن باشا رفض أي وساطة، وطالب برأسي المتمرِّدَيْن. عندئذٍ، أصبح طونوس مستشارًا للبكَيْن يقود تحرُّكاتهما، على حدِّ قوله. فاقترح عليهما عدم الدخول في معركة كبيرة، والتراجع إلى مصر العليا مع أنصارهما، وشنِّ هجمات من هناك تستنزف القوات التركية، التي لم تكن معتادة على المناخ الأفريقي. ونشأت علاقة سرية بين البِكَيْن وبين طونوس.

أثبت تكتيك البِكَيْن جدواه، واضطر حسن باشا، في ظلِّ الحرب الداهمة مع روسيا، وضرورة العودة السريعة إلى العاصمة، إلى اقتراح شروط السلام عليهما.

عندئذٍ، وكما كتب كونراد طونوس في تقريره المؤرخ في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1787، «وصل في الثاني عشر من شباط/ فبراير من العام المنصرم، مملوكٌ موفَدٌ من إبراهيم ومراد بك، وأخبرني أن سيِّديه يطلبان منِّي المجيء إلى الصعيد (في مصر العليا) ليخبراني بما يعتزمان القيام به [بما أن حسن باشا فرض رقابةً على طونوس، كان هذا الأخير يُجري لقاءاته، عادةً، في إحدى ضواحي الإسكندرية، حيث كان يقوم بنزهاته اليومية. وقد ظهر المملوك، الذي كان يتقن اللغة الروسية، بملابس عربية بسيطة - المؤلِّفة]. أثار هذا الطلب دهشةً بالغةً لدي. لكني نزولًا عند إلحاحهما الشديد، عمدت إلى بثِّ شائعات بأنني ذاهب لزيارة معبد جوبيتر أمون الأثري، وارتديت ملابس عربية وغادرت في العشرين من شباط/ فبراير. وبعد ثمانية أيام من السفر في الصحراء، التقيت فصيلًا من ألف مملوك يرافقهم مراد وإبراهيم بك، وكذلك قاسم بك الذي قام بدور المترجم، لإتقانه اللغة الروسية. وقد أخبراني بواسطته أن قبودان باشا عرض عليهما

= [الأرجح أن هذا الكتاب المترجم إلى الروسية هو أحد أجزاء كتاب الجبرتي الشامل عن الحملة الفرنسية، الذي يحمل عنوان **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، المؤلف من خمسة أجزاء، والمعروف بـ «تاريخ الجبرتي»]. (المترجم)

اقتراحات سلمية، واشترط عليهما التوجُّه إلى القاهرة لمناقشتها معه. وبوصفهما حليفين جيِّدين ومخلصَيْن لروسيا، طلبا منِّي إبداء الرأي في هذا الأمر»[9].

في هذا اللقاء الذي ينطوي على مخاطرة شديدة، تكمن حبكة المكيدة.

أجاب القنصل العام الروسي على طلب البكَيْن بأسلوبٍ دبلوماسيٍّ، قائلًا إنه غير مفوض من بلاطه بالتدخُّل في شؤونهما، ولكنه نظرًا لتعاملهما الودِّي معه، يرغب بتقديم بعض النصائح التي قد تكون مفيدة لهما؛ فنصحهما بعدم الذهاب إلى القاهرة، والتمركز في إسنا[10]، الواقعة على الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى، الأمر الذي سيرغم قبودان باشا على إيفاد من يمثِّله لمناقشة شروط الصلح. وقد مكنت طريقة العمل التي اقترحها طونوس البِكَيْن من انتزاع تنازلات من قبودان باشا.

مقابل خدماته، اشترط طونوس تقديم تسهيلات للواردات الروسية إلى مصر، إذا ما نجح البِكَان في استعادة مواقعهما في القاهرة، وتعهُّدهما بتلبية طلباته في ما يتعلق بالشؤون الروسية، عند الضرورة.

«رجعت إلى الإسكندرية في اليوم التالي، بعدما تلقيت منهما تعهُّدات بالصداقة الأبدية تجاهي، وبالبقاء دومًا حليفين مخلصين لبلاطنا»[11].

يُطرح سؤال مشروع هنا: هل يُعقل القيام بمثل هذه الزيارة الصعبة والبالغة الخطورة، لمجرد تبادل المجاملات والنصائح بشأن أمور كان يُمكن حلُّها من دون أيِّ تدخُّلٍ من أحد؟

---

(9) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Ед. хр. 977, Л. 2об, Депеша составлена по-французски.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 89/ 8، وحدة الحفظ 977، ظهر الورقة 2، وضعت المذكرة باللغة الفرنسية].

(10) إسنا: مدينة في صعيد مصر العليا على الضفة الغربية لنهر النيل. قاعدة مركز إسنا في محافظة الأقصر. اسم إسنا القديم سنى، والقبطي إسنى. سماها اليونانيُّون لاتوبوليس. كانت في العصرين الفرعوني والروماني عاصمة الإقليم الثالث في الصعيد، وبعدما استولى العرب على مصر بقيت عاصمة كورة إسنا. وكانت في العصر الفاطمي وحتى أواخر العصر المملوكي من أعمال القوصية التي عاصمتها مدينة قوص. وفي العصر العثماني كانت من أعمال مدينة جرجا. (المترجم)

(11) المرجع نفسه، الورقة 3.

من المعروف أن مسألة تدوين الأسرار على الورق، كانت موضع تحسُّسٍ مفرط في القرن الثامن عشر. وكاترينا الثانية، التي دأبت على مراقبة رسائل الدبلوماسيِّين الأجانب بنفسها، كانت معتادة على إعطاء بعض أوامرها شفاهةً، وتحديدًا تلك التي كانت ترغب في عدم إفشائها، إما لسرِّيتها وإما لمخالفتها القوانين والأعراف. وأما ألكسي أورلوف فلم يذكر في تقاريره المرسلة إلى بطرسبورغ، عادةً شيئًا عن اتِّفاقاته مع الحاكمين العربيين[12]. كما أن رسالته المعروفة إلى علي بك لم تتضمن إلا التأكيد على الصداقة وعلى أن حامل الرسالة فوينوفيتش مكلفٌ أيضًا تقديم «الإيضاحات الشفهية» («التكليفات السرية»، على حدِّ تعبير فوينوفيتش نفسه)[13]. وثمة كلُّ المسوِّغات للافتراض أن وثائق العصر الكاتريني - وهي الحقبة التي شهدت تطوُّر العمل التوثيقي ومَسْكَ الملفات - لا تعكس تاريخه السياسي بالكامل. ويتعين على المؤرِّخين إعادة رسم صورة العديد من الأحداث، التي تَكتم عليها المشاركون فيها. وينسحب ذلك على تاريخ العلاقات مع الحكام العرب، التي جرت تحت ستار كثيف من السرية، لأن الأتراك كانوا شديدي الحساسية إزاء الاتِّصالات الروسية - العربية. بل إن هذه الاتصالات كانت تثير انزعاجًا أكبر لدى الدول الكبرى، التي سعت إلى التغلغل في سوريا ومصر. ولم يكن من قبيل المصادفة أن تبقى رحلة طونوس إلى مصر في عام 1788، في سرية تامة عن الدبلوماسيِّين والعملاء الأوروبيِّين بالدرجة الأولى.

مما لا شك فيه أن مسائل التعاون الروسي - المصري في الحرب المرتقبة، كانت موضع بحث في اللقاء الأخير في الصحراء بين طونوس والبِكَيْن. فكان إسماعيل بك، مثلًا، على يقينٍ بأن «البارون طونوس كان قبل فراره من الإسكندرية على علاقة سرية مع إبراهيم ومراد بك وشركائهما،

(12) المقصود علي بك والشيخ ظاهر العمر. (المترجم)

(13) Письмо графа А. Г. Орлова к египетскому паше Али-бею, in: *Русский архив*, 1880, no. 11, c. 345-346; *РГАДА*, Ф. 10, Кабинет Екатерины II, Оп. 1, Д. 645, Л. 197об.

[رسالة الكونت أ. غ. أورلوف إلى باشا مصر علي بك، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، العدد 11، ص 345-346؛ **أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**، المجموعة 10، ديوان كاترينا الثانية، القائمة 1، الملف 645، ظهر الورقة 197].

ومتواطئًا معهم على عمل يُغضب الله وصاحب الجلالة. لقد استحق هؤلاء غضب سيدنا السلطان بفجورهم ونزوعهم إلى الخيانة»[14]. ونعتقد أن التخطيط لـ «الفجور» و«الخيانة» ما كان ليرتسم في المحادثات إلا بصورة دبلوماسية وحذقة، تجنُّبًا لتعريض المشاركين في اللقاء للخطر أو تقييدهم بالتزامات معينة، ولا سيَّما أن طونوس لم يطلب الإذن من السفارة الروسية في القسطنطينية لعقد مثل هذا اللقاء. ومع ذلك، تكونت لدى طونوس فكرة من هذه المفاوضات، مفادها أن البِكَيْن يرغبان بالحصول على تعهدات من البلاط الروسي، ببذل كلِّ المساعي اللازمة من أجل تحرير مصر من النير العثماني. ورغب البكّان، على وجه التحديد، في الحصول على مدافع وخبراء مدفعية. وتمكن طونوس، بدوره، من إقناعهما بعدم إمداد اسطنبول بالأرز والبن إبان الحرب، والقيام بحملة في سوريا (على غرار حملة علي بك)، لإعاقة حصول الباب العالي على دعم لقواته من هناك. وأعطى طونوس البِكَيْن كلمة شرف ألا تحتجز السُّفنُ الروسيةُ السُّفنَ المصريةَ إلى حين التحقُّق من أن كِلَا الجانبين سيعمل سويًّا، إذا ما فرض الأسطول الروسي الحصار على الشواطئ العثمانية[15]. ولقد بقي الحصار القاسي الذي فرضه الأسطول الروسي في أثناء حملة الأرخبيل ماثلًا في الأذهان، وغدا خطر تعرُّض منطقة شرق البحر المتوسِّط لمحنةٍ مماثلةٍ، أشبه بورقةٍ رابحةٍ في اللعبة السياسية الروسية. وباختصار، لقد نوقشت المسائل التي «تهمُّ البِكَيْن بصورة مباشرة، والتي قد تتفق مع مصلحتنا المشتركة»، بحسب تعبير كاترينا الثانية[16].

بعد عودته إلى الإسكندرية، تلقى طونوس توبيخًا من السفارة الروسية في القسطنطينية بسبب شكوى قبودان باشا بحقِّه، وفرضت السلطات التركية

(14) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 2062, Л. 24, Перевод того времени письма Исмаил-бея адмиралу Грейгу, составленного по-арабски.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 2062، الورقة 24، ترجمة رسالة إسماعيل بك إلى الأميرال غريغ عن العربية (تعود الترجمة إلى تلك الفترة)].

(15) المرجع نفسه، الملف 977، الورقة 10-12. يُنظر أيضًا: الملف 980، الورقة 4، ظهر الورقة 4.

(16) المرجع نفسه، الملف 980، ظهر الورقة 2.

الإقامة الجبرية عليه. في غضون ذلك، وصلت أنباء اندلاع الحرب مع روسيا إلى مصر. وكان طلب الأتراك استدعاء القنصل العام من الإسكندرية أحد المطالب التركية التي لم تستجب لها روسيا، والتي غدت ذريعة لإعلان الحرب عليها[17]. وأعلن قبودان باشا، الذي كانت لديه المسوِّغات لكراهية القنصل العام الروسي، عن نيته نقله إلى اسطنبول، خلافًا للأعراف الدولية. وتوافرت الفرصة هنا كي يختبر طونوس متانة الاتِّفاقات مع البِكَيْن؛ فتوجه إليهما طالبًا الحماية. التقى البِكّان بقبودان باشا، وأقنعاه بالسماح لطونوس بالمغادرة إلى أوروبا في غضون أربع وعشرين ساعة على متن سفينة أوروبية. وكان طونوس مستعدًّا للرحيل، فنجح في إحراق كلِّ الأوراق التي «يمكن أن تدل على تواطُؤي مع البِكَيْن» كما كتب[18].

قبيل مغادرته مصر، تلقى طونوس هدايا قيِّمة من البِكَيْن، اللذين أكدا ولاءهما لروسيا، وأخبراه أنه سيكون في إمكانه العودة إلى مصر على الفور (j'etoit le Maitre de venir en Egypt) بعد مغادرة قبودان باشا، وأنهما سيجدان في كلِّ الأحوال الوسيلة لإيصال الرسائل إليه. واتفق طونوس مع عميليه المصريِّين على اعتماد اسم بيوتر لورمان في رسائله[19]. وبذلك، تكون قد اتُّبِعَت كلُّ قواعد السرية.

ربما يكون أكثر ما يثير الدهشة في تقرير طونوس المسهب، أنه لم يساوره الشك في أنه تجاوز بعمله على هذا النحو المستقل والحاسم حدود الصلاحيات الموكلة إليه؛ إذ يمكن الافتراض أنه حين توجه إلى مصر تلقى هذه الصلاحيات

---

(17) С. М. Соловьев, «Учебная книга русской истории,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн. XVIII (М., 1995), с. 458.

[س. م. سولوفيوف، «كتاب مدرسي في التاريخ الروسي»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتاب 18 (موسكو، 1995)، ص 458].

(18) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 977, Л. 3об.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 89/ 8، الملف 977، ظهر الورقة 3].

(19) *АВПРИ*, Ф. 48/2: Сношения России с Генуей, Д. 48, Л. 2, 10 и др.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 48/ 2: العلاقات بين روسيا وجنوى، الملف 48، الأوراق 2، 10 وغيرها].

(«الصلاحية الكاملة»، بحسب تعبير كاترينا) على شكل «إيضاحات شفهية» (بحسب تعبير أ. غ. أورلوف). وبدهي أن التعليمات الرسمية لم تأتِ على ذكر هذه المهمة السياسية إطلاقًا. وجدير بالذكر أن طونوس أكد في رسالته إلى إ. أ. أوسترمان، أنه لم يتلق أي أوامر بالعمل على هذا النحو، ولكنه على يقين من أن له الحق في «إلحاق أقصى ضرر ممكن بالأتراك، لما فيه مصلحة وطننا، من دون الإساءة إلى سمعة بلاطنا السامي». ويبدو هذا القول أشبه بأمر تلقاه من المراجع العليا يعفيه من أيِّ اتِّهام.

هكذا، غادر كونراد طونوس إلى أوروبا، وعند وصوله إلى ليفورنو في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1787، أرسل تقريرًا إلى هيئة الشؤون الخارجية استبقه برسالة مقتضبة إلى إ. أ. أوسترمان، عرض فيها الخطوط العامة لخطته القاضية بسلخ مصر عن تركيا. وتوحي هذه الرسالة أنه كانت هناك علاقات ثقة غير رسمية بين البارون طونوس وبين الكونت أوسترمان. كتب طونوس:

«نيافتكم، إن الطيبة التي أبديتموها تجاهي، والحماية التي أنعمتم بها علي مرارًا، شجعتاني على أن أعرض على سعادتكم أفكاري وتقريري المرفق أدناه، الموجه إلى الهيئة الإمبراطورية، الذي ستتعرفون من خلاله إلى طريقة عملي، وستتأكدون أنني غادرت مصر بكلِّ مظاهر التكريم التي أستحقها».

«لم أعد بحاجة إلى بذل جهد أكبر لما فيه مصلحتي. فعدوِّي قبودان باشا، الذي ألحقت به أقصى ضررٍ ممكنٍ، مضطرٌّ الآن إلى مغادرة الإسكندرية مع 18 سفينة حربية و30 مركبًا صغيرًا للهيدريين[20] و20,000 حصان. وقد باءت كلُّ مشاريعه بالفشل، وهو مرغم الآن على عقد الصلح الأكثر خزيًا بالنسبة إلى الباب العالي. والحقيقة أنه لم تكن لدي أوامر بالعمل على هذا النحو، ولكنِّي أعتقد أن من مصلحة وطننا إلحاق أقصى ضررٍ ممكنٍ بالأتراك، من دون الإساءة إلى سمعة بلاطنا السامي. وأقول أكثر: علينا وحدنا يتوقف أمر أن تصبح مصر مقاطعة مستقلة. إن معظم البكوات والمماليك هم من الرعايا الرُّوس، وإبراهيم نفسه من مواليد تيفليس».

---

(20) سكان جزيرة هيدرا اليونانية. (المترجم)

«إن الإسكندرية هي المرفأ الأفضل الموجود في حوض البحر المتوسِّط، حيث ستُستقبَل سفننا بأذرعٍ مفتوحة، لأنه لا يمكن وصف حالة العداء نحو الأتراك السائدة في مصر اليوم».

«أما بالنسبة إلي، فأنا مستعدٌّ للتوجُّه إلى الإسكندرية إذا ما قررتم، يا صاحب السعادة، أن الوقت ملائم، وإذا رأيتم أنني مؤهل لهذه البعثة. إن رغبتي المتمثِّلة في نيل الرضا والحصول على وسام الشرف، تجعلني في نهاية المطاف أسعى إلى أن أكون نافعًا لوطني. وأنا أنتظر أوامركم بإذعانٍ تام».

«يشرِّفني أن أحظى بتقدير سعادتكم، خادمكم المخلص والمطيع كونراد طونوس»[21].

بكلام آخر، كان كونراد طونوس على يقين بأنه أسهم بسياسته السرية في إحباط حملة حسن باشا. (الجدير ذكره أن طونوس بالغ في تقدير خيبات الباشا الذي نجح، مع ذلك، في الحيلولة دون عودة إبراهيم ومراد بك إلى السلطة إبان الحرب الروسية - التركية، وفي حماية الباب العالي من محاولات المماليك المصريِّين الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية). لقد اعتقد طونوس أن منشأ المماليك الإتني يجعلهم حلفاء محتملين لروسيا («أصدقاء»، كما كان يُقال حينذاك) ويسمح بتقرير مصير مصر التي لم يأخذ القنصل الروسي العام سكانها العرب في الاعتبار عمومًا. بيد أن الأحداث التالية أظهرت أن طونوس بالَغَ في تقدير المشاعر المعادية للأتراك لدى المماليك، وميولهم الموالية لروسيا. فهم في الواقع كانوا يأخذون في الحسبان - عند تحديد مواقفهم المتعاطفة أو المعادية - تلك القوى السياسية الفعلية التي يمكن أن تضمن لهم، هم غير المصريِّين، وضعية الطبقة الحاكمة في مصر. ويبدو أن انتقال طونوس إلى إيطاليا بسلام، وتبادل الرسائل مع البِكَيْن، ولدا لديه نوعًا من النشوة (مشابهة لتلك التي انتابت أ. غ. أورلوف بخصوص آفاق التعاون مع اليونانيِّين)، ويمكن

---

(21) *АВПРИ*, Д. 89/8, Д. 977, Л. 1 (текст на французском языке).

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 977، الورقة 1 (النص باللغة الفرنسية)].

تفسيرها بأن مشروعه يقوم على أساسٍ انفعاليٍّ أكثر منه على أساسٍ منطقي. وتلت هذه الوثيقة وثائقُ أخرى، يُطوِّر فيها طونوس فكرته؛ بيد أننا لم نعثر، للأسف، على تقريره الثاني من إيطاليا، الذي عرض أفكاره فيه بصورة مسهبة.

ما إن انقضى الشهر الذي يستغرقه وصول الرسائل من ليفورنو إلى بطرسبورغ، حتى أرسل أوسترمان جوابًا إلى طونوس، يخبره فيه أن صاحبة الجلالة الإمبراطورية قرأت تقريره بارتياح، وأبدت الرغبة في مجيئه إلى سان بطرسبورغ بأسرع ما يمكن. ويمكن الافتراض أن وصف طونوس المسهب للوضع السياسي في مصر، هو أكثر ما حظي باهتمام كاترينا الثانية. فقد شعرت بحدسها السياسيِّ أن في الإمكان توجيه «ضربة تخريبية» إلى الإمبراطورية العثمانية في مكان جديد، هو «المكان الأكثر حساسية» (علمًا أنها لم تكن متأكِّدة من نجاح هذه العملية التخريبية الحتمي، الأمر الذي يدلُّ عليه الجزء الخاص من تعليماتها إلى الأميرال غريغ).

أضاف رئيس الهيئة الأعلى من عنده بلهجة ودية: «إن غيرتكم في خدمتنا تفرض عليكم إظهار أقصى درجات الفطنة، وهذا يتوقف عليكم»[22]. وفي السادس من كانون الأول/ ديسمبر، تُلِيَ تقرير طونوس في مجلس البلاط السامي.

كان كونراد طونوس يملك فائضًا من الفطنة. وعند وصوله إلى العاصمة الشمالية، طور في تقاريره («مذكراته») تسويغ خطته عسكريًّا وسياسيًّا؛ علمًا أن كاترينا كانت قد أعطت التعليمات بالمباشرة، حينذاك، للتحضير لبعثة طونوس، حتى من دون هذا التسويغ[23].

كرر طونوس في مذكِّراته موضوعته القائلة إن الاستبداد التركي وحملة

---

(22) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 978, Л. 1.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 978، الورقة 1].

(23) المرجع نفسه، أبلغ إ. أ. أوستيرمان في الرسالة آنفة الذكر إلى طونوس، المؤرخة في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1787 أن الكونت موتشينيغو، وزير روسيا المفوض في فلورنسا، قد تلقى التعليمات الضرورية بشأن بعثة طونوس.

قبودان باشا، أثارا موجة من العداء للأتراك لدى البكوات والمماليك العاديِّين، يصعب وصفها. لذا، فإن الوضع الراهن، بحسب قوله، أكثر ملاءَمةً لروسيا مما كان عليه أيام علي بك، وإن العقول مُهيأة للانتفاضة أكثر مما كانت عليه حينذاك (لم تذهب تجربة الحرب الروسية - التركية الأولى سدى، على ما يبدو)، بل أكثر من ذلك؛ إذ اعتقد طونوس أنه ما كاد الباب العالي يعلن الحرب على روسيا، حتى بدأ البكوات والمماليك يتحدثون عن أنها ستستغلّ الوضع الناشئ كي تقدِّم الحماية والمساعدة لهم، بل إنهم بدوا واثقين من ذلك. وكان طونوس على يقين بأن بلاطنا السامي وحده القادر على تحويل مصر إلى «مقاطعة مستقلة»، وأن الأمر يحتاج إلى جهود قليلة فقط كي يتحرر هذا الإقليم التركي بالغ الثراء من الأتراك. ومن شأن ذلك، لو تحقق، أن يُنزِل ضربة هائلة بالإمبراطورية العثمانية، لأن مصر تغذِّي الجيش التركي. فضلًا عن ذلك، فإن مصر تملك موانئ ملائمةً (يلي ذلك وصف مفصل لميِّزاتها ونواقصها وتحصيناتها)، كما أنها قادرة على تزويد أسطولنا بالأرز واللحوم وما شابه. وافترض طونوس أن «العلاقات الحميمة بوجهٍ خاصٍّ» التي أقامها مع البِكَيْن، وفرت الظروف لتحقيق مهمته؛ فطلب منحه الصلاحيات لتقديم المساعدة إليهما، ليس عن طريق المشورة وحسب، بل من خلال العمل المباشر أيضًا، إذا اقتضى الأمر ذلك[24]. وقد نوقشت هذه المذكرات في 7 و10 و17 شباط/ فبراير 1788، كما نوقشت المسائل المتعلِّقة بإرسال طونوس إلى مصر، في مجلس البلاط السامي، الأمر الذي دل على الأهمية التي أولتها الدوائر الحكومية لهذه المهمة.

بيد أن طونوس لم يعرض في مذكِّراته فحوى الاتِّفاقات مع البِكَيْن (باستثناء الإشارة إلى أنهما وعدا بالامتناع عن تزويد تركيا بالأرز والبن، وبتنظيم الحملة على سوريا)، كما أنه لم يكشف عن خطة العمل. ويبدو أن هذه الخطة نوقشت في اللقاءات مع إ. أ. أوستيرمان والأميرال س. ك. غريغ، الذي

---

(24) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 977, Л. 10-13.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 977، الورقة 10-13].

عُيِّن قائدًا للعمارة البحرية التي أرسلت إلى البحر المتوسّط، وعلى الأرجح في اللقاء مع الإمبراطورة، من دون تدوينها على الورق.

لعل سيناريو أعمال طونوس في مصر يرتسم، في خطوطه العامة، في النصِّ المعنون «مشروع التعليمات السرية الموجهة إلى القنصل العام»[25]؛ ولا شك في أن كاترينا الثانية هي من كتبه:

**بعد اطِّلاعنا على كلِّ المعلومات القيِّمة التي قدمتموها عن الوضع الراهن في مصر ووضع البِكَيْن فيها، وعن سبل استخدامهما لما فيه مصلحتنا في الحرب الحالية كما في المستقبل، وإذ نُقدِّر خصوصًا غيرتكم على تنفيذ إرادتنا بالذهاب إلى تلك البلاد، نوجِّه إليكم التعليمات الآتية:**

**أولًا، أيًا يكن الطريق الذي ستختارونه في هذه الرحلة، أكان عبر ترييستي أم راغوزيا، ومنها على متن سفينة مستأجرة بصفة تاجر، أم عبر إيطاليا، فإننا نترك ذلك لتقديركم الشخصي، مؤكِّدين فقط على ضرورة مراعاة موجبات الحذر، بحيث لا يُخمِّن أحد سبب سفركم. لذا، عليكم القول إنكم تسافرون للقاء عائلتكم[26]. وعليكم هناك إما انتظار وصول الأسطول، وإما الاستفادة من الوقت لإيجاد مكانٍ ما ملائم لكم.**

**ثانيًا، سيصدر أمر سري إلى وزيرنا في فلورنسا الكونت مونتسينيغو، ليضع سفينة خاصة مسلحة في تصرُّفكم تستخدمونها في صالح قضيتنا الموكلة إليكم، مع التحذير بألا تقوم هذه السفينة بما يمكن أن يتعارض مع**

---

(25) إن «مشروع التعليمات السرية الموجهة إلى القنصل العام البارون طونوس» هي، على ما يبدو، الوثيقة الوحيدة بين الأوراق التي زُوِّدَ بها المقدم طونوس قبيل سفره إلى مصر. وقد كتبت الوثيقة بخطٍّ جيِّد، ولا تتضمن أي إشارات في الحواشي أو النص. ومع انعدام القواعد الإملائية نجد أن بعض الكلمات كُتِبت بأشكال مختلفة. وقد وضعت الوثيقة في ورقة مزدوجة تحت عنوان:
«Expedition, IV. Consulats Alexandrie. Rescrits. L'Instructions Tonus (Conrad)».

وقد عُرضت على وجهي الأوراق 1-6 في: **أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 89/ 8، الملف 980.

(26) بقيت زوج كونراد كونوس إيلينا أنرييفنا مع أطفالها الثلاثة في إيطاليا. وكان طونوس قلقًا جدًا على مصير عائلته. وكما ذكرنا، فقد توجه قبل مغادرته من بطرسبورغ إلى الإمبراطورة، مناشدًا إياها تقديم الرعاية لعائلته في حال مقتله.

مصالحنا، أو مع نظام الحياد الذي اعتمدناه يومًا إزاء الشعوب غير المشاركة في الحرب[27].

ثالثًا، عليكم، قبيل مغادرتكم، الحصول من الأميرال غريغ على نسختين من الأمر المفتوح، الموجه إلى قادة سفننا الخاصة المسلحة[28]، القاضي بالتمييز بين العلمين المصري والتركي، وبعدم المساس بالسفن المُبحرة تحت العلم التجاري المصري، واعتبارها سفنًا محايدة، وذلك إلى حين وصول أوامر أخرى منا. يمكنكم حمل إحدى هذه النسخ معكم من أجل إبرازها إلى قادة السُّفن الذين تلتقون بهم، وتسليم النسخة الأخرى باليد إلى الكونت مونتسينيغو، كي يوصلها إلى قادة السُّفن الأخرى بصورة سرية.

رابعًا، بغية الحصول على ثقة البِكَيْن المصريِّين التامة بكم، مع موقفهما الودِّي تجاهكم، فقد زودناكم، أولًا، برسالة موجهة إليهما، ومنحناكم، ثانيًا، صلاحياتٍ كاملةً تخوِّلكم التفاهم معهما. وبعد الاطِّلاع على حاجتهما المباشرة التي يمكن أن تتقاطع مع مصلحتنا، عليكم الاتِّفاق معهما على الشروط التمهيدية التي تحظى بموافقة الأميرال غريغ، على أن نصادق عليها نحن في ما بعد.

خامسًا، فضلًا عن التأكيدات الواردة في رسالتنا إلى البِكَيْن، عليكم أن توضِّحوا لهما شفاهة كم نُقدِّر أحقية جهودهما في سبيل خير البلاد الواقعة تحت سلطتهما، ومن أجل تحريرها من النِّير التركي، وكم سنكون سعداء برؤيتها وقد انعتقت من سيطرة الأجنبي وحازت استقلالها وأمنها، وأن تؤكدوا لهما أن الوقت مؤاتٍ جدًّا لذلك الآن، ولا يجوز تفويته، فهو لن يتكرر مرة

(27) يجري الحديث عن بيان كاترينا الثانية المؤرخ في 28 شباط/فبراير 1780 عن الحياد البحري المسلح، الذي أعلن حرية تجارة الدول المحايدة مع الدول المتحاربة، وحدد مفاهيم التهريب العسكري والحصار وما شابه. وقد انضم إلى البيان كلٌّ من الدانمارك والسويد وهولندا وبروسيا والنمسا ومملكة الصقلِّيتين وفرنسا وغيرها من الدول. أما إنكلترا فلم تأخذ بمبادئ البيان.

(28) ينبغي التمييز هنا بين السُّفن المسلحة التي يقوم أشخاص بتجهيزها وتسليحها على نفقتهم الخاصة (armateurs بالفرنسية)، ويعملون من دون تفويض رسمي ويحصلون على غنائم من السُّفن العدوة التي يستولون عليها ويتكبدون المخاطر المالية، وبين السُّفن التي تعمل بتفويض رسمي (القرصنة التفويضية) التي ورد ذكرها سابقًا (يُنظر الفصل الرابع). (المترجم)

أخرى. فعدونا منهمكٌ بالحرب ضدنا وضد حليفنا الإمبراطور الروماني[29]. وفضلًا عن الجيوش البرية الكثيرة العدد التي تُشتت كل قواته من جبال القوقاز حتى البحر الأدرياتيكي، والأسطول الذي يهدِّده في البحر الأسود، فإن أسطولنا الذي أرسلناه إلى البحر المتوسِّط مع عدد قليل من القوات البرية هذا الربيع، يثير قلقه ويمنعه من تخصيص قوة ما لاضطهاد مصر واجتياحها مجددًا. وجدير بالذكر أن قائد أسطولنا العام، ما إن يتلقى النبأ بأن البِكَيْن قررا الإعلان عن استقلالهما عن الباب العالي وصداقتهما لروسيا، والاتفاق معكم على الشروط التمهيدية، فإنه لن يتوانى عن تقديم كلِّ مساعدة ممكنة لهما، وهي مساعدة ستتضاعف ببركة الله التي يغدقها على سلاحنا.

سادسًا، عندما ترون عزم البِكَيْن على الشروع بالعمل، فاعقدوا معهما اتفاقية بكلمات عامة، على أن تكون واضحة بخصوص إعلان نفسيهما مستقلين، وكما ذكرنا أعلاه صديقين لروسيا، وحول تعهُّدهما بعدم تقديم العون لعدونا، وبتزويد أسطولنا بالمؤن الغذائية والبن والاحتياجات الأخرى، على أن تكون الأسعار وكيفية الدفع وفق اتفاقات طوعية، وحول التسهيلات التجارية لرعايانا، والمرفقة طيه قائمة بها، والتي ينبغي أن تكون على الأقل مماثلة لتلك التي أقراها سابقًا في الاتفاقية المعقودة مع فرنسا[30]. وسيكون في الإمكان إقرار ذلك عند انتهاء الحرب والاعتراف باستقلالهما. وينبغي الاتفاق أيضًا على الوسائل التي يقترحان استخدامها لإلحاق الضرر بعدونا المشترك، وإزالة أساليب اضطهاده واستعباده مجددًا.

سابعًا، يمكنكم في هذه الحال القول إننا، بعدما علمنا بالنقص في

---

(29) المقصود رأس أسرة هابسبورغ النمساوية جوزف الثاني، الذي حمل لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد دخلت النمسا الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية في التاسع من شباط/ فبراير من عام 1788، تنفيذًا لالتزاماتها التحالفية تجاه روسيا. وكانت معاهدة التحالف الروسية - النمساوية قد وقعت في 18 أيار/ مايو 1781، ونص بندٌ سريٌّ فيها على العمليات العسكرية المشتركة إذا ما أعلنت تركيا الحرب.

(30) أبلغ طونوس بطرسبورغ في عام 1785 عن المعاهدة التجارية التي عقدتها فرنسا مع البِكَيْن المصريِّين، وأرسل نصها إليها. وقد منحت هذه المعاهدة فرنسا شروطًا ملائمة جدًّا لتجارتها في البحر الأحمر.

مدفعيتهما، أرسلنا لهما بواسطة أسطولنا عدة مدافع من النحاس مع كمية وافرة من الذخائر هديةً، متمنين أن تعود عليهما بالفائدة وأن تسهم في حمايتهما. وسيسلمها لهما الأميرال غريغ من خلالكم، وإذا ما كانت هناك حاجة إلى عرض كيفية استخدامها، فسيوفد إليهما عدة أشخاص مهرة متنكِّرين.

ثامنًا، عليكم إقناعهما بشتى الوسائل كي لا يكتفيا، عند وصول أسطولنا إلى البحر المتوسِّط، بالكلام أو الكتابة عن استقلالهما، بل عليهما أن يؤكِّدا ذلك بتوجيه السلاح نحو سوريا، حيث سيتلقيان المساعدة من سفننا في تطهير الشواطئ من جهة البحر. وسنعطي الأميرال غريغ تعليمات مفصلة في هذا الخصوص، وعليكم أنتم مراسلته أو التواصل معه بالطريقة التي ترونها مناسبة.

تاسعًا، بعد التأكُّد من مواقف البِكَيْن الموالية واستعدادهما تقبُّل الاقتراحات المذكورة أعلاه، أعلنوا لهما أننا أمرنا الآن سفننا الحربية والخاصة بعدم المساس بالعلم التجاري المصري، والتعامل معهم[31] ليس كرعايا لعدونا، بل كشعب صديق، طالما لا نرى أعمالًا عدائية من جانبهم، أو ولاء للأتراك.

عاشرًا، نترك أمر عودتكم من هناك إلى إيطاليا، أو إلى الأميرال غريغ مباشرةً وفقًا لتقديركم، فأنتم أعلم بمصلحتكم؛ وعليكم في غضون ذلك السعي إلى إرسال أكثر ما يمكن من حبوب الدُّخن السراسيني[32] وغيرها من المؤن الغذائية إلى أسطولنا، قبل وصوله إلى صقلية، إلى القائد بسارو[33]، المكلف بأمور التموين. نسأل الله العلي القدير أن يحميكم من كلِّ شرٍّ، ونعدكم أن تأديتكم هذه الخدمة العظيمة لنا، لن تبقى من دون مكافأتنا الملكية الجزيلة.

حادي عشر، في أثناء هذه الرحلة، وإلى حين تعيينكم في مكان آخر، سوف تتلقون كالسابق راتب القنصل العام المحدد لكم. علاوة على ذلك، إذا

(31) المقصود مع المصريِّين. (المترجم)

(32) حبوب الدُّخن السراسيني، أي الأرز.

(33) كُلف أ. بسارو في تشرين الثاني/ نوفمبر، إبان الحرب الروسية – التركية بتخزين المؤن في إيطاليا وصقلية، لصالح الأسطول الروسي المقبل على القيام بعمليات حربية في البحر المتوسِّط.

**ما كانت لديكم حاجة في أيٍّ مكان لاستخدام أشخاص من الذين معكم لنقل الرسائل، فالأمر متروك لكم، مؤكِّدين لكم فقط ضرورة الحفاظ على أقصى درجات الحذر في رسائلكم وتنقُّلاتكم ومكان إقامتكم. لأنه على الرغم من كوننا في حربٍ مفتوحةٍ مع عدو المسيحية، فعلينا عدم الخجل من استخدام كلِّ الوسائل من أجل إلحاق الأذى به: ولكنْ، سيكون محزنًا لنا إذا ما جلبتم لنفسكم أيّ أذى.**

**سان بطرسبورغ. 17 شباط/ فبراير 1788.**

هكذا، أُعطِيَ طونوس في هذا الإرشاد أو التعليمات حرية اختيار الطريق الذي سيسلكه للوصول إلى مصر، بشرط إحاطة مهمته بالسرية التامة. وزُوِّدَ برسالة ملكية إلى البِكَيْن[34] ومُنح صلاحيات إجراء مفاوضات معهما. وتَعَين عليه استيضاح «احتياجات» البِكَيْن ووضع الشروط التمهيدية للمعاهدة، التي كان على الأميرال غريغ[35] الموافقة عليها أولًا، على أن تصادق كاترينا عليها في

(34) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 977, Л. 10-13.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 977، الورقة 10-13].

(35) جاء في الورقتين 37 و38 من مشروع الأمر الموجه إلى الأميرال غريغ المؤرخ في 5 حزيران/ يونيو 1788، المتضمِّن ملحوظات كاترينا الثانية (يُنظر: *АВПРИ*, Ф. 89/8, Ед. хр. 2058, Л. 57-4. [أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، وحدة الحفظ 2058، الأوراق 4-57]): «بصرف النظر عن هذه المراسلات، فقد أوفدنا القنصل العام السابق في مصر العقيد البارون طونوس، إلى البِكَيْن هناك، حاملًا رسالتنا وتعليماتنا بشأن كيفية حثِّهما على التخلّص من النِّير التركي، والشروط التي سيتفق عليها معهما بشأن العمل على الدفاع عنهما، والمساعدة التي يمكن أن نقدِّمها إليهما. وأنتم على علمٍ بتفاصيل هذه التعليمات؛ وبنتيجتها عليكم، إذا رأيتم من المناسب في أثناء عبوركم بمحاذاة الشواطئ المصرية، وتأكدتم من موقف هذين البِكَيْن الودي والمخلص تجاهنا، تجهيز فصيل من الفرقاطات أو السُّفن الأخرى وتأمين إيصال الأسلحة لهما، وتطهير الشاطئ، وتسهيل توجُّههما إلى سوريا: وبما أنهما يعانيان من نقص في المدفعية بالدرجة الأولى، بحسب قول البارون طونوس، فعليكم تخصيص عدة مدافع من الاحتياط مع كمية كافية من الذخائر، والاتفاق على تسليمها في الظروف التي تلائمكم. ونترك لكم حرية تقرير ما إذا كان يلزم إرسال عدد من الأشخاص المهرة المتنكّرين لتدريبهم على كيفية استخدام هذه المدافع.

حالما تتأكدون من أن البِكَيْن المصريين انحازا إلى جانبنا، وبرهنا على إرادتهما بامتشاق السلاح وبإرسال الإمدادات الغذائية، التي ينبغي دومًا دفع ثمنها لهما وفقًا للاتفاق، عليكم إصدار أوامر صارمة =

ما بعد. (بكلام آخر، اكتسبت العلاقات طابع العلاقات بين الدول). وفي مقابل الطروحات غير المحددة بشأن مساعدة البِكَيْن في التحرر من النِّير التركي، قضت التعليمات بتحديد وضع مصر المستقبلي، تبعًا لمفاهيم القانون الدولي الأوروبي، فكُلِّف طونوس بعقد «معاهدة» معها[36].

استخدمت الإمبراطورة في هذا البند أسلوبها المعهود: فقد أعلنت استقلال القرم عن الإمبراطورة العثمانية مرة، ثم ضمته إلى روسيا بعد عدة سنوات. ولكن، كانت لدى كاترينا مخططات مهمة بخصوص مصر هذه المرة، وقد طورتها في تعليماتها. فكان ينبغي أن تتضمن المعاهدة بنودًا تنصُّ على «عدم مساعدة عدوِّنا بأيِّ شكلٍ من الأشكال»، وتزويد الأسطول الروسي بالمؤن الغذائية، «على أن تكون الأسعار وكيفية الدفع وفق اتفاقات طوعية»، وعلى أن تكون شروط التجارة الروسية مع مصر مماثلة لشروط التجارة الفرنسية، وعلى «الاتفاق على الوسائل التي يقترحان استخدامها لإلحاق الضرر بعدونا المشترك، وانتزاع أساليب اضطهادهم واستعبادهم مجددًا»[37].

من أجل تعزيز الوسائل المصرية في إلحاق الضرر «بالعدو المشترك»، تقرر تسليم مصر هدية مؤلفة من عدة مدافع من النحاس «مع كمية وافرة من الذخيرة» وإرسال أشخاص مهرة «متنكِّرين» (بملابس جنود مصريِّين - المؤلِّفة) بصفة مستشارين.

خُصِّصت سوريا ببندٍ منفرد. فقد جاء في الأمر السرِّي: «عليكم إقناعهما بشتى الوسائل كي لا يكتفيا عند وصول أسطولنا إلى البحر المتوسِّط بالكلام أو الكتابة عن استقلالهما، بل عليهما أن يؤكِّدا ذلك بتوجيه السِّلاح نحو سوريا،

= إلى كلِّ السُّفن الحربية وإلى قادة السُّفن الخاصة الروسية، بالتمييز بين العلمين المصري والتركي، وعدم المساس بسفنهم المُبحرة هناك، والتعامل معها بوصفها سفنًا محايدة أو صديقة».

(36) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 980, Л. 3об.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 980، ظهر الورقة 3].

(37) المرجع نفسه، الورقة 4.

حيث سيتلقيان المساعدة من سفننا بتطهير الشواطئ من جهة البحر»[38] (فكما نرى، كان الاتّصال بالأمير يوسف مهمًّا بالنسبة إلى هذه الخطط، وكانت رسالته التي سلمها إلى ش. فيريري، إشارة إلى استعداده للتعاون). وعلى هذا النحو، حُبِكَ سيناريو المَكِيدة مع الأخذ في الحسبان تجربة العمليات الروسية عند الشواطئ السورية في الحرب الماضية.

كتعويضٍ على موافقة البِكَيْن على الاقتراحات الروسية، أعلنت الإمبراطورة: «لقد أمرنا الآن (بيد أن الأمر في هذا الخصوص كان قد صدر - المؤلِّفة) سفننا الحربية والخاصة (يجري الكلام هنا على سفن القراصنة التي رفعت العلم الروسي - المؤلِّفة) بعدم المساس بالعلم التجاري المصري، والتعامل معهم[39] ليس كرعايا لعدونا، بل كشعب صديق، طالما لا نرى من جانبهم أعمالًا عدائية أو ولاءً للأتراك»[40].

لم تكن لدى الإمبراطورة خططًا ما بعيدة المدى بخصوص مصر، على ما يبدو. فهي لم تكن تنوي ضمها (نتذكر كلام أ. غ. أورلوف إن احتلال الأسطول الروسي أراضيَ جديدةً في منطقة البحر المتوسِّط لا يتطلب جهدًا، لكن الحفاظ عليها مُنهِكٌ ومُكلِف). فالتجارة والصناعة الروسية كانتا ببساطة عاجزتين عن استيعاب مصر. واقتصرت سياسة كاترينا الإمبراطورية على بسط النفوذ والهيمنة على الأقاليم المجاورة، من دون التفكير بمستعمرات خارجية، لكنها لم تكن لترفض اكتساب أرباح من تحقيق عمليتها المصرية[41].

كان من المفترض أن يبقى طونوس في مصر وفق رغبته، ولم يكن ذلك

---

(38) المرجع نفسه، ظهر الورقة 4.

(39) المقصود مع المصريِّين. (المترجم)

(40) المرجع نفسه، الورقة 5.

(41) في تشرين الثاني/ نوفمبر 1787، أعربت الإمبراطورة في رسالتها إلى غ. أ. بوتيومكين عن أفكارها بشأن اجتذاب فرنسا إلى العمليات الروسية في المتوسِّط، مشيرة في غضون ذلك إلى أنه: «يمكن منح الفرنسيين إمكانية المشاركة في مصر، وارتكاب الخطيئة لقاء هذه الخدمة»: *Екатерина II и Г. А. Потемкин: Личная переписка, 1769-1791*, Изд. подгот. В. С. Лопатин (М., 1997), с. 251.

[كاترينا الثانية وغ. أ. بوتيومكين: المراسلات الشخصية، 1769-1791، إعداد ف. س. لوباتين (موسكو، 1997)، ص 251].

من أجل تقديم المشورة فحسب، بل للمشاركة في الأحداث المصرية؛ إلا أن كاترينا ألزمته بالعمل فورًا على تأمين إمدادات الأرز المصري إلى العمارة البحرية الروسية.

هكذا، وُضِعَ سيناريو مَكِيدة كاترينا الثانية السياسية الكبرى في مصر بصورة نهائية. ولم يبق أمام كونراد طونوس الآن إلا تنفيذه. وحفاظًا على السرية، طُلِبَ منه أن يعلن في بطرسبورغ على الملأ أنه مسافر إلى إيطاليا للقاء عائلته.

غادر البارون طونوس بطرسبورغ في مطلع ربيع عام 1788. فاختار الطريق عبر جزيرة زانت في الأدرياتيكي، حيث استأجر سفينة «قرصان» مالطي، وفي نهاية شهر تموز/يوليو أبحرت السفينة تحت العلم الروسي إلى جهة مجهولة وعلى متنها طونوس. ومُذاك، اختفت آثاره أشهرًا طويلة، على الرغم من البحث الحثيث عنه عبر الأقنية الدبلوماسية بناءً على طلبات بطرسبورغ.

وصلت الأنباء الأولى عن طونوس من الإسكندرية في تشرين الثاني/نوفمبر إلى القائم بالأعمال الروسي في جنوى أ. ليزاكيفيتش، الذي كان مُكلفًا بتأمين التواصل مع طونوس. على أن ليزاكيفيتش لم يتمكن من إقامة الاتصال به إلا بعد سنة، عندما تلقى رسالة وصلته بعد مسيرة معقدة، توخّيًا للسرية، من شخص يُدعى كارلو فانتوتسي. اقترح ليزاكيفيتش على هيئة الشؤون الخارجية الاستفادة من عميله هذا، معتبرًا أنه «إذا كان من الضروري إرسال تعليماتٍ ما إلى السيد البارون طونوس، ... فمن الصحيح والمفيد تسليمها باليد بواسطته»[42]. وفي شباط/فبراير 1789، وصلت معلومات عن طونوس إلى نائب القنصل الروسي في جزيرة زانت زاغوريسكي، الذي نشر ب. بيرمينوف (ستيغني) نص تقريره[43].

---

(42) *АВПРИ*, Ф. 48/2, Д. 53, Л. 89.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 48/ 2، الملف 53، الورقة 89].

(43) П. Перминов, «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII веке,» *Азия и Африка сегодня*, nos. 7-9 (1987).

[ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسية - العربية في القرن الثامن عشر»، آسيا وأفريقيا اليوم، الأعداد 7-9 (1987)].

نقل كارلو فانتوتسي - على ما نعتقد - المعلومات الوُثْقَى عما حدث مع طونوس وعن وصوله إلى مصر. وقد جاء في رسالته: «في الأيام الأخيرة من شهر شباط/ فبراير، ظهر البارون المذكور في ميناء دمياط على متن فرقاطة ترفع العلم الروسي، ويقودها القبطان غولغليم، حيث بقيَت راسية بضعة أيام، ثم أبحرت بعدئذٍ دون أيِّ تواصل مع السكان المحليِّين». اختار طونوس دمياط لعدم وجود قناصلة وتجار أوروبيِّين فيها، فكان من الأسهل، بالتالي، الإبقاء على وصوله سرًّا. في غضون ذلك، كان ثمة أشخاص موثوقون بانتظاره في الإسكندرية. ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1788، تلقى ليزاكيفيتش رسالة من الإسكندرية باسم بيتر لورمان، يناشده فيها «صديق» طونوس، باسم الصداقة، ومن أجل مصلحته الشخصية، إخباره بموعد وصوله إلى الإسكندرية[44]. وهكذا، واجه طونوس منذ لحظة وصوله إلى مصر، صعوبات معينة في تأمين الاتِّصالات مع عملائه. وجدير بالذكر أن خطأ أكثر جدية وقع في التنبُّؤ بتطوُّر الوضع بمصر. فقد استطاعت حملة قبودان باشا تأمين إمكانية بقاء مجموعة البَكَوَات الموالين للأتراك في السلطة. ومارس الجهاد الذي أعلنه السلطان في بداية الحرب التأثير في العقول، وأسهم في التفاف عددٍ كبيرٍ من المماليك حول إسماعيل باشا. واضطر خصماه إبراهيم ومراد بك إلى الانكفاء مجددًا نحو مصر العليا.

«في الأول من أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، وصل إلى الميناء المذكور، حيث ترك أوراقًا مختومة موجهة إلى حكومة القاهرة، معلنًا أنه من الضروري إيصالها إليها بأسرع وقت ممكن، ثم غادر مبحرًا، عاقدًا العزم على العودة مجددًا بعد سبعة أو ثمانية أيام للحصول على الجواب». ويشرح عبدي باشا المُعين واليًا تركيًّا على مصر (وردت، خطأ، كلمة «بك» في النص) في رسالة إلى الأميرال غريغ، تنقّلات طونوس هذه على النحو الآتي: «لقد فتش في كلِّ المنطقة الساحلية، وصولًا إلى مصر (المقصود هنا القاهرة - المؤلِّفة) ودمشق،

---

(44) АВПРИ, Ф. 48/2, Д. 48, Л. 2об.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 48/ 2، الملف 48، ظهر الورقة 2].

عن مؤيِّدين لتنفيذ المشروع الموكل إليه من مجلس مليكته، ولكنه عاد وتوجه إلى إسماعيل بك بعدما تبين له أن الذين بحث عنهم لم يعد لهم وجود في مصر»[45]. وإذا كان عبدي باشا تعمد عدم المبالغة في حجم المؤامرة الروسية – العربية، فإن حديثه عن أن طونوس كان يبحث عن مؤيِّدين في دمشق ينطوي على أهمية كبيرة. وتتبادر إلى الذهن هنا رسالة الأمير يوسف التي بقيت عالقة عند شارل فيريري.

واصل فانتوتسي روايته: «في الحادي عشر من الشهر نفسه، عاد مجددًا إلى المرفأ المذكور، فنزل إلى الشاطئ، وتلقى إجابات القائد إسماعيل بك بواسطة أحد ضباطه، الذي انضم إليه في الخامس عشر من الشهر، وانطلقا سويًّا عبر الطريق المؤدِّي إلى القاهرة. وفي السابع عشر من الشهر التقى في شبرا، وهي قرية تقع على مسافة بضع ساعات من القاهرة، بالقائد الآنف الذكر إسماعيل بك. وبعد لقاءٍ مطول معه، وصل في نهاية المطاف إلى القاهرة، حيث عقد البك المذكور مجلسًا عظيمًا. وفي المجلس وعد البارون طونوس باسم مليكته القائد المذكور، علانيةً، بالمنافع الكثيرة التي ستحصل عليها مصر، إذا ما تحالفت مع روسيا في الحرب الراهنة. تباينت الآراء في المجلس، بيد أن الغلبة كانت في آخر الأمر إلى جانب الباشا. فاحتُجِزَ البارون المذكور طونوس في القلعة، وأُبلغت القسطنطينية بأمره على الفور. بقي البارون قيد الاحتجاز إلى حين اتِّخاذ الباب العالي القرار بشأنه. وأمر الباب العالي بإرساله مخفورًا إلى هناك[46] على متن سفينة، الأمر الذي انتهى بهلاكه على الأرجح».

يمكن اعتبار لقاء طونوس مع البكوات الموالين للأتراك ذروة تطوُّر المكيدة. فقد عكست الأحداث المرتبطة بهذا اللقاء الذي انتهى على هذا النحو المأساوي بالنسبة إلى طونوس، تصادم مصالح مختلف أوساط الشريحة المملوكية العليا والإدارة التركية. ولذا، فإنها تلقى تفسيرات متباينة

---

(45) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 2062, Л. 27.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 2062، الورقة 27].

(46) إلى اسطنبول. (المترجم)

في المصادر، لا بل ثمة روايات مختلفة عنها. وبدهي أن اللقاء («الاجتماع المطول»، كما وصفه كارلو فانتوتسي) بين طونوس وإسماعيل بك قد حصل بالفعل، لكن ما جرى بينهما خلاله ظل في بعض جوانبه طي الكتمان. وليس من قبيل المصادفة أن عبدي باشا كتب في الرسالة الآنفة الذكر: «هذا ما حدث فيها، أما ما ظل طي الكتمان فسيكشفه الزمن»[47]. بيد أن الزمن لم يكشفه.

عُقد الديوان المملوكي الذي تليت فيه رسالة كاترينا الثانية[48] في اليوم التالي أيضًا، بعد لقاء طونوس وإسماعيل بك. ولُبِّيت بذلك مطالب طونوس. فكما كتب عبدي باشا، تضمنت الرسالة التي أرسلها طونوس إلى إسماعيل بك من على متن الفرقاطة، طلبًا «أن يحدِّد البك المذكور مكانًا ويدعو إلى اجتماع فيه، حيث يمكن تلاوة الأوراق التي في حوزته، كي يتعرف المجتمعون إلى مقاصد مليكته الحقيقية». ولكن يبقى من غير الواضح ما إذا كان طونوس نفسه هو الذي تحدث أمام المماليك، أم إنه كان قد احتُجِزَ حينذاك، وتُلِيَت الوثائق في غيابه، وكيف كانت ردة فعل المماليك حيالها. ثمة أمر واحد واضح، هو أن ردة الفعل كانت عاصفةً. فوفقًا لما كتبه عبدي باشا: «حدث هيجان، وصل إلى حدِّ القتل»؛ وكتب أحد عملاء ليزاكيفيتش أن «عددًا كبيرًا من أعضائه (أعضاء

(47) المرجع نفسه، الورقة 27، ظهر الورقة 28.

(48) لم ننجح في العثور على نصِّ رسالة الإمبراطورة إلى البكوات المماليك في أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. وقد ورد عرض موجز لمحتواها في رسالة عميل ليزاكيفيتش المجهول الهوية: «في الرسالة والوثائق الأخرى المرسلة من صاحبة الجلالة الإمبراطورية، إمبراطورة عموم الروسيا، إلى حكومة القاهرة وإلى رئيس المشرِّعين (المفتي؟ - المؤلِّفة)، التي تدعوهم فيها إلى إعلان استقلالهم عن الباب العالي بعد خلع النِّير التركي إبان الحرب الراهنة، تتعهد صاحبة الجلالة بتقديم الدعم بالقوات والسلاح، والتماس الحرية الكاملة لهم والاستقلال عند عقد معاهدة الصلح. ولم يتوان إسماعيل بك عن إبلاغ الباب العالي بمحتوى هذه الوثائق»: *АВПРИ*, Ф. 48/2, Д. 48, Л.77об.

[**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**، المجموعة 48/ 2، الملف 48، ظهر الورقة 77].

وقد عرض الجبرتي محتوى هذه الوثائق وفق التفسير المصري، عارضًا انتقاد الإمبراطورة للسياسة العثمانية في مصر ودعواتها التحريرية، بتفصيل أكبر. كانت كاترينا الثانية متمرِّسة على نحوٍ جيِّد في هذا المجال، حيث إنها صاغت نداءات مماثلة إلى الشعوب المسيحية الرازحة تحت النير العثماني. يُنظر: [الجبرتي، ص 268].

الديوان - المؤلِّفة) أرادوا تقطيعه إِرَبًا»[49]. ويبدو أن انتصار «فريق الباشا»، بحسب ما كتب فانتوتسي، لم يكن بالأمر السهل بالنسبة إلى الأتراك.

أخيرًا، لم تكن ظروف اعتقال طونوس واضحة، فيُسوِّغ إسماعيل بك الاعتقال بأن الشائعات عن مفاوضاته مع طونوس تسربت إلى الشعب، فوقعت اضطرابات، وكان عليه إبلاغ الباشا التركي بالأمر، ومن أجل «حمايته، قُدِّم إلى الوزير وصُودِرت منه الأوراق التي كتبتها ملكتكم، واستبقيناه ضيفًا مُكرمًا عندنا». ولكن، «بما أن الشائعات حوله انتشرت في كلِّ مكان»، كان لا بد من تقديم تقرير إلى الباب العالي عن هذه «المغامرة المدهشة، التي وقعت بقدرة قادر لا تُرَدُّ مشيئتُه»[50]. ويعتقد عميل ليزاكيفيتش المجهول الهوية أن الأتراك اعتقلوا طونوس بناءً على وشاية إسماعيل باشا. أما الجبرتي، فقد كان على يقين بأن «تواطؤًا سريًّا» كان قائمًا بين البكوات والباشا التركي، وأنهم استدرجوا طونوس إلى الفخِّ بحذاقة. ولكن، هل كان ممكنًا أن يقع طونوس ضحية مكائد أخصامه بهذه البساطة؟

ليس ثمة شك في أن طونوس كان يدرك الخطر الذي يعرِّض نفسه له. بيد أن الالتزامات التي أخذها على نفسه أمام الإمبراطورة جعلته يستغلُّ أقل فرصة للنجاح. فقد كان يأمل بإمكان إحداث تحوُّل في أمزجة أنصار إسماعيل بك (بيد أنه كان في الوقت نفسه ضحية أوهامه بشأن استعداد المماليك للتمرُّد على الأتراك). وقد نجح في ذلك إلى حدٍّ ما: فلم يكتب عبدي باشا عبثًا عن السر الذي سيكشفه الزمن، وعن اتِّفاقاتٍ ما سرية بين طونوس وبين إسماعيل بك، إذا ما وصل الأسطول الروسي إلى البحر المتوسِّط، وعن امتناع البك عن تسليم طونوس إلى الباب العالي، خشية افتضاح أمر هذه الاتِّفاقات أمام

---

(49) *АВПРИ*, Ф. 48/2, Д. 48, Л. 78.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 48/ 2، الملف 48، الورقة 78].

(50) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 2062, Л. 24-25.
[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 2062، الورقة 24-25].

الأتراك. فضلًا عن ذلك، اعتقد طونوس، على ما يبدو، أنه سيكون في إمكانه إقامة علاقات مع إبراهيم ومراد من القاهرة على نحو أسرع، ونعتقد أنه حقق نجاحًا في ذلك. ولذا، لم يستغل الظروف التي توفرت له للفرار؛ وقام البِكَان المغضوب عليهما، بدورهما، بأعمال قتالية للوصول إلى القاهرة.

مع ذلك، نعود إلى رسالة فانتوتسي التي جاء فيها: «بيد أن البِكَيْن، قائدَي مصر، اعترضا كليًّا على هذا الأمر (إرسال طونوس إلى اسطنبول - المؤلِّفة)، وأجابا أنهما يودان إبقاءه إلى حين وصول أيِّ عمارة بحرية روسية؛ واتخذا قرارًا فعليًّا بتحريره من قبضة الباشا ومن القلعة، وتأمين مسكن له في بيت عثمان كتخدا، أحد كبار ضباط البك، وهو لا يزال حتى الآن مقيمًا فيه، وهو يتمتع بمأكل وملبس جيِّدين، وفي حوزته حصان ومال، ويحظى بمحبة البكوات كافةً؛ وهو يجول في المدينة بحراسة شخصين، وبوسع أصدقائه والراغبين في التحدُّث إليه الالتقاء به ساعة يشاؤون»[51].

هكذا، التقى طونوس في القاهرة شركاء ملائمين في لعبته السياسية: فقد اعتبره البِكَان بمثابة رهينة يمكن من خلالها الضغط على قيادة الأسطول المقاتل تحت العلم الروسي، من أجل حماية سفنهما من الخطف[52]، كما رأَيا فيه وسيطًا محتملًا في المفاوضات مع الحكومة الروسية، حينما يفتح وصول العمارة البحرية الروسية إلى البحر المتوسِّط آفاق العمل المشترك أمامهما.

---

(51) *АВПРИ*, Ф. 48/2, Д. 53, Л. 89.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 48/ 2، الملف 53، الورقة 89].

(52) *АВПРИ*, Ф. 89/8, Д. 2062, Л. 25, 88.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، المجموعة 89/ 8، الملف 2062، الورقة 25، 88].

كانت رسائل إسماعيل بك وعبدي باشا إلى الأميرال غريغ تهدف إلى إعلام قيادة الأسطول الروسي بذلك. بيد أن صياغة هذا الخبر جاءت وفق قوانين الدبلوماسية الشرقية. فقد أكد كلُّ واحدٍ منهما أنه إذا وصلت أخبار إلى مصر تقول إنكم «أسأتم إلى المؤمنين أو عرضتموهم لمضايقات، وإذا ما علم الرعايا ورجال الدين هنا بذلك، فاعلموا أنهم سيتعاملون مع البارون بوصفه مجرمًا وسيلحق به الأذى؛ وفي هذه الحال، لن يكون في وسعكم القول إن أحدًا لم يحذِّرنا من ذلك، بمن في ذلك قائد مصر». وبكلام آخر، لقد رفع كلا الرجلين عن نفسيهما مسبقًا المسؤولية عن هلاك طونوس المحتمل.

في صيف عام 1788، كان كلُّ شيء جاهزًا لانطلاق العمارة البحرية. فصدر مرسوم سامٍ بتعيين غريغ قائدًا على الأسطول في البحر المتوسِّط، ومُنِحَ صلاحيات عقد اتِّفاقات تحالف مع القوميات المسيحية ضد الأتراك، وأُعطي نسخًا من القواعد التي على قادة السُّفن الخاصة الالتزام بها، وكذلك نسخًا من البيانات الموجهة إلى القوميات المسيحية في تركيا، تتضمن تعهُّدات بمساعدتها ضد الأتراك، وأنموذجًا من بيان قَسَم الولاء، وقوائم بالجوائز والميداليات... ولكنْ، في غضون ذلك، حبكت الدول الأوروبية الكبرى مكيدتها السياسية، فدفعت السويد إلى إعلان الحرب ضد روسيا، وانهمك الأسطول الروسي في الدفاع عن شواطئ روسيا الشمالية، قبل أن يتسنى له مغادرة بحر البلطيق. وفي خضمِّ الحملة العسكرية في تشرين الثاني/ نوفمبر، أصيب س. ك. غريغ بنزلة بردٍ شديدة وتُوفِّي. وبعد عام من ذلك، أصبح واضحًا أن حملة البحر المتوسِّط لن تحصل، فاستُدعي زابوروفسكي إلى بطرسبورغ، وتوقفت التحضيرات لاستقبال العمارة البحرية الروسية في البحر المتوسِّط؛ وهذا ما قرر مصير كونراد طونوس لاحقًا.

في أواسط تشرين الثاني/ نوفمبر 1789، وصل الخبر المحزن إلى جنوى، وجاء فيه أن طونوس اعتُقل في 23 أيلول/ سبتمبر، وبعد أربعة أيام من ذلك، في السابع والعشرين من الشهر نفسه، نُفِّذ فيه حكم الإعدام عن عمر ناهز التسع والثلاثين سنة، ودُفن في اليوم التالي في كنيسة القديس نيقولاي في القاهرة. ويعتقد عملاء القائم بالأعمال الروسي في جنوى أن مراسلات طونوس مع البِكَيْن في مصر العليا ومطلب الباب العالي الجديد بتسليمه، كانت هي الذريعة التي أدت إلى إعدامه.

لم تنجح عملية كاترينا الثانية التخريبية ضد الإمبراطورية العثمانية من الجبهة المصرية، كما فشلت محاولة سلخ مصر عن تركيا وإعلان استقلالها تحت الحماية الروسية بالطبع.

عندما وصل نبأ مقتل البارون كونراد طونوس إلى بطرسبورغ في تشرين الثاني/ نوفمبر، لاحظت كاترينا (ببرود، على الأرجح) أنها لم تقم بأيِّ عمل

تخريبيٍّ في مصر[53]. وعلى هذا النحو انتهت المَكِيدة السياسية التي دبرتها الإمبراطورة في هذا البلد الأفريقي[54].

(53) *Памятные записки А. В. Храповицкого статс-секретаря императрицы Екатерины Второй* (М., 1862), репринт (1990), с. 213.

[مذكرات أ. ف. خرابوفيتسكي، سكرتير الإمبراطورة كاترينا الثانية (موسكو، 1862)، طبعة جديدة (1990)، ص 213].

(54) بعد مقتل طونوس، صدر في 8 نيسان/أبريل 1790 مرسوم كاترينا الثانية القاضي بمنح أرملته راتب زوجها الراحل للثلث الأول من السنة. علاوة على ذلك، تكرمت الإمبراطورة «البالغة الرحمة» بمنح «هذه الأرملة راتب زوجها السنوي لمرة واحدة»، أي 3600 روبل: *АВПРИ*, Внутренние коллежские дела, Оп. 6/2, 1790 г, Д. 1632, Л. 5-7.

[أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، شؤون الهيئة الداخلية، القائمة 6/ 2، 1790، الملف 1632، الورقة 5-7].

# ملحق

# رسالة الأمير يوسف شهاب (يوسف الشهابي) إلى الكونت أ. غ. أورلوف في الأول من كانون الثاني/يناير 1774

وصلت إلينا رسالة الأمير يوسف شهاب[1] (1748-1790) مترجمةً من اللغة الإيطالية، وهي محفوظة في **أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**، ضمن مجموعة الكونتر-أميرال يلمانوف. كما ورد ذكرها أيضًا في مجموعة الأميرال سبيريدوف (المجموعة 190. القائمة 1. الملف 119. الورقة 43). وقد وُضعت الرسالة في ملفات هذا الأرشيف لأنها وصلت إلى باروس على متن عمارة م. د. كوجوخوف البحرية في شباط/فبراير 1774، وترجمها إلى اللغة الروسية المترجمون الحربيُّون في ديوان حملة الأرخبيل، عندما سلم سبيريدوف دفة القيادة إلى يلمانوف وغادر متوجِّهًا إلى إيطاليا.

في السادس والعشرين من شباط/فبراير 1774، أمر غريغوري أندرييفيتش سبيريدوف أندريه فاسيليفيتش يلمانوف، بإرسال الرسالة إلى أ. غ. أورلوف (**أرشيف الدولة الروسية للأسطول الحربي**. المجموعة 190. القائمة 1. الملف 92). والكلام، على ما يبدو، يجري على النسخة الأصلية مع الترجمة). ووقد أرسل أ. غ. أورلوف بدوره الرسالة إلى بطرسبورغ،

(1) جوزيب شهابي كما ورد في الوثيقة. (المترجم)

ضمن تقريرٍ مؤرخ في 27 أيلول/ سبتمبر 1774 (إذ لم يكن يستعجل، كعادته، فيما يتعلق بالأمور العربية)، مُرفقًا بيانه الرسمي بالملحوظة الآتية: «أبعث ربطًا رسالةً موقعة من حاكم الشعوب الدرزية، الأمير يوزيف، الذي تسلم مدينته القديمة **باروت** بمساعدة قوات صاحبة الجلالة الإمبراطورية الموكلة إلي، وكانت ثقته بنا عظيمة، حتى إنه وضع ورقةً بيضاءَ موقعةً باسمه عند طلبه الحماية. وقد أمرتُ الآن بالتأكيد له أنهم مشمولون بالبند العام من معاهدة السلام، وأن كل أفعالهم الماضية ستُغفَر وستُنسى، أيًّا كانت هذه الأفعال»[2]. وقد أُعطِيَ هذا الوعد عوضًا عن تلبية طلبه بوضعه، هو والبلد الذي يحكمه، تحت الحماية أو الرعاية الروسية. (من المعروف أن البعثة الروسية لم تُفلح أثناء مفاوضات السلام في الاحتفاظ بسيطرة روسيا على جزيرة أو اثنتين في الأرخبيل، وهو ما سعت إليه كاترينا، في حين أن بسط نفوذها على الأراضي العربية لم يكن موضوعَ بحثٍ إطلاقًا).

وكان أ. سوكولوف قد نشر في عام 1849 مقاطع من رسالة الأمير يوسف، مع إعادة سردٍ لمحتواها[3]، وأدرجها من ثَم قسطنطين بازيلي في كتابه[4].

تعامل المؤرِّخون الرُّوس مع هذه الرسالة بوصفها حادثةً قليلة الأهمِّية، لكنها مع ذلك تنطوي على أهمِّية كبيرة، إذ تُلقي الضوء على فهم

---

(2) اقتباس من: П. Перминов, «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII веке,» *Азия и Африка сегодня*, no. 8 (1987), c. 59.

[ب. بيرينوف، «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسية – العربية في القرن الثامن عشر»، **آسيا وأفريقيا اليوم**، العدد 8 (1987)، ص 59]. ولم نُوفّق، للأسف، في التحقّق من كلام ب. ف. ستيغني لأن استناده إلى قراءة الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والآثار الروسية كان خاطئًا (1867، الكتاب الأول، ص 57).

(3) A. Соколов, «Архипелагская кампания, 1769-1774 гг.,» in: *Записки Гидрографического департамента Морского министерства*, t. VII (СПб., 1849).

[أ. سوكولوف، «حملة الأرخبيل، 1769–1774»، في: **تدوينات المركز الجيو-مائي لوزارة البحريَّة**، مج 7 (سان بطرسبورغ، 1849)].

(4) К. М. Базили, *Сирия и Палестина под турецким правительством в историческом и политическом отношениях* (Иерусалим; М., 2007), Приложение III, c. 560.

[ق. م. بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني من الناحيتين التاريخيَّة والسياسيَّة** (القدس؛ موسكو، 2007)، الملحق الثالث، ص 560].

الحاكم اللبناني للعالم، هذا الحاكم الذي وحدَ جبل لبنان وأمسك بزمام الأمور فيه على مدى سنوات طويلة (1770-1788)، واضطلع بدورٍ لافتٍ في أحداث سبعينيات القرن الثامن عشر. فالرسالة تُعبِّر عن تصوُّر الأمير يوسف لتاريخ الإمارة اللبنانية، ولموقع المناطق التي كان يسيطر عليها ضمن الإمبراطورية العثمانية، وللعلاقات السياسية الطائفية في البلاد، ولصلاحياته السياسية وسلطته الفعلية. كما تُعبِّر عن كيفية فهمه لمعنى الحماية الروسية التي سعى إليها وماهيتها. وعقب الحرب الروسية - التركية الثانية (1787-1791)، توجه الأمير يوسف مرة أخرى إلى الإمبراطورة طالبًا الحماية. وقد سَلم رسالته إلى القنصل العام الروسي في صيدا، بواسطة الباشا العثماني أحمد باشا الجزار، لإرسالها سرًّا إلى السفير الروسي في القسطنطينية ي. إ. بولغاكوف (أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. المجموعة 89/ 8. قنصلية صيدا. الملف 1475. الورقة 1-4). وكان الأمير يوسف موجودًا حينذاك في عكا، بصفته ضيفًا على الجزار وأسيرًا عنده في الوقت نفسه. وقد دل اطِّلاع الجزار على مضمون الرسالة على عزمه إقامة علاقات مع روسيا.

كان شارل فيريري، المتحدِّر من أصول توسكانية، هو القنصل العام الروسي في صيدا، كانت عائلته قدمت خدمات جُلى إلى روسيا إبان حرب الأعوام 1768-1774 (عُيِّن اثنان آخران من العائلة هما بيوتر وفيكينتي قنصلين في سْمِيرْنَا وبورتو فيرايو). بدأت الحرب الروسية - التركية الثانية، وزعم شارل فيريري أنه لم ينجح في إيصال الرسالة إلى بولغاكوف في اسطنبول، ولكنه لم يُوصلها أيضًا في حينه إلى هيئة الشؤون الخارجية ببطرسبورغ، إهمالًا أو سوءَ نية(؟!).

هكذا، قد يكون ت. ي. كوبيشانوف محقًّا في افتراضه أن خشية أحمد باشا الجزار من افتضاح أمر خططه تجاه روسيا أمام الباب العالي، التي كان الأمير يوسف الشهابي مطلِعًا عليها، كانت أحد أسباب إعدام هذا الأخير في عكا في عام 1790 بأمرٍ منه.

ننشر في ما يأتي ترجمة الرسالة من دون تصحيح، وفقًا للنص المحفوظ في مجموعة إ. ف. يلمانوف:

«من جوزيب الشهابيِّ إلى صاحب السعادة الكونت ألكسي أورلوف، حائز كلِّ أوسمة الإمبراطورية الروسية، قائد القوات العسكرية البحرية والبرية الأعلى في الأرخبيل، المُفوض عليها من صاحبة الجلالة، إمبراطورة عموم الروسيا. باروت، الأول من كانون الثاني/ يناير 1774. الرسالة مترجمة عن الإيطالية:

صاحبَ السعادة، لا يمكنني التعبير عن مدى سعادتي واغتباطي وأنا أرى الرُّوس على أرضي، ويبدو أن الرب بعنايته الإلهية التي لا تُسبَرُ أغوارُها أتى بهم إلي من أجل المساعدة في تحويل أماني التي تتملكني منذ فتوتي إلى حقيقة. لقد حكم أسلافي وأجداد أسرتي هذه الأرض منذ 450 سنة[5]، ولقد استقبلنا المسيحيِّين دائمًا بلطفٍ أكثر مما في الأماكن الأخرى، وتمنينا دائمًا الارتباط بدولةٍ مسيحية ما، لكننا لم ننجح في ذلك. أنا، ومع أنني ميَّالٌ أكثر من كلِّ الآخرين إلى الإيمان المسيحي، كنتُ، ولسوء حظِّي منجذبًا في الماضي الى الباب العالي العثمانيِّ لأسبابٍ سياسية كثيرة[6]؛ ومع أنني تمنيت الارتباط بالرُّوس منذ بداية هذه الحرب مع الأتراك، والانسلاخ الكلِّي عنهم[7]، إلا أنه لا الفرصة ولا السبيل القانوني أتاحا لي خلع نير السلطنة، فكنت مُجبرًا على التواصل مع الباب العالي خلافًا لقناعاتي. وتنفيذًا لمشيئة الله، حاربت علي بك وحاكم عكا وحلفاءهما. ولقد دعا هؤلاء الرُّوس إلى احتلال مدينتي باروت. أما أنا، وللوقوف في وجه الجميع، فقد عينتُ تركيًا يُدعى أحمد بك الجزار[8] واليًا على المدينة، ولكنه سرعان ما تمرد علي وارتبط بباشاوات

(5) ينسب الأمير يوسف تاريخ الإمارة الى الزمن الذي كانت فيه سوريا جزءًا من السلطنة المملوكية المصرية (1250-1516). فعندما كان جبل لبنان لا يزال قليل السكان ومفككًا من الناحية السياسية والإدارية، أقطع سلاطين المماليك مناطق متفرِّقة إلى ممثِّلي تلك العائلات التي عرفها يوسف بأنها من أسلافه، وهو يقصد على ما يبدو، فرعين من أسرة الأمراء التنوخيِّين: جمال الدين وعلم الدين، وأمراء أسرة معن الدرزية. حكم الشهابيُّون خلال تلك الحقبة مناطق في سلسلة لبنان الشرقية.

(6) عنى الأمير يوسف بالأسباب السياسية الأحداث المتعلقة بصراعه على السلطة (لمزيد من التفصيل يُنظر الفصل الثامن، الحاشية 38، وكذلك: [إ. م. سميليانسكايا، «سيناريوهات الحياة السياسية في سوريا ومصر في القرن الثامن عشر»، في: المكيدة السياسية في الشرق (موسكو، 2000)، ص 267-268]).

(7) يقصد الانسلاخ عن الأتراك. (المترجم)

(8) أحمد باشا الجزار (قرابة 1720-1804): حاكم فلسطين وجزءٍ كبيرٍ من سوريا خلال الفترة =

دمشق وحلب وطرابلس، ثم ذهب إلى الحرب ضدّي، بجحودٍ يتصف به هذا الجنس[9]؛ عندئذٍ، تصالحتُ مع حاكم عكا. وعندما علمت أن الرُّوس أُرسِلوا إلى هذه النواحي لمساعدة علي بك في مصائبه، وقد قُتل قبل وصولهم، طلبتُ منهم المساعدة بواسطة الحاكم المذكور، فلم يترددوا في المجيء بقيادة السيد ميخائيل كوجوكوف والسيد الكونت إيفان فوينوفيتش. وبموجب الاتفاقات الملائمة التي عُقِدَت بيني وبينهم، بدأوا بقصف هذه المدينة شديدة التحصين. ولا يسعني إلا الإعراب عن شكري الجزيل للّه ولحاكم عكا على إرسال هؤلاء الناس إلي، والتنويه بثباتهم وصلابتهم ومهارتهم وإقدامهم. وباختصار، لقد أبهروني بأفعالهم، بطيبتهم وإخلاصهم، وجعلوني مدينًا لهم جميعًا، كبارًا وصغارًا[10]؛ ولذا لن أتمكن أبدًا من ردِّ جَمِيلهم ما حييت. لقد طردتم العدو من مدينتي بسلاحكم المُظفر، وجعلتموني مجددًا حاكمًا عليها. وهذا العمل الشهم يجعلني أكثر انجذابًا إلى الرُّوس، ويُلزِمُني الدخول في عداد عبيد صاحبة الجلالة، إمبراطورة عموم الروسيا، المخلصين. آمل من سعادتكم أن تتفضَّلوا ببذل جهودكم كي تقبلني بهذه الصفة، وسأعتبر نفسي في الحقيقة

---

= 1775-1804، وصاحب مؤلف يصف فيه مصر. قبل ارتقائه أعلى سلم البيروقراطية العثمانية، قطع أحمد الذي كان مجرد بوسنيٍّ من أصلٍ بسيط، طريقًا طويلًا. فقد تخفى بعد ارتكابه جريمةً في بلاده، وعمد، بحسب إحدى الروايات، إلى بيع نفسه عبدًا إلى أحد تجار العبيد في اسطنبول. وعلى هذا النحو، أصبح واحدًا من المماليك المصريِّين، ووصل إلى مرتبة بك، ولُقِّب بالجزار لقسوته. وبعد ذلك، اضطر إلى التخفّي في لبنان هربًا من ملاحقة محمد بك أبي الذهب، ودخل في خدمة السرّعسكر عثمان باشا المصري الذي عينه قائدًا لحامية بيروت. وانتقل بعد استسلام بيروت إلى خدمة الشيخ ظاهر العمر، ثم هرب منه إلى اسطنبول حيث استُقبل في البلاط السلطاني بالترحاب، وعُيِّن باشا على إيالة صيدا في عام 1775.

(9) بحديثه عن جحود أحمد بك، قصد الأمير يوسف هذه الواقعة: فقد منح في حينه أحمد باشا الجزار اللجوء، ولم يسلِّمه إلى البكوات المصريِّين أثناء الاحتلال المصري لسوريا، ووافق على تعيينه قائدًا لحامية بيروت، وأرسل له طبيبه الخاص لمعالجته من جروحٍ كان أُصيبَ بها في ضاحية بيروت عام 1772، إثر تعرُّضه لمحاولة اغتيال نفذّها مغربيٌّ بإيعازٍ من الأمير منصور الشهابي. وفي المقابل، لم يفِ أحمد بوعده بإعادة بيروت إلى الشهابيِّين بعد الانتهاء من بناء التحصينات الدفاعية.

(10) «كبارًا وصغارًا» تعبير عربي («كبار وصغار»، أو «أكبر وأصغر»)، يحتمل أكثر من معنى، ويستخدمه المؤرِّخون اللبنانيون للتعبير عن مفهوم «عِليّة القوم وبسطاء الناس»، والمقصود هنا «الضباط والجنود».

محظوظًا إذا ما نلتُ حماية الإمبراطورة السامية، التي تنير أعمالُها الشُّجاعةُ العالم بأسره.

تتألف أسرتي، المسماة شهاب، من أكثر من خمسين أميرًا خاضعين لقيادتي[11]، ويميلون كلهم تقريبًا إلى الدين المسيحي. وتمتدُّ الأراضي التي تحت سلطتنا من بحيرة طبريا حتى القلعة الواقعة في الجهة الأخرى من طرابلس في بلاد من يُسمون المردة، ويقع قسم كبير من تلك الأراضي في جبالٍ منيعة، وهي تضمُّ المنطقة الساحلية وكذلك المنطقة الواقعة بين السلسلتين الجبليتين التي تُسمى في العربية البقاع. ومع أن هذه الجبال ليست غنية بالثروات، إلا أنها كثيفة السكان، ويمكن أن تقدِّم دائمًا أكثر من 60,000 شخصٍ، قلةٌ من بينهم محاربون، وهم لا يفقهون شيئًا تقريبًا في الفنون الحربية، ولكنهم شجعان جدًّا إذا لم يُضمِروا الخيانة. إن أكثر من نصف سكان هذه الأراضي هم من المسيحيِّين الذين يتمتعون بالحُرية الكاملة، ولكن النصف الآخر هم من الكفار، ويُدعَون الدروز. ويملك زعماء الدروز القسم الأكبر من الأراضي، وهم بأغلبيتهم يتمنون الخير للأتراك أكثر مما يتمنونه للمسيحيِّين. وبحسب العادات القديمة، يلتزم هؤلاء الزعماء من الأمير الحاكم خراج مساحاتٍ واسعةٍ من الأراضي، الأمر الذي جعلهم أقوياء جدًّا[12]. وهذه الأراضي محاطة بأعداء شديدي البأس، أي بباشاوات دمشق وحلب وطرابلس، الذين سيسخطون علي كثيرًا إذا ما ارتبطتُ بالرُّوس وتحالفتُ معهم، وهم لن يتوانوا عن استمالة بعض الأمراء الغدَّارين للوقوف إلى جانبهم. وأنا أعقد كل

---

(11) يقصد الأمير يوسف هنا أعضاء عشيرة الشهابيِّين الكبيرة، التي كانت ممتلكاتها تمتدُّ في سلسلة لبنان الشرقية وفي جبال لبنان. وكان للأسرة التي تتزعم هذه العشيرة حقُّ احتلال منصب الحاكم، حاكم لبنان الذي ينصبه السلطان عبر والي صيدا. وقد اعتنق بعض أعضاء عشيرة الأمراء الشهابيِّين المسلمين المسيحية سرًّا (كي لا يتعرضوا للإعدام جراء ارتدادهم).

(12) يدور الكلام هنا عمن يُسمون المقاطعجية، أي حكام المقاطعة، أي المنطقة التي تُجبى منها الضرائب لحساب الإمبراطورية العثمانية، وهي كانت في لبنان بمثابة إقطاعات وراثية. تمتع المقاطعجية بحصانة إدارية وبحصانة قضائية جزئية في الأراضي التي تحت سلطتهم، وكانوا ملزمين بجباية ضريبة الأراضي من سكان المقاطعة، وتسليم جزءٍ كبيرٍ منها إلى خزينة الأمير الحاكم في حساب الجزية اللبنانية المتوجِّبة للسلطان. وكان المقاطعجيُّون ملزمين بالخروج على رأس وحداتٍ مسلحة، عندما يطلب الأمير الحاكم ذلك.

أملي على عون الله وسلطة صليب المسيح الذي أحمله على صدري -وقد رأى ذلك كثر من ضباطكم- كما على سلاح الإمبراطورة الروسية المُظفر، الذي لجأتُ وسألجأ إليه دومًا. وإن شاء الله سأرى اسم هذه الملكة العظيمة منتصرًا في كلِّ أنحاء العالم.

إن خصال سعادتكم ذائعة الصيت، المقترنة بأعمالكم الحكيمة المُظفرة، دفعتني إلى اللجوء سريعًا إلى شخصكم رفيع المقام، المبجل في العالم، الذي أطلعنا عليه السيد الكونت فوينوفيتش[13] والسادة القباطنة الآخرون. لقد كان علي إرسال شخصٍ مفوضٍ منِّي إليكم قبل فترة طويلة، بيد أن الظروف لم تسمح بذلك. ولكن، كونوا على يقين من أنني من خلال رسالتي هذه، أتوجه إلى سعادتكم كما يتوجه الابن إلى أبيه، والتائب إلى كاهنه. وأكاد لا أجد الوقت لشرح ما يعتمل في داخلي للعالم، فأنا أحتاج إلى المساندة والمساعدة للقيام بذلك، من دون تعريض نفسي وأهلي ومسيحيِّي جميع الأراضي التي تحت سيطرتي لخطر الموت. وعلى الرغم من أنني قادر في كلِّ لحظة على تقديم 30,000 محارب من دون صعوبات، إلا أنني لا أعتمد كثيرًا على أناسي، بسبب جهلهم بالفنِّ الحربي، ولقلة عدد المدافع التي نملكها. وهكذا، أتوسل من خلال هذه الرسالة عبر هؤلاء السادة، إلى الإمبراطورة السامية وإلى سعادتكم، منحي ومنح رعيتي وكل الأراضي التي تحت سيطرتي، الجنسية[14]. فقد أفصحت لهؤلاء السادة العارفين بكلِّ شيء، وخصوصًا للكونت إيفان فوينوفيتش، عن مكنونات صدري، وطلبت منهم رفع التماسي هذا إلى

(13) تنبغي الإشارة إلى الاحترام الذي حظي به الكونت إيفان فوينوفيتش بين السياسيِّين العرب. لقد انضم هذا «السلافي» (كانوا يطلقون اسم السلاف على الصربيِّين) البندقي الجنسية، مع حفيديه مارك وإيفان (قُتل إيفان بضاحية بيروت في عام 1773) إلى أ. غ. أورلوف منذ أشهر الحرب الأولى. وبسبب ذلك، سُحبت منه جنسية البندقية وحكم عليه مجلس الشيوخ البندقي بالإعدام. عهد أ. غ. أورلوف إلى فوينوفيتش بالمهمات الأكثر مسؤولية، المتعلِّقة بالعلاقات المتبادلة مع سكان منطقة البحر المتوسِّط. وكُلِّف أيضًا بإيصال رسالة أ. غ. أورلوف الأولى إلى علي بك، وإجراء محادثاتٍ سرِّية معه في عام 1772. وهو كان قد توجّه إلى السواحل السورية على رأس عمارة بحرية صغيرة في عام 1773، وأجرى محادثاتٍ مع الحكام العرب أثناء عملية احتلال بيروت. وقد عُيِّن إ. فوينوفيتش قنصلًا روسيًا عامًّا في الأرخبيل بعد الحرب.

(14) الروسية. (المترجم)

سعادتكم. أرجو من صاحبة الجلالة الإمبراطورية، إمبراطورة عموم الروسيا، وضعي أنا ورعيتي والأراضي الخاضعة لسلطتي، تحت رعايتها، كما أرجوها منحي المساعدة الضرورية ومدِّي بالقوات والأعتدة اللازمة، بل إرسال بعض الأشخاص المناسبين الكفيلين بتقديم النصح والتعليمات الضرورية لي ولرجالي، بما يجعلني أقوى، وبما يمكّنني، بإذن الله وبفضل رعاية جلالتها ومساندة سلاحها الإمبراطوري المُظفر، من سحق العدو المشترك. سأخلع عن نفسي كل السلطة التي على أناسي وعلى أرضي، وأضعها في تصرُّف صاحبة الجلالة. وبرهانًا على تبعيتي، أرسل إلى جلالتها هذه الورقة البيضاء، الموقعة بيدي والممهورة بختمي[15]، كي تُملي صاحبة الجلالة علي القوانين التي ترتئيها، والتي سأسهر على تطبيقها بكلِّ غيرة، وعلى مراعاتها إلى الأبد، باذلًا دمي للحفاظ عليها. أتشرف بأن أُدعى العبد الفقير والمخلص لسعادتكم. الأمير جوزيب شهابي».

«وُقِّعت النسخة الأصلية بالتركية، وإلى جانب التوقيع دُوِّن التاريخ»:

«الأول من كانون الثاني/ يناير، واليوم الأول من عام 1774 في باروت».

«فلتكن هذه السنة الأكثر ازدهارًا لكم كما كلِّ السنين الآتية»[16].

[**أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**، المجموعة 199، القائمة 1، الملف 92، الورقة 71-73].

نشرته **إ. م. سميليانسكايا**

(15) كان من العادات السياسية اللبنانية المتبعة أن يحمل حجم الرسائل وشكلها إشارات لها دلالاتها. فمثلًا، كان الأمير الحاكم يتوجه الى أكثر حكام المقاطعة وجاهةً الحامل لقب أمير برسالة مكتوبةٍ على نصف ورقة، أما إلى المقاطعجية الآخرين فإن الرسالة تُكتب على ربع ورقة. يُنظر:
Fleicher, «Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon,» *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, vol. 6, no. 1 (1852), s. 104.

(16) تجدر الإشارة إلى أن الأمير يوسف يستخدم في رسالته التقويم اليولياني وليس التقويم الإسلامي، ويُرفق تاريخ السنة الجديدة بتمنيات مماثلة كتلك المعتمدة في رأس السنة الهجرية.

# قائمة الرموز

| | |
|---|---|
| أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية | АВПРИ: Архив внешней политики Российской империи |
| أرشيف مجلس الدولة | АГС: Архив Государственного Совета |
| متحف التاريخ الحكومي | ГИМ: Государственный исторический музей |
| المتحف الروسي الحكومي | ГРМ: Государственный Русский музей |
| غاليري تريتيكوفسكايا الحكومية | ГТГ: Государственная Третьяковская галерея |
| مجلة وزارة التعليم العام | ЖМНП: Журнал Министерства народного просвещения |
| قسم المصادر المكتوبة في متحف التاريخ الحكومي | ОПИ ГИМ: Отдел письменных источников Государственного исторического музея |
| المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية | ППС: Православный палестинский сборник |
| مجموعة القوانين الكاملة للإمبراطورية الروسية. المجموعة الأولى من 1649 وحتى 12 كانون الأول/ ديسمبر 1825 | ПСЗ: Полное собрание законов Российской империи. Собрание первое с 1649 по 12 декабря 1825 г. |
| أرشيف الدولة الروسيَّة للأسطول الحربي | РГА ВМФ: Российский государственный архив военно-морского флота |

| | |
|---|---|
| РГАДА: Российский государственный архив древних актов | أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة |
| РГВИА: Российский государственный военно-исторический архив | أرشيف الدولة الروسيّة للتاريخ العسكري |
| СбРИО: Сборник Русского исторического общества | مجلدات الجمعيّة التاريخيّة الروسيّة |
| ЧОИДР: Чтения в Обществе истории и древностей российских при Московском университете | قراءات الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والآثار الروسية في جامعة موسكو |

| | |
|---|---|
| AR: | Annual Register [London]. |
| ASF: | Archivio di Stato di Firenze |
| AST: | Archivio di Stato di Torino |
| ASV: | Archivio di Stato di Venezia |
| BNCF: | Biblioteca Nazionale Centrale di Firenze |
| G. d'A.: | Gazette d'Amsterdam |
| GF: | Gazette de France, 1768-1774. |
| GM: | Gentleman's Magazine |
| GT: | Gazzetta Toscana, 1768-1775 |
| NL: | Novelle Letterarie, 1768-1775 |
| NM: | Notizie del Mondo, 1768-1775 |

# المصادر والمراجع

## 1 – المصادر ИСТОЧНИКИ


*АРХИВ ВНЕШНЕЙ ПОЛИТИКИ РОССИЙСКОЙ ИМПЕРИИ (АВПРИ)*

**أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية**

Фонд 2: «Внутренние коллежские дела,» Оп. 2/6, Ед. хр. 1632, 7177, 7178, 7232, 7233.

المجموعة 2: «شؤون الهيئة الداخلية»، القائمة 2/ 6، وحدات الحفظ 1632، 7177، 7178، 7232، 7233

Оп. 6, Ед. хр. 7251.

القائمة 6، وحدة الحفظ 7251

Фонд 41/3: Сношения России с Венецией, Ед. хр. 13, 14, 16, 21, 34, 35, 39, 40, 41, 44,45,46,49,51

المجموعة 41/ 3: العلاقات بين روسيا والبندقية، وحدات الحفظ 13، 14، 16، 21، 34، 35، 39، 40، 41، 44، 45، 46، 49، 51.

Ф. 48/2: Сношения России с Генуей, Ед. хр. 48.

المجموعة 48/ 2: العلاقات بين روسيا وجنوى، وحدة الحفظ 48.

Фонд (Сношения России с Мальтой), Ед. хр. 5, 6, 7, 14, 20, 22, 46, 72, 74, 76, 77, 93,99, 111.

المجموعة (العلاقات بين روسيا ومالطا): وحدات الحفظ، 5، 6، 7، 14، 20، 22، 46، 72، 74، 76، 77، 93، 99، 111.

Фонд 89 (Сношения России с Турцией), Оп. 8, Ед. хр. 964, 970, 974, 977, 978, 979, 980, 981, 982, 983, 984, 1019, 1020, 1041, 1051, 1054, 1057, 1461, 1462, 1463, 1465, 1466, 1467, 1468, 1469, 1471, 1473, 1475, 1996, 2006, 2035, 2041, 2052, 2055, 2058, 2059, 2062, 2066, 2082, 2093, 2107, 2119, 2127, 2129, 2130, 2134.

المجموعة 89 (علاقات روسيا مع تركيا): القائمة 8، وحدات الحفظ 964، 970، 974، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 1019، 1020، 1041، 1051، 1054، 1057، 1461، 1462، 1463، 1465، 1466، 1467، 1468، 1469، 1471، 1473، 1475، 1996، 2006، 2035، 2041، 2052، 2055، 2058، 2059، 2062، 2082، 2088، 2093، 2107، 2119، 2127، 2129، 2130، 2134.

Фонд Библиотека Азиатского департамента, Оп. 506, Ед. хр. 7.

مجموعة مكتبة الدائرة الآسيوية: القائمة 506، وحدة الحفظ 7.

*РОССИЙСКИЙ ГОСУДАРСТВЕННЫЙ АРХИВ ДРЕВНИХ АКТОВ (РГАДА)*

**أرشيف الدولة الروسية للوثائق القديمة**

Ф. 3: Дела относящиеся до внутренней и внешней политики России, Оп. 1, Д. 19.

Ф. 10: Кабинет Екатерины II, Оп. 1. Д. 267, 272, 435, 437, 444, 645, 676; Оп. 3. Д. 488.

المجموعة 3: الشؤون المتعلقة بسياسة روسيا الداخلية والخارجية، القائمة 1، الملف 19.

المجموعة 10: ديوان كاترينا الثانية، القائمة 1، الملفات 267، 272، 435، 437، 444، 645، 676؛ القائمة 3، الملف 488.

Ф. 15: Оп. Госархив, Д. 146, 181.

المجموعة 15: قائمة أرشيف الدولة، الملفان 146، 181.

*РОССИЙСКИЙ ГОСУДАРСТВЕННЫЙ АРХИВ ВОЕННО-МОРСКОГО ФЛОТА (РГА ВМФ)*

Ф. 8: С. К. и А.С. Грейги, Оп. 4, Д. 760, 770, 771.

المجموعة 8 (س.ك. وأ. س. غريغ): القائمة 4، الملفات 760، 770، 771.

Ф. 172: Канцелярия вице-президента Адмиралтейств-коллегии И. Г. Чернышева, Оп. 1, Д. 20, 22, 43, 94, 129, 135, 139, 157, 158, 189, 310, 313, 317.

المجموعة 172: ديوان نائب رئيس هيئة الأدميرالية إ.غ. تشيرنيشوف، القائمة 1، الملفات 20، 22، 43، 94، 129، 135، 139، 157، 158، 189، 310، 313، 317.

Ф. 188: Военно-походная канцелярия вице-адмирала А. В. Елманова, Оп. 1, Д. 7, 10, 53, 56, 65, 66, 85, 91, 92, 93.

المجموعة 188: الديوان الحربي السيار لدى الأميرال أ. ف. يلمانوف، القائمة 1، الملفات 7، 10، 53، 56، 66، 85، 91، 93.

Ф. 190: Военно-походная канцелярия адмирала Г. А. Спиридова, Оп. 1, Д. 1, 2, 5, 7, 16, 23, 26, 29, 44, 46, 61, 66, 104, 111, 114, 115, 116, 119, 120, 121.

المجموعة 190: الديوان الحربي السيار لدى الأميرال غ. ب. سبيريدوف، القائمة 1، الملفات 1، 2، 5، 7، 16، 23، 26، 29، 44، 46، 61، 104، 111، 114، 119، 120، 121.

Ф. 212: Государственная Адмиралтейств-коллегия, 1767 г, Д. 27.

المجموعة 212: هيئة الأدميرالية الحكومية، العام 1767، الملف 27.

Ф. 315: Материалы для истории флота, Оп. 1, Д. 1, 597, 608, 609; Оп. 2, Д. 43

المجموعة 315: مواد لتاريخ الأسطول، القائمة 1، الملفات 1، 597، 608، 609؛ القائمة 2، الملف 43.

Ф. 870: Вахтенные и шханечные журналы, Оп. 1, Д. 1149.

المجموعة 870: سجلات السفن والمراكب، القائمة 1، الملف 1149.

*РОССИЙСКИЙ ГОСУДАРСТВЕННЫЙ ВОЕННО-ИСТОРИЧЕСКИЙ АРХИВ (РГВИА)*

**أرشيف الدولة الروسيَّة للتاريخ العسكري**

Ф. 434, Д. 58.

المجموعة 434: الملف 58.

Ф. 464, Д. 3.

المجموعة 464: الملف 3.

Ф. 489, Оп. 1, Д. 2087.

المجموعة 489: القائمة 1، الملف 2087.

Ф. 846: Фонд военно-ученого архива, Оп. 16, Д. 1860; Д. 1948.

المجموعة 846: مجموعة الأرشيف العسكري-العلمي، القائمة 16، الملف 1860؛ الملف 1948.

*РОССИЙСКАЯ НАЦИОНАЛЬНАЯ БИБЛИОТЕКА. ОТДЕЛ РУКОПИСЕЙ (ОР РНБ)*

Ф. 568: П. П. Пекарского, no. 463.

ОСРК. F-IV -618.

المكتبة الوطنية الروسية، قسم المخطوطات، المجموعة 568: ب. ب. بيسكارسكي، العدد 463.

*ОТДЕЛ ПИСЬМЕННЫХ ИСТОЧНИКОВ ГОСУДАРСТВЕННОГО ИСТОРИЧЕСКОГО МУЗЕЯ (ОПИ ГИМ)*

**قسم المصادر المكتوبة في متحف التاريخ الحكومي**

Ф. 445, Д. 114.

المجموعة 445: الملف 114.

*ЦЕНТРАЛЬНЫЙ ВОЕННО-МОРСКОЙ МУЗЕЙ*

*Рукописно-документальный фонд.*

**المتحف البحري العسكري**

**مجموعة الوثائق والمخطوطات**

*Archive Nationale de France*

4 AP 190. Memoire sur la guerre austro-russo-turque, 1766-1788.

B 3 800. Dossier 10. Duc d'Aiguillon. Rapport du comte de Mazin sur la marine russe. 1773.

B 3 800. Dossier 18. Duc de Penthièvre, Grand Amiral de France. Puissances neutres et russes. 1780

*Archivio di stato di Venezia*

Senato. Corti. Registro 146. 1769; Senato. Console Veneto in Genova. Busta I; Dispacci degli ambasciatori al Senato. Inghilterra. Busta 124; Inquisitori di Stato. Dispacci diretti agli Inquisitori di Stato dai Consoli. Livorno. Busta 513; Dispacci degli Am- basciatori al Senato. Dalla Germania. Filza 272.

*Archivio di stato di Torino*

Italia. Lettere Ministri Fienze. Mazzo 2.

*Archivio di stato di Firenze*

*Segreteria e Ministero degli Esteri.*

Pezzo 2206. Carteggio S.A.R. e l'Imperatore di tuttele Russie e Gran Sultano. 1765-1824; Pezzo 2291. Carteggio con diversi personaggi to-scani residenti a Roma. 1767-1770; Pezzo 2317. Carteggio Ordinario del Ministro di S.A.R. a Venezia (1767-1770); Pezzo 2318. Carteggio Ordinario del Ministro di S.A.R. a Venezia (1770-1773); Pezzo 2319. Carteggio Ordinario del Ministro di S.A.R. a Ve- nezia (1774-1776); Pezzo 2330. Carteggio col Conte Marulli, agente Toscano a Nolo-gna. 1767-1795; Pezzo 2332. Affari esteri. Russia; Pezzo 2333. Carteggio col Ministero di diverse Corti. Spagna, Torino, Vienna. Dal 1765; Pezzo 2334. Carteggio ordinario del ministro di S.A.R. alla corte di Francia (1768-1773); Pezzo 2335. Carteggio ordi- nario del ministro di S.A.R. alla corte di Francia (1774-1778); Pezzo 2337. Carteggio Ordinario del Ministro di S.A.R. alla Corte di Napoli, dal 1765 al 1795; Pezzo 2341. 1769. Diversi fuori di stato; Pezzo 2345. Carteggio dei Governatori di Livorno con Bonechi dal 1768 - al 1796; Pezzo 2741. Registro die passaporti che saranno spediti dalla Segreteria di Stato dal di 30 Settembre 1765.

Segreteria di Gabinetto.

Pezzo 135. Copie lettere. Elenco delle lettere ricevute e rese. Imperiale e Reale Corte; Pezzo 2264. Nota dei ministri esteri che hanno riseduto in tal qualita' alla Real Corte di Toscana dall'anno 1765; Pezzo 5249. Inventario di tutti gli strumenti di Fisica e Mattematica d'ordine di S.A.R. stati consegnati al Sig. Aba- te Felice Fontana li 31 ottobre 1766.

*Адмирал Ушаков*. Т. 1-3. М., 1952.

**الأميرال أوشاكوف**. مج 1-3. موسكو، 1952.

*Архив Государственного Совета (АГС), t. 1: Совет в царствование императрицы Екатерины II* (1768-1796). СПб., 1869.

**أرشيف مجلس الدولة، المجلد الأول: المجلس في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية** (1768-1796). سان بطرسبورغ، 1869.

[Б. авт.]. С. Л. Лашкарев. Дипломат екатерининского времени (Из современных подлинных бумаг), in: *Русский архив*, 1884, Кн. 2 (3), с. 5-32.

[من دون مؤلف]. لاشكاريف س. ل. دبلوماسي من عصر كاترينا (من الأوراق الأصلية المعاصرة)، في: **الأرشيف الروسي**، 1884، الكتاب الثاني، ص 5-32.

Бёрни, Ч. *Музыкальные путешествия: Дневник путешествия 1770 г. по Франции и Италии*. Л., 1961.

بيرني، ش. **رحلات موسيقية: يوميات رحلة العام 1770 في فرنسا وإيطاليا**. لينينغراد، 1961.

Богданович, И. Ф. «Автобиография,» in: *Отечественные записки* (1853), t. 87, Кн. 4, Отд. VII.

بوغدانوفيتش، إ. ف. «سيرة ذاتية»، في: **مدونات وطنية** (1853)، مج 87، الكتاب الرابع، القسم السابع.

Бумаги имп. Екатерины II, хранящиеся в Государственном архиве Министерства иностранных дел, in: *СбРИО*, t. X (СПб., 1872).

أوراق الإمبراطورة كاترينا الثانية المحفوظة في الأرشيف الحكومي لوزارة الشؤون الخارجية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 10 (سان بطرسبورغ، 1872).

Васильев, К. *Дневник поручика Васильева, 1774-1777 гг*. Предисл. Е. Щепкиной. СПб., 1896.

فاسيلييف. **يوميات الملازم فاسيلييف، 1774-1777**. مقدمة ي. شيبكينا. سان بطرسبورغ، 1896.

Весли, В. «Воспоминания участника Архипелагской экспедиции.» *Морской сборник*. t. 382, no. 5 (1914), c. 1-53.

فيسلي، ف. «مذكرات أحد المشاركين في حملة الأرخبيل». **المجموعة البحرية**. المجلد 382، العدد 5 (1914)، ص 1-53.

Винский, Г. С. «Мое время. Записки,» in: *Екатерина II. Фасад и задворки империи* (М., 2007), c. 9-100.

فينسكي، غ. س. «زمني. مذكرات»، في: **كاترينا الثانية: واجهة الإمبراطورية وفناؤها الخلفي** (موسكو، 2007)، ص 9-100.

[Воронцовm, С. Р.] Граф Моцениго, «Эпизод из Первой турецкой войны при Екатерине II-й, рассказе графа С. Р. Воронцова,» in: *Русский архив*, 1878, no. 12, c. 413-425.

[فورونتسوف، س. ر.] الكونت موتسينيغو. «مشهد من الحرب التركية الأولى في عهد كاترينا الثانية، في حديث الكونت س. ر. فورونتسوف»، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، العدد 12، ص 413-425.

*В память Чесменской победы 24-26 июня 1770 года*. Сборник документов о сражениях в хиосском проливе и Чесменской бухте. Одесса, 1886.

**في ذكرى انتصار شيسما في 24-26 حزيران (يونيو) 1770**. مجموعة وثائق عن المعارك في مضيق خيوس وخليج شيسما. أوديسا، 1886.

«Выпись из дневных записок одного российского путешественника по Балтийском и Средиземном море 1769-1770.» Старина и новизна (СПб.), no. 1 (1772), c. 19-21.

«مقطع من يوميات أحد الرحالة الروس في بحر البلطيق والبحر الأبيض المتوسط في عامي 1769-1770». **القديم والحداثة** (سان بطرسبورغ)، العدد 1 (1772)، ص 19-21.

Гайлинг, Х. Г. фон. «Записки барона Христиана Генриха фон Гайлинга о поездке в Россию в 1770-1771 гг.» *Новая и новейшая история*, no. 5 (2000), c. 109-129.

غايلينغ، خ. غ. فون. «مدونات البارون خريستيان هنري فون غايلينغ عن رحلته إلى روسيا في عامي 1770-1771». **التاريخ الحديث والمعاصر**. العدد 5 (2000)، ص 109-129.

Георги, И. Г. *Описание российско-императорского столичного города Санкт-Петер- бурга и достопамятностей в окрестностях оного, с планом.* СПб.: Лига, 1996.

غيورغي، إ. غ. وصف عاصمة الإمبراطورية الروسية مدينة سان بطرسبورغ ومعالمها مع الضواحي، مع خريطتها. سان بطرسبورغ: ليغا، 1996.

[Грейг, С. К.]. Собственноручный журнал капитана-командора (впоследствии ад- мирала) С. К. Грейга, in: *Морской сборник,* t. II, nos. 10-12 (октябрь 1849), с. 645-660, 715-730, 785-827.

[غريغ، س. ك.]. صحيفة القائد-القبطان (الأميرال في ما بعد) س. ك. غريغ بخط يده، في: المجموعة البحرية، مج 2، الأعداد 10-12 (تشرين الأول/ أكتوبر 1849)، ص 645-660، 715-730، 785-827.

Дашкова, Е. Р. «Записки,» in: *Письма сестер М. и К. Вильмот из России* (М., 1987), с. 35-208.

داشكوفا، ي. ر. «مذكرات»، في: رسائل الشقيقتين م. وك. فيلموت من روسيا (موسكو، 1987)، ص 35-208.

Добрынин, Г. И. *Истинное повествование, или Жизнь Гавриилы Добрынина (проживишего 72 года 2 месяца и 20 дней), им самим писанная в Могилеве и в Витебске. В 3-х ч.* изд. 2 и предисл. М. И. Семевского. СПб., 1872.

دوبرينين، غ. إ. القصة الحقيقية، أو حياة غافريل دوبرينين (الذي عاش 72 عامًا وشهرين و 20 يومًا)، كتبها بنفسه في موغيليف وفيتيبسك في ثلاثة أجزاء، ط 2 مع مقدمة بقلم م. إ. سيميفسكي. سان بطرسبورغ، 1872.

Долгоруков, В. М. «Поденная записка путешествию его сиятельства кн. В.М. Долго- рукова в Крымский полуостров во время кампании 1773 г.,» in: *Записки Одесского общества истории и древностей*, 1872, Т. 8, Отд. 2, с. 182-187.

دولغوروكوف، ف. م. «يوميات رحلة سعادة الأمير ف. م. دولغوركوف في شبه جزيرة القرم إبان حملة العام 1773»، في: مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة، 1872، مج 8، القسم الثاني، ص 182-187.

Долгоруков, Ю. В. «Записки.» *Русская старина*. t. 63, no. 9 (1889), c. 481-517.

دولغوروكوف، ف. م. «المذكرات». **العاديات الروسية**. المجلد 63، العدد 9 (1889)، ص 481-517.

*Екатерина II и Г. А. Потемкин*: *Личная переписка, 1769-1791*. Изд. подгот. В. С. Лопатин. М., 1997.

**كاترينا الثانية وغ. أ. بوتيومكين. المراسلات الشخصية**، 1769-1791. إعداد ف. س. لوباتين. موسكو، 1997.

Жизнь обер-камергера Ивана Ивановича Шувалова, писанная племянником его Тайным Советником Князем Федором Николаевичем Голицыным, in: *Москвитянин*, t. 2, Отд. IV (1853), c. 87-98.

حياة الأوبركاميرهير إيفان إيفانوفيتش شوفالوف، بقلم ابن شقيقته المستشار الأمير فيودور نيقولايفيتش غوليتسين، في: **موسكفيتيانين**، مج 2، القسم 4 (1853)، ص 87-98.

Журнальная записка... Юрия Владимировича Долгорукова... в Черную Гору для учинения оттуда в Албании и Босне неприятелю диверсии, 1769 год, in: *Русский архив*, 1886, Кн. 1, Вып. 4, c. 389-437.

مذكرة من سجل.. يوري فلاديميروفيتش دولغوروكوف... إلى الجبل الأسود لشن عمليات تخريب من هناك ضد العدو في ألبانيا والبوسنة، عام 1769، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، الكتاب الأول، الإصدار الرابع، ص 389-437.

*Записки имп. Екатерины Второй*. СПб., 1907.

**مدونات الإمبراطورة كاترينا الثانية**. سان بطرسبورغ، 1907.

«Из бейрутской церковной летописи XVI - XVIII в.,» Изд. А. Е. Крымского, in: Древности восточные. *Труды Восточной комиссии*, t. 3 (M., 1907), c. 1-89.

«من الحوليات الكنسية البيروتية في القرون السادس عشر - الثامن عشر»، إصدار أ. ي. كريمسكي، في: **عاديات شرقية. أعمال اللجنة الشرقية**، مج 3 (موسكو، 1907)، ص 1-89.

Из бумаг гр. Н. И. Панина, in: *Русский архив*, 1878, no. 12, с. 426-482.

من أوراق الكونت ن. إ. بانين، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، العدد 12، ص 426-482.

«Из переписки А. А. Баратынского: Записки великого князя Павла Петровича А. А. Баратынскому, письма А. А. Баратынского родным и капитану К.И. Горохову,» Публ. Л.Н. Бодровой, in: *Встречи с прошлым* (М., 2004), Вып. 10, с. 17-83 [Письма 1765-1796 гг. публикуются по автографам из РГАЛИ].

«من مراسلات أ. أ. باراتينسكي: مذكرات الأمير الكبير بافل بيتروفيتش إلى أ. أ. باراتينسكي، رسائل أ. أ. باراتينسكي إلى أقاربه وإلى النقيب ك. إ. غوروخوف»، نشرتها ل. ن. بودروفا، في: **لقاءات مع الماضي** (موسكو، 2004)، الإصدار العاشر، ص 17-83 [رسائل الأعوام 1765-1796 تنشر بتصريح من أرشيف الدولة الروسية للآداب].

К биографии графа А. Г. Орлова-Чесменского, Сообщ. А. В. Рачинским, in: Русский архив, 1876, Кн. 7, с. 270-284.

سيرة حياة الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي، إعداد أ. ف. راتشينسكي، في: **الأرشيف الروسي**، 1876، الكتاب السابع، ص 270-284.

Казанова, Дж. *Мемуары*. М., 1991.

كازانوفا، ج. **المذكرات**. موسكو، 1991.

*Камер-фурьерский церемониальный журнал 1788 года*. СПб., 1887.

**سجل المراسم والتشريفات للعام 1788**. سان بطرسبورغ، 1887.

*Книга хожений. Записки русских путешественников XI-XV вв*. Сост., подготовка текста, перевод, вступл. и коммент. Н. И. Прокофьева.М., 1984.

**كتاب الرحلات: مذكرات الرحالة الرُّوس في القرون الحادي عشر - الخامس عشر**. إعداد وتحقيق وترجمة وتقديم وتعليق ن. إ. بروكوفييف. موسكو، 1984.

Коковцев, М. Г. *Достоверное известие о Альжире, о нравах и обычаях тамошнего народа*. СПб., 1780.

م. غ. كوكوفتسيف. **أخبار موثوقة عن الجزائر، وعن طبائع شعبها وعاداته**. سان بطرسبورغ، 1780.

Коковцев, М. Г. *Описание Архипелага и варварийскаго берега, изъявляющее положение островов, городов, крепостей, пристаней, подводных камней и мелей; число жителей, веру, обряды и нравы их с присовокуплением древней истории, и с тремя чертежами*. СПб., 1786.

كوكوفتسيف، م. غ. **يوضِّح وصف الأرخبيل والساحل البربري موقع الجزر والمدن والقلاع والموانئ والصخور التي تحت الماء والأماكن الضحلة؛ وعدد السكان وديانتهم وطقوسهم وعاداتهم، إضافة إلى التاريخ القديم، وثلاثة رسوم**. سان بطرسبورغ، 1786.

Коковцев, М. Г. *Достоверные известия об Альжире, о нравах и обычаях тамошнего народа, о состоянии правительства и областных доходов, о положении Варварийских берегов, о произрастаниях и прочем, с верным чертежом*. СПб., 1787.

كوكوفتسيف، م. غ. **أخبار موثوقة عن الجزائر وعن طبائع شعبها وعاداته، وعن حال الحكومة ومداخيل الأقاليم، وعن أوضاع الجزر البربرية، والنباتات وغيرها، مع رسم صحيح**. سان بطرسبورغ، 1787.

Контр-адмирал Алексиано. Аттестат, in: *Русский архив*, 1886, Кн. 3, Вып. 12, с. 497-499.

الكونتر-أميرال ألكسيانو. شهادة، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، الكتاب الثالث، الإصدار 12، ص 497-499.

Копия прошения греческого народа к императрице Екатерине II от 6 января 1769 года, in: *СбРИО*, t. 2 (СПб., 1868), с. 284-286.

نسخة عن التماس الشعب اليوناني إلى الإمبراطورة كاترينا الثانية، مؤرَّخة في 6 كانون الثاني/ يناير 1769، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسيّة**، مج 2 (سان بطرسبورغ، 1868)، ص 284-286.

Левашов, П. А. *Поденные записки некоторых произшествий во время произшед- шей с Турками войны от дни объявления оной по 1773 год бывшего в Кон- стантинополе, а потом в походах с турецкою армиею поверенного в делах П.... Л....* СПб., 1790.

ليفاشوف، ب. أ. **مذكرات يومية عن بعض الأحداث إبان الحرب مع الأتراك من يوم إعلان الحرب وحتى العام 1773، دونها القائم بالأعمال ب. ل. الذي كان موجودًا في القسطنطينية، ثم الحملات مع الجيش التركي**. سان بطرسبورغ، 1790.

Лузиньян, С. *История о возмущении Али-бея против Оттоманской Порты с различными новыми известиями о Египте, Палестине, Сирии и Турецком государстве, також о путешествиях из Алеппа в Бальзору* [Пальмиру]. Пер. с нем. А. Алексеева. М., 1789.

لوزينيان، س. **قصة تمرُّد علي بك على الباب العالي العثماني مع أخبارٍ جديدة متنوِّعة عن مصر وفلسطين وسورية والدولة التركيَّة، كما عن الرحلات من حلب إلى بالزورا** [تدمر]. تحقيق أ. أكسييفا. موسكو، 1789.

Майков, В. *Описание разных увеселительных зрелищ, представленных во время мирнаго торжества, заключеннаго между Российскою империею и Отто- манскою Портою. В высочайшем присудствии ЕЯ ИМПЕРАТОРСКАГО ВЕ- ЛИЧЕСТВА, всеавгустейшей и непобедимой монархини матери Отечества Екатерины II и их императорских высочеств, при многочисленном собрании народа, близь Москвы на Ходынке, 1775 года июля 16 дня*. М., 1775.

مايكوف، ف. **وصف مختلف العروض الترفيهية التي قُدّمت خلال الاحتفال بالسلام المبرم بين الإمبراطورية الروسية والباب العالي العثماني. بحضور صاحبة الجلالة الإمبراطورية، عطوفة الملكة أمِّ الوطن التي لا تُقهر كاترينا الثانية، وأصحاب السمو الإمبراطوري، وجموع غفيرة من الناس في خودينكا على مقربة من موسكو، يوم 16 تموز/يوليو العام 1775.** موسكو، 1775.

[Майков, Л. Н.]. Первая мысль о Морейской экспедиции графа А. Г.Орлова с предисловием Л.Н. Майкова, in: *Сборник исторических материалов и документов, относящихся к новой Русской истории XVIII и XIX веков*. Изд. М. Михайло- вым. (СПб., 1873), с. 139-145.

[مايكوف، ل. ن.]، الفكرة الأولى عن حملة الكونت أ. غ. أورلوف في مورية مع مقدّمة لمايكوف ل. ن.، في: **مجموعة المواد والوثائق التاريخية المتعلّقة بتاريخ روسيا الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، نشره م. ميخايلوف (سان بطرسبورغ، 1873)، ص 139-145.

Манифест Екатерины II от 6 июля 1762 г., in: *Осмнадцатый век* (М., 1869), Кн. 4, с. 217-223.

بيان كاترينا الثانية بتاريخ السادس من تموز/يوليو 1762، في: **القرن الثامن عشر** (موسكو، 1869)، الكتاب الرابع، ص 217-223.

Мартенс, Ф. *Собрание трактатов и конвенций*. Т 14. СПб., 1902.

مارتنيس، ف. **مجموعة الاتفاقات والمواثيق**. مج 14. سان بطرسبورغ، 1902.

*Материалы для истории русского флота*. Ч. VI. СПб., 1877.

______. Ч. XI. СПб., 1886.

______. Ч. XII. СПб., 1888.

**مواد لتاريخ الأسطول الروسي**. ج 6. سان بطرسبورغ، 1877.

______. ج 11. سان بطرسبورغ، 1886.

______. ج 12. سان بطرسبورغ، 1888.

Мордвинов, С. И. *Записки адмирала Семена Ивановича Мордвинова*. писанные собственною его рукою (с примечаниями С. Елагина). СПб., 1868).

موردفينوف، س. إ. **مذكرات الأميرال سيميون إيفانوفيتش موردفينوف**. كتبها بخط يده (مع تعليقات س. يلاغين). سان بطرسبورغ، 1868.

Неизвестные письма императрицы Екатерины Второй барону Гримму, in: *Русский архив*, 1878, Кн. 3, Вып. 9, с. 5-128.

رسائل مجهولة من الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى البارون غريم، في: **الأرشيف الروسي**، 1878، الكتاب الثالث، الإصدار 9، ص 5-128.

«Описание путешествия отца Игнатия в Царьград, Афонскую гору, Святую землю и Египет, 1766-1776 гг.» Под ред. В. Н. Хитрово, *ППС*. t. XII, Вып. 3 (36) (1891).

«وصف رحلة الأب إيغناتي إلى تساريغراد وجبل آثوس والأرض المقدسة ومصر، 1766-1776». تحت إشراف ف. ن. خيتروفو. **المجموعة الفلسطينيّة الأرثوذكسيّة**. مج 12، الإصدار 3 (36) (1891).

Пален. «Барона фон дер Палена журнал путешествия в Константинополь,» in: *Отечественные записки*, 1823, Ч. 14, no. 38, с. 372-384; Ч. 15, no. 40, с. 236-247.

بالين. «سجل البارون فون دير بالين حول الرحلة إلى القسطنطينيّة»، في: **مدونات وطنية**، 1823، ج 14، العدد 38، ص 372-384؛ ج 15، العدد 40، ص 236-247.

*Переписка Н.В. Гоголя в двух томах*. Сост. А. А. Карпова и М. Н. Виролайнен. М., 1988.

**مراسلات ن. ف. غوغول في جزءين.** جمعها أ. أ. كاربوفا وم. ن. فيرولاينين. موسكو، 1988.

*Переписка российской императрицы Екатерины II и господина Вольтера, продолжавшаяся с 1763 по 1778 год.* Перевел с французского Иван Фабиян. М., 1805.

**مراسلات الإمبراطورة الروسيّة كاترينا الثانية مع السيد فولتير، التي استمرت من عام 1763 حتى عام 1778.** ترجمها عن الفرنسية إيفان فابيان. موسكو، 1805.

Переписка графа Н. И. Панина с графом А. Г. Орловым-Чесменским, 1770-1773, in: *Русский архив*, 1880, Кн. III (2), с. 229-260.

مراسلات الكونت ن. إ. بانين مع الكونت أ. غ. أورلوف – تشيسمينسكي، 1770–1773، في: **الأرشيف الروسي**، 1880، الكتاب الثالث (2)، ص 229–260.

Петров, В. П. *Ода его сиятельству графу Алексею Григорьевичу Орлову на прибытие его из Архипелага в Санкт-Петербург. 1771 марта 4 дня.* [СПб., 1771].

بتروف، ف. ب. **قصيدة غنائيّة لسعادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف لمناسبة وصوله إلى سان بطرسبورغ من الأرخبيل. 4 آذار/ مارس من عام 1771.** [سان بطرسبورغ، 1771].

*Письма и бумаги императора Петра Великого* (М.; Л, 1887-1977).

**رسائل وأوراق الإمبراطور بطرس الأكبر.** موسكو؛ لينينغراد، 1887–1977.

Письма Екатерины Второй к Гримму (1774-1796), Изд. с пояснит. примеч Я. Грота, in: *СбРИО*, t. 23 (СПб., 1878).

رسائل كاترينا الثانية إلى غريمّ (1774–1796)، طبعة مع ملاحظات توضيحية لـ «ي. غروتّ»، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 23 (سان بطرسبورغ، 1878).

Письма и записки императрицы Екатерины Второй к графу Никите Ивановичу Панину, in: *ЧОИДР*, 1863, Кн. 2, с. 1-160.

رسائل ومذكرات الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى الكونت نيكيتا إيفانوفيتش بانين، في: **قراءات الجمعية الإمبراطورية للتاريخ والآثار الروسية في جامعة موسكو**، 1863، الكتاب الثاني، ص 1-160.

«Письма И. И. Шувалова к сестре его родной, княгине Прасковье Ивановне Голи- циной, урожденной Шуваловой.» *Москвитянин*. no. 10 (1845), с. 131-155.

«رسائل إ. إ. شوفالوف إلى شقيقته الأميرة براسكوفيا إيفانوفنا غوليتسينا، المولودة شوفالوفا». **موسكفيتيانين**. العدد 10 (1845)، ص 131-155.

Письмо вел. кн. Павла Петровича к графу И. Г. Чернышеву. 15 мая 1775 г. О перевозе артиллерийских снарядов, оставшихся в Мароне, in: *Русский архив*, 1886, Кн. 3, с. 305.

رسالة الأمير الكبير بافل بيتروفيتش إلى الكونت إ.غ. تشيرنيشوف. في الخامس عشر من أيار/ مايو 1775 حول نقل ذخائر المدفعية المتبقية في مارون، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، الكتاب الثالث، ص 305.

Письмо графа А. Г. Орлова к египетскому паше Али-бею, in: *Русский архив*, 1880, no. 11, с. 345-346.

رسالة الكونت أ.غ. أورلوف إلى باشا مصر علي بك، في: **الأرشيف الروسي**، 1888، العدد 11، ص 345-346.

Письмо императрицы Екатерины II графу П. С. Салтыкову, in: *Русский архив*, 1886, t. 3, с. 83.

رسالة الإمبراطورة كاترينا الثانية إلى الكونت سالتيكوف، في: **الأرشيف الروسي**، 1886، مج 3، ص 83.

Платон (Левшин). *Поучительные слова при высочайшем дворе... Екатерины Алексеевны с 1763 года по 1780 год сказанныя... Платоном*. М., 1780.

بلاتون (ليفشين). **أقوال وعظية لبلاتون في البلاط السامي... لكاترينا ألكسييفنا من العام 1763 وحتى عام 1780**. موسكو، 1780.

Плещеев, С. *Дневные записки путешествия из Архипелагского России принадлежащего острова Пароса в Сирию и к достопамятным местам в пределах Иерусалима находящимся с краткою историею Алибеевых завоеваний, российского флота лейтенанта Сергея Плещеева в исходе 1772 лета*. СПб., 1773.

بليشييف، س. **يوميات الرحلة التي قام بها الملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في نهاية صيف عام 1772، من جزيرة باروس الأرخبيلية التي تعود لروسيا، إلى سوريا والأماكن المشهودة الواقعة في حدود القدس، مع عرض سريع لفتوحات علي بك**. سان بطرسبورغ، 1773.

*Политические и культурные отношения России с югославянскими землями в XVIII в.: Документы*. М., 1984.

**علاقات روسيا السياسية والثقافية مع الأراضي اليوغوسلافيّة في القرن الثامن عشر: وثائق**. موسكو، 1984.

Полномочный, И. А. «Род мой и происхождение. Краткие автобиогр. записи офи- цера Черномор. флота Ивана Андреева Полномочного (1764-1833),» [Публ. А. Матвеева], in: *Записки одесского общества истории и древностей*, 1889, t. 15, c. 683-710.

بولنوموتشني، إ. أ. «أهلي وأصلي. سيرة ذاتية مختصرة. مذكرات الضابط في أسطول البحر الأسود إيفان أندرييف بولنوموتشني (1764-1833)»، [إعداد أ. ماتفييف]، في: **مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة**، 1889، مج 15، ص 683-710.

Потемкин, П. *Стихи Его Сиятельству графу Алексею Григорьевичу Орлову на преславную победу флота, бывшую сего 1770 году июля 5 дня по новому штилю*. СПб., 1770.

بوتيومكين، ب. **أشعار إلى سعادة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف لمناسبة انتصار الأسطول المجيد، الذي حصل في 5 حزيران/ يونيو من عام 1770 بحسب التقويم الجديد**. سان بطرسبورغ، 1770.

Потемкин, П. С. *Стихи на приезд из Архипелага графа Алексея Григорьевича Орлова, сочиненные 1771 году, марта 4 дня*. [СПб., 1771].

بوتيومكين، ب. س. **أشعار لمناسبة وصول الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف، نُظمت في عام 1771، 4 آذار/ مارس**. [سان بطرسبورغ، 1771].

Потемкин, П. *Россы в Архипелаге: Драмма*. СПб., 1772.

بوتيومكين، ب. **الروس في الأرخبيل: دراما**. سان بطرسبورغ، 1772.

«Проскинитарий Арсения Суханова, 1649-1653.» *ППС*. t. VII, Вып. 3 (1889).

«كتاب رحلة الحج لأرسيني سوخانوف، 1649–1653». **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**. مج 7، الإصدار الثالث (1889).

Прошение тульских купцов о торговле в Средиземном море с заметками Екатерины II, in: *Русский архив*, 1870 (Год 8-й), nos. 4-5, Стлб. 541-545.

التِماس تجار تولا المتعلق بالتجارة في البحر المتوسِّط مع ملاحظات كاترينا الثانية، في: **الأرشيف الروسي**، 1870 (السنة الثامنة)، العددان 4–5، العمود 541–545.

«Путешествие иеромонаха Ипполита Вишенскаго в Иерусалим, на Синай и Афон (1707-1709).» Изд. под ред. С. П. Розанова. *ППС*. Т. 21, Вып. 1 (61) (1914).

«رحلة الكاهن الراهب إيبوليت فيشينسكوف إلى القدس، سيناء وآثوس (1707–1709)». نشر بإشراف س. ب. روزانوف. **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**. مج 21، الإصدار 1 (61) (1914).

«Рескрипты и письма имп. Екатерины II на имя графа А. Г. Орлова-Чесменского,» Сообщ. кн. Н. А. Орловым, in: *СбРИО*, t. 1 (СПб., 1867), с. 1-114.

«أوامر كاترينا الثانية ورسائلها إلى الكونت أ. غ. أورلوف - تشيسمينسكي»، نقلًا عن الأمير ن. أ. أورلوف، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 1–114.

Ресми-Ахмет-Эфенди. *Сок достопримечательного в сущности, о начале и важнейших событиях войны, происходивших между Высокою Портою и Россией*. Предисл. О. И. Сенковскго. [М.]: Библиотека для чтения, 1854.

رسمي أحمد أفندي. **خلاصة الاعتبار في أهم أحداث الحرب بين الباب العالي وروسيا**. تقديم أ. إ. سينكوفسكي. [موسكو]: مكتبة المطالعة، 1854.

*Русский посол в Стамбуле. Петр Андреевич Толстой и его описание Османской империи начала XVIII в.*, Сост., вступ. ст., коммент. М. Р. Аруновой & С. Ф. Орешковой. М., 1985.

**السفير الروسي في اسطنبول، بيوتر أندرييفيتش تولستوي ووصفه للإمبراطورية العثمانية في بدايات القرن الثامن عشر**. مراجعة وتقديم وتعليق م. ر. آرونوفا وس. ف. أوريشكوفا. موسكو، 1985.

Самойлов, А. Н. «Жизнь и деяния генерала-фельдмаршала князя Григория Александровича Потемкина-Таврического,» in: *Русский архив*, 1867, no. 4, С. 575-606; no. 7, c. 993-1027; no. 10, c. 1203-1262; no. 12, c. 1537-1578.

ساموليوف، أ. ن. «حياة وأعمال الجنرال الماريشال الأمير غريغوري ألكسندروفيتش بوتيومكين تافريتشكسي»، في: **الأرشيف الروسي**، 1867، العدد 4، ص 575-606؛ العدد 7، ص 993-1027؛ العدد 10، ص 1203-1262؛ العدد 12، ص 1537-1578.

*Семена Порошина Записки, служащие к истории Его Императорского Высочества... Павла Петровича наследника престола Российского.* СПб., 1844.

**مذكرات سيميون بوروشين، الذي خدم في عهد صاحبة الجلالة الإمبراطورية... بافل بيتروفيتش وريث العرش الروسي.** سان بطرسبورغ، 1844.

Сенявин, Д. Н. «Записки адмирала Дмитрия Николаевича Сенявина,» in: *Морской сборник*, t. 377, no. 7 (1913), Неофиц. Раздел, c. 1-45.

سينيافين، د. ن. «يوميات الأميرال ديمتري نيقولايفيتش سينيافين»، في: **المجموعة البحرية**، مج 377، العدد 7 (1913)، القسم غير الرسمي، ص 1-45.

Скопин, Г. А. «0Дневник произшествий (1762-1796),» in: *Саратовский исторический сборник* (Саратов, 1891), t. 1, c. I-VIII, 1-140.

سكوبين، غ. أ. «يوميات الأحداث (1762-1796)»، في: **المجموعة التاريخية في ساراتوف** (ساراتوف، 1891)، مج 1، ص I-VIII، 1-140.

Слюсарский, Д. «Записки писаря киевского магистрата... о киевских событиях с 1734 по 1778 г.» *Киевские епархиальные ведомости.* no. 1 (1885), c. 36-40; no. 2 (1885), c. 81-85.

سليوسارسكي، د. «مذكرات الكاتب في أمانة بلدية كييف...عن الأحداث في كييف من العام 1734 وحتى 1778». **أنباء أسقفية كييف.** العدد 1 (1885)، ص 36-40؛ العدد 2 (1885)، ص 81-85.

«Собственноручная записка имп. Екатерины II-ой о греческом проекте,» Сообщ. Н. К. Шильдер. *Русская старина*. Т. 76, no. 10 (1892), с. 1-3.

«مذكرة كاترينا الثانية بخط يدها حول المشروع اليوناني». إخبار ن. ك. شيلدير. **العاديات الروسية**. مج 76. العدد 10 (1892)، ص 1-3.

Собственноручные письма императрицы Екатерины II-й к графу Ивану Григорьевичу Чернышеву, in: *Русский архив*, 1871, no. 9, Стлб. 1313-1348.

رسائل الإمبراطورة كاترينا الثانية بخط يدها إلى الكونت إيفان غريغوريفيتش تشيرنيشوف، في: **الأرشيف الروسي**، 1871، العدد 9، العمود 1313-1348.

«Список с подлинных приказов графа Алексея Григорьевича Орлова Чесменского по флоту, действовавшему в Архипелаге в 1770 году и истребившему турецкий флот при Хиосе и Чесме.» *Морской сборник*. t. 9, no. 4 (1853), c.263-289.

«قائمة بأوامر الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي الحقيقية إلى الأسطول العامل في الأرخبيل في العام 1770 والذي أباد الأسطول التركي في خيوس وشيسما». **المجموعة البحرية**. مج 9، العدد 4 (1853)، ص 263-289.

*Странствования Василья Григоровича-Барского по святым местам Востока с 1723 по 1747*. СПб., 1885. (Первое издание: *Пешеходца Василия Григоровича-Барского Плаки Альбова, урожденца Киевскаго, монаха Антиохийскаго, путешествие к святым местам, в Европе, Азии и Африке находящимся, предпринятое в 1723 году и оконченное в 1747 г., им самим писанное*. СПб., 1778).

**أسفار فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي في الأماكن المقدسة في الشرق من عام 1723 حتى عام 1747**. سان بطرسبورغ، 1885. (الطبعة الأولى: **الرحلة التي قام بها الرحالة فاسيلي غريغوريفيتش بارسكي بلاكي - ألبوف، المولود في كييف، الراهب الأنطاكي، إلى الأماكن المقدسة، الموجودة في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وامتدت من عام 1723 حتى عام 1747، وقد كتبها بنفسه** (سان بطرسبورغ، 1778)).

Толстой, П. А. «Дневник, писанный им во время путешествия в Италию и на остров Мальту в 1697-1698 гг,» in: *Русский архив*, 1888, Кн. 1, Вып. 2, с. 161-204.

تولستوي، ب. أ. «المذكرات المكتوبة خلال رحلة إيطاليا وجزيرة مالطا في عامي 1697 و1698»، في: **الأرشيف الروسي**، 1888، الكتاب 1، الإصدار 2، ص 161-204.

Толстой, П. А. *Описание Черного моря, Эгейского архипелага и османского флота*. Сост. И. В. Зайцев & С.Ф. Орешкова. М., 2006.

تولستوي، ب. أ. **وصف البحر الأسود، أرخبيل إيجة والأسطول العثماني**. مراجعة إ. ف. زايتسيف وس. ف. أوريشكوفا. موسكو، 2006.

Толченов, И. А. *Журнал, или Записка жизни и приключений Ивана Алексеевича Толченова*. М., 1974.

تولتشينوف، إ. أ. **صحيفة، أو سيرة حياة إيفان ألكسييفيتش تولتشينوف ومغامراته**. موسكو، 1974.

Травин, Л. А. *Божьим милосердием облагодетельствованного Леон тия Артамонова сына Травина, уроженца из бедного состояния родителей, происшедшего в достоинство благородства, бывшия с 1741 года в жизни его обстоятельства и приключения, для сведения и пользы собственного потом кам его, описанная самим им*, Вступит, статья Л. Софийского, in: *Труды Псковского археологического общества*, t. 10 (1914), с. 25-129.

ترافين، ل. أ. **سيرة حياة ليونتي أرتمانوف، ابن ترافين، المولود لأبوين فقيرين، الذي أغدقت عليه النعمة الإلهية ورفعته إلى مقام نبيل بجدارة، ومغامراته منذ العام 1741، كتبها بنفسه لكي تكون مصدر معرفة وفائدة لذريته**، في: **أعمال جمعية الأرخبيل في بيسكوف**، مج 10 (1914)، مج 10، ص 25-129.

Учебные книги и тетради великого князя Александра Павловича, in: *СбРИО*, t. 1 (СПб, 1867), с. 369-384.

كُتب الأمير العظيم ألكسندر بافلوفيتش ودفاتره التعليمية، في: **مجلدات الجمعية التاريخية الروسية**، مج 1 (سان بطرسبورغ، 1867)، ص 369-384.

Ушаков, С. *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского.* почерпнутая из достоверных российских и иностранных источников С. Ушаковым. СПб., 1811.

أوشاكوف، س. **حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف - تشيسمينسكي المستقاة من مصادر روسية وأجنبية موثوقة.** سان بطرسبورغ، 1811.

Филофей. «Послание великому князю Василию об исправлении крестного знамения и о содомском блуде,» in: *Памятники литературы Древней Руси. Конец XV — первая половина XVI века.* (М., 1984), с. 437-441.

فيلوفي. «رسالة إلى الأمير الكبير فاسيلي حول إصلاح راية الصليب وعن الفسق السدومي»، في: **الآثار الأدبية لروسيا القديمة. نهاية القرن الخامس عشر - النصف الأول من القرن السادس عشر** (موسكو، 1984). ص 437-441.

Хметевский, С. П. «Журнал Степана Петрова сына Хметевского о военных действиях русского флота в Архипелаге и у берегов Малой Азии в 1770-1774 гг.» *Современник.* Т. 49, nos. 1-2 (1855), с. 37-82, 111-170.

خميتيفسكي، س. ب. «صحيفة ستيبان بيتروف بن خميتيفسكي عن أعمال الأسطول الروسي الحربية في الأرخبيل وعند شواطئ آسيا الصغرى في الأعوام 1770-1774». **المعاصر.** مج 49، العددان 1-2 (1855)، ص 37-82، 111-170.

*Хождение в Святую землю московского священника Иоанна Лукьянова, 1701-1703.* Изд. Л. А. Ольшевская, А. А. Решетова & С. Н. Травников. М. 2008.

**رحلة حج الكاهن الموسكوبي يوحنا لوكيانوف إلى الأرض المقدسة، 1701-1703.** إصدار ل. أ. أولشوفسكايا، أ. أ. ريشيتوف وس. ن. ترافنيكوف. موسكو، 2008.

«Хождение купца Василия Познякова по Святым местам Востока,» in: *ППС*, 18-й вып (СПб., 1887), t. 6, Вып. 3 (18).

«رحلة التاجر فاسيلي بوزدنيكوف إلى الأماكن المقدسة في الشرق»، في: **المجموعة الفلسطينية الأرثوذكسية**، الإصدار الثامن عشر (سان بطرسبورغ، 1887)، مج 6، الإصدار 3 (18).

«Хожение Даниила, игумена Русской земли,» in: *Книга хождений. Записки русских путешественников XI-XV вв.*, Сост., подг. текста, пер., вступл. и комм. Н. И. Прокофьева (М., 1984).

[رحلة حج دانيال، قمْص الديار الروسية»، في: **كتاب الرحلات: مذكرات الرحالة الرُّوس في القرون الحادي عشر - الخامس عشر**، إعداد وتحقيق وترجمة وتقديم وتعليق ن. إ. بروكوفييف (موسكو، 1984).

[Храповицкий, А. В.]. *Памятные записки А. В. Храповицкого статс-секретаря императрицы Екатерины Второй*. М., 1862. (репринт (1990)).

[خرابوفيتسكي، أ. ف.]. **مذكرات أ. ف. خرابوفيتسكي، سكرتير الإمبراطورة كاترينا الثانية**. موسكو، 1862. (طبعة جديدة 1990).

Чулков, М. *Историческое описание российской коммерции при всех портах и гра- ницах от древних времен до ныне настоящего*. СПб., 1786.

تشولكوف، م. **وصف تاريخي للتجارة الروسية في كل المرافئ والحدود من الأزمنة الغابرة حتى الوقت الراهن**. سان بطرسبورغ، 1786.

Шишков, А. С. «К издателю Отечественных записок.» *Отечественные записки*. Ч. 4, no. 7 (1820), с. 67-88.

شيشكوف، أ.س. «إلى ناشر المدونات الوطنية» **المدونات الوطنية**. ج 4، العدد 7 (1820)، ص 67-88.

[Шишков, А.С.]. «Розбитие русского военного корабля у берегов Швеции в 1771 г. отрывок из жизни N.» *Отечественные записки*. Ч. 8, no. 20 (1821), с. 289-323; Ч. 9, no. 21 (1822), с. 35-70; no. 22 (1822), с. 174-208.

[شيشكوف، أ. س.]. «تحطم السفينة الحربية الروسية عند سواحل السويد في العام 1771. نبذة من حياة .N» **المدونات الوطنية**. ج 8، العدد 20 (1821)، ص 289-323؛ ج 9، العدد 21 (1822)، ص 35-70؛ العدد 22 (1822)، ص 174-208.

Щербатов, М. М. *О повреждении нравов в России*. СПб., 1906.

شيرباتوف، م. م. **عن تردي الأخلاق في روسيا**. سان بطرسبورغ، 1906.

*L'abbé F. Galiani correspondance avec Madame D'Épinay-Madame Necker, Madame Geoffrin, etc, Diderot, Grimm, D'Alembert, De Sartine,D'Holbach, etc.* Paris, 1881.

Bruce of Kinnaird, J. *Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772 and 1773.* 5 vols. Edinburgh; London, 1790.

Chappe d'Auteroche, J. *Voyage en Sibérie.* t. 1. Amsterdam, 1769.

Choiseul-Gouffier, Marie Gabriel Florent Auguste de. *Voyage pittoresque de la Grèce.* Paris, 1782.

D'Epinay, Louise & Ferdinando Galiani. *Epistolario, 1769-1772.* Palermo, 1996.

Gorani, Jean & Citoyen François. *Mémoires secrets et critiques des cours, des gouvernemens, et des moeurs des principaux états de l'Italie.* t. II. Paris, 1793.

*Graf Pasch van Krienen H.L. Abdruck seiner italienischen Beschreibung des griechischen Archipelagus mit Anmerkungen und einer Abhandlung uber den Verfasser und seine Auffi ndung des Grabes Homer's auf Ios aus dem Nachlasse von Ludwig Ross.* Halle, 1860.

*Istruzione emanata da Caterina seconda imperatrice e legislatrice di tutta la Russia stante la commissione stabilita da questa sovrana per la reduzione di un Nuovo Codice delle Leggi tal quale è stata impressa in Russia, in Alemagna, in Francia.* Tradotta nuovamente dal Francese in lingua Toscana. Firenze: Nella Stamperia Bonducciana, [1769].

M. L. C. D. M. D. L. D. G. D. C. D. M. L. C. D'A. [*Monsieur le chevalier Duvernois maréchal des logis des gardes du corps de monsieur le comte d'Artois*]. Neuchatel, 1784.

*The Movement for Greek Independence 1770-1821: A Collection of Documents.* Ed. and trans. by Richard Clogg. London, 1976.

Rulhière, Cl.-C. «Histoire de l'anarchie de Pologne et du démembrement de cette République: Suivie des Anecdotes sur la révolution de Russie en 1762,» dans: *Oeuvres* (Paris, 1819).

*Storia della Guerra presente tra la Russia e la Porta Ottomana.* Venezia, 1770.

Tott, F. de. *Mémoires du baron de Tott sur les Turcs et les Tartares.* Amsterdam, 1785.

*Verdy Du Vernois A.-M., F.d.* Essais de geographie, de politique et d'histoire sur les pos- sessions de l'empereur des Turcs en Europe, divises en trois parties; la premiere con- tenant une description geographique de la Turquie d'Europe; la

seconde contenant un detail de la constitution militaire des Turcs ; la troisieme, le recit historique des principaux evenements de la guerre de 1768, entre la Russie et la Porte, par M. L. C. D.

Verri, Pietro. *Carteggio Di Pietro E Di Alessandro Verri, vol. 4: Ottobre 1770 Dicembre 1771.* Milano, 1919.

______. *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 3: Agosto 1769-settembre 1770 (dal 1766 al 1797).* Milano, 1911.

______. *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, vol. 5: Gennaio-Dicembre 1772.* Milano, 1926.

______. *Carteggio di Pietro e di Alessandro Verri, Vol. 6: Gennaio 1773 - giugno 1774.* Milano, 1928.

Volney, C. E. *Voyage en Syrie et en Egypt, pendant les années 1783, 1784 & 1785.* Paris, 1787.

**مصادر باللغة العربية**

الشدياق، طنوس. كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان. بيروت، 1858.

الشهابي، حيدر. **تاريخ أحمد باشا الجزار**. بيروت، 1955.

الصبَّاغ، ميخائيل نيقولا. **تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني: حاكم عكا وبلاد صفد**، تحقيق قنسطنطين الباشا المخلِّصي. حريصا، 1945.

**مختصر تاريخ الأساقفة الذين رُقُّوا مرتبة رئاسة الكهنوت الجليلة في مدينة بيروت: بيروت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، تحقيق وتقديم نائلة قائدبيه. بيروت: دار النهار، 2002.

## 2 – المراجع ЛИТЕРАТУРА

Агеева, О. Г. «К вопросу о патриотическом сознании в России первой четверти XVIII века,» in: *Мировосприятие и самосознание русского общества (XI-XX вв.)* (М., 1994), с. 38-50.

أغييفا، أ. غ. «نحو مسألة الوعي الوطني في روسيا في الربع الأول من القرن الثامن عشر»، في: **وعي العالم والوعي الذاتي في المجتمع الروسي (القرن الحادي عشر-القرن العشرون)** (موسكو، 1994)، ص 38–50.

*Адмиралтейские верфи: корабли и годы 1704-1825.* Под общ. ред. В. Л. Александрова. СПб., 1994.

**مراكز بناء السفن: السفن والأعوام 1704–1825.** بإشراف ف. ل. ألكساندروف. سان بطرسبورغ، 1994.

Айзенберг, М. «Празднество в России XVIII века.» *Декоративное искусство СССР.* no. 11 (1975), с. 38-41.

أيزنبرغ، م. «الاحتفالات في روسيا في القرن الثامن عشر». **فن الزخرفة في الاتحاد السوفياتي.** العدد 11 (1975)، ص 38–41.

Александренко, В. Н. *Русские дипломатические агенты в Лондоне в XVIII в.* 2 Т. Варшава,1897.

ألكساندرينكو، ف. ن. **العملاء الدبلوماسيون الروس في لندن في القرن الثامن عشر.** 2 مج. وارسو، 1897.

Алексеева, М. А. *Фейерверки и иллюминации в графике XVIII века. Каталог выставки.* Л., 1978.

ألكسييفا، ن. أ. **الألعاب النارية والإضاءات في جدول القرن الثامن عشر، فهرس المعارض.** لينينغراد، 1978.

Андронов, И. «Франко Вентури. 14.05.1914 — 14.12.1994,» in: *Россия и Италия* (М., 1996), Вып. 2, с. 295-299.

أندرونوف، إ. «فرانكو فينتوري، 14.5.1914 – 14.12 .1994»، في: **روسيا وإيطاليا** (موسكو، 1996)، الإصدار الثاني، ص 295–299.

Андросов, С. О. «Гаспаре Сантини — дипломат и художественный агент в Риме,» in: *Век Просвещения* (М., 2006), с. 102-115.

أندروسوف، س. أ. «غاسباري سانتيني: الدبلوماسي والعميل الفني في روما»، في: **عصر التنوير،** الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 102–115.

Антипа (кафигумен Патмосский). *Путеводитель по Патмосскому монастырю Св. Иоанна Богослова.* Патмос, 2009.

أنتيبا (رئيس دير باتموس). **دليل دير يوحنا الإنجيلي في باتموس.** باتموس، 2009.

Арш, Г. Л. «Греческая эмиграция в Россию в конце XVIII-XIX в.» *Советская этнография*. no. 3 (1969), с. 85-94.

آرش، غ. ل. «الهجرة اليونانية إلى روسيا في نهاية القرن الثامن عشر – القرن التاسع عشر»، في: **الإثنوغرافيا الروسية**. العدد 3 (1969)، ص 85-94.

Арш, Г. Л. *Этеристское движение в России: Освободительная борьба греческого народа в начале XIX в. и русско-греческие связи*. М., 1970.

آرش، غ. ل. **الحركة التحررية اليونانيّة في روسيا: نضال الشعب اليوناني التحرُّري في بداية القرن التاسع عشر والاتصالات الروسية-اليونانية**. موسكو 1970.

Арш, Г. Л. «О русской системе «покровительства» и о некоторых ее социально- экономических и политических последствиях для населения Балкан (конец XVIII - начало XIX вв.).» *Etudes Balkaniques*. no. 2 (1975), с. 108-127.

آرش، غ. ل. «عن نظام 'الرعاية' الروسي وعن بعض نتائجه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالنسبة إلى سكان البلقان (نهاية القرن الثامن عشر – بداية القرن التاسع عشر)». **دراسات بلقانية**. العدد 2 (1975)، ص 108-127.

Арш, Г. Л. «Российские эмиссары в Пелопоннесе и Архипелагская экспедиция 1770-1774.» *Новая и новейшая история*. no. 6 (2010), с. 60-72.

آرش، غ. ل. «المبعوثون الروس في بيلوبونيز وبعثة الأرخبيل خلال الفترة 1770-1774». **التاريخ الحديث والمعاصر**. العدد 6 (2010)، ص 60-72.

Арш, Г. Л. «Острова Архипелага, в частности Санторин, по донесениям российских консулов эпохи Екатерины II.» at: www.hecucenter.ru/word-files/KERIE…pdf

آرش، غ. ل. «جزر الأرخبيل، وتحديدًا سانتورين، استنادًا لتقارير القناصل الروس في عهد كاترينا الثانية». في: www.hecucenter.ru/word-files/KERIE…pdf

Бажова, А. П. *Русско-югославские отношения во второй половине XVIII века*. М., 1982.

باجوفا، أ. ب. **العلاقات الروسية – اليوغوسلافية في النصف الثاني من القرن السابع عشر**. موسكو، 1982.

Базанова, Л. Э. & М. И. Фундаминский. «Материалы газеты «Санктпетербургские ве- домости» во владельческих конволютах XVIII века,» in: *Книга и ее распространение в России в XVI-XVIII вв* (Л., 1985), с. 113-126.

بازانوفا، ل. إ. وم. إ. فونداминسكي. «مواد صحيفة أنباء سان بطرسبورغ، المجموعة في مجلدات خلال القرن الثامن عشر»، في: **الكتاب وانتشاره في روسيا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر** (لينينغراد، 1985)، ص 113-126.

Базанова, Л. Э. ««Прибавления» к газете «Санктпетербургские ведомости» (1728-1800 гг.),» in: Академия наук СССР, Библиотека, *Материалы и сообщения по фондам отдела рукописной и редкой книги, 1985* (Л., 1987), с. 137-146.

بازانوفا، ل. إ. «إضافات إلى «سان بطرسبورغ» (1728-1800)»، في: أكاديمية العلوم السوفياتية، المكتبة، **مواد وأنباء من مجموعات قسم المخطوطات والكتب النادرة**، 1985 (لينينغراد، 1987)، ص 137-146.

Базили, К. М. *Сирия и Палестина под турецким правительством в историческом и политическом отношениях*. Иерусалим; М., 2007. (а также изд.: Одесса, 1862; СПб., 1875; М., 1962).

بازيلي، ق. م. **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني من الناحيتين التاريخية والسياسية**. القدس؛ موسكو، 2007 (طبعات أخرى: أوديسا، 1862؛ سان بطرسبورغ، 1875؛ موسكو، 1962).

Белавенец, П. И. *Материалы по истории русского флота*. М.; Л., 1940.

بيلافينتسوف، ب. إ. **مواد في تاريخ الأسطول الروسي**. موسكو؛ لينينغراد، 1940.

Берков, П. Н. *История русской журналистики XVIII в*. М.; Л., 1952.

بيركوف، ب. ن. **تاريخ الصحافة الروسية في القرن الثامن عشر**. موسكو؛ لينينغراد، 1952.

Берти, Дж. *Россия и итальянские государства в период Рисорджименто*. М., 1959.

بيرتي، ج. **روسيا والدول الإيطالية في حقبة توحيد إيطاليا**. موسكو، 1959.

Бескровный, Л. Г. *Русская армия и флот в XVIII в.* М., 1958.

بيسكروفني، ل. غ. **الجيش والأسطول الروسيين في القرن الثامن عشر**. موسكو، 1958.

Бессарабова, Н. В. «Русско-турецкие отношения в 80-х гг. XVIII в. и миссия Я. И. Булгакова в Стамбуле,» in: *Е. Р. Дашкова и эпоха Просвещения* (М., 2005).

بيسارابوفا، ن. ف. «العلاقات الروسية - التركية في ثمانينيات القرن الثامن عشر ومهمة ي. إ. بولغاكوف في اسطنبول»، في: **ي. ب. داشكوفا وعصر التنوير** (موسكو، 2005).

Бессарабова, Н. В. *Путешествия Екатерины II по России.* М., 2008.

بيسارابوفا، ن. ف. **رحلات كاترينا الثانية في روسيا**. موسكو، 2008.

Бильбасов, В. А. *Исторические монографии.* СПб., 1901.

بيلاباسوف، ف. أ. **مونوغرافيا تاريخية**. سان بطرسبورغ، 1901.

Бойцов, М. А. & С. Н. Пшизова, «Монархия,» in: *Словарь средневековой культуры*, Под ред. А. Я. Гуревича (М., 2003), с. 310-312.

بويتسوف، م. أ. و س. ن. بشيزوفا. «الملكية»، في: **قاموس ثقافة القرون الوسطى**، تحت إشراف أ. ي. غورفيتش (موسكو، 2003)، ص 310-312.

Бугашев, С. И. «Корсиканская проблема в XVIII в.,» in: *Общество и власть* (СПб., 2003).

بوغاشيف، س. إ. «المسألة الكورسيكانية في القرن الثامن عشر»، في: **المجتمع والسلطة** (سان بطرسبورغ، 2003).

Буланин, Д. М. *Антич-ные традиции в древнерусской литературе XI–XVI вв.* Munchen: Sagner, 1991.

بولانين، د. م. **تقاليد العصر القديم في الأدب الروسي القديم في القرون الحادي عشر – السادس عشر**. ميونيخ: ساغنير، 1991.

Вавилов, Н. И. *Пять континентов: Повесть о путешествиях в поисках новых растений.* М., 1962.

فافيلوف، ن. إ. **القارات الخمس: قصة الرحلات بحثًا عن النباتات الجديدة**. موسكو، 1962.

Васильчиков, А. А. *Семейство Разумовских.* t. 1. СПб., 1880.

فاسيلتشيكوف، أ. أ. **عائلة رازوموفسكي**. مج 1. سان بطرسبورغ، 1880.

*Век Екатерины II: Россия и Балканы*. М., 1998.

**عصر كاترينا الثانية: روسيا والبلقان**. موسكو، 1998.

Вентури, Ф. «Итало-русские отношения с 1750 по 1825 г.,» in: *Россия и Италия: Из истории русско-итальянских культурных и общественных отношений* (М., 1968). с. 25-50.

فينتوري، ف. « العلاقات الإيطاليّة - الروسيَّة من العام 1750 وحتى العام 1825»، في: **روسيا وإيطاليا: من تاريخ العلاقات الثقافيّة والاجتماعيّة الروسيّة - الإيطاليّة** (موسكو، 1968)، ص 25-50.

Вентури, Ф. «Неаполитанские литературные отклики на русско-турецкую войну (1768-1774),» in: *XVIII век*., Сб. 10 (1975), с. 119-126.

فينتوري، ف. «الأصداء الأدبية النابوليتانية للحرب الروسيَّة - التركيَّة (1768-1774)»، في: **القرن الثامن عشر**، مج 10 (لينينغراد، 1975)، ص 119-126.

Веселаго, Ф. *Очерк русской морской истории*. СПб., 1885.

فيسيلاغو، ف. **دراسة في التاريخ البحري الروسي**. سان بطرسبورغ، 1885.

Веселовский, А. Н. «К вопросу об образовании местных легенд в Палестине.» *ЖМНП*. Кн. 5 (1885), с. 166-183.

فيسيلوفسكي، أ. ن. «حول مسألة نشوء الأساطير المحلية في فلسطين». **مجلة وزارة التعليم العام**. الكتاب الخامس (1885)، ص 166-183.

*Восток-Запад: проблемы взаимодействия и трансляции культур*. Сб. научных трудов. Саратов, 2001.

**الشرق - الغرب: مسائل تفاعل الثقافات وتناقلها**. مجموعة الأعمال العلمية. ساراتوف، 2001.

*Восточнохристианские реликвии: Сб. Статей*. Ред.-сост. А. М. Лидов. М., 2003.

**الذخائر المسيحية الشرقية: مجموع مقالات**. إعداد وتحرير أ. م. ليدوف. موسكو، 2003.

*Восточный вопрос во внешней политике России. Конец XVIII — начало XX века*. М., 1978.

**المسألة الشرقية في سياسة روسيا الخارجية. نهاية القرن الثامن عشر – بداية القرن العشرين**. موسكو، 1978.

Вольфцун, Л. Б. «Граф Шуазель-Гуффье, первый директор Императорской Публичной библиотеки,» in: *Век Просвещения,* Вып. 1 (М., 2006), с. 127-140.

فولفيتسون، ل. ب. «الكونت شوازول غوفيه، المدير الأول للمكتبة الشعبيَّة الإمبراطوريَّة»، في: **عصر التنوير**، الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 127–140.

Вульф, Л. *Изобретая Восточную Европу: Карта цивилизации в сознании эпохи просвещения*. М., 2003.

فولف، ل. **ابتكار أوروبا الشرقيَّة: خارطة الحضارة في وعي عصر التنوير**. موسكو، 2003.

Герд, Л. А. *Константинополь и Петербург: Церковная политика России на Православном Востоке (1878-1898)*. М., 2006.

غيرد، ل. أ. **القسطنطينيَّة وبطرسبورغ: سياسة روسيا الكنسيَّة في الشرق الأرثوذكسي (1878–1898)**. موسكو، 2006.

Глушков, В. В. *История военной картографии в России XVIII - начала XX в.* М., 2007.

غلوشكوف، ف. ف. **تاريخ فن رسم الخرائط الجغرافية في روسيا في القرن الثامن عشر – بداية القرن العشرين**. موسكو، 2007.

Головачев, В. Ф. *Чесма. Экспедиция русского флота в Архипелаг и Чесменское сражение*. М.; Л., 1944.

غولوفاتشيف، ف. ف. **شيسما. حملة الأسطول الروسي في الأرخبيل ومعركة شيسما**. موسكو؛ لينينغراد، 1944.

Головенкова, Р. В. «И. И. Шувалов и пенсионерство в Императорской Академии художеств,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (М., 1998), с. 43-48.

غولوفينكوفا، ر. ف. «إ. إ. شوفالوف والتقاعد في أكاديمية الفنون الإمبراطوريَّة»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (موسكو، 1998)، ص 43–48.

Голомбиевский, А. А. *Биография кн. Г.Г.Орлова*. М., 1904.

غولومبييفسكي، أ. أ. **سيرة حياة غ. غ. أورلوف**. موسكو، 1904.

Гардзонио, С. «Образ российской империи в итальянской поэзии конца XVIII - начала XIX вв.,» in: *Казань Москва, Петербург: Российская империя взглядом из разных углов* (М., 1997), с. 106-116.

غرادزونيو، س. «صورة الإمبراطورية الروسية في الشعر الإيطالي في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر»، في: **قازان، موسكو، بطرسبورغ: نظرة من زوايا مختلفة على الإمبراطوريّة الروسيّة** (موسكو، 1997)، ص 106-116.

Гребенщикова, Г. А. *Балтийский флот в период правления Екатерины II: Документы, факты, исследования*. СПб., 2007.

غريبينشيكوفا، غ. أ. **أسطول البلطيق في عهد كاترينا الثانية: وثائق، حقائق، أبحاث**. سان بطرسبورغ، 2007.

*Греки России и Украины*. Сост. и отв. ред. Ю. В. Иванова. СПб., 2004.

**يونانيو روسيا وأوكرانيا**. إعداد وتحرير ي. ف. إيفانوف. سان بطرسبورغ، 2004.

*Греция: Национальная идея, общество, государство XVII-XX вв. Материалы на-учной конференци*. М., 2002.

**اليونان: الفكرة الوطنية، المجتمع والدولة في القرون السابع عشر - القرن العشرين**. موسكو، 2002.

Григорович, Н. И. & Анатолий Мелес, епископ. «Исторический очерк по новооткрытым бумагам,» in: *Русский архив*, 1870, nos. 4-5 (8), с. 689-745.

غريغوريفيتش، ن. إ والأسقف أناطولي ميليس. «عرض تاريخي في أوراق مكتشفة حديثًا»، في: **الأرشيف الروسي**، 1870، العددان 4-5 (8)، ص 689-745.

Гуминский, В. *Открытие мира, или путешествия и странники*. М., 1987.

غومينسكي، ف. **اكتشاف العالم، أو رحلات ورحالة**. موسكو، 1987.

Данилевский, И. Н. *Повесть временных лет: Герменевтические основы изучения летописных текстов*. М., 2004.

دانيليفسكي، إ. ن. **قصة السنوات العابرة: الأسس التأويلية (الهيرمنوطيقية) لدراسات نصوص المدونات التأريخية**. موسكو، 2004.

Данциг, Б. М. & В. И. Жиленко. «Забытая страница из истории русско-марокканских отношений в последней четверти XVIII века.» *Проблемы востоковедения*. no. 1 (1959), с. 86-93.

دانتسيغ، ب.م. وف. إ. جيلينكو. «صفحات منسية من تاريخ العلاقات الروسية – المغربية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر». **قضايا الاستشراق**. العدد 1 (1959)، ص 86-93.

Данциг, Б. М. *Ближний Восток в русской науке и литературе*. М., 1973.

دانتسيغ، ب. م. **الشرق الأوسط في العلم والأدب الروسيين**. موسكو، 1973.

Домшлак, М. «Архитектура старинного праздника.» *Декоративное искусство СССР*. no. 12 (1965), с. 34-39.

دومشلاك، م. «هندسة الأعياد القديمة». **فن الزخرفة في الاتحاد السوفياتي**. العدد 12 (1965)، ص 34-39.

Дружинина, Е. И. *Кючук-Кайнарджийский мир 1774 г. (его подготовка и заключение)*. М., 1955.

دروجينينا، ي. إ. **معاهدة كوتشوك - كاينارجي 1774 (إعدادها وإبرامها)**. موسكو، 1955.

Дулич, Л. «На службе России.» *Морской сборник*. no. 1 (2006), с. 70-74.

دوليتش، ل. «في خدمة روسيا». **المجموعة البحرية**. العدد 1 (2006)، ص 70-74.

Егунов, А. Н. *Гомер в русских переводах XVIII–XIX вв*. М., 2001.

يغونوف، أ. ن. **هوميروس في الترجمات الروسيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. موسكو، 2001.

Ерусалимский, К. Ю. «История на посольской службе: дипломатия и память в России XVI в,» in: *История и память. Историческая культура Европы до начала нового времени*, Под ред. Л. П. Репиной (М., 2006), с. 664-731.

يروساليمسكي، ك. ي. «تاريخ الخدمة في السفارة: الدبلوماسيّة والذاكرة في روسيا في القرن السادس عشر»، في: **التاريخ والذاكرة: ثقافة أوروبا التاريخيّة حتّى بداية العصر الحديث**، بإشراف ل. ب. ريبينا (موسكو، 2006)، ص 664-731.

Живов, В. М. «Государственный миф в эпоху Просвещения и его разрушение в России конца XVIII века,» in: *Из истории русской культуры, t. 4: XVIII - начало XIXв* (М., 2000), с. 657-684.

جيفوف، ف. م. «أسطورة الدولة في عصر التنوير وتدميرها في روسيا خلال نهاية القرن الثامن عشر»، في: **من تاريخ الثقافة الروسية، مج 4: القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر** (موسكو، 2000)، ص 657-684.

Жигарев, С. *Русская политика в восточном вопросе (Ее история в XVI-XIX веках, критическая оценка и будущие задачи): Историко-юридические очерки*. М.: Унив. тип., 1896.

جيغاريف، س. **السياسة الروسية في المسألة الشرقية (تاريخها خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، مقاربة نقدية ومهام مستقبلية): دراسات تاريخية - قانونية**. موسكو: المطبعة الجامعية، 1896.

Жигульский, К. *Праздник и культура*. М., 1985.

جيغولسكي، ك. **العيد والثقافة**. موسكو، 1985.

Житнев, С. Ю. *История русского православного паломничества в X-XVII веках*. М., 2007.

جيتنوف، س. ي. **تاريخ الحج الأرثوذكسي الروسي في القرون العاشر - السابع عشر**. موسكو، 2007.

Жукова, Е. В. «Россия и Греческая Церковь: к истории взаимоотношений в XVII-XIX веках.» *Альфа и Омега*. no. 4 (2002), с. 120-132.

جوكوفا، ي. ف. «روسيا والكنيسة اليونانية: حول تاريخ العلاقات المتبادلة في القرون السابع عشر-التاسع عشر». **ألفا أوميغا**. العدد الرابع (2002)، ص 120-132.

Захаров, В. А. *История Мальтийского ордена в России.* М., 2006.

زاخاروف، ف. أ. **تاريخ محفل فرسان مالطا في روسيا**. موسكو، 2006.

Зелов, Д. Д. *Официальные светские праздники как явления русской культуры конца XVII - первой половины XVIII века: История триумфов и фейерверков от Петра Великого до его дочери Елизаветы.* М., 2002.

زيلوف، د. د. **الأعياد الزمنية الرسمية بوصفها ظاهرة من ظاهرات الثقافة الروسية في نهاية القرن السابع عشر - النصف الأول من القرن الثامن عشر: تاريخ الانتصارات والألعاب النارية منذ بطرس الأكبر وابنته إليزابيت**. موسكو، 2002.

Золотарев, В. А. & И. А. Козлов. *Российский военный флот на Черном море и в Восточном Средиземноморье.* М., 1989.

زولوتاريف، ف. أ. وإ. أ. كوزلوف. **الأسطول الحربي الروسي في البحر الأسود والحوض الشرقي للبحر المتوسط**. موسكو، 1989.

Зонова, Т. В. *Россия и Италия: История дипломатических отношений, Учебное пособие.* Ч. 1. М., 1998.

زونوفا، ت. ف. **روسيا وإيطاليا: تاريخ العلاقات الدبلوماسيّة، كتاب تدريسي**. ج 1. موسكو، 1998.

Зонтакис, А. Г. «Образование и просвещение в греческих землях в XVIII в.» *Вестник Московского университета* (Серия История). no. 3 (май-июнь 2007), с. 12-31.

زونتاكيس، أ. غ. «التعليم والتنوير في الأراضي اليونانية في القرن الثامن عشر». **نشرة جامعة موسكو** (سلسلة التاريخ). العدد 3 (أيار/ مايو - حزيران/ يونيو 2007)، ص 12-31.

Зорин, А. *«Кормя двуглавого орла...» Русская литература и государственная иде- ология в последней трети XVIII — первой трети XIX века.* М., 2001.

زورين، أ. **«تغذية النسر ذي الرأسين...»: الأدب الروسي وعقيدة الدولة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الثلث الأول من القرن التاسع عشر**. موسكو، 2001.

Ибнеева, Г. В. *Путешествия Екатерины II: Опыт «освоения» имперского пространства*. Казань, 2006.

إيبنييفا، غ. ف. رحلات كاترينا الثانية: تجربة «استكشاف» الفضاء الإمبراطوري. قازان، 2006.

Ибрагим, Т. К. & Н. В. Ефремова, *Мусульманская священная история: От Адама до Иисуса. Рассказы Корана о посланниках божьих*. М., 1996

إبراهيم، ت. ك. ون. ف. يفريموفا. التاريخ الإسلامي المقدَّس: من آدم إلى يسوع، قصص القرآن عن رسل الله. موسكو، 1996.

Иванов, В. Ф. *Русская интеллигенция и масонство от Петра I до наших дней*. М., 1997.

إيفانوف، ف. ف. الإنتليجينسيا الروسية والماسونية من بطرس الأول وحتى أيامنا. موسكو، 1997.

Иванов, Н. А. «Государство Караманлы в Ливии,» in: *История Востока, t. III: Восток на рубеже средневековья и нового времени. XVI-XVIII вв.* (М., 2000), pp. 420-424.

إيفانوف، ن. أ. «الدولة القرمانليّة في ليبيا»، في: تاريخ الشرق، مج 3: الشرق على تخوم القرون الوسطى والعصر الحديث، القرنين السادس عشر – الثامن عشر (موسكو، 2000)، ص 420–424.

Иванов, Н. А. *Османское завоевание арабских стран, 1516-1574*. М., 1984.

إيفانوف، ن. أ. الفتح العثماني للدول العربيّة، 1516–1574. موسكو، 1984.

Иванов, О. А. *Граф Алексей Григорьевич Орлов-Чесменский в Москве*. М., 2002.

إيفانوف، أُ. أ. الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف – تشيسمينسكي في موسكو. موسكو، 2002.

*Иерусалим в русской культуре*. Сост. А. Баталов & А. Лидов. М., 1994.

القدس في الثقافة الروسية. إعداد أ. باتالوف وأ. ليدوف. موسكو، 1994.

*Из истории русской культуры, t. 4: XVIII — начало XIXв*. М., 2000.

من تاريخ الثقافة الروسية، مج 4: القرن الثامن عشر – بداية القرن التاسع عشر. موسكو، 2000.

Иконников, В. *Время Екатерины II*. Лекции. Киев, 1881.

إيكونيكوف، ف. **عصر كاترينا الثانية**. محاضرات. كييف، 1881.

Виноградов, В. Н. (редактор). *История Балкан. Век восемнадцатый*. М., 2004.

فينوغرادوف، ف. ن. (تحرير). **تاريخ البلقان، القرن الثامن عشر**. موسكو، 2004.

*История внешней политики России. Конец XV века — начало 1917 г, Т. II: XVIII в.: От Северной войны до войн России против Наполеона*. М., 1998.

**تاريخ سياسة روسيا الخارجية. نهاية القرن الخامس عشر - بداية العام 1917، مج 2: القرن الثامن عشر: من الحرب الشمالية وحتى حروب روسيا ضد نابوليون**. موسكو، 1998.

*История Востока, t. III: Восток на рубеже средневековья и нового времени. XVI-XVIII вв*. М., 2000.

**تاريخ الشرق، مج 3: الشرق على تخوم القرون الوسطى والعصر الحديث، القرنين السادس عشر - الثامن عشر**. موسكو، 2000.

*История Востока, t. IV: Восток в новое время (конец XVIII — начало XX в.)*. Книга 1. М., 2004.

**تاريخ الشرق، مج 4: الشرق في العصر الحديث (نهاية القرن الثامن عشر - مطلع القرن العشرين)**. الكتاب الأول. موسكو، 2004.

*История дипломатии*. М., 1959.

**تاريخ الدبلوماسية**. موسكو، 1959.

Каллистов, Н. Д. «Архипелажская экспедиция,» in: *История русской армии и флота* (М., 1912).

كاليستوف، ن. د. «حملة الأرخبيل»، في: **تاريخ الجيش والأسطول الروسي** (موسكو، 1912).

Каменский, А. Б. *«Под сению Екатерины...». Вторая половина XVIII в*. СПб., 1992.

كامينسكي، أ. ب. **«في ظلال كاترينا...». النصف الثاني من القرن الثامن عشر**. سان بطرسبورغ، 1992.

Каменский, А. Б. *От Петра I до Павла I. Реформы в России XVIII века. Опыт целостного анализа*. М., 2001.

كامينسكي، أ. ب. **من بطرس الأول حتى بافل الأول. الإصلاحات في روسيا في القرن الثامن عشر. تجربة التحليل الكامل**. موسكو، 2001.

Каменский, А. Б. «Подданство, лояльность, патриотизм в имперском дискурсе России XVIII в.: исследовательские проблемы.» *Ab Imperio*. no. 4 (2006).

كامينسكي، أ. ب. «التبعية، الولاء، الوطنية في الخطاب الإمبراطوري الروسي القرن الثامن عشر: مسائل بحثية». **البحوث الإنسانية**. العدد 4 (2006).

Каптерев, Н. Ф. «Сношения иерусалимских патриархов с русским правительством с половины XVI до конца XVIII столетия.» *ППС*. t. XV, Вып. I (1895).

كابتيريف، ن. ف. علاقات بطاركة القدس مع الحكومة الروسية في منتصف القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر. **المجموعة الفلسطينيَّة الأرثوذكسيَّة**. مج 12، الإصدار 1 (1895).

Каптерев, Н. Ф. *Характер отношений России к православному Востоку в XVI и XVII столетиях*. Изд. 2. Сергиев Посад, 1914.

كابتيريف، ن. ف. **طابع علاقات روسيا بالشرق الأرثوذكسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر**. ط 2. سيرغييف بوساد، 1914.

Карп, С. Я. *Французские просветители и Россия. Исследования и новые материалы по истории русско-французских культурных связей второй половины XVIII в*. М., 1998.

كارب، س. ي. **التنويريون الفرنسيون وروسيا: دراسات ومواد جديدة في تاريخ العلاقات الثقافية الروسية - الفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر**. موسكو، 1998.

Карп, С. Я. *«Пропавшая» рукопись Дидро: Замечания на проект договора между Россией и Сардинским королевством*. [в печати].

كارب، س. ي. **مخطوطة ديدرو «المفقودة»: ملاحظات على مشروع المعاهدة بين روسيا ومملكة سردينيا**. [قيد الطباعة].

Карпова, Е. В. «Скульптурные портреты И. И. Шувалова,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб., 1998), с. 67-74.

كاربوفا، ي. ف. «لوحات إ. إ. شوفالوف الفنية»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 67-74.

Кессельбреннер, Г. Л. *Хроника одной дипломатической карьеры*. М., 1988.

كيسيلبيرنير، غ. ل. **سيرة أحد أعلام الدبلوماسيّة**. موسكو، 1988.

Кибовский, А. В. & О. Г. Леонов. *300 лет российской морской пехоте, t. 1: 1705-1855*. М., 2007.

كيبوفسكي، أ. ف. وأ. غ. ليونوف. **300 عام على مشاة البحرية الروسية، مج 1: 1705-1855**. موسكو، 2007.

Кибовский, А. В. ««Невозможно иметь больше мужества, отважности и усердия к службе, колико оное войско изъявило». Балканские славяне на службе в русской армии и флоте, 1775-1797.» *Военно-исторический журнал*. no. 7 (2008), с. 61-65.

كيبوفسكي، أ. ف. ««لا مثيل للشجاعة والجرأة والحمية في الخدمة التي أبدتها القوات». السلافيون البلقانيون في الخدمة في الجيش والأسطول الروسي، 1775-1797». **المجلة التاريخية البلقانية**. العدد 7 (2008)، ص 61-65.

Кириллина, С. А. *«Очарованные странники»: Арабо-османский мир глазами российских паломников XVI-XVIII столетий*. М., 2010.

كيريلينا، س. أ. **«الرحالة المفتونون»: العالم العربي - العثماني بِعُيون الحجاج الرُّوس في القرون السادس عشر - الثامن عشر**. موسكو، 2010.

Кирпиченок, А. «К вопросу об эмиграции православных греков и албанцев на Украину в середине XVIII в.» *Клио*. no. 2 (2003), с. 183-185.

كيربيتشونوك، أ. «حول مسألة هجرة اليونانيين والألبان الأرثوذكس إلى أوكرانيا في منتصف القرن الثامن عشر». **كليو**. العدد 2 (2003)، ص 183-185.

Кислягина, Л. Г. «Тайная миссия лейтенанта русского флота Сергея Плещеева в Сирию в 1772 г.,» in: *Арабский Восток: Сб. Статей* (М., 1997), с. 88-99.

كسلياغينا، ل. غ. «المهمة السريّة للملازم في الأسطول الروسي سيرغي بليشييف في سوريا في عام 1772»، في: **الشرق العربي: مجموعة مقالات** (موسكو، 1997)، ص 88-99.

Китромилидис, П. *Эпоха Просвещения в Греции*. Пер. с новогреческого М. Грацианского. СПб., 2007.

كيتروميليديس، ب. **عصر التنوير في اليونان**. ترجمه عن اليونانية الحديثة م. غراتسيانسكي. سان بطرسبورغ، 2007.

Ключевский, В. О. «Курс русской истории,» in: *Сочинения* (М., 1989), t. 5.

كليوتشيفسكي، ف. أُ. «مقرر التاريخ الروسي»، في: **المؤلفات** (موسكو، 1989)، مج 5.

Кнабе, Г. С. «Арбатская цивилизация и арбатский миф,» in: *Москва и московский текст русской культуры* (М., 1998), с. 176-185.

كنابيه، غ. س. «حضارة آربات والأسطورة الأرباتية»، في: **موسكو ونص الثقافة الروسية الموسكوبي** (موسكو، 1998)، ص 176-185.

Кнабе, Г. С. *Русская античность*. М., 1999.

كنابيه، غ. س. **العصور الروسية القديمة**. موسكو، 1999.

Кнабе, Г. С. *Жажда тождества, Культурно-антропологическая идентификация: Вчера. Сегодня. Завтра*. М., 2003.

كنابيه، غ. س. **التوق إلى التماثل، الهوية الثقافية - الأنتروبولوجية: الأمس، اليوم، الغد**. موسكو، 2003.

Кнабе, Г. С. *Избранные труды. Теория и история культуры*. М.; СПб., 2006.

كنابيه، غ. س. **أعمال مختارة. نظرية الثقافة وتاريخها**. موسكو؛ سان بطرسبورغ، 2006.

Кобищанов, Т. Ю. «Крест над Бейрутом российская экспедиция в Восточное Средиземноморье 1769-1774 гг. в восприятии сирийских современников.» *Вестник МГУ*. Сер. 13: Востоковедение, no. 1 (2009), с. 9-16; no. 2 (2009), с. 3-22.

كوبيشانوف، ت. ي. «صليب فوق بيروت: الحملة الروسيّة في شرق البحر المتوسط 1769-1774 في تصوُّرات المعاصرين السوريين». **نشرة جامعة موسكو**. السلسلة 13: **الاستشراق**، العدد 1 (2009)، ص 9-16؛ العدد 2 (2009)، ص 3-22.

Кобищанов, Ю.М. «Предисловие,» in: *Африка глазами наших соотечественников* (М., 1974).

كوبيشانوف، ي. م. «المقدمة»، في: **أفريقيا بعيون معاصرينا** (موسكو، 1974).

Ковалев, С. Торжество празднования Кучук-Кайнарджийскаго мира в городе Вологде,» in: *Русский архив*, 1903, t. III (5), с. 513-518.

كوفاليوف، س. «الاحتفالات بمعاهدة كوتشوك - كاينارجي في مدينة فولوغدا»، في: **الأرشيف الروسي**، 1903، مج 3 (5)، ص 513-518.

Козлов, С. А. *Русский путешественник эпохи Просвещения*. СПб., 2003.

كوزلوف، س. أ. **الرحالة الروسي في عصر التنوير**. سان بطرسبورغ، 2003.

Козлов, С. А. *Путевые записки Ю. Ф. Лисянского и И. Ф. Крузенштерна 1793-1800. Предыстория первого путешествия россиян вокруг света*. СПб., 2007.

كوزلوف، س. أ. **يوميات ي. ف. ليسيانسكي وإ. ف. كروزينشتيرن أثناء الرحلة في أعوام 1793-1800. مقدمات الرحلة الأولى حول العالم**. سان بطرسبورغ، 2007.

Комиссаренко, А. И. & И. С. Шаркова. «К истории русско-итальянской торговли в 40-50-х годах XVIII в.» *Исторические записки*. t. 98 (1977), с. 313-330.

قوميسارينكو، أ. إ. وإ. س. شاركوفا. «عن تاريخ التجارة الروسيّة - الإيطالية في أربعينيّات وخمسينيّات القرن الثامن عشر». **مدونات تاريخية**. مج 98 (1977)، ص 313-330.

Константинопольский, И. Г. «Общественно-политическая история Бейрута в конце XVIII — начале XIX в.» Дипл. работа на соиск. степ. Магистра, МГУ, М. 2008.

قسطنطينوبولسكي، إ. غ. «تاريخ بيروت الاجتماعي - السياسي في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر». رسالة ماجستير، جامعة موسكو الحكومية، موسكو، 2008.

Коптев, В. И. *Столетний юбилей в честь графа Алексея Григорьевича Орлова- Чесменского в память основанной им породы лошадей верховых и рысистых в 1775 г., празднованный в Москве в 1875 г. по высочайшему ЕИВ соизволению.* М., 1875.

كوبتيف، ف. إ. **الاحتفال باليوبيل المئوي على شرف الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف – تشيسمينسكي تخليدًا لذكرى فصيلة الجياد التي قام بتأصيلها عام 1775، والذي نظم في موسكو في عام 1875، بمباركة سامية من صاحبة الجلالة الإمبراطوريَّة.** موسكو، 1875.

Костицын, Д. Н. «Дипломатическое поручение Екатерины II И. И. Шувалову,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб., 1998), с. 116-138.

كوستيتسين، د. ن. «تكليفات كاترينا الثانية الدبلوماسيَّة لـ إ. إ. شوفالوف»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 116-138.

Красавкин, В. К. & Ф. С. Смуглин. *Здась град Петра и флот навеки слиты: История морских частей в городе на Неве (1703-2003).* СПб., 2004.

كراسافين، ف. ك. وف. س. سموغلين. **مدينة بطرس والأسطول اتحدا هنا إلى الأبد: تاريخ الوحدات البحرية في المدينة على النيفا (1703-2003).** سان بطرسبورغ، 2004.

Криницин, Ф. С. «Первая архипелагская экспедиция русского флота (1768-1774).» Автореф. дисс… канд. ист. Наук, Л., 1958.

كرينيتسين، ف. س. «حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل (1768-1774)». موجز أطروحة دكتوراه في علوم التاريخ، لينينغراد، 1958.

Кропотов, А. *Жизнь графа Алексея Григорьевича Орлова-Чесменского, почерпнутая из достоверных российских и иностранных источников.* СПб., 1816.

كروبوتوف، أ. **حياة الكونت ألكسي غريغوريفيتش أورلوف – تشيسمينسكي، مستقاة من مصادر روسيَّة وأجنبيَّة موثوقة.** سان بطرسبورغ، 1816.

Кросс, Э. *У темзских берегов: Россияне в Британии в XVIII в.* СПб., 1996.

كروس، إ. **عند الشواطئ الأجنبية: الروس في بريطانيا في القرن الثامن عشر.** سان بطرسبورغ، 1996.

Кросс, Э. *Британцы в Петербурге: XVIII век.* СПб., 2005.

كروس، إ. **بريطانيون في بطرسبورغ: القرن الثامن عشر.** سان بطرسبورغ، 2005.

Крымский, А. Е. *История новой арабской литературы.* М., 1971.

كريمسكي، أ. ي. **تاريخ الأدب العربي الحديث.** موسكو، 1971.

Курбатов, В. «Саркофаг Строгановского сада,» in: *Старые годы* (СПб., 1912), pp. 41-43.

قورباتوف، ف. «ناووس حديقة ستروغانوف»، في: **سنوات غابرة** (سان بطرسبورغ، 1912)، ص 41-43.

Лебедев, А. П. *История греко-восточной церкви под властью турок.* СПб., 2004. (перв. изд. 1904 г.).

ليبيديف، أ. ب. **تاريخ الكنيسة اليونانية - الشرقية تحت حكم الأتراك.** سان بطرسبورغ، 2004. (الطبعة الأولى، 1904).

Лебедев, Евг. *Ломоносов.* М. ,1990.

ليبيديف، ي. **لومونوسوف.** موسكو، 1990.

Лебедев, П. С. *Графы Никита и Петр Панины.* СПб., 1863.

ليبيديف، س. ب. **الكونت نيكيتا والكونت بيوتر بانين.** سان بطرسبورغ، 1863.

Левинсон-Лессинг, В. Ф. *История картинной галереи Эрмитажа (1764 1917).* Л., 1985.

ليفينسون - ليسينغ، ف. ف. **تاريخ معرض الإرميتاج للوحات الفنية** (1764-1917). لينينغراد، 1985.

Лещиловская, И. И. «Петр I и Балканы.» *Вопросы истории.* no. 2 (2001), с. 46-56.

ليشيلوفسكايا، إ. إ. «بطرس الأول والبلقان». **مسائل التاريخ.** العدد 2 (2001)، ص 46-56.

Лещиловская, И. И. *Сербский народ и Россия в XVIII веке.* СПб., 2006.

ليشيلوفسكايا، إ. إ. **الشعب الصربي وروسيا في القرن الثامن عشر.** سان بطرسبورغ، 2006.

Лисовой, Н. Н. *Русское духовное и политическое присутствие в Святой Земле и на Ближнем Востоке в XIX - начале XX в.* М.: Индрик, 2006.

ليسوفوي، ن. ن. **الحضور الروحي والسياسي الروسي في الأراضي المقدسة والشرق الأوسط في القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين.** موسكو: إندريك، 2006.

Лихачев, Д. С. *Развитие русской литературы X-XVIII веков: Эпохи и стили.* М., 1973.

ليخاتشيف، د. س. **تطوُّر الأدب الروسي في القرون العاشر - الثامن عشر: العصور والأساليب.** موسكو، 1973.

Лопатина, Л. А. «Породнились в музыке Россия и Италия,» in: *Россия и Италия*, Вып. 2 (М., 1996), с. 59-69.

لوباتينا، ل. أ. «روسيا وإيطاليا تتآخيان في الموسيقى»، في: **روسيا وإيطاليا**، الإصدار 2 (موسكو، 1996)، ص 59-69.

Лотман, Ю. М. *Беседы о русской культуре. Быт и традиции русского дворянства XVIII — начала XIX века.* СПб., 1994.

لوتمان، ي. م. **أحاديث حول الثقافة الروسية. حياة طبقة النبلاء وتقاليدها في القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر.** سان بطرسبورغ، 1994.

Луцкий, В. Б. *Новая история арабских стран.* М., 1965.

لوتسكي، ف. ب. **تاريخ البلدان العربيّة الحديث.** موسكو، 1965.

Лямина, Е. «[Рецензия].» *Новое лит. Обозрение*, no. 66 (2004), с. 378-380. [На кн.: Гречаная, Е. П. *Литературное взаимовосприятие России и Франции в религиозном контексте эпохи (1797-1825).* М., 2002].

لامينا، ي. «[مقالة انتقادية]» **العرض النقدي الأدبي الحديث.** العدد 66 (2004)، ص 378-380. [عرض نقدي لكتاب: غريتشانيا، ي. ب. **الفهم الأدبي المتبادل بين روسيا وفرنسا في السياق الديني للعصر** (1797-1895). موسكو، 2002].

Мадариага, И. де. *Россия в эпоху Екатерины Великой.* М., 2002.

مادارياغا، إ. دي. **روسيا في عصر كاترينا الكبرى.** موسكو، 2002.

Макарий (Булгаков). *митрополит московский и коломенский: История русской церкви*. Кн. I-VII. М., 1996.

ماكاري (بولغاكوف). **متروبوليت موسكو وكولومنسك: تاريخ الكنيسة الروسيّة**. الكتاب 1-7. موسكو، 1994-1996.

Марасинова, Е. Н. *Власть и личность: очерки русской истории XVIII века*. М., 2008.

ماراسينوفا، ي. ن. **السلطة والشخصية: دراسات في التاريخ الروسي في القرن الثامن عشر**. موسكو، 2008.

Маркевич, А. И. «Доклад действительного члена А.И. Маркевича о посылке грека Георгия Папазогли на Балканский полуостров в 1763-1764 г.,» in: *Записки Одесского общества истории и древностей*, t. 19 (Одесса, 1896), с. 42-46.

[ماركيفيتش، أ. إ.]. «تقرير العضو الفاعل أ. إ. ماركيفيتش عن إيفاد اليوناني غيورغي بابازولي إلى شبه الجزيرة البلقانية في عامي 1763 و1764»، في: **مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة**، مج 19 (أوديسا، 1896)، ص 42-46.

Маркина, Е. Д. «Атрибуция картографических материалов Чертковской библиоте- ки, хранящихся в отделе картографии ГИМ.» *Труды ГИМ*. Вып. 143: *Забелинские научные чтения 2003 г. Исторический музей - энциклопедия отечественной истории и культуры* (2004), с. 146-160.

ماركينا، ي. د. «حالة مواد الخرائط الجغرافية في مكتبة تشيركوفسكي المحفوظة في قسم الخرائط الجغرافية في متحف التاريخ الحكومي»، في: **محفوظات متحف التاريخ الحكومي**. الإصدار 143: **قراءات زابيلين العلمية في العام 2003. متحف التاريخ. موسوعة التاريخ والثقافة الوطنية** (2004)، ص 146-160.

Маркова, О. П. «О происхождении так называемого Греческого проекта (80-е годы XVIII в.),» in: *История СССР*. no. 4 (1957), с. 52-78.

ماركوفا، أ. ب. «عن أصل ما يسمى المشروع اليوناني (ثمانينيات القرن الثامن عشر)». **تاريخ الاتحاد السوفياتي**. العدد 4 (1957)، ص 52-78.

Мачарадзе, О. Г. *Грузинские документы из истории русско-грузинско-египетско- эфиопских отношений 80-х годов XVIII века.* Тбилиси, 1967.

ماتشارادزه، أ. غ. وثائق جورجية من تاريخ العلاقات الروسية – الجورجية – المصرية – الأثيوبية في ثمانينيات القرن الثامن عشر. تبليسي، 1967.

Мейер, М. С. *Османская империя в XVIII в.: Черты структурного кризиса.* М., 1991.

مير، م. س. الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في القرن الثامن عشر: ملامح الأزمة البنيويَّة. موسكو، 1991.

Метакса, Е. П. *История греческих произшествий, обстоятельно и подробно опи- санных от первоначальнаго действия греков до сего времени, заимствован- ная из описаний очевидцев и некоторых сочинений, с собственными допол- нениями издателя флота к. 2-го ранга Е. Метаксы, с присовокуплением кар- ты, представляющей весь театр войны.* М., 1824.

ميتاكسا، ي. ب. تاريخ الأحداث اليونانية، المروية بإسهاب وتفصيل منذ أعمال اليونانيين الأولى وحتى يومنا الحاضر، مستقاة من وصف شهود عيان وبعض المؤلفات، مع إضافات خاصة من ناشر الأسطول النقيب الثاني ي. ميتاكسا، مع إضافة خريطة لمسرح الأحداث. موسكو، 1824.

Мильчин, К. А. «Образ России на страницах газеты Moniteur Universel в 1799 году,» in: *Россия и Франция. XVIII-XX века* (М., 2005), с. 53-68.

ميلتشين، ك. أ. «صورة روسيا على صفحات Moniteur Universel في العام 1799»، في: روسيا وفرنسا في القرون الثامن عشر – العشرين (موسكو، 2005)، ص 53-68.

Минц, С. С. *Мемуары и российское дворянство. Источниковедческий аспект историко-психологического исследования.* СПб., 1998.

مينتس، س. س. المذكرات وطبقة النبلاء الروس. الجانب المرجعي لدراسة تاريخية – سيكولوجية. سان بطرسبورغ، 1998.

Мозговая, Е. Б. «И. И. Шувалов и Академия художеств,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб.,1998), с. 152-162.

موزغوفويا، ي. ب. «إ. إ. شوفالوف وأكاديمية الفنون»، في: العصر الفلسفي: التقويم الأدبي، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 152-162.

Монаков, М. С. & Б. И. Родионов. *История российского флота.* М.; Кронштадт, 2006.

موناكوف، م. س. وب. إ. روديونوف. **تاريخ الأسطول الروسي**. موسكو؛ كرونشتاد، 2006.

Мусатова, Т. Л. *Россия-Марокко: далекое и близкое прошлое, Очерки истории русско- марокканских связей в XVIII-начале XX в.* М., 1990.

موساتوفا، ت. ل. **روسيا - المغرب: الماضي البعيد والقريب. دراسات في تاريخ العلاقات الروسيَّة-المغربيَّة في القرن الثامن عشر - بداية القرن العشرين**. موسكو، 1990.

Настенко, И. А. & В. Яшнев *История Мальтийского ордена, Кн. 2: Мальтийский орден и Россия.Иоанниты в новое и новейшее время. XVIII-XX вв.* М., 2005.

ناستينكو، إ. أ. وف. ياشنيف، **تاريخ محفل فرسان مالطا، الكتاب الثاني: محفل فرسان مالطا وروسيا. جماعة يوحنا في العصرين الجديد والحديث. القرن الثامن عشر-القرن العشرين**. موسكو، 2005.

*«Наши» и «чужие» в российском историческом сознании.* Материалы научной конференции. СПб., 2001.

**«جماعتنا» و«الغرباء» في الوعي التاريخي الروسي**. مواد مؤتمر علمي. سان بطرسبورغ، 2001.

Нивьер, А. «Екатерина Великая и Иван Иванович Шувалов. Штрихи к сравнительному историческому, психологическому и политическому портрету,» in: *Философский век: Альманах*, Вып. 8 (СПб.,1998), с. 162-177.

نيفيير، أ. «كاترينا الكبرى وإيفان إيفانوفيتش شوفالوف. خطوط نفسية وسياسية مقارنة للوحة تاريخية»، في: **العصر الفلسفي: التقويم الأدبي**، مج 8 (سان بطرسبورغ، 1998)، ص 162-177.

Николопулос, И. *Греки и Россия XVII-XX вв.* СПб., 2007.

نيقولوبولوس، إ. **اليونانيون وروسيا في القرون السابع عشر - العشرين**. سان بطرسبورغ، 2007.

*Новые Иерусалимы: Иеротопия и иконография. Ред.-сост. А. М. Лидов.* М.: Индрик, 2009.

**الأورشليمات الجديدة: الفضاء المقدس والأيقونوغرافيا. إعداد وتحرير أ. م.** ليدوف. موسكو: إندريك، 2009.

*Образ России. Россия и русские в восприятии Запада и Востока.* СПб., 1998.

**صورة روسيا في وعي الغرب والشرق.** سان بطرسبورغ، 1998.

Образцов, В. ««Надежда Благополучия», Первый екатерининский фрегат в Средиземном море.» *Родина.* no. 2 (2010), с. 78-79.

أوبراتسوف، ف. «'ناديجدا بلاغوبوليتشيا'، فرقاطة كاترينا الأولى في البحر المتوسِّط». **رودينا.** العدد 2 (2010)، ص 78-79.

Огаркова, Н. А. *Церемонии, празднества, музыка русского двора XVIII - начала XIX в.* СПб., 2004.

أوغاركوفا، ن. أ. **طقوس وأعياد وموسيقى البلاط الروسي في القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر.** سان بطرسبورغ، 2004.

Омельченко, О. А. *«Законная монархия»: Екатерины II.* М., 1993.

أوميلتشينكو، أ. أ. **«ملكيّة» كاترينا الثانية الشرعيّة.** موسكو، 1993.

Опарина, Т. А. *Иноземцы в России XVI-XVII вв. Очерки исторической биографии и генеалогии.* М., 2007.

أوبارينا، ت. أ. **الأجانب في روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. دراسات في السير التاريخية والأنساب.** موسكو، 2007.

Орешкова, С. Ф. *Русско-турецкие отношения в начале XVIII в.* М., 1971.

أوريشكوفا، س. ف. **العلاقات الروسية - التركية في مطلع القرن الثامن عشر.** موسكو، 1971.

Орешкова, С. Ф. «Османская империя глазами русских дипломатов (к вопросу о посольских отношениях между Россией и Турцией и посольской документации),» in: *Османская империя: События и люди* (М., 2000), с. 8-27.

أوريشكوفا، س. ف. «الإمبراطورية العثمانية بعيون الدبلوماسيين الرُّوس (حول مسألة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وتركيا في وثائق السفارات)»، في: **الإمبراطورية العثمانية: أحداث وأعلام** (موسكو، 2000)، ص 8-27.

Оришин, А. Д. «О значении «Риторики» Ломоносова,» in: *XVIII век. Сб. 7: Роль и значение литературы XVIII века в истории русской культуры*. М.; Л., 1966.

أوريشين، أ. د. «عن أهمية «بلاغة» لومونوسوف»، في: **القرن الثامن عشر. المجموعة السابعة: دور الأدب وأهميته في القرن الثامن عشر في تاريخ الثقافة الروسية** (موسكو؛ لينينغراد، 1966).

*Очерки истории СССР. Период феодализма. Россия во второй половине XVIII века*. М., 1956.

**دراسات في تاريخ الاتحاد السوفياتي. الحقبة الإقطاعية. روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر**. موسكو، 1956.

Панченко, А. М. ««Потемкинские деревни» как культурный миф,» in: *XVIII век, Сб. 14: Русская литература XVIII - начала XIX в. В общественно-культурном контексте* (Л., 1983).

بانتشينكو، أ. م. ««قرى بوتيومكين» كأسطورة ثقافية»، في: **القرن الثامن عشر، المجموعة 14: الأدب الروسي في القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر في السياق الاجتماعي - الثقافي** (لينينغراد، 1983).

Панченко, К. А. *Османская империя и судьбы православия на Арабском Востоке (XVI - начало XIX века)*. М., 1998.

بانتشينكو، ك. أ. **الإمبراطورية العثمانية ومصائر الأرثوذكسية في الشرق العربي (القرن السادس عشر - بداية القرن التاسع عشر)**. موسكو، 1998.

Панченко, К. А. «Старообрядец в Леванте: Османский мир начала XVIII века в описании русского паломника Ивана Лукьянова,» in: *Мадх. Восхваление Исааку Моисеевичу Фильштинскому посвящается* (М., 2008), с. 339-350.

بانتشينكو، ك. أ. «مؤمن متمسك بالطقوس القديمة في المشرق: العالم العثماني في بداية القرن الثامن عشر بعيون الحاج الروسي إيفان لوكيانوف»، في: **مهداة إلى الجدير بالحمد إسحاق موسييفيتش فالشتينسكي** (موسكو، 2008)، ص 339-350.

Перминов, П. «Три эпизода из истории русско-арабских связей в XVIII веке.» *Азия и Африка сегодня*. nos. 7-9 (1987).

بيرينوف، ب. «ثلاثة فصول في تاريخ العلاقات الروسية - العربية في القرن الثامن عشر». آسيا وأفريقيا اليوم، الأعداد 7-9 (1987).

Перминов, П. *Под сенью восьмиконечного креста (Мальтийский орден и его связи с Россией)*. М., 1991.

بيرينوف، ب. **في ظل الصليب ذي الثمانية أضلاع (محفل فرسان مالطا وعلاقاته مع روسيا)**. موسكو، 1991.

Перминов, П. *Посол III класса. Повествование о российском дипломате Алексее Михайловиче Обрескове*. М., 1992.

بيرينوف، ب. **سفير من الدرجة الثالثة. قصة الدبلوماسي الروسي ألكسي ميخايلوفيتش أوبريسكوف**. موسكو، 1992.

Петров, А. Н. *Война России с Турцией и польскими конфедератами в 1769-1774 гг.* Т. 1-5. СПб., 1866.

بيتروف، أ. ن. **حرب روسيا مع تركيا والكونفدراليات البولندية في الأعوام 1769-1774**. مج 1-5. سان بطرسبورغ، 1866.

Петрова, М. А. «Переписка Екатерины II и Иосифа II как исторический источник.» *Источниковед. исслед*. Вып. 2 (2004), с. 167-193.

بيتروفا، م. أ. «مراسلات بين كاترينا الثانية وجوزف الثاني بوصفها مصدرًا تاريخيًا». **دراسات مرجعية**. الإصدار 2 (2004)، ص 167-193.

Петрунина, О. Е. *«Восстань, о Греция восстань!»: рождение греческой независимости глазами современников*. Симферополь, 1998.

بيترونينا. أ. ي. **«انهضي أيتها اليونان، انهضي!»: ولادة الاستقلال اليوناني في عيون المعاصرين**. سيمفيروبل، 1998.

Петрунина, О. Е. «Православная церковь в формировании концепции нации и подготовке освобождения греков от османского ига (XVII-XIX века),» in: *Религии мира: история и современность* (М., 2003), с. 135-153.

بيترونينا، أ. ي. «الكنيسة الأرثوذكسية في تكوين مفهوم الأمة والإعداد لتحرير اليونانيين من النير العثماني (القرنان الثامن عشر والتاسع عشر)» في: **أديان العالم: التاريخ والحاضر** (موسكو، 2003)، ص 135-153.

Печникова, Р. Ю. *Мальтийский орден в прошлом и настоящем*. М., 1990.

بيتشينكوف، ر. ي. **محفل فرسان مالطا في الماضي والحاضر**. موسكو، 1990.

Плавинская, Н. Ю. ««Наказ» Екатерины II во Франции в конце 60- начале 70-х гг. XVIII в.: переводы, цензура, отклики в прессе,» in: *Русско-французские культурные связи в эпоху Просвещения: Исследования и материалы* (М., 2001), с. 9-36.

بلافينسكايا، ن. ي. «"تعليمات" كاترينا الثانية في فرنسا في نهاية ستينيَّات - بداية سبعينيَّات القرن الثامن عشر: الترجمات، الرقابة، الأصداء في الصحافة»، في: **العلاقات الثقافية الروسيَّة - الفرنسيَّة في عصر التنوير: دراسات ومواد** (موسكو، 2001)، ص 9-36.

Плугин, В. А. *Алехан, или человек со шрамом, Жизнеописание графа Орлова-Чесменского*. М., 1996.

بلوغين، ف. أ. **أليخان، أو الرجل ذو الندبة، سيرة حياة الكونت أورلوف - تشيسمينسكي**. موسكو، 1996.

Проскурина, В. *Мифы и империи: Литература и власть в эпоху Екатерины II*. М., 2006.

بروسكورينا، ف. **الأساطير والإمبراطوريات: الأدب والسلطة في عصر كاترينا الثانية**. موسكو، 2006.

Прощин, Е. Е. «Гомеровский «текст» в «Путешествии из Петербурга в Москву» А. Н. Радищева,» in: *Проблемы изучения русской литературы XVIII века: Межвузовский сборник научных трудов*, Вып. 11 (Самара, 2005).

بروشين، ي. ي. «"النص" الهوميروسي في مؤلَّف أ. ن. راديشيف. "رحلات من بطرسبورغ إلى موسكو"»، في: **قضايا دراسة الأدب الروسي في القرن الثامن عشر: مجموعة الأعمال العلمية في الجامعات**، الإصدار 11 (سامارا، 2005).

Пряхин, Ю. Д. «Вознаградить службу тех греков, кои в Архипелаге сражались за Россию...: Переселение в Керчь и Еникале в 1775 году воинов Албанского (греческого) войска.» *Военно-исторический журнал*. no. 2 (2002), с. 69-72.

برياخين، ي. د. «مكافأة أولئك اليونانيين الذين قاتلوا إلى جانب روسيا في الأرخبيل...: انتقال رجال القوّات الألبانيّة (اليونانيّة) إلى كيرتش وينيكال في عام 1775». **المجلة العسكريّة - التاريخيّة**. العدد 2 (2002)، ص 69-72.

Пряхин, Ю. Д. *Ламброс Кацонис в истории Греции и России*. СПб., 2004.

برياخين، ي. د. **لامبروس كاتسونيس في تاريخ اليونان وروسيا**. سان بطرسبورغ، 2004.

*Путешествия по Востоку в эпоху Екатерины II*. Сост. А. А. Вигасин & С. Г. Карпюк. М., 1995.

**الرحلات إلى الشرق في عصر كاترينا الثانية**. إعداد أ. أ. فيغاسين وس. غ. كابيوك. موسكو، 1995.

Путятин, И. Е. *Образ русского храма и эпоха Просвещения*. М., 2009.

بوتياتين، إ. ي. **صورة المعبد الروسي وعصر التنوير**. موسكو، 2009.

Репина, Л. П. & Ю. А. Арнаутова. «Введение,» in: *История и память. Историческая культура Европы до начала нового времени*, Под ред. Л. П. Репиной (М., 2006), с. 5-55.

ريبينا، ل. ب. وي. أ. أرناتوفا. «مقدّمة»، في: **التاريخ والذاكرة: ثقافة أوروبا التاريخية قبل بداية العصر الحديث** (موسكو، 2006)، ص 5-55.

Решетова, А. А. «Греческий путеводитель в древнерусской паломнической литера- туре XV-XVII в.» *Древняя Русь: Вопросы медиевистики*. no. 4 (2003), с. 61-63.

ريشيتوفا، أ. أ. «الدليل اليوناني في أدب الحج الروسي القديم في القرون الخامس عشر - السابع عشر». **روسيا القديمة: مسائل الدراسات القروسطية**. العدد 4 (2003)، ص 61-63.

Родзинская, И. Ю. «Англия и русско-турецкая война: 1768-1774,» in: *Труды Моск. гос. историко-архивного ин-та*, t. 23 (М., 1967), с. 159-190.

رودزينسكايا، إ. ي. «إنكلترا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774»، في: **أعمال معهد موسكو الحكومي للتاريخ الأرشيفي**، مج 23 (موسكو، 1967)، ص 159-190.

Родзинская, И. Ю. «Русско-английские отношения 60-70-х гг. XVIII в.: 1762-1775.» Дисс.... канд. ист. Наук, М., 1967.

رودزينسكايا، إ ي. «العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة في ستينيَّات وسبعينيَّات القرن الثامن عشر: 1762-1775». أطروحة دكتوراه في علوم التاريخ، موسكو، 1967.

*Россия и Италия*. Вып. 2. М., 1996.

**روسيا وإيطاليا**. الإصدار 2. موسكو، 1996.

*Россия и черноморские проливы (XVIII-XX столетия)*. М., 1999.

**روسيا ومضائق البحر الأسود (القرن الثامن عشر - القرن العشرون)**. موسكو، 1999.

Рукавишников, Е. Н. «Внешняя политика и пребывание российского военного флота в Средиземном море. 1770-1774 гг.» *Вопросы истории*. no. 9 (2008), с. 122-134.

روكافيشنيكوف، ي. ن. «السياسة الخارجية وحضور الأسطول الحربي الروسي في البحر المتوسط، 1770-1774». **مسائل التاريخ**. العدد 9 (2008)، ص 122-134.

*Русские и советские моряки на Средиземном море*. М., 1976.

**البحارة الروس والسوفيات في البحر المتوسط**. موسكو، 1976.

Рязанцев, И. В. «Екатерина II в зеркале античной мифологии,» in: *Русская культура последней трети XVIII века-времени Екатерины Второй: сборник* (М., 1997), с. 127-142.

ريازانتسيف، إ. ف. «كاترينا الثانية في مرآة الميثولوجيا القديمة»، في: **الثقافة الروسية في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر - عصر كاترينا الثانية: مجموعة مقالات** (موسكو، 1997)، ص 127-142.

Савинская, Л. Ю. «Письма Я. Ф. Хаккерта князю Н. Б. Юсупову. К истории коллекционирования в России 1770-80-х годов,» in: *Памятники культуры. Новые открытия: Письменность, Искусство, Археология* (*Ежегодник, 1989)* (М., 1990), с. 232-240.

سافينسكايا، ل. ي. «رسائل ي. ف. هاكيرت إلى الأمير ن. ب. يوسوبوف. حول تاريخ جمع التحف الفنية في روسيا»، في: **آثار الثقافة، اكتشافات جديدة: الآداب، الفن، علم الآثار (الكتاب السنوي، 1989)** (موسكو، 1990)، ص 232-240.

Саид, Э. *Ориентализм: западные концепции Востока*. [пер. с англ.]. СПб., 2006.

سعيد، إدوارد. **الاستشراق: المفاهيم الغربية عن الشرق**. [ترجمة عن الإنكليزية]. سان بطرسبورغ، 2006.

Самарин, А. Ю. *Читатель в России во второй половине XVIII века*. М., 2000.

سامارين، أ. ي. **القارئ في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر**. موسكو، 2000.

Самарин, А. Ю. «Тиражи изданий типографии Сухопутного Шляхетного корпуса в 1768-1771 гг.,» in: *Актуальные проблемы теории и истории библиофильства: Материалы X Межд. научной конференции* (СПб., 2005), с. 47-51.

سامارين، أ. ي. «عدد النسخ من الطبعات الصادرة عن مطبعة مدرسة النبلاء العسكرية للمشاة في الأعوام 1768-1771»، في: **المسائل الملحة لنظرية وتاريخ الهواية المكتبية: مواد المؤتمر العلمي العاشر** (سان بطرسبورغ، 2005)، ص 47-51.

*Санкт-Петербург и античность -Sankt-Petersburg und die Antike= Sankt-Petersburg and Classical Antiquities: [Материалы выст./Авт]*. текстов Л. И. Давыдова и др.; науч. ред. Е. В. Мавлеев. СПб.: С.-Петерб. Фонд культуры, 1993.

**سان بطرسبورغ وآثار العصور القديمة:** *antiquites* **(مواد معروضة)**. مؤلّفو النصوص دافيدوف [وآخرون]؛ المحرر العلمي ي. ف. مافلييف. سان بطرسبورغ: صندوق الثقافة في سان بطرسبورغ، 1993.

Сафонов, С. «Остатки греческих легионов в России, или нынешнее население Балаклавы. Исторический очерк,» in: *Записки Одесского общества истории и древностей*, t. 1 (Одесса, 1844), c. 205-238.

سافونوف، س. «بقايا الفيالق اليونانية في روسيا، أو سكان بالاكلافا الحاليين»، في: **مدونات جمعية أوديسا للتاريخ والعهود القديمة**، مج 1 (أوديسا، 1844)، ص 205-238.

Семенович, Н. «Картина Я.Ф. Хаккерта «Гибель турецкого флота в Чесменском бою» («Сожженный флот»).» *Сообщения Гос.* Эрмитажа. Т. XLIX (1984).

سميونوفيتش، ن. «لوحة ي. ف. هاكيريت «هلاك الأسطول التركي في معركة شيسما» («الأسطول المحترق»)». **أخبار متحف الإرميتاج الحكومي**. مج 49 (1984).

Сибирева, Г. А. *Неаполитанское королевство и Россия в последней четверти XVIII в.* М., 1981.

**سيبيريفا، غ. أ. مملكة نابولي وروسيا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.** موسكو، 1981.

Синицина, Н. В. *Третий Рим, Истоки и эволюция средневековой концепции, XV-XVI вв.* М., 1998.

**سينيتسينا، ن. ف. روما الثالثة، نشوء نظرية القرون الوسطى وتطورها، القرنان الخامس عشر والسادس عشر.** موسكو، 1998.

Смилянская, Е. Б. «Греческое княжество, присягнувшее Екатерине Великой (1770-1775).» *Родина*. no. 2 (2010), c. 60-63.

سميليانسكايا، ي. ب. «الإمارة اليونانية التي أقسمت يمين الولاء لكاترينا الكبرى (1770-1775)». **رودينا**. العدد 2 (2010)، ص 60-63.

Смилянская, Е. Б. & И. М. Смилянская. «Россия в Средиземноморье: политика и пропаганда екатерининского времени.» *Вестник РГНФ*. no. 4 (2008), c. 45-55.

سميليانسكايا، ي. ب. وإ. م. سميليانسكايا. «روسيا في البحر المتوسط: السياسة والدعاية في العصر الكاتريني». **المجموعة الوطنية الروسية الحكومية**. العدد 4 (2008)، ص 45-55.

Смилянская, И. М. «Восточное Средиземноморье в восприятии россиян и в российской политике (вторая половина XVIII в.).» *Восток*. no. 5 (1995), c. 68-81.

سميليانسكايا، إ. م. «شرق البحر المتوسط في وعي الروس والسياسة الروسية (النصف الثاني من القرن الثامن عشر)». **الشرق**. العدد 5 (1995)، ص 68-81.

Смилянская, И. М. «Торжества по случаю побед и заключения мира в царствование Екатерины II (их идейный и социо-культурный смысл),» in: *Екатерина Великая: эпоха российской истории, Тезисы докладов* (СПб., 1996), с. 209-211.

سميليانسكايا، إ. م. «الاحتفالات لمناسبة الانتصارات وعقود الصلح في عهد كاترينا الثانية (فحواها الفكري والسوسيوثقافي)»، في: **كاترينا الكبرى: عصر التاريخ الروسي، موضوعات تقارير** (سان بطرسبورغ، 1996)، ص 209-211.

Смилянская, И. М. «О политике Екатерины II в Средиземноморье и первых российско-арабских политических контактах,» in: *Анналы* (Ин-т востоковедения РАН). Вып. V-VI (1997), с. 5-36.

سميليانسكايا، إ. م. «عن سياسة كاترينا الثانية في حوض البحر المتوسط والعلاقات السياسية الروسية - العربية الأولى». **آنالي** (معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الروسية). الإصداران 5-6 (1997)، ص 5-36.

Смилянская, И. М. «К истокам средиземноморской политики Екатерины,» in: *Восточный архив*, 1999, nos. 2-3, с. 86-101.

سميليانسكايا، إ. م. «في جذور سياسة كاترينا المتوسطية»، في: **الأرشيف الشرقي**، 1999، العددان 2-3، ص 86-101.

Смилянская, И. М. «Военно-политическая деятельность А. Г. Орлова в Средиземноморье и греческое освободительное движение,» in: *Восточный архив*, 2000, nos. 4-5, с. 92-101.

سميليانسكايا، إ. م. «نشاط أ. غ. أورلوف العسكري والسياسي في حوض البحر المتوسط والحركة التحررية اليونانية»، في: **الأرشيف الشرقي**، 2000، العددان 4-5، ص 92-101.

Смилянская, И. М. «Сценарии политической жизни Сирии и Египта XVIII в.,» in: *Политическая интрига на Востоке* (М., 2000), с. 246-274.

سميليانسكايا، إ. م. «سيناريوهات الحياة السياسيَّة في سورية ومصر خلال القرن الثامن عشر»، في: **المؤامرة السياسيَّة في الشرق** (موسكو، 2000)، ص 246-274.

Смилянская, И. М. ««Приуготовления» к русско-турецкой войне 1768-1774 гг.: рос-сийские эмиссары в Греции и на Балканах,» in: *Восточный архив*, 2009, no. 2 (20), c. 40-50.

سميليانسكايا، إ. م. «"الاستعدادات" للحرب الروسية - التركية في الأعوام 1768-1774: المبعوثون الروس في اليونان والبلقان»، في: **الأرشيف الروسي**، 2009، العدد 2 (20)، ص 40-50.

Смирнов, В. Е. «Мамлюкские институты как элемент военно-административной и политической структуры османского Египта,» in: *Одиссей. Человек в истории. Рыцарство: реальное и воображаемое* (М., 2004), с. 144-169.

سميرنوف، ف. ي. «المؤسّسات المملوكيَّة كأحد عناصر البنية الإداريَّة - العسكريَّة والسياسيَّة في مصر العثمانية»، في: **أوديسيا. الإنسان والتاريخ. الفروسية: الواقع والمتخيل** (موسكو، 2004)، ص 144-169.

Сморгунова, Е. М. «Город Кашин - земной образ Небесного Иерусалима, или «Богословие в камне,» in: *Русская провинция: миф-текст-реальность*, Сост. А. Ф. Белоусов и Т. В. Цивьян (М.; СПб., 2000), с. 368-384

سمورغونوف، ي. م. «مدينة كاشين، الصورة الأرضية للقدس السماوية، أو «علم اللاهوت في الحجر»» في: **الريف الروسي: الأسطورة - النص - الواقع**، إعداد أ. ف. بيلوأوسوف وت. ف. تسيفيان (موسكو؛ سان بطرسبورغ، 2000)، ص 368-384.

Соколов, А. Б. «Английский дипломат о политике и дворе Екатерины II.» *Вопросы истории*. nos. 4-5 (1999), c. 111-128.

سوكولوف، أ. «دبلوماسي إنكليزي يتحدث عن سياسة كاترينا الثانية وبلاطها». **مسائل التاريخ**. العددان 4-5 (1999)، ص 111-128.

Соколов, А. «Русские моряки и поэты,» in: *Морской сборник*, 1848, no. 1 (6), c. 197-216.

سوكولوف، أ. «البحارة الروس والشعراء»، في: **المجموعة البحرية**، 1848، العدد 1 (6)، ص 197-216.

Соколов, А. «Архипелагская кампания, 1769-1774 гг.,» in: *Записки Гидрографического департамента Морского министерства*, t. VII (СПб., 1849).

سوكولوف، أ. «حملة الأرخبيل، 1769-1774»، في: **تدوينات المركز الجيو-مائي لوزارة البحرية**، مج 7 (سان بطرسبورغ، 1849).

Соловьев, С. М. «История России с древнейших времен,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн.XIII-XIV (М., 1994).

سولوفيوف، س. م. «تاريخ روسيا منذ العصور الغابرة»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتابان 13-14 (موسكو، 1994).

Соловьев, С. М. «Учебная книга русской истории,» in: *Сочинения в восемнадцати книгах*, Кн. XVIII (М., 1995).

سولوفيوف، س. م. «كتاب مدرسي في التاريخ الروسي»، في: **المؤلفات في ثمانية عشر كتابًا**، الكتاب 18 (موسكو، 1995).

Сомов, В. А. «Вольтер на конкурсе Вольного экономического общества (Две рукописи, присланные из Швейцарии в 1767 г.),» in: *Русско-французские культурные связи в эпоху Просвещения: Исследования и материалы* (М., 2001), c. 37-99.

سوموف، ف. أ. «فولتير في لقاء الجمعيَّة الاقتصاديَّة المستقلة (مخطوطتان مرسلتان من سويسرا في العام 1767)»، في: **العلاقات الثقافية الروسيَّة - الفرنسيَّة في عصر التنوير: دراسات ومواد** (موسكو، 2001)، ص 37-99.

Станиславская, А. М. *Русско-английские отношения и проблемы Средиземноморья, 1798-1807*. М., 1962.

ستانيسلافسكايا، أ. م. **العلاقات الروسيَّة - الإنكليزيَّة ومعضلات البحر المتوسِّط**، 1798-1807. موسكو، 1962.

Станиславская, А. М. *Россия и Греция в конце XVIII — начале XIX века*. М., 1976.

ستانيسلافسكايا، أ. م. روسيا واليونان في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن التاسع عشر. موسكو، 1976.

Станиславская, А. М. *Политическая деятельность Ф. Ф.Ушакова в Греции.* М., 1983.

ستانيسلافسكايا، أ. م. نشاط ف. ف. أوشاكوف السياسي في اليونان. موسكو، 1983.

Стегний, П. В. *Хроники времен Екатерины II.* М., 2001.

ستيغني، ب. ف. حوليات أزمنة كاترينا الثانية. موسكو، 2001.

Стегний, П. В. *Разделы Польши и дипломатия Екатерины II, 1772 1793, 1795.* М., 2002.

ستيغني، ب. ف. تقسيم بولندا ودبلوماسية كاترينا الثانية، 1772، 1793، 1795. موسكو، 2002.

Тарле, Е. В. *Екатерина II и ее дипломатия*. М., 1945.

تارلي، ي. ف. كاترينا الثانية ودبلوماسيتها. موسكو، 1945.

Тарле, Е. В. *Три экспедиции русского флота*. М., 1956.

تارلي، ي. ف. حملات الأسطول الروسي الثلاث. موسكو، 1956.

Тарле, Е. В. «Чесменский бой и первая русская экспедиция в Архипелаг (1769-1774),» in: Е. В. Тарле, *Сочинения*, t. 10 (М., 1959), с. 9-94.

تارلي، ي. ف. «معركة شيسما والحملة الروسيّة الأولى في الأرخبيل (1769-1774)»، في: ي. ف. تارلي، المؤلفات، مج 10 (موسكو، 1959)، ص 9-94.

Тартаковский, А. Г. *Русская мемуаристика XVIII — первой половины XIX в. От рукописи к книге*. М., 1991.

تارتاكوفسكي، أ. غ. أدب المذكرات الروسي في القرن الثامن عشر - النصف الأول من القرن التاسع عشر. من المخطوطة إلى الكتاب. موسكو، 1991.

Теплов, В. Н. *Русские представители в Царьграде, 1496-1891 гг. Исторический очерк*. СПб., 1891.

تيلوف، ف. ن. **المبعوثون الروس في تساريغراد، 1496-1891، دراسة تاريخية**. سان بطرسبورغ، 1891.

Тиктопуло, Я. Ф. «Русско-турецкие войны 1768-1774, 1787-1791 гг. и судьбы греков. Греческий проект Екатерины II.» Дисс. ... канд. ист. Наук, М., 1991.

تيكتوبولو، ي. ف. «الحروب الروسية - التركية 1768-1774، 1787-1791 ومصائر اليونانيين. مشروع كاترينا الثانية اليوناني». أطروحة دراسات عليا في علوم التاريخ، موسكو، 1991.

Трей, Г. *Указатель скульптурного музея Императорской Академии художеств, Вып. 1: Скульптура древних народов*. СПб., 1870.

تري، غ. **دليل متحف المنحوتات في أكاديمية الفنون الإمبراطورية، الإصدار الأول: فن النحت لدى الشعوب القديمة**. سان بطرسبورغ، 1870.

Турчин, В. С. «Аллегория будней и празднеств в «сословной иерархии» XVIII- XIX веков: от усадебной культуры прошлого до наших дней (эссе).» *Русская усадьба: Сборник ОИРУ*. no. 2 (18) (1996).

تورتشين، ف. س. «استعارات الحياة اليومية والاحتفالات في «التراتبية المجتمعية» في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: من ثقافة الماضي في العزب إلى أيامنا الراهنة (مقالة)». **العزبة الروسية: مجموعة تاريخ العزبة الروسية**. العدد 2 (18) (1996).

*Тысяча лет русского паломничества: Каталог выставки*. Сост. и науч. ред. Е. М. Юхименко. М., 2009.

**ألف عام على الحج الروسي: كاتالوغ المعرض**. إعداد وتحرير علمي أ. م. يوخيمنكو. موسكو، 2009.

Тюличев, Д. В. «Московские подписчики «Санк-тпетербургских ведомостей» в середине XVIII в.,» i*n: Книга и ее распространение в России в XVI-XVIII вв* (Л., 1985), с. 100-112.

تيوليف، د. ف. «المشتركون في «أنباء سان بطرسبورغ » الموسكوبيون في أواسط القرن الثامن عشر»، في: **الكتاب وانتشاره في روسيا ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر** (لينينغراد، 1985 )، ص 100-112.

Ужанков, А. Н. «Эволюция пейзажа в русской литературе XI-первой трети XVIII в.,» in: *Древнерусская литература: Изображение природы и человека* (М., 1995), с. 19-88.

أوجانكوف، أ. ن. تطوُّر فن التصوير الطبيعي في الأدب الروسي في القرن الحادي عشر - الثلث الأول من القرن الثامن عشر»، في: **الأدب الروسي القديم: وصف الطبيعة والإنسان** (موسكو، 1995)، ص 19-88.

Уляницкий, В. А. *Дарданеллы, Босфор и Черное море в XVIII веке.* М., 1883.

أوليانيتسكي، ف. أ. **الدردنيل، البوسفور والبحر الأسود في القرن الثامن عشر.** موسكو، 1883.

Уляницкий, В. А. *Русские консульства за границей в XVIII веке.* М., 1899.

أوليانيتسكي، ف. أ. **القنصليات الروسيَّة في الخارج في القرن الثامن عشر.** موسكو، 1899.

Уортман, Р. *Сценарии власти: Мифы и церемонии русской монархии.* М., 2002.

أورتمان، ر. **سيناريوهات السلطة: أساطير الملكية الروسية وطقوسها.** موسكو، 2002.

Усольцев, В. С. *Фома Фомич Макензи.* Севастополь, 2001.

أوسولتسيف، ف. س. **فوما فوميتش ماكينزي.** سيفاستوبول، 2001.

Успенский, Б. А. «Восприятие истории в Древней Руси и доктрина «Москва Третий Рим»,» in: Б. А. Успенский, *Этюды о русской истории* (СПб., 2002), с. 89-148.

أوسبينسكي، ب. أ. «فهم التاريخ في روس القديمة وعقيدة «موسكو - روما الثالثة»، في: ب. أ. أوسبينسكي، **مطالعات في التاريخ الروسي** (سان بطرسبورغ، 2002)، ص 89-148.

Фирсов, Н. Н. *Правительство и общество в их отношениях к внешней торговле России в царствование Екатерины II.* Казань, 1902.

فيرسوف، ن. ن. **الحكومة والمجتمع في موقفهما من تجارة روسيا الخارجية في عهد كاترينا الثانية.** قازان، 1902.

Фонкич, Б. Л. *Греческо-русские связи середины XVI — начала XVIII в. Греческие документы московских хранилищ. Каталог выставки.* М., 1991.

فونكيتش، ب. ك. العلاقات الروسية - اليونانية في منتصف القرن السادس عشر - بداية القرن الثامن عشر. الوثائق اليونانية في خزائن المحفوظات الموسكوبية. كاتالوغ معرض. موسكو، 1991.

Фонкич, Б. К. «истории приобретения греческих рукописей Харьковским университетом,» in: *Записки історико-філологічного товариства Андрія Білецького* (Киев, 2003), Вип. IV, Кн. 1, с. 198-203.

فونكيتش، ب. ك. «في تاريخ اقتناء جامعة خاركوف للمخطوطات اليونانيّة»، في: مدونات جمعيّة أندريه بيليتسكي التاريخيّة الأدبيّة (كييف، 2003)، الإصدار الرابع، الكتاب الأول، ص 198-203.

Фрейденберг, М. М. *Дубровник и Османская империя*. М., 1984.

فريدنبرغ، م. م. دوبروفنيك والإمبراطورية العثمانية. موسكو، 1984.

Фролов, Э. Д. *Русская историография античности (до середины XIX в.)*. Л., 1967.

فرولوف، إ. د. التأريخ الروسي للعصر الكلاسيكي القديم (حتى أواسط القرن التاسع عشر). (لينينغراد، 1967).

Хромов, О. Р. «Гравюра Греческого мира в московских собраниях: Каталог выставки,» in: *Посольство Греции в Москве, Центр. музей древнерус. культуры и искусства им. Андрея Рублева*. Сост. кат. и указ. О. Р. Хромов. (М.: Индрик, 1997).

خروموف، أ. ر. «صورة العالم اليوناني في المجموعات الروسية: كاتالوغ معرض»، في: سفارة اليونان في موسكو، متحف أندريه روبلوف المركزي للفن والثقافة الروسية القديمة. أعد الكاتالوغ والملاحظات أ. ر. خروموف (موسكو: إندريك، 1997).

Черкасов, П. П. *Двуглавый орел и королевские лилии: Становление русско-французских отношений в XVIII веке, 1700-1775* (М., 1995).

تشيركاسوف، ب. ب. النسر ذو الرأسين والزنابق الملكية: تكوُّن العلاقات الروسيَّة - الفرنسيَّة في القرن الثامن عشر، 1700-1775. موسكو 1995.

Черкасов, П. П. «Франция и русско-турецкая война, 1768-1774 гг.» *Новая и новейшая история*. no. 1 (1996), pp. 50-76.

تشيركاسوف، ب. ب. «فرنسا والحرب الروسيَّة - التركيَّة، 1768-1774».
**التاريخ الحديث والمعاصر**، العدد 1 (1996)، ص 50-76.
Черкасов, П. П. *Екатерина II и Людовик XVI.* М., 2001.

تشيركاسوف، ب. ب. **كاترينا الثانية ولويس السادس عشر**. موسكو، 2001.
Черкасов, П. П. «Опала графа Н. И. Панина. По донесениям французского посольства в Санкт-Петербурге (1775-1783),» in: *Россия и Франция. XVIII-XX века* (М., 2005), с. 35-52.

تشيركاسوف، ب. ب. «عقوبة الكونت ن. إ. بانين. استنادًا إلى تقارير السفارة الفرنسية في سان بطرسبورغ (1775-1783)»، في: **روسيا وفرنسا في القرون الثامن عشر - العشرين** (موسكو، 2005)، ص 35-52.
Черняев, П. «Следы знакомства русского общества с древнеклассической литературой в век Екатерины II. Материалы для истории классического образования в России в био-библиографических очерках его деятелей былого времени,» in: *Филологические записки*, IV Вып. (Воронеж, 1904-1905).

تشيرناييف، ب. «آثار تعرُّف المجتمع الروسي إلى الأدب الكلاسيكي القديم في عصر كاترينا الثانية، مواد لتاريخ التعليم الكلاسيكي في الكتابات البيبلوغرافية لناشطيه في العصور القديمة»، في: **كتابات لغوية**، 4 إصدارات (فورونيج، 1904-1905).
Чечулин, Н. Д. *Внешняя политика России в начале царствования Екатерины II, 1762-1774 гг.* СПб., 1896.

تشيتشولين، ن. د. **سياسة روسيا الخارجيَّة في بداية عهد كاترينا الثانية، 1762-1774**. سان بطرسبورغ، 1896.
Чугров, С. В. *Россия и Запад: метаморфозы взаимовосприятия.* М., 1993.

تشوغروف، س. ف. **روسيا والغرب تحولات تقبل الآخر**. موسكو، 1993.
*Чужое: Опыты преодоления, Очерки из истории культуры Средиземноморья.* (М., 1999).

**الغريب: تجارب التذليل، دراسات من تاريخ ثقافة حوض البحر المتوسط**. موسكو، 1999.

Шапиро, А. Л. «Средиземноморские проблемы внешней политики России в начале XIX в.» *Исторические записки.* t. 55 (1956), с. 253-288.

شاپيرو، أ. ل. «القضايا المتوسطيّة في السياسة الخارجيّة الروسيّة في بداية القرن التاسع عشر». **مدونات تاريخية**. مج 55 (1956)، ص 253-288.

Швидковский, Д. О. «Династическая политика и архитектура во второй половине царствования Екатерины II,» in: *Век Просвещения*, Вып. 1 (М., 2006), с. 141-159.

شفيدكوفسكي، د. أ. «سياسة السلالة الملكية والهندسة المعمارية في النصف الثاني من عهد كاترينا الثانية»، في: **عصر التنوير**، الإصدار الأول (موسكو، 2006)، ص 141-159.

Шенле, А. *Подлинность и вымысел в авторском самосознании русской литературы путешествий (1790-1840)*. СПб., 2004.

شينلي، أ. **الحقيقة والخيال في وعي مؤلفي أدب الرحلات الروسي (1790-1840)**. سان بطرسبورغ، 2004.

Шеремет, В. И. «Греческий проект» и халифат в контексте восточной политики России последней трети XVIII века,» in: *Славяне и их соседи: Османская им-перия и народы Центральной и Юго-Восточной Европы и Кавказа в XIV- XVIII вв* (М., 1992).

شيرميت، ف. إ. «المشروع اليوناني والخلافة في سياق سياسة روسيا الشرقية في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر»، في: **السلاف وجيرانهم: الإمبراطورية العثمانية وشعوب أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية والقوقاز في القرون الرابع عشر - الثامن عشر** (موسكو، 1992).

Шигин, В. «Всеми забытый капитан Кожухов,» in: *Век XVIII. Под андреевским флагом* (М., 1994).

شيغين، ف. «القبطان كوجوخوف المنسي من الجميع»، في: **القرن الثامن عشر تحت راية أندرييف**. موسكو، 1994.

Широкорад, А. Б. *Адмиралы и корсары Екатерины Великой: Звездный час русского флота*. М. 2006.

شيروكوراد، أ. ب. **أميرالات كاترينا العظمى وقراصنتها: لحظة صعود الأسطول الروسي**. موسكو، 2006.

Шпаро, О. Б. *Освобождение Греции и Россия (1821-1829)*. М., 1965.

شبارو، أ. ب. تحرير اليونان وروسيا (1821-1829). موسكو، 1965.
Щукина, Е. С. «Наградные медали Архипелагской экспедиции 1769-1770,» in: *Труды Гос.Эрмитажа*, Вып. XII (СПб., 1971).

شوكينا، ي. س. «ميداليات التكريم في حملة الأرخبيل 1769-1770»، في: أعمال متحف الإرميتاج الحكومي، الإصدار الثاني عشر (سان بطرسبورغ، 1971).

Якушев, М. И. *Христианские субъекты Османской Империи- Антиохийский и Иерусалимские патриархаты- в политике Российской Империи: 30-е гг. XIX - начало XX в.: Автореферат диссертации на соискание ученой степени кандидата исторических наук*. М., 2009.

ياكوشيف، م. إ. العناصر المسيحية في الإمبراطورية العثمانية - بطريركيتا إنطاكية والقدس - في سياسة الإمبراطورية الروسية إبان ثلاثينيات القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين: موجز أطروحة مرشح في علوم التاريخ. موسكو، 2009.

Янници, Т. *Греческий мир в конце XVIII — начале XX в. по российским источникам*. СПб., 2005.

يانيتسي، ب. العالم اليوناني في نهاية القرن الثامن عشر - بداية القرن العشرين استنادًا إلى المصادر الروسية. سان بطرسبورغ، 2005.

Ademollo, A. *Corilla Olimpica*. Firenze, 1887.

Alberti, A. M. «Venezia e la Russia alla fine del secolo XVIII (1770-1785).» *Archivio Veneto*. vol. 10 (1931).

Anderson, M. S. «Great Britain and the Russian Fleet 1769-1770.» *Slavonic and East European Review*. no. 31 (1952-1953), pp. 148-163.

______. «Great Britain and the Russo-Turkish War of 1768-74.» *English Historical Review*, vol. 69, no. 270 (1954), pp. 39-58.

______. *Britain's Discovery of Russia, 1553-1815*. New York, 1958.

______. *Europe in the Eighteenth Century*, 1713-1783. London; New York, 1987.

Anderson, R. C. *Naval Wars in the Levant, 1559-1853*. Liverpool, 1952.

Androsov, M. S. «Ivan Šuvalov e la sua cerchia a Roma,» in: *Italia-Russia. Incontri culturali e Religiosi fra '700 e 900'. Atti dell convegno internazionale, Napoli, 9-10 ottobre 2008*. Napoli, 2009.

Androsov, S. O. «Петр Великий в Венеции,» in: *A Window on Russia: Papers from the V International Conference of the Study on Eighteenth-century Rissia, Gargnano, 1994* (Roma, 1966), pp. 19-27.

______. «Ivan Šuvalov e la sua cerchia a Roma,» in: Italia-Russia/Incontri culturali e religiosi fra '700 e '900. Atti del Convegno internationale, Napoli, 9-10 ottobre 2008. Napoli, 2009. P. 11-17.

Augustinos, O. *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era.* Baltimore; London, 1994.

Auriant. «Un agent de Catherine II en Egypte: M. de Thonus (1784-1789).» *L'Acropole* (Paris). vol. 2, no. 6. (1927), pp. 112-127.

______. «Un aventurier vénitien en Égypte: Carlo Rossetti.» *L'Acropole.* vol. 4, nos. 15-16 (Juillet- Decembre 1929), pp. 175-193.

______. «Catherine II et l'Orient, 1770-1774 (Documents inedit).» *L'Acropole* (Paris). vol. 5, nos. 3-4 (1930), pp. 188-220.

______. «Les Corsaires grecs allies de la Russie, 1787-1789 (Documents inedit).» *L'Acropole.* vol. 9, no. 33 (1934), pp. 20-28.

Batalden, S. K. «A Further Note on Patriarch Serapheim II's Sojourn to Russia.» *Balkan Studies.* vol. 18, no. 2 (1977), pp. 409-411.

Becattini, F. *Vita pubblica e privata di Pietro Leopoldo d'Austria Granduca di Toscana poi Imperatore Leopoldo II.* Seconda edizione. Siena, 1797.

Benhamou, P. «Inventaire des instruments de lecture publique des gazette,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles): Table ronde internationale, Saint-Étienne, 21-23 mai 1992*, textes réunis par Henri Duranton, Claude Labrosse & Pierre Rétat (Saint Étienne: Publications de l'université de Saint-Étienne, 1992), pp. 121-129.

Berti, G. *Russia e stati italiani nel Risorgimento.* Torino, 1957.

Blondy, A. *L'Ordre de Malte au XVIIIe siècle. Des dernières splendeurs á la ruine.* Paris, 2002.

______. «L'Ordre de Malte et Malte dans les affaires polonaises et russes au XVIIIe siècle.» *Revue des études slaves.* no. 66/4 (1994), pp. 733-755.

Bonifacio, G. «La Prima discesa russa in Mediterraneo.» *Rivista di cultura marinata.* no. 3 (Maggio-giugno 1943).

Bottari, S. «Geopolitical and Commercial Interests in the Mediterranean Sea: The Reports of Angelo Rutter, English vice-Consul in Malta (1769-1771).» *Journal of Mediterranean Studies.* vol. 12, no. 2 (2002), pp. 249-257.

Bruess, G. L. *Religion, Identity and Empire: A Greek Archbishop in the Russia of Catherine the Great.* New York, 1997.

Busiri Vici, A. «L'Erudito della Corte Russa del Settecento, Ivan Ivanovitch Schouvaloff, ed i suoi rapporti con Roma.» *L'Urbe* (Nuova serie). no. 6 (1976), pp. 39-52.

Camariano-Cioran, A. «La Guerre russo-turque de 1768-1774 et les Grecs.» *Revue des études sud-est européennes.* tome 3, nos. 3-4 (1965), pp. 513-547.

Campbell, M. B. «The Idea of Greece in Western Letters (Travel Journals).» *Arion.* vol. 4.2 (Autumn 1996).

Cantu, C. *Beccaria e il diritto penale.* Frienze, 1862.

Carrère d'Encausse, Hélène. *Victorieuse Russie. Paris, 1992.*

Cavalcanti, M. L. *Le relazioni commerciali tra il regno di Napoli e la russia, 1777-1815, Fatti e teorie.* Genève, 1979.

Cazzola, P. «Il principe Beloselskij.» *Piemonte vivo. Rassegna periodica di lavoro, arte, letteratura e costumi piemontesi,* no. 3 (1968), pp. 3-8.

______. «Presenze russe in Nizza sabauda (1770-1860).» *Studi Piemontesi.* vol. XIX, fasc. 1 (1990), pp. 119-135.

______. *Russia-Bologna. Tre secoli di rapporti, incontri e viaggi.* Bologna, 1990.

Censer, Jack R. & Jeremy D. Popkin (eds.). *Press and Politics in Pre-Revolutionary France.* Berkeley: University of California Press, 1987.

Cessi, R. «Confidenze di un ministro russo a Venezia nel 1770.» *Atti del Reale Instituto Veneto di Scienze, Lettere ed Arti.* t. LXXIV, p. II (1914-1915).

______. *Storia della Repubblica di Venezia.* Frienze, 1981.

Charles-Roux, Fr. *Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle.* Paris, 1928.

Charles, S. «Sur l'écriture du présent: La Gazette d'Amsterdam et la Gazette de France,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles): Table ronde internationale, Saint-Étienne, 21-23 mai 1992,* textes réunis par Henri Duranton, Claude Labrosse & Pierre Rétat (Saint Étienne: Publications de l'université de Saint-Étienne, 1992), pp. 177-185.

Ciano, C. *Russia e Toscana nei secoli XVII e XVIII: Pagine di storia del commercio e della navigazione.* Pisa, 1980.

Cinnella, E. «Il Settecento russo di Franco Venturi.» *Cromohs.* vol. 10 (2005), pp. 1-19.

Cipriani, A. «Una donna forte del Settecento.» *Pistoia Programma.* no. 41 (1988), pp. 17-24.

Cizova, T. «Beccaria in Russia.» *Slavonic and East European Review,* vol. 40, no. 95 (1962), pp. 384-408.

Clogg, R. *Anatolica: Studies in the Greek East in the 18th and 19th Centuries.* Variorum, 1996.

______. «The Byzantine Legacy in the Modern Greek World: The Megali Idea,» in: Lowell Clucas (ed.), *The Byzantine Legacy in Eastern Europe* (Boulder: East European Monographs, 1988), pp. 253-281.

Constantine, D. *Early Greek Travelers and the Hellenic Ideal.* Cambridge, 1984.

Contini, A. «Concezione della sovranità e vita di corte in età leopoldina (1765-1790),» in: *La corte di Toscana dai Medici ai Lorena, Atti delle giornate di studio. Firenze, Archivio di Stato e Palazzo Pitti, 15-16 dicembre 1997* (Roma, 2002), pp. 129-220.

Crecelius, D. *The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of Ali Bey al Kabir and Muhammad Bey Aby Al-Dhahab, 1760-1775.* Minneapolis; Chicago, 1981.

Cross, A. «The Elphinstones in Catherine the Great's Navy.» *Mariner's Mirror.* vol. 84, no. 3 (August 1998), pp. 268-277.

Dakin, D. *The Unification of Greece, 1770-1923.* London, 1972.

De Michelis, C. G. «L'oeuvre de Catherine II en Italie en XVIIIe siècle,» dans: *Catherine II & l'Europe* (Paris, 1997).

Donolo, L. «Il conte Aleksej Orlov e il pittore Jacob Philipp Hackert a Livorno, teatro virtuale della battaglia di Cesme.» *Nuovi Studi Livornesi.* tome 9 (2001), pp. 107-143.

Doran, J. *'Mann' and Manners at the Court of Florence, 1740-1786, Founded on the letters of Horace Mann to Horace Walpole.* vol. II. London, 1876.

Duffy, C. *Russia's Military Way to the West: Origins and Nature of Russian Military Power, 1700-1800.* Knighton, 1994.

Dulac, G. «L'Image de la Russie dans les gazettes et les correspondances diplomatiques et ses annexes (1774-1780),» dans: *Nouvelles, gazettes, mémoires secrets (1775-1800): Actes du colloque international, Karlstad, 17-20 septembre 1994*, études réunies et présentées par Birgitta Berglund-Nilsson (Karlstad: Karlstad University Press, 2000), pp. 71-88.

Dumani, Beshara. *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900.* Berkley; Los Angeles; London, 1995.

Eisner, R. *Travelers to an Antique Land: The History and Literature of Travel to Greece.* Ann Arbor, 1991.

Feyel, G. «La Diffusion des gazettes étrangères en France et la révolution postale des années 1750,» dans: *Les Gazettes européennes de langue française (XVIIe-XVIIIe siècles): Table ronde internationale, Saint-Étienne, 21-23 mai 1992*, textes réunis par Henri Duranton, Claude Labrosse & Pierre Rétat (Saint Étienne: Publications de l'université de Saint-Étienne, 1992), pp. 82-98.

Fleicher, «Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon.» *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.* vol. 6, no. 1 (1852).

Freller, T. «In Search of a Mediterranean Base: The Order of St. John and Russia's Great Power Plans during the Rule of Tsar Peter the Great and Tsarina Catherine II.» *Journal of Early Modern History.* vol. 8, nos. 1-2 (2004), pp. 3-30.

Frumin, M., R. Rubin & D. Gavish. «A Russian Naval Officer's Chart of Haifa Bay (1772).» *Imago Mundi.* vol. 54 (July 2002), pp. 125-128.

Fuller, W. C. *Strategy and Power in Russia, 1600-1914.* New York, 1992.

Gerousi, E. *Melos: the Christian Monuments of the Island.* Athens, 1999.

Harik, Ilya F. *Politics and Change in a Traditional Society of Lebanon, 1711-1845.* Princeton, NJ, 1968.

*Il carteggio tra Amaduzzi e Corilla Olimpica (1775-1792).* A cura di Luciana Morelli. Firenze, 2000.

Ivancevic, V. *Pisa e Livorno nel confllito russo-Ragusso del 1769-1775.* Pisa, 1967.

Jones, R. «Opposition to War and Expansion in Late Eighteenth Century Russia.» *Jahrbücher für Geschichte Osteuropas* (Neue Folge). Bd. 32, H. 1 (1984), pp. 34-51.

Joudah, Ahmad Hasan. *Revolt in Palestine in the Eighteenth Century: The Era of Shaykh Zahir al-Umar.* Princeton, 1987.

Kivelson, Valerie. *Cartographies of Tsardom: The Land and its Meanings in Seventeenth-Century Russia.* Ithaca; London, 2006.

Labrosse, C. «De l'usage de l'autre dans le discours de l'information politique (gazettes et journaux, 1784-1785),» dans: *Nouvelles, gazettes, mémoires secrets (1775-1800): Actes du colloque international, Karlstad, 17-20 septembre 1994*, études réunies et présentées par Birgitta Berglund-Nilsson (Karlstad: Karlstad University Press, 2000), pp. 121-134.

______, P. Rétat & H. Duranton. *L'Instrument périodique: La Fonction de la presse au XVIIIe siècle.* Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1985.

Laust, H. *Les Gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans (658-1156/1260-1744).* Traduction des Annales d'ibn Tulun et d'ibn Gum'a. Damas, 1959.

Levi, G. «Les Projets du gouvernement sarde sur les relations économiques avec la Russie à la fin du XVIII siècle,» dans: *La Russie et l'Europe. XVI-XX siècles* (Paris; Moscou, 1970), pp. 288-305.

Liassis, N. «No Limits to Their Sway' - Byron's Corsairs Under Ottomanism.» *Journal of Mediterranean Studies.* vol. 11, no. 2 (2001), pp. 319-340.

Liechtenhan, F.-D. *Les Trois christianismes et la Russie: Les Voyageus occidentaux face à l'Église orthodoxe russe. XV-XVIII siècle.* Paris, 2002.

Lockroy, E. *Ahmed le Boucher. La Syrie et l'Égypte au XVIIIe siècle.* Paris, 1888.

Longworth, Ph. Russian-Venetian Relations in the Reign of Tsar Aleksey Mikhailovich.» *Slavonic and East European Review.* vol. 64, no. 3 (1986), pp. 380-400.

Majeska, G. P. *Russian Travelers to Constantinople in the Fourteenth and Fifteenth Centuries.* Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 1984.

Makrides, V. N. «Orthodoxie und Politik. Die russisch-griechischen Beziehungen zur Zeit Katharinas II,» in: Claus Scharf (herausgegeben), *Katharina II., Russland und Europa: Beiträge zur internationalen Forschung*, Veröffentlichungen des Instituts für Europäische Geschichte, Mainz. Beihefte; Bd. 45 (Mainz: Verlag P. von Zabern, 2001).

Malagola, C. *L'istituzione della rappresentanza diplomatica di Venezia alla corte di Pietroburgo e una relazione sulla marina russa sotto Caterina II*. Venezia, 1906.

*Malta and Russia: Journey Through the Centuries, Historical Discoveries in Russo-Maltese Relations*. Compiled and edited with introduction [sic] by Elizaveta Zolina. Valletta, 2002.

Maltezou, C. «Greci di Venezia al servizio della Russia nel Settecento,» in: *Море и берега. К 60-летию Сергея Павловича Карпова от коллег и учеников*, отв. ред. Р. М. Шукуров (М., 2009), pp. 167-173.

Manfroni, C. «La Campagna navale russo-turca (1770-1771).» *La Revisita Marittima* (Roma). Quarto trimester, vol. 4 (Dicembre 1913).

______. «Documenti veneziani sulla campagna dei Russi nel Mediterraneo 1770-71.» *Atti del Reale Instituto Veneto di Science, Lettere ed Arti*. t. LXXII, p. II (1912-1913).

Mariti, G. *Istoria Della Guerra Accesa Nella Soria L'anno 1771: Dalle Armi Di Aly-bey Dell'egitto: Dalle Armi Di Aly-Bey Dell'Egitto (1772)*. Firenze, 1772.

Maupeau. «Les Premiers Russes en Méditerranée (1770-1807) - les corsaires moscovites.» *Revue de Defénse nationale*. no. 3 (1947), pp. 509-522.

Monbrion. *Des résultats de la guerre actuelle entre la Russie et la Turquie, et de l'intervention de la France et de l'Angleterre dans les affaires d'Orient précédés d'une esquisse sur l'état de la Grèce et de la Turquie et les rapports de la Russie avec la Porte ottomane.., comprenant: l'acte d'indépendance adressé par Mahomet II aux Grecs du Peloponèse en 1454; la statistique politique de l'empire ottoman; le manifeste turc contre la Russie*. Paris, 1829.

Moracci, G. «Аббат Галиани и его русские корреспонденты,» in: Di Salvo, Maria & Lindsey Hughes (eds.), *A Window on Russia: Papers from the V International Conference of the Study Group on Eighteenth-Century Russia: Gargnano, 1994* (Roma: La Fenice, 1996), pp. 115-123.

Morelli, L. «Due donne del '700, in una ricerca della Provincia di Firenze,» in: A. Giordano, *Letterate toscane del Settecento: Un regesto* (Firenze, 1994).

Nagata, Y. «Greek Rebellion of 1770 in the Morea Peninsula. Some Remarks through the Turkish Historical Sources.» *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* (Japan). no. 46 (1988), pp. 85-99.

Navari, L. & S. Konstantinos. *Greek Civilization through the Eyes of Travellers and Scholars*. New Castle, DE: Oak Knoll Press; Goy-Houten, Netherlands: Hes & De Graaf Pub., 2004.

Nicolopoulos, J. «From Agathangelos to the Megale Idea: Russia and the Emergence of Modern Greek Nationalism.» *Balkan Studies*. vol. 26, no. 1 (1985), pp. 41-56.

Osborn, J. M. «Travel Literature and the Rise of Neo-Hellenism in England.» *Bulletin of the New York Public Library*. no. 67 (1963), pp. 279-300.

Ousterhout, R. «Loca Sancta and the Architectural Response to Pilgrimage,» in: R. Ousterhout (ed.), *The Blessings of Pilgrimage* (Urbana; Chicago, 1990).

Pappas, N. C. *Greeks in Russian Military Service in the Late Eighteenth and Early Nineteenth Centuries*. Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1991.

Penros, John. *Lives of Vice-Admiral Sir Charles Vinicombe Penrose, K. C. B., and Captain James Trevenen*. London, 1850.

Pera, F. *Nuove curiosità livornesi inedite o rare trovate e raccolte da Francesco Pera*. Firenze, 1899.

______. *Ricordi e biografi e livornesi*. Livorno, [1867].

Persen, W. «The Russian Occupations of Beirut, 1772-74.» *Journal of the Royal Central Asian Society*. vol. 42, nos. 3-4 (1955), pp. 275-286.

Popkin, J. *News and Politics in the Age of Revolution: Jean Luzac's Gazette de Leyde*. Ithaca: Cornell University Press, 1989.

Popoulidis, C. «Le Patriarche Oecumeniqie Serapheim II et les Russes.» *Balkan Studies*. vol. 17, no. 1 (1976), pp. 29-66.

Rafeq, Abdul-Karim. *The Province of Damascus, 1723-1783*. Beirut, 1966.

Ragsdale, H. «Evaluating the Traditions of Russian Aggression: Catherine II and the Greek Project.» *Slavonic and East European Review*. vol. 66, no. 1 (January 1988), pp. 91-117.

______. «Montmorin and Catherine's Greek Project.» *Cahiers du monde russe et soviétique*. vol. 27, no. 1 (Janvier-Mars 1986), pp. 27-44.

______. «Russian Projects of Conquest in the Eighteenth Century,» in: *Imperial Russian Foreign Policy*, Ed. and trans. Hugh Ragsdale & V. N. Ponomarev (Cambridge, 1993), pp. 75-102.

Rawson, E. *The Spartan Tradition in European Thought*. Oxford: Clarendon Press, 1969.

Rétat, P. «Les Gazetiers de Hollande et les puissances politiques: Une difficile collaboration.» *Dix-Huitième Siècle*. no. 25 (1993), pp. 319-335.

______. (dir.). *La Gazette d'Amsterdam: Miroir de l'Europe au XVIIIe siècle*. Oxford: Voltaire Foundation, 2001.

Rice, J. *Antonio Salieri and Viennese Opera*. Chicago, 1999.

Righini, B. *I periodici fiorentini (1596-1950) Catologo ragionato*. vol. 1. Firenze, 1955.

Risaliti, R. *Russi a Firenze e Toscana*. vol. 1. Firenze, 1992.

Roessel, D. *In Byron's Shadow: Modern Greece in the English and American Imagination*. Oxford; New York: Oxford University Press, 2002.

Ross, L. «Graf Pasch van Krienen uber sich selbst und seine Reisen,» in: *Graf Pasch van Krienen H. L. Abdruck seiner italienischen Beschreibung des griechischen Archipelagus mit Anmerkungen und einer Abhandlung uber den Verfasser und seine Auffi ndung des Grabes Homer's auf Ios aus dem Nachlasse von Ludwig Ross* (Halle, 1860).

Saul, N. E. *Russia and the Mediterranean, 1797-1807*. Chicago; London, 1970.

Schierle, I. «Patriotism and Emotions: Love of the Fatherland in Catherinian Russia.» *Ab Imperio*. no. 3 (2009).

Schur, N. «Ha-Kerekh ha-sheni shel sifro shel Giovanni Mariti `Al Milhamot Dahar El-`Amar Be-Shanim 1772-1774 (Hebrew].» *Cathedra: For the History of Eretz Israel and Its Yishuv*. vol. 78 (December 1995), pp. 43-48.

Seneca, F. «Francesco Lorenzo Morosini e un fallito progetto di accord Veneto-russo.» *Archivio Veneto*. no. 106 (1963).

Stavrou, T. & P. Weisensel. *Russian Travelers to the Christian East from the Twelfth to the Twentieth Century*. Columbus (Ohio): Slavica publ., 1985.

Stroev, A. & I. Mihaila, *Ériger une république souveraine, libre et indépendante: Mémoires de Charles-Léopold Andreu de Bilistein sur la Moldavie et la Valachie au XVIIIe siècle*. Bucarest: Editure Roza Vânturilor, 2001.

Tanucci, B. *Lettere a Ferdinando Galiani*. vol. 2. Bari, 1914.

Thomson, G. S. *Catherine the Great and the Expansion of Russia*. Westport, 1947.

Timpanaro Morelli, M. A. *Autori, stampatori, librai: Per una storia dell'editoria in Firenze nel secolo XVIII*. Firenze, [1969].

Toth, F. *La Guerre russo-turque, 1768-1774, et la défense des Dardanelles - l'extraordinaire mission du baron de Tott*. Paris, 2008.

Trofimova, Anna. «Classical antiquities,» in: *Stroganoff: The Palace and Collection of a Russian Noble Family*, Penelope Hunter-Stiebel, general editor; introduction by John E. Buchanan (New York; London: Harry N. Abrams, 2000).

Venturi, F. *Il Settecento Riformatore, vol. 3: La prima crisi dell'Antico regime (1768-1776)*. Torino, 1979.

______. «Qui est le traducteur de l'essai sur la littérature russe?.» *Revue des études slaves*. t. 38 (1961), pp. 217-221.

Villani, S. «Ambasciatori russi a Livorno e rapporti tra Moscovia e Toscana nel XVII secolo.» *Nuovi Studi Livornesi*. vol. 15 (2008), pp. 37-96.

Vivoli, G. *Guida di Livorno antico e moderno e dei luoghi più notabili dei suoi contorni.* Livorno, 1997.

Vlami, D. «Commerce and Identity in the Greek Communities. Livorno in the Eighteenth and Nineteenth Centuries.» *Diogenes*. vol. 177 (1997), pp. 73-92.

Wandruszka, A. *Pietro Leopoldo: Un grande riformatore.* Firenze, 1968.

Βακαλόπουλος, Α. «Αι εν έτει 1770 ναυμαχίαι μεταξύ ρωσικού και τουρκικού στόλου εις την λαϊκήν μας ποίησιν.» *Ελληνικά*. no. 11 (1939), σελ. 109-114.

Γριτσόπουλος, Τ. Α. *Τα Ορλωφικά. Η εν Πελοποννήσω επανά- στασις του 1770 και τα επακόλουθα αυτής.* Αθήναι 1967.

Δημητρόπουλος, Δ. Μαρτυρίες για τον πληθυσμό των νησιών του Αιγαίου, 15ος-αρχές 19ου αιώνα. Τετράδια εργασίας 27. Αθήνα, 2004.

Καρπάθιος, Ε. Ι. *Η λατινική προπαγάνδα και αι Κυκλάδες κατά τον ΙΗ' αιώνα: (εκθέσεις προς το Συνέδριον της Προπαγάνδας Πίστεως).* Αθήνα, 1936.

Κοντογιάννης, Π. Ν. *Οι Έλληνες κατά τον πρώτον επί Αικατερίνης Β' Ρωσοτουρκικόν πόλεμον 1768-1774.* Αθήνα, 1903.

Κουγέας, Σ. «Συμβολαί εις την ιστορίαν της υπό τους Ορλώφ Πελλοποννησιακής Επαναστάσεως (1770).» *Πελοποννησιακα*. no. 1 (1956), σελ. 50-107.

Κώνστα, Π. *Η Ρωσία ως Ναυτική Δύναμις (860-1960 μ. Χ.).* Αθήνα, 1964.

Μαλανδράκης, Μ. «Νησιωτικά χρόνικα.» *Ελληνικά*. no. 9 (1936), Σελ. 69-116

Μπελιβανάκης, Γρ. *Ιστορία της Μήλου Συγκροτημένη από τις ιστορικές επιφυλλίδες της εφημερίδας «Μήλος» μιας 25ετίας 1976-2001.* Αθήνα, 2001.

Πασχάλη, Δ. «Αι Κυκλάδες υπό τους Ρώσους (1770-1774). Μετ᾽ανέκδοτων έγγραφων.» *Επετηρίς Εταιρείας Κυκλαδικών Μελετών*. no. 1 (1961), Σελ. 234-292

Πρωτοψάλτης, Ε. Γ. *Η Επαναστατική Κίνησις των Ελλήνων κατά τον Δεύτερον επί Αικατερίνης Β' Ρωσοτουρκικόν Πόλεμον (1787-1792).* Αθήνα, 1959.

Ροτζώκος, Ν. *Εθναφύπνιση και εθνογένεση: Ορλωφικά και ελληνική ιστοριογραφία.* Αθήνα, 2007.

Σάθας, Κ. *Τουρκοκρατούμενη Ελλάς, 1453-1821.* Αθήναι, 1869.

Σακελλαρίου, Μ. Β. *Η Πελοπόννησος κατά την δευ- τέραν Τουρκοκρατίαν, 1715-1821.* Αθήνα, 1939.

Σιμόπουλος, Κ. *Ξένοι Ταξιδιώτες στην Ελλάδα', Τ. 2 (1700-1800).* Αθήνα, 1999.

Σιγάλα, Α. «Επιστολή Παύλου Νεστερώφ πρός τούς κατοίκούς της Σύρου.» Ελληνικά. no. 1 (1928), σελ. 138-143.

Στέφανος, Κ. *Ανέκδοτα έγγραφα αποσταλέντα προς τους κατοίκους των Κυκλάδων κατα την υπο των Ρώσων κατοχήν.* Ἀθήνησιν, 1878.

## 3 – إصدارات ذات طابع معلوماتي СПРАВОЧНЫЕ ИЗДАНИЯ

*Атлас Архипелага и рукописные карты Первой Архипелагской экспедиции русского флота 1769-1774 гг.* М.: Индрик, 1997.

أطلس الأرخبيل ومخطوطات خرائط حملة الأسطول الروسي الأولى في الأرخبيل في أعوام 1769–1774. موسكو: إندريك، 1997.

Бантыш-Каменский, Д. Н. *Словарь достопамятных людей Русской земли.* Т. 4. М., 1836.

بانتيش – كامينسكي، د. ن. قاموس الشخصيّات المرموقة في روسيا. مج 4. موسكو، 1836.

*Екатерина II. Аннотированная библиография публикаций.* Сост. И. В. Бабич, М. В. Бабич & Т. А. Лаптева. М., 2004.

كاترينا الثانية. بيبلوغرافيا تتضمن عرضًا مختصرًا للإصدارات. إعداد إ. ف. بابيتش، م. ب. بابيتش وت. أ. لابتيفا. موسكو، 2004.

*История дореволюционной России в дневниках и воспоминаниях. Аннотированный указатель книг и публикаций в журналах.* Т. 1. М., 1976.

تاريخ روسيا ما قبل الثورة في مدونات ومذكرات. دليل يتضمن عرضًا مختصرًا للكتب والمنشورات في المجلات. مج 1. موسكو، 1976.

Кузнецов, А. Л. *Ордена и медали России.* М., 1985.

كوزنيتسوف، أ. ل. الأوسمة والميداليات في روسيا. موسكو، 1985.

Лобанов-Ростовский, А. Б. *Русская родословная книга.* СПб., 1873-1875.

لوبانوف – روستوفسكي، أ. ب. كتاب الأنساب الروسي. سان بطرسبورغ، 1873–1875.

Лурье, В. М. *Морской биографический словарь. Деятели Российского флота XVIII века.* СПб.: Информационный центр «Выбор», 2005.

لوريه، ف. م. القاموس البيوغرافي البحري. شخصيات الأسطول البحري في القرن الثامن عشر. سان بطرسبورغ: المركز الإعلامي «الخيار»، 2005.

*Общий морской список царствования Екатерины II.* СПб., 1890.

القائمة البحرية العامة في عهد كاترينا الثانية. سان بطرسبورغ، 1890.
*Полный православный богословский энциклопедический словарь.* В 2-х тт. Репринт. изд. М., 1992.

القاموس الموسوعي الأرثوذكسي الكامل. 2 مج. طبعة مستنسخة. موسكو، 1992.

*Сводный каталог русской книги гражданской печати XVIII в. 1725-1800. В 5-ти тт.* М., 1962-1975.

كاتالوغ عام للكتاب الروسي في المطبوعات المدنية في القرن الثامن عشر، الأعوام 1725-1800. 5 مج. موسكو، 1962-1975.
*Словарь книжников и книжности Древней Руси.* СПб., 1987-1998.

قاموس الكتاب والمكتبات في روسيا القديمة. سان بطرسبورغ، 1987-1998.

*Список военному департаменту и находящимся в штате при войске в полках гвардии, в артиллерии и при других должностях генералитету и штаб-офицерам.* СПб., 1784.

قائمة بأسماء الجنرالات وضباط الأركان في ملاكات القوات في الأفواج وقوات الحرس والمدفعية والوظائف الأخرى، لدى الدائرة العسكرية. سان بطرسبورغ، 1784.

Холл, Дж. *Словарь сюжетов и символов в искусстве*. Пер. с англ. А. Майкопара. М., 1996.

هول، ج. قاموس الموضوعات والرموز في الفن. ترجمه عن الإنكليزية أ. مايكوبار. موسكو، 1996.
*Христианство. Энциклопедический словарь.* Т. I-II. М., 1993.

المسيحية. قاموس موسوعي. مج 1-2. موسكو، 1993.
Чернышев, А. А. *Российский парусный флот: Справочник в 2-х томах.* М., 2002.

تشيرنيشوف، أ. أ. الأسطول الشراعي الروسي: دليل في مجلدين. موسكو، 2002.

Blondy, A. *Bibliographie du monde méditerranéen: Relations et échanges: de la chute de Constantinople (1453) à la reconquête ottomane de Tripoli (1835).* Paris, 2003.

Sgard, J. (dir.). *Dictionnaire de journeaux, 1600-1789.* 2 vols. Paris, 1991.

______ (dir.). *Dictionnaire des Journalistes* (1600-1789). 2 vols. Oxford, 1999.

# فهرس عام

-غ-



-ف-

## هذا الكتاب



شكّلت الاندفاعة الروسية نحو منطقة الشرق الأوسط في الأعوام الأخيرة حافزًا لتقصّي دوافعها وأهدافها والسعي إلى فهم خلفيّاتها، حيث إن فهم الدور الروسي الراهن يتطلب العودة إلى تاريخ السياسة الروسية التي كان توجّهها نحو الجنوب بغية الوصول إلى المياه الدافئة، هاجسًا أبديًا؛ الأمر الذي حرّك صنّاع القرار في الإمبراطوريّة، منذ عهد بطرس الأكبر، مرورًا بكاترينا الثانية وورثتها، وخلال الحقبة السوفياتية، وصولاً إلى القيادة الحاليّة. فعلى الرغم من أن الأحداث التي يتناولها الكتاب تعود إلى 250 عامًا مضت، إلا أنها تتّسم بأهمية كبيرة، حيث تكشف عن جوانب جديدة في تاريخ المنطقة ونُظم الحكم فيها وتحالفاتها وصراعاتها.

يُضيء الكتاب أيضًا على العلاقات والصراعات بين الدول الكبرى من أجل الاستحواذ على مناطق نفوذ في مناطق السلطنة العثمانيّة ووراثة "الرجل المريض". ويكشف عن جوانب ظلّت غائبة ردحًا طويلًا من الزمن في ما يعني الوجود الروسي السياسي والعسكري في المنطقة، وعن علاقات أنشئت مع قوىً فاعلة في سورية وفلسطين ومصر، وفي شمال أفريقيا إلى حدٍّ ما، حيث اضطلع العسكريون الروس بدورٍ فاعل فيها، إلى جانب دورهم الدبلوماسي.

## المؤلفون

**إيرينا ميخايلوفنا سميليانسكايا**، حائزة الدكتوراه في علوم التاريخ. مؤرخة ومستعربة روسية بارزة. من مؤلفاتها التي تُرجمت إلى العربية: **الحركات الفلاحيّة في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر** (1988)؛ **البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث** (1989).

**ميخائيل برونيسلافيتش فيليجيف**، حائز الدكتوراه في علوم التاريخ. من أبرز مؤلفاته: **الحملات الصليبيّة - حدث التاريخ الروسي الرئيسي؟** (2012)؛ **مفهوم «الطريق الخاص»: من الأيديولوجيا إلى الوسيلة** (2017).

**يلينا بوريسوفنا سميليانسكايا**، حائزة الدكتوراه في علوم التاريخ. من مؤلفاتها: **سحرة، كفار، هراطقة: التدين الشعبي والجرائم الروحية في روسيا القرن الثامن عشر** (2003)؛ **الدين والكنيسة في عصر التنوير**.

## المترجمان

**محمد موسى دياب**، أستاذ جامعي. حائز الدكتوراه في العلوم الاقتصادية. باحث في الشؤون الاقتصادية والجيوسياسية. من ترجماته عن الروسية: **الحرب الوطنية التحررية في سورية، 1925-1927** (1987)؛ **تطور الرأسمالية في البلدان العربية** (1988).

**جمال كمال القرى**، حائزة شهادة في الطب من جامعة الصداقة بين الشعوب في موسكو، وشهادة في الترجمة من الروسية إلى العربية من كلية اللغات الأجنبية في الجامعة نفسها في عام 2019. مهتمّة بالشأن الروسي وبالترجمة من الروسية إلى العربية.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

**السعر:** 38 دولارًا

ISBN 978-614-445-403-9

9 786144 454039



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies